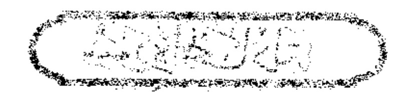

سورة المجادلة



سورة المجادلة(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝١ ﴾

نزلت هذه الآية في خولة بنت ثعلبة(٢) لما ظاهر(٣) منها زوجها أوس بن الصامت(٤) أخو عبادة بن الصامت ، والقصة أن قيساً رآها تصلي فأعجبته ، فلما قضتْ صلاتها دعاها ليقضي حاجته منها

---

(١) سورة المجادلة هي السورة رقم (٥٨) في ترتيب المصحف الشريف ، وهي سورة مدنية . أخرجه ابن الضريس والنحاس وأبو الشيخ في العظمة والبيهقي عن ابن عباس . وقال البيضاوي في تفسيره قيل : العشر الأول مكي والباقي مدني . عدد آياتها (٢٢) آية .

(٢) خولة بنت ثعلبة : ويقال خويلة . وقيل : خولة بنت حكيم . وقيل : خولة بنت ثعلبة . كانت زوجة أوس بن الصامت أخي عبادة بن الصامت ، وهي أنصارية .

(٣) ظاهر الرجل امرأته وهو أن يقول الرجل لامرأته : أنت عليَّ كظهر أمي ، وكانت العرب تطلق نساءها في الجاهلية بهذه الكلمة ، وكان الظهار في الجاهلية طلاقاً فلما جاء الإسلام نُهوا عنه وأوجب الكفارة على من ظاهر من امرأته ، وهو الظهار . [لسان العرب - مادة : ظهر] .

(٤) أوس بن الصامت بن قيس الأنصاري ، شهد بدراً وأحداً وسائر المشاهد مع رسول الله ﷺ وبقي إلى زمن عثمان بن عفان وهو الذي ظاهر من امرأته فوطئها قبل أن يكفر فأمره رسول الله ﷺ أن يكفر بخمسة عشر صاعاً من شعير على ستين مسكيناً [الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، لابن عبد البر (١ / ٣٧)] .

فامتنعتْ لكى تختم صلاتها ، فقال لها : أنت علىَّ كظهر أمى .

وكانت هذه الكلمة عند العرب أشنع من كلمة الطلاق ، لأنه شبَّه زوجته بأمه ، وأمه محرَّمة عليه ، فلما قال قيسٌ هذه الكلمة قالت خولة : والله لا تقربنى حتى أعرض الأمر على رسول الله ، فذهبتْ إلى رسول الله وقالت : يا رسول الله إن قيساً ظاهر منى . يعنى قال لها : أنتِ علىَّ كظهر أمى وقد أخذنى وأنا جميلة والآن قد كبر سنى ولى منه أولاد إنْ ضممتهم إلىَّ جاعوا ، وإنْ ضممتهم إليه ضاعوا .

وهذا هو المراد بقوله تعالى :﴿ تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ..(١)﴾ [المجادلة] فكان رسول الله ﷺ كلما قالت شيئاً من ذلك يقول لها : لا أرى إلا أنكِ قد حَرُمتِ عليه .

هى تشتكى لرسول الله وتعرض أمرها ليحنّ لحالها وهو عليه الصلاة والسلام لا يملك إلا أنْ يقول لها : لا أرى إلا أنكِ قد حَرُمتِ عليه(1) وينتظر حكم السماء فى هذه الواقعة التى لم يسبق لها مثيل فى مجتمع المسلمين .

وبالفعل كانت خولة تحت نظر الله وسمعه ، وما إن إنتهت من

---

(١) أخرجه الطبرى فى تفسيره للآية من مرسل محمد بن كعب القرظى وفيه قال لها النبى ﷺ : « ما أراك إلا قد حرمت عليه . قالت : لا تقل ذلك يا نبى الله ، والله ما ذكر طلاقاً ، فرادت النبى ﷺ مراراً ، ثم قالت : اللهم إنى أشكو اليوم شدة حالى ووحدتى ، وما يشق علىَّ من فراقه ، اللهم فأنزل على لسان نبيك ، فلم ترم مكانها (تبرحه) حتى أنزل الله ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ .. (١)﴾ [المجادلة] إلى أن ذكر الكفارات فدعاه النبى ﷺ فقال : أعتق رقبة ، فقال : لا أجد . فقال : صم شهرين متتابعين . قال : لا أستطيع إنى لأصوم اليوم الواحد فيشق علىَّ . قال : أطعم ستين مسكيناً ، أما هذا فنعم .

عرض شكايـتها على رســول الله حتى نزل عليـه جبريـل بهذه الآيات التى تحـمل حكم الظّهار ، وتحــمل الرحمــة لا لخولة وحدهــا ، وإنما للمسلمين جميعاً : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١) ﴾ [المجادلة]

وسُميت السورة كلها باسم المـجادلة وهى خولة تكريماً لها ورداً لاعتبارها ، نزلت السورة لتحرِّم هذا القول وتشنّعه وتبين أنه قوْلٌ لا يليق ولا يصح .

فالأم التى ولدتْك ولها فضل كبير عليك لا يصح أنْ تشبه زوجتك بها لأن الظهر هنا بمعنى العلو ، والرجل لا يعلو أمــه لأنها محرَّمة عليه ، ومن الشناعة أنْ يُذكر ذلك فى حَقِّ أمه .

قوله تعــالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ..(١) ﴾ [المجادلة] سُبق بـ(قد) التى تـدل على التحقيـق والتأكيـد . وكلمـــة (قول) دلتْ على أنه ســمع على الـحقـيقـة ، وليس المراد بـالسمع هنا الإجابة ، كمــا نقول فى تعاملاتنا الـيومية : فلان ســمع كلامك يعنى أجاب طلبك .

ونحن ينبغى أنْ نتأدب مع صــفات الله التى تشبه صفــات البشر، وأنْ نأخـــذها فــى إطــار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) ﴾ [الشورى] . وكيف نطمع فى مـعرفة كنْه السمع والبـصر لله تعالى ، ونحن لا نعرف كُنْه مداركنا نحن ؟

أنت مثلاً فى حال اليقظة تسـمع بالأذن وتبصر بالعين ، لكن فى حال النوم كيف ترى وكيف تسـمع ، إنك تنام وترى أشخاصاً وترى

ألواناً وتميز بين الأحمر والأخضر وتسمع أصواتاً ، فبأىّ الحواس تدرك ذلك ؟

إذن : لك مدارك غيب عنك لا تعرفها ، فكيف بالغيب المطلق الذى يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار ؟

لذلك رُوِى عن السيدة عائشة أن سيدنا رسول الله كان عندها لما جاءته المجادلة ، وأنها كانت تُسرُّ إلى رسول الله قولها ، حتى أن السيدة عائشة لا تكاد تسمع شيئاً من قولها وهى قريبة منها ، ومع ذلك سمع الله قولها من فوق سبع سموات[1] .

وقوله تعالى : ﴿ تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا .. ① ﴾ [المجادلة] من الجدال وهو الأخذ والردّ ، فهى تقول ورسول الله يردّ عليها ، إذن : هى تجادل رسول الله ، ورسول الله يجادلها فيما حدث .

أما الشكوى فلله ﴿ وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ .. ① ﴾ [المجادلة] لأن الله تعالى هو الذى يفرج عنها وينزل فيها حكماً يُرضيها ، ويرحم ضعفها ، ويرحم معها ضعفَ جميع المؤمنات ، فمَنْ أراد مفارقة زوجته فللمفارقة سبيلها وهو الطلاق ، أما الظهار فأمْرٌ لا يليق بجماعة المؤمنين .

﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ① ﴾ [المجادلة] فهو سبحانه سميع بصير

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه عن عائشة رضى الله عنها والنسائى فى سننه (٣٤٠٦) وابن ماجه (١٨٤) ، وأحمد فى مسنده (٢٣٠٦٤) أن عائشة قالت : « الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة إلى النبى ﷺ تكلمه وأنا فى ناحية البيت ما أسمع ما تقول فأنزل الله ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا .. ① ﴾ [المجادلة]

أزلاً ، أى قبل أن يخلق الخلق الذين سينشأ منهم ما يُبصَر وينشأ منهم ما يُسْمع .

فالحق سبحانه سميع لما يُقال ، بصير بما يُفعل ، فالسمع يتعلق بالأصوات ، والبصر يتعلق بالأفعال ، فهو سبحانه سميع بصير لا يخفى عليه شىء .

﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ ﴾

السياق القرآنى هنا يُوجِّه الحديث لهؤلاء الذين يقعون فى هذا القول المحرَّم وهذا التشبيه الآثم ، يقول لهم : احذروا هذا القول وفرِّقوا بين الأم والزوجة ، الأم هى الأم التى ولدتْ ، فالزوجة لا تكون أماً أبداً ولا يليق أنْ نُسميها أماً .

فضعوا الأمور فى نصابها ، الأم أم والزوجة زوجة ، ولكلٍّ منهما حدود ، ثم يُبيِّن لهم أن هذا القول (أنت علىَّ كظهر أمى) قول منكر ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا .. ﴿٢﴾ ﴾ [المجادلة]

المنكر هو القول الذى ينكره العقل وينكره الذوق السليم ، والزور هو الكذب والباطل ، فمن المنكر ومن الكذب أنْ تشبه الزوجة بالأم أو الأم بالزوجة ، يريد سبحانه أنْ يلغى هذا القول من ألسنة المسلمين ، كما ألغى

عملية التبنى فى قصة سيدنا زيد بن حارثة[1] التى تعرفونها .

وتختتم الآية بقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٢) ﴾ [المجادلة] أى : لما سلف منكم وما سبق من تجاوزاتكم .

وبعد ذلك يحدثنا سبحانه عن حكم الظهار فيقول :

﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤) ﴾

معنى ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا .. (٣) ﴾ [المجادلة] يعنى : يعدلون عن كلمة الظهار ويتنازلون عنها ويريدون مراجعة الزوجة كما يراجع الزوجُ زوجته فى الطلاق ، هؤلاء عقوبتهم ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ .. (٣) ﴾ [المجادلة] عتق رقبة مملوك ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا .. (٣) ﴾ [المجادلة] التماسّ هنا كناية عن المعاشرة الزوجية أو الجماع .

---

(١) زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبى ، صحابى ، اختطف فى الجاهلية صغيراً واشترته خديجة بنت خويلد فوهبته إلى النبى ﷺ حين تزوجها فتبناه النبى - قبل الإسلام وأعتقه وزوّجه بنت عمته ، وكان النبى ﷺ لا يبعثه فى سرية إلا أمّره عليها وكان يحبه ويقدمه وجعل له الإمارة فى غزوة مؤتة فاستشهد فيها . توفى ٨ هجرية . [الأعلام للزركلى ٣ / ٥٧] وقد ذكره الله باسمه فى القرآن ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا .. (٣٧) ﴾ [الأحزاب] .

﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ .. ④ ﴾ [المجادلة] أى : لم يجد رقبة يعتقها ﴿ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ .. ④ ﴾ [المجادلة] التتابع أى التوالى دون فاصل يفصل الصيام ، إلا إذا أفطر لعذر شرعى فلا يعد فاصلاً[1] .

﴿ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ .. ④ ﴾ [المجادلة] أى : الصيام المتتابع ﴿ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا .. ④ ﴾ [المجادلة] إذن : يحاول أنْ يُصعِّب العقوبة لتكون رادعة ليقتلع جذور هذه العادة السيئة من ألسنة الناس .

﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ .. ④ ﴾ [المجادلة] وحدود الله أوامره ونواهيه ، قال فى الأوامر : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا .. ٢٢٩ ﴾ [البقرة] وقال فى النواهى ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا .. ١٨٧ ﴾ [البقرة]

والحد هو الفاصل بين شيئين ، وحدود الله هى التى تفصل بين الحلال والحرام ، ومنه قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. ⑤ ﴾ [المجادلة] أى : يجعلون هواهم فى جانب وأوامر الله فى جانب آخر .

إذن : سمع الله قولَ المجادلة وأجابها بأنْ أنزل فى شأنها قرآناً يُتلَى إلى يوم القيامة ، وجعل للظهار حكماً لازماً وكفارة رادعة ، إذن : ليس مجرد سماع ، ونحن نقول عندما نرفع من الركوع : سمع الله لمن حمده ، أى : سمع وأجاب ، لأنه تعالى قال : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ .. ⑦ ﴾ [إبراهيم]

(١) قال الشوكانى فى فتح القدير « فعليه صيام شهرين متتابعين متواليين لا يفطر فيهما ، فإن أفطر استأنف (أى بدأه من البداية) إن كان الإفطار لغير عذر ، وإن كان لعذر من سفر أو مرض فقال سعيد بن المسيب والحسن وعطاء بن أبى رباح وعمرو بن دينار والشعبى والشافعى ومالك : إنه يبنى (أى يكمل عدة الستين يوماً) ولا يستأنف . وقال أبو حنيفة : إنه يستأنف ، وهو مروى عن الشافعى » .

وعجيب أنْ يختلف العلماء على شخصية المرأة المجادلة لرسول الله من هى على أربعة أقوال[1] لأنه لا فائدة من تحديد شخصها ومعرفة اسمها لأن تحديد الشخصية يعنى تقييد الحكم بها ، والله يريده حكماً عاماً .

والقاعدة الفقهية أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فلو كان الحكم خاصاً بخَوْلة لاقتصر عليها ، إنما هو حكم عام لجميع المسلمين ، فهو إذن عطاء عام لا يهم فيه المرأة التى نزل الحكم بشأنها ، فهى مجرد سبب للنزول .

وهذه المسألة رأيناها مثلاً فى فتية أهل الكهف ، فلم يحدد لهم زماناً ولا مكاناً ولا أسماء ، إنما أشاعهم ليشيع فائدتهم فى الوجود كله زماناً ومكاناً ، ولو حدَّد لنا أشخاصهم لَقُلْنا أنه أمر خاص بهم دون غيرهم ، إنما أرادهم مطلق فتية ليكونوا قدوة لكل فتية آمنوا بربهم .

فالقصة بهذه الصورة تعطى خصوبة ، وتصبح ككلمة طيبة تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها .

فإن احتاج الأمر إلى تحديد الشخصية فلا بدّ أنْ يحددها ويذكرها بالاسم كما فى قصة السيدة مريم فقال : ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ ..

(١) ذكر هذه الأقوال الأربعة ابن الجوزى فى زاد المسير (الأحزاب ١)
أحدها : خولة بنت ثعلبة . رواه مجاهد عن ابن عباس وبه قال عكرمة وقتادة والقرظى .
والثانى : خولة بنت خويلد . رواه عكرمة عن ابن عباس .
والثالث : خولة بنت الصامت . رواه العوفى عن ابن عباس .
والرابع : خولة بنت الدليج . قاله أبو العالية .

﴿١٢﴾ [التحريم] فذكر اسمها واسم أبيها ليزيل أيَّ لبس أو جهالة ، ذلك لأن لها حكماً خاصاً بها لن يتكرر فى غيرها فى العالم . إذن : فالتشخيص مهم هنا لأنه يقيد الحكم بها وحدها .

وكان الظهار فى الجاهلية يمثل أشدَّ أنواع الفرقة بين الرجل وامرأته حين يقول لها : أنت علىَّ كظهر أمى ، لأن الأم هى أول المحرَّمات من النساء ، قال تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [النساء] فليس أشنع من أنْ تلد الأم ثم تكون موطئاً لولدها .

ومن هنا طُلب التباعد فى المصاهرة ، وقد رأينا هذا التباعد منذ النشأة الأولى للإنسان ، إذ كيف يكون التباعد فى أولاد آدم ؟ قالوا : كان من حكمة الله تعالى أنْ تلد حواء فى كل بطن ذكراً وأنثى ، فكانوا يُزوجون ذكر هذه البطن لأنثى البطن الأخرى ، فأوجدوا إذن نوعاً من التباعد لم يكُن متاحاً غيره آنذاك .

وقد أوصى سيدنا رسول الله بهذا التباعد فقال : « اغتربوا لا تضووا »[1] أى : تباعدوا فى الزواج حتى لا يصيب الذرية ضعف ووهن وهزال ، وقد أثبت العلم ذلك وأثبت أن زواج الأقارب يصيب الأبناء ببعض الأمراض .

لذلك رأينا كثيراً من الأبطال ممن جاءوا من عرب وعجم لأنهم

---

(١) روى إبراهيم الحربى فى غريب الحديث أن عمر قال لآل السائب : « اغتربوا لا تضووا » أى تزوجوا الغرائب لئلا تجىء أولادكم نحافاً ضعافاً . قاله الشيخ سيد سابق فى فقه السنة (٢ / ٨٦) وذكره أبو هلال العسكرى فى جمهرة الأمثال (١ / ١٦) قال : « مما رغَّب العرب فى التسرى أن أولاد القرائب عندهم ضاويون أى نحاف مهزولون » .

أخذوا خصائص الجنسين ، وقد عبَّر الشعراء عن هذه الحقيقة ، فقال أحدهم[1] في المدح :

فَتَىً لم تَلِدْهُ بِنْتُ عَمٍّ قريبة فَيضْوَى وقَدْ يَضْوى سَلِيلُ الأقَارِبِ[2]

وقال الآخر :

تجَاوزْتُ بِنْتَ العَمِّ وَهْيَ حَبِيبَةٌ مَخَافَةَ أنْ يَضْوى عَلىَّ سَلِيلُها

إذن : لا تقُلْ للزوجة أنتِ علىَّ كظهر أمي ، لأن الله تعالى ينزه الأم أنْ تكون موطئاً لك ، وهي أبعد ما يكون عن هذا ، لذلك اعتبرت العرب هذه الكلمة أشدَّ من الطلاق .

ولا بد أنْ نقف عند قوله تعالى في كفارة الظهار ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ..(٣)﴾ [المجادلة]

قالوا : ونحن الآن لم يعد عندنا رِقّ لأن القانون الآن يُلغي الرق ، وهذا كلام مدني سياسي ، إنما إنْ وقعت حرب فمن الممكن أنْ نجد أسرى ويوجد الرق .

إذن : فَرْق بين أمر شرعي وأمر مدني اتفقوا عليه .

---

(١) هو النابغة الذبياني وهو زياد بن معاوية أبو أمامة شاعر جاهلي من الطبقة الأولى من أهل الحجاز ، كانت تُضرب له قبة من جلد أحمر بسوق عكاظ فيقصده الشعراء ، كان حظياً عند النعمان بن المنذر عاش عمراً طويلاً ، توفي عام ١٨ قبل الهجرة .

(٢) أوردته الموسوعة الشعرية ولكن بلفظ آخر :

فتى لم تلده بنت أم قريبة فيضوى وقد يضوى رديد الأقارب

وعزته الموسوعة للنابغة الذبياني في قصيدة من بحر الطويل عدد أبياتها بيتان . وأورده أبو حيان التوحيدي في الإمتاع والمؤانسة (بنت عم) وكذا الجاحظ في (البرصان والعرجان) والميداني في (مجمع الأمثال) .

وفى السعودية أراد الملك فيصل[1] أنْ يقضى على فلول الرق فاشترى العبيد وأعتقهم ، وكانت المفارقة أن العبيد عادوا يطرقون باب سادتهم يريدون العودة إلى حياة الرق[2] .

ذلك لأن العبد كان يأكل من أكل سيده ، والأَمَة تلبس مثل سيدتها ، والرجل يمكن أنْ يتخذها فراشاً له .

والحكمة من تحرير الرقاب أن العبد كان مُقيداً مهدداً بالقتل لأنه اشترك فى حرب ضد المسلمين وأُسِر ، وكان من الممكن أنْ يُقتل فرحمة الله تداركته ، رحمة الله بالإنسانية كلها حتى لو كانت كافرة ، فقال لك لا تقتله لأنه سيكون لك وتنتفع به .

فكأن الله تعالى حمى حياة الكافر بأنْ جعله عبداً ، إذن : لا تقارن بين رق وحرية ، إنما قارن بين رِقّ وقتل ، فالرقّ أرحم لأنه يحمى دم الكافر ، فالخالق سبحانه يحمى حياة عبده التى وهبها له ، ثم بعد ذلك يفتح المنافذ التى يُصفّى بها الرق ويقضى عليه .

وقد جاء الإسلام والرق نظام موجود فى المجتمع ، فكان الرجل يشترى الأرض بمن عليها من العبيد ، وكان للرق آنذاك أكثر من

---

(١) هو الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود ، ولد بالرياض ١٩٠٦ م ، وهو الابن الثالث من أبناء الملك عبد العزيز آل سعود الذكور ، أمه هى طرفة بنت عبد الله آل الشيخ من ذرية الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، حكم السعودية فى الفترة من ١٩٦٤م إلى ١٩٧٥م (١٢ سنة) . قُتل عام ١٩٧٥ على يد ابن أخيه فيصل بن مساعد .

(٢) تم إلغاء الرق نهائياً بمرسوم وزارى عام ١٩٦٢م ببيان ألقاه يومها رئيس مجلس الوزراء السعودى الأمير فيصل بن عبد العزيز آنذاك وفيه « تجد الحكومة الآن الفرصة مواتية لأن تعلن إلغاء الرق مطلقاً وتحرير جميع الأرقاء وستقوم الحكومة بتعويض من يثبت استحقاقه للتعويض » [صحيفة أم القرى العدد ١٩٤٤ السنة الأربعون ٩ نوفمبر ١٩٦٢] .

عشرين مصدراً ، فلما جاء الإسلام ضيَّق هذه المصادر حتى صار للرق مصدر واحد ، هو أنْ يُؤخذ أسيراً فى حرب شرعية .

وبعد أنْ ضيَّق منابع الرق وسَّع مصارفه ليقضى عليه تماماً ، إذن فالإسلام لم يأتِ بالرقِّ إنما أتى بالعتق ، وانظر إلى الكفارات التى فرض الله فيها عتق الرقاب ، والرقاب عامة سواء أكانت مؤمنة أم غير مؤمنة .

لذلك حينما نستقرئ القرآن لا تجد إلا آية واحدة مشروط فيها تحرير رقبة مؤمنة ، فى قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ ..(٩٢)﴾ [النساء]

أما فى آية اليمين وكفارته فيقول سبحانه : ﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ..(٨٩)﴾ [المائدة] ولم يقل مؤمنة .

لذلك علق أبو حنيفة على هذا وقال : قيدها هناك بشرط الإيمان وأطلقها هنا ، فدلّ على أنها تكون حتى للكافر ، فالإسلام فى كثير من المسائل لا يفرق بين المؤمن والكافر ، وأنه دين عام هدفه إصلاح الدنيا كلها .

وتذكرون قصة الدرع الذى سرقه طعمة بن أبيرق[1] وخبأه عند زيد بن السّمين اليهودى فاتهموا اليهودى بالسرقة وأرادوا تبرئة

(١) هو : طعمة بن أبيرق بن عمرو الأنصارى ، شهد المشاهد كلها إلا بدراً .

المسلم . وحاولوا إقناع رسول الله بهذا حتى مال إلى هذا الرأى حتى لا يُتهم مسلم بالسرقة ويُفتضح أمره[1] .

لكن الوحى تدارك الأمر ونزل يقول لرسول الله : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ .. (١٠٥)﴾ [النساء] ولم يفرق بين مؤمن وكافر ﴿بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيماً (١٠٥)﴾ [النساء] أى : لا تدافع عن الخائن حتى إنْ كان مسلماً ، لأن العدالة الإلهية لا تفرق بين العباد .

لذلك لما بُرِّئ اليهودى وأُدين المسلم دون محاباة ودون مجاملة تسابق الناسُ إلى الدخول فى الإسلام ، وهذا من عظمة هذا الدين أنه لا يحمى الباطل ولا يتستر على الفساد إنْ جاء من ناحية أتباعه .

تلاحظ فى كفارة الظهار الترتيب بين عتق الرقبة ، ثم الصيام ، ثم الإطعام ليأخذ كُلٌّ ما يناسبه ، وأيضاً ليكون أمام الفقهاء فسحة لجعل هذه الكفارة رادعة ، لذلك رُوِى عن منذر بن سعيد[2] أحد فقهاء

---

(١) وذلك أن طعمة بن أبيرق سرق درعاً لعبادة بن النعمان وكان الدرع فى جراب فيه دقيق فجعل الدقيق ينتشر من خرق فى الجراب ، ثم خبأها عند رجل من اليهود فالتمست الدرع عند طعمة فلم توجد عنده وحلف ما لى بها علم فنظروا فى أثر الدقيق فانتهوا إلى منزل اليهودى فقالوا له فقال : دفعها إلىَّ طعمة . فقال قوم طعمة : انطلقوا إلى رسول الله ﷺ لنجادل عن صاحبنا فهمَّ أن يفعل وأن يعاقب اليهودى فنزل قوله ﴿وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيماً (١٠٥)﴾ [النساء] [ذكره ابن الجوزى فى المنتظم ١ / ٣٣٧] .

(٢) هو منذر بن سعيد البلوطى أبو الحكم ، قاضى قضاة الأندلس فى عصره ، ولد (٢٧٣) بـ (فحص البلوط) بقرطبة ، كان فقيهاً خطيباً شاعراً فصيحاً ، رحل حاجاً سنة ٣٠٨ هـ فأقام فى رحلته ٤٠ شهراً أخذ بها عن بعض علماء مكة ومصر ، استمر فى قضاء قرطبة إلى وفاته عام ٣٥٥ هـ عن ٨٢ عاماً . [الأعلام للزركلى ٧ / ٢٩٤] .

الأندلس لما حلف الخليفة عبد الرحمن الناصر[1] يميناً وأراد له كفارة . فقالوا له : إطعام عشرة مساكين ، فلما علم المنذر بن سعيد بهذه الفتوى قال : أو يُزجر أمير المؤمنين بأنْ يطعم عشرة مساكين ، وهو يطعم كل يوم كذا وكذا ؟ إنما يُزجر بالصيام[2] . إذن : أخذ روح الحكم ولم يأخذ نصه .

وبعد أنْ بيَّن سبحانه حكم الظهار وكفارته قال ﴿ وَتِلْكَ ..(٤) ﴾ [المجادلة] أي : هذه الأحكام التى ذُكرت ﴿ حُدُودُ اللَّهِ ..(٤) ﴾ [المجادلة] أي : أوامره ونواهيه ، والحد كما ذكرنا هو الفاصل بين شيئين فإنْ كان الحد بينك وبين الله فهو مرفوض .

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (٦٣) ﴾ [التوبة] فالمطلوب من العبد ألاّ يفصل عن ربه عز وجل وأنْ يتصل به دائماً وفى كل وقت لا أنْ يجعل نفسه فى جانب وربه فى جانب ، فهذا منافٍ للمعية الإيمانية ، فربك يريدك معه لا تفارقه .

وهذا المعنى واضح فى آيات سورة الجمعة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ..(٩) ﴾ [الجمعة] ثم بعد الصلاة ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) ﴾ [الجمعة] إذن : أنت مع الله فى الصلاة ومع الله بعد الصلاة ، لا يغيب عن بالك طرفة عين .

---

(١) عبد الرحمن الناصر لدين الله أو عبد الرحمن الثالث ثامن أمراء بنى أمية فى الأندلس ولد ٢٧٧ هـ ، امتد حكمه ٥٠ عاماً ، أمه أم ولد اسمها (ماريا) أو (مزنة) بويع بالخلافة عام ٣٠٠ هـ توفى عام ٣٥٠ هـ ، عن ٨٣ عاماً .

(٢) لم أقف على هذا الخبر ، ولكن أمر الكفارة دائر مع عسر المظاهر أو يسره ، فإن كان معسراً فكفارته الصوم ، وإن كان موسراً فعليه عتق رقبة ، فمن لم يجد فعليه إطعام ستين مسكيناً . قال القرطبى فى تفسيره للآية .

« ومن تظاهر وهو معسر ثم أيسر لم يجزه الصوم ، ومن تظاهر وهو موسر ثم أعسر قبل أن يكفّر صام ، وإنما يُنظر إلى حاله يوم يكفّر ، ولو جامعها فى عدمه وعسره ولم يصم حتى أيسر لزمه العتق » .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ④ ﴾ [المجادلة] أى الذين لا يقفون عند حدود الله ، ولا يعملون بما حدّه الله لعباده ، فهؤلاء لهم (عذاب أليم) وهو عذاب جهنم ، وسُمِّى صنيعهم هذا كفراً تغليظاً وتشديداً .

فالذين لم يؤمنوا ولم يلتزموا بأحكام هذه الشريعة ووقفوا عند حدود الله فلا تعتقدوا أنهم ناجون من حساب الله وعقابه ، فليس الأمر كما زعموا ، بل لهم عذاب أليم فى الدنيا وفى الآخرة .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ⑤ ﴾

قلنا : ﴿ يُحَادُّونَ اللَّهَ .. ⑤ ﴾ [المجادلة] أى : يجعلون هواهم فى حَدٍّ وأوامر الله فى حَدٍّ ﴿ وَرَسُولَهُ .. ⑤ ﴾ [المجادلة] دلتْ على أن الرسول له تشريع خاص به لأنه مفوّض من الله فى أنْ يشرع ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. ⑦ ﴾ [الحشر] لأن الأمر قد يكون من الله ومن رسول الله .

وقد يكون الأمر من الله وحده أو من رسول الله وحده ، لأن الحكم يكون من الله إجمالاً ومن رسول الله تفصيلاً ، لذلك جاءت الآيات تُفصِّل هذا فى قوله تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ .. ⑨② ﴾ [المائدة] وقال : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ .. ①③② ﴾ [آل عمران] وقال : ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ .. ①② ﴾ [التغابن]

وبهذه الآيات نرد على هؤلاء الذين ينادون بالأخذ بكتاب الله فقط ويرفضون الأخذ بسنة رسول الله ، وقد أخبر رسول الله ﷺ عن هؤلاء فقال : « ألا هل عسى رجل يبلغه الحديث متكئاً على أريكته فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه ، وما وجدنا فيه حراماً حرمناه ، وإن ما حرم رسول الله كما حرم الله »[1] .

وهذه من معجزاته ﷺ ، وللرد على هؤلاء نقول لهم : بالله عليك قُلْ لنا كيف تصلى العصر أو المغرب ؟ ومن أين عرفت أن العصر أربع ركعات وأن المغرب ثلاث ؟ وهل هذا فى القرآن ، هل بيَّن القرآن مناسك الحج أو مقادير الزكاة ؟

وقوله ﷺ : « صلُّوا كما رأيتمونى أصلى »[2] وقال : « خذوا عنى مناسككم »[3] يعنى : أن رسول الله ﷺ تميَّز بين الرسل بأنْ فوَّضه الله فى أن يشرع لأمته ، فالرسل قبل محمد لم يكن لهم إلا أنْ يُبلغوا عن الله الأحكام أما رسول الله فمبلِّغ ومشرع .

إذن : أطيعوا الله فى إجمال الحكم ، وأطيعوا رسول الله فى

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٥٨٨) وابن ماجة فى سننه (١٢) وأحمد فى مسنده (١٦٥٦٤) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٧٠٤٠) من حديث المقدام بن معد يكرب رضى الله عنه .

(٢) أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى (٢ / ٣٤٥) (٣ / ١٩٦) وكذا الدار قطنى فى سننه (١٠٧٩) والشافعى فى مسنده (٢١٨) وابن حبان فى صحيحه (١٦٨٥ ، ٢١٦٥) من حديث مالك بن الحويرث .

(٣) أخرجه بهذا اللفظ البيهقى في السنن الكبرى (٥/ ١٢٥) عن جابر بن عبد الله قال : أفاض رسول الله ﷺ السكينة وأمرهم بالسكينة وأوضع فى وادى محسر وأمرهم أن يرموا الجمار مثل حصى الخذف وقال : خذوا عنى مناسككم لعلِّى لا أراكم بعد عامى هذا .

تفصيل الحكم ، ولو لم يكن الأمر كذلك ما قال الحق سبحانه ﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ..(٨٠) ﴾ [النساء]

ومعنى ﴿ كُبِتُوا .. (٥) ﴾[المجادلة] الكبت هنا بمعنى الذلة والمهانة أو الصدمة الشديدة التى تُسكت المرء فلا ينطق لهول ما يرى من المصيبة ، مثل قوله تعالى : ﴿ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ..(٢٥٨) ﴾[البقرة] أى : ذُهل .

فالذى يتعرض لصدمة شديدة يخرس لسانه فلا ينطق ولا يستطيع أنْ يُنفِّس عن نفسه أو يُخفِّف عنها ، وقد عبَّر الشاعر[1] عن هذا المعنى فقال :

ولا بدَّ منْ شكْوَى إلى ذى مُرُوءَة ... يُواسيكَ أو يُسلِّيكَ أوْ يتوجَّع[2]

فصاحب المصيبة حينما يجد مَنْ يشتكى إليه ويسمع له يشعر بالراحة وتهدأ نفسه ، لأنه وجد مَنْ يخفف عنه ويشاركه مواجعه ، أمّا هؤلاء فقد كُبتوا كبتاً أسكتهم وأخرس ألسنتهم فأذلهم الله وأهانهم أعظم إهانة وأغاظهم أشد الغيظ .

﴿ كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ..(٥) ﴾[المجادلة] يعنى : ليسوا هم

---

(١) هو : بشار بن برد العقيلى أبو معاذ ، أشعر المولدين على الإطلاق ، أصله من طخارستان غربى نهر جيحون ولد عام ٩٥ هـ ، كان ضريراً نشأ فى البصرة وقدم بغداد اتهم بالزندقة فمات ضرباً بالسياط ودفن بالبصرة عام ١٦٧ هـ .

(٢) البيت لبشار بن برد من بحر الطويل . وقد استعاره ابن نباتة المصرى فى قصيدتين من قصائده الأولى من بحر الطويل عدد أبياتها (٣٣ بيتاً) . والثانية من نفس البحر عدد أبياتها (٣ أبيات) أولها :

وناعورة كانت قضيباً فأصبحت ... إلى القضيب شوقاً كالحمامة تسجع

أول من كُبت إنما كُبت المكذِّبون السابقـون من قوم عاد وثمود وقوم لوط وقوم فرعون وغيرهم .

وكان أول كَبْت للعرب الكفار الذين وقفوا في وجه الدعوة أنْ يهزموا أمام دعوة الحق وأنْ يتلاشى الكفر ويعم الإسلام ، قال سبحانه : ﴿ أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا .. (٤٤) ﴾ [الأنبياء]

فكل يوم كـانت تتناقص أعـداد الكفـار وتتناقص أرضـهم وتزداد أعداد المسلمين وتزداد أرضـهم وتتسع ، حتى أن خالد بن الوليد يقول لعمرو بن العـاص : لقد استقـام الميسم[1] لمحمـد يا عمرو فهـيا بنا نؤمن به . أى : استقام الأمر له واستتبَّ ولم تَعُدْ لنا طاقة بمقاومته .

---

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (١٠٣٣) باب إسـلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وفيه أن عمرو بن العاص قال للنجـاشى : والله لو ظننت أنك تكره هذا (أى تسليم جعفر بن أبى طالب له) ما سألتكه . قـال : تسألنى أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكـبر الذى كان يأتى موسى فتقتله ؟ قلت : أكذاك هو ؟ قال الملك : ويحك يا عمرو أطعنى واتبعه فإنه والله على حق وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده . قلت : أتبايعنى له على الإسلام قـال : نعم . فبسط يده فـبايعته على الإسـلام ثم خرجت على أصحـابى وقد حال (تحول) رأيى عما كان عليه فكتمـت أصحابى إسلامى ثم خرجت عامداً لرسول الله ﷺ بإسلامى . فلقيت خـالد بن الوليد وذلك قبيل الفتح وهو مـقبل من مكة . فقلت : أين يا أبا سليمـان (كنية خالد بن الوليد) قـال : والله استقام المـيسم وإن الرجل لنبى ، أذهب والله أسلم حتى متى ؟ قلت : فأنا والله ما جئت إلا للإسلام . فـقدمنا على رسول الله ﷺ فتقدم خالد ابن الوليد فأسلم وبايع ثم دنوت فقلت : يا رسـول الله إنى أبايعك على أن تغفر لى ما تقدم من ذنبى ولا أذكر مـا تأخر . فقـال رسول الله ﷺ : يا عمـرو بايع فإن الإسلام يجبُّ مـا كان قبله وإن الهجرة تجب ما كان قبلها . فبايعت ثم انصرفت . والميسم هو المكواة أو الشىء الذى يُوسم به الدواب وهى حديدة يُكوى بها [لسان العرب - مادة : وسم]

﴿ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ .. ۝٥ ﴾ [المجادلة] آيات واضحات يصدّقها العقل ، والفطرة السليمة تقبلها ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٥ ﴾ [المجادلة] أى : الذين يُكذّبون بهذه الآيات ولا يؤمنون بها مع وضوحها ومسايرتها للفطرة السليمة ، لهم عذاب مهين يُهينهم ويُخزيهم .

ذلك لأن قضية الإيمان بالله واضحة لا يملك أحد ردّها ، حتى هم لم ينكروها ، فأول شىء فى قضية الإيمان وجود رب قادر خالق لهم ، ولهذا الكون الذى يعيشون عليه .

وقد أقروا لله تعالى بالخلق : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۝٢٥ ﴾[لقمان] وقال : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۝٨٧ ﴾[الزخرف] وهل يجرؤ أحد منهم أنْ يقول غير هذا ؟ ومع هذا كذَّبوا وكفروا بالحق وبالآيات الواضحات التى لا يمكن أنْ يجهلها أحد ، وكان المفروض أنْ يعتبروا بها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٦ ﴾

يذكّرهم سبحانه بيوم البعث والحساب يوم يحاسبهم على كل شىء على كل صغيرة وكبيرة مما نسوه ، ولكن الله أحصاه وسجّله

عليهم وكتبته حفظته ، وأنت لو سألتَ رجلاً مثلاً في الستين أو السبعين من عمره وقلت له : هل تحصى ذنوبك ؟ يقول لك : لا أستطيع لأن النسيان من طبائع الإنسان حتى لا يتضاءل أمام نفسه ، كأن صفات الكمال في النفس الإنسانية لها تقدير ذاتي ليس تقديراً إضافياً .

فمثلاً شهادة الزور لا تقل نسبية قُلْ إضافية ، كيف ؟ هَبْ أن لك صديقاً يجلس في مجلسك وأنت تعديتَ على شخص آخر وشتمته فأراد أنْ يستشهد بك ، فلما طُلِبَتْ منك الشهادة جاملتَ صديقك وقلت : لم يحدث هذا .

نعم هو مشهد لصالحك ووقع في المحظور من أجلك ، ومع ذلك يسقط من نظرك وتحكم عليه بأنه شاهد زور ، حتى وإن كانت شهادته من أجلك ، فكأن الرذيلة رذيلة حتى عند صاحبها .

وسبق أنْ ضربنا مثلاً وقلنا : لو أن جماعة كانت مسرفة على أنفسها وكانوا مثلاً لصوصاً وواحد منهم تاب فقالوا عنه : (دا جردل دا لخمة) ، ثم أراد أحد هؤلاء أنْ يزوج أخته أيزوّجها واحداً من اللصوص الذين معه أم يُزوِّجها لهذا (الجردل) الذي تاب واستقام ؟ يُزوّجها لمن تاب واستقام ، فهو وإنْ كان منحرف السلوك إلا أنه لا يرضاه ولا يُقرّه .

لذلك رأينا كفار مكة يحاربون محمداً ويكفرون بدعوته ، ومع ذلك يأتمنونه على ودائعهم[1] لأنهم يعرفون أنه الصادق الأمين .

---

(١) وحدث في الهجرة إلى المدينة أن علي بن أبي طالب أقام بمكة بعد مخرج رسول الله ﷺ أياماً - قال بعضهم : ثلاثة - حتى أدى للناس ودائعهم التي كانت عند رسول الله ﷺ وخلفه ليردها [سبل الهدى والرشاد ٢٦٧/٣] . ومثله في جوامع السيرة (٩٣/١)

﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ .. ⑥﴾ [المجادلة] أحصاه لأنه المحصى سبحانه ، ونسوه لأنهم أهل للنسيان ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ⑥﴾ [المجادلة] لأنه قيّوم السموات والأرض ، لذلك قال فى الحديث القدسى : « يا عبادى : إن كنتم لا تعتقدون أنّى أراكم فالخلل فى إيمانكم ، وإنْ كنتم تعتقدون أنّى أراكم فلم جعلتمونى أهونَ الناظرين إليكم »[1] .

فقوله ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ⑥﴾ [المجادلة] كل شىء يعنى السور الكلى فلا يوجد شىء إلا والله شهيد عليه ، والإيمان بإله واحد شىء وهو سبحانه شهيد عليه .

لذلك قال : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ ⑱﴾ [آل عمران] فقبل أن يطلب من الناس أنْ تشهد بهذا شهد هو به لنفسه سبحانه ، وكذلك رسول الله قبل أنْ يشهد الناس له بالرسالة شهد بها هو لنفسه ، لابد أنْ يشهد بها ويعتقدها .

وقد ورد فى الحديث أنه ﷺ قال : « أشهد أنّى رسول الله » فى قصة جابر بن عبد الله وقد كانَ عليه دينٌ ليهودى ، وقد جاء وقت السداد ولكن جابراً لا يستطيع لأن بستانه لم يثمر نخيله الثمر الذى يكفى لسداد الديْن فكلّم جابر رسولَ الله أنْ يتوسَّط له عند اليهودى ليؤجل موعد السداد لكن اليهودى رفض فقد وجد الفرصة لإذلال المسلمين .

---

(١) ذكره ابن رجب الحنبلى فى شرحه (فتح البارى شرح صحيح البخارى) كتاب الصلاة (١٧٢/٢) وعزاه لبعض العارفين : اتق الله أن يكون أهون الناظرين إليك ، وكذا فى جامع العلوم والحكم فى شرح الحديث الثانى ، ثم ذكره فى شرح الحديث ١٨ أن رجلاً قال لوهيب بن الورد : عظنى . فقال : اتق الله أن يكون أهون الناظرين إليك .

فقال رسول الله لجابر : ياجابر خُذْنى إلى حائطك وتجوَّل رسول الله بين النخيل ، ثم قال : ياجابر خُذْنى إلى عريشك فأخذه جابر إلى عريشه فأخذتْ رسول الله سنَةٌ من النوم ، فلما استيقظ قال : ياجابر جُذْ واقض ، فجذَّ جابر نخله وقضى ما عليه لليهودى وبقى له ما لم يكن يبقى فى الأعوام السابقة ، فلما بلغ ذلك رسول الله ضحك وقال : « أشهد أنّى رسول الله »[1].

إذن : ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٦) ﴾[المجادلة] شهد لنفسه شهادةَ الذات للذات ، وشهدتْ الملائكة شهادةَ المشهد ، وشهد أولو العلم شهادةَ دليل : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ .. (١٨) ﴾ [آل عمران]

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ[2] ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧) ﴾

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠٢٣) من حديث جابر بن عبد الله وفيه أن رسول الله ﷺ قال : يا جابر جُذ واقض فوقف فى الجداد فجذذت منها ما قضيته وفضل منه ، فخرجت حتى جئت النبى ﷺ فبشرته فقال : « أشهد أنى رسول الله ».

(٢) النجوى : السرار . قاله ابن قتيبة . وهى المسارَّة . وهى مأخوذة من النجوة وهى ما ارتفع من الأرض لأن المتسارين يخلوان وحدهما بنجوة من الأرض ، أو لأن السر يصان فكأنه رفع من حضيض الظهور إلى أوج الخفاء . [تفسير الالوسى روح المعانى]

قالوا فى تفسير ﴿ أَلَمْ تَرَ.. ﴿٧﴾ ﴾[المجادلة] أنها بمعنى ألم تعلم لأنه يتكلم عن أشياء لم يرَهَا سيدنا رسول الله كما فى سورة الفيل : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ ﴾[الفيل] ورسول الله ﷺ لم ير هذه الحادثة فقالوا المراد : ألم تعلم .

والصواب أنها بمعنى (ترى) ولو أراد الله تعالى العلم لقال : ألم تعلم ، والحكمة من استخدام ترى هنا ليدل على أن إخبار الله لرسوله أصدقُ من رؤية عينه ، فمجرد أنْ يخبره الله يكون كأنه رأى بعينه .

وقوله تعالى : ﴿ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. ﴿٧﴾ ﴾[المجادلة] دل على إحاطة علم الله بكل شيء كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا يَعْزُبُ[1] عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾ [يونس]

فالله يعلم السموات والأرض كظرف ويعلم المظروف فيه ، فالأرض فى ذاتها عجيبة الخَلْق والتكوين ، وما فيها من مخلوقات أعجب منها ، وقلنا : إن المظروف أنفس من المظروف فيه ، وعلْم الله لا يقتصر على المشاهد ، بل يعلم سبحانه ما غاب عنّا من ملكوت السموات والأرض ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [هود]

ومن إحاطة علمه تعالى : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ.. ﴿٧﴾ ﴾[المجادلة] فالله سبحانه يعلم ما فى السموات وما فى الأرض من مخلوقات ، وقد يقول قائل : يعلمها لأنها مخلوقاته وصنْعة يده ، فقال : لا بل ويعلم المحدثات والمستجدات التى تحدث فى كونه فقال : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ .. ﴿٧﴾ ﴾ [المجادلة]

والنجوى من الأغيار التى تحدث عنكم وبينكم سراً ، فالنجوى لا

---

(١) ما يعزب : ما يبعد ولا يغيب . قاله ابن قتيبة .

تكون إلا سراً نسترها عن الغير ، لذلك قال (ثلاثة) فهى أول الأعداد التى يُحتمل فيها النجوى .

وفى الحديث الشريف قال ﷺ : « لا يتناجى اثنان دون الثالث فإن ذلك يُحزنه »[1] .

فنجوى الاثنين تثير الشك والريبة في نفس الثالث ، أما الحق سبحانه فيعلم كل شيء ، لذلك يقول لهم : تناجوا كما تريدون فأنا شاهدكم وأعلم نجواكم ، أنا رابع الثلاثة وسادس الخمسة .

﴿ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا .. ⑦﴾ [المجادلة]

وهكذا استوعبت الآية جميع الاحتمالات وجميع الأعداد .

وقوله تعالى : ﴿ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة .. ⑦﴾ [المجادلة] لأن الحفظة سجلت عليهم أعمالهم ، ويوم القيامة سيُعطى كل إنسان كتابه ليقرأ ما فيه ويكون شاهداً عليه ﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ⑭﴾ [الإسراء]

ثم يقول الحق سبحانه[2] :

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٤٠٥٤) وأبو داود فى سننه (٤٢١١) والترمذى فى سننه (٢٧٥١) وابن ماجه (٣٧٦٥) وأحمد فى مسنده (٣٤٧٩) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه . قال الترمذى : حديث حسن صحيح .

(٢) سبب نزول الآية : قال ابن عباس ومجاهد : نزلت في اليهود والمنافقين ذلك أنهم كانوا يتناجون فيما بينهم دون المؤمنين وينظرون إلي المؤمنين ويتغامزون بأعينهم ، فإذا رأى المؤمنون نجواهم قالوا : ما نراهم إلا وقد بلغهم عن أقربائنا وإخواننا الذين خرجوا فى السرايا قتل أو موت أو مصيبة أو هزيمة ، فيقع ذلك فى قلوبهم ويُحزنهم ، فلا يزالون كذلك حتى يقدم أصحابهم وأقرباؤهم ، فلما طال ذلك وكثر ، شكوا إلى رسول الله ﷺ ، فأمرهم أن لا يتناجوا دون المسلمين ، فلم ينتهوا عن ذلك وعادوا إلى مناجاتهم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية . [أورده الواحدى فى أسباب النزول ص ٢٣٣] .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ ﴾

الذين نُهُوا عن النجوى هم جماعة من اليهود والمنافقين ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ .. ﴿٨﴾ ﴾ [المجادلة] يعودون إلى التناجي ﴿ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ .. ﴿٨﴾ ﴾ [المجادلة] فكأن النجوى في ذاتها ليست محرمة إنما المحرم منها هو التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ، أما التناجي في الخير فلا شيء فيه ، كالذي يُخفي صدقته حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه[1].

﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ .. ﴿٨﴾ ﴾ [المجادلة]

الحق سبحانه يفضح نفاقهم ويخبر رسوله بسوء نياتهم ، فالتحية منهم لرسول الله دليل النفاق (حَيَّوْكَ) و ﴿ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ .. ﴿٨﴾ ﴾ [المجادلة] دليل المخالفة ، لأنهم جاءوا بتحية غير تحية الله وهي السلام عليكم ، فكانوا يقولون لرسول الله : السام عليكم .

---

(١) حديث صحيح . أخرجه البخاري في صحيحه (٦٢٠ ، ١٣٣٤ ، ٦٣٠٨) وكذا الترمذي في سننه (٢٣١٣) والنسائي في سننه (٥٢٨٥) وأحمد في مسنده (٢٩٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . وقد أخرجه مسلم في صحيحه (١٧١٢) بلفظ : « حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله » .

والسام أى الموت جاءوا بكلمة قريبة فى نطقها من السلام .

وقد تنبهت السيدة عائشة لقصدهم وردَّتْ عليه تحية السوء هذه وقالت : بل السام عليكم واللعنة .(١) لذلك جعل الله المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ، فهم أسوأ حالاً من الكافرين ، لأن الكافر كما بيَّنا واضح لسانه مع قلبه ، أمَّا المنافق فظاهره الإيمان ويُبطن الكفر .

وقولهم لرسول الله ﷺ : السام عليكم مثل قول إخوانهم اليهود حنطة ، لما قال الله لهم : ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ﴿٥٨﴾﴾ [البقرة] أى : يارب حُط عنا خطايانا فقالوا : حنطة . سخريةً واستهزاءً .

﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ..﴿٨﴾﴾ [المجادلة] هذا القول قالوه فى أنفسهم لم يقولوه لنا ومع ذلك أخبرهم به رسول الله ، فكان عليهم أنْ يأخذوا منه عبرةً وعظة ، وأنْ يتساءلوا مَنْ أخبر محمداً بهذا وقد قلناه فى أنفسنا .

كان عليهم أنْ يتخذوا من هذا الموقف سبباً للهداية والتصديق برسول الله .

ومعنى ﴿لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ..﴿٨﴾﴾ [المجادلة] يعنى : هلا يُعذِّبنا الله كأنهم يطلبون العذاب ، لكن العذاب لن ينزل بهم الآن ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ..﴿٨﴾﴾ [المجادلة] أى : يوم القيامة ﴿فَبِئْسَ

---

(١) عن عروة بن الزبير أن عائشة رضى الله عنها زوج النبى ﷺ قالت : دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا : السام عليكم . قالت عائشة : ففهمتها وعليكم السام واللعنة . فقال رسول الله ﷺ : مهلاً يا عائشة إن الله يحب الرفق فى الأمر كله . فقلت : يا رسول الله أو لم تسمع ما قالوا . فقال رسول الله ﷺ : قد قلت : وعليكم . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٥٦٥) وكذا مسلم فى صحيحه (٤٠٢٧) .

الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ ﴾ [المجادلة] بئس المرجع وبئس النهاية ﴿ حَسْبُهُمْ ..﴿٨﴾ ﴾ [المجادلة] كافيهم ﴿ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ..﴿٨﴾ ﴾[المجادلة] يدخلونها ويُقاسون حرَّها .

ثم يخاطب الحق سبحانه جماعة المؤمنين ويُعلِّمهم كيف تكون النجوى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَـٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَـٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَـٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى يجمع فى هذه الآية بين النهى عن النجوى المذمومة والتحذير منها هى ما كانت بالإثم والعدوان ومعصية الرسول فيقول تعالى : ﴿ فَلا تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ..﴿٩﴾ ﴾[المجادلة] والإثم هو الشىء الخبيث الذى يستحى منه الناس . والعدوان شراسة الاعتداء والكيد والتدبير السىء .

وما داموا يُخفون كلاماً ويُسرّونه فلا بد أنه مخالف للفطرة السليمة ، ولو كان حقاً لقالوه علانية فالنجوى دليل اتهامهم فى العقل وفى القلب وفى كل شىء ، وتأمر فى الوقت نفسه بالنجوى المحمودة .

﴿ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ .. ﴿٩﴾ ﴾ [المجادلة] وقلنا : إن الجمع بين الأضداد يُوضحها ، إذن لا مانع من النجوى إنْ كانت فى سبيل البر والتقوى وفى سبيل نصْرة الدين وعزة المسلمين كالقادة مثلاً

يتناجون لعمل خطة حربية ، فمن الصواب ألاَّ يعرفها أحد حتى لا يأخذ الأعداء احتياطهم .

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٩ ﴾[المجادلة] اتقوا الله بتنفيذ أوامره واجتناب نواهيه ، فهو سبحانه ﴿ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٩ ﴾ [المجادلة] هذا أسلوب قصر . أى : إليه وحده تُحشرون وتُجمعون للحساب يوم القيامة .

﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١٠ ﴾

أى النجوى بالإثم والعدوان ومعصيت الرسول هى فى الأساس من الشيطان لأن هذه مهمته منذ أنْ أخذ عهداً مع الله وقال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۝٨٣ ﴾[ص] وفضح نفسه حينما أعلن عن خطته فى إغواء بنى آدم فقال : ﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۝١٦ ﴾ [الأعراف]

لذلك قلنا : إنه لا يأتى إلى الخمارة إنما يأتى المسجد ليفسد على أصحاب الطاعة طاعتهم ، والعاقل لا يعلن خطته لعدوه ، لذلك يشكو الناس كثيراً من السهو فى الصلاة وهذا أمر طبيعى ، لأن عدو الله لن يدعك تؤدى الطاعة .

وقد أباح لنا الشرع حينما نجد هذا الوسواس الذى يُخرجنا عن مقام التواجد مع الله أنْ نقطع القراءة ونستعيذ بالله منه لأنه ساعة يسمع

الاستعاذة يُولّى كاللص يحوم حول البيت ، فإنْ وجدك متنبهاً له ينصرف ، فهو كما وصفه الحق سبحانه الوسواس الخناس ، يُوسوس لك فإنْ استعذت بالله منه خنس أى فرَّ وهرب ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦) ﴾ [فصلت]

والأمر فى قوله : ﴿ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ..(٩) ﴾ [المجادلة] يعطى فرصة لمن يخطط لنصرة دين الله فيباح له التكتم والنجوى حتى لا يعرف أحدٌ تفاصيل خطته حتى لو كان مسلماً ، لأن من المسلمين مَنْ يضعف ويُفشى أسرار جيشه لأعدائه .

وتعرفون قصة حاطب بن أبى بلتعة[1] وكان واحداً من صحابة رسول الله ، ومع ذلك ضعف وأراد أن يخبر قريشاً بأن رسول الله يجهز لفتح مكة فكتب إليهم كتاباً وأرسله مع ظعينة[2] ، ولكن الله تعالى أخبر نبيه بما فعل حاطب ، فبعث إلى سيدنا على وقال له : يا على اذهب فى طريق كذا وستجد ظعينة فى ضفائرها كتاب كذا وكذا ، فذهب علىّ فى إثرها وجاء بالكتاب إلى رسول الله فإذا به من حاطب ، فبعث إليه وقال له : ياحاطب ما حملك على أن فعلتَ ما فعلت ؟

فقال : يا رسول الله أنا رجل ليس لى عزوة ، وأحب أن يكون لى عند قريش يدٌ وأنا أعلم أن الله ناصرُك عليهم ، فقال رسول الله ﷺ : اتركوه لعلّ

---

(١) حاطب بن أبى بلتعة أبو عبد الله من ولد لخم بن عدى حليف الزبير بن العوام شهد بدراً والحديبية ومات سنة ٣٠ بالمدينة وهو ابن ٦٥ سنة وصلى عليه عثمان رضى الله عنه [الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ١/٩٣] .

(٢) الظعينة : المرأة فى الهودج . وقيل : سميت المرأة ظعينة لأنها تظعن مع زوجها وتقيم بإقامته ، وأصل الظعينة الراحلة التى يُرحل ويظعن عليها أى يُسار . وأظعنت المرأة البعير ركبته [لسان العرب - مادة : ظعن] .

الله قد اطلع على أهل بدر فقال : افعلوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم[1] .

وقد علَّمنا رسول الله ﷺ هذا الدرس ، فقال « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان »[2] ما دامت في إطار البر والتقوى .

وقوله تعالى : ﴿لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا ..﴿١٠﴾﴾ [المجادلة] أي : ليُدخل عليهم الحزن ، هو يريد ذلك لكنه لا يستطيع ﴿وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ .. ﴿١٠﴾﴾ [المجادلة] مثل رجل توفرت له كل أسباب الشر ، الله أعطاه القوة والمال ومعه مسدس ويجيد (النشان) وتمكّن من عدوه لكن عندما صوَّب الرصاصة إلى قلب العدو تحرّك بعيداً عنها أو طرأ طارئ أطاش الرصاصة .

إذن : هو أراد لكن الله لم يُرد ، شاء والله لم يشأ ، فكل حركة في الكون صغيرة كانت أو كبيرة من حركة الذرة إلى حركة المجرة إنما تجرى بقدر الله وإرادته ، فالشيطان يريد الشرّ بالمؤمنين ولا يحدث شيء من هذا إلا ما أراده الله .

لذلك قال : ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم]

وقلنا : السلطان إما قوة قهر تجبرك على الفعل ، أو قوة حجة

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٧٨٥ ، ٣٩٣٩ ، ٤٥١١ ، ٥٧٨٩ ، ٦٤٢٦) وكذا مسلم في صحيحه (٤٥٥٠) من حديث على بن أبي طالب رضي الله عنه .

(٢) أخرجه الخرائطي في كتاب (اعتلال القلوب) من حديث عمر بن الخطاب (٦٦٥) ولفظه : « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان لها فإن كل ذي نعمة محسود » . وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/٤٧٣) وعزاه لمعاذ بن جبل وقال : : رواه الطبراني في الثلاثة وفيه سعيد بن سلام العطار . قال العجلي : لا بأس به وكذَّبه أحمد وغيره وبقية رجاله ثقات إلا أن خالد بن معدان لم يسمع من معاذ .

تقنعك به ، والشيطان لا يملك شيئاً من هذا ولا ذاك ، لا يملك إلا أنْ يوسوس وأنْ يزين لك الفعل ، كأنه يريد أنْ يقول لهم لقد كنتم رَهْن إشارتي ، مجرد أنْ أشرتُ لكم أتيتم ووقعتم في المحظور .

ثم إن هناك معاصيَ تُرتكب ليس للشيطان دَخْل فيها ، معَاصٍ تُزيِّنها شهوة النفس الأمَّارة بالسوء والهوى ، لذلك ثبت أن الشيطان يُصفَّد في رمضان[1] ومع ذلك تحدث منا معاصٍ وذنوب كثيرة .

وقد عبَّر الشاعر عن هذا المعنى فقال :

إبْليسُ والدُّنيا ونَفْسى والهَوَى ... كَيْفَ السَّبيل وكُلُّهم أعْدَائى[2]

كذلك الحال في مسألة السحر ، فكثير من الناس يملكون أدوات السحر ويمارسونه لكن لا يضرون أحداً إلا بإذن الله :

﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَـٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ[3] وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : إن النبي ﷺ كان يرغِّب في قيام رمضان من غير عزيمة وقال : « إذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب الجحيم وسلسلت الشياطين » . وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣٤٤٨) أن رسول الله ﷺ قال : « رمضان شهر مبارك يفتح فيه أبواب الجنة ويغلق فيه أبواب السعير وتصفد فيه الشياطين وينادي مناد كل ليلة : يا باغي الخير هلم إلى الخير ، ويا باغي الشر أقصر » .

(٢) ذكره ابن الجوزي في (بحر الدموع) ص ٨١ وقال : أنشدوا بلفظ :

إبليس والدنيا ونفسي والهوى ... كيف التخلص من يدى أعدائي

وذكره ابن عربي في الفتوحات المكية (٦٢٧) دون أن يعزوه لشاعر : بلفظ الشيخ هنا دون قوله (السبيل) فقال : الخلاص .

(٣) لما كثر السحرة الذين تتلمذوا على أيدي الشياطين في عهد سليمان عليه السلام وادعوا النبوة وتحدوا الناس بالسحر أنزل الله ملكين من ملائكته الكرام وهما هاروت وماروت ليعلما الناس ما هو السحر فيتمكنوا من تمييز السحر من المعجزة . وليتجنبوا السحر الذى يجب تجنبه . فهاروت وماروت هما ملكان .

وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ .. (١٠٢) ﴾ [البقرة]

وقوله تعالى : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ .. (١٠) ﴾ [المجادلة] كلمة (على) هنا تعنى أن التوكل على الله خُذه مطية لك توصّلك لغايتك . وكلمة (على) فى مثل هذه الآية وغيرها فى القرآن كثير ترد على الجماعة أهل التنوير ، وتبطل قولهم بأن التكاليف شاقة على النفس ، حتى من اسمها يدل على أن فيها مشقة .

والواقع أن التكاليف أمرها هيِّن وفى مقدور الجميع ولا يشعر بمشقتها إلا من ينظر إلى العاجل دون الآجل ، فأين هى مشقة التكاليف إذا قيست وقورنت بالثواب عليها .

ولو نظر المسلم إلى عقوبة المعصية ما تجرأ عليها ، ولو نظر إلى ثواب الطاعة لهان عليه كل شىء فى سبيلها .

وقوله تعالى : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ..(١٠) ﴾ [المجادلة] كما تقول : أترك هذا الموضوع علىَّ وإذا كنتَ أنت أيها الإنسان تعجز فالله لا يعُجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، ومعلوم أن التوكل على الله له شروط ، ولا يكون إلا بعد الأخذ بالأسباب .

ثم يوجِّه الحق سبحانه المؤمنين فيقول :[1]

---

(١) سبب نزول الآية : قال مقاتل بن حيان : كان النبى ﷺ فى الصُّفة وفى المكان ضيق وذلك يوم الجمعة ، وكان رسول الله يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار ، فجاء ناس من أهل بدر وقد سبقوا إلى المجلس ، فقاموا حيال النبى ﷺ على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم فلم يفسحوا لهم ، وشق ذلك على رسول الله ﷺ فقال لمن حوله من غير أهل بدر : قم يا فلان وأنت يا فلان ، فأقام من المجلس بقدر النفر الذين قاموا بين يديه من أهل بدر : فشق ذلك على من أقيم من مجلسه وعرف النبى ﷺ الكراهية فى وجوههم ، فقال المنافقون للمسلمين : ألستم تزعمون أن صاحبكم يعدل بين الناس ؟ فوالله ما عدل على هؤلاء قوم أخذوا مجالسهم وأحبهم القرب من نبيهم أقامهم وأجلس من أبطأ عنهم مقامهم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية . [أورده الواحدى فى أسباب النزول ص ٢٣٤] وذكره ابن كثير فى تفسيره (٣٢٥/٤) وقال : رواه ابن أبى حاتم .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ[1] فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾

نزلت هذه الآية لما كثر أصحاب رسـول الله ﷺ وكثر مُحبّوه وأهل مجلسه ، حتى أنهم كانوا يتـزاحمون على مجلس رسول الله ولا يجدون مكاناً ، فأمره الله تعالى أنْ يُوسِّع بعضـهم لبعض ، فقال :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا ..﴿١١﴾ ﴾ [المجادلة] أى : توسَّعـوا وأوجدوا مكاناً لمن ليس له مكان ﴿ يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ..﴿١١﴾ ﴾[المجادلة] إذن : عليكم أنْ تأخذوا بأسبـاب التوسـعة ، والله تعالى يفسح لكم فى مجلسكم .

وإذا نسب الفعل إلى الله تعالى فهو فى طلاقة القدرة ، أنت تفسح على قدر طاقتك والله يُفسح لك على قدر طاقته سبحانه ، وهذه مثْل قول سيدنا رسـول الله ﷺ : « والله فى عوْن العبد ما كان العبد فى عوْن أخيه »[2] .

---

(١) انشزوا : قوموا . وفى المراد بهذا القيام خمسة أقوال :
أحدها : أنه القيام إلى الصلاة وكان رجال يتثاقلون عنها . قاله عكرمة والضحاك .
والثانى : أنه القيام إلى قتال العدو . قاله الحسن .
والثالث : أنه القيام إلى كل خير من قتال أو أمر بمعروف . قاله مجاهد .
والرابع : أنه الخروج من بيت رسول الله ﷺ ، وذلك أنهم كانوا إذا جلسوا فى بيت رسول الله أطالوا ليكون كل واحد منهم آخرهم عهداً به ، فأمروا أن ينشزوا إذا قيل لهم انشزوا أى قوموا وانصرفوا ، قاله ابن زيد .
والخامس : أن المعنى قوموا وتحركوا وتوسعوا لإخوانكم . قاله الثعلبى .

(٢) أخرجـه الإمام مـسلم فى صحـيحـه (٤٨٦٧) وأبو داود فى سننه (٤٢٩٥) والترمـذى فى سننه (١٣٤٥ ، ١٨٥٣ ، ٢٨٦٩) وابـن مـاجـه فى سـننه (٢٢١) من حـديـث أبى هريرة رضـى الله عنه بلفظ : « الله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه » .

وهذه صفقة حسابية واضحة فأنت فى عون أخيك بقدرتك المحدودة وطاقتك المحدودة ، والله تعالى بحوْله وقوته وطاقته الغير محدودة فى عونك ، فمَنْ إذن الرابح الكسبان ؟

وهذا المعنى عام فى التوسع ، وسّع لأخيك أو وسّع عليه يوسع الله لك من حيث لا تدرى ، وهذه التوسعة من الله بركة فى المكان وبركة فى الرزق وبركة فى كل شيء .

ويجب علينا جميعاً العمل بهذا التوجيه من الله ومن رسول الله وإلا أثمْنا ، تذكرون قصة المدين الذى مات وعليه دَيْن فامتنع رسول الله ﷺ عن الصلاة عليه ، ولكن أباح لجماعة المسلمين أنْ يُصلوا عليه فقال : صلوا على صاحبكم[1] .

فما ذنب المدين وقد مات ؟ ولماذا امتنع رسول الله من الصلاة عليه ؟ قالوا : لأنه خالف توجيهاً لرسول الله حين قال : « مَنْ أخذ أموال الناس يريد أداءها أدّى الله عنه ، ومَنْ أخذها يريد إتلافها أتلفه الله »[2] .

وهذا المدين كونه مات دون أنْ يقضى دَيْنه . يعنى : أنه كان فى نيته عدم السداد فلم يُعَنْ عليه ، فأحب رسول الله أن يعلم أمته هذا الدرس ، فالمدين محروم من صلاة رسول الله عليه لمخالفته أوامره لكنه ليس محروماً من صلاة جماعة المسلمين عليه .

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يُؤتى بالرجل المتوفى عليه الدين فيسأل : هل ترك لدينه فضلاً ؟ فإن حدّث أنه ترك لدينه وفاء صلى وإلا قال للمسلمين : صلوا على صاحبكم . فلما فتح الله عليه الفتوح قال : أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن توفى من المؤمنين فترك ديناً فعلىَّ قضاؤه ومن ترك مالاً فلورثته . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢١٣٣ ، ٤٩٥٢) ومسلم فى صحيحه (٣٠٤٠) .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٢) وأحمد فى مسنده (٨٣ ، ٩٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . ومعنى أتلفه الله أى أتلف أمواله فى الدنيا بكثرة المحن والمغارم والمصائب ومحق البركة . قاله المناوى فى فيض القدير شرح الجامع الصغير (٦//٥٤) .

كما يفهم من هذه القصة حرص رسول الله ﷺ على سداد دين هذا المدين وتطهيره منه وهو مُقبل على الله ، لذلك حثّ الصحابة على أنْ يتصدقوا لسداد دَيْنه فأسرع الناسُ إلى ذلك حتى سدَّدوا دَيْنه[1] .

الحق سبحانه وتعالى يعطينا نموذجاً لهذه التوسعة في رحم الأم الذى يستقبل الجنين وهو نطفة وميكروب مُتناه فى الصِّغر ثم ينمو ومع نموه يتسع الرحم بعد ضيق ، كذلك الحالُ في مجالس المؤمنين يُوسِّعها الله على أصحابها شريطة أنْ يوسّع بعضهم لبعض ، مجرد أنْ تتزحزح من مكانك يوسِّع الله على الجميع فترى المكان الضيق يستوعب الأعداد الكثيرة .

إذن : إذا أردتم أنْ يوسِّع الله لكم فوسِّعوا لإخوانكم ، لذلك أباح الشرع فى حال الصلاة فى الزحام أنْ يصلى الرجل فيركع أو يسجد على ظهر أخيه .

وأيضاً : ﴿ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا.. (١١) ﴾ [المجادلة] يعنى : انهضوا وقوموا للتوسعة ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ..(١١) ﴾ [المجادلة] يعنى : الذى يأتمر بهذه الأمور ويُطبِّقها كما أمر الله بها يرفعه الله درجات

﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١) ﴾ [المجادلة] فالحق سبحانه وتعالى

---

(١) عن سلمة بن الأكوع قال : : كنا جلوساً عند النبى ﷺ إذ أتى بجنازة فقالوا : صلّ عليها . فقال : هل عليه دين ؟ قالوا : لا . قال : فهل ترك شيئاً ؟ قالوا : لا فصلى عليه ، ثم أتى بجنازة أخرى فقالوا : يا رسول الله صلّ عليها . قال : هل عليه دين ؟ قيل : نعم . قال : فهل ترك شيئاً ؟ قالوا : ثلاثة دنانير فصلى عليها . ثم أتى بالثالثة فقالوا : صل عليها قال : هل ترك شيئاً ؟ قالوا : لا . قال : فهل عليه دين ؟ قالوا : ثلاثة دنانير . قال : صلوا على صاحبكم . قال أبو قتادة : صل عليه يا رسول الله وعلىَّ دَيْنه فصلى عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢١٢٧) .

يريد أنْ يُقـوِّى إيمان المـؤمنين ويُوثق ثقـتهم فى الله وفـيمـا عنده من الجـزاء . الله يريد منا شـهـداء يخوضـون الحـروب وهم واثقـون أنهم سيجدون عند الله خيراً ممـا ترك ، وفى الوقت نفسه يريد جماعة تحمل المنهج وتدعو الناس إليه ، طائفة تتعلم الدين وتتفقه فيه وتعلّمه للناس .

فـالدين يراعى هذين الاتجـاهين ويسـيـر بهـما فى اتجـاه واحـد بالتوازى ، اتجاه الـدفاع عن الدين وحمايته ، واتجـاه الدعوة إلى دين الله ونشـرها ، وإلا لو ذهبنا كلنا للجـهـاد فـمَنْ يبـقى ليـعلِّم الناس ويُفقههم فى أمور دينهم ؟

لذلك قال سبحانه وتعالى : ﴿ فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) ﴾ [التوبة]

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٢ ﴾

بعد أنْ تحدثت الآيات عن المناجاة المذمومة المنهى عنها وتحدثت

---

(١) سبب نزول الآيـة : قال مقـاتل بن حيـان : نزلت الآية فى الأغنياء وذلك أنهم كـانوا يأتون النبى ﷺ فيكثرون مناجاته ويغلبون الفقراء على المجالس حتى كره رسول الله ﷺ ذلك من طول جلوسهم ومناجاتهم ، فأنزل الله تبارك وتعـالى هذه الآية ، وأمر بالصدقة عند المناجاة ، فأما أهل العسرة فلم يجدوا شيئاً ، وأما أهل الميسرة فبخلوا واشتد ذلك على أصحاب النبى ﷺ فنزلت الرخصة ، يقصد قوله تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢) ﴾ [المجادلة] أورده الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول ص ٢٣٤) .

عن المناجـاة الجائزة ، والآن تُحـدِّثنا عن لون آخر من المناجـاة وهى المناجاة الخاصة برسول الله ﷺ ورسول الله له خصوصياته .

أولها : ما جـاء فى قوله تعـالى ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴿٦٣﴾﴾ [النور] يعنى : لا تنادوا رسول الله كـما ينادى بعضكم بعضاً فلا تقولوا يا محمد .

الثانية : أننا إذا أردنا أنْ نناجى رسول الله فـلا بد أنْ نقدم قبل المناجاة صدقة ، لماذا ؟ قـالوا : كان هناك أناس يجلسون إلى رسول الله ويتناجـون معـه دون بقيـة الجالـسين ليـزدادوا بذلك شرفـاً أنهم موضع سرِّ رسول الله ، وأنه يخصّهم بكلام غير الكلام العام .

فأراد الـحق سبـحانه وتعـالى أن يحد من هذه الظاهرة ، كـيف ؟ بفـرض هذه الصدقـة كـأنها رسـوم لمناجـاة رسول الله ، لا يأخـذها رسول الله وإنما تقدّم للفقراء صدقة ، فلما نزلت هذه الآية ضَنَّ هؤلاء الذين كانوا يسارعون إلى رسول الله بهذا القصد فلم يعودوا للمناجاة .

إذن : كـان المقـصود من هذه الصـدقـة مجـرد الحدّ من الأعـداد الكثـيـرة التى كـانت تتـزاحم إلى مـجلس رسـول الله ، مـثل الطبـيب المشهور حينما يُضطر لأنْ يرفع قيمة الكشف لا لشىء إلا ليقلل أعداد المرضى الذين يترددون عليه .

ومعنى : ﴿فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ..﴿١٢﴾﴾ [المجادلة] أى : قبل الـمناجاة لا عندها ، كـما فى قوله تـعالى :﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ ﴿٦﴾﴾ [المائدة] ونحن لا نتوضأ عندما نقوم للصلاة ، إنما نتوضأ قبلها .

وهؤلاء الذين ضنُّوا بالصـدقة عـلى الفقـراء ضنُّوا بها لأن المـال

عندهم أهم من أنْ يزدادوا شرفاً بمناجاة رسـول الله ، فالحق سبحانه وتعالى فضح ما فى نفوسهم . بقوله : ﴿ إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً .. (١٢) ﴾ [المجادلة]

ذلك لأن وقت سيدنا رسول الله ﷺ كـان موزّعاً إلـى نواحٍ شتى ويجلس ﷺ للجـميـع ولا يريد أنْ يحتكره أحـد للمناجـاة ، لأنّ وقتـه يضيق عن مثل هذا ، بل ويضيق صدره من هذه المسألة لأن المطلوب منه كثيـر ، فله وقته مع الله ، ووقته مع أهله ، ووقتـه مع الخاصة ، ووقته مع العامة .

وقوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ ..(١٢) ﴾ [المجادلة] أى : تقديم الصدقة قبل المناجاة ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ..(١٢) ﴾ [المجـادلة] أى : أطهر لقلوبكم ، وقوله :﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢) ﴾ [المجادلة] دل على أن المسألة ليست فرضاً .

﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٣) ﴾ [1]

(١) أخرج ابن حبان فى صحيحه عن على بن أبى طالب قال : لمـا نزلت هذه الآية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ..(١٢) ﴾ [المجادلة] قال النبى ﷺ لعلى : يا على مُرْهُم أن يتصدقـوا . قـال : يا رسول الله بكَمْ ؟ قال : بدينار . قـال : لا يطيقـونه . قال : فبنصف دينار . قال : لا يطيـقونه . قال : فبكَمْ ؟ قال : بشعيـرة فقال النبى ﷺ لعلى : إنك لزهيد . قال : فأنزل الله ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ..(١٣) ﴾ [المجادلة] فكان علىّ يقول : بى خُفِّف عن هذه الأمة .

لمَّا لم يقدِّموا الصدقة وضنُّوا بها كشفهم الله لرسوله ﷺ ، فقال : ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ .. ⦗١٣⦘ ﴾ [المجادلة] أى : خفتم الفقر فلم تقدموا بين يدى نجواكم صدقات ﴿ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا .. ⦗١٣⦘ ﴾ [المجادلة] لم تذهبوا لمناجاة رسول الله ، وكأنه يقول لهم : لقد ارتحنا منكم ومن مجيئكم عند رسول الله .

إلا الإمام على لما نزلت الآية تأمر بتقديم الصدقة . قال : لقد فعلتُ شيئاً ما فعله أحد قبلى ولا بعدى ، كان عندى دينار فاشتريتُ به دراهم ، وكنت كلما أردتُ الذهاب إلى مجلس رسول الله تصدَّقت بدرهم .

وبعد أنْ نزلت الآية ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ..⦗١٣⦘ ﴾ [المجادلة] وألغتْ هذه المسألة ظل الإمام على يتصدّق بعدها ، لذلك قال : فعلتُ شيئاً لم يفعله أحد قبلى ولا بعدى[1] .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ .. ⦗١٣⦘ ﴾ [المجادلة] أى : أعفاكم من تقديم هذه الصدقة ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. ⦗١٣⦘ ﴾ [المجادلة] يعنى : ما عليكم إلا أنْ تؤدوا ما فرضه الله عليكم من طاعة أوامر الله وطاعة أوامر رسول الله ويكفيكم هذا .

﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ⦗١٣⦘ ﴾ [المجادلة] والخبير هو العالم ببواطن الأمور ، الذى لا تَخْفى عليه خافية ، وكأنه يقول لنا : ما دُمْتم لم تكلفوا إلا بالفرائض فأدّوها بإتقان وإخلاص ، فكأن هذا الإتقان للعبادة وهذا الإخلاص فيها (عربون) للمناجاة وبدلاً للصدقة التى أعفاكم الله منها .

---

(١) عن علىّ بن أبى طالب قال : إن فى كتاب الله لآية ما عمل بها أحد ولا يعمل بها أحد بعدى (آية النجوى) قال : كان عندى دينار فبعته بعشرة دراهم فناجيت رسول الله ، فكنت كلما ناجيت النبى ﷺ قدَّمت بين يدى نجواى درهماً ثم نسخت فلم يعمل بها أحد فنزلت : ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ..⦗١٣⦘ ﴾ [المجادلة] الحاكم فى المستدرك (٣٧٥٣) ، وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

ولا يغيب عن بالكم أن الله الذى كلفكم خبير بأعمالكم ، لذلك فى وصاياه ﷺ لسيدنا أبى ذر رضى الله عنه قال له : « وأخلص العمل فإن الناقد بصير »[١] .

ثم يقول الحق سبحانه :[٢]

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

الحديث هنا عن موالاة المنافقين لليهود ، يقول سبحانه :﴿ أَلَمْ تَرَ ..﴿١٤﴾ ﴾ [المجادلة] يا محمد ﴿ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم ..﴿١٤﴾ ﴾ [المجادلة] أى : المنافقين تولوا الذين غضب الله عليهم وهم اليهود ، يعنى اتخذوهم أولياء يناصرونهم .

﴿ مَّا هُم مِّنكُمْ ..﴿١٤﴾ ﴾ [المجادلة] أى : ما هم من المؤمنين ﴿ وَلَا مِنْهُمْ ..﴿١٤﴾ ﴾ [المجادلة] ولا من اليهود . وفى سورة الفاتحة قال

---

(١) رُوى عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : يا أبا ذر جدد السفينة فإن البحر عميق ، وأكثر الزاد فإن السفر بعيد ، وأقل من الحمولة فإن الطريق مخوف ، وأخلص العمل فإن الناقد بصير » ذكره ابن حجر الهيتمى فى الزواجر عن اقتراف الكبائر (٥١/١) وقال : روى الشيخ نصر المقدسى إمام الشافعية فى زمنه عن أبى ذر أنه قال : أوصانى حبيبى رسول الله بأربع كلمات هن أحبُّ إلىَّ من الدنيا وما فيها . ولكن ذكره التسترى فى تفسيره (٤٠٤/١) وعزاه لأبى الدرداء .

(٢) سبب نزول الآية : قال السدى ومقاتل : نزلت فى عبد الله بن نبتل المنافق كان يجالس النبى ﷺ ثم يرفع حديثه إلى اليهود ، فبينا رسول الله ﷺ فى حجرة من حُجره إذ قال : يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار وينظر بعينى شيطان ، فدخل عبدالله بن نبتل وكان أزرق ، فقال له رسول الله ﷺ : علام تشتمنى أنت وأصحابك ؟ فحلف بالله ما فعل ذلك ، فقال له النبى ﷺ : فعلت ، فانطلق فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبُّوه ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

تعالى : ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة] قالوا : هم اليهود .

وسبق أنْ بيَّنا أن النفاق لم يظهر في مكة إنما ظهر في المدينة ، وهذه ظاهرة صحية تدل على قوة الدين ، فلا يُنافَق إلا القوى فالإسلام في مكة كان ضعيفاً لا يضطر أحد إلى أن ينافقه .

أما في المدينة فقد قويتْ شوكته ، وأصبح له مكانة بين الناس ، لذلك ظهر النفاق هناك ، وكان عبد الله بن أُبيّ أسَّ المنافقين في مدينة رسول الله ، ذلك لأنهم كانوا يعدون له التاج ليُنصِّبوه ملكاً عليهم [1] .

فلما جاء رسول الله المدينة قضى على منزلة عبد الله بن أُبيّ وانصرف الناس عنه ، فظلت هذه في نفس ابن أُبيّ فأظهر الإسلامَ ليتمتع بمزاياه وأبطن الكفر والنفاق ، أما ابنه عبد الله فقد أسلم وحَسُن إسلامه وأخلص فيه ، وكان في أشد الحزن لنفاق والده .

ويُروى أن عبد الله ذهب إلى سيدنا رسول الله ﷺ وقال : يا رسول الله أعطني بقية من الماء الذي تشرب منه لأسقيها لأبي ، لعلّ الله أن يطهر بها قلبه من هذا النفاق ، فلما أخذ بقية الشربة وذهب بها إلى أبيه ، فقال : اشرب هذا يا أبي . فقال : وما هذا ؟ قال : هذا بقية شراب رسول الله ، فقال : ائتني ببول أمك ، يقصد أن بول أمك

---

(١) أخرج البيهقي في دلائل النبوة (١٤٠٣) أن رسول الله ﷺ راح مهجراً في ساعة كان لا يروح فيها فلقيه أسيد بن حضير فسلم عليه بتحية النبوة ثم قال : والله لقد رحت في ساعة منكرة ما كنت تروح فيها . فقال رسول الله : أما بلغك ما قال صاحبك ابن أبي زعم أنه إذا قدم المدينة أنه سيُخرج الأعز منها الأذل . قال : فأنت والله يا رسول الله العزيز وهو الذليل ثم قال : يا رسول الله ارفق به فوالله لقد جاء الله بك وإنَّا لننظم الخرز لنتوِّجه ، فإنه ليرى أن قد استلبته مُلْكاً » الحديث . ومثله عند السهيلي في الروض الأنف (٣/٢١) ولكن مع سعد بن عبادة .

أفضل منه .[1]

فغضب عبد الله وذهب إلى رسول الله فقال : يا رسول الله إن أبى كما تعلم وأعلم ، وأنا أخشى أنْ يزداد عليه حفيظة أحد المؤمنين فيقتلونه ، فإنْ كان ولا بد ذلك تأمرنى فأقتله حتى لا أجد على قاتل أبى شيئاً فى نفسى ، فقال له رسول الله ﷺ : ارفق به[2] وكان بعد ذلك يكرم ابن أُبىّ لأجل ابنه عبد الله .

إذن : ظهرت قوة الإسلام وقوة العقيدة فى نفوس أتباع محمد فى المدينة بشكل لم يشهد التاريخ مثله ، ولك أنْ تتأمل قول عبد الله لرسول الله : دَعْنى أقتله . ولك أنْ تتأمل ما كان من المهاجرين والأنصار من مؤاخاة بلغت إلى أنْ يقول الرجل الأنصارى لأخيه المهاجر : عندى كذا من النساء فانظر أيتهن أعجبتك أطلقها وتتزوجها أنت .

---

(١) أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر من طريق الحكم عن عكرمة أن عبد الله بن أبى بن سلول كان له ابن يقال له حباب ، فسماه رسول الله ﷺ عبد الله وأنه جاء رسول الله فقال : يا رسول الله إن والدى يؤذى الله ورسوله فذرنى أقتله فقال له رسول الله ﷺ : لا تقتل أباك . فقال : يا رسول الله فذرنى حتى أسقيه من وضوئك لعل قلبه يلين فتوضأ رسول الله وأعطاه فذهب به إلى أبيه فسقاه ثم قال له : هل تدرى ما سقيتك ؟ فقال له والده : سقيتنى بول أمك ، فقال له ابنه : والله ولكن سقيتك وضوء رسول الله وقد أخرجه أيضاً عبد الرزاق فى مصنفه (٦٦٢٧) وكذا الطبرى فى تفسيره (المنافقون ٨) .

(٢) ذكر السهيلى فى الروض الأنف (٤/ ٣٥٠) أن عبد الله بن عبد الله بن أبى بلغه مقال عمر ابن الخطاب (يا رسول الله مُرْ عباد بن بشر فليأتك برأسه) فجاء عبد الله إلى رسول الله فقال : يا رسول الله إن كنت تريد أن تقتل أبى فيما بلغك عنه فمرنى به ، فوالله لأحملن إليك رأسه قبل أن تقوم من مجلسك هذا ، والله لقد علمتْ الخزرج ما كان فيها رجل أبر بوالديه منى وما أكل طعاماً منذ كذا وكذا من الدهر ولا شرب شراباً إلا بيدى وإنى لأخشى يا رسول الله أن تأمر به غيرى فيقتله فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل أبى يمشى فى الناس فأقتله فأدخل النار وعفوك أفضل ومنُّك أعظم . فقال رسول الله ﷺ : يا عبد الله ما أردت قتله ولا أمرت به ولنحسنن له صحبته ما كان بين أظهرنا » الحديث .

ومعلوم أن الإنسان يمكن أنْ يجامل بكل ما يملك إلا المرأة ، فهذه حالة من الإيثار لم يشهد لها التاريخ مثالاً ، لذلك قال تعالى عنهم : ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ[1] ⑨﴾ [الحشر]

إذن : موالاة المنافقين لليهود شكلتْ جبهة ضد المسلمين ، فكان المنافق يخالط المسلمين وربما يصلى فى الصف الأول ثم يخرج فينقل أخبارهم إلى اليهود .

ومن هنا تأتى خطورة النفاق والمنافقين ، فهم أشدُّ خطراً من الكفار ومن اليهود ، لأن الكافر واليهودى عدو ظاهر العداوة ، والمنافق عداوته مستترة ، لذلك جعلهم الله تعالى فى الدرْك الأسفل من النار .

وقوله تعالى : ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ⑭﴾ [المجادلة] يعلمون أنهم كاذبون ، ويعلمون أن الله يُطلع رسوله على ما يدور فى نفوسهم وخواطرهم ، ولو كان عندهم نباهة لعلموا أنه ﷺ موصول بالسماء فآمنوا به وصدَّقوه .

والعجيب أنهم يحلفون على الكذب فى الدنيا ويكذبون على بعض ، وأيضاً يحلفون على الكذب فى الآخرة كما أخبر الله عنهم : ﴿وَاللَّهِ

---

(١) خصاصة : فاقة وحاجة . يقول : ولو كان بهم حاجة وفاقة إلى ما آثروا به من أموالهم على أنفسهم . قاله الطبرى فى تفسيره وقال ابن كثير : أى يقدمون المحاويج على حاجة أنفسهم ويبدأون بالناس قبلهم فى حال احتياجهم إلى ذلك .

رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) ﴾ [الأنعام] وقال : ﴿ يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ[1] الْعَظِيمِ (٤٦) ﴾ [الواقعة] يريدون أنْ يكذبوا على الله فى الآخرة ، وهنا يخبرنا بما ينتظرهم من الجزاء :

﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٥) ﴾

نعم أعدّ الله لهم – أى للمنافقين – عذاباً شديداً أشدّ وأعظم من عذاب الكافرين ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥) ﴾ [النساء]

﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ .. (١٥) ﴾ [المجادلة] أى : قَبُح ﴿ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٥) ﴾ [المجادلة]من إظهار الإيمان وإخفاء الكفر .

﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٦) ﴾

الحق سبحانه وتعالى يريد أنْ يفضحهم ويكشف ألاعيبهم ، فهناك قال عنهم : ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ .. (١٤) ﴾ [المجادلة] يحلفون أنهم ليسوا منافقين ، وهنا قال : ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ..(١٦) ﴾ [المجادلة] الأيمان

---

(١) الحنث : فيه أربعة أقوال :

أحدها : أنه الشرك . قاله ابن عباس والحسن والضحاك وابن زيد .

والثانى : الذنب العظيم الذى لا يتوبون منه ، قاله مجاهد .

والثالث : اليمين الغموس . قاله الشعبى .

والرابع : الشرك والكفر بالبعث . قاله الزجاج .

جمع يمين وهو الحلف ، فالحلف والأيمان وسيلة من وسائل الخداع التى يُجيدونها ويستترون خلفها .

﴿ جُنَّةً ..(١٦) ﴾ [المجادلة] الجُنَّة هى الوقاية كأنهم اتخذوا الحلف مِجَناً يحتمون به كما يحتمى المقاتل خلف المجنّ أو الدرع .

ومادة (جنَّ) تعنى الستر والإخفاء ، ومنها (جن الليل) أى : أظلم وجُنَّ الإنسان ذهب عقله ، و(الجنينة) التى تستر مَنْ يسير بداخلها ، والدرع الذى يحمى صدر الجندى اسمه المجن ، ومنه قول الشاعر [1] :

وَكَانَ مِجنىً دُونَ مَنْ كنتُ أتَّقِى ثَلاثَ شُخُوصٍ كَاعِبَانِ وَمُعْصِر [2]

لذلك سيدنا علىّ رضى الله عنه اتخذ باب حصن خيبر مجناً له فى حرب خيبر ، والمجنّ يقى الصدر لا الظهر ، لذلك قال : « والله لا سلمتُ إنْ أسلمتُ ظهرى » [3] .

---

(١) الشاعر هو عمر بن أبى ربيعة المخزومى القرشى أبو الخطاب ، ولد ٢٣ هـ ، أرق شعراء عصره من طبقة جرير والفرزدق ، ولد فى الليلة التى توفى فيها عمر بن الخطاب فسُمى باسمه ، له ديوان شعر ، توفى ٩٣ هـ فى غزوة فى البحر [موسوعة الشعر العربى]

(٢) البيت من قصيدة لعمر بن أبى ربيعة من بحر الطويل أولها :

أمن آل نُعم أنت غاد فمبكر غداة غد أم رائح فمهجِّر

من قصيدة عدد أبياتها ٦٩ بيتاً . وقد أخذ هذا البيت الشاعر جحظة البرمكى (توفى ٣٢٤ هـ) ووضعه فى قصيدة له من بحر الطويل أيضاً .

(٣) ذكر العصامى فى (سمط النجوم العوالى) (ص ٨٢١) أن على بن أبى طالب قلع باب خيبر وحمله واتخذه مجناً له رغم أن الباب لم يستطع حمله أربعون رجلاً فيما بعد . وقد ذكره الشامى فى (سبل الهدى والرشاد) عن أبى رافع مولى رسول الله ﷺ قال : خرجنا مع على بن أبى طالب حين بعثه رسول الله برايته ، فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم فضربه رجل من يهود فطرح ترسه من يده فتناول على باباً كان عند الحصن فترس به عن نفسه فلم يزل فى يده وهو يقاتل حتى فتح الله تعالى عليه ثم ألقاه من يده حين فرغ فلقد رأيتنى فى نفر سبعة أنا ثامنهم نجهد على أن نقلب ذلك الباب فلم نقلبه .

كذلك حال المنافقين اتخذوا أيمانهم الكاذبة جُنَّة تقيهم وتستر كفرهم ليعيشوا بين المسلمين لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، نحميهم ونحافظ على أموالهم إذن : خدعوا المؤمنين حينما أعلنوا إسلامهم وأبطنوا الكفر .

لكن ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ (١٤٢) ﴾ [النساء] ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) ﴾ [الأنفال] يعنى : إنْ انتفعتم بالنفاق فى الدنيا وأخذتم به عرضاً زائلاً فسوف تجدون عاقبته فى الآخرة .

﴿ فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ .. (١٦) ﴾ [المجادلة] صدّوا غيرهم عن سبيل الله فيتحملون وزرهم ووزر مَنْ صدُّوهم ﴿ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٦) ﴾ [المجادلة] العذاب المهين هو العذاب الذى يُذلهم ويُخزيهم .

وهكذا جمع الله عليهم كل ألوان العذاب ، فمرة قال : عذاب شديد ، وعذاب عظيم ، وقال : عذاب أليم وعذاب مهين . وكل هذا جزاءً وفاقاً لما أضرّوا بدعوة الإسلام وآذوا المسلمين ونافقوهم .

﴿ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٧) ﴾

أى : أموالهم التى نافقوا لحمايتها وأولادهم الذين نافقوا لحمايتهم ونجاتهم ، كلُّ هؤلاء لن ينفعوهم ولن يدفعوا عنهم ألوان العذاب الواقع بهم .

﴿ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ .. (١٧) ﴾ [المجادلة] فهم والنار أصدقاء

لأنهم مُصاحبون لأسبابها ، عاشقون للذنوب التى تُوقعهم فيها ، فبينهم وبين النار مصاحبة ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝١٧ ﴾ [المجادلة] باقون فيها أبداً لا يفارقونها ولا تفارقهم .

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ۝١٨ ﴾

يعنى : عقدت ألسنهم على الكذب فلا يعرفون غيره ، كما كانوا يكذبون عليكم فى الدنيا يحلفون لكم أنهم ليسوا منافقين ، كذلك فى الآخرة سيحلفون لله ، كما حكى عنهم سبحانه :﴿ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ۝٢٣ ﴾ [الأنعام] وهذا أمر فى غاية العجب حتى فى الآخرة .

وبعد أنْ عاينوا الحق الذى أنكروه وعرفوا أن الله حقٌّ يكذبون عليه .

وكلمة (جميعاً) يعنى يوم القيامة يبعث الله اليهود والمنافقين الذين تولوهم يبعثهم معاً ، فمصيرهم واحد ، فقد كانوا فى الدنيا يُوالونهم ويناصرونهم ومَنْ أحب قوماً حُشِر معهم[1] .

فكأن الحق سبحانه وتعالى يُسلِّى رسول الله ﷺ ويُطمئنه ، فيقول له : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ .. ۝١٨ ﴾ [المجادلة] يعنى : يا محمد انتظر هذا اليوم وسترى كيف أن الله يجازيهم بما يناسبهم .

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٥٧٠٣) عن عبد الله بن مسعود قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله كيف تقول فى رجل أحب قوماً ولم يلحق بهم ؟ فقال رسول الله : « المرء مع من أحب » . وكذا مسلم فى صحيحه (٤٧٧٩) .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٨) ﴾ [المجادلة] أى : يظنون أنهم على شىء من الحق والصواب .

﴿ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٨) ﴾ [المجادلة] فهم يظنون ذلك لكن انتبه فالحقيقة أنهم كاذبون . وكلمة ﴿ أَلا .. (١٨) ﴾ [المجادلة] تفيد التنبيه للحكم بعدها ، يعنى : لا يغب عن أذهانكم أن هؤلاء كاذبون مخادعون .

﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ (١٩) ﴾

أى : فعلوا ذلك ونافقوا لأن الشيطان ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ .. (١٩) ﴾ [المجادلة] استولى على كل خواطرهم وعلى كل أفكارهم ، لذلك ﴿ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ .. (١٩) ﴾ [المجادلة] فهذه مهمته التى أقسم عليها فقال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص]

وقال : ﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ﴾ [الأعراف] يعنى : أقعد لهم فى طريق الطاعة لأفسدها عليهم ، لذلك قلنا إنه لا يذهب إلى الخمارة إنما يذهب إلى المسجد ليفسد على أهل الطاعة طاعتهم ، إذن : ما يأتيك فى الصلاة وسوسة شيطان ، وما عليك إلا أنْ تقول كما علَّمك الله : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ .. (٣٦) ﴾ [فصلت]

﴿ أُوْلَـٰئِكَ .. (١٩) ﴾ [المجادلة] أى : المنافقون ﴿ حِزْبَ الشَّيْطَانِ

.. ﴿١٩﴾ [المجادلة] وأيضاً تأتى (ألا) للتنبيه يعنى : انتبه إلى هذا الحكم ﴿إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [المجادلة] كلمة حزب من قولنا حزبه الأمر يعنى شغله وهمَّه ولا يقدر أنْ يدفعه عن نفسه.

فالحزب كلمة تطلق على كل جماعة تمالئوا على رأى واجتمعوا عليه ويخدمون هذا الرأى ويدعون إليه . لذلك سمَّى المؤمنين (حزب الله) وسمَّى الكافرين والمنافقين (حزب الشيطان) ، وحكم على حزب الله فقال : ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة] وقال فى حزب الشيطان ﴿أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [المجادلة]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾

قلنا : معنى ﴿يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. ﴿٢٠﴾﴾ [المجادلة] أى : يجعلون أنفسهم فى جانب ، والله ورسوله فى جانب فينفصلون عن الله ، والحدّ هو الفاصل بين الشيئين لمستحقين مختلفين .

﴿أُولَٰئِكَ فِي الأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المجادلة] جمع أذل ، فما دام العبد قد انفصل عن ربه فلا بدّ أنْ يذلّ وأنْ يُهانَ ، لأن عزّ الإنسان بربه حتى ولو كان كافراً ، لأن الله يرزق المؤمن ويرزق الكافر لأن الجميع عباده قد استدعاهم جميعاً لهذه الحياة ، لذلك تكفل برزقهم جميعاً .

تذكرون قصة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - لما جاءه ضيف

يطرق بابه ليلاً فسأله عن دينه ، فقال : أنا مجوسى فسدَّ الباب فى وجهه فانصرف الرجل ، وعاتب اللهُ تعالى نبيه إبراهيمَ فى شأن هذا الضيف ، فقال له : يا إبراهيم أسعه فى مُلْكى رغم كفره بى ، وأنت تريد منه أنْ يغير دينه لضيافة ليلة .

فأسرع سيدنا إبراهيم فى طلب الرجل حتى أدركه ودعاه إلى ضيافته ، فقال له : لقد جئتُ إليك فطردتنى ، فقال : ولكن ربى عاتبنى فيك ، فقال الرجل : عاتبك فىَّ أنا ؟ نِعْم الرب الذى يعاتب أحبابه فى أعدائه ، ثم شهد ألا إله إلا الله .

وقوله سبحانه : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِى إِنَّ اللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ (٢١) ﴾ [المجادلة] معنى ﴿ كَتَبَ اللَّهُ .. (٢١) ﴾ [المجادلة] أى : حكم وقضى ، والكتابة تعنى تسجيل الأمر تسجيلاً يضمن له البقاء ، فالغلبة لله ولرسل الله أمر وحكم قضاه الله وسجّله ، فلا مردّ له ولا رجعة فيه ، ولا يستطيع أحدٌ أنْ يحول بين الله وبين تنفيذ أحكامه وإبرام قضائه .

لذلك سمّى القرآن الكريم كتاباً لأنه مُسطَّر مكتوب ليكون باقياً خالداً مكتوباً فى السطور ، وسُمِّى قرآناً لأنه يُقرأ ويُحفظ فى الصدور .

والغلبة لله تعالى لأنه قوىٌّ بذاته سبحانه ، والغلبة للرسل بما منحهم من قوته تعالى وتوفيقه وقدرته ، فهم عباده وسفراؤه إلى خَلْقه ، فكيف يسلمهم أو يتخلَّى عنهم ؟

لذلك قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات] أيُعقل أنْ

يرسل الله رسولاً بمنهجه تعالى ودينه الذى ارتضاه ثم يتركه لينتصر عليه أهل الباطل ؟

كيف وما أرسل الرسولُ إلا لإقامة منهج الله والقضاء على الباطل الذى استشرى فى قومه : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ⑧ ﴾ [الصف]

إذن : غلبة الحق وانتصاره على الباطل سُنَّة من سنن الله فى كونه ، فما لنا الآن نرى الباطل ينتصر على الحق ؟ قلنا : إذا رأيتَ أهل الإيمان ينهزمون أمام أهل الكفر فاعلم أن العلة فيهم لأنهم خالفوا شروط الجندية التى تضمن لهم النصر .

وقد رأينا هذه المسألة قديماً فى غزوة أحد لما خالف الرماة أوامر القائد فكان لا بد أنْ يتفوّق عليهم أعداؤهم[1] ، كذلك رأيناها كثيراً فى العصر الحديث .

الحق سبحانه وتعالى يريد أنْ يقرر هذه الحقيقة وأنْ يُرسِّخها فى نفوس المؤمنين ليزدادوا ثقة فى نُصْرة الله لهم ، فقوله تعالى ﴿ لأَغْلِبَنَّ .. ㉑ ﴾ [المجادلة] اللام للقسم وللتوكيد كأنه سبحانه يقسم ويقول : وعزتى وجلالى لأغلبن أنا ورسلى ، ثم النون المشددة ﴿ لأَغْلِبَنَّ .. ㉑ ﴾ [المجادلة]

---

(١) عن البراء بن عازب قال : لقينا المشركين يوم أحد وأجلس النبى ﷺ جيشاً من الرماة وأمَّر عليهم عبد الله بن جبير وقال : لا تبرحوا إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا ، فلما لقينا (المشركين) هربوا .. فأخذوا يقولون الغنيمة فقال عبد الله : عهد إلىَّ النبى ﷺ أن لا تبرحوا فأبوا فلما أبوا صرف وجوههم فأصيب سبعون قتيلاً . الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٧٣٧) وأبو داود فى سننه (٢٢٨٨) وأحمد فى مسنده (١٧٨٥٣) .

ثم أكّد الضمير المستتر فى (لأغلبن) بالضمير المنفصل (أنا) كذلك أكّد الكلام بأكثر من مؤكد فى قوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

﴿ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١) ﴾ [المجادلة] فهذه علة الغلبة أنه سبحانه هو القوى الذى يغلب بذاتية قوته ، وهو سبحانه (العزيز) أى الذى لا يُغلب . ولو شاء سبحانه لانتصر منهم وأخذهم أخْذ عزيز مقتدر ، ولكن يريد أنْ يكون لكم أيها المؤمنون شرفُ الانتصار عليهم : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤) ﴾ [التوبة]

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ (١) أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢) ﴾

(لا) هنا نافية تعنى أنك أبداً لا تجد أهل الإيمان يُوادّون ويُوالون أهل الكفر والنفاق الذين يُحادون الله ورسوله ، لأن هذين

---

(١) عشيرتهم : عشيرة الرجل أهله الأدنون . وهو من العِشْرة أى الصحبة لأنها من شأن القربى .. وقيل من العشرة العدد المعروف وسُميت العشيرة بذلك لكمالهم لأن العشرة عدد كامل .

طرفان نقيضان لا يلتقيان . فمعنى ﴿ يُوَادُّونَ .. (٢٢) ﴾ [المجادلة] يعنى : من المودة والمحبة وهى أمر قلبى .

وقلنا ﴿ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. (٢٢) ﴾ [المجادلة] جعل نفسه فى جانب ، والله ورسوله فى جانب ، فحرَم نفسه من صلته بالله وقُربه منه سبحانه ، وهذه صفة الكفار والمنافقين .

وهذه من الآيات التى تمحَّك عندها المستشرقون الذين يتلمسون الخطأ فى كلام الله ، قالوا : كيف نجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا (١٥) ﴾ [لقمان]

فالأولى تأمر بعدم مودتهم ، وهذه تأمر بمصاحبتهم بالمعروف .

وهذه الشبهة ناتجة عن عدم فهمهم لمعانى القرآن وعدم تذوقهم للغة ، ففرق بين المودة والمصاحبة بالمعروف : المودة محبة قلبية ووُدّ ، وهذه لا تكون إلا من المؤمن لأخيه المؤمن ، أما المعروف فخير تقدمه لكل الناس للمؤمنين وللكافرين وجميل تُسديه للوالدين حتى إنْ كانا كافرين لأنهما أولاً سبب وجودك المباشر واحترامهما رياضة لك على احترام سبب وجودك الأعلى ، وهو الحق سبحانه .

لذلك قال سبحانه : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. (٣٦) ﴾ [النساء] ومع ذلك ليس لهما الحق فى مودتك ومحبتك ، لأن اختلاف العقيدة واختيارهما لمحادة الله يحرمهما هذه المودة من الأبناء ، إذن العلاقات هنا ليست علاقة الدم والنسب ، إنما علاقة الدين والإيمان .

لذلك جاء هذا الحكم عاماً مهما استقرأت من علاقات فلن تجد أبداً

قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ومع هذا الإيمان يُوادون مَنْ حادَّ الله ورسوله ، هذه لا وجود لها ، ولو كان الذى حَادَّ الله ورسوله ﴿آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ..(٢٢)﴾ [المجادلة] فجمع كل مراتب ودرجات القرابة ، والعشيرة هم المعاشرون للإنسان غير هؤلاء المذكورين .

ثم يصف الحق سبحانه وتعالى أهل الإيمان الذين ينطلقون فى علاقاتهم من منطلق الإيمان بالله ولا يقدمون عليه أحداً مهما كان ، يصفهم بقوله تعالى : ﴿أُولَـٰئِكَ .. (٢٢)﴾ [المجادلة] أى : هؤلاء المؤمنون ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ ..(٢٢)﴾ [المجادلة] يعنى : ثَبَّته فى قلوبهم فلا يفارقهم ، وأيضاً ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ..(٢٢)﴾ [المجادلة] ليست هى الروح الأولى سبب الحياة ، إنما يؤيد إيمانهم بروح أخرى منه سبحانه ، روح خاصة من نوره تعالى وتوفيقه .

ومن ذلك قوله تعالى فى العبد الصالح : ﴿وَآتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥)﴾ [الكهف] يعنى : زيادة عن كيس الرسالة ، ومنه قوله سبحانه : ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ..(٢٩)﴾ [الأنفال]

يعنى : إن تتقوا الله بتنفيذ أوامره واجتناب نواهيه التى جاءت فى القرآن يزيدكم فرقاناً آخر ، يعنى نوراً من عنده تعالى وإشراقاً خاصاً تفرِّقون به بين الحق والباطل ، فهذه تجليات خاصة من الله لأهل الإيمان ، لذلك قال العبد الصالح : ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي .. (٨٢)﴾ [الكهف]

إذن : هناك روح للمادة تحيا بها الأجساد ، وهى الروح التى نفخها الله تعالى فى آدم وهو ما يزال فى مرحلة الطين ، وهناك روح للقيم وللمعنويات ، روح تحيا بها القلوب ، وهذه التى قال الله فيها :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ..(٥٢) ﴾ [الشورى]

لذلك وقف المستشرقون أيضاً عند قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. (٢٤) ﴾ [الأنفال] فقال : كيف يخاطبهم بهذا وهم أحياء بالفعل ؟ نقول : يحييكم أى حياة القلوب وحياة القيم ، لذلك قال سبحانه : ﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ ..(٣٥) ﴾ [النور]

ثم يذكر جزاء هؤلاء : ﴿ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ..(٢٢) ﴾ [المجادلة] فيُدخلهم الجنات التى هذه صفتها لأنه رضى عن كل أفعالهم ، ومَنْ رضى الله عنه أحلَّ عليه رضوانه فلا يسخط عليه أبداً ، وهذا الرضوان فضل من الله وزيادة بعد ما نالوه من نعيم الجنة .

وقد ورد فى الحديث القدسى بعد أن يُدخلهم الجنة ويرونْ من ألوان النعيم ما لا يتصورون فوقه يخاطبهم الحق سبحانه وتعالى ويقول لهم : « اليوم أُحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم أبداً »[١]

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٦٧ ، ٦٩٦٤) وكذا مسلم فى صحيحه (٥٠٥٧) من حديث أبى سعيد الخدرى أن النبى ﷺ قال : إن الله يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة فيقولون : لبيك ربنا وسعديك والخير فى يديك . فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك . فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : يارب وأى شىء أفضل من ذلك فيقول : أحلُّ عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبداً .

وقوله تعالى : ﴿ وَرَضُوا عَنْهُ ..(٢٢) ﴾ [المجادلة] رضوا عن عطائه وفضله ، أو رضوا عنه فرضي عنهم وهذا الكلام أزلاً .

وكلمة ﴿ جَنَّاتٍ ..(٢٢) ﴾ [المجادلة] جمع تعني أن المؤمن في الآخرة له أكثر من جنة ، بدليل قوله تعالى في سورة الرحمن : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) ﴾ [الرحمن] وقالوا : جنات لأنه تعالى يخاطب متعددين فكل واحد منهم له جنة ، أو لأنه سبحانه يخاطب الثقلين الجن والإنس ولكلٍّ جنة .

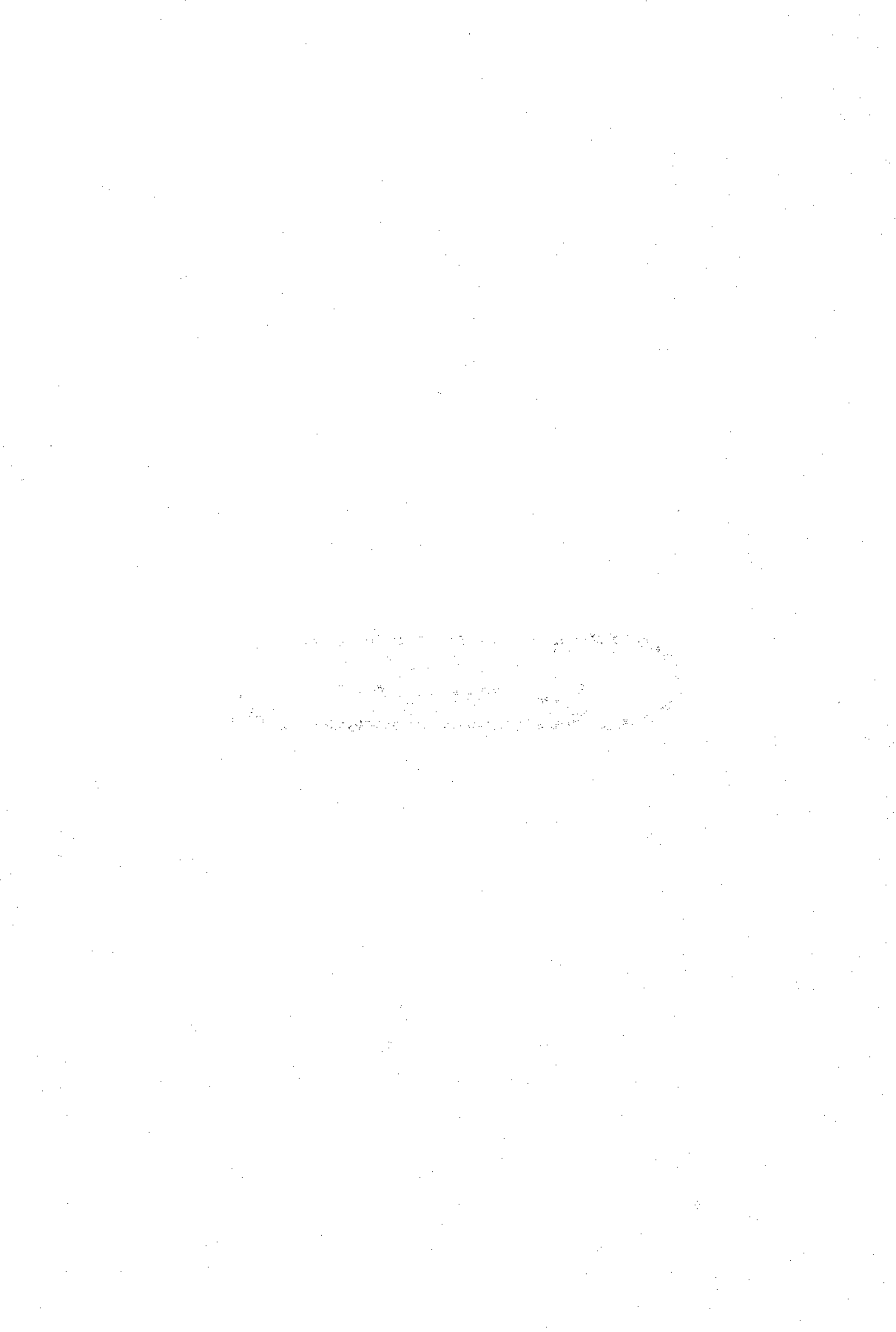
﴿ أُوْلَـٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ..(٢٢) ﴾ [المجادلة] هناك قال في الكفار والمنافقين ﴿ أُوْلَـٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ .. (١٩) ﴾ [المجادلة]
وحكم عليهم :﴿ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩) ﴾[المجادلة]
وهنا يتكلم عن أهل الإيمان ﴿ أُوْلَـٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ..(٢٢) ﴾ [المجادلة]
وحكم عليهم ﴿ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢) ﴾ [المجادلة]

ولك أنْ توازن بين الحزبين وأنْ تفرق بين الفريقين ، هناك خسارة وهنا فلاح ، فحزب الله هم الذين تحزّبوا لمنهج الله اجتمعوا عليه وناصروه وأيدوه وحملوا رايته ودافعوا عنها .

واستخدم هنا أيضاً أداة التنبيه (ألا) يعني انتبه لهذا الحكم لا تنسَه ولا تغفل عنه ﴿ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢) ﴾ [المجادلة] من الفلاح وفلاحة الأرض لما نحرثها ونعدها للزراعة ، هذا فلاح لاستبقاء الحياة المادية ، وهذا فلاح استبقاء نعيم الحياة الأخرى .



سُورَةُ الحَشْرِ



سورة الحشر(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ① ﴾

أولاً نلاحظ الترابط بين أواخر سورة المجادلة وسورة الحشر ، ففى آخر المجادلة حدثتنا الآيات عن حزب الشيطان فقال ﴿ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩) ﴾ [المجادلة] ثم حدثتنا عن حزب الله فقال سبحانه : ﴿ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢) ﴾ [المجادلة]

وهنا أراد الحق سبحانه وتعالى أنْ يعطينا نموذجاً تطبيقياً لكل من الحزبين ومثال عملى لهذه النظريات فى قوم كانوا من حزب الشيطان ماذا فعلوا ، وقوم كانوا من حزب الله ماذا فعلوا .

فقال سبحانه : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. ① ﴾ [الحشر]

وهذه الآية لها متشابهات ، ففى سورة الحديد قال سبحانه : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ .. ① ﴾ [الحديد] بدون ذكر (ما) والفرق بينهما أن تكرار الاسم الموصول (ما) يعنى أن لله جنوداً

---

(١) سورة الحشر هى السورة رقم (٥٩) فى ترتيب المصحف الشريف وهى سورة مدنية ، كان ابن عباس يسميها (سورة بنى النضير) لأنها نزلت فيهم . عدد آياتها ٢٤ آية ، نزلت بعد سورة البينة وقبل سورة (إذا جاء نصر الله) .

فى السموات فقط وجنوداً فى الأرض فقط ، وهناك جنود لله فى السموات وفى الأرض معاً .

فقوله تعالى : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. ۝١ ﴾ [الحديد] يعنى الجنود المشتركين معاً فى خدمة السموات والأرض ، وحين يقول : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١ ﴾[الحشر] يريد ملائكة السموات وحدها ، وملائكة الأرض وحدها .

وهذا يعنى أن كل شىء فى الكون مُسبِّح لله ، قال سبحانه :﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ..۝٤٤ ﴾ [الإسراء] يعنى : ما من شىء فى الكون إلا وهو مُسبِّح لله ﴿ وَلَٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ..۝٤٤ ﴾ [الإسراء]

وهذا يعنى أن التسبيح من المخلوقات كلها تسبيح على وجه الحقيقة لا تسبيح دلالة كما يقول بعض المفسرين[1] ، ولو كان تسبيح دلالة ما قال سبحانه : ﴿ وَلَٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ..۝٤٤ ﴾[الإسراء]

فكل شىء فى الكون إذن يسبِّح الله بلغته ، ونحن لا نفهم هذه اللغات ، فلكل جنس من المخلوقات لغته التى يتفاهم بها . ألم تقل النملة : ﴿ يَٰأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ ..۝١٨ ﴾ [النمل] وقد سمع سليمان هذا القول وفهمه بما منَّ الله عليه من الفهم .

---

(١) أشهر من قال بأن تسبيح الكائنات هو تسبيح دلالة لا تسبيحاً حقيقياً هو الزمخشرى فى تفسيره الكشاف فى الآية ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَٰوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ۝٤٤ ﴾ [الإسراء] ، وهو معتزلى ، قال: « المراد أنها تسبِّح له بلسان الحال حيث تدل على الصانع وعلى قدرته وحكمته فكأنها تنطق بذلك » ، ولكن الآية نفسها ترد عليه ﴿ وَلَٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ۝٤٤ ﴾ [الإسراء] فإنه لو كان المراد تسبيح الدلالة لكان أمراً مفهوماً لكل أحد .

والهدهد قال ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) ﴾ [النمل] وكان يفهم قضية التوحيد فهماً جيداً حينما قال : ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (٢٤) ﴾ [النمل]

وقال سبحانه عن الجماد : ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩) ﴾ [الأنبياء] إذن : هو تسبيح حقيقى بلغة منطوقة يفهمها مَنْ أعطاه الله هذا الفهم .

ومعنى التسبيح تنزيه الله التنزيه المطلق فى ذاته فليستْ ذاته كالذوات ، وتنزيه الله فى صفاته فليست صفاته كصفات غيره ، وتنزيه الله فى أفعاله فليس فعله كفعل غيره .

ولا بد أن نأخذ كل هذه المسائل فى إطار : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ..(١١) ﴾ [الشورى] وأن له سبحانه الكمال المطلق ، فإذا قرأنا مثلاً : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ.. (٤) ﴾ [الحديد] لا نقول : جلس أو استقر كجلوسنا ، إنما استوى استواءً يناسب جلاله سبحانه .

وإذا قرأتَ ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا .. (١) ﴾ [الإسراء] لا تقل هذا فوق طاقة وقدرة البشر ، لأن محمداً ما أسرى بقوته البشرية ، إنما أُسْرِى به ، وفعل الله تعالى ليس كفعل الخلق ولا قوته كقوتهم .

ومادة سبّح وردت فى القرآن بمشتقاتها المختلفة فى أكثر من ١٧٩ موضعاً ، وردت بالاسم سبحان مضافاً إلى الاسم الظاهر مثل :

سبحان الله وسبحان الذى ، ومضافاً إلى ضمير الغائب سبحانه ، ومضافاً لكاف الخطاب سبحانك ، ووردت بصيغة الفعل الماضى سبّح ، والمضارع يسبّح ، والأمر سبِّح .

قوله تعالى : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ .. (١) ﴾ [الحديد] أى قبل أنْ يخلق الله الإنسانَ المسبِّح ، فلما خلق الإنسان سبح ، فقال تعالى : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. (١) ﴾ [الحشر] سبح الإنسان ولا يزال يُسبِّح إلى قيام الساعة .

وقوله : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) ﴾ [الحشر] العزيز هو الشىء النادر الذى لا مثيل له ، ومنه قوله سبحانه : ﴿ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (١٧) ﴾ [فاطر] ومن معانيها أنه الغالب الذى لا يُغلب .

والحكيم الذى يضع الشىء فى موضعه الذى يناسبه بدقة وإحكام ، فالله تعالى حكيم فى خلْقه ، حكيم فى إرادته وقضائه وقدره . مثلاً انظر إلى الشعر فى جسم الإنسان تجد شعراً يُحلَق وشعراً يُقص وشعراً آخر لا يُحلق ولا يُقص كشعر الحاجب وشعر الرموش ، لأنه خلق لحكمة لا يستقيم معها أن نقصّه ، فالحكمة منه حماية العينين من ذرات التراب فلا يُحلق ولا يُقص .

انظر كذلك إلى درجة حرارة جسم الإنسان تجدها تعتدل عند ٣٧° والجسم يحتفظ بها عند هذه الدرجة ، فالإنسان عند خط الاستواء درجة حرارته كالذى يعيش عند القطب المتجمد ، بل الإنسان فى نفسه ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١) ﴾ [الذاريات]

تجد فى الجسم الواحد عضواً حرارته ٤٠° وعضواً آخر فى نفس الجسم حرارته ٩° هو العينان ، ولا يحدث بينهما استطراق حرارى فتطغى حرارة الكبد مثلاً على حرارة العين ، هذه وأمثالها كثير من مظاهر حكمة الخالق سبحانه .

ثم تنتقل بنا الآيات لتحدثنا عن نموذج تطبيقى لحزب الله ولحزب الشيطان :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ ۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ ﴾

الضمير (هو) يعود إلى الحق سبحانه الذى يسبِّح له ما فى السموات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم ﴿ هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ ..(٢) ﴾ [الحشر] المراد يهود بنى النضير[1] ، وكانت مساكنهم حول المدينة فأجلاهم رسول الله إلى خيبر ، وهذا هو أول الحشر .

واللام فى ﴿ لأَوَّلِ الْحَشْرِ ..(٢) ﴾ [الحشر] بمعنى عند ، كما فى قوله تعالى :﴿ أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ[2] الشَّمْسِ ..(٧٨) ﴾ [الإسراء] وكان الحشر الثانى حينما أجلاهم المسلمون من الجزيرة العربية إلى الشام فى زمن سيدنا عمر رضى الله عنه .

---

(١) بنو النضير قبيلة من قبائل اليهود فى المدينة ، كانوا يسكنون فى ضاحية بأطراف المدينة تسمى « العوالى » بها خضرة ونخيل وماء ، ظل عهدهم مع الرسول ﷺ أربع سنوات ، ولكنهم أخذوا يتعاونون مع مشركى قريش لغزو المدينة فى غزوة الخندق ، فأمر الرسول ﷺ بإجلائهم من المدينة المنورة .

(٢) لدلوك الشمس أى عند دلوكها . قال أبو عبيدة : دلوكها من عند زوالها إلى أن تغيب ، وقال الزجاج : ميلها وقت الظهيرة دلوك ، وميلها للغروب دلوك . [تفسير زاد المسير لابن الجوزى] .

ومعنى الحشـر : أى جمعهم كلهم فى مكان واحد ضيق ، كـما نقول : فلان انحـشر إذا دخل مكاناً يضيق حيِّـزه عن حجمـه ، يعنى حجم الشىء أكبر من الحيِّز الذى دخل فيه .

لكن لماذا أخرج اللهُ اليهود من حول المدينة إلى خيبر ثم إلى الشام ؟ قالوا : لأنهم نقضـوا عهدهم مع رسول الله وعادوه ، بل واستـعدوا عليهم كفـار مكة ، والعجـيب أن العداوة أولاً كـانت بين اليـهود وكفـار مكة ، لأن اليهود أهل كتاب وأهل دين سماوى ، أما كفار مكة فكانوا عُبَّاد أوثان .

لذلك كان اليهود يستفتحون على الذين كفروا ويقولون لهم : لقد أظل زمـان رسول جـديد يأتى ونؤمن به ونقـتلكم به قتل عـاد وإرم[1] ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ .. (٨٩) ﴾ [البقرة]

فلما هاجر رسول الله إلى المدينة عادوه واسـتعدوا عليه كفار مكة بعد أن عاهدوه علـى ألاَّ يقفوا ضـده ، وقالوا : لا نكون مـعك ولا نكون عليك ، فلمـا نقـضوا هذا العـهـد وألّبـوا عليه الكفـار فى مكة فـأرسلوا كـعب بن الأشرف إلى مكة في أربعـين راكباً من اليهـود التقى بأبى سفـيان وخرج

---

(١) ذكر السهيلى فى الروض الأنف (١/ ٣٦٩) أن رجالاً من الأنصـار قالوا : إن مما دعانا إلى الإسلام مع رحـمة الله وهداه لمـا كنا نسمع من رجال يهـود كنا أهل شرك أصـحاب أوثان وكانوا أهل كـتاب عندهم علم ليس لنا ، وكـانت لا تزال بيننا وبينهم شرور فـإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا : إنه تقارب زمان نبى يُبـعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فكنا كثيراً ما نسمع ذلك منهم فلما بعث الله رسـوله ﷺ أجبناه حيث دعانا إلى الله تعالى وعرفنا ما كانوا يتـوعدوننا به فبادرناهم إليه فـآمنا به وكفروا به ، ففـينا وفيهم نزل هؤلاء الآيات من البقرة ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) ﴾ [البقرة]

معـه فى أربعين مثلهم من كـفار مكة وذهبـوا إلى الكعبة ، وعند أسـتارها تعاهدوا على معاداة محمد ودعوته ، وأنْ يكونوا يداً واحدة عليه[1] .

ولكن الحق سبـحانه وتعالى أطلع رسـوله ﷺ على ما يُدبرون له فقـال : ﴿هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ..(٢)﴾ [الحشر] فأجلاهم رسول الله إلى خيبر[2] .

والذى أجَّج العداوة بين الطرفين أنه كان هناك قـبيلة لها عهد مع بنى النضيـر ، فخرج عمرو بن أمـية الحضرمى وقتل من هـذه القبيلة اثنين ، وكان للنبى ﷺ عهد معهم ، فأحـبوا أنْ يشتركوا ليدفعوا الدية فذهـب رسول الله إلى بنى النضـير ، وقـال لهم : ساعـدونا فى الدية التى تحمَّلها الحضرمى فى الولدين . فـصاحبنا كعب بن الأشرف قال : لقد جاء محمد محتاجاً لنا .

---

(١) ذكره البغوى فى تـفسـيره لآية ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١)﴾ [الحشـر] وفيـه أن كعب بن الأشرف بعـد غزوة أحـد ركب فى أربعين راكـباً من اليهود إلى مكة فأتوا قـريشاً فحالفوهم وعاقدوهم على أن تكون كلمتـهم واحدة على محمد ﷺ ودخل أبو سـفيـان فى أربعين وكـعب فى أربعين من اليـهود الـمسجـد الحـرام وأخذ بعضهم على بعض الميثاق بين الأستار والكعبة ، ثم رجع كعب وأصحابه إلى المدينة ونزل جبريل فأخبـر النبى ﷺ بما تعاقد عليه كعب وأبو سفيان ، فـأمر النبى ﷺ بقتل كعب بن الأشرف فقتله محمد بن مسلمة .

(٢) خيبـر الآن مدينة سعودية تقـع شمال المدينة المنورة وهى بلد تاريخـى قديم وقد وردت عدة روايات فى تفسـير سبب التسمـية لعل من أهمها هو اشتـهارها بحصونها وقـلاعها ، فكلمة خـيبر تعنى الحصن بلـغة الأقوام السامـية التى سكنت خيبـر رسمياً ، وقـد تم فتح خيبر عام ٧ هجرية بعد نقض اليهود لعهدهم مع رسول الله . [موسوعة ويكيبيديا] .

وهم الذين قالوا : ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ .. (٦٤)﴾ [المائدة] وقالوا : ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ..(١٨١)﴾ [آل عمران]

فقالوا : فرصة نكسر نفس محمد ، فأوحى كعب بن الأشرف إلى جماعة من المدينة أنْ يصعدوا على سطح المنزل ويُلقوا حجراً على رسول الله ليتخلصوا منه ﷺ ، ولكن الحق سبحانه وتعالى أخبر رسوله بما يدبرون له ، فخرج رسول الله من بينهم ومشى إلى أنْ خرج ، ولما لم يعد رسول الله إليهم سألوا عنه ، فقال رجل : أنا رأيته يدخل المدينة .[1]

ذهب رسول الله ﷺ إلى محمد بن مسلمة وهو أخو كعب من الرضاعة ، وحكى له ما كان من مؤامرة كعب لقتله ، وطلب منه أنْ يذهب ويقتل كعب بن الأشرف وأنْ يأخذ معه مَنْ يثق فيه ، فأخذ معه ثلاثة من بني الحارث وذهب إلى حصن كعب ونادى : ياكعب - وكان بينهما ود لعلاقة الرضاعة - فقال : ما بك يا محمد ؟ قال : أنا أريد أنْ أستقرض منك ، فقال : أنت تعرف أني لا أقرض إلا برهن ، فقال : هو معي .

---

(١) أخرج الطبرى فى تفسيره (١١٥٥٧) عن عاصم بن عمر بن قتادة وعبد الله بن أبى بكر قالا : خرج رسول الله ﷺ إلى بنى النضير ليستعينهم على دية العامريين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمرى ، فلما جاءهم خلا بعضهم ببعض فقالوا : إنكم لن تجدوا محمداً أقرب منه الآن ، فمَنْ رجل يظهر على هذا البيت فيطرح عليه صخرة فيريحنا منه ؟ فقال عمرو بن جحاش بن كعب : أنا . فأتى رسول الله ﷺ الخبر وانصرف عنهم فأنزل الله عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ .. (١١)﴾ [المائدة] وأورده السهيلى فى الروض الأنف (٤٢١/٢) .

فنزل إليه وكان فى أول ليلة عُرْسه ، فعروسه منعته من الخروج . وقــالت له : إنى لأشُـم من هذا الصـــوت رائحـــة الدم ، لكـنه نزل فاحتضنه محمد وسار به حتى بَعُد ، وطعنه طعنة قتلته ، فأهاج ذلك بنى النضيـر ، فكان ما كان من تعـاهدهم مع كفار مكة ضـد رسول الله(١) .

وقوله : ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا .. (٢)﴾ [الحشر] يخاطب الله المؤمنين حزب الله يقول لهم : ما كـان يخطر ببالكم أنْ يخرج اليهود من حول المدينة ، فهذا أمر مستبعد ، لماذا ؟ لأنهم يروْن اليهود أهل مَنَعة وعزة ومعهم العدد والعُدة فكيف يستطيعون إخراجهم وهم قلة ؟

إذن : ظنُّ المـؤمنين يرجح جانـب عدم قـدرتهم على إخراجـهم ، لكنه ظنٌّ لا يصل إلى مرحلة اليقين ، وما يزال عندهم أمل فى إخراج اليهود ولهم فى ذلك أسوة بيوم بدر ، فقد كانوا قلة ومع ذلك تفوّقوا على الكثرة الكافرة وهزموهم .

وفى الوقت نفـسه ﴿وَظَنُّوا ..(٢)﴾ [الحشر] أى اليهود ﴿أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ .. (٢)﴾ [الحشر] وأيضاً ظن اليـهود أنهم أصحـاب حصـون تمنعـهم أنْ ينهزمـوا أمام المـؤمنين ، مجـرد ظن

---

(١) أورد ابن سيد الناس فى كتابه (عيون الأثر فى فنون المغازى) (١/٣٩٣) أن سلكان بن سلامة أبـا نائلة وهو أخو كعب بن الأشرف من الرضـاعة اتجه فى جمع إلى حـصن كعب وهتف به ، وكان كعب حديث عهد بعرس فوثب فى ملحفـة فأخذت امرأته بناحيتها وقالت : إنك امرؤ محارب وإن أصحاب الحرب لا ينزلون فى مثل هذه الساعة قال : إنه أبو نائلة لو وجدنى نائمـاً ما أيقظنى . فقالت : والله إنى لأعـرف فى صوته الشر . فقال لـها كعب : لو يُدعى الفتى لطعنة لأجـاب ، فنزل فتحدث مـعهم ساعة وتحـدثوا معه .. إلى أن اسـتدرجوه خارج الحصن وأعملوا فيه سيوفهم .

لايرقى إلى اليقين ، لأنهم أيضاً تذكروا يوم بدر يوم انتصر المسلمون وهم قلة فى العدد والعدة .

ومن الاحتياط أنْ نعمل بالظن فى أمور الخير ، فإذا ظننتَ الخير فاصنعه قال تعالى : ﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ .. (٢٤٩) ﴾ [البقرة] إذن : فى الخير العمل بالظنِّ أَوْلَى .

وهذه المسألة لها شواهد كثيرة فى حياتنا العملية ، مثلاً إذا أردنا أن نسافر إلى الأسكندرية ، فقال لنا رجل : والله الطريق كذا فيه أخطار أو أعطال فاسلكوا الطريق الآخر . فقال آخر : أبداً لقد سافرت على هذا الطريق بالأمس وليس عليه أخطار ولا أعطال ، فأىُّ القولين إذن أَوْلَى أنْ نأخذ به ؟

القول الأول أَوْلَى لأنه الأحوط فلن يضيرنا شىء إنْ سلكنا الطريق الذى دلّنا عليه الرجل الأول ، أما قول الآخر فهو غير مضمون وقد نسلكه فنجد فيه بالفعل أخطاراً أو أعطالاً .

والشاعر أبو العلاء المعرى[1] لما اعتدلت عقيدته صادم المنجمين والقائلين بعدم بعث الأجساد ، فقال مُعبراً عن هذه المسألة :

زعم المنجِّم والطبيبُ كلاَهُمَا ... لا تُبْعثُ الأجسَادُ قُلْتُ إليكُمَا

إنْ صَحَّ قولكُما فلَسْتُ بخَاسِر ... أو صَحّ قوْلى فَالخسَارُ عليْكما[2]

---

(١) المعرى : هو أحمد بن عبد الله التنوخى ، شاعر وفيلسوف من العصر الفاطمى ، ولد ٣٦٣ هـ فى معرة النعمان ، عمي وهو صغير السن ، لما مات وقف على قبره ٨٤ شاعراً يرثونه ، كان يُحرم إيلام الحيوان ويلبس خشن الثياب ، له تصانيف كثيرة منها (الأيك والغصون) ، توفى عام ٤٤٩ هـ . [موسوعة الشعر العربى] .

(٢) أورده صلاح الدين الصفدى فى كتابه (الغيث المسجم فى شرح لامية العجم) (ص٩٥) وفيه الشطر الثانى : [أن لامعاد فقلت ذاك إليكما] وفى البيت الثانى [فالوبال عليكما] ولكن أورده ابن عربى فى الفتوحات المكية كما أورده الشيخ الشعراوى .

إذن : نحن أمام ظنين انتهيا إلى أن اليهود لن يخرجوا ، فالمسلمون ظنوا أن اليهود لن يخرجوا ، واليهود ظنوا أن حصونهم تمنعهم ، وحين يأتى الخير من حيث لا تحتسب تكون الفرحة به أعظم ، فكانت فرحة المسلمين بإخراج اليهود كبيرة ، وكذلك كانت حسرة اليهود كبيرة .

ثم تأمل اللفظ القرآنى فى ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم .. ② ﴾ [الحشر] فاختار التعبير بالجملة الإسمية الدالة على الثبوت والدوام ولم يقُلْ : تمنعهم . لأن الجملة الفعلية تفيد التجدد والحدوث .

وقولهم ﴿ مِّنَ اللَّهِ.. ② ﴾ [الحشر] دل على أنهم مؤمنون بالله مُصدِّقين بما بشرت به كتبهم من بعثة محمد ﷺ ، ولأنهم جحدوا رسالته لم يقولوا من رسول الله ، إنما قالوا (من الله)

وقوله تعالى : ﴿ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ .. ② ﴾ [الحشر] الله تعالى لا يأتى هؤلاء إنما أتاهم عقابه وعذابه ، ففزّعهم وهزمهم وأرعبهم ﴿ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا .. ② ﴾ [الحشر] من حيث لم ينتظروا ولم يقدروا ولم يظنوا ، يعنى أمر لم يخطر لهم على بال .

﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ .. ② ﴾ [الحشر] ألقى فيها الرعب والهلع والقذف إلقاءً بشدة وعنف والقلوب مضخات الدم فى الأجساد ، وحين يُلقى اللهُ الرعب والفزع فى القلوب تنقلها إلى كل أعضاء الجسم فيصيبه الهلع والفزع الشديد فى كل عضو من أعضائه .

والقذف يعنى أن المقذوف يدخل فى كلّ مسامّ المقذوف فيه ، مثل عمال العمارة عندما يرشُّون الحائط بالأسمنت ، لماذا ؟ لأنهم

يقذفون الأسمنت بقوة ليدخل فى كلِّ الفجوات التى تتخلل الحائط .

﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ .. ۝ ﴾ [الحشر] أى : بيوتهم الحصينة التى كانوا يظنون أنها مانعتهم يُخربونها بأيديهم ، نعم هم لم يفعلوا مباشرة إنما كانوا السبب فى أنْ تُخرب على أيدى المسلمين ، أو خربوها بالفعل لكى لا ينتفع المسلمون بها من بعدهم .

وهذه لها شواهد فى تاريخهم القديم والحديث أنهم يُخربون العامر ويقطعون الأشجار ويفسدون فى الأرض فلا يتركونها خلفهم إلا دماراً ، فكانوا إذا تركوا مكاناً خربوه وأخذوا ما فيه واقتلعوا منه الأبواب والشبابيك .[1]

﴿ فَاعْتَبِرُوا يَـٰأُولِى الأَبْصَارِ ۝ ﴾ [الحشر] الاعتبار أنْ تستدل بما حدث فى الماضى على ما يحدث فى المستقبل ، ومنه عبر فلان البحر ، ومنها تعبير الرؤيا ، فاعتبروا : أى خذوا من الماضى عبرة تُعينكم على استقبال الحاضر ، ولا تتعجلوا الأشياء لأن الله معكم .

ومعنى ﴿ يَـٰأُولِى الأَبْصَارِ ۝ ﴾ [الحشر] الأبصار جمع بصر ، فالاعتبار يكون بداية بالبصر ثم بالبصيرة ، فالبصائر إنما تُربى بدقة البصر والرؤية الواعية التى تؤدى إلى قضية عقلية يقتنع بها الإنسان

---

(١) قال ابن الجوزى فى زاد المسير (٣/٥٤٥) : « للمفسرين فيما فعلوا بمنازلهم أربعة أقوال :
أحدها : أن المسلمين كانوا كلما ظهروا على دار من دورهم هدموها ليتسع لهم مكان القتال ، وكانوا هم ينقبون دورهم فيخرجون إلى ما يليها ، قاله ابن عباس .
والثانى : أن المسلمين كانوا كلما هدموا شيئاً من حصونهم نقضوا ما يبنون به الذى خربه المسلمون ، قاله الضحاك .
والثالث : أنهم كانوا ينظرون إلى الخشبة فى منازلهم أو العمود أو الباب فيستحسنونه فيهدمون البيوت وينزعون ذلك منها ويحملونه معهم ويخرب المؤمنون باقيها ، قاله الزهرى .
والرابع : أنهم كانوا يخربونها لئلا يسكنها المؤمنون حسداً منهم وبغياً . قاله ابن زيد .

وتكون عنده هذه البصيرة ، ثم إن الحق سبحانه وتعالى هو الذى يُنمِّى هذه البصيرة بتوفيق من عنده .

﴿ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ(1) لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ③ ﴾

معنى ﴿ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ .. ③ ﴾ [الحشر] أى : قضى عليهم به ﴿ الْجَلاءَ ..③ ﴾ [الحشر] الخروج بأهلهم من المدينة إلى خيبر أولاً ثم إلى أذرعات(2) بالشام ، ولم يبْق منهم بالجزيرة العربية إلا ابن أبى الحقيق وحُيى بن أخطب أبو السيدة صفية أم المؤمنين .

وقوله تعالى : ﴿ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا ..③ ﴾ [الحشر] أى بالقتل ﴿ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ③ ﴾ [الحشر] يعنى : إن أفلتوا من عذاب الدنيا فلن يفلتوا من عذاب الآخرة ، لذلك خاطب الحق سبحانه نبيه ﷺ بقوله : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ⑰ ﴾ [غافر]

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ④ ﴾

وقوله سبحانه ﴿ ذَلِكَ ..④ ﴾ [الحشر] أى ما حدث لهم من

---

(1) الجلاء هو خروجهم من أوطانهم . وذكر الماوردى بين الإخراج والجلاء فرقين : أحدهما أن الجلاء ما كان مع الأهل والولد . والإخراج قد يكون مع بقاء الأهل والولد . والثانى أن الجلاء لا يكون إلا لجماعة . والإخراج قد يكون لواحد ولجماعة . [زاد المسير لابن الجوزى] .

(2) أذْرِعَات قرية من عمل حوران داخل حدود سورية قرب مدينة درعة شمالاً شمال الطريق وأنت تقصد دمشق .

الإجلاء ﴿ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. (٤) ﴾ [الحشر] أى بسبب أنهم شاقوا الله ورسوله حدث لهم ذلك ، وشاقوا من الشقاق أى جعلوا أنفسهم فى شقٍّ ، وجعلوا الله ورسوله فى شقٍّ ، والمراد : عادوا الله وحاربوه وحاربوا رسوله ﷺ ودعوته .

﴿ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤) ﴾ [الحشر] قالوا : هذه الجملة معطوفة على التى قبلها ، لكن الصواب أنها جملة جديدة ، فالحق سبحانه بعد أنْ أخبر عن اليهود وما كان منهم بدأ عبارة جديدة معزولة عن التى قبلها تقرر قضية ومبدأ .

﴿ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ ..(٤) ﴾ [الحشر] يعاديه ويحارب منهجه فعاقبته العقاب الشديد من الله الذى عاداه بدل أنْ يتقرب إليه ويلتحم به . وهذه قضية إيمانية ينبغى ألاَّ يغفل عنها الإنسان .

ونلاحظ هنا أن التعبير القرآنى ذكر فى صدر الآية : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ..(٤) ﴾ [الحشر] ثم فى الجملة الأخرى : ﴿ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ ..(٤) ﴾ [الحشر] ولم يذكر رسوله ﷺ ، وهذا يعنى أن طاعة الرسول من طاعة الله ، وأن مَنْ يُشاقق الله يشاقق فى الوقت نفسه رسول الله ، لأن الله تعالى هو القائل : ﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ..(٨٠) ﴾ [النساء]

ومن ميزاته ﷺ التى تميَّز بها عن غيره من الرسل أن ربه عز وجل فوَّضه فى التشريع لأمته ، فقال سبحانه : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ..(٧) ﴾ [الحشر]

وقد أراد قوم أنْ يربطوا هذه الآية بمسألة الفيء والغنائم بعد غزوة حنين[1] .

ولكن القاعدة الشرعية أن العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب .

ثم يقول الحق سبحانه[2] :

﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ[3] أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ۝٥ ﴾

بعد أن حدث من اليهود ما حدث وأجلاهم رسول الله ﷺ أمره الله تعالى أنْ يقطع بعض نخيلهم إغاظةً لهم وإظهاراً لقوة شوكة الإسلام ،

---

(١) الذى قال بهذا القول هو الزمخشرى فى تفسير الكشاف (٧/٢٦) وهو معتزلى قال : « (وما آتاكم الرسول) من قسمة غنيمة أو فيء (فخذوه) (وما نهاكم عنه) عن أخذه منها (فانتهوا) عنه » وكذا قاله الشوكانى فى فتح القدير (٧/١٨٦) وعزاه للحسن البصرى والسدى ولكنه قال بعدها : « والحق أن هذه الآية عامة فى كل شيء يأتى به رسول الله ﷺ من أمر أو نهى أو قول أو فعل وإن كان السبب خاصاً فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب » .

(٢) **سبب نزول الآية** : ذكر الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول (ص ٢٣٧) أن رسول الله ﷺ لما نزل ببنى النضير وتحصنوا فى حصونهم أمر بقطع نخيلهم وإحراقها فجزع أعداء الله عند ذلك وقالوا : زعمت يا محمد أنك تريد الصلاح أفمن الصلاح عقر الشجر المثمر وقطع النخيل ؟ وهل وجدت فيما زعمت أنه أنزل عليك الفساد فى الأرض ؟ فشق ذلك على النبى ﷺ فوجد المسلمون فى أنفسهم من قولهم وخشوا أن يكون ذلك فساداً واختلفوا فى ذلك . فقال بعضهم : لا تقطعوا فإنه مما أفاء الله علينا . وقال بعضهم : بل اقطعوا ، فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ۝٥ ﴾ [الحشر] تصديقاً لمن نهى عن قطعه وتحليلاً لمن قطعه ، وأخبر أن قطعه وتركه بإذن الله تعالى .

(٣) لينة : هى النخلة من أى الأصناف كانت . وقال جعفر بن محمد : إنها العجوة خاصة . وقال البعض : إنها الفسيلة لأنها ألين من النخلة . نقله الماوردى فى تفسيره . وذكر ابن الجوزى ستة أقوال متقاربة فى معناه فى تفسيره (زاد المسير) .

فأمر رسول الله صحابته بذلك ، فمنهم مَنْ قطع ومنهم مَنْ أبقى ، فقال اليهود : يا محمد ألم تنه عن الفساد فى الأرض ؟ فأنزل الله : ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ ..(٥) ﴾ [الحشر]

اللينة : النخلة الجيدة الكريمة أو هى نخلة العجوة اللّيِّنة الحلوة ﴿ قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا .. (٥) ﴾ [الحشر] يعنى : واقفة لم تُقطع ﴿ فَبِإِذْنِ اللَّهِ ..(٥) ﴾ [الحشر] بأمره ، وما دام القطع جاء بأمر الله فليس لأحد أن يقول : هذا إفساد فى الأرض ، لأن قطع بعض النخلات فيه إصلاح فوق ما فيه من ضرر ، قطع النخلات فيه إصلاح للعقائد الفاسدة يفوق الضرر الواقع بقطعها .

والآية تُسوِّى بين القطع والإبقاء لأن بعض الصحابة قطع وقال : قطعت هذه لك يا رسول الله ، والآخر أبقى وقال : هذه أبقيتها لك يا رسول الله ، وهذا يعنى أن للقطع معنىً وللإبقاء معنىً .

﴿ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (٥) ﴾ [الحشر] يُلحق الخزى والذِّلة بهم . والفاسق هو الخارج عن أوامر الله ومنهجه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ[1] عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) ﴾

(١) أوجفتم : أسرعتم فى السير . وما نافية ، والمعنى : أن ما ردَّ الله على رسوله من أموال بنى النضير لم تركبوا لتحصيله خيلاً ولا إبلاً ولا تجشمتم لها مشقة ولا لقيتم بها حرباً ولا مشقة [فتح القدير للشوكانى ٧/١٨٥] .

الأشياء التى يأخذها المسلمون من الكفار أحلها الله لهم إما فىء وإما غنيمة : الفىء ما يؤخذ منهم دون حرب ، والغنيمة ما يُؤخذ منهم بعد أنْ يُهزموا ، فتصير أموالهم ومتاعهم غنيمة للمسلمين يُقسَّم بطريقة معينة .

قال تعالى فى شأن غنائم الحرب : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ[1] وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ..(٤١) ﴾ [الأنفال] ثم يقسَّم الباقى بين المحاربين . وأما الفىء فلا يُعطى للمحاربين إنما يُعطى لله ولرسول الله وللفقراء .

الحق سبحانه وتعالى هنا يُحدِّثنا عن الفىء الذى أحله للمسلمين ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ..(٦) ﴾ [الحشر] يعنى : ما أخذتموه من أموالهم دون مشقة ﴿ مِنْهُمْ ..(٦) ﴾ [الحشر] من الكفار .

﴿ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ..(٦) ﴾ [الحشر] أوجفتم عليه يعنى : أسرعتم إليه ، فأوجف الدابة : أسرع بها ، وهذه صفة

---

(١) خُمْس الغنيمة يقسم خمسة أسهم :
- سهم الله تعالى ويُصرف لعمارة بيت الله إن كانت قريبة أو بيوت الله عامة .
- سهم رسول الله وقد كان له فى حياته بالإجماع وكان ينفق منه على نفسه وعياله ويدخر منه مؤونة سنة ، وقد كان يستحقه لإمامته دون رسالته فهو لا يأخذ أجراً على إبلاغه للرسالة ، والأكثرون من الشافعية أن خمس رسول الله بعد وفاته يصرف لسد الثغور وقضاة البلاد والعلماء المشتغلين بعلوم الشرع الأئمة والمؤذنين ولو كانوا أغنياء .
- سهم ذى القربى ويصرف لبنى هاشم وبنى عبد المطلب .
- سهم اليتامى ، وهو للفقراء منهم ويشترط إسلامه .
- سهم المساكين وابن السبيل يكفى فيهما قولهما أنهما مساكين وابن سبيل ولو بلا يمين .
[باختصار شديد من روح المعانى للألوسى فى تفسير آية الحشر ٧] .

الفارس الذى يعشق الحرب ويريد أنْ يموت شهيداً .

﴿ولا رِكَابٍ .. ⁽٦⁾﴾ [الحشر] الرِّكاب ما يُركب ويُسار به إلى الحرب ، والمراد هنا الإبل . والمعنى أن الله أنعم عليكم وساق لكم هذا الرزق حلالاً دون تعب ، ودون أنْ تبذلوا فى سبيله أىَّ مجهود .

﴿ولَـكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ⁽٦⁾﴾ [الحشر] يعنى : أن هـذا الفىء جاءكم فضلاً من الله وكرامة لرسول الله ، ليس لكم فيه فضل ولا حاربتم من أجله بل هى جنود الله سلَّطها عليها ، كما قال سبحانه : ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ..⁽٢⁾﴾ [الحشر]

فمعنى ﴿رُسُلَهُ ..⁽٦⁾﴾ [الحشر] أى : جنوده ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ .. ⁽٣١⁾﴾ [المدثر] ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ⁽٦⁾﴾[الحشر]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ⁽٧⁾﴾

قوله تعالى : ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ..⁽٧⁾﴾ [الحشر] الفىء : هو كل مال صار للمسلمين من غير حرب ولا قهر ، ومصارفها التى تُصرف فيها محددة بهذه الآية : ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ

وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ .. ﴿٧﴾ ﴾ [الحشر]

فالفىء لله وللرسول ، أى : لبيت مال المسلمين وفى سبيل الله وللرسول ﷺ لينفق منه ولذوى قرابته ثم لليتامى والمساكين وأبناء السبيل .

وليس للمقاتلين شىء من الفىء لأنه جاء صلحاً بدون حرب فليس لهم شىء ، إنما لهم فى الغنيمة وهى ما يأخذه المسلمون من أعدائهم المنهزمين نتيجة حرب ، فهذه للمقاتلين دور فيها فيحق لهم ما اقرَّه الله لهم : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ..﴿٤١﴾ ﴾ [الأنفال]

فالمقاتلون لهم فى الغنيمة أربعة أخماسها ، وأما الخمس فيُصرف فى نفس مصارف الفىء .

معنى : ﴿ كَىْ لا يَكُونَ ..﴿٧﴾ ﴾ [الحشر] أى : المال ﴿ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ..﴿٧﴾ ﴾ [الحشر] أى : ملكاً متداولاً بينهم دون الفقراء والمساكين ، لذلك سيدنا رسول الله لما قسم هذه الأموال لم يُعْط من الأنصار أحداً ، وإنما أعطاها للفقراء من المهاجرين ، فلما لاحظ أن الأنصار فى نفوسهم شىء من هذا قال لهم : ألاَ ترضَوْنَ أنْ يعودوا بالدنيا وتعودون أنتم برسول الله [1] ؟.

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٣٩٩٢) من حديث أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ أصاب يوم حنين غنائم كثيرة فقسم فى المهاجرين والطلقاء ولم يعط الأنصار شيئاً ، فقالت الأنصار : إذا كانت شديدة فنحن ندعى ويعطى الغنيمة غيرنا ، فبلغه ذلك فجمعهم فى قبة فقال : يا معشر الأنصار ما حديث بلغنى عنكم ؟ فسكتوا فقال : يا معشر الأنصار ألا ترضون أن يذهب الناس بالدنيا وتذهبون برسول الله تحوزونه إلى بيوتكم ؟ قالوا : بلى . فقال النبى ﷺ : « لو سلك الناس وادياً وسلكت الأنصار شِعْباً لأخذت شِعْب الأنصار » .

ثم إنكم لستم فى حاجة إلى المال ، بل إنكم تُشركون إخوانكم المهاجرين فى أموالكم . وفى الأنصار نزل قوله تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ..(٩) ﴾ [الحشر]

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ..(٧) ﴾ [الحشر]

جاءت هذه الآية لترد على قوم أرادوا أنْ يحصروا هذه الآية فى هذا السبب ، فقال لهم بل هى عامة ، فالعبرة بعموم الموضوع لا بخصوص السبب .

ومن هذه الآية استدللنا على حقٍّ رسول الله فى التشريع وأنه مفوَّض من ربه فى ذلك ، وبهذه الآية أيضاً نرد على الذين ينادون بأنْ نأخذ بالكتاب ونكتفى به دون السنة .

وقد قال رسول الله ﷺ : « يُوشك رجل يتكىء على أريكته يُحدَّث بالحديث عنى فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه من حلال حللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرَّمناه »[1].

فمن حين لآخر يطلع علينا مَنْ ينكر سنة رسول الله ﷺ ويقول : بيننا وبينكم كتاب الله ، فما كان فيه من حلال حللناه ، وما كان فيه من حرام حرمناه ، فهم ينكرون أحاديث رسول الله ويُشكِّكون فى صحتها حتى لا يأخذوا بها .

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٣٩٨٨) والترمذى فى سننه (٢٥٨٨) وابن ماجه فى سننه (١٢) وأحمد فى مسنده (١٦٥٤٦) من حديث المقدام بن معد يكرب بلفظ : الا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن ، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه ، وما وجدتم فيه من حرام فحرِّموه ، ألا لا يحل لكم لحم الحمار الأهلى ولا كل ذى ناب من السبع ولا لقطة معاهد إلا أن يستغنى عنها صاحبها »

وموقفهم هذا فى حد ذاته إثباتٌ لصدق رسول الله ، لأنه ﷺ لم يغفل هذه المسألة ، إنما أخبر عنها ونبهنا إليها وأعطانا المناعة اللازمة ضدها .

وهم لو لم يقولوا لقلنا : يا رسول الله لقد قلت : « يُوشك أنْ يقعد الرجل منكم على أريكته يُحدِّث بحديثى فيقول : بينى وبينكم كتاب الله » فكيف يا سيدى يا رسول الله ذلك ولم يقل أحد هذا الكلام ؟

إذن : فقولهم الأحمق دليلٌ على صدق الرسول فيما أخبر به ، ويسخِّرهم الحق سبحانه فينطقون بمثل هذا القول لنستدل من قول خصوم النبى على صدق كلامه ﷺ .

فهم من حيث لا يدرون أكدوا صدق رسول الله ، لقد فضحهم هذا الحديث وأبان ما عندهم من غباء ، هؤلاء الأغبياء يحلو لهم التعصب للقرآن الكريم ضد الحديث النبوى ، يقول لك أحدهم : حدِّثنى عن القرآن ، سبحان الله ، أتتعصّب للقرآن ضد الرسول الذى بلّغك القرآن ، وما عرفتَ القرآن إلا من طريقه ؟

ونقول لمن يُردد هذا الكلام : كم عدد ركعات الصبح وركعات الظهر والعصر والمغرب والعشاء ؟ وسوف يرد قائلاً : صلاة الصبح ركعتان ، والظهر أربع ، والعصر أربع ، والمغرب ثلاث ، والعشاء أربع ، فنقول : من أين أتيتَ بهذا ؟ يقول : من السنة .

نقول : إذن لابد من اتباع السنة حتى تستطيع أنْ تصلى ، ولن تفهم التطبيق العملى لكثير من الأحكام إلا باتباع السنة ، فمن أين علم أن المغرب مثلاً ثلاث ركعات ؟ أمن القرآن الذى يتعصب له ، أم من السنة التى يُنكرها ؟ إذن : كيف يتعبد على قول رسول الله ثم ينكره ؟

والحق سبحانه يقول : ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (٨٠)﴾ [النساء] فالطاعة للرسول هي طاعة لله ، وهذا أمر منطقى لأن الرسول إنما يبلغ عمَّنْ أرسله .

وإذا ما توارد أمر الطاعة من الله مع أمر من رسوله نطيع الاثنين ، وإذا كان الله قد جاء بأمر إجمالى كالزكاة والحج ، وجاء الرسول ففصّل ، فنطيع الله فى الأمر الإجمالى ونطيع الرسول فى الأمر التفصيلى .

والقرآن ليس كتابَ أحكام فحسب كالكتب السابقة ، إنما هو كتاب إعجاز ، ومع ذلك أدخل فيه بعض الأصول والأحكام وترك البعض الآخر لبيان الرسول وتوضيحه في الحديث الشريف وجعل له ﷺ حقاً في التشريع بنصٍّ القرآن : ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ..(٧)﴾ [الحشر]

فالحق سبحانه أعطى رسوله ﷺ تفويضاً عاماً بالتشريع وتفصيل ما أجمله الحق سبحانه في القرآن من أحكام ، وهذه ميزة تميَّز بها رسول الله خاتم الأنبياء والمرسلين .

فتشريعه مأمور به ومأذون فيه من صُلْب القرآن ، ولذلك إذا جاء لك حكم من الأحكام وقال لك المتعنت : هات لى هذا الحكم من القرآن فقد نظرتُ فى كتاب الله فلم أجد . فقل له : دليل الحكم فى القرآن هو قول الله : ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. (٧)﴾ [الحشر]

وأىّ حكم من الأحكام يأتى ولا تجد له سنداً من كتاب الله ويُقال لك : ما سنده ؟ قل : ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. (٧)﴾ [الحشر]

والحكم حينما يرد فى القرآن مجملاً ويُفصِّله رسول الله قولاً ثم يطبقه فعلاً تكون المسألة منتهية ، فالفعل أقوى ألوان النص فى الأوامر ، لأن الأمر قد يأتى كلاماً نظرياً وقد يتأول فيه البعض ، لكن عندما يفعل الرسول يكون الحكم لازماً ، لأن الذى فعل هو المشرِّع .

أرجم رسول الله أم لم يرجم ؟ قد فعل رسول الله ذلك ، وفِعْله هو نصٌّ عمليّ ، إن الفعل ليس نصاً قولياً يتأول فيه ، لقد رجم الرسول ماعزاً والغامدية ، ورجم اليهودى واليهودية وكانا قد أحصنا بالزواج والحرية .

وفعْل الرسول ﷺ هو الأصل فى الحكم ، فدليلهم قد سقط به الاستدلال وبقى ما فعله المشرع وهو الرسول المفوَّض من الله فى أنْ يُشرِّع قولاً أو فعلاً أو تقريراً ، أى يرى أحداً يفعل فعلاً فيُقره عليه .

فللرسول مهمة داخلة فى إطار القرآن ، ومثال ذلك فى حياتنا نجد مَنْ يقول لموظف : إن الموظف الذى يغيب خمسة عشر يوماً فى قانون الدولة يفصلونه ، فيأتى موظف ومعه دستور البلاد ليرد ويقول : هذا هو الدستور وقد قرأته فلم أجد فيه هذا القانون ، وهذا الكلام الذى تقوله عن فصل الموظف غير دستورى .

نقول له : إن الدستور قال فى هذه المسألة : وتُؤلف هيئة تنظم أعمال العاملين فى هذا المجال . إذن : فبالتفويض توجد هيئة تضع نظاماً ليُطبَّق على العاملين فتكون هذه من الدستور ، فكلٌّ بنود قانون العاملين تدخل فى التفويض الذى نصَّ عليه فى الدستور للهيئات أو اللجان التى تضع التشريعات الفرعية .

كذلك فنحن نصلى كما صلى رسول الله رغم أن كيفية الصلاة

وعدد ركعات كل صلاة لم ترد فـى دستور الإسلام وهو القرآن ، بل جاء به قول رسول الله وفعله ونحن مأمورون بطاعة رسول الله .

ونحن كذلك نزكى بنصاب الزكاة الذى حدده رسول الله ، ونحج إلى بيت الله الحرام كما حج رسول الله ، أما عن الصلاة فقد قال رسول الله : « صلُّوا كما رأيتمونى أصلى»[1] وعن الحج قال ﷺ : « خذوا عنى مناسككم »[2] .

ومثل هذا أيضاً ما جاء فى قوله تعالى : ﴿قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ .. (١٤٥)﴾ [الأنعام]

وعلى منطق التحريم للميتة والدم كان لا بدّ ألاّ نأكل الميتة من السمك ، وألاّ نأكل الدم المتمثل فى الكبد والطحال ، وإذا كان الحق سبحانه قد حرَّم الميتة والدم مُجملاً . فإن رسول الله المفوَّض بالتشريع من الحق سبحانه قال :

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٩٥ ، ٥٥٤٩ ، ٦٧٠٥) من حديث مالك بن الحويرث قال : أتينا إلى النبى ﷺ ونحن شببة متقاربون فاقمنا عنده عشرين يوماً وليلة ، وكان رسول الله ﷺ رحيماً رفيقاً ، فلما ظن أنّا قد اشتهينا أهلنا أو قد اشتقنا سألنا عمن تركنا بعدنا فأخبرناه قال : ارجعوا إلى أهليكم فاقيموا فيهم وعلّموهم ومروهم - وذكر أشياء أحفظها أو لا أحفظها وصلوا كما رأيتمونى أصلى ، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم وليؤمكم أكبركم .

(٢) أخرجه بهذا اللفظ البيهقى فى سننه الكبرى (١٢٥/٥) عن جابر بن عبد الله قال : أفاض رسول الله وأمرهم بالسكينة وأوضع فى وادى محسر وأمرهم أن يرموا الجمار مثل حصى الخذف وقال : « خذوا عنى مناسككم لعلّى لا أراكم بعد عامى هذا » . وأصله فى صحيح مسلم (٢٢٨٦) دون قوله (عنى) .

« أحلَّت لنا ميتتان ودمان ، فأما الميتتان فالحوت والجراد ، وأما الدمان فالكبد والطحال »[1] .

وذلك تخصيص من السنة لعموم القرآن ، فإنْ قال قائل : إن الله حرَّم الميتة ، والسمك والجراد ميتة ، فلماذا نأكلها ؟ نرد عليه : إن العرف جرى على أن السمك والجراد ليسا لحماً ، بدليل قولهم : « إذا كَثُر الجراد أرخص اللحم » وذلك يعنى أن الجراد ليس من اللحم .

أما بالنسبة للسمك فالسمك لم يكُن كالميتة التى حرمها الله ، لأن الميتة المحرمة هى كل ما يُذبح ويسيل دمه ، والسمك لا نفس سائلة له أى لا دم له ، والجراد أيضاً لا دم فيه .

إذن : فتحليل أكله وهو ميت إنما جاء بسبب عدم وجود نفس سائلة يترتب عليها انتقال ما يضر من داخله إلى الإنسان .

وكذلك الكبد والطحال أيضاً ليسا بدم ، فالدم له سيولة ، والكبد والطحال لحم متجمد متماسك ، خلاصة دم تكوّن منه عضو الكبد وعضو الطحال .

إذن : السنة لها دور فى بيان التحليل والتحريم ، فهناك تفويض من الحق سبحانه للرسول ﷺ ليكتمل البلاغ بمنهج الله بنصوص القرآن وبتفويض الله تعالى له أنْ يشرع .

ومن الأمثلة المهمة التى تبين دور حديث رسول الله فى بيان أحكام القرآن هو حالة طلاق المرأة ثلاثاً وكيف تحل لمطلقها ؟

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥٤٦٥) وابن ماجه فى سننه (٣٣٠٥) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما .

الحق سبحانه يقول : ﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ .. (٢٢٩) ﴾ [البقرة] ثم يقول بعدها : ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا.. (٢٣٠) ﴾ [البقرة] أى الطلقة الثالثة ﴿ فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٢٣٠) ﴾ [البقرة]

فظاهر الآية فهم منه بعض الناس الذين يريدون أنْ يتحللوا من أحكام الدين فى أشياء قد ترهقهم ، فمثلاً الذى طلَّق امرأته ثلاث مرات واستوفى ما شرع له من مرات الطلاق حُكْمه أنه لا تحلّ له زوجته هذه إلا بعد أنْ تنكح زوجاً غيره .

فيأتى مَنْ يقول - بناءً على الآية السابقة - ما دام النكاح هنا بمعنى العقد فهو إذن كافٍ فى حالة المرأة التى طُلِّقت ثلاث مرات ، وأنها تحلّ لزوجها الأول بمجرد العقد على آخر .

فلو أن سنة رسول الله لم تتعرض لهذه المسألة لكان هذا الفهم جائزاً فى أن مجرد العقد يبيح عودة الزوجة لزوجها ثانية ، ولولا أن رسول الله وضع شرطاً لعودتها إلى زوجها الأول ، وهو أنْ تتزوج زواجاً حقيقياً لا زواجاً صورياً ، لولا هذا لتلاعب الناسُ كما نسمع عن المحلل [1] .

---

(١) عن على رضى الله عنه رفعه إلى النبى ﷺ قال : « لعن الله المحلل والمحلَّل له » أخرجه أبو داود فى سننه (١٧٧٨) وابن ماجه فى سننه (١٩٢٥) وقد وصف رسول الله مَنْ يُحلِّل امرأة لزوجها الأول دون زواج حقيقى بالتيس المستعار ، فعن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم بالتيس المستعار ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : هو المحلل لعن الله المحلِّل والمحلَّل له » .

لذلك قال رسول الله : « حتى تذوق عُسَيْلته ويذوق عُسَيْلتها »[(١)] زواج حقيقى تُمارس فيه عملية المباشرة الزوجية وهى أصعب ما تكون على الزوج ، وهو أمر مقصود من المشرِّع ﷺ المفوّض من الله تأديباً للرجل الذى يظن أمر الطلاق والنطق به أمراً هيناً .

ونلحظ هنا أن دقة التشريع أو صعوبته فى كثير من المسائل لا يريد الله منه أنْ يُصعِّب على الناس ، وإنما يريد أن يرهّب من أن تفعل ذلك ، يريدك أن تبتعد عن لفظ الطلاق ، وألا تلجأ إليه إلا عند الضرورة القصوى .

وهؤلاء الذين يقولون : بيننا وبينكم كتاب الله ويرفضون حديث رسول الله ، ألم يقرأ هؤلاء قول الحق سبحانه فى كتاب الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ .. (٥٩) ﴾ [النساء]

فالتنازع فى شىء لا بدّ أنْ يكون فى قضية داخلة فى نطاق مأمورات الطاعة ، ويجب أنْ يكون لها مردّ يُنهى هذا التنازع ﴿ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ .. (٥٩) ﴾ [النساء]

فردّ الأمر يكون إلى الله سبحانه وإلى الرسول ، فكيف يجترىء

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : جاءت امرأة رفاعة القرظى النبى ﷺ فقالت : كنت عند رفاعة فطلقنى فأبتّ طلاقى فتزوجت عبد الرحمن بن الزبير إنما معه مثل هدبة الثوب . فقال : أتريدين أن ترجعى إلى رفاعة ؟ لا حتى تذوقى عسيلته ويذوق عسيلتك » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٤٥، ٤٨٥٦ ، ٤٨٦٠ ، ٤٩٠٥ ، ٥٣٤٦) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٥٨٧ ، ٢٥٨٨) .

أحدٌ يريد هدم الإسلام ويريد أنْ لا يأخذ بسنة رسول الله ويظن أن التحليل والتحريم إنما هو ما ورد فى كتاب الله فقط .

وليحذر هؤلاء أنْ يكونوا ممنْ قال الله فيهم : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. (٣٣) ﴾ [المائدة]

فحرب النبى تكون فى ترك قول أو فعل أو تقرير له عليه السلام ، على سبيل الإنكار لأحاديث رسول الله .

ومثل هؤلاء الذين يقولون : إن أحاديث رسول الله كثيرة ونقول لهم : كانت مدة رسالة رسول الله ثلاثة وعشرين عاماً وكل كلامه حديث ، فكل كلمة خرجت من فمه حديث شريف ، ولو كنا سنحسب الكلام فقط لكان مجلدات لا حصر لها ، ناهيك عن أفضاله ﷺ .

وكل كلام سمعه وأقرّه من غيره حديث ، وكل فعل فعله غيره أمامه وأقرّه ولم يعترض عليه حديث ، فكم تكون أحاديث رسول الله ؟ إنها الأصل الثانى من أصول التشريع الإسلامى بعد القرآن ، فكيف نهدره من أجل أقوال شاذة خارجة وقد أنبأنا بها رسول الله ﷺ .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ.. (٧) ﴾ [الحشر] أى : اتقوا الله فى المخالفة لأن المخالفة تبطل أعمالكم ، فطاعة الله لا تصح إلا بطاعة رسول الله ﴿ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧) ﴾ [الحشر]

عندما تسمع قول الله ﴿ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧) ﴾ [الحشر] فالذهن ينصرف إلى أن هناك ذنباً يستحق العقاب ، والعقاب هنا شديد لأن الذنب كبير وهو مخالفة رسول الله ، لأن الله يأمر بأن

نأخذ بما آتانا الرسول ﷺ وأن ننتهى عما نهى عنه رسول الله .

وعقاب الله للمخالف سيأتى فى وقت ليس للفرد فيه جاه من مال أو حسب أو نسب يحميه من الله ، فإن أطمعك ضعف المجتمع فى أن ترتكب الإثم أو تتعاون عليه فعليك أن تخاف الله لأن عقابه شديد .

ولكن كيف يأتى العقاب إلى المذنب ؟ والعقاب يتسلل إلى المذنب فى نفسه كمرض مؤلم لا يصرف المذنب فيه ما عنده من مال فقط ، لكنه قد يسأل الناس ليعالج نفسه ، أو يعالج من يحب ؟ وجنود عقاب الله قد لا تتأخر للآخرة بل تتسلل إلى حياة المذنب دون أن يعرفها ، وهذه هى شدة العقاب .

ونعلم أن العقاب لا يعم الناس إلا بقدر ذنوبهم ، فليس معنى أن الله شديد العقاب أن تصيب شدة العذاب من فعل ذنباً بسيطاً ، ولكن لكلٍّ جزاؤه على قدر ذنبه ، وهذا العقاب مهما كان بسيطاً فهو شديد أليم .

وإذا كان الحق سبحانه شديد العقاب لمن خالفه فإنه سبحانه غفور رحيم ، يقول الحق سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢١٨) ﴾ [البقرة] أى أنه غفور لما قد بدر وحصل منكم من ذنوب استغفرتم ربكم منها ﴿ رَّحِيمٌ (٢١٨) ﴾ [البقرة] بكم فلا يعاجلكم بالعقوبة شفقةً عليكم وحباً فى رجوعكم إليه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) ﴾

فالأَوْلَى بهذا الفيء هم المهاجرون الذين أُخرِجوا من ديارهم وتركوا خلفهم كلَّ ما يملكون ﴿يَبْتَغُونَ ..(٨)﴾ [الحشر] يطلبون من خروجهم هذا ﴿فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ..(٨)﴾ [الحشر] يطلبون فضل الله أى الزيادة فى رزق الدنيا ، فالفضل فى المعاش الدنيوى ، أما الرضوان ففى نعيم الآخرة .

لذلك قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ .. (٧١)﴾ [النحل]

ثم يطلبون رضوان الله فى الآخرة ، لذلك ورد في الحديث القدسى أن الحق سبحانه وتعالى يسأل أهل الجنة عن أحوالهم فيها فيقولون : لقد أعطيتنا فوق ما كنا نستحق ، فيقول سبحانه : ألا أزيدكم ؟ فيقولون : وهل أزيد من هذا ؟ قال : نعم أُحلّ عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعدها أبداً [(١)].

وقوله تعالى : ﴿وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ..(٨)﴾ [الحشر] أى : بهجرتهم وخروجهم من أموالهم وديارهم نُصرةً لدين الله ودعوة

---

(١) حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٦٧، ٦٩٦٤) وكذا مسلم فى صحيحه (٥٠٥٧) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، ولفظ الحديث : « إن الله يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة . فيقولون : لبيك ربنا وسعديك والخير فى يديك . فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يارب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ؟ فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : يا رب وأى شىء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبداً » .

رسول الله ﴿أُوْلَـٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ⑧﴾ [الحشر] صادقون فى إيمانهم ، صادقون فى خروجهم وتحمُّل تبعاته .

ولولا هذا الصدق فى الإيمان ما هانَ عليهم كل شىء فى سبيل الإيمان ، وما خرجوا من ديارهم وأموالهم .

لذلك بعد الهجرة نظر سيدنا رسول الله إلى مصعب بن عمير[1] وهو يلبس ملابس خشنة من جلد جاف ، فقال : انظروا ما فعل الإيمان بصاحبكم[2] ، وكان مصعب بن عمير من أغنى أغنياء مكة ، ويسمونه فتى قريش المدلل ، حتى أن الناس كانوا يدفعون مالاً لتُغسل ملابسهم مع ملابس مصعب لكثرة ما فيها من عطور[3] .

---

(١) مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف القرشى من بنى عبد الدار صحابى شجاع من السابقين إلى الإسلام ، أسلم فى مكة وكتم إسلامه فعلم به أهله وأوثقوه وحبسوه فهرب مع من هاجر إلى الحبشة ، ثم هاجر إلى المدينة وأسلم على يده أسيد بن حضير وسعد بن معاذ ، استشهد يوم أحد عام (٣ هجرية) كان يلقب (مصعب الخير) . [الأعلام للزركلى ٢٤٨/٧] .

(٢) عن عمر بن الخطاب قال : نظر النبى ﷺ إلى مصعب بن عمير مقبلاً وعليه إهاب (جلد) كبش قد تنطق به ، فقال النبى ﷺ : انظروا إلى هذا الرجل الذى قد نوَّر الله قلبه ، لقد رأيته بين أبوين يغذوانه بأطيب الطعام والشراب فدعاه حب الله ورسوله إلى ما ترون . أورده ابن الجوزى فى صفة الصفوة (٢٠٦/١) وأبو نعيم فى الحلية (١٠٨/١) .

(٣) أخرج الحاكم فى مستدركه على الصحيحين (٤٨٩٢) عن محمد العبدرى قال : كان مصعب بن عمير فتى مكة شباباً وجمالاً ، وكان أبواه يحبانه ، وكانت أمه تكسوه أحسن ما يكون من الثياب وأرقه ، وكان أعطر أهل مكة ، وكان رسول الله ﷺ يذكره ويقول : « ما رأيت بمكة أحسن لمة ، ولا أرق حلة ، ولا أنعم نعمة من مصعب بن عمير » . وكذا ابن سعد فى الطبقات الكبرى (١١٦/٣) .

ثم يقول الحق سبحانه[١]:

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾

الكلام هنا عن الأنصار أهل المدينة ، يقول تعالى مادحاً موقفهم من إخوانهم المهاجرين ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ .. ﴿٩﴾ ﴾ [الحشر] تبوأ يعنى : سكن واستوطن واستقر ، والدار هى دار الهجرة مدينة رسول الله ﷺ ﴿ وَالإِيمَانَ .. ﴿٩﴾ ﴾ [الحشر] فجعل الإيمان أيضاً شيئاً محسوساً يُتبوأ .

فالدار للقالب يأوى إليها الإنسان ليستريح من عناء اليوم وحركة الحياة ، والإيمان للقلب ، فكما أن الدار مرجع للقالب ، فالإيمان مرجع

---

(١) سبب نزول الآية : أورد السيوطى فى (أسباب نزول القرآن) عن يزيد بن الأصم أن الأنصار قالوا : يا رسول الله اقسم بيننا وبين إخواننا من المهاجرين الأرض نصفين . قال : ولكنهم يكفونكم المؤونة وتقاسمونهم الثمرة والأرض أرضكم . قالوا : رضينا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ ..﴿٩﴾ ﴾ [الحشر]

أما قوله ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ..﴿٩﴾ ﴾ [الحشر] فعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ دفع إلى رجل من الأنصار رجلاً من أهل الصُّفة ، فذهب به الأنصارى إلى أهله . فقال للمرأة : هل من شىء ؟ قالت : لا إلا قوت الصبية . قال : فنوميهم فإذا ناموا فأتينى فإذا وضعت فأطفئ السراج . قال : ففعلت وجعل الأنصارى يقدم إلى ضيفه ما بين يديه ، ثم غدا به إلى رسول الله ﷺ فقال : لقد عجب من فعالكما أهل السماء ونزلت ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ..﴿٩﴾ ﴾ [الحشر] [أخرجه البخارى فى صحيحه ٤٥١٠] .

للقلب يُرجع إليه فى كُلِّ قضاياه ومواقفه ويلتزمه ويرضى به حكَماً ومُنظِّماً لحركة الحياة ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ..(٩) ﴾ [الحشر] أى أن الأنصار يحبون المهاجرين

﴿ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا .. (٩) ﴾ [الحشر] أى : أن الأنصار تطيب نفوسهم بما أخذه إخوانهم المهاجرون من أموال الفىء فلا يجدون فى أنفسهم حقداً ولا حسداً ولا ضغينة ، ولا يمنُّون عليهم بما أعطوهم .

فلم يُقلْ أحد منهم : فلان أخذ منى كذا وكذا ، وكلهم أخذوا من الأنصار إلا مَنْ عفَّ مثل عبد الرحمن بن عوف[1] الذى قال لأخيه ابن الربيع : احفظ عليك مالك وأهلك ودُلَّنى على السوق ، ثم كان بعدها من أغنى أغنياء المدينة[2] .

وكان له نحو ألف من العبيد ، ولما سألوهم عن حال عبد الرحمن معهم فقال أحدهم : والله لو أقبلتَ علينا وهو بيننا ما عرفته .

ومع ذلك رآه رسول الله ﷺ يُبطئ فى دخول الجنة فسأله : ما أبطأك يا ابن عوف . قال : سألونى يا رسول الله عن هذا وهذا .

---

(١) أحد العشرة المبشرين بالجنة ، ولد ٤٤ قبل الهجرة ، من أكابر الصحابة ، أحد الستة أصحاب الشورى الذين جعل عمر الخلافة فيهم وأحد السابقين إلى الإسلام ، شهد بدراً وأحداً والمشاهد كلها ، أعتق فى يوم واحد ثلاثين عبداً . تصدق يوماً بقافلة فيها ٧٠٠ راحلة تحمل الحنطة والدقيق والطعام . [الأعلام للزركلى ٣ / ٣٢١] .

(٢) عن أنس بن مالك أن عبد الرحمن بن عوف هاجر إلى المدينة فآخى رسول الله ﷺ بينه وبين سعد ابن الربيع فقال له سعد : يا عبد الرحمن إنى من أكثر الأنصار مالاً وأنا مقاسمك وعندى امرأتان فأنا مطلق إحداهما فإذا انقضت عدتها فتزوجها فقال له : بارك الله لك فى أهلك ومالك ، أخرجه البخارى فى صحيحه بألفاظ أخرى (٣٤٩٦ ، ٣٤٩٧ ، ٤٦٨٤) وفيه : بارك الله لك فى أهلك ومالك ، دلونى على السوق .

ولم يقف الأمر بالأنصار عند هذا الكرم والجود وإنما تعدَّاه إلى الإيثار قال تعالى بعدها : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ..(٩) ﴾ [الحشر] فالجود أنْ تعطى بعض ما عندك ، أما الإيثار فأنْ تعطى كلّ ما عندك ولا تُبقى على شىء .

فالأنصار كانوا يُؤثرون إخوانهم المهاجرين على أنفسهم ويُعطونهم ما يحتاجونه .

وكلمة (خصاصة) مأخوذة من (الخُص) وهو عشة صغيرة يصنعونها من عيدان الحطب ، فهو شبه البيت لكنه لا يحمى صاحبه ولايصون أهله ، لذلك فهو بيت الفقير الذى لا يستطيع البناء .

فالخصاصة أى الفقر الشديد ، فرغم ما كان بهم من الفقر والحاجة إلا أنهم كانوا يُؤثرون إخوانهم على أنفسهم . وقلنا إنهم أى الأنصار قدَّموا لنا نموذجاً للعطاء لم يسبق له مثيل على مَرِّ التاريخ .

ثم تُقرر الآيات هذه الحقيقة ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) ﴾ [الحشر] المفلح من وقاه الله وجنَّبه هذه الصفة الذميمة ، وكلمة الشح البعض يقول البخل ، لكن الشحّ أعم وأشدّ من البخل لأن البخل ينشأ عنها ، نقول : شحَّ الشىء إذا قَلَّ ، وما دام قَلَّ فلا بد أنْ تحافظ على هذا القليل حتى لا ينتهى وينفد من بين يديك .

فالشح إذن يُدخِل فى جوارحك وتصرفاتك البخل ، ونستطيع أن نقول : الشح طبع القلب ، والبخل طبع القالب .

كلمة ﴿ الْمُفْلِحُونَ (٩) ﴾ [الحشر] مأخوذة من فلاحة الأرض واستخراج خيراتها ، لذلك نقول فى الأذان : حىَّ على الفلاح . أى : الفوز بكلِّ خير .

﴿ وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٠) ﴾

مَنْ هم الذين جاءوا بعد المهاجرين والأنصار ؟ المهاجرون والأنصار هم جيل الصحابة ، والذين جاءوا من بعدهم هم التابعون لهم ، جيل التابعين هم أفضل الأجيال بعد صحابة رسول الله ويأخذ حكمهم فى الأفضلية كل مَنْ سار على منهجهم ، وبقدر التمسك بالمنهج تكون الأفضلية .

ومن دعاء هؤلاء التابعين قولهم ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ .. (١٠) ﴾ [الحشر] يدعُون لهم لأن سبقهم للإيمان هو الذى أبقى لنا الإيمان الذى نفرح به ونعتز به ، فهذا الجيل أصحاب فضل على كل مسلم بعدهم ، لأنهم إما قتيل فى سبيل الله قدَّم حياته فى سبيل نُصْرة هذا الدين ، وإما عالم أفنى أيضاً حياته فى سبيل صيانة العلم ونَشْره .

ثم يقول : ﴿ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا ..(١٠) ﴾ [الحشر]

لأنهم نالوا المنزلة العليا التى لم يبلغها غيرهم ، فانزع يارب غلّ قلوبنا فلا نحقد عليهم ولا نحسدهم .

والغل : الحقد على شخص لأنه أدرك ما لم تستطع أنت إدراكه ، والغلّ من غليان النفس[1].

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ⑩﴾ [الحشر] الرأفة : دفع الأذى ومنع العقوبة . والرحمة أنْ تبدل العقوبة إلى مثوبة ، مثلاً عندك عامل قصَّر فى عمله تقصيراً يستحق عليه العقاب فترأف به بأنْ ترفع عنه العقوبة ، ثم يرقّ له قلبك فتعطيه منحة .

---

(١) عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : بينا نحن عند رسول الله ﷺ فقال : يطلع الآن رجل من أهل الجنة فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته ماء من وضوئه ، معلّق نعليه فى يده الشمال ، فلما كان من الغد قال رسول الله ﷺ : يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة فطلع ذلك الرجل على مثل مرتبته الأولى ، فلما كان من الغد قال رسول الله ﷺ مثل ذلك فطلع ذلك الرجل ، فلما قام الرجل اتبعه عبد الله بن عمرو بن العاص فقال : إنى لاحيت أبى فاقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثاً ، فإن رأيت أن تؤوينى إليك حتى تحل يمينى فعلت . فقال : نعم .

قال أنس : فكان عبد الله بن عمرو يحدث أنه بات معه ليلة فلم يره يقوم من الليل شيئاً غير أنه كان إذا تقلب على فراشه ذكر الله وكبَّر حتى يقوم لصلاة الفجر فيسبغ الوضوء غير أنى لا أسمعه يقول إلا خيراً ، فلما مضت الليالى الثلاث كدت أحتقر عمله قلت : يا عبد الله إنه لم يكن بينى وبين والدى غضب ولا هجرة ولكنى سمعت رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مرات فى ثلاث مجالس : يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة فطلعت أنت تلك المرات الثلاث . فأردت أن آوى إليك فأنظر ما عملك فإذا ما هو إلا ما رأيت فانصرفت عنه فلما وليت دعانى فقال : ما هو إلا ما قد رأيت غير أنى لا أجد فى نفسى غلاً لأحد من المسلمين ولا أحسده على خير أعطاه الله إياه . فقال له عبد الله بن عمرو : هذه التى بلغت بك وهى التى لا نطيق » . [أحمد فى مسنده ١٢٢٣٦] .

ثم يعود السياق بنا مرة أخرى إلى الحديث عن المنافقين :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى يفضح اليهود والمنافقين ويُفشى أسرارهم ويخبر رسوله ﷺ بما قالوه سراً فيقول له : ﴿ أَلَمْ تَرَ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الحشر] ومعناها أن إخبار الله لنبيه بشيء أوثق من رؤيته له ﴿ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا .. ﴿١١﴾ ﴾ [الحشر] وكان على رأسهم ثلاثة : عبد الله بن أبى ، وعبد الله بن الأكتع ، ورافع بن زيد[1] .

فهؤلاء انتهزوا الفرصة وقالوا لبنى النضير : إذا أخرجكم محمد لا تخرجوا ، فلما أمرهم رسول الله بالخروج قالوا : أنظرنا يا أبا القاسم ، فالموت أهون علينا من هذا وأمامنا عشرة أيام لكى نستعد .

---

(١) ذكر السيوطى فى الدر المنثور عند تفسير الآية (الحشر ١١) أسماء هؤلاء المنافقين أنهم عبدالله بن أبىّ بن سلول ورفاعة بن تابوت وعبدالله بن نبتل وأوس بن قيظى ، وعزاه لعبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر فى تفاسيرهم عن مجاهد . قلت : هذا هو الصواب فإن رافع بن زيد صحابى جليل شهد بدراً .

فأنظرهم رسول الله عشرة أيام ، فلما لم يخرجوا حاصرهم واحداً وعشرين يوماً حتى يئسوا ورفعوا راية التسليم .

الحق سبحانه وتعالى يكشف نفاق المنافقين فيقول : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ..(١١) ﴾ [الحشر] أى : يقولون لليهود ووصفهم بالكفر لأنهم وإنْ كانوا فى بدايتهم على دين سماوى إلا أنهم لما جاءهم ما عرفوا من بعثته ﷺ وما بشرتْ به كتبهم كفروا به فسماهم كافرين .

لذلك قال تعالى فى أهل الكتاب : ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) ﴾ [آل عمران]

ومن هؤلاء عبد الله بن سلام[1] وتعلمون قصة إسلامه ، وهو القائل : والله إنى لأعرف محمداً حين رأيته كمعرفتى لابنى ومعرفتى لمحمد أشد .

ماذا يقولون لهم ؟ ﴿ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ ..(١١) ﴾ [الحشر] أى : أخرجكم محمد من المدينة وما حولها ﴿ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ ..(١١) ﴾ [الحشر] قالوا هذا الكلام سراً بينهم وبين بعض .

وجعلهم إخواناً فقال تعالى : ﴿ يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ ..(١١) ﴾ [الحشر]

---

(١) عبد الله بن سلام أبو يوسف صحابى قيل إنه من نسل يوسف بن يعقوب ، كان اسمه « الحصين » أسلم عند قدوم النبى ﷺ المدينة ، سماه رسول الله ﷺ (عبد الله) ، شهد مع عمر فتح بيت المقدس والجابية ، ولما كانت الفتنة بين على ومعاوية اتخذ سيفاً من خشب واعتزلها وأقام بالمدينة إلى أن مات عام ٤٣ هجرية . [الأعلام للزركلى ٤ / ٩٠]

لأنهم بالفعل إخوان ، إخوان فى معاداة رسول الله ودعوة الحق ، أو إخوان لأنهم عقدوا عقد ولاء فيما بينهم ، أو إخوان فى الكفر بهذه الرسالة .

وقولهم : ﴿ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا ..(١١) ﴾ [الحشر] لانطيع أحداً يأمرنا بقتالكم ﴿ وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ .. (١١) ﴾ [الحشر] ثم يشهد الله ويحكم على هذا القول أنه كذب ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) ﴾ [الحشر] لأنهم منافقون والكذب يجرى فى عروقهم .

ثم يفضح كذبهم ويكشف نواياهم ﴿ لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ..(١٢) ﴾ [الحشر] يفرون من المعركة ﴿ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ (١٢) ﴾ [الحشر] وصدق الله فيما أخبر عنهم ، وهذا هو دأب المنافقين فى كل زمان ومكان ، يكذبون حتى على الله ، ويقولون ما لا يفعلون .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (١٣) ﴾

هذا يعنى أنهم مهما تبجحوا وتظاهروا بالقوة إلا أنهم فى أنفسهم يَرْهبُون المسلمين ويخافونهم أشدّ من خوفهم من الله ، وهذا المعنى عبَّرت عنه الآيات فى قوله تعالى : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ ..(١٤) ﴾ [التوبة]

فلو أراد الحق سبحانه لانتقم منهم وأخذهم أَخْذَ عزيز مقتدر ، وساعتها سيقولون آية طبيعية لكن الحق سبحانه يريد أنْ يُذلهم ويذيقهم العذاب بأيدى المسلمين لأنهم هم المواجهون لهم .

لذلك يخافون منكم أشدّ من خوفهم من الله ، لأنهم قوم ماديون لايؤمنون إلا بالمادة وبما يشاهدونه ، لذلك حينما تقرأ فى التلمود[1] تجده يتكلم فى مسائل مادية ، ولا ذِكر فيه لأمور تتعلق بالآخرة .

﴿ ذَلِكَ .. ⑬ ﴾ [الحشر] أى : خوفهم من المسلمين وعدم خوفهم من الله ﴿ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ ⑬ ﴾ [الحشر] نعم لا يفقهون لأن المسلمين لم يحاربوهم إلا بتوجيه من الله .

﴿ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ⑭ ﴾

لأنهم يخافون المسلمين ويرهبونهم يجبنون عن مواجهتهم فى حرب مفتوحة فى الصحراء ليس عندهم الشجاعة لمواجهة الجندى المسلم ، لذلك ﴿ لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ .. ⑭ ﴾ [الحشر]

وتحصين القرية يكون بحفر خندق حول القرية بحيث لا يستطيع

---

(١) التلمود هو تدوين لنقاشات حاخامات اليهود حول الشريعة اليهودية والأخلاق والأعراف وقصص من التراث اليهودى وهو مركب من عنصرين (الميشناه) و (الجمارا) وتمتاز المشنا بالإيجاز فهى تعبر عن القانون الواحد بقليل من السطور ، أما الجماريان فتذكران مختلف آراء كبار الأحبار عن نصوص المشنا .

أحدٌ أنْ يدخلها ، فلا بد أنْ يكون الخندق واسعاً وعميقاً وراسياً بحيث لا يستطيع الفرس القفز فوقه ، أو النزول فيه . أو تُحصّن القرية ببناء سور حولها لا يستطيع أحدٌ تسلُّقـه أى من وراء جُدر ، وأيضاً كانوا يُحصِّنون بيوتهم بسدِّ الأبواب بالمتاريس الخشب فلا يستطيع أحدٌ دخولها .

وقوله تـعالى : ﴿ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ..(١٤) ﴾[الحشر] أى أنهم يُظهرون المـحبة فـيما بينهم وهم فى الحـقيقـة يكره بعضـهم بعـضاً ويحقد بعضـهم على بعض .

﴿ تَحْسَبُهُمْ ..(١٤) ﴾ [الحشـر] أى : فى الظاهر ﴿ جَمِيعًا ..(١٤) ﴾ [الحشر] متحدين ﴿ وَقُلُوبُهُمْ .. (١٤) ﴾ [الحشر] فى الحقيقة ﴿ شَتَّىٰ .. (١٤) ﴾ [الحشر] مخـتلفة ومتـفرقة ، كـما كان بين بنـى قريظة وبنى النضيـر ، وأمر طبيـعى أنْ يختلف مثل هؤلاء ، وأنْ تتـفرّق قلوبهم ، فليس هناك حقٌّ يجمعهم ويُؤلِّف قلوبهم وجوارحهم .

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ (١٤) ﴾ [الحشـر] هناك قـال : ﴿ لَا يَفْقَهُونَ (١٣) ﴾ [الحشر] وهنا ﴿ لَّا يَعْقِلُونَ (١٤) ﴾ [الحشر] فنفى عنهم التعقل الذى يُميِّزون به بين الحق والباطل والصواب والخطأ .

والعقل كما ذكـرنا هو المرحلة الوسطى بين الحواس ، وهو الذى يغـربل المدركـات ، ويفاضـل بينها ، فـما اقـتنع به ألقـاه إلى القلب فيصير عقيدة راسخة ، فماذا تنتظر من قوم لا يعقلون ؟

﴿ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ[1] قَرِيبًا ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥) ﴾

---

(١) اختلف أهل التأويل فى المقصود بـ (الذين من قبلهم) :
- قصد بذلك بنى قينقاع . قاله ابن عباس .
- قصد بهم مشركى قريش ببدر . قاله مجاهد .

قال الطبرى : أولى الأقوال بالصواب أن الله لم يخصص منهم بعضاً فى تمثيل هؤلاء بهم دون بعض .

وذكر ابن الجوزى فى زاد المسير ثلاثة أقوال ، فزاد أنهم بنو قـريظة ولكن الصواب ما قاله ابن جرير الطبرى .

الحق سبحانه وتعالى يُشبِّه حال اليهود بحال إخوانهم من المشركين فى مكة ﴿قَرِيبًا ..﴿١٥﴾﴾ [الحشر] من عهد قريب ﴿ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ ..﴿١٥﴾﴾ [الحشر] أى سوء عاقبة شركهم ومصادمتهم لدعوة الحق ، وهذا إشارة إلى ما حدث لهم فى غزوة بدر .

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [الحشر] يؤلمهم ، والعذاب - أعاذنا الله وإياكم منه - ورد فى القرآن الكريم بعدة أوصاف لكلٍّ منها مغزى يناسب حال المعذَّبين والعياذ بالله ، فواحدٌ عذابُه شديد ، وواحدٌ عذابه أليم ، وواحدٌ عذابه مهين .

وقلنا : إن من الناس مَنْ لا يؤلمه الضرب ولكن تُؤلمه كلمة جارحة ، لذلك دخل رجل على معاوية[1] وأراد أنْ يُظهر له قوة تحمّله وتجلُّده للأعداء الكارهين له ، فقال مُتمثلاً بالشاعر أبى ذؤيب الهذلى[2] :

وتجلُّدِى لِلشَّامِتِينَ أُرِيهُمُوا أَنِّى ... لِرَيْبِ الدَّهْرِ لاَ أَتَضَعْضَعُ[3]

فردَّ عليه معاوية ببيت آخر من نفس القصيدة لنفس الشاعر :

وَإِذَا المنيَّةُ أنشَبَتْ أظْفَارهَا ... أَلْفَيْتَ كلَّ تَمِيمَةٍ لاَ تَنْفَعُ[4]

---

(١) معاوية بن أبى سفيان بن حرب بن أمية ، قرشى أموى ، مؤسس الدولة الأموية فى الشام ، ولد ٢٠ قبل الهجرة بمكة وأسلم يوم فتحها (٨ هـ) ، وقعت خصومة بينه وبين على بن أبى طالب وبعد مقتل على بويع بعده ابنه الحسن فسلم الخلافة إلى معاوية عام ٤١ هجرية حقناً للدماء ، دامت له الخلافة إلى سن الشيخوخة ، توفى (٦٠ هجرية) عن ٨٠ عاماً [الأعلام للزركلى ٧ / ٢٦٢] .

(٢) هو خويلد بن خالد أبو ذؤيب من بنى هذيل بن مدركة من مضر ، شاعر فحل مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام وسكن المدينة واشترك فى الغزو والفتوح ، عاش إلى أيام عثمان ، مات بمصر عام (٢٧ هجرية) أشهر شعره عينية يرثى بها خمسة أبناء أصيبوا بالطاعون فى عام واحد ، ومنها البيت الذى معنا (وتجلدى للشامتين ...) .

(٣) بيت من قصيدة من بحر الكامل أولها :

أمن المنون وريبها تتوجع ... والدهر ليس بمعتب من يجزع

وهى قصيدة طويلة . والضعضعة الخضوع والتذلل . والضعضاع : الضعيف من كل شىء . [راجع لسان العرب] .

(٤) المنية : الموت . أنشبت أظفارها أى علقت بأظفارها فى الإنسان فلا تنفع أى تميمة تتخذها لتحميك منه .

﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

أى : أن ما حدث من المنافقين حينما عاهدوا اليهود إنْ أُخرجوا ليخْرُجُنّ معهم ، ولئن قُوتلوا لينصرُنَّهم ثم تركوهم وتخلَّوْا عنهم مثل ما حدث من الشيطان حينما أغوى ابن آدم وأوقعه فى المحظور ، فلما طاوعه وكفر قال : إنى برىء منك لأنه أخذ حظّه منه وذهب ليبحثَ عن غيره .

إذن : هذا مَثَلٌ ، والمثَل يضربه الحق سبحانه لنا لتجلية أمر مجهول بآخر معلوم ، كما فى قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ..﴿٢٦١﴾ ﴾ [البقرة] فجزاء الصدقة غير معلوم يوضحه ما نشاهده من نبات الأرض وما يحدث فيها من مضاعفة الحبة إلى سبعمائة ضعف .

وقوله : ﴿ إِنِّى أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الحشر] يخاف الله رب العالمين لأنه لما طُرِدَ من الجنة قال ﴿ قَالَ أَنظِرْنِى إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الأعراف]

وقول الشيطان هنا ﴿ إِنِّى أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الحشر] فحظ الشيطان أن يُوقعك فى المعصية ثم يتبرأ منك ، والشيطان خذول لمن يتبعه .

فإنه يمد لك حبال الأمل ، فإذا ما جاء وقت الحاجة إليه تخلّى عنك وتركك ، كذلك يفعل الشيطان بأوليائه .

يقول تعالى : ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأنفال] وفى موضع آخر يقول لأتباعه : ﴿ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ..﴿٢٢﴾ ﴾ [إبراهيم]

فالشيطان يؤكد أنه لن يفزع لأحد من الذين اتبعوه لينجده ، فالشيطان لن ينجد أحداً من عذاب الله ، إنهم يستصرخونه لينقذهم بعد أن اتبعوه واستجابوا لتزيين الشر لهم ، وها هو يتخلى عنهم ويقول ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ..﴿٢٢﴾ ﴾ [إبراهيم]

﴿ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ (١) أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

أى عاقبة الشيطان وعاقبة من اتبعه من الإنس على الكفر بالله وبرسوله وبأوامر الله سبحانه ، فجمع الحق سبحانه بينهما فى مصير واحد وهو الخلود فى النار ، لأن كليهما تمرد على الله سبحانه .

فمن أنكر الدين وأنكر منهج الله سبحانه سيُجازى بالخلود فى النار ، فحين يأتيك أمر مخالف لمنهج الله فعليك أن تُعلى منهج الله فوق كل أمر ، واعلم أن الشيطان الذى زيَّن لك الوقوع فى مخالفة منهج الله سيسبقك إلى النار وسيخلد فيها ، فلا أنت قادر على إخراجه منها ولا هو قادر على إنقاذك منها .

لقد ظلمتَ نفسك بالكفر بالله وبتكذيبه وتكذيب رسوله وردّك أوامر الله ، والخلود فى النار هو جزاء الظالمين ، والظالمون هنا

---

(١) ضمير (هما) في قوله (عاقبتهما) يعود على الشيطان والإنسان الذى أطاعه فكفر بالله أنهما خالدان فى النار . قاله الطبرى في تفسيره لآية الحشر ١٧ .

بمعنى الكافرين الذين ارتكبوا الذنب الأكبر وهو الكفر بالله والشرك .

وقد قال عز وجل : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان]

وعلاقة الشرك بالظلم أنك جئتَ بمن لم يخلق ومَنْ لم يرزق شريكاً لمن خلق ورزق ، وجعلت البشر شركاء مع الله فى التشريع ، فحرَّمت ما أحل الله ، وأحللت ما حرم الله .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

النداء بـ ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الحشر] أمر إلهى يجب أنْ نسمع إليه وأنْ ننظر فيه ماذا يريد الله منّا ، فكما أخذنا منه سبحانه عطاءَ الربوبية يجب علينا أنْ نأخذ أيضاً عطاءَ الألوهية وهو التكاليف الشرعية ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الحشر]

فبعد أنْ ناداهم بوصف الإيمان أمرهم بالتقوى ، وهذا يعنى أن الإيمان النظرى لا يكفى ولا بد أنْ يُسانده الإيمان العملى التطبيقى لأوامر الله .

﴿ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الحشر] الأمر هنا مُؤكّد بلام التوكيد ونفس نكرة تفيد العموم ، فمطلوب من كلِّ نفس إنسانية أنْ تنظر ماذا قدمتْ ليوم القيامة .

وقال ﴿ لِغَدٍ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الحشر] للدلالة على قُرْبه ، وهذا يعنى أن

منهج الله الذى ارتضاه لكم لينظم حركة حياتكم ويُسعدكم فى دنياكم ليس هو نهاية المطاف ، والذين صادموا هذا المنهج وخرجوا عن إطاره وعاثوا فى الأرض فساداً ، أو عاشوا على عرق الآخرين ودمائهم لم ينته أمرهم بانتهاء الحياة الدنيا ، بل هناك (غد) .

هناك الحساب والجزاء ، فلا تُغيّبوا هذه الحقيقة عن أذهانهم وسِيروا فى حركة الحياة على هُدىً منها ، وإياكم أنْ تفارق أنظاركم.

ولأهمية هذه القضية كرر بعدها الأمر بالتقوى ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ .. (١٨) ﴾ [الحشر] فالنظر إلى الأعمال ومراقبتها أمر بين أمرين بتقوى الله ، والتقوى كما قلنا هى الجانب العملى فى الإيمان كأنه سبحانه يقول لك : إياك أنْ تعرف غايتك ولا تعمل لها وتسعى إليها .

وبهذا المنهج يسعد الناس ويأمن الإنسان على ماله وعرضه ، ونفهم من ﴿ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ .. (١٨) ﴾ [الحشر] أن كلَّ نفس تنظر إلى نفسها فى مسائل الإيمان ، انظر ماذا تريد وما هو هدفك ؟ وما هى غايتك ؟ لأن للآخرين أيضاً أهدافهم وأغراضهم فى الحياة .

فأنت الذى تملك نفسك ، وإياك أنْ تأخذ نفسك بنفس الغير ، فلكلٍّ واحد منّا غَرضه فى الحياة وقد يلُفّ غرضه ويُغلِّفه بأشياء أخرى ، فاجعل نفسك واحدة ، لأن غيرك لا يُسأل عنك ولا تُسأل عنه ، لذلك أفرد كلمة ﴿ نَفْسٌ .. (١٨) ﴾ [الحشر]

والحق سبحانه وتعالى حينما يخاطبنا : ﴿ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ .. (١٨) ﴾ [الحشر] إنما يدعونا لمحاسبة النفس والنظر فيما قدمت لتدارك ما قد نراه فى سلوكنا من تقصير أو انحراف عن جادة الطريق .

فعمر الإنسان أقصر من أنْ يضيع ويتفلّت من يده دون أنْ يشعر ،

فربك عز وجل خلقك وتركك تتمتع بنعم الدنيا حتى سِنّ الخامسة عشرة دون أنْ يُكلّفك بشيء .

فما كلفك إلا بعد أنْ استويت واكتمل تكوينُك ومداركك ، ثم جعل لك وقفة مع نفسك فى سنِّ الأربعين وهى سنُّ النضج الأعلى وهى سنُّ النبوة .

اقرأ : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي[1] أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) ﴾ [الأحقاف]

ثم يقرِّر سبحانه الجزاء ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦) ﴾ [الأحقاف]

انظر إذن إلى هذا الفضل من الله على عباده ، وهل بعد سنِّ الأربعين عُذْر لمعتذر ، ثم مَنْ يضمن البقاء حتى بلوغ الأربعين ؟ إذن : على العاقل أنْ يسابق الزمن بالأعمال الصالحات وأنْ يخطفها من الأيام خَطْفاً فقد لا تأتى سنُّ الأربعين .

الحق سبحانه وتعالى عبَّر عن الدار الآخرة بكلمة ﴿ غَدٍ ..(١٨) ﴾ [الحشر] ليدل على قربها بل الغد أبعد منها ، لأنها قد تأتيك بعد طرْفة عين ، وفى الحديث الشريف يقول ﷺ : « الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك »[2]

---

(١) أوزعنى : ألهمنى . قال ابن قتيبة : الأصل فى الإيزاع هو الإغراء بالشىء . ويقال : فلان موزع بكذا أى مولع به . [تفسير الماوردى للآية ١٥ سورة الأحقاف] .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٠٧) والإمام أحمد فى مسنده (٣٤٨٥ ، ٣٧٢٨) وكذا البيهقى فى شعب الإيمان (٩٨٧٧) وأبو يعلى فى مسنده (٥١٥٧) وابن حبان فى صحيحه (٦٦٢) من حديث عبد الله بن مسعود . وشراك النعل : سير النعل يكون فى وجه النعل يمسك النعل بالقدم . [لسان العرب - مادة شرك] .

ونفهم من كلمة ﴿لِغَدٍ ..(١٨)﴾ [الحشر] أنك فى الدنيا تعيش بالأسباب وفى غد تعيش بالمسبِّب سبحانه ، فليس هناك شمس ولا قمر ولا أرض تزرع ولا عمل ولا سعى .

لذلك لما تكلم الحق سبحانه عن الآخرة قال : ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا .. (٦٩)﴾ [الزمر] لأن الشمس ليس لها وجود ، والنور هناك نور الذات الإلهية .

قوله سبحانه : ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ (١٩)﴾ [الحشر] هناك أمر بتقوى الله وتطبيق منهجه ، وهنا نهى عن نسيان الله ، يعنى : حين تُطبِّق منهج الله ينبغى ألاَّ يغيب اللهُ عن بالك أبداً لأنه ربُّك وإلهك الذى تعمل له .

ونلاحظ هنا أن الآية الكريمة لم تقُلْ لنا لا تنسوا الله ، وانما ﴿لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ ..(١٩)﴾ [الحشر] فكأن نسيانَ الله أمر غير متوقَّع أن يحدث من الذين آمنوا .

والنسيان أن تكون عندك معلومة ثم تنصرف عنها بمشاغل أخرى ، أو تغفل عنها حتى تنساها ، لأن العقل فيه بؤرة الشعور وحاشية الشعور ، فالمعلومة تدخل فى بؤرة الشعور وطالما هى فى بؤرة الشعور تتذكرها .

فإذا انتقلتْ إلى حاشية الشعور تنساها وتحتاج مَنْ يُذكِّرك بها لتعيدها إلى بؤرة الشعور مرة أخرى ، وإلا لو ظلَّ كل شىء فى بؤرة الشعور لما التفتَ الإنسان إلى شىء آخر .

قال تعالى : ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ .. (٤)﴾ [الأحزاب] ومن نِعَم الله عليك أنك تستطيع أنْ تستدعى المعلومة من حاشية

الشعور حينما تحاول أنْ تتذكرها .

لكن كيف كان الله معلوماً لهـم ثم نسُوا ذكره تعالى ؟ قالوا : الله عز وجل معلومٌ لكـلِّ الخلْق منذ أنْ كانوا جميعـاً فى مرحلة الذر وهم فى ظهر أبيهم آدم عليه السلام ، ومنذ أنْ أخذ الله عليهم العهد :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف] فالحق سبحانه يخاطب فيك هذه الذرة التى أخذتها من أبيك آدم ، لأنه سبحانه القادر وحده على ذلك ، فيخاطب الذرة كما خاطب الأرض وكما خاطب النحل .

والحق سبحانه وتعالى أخذ علينا هذا العهد ليكون حجة علينا إذا غفلنا عن ذكْره تعالي أو نسيناه ﴿ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) ﴾ [الأعراف]

كأنه سبحانه يقول لك : إياك أنْ تقول هذا القول ، إياك أنْ تصيبك هذه الغفلة التى تُنسيك ذكر الله ، لأنه لا عذرَ لك فيه ، لأنه تعالى أخذ العهد علينا ثم توالتْ رسلُه وتتابعت تُذكِّرنا بهذا العهد .

فإذا ما حدث من الإنسان غفلة قامت هذه الذرة بدور المناعة فتذكّره وتَرده إلى الله ، قالوا : هذه الذرة هى النفس اللوامة فى الإنسان ، فإذا ضعُفتْ فلم تَردع صاحبها فاستشرى فى المعصية يَردعه المجتمع .

فإذا لم يوجد فى المجتمع الرادع وكان المجتمع أيضاً فاسداً قلنا : تتدخل السماء برسول جديد .

إلى أنْ جاءت رسالة محمد ﷺ وجعل الله أمته خير أمة أُخرجت

للناس لأنها تولَّتْ مهمة الأنبياء فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ .. (١١٠) ﴾ [آل عمران] لذلك جعلهم الله شهداء على غيرهم من الأمم ﴿ لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ..(١٤٣) ﴾ [البقرة]

وبهذا تحملتْ هذه الأمة مهمة الرسل وضمنا أن مجتمعنا لا يخلو أبداً من عناصر الخير وحاملى مشاعل الهداية ، ومهما انطمست الحقائق وأظلمتْ الصورة لانعدم وجود نموذج للخير وللهداية يردّ الناس إلى الجادة .

ومعنى ﴿ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ .. (١٩) ﴾ [الحشر] لأنهم نسوا الله ألهتْهم أموالهم وأولادهم عن الله وصرفتهم الدنيا وتواردت عليهم الغفلة فنسُوا حتى أنفسهم أى نسوا مصدر الخير لهم ، فكأنهم نسوا أنفسهم حينما حرموها من مصدر خيرها .

والإنسان حينما ينفصل عن ربه وخالقه يعيش فى ضَنْك مهما نال من نعيم الدنيا وزخرفها ، والمؤمن الموصول بربه يعيش سعيداً وإنْ كان لا يجد قوت يومه .

لذلك تجدهم أغنياء وأهل وجاهة ويذهبون إلى رجل (غلبان) يقول له : يا شيخ فلان ادع لنا . لأنهم يعرفون أنه يملك شيئاً لا يملكونه هم ، يملك أنه موصول بربه .

وإذا حدد الإنسان غايته هَانَ عليه الطريق وسَهُل عليه الوصول ، وما اختلف الناسُ هذا الاختلاف إلا باختلاف غاياتهم فى الحياة ، فتحديد الغاية أشقّ من الوصول إليها ، وهذا المعنى عبَّر عنه الشاعر فقال :[1]

---

(١) الشاعر هو ابن الرومى على بن العباس بن جريج أبو الحسن ، شاعر كبير من طبقة بشار والمتنبى ، رومى الأصل ولد (٢٢١ هـ) ولد ونشأ ببغداد ومات فيها عام (٢٨٣ هـ) عن ٦٢ عاماً . مات مسموماً بسبب هجائه لوزير المعتضد ، له ديوان شعر فى ثلاثة أجزاء . [الموسوعة الشعرية] .

أَلاَ مَنْ يُرِينِى غَايَتِى قَبْلَ مذْهَبِى   وَمِنْ أيْنَ وَالغَايَات بَعْـد المذَاهب[1]

والغاية الحقيقية هى الهدف الذى ليس بعده بعد ، ولو سلسلتَ غايات العالم كله ستجد أنها تنتهى عند الآخرة حيث الفوز والفلاح والنعيم الباقى الذى لا ينفد .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ أُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الحشر] ويقال : فسقت الرطبة أى بعدت القشرة عن الثمرة ، فعندما تكون الثمرة أو البلحة حمراء تكون القشرة ملتصقة بالثمرة بحيث لاتستطيع أن تنزعها منها .

فإذا أصبحت الثمرة أو البلحة رطباً تسود قشرتها وتبتعد عن الثمرة بحيث تستطيع أن تنزعها عنها بسهولة .

هذا هو الفاسق المبتعد عن منهج الله ، ينسلخ عنه بسهولة ويُسر لأنه غير ملتصق به ، وعندما تبتعد عن منهج الله فإنك لا ترتبط بأوامره ونواهيه .

والفسق فسقان : فسق صغير ، وفسق كبير . وهنا مشاكل : أيكون الفسق هنا مجرد خروج عن منهج طاعة الرسول ؟ لكن هذا الخروج يُوصف به كل عاص . أى أن صاحبه مؤمن بمنهج وفَسَق جزئياً .

إننا نقول عن كل عاصٍ : إنه فسق أى أنه مؤمن بمنهج وخرج عن جزئية من هذا المنهج ، أما الفسق الذى يتحدث عنه الحق هنا فهو فسق القمة لأنه فسق عن ركب الإيمان كله .

---

(١) البيت من قصيدة لابن الرومى من بحر الطويل من قصيدة طويلة .

﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ۝٢٠ ﴾

هذا أمر منطقى وأمر طبيعى ، وهما لا يستويان فى دنيا الناس فكيف يستويان عند الله الحكَم العدل ؟ حاشا لله لأن المساواة بينهما حُمْق فى التكاليف ، كيف يستوى مَنْ سار فى الدنيا على حَلِّ شعره يُعربد فيها كما يشاء مع مَنِ التزم بمنهج ربه وخالقه .

هذان فى الدنيا يمثلان الجنة والنار فى الآخرة ، وكما أن الجنة لا تستوى مع النار كذلك لا يستوى أصحابهما فى الدنيا .

وهذه المسألة نأخذها دليلاً على وجود الجنة والنار فى الآخرة ، فلو فعل أهل المعاصى معاصيهم وأفسدوا فى الأرض وآذوا العباد والبلاد ، ثم أفلتوا من العقاب وانتهى أمرهم بالموت لكانت الحظوة لهم والخسارة لأهل الإيمان والاستقامة ، وهذا أمر لا يصح ولا يقبله عقل .

ومن هؤلاء مَنْ يبرر لنفسه الانفلات من منهج الله ويقول حتى لو كان هناك جزاء وعقاب فسوف نُحرق فى النار وتنتهى القصة ، وغفل عن حقيقة الآخرة ، وأنها دار خلود وبقاء لا يفنى نعيمها ولا ينتهى عذابها .

﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ۝٥٦ ﴾ [النساء] وأذكر أن هذه الآية لما تحدثنا بها ورددنا على جماعة من المستشرقين أسلم سبعة منهم فى جلسة واحدة ، لأنهم لاحظوا فيها

وجهاً من وجوه الإعجاز العلمى فى القرآن .

فالقرآن أول مَنْ أعلن أن الجلد مصدر الإحساس ومحل الإذاقة ، وكانوا قبل ذلك يقولون المخ هو المسئول عن الإحساس .

كلمة ﴿أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ .. (٢٠)﴾ [الحشر] دلَّتْ على المصاحبة فكأن بينهما أُلْفة وصداقة ومصاحبة ، أهل المعاصى صاحبوا النار وأهل الطاعة صاحبوا الجنة ، وكل منهم ألِفَ صاحبه واطمأن إليه ورضى به بل ويشتاق إليه ، فالجنة تشتاق إلى أهلها وأصحابها وتنتظرهم ، والنار كذلك تلتهب وتفور شوْقاً إلى أهلها وأصحابها .

وقوله ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠)﴾ [الحشر] نعم فازوا بنعيم الجنة وفازوا برضا الله وارتاحوا من تعب الدنيا وعنائها ، وأصبحت خواطرهم هى التى تسيِّر حياتهم ؛ فبمجرد أنْ يخطر الشيء على باله يجده بين يديه دون تعب .

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) ﴾

نعم لو حدث ونزل هذا القرآن على جبل لكان هذا حاله ﴿خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ..(٢١)﴾ [الحشر] فالجبل على ثباته وقوته يخشع ويتصدَّع يعنى يتفتت خوفاً من الله وتقوم كل ذرة من ذراته

تباشر مهمتها انقيـاداً لربها وخالقها ، هذا إنْ كان الجبل مكلّفاً ، لكنه جماد غير مكلّف .

فمـاذا يحدث له لـو نزل عليـه القرآن ؟ ينـدكّ كمـا اندكَّ جـبل الطور[1] في قصة سيدنا موسى عليه السلام :

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَـٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا .. (١٤٣) ﴾ [الأعراف]

ومـعنى يندك يعني يسـيخُ في الأرض لهـول المـوقف . والجـبل بالطبع ليس مكلّفاً ، وقد عُرضت عليه الأمانة فأبى أنْ يتحملها .

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا .. (٧٢) ﴾ [الأحزاب] ولكن تكليـفه أنْ يظل هكذا مـخزناً للقوت والنماء ليعطى بنى البشر أقواتهم .

وأهل اللغة يقـولون (لو) حرف امـتناع لامتناع[2] ، فالإنزال لم

---

(١) جبل طور سيناء ويُعـرف أيضاً باسم (جبل موسى) و (جـبل حوريب) وهو اسم جبل في شبه جـزيرة سيناء ، وطور سيناء هي عاصـمة محافظة جنوب سـيناء ، وتقع على بُعد ٢٦٥ كيلو متراً من نفق الشهيد أحمد حمدى على خليج السويس .

(٢) قال في الجنى الداني في حروف المـعاني « عبارة أكثرهم : لو حـرف امتناع لامتناع . أي تدل على امـتناع الثـاني (الجـواب) لامتناع الأول (الـشرط) عـبـارة ظاهرها أنهـا غيـر صحيحة .. والتحقيق في ذلك أن لو حـرف يدل على تعليق فعل بفعل فيما مضى فيلزم من تقدير حـصول شرطـها حصـول جوابها . وفي شـرح ألفية ابن مـالك : الصـحـيح هو قول سيبويه : لو حـرف لما كان سيقع لوقوع غيره . مـثال هذا : لو طلعت الشمس لظهر النور فامـتناع طلوع الشمس ليس بلازم أن يمتنع بـسببه ظهـور النور ، فالنور له أسبـاب أخرى منها المصبـاح . ولهذا كان قولهم في معنى لو : حرف امتناع لامـتناع . ليس بصحيح على كل حال .

يحدث ، لكنه لو حدث لرأيتَ الجبل خاشعاً متصدِّعاً بالفعل ، والتصدع أنْ يتفتت هذا الصخر فيصير تراباً ، أما فى قصة سيدنا موسى فالجبل ظل متماسك الذرات لكنه اندكّ في الأرض كما يندكّ الوتد ، ولو أنك مثل الجبل لحدث لك هذا لأنك غير مُعدٍّ للرؤية ولا للتلقى المباشر عن الله .

فإن قلتَ : فكيف نرى الله فى الآخرة ؟ قلنا : لأن الله سيُعِّدنا إعداداً آخر وخلقاً آخر يصلح لهذه المسألة يخلقنا على هيئة قادرة على أنْ ترى الله ، ألا ترى أنك قد تكون فى الدنيا ضعيفَ النظر مثلاً فتذهب إلى طبيب العيون فيُجرى لك عملية فترى أفضل مما كنتَ ، هكذا .

لذلك قال تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) ﴾ [القيامة]

فقوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) ﴾ [الحشر] والأمثال جمع مثل وهو التشبيه الذى يقرِّب لنا المعنى ويعطينا الحكمة ، والأمثال باب من الأبواب العريقة فى الأدب العربى .

فالمثل أن تأتى بالشىء الذى حدث وقيل فيه قولة موجزة ومعبِّرة رأى الناس أن يأخذوا هذه المقولة لكل حالة مشابهة .

والحق سبحانه استخدم الأمثال فى القرآن الكريم فى أكثر من موضع ليقرب من أذهاننا معنى الغيبيات التى لا نعرفها ولا نشاهدها .

ولذلك ضرب لنا الأمثال فى قمة الإيمان وحدانية الله سبحانه وضرب لنا المثل بنوره جل جلاله ، وضرب لنا الأمثال بالنسبة للكفار

وهنا يضرب لنا الحق سبحانه المثل بالجبل إذا نزل عليه القرآن لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله ، فيظهر الحق سبحانه الأمر المعنوى فى صورة حسية مشاهدة ليقرب الأمر للناس ويزيده وضوحاً ورهبة وهيبة وخشوعاً ، فلستم أقوى من الجبال .

ثم يقول سبحانه : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) ﴾ [الحشر] أى : لعلهم يتفكرون فى منطق الحق ويخشون الله ، ويبعدون أنفسهم عن الوقوع فى الباطل حتى يكونوا فى وقاية من عذاب الله وسخطه .

وهو سبحانه يستثير فيهم التفكير بعد أن أثار فيهم عظمة وهيبة ما قد يحدث للجبل إذا أُنزل عليه القرآن .

وقوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) ﴾ [الحشر] من سمات الأداء القرآنى أنه يستخدم المثل لتوضيح القضايا ، والمثل أنْ تلحق شيئاً مجهولاً بآخر معلوم أمامك ، والشاعر لما أحب أنْ يصف الأحدب لرجل لا يعرف هيئة الأحدب قال :[1]

قَصُرَتْ أَخَادعه وَغَاصَ قَذَالُه[2] فكأنَّه مُتربِّصٌ أنْ يُصْفَعَا

وكأنَّما صُفِعَتْ قَفَاهُ مَرَّةً فَأَحَسَّ ثَانيةً لَهَا فَتجمَّعَا

(١) نسبت هذه الأبيات لابن الرومى (الموسوعة العربية) ونسبتها موسوعة الشعر العربى لعبد الله بن الطباخ فى وصف أحدب . وكذا عماد الدين الكاتب فى (خريدة القصر) ، ولكن نسبه ابن ليون التجيبى لأبى على بن رشيق .

(٢) القذال : هو جماع القفا فى مؤخره .

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ ﴾

قلنا : إن ضمير الغائب ﴿ هُوَ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحشر] إذا أُطلق لا ينصرف إلا إلى الله تعالى لأنه سبحانه هو الحاضر الذى لا يغيب وإنْ ناديناه بضمير الغيبة . وفى آية أخرى قال : ﴿ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [الأنعام] أى قل فى الرد عليهم ﴿ اللَّهُ .. ﴿٩١﴾ ﴾ [الأنعام] فهذه اللفظة وحدها تكفى وتدل على أنه تعالى لا إله غيره .

وفى الحديث الشريف قال ﷺ : « خير كلمة قالها النبيون من قبلى لا إله إلا الله »[1] فكوْن سيدنا رسول الله يقولها ﴿ اللَّهُ .. ﴿٩١﴾ ﴾ [الأنعام] فكأنه سبحانه أعفى رسوله من مسألة النفى والاستثناء فى ﴿ لا إِلَهَ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحشر] يعنى لما أقول : لا إله ربما خرجتْ روحى قبل أنْ أكملها ، فقال لا ، لأن ربك يعرف أنك ستقولها فلن يأخذك قبل أنْ تُتمها .

كلمة ﴿ هُوَ اللَّهُ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحشر] هو تشير إلى الغائب لأنك فى كوْن مخلوق لا ترى خالقه إنما تستدل عليه بعقلك ، فالذى لا تراه وهو غائب عنك هو الله ربك وخالقك . كذلك فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ﴾ [الإخلاص] فأتى بالضمير الغائب أولاً ثم بتعريفه ﴿ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ﴾ [الإخلاص] لأن الجملة الخبرية مرة يكون فيها المدلول

---

(١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبى ﷺ قال : « خير الدعاء دعاء يوم عرفة ، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير » . أخرجه الترمذى فى سننه (٣٥٨٥) .

عليها والدليل .

ففى قوله تعالى : ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح] فمحمد علَمٌ ومعروف لهم والمجهول الذى يحتاج إلى تعريف هو رسول الله فكيف تخبر بمجهول عن معلوم ؟ قالوا : كأنه يقول لهم : محمد الذى تعرفونه وتعرفون تاريخه وطفولته وسيرته وأمانته هو الذى اخترتُه رسولاً لكم ، كأن المبتدأ هو دليل وجود الخبر ، إذن : جعل محمداً نفسه هو الدليل على صدق الرسالة .

﴿اللَّهُ .. ﴿٢٢﴾﴾ [الحشر] علَم على واجب الوجود سبحانه واسمه الدال على ذاته تعالى وما عداه من الأسماء فهى صفات ، كما نقول : الحى القيوم القادر المحيى .. لذلك علَّمنْا رسول الله أن نبدأ كل شىء ذا بال ببسم الله ، لأنه الاسم الذى تنفعل له الأشياء ، وبه تطاوعك جوارحك وتنفعل لك .

وقوله تعالى : ﴿الَّذِى لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ ..﴿٢٢﴾﴾ [الحشر] نفىٌ لألوهية ما دون الله تعالى وإثباتها لله وحده لا شريك له ، وهذه الشهادة لا إله إلا الله أول مَنْ شهد بها شهد الله بها لنفسه سبحانه ، ثم شهد بها ملائكته ثم شهد بها أولو العلم : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ .. ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران]

إذن : أول مؤمن لله هو الله ، وأول مَنْ آمن بالله هو الله ، وهذه شهادة الذات للذات ، ثم شهدت الملائكة شهادة مشهد ، ثم شهد أولو العلم شهادة العقل والدليل والبرهان .

وما دام أن الله تعالى شهد لنفسه بهذه الشهادة ولم يَقُمْ لها

معارض أو منازع فالدعوى تثبت لصاحبها ما لم يَقُمْ لها معارض ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢) ﴾ [الإسراء]

وقوله : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ .. (٢٢) ﴾ [الحشر] قلنا : إن الدعوى تثبت لصاحبها حتى يأتى لها معارض ، فقال ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ (٢٢) ﴾ [الحشر] يعنى : لم يأتِ ولن يأتى لها معارض ، فالله عالم الغيب وعالم الشهادة أخبرنا بهذا .

والغيب : كل ما غاب عن الإدراك ، وما غاب عن الإدراك نوعان : نوع له مقدمات يمكن أنْ تُوصِّل إليه مثل تمارين الهندسة معطيات تُوصِّلك إلى المطلوب ، وهذا هو ما غاب عنك الآن لكن معك مقدمات توصِّلك إليه فيما بعد ، كالابتكارات التى تستجد (كالتليفزيون والراديو) فهو غيب لفترة ثم صار مشهداً .

وقد يكون الغيب غيباً عنك وليس غيباً عن غيرك ، فحين يُسرق منك شىء يصير غيباً عنك لكنه ليس غيباً عمَّنْ سرقه .

أما الغيب الذى اختصّ الحق سبحانه بعلمه ولم يُطلع أحداً عليه فهو الغيب المطلق لا يعلمه أحد إلا الله وليست له مقدمات تُوصِّل إليه أو تدل عليه ، لذلك قال سبحانه : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ..(٢٧) ﴾ [الجن]

أما ﴿ الشَّهَادَةِ (٢٢) ﴾ [الحشر] فالشهادة هى الشىء المشهود ، فما الميزة فى أنه سبحانه يعلم المشهود والخلق يعلمونه ؟ هذه المسألة وقفنا عندها فى قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) ﴾ [الأنبياء] فالحق سبحانه يمتنُّ علينا بمعرفة ما يكتمه

الإنسان ، فماذا فى معرفة الجهر والجميع يعرفون الجهر ؟ قالوا : المراد الجهر الجمعى .

وقلنا : هَبْ أننا فى مظاهرة تهتف ضد شخص ما ، نعم هذا جهر ونحن نسمعه فهل تستطيع أن ترجع كل صوت فيه إلى صاحبه ؟ هذه لا يقدر عليها إلا الله الذى يعلم الجهر فى كلّ زمان ومكان ، يعلم الجهر فى اللحظة فى كلّ أنحاء الدنيا ، ومَنْ يقدر على هذه إلا الله ؟

﴿ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) ﴾ [الحشر] ما علاقة الرحمن الرحيم بعالم الغيب والشهادة ؟ يعنى : أن عالم الغيب هو الرحمن الرحيم ليظل غيبُ كلّ الخلق مستوراً عن الخلق لتسير حركة الحياة آمنة ، فمن رحمة الله أنْ حفظ أسرارنا وغيبنا .

لذلك أباح الشارع الكريم أن تُفقأ عين مَنْ يتجسس عليك ويقتحم عليك بيتك دون أنْ تدرى به[(١)] .

والرسول ﷺ لما نظر إليه رجل من ثقب الباب قال : « والله لو رأيتُه لفقأتُ عينه »[(٢)] .

ذلك لأن البيوت تُبنى للستر ، والإسلام يحفظ للمسلم

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « لو اطلع رجل فى بيتك ولم تأذن له فحذفته بالعصا ففقأت عينه ما كان عليك جناح » [أخرجه الخرائطى فى مساوىء الأخلاق ٧٥٦] وصححه الألبانى فى الأدب المفرد للبخارى (١٠٦٨) .

(٢) عن سهل بن سعد الساعدى قال : اطلع على رسول الله رجل من ستر له وفى يد رسول الله مدرى ، فقال رسول الله : لو أعلم أنه ينظرنى لفقأت عينه . الطبرانى فى المعجم الأوسط (٢١٣) .

وقد أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٢٤١) قال سعد : اطلع رجل من جحر فى حُجر النبى ﷺ ومع النبى ﷺ مدرى يحك به رأسه فقال : لو أعلم أنك تنظر لطعنت به فى عينك ، إنما جُعِل الاستئذان من أجل البصر . وكذا عند مسلم فى صحيحه (٥٧٦٤) .

خصوصياته فى بيته له خصوصية ، وفى حجرته الخاصة له خصوصية ، وفى حجرة نومه له خصوصية . لذلك أمرنا الحق سبحانه بأدب الاستئذان وأمرنا أنْ نعلمه الأولاد الصغار ليشبُّوا عليه ، وحذَّرنا من التجسس وتتبُّع عورات الآخرين .

وفى الحديث الشريف : « مَنْ تتبَّع عورات المسلمين تتبَّع الله عورته حتى يفضحه فى عقر داره »(1) .

ذلك لأن تتبُّع العورات والبحث عنها من أعظم أسباب الفساد فى الأرض وإفساد العلاقات ، فأنت ترى الرجل يعجبك دينه وتصرفاته وتُرضيك حركته فى الحياة ، فلو تتبعتَ غيبه وبحثتَ عن عوراته زهدتَ فيه وفسد رأيك فيه .

فالستر أوْلَى لسلامة العلاقات ، ومن الشر أنْ تزهد فى أهل الخير ودُعاة الخير ، وقد فطن الشاعر إلى هذا المعنى فقال(2) :

اعملْ بِعلْمى وَلاَ تركَنْ إلى عَملِى ... واجْنِ الثّمَارَ وخَلِّ العُودَ للنَّارِ

فالله رحمن رحيم فى علمه للغيب ، ونحن نبدأ بها أعمالنا فنقول : بسم الله الرحمن الرحيم ، فبها نُعان ونُوفّق ، وبها تنفعل لنا الأشياء ، فأنت لا تقدر على الفعل بذاتك إنما بتسخير الله لك ينفعل الشىء حتى

---

(1) عن أبى برزة الأسلمى قال قال ﷺ : « يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ، فإن من تتبع عورات المسلمين تتبع الله عورته حتى يفضحه فى بيته » أخرجه أبو يعلى الموصلى فى مسنده (٧٤٢٣) .

(2) ما وجدته فى هذا أن هذا البيت هو عبارة عن شطرين من بيتين مختلفين :

الأول : اعمل بعلمى ولا تنظر إلى عملى ... ينفعك قولى ولا يضررك تقصيرى

ذكره ابن عبد ربه فى العقد الفريد ونسبه للخليل بن أحمد .

الثانى : فإن رواة العلم كالنخل يانعاً ... فكُلْ الثمار وخلِّ العود للنار .

ذكره صاحب معجم الأدباء ياقوت الحموى وعزاه لابن فضال .

لو كنتَ عاصياً لله خارجاً عن منهجه لا يحرمك عطاء الرحمن الرحيم ، ولا يؤاخذك بـغبائك ، لأنك عـبده وصَنعـته ، وهو ربُّك وخـالقك الذى استدعاك لهذا الوجود .

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

تكرار هذه العبارة ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِى لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ ..﴿٢٣﴾﴾ [الحشر] أفادت تأكيـد أنه سبحانه وتعـالى المتصف وحده بهـذه الصفات التى جـاءت بعـدهـا ، فـالله وحـده الذى لا إله إلا هو ، هو عـالـم الغـيب والشهادة ، الرحمن الرحيم ، الملك القـدوس ، السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر .

(الملك) اسم من أسمائه تعالـى ، ومادة (ملك) منها مالك وهو الذى يملك شيـئاً مهمـا كان صغيراً حـقيراً ، حتى لو كـان يملك الثوب الذى يلبسه يُسمى مالك فهو إذن كلّ مَنْ يحوز شيئاً ، ومنها الملك وهو الذى يملك من يملك ؛ فالحق سبـحانه هو (الملك) الذى يملك الأشياء ويملك مالكيـها فهم عباده وصنعـته ، ولم يصف الحق سبحـانه نفسه بأنه مـالك إلا يوم القـيامـة ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾﴾ [الفاتـحة] فهـو سبحـانه فى هذا اليوم المالك حيث لا مـالك غيره سبـحانه ، ففى هذا اليوم تُنتزع الأملاك من أصحابها فلا أحدَ يملك شيئاً .

ومعنى ﴿الْقُدُّوسُ ..﴿٢٣﴾﴾ [الحشر] مـبالغـة فى التنزّه عن كلِّ

نقيصة ، وزيادة فى الطهر الطهور الذى يُطهر كل شىء ، لذلك تقول الملائكة فى تسبيح الله : سبوح قدوس رب الملائكة والروح[(١)]. أنت يا ربنا مسبَح تُسبِّحك كل المخلوقات ، قدوس أى منزه عن كل عيب ونقيصة .

وهذه من الكلمات التى لا تُقال إلا له سبحانه ، لذلك قلنا فى دعائه تعالى : سبحانك ولا تُقال إلا لك . وبالفعل وجدناها فى دنيا الناس ، فكم فيها من عظيم مطاع آمر ناه ، تُقال له كل ألفاظ التكبير والتفخيم ، ومع ذلك لم نسمع أحداً يقول لأحد : سبحانك .

وقلنا ذلك أيضاً فى لفظ الجلالة (الله) ، فمع وجود الكفر والكافرين والملاحدة ومنكرى الألوهية لم نجد أحداً أبداً سمَّى ابنه (الله) لماذا ؟ لأنه لا يجرؤ على ذلك أحد ، يخاف أنْ يُؤخذ فى لحظتها أخْذ عزيز مقتدر .

لذلك قال سبحانه فى تعظيم نفسه ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥)﴾ [مريم] والذين يأخذون بمبدأ الصرفة[(٢)] يقولون : إن الله سبحانه هو الذى صرفهم عن هذا .

نقول : حتى لو لم يصرفهم ما جرُءوا على ذلك ، كما قالوا فى

---

(١) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (١٢ / ٧١٧) وعزاه لعبد بن حميد وأبي يعلى وابن جرير وابن أبى حاتم وغيرهم عن أبى هريرة من حديث طويل قال : « والملائكة يحمل عرشه ثمانية وهم اليوم أربعة أقدامهم على تخوم الأرض السفلى والأرضون والسماوات إلى حجزهم والعرش على مناكبهم لهم زجل بالتسبيح فيقولون : سبحان ذى العزة والجبروت ، سبحان ذى الملك والملكوت ، سبحان الحى الذى لا يموت ، سبحان الذى يميت الخلائق ولا يموت ، سبُّوح قدوس رب الملائكة والروح ، سبحانه ربنا الأعلى الذى يميت الخلائق ولا يموت » .

(٢) القول بالصرفة يعنى أن الله صرف البشر عن معارضة هذا القرآن ، وإلا فإن العرب قادرون على المعارضة . وهو كلام المعتزلة وقد رد عليهم أهل السنة (انظر شرح العقيدة الطحاوية ١ / ١٢٣ ، ٧٦٣) .

قضية إعجاز القرآن أن الله تعالى صرف العرب عن الإتيان بمثل هذا القرآن ، ولولا أن الله صرفهم لأتوا بمثله ، وهذا القول مجانب للصواب ، لأنهم لو لم يُصرفوا أيضاً لا يأتون بمثله .

ومعنى ﴿السَّلامُ ..(٢٣)﴾ [الحشر] أى السلام فى ذاته تعالى ، والسلام مشتق من السلامة ، أى سلامة الجوارح من التعارض والتنافر مع ذاتها فهى منسجمة مع بعضها البعض .

لذلك عندما بُلِّغت السيدة خديجة : إن ربك يُحييك بالسلام قالت : الله السلام[1] ، ولم تقل وعلى الله السلام ، لأنه سبحانه هو السلام فى ذاته ، لذلك جعل تحية المسلمين السلام عليكم ، فحين يطرأ عليك طارئ لا تعرف أهو آتٍ بخير أم بشرٍّ .

فحين يقول : السلام عليكم نأمن جانبه ونأنس إليه ، لأنه جاء من باب السلام ونردّ عليه التحية : وعليكم السلام . أى : نحن أيضاً أهل سلام ولن ينالك منا إلا السلام .

لذلك جعلها الله تحية الملائكة لأهل الجنة : ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣)﴾ [الزمر] ثم يُرقى هذه التحية فيحيى بها الحق سبحانه وتعالى عباده وأهل جنته : ﴿سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨)﴾ [يس]

وكلمة ﴿الْمُؤْمِنُ ..(٢٣)﴾ [الحشر] أيضاً اسم من أسمائه تعالى

---

(١) أخرج ابن منده فى التوحيد (٢٠٦) عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ قال لها : « هذا جبريل يقرأ عليك السلام . فقالت عائشة : الله السلام ومنه السلام وعلى جبريل السلام » وكذا حدث مع خديجة رضى الله عنها أن جبريل قال لرسول الله : الله يقرئها السلام فقالت : هو السلام ومنه السلام وعلى جبريل السلام ، أخرجه الطبرانى في المعجم الكبير (١٨٥٥٩).

وصفة من صفاته سبحانه . ومادة (أمن) تتعدّى بنفسها فى مثل قوله تعالى : ﴿ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ④ ﴾ [قريش] وقوله تعالى ﴿ أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا ..㊼ ﴾ [القصص] أى : جعلناهم آمنين لا يخوفهم شىء .

وتتعدّى بالباء ، كما فى قوله تعالى : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ..(١١٤) ﴾ [آل عمران] وهى هنا بمعنى اعتقده ، ومرة تتعدى باللام : ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا .. ⑰ ﴾ [يوسف] أى : مُصدِّق .

فمعنى ﴿ الْمُؤْمِنُ ..㉓ ﴾ [الحشر] الذى يُؤمِّن عباده مما يُخيفهم ، أو هو المؤمن بمعنى الإيمان ، فهو سبحانه أول مَنْ آمن بنفسه تعالى ، كما قلنا شهادة الذات للذات فى ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ ..⑱ ﴾ [آل عمران] وإذا كانت بمعنى التصديق فهو سبحانه المصدِّق لرسله بالمعجزات .

﴿ الْمُهَيْمِنُ ..㉓ ﴾ [الحشر] المهيمن على الشىء يعنى القيِّم عليه المتصرِّف فيه ، قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ..㊽ ﴾ [المائدة]

فالقرآن مهيمن على الكتب قبله والكلمة له والله تعالى المهيمن على خلْقه القائم عليهم المتصرِّف فيهم ﴿ الْعَزِيزُ ..㉓ ﴾ [الحشر] هو الشىء النادر الوجود الذى لا مثيلَ له . والعزيز : هو الغالب الذى لا يُغلب .

﴿ الْجَبَّارُ ..㉓ ﴾ [الحشر] صفة من صفات الجلال للحق سبحانه وتعالى يقهر بها المخالفين لمنهجه ، وهى أيضاً من صفات الخلْق ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) ﴾ [الشعراء]

وقال : ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ .. (٤٥)﴾ [ق] يعنى : مسيطر عليهم تقهرهم على أنْ يؤمنوا .

والله سبحانه وتعالى أيضاً جابر نقول : يا جابر كل كسير ، وجابر العثرات يجبر كسر الفقير فيغنيه ، ويجبر كسر الجاهل فيعلمه ، ويجبر كسر الضعيف فيقويه .

وكذلك من الخَلْق من هو جابر العظام يسمونه مُجبِّر أو مجبراتى ، وهو الذى يعيد العظام إلى موضعها ويربط عليها بالجبيرة .

مع الفارق بين صفة الحق وصفة الخلْق ، صفة الحق سبحانه ذاتية فيه والصفة فى الخَلْق موهوبة قد تُسلب منه . والجبروت فى الخلق فيه ظلم وتعدٍّ ، أما الجبروت فى حقه تعالى ففيه حلم وحكمة وعدالة .

ومعنى ﴿الْمُتَكَبِّرُ ..(٢٣)﴾ [الحشر] من الكبر وهى صفة مذمومة فى الخَلْق محمودة فى الخالق سبحانه ، فى الخلق صفة نقص وفى الخالق صفة عظمة وكمال .

والكبر صفة ذاتية فى الله تعالى وصفة مفتعلة فى المخلوق لأنه يتكبر بشىء موهوب له ليس ذاتياً فيه ، من الناس مَنْ يتكبّر بماله أو بصحته أو بجاهه ، وهذه كلها عوارٍ[1] مستردَّة وعَرَض زائل .

لذلك الله وحده هو المتكبر بحق وما سواه متكبر بالباطل ، الله متكبر لأنه الغنى عن خَلْقه لا ينقصه شىء وهو واهب كل شىء ، لذلك من نعم الله علينا أنه المتكبِّر لأن تكبُّره سبحانه يعنى أنه لا يظلم : ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦)﴾ [فصلت]

(١) العوارى جمع العارية وهو تمليك المنفعة ، فالله يعطيك المال والصحة والجاه كحق منفعة تنتفع به طيلة حياتك ، فإذا مت استرد الله ما ملكك فيه وقد يرده إلى أولادك من بعدك . فهى على سبيل الإعارة لك ولستَ مالكاً حقيقياً لأى منها .

فهذه من كبريائه تعالى لأن الظلم يعنى أنْ تأخذ ما ليس لك لتزيد فيما عندك ، والله متكبر عن هذا لأنه مالك كلّ شيء على الحقيقة ولا ينقصه شيء .

لكن هل جبّارية العبد تُخرجه عن جبّارية خالقه ؟ لا بل يظل تحت جبارية خالقه عز وجل لا ينفلت منها ، وكيف له ذلك ؟ لأن خالقه وإنْ جعله مختاراً فى أنْ يطيع أو يعصى ، أنْ يؤمن أو يكفر ، يفعل أو لا يفعل إلا أنه مقهور فى منطقة أخرى لا اختيارَ له فيها .

وهذه هى جبارية خالقه عليه لا تنفك عنه ، لذلك يُعجبنى قولهم : إذا دعتْك قدرتك إلى ظلم الناس فتذكَّر قدرة الله عليك[1] .

ومن حظّ المخلوق أنْ تكون الكبرياء للخالق وحده فلكلٍّ واحد منا نصيب من هذا الكبرياء بالتساوى ، الكبرياء لله يعنى ألا يتكبَّر واحد منا على الآخر لأننا أمام كبرياء الله سواء ، ومن عرف أن الكبرياء لله وحده استحى أنْ يتكبّر على خَلْقه .

وقوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) ﴾ [الحشر] يعنى : تنزيهاً لله تعالى عما يشركون به .

﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤) ﴾

---

(١) هو من أقوال عمر بن عبد العزيز . قال ابن الجوزى أنه كتب إلى بعض عماله : أما بعد فإذا دعتك قدرتك على الناس إلى ظلمهم فاذكر قدرة الله عليك فى نفاد ما يأتى إليهم وبقاء ما يأتى إليك .

أيضاً هنا يعيدها ﴿هُوَ اللَّهُ ..(٢٤)﴾ [الحشر] للمرة الثالثة لأن الآيات مستمرة فى ذكر أسماء الله تعالى وصفاته ، ومنها ﴿الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ..(٢٤)﴾ [الحشر] هكذا فى خيط واحد ، لأن هذه المعانى الثلاثة ما هى إلا مراحل متتالية للشىء الواحد .

فالله هو الخالق والخَلْق إيجاد من العدم ، والبارىء أى الذى يُسوِّى هذا المخلوق على هيئة صالحة ليؤدى مهمته التى جعل لها مثل ما تبرى القلم لتكتب به أو تبرى السهم ليصيب الهدف .

فالأشياء لا تؤدى مهمتها إلا إذا كانت على هيئة معينة ، الولد مثلاً كان أبوه حداداً فذهب معه إلى الورشة فوجده يأخذ عود الحديد المستقيم ويُعوجه ، فالولد تعجَّب لفعل أبيه كيف يعوج المستقيم .

فبيَّن له الوالد أنه يريد أن يصنع منه خطافاً ، والخطاف لا يؤدى مهمته إلا إذا كان هكذا مُعْوجاً .

ثم ﴿الْمُصَوِّرُ ..(٢٤)﴾ [الحشر] الذى يُصوِّر هذا المخلوق كيف يشاء ويُصوِّره على غير مثال سابق ، فقال فى الإنسان ﴿الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧)﴾ [الانفطار] وقال ﴿فِى أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨)﴾ [الانفطار] فهنا طلاقة قدرة ، أولاً قدرة قادرة على أنْ تُوجد من عدم وتُبرز إلى الوجود شيئاً لم يكن موجوداً وقبلها إرادة ترجح المطلوب .

وبعد ذلك يأتى المصوِّر فيعطيها الصورة اللائقة ، وتأمل الإعجاز فى خَلْق الإنسان وتصويره وطلاقة القدرة فى كثرة الأعداد وفى عدم

التطابق فى الأشخاص .

نحن نرى المهندس مثلاً لمنتج معين يصنع له قالباً يعطى نماذج متساوية ومتطابقة مثل الأكواب مثلاً ، أما الخالق سبحانه فيبدع فى الخلْق بحيث يأتى كل إنسان خَلْقاً فريداً وحده لا يطابق غيره أبداً .

وتعرفون الآن الاختلاف فى بصمة اليد وبصمة الصوت وكل يوم يكتشفون في الإنسان بصمة جديدة تُميِّزه عن غيره ، ولولا هذا التمايز فى خَلْق البشر لتشابهوا وتداخلت شخصياتهم وحدث خلط ولَبْس بحيث لا تستقيم حياة البشر إلا بهذا التميز ، وإلا لو حدثت جريمة كيف نعرف الفاعل وكيف نميِّزه عن غيره .

وقوله سبحانه : ﴿لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ..(٢٤)﴾ [الحشر] قلنا إن لفظ الجلالة (الله) هو علَم على واجب الوجود سبحانه وهو الاسم وغيره من الأسماء هى فى الحقيقة صفات ، فالخالق البارىء المصوِّر صفات للحق سبحانه وتعالى ولشهرتها انتقلت من الوصف إلى الاسم .

والدليل على أنها صفات أن الله وصفها بالحسنى ، والحسنى جمع لمؤنث ، ولو كانت أسماء لقلنا الأسماء الحسان ، إذن هى صفات لكن اشتهرتْ عنه سبحانه وخُصّت به وحده فصارت اسماً له ، فحين نقول ﴿الْبَارِئُ ..(٢٤)﴾ [الحشر] فلا تُطلق إلا على الله .

المصوِّر لا تقال إلا له سبحانه وهكذا إذن هذه صفات ، ولما كانت لا تُطلق إلا على الله صارت اسماً له سبحانه ، فالوصف قد

يكون من الشهرة بحيث يلتصق بصاحبه ، فلا ينصرف إلا إليه كما نقول أمير الشعراء ، فلا تنصرف إلا إلى أحمد شوقى .

ومعنى ﴿الْحُسْنَىٰ ..(٢٤)﴾ [الحشر] أى التى تدلّ على صفات الكمال المطلق له سبحانه ، فلفظ الجلالة (الله) يدل على الوجود فقط وبه تنفعل لك الأشياء عندما تبدأ ببسم الله ، مثل القاضى حينما يجلس للحكم يقول : باسم الشعب ، لأن الشعب هو الذى جعله يجلس على هذه المنصة .

كذلك إنْ أردتَ عملاً فيه قدرة أو حكمة أو علم أو رحمة فقُلْ : يا الله ، لأنه الاسم الجامع لكلٍّ هذه الصفات ولكلٍّ التجليات فى هذه الأسماء .

وقوله تعالى : ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٢٤)﴾ [الحشر] لاحظنا أن مادة (سبّح) فى القرآن استوعبتْ الزمان كله فى الماضى والحاضر والمستقبل ، قال هنا ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٢٤)﴾ [الحشر] وقال ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ (١)﴾ [الحديد]

وقال ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى (١)﴾ [الأعلى]

فالله مُسبَّح فى كل وقت ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ..(٤٤)﴾ [الإسراء] بل إنه سبحانه مسبَّح قبل أنْ يخلق مَنْ يُسبِّح .

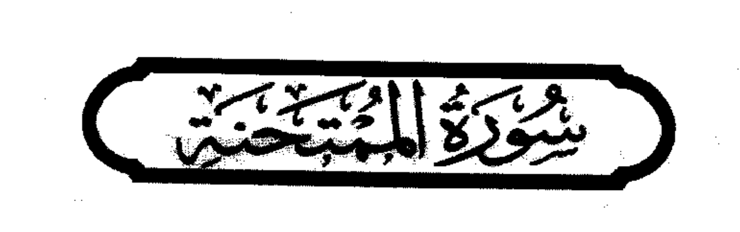
قال هنا ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ .. (٢٤) ﴾ [الحشر] بضمير الغائب إشارة إليه سبحانه لأن الآيات السابقة بدأتْ بقوله تعالى ﴿ هُوَ اللَّهُ ..(٢٤) ﴾ [الحشر] فالله الذى هذه صفاته : الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر .. هو الذى يُسبِّح له ما فى السموات والأرض .

ومرة يقول : ﴿ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ..(١) ﴾ [الجمعة] قلنا : لأن السموات والأرض خَلْق عجيب ومُعجز بذاته ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ .. (٥٧) ﴾ [غافر] فالسموات والأرض تُسبِّح قبل أنْ يخلق الإنسان المسبِّح .

﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤) ﴾ [الحشر] العزيز : قلنا النادر الذى لا مثيلَ له ، أو العزيز يعنى القوى الذى يَغلب ولا يُغلب . وهذه الغلبة مُنزَّهة عن البطش والظلم والتعدِّى لأنها محكومة بالحكمة .

﴿ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤) ﴾ [الحشر] والحكيم الذى يضع الشىء فى موضعه وضعاً يناسب مهمته ، فالقوة تُذمّ حينما تكون منفلتة لا ضابط لها .




سورة الممتحنة

تنويه

تقتضى الأمانة العلمية التى التزمنا بها طيلة صفحات مجلدات خواطر الشعراوى تحقيقاً وتخريجاً وتوثيقاً لما قاله إمام الدعاة الشيخ محمد متولى الشعراوى رحمه الله ورضى الله عنه .

فالشيخ رحمه الله قد توفاه الله وهو فى آخر آية من سورة الممتحنة ، وقد نهضت همتنا لإكمال خواطره رحمه الله على نفس منهجه الدعوى وأسلوبه المتميز من المزج بين الخواطر واللغويات والنواحى الأدبية والأسلوبية التى تبرز إعجاز هذا القرآن العظيم .

وقد استعنا فى هذا بمسموعات ومرئيات وبتفسيره أيضاً وصغناها بأسلوب قريب المتناول كما هى عادة الشيخ رحمه الله .

ولم نخرج فى هذا التفسير عن منهجه وروحه الدعوية ولم نألُ جهداً فى الرجوع أولاً إلى الكثير من التفاسير بمناهجها المختلفة سواءً التى تفسر القرآن بالقرآن ، أو التى تفسر القرآن بالمرويات والأحاديث أو التى تفسره من الناحية اللغوية كالبغوى أو تلك التى تفسره بالمنهج الفكرى فى الآيات كالرازى والالوسى .

قمنا بهذا العمل حسبة لله عز وجل ، ورجاء إيصال وتكملة هذا الكنز الذى ستذكره الأجيال بكل الخير .

قمنا بهذا العمل تحت إشراف ودعم فضيلة الشيخ / سامى متولى الشعراوى

الأستاذ / عادل أبو المعاطي

الشيخ / رجب فتحى محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الممتحنة[1]

يقول الحق سبحانه :[2]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١ ﴾

---

(١) سورة الممتحنة هى السورة رقم (٦٠) فى ترتيب المصحف ، عدد آياتها ١٣ آية ، وهى سورة مدنية نزلت بعد سورة الأحزاب وقبل سورة النساء فهى خامس سورة تنزل بالمدينة .

(٢) سبب نزول الآية : نزلت فى حاطب بن أبى بلتعة وهو أنه أتى امرأة ادعت الإسلام فى المدينة وهى من قريش ، أتاها حاطب وأعطى لها كتاباً إلى أهل مكة وأعطاها عشرة دنانير على أن توصل إلى أهل مكة كتاباً وكتب فى الكتاب : من حاطب إلى أهل مكة أن رسول الله يريدكم فخذوا حذركم ، فخرجت سارة ونزل جبريل فأخبر النبى بما فعل حاطب ، فبعث رسول الله علياً وعماراً والزبير وطلحة والمقداد بن الأسود وكانوا كلهم فرساناً وقال لهم : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن فيها ظعينة معها كتاب من صاحب إلى المشركين فخذوه منها وخلوا سبيلها فإن لم تدفعه إليكم فاضربوا عنقها فخرجوا حتى أدركوها فى ذلك المكان فقالوا لها : أين الكتاب ؟ فحلفت بالله ما معها كتاب ، ففتشوا مكانها فلم يجدوا معها كتاباً فهمُّوا بالرجوع فقال على : والله ما كذبنا ولا كذبنى وسلَّ سيفه وقال : أخرجى الكتاب وإلا والله لأجزرنك ولأضربن عنقك .

فلما رأت الجد أخرجته من ذوائبها قد خبأته فى شعرها ، فخلوا سبيلها ورجعوا بالكتاب إلى رسول الله فأرسل رسول الله إلى حاطب فأتاه فقال له : هل تعرف الكتاب ؟ قال : نعم. قال : فما حملك على ما صنعت ؟ فقال : يا رسول الله والله ما كفرت منذ أسلمت ولاغششتك منذ نصحتك ولا أجبتهم منذ فارقتهم ولكن لم يكن أحد من المهاجرين إلا وله بمكة من يمنع عشيرته وكنت غريباً فيهم وكان أهلى بين ظهرانيهم فخشيت على أهلى .. فنزلت . أسباب النزول للواحدى ص ٢٣٩ .

هذا نداء من الله عز وجل يقول : يا مَنْ آمنتم بى رباً وبأنِّى الإله الواحد الخالق الرازق التزموا منهجى الذى جاء به رسولى إليكم ، ففى هذا المنهج نجاتكم وسعادتكم فى الدنيا والآخرة ، واحذروا إغفال هذا المنهج أو الانصراف عنه لأنكم لو انصرفتم عنه أصابكم العطب ، وحدث الخلل فى حركة حياتكم ، ولن ينصلح حالكم إلا بالرجوع إليه والله لا يُغير ما بقوم حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم .

واعلموا أن التزامكم بمنهجى لايزيد شيئاً فى مُلْكى ولا صفة لم تكنْ لى ، بصفات الكمال فىَّ خلقتكم ، وما فرضتُ عليكم هذا المنهج إلا لصالحكم فأنتم صنعتى وكلٌّ صانع يحب لصنعته النجاة والسعادة ، فخذوا عنى هذا التوجيه ﴿ لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ .. (١) ﴾ [الممتحنة] أى : لا تجعلوا منهم أولياء لأنهم أعداء ، والعدو لا يكون أبداً ولياً . العدو الذى يُعاديك ويصادمك .

وهذه الكلمة فى اللغة تلزم الإفراد مع المثنى والجمع ، تقول : هذا عدو وهذان عدو وهؤلاء عدو . ومن ذلك قوله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم عن الأصنام ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) ﴾ [الشعراء]

الحق سبحانه وتعالى قدَّم العداوة التى له سبحانه : ﴿ لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى ..(١) ﴾ [الممتحنة] لأن عدوّى سيكون بالتالى عدواً لكم فلا تجعلوا منهم أولياء ، والولى هو الذى تُواليه وتُقرِّبه وتتخذ منه نصيراً ومُعيناً ، ولو اتخذتم أولياء من أعداء الله أفسدوا عليكم حياتكم لأنهم مصادمون لمنهج الله فلا يُنتظر من ولايتهم خير .

وفى آية أخرى شرح لنا هذا المعنى فقال سبحانه : ﴿ لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ

فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً .. (٢٨)﴾ [آل عمران] يعنى هذا الحكم ليس حكماً فى قالب حديدى ، فقد تضطرنا الأوضاع فى وقت ما لأنْ نُداهنهم إنْ كانوا أقوى منّا إلى أنْ نتمكن من مواجهتهم .

لكن إياك أنْ تستخدم مبدأ التقية[1] ، إياك أنْ تدخل من هذا الباب وأنت فى الواقع لا تقصده ، لذلك قال تعالى بعدها : ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٢٨)﴾ [آل عمران]

وقال سبحانه موضحاً لنا هذه القضية : ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً[2] مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً .. (١١٨)﴾ [آل عمران] البطانة هم الحاشية والمقربون منك ، ومعنى ﴿مِّن دُونِكُمْ .. (١١٨)﴾ [آل عمران] أى من غير المؤمنين ، فلا توالوا هؤلاء لأنهم ﴿لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً .. (١١٨)﴾ [آل عمران] لايُقصِّرون فى إفسادكم وإضعاف قوتكم .

فالله يريد لكم حركة مستقيمة وهم يريدون لكم حركة مُعوجة ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ..(١١٨)﴾ [آل عمران]

وفضح نواياهم فقال : ﴿هَـٰأَنتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ .. (١١٩)﴾ [آل عمران] فليس لأحد بعد هذا البيان عذرٌ فى موالاتهم .

---

(١) التقية نوع من النفاق ويشتهر به الشيعة الرافضة الذين يلعنون الرافضة ويلعنون الشيعة أمام أهل السنة ويترضون على الصحابة فى الظاهر . وقد ظهرت هذه الفكرة (التقية) فى منتصف القرن الرابع . وقد جعلوها أصلاً من أصول فقههم للتخلص من تبعة رد كل سنة ثبتت عن النبى ﷺ حتى أنهم قالوا : لا إيمان لمن لا تقية له .

(٢) بطانة : أخصّاء وأصفياء . وبطانة الرجل ووليجته من يعرّفه أسراره ثقة به . قاله أبو السعود فى تفسيره . واشتقاقه من بطانة الثوب .

وفى موضع آخر قال تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ..(٥٧) ﴾ [المائدة] إذن : لأهمية هذه القضية أخذت رقعة واسعة فى كتاب الله حتى لا يقع المؤمنون فى هذا الفخ وهذا المنزلق الخطير .

وتأمل الأداء البيانى فى ﴿ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ..(١) ﴾ [الممتحنة] المراد تعطونهم وتخبرونهم بأسرار النبى ﷺ طلباً لمودتهم ، فجعل الأسرار التى تُفشَى كأنها مودة ومحبة بين الطرفين ، إما تُلقونها أنتم إليهم ، أو يُوقعون هم بكم ليأخذوها منكم .

﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ ..(١) ﴾ [الممتحنة] أى : كيف تفعلون ذلك مع مَنْ كفر بالحق الذى جاء به محمد ؟ ﴿ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ ..(١) ﴾ [الممتحنة] أى يُخرجون رسول الله ويُخرجونكم بسبب إيمانكم بالله ، فالإيمان وحده علّة الإخراج ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ..(٢٨) ﴾ [غافر] أى : بسبب قوله ربى الله .

لذلك لم يُطِقْ كفار مكة وجود المؤمنين معهم فى مجتمع واحد ، لأن وجودهم سيقلب الموازين الاجتماعية ، وسيسحب بساط السيادة من تحت أقدامهم ، ولِمَ لا وهو دين يُسوِّى بين السادة والعبيد ؟

وقوله تعالى : ﴿ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي ..(١) ﴾ [الممتحنة]

يعنى : إنْ كان خروجكم من أجلى جهاداً فى سبيلى إعلاءً لدينى ونُصْرةً لرسولى وطلباً لمرضاتى فلا تتخذوا أعدائى أولياء ، كأنه تعالى يقول لهم : أكملوا مسيرة الإيمان وكما صدقتم فى خروجكم

من أجل الله فاصدُقوا معه ولا تتخذوا من أعدائه أولياء .

﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ..(١)﴾ [الممتحنة] أى : تودونهم وتحبونهم وتجعلون ذلك سراً ، أو تُسرُّون إليهم بأخبار رسول الله ﷺ .

﴿ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ ..(١)﴾ [الممتحنة] يعنى : احذروا مَنْ لا تخفى عليه خافية منكم .

﴿ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ ..(١)﴾ [الممتحنة] أى : يُوالى أعداء الله .

﴿ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١)﴾ [الممتحنة] أى : انحرف عن الطريق المستقيم والنهج القويم .

والسواء هو الوسط . و(سواء السبيل) هو وسط الطريق . وهو الطريق السليم المستوي الموصل للغاية .

وقد كانت طرق العرب إما فيها رمال وإما بين الجبال ، وكانوا يختارون السير في وسط الطريق حتى لا ينالهم أذى من جرف هار من الرمال فيقع بهم ، أو أن تقع عليهم صخرة من جبل . ولذلك كانَّ من لا يسير في سواء السبيل يضل لأنه يسلك سبيلاً لا يؤدى به إلى غاية خير .

﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ(١) يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) ﴾

أى : أن عداوتهم لكم دائمة ﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ .. (٢)﴾ [الممتحنة] فى أى مكان وجدوكم فيه حتى لو مصادفة ﴿ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً .. (٢)﴾ [الممتحنة] ومن علامات هذه العداوة ﴿ وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ .. (٢)﴾ [الممتحنة]

---

(١) يثقفوكم : ثقف الشيء وجده وظفر به . أى حيث وجدتموهم وظفرتم بهم . [القاموس القويم ١ / ١٠٧]

بسط اليد عادة يكون بالخير ، أما هؤلاء فلن ينالكم منهم إلا الشر والأذى بالقول تارة وبالفعل أخرى ، وهذه نتيجة طبيعية لبُغضهم لكم وحقدهم عليكم .

﴿ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) ﴾ [الممتحنة] فليست بواطنهم بأقلّ حقداً من ظواهرهم ، فهم يؤذونكم فى الظاهر ويحبون أن تكونوا أمثالهم فى الكفر بالله كى لا تكون لكم قوة عليهم وتظل لهم السيطرة .

﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣) ﴾

كأنهم كانوا يوادون أعداء الله من أجل أرحامهم ومن أجل أولادهم وخوفاً عليهم ، وهؤلاء لن ينفعوهم ولن يُغنوا عنهم من الله شيئاً يوم القيامة ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) ﴾ [عبس]

وقال سبحانه : ﴿ وَاخْشَوْا يَوْمًا لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا .. (٣٣) ﴾ [لقمان]

إذن : لا تُوال أعداء الله من أجل أحد لأنهم لن يدفعوا عنك العذاب ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ .. (٣) ﴾ [الممتحنة] فهؤلاء فى الجنة وهؤلاء فى النار .

وقالوا : نزلت هذه الآية فى حاطب بن أبى بلتعة[1] وكان مؤمناً

---

(١) حاطب بن أبى بلتعة : صحابى شهد الوقائع كلها مع رسول الله وكان من أشد الرماة وكانت له تجارة واسعة ، ولد (٣٥ ق. هـ) ، بعثه النبى ﷺ بكتابه إلى المقوقس صاحب الإسكندرية ، كان أحد فرسان قريش وشعرائها فى الجاهلية . توفى بالمدينة عام (٣٠ هـ) عن ٦٥ عاماً . [الأعلام للزركلى ٢/١٥٩] .

وهاجر إلى المدينة ، لكنه وقع فى زلة حيث إنه لما علم أن رسول الله ﷺ يستعد لفتح مكة أرسل إليهم كتاباً مع امرأة[1] أخفتْه فى شعرها ، وكتب فيه : من حاطب بن أبى بلتعة إلى قريش إن محمداً يريدكم فاحذروه .

فأوحى الله تعالى إلى رسوله بذلك ، فاستدعى كلاً من علىّ وعمار وعمر وطلحة والزبير وكانوا فرساناً وقال لهم : الحقوا بامرأة ظعينة[2] تجدونها بروضة خاخ[3] معها كتاب إلى قريش وائتونى به ، فلما لحقوا بها وسألوها عن الكتاب قالت : ليس معى شىء ، ففتشوها ومتاعها فلم يجدوا شيئاً وأرادوا الانصراف .

فقال علىّ رضى الله عنه : والله ما كذبنا ولا كذب رسول الله ولا كذب الوحى على رسول الله ، وسَلَّ سيفه وقال لها : إما أنْ تُظهرى الكتاب وإما قتلتك ، فأخرجتْه من شعرها وعادوا به إلى رسول الله .

فاستدعى رسول الله حاطباً وقال له : ما حملك على هذا ياحاطب ؟ فقال : يا رسول الله إنى امرؤ ليس لى أهلٌ ولا عصبية ، ولى أقارب بمكة فأردتُ أنْ أتخذ عند قريش يداً ، وأعلم أن ذلك لن يضرك من الله بشىء وأنك منصور منصور ، فقال رسول الله ﷺ : صدقتَ .

---

(١) هذه المرأة هى سارة مولاة لبعض بنى عبد المطلب بن عبد مناف وكانت مغنية بمكة وكانت قدمت على رسول الله المدينة وطلبت منه الميرة وشكت الحاجة فأوقر لها بعيراً طعاماً فرجعت إلى قريش وارتدت عن الإسلام [السيرة الحلبية ٢/١١] .

(٢) يقال للمرأة ظعينة بمعنى مرتحلة ، ظعن ظعناً ارتحل . وهى أيضاً فعيلة بمعنى مفعولة لأن زوجها يظعن بها . ويقال : الظعينة فى الأصل وصف للمرأة فى هودجها . [المصباح المنير] .

(٣) روضة خاخ موضع بين مكة والمدينة بقرب حمراء الأسد من المدينة فى أحمائها ، وهى روضة كثيرة الماء والشجر وهى الآن من ضواحى المدينة إلى الجنوب منها يقع بأعلى العقيق بين وادى شوط وبين الناصفة بالقرب من أبيار الماشى .

فقال عمر : لا يا رسول الله دَعْنى أضرب عنقه ، فقال : لا يا عمر ، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : افعلوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم - وكان حاطب من أهل بدر[١] .

إذن : الأرحام والقرابات لا تحملك أبداً على مخالفة منهج الله لأنك لا تدرى من أين يأتيك الخير ، لذلك الإسلام أعلى علاقة العقيدة فوق علاقة النسب ، والشواهد على ذلك كثيرة فى تاريخ الدعوة ، فعبيد الله بن عبد الله بن أُبى استأذن رسول الله فى أنْ يقتل أباه بدل أنْ يقتله أحدٌ من المسلمين غيره .

وابن أبى بكر يقول لأبيه : لقد رأيتُك يوم بدر ولكنى عزفتُ عنك، يعنى كان بإمكانى قتلك ولكن تركتُك رحمة بك ، فقال له أبو بكر : أما أنا فلو رأيتُك لقتلتُك[٢] .

والذين يحللون فلسفة التدين فى مسألة سيدنا أبى بكر وولده يقولون : هذا أمر طبيعى منطقى ، لأن ابن أبى بكر قارن بين أبيه ومعتقده حتى لو كان معتقده فى الإله الحق ، فمن الصعب عليه أنْ يقتل أباه ، أما أبو بكر فيقارن بين ربه الإله الحق وبين ولد من أولاده ، فاختار ربَّه على ولده .

---

(١) حديث طويل أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٠٠٧ ، ٣٩٨٣ ، ٤٢٧٤) وكذا مسلم فى صحيحه (٦٥٥٧) باب من فضائل أهل بدر . وأبو داود فى سننه (٢٦٥٢) وكذا الترمذى (٣٣٠٥) ، وأحمد فى مسنده (٦٠٠) من حديث على رضى الله عنه ، وكان معه الزبير والمقداد .

(٢) حدث هذا فى غزوة بدر . والصِّديق قاتلهم حتى قال له ابنه عبد الرحمن : قد رأيتك يوم بدر فصدفت عنك . فقال أبو بكر : ولكنى لو رأيتك لقتلتك . (كتاب أبو بكر الصديق لابن قاسم الحنبلى ص ٤٧) . وقال ابن برهان الدين الحلبى فى كتابه السيرة الحلبية (٢ / ٤١٤) أن عبد الرحمن لما أسلم قال لأبيه : لقد أهدفت لى أى ارتفعت لى يوم بدر مراراً فصدفت عنك أى أعرضت عنك فقال أبو بكر : لو هدفت لى لم أصدف أى أعرض عنك .

ومصـعب بن عمر يقـتل أخاه عبيـد فى إحدى المعـارك ، ويُؤخذ أخوه الآخر أسيراً فيقـول لأبى اليسر الذى أسره : أشدد على أسيرك فإن أمه غنية وسـتفديه بمال كثير ، فنـظر إليه وقال : أهذه وصايتك بأخـيك يا مـصعب ؟ قـال : بل هو أخى لا أنت . إذن : كـانت رابطة العقيدة أقوى وهى الأساس الذى انطلقوا منه .

وقوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣)﴾ [الممتحنة] يعنى : احـذروا بصر الله إليكم وعـينه التى لا تغـفل ولا تنام ، واعلمـوا أنه يراكم ومُطلع على أفعالكم مهما أسررتُم موالاة أعدائه ، ومهما داريتم فهو بصير بكم .

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ(١) أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤)﴾

بعد أنْ حـدّثتنا الآيات عن حكم مـوالاة أعداء الله تعطينا نمـوذجاً فى ذلك واختارت له سـيدنا إبراهيم عليه السـلام أبا الأنبياء ، لأن له قصة وموقفاً فى دعوة أبيه وقومه :

---

(١) العداوة ضد الصداقة . والعدو ضد الصديق . والبغضاء شدة العداوة والكره والمقت .

﴿ واتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) ﴾ [الشعراء]

إذن : خذوا أباكم إبراهيم قدوة وأسوة فى هذه المسألة ، ومعنى ﴿ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ .. (٤) ﴾ [الممتحنة] نموذج طيب فى عمل الخير تتأسَّون به وتفعلون مثله ، حيث تبرَّأ إبراهيم من الشرك والمشركين حتى لو كان فيهم أبوه أو عمه الذى ربّاه وله فضل عليه .

فكان لنا قدوة فى التبرى من الكافرين والمشركين ، وكلمة (بُرءاء) جمع برىء ، وهو الذى يتبرأ من الشىء وينفض يده منه ويتخلَّى عنه . ومعنى ﴿ كَفَرْنَا بِكُمْ .. (٤) ﴾ [الممتحنة] أى : أنكرنا فعلكم وما أنتم عليه من الشرك .

ثم يقرر سيدنا إبراهيم والمؤمنون معه طبيعة العلاقة بينه وبين المشركين وأنها علاقة عداوة صريحة ﴿ وَبَدَا .. (٤) ﴾ [الممتحنة] ظهر ﴿ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ .. (٤) ﴾ [الممتحنة] وأيضاً ﴿ وَالْبَغْضَاءُ .. (٤) ﴾ [الممتحنة] هكذا عداء وكراهية لأننا على طرفى نقيض ، ولا يجتمع الإيمان أبداً مع الكفر .

وسيظل هذا العداء وهذه البغضاء موجودة ﴿ حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ .. (٤) ﴾ [الممتحنة] إذن : علّة العداوة أنكم أشركتم بالله ، فلو آمنتم به وحده لتبدّلتْ هذه العداوة إلى مودة ومحبة .

لكم كلمة ﴿ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ .. (٤) ﴾ [الممتحنة] لا تعطى دلالة على

أن عمه منهم .

﴿ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ .. ④ ﴾ [الممتحنة] هذا استثناء من الأسْوة الحسنة ، يعنى لكم أسوة حسنة فى إبراهيم فى كل شىء إلا فى هذه الكلمة لأن وعده لعمه بالاستغفار له يعنى أن قلبه مازال معه ، فلا تكُنْ هذه أسوة لأن فيها شيئاً من موالاة أعداء الله .

وفى موضع آخر ذكرت الآيات الحوار بين سيدنا إبراهيم وأبيه وأن سيدنا إبراهيم أنهى الحوار بقوله (سلام) ولها معنى فى هذا الموقف ، كما لو أنك تتناقش مع شخص آخر فزاد عليك فى الكلام فتنصرف عنه ، وتقول : يا شيخ سلام عليكم ، إذن : هو سلام موادعة لا سلام تحية .

وقد قال الحق سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾ [التوبة]

وظل إبراهيم عليه السلام يستغفر لعمه كما وعده إلى أن تبين له أنه عدو لله فانصرف عنه عند ذلك وتبرأ منه .

الحق سبحانه وتعالى أتى بسيدنا إبراهيم هنا على أنه أسوة للكون كله ، لأنه أبو الأنبياء وقال الله فيه ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴿١٢٠﴾ ﴾ [النحل] لأنه جمع من خصال الخير ما لا يوجد إلا فى أمة .

فالحق سبحانه وتعالى وزّع خصال الخير ونشرها بين خَلْقه ليحتاج كلٌّ فرد منا إلى خصلة الخير فى أخيه ويحدث الترابط بين الناس فكانت هذه ميزة فى سيدنا إبراهيم لا توجد إلا فيه .

لذلك قال عنه ربه : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ (٣٧) ﴾ [النجم] وقال عنه : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ .. (١٢٤) ﴾ [البقرة]

وقوله : ﴿ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ .. (٤) ﴾ [الممتحنة] لا أدفع عنك شيئاً من عذاب الله مجرد أنْ أستغفر لك ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) ﴾ [الممتحنة]

والتوكل عمل قلب وليس عمل جوارح ، فالجوارح تعمل والقلوب تتوكل ، ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا ..(٤) ﴾ [الممتحنة] أخذنا بأسباب النجاة وتوكلنا بقلوبنا ليوفِّقنا إلى النجاة الحقيقية .

﴿ وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا ..(٤) ﴾ [الممتحنة] أى : رجعنا وأفقنا مما كنا فيه فترك الدعاء والاستغفار لأبيه .

﴿ وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) ﴾ [الممتحنة] المصير المرجع ، فإلى الله مرجعنا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥) ﴾

هذا دعاء المؤمنين وعلى رأسهم سيدنا إبراهيم يقولون ﴿ رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً ..(٥) ﴾ [الممتحنة] كيف يكون المؤمن فتنة للكافر ؟ المؤمن يكون فتنة للكافر فى حالتين ، إذا انهزم المؤمنون فى معركة أمام الكافرين ، عندها يُفتن الكافر لأنه سيقول : لو كانوا مؤمنين بالله ما انهزموا .

أو لو كان لهم ربٌّ يدافع عنهم ما انهزموا ، أو يقولون لو كانوا صادقين فى إيمانهم ما انهزموا وهذه فتنة .

أو يفتن الكافر بالمؤمن حينما يرى أهل الإيمان يرتكبون المعاصى ولا يلتزمون بمنهج الله فيزهدون فى الإسلام ويكرهون الانتساب إليه .

وهذا واقع المسلمين الآن ، يُنفِّرون الناس من دين الله بدل أنْ يجذبوهم إليه ، لذلك قال علماؤنا : لا ينصلح حال هذه الأمة إلا بما صلح به أولها[1] .

والمؤمن يتحمل هذه المسئولية مسئولية الصدّ عن دين الله ، لذلك كان هذا الدعاء ﴿ رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ..(٥) ﴾ [الممتحنة] اجعلنا مُنفِّذين لأوامرك تنفيذاً يُحبِّب الآخرين فى الدين ، ولا نكون حجة لهم فى الإعراض عن دينك .

وهذا يعطينا ضرورة التمسك بتعاليم الدين حتى لا ينظر أحد إلى المسلم أو المؤمن ويقول : هذا هو من يعلن الإيمان ويتصرف عكس تعاليم دينه ، فيكون سبباً فى فتنة آخرين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦) ﴾

هذه أُسْوة أخرى غير الأُسْوة بسيدنا إبراهيم ، أسوة سيدنا إبراهيم كانت فى أنه لا يجامل أعداء الله ولا يوادهم حتى لو كانوا

(١) هذه قولة الإمام مالك : « لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها » . (أشرح العقيدة الطحاوية ١ / ٩) . وما صلح به أولها هو العمل بكتاب الله وسنة رسوله .

أهله ، والأسْوة هنا أسوة بمَنْ هم أهلٌ لتقبُّل ثواب الله ويطمعون فى الخير الذى ينتهى إلى ثواب الآخرة ورضوان الله سبحانه .

ومعنى ﴿ يَرْجُو اللَّهَ .. ۝٦ ﴾ [الممتحنة] يخاف عقابه ويطمع فى ثوابه ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ .. ۝٦ ﴾ [الممتحنة] أى عن هذا ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۝٦ ﴾ [الممتحنة]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧ ﴾

كلمة ﴿ عَسَى .. ۝٧ ﴾ [الممتحنة] تفيد الترجى ، وهو طلب شىء ممكن الحدوث ، فإنْ كان الرجاء من الله فهو مُتحقِّق وواقع ، تقول لصاحبك : تعال غداً عسى أن أقضى لك حاجتك ، هذا رجاء يمكن أن يتحقق . ويمكن أن يحول دون تحقيقه شىء ، لأنه رجاء مَنْ لا يملك كلّ أسباب التحقيق ، فإنْ كان الرجاء من الله فلا أحدَ يمنعه أو يحول دونه .

الحق سبحانه وتعالى بعد أنْ نهاهم عن موالاة الكفار يعلم سبحانه أن منهم للمؤمنين أقاربَ وأصدقاء ، وأن خواطر المؤمنين متعلقة بأقاربهم وأهليهم ممنْ لا يزال على الكفر .

فالحق سبحانه يُطيِّب خاطرهم كأنه يقول لهم : لا تحزنوا لمقاطعتكم لهم ، فعسى الله أنْ يُبدِّل هذه المعاداة إلى مودة وتحقق

هذا الرجاء بالفعل ، فرأينا كثيراً من هؤلاء فى ساحة الإيمان قبل أنْ يفارقوا هذه الدنيا .

صناديد الكفر وقادة الشرك أسلموا وحَسُن إسلامهم بل كانوا قادة فى صفوف المسلمين ، أمثال عمرو وخالد وعكرمة[1] ، سبحان الله عكرمة الذى كان من ألدِّ أعداء الإسلام والذى وقف وحده فى الخندق يوم الفتح ليرد المسلمين هداه الله للإسلام ، وأراد أنْ يبلى فى الإسلام بلاء يجبر به ما كان منه فى الجاهلية وفعلاً فى المعركة مزَّقته السيوف والرماح فيقول لسيدنا خالد : يا خالد أهذه ميتة تُرضى عنى الله ورسوله .

﴿ وَاللَّهُ قَدِيرٌ ..﴾ (٧) [الممتحنة] أى أن الله سبحانه لا يُعجزه شىء ولا يخرج عن طاعته شىء ، إنه سبحانه على كل شىء قدير ، وهو سبحانه القادر الأعلى الذى يأتى بقلوب وأفئدة هؤلاء إليكم ويجعل بينكم وبينهم مودة .

وهذا مثل قوله سبحانه : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ..﴾ (١٠٣) [آل عمران]

ثم يقول : ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٧) [الممتحنة] يغفر لهم ما اقترفوه قبل إسلامهم ويرحمهم بنعمته ويفيض عليهم برحمته وأنتم معهم فى هذا ، ففضل الله عظيم .

---

(١) هو عكرمة بن أبى جهل عمرو بن هشام القرشى ، من صناديد قريش فى الجاهلية والإسلام ، أسلم عكرمة بعد فتح مكة وحسن إسلامه فشهد الوقائع ، واستشهد فى اليرموك عام ١٣ هجرية . [الأعلام للزركلى ٤/ ٢٤٤] .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾

قالوا : سبب نزول هذه الآية أن جماعة من المسلمين قالوا : إن لنا أقارب لم يؤمنوا فهل لنا أنْ نقدِّم لهم شيئاً من المعروف ، فنزلت : ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ ..﴿٨﴾ ﴾ [الممتحنة] لا ينهاكم الله عن بِرِّهم والإحسان إليهم ﴿ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ .. ﴿٨﴾ ﴾ [الممتحنة]

فشرط برِّهم ألاَّ يقاتلوكم وألاَّ يُخرجوكم من دياركم فلا مانع أنْ تبروهم ، وهذا معنى قوله تعالى في آية أخرى : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴿١٥﴾ ﴾ [لقمان]

وسبق أنْ بيَّنا أن هذه الآية لا تتعارض مع قوله تعالى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ[2] اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [المجادلة]

---

(١) سبب نزول الآية : أخرج الطبري في تفسيره (٣٤٢٦٩) من حديث الزبير بن العوام قال : نزلت في أسماء بنت أبي بكر وكانت لها أم في الجاهلية يقال لها قتيلة ابنة عبد العزى فأتتها بهدايا ضباب وأقط وسمن فقالت : لا أقبل لك هدية ولا تدخلي عليّ حتى يأذن رسول الله ﷺ فذكرت ذلك عائشة لرسول الله فأنزل الله ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ ﴿٨﴾ ﴾ إلى قوله ﴿ الْمُقْسِطِينَ ﴾ .

(٢) حاد الله ورسوله : خالفوا الله ورسوله فيما يأمران به وينهيان عنه . فحادّ الله ورسوله : عادى الله ورسوله . [تفسير القرطبي في تفسير الآية] .

لأن المودة مَيْل قلبى وحب ، أما المعروف وأعمال الخير فهى بسطة يد . ولو على مَنْ تكره . وقالوا : البر فعل خير يسرٌّ من فُعل به ، والمراد هنا بـ ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ ..﴿٨﴾﴾ [الممتحنة] يعنى : إذا طلب منكم فبروهم ولا تبدأوهم أنتم بالعطاء .

ومعنى : ﴿وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ..﴿٨﴾﴾ [الممتحنة] مادة (قسط) فى اللغة من الكلمات التى تدل على الشىء ونقيضه ، نقول : قسط يقسط قسطاً يعنى عدل . ومنها قسط قسطاً وقسوطاً يعنى ظلم وجار .

قال تعالى : ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ [الجن] وقال : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾ [الحجرات] ومقسط اسم فاعل من أقسط ، والهمزة هنا همزة الإزالة أى أزال القسط أو الجور .

ومن معانى ﴿وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ .. ﴿٨﴾﴾ [الممتحنة] نقول : أقسط يعنى جعل الشىء أقساطاً أى أجزاءً ، وليس جملة واحدة ، والمعنى أعطوهم شيئاً من أموالكم على هيئة أقساط كل شهر مثلاً تُعطوهم شيئاً يكفيهم ويرفع عنهم مذلّة الحاجة والسؤال ولا تجعله يأتيك ويذلّ نفسه .

لذلك قال تعالى : ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾﴾ [الضحى] لأنك لو نهرته لقال معترضاً على الله : لماذا أعطى هذا ومنعنى ؟ وهذا المعنى شرحته الآية : ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى .. ﴿٢٦٣﴾﴾ [البقرة]

وسيدنا رسول الله يقول « إنكم لن تسعُوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم »[1] أى : بالكلمة الطيبة . لذلك قال تعالى هنا :

---

(١) أخرجه البزار فى مسنده (٨٥٤٤ ، ٩٣١٩ ، ٩٦٥١) وأبو يعلى الموصلى فى مسنده (٦٥٥٠) وابن أبى شيبة فى مصنفه (٢٥٨٤٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « لن تسعوا الناس بأموالكم ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحُسْن الخلق » .

﴿ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ..﴿٨﴾﴾ [الممتحنة] فالبر يرفع عنهم الحاجة ، وتُقسطوا إليهم برفع مذلة السؤال .

ويُروى عن أهل الخير أن سائلاً طرق الباب فخرج إليه ربُّ البيت وقضى له حاجته ، ثم عاد فوجدته زوجته يبكى فتعجَّبتْ لم تبكى وقد أعطيته حاجته ؟

فقال لها : إنما أبكى لأننى تركتُه يسأل . إذن : على أهل الخير أنْ يتحسَّسوا حالة مَنْ حولهم من أهل أو جيران أو معارف ويبحثوا عن أهل الحاجات فيبادرونهم ويذهبون إليهم ويحفظون عليهم ماء وجوههم ، فخلْف الأبواب وخلف الجدران كثيرٌ من الفقراء الذين يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف فابحثُوا عنهم .

ويُحكى أن جماعة من العرب يجلسون عند الكعبة يتناقشون : مَنْ هو أجود العرب ؟ واختلفوا حتى علتْ أصواتهم فقال أحدهم : سعد ابن عبادة . وقال آخر : عبد الله بن جعفر [(١)] ، وقال الآخر : بل عرابة الأوسى [(٢)] ، فقال أحدهم : لكى نعرف مَنْ أجودهم نبعث إلى كل واحد منهم رجلاً يسأله على أنه عابر سبيل ومنقطع ، وننظر ماذا يكون من عطائهم .

---

(١) عبد الله بن جعفر بن أبى طالب القرشى صحابى ، ولد بأرض الحبشة لما هاجر أبواه إليها ، كان كريماً يسمى بحر الجود وللشعراء فيه مدائح ، كان أحد الامراء فى جيش على بن أبى طالب يوم صفين ، مات بالمدينة (٨٠ هـ) . [الأعلام للزركلى ٤ / ٧٦] .

(٢) عرابة الأوسى هو : عرابة بن أوس بن قيظى الأنصارى ، من سادات المدينة الأجواد ، أدرك حياة النبى ﷺ وأسلم صغيراً ، وفد الشام فى أيام معاوية وله أخبار معه ، توفى بالمدينة نحو (٦٠ هـ) ، وهو الذى يقال فيه الشماخ المرى : « إذا ما راية رُفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين » . [الأعلام للزركلى ٤ / ٢٢٢]

فذهب الأول إلى سيدنا عبد الله بن جعفر فقال : يا بن بنت رسول الله سائلٌ انقطع به الطريق ، وكان عبد الله خارجاً للصيد وقد وضع رِجْلاً فى الرِّكاب والأخرى على الأرض ، فأنزل رجْله من الرِّكاب وقال للسائل : تعال ضع رِجْلك فى الرِّكاب وأعطاه حقيبة بها أربعة آلاف دينار وأربعة أثواب ، وأغلى ما فيها سيفٌ لعلى بن أبى طالب وقال له : انطلق وعاد هو ماشياً .

وذهب الثانى إلى سعد بن عبادة وطرق بابه فخرجت جارية وقالت له : ماذا تريد ؟ قال : أريد ابن عبادة ، فقالت : ولم ؟ قال : ابن سبيل ومنقطع ، فقالت : هو نائم ، وقضاء حاجتك أهون من إيقاظه ، والله ما عند سعد إلا كيس فيه سبعمائة دينار فخُذْها ، واذهب إلى معاطن الإبل فخُذْ لك راحلة وخادماً وامْض إلى سبيلك ، فلما استيقظ سعد أخبرتْه الجارية بما حدث فسُرَّ من فعلها وقال لها : اذهبى فأنت حُرة .

أما الثالث فذهب إلى عرابة الأوسى الذى قال عنه الشاعر[1] :

إذَا مَا رَايَةٌ رفِعَتْ لمجْدٍ تلَقَّاهَا عرَابَة باليَمِينِ[2]

لكن عرابة كان فى آخر أيامه وقد كُفَّ بصره ونفد ماله ولم يُبْقِ له كرمه شيئاً فرآه يسير بين عبدين له إلى المسجد ، فقال :

---

(١) هو الشماخ بن ضرار المازنى الذبيانى ، شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام ، وهو من طبقة لبيد والنابغة ، كان أرجز الناس على البديهة ، شهد القادسية وتوفى فى غزوة موقان (٢٢ هجرية) . [الموسوعة الشعرية] .

(٢) البيت من قصيدة للشماخ الذبيانى ، من بحر الوافر .

يا عرابة ابن سبيل ومنقطع فأعطنى شيئاً ، فقال : ويح عرابة لم تُبْقِ له حقوقُ الناس شيئاً ، ثم سلَّ نفسه من العبدين وقال له : خُذْ هذين العبدين لك ، قال : كيف أُخلِّى بينك وبين عكازك فى الطريق . قال : إلا تأخذهما فهما حُران .

ثم عاد الثلاثة إلى مجلسهم وحكى كلٌّ منهم ما حدث مع صاحبه ، وقد اتفقوا على أن عرابة أجودهم لأنه جاد بما عنده رغم حاجته[1] .

والجواد إذا لم يَجُدْ جاد ولو بكلمة طيبة فهى له صدقة ، لذلك قال الشاعر[2] :

لاَ خَيْلَ عنْدكَ تهديِهَا وَلاَ مَالْ   فَلْيُسْعِد القَوْل إنْ لم يُسعِد الحَالْ[3]

وهنا ذُيِّلت الآية بقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ⑧﴾ [الممتحنة] أى الذين يُعطون الناس شيئاً من أموالهم دون سؤال ، فالقسط هنا بمعنى الجزء من الشيء .

وقد قال رسول الله ﷺ : « المقسطون على منابر من نور عن

(١) ذكر هذه القصة بطولها ابن كثير فى كتابه (البداية والنهاية) والراوى لها الهيثم بن عدى . وذكر (قيس بن سعد) بدل (سعد بن عبادة) وفيه أنهم أجمعوا على أن أسخى الثلاثة عرابة الأوسى لأنه جاد بجميع ما يملكه وذلك جهد من مقل .

(٢) الشاعر هو : محمد الحسين كاشف الغطاء ، مجتهد إمامى ، أديب من زعماء الثورات الوطنية فى العراق ، ولد عام ١٨٧٧ م ، كان من الكتَّاب الشعراء الدعاة إلى الوفاق بين المسلمين . صنف كتباً كثيرة ، قصد إيران مستشفياً فتوفى بها ونُقِل إلى النجف عام ١٩٥٤م ، [الموسوعة الشعرية] .

(٣) البيت من قصيدة من بحر البسيط ، وفيها (فليسعد النطق) بدل (فليسعد القول) .

يمين العرش . الذين يعدلون في حكمهم وأهاليهم وما ولوا »[1] .

﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾

بعد أنْ حدَّثتنا الآيات عن فئة من الكافرين لهم حقّ البر ، وقال ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ .. ﴿٨﴾ ﴾ [الممتحنة] أي : عن برّهم والإحسان إليهم، يُبيِّن هنا الفئة الأخرى التي ليس لها هذا الحق ، فيقول سبحانه :

﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ .. ﴿٩﴾ ﴾ [الممتحنة] أي عن برِّهم والإحسان اليهم ﴿ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ .. ﴿٩﴾ ﴾ [الممتحنة] أي : قاتلوكم بسبب تمسككم بدينكم ﴿ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ .. ﴿٩﴾ ﴾ [الممتحنة] سعوا بأنفسهم إلى إخراجكم ﴿ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ .. ﴿٩﴾ ﴾ [الممتحنة] عاونوا غيرهم على إخراجكم .

﴿ أَن تَوَلَّوْهُمْ .. ﴿٩﴾ ﴾ [الممتحنة] أي : تتخذوهم أولياء توالونهم وتناصرونهم ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ ... ﴿٩﴾ ﴾ [الممتحنة] أي منكم ﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الممتحنة] نعم لأنهم ظلموا أنفسهم بالخروج عن أوامر الله ، وظلموا المؤمنين بموالاتهم للكافرين .

---

(١) أخرجه البزار في مسنده (٢٣٤٠) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال : « المقسطون على منابر من نور يوم القيامة بين يدي الرحمن عز وجل بما أقسطوا في الدنيا » .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠) ﴾

كان من شروط صلح الحديبية أن مَنْ يأتى من قريش إلى محمد مؤمناً يردّه إلى قريش ، ومَنْ يرتد ويذهب إلى قريش لا يردوه إلى محمد، وقد قبلَ رسول الله ﷺ هذا الشرط لأن فيه اعترافاً بمحمد ودعوته وإقراراً بأن الإسلام أصبح قوة قادرة على إبرام المعاهدات ، تعطى وتأخذ ، فلما أصبح الإسلام قوة قادرة على المواجهة أُلغِى هذا الحكم ، فقد قبلناه لفترة كانت المصلحة فى قبوله .

---

(١) سبب نزول الآية : قال ابن عباس : إن مشركى مكة صالحوا رسول الله ﷺ عام الحديبية على أن من أتاه من أهل مكة رده إليهم ، ومن أتى أهل مكة من أصحابه فهو لهم ، وكتبوا بذلك الكتاب وختموه ، فجاءت سُبيعة بنت الحارث الأسلمية بعد الفراغ من الكتاب والنبى ﷺ بالحديبية فاقبل زوجها وكان كافراً فقال : يا محمد ردّ علىّ امراتى ، فإنك قد شرطت لنا أن ترد علينا من أتاك منا وهذه طينة الكتاب لم تجف بعد ، فأنزل الله تعالى هذه الآية . [أسباب النزول للواحدى النيسابورى ص ٢٤١]

والممتحنة هى المرأة المهاجرة تأتى رسول الله ﷺ مسلمة مؤمنة فلا تُردُّ إلى الكفار إنما تُمتحن أى تُختبر ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ..(١٠)﴾ [الممتحنة] أى : اختبروهن لتعلموا حقيقة إيمانهن بأن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وأنْ تقسم أنها ما خرجت إلا لحبِّها فى الإسلام ورسول الإسلام ، وما خرجتْ لا عن زوج تبغضه هناك ، ولا لزوج تريده هنا ، فإذا علمتم منها ذلك فلا تُرجعوها إلى الكفار(١) .

وكلمة ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ .. (١٠)﴾ [الممتحنة] أن هذا الامتحان فى الأمور الظاهرة قولاً أو فعلاً ، أما البواطن فالله أعلم بها ، فطالما أن المرأة تعلن أنها مؤمنة فهى كذلك ، فلا يجوز أنْ تُردَّ إلى زوج كافر ، لأن المؤمنة لا تحلّ للكافر ولا الكافر يحلّ لها ﴿ لا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ ..(١٠)﴾ [الممتحنة] للكافرين ﴿ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ..(١٠)﴾ [الممتحنة] للمؤمنات .

ومع هذا الفصل بين الإيمان والكفر لا يغفل الشارع الحكيم الحقوق المالية المتعلِّقة بالزوجين ، فالإسلام وعدالة الإسلام تحفظ الحقوق حتى للكافر ، فقد أخذنا منه زوجته لأنها مسلمة لا تحلّ له

---

(١) عن أبى نصر الأسدى قال : سئل ابن عباس : كيف كان امتحان رسول الله ﷺ النساء ؟ قال : كان يمتحنهن بالله ما خرجت من بغض زوج ، وبالله ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض ، وبالله ما خرجت التماس دنيا ، وبالله ما خرجت إلا حباً لله ورسوله » أخرجه الطبرى فى تفسيره (٣٤٢٧٤) وابن كثير فى تفسيره (٨ / ٩٢) ، وهذا الامتحان للمؤمنات هو دليل أن الإسلام يضع المرأة المكانة اللائقة بها ويعطيها حقوقها فى المعتقد وأنها ليست مجرد تابعة لزوجها أو لأبيها فى هذا ، بل لها ذاتية وذمة منفصلة ، وأن الإسلام لا يريد قهرها على شىء لا عند المسلمين ولا بين الكافرين . [عادل أبو المعاطى] .

فلا بد أنْ نردَّ إليه ما أنفقه فى المهر ونفقات الزواج .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا ..⑩ ﴾ [الممتحنة] وهذا من عظمة عدالة الإسلام ، فهؤلاء الأزواج أنفقوا وبذلوا مالاً وضياعاً وغيره إلى زوجاتهم اللاتى أسلمن ولحقن بالمؤمنين فلتردوا عليهم ما أنفقوا فلا يُضاروا بإسلام زوجاتهم ، وهذا لا شك يؤثر فيهم ويلفتهم إلى عدالة هذا الدين ودقته فى عدم ظلم أحد .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ .. ⑩ ﴾ [الممتحنة]

ثم إن هؤلاء الزوجات اللاتى أسلمن لن يصبحن مشاعاً للمسلمين بل يجعل أمرهن للزواج بمن يُردْنَ على أن يعطوهُنّ حقوقهن التى كفلها الشرع لهن ، وذلك حتى لا يكون سعى المسلمين لغلبة غير المسلمين للحصول على نسائهم هكذا دون ضوابط .

وكذلك على الجانب الآخر ﴿ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ .. ⑩ ﴾ [الممتحنة] الكوافر جمع كافرة ، وهى المرأة المرتدة عن الإسلام ، فليس لزوجها المؤمن أنْ يُبقيها فى عصمته فليُطلِّقها لتعود إلى الكفار فى مكة ، وله أن يسأل ما أنفق عليها من مهر ومن نفقات .

فكما نعطى الزوج الكافر مهره نطلب منهم مهر المرأة المرتدة ﴿ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ..⑩ ﴾ [الممتحنة] فهذه عدالة الإسلام التى لا تفرق بين مؤمن وكافر ، فالحقوق محفوظة لأصحابها حتى لو كانوا كافرين .

وسبق أنْ ذكرنا فى هذا المقام قصة اليهودى[1] الذى اتهمه المسلمون بالسرقة فأنصفه رسول الله وفيه نزلت : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٦) وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (١٠٧) ﴾ [النساء]

وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ..(١٠) ﴾ [الممتحنة] وما دام حكم الله فلا يُرد ، حكم الله حكم عادل لا تردوه ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠) ﴾ [الممتحنة]

﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ (١١) ﴾

الكلام هنا على ما فات المؤمنين من حقوق وهى مهور المرتدات التى لم يدفعها الكافرون للمؤمنين ، الحق سبحانه وتعالى يُبيِّن حكمها ، فيقول للمؤمنين : ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ ..(١١) ﴾ [الممتحنة] أى المهور التى لم يردوها إليكم .

﴿ فَعَاقَبْتُمْ ..(١١) ﴾ [الممتحنة] العقاب يكون بهزيمتهم فى الحرب ،

---

(١) هو زيد بن السمين ، وقد أورد هذه القصة أبو إسحاق النيسابورى فى الكشف والبيان عن تفسير القرآن (٣١ / ٣٨١) وكذا فى تفسير اللباب لابن عادل (١ / ١٥٩٧) أن رجلاً من الأنصار يسمى طعمة بن أبيرق سرق درعاً من جار له يقال له قتادة بن النعمان ، وكانت الدرع فى جراب فيه دقيق فجعل الدقيق ينتثر من خرق فى الجراب حتى انتهى إلى الدار ثم خبأها عند رجل من اليهود يقال له زيد بن السمين ، فاتبعوا أثر الدقيق حتى بيت اليهودى فأخذوه منه واتهم اليهودى بالسرقة » الحديث .

وأخْـذ أموالهم غنائم ، فـعليكم أنْ تردّوا هذه المـهور لأصـحابهـا من أموال الغنائم ، يعنى من أموال الكفـار التى غنمناها منهم ، نقضى ما عليهم من حقوق للمؤمنين[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢) ﴾

فى فتح مكة جلس سيدنا رسول الله ﷺ على الصـفا فبايع الرجال ، ثم جاء دور النساء فى المبايعـة ، فكيف بايعهن رسول الله ؟ لقد بايع الرجـال مصـافحـةً باليد ، فـهل فعـل هذا مع النساء وهو نبى الأمـة ونساؤها جـمـيـعاً فى منزلة بناته ، كـمـا قـال سبـحـانه : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ .. (٦) ﴾ [الأحزاب]

قالوا : ما مسَّ رسول الله يد امرأة لا تحل له[2] ، حتى فى مسألة

---

(١) فالإسـلام راعى مـصلحة جـميع الأطراف ، المـرأة التى آمنت وهاجرت رغـبة فى الإيـمان وحقها فى الاختيار ، وحق زوجها الكافـر فى أن يأخذ ما أنفقه عليها ، وحق الزوج المؤمن فيـما أنفقه عـلى الكافرة التى لحقت بالكافـرين أو طلقها ، ولو سـيأخذ حـقه هذا من غنائم غنمهـا المسلمـون فى الحرب ، وكذلـك حق المرأة فى أن تتزوج زواجـاً شرعيـاً تأخذ فـيه حقوقها بعد أن تركت زوجها الكافر [عادل أبو المعاطى] .

(٢) أخرج مسلم فى صحـيحه (٤٩٤٢) عن عائشة قالت : مـا مس رسـول الله ﷺ بيده امرأة قط إلا أن يأخذ عليها فإذا أخذ عليها فأعطته قال : اذهبى فقد بايعتك . وفى نظم الدرر (٧ / ٥٦٨) فى قصة هند بنت عتبة « وما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة لا تحل له » .

المبايعة التى تقتضى مصافحة لأن المبايعة عقد واتفاق ينشأ عنه بيع من هذا وشراء من هذا ، فكل منهما مُشْتر ، قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ..(١١١)﴾ [التوبة]

فالله أخذ من المؤمنين النفس والمال والثمن الجنة ، فهذه مبايعة وعلى كلِّ طرف أنْ يلتزم حقَّ العقد الذى أبرمه .

إذن : كيف بايعهن رسول الله ؟ قالوا : جاء رسول الله بإناء فيه ماء ووضع يده الشريفة فيه فلامستْ يده جزئيات الماء ، ثم جاءت كل امرأة تريد أنْ تبايع رسول الله فتضع يدها فى هذا الماء فتلامس يدها نفس الجزئيات التى لامستْ يد رسول الله وهكذا تمت المبايعة[1] .

فتأمل هذا الاحتياط من رسول الله مع منزلته من النساء المؤمنات، لذلك نعجب الآن ممن يبيح للرجال مصافحة المرأة الأجنبية ، يقول : وما فيها ؟

ورسول الله ﷺ يُعلِّمنا أن فيها شيئاً بل أشياء ، فيها الحلال والحرام ، إذا كان الشارع حرَّم النظر إلى المرأة الأجنبية وهو السيال المنقطع ، فهل يحلّ لك الملامسة وهى السيال المتصل وله ما له من التأثير فى الطرفين .

البعض يقول : هى عادة فى المجتمع ، نعم عادة سيئة لا تجوز ، وهل المجتمع مشرِّع ؟ إن للتشريع وبيان الحلال والحرام مصادرَ ،

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (١٤ / ٤٣٣) وعزاه لابن سعد وابن مردويه عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : كان رسول الله إذا بايع النساء دعا بقدح من ماء فغمس يده فيه ثم يغمس أيديهن فكانت هذه بيعته ، وكذا فى نظم الدرر للبقاعى (٧ / ٥٦٨) .

فلا يصح أنْ نأخذ من غيرها .

إذن : لا يجوز مصافحة الأجنبية ، وإذا التزم المجتمع بهذا الأدب النبوى فهى مرة واحدة كافية للقضاء على هذه العادة أنْ تمدّ المرأة يدها للمصافحة فلا يمد الرجلُ يده ، أو يمد الرجلُ يده للمصافحة فلا تمدّها المرأة ، وعندها تنكسر هذه الشهوة وتنتهى[1] .

لما بايع رسول الله الرجال بايعهم على الإسلام وعلى الجهاد . أما النساء فكان لهن شروط أخرى فى البيعة بيّنتها هذه الآية ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ .. (١٢) ﴾ [الممتحنة]

وكان فى النساء المبايعات لرسول الله هند بنت عتبة[2] زوجة أبى سفيان والتى استأجرت وحشياً[3] لقتل حمزة يوم أُحُد ، ولم تكتفِ

---

(١) عن أميمة بنت رقيقة قالت : أتيت رسول الله ﷺ فى نساء لنبايعه فأخذ علينا ما فى القرآن أن لا نشرك بالله شيئاً الآية وقال : فيما استطعتن وأطقتن . قلنا : الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا . قلنا : يا رسول الله ألا تصافحنا ؟ قال : إنى لا أصافح النساء إنما قولى لامرأة واحدة قولى لمائة امرأة » . أخرجه أحمد فى مسنده (٢٧٠٥١ ، ٢٧٠٥٣ ، ٢٧٠٥٤) .

(٢) هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، صحابية قرشية ، هى أم الخليفة الأموى معاوية ابن أبى سفيان ، كانت فصيحة جريئة صاحبة رأى وحزم وأنفة . لم تسلم إلا فى فتح مكة مع زوجها وابنها معاوية . توفيت ١٤ هجرية [الأعلام للزركلى ٨ / ٩٨] .

(٣) هو : وحشى بن حرب الحبشى أبو دسمة مولى بنى نوفل ، صحابى من سودان مكة وهو قاتل الحمزة عم النبى ﷺ قتله يوم أحد ، ثم وفد على النبى ﷺ مع وفد أهل الطائف . توفى عام ٢٥ هجرية [الأعلام للزركلى ٨ / ١١١] .

بهذا بل شقَّتْ بطنه بعد قتله واستخرجتْ كبده ولاكته بأسنانها [١] .

وهى اليوم مؤمنة تقف فى صفوف المؤمنات تبايع رسول الله ، فكانت أجرأ النساء وأكثرهن مناقشة لبنود هذه البيعة ، وقد وسعها صدر رسول الله ﷺ على ما كان منها .

فلما سمعت ﴿وَلا يَسْرِقْنَ ..﴿١٢﴾﴾ [الممتحنة] قالت : يا رسول الله ولكن زوجى - يعنى أبا سفيان وكان موجوداً - رجلٌ شحيح وكنتُ آخذُ من ماله دون علمه ، فقال رسول الله : إنك أنت هند ؟ قالت : نعم اعْفُ عمّا سلف عفا الله عنك [٢] ، وقال أبو سفيان لَها : ما أخذتيه من مالى فى الغابر فهو حلال لك . وأباح رسول الله فى هذا الموقف للمرأة أنْ تأخذ من مال زوجها ما يكفيها وأولادها [٣] .

(١) قال ابن إسحاق : قالت هند بنت عتبة : شفيت من حمزة نفسى بأحد حتى بقرت بطنه عن الكبد . السيرة النبوية لابن هشام (غزوة أحد) ويقول وحشى قاتل حمزة : هززت حربتى حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه فوقعت فى ثنته حتى خرجت من بين رجليه .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٤/٣٥٤) : كانت هند بنت عتبة بن ربيعة التى شقت بطن حمزة متنكرة فى النساء فقالت : إنى إن أتكلم يعرفنى وإن عرفنى قتلنى وإنما تنكرت فرقاً من رسول الله ﷺ فسكت النسوة اللاتى مع هند وأبين أن يتكلمن فقالت هند وهى متنكرة : كيف تقبل من النساء شيئاً لم تقبله من الرجال ؟

فنظر إليها رسول الله ﷺ وقال لعمر : قل لهن : ولا يسرقن . قالت هند : والله إنى لأصيب من أبى سفيان الهنات ما أدرى أيحلهن لى أم لا ؟ قال أبو سفيان : ما أصبت من شيء مضى أو قد بقى فهو لك حلال . فضحك رسول الله ﷺ وعرفها فدعاها فأخذت بيده فعاذرته فقال : أنت هند ؟ قالت : عفا الله عما سلف فصرف عنها رسول الله ﷺ فقال : ولا يزنين . فقالت : يا رسول الله وهل تزنى امرأة حرة ؟ قال : لا والله ما تزنى الحرة . قال : ولا يقتلن أولادهن ، قالت هند : أنت قتلتهم يوم بدر فأنت وهم أبصر . قال : ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ، قال : ولا يعصينك فى معروف ، قال : منعهن أن ينحن وكان أهل الجاهلية يمزقن الثياب ويخدشن الوجوه ويقطعن الشعور ويدعون بالويل والثبور . قال ابن كثير : وهذا أثر غريب وفيه نكارة والله أعلم .

(٣) قالت هند بنت عتبة لرسول الله : إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطينى من النفقة ما يكفينى ويكفى بنىّ ، فهل علىّ جناح إن أخذت من ماله بغير علمه ؟ فقال رسول الله ﷺ : « خذى من ماله بالمعروف ما يكفيك ويكفى بنيك » أخرجه مسلم فى صحيحه (٤٥٧٤) .

ولما سمعت هند قوله تعالى : ﴿وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ ..(١٢)﴾ [الممتحنة] قالت لرسول الله : ربَّيناهم صغاراً وقتلتموهم كباراً ، والله أعلم بك وبهم ، تقصد ولدها حنظلة الذى قُتِل فى بدر ، وما كان من رسول الله إلا أنه تبسَّم (١) .

وقوله تعالى : ﴿وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ (١٢)﴾ [الممتحنة] البهتان هو القول أو الفعل الشنيع الذى تُبهت وتندهش إذا سمعته ، ويحتار فيه العقل لشناعته ، ومنه قوله تعالى : ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ .. (٢٥٨)﴾ [البقرة] يعنى : تحيَّر ولم يستطع أن يجيب .

ومعنى ﴿يَفْتَرِينَهُ ..(١٢)﴾ [الممتحنة] من الافتراء وهو تعمُّد الكذب ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ .. (١٢)﴾ [الممتحنة] أى البطن ﴿وَأَرْجُلِهِنَّ ..(١٢)﴾ [الممتحنة] أى الفرج . وهذا التعبير كناية عما يحدث من المرأة حين تقول أن الولد الذى جاءت به من زوجها وهو ليس منه ، فهذا منها كذب وافتراء متعمد .

فقد روى أبو هريرة رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول حين نزلت آية الملاعنة(٢) : « أيُّما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم فليست من الله فى شىء ولن يدخلها الله الجنة ، وأيما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه احتجب الله منه وفضحه على رءوس

---

(١) أورده ابن كثير فى البداية والنهاية (٧/ ٦٠) أن رسول الله ﷺ قال : « ولا تقتلن أولادكن » قالت : قد ربيناهم صغاراً وتقتلهم كباراً ؟ فتبسَّم رسول الله ﷺ . وعند ابن الأثير فى كتابه (الكامل فى التاريخ) أنها قالت : ربيناهم صغاراً وقتلتهم يوم بدر كباراً فأنت وهم أعلم . فضحك عمر (١/ ٣٣٢)

(٢) آية الملاعنة هى قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٦) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٧) وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (٨) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩)﴾ [النور] .

الأولين والآخرين[١] .

والشرع لما حكم في هذه المسألة قال : الولد للفراش وللعاهر الحَجَر[٢] يعني الرجم ، ذلك ليحفظ كرامة الولد فلا يعيش ذليلاً تلتصق به هذه الفضيحة طوال عمره ، فهو ابن فلان طالما وُلِد على فراشه ، أما المرأة فإنْ أقيمت عليها الحجة فلها الرجم .

وقوله تعالى : ﴿وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ..(١٢)﴾ [الممتحنة] أي : تأمرهن به ، وعندها قالت هند : والله ما جئنا إلا لهذا الخير الذى يأتى على يديك ، وكيف نعصيك وقد جئناك طائعات .

﴿فَبَايِعْهُنَّ .. (١٢)﴾ [الممتحنة] أي : إذا أقررْنَ بذلك ورضينَ به ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ ..(١٢)﴾ [الممتحنة] لأن الذنب إما أن تستغفر منه أنت ، أو يستغفر لك رسول الله .

كما جاء في قوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (٦٤)﴾ [النساء] إذن : التوابية والرحمانية تأتى بشرط أنهم يأتون إليك يا محمد

---

(١) أخرجه النسائي في السنن الكبرى (٥٦٤٥) والبيهقي في معرفة السنن والآثار (٤٧٩٨) والحاكم في مستدركه (٢٨١٤) وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وأقره الذهبي .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٢٠٥٣ ، ٧١٨٢) ، وكذا مسلم في صحيحه (٣٦٨٦) عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : اختصم سعد بن أبي وقاص وعبد بن زمعة في غلام فقال سعد : هذا يا رسول الله ابن أخي عتبة بن أبي وقاص عهد إليّ أنه ابنه انظر إلى شبهه . وقال عبد بن زمعة : هذا أخي يا رسول الله وُلد على فراش أبي من وليدته فنظر رسول الله إلى شبهه فرأى شبهاً بيناً بعتبة ، فقال : هو لك يا عبد الولد للفراش وللعاهر الحجر ، واحتجبي منه يا سودة بنت زمعة فلم تره سودة قط .

يستغفرون الله ، وبعد ذلك تستغفر أنت لهم ، وهذا هو باب الهبة من الله الذى لا ينفعك غيره ، فأىُّ امرئٍ يأتيه من غير هذا الباب لا يدخله .

فإذا كان هذا حظّ المؤمنين برسول الله المعاصرين له أنْ يأتوه معترفين بذنوبهم فيستغفرون الله ويستغفر لهم رسول الله ، فما حظٌّ المؤمنين به ممَّنْ لم يعاصروه ؟ ألهم مثل هذا الحظّ .

قالوا : نعم حظّ المؤمنين برسول الله منه واحد ، مَنْ رآه ومَنْ لم يَرَه ، فمنْ أذنب منا ذنباً عليه أنْ يستحضر وجود رسول الله معنا ، وكما أننا نسلِّم عليه ونعتقد فى أنه يردُّ علينا السلام كذلك عندما نعترف له بذنوبنا ونقول له : يا رسول الله أذنبتُ ذنباً فاستغفر الله لى .

وبذلك نستوى جميعاً أمام المنهج لأن رسالته ﷺ عامة للناس جميعاً ، بل إن سيدنا رسول الله ﷺ يجعل لأجيال أمته المتعاقبة بعد عصره ﷺ ، يجعل لهم منزلة لا تقل عن منزلة أصحابه .

فقد رُوى أنه ﷺ قال فى مجلس أصحابه : متى ألقى أحبابى ؟ قالوا : أولسْنَا أحبابك يا رسول الله ؟ قال : لا بل أنتم أصحابى ، أحبابى قوم لم يَرَوْنى ، يودُّ الواحد منهم لو رآنى بملء الأرض ذهباً، عمل الواحد منهم بخمسين . قالوا : منَّا أم منهم ؟ قال : بل منكم ، لأنكم تجدون على الخير أعواناً ، وهم لا يجدون على الخير أعواناً .

وفى حديث آخر قال ﷺ : « أنتم فى زمان مَنْ ترك عُشر ما

طُلب منه هلك ، وسيأتى زمان مَنْ فعل عُشر ما طُلب منه نجا »[1] .

﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [الممتحنة] غفور صيغة مبالغة تدل على كثرة المغفرة ، فالله تعالى ﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ .. ﴿٣﴾ ﴾ [غافر] غافر للذنب الواحد وغفور إذا تعددت الذنوب ، فجعل بين كلّ صلاة وصلاة مغفرة ، وبين كل جمعة وجمعة مغفرة ، وبين رمضان إلى رمضان مغفرة ، بل جعل لها باباً لا يُغلق ، ففى كل لحظة تستغفر الله يغفر لك .

فالعبد من صفاته أنْ يُذنب ، والربُّ من صفاته أنْ يغفر ، فوجود العبد المذنب يحقق صفة من صفات الكمال لله تعالى ، لذلك ورد فى الحديث القدسى : « والذى نفسى بيده ، لو لم تذنبوا لذهبَ الله بكم ولأتى بقوم يذنبون ويستغفرون فيغفر الله لهم »[2] .

يقول الحق سبحانه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾ ﴾

يقول تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. ﴿١٣﴾ ﴾ [الممتحنة] وهو نداء

---

(١) أخرجه الطبرانى فى المعجم الصغير (١١٥٦) ، وفى المعجم الكبير (٢١١) وأبو نعيم فى حلية الأولياء (٣١٦/٧) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . لم يروه عن سفيان إلا نعيم بن حماد ولذلك ضعفه ابن الجوزى فى العلل المتناهية (١٤٢٥) وذكر قول أبى عبد الرحمن النسائى : هذا حديث منكر ونعيم بن حماد ليس بثقة .

(٢) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه (٧١٤١) وأحمد فى مسنده (٨٠٦٨) والطبرانى فى الدعاء (١٨٠٣) والبيهقى فى شُعب الإيمان (٦٧٠٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وعند آخرين عن غير أبى هريرة كابن عباس .

تكرر كثيراً فى القرآن ، يخاطب به الله مَنْ آمن بالله رباً وآمن بالمنهج بكلٍّ ما يقتضيه من (افعل) و (لا تفعل) .

فعندما ينادى الحق سبحانه المؤمنين بقوله ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا (١٣) ﴾ [الممتحنة] نعرف أن الإيمان هنا هو سببُ التكليف . فالله لا يكلف مَنْ لم يؤمن به ، ولا يأمر بتكليف إلا لمن آمنوا ، فالكافر لا يُكلفه الله بشىء .

فالحق سبحانه حين يخاطب المؤمنين فهو يعطيهم أحكام الإيمان، فالله لا يكلف بحكم إلا مَنْ آمن به ، أما من لم يؤمن به فلا يكلفه بأى حكم ، لأن الإيمان التزام ، وما دمتَ قد التزمتَ بأنه إله حكيم فخُذْ منه أحكام دينك .

إذن : فهى صفقة تنعقد بينك وبين الله ، تبدأ أولاً بإيمانك بالله ، حينها يكون التكليف من الله ، افعل كذا ولا تفعل كذا .

فالحق سبحانه متصف بالعدل ، لذلك لم يكلفنا الله اقتحاماً على إرادتنا أو على اختيارنا ، وإنما كلَّفنا لأننا دخلنا إليه سبحانه من باب الإيمان به .

فالإيمان بالله هو حيثية كل حكم ، فأنت تفعل ذلك لماذا ؟ لا تقلْ لأن حكمته كذا وكذا . لا . ولكن قل : لأن الله الذى آمنتُ به أمرنى بهذه الأفعال ، سواء فهمتَ الحكمة منها أو لم تفهمها ، بل ربما كان إقبالك على أمرِ أمرك الله به وأنت لا تفهم له حكمة أدخل فى باب الإيمان من تنفيذك لأمر تعرف حكمته .

والحق سبحانه بدأ سورة الممتحنة بنداء ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا

عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ .. ۝١﴾ [الممتحنة] وأنهاها بنداء ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ .. ۝١٣﴾ [الممتحنة]

فموضــوع النداء واحد ، وموضوع النهى واحد ، فــهو عَوْد على بَدْء ، وهذا يلفتنا إلى أن القضية التى تتحدث عنها الآيات تمثل أهمية كبيرة فى التكليف الإيمانى .

فالولاية نُصْــرة ، والنُّصْرة انفعال الـناصر لمساعـدة المنصور ، فكيف تُوالون عـدو الله وعـدوكم ، وتنتظرون منهم نُصــرة لكم وعـوناً ، وهم خالفوا منهج الله وحــرَّفوا ما بين أيديهم من كتب الســماء ، كان أصلها الهدى فصارتْ إلى ضلال .

فالموالاة والنُّصرة والـمعونة يجب أن تكون مع متـحد معك فى الغاية العليا ، وما دام هناك مَنْ يخـتلف مع الإسلام فى الغاية العليا وهى الإيمان فلا يصح أنْ يأمنه المسلم ، فضلاً عن موالاته ونُصرته وإلقاء المودة إليه .

لذلك قال الحق ســبحانه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝٥١﴾ [المائدة] فـ ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۝٥١﴾ [المائدة] ، فــهم يُوالون بعضــهم البعـض وهم عونٌ لبـعضــهم على المـسلمـين ، ولهم غـايات تناقـض الغـايات العليـا للإســلام ، فكيف توالونهم ؟

وقد يختلفون على السلطات الزمنية ولكنهم يتحدون معاً ويكونون أعواناً وأنصاراً لبعضـهم حينمـا يتعلق الأمر بالإسلام ، يقول تعالى :

﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ[1] يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا[2] إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ۝٢﴾ [الممتحنة]

فهم مجتمعون على إيذائكم بكلِّ السبل ، سواء بأيديهم بقوتهم وسلاحهم وعددهم وعُدَّتهم ، فإنْ لم يكن فبألسنتهم بإيذائكم وإيذاء رسولكم وشريعتكم ، وبالتفريق بينكم كمؤمنين وإيقاع الفتنة بينكم ، إلى أن تحين الفرصة لهم لإيذائكم بأيديهم .

فكيف تُوالون مثل هؤلاء وغايتهم ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ۝٢﴾ [الممتحنة] فهذه غايتهم ، وكيف تنسون قول الله عز وجل : ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ.. ۝١٢٠﴾ [البقرة]

لذلك يقول الحق سبحانه ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ .. ۝٥١﴾ [المائدة]

لذلك كانت قضية الموالاة هي محور سورة الممتحنة ، وكأن الله يمتحن بها قلوب وأفعال المؤمنين به ، فهل هم مؤمنون به حقاً ، إذن فلا تتولوا أعداء الله الذين هم أعداء لكم أيضاً .

ويؤكد الحق سبحانه تمايز المؤمنين بالله عن غيرهم ، وأنْ لا تكون بينهم وبين أعداء الله موالاة أو نُصْرة ، فيقول تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝١٤﴾ [المجادلة]

---

(١) يثقفوكم : يظفروا بكم ويتمكنوا منكم فى وقت من الأوقات ومكان من الأماكن . مختصر من عدة تفاسير . قال الشيخ المراغى فى تفسيره (٢٨ / ٦١) : أصل الثقف : الحذق فى إدراك الشىء وفعله ومنه رجل ثقف لقف .

(٢) يبسطوا : بسط يده ليفعل بها شيئاً . قال تعالى : ﴿ وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ۝٢﴾ [الممتحنة] أى أن يمدوا أيديهم إليكم بالأذى والقتال . [القاموس القويم ١/٦٦] .

فمن يوالون أعداء الله منافقون ، لا هم منكم ولا هم منهم أيضاً ، بل هم مُذبذبون بين هؤلاء وأولئك ، إنْ توالوهم وتُدخلوهم فيما أنتم فيه ينشروا بينكم الفتنة ويضعوا بينكم بذور الشقاق والنفاق .

يقول تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً[1] مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً[2] وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) ﴾ [آل عمران]

فمن الحمق والغفلة أن توالوا مَنْ يضركم ويود مشقتكم وعنتكم ، وصدورهم تُخفي بغضاً شديداً لكم ، وها نحن قد وضّحنا لكم الآيات وبيّنا لكم دخائل نفوسهم ، فهل تنتهون عن موالاتهم وتقريبهم منكم وإدخالكم إياهم فى شئونكم ؟

احموا إيمانكم وأجيالكم ، فلا تتداخلوا مع غير المؤمنين تداخلاً يفسد عليكم أمور دينكم ، فهم لا يُقصّرون فى الكيد لكم وإفساد أمركم .

﴿ هَـٰأَنتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ ..(١١٩) ﴾ [آل عمران] فلم تخدعون أنفسكم فتوالونهم وتستمرون فى موالاتكم وهم لا يحبونكم ؟

ثم يقول الحق سبحانه :﴿ لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ..(١٣) ﴾ [الممتحنة]

فمَنْ هم القوم الذين غضب الله عليهم ؟ الحق سبحانه أوضح

---

(١) بطانة : أصلها بطانة الثوب واستعيرت البطانة لمن تختصه بالاطلاع على باطن أمرك وتجعله موضع سرك . [القاموس القويم ١ / ٧٣] .

(٢) خبالاً : الخبال : النقصان والخسارة والهلاك . وخبله : أفسده عقله بمعنى فسد وجنّ . [القاموس القويم ١/١٨٦] . فالخبال يجعل عاقبة الأمر إلى فساد وخسران .

هؤلاء فى قرآنه وكشف عنهم للمؤمنين به ، حتى لا تكون لهم حجة عند الله ، أو يكون لهم تأويل فى ماهية مَنْ غَضب الله عليهم .

فأول هؤلاء : الكافرون من المشركين والملحدين وغيرهم ، قال تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٤) ﴾

[النساء]

ولفظة (الكافرين) لفظة عامة تشمل كلَّ مَنْ لم يؤمن بالله ومَنْ لم يؤمن بمحمد رسول الله ﷺ ، والحق سبحانه قد أخذ على المنافقين أنهم يتخذون الكافرين أولياء من دون الله ، فأوْلَى بالمومنين ألاّ يصنعوا ذلك ، فإياكم أنْ تفعلوا مثلهم .

فأنتم حينها تجعلون لله عليكم سلطاناً مبيناً واضحاً لإيقاع العذاب بكم فى الدنيا بأنْ تكونوا تابعين أذلاء لغيركم ، وفى الآخرة بعذاب الله لأنكم فرّقتم المؤمنين بأنْ توليتم غيرهم .

وممَّنْ غضب الله عليهم : اليهود والنصارى فنهانا عن اتخاذهم أولياء ، قال تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ (٥١) ﴾

[المائدة]

وممَّنْ غضب الله عليهم : الذين اتخذوا ديننا هُزواً ولعباً ، قال تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٥٧) ﴾

[المائدة]

والهزو هو السخرية والتنكيت ، فهم قد اتخذوا آيات القرآن وآيات

الأحكام سُخرية واستهزاءً ، ولم يعبئوا بما فيها من نذارة لهم ، وهذا ديدن الخارجين على منهج الله فتجدهم يسخرون من أهل الصلاح ويهزأون من أصحاب الطريق المستقيم والمنهج القويم ، ويُسفِّهون آراءهم وأفعالهم .

فإياك أنْ توالى هؤلاء وتنصرهم أو تعاونهم أو تتخذهم أولياء تُلقى إليهم بالمودة ، فهذا يُنقص من دينك بمقدار ما تواليهم .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِى آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨) ﴾ [الأنعام]

فهم يخوضون فى آيات الله استهزاءً وسخرية وطعناً ، فأعرضوا عنهم ولا تقعدوا معهم وهم على هذه الحالة وإلاَّ تكونوا مشاركين لهم فيما هم فيه من استهزاء فيهون عليكم أمرُ الدين وتشابهونهم فيما هم فيه .

وقد كان المشركون إذا جالسوا المؤمنين وقعوا فى رسول الله والقرآن ، فشتموه واستهزءوا به ، فأمر الله أنْ لا يقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره .

فهؤلاء جميعاً قوم غضب الله عليهم فلا توالوهم ولا تظاهروهم ، وقد خصَّ الله اليهود بالحديث وبغضب الله ، وذلك بسبب ذنوبهم وعصيانهم ، فقال تعالى : ﴿ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ .. (٦١) ﴾ [البقرة]

حتى أصبح الغضب من كثرة عصيانهم كأنه سمةٌ من سماتهم ، لماذا ؟ ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ

﴿ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [البقرة]

أى : أنهم كانوا يكفرون بنعم الله ولا يشكرون ويكفرون بالآيات ويشترون بها ثمناً قليلاً ، ولم يكتفوا بذلك بل كانوا يقتلون أنبياء الله بغير حقٍّ .

ويعطينا الحق سبحانه لفتة فى هذه الآية فيقول ﴿ لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا ﴿١٣﴾ ﴾ [الممتحنة] فجعل (قوماً) بصيغة المفرد ، ولم يقل أقواماً ، وكأنه سبحانه يقصد قوماً بعينهم . حتى أن الحق سبحانه ذكرهم فى فاتحة الكتاب ، فقال تعالى : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾ ﴾ [الفاتحة]

فالمغضوب عليهم هم الذين عرفوا المنهج فخالفوه وارتكبوا كلَّ ما حرَّمه الله فاستحقُّوا غضبه ، فهم غيّروا وبدّلوا فى منهج الله ليأخذوا سلطة زمنية فى الحياة الدنيا ، وليأكلوا أموال الناس بالباطل.

وقد قال رسول الله ﷺ : « إن (المغضوب عليهم) اليهود ، وإن (الضالين) النصارى »[١] .

وقد يسأل سائل : رسول الله ﷺ يقول : « إن الغضب جمرة توقَّد فى القلب ، ألم تروا انتفاخ أوداجه وحمرة عينيه »[٢] فكيف

---

(١) روى هذا الحديث عدى بن حاتم وقد كان مسيحياً وأسلم ، وقد أخرج الإمام أحمد الحديث فى مسنده (١٩٣٨١) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٣٦٩١) .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١١٦٠٤) والطيالسى فى مسنده (٢٢٧٠) والحاكم فى مستدركه (٨٥٤٣) والترمذى فى سننه (٢٣٥٠) وقال : حديث حسن من حديث أبى سعيد الخدرى : « ألا وإن الغضب جمرة فى قلب ابن آدم ، أما رأيتم إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه ، فمَنْ أحسَّ بشىء من ذلك فليلتصق بالأرض » .

يُوصف الله بأنه يغضب ؟

نعم مَنْ يغضب تنتفخ أوداجه[1] ويحمرّ وجهه ويستمر هياجه وتبرق عيناه بالشر وتندفع يداه ، وهذا أمر يقع من البشر بل وقع من موسى عليه السلام وهو من أُولى العزم من الرسل .

قال تعالى : ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ..(١٥٠)﴾ [الأعراف]

ونعلم أن الألواح فيها المنهج ، ورغم هذا ألقاها موسى عليه السلام من يده بسبب غضبه ، وقدر موسى على أخيه فأخذ برأسه يجرُّه إليه ، وهذا نزوع غضبى ، منشؤه أن ما فعله قومه يستوجب غضب الله .

فالغضب انفعال نفسى يُحدث تغييراً فى كيماوية الجسم فترى الغاضب قد انتفخت أوداجه واحمرّ وجهه وتغيرت ملامحه ، فهذه أغيار تصاحب هذا الانفعال ، فهل غضب الله عز وجل من هذا النوع ؟

بالطبع لا ، لأنه تعالى ليس عنده أغيار ، وإذا كان الغضب يتناسب وقدرة الغاضب على العذاب ، فما بالك إنْ كان الغضب من الله ؟

فغضب الحق سبحانه هو طرد الكافرين من رحمة الله ومعاقبة العاصين والمنحرفين دون انفعال كيماوى كما فى البشر ، فإنه سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ..(١١)﴾ [الشورى]

---

(١) الأوداج : جمع ودج ، والأوداج ما أحاط بالحلق من العروق . [المحكم لأبى الحسن بن سيده] . وقيل : الودجان عرقان عظيمان عن يمين ثغرة النحر ويسارها . [تاج العروس] .

فـالله موجـود وأنت موجـود ، فهل وجـودك كوجـوده ؟ الله حيٌّ وأنت حيّ . أحياتُك كحياته ؟ الله سميع وأنت سميع ، أسمعُك كسمعه ؟ الله بصير وأنت بصير . أبصرك كبصره ؟

إذن : ما دمتَ تعـتقد أن الحق سـبحانه له صـفاتٌ مثلهـا فيك ، فتأخذها بالنسبة لله فى إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ..(١١) ﴾ [الشورى]

وقد وصـف الحق سبحانه القوم الذين غضب الله عليهم فقال : ﴿ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ (١٣) ﴾ [الممتحنة]

فيأســهم من الآخرة صفةٌ لازمة لهم نتـجتْ عندهم من فعلهم ما أغضب الله عليهم وطرده لهم من رحـمته سبحـانه ، وهو سببٌ أيضاً لغضب الله ، فيأسُهم من الآخرة هو نتيجة وسببٌ لغضب الله .

وليأسهم من أنْ يكون لهم فى الآخرة نصيبٌ صاروا يُبدِّلون كتب الله ويُحرِّفونهـا ويقتلون النبيين ويفسـدون فى الأرض ويفترون على الله فهم يحسُّون أن الدنيا هى عالمهم .

لذلك كانوا غير صـادقين عندما قالوا ﴿ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ..(١١١) ﴾ [البقرة] وأيضاً ادعـوْا أن لهم الدار الآخرة خالصةً لهم ، وهم كاذبون فى هذا .

فقـال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) ﴾ [البقرة]

فالله سبحانه يقول لرسول الله ﷺ : إن كانت الآخرة لهم وحدهم عند الله لا يشاركهم فيهـا أحد . فكان الواجب عليهم أن يتمنوا الموت ليـذهبوا إلى نعـيم خـالد ، فمـا دامت لهم الدار الآخـرة ، وما دامـوا موقنين من دخول الجنة وحدهم ، فما الذى يجعلهم يبقون فى الدنيا ؟

وهم كاذبون ، لذلك قال تعالى : ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) ﴾ [البقرة]

ثم قال : ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ .. (٩٥) ﴾ [البقرة]

فذنوبهم ومعاصيهم وتجرؤهم على الله سيمنعهم أنْ يتمنوا الموت ، لأنهم فى الحقيقة يئسوا من ثواب الآخرة ومن أن يكون لهم نصيبٌ فيها .

وقد قال الحق سبحانه فى معرض الكلام عن اليهود وهم الذين غضب الله عليهم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧) ﴾ [آل عمران]

فهم قد انقطع أملهم من الآخرة ، وانقطاع أملهم ويأسهم من الآخرة وصل للذروة حتى أن يأسهم هذا شابه يأسُ الكفار من أصحاب القبور .

ويأس الكفار من أصحاب القبور قد ذكره لنا القرآن ، فقال : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) ﴾ [يس]

وروتْه لنا كتب السيرة ، فقد جاء أُبيّ بن خلف الجمحى[1] إلى رسول الله ﷺ بعظم نخر ، فقال : أتعدنا يا محمد إذا بليتْ عظامنا

---

(١) أبى بن خلف الجمحى ، كان أحد صناديد قريش ، وكان أحد الذين أحاطوا ببيت رسول الله ليلة الهجرة يريدون قتله ﷺ وقد كان يلقى رسول الله بمكة فيقول : إن عندى قَعوداً أعلفها كل يوم فرقاً من ذرة أقتلك عليه . فيقول رسول الله : بل أنا أقتلك إن شاء الله . فرجع أبى بن خلف يوم أحد وقد خدشته حربة رسول الله خدشاً غير كبير فقال : قتلنى والله محمد . فقالوا : ذهب والله فؤادك والله إنْ بك من بأس . فقال : إنه قد كان يقول بمكة : إنى أقتلك والله لو بصق علىَّ لقتلنى . فمات بسرف وهم قافلون بمكة . أورده القاضى عياض فى كتاب « الشفا بتعريف حقوق المصطفى » .

فكانت رميماً أن الله باعثنا خَلْقاً جديداً ، ثم جعل يفتّ العظم ويذروه فى الريح ، فيقول : يا محمد مَنْ يحيى هذا ؟

فقال رسول الله ﷺ : « نعم يُميتك الله ، ثم يُحييك ، ويجعلك فى جهنم »[1]

وقد استبعد الكافرون البعثَ بعد الموت واستبعدوا أن يقوم هؤلاء الأموات من قبورهم ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) ﴾ [الإسراء]

والرفات هو الفتات ومسحوق الشيء وهو التراب أو الحطام ، وقد استبعد هؤلاء البعث بعد الموت لأنهم غفلوا عن بداية الوجود وبداية خلق الإنسان .

فيأس هؤلاء الذين غضب الله عليهم كيأس الذين كفروا من بعث أصحاب القبور وإحيائهم بعد الموت ، لذلك لا تتولوْهم ولا تُلقوا إليهم بالمودة حتى لا تكونوا من هؤلاء أو من أولئك .

وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ ..(١٣) ﴾ [الممتحنة] أى : من الثواب فيها ومن النجاة من عذابها ﴿ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ (١٣) ﴾ [الممتحنة] أى : كما يئس الكفار من عودة الميت بعد موته .

ونلاحظ أن ختام السورة هو نفس استهلالها ، فالمعنى الذى تدور حوله بداية السورة ونهايتها وجوب البراءة من أعداء الله وعدم موالاتهم فى استهلال السورة .

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور وعزاه لابن مردويه عن ابن عباس قال : جاء أبى بن خلف الجمحى إلى رسول الله بعظم نخر .. الحديث بهذا اللفظ . وقد ورد هذا أيضاً فى حق أبى جهل والعاص بن وائل بألفاظ مختلفة .

قال تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ .. ① ﴾ [الممتحنة] وهؤلاء هم أنفسهم الذين وصفهم الله هنا بقوله ﴿ قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ .. ⑬ ﴾ [الممتحنة] وهم اليهود والكفار عامة .

فكأن آية الاستهلال وآية الختام عبارة عن قوسين جمَعا فيما بينهما كلّ آيات البراءة من اليهود والكافرين وعدم موالاة أعداء الله على اختلاف أشكالهم .

فهناك سماهم أعداء الله ، وهنا ﴿ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ .. ⑬ ﴾ [الممتحنة] فما داموا أعداء الله وما داموا مغضوباً عليهم ، فكيف إذن تواليهم ؟ أتجير على الله ﴿ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ ⑱⑧ ﴾ [المؤمنون]

والأحقُّ بالموالاة والنصرة هم مَنْ آمنوا معكم بالله وبرسوله وبالإحياء بعد الموت والبعث يوم القيامة ، يقول تعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ⑦① ﴾ [التوبة]

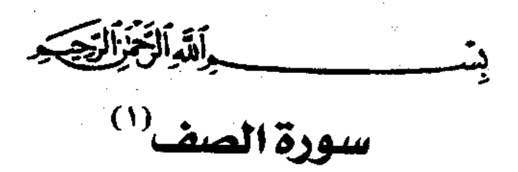
وعَجُز هذه الآية يتوافق مع قوله تعالى في سورة الممتحنة ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ⑤ ﴾ [الممتحنة] ثم قال ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ⑥ ﴾ [الممتحنة] ثم قال ﴿ وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ⑦ ﴾ [الممتحنة] ثم عَجُز آية ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ⑩ ﴾ [الممتحنة] ثم ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ⑫ ﴾ [الممتحنة]

وهذا يتوافق مع ما بدأت به السورة بعدها وهي سورة الصف، فقد بدأت بتسبيح الله سبحانه ، فقال تعالى : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ① ﴾ [الصف]

فالله يســتحق منكم أنْ تُسـبِّحـوه وتُنزِّهوه عن كل نقص ، وأنْ لا تتخـذوا عدوه وعدوكم أولياء من دون الله ، وأنْ لا تتـولوا مَنْ غضب اللهُ عليه ، وإلا فهذا يخدش إيمانكم فلتُـسبِّحوا الله منسجمين مع الكون من حولكم .


سورة الصف





سورة الصف[1]

يقول الحق سبحانه :

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١ ﴾

سورة الصف من السُّور التى يُطلق عليها العلماء (المسبِّحات) وهى السُّور التى تبدأ بـ (سبَّح) أو (يُسبِّح) أو (سبِّح) .

وقد ذكر رسول الله ﷺ هذه السور بهذا الاسم فى حديثه النبوى ، فقد كان يقرأ المسبِّحات قبل أنْ يرقد ، ثم قال : إن فيهن آية[2] أفضل من ألف آية ، يقصد التي فيها تسبيح الله سبحانه وتنزيهه .

---

(١) سورة الصف مدنية عدد آياتها ١٤آية ، قال القرطبى : مدنية فى قول الجميع فيما ذكر الماوردى ، وقيل إنها مكية ذكره النحاس عن ابن عباس وتسمى أيضاً سورة الحواريين وسورة عيسى عليه السلام . وهى السورة رقم (٦١) فى ترتيب المصحف الشريف نزلت بعد سورة التغابن وقبل سورة الفتح . أى أنها نزلت قبل صلح الحديبية .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (١٧٢٠٠) وأبو داود فى سننه (٥٠٥٩) والترمذى فى سننه (٢٩٢١) والنسائى فى سننه (٧٩٧٢) من حديث العرباض بن سارية رضى الله عنه .

وأنت تجد سور القرآن الكريم التى جاء فيها التسبيح مؤكدة أنه سبحانه مُنزَّه ، وله التسبيح من قبل أنْ يخلق الخَلْق ، ثم خلق الخَلْق ليسبِّحوا .

ففى سورة الحديد يقول سبحانه : ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ ..(١)﴾ [الحديد] . ويقول فى سورة الحشر : ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ..(١)﴾ [الحشر]

ويقول هنا فى سورة الصف : ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١)﴾ [الصف]

فهل سبَّح كل مَنْ فى السماوات ومَنْ فى الأرض مرة واحدة وانتهى الأمر ؟ لا ، لأن الله سبحانه يقول : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ .. (١)﴾ [الجمعة]

ويقول سبحانه في سورة التغابن[1] : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١)﴾ [التغابن]

إذن : فالسُّبْحانية لله أزلاً ، وسبَّح ويسبح الخلق وكل الوجود بعد أنْ خلق الله سبحانه ، سماوات وأرضاً وما فيهما ومَنْ فيهما ، وما بقى إلا أنت أيها الإنسان ، فسبِّح باسم ربك الأعلى .

فقد ثبتتْ له السُّبحانية فى ذاته ، ثم أوجد الملائكة يُسبِّحونه الليل والنهار لا يفترون ، ثم خلق السماء والأرض فسبَّح ما فيهن

---

(١) التغابن : مصدر قياسى للخماسى تغابن مأخوذ من الغبن وهو فوت الحظ وهو مستعار من تغابن القوم فى التجارة ، وهو أن يغبن بعضهم بعضاً لنزول السعداء منازل الأشقياء التى كان سينزلها هؤلاء الأشقياء لو كانوا سعداء ، ونزول الأشقياء منازل السعداء التى كان سينزلها هؤلاء السعداء لو كانوا أشقياء .

وما بينهن ، وجاء خَلْقه يُسبِّحون أيضاً ، فيا مَنْ آمنتَ بالله إلهاً سبِّح كما سبَّح كل الكون .

فالسُّبْحانية هى الدليل السائد الشامل الجامع لكلِّ الخَلْق ، فالتسبيح لغة الكون كله ، منه ما نفهمه ومنه ما لا نفهمه .

وكلُّ شيء فى الوجود مُؤتمر بأمره سبحانه ويُسبِّح بحمده ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَـٰوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤)﴾ [الإسراء]

وهو تسبيح حقيقى وإنْ كُنَّا لا نفهم ولا نفقه تسبيحهم ، فإنْ فقَّهك الله تعالى فى لغاتهم لَعلمتَ تسبيح الكائنات ، بدليل أنه علّم سليمان عليه السلام منطق الطير .

والحق سبحانه يقول هنا ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتُ ..(١)﴾ [الصف] فاستخدم سبحانه (ما) التى لغير العاقل دلالةً على أن الكون كله مسبِّح لله ، لا يتخلف منه أحد .

وقد قال تعالى فى آية أخرى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٤١)﴾ [النور] فاستخدم سبحانه (مَنْ) التى للعاقل دلالة على تكامل الكون كله فى تسبيح الله سبحانه ، لا يشذ إلا مَنْ تمرد وكفر واستنكف تسبيح الله .

واعلم أن ذرات الكافر نفسه مؤمنة مُسبِّحة لله ، فأبعاض الكافر مُسبِّحة ولكن بغير إرادته ، لذلك سيعاقبه على كفره ، فأبعاضه وذرات جسمه يؤلمها ويغيظها أنَّ صاحبها عاصٍ أو كافر ، فتطيعه وهى كارهة لفعله بدليل أنها ستشهد عليه يوم القيامة ، فإنْ كانت مُسخَّرة لمراداته فى الدنيا فإنها ستتحرر من هذه الإرادة فى الآخرة .

فاللســان مُسخّر لصاحـبه ، إنْ شاء نطق الشهـادتين ، وإنْ شاء نطق به كلمة الكفر ، لأنه مقهور لإرادته ، أما فى القيامة فلا إرادة إلا للحقِّ تبارك وتعالى .

وفى النوم ترتاح هذه الجوارح وهذه الذرات من سيئـات صاحبها ومن ذنوبه و تسـتـريح من نكده وإكـراهه لهـا على مـعصـيـة الله ، وأوضـح سبحانه أن السماوات سبع وقـد جاءت مجموعة ، أما الأرض فجاء بـها مفردة ، فقـال تعالى : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتُ وَمَا فِي الأَرْضِ ..(١) ﴾ [الصف]

لكنه جلَّ وعلا قال فى آية أخرى : ﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٌ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ..(١٢) ﴾ [الطلاق] فكمـا خلق سـبع سمـاوات خلق سبع أراضين ، ولماذا جاء بالسمـاء جمعاً وترك لفظ الأرض مفرداً ؟ لماذا لم يقُل : سبع أرضين ؟

لأن كلمة (أرضــين) ثقيلة على اللســان فتركـها لثـقلها ، وأتى بالسماوات مجموعة لخفَّتها ويُسْر نطقها ، وقد يسأل سائل : لكن أين هذه الأرضين السبع ؟

لقد أخبرنا القرآن أن السمـوات سبع ، وأخبرنا رسـول الله أنه مرّ بها فى رحلة المـعراج [1] ، فقـال فى الأولى كذا وكذا ، وفى الثـانية

---

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (٤٢٩) من حـديث أنس بن مالك حديث الإسراء والمعراج بطوله أن رسول الله ﷺ قال : « أُتيت بالبراق فركبته حتى أتيت بيت المقدس فربطته بالحلقة التى يربط بها الأنبياء ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركـعتين ، ثم عرج بنا إلى السماء فاستفتح جبريل فقـيل : من أنت ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محـمد . قيل : وقد بُعث إليه ؟ قال : قـد بُعث إليه . ففـتح لنا فإذا أنا بآدم . [ثم هكذا فى كل سماء ، فى الـثانية ابنا الخالة عيـسى بن مريم ويحيى بن زكريا . وفى الثـالثة يوسف . وفى الرابعة إدريس . وفى الخامسة هارون ، وفى السادسة موسى إلى آخره] .

كـذا وكذا ، ومـا دامت السمـاء كلٌّ ما أظلك ، والأرض كل مـا أقلَّك ، فالخلق فى السـماء الأولى مثـلاً سماؤهم السـماء الثانيـة ، وأرضـهم سماؤنا الأولى ، وهكذا وهكذا .

﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ①﴾ [الصف] فهو سبـحانه العزيز الذى لا يُغلب لجبـروته ، فهو الغـالب فى مُلْكه ، ولا تقدر أنْ تحـتـاط من أنه يهزمك أبداً ، فـهو سبـحانه القوىُّ الذى لا يغلبـه أحد على الإطلاق ، والقوى الشديد الذى لا ينال منه أحد .

فـسـبحـانه له العـزة الذاتيـة الأزليـة الأبدية ، ولو أردتم العـزة الحقـيقـية التى تُغنيكم عن الطـلب من الأغيار مـثلكم ، فلتذهـبوا إلى مصدر العزة الذى لا تناله الأغيارُ ، وهو الحق سبحانه .

ووصْف الحق سبحانه هنا بأنه عزيز بعد سورة الممتحنة يعطينا لفـتـة ، فإنْ أردتم أنْ تـتعلمـوا طلب العـزة فـعليكم أنْ تغـيـروا من أسلوبكم فى طلبها ، فأنتم تتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين وتبتغون عندهم العزة وهم من أهل الأغيار .

والأغيـار تتبدل من يوم إلى يوم ، فـإنْ كان الكفار أغنيـاء اليوم فغداً لن يكونوا كذلك ، وطلب العزة من الأغيار يعنى أنكم غير أعزاء ، فإنْ أردتم عـزَّةً حقيـقية فـاطلبوها ممَّنْ لا تـتغيـر عزَّته ، وهو الحق سبحانه : ﴿ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ١٣٩﴾ [النساء]

وهو مع عـزَّته حكيم ، لا يصـدر منه الشىء إلا بحكمـه بالغـة ، فهو الحكيم فى فعله وتقديره ، فإذا أمركم بعدم موالاة أعداء الله فهذا مُطلَق حكمتـه سبحانه ليُـعزّكم ويرفع مقامكم كـمؤمنين عن أنْ تذلوا لغيركم .

ثم يقول الحق سبحانه :[(١)]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا[(٢)] عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣ ﴾

الآية تخاطب الذين آمنوا ، فساعة ينادى الحَقُّ سبحانه عباده الذين آمنوا به يقول : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. ۝٢ ﴾ [الصف] فمعناها : يا مَنْ آمنتم بى بمحض اختياركم ، وآمنتم بى إلهاً له كلُّ صفات العلم والقدرة والحكمة والقيومية .

فما دُمتم آمنتم بهذا الإله فاسمعوا من الإله الأحكام التى يطلبها منكم ، فهو سبحانه لم يُنادِ غير مؤمن ، وإنما نادى مَنْ آمن باختياره وبترجيح عقله .

وليعلم الذين آمنوا أن كلَّ ما يأتى بعد ندائهم بهذا الوصف إنما هو خير لهم إنِ التزموا بما أمر الله به فى ندائه ، أو انتهوا عمَّا نهاهم الله عنه .

---

(١) سبب نزول الآية : أخرج الحاكم فى مستدركه على الصحيحين (٢٨٩٩) من حديث عبد الله بن سلام قال : قعدنا نفر من أصحاب النبى ﷺ فقلنا : لو نعلم أى الأعمال أحب إلى الله عملنا فأنزل الله تعالى ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ۝٣ ﴾ [الصف] وقراها علينا رسول الله . ومثله عند الطبرانى فى المعجم الكبير (١٧٢) والترمذى فى سننه (٣٦٢٤) .

(٢) المقت : أشد البغض . والمقت : بُغض من أمر قبيح ركبه ، ومعنى الآية : أى عظم ذلك فى المقت والبغض عند الله أى : أن الله يبغض بغضاً شديداً .

وهذه الآيات إنما نزلتْ في ناس من المؤمنين قبل أنْ يُفرض الجهاد يقولون : لوددنا أن الله دلَّنا على أحبِّ الأعمال إليه فنعمل به ، فأخبر الله نبيَّه أن أحبَّ الأعمال إليه إيمانٌ بالله لا شكَّ فيه ، وجهادُ أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يُقروا به .

فلما نزل الأمر بالقتال كره ذلك أناسٌ من المؤمنين وشقَّ عليهم أمره ، فقال الله :﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) ﴾ [الصف]

ونحن نسمع كلمة « يعمل » وكلمة « يفعل » وكلمة « يقول » . والعمل أهم الأحداث لأن العمل هو تعلُّق الجارحة بما نيطتْ به ، فالقلب جارحةٌ عملُها النية ، واللسان جارحةٌ عملُها القول ، والأذن جارحةٌ عملها الاستماع ، والعين جارحة عملها النظر .

إذن : فكلُّ جارحة من الجوارح لها حدث تُنشئه لتؤدى مهمتها في الكائن الإنساني ، إذن : فكلّ أداء مهمة من جارحة يُقال له « عمل » ، لكن الفعل هو تعلُّق كلِّ جارحة غير اللسان بالحدث .

أما تعلُّق اللسان فيكون قولاً ومقابله فعل . إذن : هناك قول وهناك فعل ، وكلاهما عمل ، فالعمل يشمل ويضم القول والفعل معاً .

وشغل اللسان بمهمته يُسمَّى « قولاً » ولا يُسمَّى فعلاً ، لماذا ؟ لأن الإنسان يتكلم كثيراً ، لكن أنْ يحمل نفسه على أنْ يعمل ما يتكلمه فهذه عملية أخرى ، ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) ﴾ [الصف]

إذن : فالقول مقابله الفعل ، والكلُّ عمل ، لذلك قال الحق سبحانه

﴿مَا لا تَفْعَلُونَ (٢)﴾ [الصف] ولم يقُل (ما لا تعملون) لأن القول نفسه عمل .

فمجرد قولك هو عمل ولكنه ليس فعلاً ، ولا بدَّ للمؤمن أنْ يتطابق القول مع الفعل ، فحين يكون القولُ شيئاً مختلفاً عن الفعل لا تتطابق النسبة ، فالصادقون هم الذين يصدقون فى سلوكهم ويتطابق فعلُهم مع قولهم .

وقد عابَ الحق سبحانه مَنْ يأمر الناس بالبر وينسى نفسه فلا يُطبِّق على نفسه ما يأمر به غيره ، ويفعل ما ينهى الناس عنه ، فقال تعالى : ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ..(٤٤)﴾ [البقرة]

فالذى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحمل منهج الله يريد أنْ يُخرج مَنْ لا يؤمن من حركة الباطل التى ألفها ، وإخراجُ غير المؤمن من حركة الباطل أمر شاقٌ على نفسه لأنه خروج عن الذى اعتاده وبُعدٌ عما ألفه ، واعترافٌ أنه كان على باطل .

لذلك فهو يكون مفتوحَ العينين على مَنْ بيَّن له طريق الإيمان ، ليرى هل يُطبِّق ذلك على نفسه أم لا ؟ أيطبق الناهى عن المنكر ما يقوله ؟ فإذا طبَّقه عرف أنه صادق فى الدعوة ، وإذا لم يُطبقه كان ذلك عذراً ليعود إلى الباطل الذى كان يسيطر على حركة حياته .

إن الدين كلمة تُقال وسلوك يُفْعل ، فإذا انفصلتْ الكلمة عن السلوك ضاعت الدعوة .

لذلك استحقَّ هذا الأمر أنْ يضعه الحق سبحانه بعد نداء ﴿يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. (٢)﴾ [الصف] ليكون من مطلوبات الإيمان ومقتضياته ، لماذا ؟

لأن مَنْ يراك تفعل مـا تنهاه عنه يعـرف أنك مخادع وغـشاش ، وما لم ترتضـه أنت كسلوك لنفسك لا يمكن أنْ تدعو إليه غيرك .

لذلك نقرأ فى القرآن ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (٢١)﴾ [الأحزاب]

فمنهج الدين وحده لا يكفى إلا بالتطبـيق ، ولذلك كان رسول الله ﷺ لا يأمر أصـحابه بأمـر إلا كان أسـبقهم إلـيه ، فكان المسـلمون يأخذون عنه القدوة قولاً وفعلاً .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين يريد أنْ يُقنِّنَ أمراً فى الإسـلام يأتى بأهله وأقـاربه ويقول لهم : لقـد بدا لى أنْ آمـر بكذا وكذا ، والذى نفسى بيده مَنْ خالف منكم لأجعلنَّه نكالاً للمسلمين .

وكان عـمر بن الخطاب بهذا يغلق أبواب الفـتنة لأنه يعلم من أين تأتى الفتن .

ولا بدَّ أنْ يكون العلماء قدوة لينصلح أمر الناس ، ففى كل علوم الدنيـا القدوة ليـستْ مطلوبة إلا فى الدين ، فـأنت إذا ذُكِر لك عـالم كيمياء بارع وقيل لك إنه يتناول الخمر أو يفعل كذا .

تقول : مالـى وسلوكه ، أنا آخذ عنه علم الكيمـياء لأنه بارع فى ذلك ، ولكن لا شأن لى بسلوكه ، وكـذلك كلّ علماء الأرض ، ما عدا عالم الدين .

فإذا كان هناك عالم يُبصِّرك بالطريق المستقيم وتتلقَّى عنه علوم دينك ، ثم بعد ذلك تعرف أنه يشرب الخمر أو يسرق ، أتستمع له ؟ أبداً إنه يهبط من نظرك فى الحال ، ولا تحب أنْ تسـمعه ، ولا تحب

أن تجلس فى مجلسه مهما كان علمه فستقول له : كفاك دَجلاً .

وهكذا فإن عالم الدين لا بدَّ أنْ يكون قدوة ، فلا ينهى عن منكر ويفعله ، أو يأمر بمعروف وهو لا ينفذه ، فالناس كلها مُفتَّحة أعينهم لما يصنع .

ولذلك نقول : أىُّ فائدة أنْ نقول : إننا مسلمون ونعمل بعمل غير المسلمين ؟

والإنسان المؤمن مطالب بأمرين : الأول ألاَّ يصنع المنكر . والثانى : أنْ ينهى عن المنكر . ولذلك إنْ جاء نُصح من إنسان ينهاك عن المنكر وهو قد فعله ، فلا تقُلْ له : أصلح نفسك واتبع أنت ما تنصح به أولاً ، لا تقُلْ له ذلك حتى لا يقول لك ما قاله الشاعر[1] :

خُذْ بِعلْمِى وَلاَ تَركَنْ إلِى عَملِى ... وَاجْنِ الثِّمارَ وَخَلِّ العُودَ لِلنَّارِ

لكن الأجدر بمَنْ يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أنْ يكون أول العاملين بقوله ، حتى لا يدخل فى زمرة مَنْ قال الله فيهما هاتين الآيتين .

والإسلام قبل أنْ ينتشر بالمنهج العلمى انتشر بالمنهج السلوكى ،

---

(١) ذكر نشوان الحميرى فى كتابه (الحور العين) من قول ابن قتيبة وعزاه للخليل بن أحمد نحو هذا :

أعمل بعلمى ولا تنظر إلى عملى ... ينفعك علمى ولا يضرك تقصيرى

وذكره أيضاً ابن عبد ربه فى العقد الفريد فى فصل (الحكمة) وابن قتيبة فى (المعارف) و (عيون الأخبار) وهو من بحر البسيط .

والبيت بعده :

وانظر لنفسك فيما أنت فاعله ... من الأمور وشمِّر فوق تشميرى

وأكبر عدد من المسلمين اعتنق هذا الدين من أسوة سلوكية قادتْه إليه ، فالذين نشروا الإسلام فى الصين كان أغلبهم من التجار الذين تخلَّقوا بأخلاق الإسلام ، فجذبوا حولهم الكثيرين فاعتنقوا الإسلام .

ويُعطينا الحق سبحانه مثالاً لهذا من قصة شعيب عليه السلام ، فقال تعالى : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ .. (٨٨) ﴾ [هود]

أى : أننى أطبِّق ما أدعوكم إليه على نفسى ، فلا أُنقِص كيلاً أو أُخْسِر ميزاناً ، ولا ابخس أحداً أشياءه .

فشعيب عليه السلام يوضح لهم أنه لا ينهاهم عن أفعال ليفعلها هو ، بل ينهاهم عن الذى لا يفعله ، لأن الحق سبحانه قد أمره بألاَّ يفعل تلك الأفعال .

وهناك ملمح آخر فى هاتين الآيتين ، يقول تعالى ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ (٣) ﴾ [الصف]

فهؤلاء المؤمنون الذين اجتمعوا يتذاكرون أىَّ الأعمال أحبّ إلى الله ، فلما نزل الأمرُ بالقتال وأنَّ أحب الأعمال إلى الله هو أنْ يقاتل المؤمنون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص .

فلما نزل هذا كره بعض المؤمنين هذا الأمر ، لذلك كان عتاب الله عز وجل ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) ﴾ [الصف] فما دُمتم تقولون وتتكلمون وتسألون عن أحبِّ الأعمال إلى الله ، فلماذا لا تستجيبون بفعلكم لأمر الله ؟

فهذا يجعل بينكم وبين المنافقين وَجْهَ تشابه ، الذين قال عنهم

الحق سبحانه : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ .. (٢٠) ﴾ [محمد]

وهذا تشبيه لنظر المغشيِّ عليه من الموت . يعنى : المغمى عليه خَوْفاً وهلَعاً ، فهم طلبوا سورة محكمة قاطعة ، فلما أُنزلَتْ السورةُ وفيها ذِكْرٌ للقتال تجدهم منهارين وكأنهم مُغمى عليهم .

والمنافق سهْلٌ عليه أنْ يذهب ويصلى مع الجماعة فى المسجد بل ويقف فى الصف الأول ، لكن إذا وصلت المسألة للقتال اختلف الأمر وانكشف المستور من النفاق .

﴿ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ (٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ (٢١) ﴾ [محمد]

فالطاعة لأمر الله وقول معروف أوْلَى لهم أنْ يفعلوه وأوْلى من نفاقهم ، فلو صدقوا الله فى أوامره واتباع منهجه لكان خيراً لهم ، والخير هنا هو البراءة من الموت بعد ذلك ، لأنه جادَ بنفسه طواعيةً فى سبيل الله .

وقد قال الحق سبحانه : ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ (٣) ﴾ [الصف] فقول (كَبُر) أى عَظم . والكاف والباء والراء تأتى لمعنيين : الأول كِبر السن . وهى : كبر يكبر . والثانى : العظمة والتعظيم . إلا أن التعظيم يأتى ليبين أنه أمر صعب على النفس .

مثل قول الحق سبحانه : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا (٥) ﴾ [الكهف] أى : أن هذه الكلمة التى خرجتْ من

أفواههم أمرٌ صَعْب وشاقٌ ، وهى ادعاء أن لله ولداً .

ومرة تكون العظمة من جهة أخرى ، مثل قوْل الحق سبحانه : ﴿ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ .. (١٣) ﴾ [الشورى] أى : عَظُم على المشركين وصَعُب على أنفسهم وشَقَّ عليهم ما تدعوهم إليه من أن الإله هو واحد أحد ، ولا سلطان إلا له سبحانه .

وهنا﴿ كَبُرَ مَقْتًا .. (٣) ﴾ [الصف] أى : عظم بُغْضاً ، والمقت أشدّ البغض ، فهذا الأمر ممقوت عند الله يبغضه الله بُغْضاً كبيراً .

ومثله قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا ..(٣٥) ﴾ [غافر]

فقولكم ما لا تفعلون ممقوتٌ عند الله مُبغض أشدّ البُغْض .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ④ ﴾

الصفُّ انسجامُ مجموعة بحيث لا يشذّ فيها فرد عن فرد ، فالصفُّ لا يعنى مجرد الجمع والحشد ، إنما هو الجمع فى انسجام وانضباط .

وقد روتْ لنا السنة أن النبى ﷺ كان فى استعراض الجنود فى المعركة يُسوِّى الصفوف ، فلما رأى رجلاً شذَّ عن الصف وخرج عنه فشكَّه فى بطنه ليستقيم فى مكانه من الصف .

وكان الرجل مُحباً لرسول الله فقال : أوجعتنى يارسول الله ، فقال رسول الله : هذه بطنى اقتصّ منها ، فأقبل الرجلُ يُقبِّل رسول الله ويقول : والله يا رسول الله لقد أمَّلتُ أنْ أستشهد . فأحببتُ أنْ يكون آخر عهدى بالحياة أنْ يمسَّ جسدى جسدك الشريف[(١)] .

والصفُّ دليل الانتظام والالتزام والاستعداد لتلقِّى الأوامر ، وهكذا تُصفُّ الملائكة فى انتظار الأوامر ، ليقوم كلٌّ منهم بمهمته ودوره .

وإذا استعرضتَ مادة (ص ف ف) فى القرآن الكريم تجدها تدور حول هذا المعنى ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا .. (٦٤) ﴾ [طه] يعنى : مجتمعين مُتحدين ، كأنكم يد واحدة فهذا أهيَبُ لكم وأدخَلُ للرعب فى قلوب خَصمكم ، وهى نصيحة قدَّمها سحرة فرعون لبعضهم البعض فى مواجهة موسى عليه السلام .

حتى أن العَرْض على الله يوم القيامة يكون صفوفاً ، فيقول تعالى : ﴿ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا ..(٤٨) ﴾ [الكهف] وهذا كما يستعرض القائدُ الجنودَ فى العرض العسكرى مثلاً ، فيرى كلٌّ واحد من جنوده (صفاً) أى : صفوفاً منتظمة .

---

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٥٢٦٢) من حديث ابن أبى ليلى قال : كان أسيد بن حضير رجلا صالحاً ضاحكاً مليحاً فبينما هو عند رسول الله ﷺ يحدث القوم ويضحكهم فطعنه رسول الله فى خاصرته فقال : أوجعتنى ، قال : اقتص قال : يارسول الله إن عليك قميصاً ولم يكن علىّ قميص . قال : فرفع رسول الله قميصه فاحتضنه ثم جعل يُقبِّل كشحه فقال : بأبى أنت وأمى يا رسول الله أردت هذا . وقال الحاكم : صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

أى : أنها عمليــة منظمة لا يستطيع فيها أحــدٌ التخفى ، ولن يكون لأحد منهــا مفرّ ، وهى صــفوف متداخلة بطريقــة لايُخفى فيــها صفٌ الصَّفَّ الذى يليه ، فالجميع واضحٌ بكلِّ أحواله .

ويقــول تعــالى عــن الملائكة عموماً ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) ﴾ [الصـافات] يعنى : نقف فى انضــباط منتظرين الأوامــر ، والصفُّ هنا يدل على الانسجام ، وأنه لا يتعــالى أحدٌ على أحدٍ ، ويدلّ على الرهبة ممنْ أنت أمامه مصفوفٌ .

وفى الحديث عن البراء بن عازب[1] قال : كان رسول الله ﷺ إذا أقـيمت الصــلاة يمـسح مناكـبنا وصـدورنا . ويقول : « لا تـختلفـوا فـتخـتلف قلوبكم ، إن الله ومــلائكته يُصــلُّون على الصفـوف الأولى ، وصِلُوا المـناكبَ بالمنـاكب ، والأقـدامَ بالأقــدام ، فــإن الله يحبُّ فى الصلاة ما يحبُّ فى القتال[2] ، وتلا قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ (٤) ﴾ [الصف]

---

(١) البـراء بن عازب : بن الحـارث الخزرجى أبو عـمارة ، أنصـارى ، أسلم صـغيراً وغـزا مع رسـول الله ﷺ ١٥ غزوة أولها غزوة الخندق كـان أميراً على الرى (بفارس) سنة ٢٤ هـ والرى هى طهران الآن ، فتح أبهر غربى قـزوين ، سكن الكوفة وتوفى فى زمن مصعب بن الزبير . [الأعلام للزركلى ٢/٤٦]

(٢) أخـرج النسائى فى سننه (٨١١) عـن البراء بن عـازب قال : كـان رسـول الله ﷺ يتـخلل الصفوف من ناحية إلى ناحية يمسح مناكـبنا وصدورنا ويقول : لا تختلفوا فتختلف قلوبكم وكان يقول : إن الله وملائكته يصلون على الصفوف المـتقدمة ، وصـححه الألبانى . وأورده فى شـرح مُشْكل الآثار (٥٦٢٧) من حـديث البـراء أيضاً قـال : كان رسـول الله ﷺ إذا أقيمت الصلاة مسح صدورنا وقـال : « رصوا المناكب بالمناكب والأقدام بالأقدام ، فإن الله تعالى يحب فى الصلاة ما يحب فى القتال كأنهم بنيان مرصوص » .

فالله سبحانه يحبُّ فى الصلاة الاصطفاف صفوفاً متراصَّة غير متخالفة ، كذلك فى القتال يحبُّ الله اصطفافَ المقاتلين فى صفوف القتال .

فالاصطفاف فى صفٍّ الصلاة وفى صفٍّ القتال يحتاج لطاعة الأمر بالاصطفاف ، ويحتاج لسُكون[1] والتزام بما يأمر .

لذلك كان ما حدث يوم أُحُد من مخالفة أمر رسول الله ﷺ كان هذا خَرْقاً وخَلَلاً فى الصفِّ فكانت الهزيمة ، فرسول الله جاء بالرماة وأمَّر عليهم عبد الله بن جبير[2] ، وهم يومئذ خمسون رجلاً ، وقال رسول الله ﷺ لهم : « قُوموا على مصافِّكم هذه ، فاحموا ظهورنا ، فإنْ رأيتمونا قد انتصرنا فلا تشركونا ، وإن رأيتمونا نُقتل فلا تنصرونا »[3] .

---

(١) فالسكون عند مواجهة العدو يعطى المقاتل طمانينة وثقة . وعليه أن يكثر من ذكر الله سبحانه ، يقول رسول الله ﷺ « طوبى لمن أكثر فى الجهاد فى سبيل الله من ذكر الله ، فإن له بكل كلمة سبعين ألف حسنة ، كل حسنة منها عشرة أضعاف مع الذى له عند الله من المزيد والنفقة على قدر ذلك » . أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير عن معاذ . ذكره المتقى الهندى فى كنز العمال (١٠٨٨١) .

(٢) عبد الله بن جبير : بن النعمان الأنصارى شهد العقبة وبدراً ، وكان أمير الرماة يوم أحد فاستشهد فيها عام (٣ هـ) [الزركلى الأعلام ٤/٧٦]

(٣) قال الواقدى فى مغازيه (١/٢٢٩) : « كلما أتى خالد من قبل ميسرة النبى ﷺ ليجوز حتى يأتى من قبل السفح فيرده الرماة حتى فعلوا ذلك مراراً ، ولكن المسلمين أتوا من قبل الرماة . إن رسول الله ﷺ أوعز إليهم فقال : قوموا على مصافكم هذا فاحموا ظهورنا فإن رأيتمونا قد غنمنا لا تشركونا ، وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا ، فلما انهزم المشركون وتبعهم المسلمون يضعون السلاح فيهم حيث شاءوا حتى أجهضوهم عن العسكر ووقعوا ينتهبون العسكر . قال بعض الرماة لبعض : لم تقيمون هاهنا فى غير شيء ؟ قد هزم الله العدو وهؤلاء إخوانكم ينتهبون من العسكر فادخلوا عسكر المشركين فاغنموا مع إخوانكم . الحديث لآخره .

لكنهم لم يقدروا على هذه ، لأن نفوسهم مالتْ إلى الغنيمة ، وخرجوا عن مقتضيات الائتمار بأمر القائد والاصطفاف ، فاتباعُ أمر القائد يجب أنْ يكون هو الأساس فى عملية الجندية .

وإنكم إنْ خالفتم الرسول فلا بدَّ أنْ تنهزموا ، كان لا بد أنْ يعيشوا التجربة وهم مع رسول الله ، فحينما هبّت ريح النصر على المؤمنين فى أول المعركة ، ابتدأ المقاتلون فى الانشغال بالأسلاب والغنائم .

فقال الرماة : سيأخذ الأسلابَ غيرنا ويتركوننا ونزلوا ليأخذوا الغنائم ، فانتهز خالد بن الوليد - وكان على دين قومه - حينها الفرصة وطوّقهم وحدث ما حدث .

فهو استغل فرصة نزول الرماة عن أماكنهم وتركوا مصافهم التى وضعهم عليها رسول الله فوق الجبل .

لقد كادوا يتسبَّبون فى قتل رسول الله ، فبعد أن انحلَّ القوم من الرماة عن أمره وحدثت الكرّة عليهم من المشركين القرشيين فرَّ الصحابة فى كل اتجاه هنا وهناك وانفرط عِقْد المسلمين .

وتكتل المشركون على رسول الله لدرجة أن ابن قمئة[1] أمسك بحجر وضرب به حضرة النبى عليه الصلاة والسلام فكسر رباعيته

---

(١) عن أبى أمامة أن رسول الله ﷺ رماه عبد الله بن قمئة بحجر يوم أحد فشجّه على وجهه وكسر رباعيته وقال : خذها وأنا ابن قمئة ، فقال له رسول الله ﷺ وهو يمسح الدم عن وجهه : « مالك أقماك الله .فسلط الله عليه تيس جبل فلم يزل ينطحه حتى قطعه قطعة قطعة . أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (٧٤٧٦)

وانغـرزت في وجنتي رسـول الله حلقتـا المـغفـر[1] وسال منه الدم . وحـاول رسـول الله أن يصعـد على صـخـرة من الجـبل ليـعلوها فلم يستطع فـجلس تحتـه طلحة بن عبـيد الله[2] فنهض به حـتى استـوى عليها[3] .

لذلك كان أحبّ الأعمال إلى الله للمـقاتلين في سبيل الله أنْ يكونوا صفاً كأنهم بنيان مرصوص .

والصفّ الواحـد ليس فـقط للمـصطفـين في صَفّ الصـلاة ، ولا للمقاتلين في ساحة القتال ، إنما أيضاً لحاملي الدعوة إلى الله ، فيجب على هؤلاء الدعاة والعلماء أنْ يكونوا في دعوتهم صـفاً واحداً لا يشقُّه خلاف .

لذلك يرى بعض العلماء أن قـوله تعـالى ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝١﴾ [الصافات] له معنى أوسع ، وأنه يُراد به مجـال نشْر الدعوة والإعلام بها والدفاع عنها وحماية الاختيار في الإسـلام وفي القتال .

---

(١) المغـفر : زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس تلبس تحـته القلنسـوة . قاله الأصـمعي وذكـره صاحب الصـحـاح ،وهي ما نعـرفـه اليوم بـ (الخـوذة) . وذكـر ابن سيـده في المخصص (٣٢٧/١) : المغفر الذي يـوضع على الرأس لأنه يغطيه ، والغفير يراد به أنهم قد غطوا الأرض من كثرتهم .

(٢) هو : طلحة بن عبيد الله أبو مـحمد صحابي شجاع وُلد ٢٨ قبل الهـجرة ، هو أحد العشرة المبشرين بالجنة وأحـد الستة أصحاب الشورى كان من دهاة قـريش ومن علمائهم . ويقال له (طلحة الجود) ، شهد أحداً وثبت فيها مع رسول الله فأصيب بـ ٢٤ جرحاً ، قتل يوم الجمل وهو بجـانب عائشة ودُفن بالبـصرة عام (٣٦ هـ) عن ٦٤ عامـاً [الأعلام للزركلي ٢٢٩/٣]

(٣) أورده في الرحيق المختوم (٢٤٥/١) وفيه أن رسول الله ﷺ قال لطلحة : أوجب طلحة . أي وجبت لطلحة الجنة .

أى : من أجل الإعلام بدينه والدفاع عنه أمام أعدائه ، فالإعلام بالدين مهمة العلماء ، والدفاع عنه مهمة الجنود فى ساحة القتال ، وينبغى أنْ يكون هؤلاء وهؤلاء صفاً واحداً كأنه البنيانُ المرصوص .

والحق سبحانه يقول : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِهِ ..(٤)﴾ [الصف]

فالقتال فى الإسلام لا بدَّ أنْ يكون فى سبيل الله ، لا فى سبيل شىء دنيوىٍّ من استيلاء على الأراضى أو الأموال ونهبها . فلا بدَّ أنْ تكون نية القتال فى سبيل الله ، لا أنْ يكون القتال بنية الاستعلاء والجبروت والطغيان ، فلا قتالَ من أجل الجاه أو المال أو لضمان سوق اقتصادى ، وإنما القتال لإعلاء كلمة الله ونصرة دين الله ، هكذا هو غرض القتال فى الإسلام ، لتكون كلمة الله هى العليا(1) .

لذلك قال تعالى : ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤)﴾ [النساء]

فقوله تعالى : ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ .. (٧٤)﴾ [النساء] يدلنا على أن هناك قتالاً فى غير سبيل الله ، كأنْ يقاتل الرجل حمية أو ليُعلم مكانه من الشجاعة .

ولذلك تساءل بعض الناس : من الشهيد ؟ قال العلماء : هو مَنْ قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فيكون شهيداً . إذن : فالقتال مرة

(١) عن أبى موسى الأشعرى قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ما القتال فى سبيل الله .فإن أحدنا يقاتل غضباً ويقاتل حمية فرفع إليه رأسه ـ قال : وما رفع إليه رأسه إلا أنه كان قائماً ـ فقال : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٢٣) وكذا مسلم فى صحيحه (٥٠٣١)

يكون فى سبيل الله ، ومرة يكون فى سبيل النفس ، ومرة يكون فى سبيل الشيطان .

والله يُرغِّب المؤمنين فى أنْ يكونوا مجاهدين ، وأنْ يبذلوا الجهد لتكون كلمة الله هى العليا ، فإذا ما آمن الإنسانُ فليس له أن يتخلف عن الصفِّ الإيمانى ، لأنه ما دام قد اقتنعتْ نفسه بالإيمان لا ينضم إلى ركْب مَنْ ينفع سواه بالإيمان ؟

فكلمة ﴿ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا .. ④ ﴾ [الصف] تخصِّص لوناً من القتال ، فالإنسان قد يقاتل حمية أو دفاعاً عن جنسيته أو أى انتماء آخر ، وكلُّ هذه الانتماءات فى عُرف الدين لا قيمة لها إلا إذا نبعتْ من الانتماء إلى منهج الله لتكون كلمة الله هى العليا .

وبذلك يخرج المؤمن عن دائرة الاستعلاء والاستكبار فأنت لم تذهب للقتال من أجل الغنائم أو لتكسبَ مكانة فى مجتمعك كمقاتل ، بل أنت تقاتل حين يكون القتالُ مطلوباً ، وتسلك بالخلق الإيمانى اللائق فى إطار أنك من المتقين لله ، وتحارب لتكونَ كلمةُ الله هى العليا ، وهنا تكون معيةُ الله لك .

وما دام قتالكَ فى سبيل الله فلا بدَّ أنْ يكون محكوماً بمنهج الله ، فلا تغلّ ولا تعتد ولا تقتلْ امرأة أو طفلاً أو شيخاً كبيراً ، لأن فى قتال النساء والعجزة اعتداءً وتجاوزاً [(١)].

---

(١) عن صفوان بن عسال المرادى قال : بعثنا رسول الله ﷺ فى سرية فقال : « اغزوا بسم الله ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً » أخرجه أحمد فى مسنده (١٨١٢٢) وفى المعجم الأوسط (٢٦٨/٤) عن ابن عباس قال : كان رسول الله إذا بعث سرية قال : اغزوا بسم الله وفى سبيل الله فقاتلوا من كفر بالله لا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثّلوا ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ولا شيخاً .

ولأنه قتالٌ فى سبيل الله فلا بدَّ أنْ يتصف المقاتلون بأنهم ﴿ كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ④ ﴾ [الصف]

فالمنهج الإيمانى يجعل المؤمنين جميعاً كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً ، لا سيما الذين فى ميدان القتال فى سبيل الله .

فقوله ﴿ كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ④ ﴾ [الصف] تشبيه له دلالته لأن البنيانَ المرصوص يعنى أن اللبنة فيه ليس لها إرادةٌ فى الخروج عن الأخرى ، لأنها محكومةٌ بالبناء الذى وُضعتْ فيه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ⑤ ﴾

الحق سبحانه عندما أرسل موسى وهارون بآية دالّة على صِدقهما إلى فرعون كانت مهمتهما الأساسية أخْذ بنى إسرائيل وإنقاذهم من طغيان فرعون ، وجاءت المسألة الإيمانية تبعية ، أما أصل مهمة موسى فكان ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ ..㊼ ﴾ [طه]

فقد جئْنا لنأخذ أولادنا وننقذهم من هذا العذاب وهذا الاستضعاف ، وجاء لفرعون بمعجزات تثبت صِدْق رسالته من الله ، ومع ذلك لم يَسْلَم موسى عليه السلام من إيذاء فرعون ، فقال عنه : ﴿ سَاحِرٌ كَذَّابٌ ㉔ ﴾ [غافر]

وقال : ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشعراء]

وقال : ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ[1] ﴿٥٢﴾﴾ [الزخرف]

وطبيعىٌّ أنْ يُؤذَى موسى عليه السلام من فرعون وقد جاء ليبطل ألوهيته المزعومة ، لكن كيف يُؤذَى من بنى إسرائيل ، وهو الذى جاء لينقذهم من قبضة فرعون ، ومما كانوا فيه من العذاب والاستعباد ؟

لذلك يُعاتب موسى قومه من بنى إسرائيل ، وقال الحق سبحانه :

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ .. ﴿٥﴾﴾ [الصف]

قال العلماء : إن بنى إسرائيل آذوا موسى حين آذوا مَنْ أرسله ، الله سبحانه وتعالى فقالوا له : ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً .. ﴿١٥٣﴾﴾ [النساء]

وهم بمثل هذا القول تعدوا مِنْ فعل الله إلى ذات الحق سبحانه ، فهم غرقوا فى المادية حتى إنهم أرادوا أنْ يروا الله متمثلاً أمامهم فى صورة حِسِّية مادية ، فهم لا يفهمون الغيب ولا يقتنعون به .

لذلك قال الحق سبحانه لمحمد ﷺ : ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾﴾ [النساء]

وآذوا موسى حين قالوا معترضين على ما رزقهم الله من المنِّ

---

(١) ولا يكاد يبين : أى عيى اللسان . أى لا يكاد يفصح بالكلام فلا يأتى ببيان يُفهم ولا حجة ، فقد كانت فى لسانه حبسة ورتة ولثغة كانت فى لسانه .

والسَّلْوى[1] ، فقالوا : ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا[2] وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ .. (٦١)﴾ [البقرة]

ثم آذوا موسى يوم عبدوا العجل من دون الله ، حدث هذا منهم بمجرد خروجهم من البحر سالمين ، موسى عليه السلام أخذ النقباء وذهب لميقات ربه وترك أخاه هارون مع بنى إسرائيل .

هذا العجل صنعوه بأيديهم من الحليِّ التى سرقوها من مصر وقد كانت أمانات عندهم ، ولكنهم عند خروجهم من مصر لم يردُّوا الأمانات إلى أهلها ، لذلك كانت وبالاً عليهم فصنع لهم السامرى ﴿عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ[3] فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ (٨٨)﴾ [طه]

وقد كان هذا مُؤذياً لموسى أىَّ إيذاء ، فهو ذهب ليتلقى وصايا الله وأحكامه وشرائعه وإذا بقومه قد عبدوا إلهاً غير الله الذى هو فى رحابه ، وهو الذى أنقذهم من سنين طويلة من العبودية والاستضعاف على يد فرعون مصر .

لذلك كانت غضبة موسى عليه السلام على قومه عارمة ، قال

---

(١) المن : ندى يشبه العسل كان الله يُنزله على الأشجار غذاء طيباً لبنى إسرائيل فجحدوا فضل الله عليهم فى ذلك فذكّرهم الله به مُبكتاً لهم على كفرهم فقال : ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ..(٥٧)﴾ [البقرة] . أما السلوى فهو السمانى وهو طائر صغير وهو من الطيور المهاجرة من أوربا فى الشتاء إلى البلاد الدافئة كمصر ، وأهل العريش بشمال سيناء مشهورون بصيده .

(٢) فومها : الفوم : الثوم . وهو من مُشهّيات الطعام . وقيل : الفوم الحنطة . وقيل : الحمص . [القاموس القويم ٢/٩٢] .

(٣) الخوار : صوت الثور . وما اشتدّ من صوت البقرة . [لسان العرب - مادة خور]

الحق سبحانه عن هذا الموقف : ﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾ ﴾ [طه]

لقد كان موسى شديدَ الحزن على ما حدث متألماً لما بدر من قومه ، حتى أنه قال لهم : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَـٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [البقرة]

وكانت توبتهم التى حدَّدها لهم نبيهم ورسولهم موسى عليه السلام ﴿ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [البقرة] وقيل : إنهم قتلوا من أنفسهم سبعين ألف نفس[1] .

ثم إنهم آذوا موسى عليه السلام فى شخصه ، حين اتهموه بقتل أخيه هارون حين صعدا الجبل ومات هارون هناك ، فقالوا : إن موسى حقد على أخيه فقتله ، فجعل الله الملائكة تحمل جسد هارون وتمرّ به على بنى إسرائيل وهو سليم لا جُرْح فيه[2] ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا .. ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأحزاب]

---

(١) أخرج ابن أبى حاتم فى تفسيره (٥٢٨) أن سعيد بن جبير ومجاهد قالا فى قوله تعالى : (فاقتلوا أنفسكم) قالا : قام بعضهم إلى بعض بالخناجر فقتل بعضهم بعضاً لا يحنو رجل على قريب ولا بعيد ، حتى ألوى موسى بثوبه فطرحوا ما بأيديهم فكشف عن سبعين ألف قتيل ، وإن الله عز وجل أوحى إلى موسى أن حسبى فقد اكتفيت فذلك حين ألوى موسى ثوبه .

(٢) أورده السيوطى فى الدر المنثور (١٢/١٥٢) تفسير آية الأحزاب ٦٩ وعزاه لابن منيع وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وصححه ابن مردويه عن ابن عباس عن على بن أبى طالب فى قوله : ﴿ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ ..﴿٦٩﴾ ﴾ [الأحزاب] قال : صعد موسى وهارون الجبل فمات هارون فقالت بنو إسرائيل لموسى : أنت قتلته كان أشد حباً لنا منك وألين فآذوه من ذلك فأمر الله الملائكة فحملته فمروا به على مجالس بنى إسرائيل وتكلمت الملائكة بموته فبرأه الله من ذلك فانطلقوا به فدفنوه .

وقال آخرون[1] : أنهم آذوا موسى عليه السلام بأنْ اتهموه بأنه مصاب بمرض فى جسده ، لأنه كان شديد الحياء ستِّيراً يحتاط فى ستر نفسه عند استحمامه ، وعند قضائه حاجته فقالوا : ما فعل ذلك إلا لعيب يريد أنْ يستره .

ومنهم من قال : به برص ، ومنهم مَنْ تجرأ واتهمه بعيب فى أعضائه التناسلية ، فشاء الله أنْ يُبرئه مما قالوا ، فنزل ذات يوم النهرَ ليستحم ، فأمر الله حجراً فأخذ ثيابه بعيداً عنه ، فجرى موسى عليه السلام خلف الحجر وهو يقول : ثوبى حجر ، ثوبى حجر . أى ثوبى يا حجر .

فرآه بنو إسرائيل مُبرّاً من العيوب التى اتهموه بها ، وهذا ما قاله رسول الله « حتى انتهى إلى ملأ من بنى إسرائيل فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله ، وبرّأه مما يقولون ، وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه ، وطفق بالحجر ضرباً بعصاه » .

وقد أشار الحق سبحانه إلى أن موسى عليه السلام لم يكُنْ به برص أو غيره فى قوله تعالى : ﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ .. (٣٢) ﴾ [القصص]

---

(١) عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : إن موسى كان رجلاً حيياً ستيراً لا يُرى من جلده شيء استحياء منه ، فآذاه مَنْ آذاه من بنى إسرائيل فقالوا : ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده إما برص وإما أدرة وإما آفة وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى فخلا يوماً وحده فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل ، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها ، وإن الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول ثوبى حجر ثوبى حجر حتى انتهى إلى ملأ من بنى إسرائيل فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله وأبرأه مما يقولون وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضرباً بعصاه ، فو الله إن بالحجر لندباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً . فذلك قوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ..(٦٩) ﴾ [الأحزاب] أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٤٠٤) .

فكلمة (بيضاء) أى منوَّرة دون مرض ، والبياض لا بد أنْ يكون عجيباً فى موسى عليه السلام لأنه كان أسمر اللون ، لذلك قال ﴿ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ .. (٣٢) ﴾ [القصص] حتى لا يظنوا به برصاً مثلاً ، فهو بياضٌ طبيعىّ مُعجز.

وقد كان من إيذائهم له أن قارون لما حصلت الخصومة بينه وبين موسى عليه السلام استأجر امرأة بغياً ، وقال لها : اتهمى موسى على مشهد من الناس ، فشاء الله أنْ يجتمع الناس وتنطق هى وتقول : قارون فعل كذا وكذا . فبرَّأه الله بذلك .

فقارون أغرى امرأة بغياً فأعطاها طستاً مملوءاً بالذهب على أن تدّعى على موسى وتتهمه ، فجاء موسى عليه السلام ليخطب فى الناس ويُبيِّن لهم الأحكام فقال : مَنْ يسرق نقطع يده ، ومَنْ يزنى نجلده إنْ كان غير مُحْصن ، ونرجمه إنْ كان محصناً ، فقام له قارون وقال : فإنْ كنتَ أنت يا موسى ؟ فقال : وإنْ كنتُ أنا .

وهنا قامت المرأة البغى وقالت : هو راودنى عن نفسى . فقال لها : والذى فلق البحر لتقولنَّ الصدق فارتعدتْ المرأة ، واعترفت بما دبَّره قارون ، فانفضح أمره وبدأت العداوة بينه وبين موسى عليه السلام[1] .

---

(١) ورد هذا فى أثر ابن عباس رضى الله عنهما قال : « لما أمر الله موسى عليه السلام بالزكاة قال : ارموه بالزنا ، فجزع من ذلك ، فأرسلوا إلى امرأة كانت قد أعطوها حكمها على أن ترميه بنفسها ، فلما جاءت عظم عليها ، وسألها بالذى فلق البحر لبنى إسرائيل وأنزل التوراة على موسى إلا صدقت . قالت : إذ قد استحلفتنى فإنى أشهد أنك برىء وأنك رسول الله » ، أورده الطبرى فى تفسيره (٢٠/١١٦) وابن أبى حاتم فى تفسيره (٩/٣٠٠٦) وابن عساكر فى تاريخ دمشق (٦١/٩٧ – ٩٨) .

لذلك يقول موسى : ﴿ يَـٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ .. ⑤ ﴾ [الصف]

فأنتم تعلمون أنِّى رسول الله إليكم ، و (قد) هنا للتحقيق والتوكيد ، فعلمكم بهذا علْم يقينى لا شبهةَ فيه ، فلِمَ تؤذوننى وأنا رسول الله ؟!

فما ترموننى به لا يليق بمقام النبوة والرسالة ، خاصة أن الله عزَّ وجلَّ لم يُبرئه فقط مما رموهُ وآذوهُ به ، بل قال تعالى عن موسى : ﴿ وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ⑥⑨ ﴾ [الأحزاب]

والوجاهة هيئة تدلُّ على أنه مقبول الرجاء ، مقبول الدعاء ، لا يجرؤ أحد أنْ يرميه بعيب ، فالوجاهة تعنى أنْ يكون للإنسان احترامٌ أو وزنٌ أو تقدير .

وهذه الأشياء لا يأخذها بلا سبب ، إنما سبقها عمل جعل له وجاهةً عند الناس ، فالناس فى العادة لا يحترمون إلا مَنْ يكون له من الفضل عليهم .

وقد تكون الوجاهة سببها العلم أو بفضل القوة ، بإعانة الضعيف أو بإكساب الخبرة للآخرين ، أو بتفريج كربة .

بنو إسرائيل لم ينظروا إلى أن موسى رسول الله ، وأنه كان سبباً فى إنقاذهم من فرعون وطغيانه وجبروته ، بل زاغوا عن الحقِّ ومالوا .

لذلك قال الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ .. ⑤ ﴾ [الصف] والزيْغ هو الميل ، وهى مأخوذة من تزايُغ الأسنان أى : اختلاف منابتها ، فتجد سِنَّة داخلة وأخرى خارجة . والزيْغ أمر

طارىء على القلوب ، فالفطرة السليمة لا زيْغ فيها ، ولكن الأهواء هى التى تجعل القلوب تزيغ ، ويكون الإنسانُ عارفاً لحكم الله الصحيح فى أمر ما ، لكن هوى الإنسان يغلب فيميل الإنسانُ عن حكم الله .

وبنو إسرائيل كانوا يعلمون علمَ يقين أن موسى هو رسولٌ من عند الله ، ولكنهم زاغوا ومالوا عما عرفوا من الحق . وقد وجد الميل عند قلوبهم أولاً ، ثم بدأ الفكر يخضع للميل ، والعبارة تخضع للفكر وهكذا نرى أن الأصل فى الميل قد جاء منهم .

ولننظر إلى أداء القرآن الكريم حين يقول : ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ .. ⑤﴾ [الصف] كأنه يقول : ما دمتم تُريدون المَيْلَ فسأُميلكم أكثر وأساعدكم فيه .

والحق سبحانه لا يبدأ إنساناً بأمر يناقض تكليفه ، لكن الإنسان قد يُميله هواه إلى الزيغ فيتخلى اللهُ عنه ويدفعه إلى هاوية الزيْغ .

ومثل هذا قوله تعالى : ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ⑫⑦﴾ [التوبة]

إنهم الذين بدأوا ، انصرفوا عن الله فصرف الله قلوبهم بعيداً عن الإيمان ، فالحق لم يعرفهم إلا باختيارهم ، حتى لا يقول أحدٌ إن الله هو مُصرِّف القلوب فما ذنبهم ؟ لا لقد انصرفوا هم باختيارهم لأنهم قوم لا يفقهون أى لا يفهمون .

لذلك يدعو المؤمنون ربَّهم فيقولون : ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا .. ⑧﴾ [آل عمران]

والحق سبحانه لم يترك مسألة الهداية والضلالة هكذا ، فبيَّن مَنْ

يهديه ومَنْ يُضله ، وأىُّ هداية لـلإنسان بعد أنْ كفـر بالله وفسق عن منهجه وأفسد فى البلاد وظلم العباد ؟

وحين يقول الحق سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٥) ﴾ [الصف] فحـين ينفى الحق سبحـانه الهداية عن إنســان فليس معنى هذا أنْ يقول الفـاسق : الله لم يَهْدنى فمـاذا أفعل ؟ ويُحمِّل المـسألة كلها لله ، بل نسأل الفاسق : لماذا لم يَهْدك الله ؟ لأنك فسقْتَ .

إذن : فـعـدم الهـداية من الله لك كـان بسـبب أنك أخـذتَ طريق الفسق والبُـعْد عن منهج الله ، ومن هنا فـالهداية المقـصودة فى هذه الآية ليست هى الهداية بمعنى الـدلالة على طريق الخير ، فالدلالة إلى طريق الخـيـر تأتى من الله للمـؤمن والكافـر ، فمـنهج الله الذى يُبلِّغ للناس كافة يُريهم طريق الخير ويدلُّهم عليه ، ولكن المقصود هنا هو الهداية الأخـرى التى يعطيها الحق لمَنْ دخل فى رحـاب الإيمان وآمن وحَسُن عمله ، وهى ما سميناه هداية المعونة .

إذن : فكلُّ مَنْ مشى فى طريق الإيمان أعـانه الله عليه ، لا نقول أبداً : إن هؤلاء معذورون لأن الله لم يَهْدهم ، لأنه سبحانه قد هداهم ودلَّهم جميعاً على طريق الخير ، ولكنهم هم الذين أخذوا طريق الكفر والظلم والفسوق .

والفســق هو الخروج عن طاعـة الله وعدم الالتصــاق بمنهج الله ، وأصله من فسقتْ الرطبة أى بَعُدت القشرة عن الثمرة ، فعندما تكون الثـمرة أو البلحـة حمـراء تكون القشـرةُ ملتصـقةً بالثـمرة بحـيث لا تستطيع أنْ تنزعها منها ، فإذا أصـبحتْ الثمرة أو البلحة رطباً تسودّ قشرتها وتبتعد عن الثمرة بحيث تستطيع أنْ تنزعها عنها بسهولة .

هذا هو الفاسق المبتعد عن منهج الله ، ينسلخ عنه بسهولة ويُسْر ، لأنه غير ملتصق به ، وعندما تبتعد عن منهج الله فإنك لا ترتبط بأوامره ونواهيه .

والفسق هو أساس الفساد كله ، لأنهم يبتعدون عن منهج الله ولا يُطبِّقونه رغبةً فى المخالفة وإصراراً على العناد ، وهو سبحانه لا يهدى القوم الكافرين ولا القوم الفاسقين ولا القوم الظالمين .

فمَنْ يُرِدْ أنْ يخرج من هداية الله فليكفر أو يظلم أو يفسق ، ويكون فى هذه الحالة هو الذى اختار ، فحقّ عليه عقابُ الله ، لذلك قال الكافرون من بنى إسرائيل إن الله ختم على قلوبهم فهم لا يهتدون ، ولكنهم هم الذين اختاروا هذا الطريق ومشوا فيه ، فاختاروا عدم الهداية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٦) ﴾

جاءت شخصيات القرآن مُجهَّلة إلا قصة واحدة هى قصة عيسى بن مريم ومريم ابنة عمران ، لماذا ؟ لأنها معجزة لن تتكرر ، ولذلك عرضها الله لنا فقال : (مريم ابنة عمران) ، وقال : (عيسى بن مريم) حتى لا يلتبس الأمرُ وتدعى أىّ امرأة أنها حملتْ بدون رجل مثل مريم .

فمعجزة مريم لن تتكرر ، ولذلك حدَّدها الله تعالى بالاسم فلم يقُل لنا الله تعالى مَنْ هو فرعون موسى ولا مَنْ هم أهل الكهف ، ولا مَنْ هو ذو القرنين ، ولا مَنْ هو صاحب الجنتين ، إلى آخر ما جاء فى القرآن الكريم لأنه ليس المقصود بهذه القصص شخصاً بعينه .

وعيسى عليه السلام إنما أُرسل لبنى إسرائيل ، لذلك قال لهم عيسى : ﴿يَـٰبَنِى إِسْرَائِيلَ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم ..(٦)﴾ [الصف] وقد قال تعالى عن عيسى عليه السلام أنه قال : ﴿وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِى إِسْرَائِيلَ ..(٤٩)﴾ [آل عمران]

فهو جاء مبعوثاً إلى قوم مُعينين هم بنو إسرائيل ، فليستْ رسالتُه عامة لكلِّ البشر ، كما هو الحال فى رسالة محمد ﷺ .

وقد قال تعالى عن هود عليه السلام : ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ..(٦٥)﴾ [الأعراف] وقال عن أهل مدين[1] ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ..(٨٥)﴾ [الأعراف]

وهكذا حدد الحق سبحانه زمانَ ومكانَ القوم فى أىِّ رسالة سبقتْ رسالة محمد ﷺ ، فكل رسول إنما يبعثه اللهُ إلى بُقْعة خاصة وإلى أُناسٍ بعينهم وفى زمن خاص ، إلا محمداً ﷺ ، فقد بعثه اللهُ إلى الناس كافة ، فرسالة محمد لها خاصية العمومية ويُعزز هذا قولْ الحق سبحانه لمحمد : ﴿قُلْ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ..(١٥٨)﴾ [الأعراف]

---

(١) مدين : اسم قبيلة واسم مملكة وهى مدينة كانت موجودة فى شمال غرب الجزيرة العربية منطقة البدع حالياً تابعة لمنطقة تبوك شمال غرب السعودية وكان أهلها يعملون بالتجارة . وهى على الناحية المقابلة لمدينة دهب المصرية على البحر الأحمر ولكن وراء مرتفعات .

وكلٌّ رسـول يأتى مُصدِّقـاً لمَنْ قـبله من الرسل ولمـا جـاء به ومُـبشِّـراً بمَنْ يأتى بـعده من الرسل ، هـكذا كان جـمـيع الرسل إلا محمداً ﷺ ، فـقد جاء مُصدِّقاً لمَنْ قبله ولكـن لم يُبشِّر برسول يأتى من بعده لأنه خاتم الرسل ، وعيسى عليه السلام إنما جاء مُصدِّقاً لما بين يديه من التوراة ، وكلمة ﴿مُصَدِّقًا ..(٦)﴾ [الصف] تعنى أن ما جاء به عيسى بن مريم مطابقٌ لما جاء فى التوراة .

فـ (ما بين يدى) أى : الـذى جاء قبله وصـار أمامه ، وقـد يسأل سائل : وما دام عيسى بن مريم قد جاء مُصدِّقاً لما بين يديه من التوراة فى زمانه ، وكانت التوراة موجودة ، فلماذا جاءت رسالته إذن ؟

نقول : ليس معنى التصديق أنه لا يأتى بأحكام جديدة ، فقد قال تعالى عن عيسى عـليه السلام في آية أخرى ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ..(٥٠)﴾ [آل عمران]

فليس المهم هو التصديق فقط ، ذلك أن عـيسى جاء ليُحل بعضاً من الذى حرَّمته التـوراة ، ومن الطبيعى أنْ نفهم أنَّ العقـائد لا تتغير ولا تتبـدل أحكامهـا ، وكذلك الأخـبار والقصـص لكن التبديـل يشمل بعضاً من الأحكام .

وموكب الرسالات موكب متلاحم متسـاند متعاضد ، فلا تتصادم دعوةُ أيِّ رسول يأتى مع مَنْ قبله ولا مَنْ بعده ، مـا دام مُصدِّقاً لما بين يديه من التوراة .

والتوراة لفظ عبرى صار علَماً على الكتاب الذى أُنزل على موسى عليه السـلام ، وهذا لا يقدح فى أنَّ القرآن عربى ، فـالقرآن نزل على محمد ﷺ ، وهذه الألفاظ دائرة على لسان العرب ، وإذا تمَّ النطق بها يُفهم معناها .

ومثال هذا فى عصرنا الحديث أننا أدخلنا فى اللغة كلمة (بنك) وتكلمنا بها ، فأصبحت عربيـة تُكتب بحروف عربية ، لأنها تدور على اللسان العربى ، فـمعنى أن القرآنَ عربىٌّ أن الله حينمـا خاطب العربَ خاطبـهم بألفاظ يفهـمونها وهى دائرةٌ على ألسـنتهم وإنْ لم تكُنْ فى أصلها عربية .

لذلك لا داعىَ لأنْ يحاول بعـضُ العلماء أنْ يُوجد أصـلاً أو معنى عربيـاً لمثل هذه الألفاظ ، ويحاول أنْ يعـثر له على وزن من الأوزان العربية ، وأنْ يأتى له بصفة من الصفات العربية .

وإذا كان عيسى بن مـريم مُصدِّقاً لما جاء به مـوسى فإنه أيضاً مبشر برسول يأتى من بعده ، وهذا ما قاله لقومه : ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف]

فاسمه فى الإنـجيل أحمد[1] ، وقد ورد مرة واحدة فى هذه الآية ، ولكنه ورد باسمه مـحمد فى القرآن أربع مـرات . قال تعالى : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ .. ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران] وقال : ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ

---

(١) جاء فى التـوراة العبرانيـة فى الأصحاح الثـالث من سفر حـبقوق : « وامـتلأت الأرض من تحميد أحمد ، ملك بيمينه رقاب الأمم » . وفى النسخة المطبوعة فى لندن قديماً سنة ١٨٤٨ والأخرى المطبوعة في بيروت سنة ١٨٨٤ والنسخ القديمـة تجد في سفر حبقوق النص فى غاية الصراحة والوضوح « لقد أضاءت السمـاء من بهاء محمد ، امتلأت الأرض من حمده .. زجرك فى الأنهار واحتدام صوتك في البحار ، يا محمد ادن لقد رأتك الجبال فارتاعت » .

اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب]

وقال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾﴾ [محمد]

ويقول تعالى : ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا .. ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح]

وكلمة (محمد) وكلمة (أحمد) مشتركتان فى أصل المادة ، لأنهما من (الحاء والميم والدال) فالمادة هى الحمد ، إلا أن التوجيه الاشتقاقى فى (محمد) غير التوجيه فى (أحمد) .

فكلمة (محمد) حين ننظر إليها فى الاشتقاق نجد أنها ذاتٌ يقع عليها الحمد من غيرها ، مثلما تقول : فلان مكرّم أى وقع التكريم من الغير عليه ، أما كلمة (أحمد) فنجدها ذاتاً وقع منها الحمد لغيرها .

و (أحمد) تتطابق مع أفعل التفضيل ، فنحن نقول : فلان كريم وفلان أكرم من فلان . إذن : فـ (أحمد) أى وقع منه الحمدُ لغيره كثيراً ، فلو كان الحمد قد وقع منه بقدر محدود لقلنا (حامد) .

إذن : فـ (أحمد) مبالغة فى (حامد) وقع منه الحمد لغيره كثيراً بل أكثر فصار أحمد . و (محمد) مبالغةٌ فى (محمود) ، وقع عليه الحمد من غيره كثيراً فصار محمداً .

إذن : فرسول الله ﷺ جمع له اللهُ بين الأمرين ، فهو محمد من الله وحامد لله ، لأن رسول الله ﷺ جمع اللهُ له بين مقامين : مقام الاصطفاء ، ومقام المجاهدة .

فبالاصطفاء كان (محمداً) و (محموداً) ، وبالمجاهدة كان (حامداً) و (أحمد) . إذن : نحن هنا أمام مقامين اثنين لرسول الله ﷺ ، قال رسول الله : « أنا محمد وأحمد والمقفِّى[1] والحاشر ونبى التوبة ونبى الرحمة »[2] .

والحق سبحانه يقول : ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (١٥٩)﴾ [النساء]

فمعنى هذا : ما أحدٌ من أهل الكتاب إلا ويؤمن بعيسى عليه السلام رسولاً وعبداً وبشراً قبل أنْ يموت . وهذا لن يتحقق إلا إذا جاء بشحمه ولحمه ودمه ليقول لهم :

أنتم مُخطئون فى أنكم أنكرتم بشارتى بمحمد الخاتم ، وأنتم مُخطئون فى اتهامكم لأمى ، والدليل على خطئكم هى أننى جئتُ مبشِّراً برسول للناس كافة هو محمد بن عبد الله ، وهأنذا أصلى خلف واحد من أمة ذلك الرسول .

ويقول الحق سبحانه : ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ .. (١٥٧)﴾ [الأعراف]

والتعبير القرآنى الدقيق لم يقُلْ : يجدون وَصْفه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ، إنما يقول الحق : ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ .. (١٥٧)﴾ [الأعراف]

---

(١) المقفى : يقال قفَّى عليه أى ذهب به ، فكأن المعنى أنه آخر الأنبياء فإذا قفَّى فلا نبى بعده ، والمقفى : المتبع للنبيين . [تهذيب اللغة] قاله شمر .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٥٣٢) وكذا مسلم فى صحيحه (٦٢٥١) من حديث جبير ابن مطعم أن النبى ﷺ قال : « أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحى الذى يُمحى بى الكفر وأنا الحاشر الذى يُحشر الناس على عقبى وأنا العاقب » والعاقب الذى ليس بعده نبى .

كأنَّ الذى يقرأ التوراة والإنجيل يمكنه أنْ يرى صورة النبى عليه الصلاة والسلام من دقّة الوصف ، لقد عرفته التوراة وعرفه الإنجيل معرفة مفصَّلة وشاملة .

لقد كان السبب الذى جاء من أجله أهلُ الكتاب إلى يثرب هو ما كانوا يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة أن نبياً سيأتى فى هذا المكان ولا بدّ أنْ يتبعوه .

كالميثاق الذى أخذه الله على النبيين ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ .. (٨١)﴾ [آل عمران] وهذا الميثاق يقضى بأنْ يتولَّى الرسلُ بلاغَ الأمم التى بُعثوا إليها ، وأنْ يبلِّغ أهل الإيمان القادمين من بعدهم بأن هناك رسولاً قادماً من عند الله بالمنهج الكامل .

فالعارفون بالتوراة والإنجيل يعرفون وَصْف رسول الله ﷺ من هذه الكتب : ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦)﴾ [البقرة]

وقد سأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه عبد الله بن سلام : أكنتم تعرفونه يا ابن سلام ؟ أى أكنتم تعرفون محمداً ﷺ ورسالته وأوصافه ؟

فقال ابن سلام وهو من أحبار اليهود : أعرفه كمعرفتى لابنى ومعرفتى لمحمد أشد ، فلما سألوه : لماذا ؟ قال : لأن ابنى أخاف أنْ تكون امرأتى خانتنى فيه ، أما محمد ﷺ فأوصافه مذكورة بالدقة فى التوراة بحيث لا نخطئه[1] .

---

(١) أخرج الثعلبى من طريق السدى الصغير عن الكلبى عن ابن عباس قال : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة قال عمر بن الخطاب لعبد الله بن سلام : قد أنزل الله على نبيه ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ .. (١٤٦)﴾ [البقرة] فكيف يا عبد الله هذه المعرفة ؟ فقال عبد الله بن سلام : يا عمر لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابنى إذا رأيته مع الصبيان وأنا أشد معرفة بمحمد منى بابنى فقال عمر : كيف ذلك ؟ قال : إنه رسول الله حق من الله وقد نعته الله فى كتابنا ولا أدرى ما تصنع النساء . فقال له عمر : وفقك الله يا ابن سلام . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٢/ ٣٢)

إذن : فأهل الكتاب يعرفون رسـول الله ويعرفون زمنه ورسالته ، ويعرفون أوصافه معرفة يقـينية ، وكان يهودُ المدينة يقولون للكافرين في يثرب : أطلَّ زمانُ رسول سنؤمن به ونقتلكم قتْل عاد وإرم[1] .

فلما جـاء رسول الله كانوا أولَ كافـر به ، وأولَ مَنْ حاربه وأنكر نبوته ، واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ[2] عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) ﴾ [البقرة]

فرسالة محمد ﷺ لم تكُنْ مفاجئة لأهل الكتاب بل كانوا ينتظرونها ، وكانوا يؤكدون أنـهم سيؤمنون بها كمـا تأمرهم بها كتـبهم ، ولكنهم رفضوا الإيمان وأنكروا الرسالة عندما جاء زمنها .

لذلك قال الحق سـبحانه : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٦) ﴾ [الصف] والضمير في (جـاءهم) يعود على مَنْ بشَّر به عيسى عليـه السلام وهو أحمد ، أي فلما جاءهم أحـمد ، أي لما ظهر أمره ﴿ قَالُوا هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٦) ﴾ [الصف]

فهـؤلاء المرتابون لم يجدوا حـجة يواجهـون بها القرآن ، فـقالوا ساحـر ، وهل للمسحـور إرادة مع الساحر ؟ إذا كـان ساحراً يسـحر

---

(١) ذكر البيـهقي في دلائل النبوة (٢/٧٦) عن عاصم بن عـمر بن قتادة قال :حـدثني الأشياخ منا قالوا : لـم يكن أحد من العرب أعلم بـشأن رسول الله منا كـان معنا يهـود وكانوا أهل كتاب وكنا أصحاب وثن وكنا إذا بلغنا منهم ما يكرهون قـالوا : إن نبياً مبعوثاً الآن قد أظل زمانه نتبـعه فنقتلكم قتل عاد وإرم فلمـا بعث الله عز وجل رسوله اتبعناه وكفـروا به ففينا والله وفيـهم أنزل الله عز وجل ﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ..(٨٩) ﴾ [البقرة] ونحـوه في سيرة ابن إسحاق (٢/٦٣)

(٢) يستفتحون : يستنصـرون . [زاد المسير لابن الجوزي ١/٩٧) أي يستنصرون بالنبي الآتي على مشركي العرب ، ومعنى الاستفتاح : الاستنصار .

الناس فيدخلوا فى الإسلام ، فلماذا لم يسحركم أنتم ؟

ويبلغ الحق سبحانه رسوله عُتُوّ المتجبرين المنكرين واستكبارهم ، فيقول : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ⑦ ﴾ [الأنعام]

فرغم أنهم سيلمسونه بأيديهم إلا أنهم سيقولون : ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ⑦ ﴾ [الأنعام] ومثلُ هذا القول لا ينبع عن عقل أو تدبُّر أو حكمة .

لأن السحر إنما يغير من رؤية الناس للواقع . فكيف يقولون إنه سحر وهم لمسوه بأيديهم وتحققوا من أنه واقع ، وما دام رسول الله ﷺ متهماً بالسحر فلماذا لم يسحرهم هم ، ولماذا استعصوا هم بالذات على السِّحر ؟

وتحتمل الآية : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ⑥ ﴾ [الصف] أن المقصود بها عيسى عليه السلام ، فهو جاءهم بالبينات وهى المعجزات الحسية .

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ [1] وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ⑪⓪ ﴾ [المائدة]

---

(١) الأكمه : الذى وُلد أعمى . [القاموس القويم ٢/١٧٥] والأبرص : البرص مرض جلدى يُحدث بقعاً بيضاء فى الجلد تشوهه وهو من أعراض مرض الجذام الكثيرة ، والأبرص من أصابه داء البرص .

فالله أقدره على أنْ يصنع من الطين كصورة الطير بإذن منه سبحانه ، وأن ينفخ فيه فيصير طيراً بإذنه سبحانه ، وكذلك أقدره الحق سبحانه أنْ يُبرىء الأعمى من العمى ، وأنْ يعيد إلى الأبرص جلده الطبيعي ويشفيه ، وأجرى على يديه تجربة إعادة الموتى إلى الحياة بإذن منه سبحانه .

ولكنهم كفروا بما جاء به عيسى واعتبروا ما جاء به أعمال سحر ليس أكثر ، فإنّ ما كان يفعله مخالفٌ لقوانين الأشياء وهم ملتصقون بالأشياء .

لذلك لم يستوعبوا أن الله عز وجل من الممكن أنْ يُقدر بعض خَلْقه على أعمال قد يختصّ بها الله ، مثل إحياء الموتى وخَلْق الطير من الطين ، وإبراء وشفاء الأكمه والأبرص وغيرهم ؛ فظنَّ بعض من آمنوا بعيسى أنه الله ، ولا يغنى الظن من الحق شيئاً .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧ ﴾

وهذه صيغة سؤال لن تكون إجابته إلا الإقرار ، فلا أحدَ أظلم ممنْ افترى على الله الكذب ، لأنه أولاً ظلم نفسه وظلم أمته ، وأولُ ظلم النفس أنْ يرتضى حياة زائلة وأنْ يترك حياة أبدية ، وأما ظلمه للناس فلأنه سيأخذ أوزارَ ما يفعلون لأنه قد افترى على الله الكذب .

فمعنى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ .. ۝٧ ﴾ [الصف] أى لا أحدَ أظلم . والظلم : نَقْل الحق من صاحبه إلى غيره ، والظلم قد يكون كبيراً وعظيماً ،

وهو الظلم فى القمة فى العقيدة ، كما قال سبحانه : ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)﴾ [لقمان] وقد يكون الظلمُ بسيطاً هيِّناً .

فالذى افترى على الله الكذبَ ، لا أحدَ أظلمُ منه ، لأنه لو افترى على مثله لكان أمره هيِّناً ، لكنه افترى على مَنْ ؟ على الله فكان ظلمه عظيماً .

ومن الحُمقْ أنْ تفترى على الله ، لأنه سبحانه أقوى منك يستطيع أنْ يُدلّل وأنْ يُبرهن على كذبك ويستطيع أنْ يدحرَكَ ، وأنْ يُوقفك عند حدِّك ، فمن اجترأ على هذا النوع من الظلم فإنما ظلم نفسه .

وقلنا : إن الافتراء كذبٌ ، لكنه كذبٌ متعمد ، لأن الإنسان قد يكذب حين يُخبر على مقتضى علمه ، إنما الواقع خلاف ما يعلم .

لذلك عرَّف العلماء الصدق والكذب ، فقالوا : الصدق أنْ يطابق الكلامُ الواقعَ ، والكذبُ أنْ يخالف الكلامُ الواقعَ ، فإنْ خالف كلامى الواقع فالخبر كاذب ، لكن المخبر ليس بكاذب .

ففى قوله : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ .. (٧)﴾ [الصف] تحذيرٌ واضح ألاَّ يختلق أحدٌ على الله شيئاً لم ينزل به رسولٌ أو كتاب ، فمَنْ يفترى على الله الكذب لا يظلم إلا نفسه .

وحينما تستعرض الأمر فلا تجد أظلم منه ، ولكن كيف يفترى إنسانٌ الكذبَ على الله ؟ كأنْ يبلغ الناس ويدَّعى أنه نبىٌّ ، وهو ليس كذلك ، هنا تكون الفرْية على الله ، وإياك أنْ تظنَّ أنه يكذب على الناس ، لا إنه يكذب على الله لأنه أبلغ أن الله قد بعثه وهو لم يبعثْه .

وينطبق ذلك على النبوات التى ادُّعيتْ مثل مسيلمة الكذاب وسجاح

وطليحة الأسدى والأسود العنسى[1] ، كل هؤلاء ادعوا النبوة .

ومن هؤلاء مَنْ قال : سأُنزل مثل هذا القرآن ، فإذا به يقول : « والطاحنات طحناً ، والعاجنات عجناً ، والخابزات خَبْزاً » ، ولماذا لم يأت بالمسألة من أولها ويقول : والزارعات زرعاً والحارثات حرثاً . وكان عليه أنْ يُتبعها أيضاً : والآكلات أكلاً والهاضمات هضماً .

وطبعاً هذا الكلام لونٌ من هُراء فارغ ، فالحق إنما أنزل كلامه موزوناً جاذباً لمعانٍ لها قيمتها فى الخبر .

وهم إنما يفترون هذا الكذب ليُضلوا الناس ويصدوهم عن كتاب الله ، مصداقاً لقوله سبحانه : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٤٤) ﴾ [الأنعام] ، فهم يتعمدون الكذب على الله لإضلال الناس .

والكاذب إنما يكذب ليُدلِّس على مَنْ أمامه ، فهل يكذب أحدٌ على مَنْ يعلم الأمورَ على حقيقتها ؟ لا أحدَ بقادر على ذلك ، ومَنْ يكذب على البشر المساوين له يظلمهم ؟ لكن الأظلم منه هو مَنْ يكذب على الله سبحانه .

---

(١) **مسيلمة الكذاب** : هو مسيلمة بن حبيب الحنفى من بنى حنيفة ، من أهل اليمامة . اعتنق الإسلام عام ٩ هجرية ، ثم عاد إلى اليمامة فأعلن النبوة وادعى أن الأمر شركة بينه وبين محمد ﷺ . قتل فى عهد أبى بكر على يد وحشى بن حرب فى معركة اليمامة .

أما **سجاح** فهى بنت الحارث بن سويد ادعت النبوة بعد وفاة النبى ﷺ . كانت نصرانية ممن استجاب لها مالك بن نويرة ، تزوجها مسيلمة بعد أن خليا ببعضهما وقبضت نصف خراج أرضه . أما **طليحة الأسدى** فهو ابن خويلد ، كان من قادة حروب الردة ولكنه ادعى النبوة بعد وفاة النبى ﷺ عام ١١ هجرية ، ولكنه هُزم على يد خالد بن الوليد ، ثم تاب وعاد إلى الإسلام واستشهد فى معركة نهاوند عام ٢١ هجرية . أما **الأسود العنسى** فهو عبهلة بن كعب العنسى من مذجح كان يُلقب بـ (ذى الخمار) كان مشعوذاً يريهم الأعاجيب ، ادعى النبوة بعد عودة رسول الله ﷺ من حجة الوداع مريضاً .

فـلا ظلمَ أفدح ولا أسـوأ من الذى يفـترى الكذب على الله ، ومـا داموا قد كذبوا على ربِّهم فالمكذوب عليه هو الله ، ولا بد أنْ يطردهم من الرحمة .

ويقول الحق سـبحانه : ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم[1] بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ (٦١)﴾ [طه] فقد خسر مَنْ افترى على الله كذباً فهو سيُسـحتهم بعذاب . أى : يستأصلهم بعذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة .

لذلك يسأل الحق سبحانه وهو أعلم : ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ..(٦٠)﴾ [يونس] مـاذا يظنون مـوقفـهم يوم الحساب ؟ ألا يدرون أن الله مُنزَّه عن الغـفلة ؟ فلو ظنُّوا أنه لا توجد آخرة ولن يُوجد حسابٌ فهم يُخطئون الظن .

ولو استحـضروا ما أعدَّه الله لهم من العذاب والنَّكال يوم القـيامة لمـا فـعلوا ذلك ، وهم فى الـحـقـيـقـة لا يؤمنون بأن هنـاك إلهـاً سيُحاسبهم على افترائهم على الله .

يقـول تعـالى : ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٠٥)﴾ [النحل]

ولا يتـصف مؤمنٌ بكذب أبداً ، لذلك لمـا سُئل رسـول الله ﷺ : أيسـرق المؤمن ؟ قـال : نعم . أيزنى المـؤمن ؟ قـال : نعم . أيكون

---

(١) يسحتكم : أسحته أباده واستأصله . فيهلككم ويستأصلكم . [القاموس القويم ١/٣٠٤] .

المؤمن جباناً ؟ قال : نعم . أيكون المؤمن بخيلاً ؟ قال : نعم . أيكون المؤمن كذاباً ؟ قال : لا[(١)] .

فالصدق هو الخَصْلة التى لا يمكن لمؤمن أنْ يتنحى عنها لأنه لو تنحىً عنها ، فهذا يعنى التنحى عن الإيمان ، فالصدق هو جماع الخير ، وعلى الصدق تدور الحركة النافعة فى الكون ، أما الكذب فإنما ينشأ عنه الفساد ، فالكذب هو الذى يُخِلّ بحركة الحياة .

فالكذب هو أبعد الصفات عن المؤمن ، لماذا ؟ قالوا : لأن الكذبَ يخالف الواقع ويقلب الحقائق ، والمؤمن لا يكذب لأنه ينطق بلا إله إلا الله . فإنْ كان كاذباً ما يُدرينى أنه صدق فى هذه الكلمة ، فكأن الكذب يهدم الإيمان من أساسه ، فهو لا يُتصوّر من مؤمن .

ورسول الله ﷺ يقول : « إياكم والكذب ، فإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار ، وما زال الرجلُ يكذب ويتحرَّى الكذب حتى يُكتب عند الله كذاباً »[(٢)] .

وإذا كان الكذب على الناس بهذه المنزلة ، فما بالكم بالكذب على الله ؟ ولكن مَن هم الذين يفترون على الله الكذب ؟

من هؤلاء الذين يأخذون التحليل والتحريم مهنةً لهم من دون الله ،

---

(١) أخرجه الإمام مالك فى موطئه (١٧٩٥) عن صفوان بن سليم مرسلاً أنه قال . قيل لرسول الله ﷺ : أيكون المؤمن جباناً ؟ فقال : نعم .فقيل له : أيكون المؤمن بخيلاً ؟ فقال : نعم . فقيل له : أيكون المؤمن كذاباً ؟ فقال : لا . وأخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (٤٤٧٢) من طريق مالك .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٤١٠٨) وأبو داود فى سننه (٤٩٩١) وابن أبى شيبة فى مصنفه (٢٦١١٢) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

يقول تعالى : ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَـٰذَا حَلالٌ وَهَـٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (١١٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١٧)﴾ [النحل]

فالحق سبحانه هو وحده صاحب التحليل والتحريم ، فإياك أنْ تُحلِّل شيئاً من عند نفسك ، أو تُحرِّم شيئاً حسْب هواك ، لأن هذا افتراءٌ على الله ، فالتحليل والتحريم إنما يأتى من الله وليس لمخلوق أنْ يُحلِّل أو يُحرِّم .

فالتحليل والتحريم هى سلطة الله ، لذلك عندما دخل عدى بن حاتم[1] على رسول الله ووجد فى عُنق الرجل صليباً من الذهب أو من الفضة قال سيدنا رسول الله ﷺ : « اخلع هذا الوثن »[2] .

ومن أدب الرجل مع رسول الله خلع الصليب ، فقال ﷺ : « إنكم لتتخذون الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله . فقال الرجل : نحن لا نعبدهم . قال له رسول الله : أو لا تطيعونهم فيما حرَّموا وأحلُّوا ؟ قال : نعم . قال : تلك هى عبادتكم إياهم[3] .

---

(١) عدى بن حاتم بن عبد الله الطائى ، أبو وهب ، أمير صحابى من الأجواد العقلاء كان رئيس طيء فى الجاهلية والإسلام ، كان إسلامه سنة ٩ هجرية وشهد فتح العراق . شهد الجمل وصفين والنهروان مع على . عاش أكثر من مائة عام توفى عام ٦٨ هجرية . [الأعلام للزركلى ٤ / ٢٢٠] .

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه (٣٠٩٥) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٣٦٧٣) من حديث عدى ابن حاتم رضى الله عنه قال : أتيت النبى ﷺ وفى عنقى صليب من ذهب فقال : ياعدى اطرح عنك هذا الوثن . وسمعته يقرأ فى سورة براءة ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ..(٣١)﴾ [التوبة] قال : أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلُّوا لهم شيئاً استحلوه ، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه .

(٣) أخرجه الطبرى فى تفسيره (١٦٦٣٢) وأورده القرطبى فى تفسيره وعزاه للترمذى .

ويقول تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (٥٩) ﴾ [يونس]

فما دام الحق سبحانه هو الذى أنزل الرزق وبيَّن الحلال والحرام فلماذا تُدخلون أنوفكم فى الحلال والحرام ، وتجعلون بعض الحلال حراماً ، وبعض الحرام أو كل الحرام حلالاً ؟ لماذا لا تتركون التحليل والتحريم لمَنْ خلق ورزق ، وهو سبحانه أدْرَى بمصلحتكم .

﴿ قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ .. (٥٩) ﴾ [يونس] أى : هل أعطاكم الله سبحانه تفويضاً فى جَعْل الحلال حراماً والحرام حلالاً ؟ ﴿ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (٥٩) ﴾ [يونس] أى : على الله تتعمدون الكذب .

ومن هؤلاء المفترين على الله أولئك الذين قال الله فيهم : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً[1] (٤٩) انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا (٥٠) ﴾ [النساء]

فهم يمدحون أنفسهم بالباطل ويُبرئون أنفسهم من العيوب ، ومن هؤلاء مَن ادعوا أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وهم ليسوا كذلك .

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ .. (١٨) ﴾ [المائدة] فإنْ كنتم أحباءه وأبناءه فلماذا يُعذِّبكم ؟

والتزكية التى فعلوها أنهم مدحوا أنفسهم بالباطل ، ووضعوا

---

(١) فتيلاً : الفتيل ما بين شقى النواة يشبه الخيط وهو يمسك جانبى القطمير . وهو القشرة الرقيقة على النواة ، وكلاهما يُضرب مثلاً للشىء التافه والقليل الذى لا يفيد ولا يغنى ، قال تعالى : ﴿ وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٧٧) ﴾ [النساء]

أنفسهم فى منزلة لم يضعهم الله فيها ، ومن الحمق أنْ يُزكِّى الإنسانُ نفسه فى غير المواقف التى يحتاج فيها الأمرُ إلى تزكية .

انظر كيف يفترون على الله الكذب ، فيقولون : ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [المائدة] ويقولون : ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ .. ﴿١١١﴾ ﴾ [البقرة]

ومن الكذب المبين والافتراء على الله قولهم ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [مريم] وهذا قولٌ قال عنه الله سبحانه : ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا(١) ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ ﴾ [مريم]

فهذا الكلام منهم هو عبثٌ وافتراء على مقام الألوهية ، وهو افتراء كذب ومُستقبح ومُستنكر وممقوت ، فالله مُنزّه عن الولد وما ينبغى له أنْ يكون له ولد ، فلا يريد الولدَ إلا المحتاجُ إليه الذى يريد امتداداً له ، يراه فى ولده ويساعده فى أعماله ومهامه ، والله ذو القدرة المطلقة مُنزَّه عن كلِّ هذا .

ومن افتراء الكذب على الله الارتداد والعودة إلى ملة الكفر ، لأن معنى الارتداد هو التكذيب بأن الإسلام حَقٌّ ، وأن القرآن حَقٌّ ، وأنه مُوحَى به إلى رسول ونبى حقّ ، وهذا تكذيب لله عز وجل وهو افتراء على الله .

يقول الحق سبحانه فى قصة شعيب عليه السلام : ﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا .. ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأعراف]

---

(١) إدّاً : الإد : الداهية والأمر الفظيع والكذب الفاحش . قال تعالى :﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ ﴾ [مريم] أى منكراً وكذباً فاحشاً . [القاموس القويم ١/١٢]

فكان ردّ شعيب عليهم ﴿قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا .. (٨٩)﴾ [الأعراف]

فهم يعلمون أن العودة إلى مثل هذه الملة لونٌ من الكذب المتعمَّد على الله ، فإنك كنتَ عارفاً بالحقيقة ثم قلتَ غيرها ، فهذا افتراءٌ واختلاقٌ وكذب .

والذين آمنوا مع شعيب عليه السلام يعلمون أن الملة القديمة مِلّة باطلة ، وهم قد شهدوا مع شعيب حلاوةَ الإيمان بالله ، لذلك رفضوا الكذب المتعمد على الله .

وقد ذكر الحق سبحانه افتراءَ الكذب على الله فى عدة آيات من القرآن ، ولكنه هنا فى آية سورة الصف أضاف لَفْتة لم تَرِد فى سائر الآيات ، فقال : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الإِسْلامِ ..(٧)﴾ [الصف]

ونحن نأخذ قوْل الحق هذا فى سياقه من سورة الصف التى حدثتنا عن مواكب رسالات مُتتالية رؤوسها موسى ثم عيسى ثم خاتم الأنبياء محمد ﷺ .

وكأنَّ الآية تلفت نظرنا إلى أنّ مَنْ افترى على الله الكذب هنا هو أحدُ أتباع موسى من اليهود ، أو أحد أتباع عيسى عليه السلام المُطَالَبين بالإيمان بمحمد ليتحقَّق لهم الإيمان بالله .

لذلك قال : ﴿وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الإِسْلامِ .. (٧)﴾ [الصف] فبدلاً من أنْ يستجيب لمَنْ يدعوه إلى الإسلام تجده يفترى على الله الكذب فتجده يدَّعى أنَّ القرآن ليس وَحْياً من عند الله ، وأنه من تأليف محمد ،

وهى الفرْية التى ذكرها اللهُ فى قرآنه وردَّ عليها .

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا إِفْكٌ[1] افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ④ ﴾ [الفرقان]

ولهؤلاء نقول : إذا كان محمد وهو بشر قد استطاع أنْ يفترى هذا القرآن ويُؤلفه ، فلماذا لا تفترون مثله ؟ لماذا لا تأتون بمثله ؟

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ㊳ ﴾ [يونس]

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ⑬ ﴾ [هود]

وما دُمتم ترونَ أن افتراءَ مثل هذا القرآن أمرٌ سهلٌ بالنسبة لكم ، فلماذا لا تأتون بمثل القرآن ولو بعشر سُور مثله ؟ وأنتم قد عشْتم مع محمد منذ صغَره ولم يكُنْ له شعر ولا نثر ولا خطابة ولا علاقة له برياضاتكم اللغوية ، ولم يشترك فى أسواق البلاغة والشعر التى كانت تُعقد فى الجاهلية مثل سوق عكاظ .

وإذا كان مَنْ لا رياضة له على الكلام ولا على البلاغة قد جاء بهذا القرآن فليكُنْ لديكم وأنتم أهلُ قدرة ودُرْبة ورياضة على البلاغة أنْ تأتوا ببعضٍ من مثله ، وإنْ كان قد افترى القرآن ، فلماذا لا تفترون مثله ؟

فلما فشل افتراؤهم على الله كذباً أنه لم يُنزل قرآناً ، وبالتالى لم

---

(١) إفك : الإفك : الكذب . وأفك أى كذب وافترى باطلاً . وأفاك : صيغة مبالغة أى كثير الكذب . [القاموس القويم ١/ ٢٢]

يُرسل رسولاً اسمه محمد بدأوا يطعنون فى آيات القرآن وأنها متناقضة مع بعضها البعض .

وقد قال الحق سبحانه : ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء]

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [الصف] فهم ظالمون لأنفسهم وظالمون لله لأنهم افتروا عليه الكذب ، وظالمون لمَنْ كانوا سبباً فى ضلالهم وصدِّهم عن سبيل الله ، وهم لم يكتفوا برفضهم لدعوة الله ، بل أضافوا إلى هذا الافتراء على الله ، لذلك استحقُّوا ألاَّ يهديهم الله .

والهداية هنا ليست هى هداية الإرشاد والبيان والدلالة ، فهذا النوع من الهداية كفله اللهُ لكلِّ خَلْقه .

قال تعالى : ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [الإنسان] ويقول تعالى : ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ ﴾ [البلد] أى : هديناه طريق الخير وطريق الشر أى : دللناه عليهما وأوضحنا له طريق الخير من طريق الشر .

ولكن الحق سبحانه يختصُّ مَنْ آمن بهداية المعونة والتوفيق للقيام بمقتضيات المنهج ، كما قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد]

فالله لا يهدى القوم الظالمين ولكنه يهدى العادلين ، ولا يهدى القوم الفاسقين ولكنه يهدى الطائعين ، ولا يهدى القوم الكافرين لكنه يهدى المؤمنين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾

فالحق سبحانه يُحدِّثنا عن نور الله الذى يظنُّ الكافرون أن باستطاعتهم إطفاءه ، لقد نسُوا أو تعاموا عن أن نورَ الله سبحانه وتعالى نورٌ شامل عام لا يدع مكاناً مُظلماً إلا أضاءه ، ولا مكاناً يختفى فيه شىء بسبب الظلام .

وإذا كانت التجربة قد أثبتتْ أنَّ نوراً من خَلْق الله وهو الشمس إذا سطعتْ فالجميع يُطفئون مصابيحهم ، فكذلك إذا ما جاء نورُ الهداية من الله سبحانه وتعالى فيجب أنْ تُطفأ بقية الأنوار .

إنه نورُ المنهج الذى يُنير لنا المعنويات ويُنير لنا القيم ، وما دام سبحانه قد أنزل نورَ الهدى منه فلا بدَّ أنْ نُطفىء جميع مصابيح الأفكار القائمة على الهوى ، ونأخذ النور كلّه من منهج الله القويم والصالح لكلِّ زمان ومكان ، كما نأخذ النور فى النهار من شمس الله .

فهل يستطيع أحدٌ إطفاءَ نور الشمس إذا سطعتْ على العالم والدنيا ؟ والجواب : لا أحدَ يستطيع هذا ، كذلك نور الله سبحانه وتعالى لا أحدَ يستطيعُ إطفاءه .

هم يريدون هذا ويشتهونه ، والاشتهاء طلبُ شهوة النفس من غير ارتباط بمنهج ، لكن ما الذى كان يشتهيه الكفار ؟ كانوا يشتهُون أنْ يطمِسُوا دعوة الحق ، فلم يُمكّنهم الله من طمْسها .

وهم يشتهون انطماس الدعوة لتبقى لهم سيادتهم التى نهبوها على حساب الضعفاء ، ولتظلّ لهم المكانة والتصرّف ، كذلك يشتهون انطماس الدعوة حتى لا تقفَ مناهجُ الله عقبةً أمام شهوات نفوسهم .

والحق سبحانه يقول لهؤلاء : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦)﴾ [الأنفال]

فهؤلاء المشركون قد كفروا بالله وصرفوا المال ليصدُّوا عن سبيل الله فلم يتحقق لهم ما أرادوا ولم يأتِ ذلك بأدنى نتيجة .

وكأن الحق سبحانه يُغرى الكافر بأنْ يتمادى فى الإنفاق ضد الإيمان ، فيخسر الكافر ماله ويتجرَّع آلام الحسرة ، لأن الله يغلبه من بعد ذلك ، فهم سيُغلبون مهما بذلوا من جهود ، ومهما صرفوا من أموال .

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٢)﴾ [آل عمران] فليستْ المسألة أنَّ أموالهم ستضيع منهم عَبثاً فى محاولة إطفاء نور الله فحسب ، ولكن أيضاً سيُغلبون ويُهزمون ويروْنَ انتشار نور الله وتمامه بأعينهم مما يُسبِّب لهم حسرة وألماً ، ثم تكون عاقبتهم في الآخرة أنْ يُحشروا ويُجمعوا ويُساقوا إلى جهنم .

وإذا كان الحق سبحانه قد ذكر الذين يريدون ليطفئوا نور الله بمالهم ، فإنه سبحانه فى آية سورة الصف وكذلك فى سورة التوبة ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢)﴾ [التوبة] ، فقال : (بأفواههم)

فذكر الحق سبحانه هنا وسيلة أخرى من وسائلهم لطمس دعوة

الحق ، وهى (أفواههم) ، والمقصود بها ممارسة دعوة مضادة لدعوة رسول الله .

وقد بذل كفارُ قريش جهداً كبيراً بأفواههم فى محاربة الدعوة إلى الدين الحق ، فاتهموا رسول الله اتهامات كثيرة ، مرة أنه ساحر ﴿ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ ﴾ [ص] ، ومرّة أنه مجنون ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ ﴾ [الحجر] ، ومرة أنه شاعر ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الصافات]

فطعنوا فى شخص الرسول ﷺ وأثاروا حوله الدعايات لمحاولة صَرْف الناس عنه ، وقد ردَّ اللهُ فى قرآنه على افتراءاتهم هذه رداً أسكتهم ، حتى أنهم تباحثوا فى هذا الأمر ليتفقوا على رأى واحد فى محمد يقولونه للناس فلا يُكذِّبهم الناس .

فانتهوا إلى أن يقولوا عن محمد ﷺ : إنه ساحر يُفرِّق بين المرء وزَوْجه ، وبين الولد وأبيه[1] .

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى دلائل النبوة (١٧٨) عن سعيد بن جبير أن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش وكان ذا سن فيهم وقد حضر الموسم فقال لهم : يا معشر قريش إنه قد حضر الموسم وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فأجمعوا فيه رأياً واحداً ولاتختلفوا فيُكذب بعضكم بعضاً ويرد قولكم بعضه بعضاً قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأياً نقل به فقال : بل أنتم فقولوا وأسمع . قالوا نقول : كاهن . قال : ما هو بكاهن لقد رأينا الكهان فما هى بزمزمة الكاهن ولا سجعه . قالوا فنقول : إنه لمجنون . قال : ما هو بمجنون لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته . قالوا : فنقول إنه شاعر . قال : ما هو بشاعر لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشاعر . قالوا : فنقول ساحر . قال : ما هو بساحر لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثهم ولا عقدهم . قالوا : فما تقول ياأبا عبد شمس ؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لمغدق وإن فرعه لجناة . وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرف أنه باطل وإن أقرب القول فيه لأن نقول ساحر يفرق بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجه ، وبين المرء وعشيرته فتفرقوا عنه بذلك .

ثم إنهم قالوا ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف] لقد أرادوا أنْ يُهوِّنوا من شأن محمد ، وأن هناك مَنْ هو أحقّ منه بأنْ ينزل عليه القرآن ، فأىّ منهما من مكة والطائف أعظم من محمد [(١)] .

ومن محاولة إطفائهم نور الله بأفواههم أنهم طعنوا فى القرآن نفسه ، ورغم أنهم كان عندهم الاستعداد لقبوله لو نزل على عظيم منهم .

فقالوا : ﴿ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٥) ﴾ [الفرقان] ويقول تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَـٰذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٣١) ﴾ [الأنفال]

وقد كان من هؤلاء النضر بن الحارث الذى ذهب لفارس ورأى كتاباً هناك يضم أساطير وحكايات وجاء ليقول وسط قريش : هأنذا أقول مثل محمد ، لكن كلامه لم يحمل منهجاً ولم يكُنْ له هدف ، فالأساطير جمع أسطورة أى الحوادث والأحاديث الخرافية مثل ألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة ، والإلياذة وغيرها من كتب الأساطير .

ومثلما طعنوا فى شخص الرسول ﷺ وفى الرسالة وهى القرآن طعنوا أيضاً فيمَنْ اتبعوا هذا النور واحتقروهم ، فشابهوا قوْل قوْم نوح له : ﴿ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا

---

(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه سُئل عن قول الله ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف] ما القريتان ؟ قال : الطائف ومكة . قيل : فمن الرجلان ؟ قال : عروة بن مسعود وخيار قريش ، أورده السيوطى فى الدر المنثور (١٣/ ٢٠٠) وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه .

نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا[1] بَادِيَ الرَّأْيِ ..(٢٧)﴾ [هود]

ولذلك حاول بعضٌ من أهل الكفر أنْ يعرضوا موقفاً وسطاً على رسول الله ﷺ ، فقالوا : إذا نحن جئنا فأقمْهم من عندك لنجلس معك ، فإذا قُمْنا من عندك فاجعلهم يجلسون[2] .

وقد كان خصومُ الإسلام حينما يروْن الدعوة تنتشر شيئاً فشيئاً كانوا يحاولون إيقافها ، لا من جهتهم بالعدوان على مَنْ يؤمن فحسب ، ولكن أيضاً من جهته ﷺ فأرسلوا إلى رسول الله وفداً فقالوا : ننتهي إلى أمر هو وَسَط بيننا وبينك : دَعْكَ من هؤلاء الفقراء واصرف وجهك عنهم ولا تربط نفسك بهم ووجّه وجهك إلينا .

فأنزل الله ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ .. (٢٨)﴾ [الكهف]

وعندما نزلت هذه الآية قال ﷺ : « الحمد لله الذى جعل فى أمتى مَنْ أمرنى أن أصبر نفسى معهم »[3] .

---

(١) أراذلنا : أى أفقرنا وأحقر الناس فى نظرنا . والأرذلون هم أخسُّ الناس . [القاموس القويم ١/٢٦٣]

(٢) أخرج الطبرى فى تفسيره (١٣٢٥٥) عن ابن مسعود قال : مر الملأ من قريش بالنبى ﷺ وعنده صهيب وعمار وبلال وخبّاب ونحوهم من ضعفاء المسلمين فقالوا : يا محمد أرضيت بهؤلاء من قومك ؟ هؤلاء الذين منَّ الله عليهم من بيننا ؟ أنحن نكون تبعاً لهؤلاء ؟ اطردهم عنك . فلعلك إن طردتهم أنْ نتبعك . فنزلت ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ .. (٥٢)﴾ [الأنعام]

(٣) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٩/٥٢٢) وعزاه لأبى الشيخ عن سلمان الفارسى قال : قام رسول الله ﷺ يلتمسهم حتى أصابهم فى مؤخر المسجد يذكرون الله وقال : الحمد لله الذى لم يُمتنى حتى أمرنى أن أصبر نفسى مع رجال من أمتى . معكم المحيا والممات .

ومن أعجب ما قالوه بأفواههم لإطفاء نور الله ما قالوه محاولين خداعَ الناس ، وكأنهم على الحق فعلاً ، يقول تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) ﴾ [الأنفال]

فهم كافرون يستبعدون أن ما جاء به رسول الله ﷺ هو الحق ، ولذلك يتجاسرون ويتحامقون فيطلبون أنْ يُمطر اللهُ عليهم حجارة ، أو يُنزل بهم عذاباً أليماً .

كلُّ هذا يدخل في أساليبهم ووسائلهم لمحاربة الحق ولصرف الناس عنه ، وهذا قمة التغفيل الدالّ على أنها عصبية مجنونة ، لقد تمنوا الموت والقتل رَمْياً بالحجارة من السماء ، ولم يتمنوا اتباع الحق .

ألم يكُنْ الأجدر بهم أنْ يُعملوا العقل بالتدبر ويقولوا : إنْ كان هذا هو الحق من عندك فاهْدنا إليه .

لقد أعماهم كفرهم وحقدهم وحسدهم لرسول الله عن أنْ يروا الحق ويتبعوه ، وهذا لفرط حقدهم وضلالهم ، وهذا يكشف لنا تفاهة عقول الكفار .

والحق سبحانه لو استجاب لهؤلاء الذين دعوا على أنفسهم فقالوا : ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً ..(٣٢) ﴾ [الأنفال] لكانت نهايتهم بجنس ما دعوا به وقضى عليهم ، ثم انتهوا بعد ذلك إلى عذاب الجحيم .

ولكن الحق سبحانه شاء لهم البقاء ليؤمن مَنْ يختار الإيمان ، أما

مَن اختار الكفر فعليه أنْ يتحمّل تبعة الطغيان التى تتمثل فى أنّ الواحد منهم لا يختار الكفر فقط ، بل يتجاوز الحدّ ويطلب ممَّنْ آمن أنْ يرتدَّ عن إيمانه .

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ⑧﴾ [الصف] ، وقد سُئلنا فى بعض رحلاتنا : القرآن يقول (والله متم نوره) فكيف تمَّ نور الله ومع الإسلام دياناتٌ أخرى كثيرة مازالت موجودة ، وأغلبها أكثر من الإسلام عدداً وقوة ؟

لقد فهم هؤلاء أن معنى (متم نوره) أنْ يصير الناسُ جميعاً مسلمين ، ولو كان الأمرُ كذلك ما قال الله ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ⑧﴾ [الصف] ، وما قال ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ⑨﴾ [الصف]

إذن : الحق سبحانه يقرر وجود الشرك والكفر مع الإسلام . والمعنى : أن الله مُتمّ نوره يعنى مع كفرهم ومع شركهم طوال المدة ، إلا أنهم لن يقدروا على إطفاء هذا النور ، فسوف يظل وسوف يتغلب على أحكامهم ويظهر عليها ، بحيث لا يجدون حلاً لأقضيتهم إلا فى هذا النور .

وكوْن الله سبحانه مُتم نوره هو أمر حتميٌّ ، ولذلك قال تعالى فى آية سورة التوبة ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ㉜﴾ [التوبة]

لذلك قال تعالى فى آية أخرى : ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ..③﴾ [المائدة]

لقد تمَّ دين الله ودخل الناسُ إلى الإسلام أفواجاً ، ولن يُنسى القرآن نور الله ، ولن يكتم القرآن أحدٌ ، ولن يُحرِّف القرآنَ أحدٌ ، ولن يحدث للقرآن ما حدث للكتب السابقة من نسيان وكتمان وتحريف .

لقد يئسوا من أنْ يُغلب الإسلام ، بل إن الإسلام سيغلب ، وأرادوا أنْ يُطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أنْ يُتمَّ نوره ، وقد كمل الدين وجاء على كماله ، وقد أتم الله استمرار النعمة بتمام المنهج .

قال تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥) ﴾ [الأنعام] وكلمة (تمت) تدل على أن المسألة لها بداية ولها خاتمة ، فما المراد بالكلمة التى تمتْ ؟ أهى كلمة الله العليا بنصر الإسلام وانتهاء الأمر إليه ؟ أو هو تمام الرسالة ؟ أو المقصود بها القرآن ؟

ونرى أن معنى (تمت) استوعبتْ كل أقضية الحياة إلى أنْ تقوم الساعة ، فليس لأحد أنْ يستدرك على ما جاء فى كتاب الله حكماً من الأحكام ، لأن الأحكام غطَّتْ كلَّ الأقضية ، لقد اكتملتْ كلُّ المسائل التى تضمن لنا استقامة الحياة .

ويقول تعالى : ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) ﴾ [الصف] وهم يكرهون نور الله ومنهجه على كل حال ، وقد أكّد الحق سبحانه هذه الحقيقة فى قرآنه فقال : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٩) ﴾ [محمد]

كرهُوا منهج الله لأنه سيسحب بساط السيادة والجبروت من تحت أقدامهم ، سيُسوِّى بينهم وبين عبيدهم بعد أنْ ألِفُوا السيادة والمكانة

والتسلّط على الخَلْق ، لذلك كرهوا نور الله الذى جاءهم به رسول الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾

الحق سبحـانه يعطينا حيثيـات أن الله مُتم نوره ومُكمله رغم أنف الكافريـن ورغم ما يبذلونه ويُنـفقونه ويدبرون له ويـكيدون ، ذلك أن نور الله أولاً هو الهـدى ، وثانيـاً هو دينُ الحق ، وثالثـاً أنه أرسل به رسوله محمداً ﷺ وهو رسوله حقاً .

فكيف ينطفىء نورٌ له هذه العناصر الثلاثة .

أما أنه (الهدى) فالهـدى علامات يضعها الخالق سبـحانه لنهتدى بها ، لأنه لو تركـها للخَلْق ليضـعوها لاختلفتْ الأهواء ، والله سبـحانه أغنى الأغنياء عن الخَلْق ، ولن ينتفع بأىٍّ شىء من العـباد ، أما البشر فلو وضعوا (هدى) فالواضـع سينتفع به .

وقـد رأينا ذلك رأي العـين ، فالـذى يريد أنْ يأخذ مـال الأغنيـاء ويغتنى يختـرع المذهب الشيوعى ، والذى يريد أنْ يمتصَّ عـرق الغير يضـع مذهب الرأسمالية .

والهـدى لكى يكون هدى لا بد أنْ يكون مـجرداً من الهـوى ومن انتفاع مَنْ شـرَّع ، ولا بد أنْ يكون واضـعُ الهدى عالماً بكـل الجزئيات التى قد يأتى بها المستقبل ، وهذا لا يتأتى إلا فى إله عليم حكيم .

لذلك قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ..﴿١٢٠﴾ ﴾ [البقرة] وهدى الله طريق واحد ، أمـا هدى البشر فكلٌّ واحـد له هدى ينبع من

هواه ، ومن هنا فإنها طرق متشعبة ومتعددة تُوصِّلك إلى الضلال ، ولكن الهدى الذى يُوصِّل للحق هو هدى واحد ، هدى الله عز وجل .

إن الله يريد أنْ يلفت خَلْقه إلى أنهم إذا أرادوا أنْ يصلوا إلى الهدف الثابت الذى لا يتغير فليأخذوه عن الله ، وإذا أرادوا أنْ يتبعوا الطريق الذى لا توجد فيه أيُّ عقبات أو متغيرات ، فليأخذوا طريقهم عن الله تبارك وتعالى .

إنك إذا أردتَ باقياً فخُذْ من الباقى ، وإذا أردتَ ثابتاً فخُذْ من الثابت ، وإذا أردتَ أنْ تُحقِّق سعادة فى حياتك وأنْ تعيش آمناً مطمئناً فخُذ الهدف عن الله وخُذِ الطريق عن الله ، فإنَّ ذلك يُنجيك من قلق متغيرات الحياة التى تتغير وتتبدَّل ، إنه ينير حياتك كلَّها بفضل نور منهج الله .

وأما أنه (دين الحق) فلأنه يضم تشريعاً من إله خلق الجميع لا يُفرِّق بين أصناف البشر ، والدين الحق لا يخدع أحداً ، وهو يُقنع الناسَ بقوة حجته ، ويجذب قلوبهم بسماحته ، ولأنه دينُ الحق فإنه سينتصر سواء آمنَ الناسُ به أم لم يؤمنوا ، وسبحانه يريد بالمنهج الذى أنزله كلّ الخير والسعادة لعباده .

والدين الحق هو الذى يأتى موافقاً لما ارتضاه الله تعالى لخَلْقه ، والحق هو الشىء الثابت الذى لا يتغير ولا يتناقض ولا يزول ولا يتزحزح أى لا ينتهى ولا يتذبذب ، هذا هو الحق .

فقضية الحق فيما أنزله الله على رسله مُطردة فى منهجه ، فالله حَقّ ، خلق السماوات والأرض وكلّ الكون بالحق ، وأنزل كتابه بالحقّ ،

كلّه حَقٌّ ، نشأ الكونُ منه بقانون حق ، واستمرت سننُ الله فى الكون بالحق ، وهو دائماً ينصر الحق .

وقد أنزل اللهُ الكتابَ بالحق ، أى أنزله بالقضايا الثابتة التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ، فهو ثابت لا ينقضه واقع ، وإنْ ظهر فى بعض الأحيان أن هناك مَنْ طمس الحق وأنّ الباطل تغلَّب عليه فهذا يعنى ظهور المفاسد فيصرخ الناسُ طالبين الحق .

وانتشار المفاسد هو الذى يجعل الناس تستدعى الحقّ وتتحمس له ، لأن الباطل حين يعضّ الناس تجدهم يتجهون إلى الحق ليتمسّكوا به .

لقد نزل القرآن بما هو حَقٌّ من إلهيات وملائكة ونبوات ومعجزات وأحكام وشرائع ، كلُّها حَقٌّ لا شكَّ فيه ، فنزل الحق الثابت من الله بواسطة مَن اصطفاه من الملائكة وهو جبريل على مَنْ اصطفاه من الناس وهو محمد ﷺ ، وفى طَىِّ ما نزل الحق الثابت الذى لا يتغير .

أما ثالث حيثيات أن الله مُتم نوره أنه أرسل محمداً بهذا المنهج ، ورسول الله نفسه نور ، يقول تعالى هنا : ﴿هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ ..(٩)﴾ [الصف] ، فالحق سبحانه أرسل رسوله ليُعدل منهج الغرائز البشرية .

وما دام الله قد أرسل إليكم رسوله بالتكاليف والمنهج فلا بدّ أنْ يكون سبحانه قد كلّف مَنْ هو مؤتمن عليكم ، ولذلك حمّله أمانة إبلاغكم هدى الله ودين الحق الذى ارتضاه الله لكم .

والغاية هى أن يُظهر الإسلامَ على الدين كلِّه ، وليس معنى هذا أنْ لا يوجد يهود أو نصارى أو كافرون ومشركون ، وإنما هو ظهور قوانين ، هو ظهور منهج الله على غيره من المناهج ؛ ظهور حجة

وبرهان ، لا ظهور قهر وتسلط وإذعان .

إن الإسلام سيظهر عليهم - أى يغلبهم - كنظام يُضطرون إليه ليحلّوا مشكلات مجتمعاتهم الكافرة فسيأخذون من أنظمة وقوانين الإسلام وهم كارهون ، ولذلك نجدهم يستقون قوانينهم وإصلاحاتهم الاجتماعية من تعاليم الإسلام . فاطمئنوا يا مَنْ آمنتم بمحمد ﷺ واتخذتم الإسلام ديناً ، إن تجارب الحياة ستأتى لتثبت لدى الجاحدين صدقَ دينكم وصدقَ الله فى تقنينه لكم .

فقد اضطرتهم ظروفُ الحياة وتعقيدات ما عندهم من مناهج أنْ يقننوا إباحة الطلاق فى إيطاليا الكاثوليكية[1] تقنيناً بشرياً لا بتقنين إلهى ، وإنْ كانوا أخذوا ما فى الإسلام فى هذا .

ومثل هذا يبين لنا مدى ثقتنا فى ديننا ، وأن مشكلات البشرية فى بلاد الكفر والشرك لن يحلها إلا الإسلام ، فإنْ لم يأخذوه كدين سيُضطرون إلى أخذه كنظام ليقود إلى سلام المجتمع ، واستقرار وأمن الحياة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾

---

(١) وأيضاً الكنيسة البروتستانتية أباحت الطلاق لأسباب متعددة كالجنون أو المرض المزمن واستحالة العشرة ، وذلك لأن الحياة أجبرتهم على ما قال به الإسلام ، حتى الكنيسة الأرثوذكسية أخذت وقتاً طويلاً بلائحة ١٩٣٨ التى وضعها أقباط وأباحت الطلاق لتسعة أسباب ، وهذا خلافاً لمن تطرف منهم وحظر على الناس رحمة الله وقصره على علة الزنا .

قوله : ﴿ يَـٰأَيُّـهَا الَّـذِينَ آمَنُـوا ⑩ ﴾ [الصف] أى : يأيها الذين آمنتم بالله إلهاً ودخلـتم معه فى عـقد إيمانى ، فـيا مَنْ آمنتَ بالله رباً وإلهاً وخالقاً خُذْ عن الله وافعل لأنك آمنتَ بمَنْ أمرك .

فالمـعنى : يا مَنْ آمنتم بى بمحض اخـتياركم وآمنـتم بى إلهاً له كلُّ صفات العلم والقدرة والحكمة والقيـومية ، ما دُمتم قد آمنتُم بهذا الإله اسمعوا من الإله الأحكام التى يطلبها منكم .

إذن : فـهو لم يُناد غـيرَ مـؤمن ، وإنما نادى مَنْ آمن باخـتيـاره وبترجيح عقله .

فإياك أيها المؤمن أنْ تقول : ما علَّة هذا الأمر ؟ أو ما حكمة هذا ؟ فما دُمْتَ آمنتَ بالله فـخُذْ أوامره ونواهيه دون مناقشـة ، فإبليس كان مؤمناً بالله ولكنه ناقش الأمر وحكمته وردَّه على الآمر سبحانه .

قـوله تعـالى : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ .. ⑩ ﴾ [الصف] بعـد ﴿ يَـٰأَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا .. ⑩ ﴾ [الصف] تعطى معنىً عميـقاً يُوجب على الخَلْق أنْ يُرهفوا آذانهم له سـبحـانه ، فالله يسـأل المؤمنين إنْ كـانوا يريدون من الله أن يدلّهم ، فهل تظن أنهم من الممكن أنْ يرفضوا دلالةَ الله لهم على الخير ؟

وكـأنَّ الله وضـع ذاته العليـة موضعَ الـدليل الذى يدل الناسَ فى الصحـراء ، فيدلُّهم على الطريق الصحـيح الموصِّلة إلى الغاية فيهديهم سواء السبيل ، فـالدلالة الخطأ تذهب بك فى طرق أخرى ، وتصل بك إلى غاية لا تريدها ، فما بالك بأنْ الدَّالَّ لك هو الله ؟

فالله عندما يهـدى ويدل إنما يدلكم إلى كلِّ نافع لكم ويُجنّبكم كلَّ أمر ضَارٍّ بكم .

والحق سبحانه وتعالى حين يتحدث عن الصفقة الإيمانية يستخدم كلمة التجارة ، وكلمة الشراء وكلمة البيع ، اقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ (١١١) ﴾ [التوبة]

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ .. (١١) ﴾ [الصف]

ونعلم أن التجارة هى وساطة بين المنتج والمستهلك ، المنتج يريد أنْ يبيعَ إنتاجه ، والمستهلك محتاج إلى هذا الإنتاج ، والربح عملية تطول فترة وتقصر فترة مع عملية تحرُّك السلعة والإقبال عليها إنْ كان سريعاً أو بطيئاً .

وعملية التجارة استخدمها الله سبحانه وتعالى ليبينَ لنا أنها أقصرُ طريق إلى النفع ، فالتجارة تقوم على يد الإنسان ، يشترى السلعة ويبيعها ، ولكنها مع الله سيأخذ منك بعضاً من حرية نفسك ليعطيك أخلدَ وأوسع منها .

لذلك يقول العارفون بفضل الله : اختر مَنْ يُثمِّن عطاءك ، فأنت عندما تعطى شيئاً لإنسان فهو يُثمِّن هذا الشىء بإمكاناته وقدراته ، سواء بكلمة ثناء يقولها مثلاً أو بغير ذلك ، لكن العطاء لله كيف يُثمنه سبحانه ؟ لا بد أنْ يكون الثمنُ غالياً .

إذن : فالعاقل ينظر لمَنْ سيعطى النعمة ، ولنا الأُسْوة فى سيدنا عثمان رضى الله عنه عندما علم التجار أن هناك تجارة آتية

له ، جاء كل التجار ليشتروا منه البضاعة ثم يبيعوها ليربحوا ، وقال لهم : جاءنى أكثر من ثمنكم ، وفى النهاية قال لهم : أنا بعتُها لله .

إذن : فقد تاجر سيدنا عثمان مع الله ، فرفع من ثمن بضاعته ، وما دام سبحانه هو الذى يشترى فلا بدّ أنْ الثمن كبير ، لأنه يعطى النعيم الذى ليس فيه أغيار ، لذلك فالذى يُرائى الناسَ خاسرٌ ولا يعرف أصول التجارة ، لأنه لم يعرف طعْم التجارة مع الله .

فكلٌّ منّا فى حياته يحب أنْ يعقد صفقة مُربحة بأنْ يعطى شيئاً ويأخذ شيئاً أكبر منه ، ولذلك يقول تعالى : ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (٢٩)﴾ [فاطر]

هنا أيضاً تجارة ، وأنت حين تريد أنْ تعقدَ صفقة عليك أنْ تقارن الشىء الذى تُعطيه بالشىء الذى تأخذه ثم افرق بينهما ، ما الذى يجب أنْ يُضحى به فى سبيل الآخر ؟

والله يعاملنا بملحظ النفعية الإنسانية ، واللبق والفطن الذكى هو الذى يتاجر فى الصفقة الرابحة أو المضمونة أو التى تكون جدواها والفائدة منها أكثرَ من سواها ، فالتجارة تعتمد على أنك لا تُقبل على عقد صفقة إلا إذا غلب على ظنِّك أن هذه الصفقة سوف تأتى لك بأكثر مما دفعتَ فيها .

وهكذا عوّدنا ربُّنا تبارك وتعالى حين نُضحِّى بالقليل أنْ يعطينا

الكثير وبلا حدود فضلاً من الله وكرماً ، ألم ترَ أن الحسنةَ عنده تعالى بعشْر أمثالها وتضاعف إلى سبعمائة ضعف[1]؟ .

أليستْ هذه تجارةً مع الله رابحة ، كما قال سبحانه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [الصف] وقال عنها ﴿ يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [فاطر]

والذى يتاجر مع الله لا بد أنْ يكون ذكياً فطناً ، ولا بد أنْ يعرفَ الغاية قبل أنْ يعرفَ السبيل إلى الغاية ، وآفةُ الدنيا وأهلها أنهم يعيشون فيها ولا يعرفون غاياتهم النهائية ، إنما يعرفون غايتهم الجزئية .

والذكى هو مَنْ لا يذهب للغايات القريبة المنتهية ، بل ينظر إلى الغايات الأخرى ، لأن الناس يختلفون فى الغايات المنتهية ، فواحدٌ يعيش خمسين سنة ، وآخر يعيش ستين عاماً ، وثالث يعيش لمدة سنة .

إذن فلا بد أنْ تنظر إلى الغاية التى سيذهبَ لها الكل ، وآفة الناس أنهم يعملون للدنيا يعنى للغايات القريبة ، برغم أن (الدنيا) تعنى الأقل والأتفه ، ولذلك اسمها الدنيا ، وما دامت دنيا إذن فهناك عليا .

إننا لا نعرف كم سنحيا فى هذه الحياة الدنيا ، فالحياة مهما

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « كل عمل ابن آدم يضاعف ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما شاء الله يقول الله : إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به يدع شهوته من أجلى ، للصائم فرحتان فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه » أخرجه ابن ماجه فى سننه (١٦٣٨) .

طالتْ ذاهبةٌ ، أما حياةُ الآخرة فمتيقنة لا أجلَ لها ، إنها دائمة ونعلم أنّ نعيم الدنيا بالنسبة للإنسان هو على قدر الأسباب الموجودة لديه .

أما نعيم الآخرة فهو على قدر طلاقة قدرة المسبِّب وهو الله ، وعلى هذا تكون خسارة الذين كفروا كبيرة وفادحة ودامية لأنهم لم يتاجروا مع الله .

يقول تعالى : ﴿ **قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَاحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا** .. (٣١) ﴾ [الأنعام]

أما التجارة فهى تُحقِّق لكم النفع الأبدى ، وأعظم النفع الأبدى هو قوله تعالى : ﴿ **تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ** (١٠) ﴾ [الصف] ويقول الحق تعالى ﴿ **وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** (٦١) ﴾ [الزمر]

فالله يُنجِّى المؤمنين من عذاب مؤلم مهين لمن لم يؤمن بل كذَّب وتولّى ، فالفوز الأكبر هو أنْ ينجو من النار ، يقول تعالى : ﴿ **فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ** .. (١٨٥) ﴾ [آل عمران]

ولم يقُل سبحانه : ومن أدخل الجنة فقد فاز ، لأن مجرد أنْ تُزحزح عن النار فوزٌ عظيم ، فأُولى درجات الفوز أنْ يُزحزح الإنسانُ عن النار ولو إلى الأعراف ، وهذا فوز عظيم يكفى أنك تمرُّ على الصراط المضروب فوق النار[1] ، وترى ما فيها من ألوان العذاب ، ثم

---

(١) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « يضرب الصراط بين ظهرانى جهنم فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته ولا يتكلم يومئذ الرسل وكلام الرسل يومئذ : اللهم سلم سلم . وفى جهنم كلاليب مثل شوك السعدان هل رأيتم شوك السعدان ؟ قالوا : نعم يارسول الله . قال : فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله عز وجل » أخرجه البيهقى فى الأسماء والصفات (٢/ ١٨٤) وابن منده فى كتاب الإيمان (٢/ ٤١٨)وابن أبى عاصم فى السنة (٣٨٧) .

بعد ذلك تنجو من هذا الهول كله .

يكفى ذلك ليكون فوزاً عظيماً لأن الكافر فى هذه اللحظة يتمنى لو كان تراباً حتى لا يدخلَ النار ، فمرورُ المؤمن فوق الصراط ورؤيته للنار نعمة لأنه يُحسُّ بما نجا منه ويعاين الأهوال التى عافاه الله منها ، بفضل الإيمان ورحمة الرحمن ؛ نجا ﴿ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ⑩ ﴾ [الصف] وكلمة (عذاب) تعنى إيلامَ حيٍّ يُحسُّ بالألم . والعذاب هو للحيّ الذى يظل متألماً ، أما القتل فهو ينهى النفس الواعية وهذا ليس بعذاب ، بل العذاب أنْ يبقى الشخصُ حياً حتى يتألم ويشعر بالعذاب .

وقول الحق سبحانه : ﴿عَذَابٍ أَلِيمٍ ⑩﴾ [الصف] يلفتنا إلى قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ [1] نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم [2] بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ٥٦﴾ [النساء]

وهو عذاب أليم لا يُطاق لأنه يأخذ قوته من قوة فاعله ، فإذا كان الحدثُ التعذيبى منسوباً إلى الله وله مطلق القوة والقدرة ، فكيف يكون عذابه ؟ وكيف يكون إيلامه ؟

والعذاب من الله يُوصف مرة بأنه عظيم ، ومرة أخرى يُوصف بأنه مهين ، وثالثة يُوصف بأنه أليم ، والسبب هو أن الوصف يختلف باختلاف المعذّبين ، وسيأخذ كلٌّ مسيء وعاصٍ وكافر من العذاب ما يناسبه .

---

(١) أصلاه الله النار : أدخله إياها ومنه قوله تعالى ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ٢٦﴾ [المدثر] أى سأدخله النار ، ويصلى النار : يقاسى حرّها ولهيبها . [القاموس القويم ١/٣٨٢] .

(٢) نضجت جلودهم : احترقت جلودهم . فالله تعالى يجدد لهم جلودهم غير الجلود التى احترقت . (أحكام القرآن للجصّاص ٣/١٧٢) . وفى البحر المديد (٣/٨٦) : لانت واحترقت .

فهناك إنسانٌ يحتمل العذاب ولا يحتمل الإهانة ، وهناك إنسانٌ يحتمل الإهانة ولا يحتمل الألم ، فكأن كلَّ واحد من الناس سيأتيه العذاب الذى يُتعبه ، فإنْ كان لا يتعبه إلا العذاب العظيم جاءه ، وإنْ كان لا يتعبها إلا الإهانة جاءتْه ، وإنْ كان لا يتعبه إلا الألم جاءه .

لذلك يخاطب اللهُ الذين آمنوا به فيقول : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ⑩ ﴾ [الصف] الله يريد النجاة لعباده من العذاب ، لذلك يقول الله تعالى : ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ⑭⑦ ﴾ [النساء]

فإنْ تشكروا وتؤمنوا فلن يفعل اللهُ بعذابكم شيئاً أى : فقد أبعدتم أنفسكم عن استحقاق العذاب .

ثم يُحدِّد الحقّ سبحانه عناصر هذه التجارة مع الله التى تُنجى المؤمنين بالله من هذا العذاب الأليم :

﴿ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ⑪ ﴾ [الصف]

فأول ما يطلبه اللهُ من الذين آمنوا أنْ يؤمنوا بالله ورسوله ، وقد يسأل سائل : كيف يطالب مَنْ آمن بأنْ يؤمن ؟ نقول : إنْ أردنا أنْ نفهم أن الخطاب للمؤمنين عامة بأنْ يؤمنوا فهذا طلبٌ للارتقاء بمزيد من الإيمان .

فالحقّ سبحانه يخاطبكم بلفظ الإيمان ويريد أنْ يتصلَ إيمانكم بعد كلامه الحقّ مع إيمانكم قبل كلامه ، فلا ينقطع ولا ينفصم خيْطُ

الإيمان أبداً ، بل لا بدّ من المداومة على الإيمان ، وألاّ يترك مؤمنٌ هذا الشرف ، فإنْ كان واحد منكم متصفاً بوصف ثم طُلِب منه نفس الوصف الذى هو فيه فليعلم أن المراد هو المداومة .

والحق سبحانه يخاطب هنا كلّ مَنْ آمن بالله ، ويدخل فيهم فى سورة الصف أهل الكتاب الذين ذكرهم الله هنا مُمثلين فى موسى وعيسى عليهما السلام .

فالإنسان إنْ آمن بالله فقط ، فهذا يقتضى أنْ يبحث المؤمن بالله عن مطلوب الله ، ومطلوب الله إنما جاء به رسول ، لذلك فالإيمان بالله يقتضى أنْ يؤمن الإنسانُ برسول ، لأن قصارى ما يُعطيك العقل أيها الإنسان أنْ تؤمن بأن وراء الكون إلهاً خلقه ويُدبره .

ولكن ما اسم هذا الإله ؟ لا يعرف الإنسانُ ذلك إلا عن طريق الرسول ، إن هذه أمورٌ لا تُعرف بالعقل ، ولكن لا بدّ من الإخبار بها ، وكذلك مطلوبات الله ، وكذلك جزاء المؤمنين على حُسْن إيمانهم ، ولذلك لا بدّ من مجيء رسول للبلاغ .

إذن : فلا بدّ مع الإيمان بالله أنْ تؤمن بالرسول ، وما دُمْتَ أيها المؤمن قد آمنتَ برسوله فلا بدّ أنْ تؤمن بالكتب التى جاءتْ على لسان الرسول .

وهذه الكتب تقول لك : إنَّ هناك خَلْقاً لله لا تراهم وهم الملائكة ، والملك يأتى بالوحى وينزل به على الرسول ، على الرغم من أنك لم تَرَ الملك فأنت تؤمن بوجوده .

إذن : فالقمة الإيمانية هى أنْ تؤمنَ بالله ، ولازمها أنْ تؤمنَ

برســول الله ، وأنْ تؤمنَ بكتــاب مع الرســول ، وهذا الأمــر بالإيمــان مطلوبٌ من أهل الكتاب لأنــهم آمنوا برسلهم ، ويطلب منهم أنْ يؤمنوا برسول الله وبما أُنزل عليه .

ولذلك فإن كلَّ طلب لمــوجود هو طلبٌ لاستمــرار هذا الموجود ، وهو يطلب منهم الالتزام بمواصفــات الإيمان على مَرِّ الأزمان ، بحيث تستــقر العقيــدة فى القلب فلا تطفو للذهن لتُناقش من جــديد ونُسمِّى ذلك عقيدة . أى : أمراً معقوداً فى القلب .

فكأنَّ الحق ســبحانه يقــول للمؤمن : أنت آمنتَ قــبل أنْ أُناديك ، وبســرِّ الإيمان ناديتُك فــحافظ عــلى هذا الإيمان دائمــاً ، وجدِّد دائمــاً إيمانَك لأننى ناديتُك بوصْف الإيمان الذى عرفتُه فيك .

والحق سبحــانه يطلب الإيمان ممنْ آمن ليصبح عقــيدة لا تتزلزل يمهد للمطلوب ليكونَ المؤمنُ متــاجراً مع الله ، وهو الجهاد فى سبيل الله بالأموال والأنفس ﴿ **تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ** .. (١١) ﴾ [الصف]

والآية تربط بين الإيمان بالله والجهاد فى سبيل الله ، فالجهاد فى سبيل الله ضمانٌ للمؤمن أنْ يظلَّ المنهج الذى آمن به موصولاً إلى أنْ تقوم الساعة ، وذلك لا يتأتَّى إلا بإشاعة المنهج فى العالم كلِّه .

والنفس المؤمنــة إذا وقفتْ نفســها على أنْ تجاهد فى ســبيل الله كان عندها شيء من الإيثــار الإيمانى وتعرف أنها أخذتْ خــيرْ الإيمان وتحب أنْ تُوصِّله إلى غيرها ، ولا تقبل أن تأخــذَ خيرْ الإيمان وتحرم منه المعاصــرين لها فى غير ديار الإســلام ، وتحرص على أنْ يكون العالمُ كله مؤمناً .

وإذا نظرنا إلى هذه المسألة نجدها تُمثِّل الفهم العميق لمعنى الحياة ، فالناس إذا كانوا أخياراً استفاد الإنسان من خيرهم كله ، وإذا كانوا أشراراً يناله من شرِّهم شيءٌ .

ولنعلم أنّ حركة الحياة كلها جهاد ، وإياك أنْ تقصر فكرة الجهاد عندك على ساحة المعركة ، فقوله ﴿وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .. (١١)﴾ [الصف] نأخذه على أنه جهادٌ في سبيل منهج الله ، وندرس هذا المنهج ونفهمه وبعد ذلك نجاهد فيه باللسان وبالسِّنان ، ونجاهد فيه بالكتاب ، ونجاهد فيه بالكتيبة .

فقوله سبحانه ﴿وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .. (١١)﴾ [الصف] يصنع أمة إيمانية مُتحضرة .

وكلمة الجهاد في سبيل الله تُخصص لوْناً من الجهاد ، فالإنسان قد يجاهد حميةً أو دفاعاً عن جنسيته ، أو أي انتماء آخر ، وكل هذه الانتماءات في عُرْف الدين لا قيمةَ لها إلا إذا نبعتْ من الانتماء إلى منهج الله لتكون كلمة الله هي العليا .

وقد شرع اللهُ القتالَ والجهاد لأمة محمد لا ليفرض به ديناً ، ولكن ليحمي اختيارك في أنْ تختار الدين الذي ترتضيه ، وهو يمنع سدود الطغيان التي تحول دونك ودون أنْ تكون حُراً مختاراً في أنْ تقبل التكاليف .

وهنا قد يثور تساؤل : إذا كان الأمرُ كذلك فلماذا كانت حروب المسلمين ؟ نقول : إن حروبَ الإسلام كانت لمواجهة الذين يفرضون العقائد الباطلة على غيرهم ، وجاء الإسلام ليقول لهؤلاء : ارفعوا أيديكم عن الناس واجعلوهم أحراراً في أنْ يختاروا الدين المناسب .

حتى عندما فرض الجزية لم يفرضـها لمجرد جباية الأموال ، بل فرضـها ليعطيه الفرصـة لأنْ يبحث ما هو عليه فى حـرية ، فلو كان الإسلامُ يُكره الناس على اعتناقه لما كان هناك مَنْ نأخذ عليه جزية .

لذلك كان الجهاد فى الإسـلام (فى سبيل الله) فلا بد أنْ تكون نيـة القتـال فى سبـيل الله ، لا أنْ تكون بنية الاسـتعـلاء والجبـروت والطغيان ، فلا قـتال من أجل المال أو لضمان سوق اقـتصادى وإنما القتال لإعلاء كلمة الله(١) .

والجهاد يكون بالأموال أى إنفاقها فى سبيل الله ، أو ببذْل الأنفس والأرواح ، وكلاهما صَعْبٌ على النفـوس التى لم تخالط قلوبها حلاوةُ الإيمـان وحقيقتُـه ، لذلك كان خطابُ الله ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ..(١٠)﴾ [الصف] ثم قال ﴿ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ .. (١١)﴾ [الصف]

ثم يأتى محكّ الاختبار وميدانه ومجاله ﴿ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ..(١١)﴾ [الصف] والمال على الحقـيقة ليس مالك ، وإنما أنت مُسْـتخلَفٌ فيه منتـفعٌ به فقط ، كذلك الأنفس على الحقـيقة هى موهوبةٌ لنا من الله ، فلا نضن بها فى طريق الحق سبحانه .

لذلك قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم

---

(١) عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حـمية ويقـاتل رياء أى ذلك فى سبـيل الله ؟ فقال رسـول الله ﷺ : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليـا فهو فى سبيل الله . أخـرجه البخارى فى صحـيحه (٢٨١٠ ، ٣١٢٦ ، ٧٤٥٨) وكذا مسلم فى صحيحه (٥٠٢٩ ، ٥٠٣١) .

بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) ﴾ [التوبة]

وكلمة (اشترى) تدل على أن هناك صفقة ، عملية بيع وشراء ، أى تجارة ، وإنْ كان هذا ملكاً لله فالله هو المشترى والله هو البائع .

وحين يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم ..(١١١) ﴾ [التوبة] فقد يفهم أحدٌ أن النفس سوف تضيع ، وأن الأموال سوف تُنفق ، وهذا قد يُقبض النفس فهذا فيه الموت وخسارة للمال ، وكان من الطبيعى أنْ يشحبَ وجه الإنسان ويفزع ويخاف .

ولكن ساعة يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ ..(١١١) ﴾ [التوبة] تجد بشرة المؤمن تطفح بالسرور والبشْر ويحدث له تهلُّل وإشراق ، مع أنه هنا سيأخذ نفسه ، ولكن المؤمن يعرف أنه سبحانه سيأخذ نفسه ليعطيه الحياة الخالدة .

إذن قضايا الإيمان كلها هكذا لا يجب أنْ تصيبنا بالخوف ، بل علينا أنْ نستقبلها بالبشْر والاستبشار ، ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ فَاسْتَبْشِرُوا .. (١١١) ﴾ [التوبة] أى : فليظهر أثرُ ذلك على بشرتكم إشراقاً وسروراً وانبساطاً .

ولتعلموا أن ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) ﴾ [الصف] فالإيمان بالله ورسوله والجهاد فى سبيل الله بالمال والنفس خيرٌ لكم من الدنيا وما فيها ، وخيرٌ لكم مما تجمعون .

وكلمة (خير) هنا تشمل خيراً فى الدنيا وخيراً فى الآخرة ، والله يُضاعف للمؤمنين الخير ليكون خيراً دائماً فى الدنيا والآخرة .

وقول ﴿ إن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الصف] أى : إنْ كنتم تتيقنون من قضية نسبية واقعة معتقدة تستطيعون أنْ تُدللوا عليها ، فكأن هناك مقدِّماتٍ للعلم فإنْ لم يكونوا يعلمون فالله يعلمهم .

ذلك أن المجاهد الذى يجاهد بماله ونفسه يكون قد اقتنع بيقين أنه سوف يحصل من الجهاد على ما هو خير من المال والنفس .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ ﴾

فأول ما يُثاب به الشهيد هو مغفرةُ ذنوبه عند أول دفقة من دمه الزكىِّ ، كأنْ لم تكُنْ له ذنوبٌ اقترفها .

فالإنسان إذا ما قُتل فى سبيل الله ذهب إلى حياة أفضل وإلى عيش خيْر من عيشه ، هذا يثابه الشهيد ، ولذلك فالحقُّ سبحانه عندما تأتيهم غرغرة الشهادة يُريهم ما هم مُقبلون عليه ، فيتلفظون بألفاظ يسمعها مَنْ لم يُقبل على الشهادة .

فهناك مَنْ يقول : هُبِّى يا رياح الجنة[1] ، ويقول كلمة يتبين منها أنه ينظر إلى الجنة كى يُسمع مَنْ خلفه .

---

(١) ورد هذا القول عن عدة من صحابة رسول الله ﷺ ، ومنها ما ورد عن خالد بن الوليد فى غزوة مؤتة أنه قال : الله أكبر هُبى رياح الجنة .. الله أكبر هُبىَّ رياح الجنة . ومنها ما ورد عن أنس بن النضير عندما قال لسعد بن معاذ : أى سعد والذى نفسى بيده إنى لأجد ريح الجنة دون أُحد . (الكشف والبيان للنيسابورى ٨/٢٣)

لذلك فى غزوة بدر لما سمع الصحابىُّ كلام رسول الله ﷺ عن أجر الشهيد ، وكان فى فمه تمرة يمصُّها فقال : يا رسول الله أليس بينى وبين الجنة إلا أنْ أُقتل فى سبيل الله ؟ قال : نعم . فألقى التمرة من فمه وخرج لتوّه إلى الجهاد ، لأنه واثقٌ تمام الثقة أنَّ ما سيذهب إليه بالشهادة خير مما ترك(١).

لقد تيقَّن أنه ليس بينه وبين الجنة إلا أنْ يُقتل فى سبيل الله ، وكان فى يده تمرات يأكلها فألقاها ، ورأى أنَّ مدة شغله بمضغها طويلة ، لأنها تحول بينه وبين هذه الغاية ، ألقاها وأسرع إلى الجهاد لينالَ الشهادة ، لماذا ؟

لأنه مقارنةٌ بين متاع الدنيا ومتاع الآخرة ، فالعاقل لو قارن بين متاع الدنيا ومتاع الآخرة لاختار الآخرة .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ(٢) كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨) ﴾ [آل عمران]

لقد أصاب المقاتلين مع النبى شيءٌ فلم يضعُفوا ولكنهم صبروا وطلبوا من الحق أنْ يغفر لهم ذنوبهم ، لقد عرفوا مصادر ضعفهم واستعانوا بالله على هذا الضعف ، فماذا فعل الله لهم ؟

نصرهم سبحانه بأن آتاهم ثواب الدنيا وحُسْن ثواب الآخرة والله يحبُّ

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٤٣) كتاب الجهاد – باب ثبوت الجنة للشهيد وكذا البخارى فى صحيحه (٤٠٤٦) من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال قال رجل للنبى ﷺ يوم أحد : أرأيت إن قُتلت فأين أنا ؟ قال : فى الجنة فألقى تمرات فى يده ثم قاتل حتى قتل .

(٢) ربيون : الرِّبِّيُّ : العالم التقى الصابر . والربىّ من ربيته وهم هنا من ربّاهم النبى فقاتلوا معه وناصروه . [القاموس القويم ١/ ٢٥١] .

المحسنين ، وكلّ ذلك السلوك الإيماني الذى يقى من الهزيمة وكيد العدو ، هو من تقوى الله ، حتى يظلّ المؤمنون فى معية الله ، وعندما يكون المسلم فى معية الله لا يجرؤ خَلْق من خَلْق الله أنْ ينال منه .

لقد بذل المؤمنُ حياته ونفسه وماله لله سبحانه وتنازل عن كلٍّ ما يحبه فى دنياه ووفد على الله سبحانه ، والله كريم يكرم الوافدين عليه سبحانه ، وأول إكرامه سبحانه أنْ يغفر لهم ذنوبهم ويسقط عنهم تبعاتهم ويُعفيهم من إيقاع العقاب بهم على ارتكابها .

إنه سبحانه يغفر لهم الذنوب التى ارتكبوها فى حق الله ، أما الذنوب التى ارتكبوها فى حق الآخرين فتبقى معلَّقة إلى أن يسامحهم مَن ارتكبوها فى حقِّهم ويستعفيهم الحق سبحانه يوم القيامة[1] .

وأيضاً لا يغفر الله الدَّيْن ، فعن أبى قتادة أن رجلاً قال : يا رسول الله أرأيتَ إنْ قُتلْتُ فى سبيل الله تكفّر عنى خطاياى . فقال له رسول الله ﷺ : نعم إنْ قُتلْتَ فى سبيل الله وأنت صابرٌ مُحتسبٌ مُقبلٌ غيرُ مُدْبر . ثم قال رسول الله : كيف قلت ؟ قال : أرأيت إنْ قتلت فى سبيل الله أتُكفر عنى خطاياى فقال رسول

---

(١) عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : بينا رسول الله ﷺ جالس إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه فقال له عمر : ما أضحكك يا رسول الله بأبى أنت وأمى ؟ فقال ﷺ : رجلان جثيا من أمتى بين يدى رب العزة تبارك وتعالى فقال أحدهما : يا رب خذ لى مظلمتى من أخى . قال الله عز وجل : أعط أخاك مظلمته . قال : يا رب لم يبق من حسناتى شيء ، قال : رب فليحمل عنى من أوزارى قال : وفاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء ، ثم قال : إن ذلك ليوم عظيم يحتاج الناس فيه إلى أن يحمل عنهم من أوزارهم فقال الله تبارك وتعالى للطالب : ارفع بصرك فانظر فى الجنان ، فرفع رأسه فقال : أى رب أرى مدائن من فضة وقصوراً من ذهب مكللة باللؤلؤ لأىِّ نبى هذا؟ لأى صدِّيق هذا ؟ لأى شهيد هذا ؟ قال : هذا لمن أعطى الثمن . قال : يا رب ومن يملك ذلك ؟ قال جل وعلا : أنت تملكه . قال : بماذا يا رب؟ قال : تعفو عن أخيك . قال : يا رب فإنى قد عفوت عنه . قال الله تعالى : خذ بيد أخيك . فأدخله الجنة . ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك : فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فإن الله يصلح بين المؤمنين .
[المطالب العالية لابن حجر ٥/٤٦] .

الله : نعم وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر إلا الدَّيْن ، فإن جبريل عليه السلام قال لى ذلك[١] .

فالديْن حقٌّ يتعلق بحقوق الناس ، والله لا يضيع حقوق الناس ولا يجيز هذا ، إنْ كان رَضى على مَنْ قُتل فى سبيل الله ، فما ذنب مَنْ له حَقٌّ عنده ؟

الله حكيم عادل لا يظلم أحداً ، ولا يجيز أكْلَ أموال الناس بالباطل ، وإنْ كان بالموت فى سبيله سبحانه .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ..(١٢)﴾ [الصف]

والحق تبارك وتعالى يُبشِّر المجاهدين فى سبيله والشهداء منهم بجنات تجرى من تحتها الأنهار ، والجنات جمع جنة ، وهى جمع لأنها كثيرة ومتنوعة ، وهناك درجاتٌ فى كلِّ جنة أكثر من الدنيا .

فالجنات نفسها متنوعة ، فهناك جناتُ الفردوس ، وجنات عدن ، وجنات النعيم ، وهناك دار الخلد ، ودار السلام وجنة المأوى وهناك عليّون الذى هو أعلى وأفضل الجنات ، وأعلى ما فيها التمتع برؤية الحق تبارك وتعالى .

لقد هيّأ الله للمؤمنين به المقاتلين فى سبيل نُصْرة دينه وإعلاء كلمته جنات تتخللها الأنهار ، وذلك هو الفوز والنجاح الكبير ، والجنات معناها البساتين التى فيها أشجار وفيها ثمار وكلّ ما تشتهى الأنفس .

والجنة فى أصل اللغة هى الستر ، والجنة تستر مَنْ فيها من أشجار كثيرة

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١١٧) (٣/١٥٠١) باب من قتل فى سبيل الله كفرت خطاياه (٣٢) والنسائى فى السنن الكبرى (٤٣٦٥) والترمذى فى سننه (١٧١٢) وقال : حديث حسن صحيح .. وأحمد فى مسنده (٢٢٦٣٨) من حديث أبى قتادة .

بحيث مَنْ يمشى فيها لا يظهر لأنّ أشجارها تستره ، أو أنْ مَنْ يدخلها يجلس فيها ولا يراه أحد ، لأن كلَّ خير فيها لا يُلجئه أنْ يخرج منها .

والجنة - ولله المثل الأعلى - هى الحديقة الواسعة ، وهذا الاتساع مُوزَّع على كلِّ مرأى العيْن .

والحق سبحانه يصف الجنات هنا أنها ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ (١٢)﴾ [الصف] ووصفها سبحانه فى آية أخرى ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ (١٠٠) ﴾ [التوبة] ، فما الفرق بين الاثنين ؟

إن ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ (١٠٠) ﴾ [التوبة] تعنى أن الماء ينبع من مكان بعيد وهو يمرُّ ويجرى تحتها ، أما قوله تعالى : ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ (١٢)﴾ [الصف] فكأنَّ الأنهار تنبع من تحتها ، حتى لا يخاف إنسانٌ من أن الماء الذى يأتى من بعيد يُقطع عنه أو يجفّ ، وهذه زيادة لاطمئنان المؤمنين أن نعيم الجنة باقٍ وخالد .

فلا يظن أحدٌ أن هناك مَنْ يستطيع أنْ يسدَّ عنك المياه من أعلى ، إنها أنهارٌ ذاتية ، تنبع من تحتها مباشرة لا تنقطع أبداً .

والفارق بين أنهار الدنيا وأنهار الجنة أن أنهار الدنيا عبارة عن شقوق فى الأرض لها شواطيء تحتضنها ، أما أنهار الآخرة فهى تسير على الأرض دون شواطيء تحجزها .

ونجد أنهار الخمر تسير أيضاً فى الأرض ولا تتداخل مع أنهار الماء ، وكذلك أنهار اللبن ، وكلّ ذلك من صنعة رَبٍّ حكيم قادر .

ويصف الحق سبحانه أنهار الجنة، فيقول تعالى : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ

الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ[١] وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ .. (١٥) ﴾ [محمد]

ولا يقتصر ثوابُ المجاهدين على مغفرة ذنوبهم ، أو إدخالهم الجنات التى تجرى من تحتها الأنهار ، بل أيضاً قد أعدَّ اللهُ لهم ﴿ مَسَاكِنَ طَيِّبَةً.. (٧٢) ﴾ [التوبة] فالجناتُ ليست هى المساكن ، بل فى تلك الجنات مساكن ، بدليل قول الحق سبحانه : ﴿ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ.. (٧٢) ﴾ [التوبة]

فالجناتُ هى الحدائق وفيها مساكن ونحن فى حياتنا نجد الفيلات فى وسط الحدائق ، فما بالنا بما يَعِدُ به اللهُ من طِيب المساكن وسط الجنات ؟

وقد جعل اللهُ هذه المساكن الطيبة فى جنات عدن ، والعدن هو الإقامة الدائمة ، فجناتُ عدن هى جنات الإقامة الدائمة ، لأن الدنيا ليست دار إقامة .

فكلُّ نعيم فى الدنيا إما أنْ تفوته بالموت ، أو يفوتك هو بأغيار الحياة ، أما جنات عدن فهى جنات إقامة دائمة ، ففيها كلُّ ما يحتاجه الإنسانُ ، فلا حاجة له إلى غيرها .

هَبْ أنك دخلت أعظم حدائق وبساتين العالم ــ هايد بارك مثلاً ـ فقصارى الأمر أنْ تتنزه به بعض الوقت ، ثم يعتريك التعب ويصيبك الملل والإرهاق ، فتطلب الراحة من هذه النزهة ، أما الجنة فهى جنة عدن ، تحبّ أنْ تقيم فيها إقامة دائمة .

﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ ... (٦١) ﴾ [مريم] واختار

---

(١) آسن : أسن الماء تغيّرت رائحته . [القاموس القويم ١/ ٢٠] غير آسن أى غير متغير اللون ولا الطعم وغير منتن لطول مكثه ، صافٍ لا كدر فيه .

الحق سبحانه هنا اسم الرحمن ليُطمئن الذين أسرفوا على أنفسهم بالمعاصى أنَّ ربهم رحمن رحيم ، إنْ تابوا إليه قَبِلهم ، وإنْ وعدهم وعداً وفَّى .

لذلك يقول تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (٦١) ﴾ [مريم] فما دام الرحمن تبارك وتعالى هو الذى وعد فلابدّ أنْ يكون وعدُه مأتياً أى مُحققاً وواقعاً لا شكّ فيه ، ووعْدُه تعالى لا يتخلّف .

﴿ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) ﴾ [التوبة] إن الله سبحانه سمَّى هذا اليوم بالنسبة للمؤمنين يوم الفوز العظيم ، والذى يجعلنا نتحمل كلَّ ما نكره ونجاهد فى سبيل الله لنستشهد .

﴿ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) ﴾ [التوبة] لقد هيّأ الله للمؤمنين به المقاتلين فى سبيل نُصرة دينه وإعلاء كلمته جناتٍ تتخللها الأنهارُ ، وذلك هو الفوز والنجاح الكبير ، فما هو الفوز ؟ إنه النصر والغلبة ، إنه النجاح والظفر بالمطلوب .

فإذا كان فوزنا فى الدنيا يُعطينا جائزة نفرح بها، فالفرح قد يستمر مدة الدنيا التى يملكها الواحدُ منا ، فما بالنا بالفوز الذى يأتى فى الآخرة ، وهو فوز الخلود فى الجنة من صُنْع ربنا ، أليس ذلك فوزاً عظيماً ؟

إننا إذا كنا نفرح فى الدنيا بالفوز فى أمور جزئية ، فما بالنا بالفوز الذى يمنحه الحق ويليق بعظمته سبحانه ، ولو قسْنا فوز الدنيا بفوز الآخرة لوجدنا فوزَ الآخرة له مطلق العظمة .

ومهما ضحَّى المؤمن فى سبيل الآخرة فهناك فوزٌ يُعوِّض كلّ التضحيات ويسمو على كلِّ هذا ، فالفوز العظيم هو النعيم الموصول الذى لا يمنعه أحدٌ ولا يقطعه شيءٌ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

فإذا كان الحقُّ سبحانه قد وعد مَنْ تاجروا مع الله بأنْ آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، هؤلاء وعدهم اللهُ بغفران ذنوبهم وإدخالهم جناتٍ تجرى من تحتها الأنهار وإسكانهم فى مساكن طيبة تطيب فيها معيشتهم ، وتدوم فيها إقامتهم .

إذا كان هذا ، فإنَّ الحقَّ سبحانه لأنه ربٌّ يتصفُ بالربوبية فإنه عليمٌ بما يُحبه عباده ويريدونه ، لذلك فإنه سبحانه يَعدُهم بخُلة أخرى وزيادة تُحبُّونها.

وقال العلماء : أى لكم فى العاجل مع ثواب الآخرة أخرى تحبونها ، فالله يعلم من نفوس البشر أنهم يُحبون أنْ يروا ثمرة عملهم فى الدنيا نصراً على عدوهم وفتْحاً يُحقِّق لهم ما تصبو إليه نفوسهم من نُصرة الإسلام .

ومثل هذه الالتفاتة الربانية لوجدانات ومشاعر عباده قد جاء مثلها فى قوله تعالى : ﴿ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا[1] أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٥) ﴾ [التوبة]

---

(١) نكثوا أيمانهم نقضوا أيمانهم ، وأصله فى كل ما فُتل ثم حُلّ ، فهى فى الأيمان والعهود مستعارة [تفسير القرطبى – التوبة ١٣] فهؤلاء إن أبرموا نقضوا ، أو أقسموا حنثوا ، أو عاهدوا نكثوا ، أو عاقدوا فسخوا . [خريدة القصر وجريدة العصر] لعماد الدين الكاتب (٢/ ٢٧١) .

فالنصر الذى سيُحققه المؤمنون بعوْن الله تعالى فى قتالهم مع الكفار سيشفى صدور المؤمنين الذين استذلهم الكفار واعتدوا عليهم ، فكأن هذا النصر يشفى الداء الذى ملأ صدور أولئك المؤمنين ويُذهب غيظ قلوبهم .

أى : يُخرج الغيظ والانفعال المحبوس فى الصدور . فكأنَّ قتال المؤمنين للكفار لا يُحقق فقط العذاب والخزى للكفار والنصر للمؤمنين عليهم ،ولكنه يعالج أيضاً قلوبَ المؤمنين التى ملأها الألم والغيظ من سابق اعتداء الكفار عليهم ومحاولتهم إذلالهم وأخْذ حقوقهم .

وليس صحيحاً ما ذهب إليه البعض[1] أن (أخرى) هنا معطوفة على (تجارة) فى قوله تعالى ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) ﴾ [الصف]

فليستْ هذه تجارة أخرى ، بل هى مثوبة أخرى غير مثوبة الآخرة ، فهى مكافأة أخرى غير إدخال الجنات ، بل هى مكافأة دنيوية .

﴿ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللهِ.. (١٣) ﴾ [الصف] فهو سبحانه وتعالى الناصر ، لكن إياكم أنْ تظنوا أن النصر من الله لا يصدر عن حكمة ، إن وراء نصر الله للمؤمنين حكمة .

وإنْ كان النصر المعروف بين الناس هو أنْ تأخذ أرضاً وتُبقى عليها فإنَّ للنصر معياراً آخر فى الإسلام ، فالنصر لا يُعتبر نصراً حقيقياً إلا إذا أصَّل صفات الخير فى الوجود كله ، وحين تتأصل صفات الخير فى الوجود كله

---

(١) قال الطبرى فى تفسيره (٢٣/ ٣٦٤) : "اختلف أهل العربية فيما نعتت به قوله (وأخرى) فقال بعض نحويىّ البصرة : معنى ذلك : وتجارة أخرى ، فعلى هذا القول يجب أن يكون أخرى في موضع خفض عطفاً على قوله ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف : ١٠] وكان بعض نحويىّ الكوفة يقول : هى فى موضع رفع . أىَ ولكم أخرى فى العاجل مع ثواب الآخرة ، ثم قال : ﴿ نَصْرٌ مِنَ اللهِ ﴾ مفسراً للأخرى . والصواب من القول فى ذلك عندى القول الثانى .

يكون المؤمن قد انتصر بحقٍّ .

والنصرُ لا يكون إلا من الله ، يقول تعالى : ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦) ﴾ [آل عمران] ، ويقول أيضاً : ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) ﴾ [الأنفال]

فأنتم لا تُنصرون بالكثرة ولا بعُدّتكم وحديدكم ، فإنما المؤمنون سَتْرٌ ليدِ الله في النصر ، فالنصر منه سبحانه وحده لمَنْ أخذ بالأسباب .

والعزيز الذى لا يُغلب ، والله أيضاً حكيم فهو لا يعطى النصر إلا لمن استأهله وتوافرتْ شروط أنْ يكون جندياً من جنود الله ، والمؤمنون حين يدخلون فى معركة مع غيرهم يستطيعون أنْ يحدِّدوا مركزهم الإيمانى من غاية المعركة .

فإن انتهتْ المعركة بنصرهم وغلبتهم علموا أنهم من جنود الله ، وإن هُزموا وغُلبوا فليراجعوا أنفسهم ، لأن الله أطلقها قضيةً إيمانية فى كتابه الذى حفظه، فقال : ﴿ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

فإنْ لم نغلب فلننظر فى نفوسنا : ما الذى أخللنا به من واجب الجندية لله ؟

فمثلاً فى غزوة أُحد عندما طلب رسول الله ﷺ من الرماة ألاَّ يتركوا أماكنهم فخالفوه[1] ، هنا اختلّ شرط من شروط الجندية لله وهو طاعة الرسول ، فماذا كان يحدث لو أن هؤلاء الرماة خالفوا رسول الله وانتصروا ؟ لو حدث ذلك لهانت أوامر الرسول على المؤمنين .

---

(١) عن البراء بن عازب قال : جعل النبى ﷺ على الرجالة يوم أحد وكانوا خمسين رجلاً عبد الله بن جبير فقال : إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم فهزموهم ، فأنا والله رأيت النساء يشتددن قد بدت خلاخلهن وأسوقهن رافعات ثيابهن ، فقال أصحاب عبد الله بن جبير : الغنيمة أى قوم الغنيمة ظهر أصحابكم فما تنتظرون ؟ فقال عبد الله بن جبير : أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ ؟ قالوا : والله لنأتين الناس فلنصيبين من الغنيمة فلما أتوهم صُرفت وجوههم فأقبلوا منهزمين فذاك إذ يدعوهم الرسول فى أخراهم فلم يبق مع النبى ﷺ غير اثنى عشر رجلاً فأصابوا منا سبعين ، وكان النبى ﷺ وأصحابه أصابوا من المشركين يوم بدر أربعين ومائة سبعين أسيراً وسبعين قتيلاً)) . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٠٣٩ ، ٣٩٨٦ ، ٤٠٦٧) .

ويوم حنين حين اعتقد المؤمنون أنهم سينتصرون بكثرتهم وليس بإيمانهم، وكانت النتيجة أنهم أصيبوا بهزيمة قاسية أول المعركة[١] لتكونَ لهم درساً إيمانياً ، ولذلك إذا رأيتَ إيماناً انهزم أمام كفر ، فاعلم أنَّ شرطاً من شروط الجندية الإيمانية قد اختلَّ .

والحق سبحانه لا يعدهم بالنصر فحسْب ، بل يعدهم أيضاً بفتح قريب ، فيقول تعالى : ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ .. (١٣)﴾ [الصف]

والفتح هو قمة النصر لأن فيه تمكيناً فى الأرض ، وسُمى فتحاً لأنه محكومٌ بضوابط شرع الله فى القتال من عدم النهب والسلب وقتْل الذرية والمرأة والشيخ الكبير والراهب فى صومعته وعدم التخريب وقطْع الأشجار .

وللعلماء كلام فى الفتح المقصود فى هذه الآية ، فالبعض قال إنه فتح مكة. وآخرون قالوا : إنه فتح فارس والروم ، وكله محتمل[٢] .

وقد ذكر الحق سبحانه الفتح عدة مرات فى كتابه ، منها قوله تعالى : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١)﴾ [الفتح] وهو بمعنى النصر والغلبة والتمكين .

---

(١) عن عبد الله بن مسعود : كنت مع رسول الله ﷺ يوم حنين فولى عنه الناس وثبت معه ثمانون رجلاً من المهاجرين والأنصار ، فنكصنا على أعقابنا نحواً من ثمانين قدماً ولم نولهم الدبر ، وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة . قال : ورسول الله ﷺ على بغلته يمضى قدماً ، فحادت به بغلته فمال عن السرج فقلت له : ارتفع رفعك الله ، فقال : ناولنى كفاً من تراب فضرب به وجوههم فامتلأت أعينهم تراباً . قال : أين المهاجرون والأنصار ؟ قلت : هم أولاء . قال : اهتف بهم ، فهتفت بهم فجاءوا سيوفهم بأيمانهم كأنها الشهب وولى المشركون أدبارهم . أخرجه أحمد فى مسنده (٤٣٣٦) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٠٣٥١) .

(٢) قال الشوكانى فى فتح القدير (٦ / ٤٨٩) : اختلف فى تعيين هذا الفتح . فقال الأكثر : هو صلح الحديبية والصلح قد يسمى فتحاً . وقال قوم : إنه فتح مكة . وقال آخرون : إنه فتح خيبر . والأول أرجح . وقيل : هو جميع ما فتح الله لرسوله من الفتوح . وقيل : فتح الروم . وقال ابن الجوزى فى زاد المسير (٥ / ٣٨٢) : فى المراد بالفتح أربعة أقوال أحدها أنه كان يوم الحديبية . قاله الأكثرون .

وكلمة الفتح إنْ جاءت مُعرَّفة بأل فخيرها مضمون، فاعلم أنها نعمة محروسة لكَ سينالك نفعُها، فإنْ جاءت نكرة فلابدَّ لها من متعلق يُوضّح الغاية منها: أهذا الفتح لك أم عليك ؟

فقوله تعالى فى خطاب النبى ﷺ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١)﴾ [الفتح] دلَّ على أن هذا الفتح لصالحه ﷺ، فهو غُنْم لا غُرْم، لذلك اعتبر صلح الحديبية فتحاً لأنه كان فى صالح الإسلام لا ضدّه.

وقد نزلتْ سورة الفتح فى مُنصرف رسول الله من الحديبية بعد توقيع بنود الصلح بينه وبين قريش، ويجوز أنْ يكون هو فتح مكة، والحديبية مقدّمة الفتح.

ولذلك عرَّف الله سبحانه الفتحَ فى سورة النصر، فقال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ (١)﴾ [النصر] أى الفتح الموعود به وهو فتح مكة، لأن رسول الله رآه ورأى الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً نتيجة لهذا الفتح.

وليس هذا تخصيصاً لآية سورة الصف ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ.. (١٣)﴾ [آل عمران]، فالفتح هنا عام فى كلّ زمان يأتى للمؤمنين بالله ورسوله، وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم وتوفرتْ فيهم شروط النصر والتمكين.

ولذلك لم يكُن الخطاب فى هذه الآيات مُوجَّهاً لرسول الله كما هو فى سورة الفتح أو سورة النصر، بل هو مُوجَّه لعموم المؤمنين، اسمع قوله تعالى فى سورة الصف ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠)﴾ [الصف]

لذلك فقوْل مَنْ قال إن الفتح هنا مقصود به فتح فارس والروم قوْل صحيح أيضاً ، وهو فتح لم يره رسول الله ، ويجوز في كل فتح كفتح مصر وفتح القسطنطينية .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣)﴾ [الصف] فليعلموا أنني لن أدعهم وأتركهم ما داموا التزموا منهجي فبشِّرهم بنصر الله لهم ، ويفتح قريب ذلك في الدنيا ، أما في الآخرة فبشِّرهم بجنات عدن ولهم فيها حياة طيبة في مساكن طيبة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ[1] مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾

تكرَّر النداء بـ ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا.. (١٤)﴾ [الصف] في هذه السورة ثلاث مرات ، فقال تعالى : ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢)﴾ [الصف] . وقال : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) ﴾ [الصف]

(١) الحواريون : جمع حوارى وهو الخالص النقى من كل شيء . وشاع استعماله في الخلصاء والأصفياء للأنبياء . [القاموس القويم ١ / ١٧٧] وأصل التحوير التبييض ، والحواريون : القصَّارون الذين يُبيضون الثياب وقد كان الحواريون قصارين . ثم غلب حتى صار كل ناصر وكل حميم حوارياً . [لسان العرب – مادة : حور] .

ثـم يقـول هنـا الحـق سبحانـه : ﴿ يَـٰأَيُّهَـا الَّذِيـنَ آمَنُـوا كُونُوا أَنْصَـارَ اللهِ ..(١٤)﴾ [الصف]

فى النداء الأول يُواجه الحق سبحانه بعض مَنْ آمنوا بعيوبهم التى قد يتصف بها البعض ، يقولون ويتكلمون ولكن فعلهم لا يوافق قولهم ، فلا تجدهم عندما يحتاجهم الفعل والعمل .

يتشدقون بالكلام ولكن لا تجدهم مُصطفِّين فى الصف ، لا فى صفّ الدعوة، ولا فـى صـفّ الجهاد ، ولا فى صفّ العمل الصالح ، ولا فى صف العبادة ، ولا حتى فى صفّ كفِّ شرهم وأذاهم عن الناس .

لذلـك قـال تعـالى : ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣)﴾ [الصف]

أمـا فى النداء الثانـى ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَـى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) ﴾ [الصف]

فإنــه يُوجِّه نظر المؤمنين إلى سلوك آخر غـير القعود للكلام واللغو والقول لمجـرد القـول ، يريد منهـم أنْ يتطابق فعلُهم مع قولهـم ، فيدلّهم على المجال المطلوب أنْ يعملوا فيه إنْ كانوا صادقين .

يدلهـم على التجارة مـع الله ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُـولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِى سَـبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ .. (١١)﴾ [الصف]

إلى أنْ يأتـى النداء الثالث ليضعهم على طريق وصَفٍّ يرتقى بهم إلى مكانة لا أعلى منها ، وهى أنْ يكونوا (أنصار الله) .

وقـد يسـأل سائل : وهل يحتـاج الله إلى مَنْ ينصره ؟ الحـق سبحانـه حينما تكلَّـم عـن النصر فى الإيمان قـال : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُـرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ (٧)﴾
[محمد]

إذن : فـالنصر منـا لله بـأنْ نُطبق دينـه وهذا مراد الله ، ولذلك يـأتى النصر مرة مـن المؤمـن لربه ، ومرة من الربِّ لمربوبه ، وأنـت تضمن نصر الله لك إنْ كنتَ قد دخلت على أنْ تنصره .

ولكن كيف نعرف أننـا ننصر الله ؟ نعرف ذلك عندمـا تـأتى النتيجة بنصرنـا، لأنـه سبحـانه لا يعطى قضية فى الكـون وبعد ذلك يـأتى بـالواقع ليُكذِّبهـا ، فلا بد أنْ يقولوا : إن الواقـع كذب هـذه القضيـة .

فنصـر الله مترتب على أنْ تدخل المعركـة وأنت تريد أنْ تنصر الله وتنصره بمـاذا ؟ بـأنْ تحقق كلمته وتجعلهـا هـى العليا ، وليسـ هذا فقط بل تجعل كلمة الذين كفروا السفلى .

لذلـك فـإن لم تنصر الله فلا تلومنّ إلا نفسـك إذا لم يـأتك نصر الله ، فلن تجد أحـداً ينصـرك ، قـال تعـالى : ﴿وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَـن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُـم مِّنۢ بَعۡدِهِۦ .. (١٦٠)﴾
[آل عمران]

فـإنْ رأيتَ المؤمنين قد دخلوا معركة وانهزموا فلتبحثْ مصـادر تخلّيهم عن منهج الحق ، ومـا دمتَ قـائمـاً على منهج الله فتـأكد أنَّ الله نـاصرك ، فهذه قضية قرآنية مُسلَّم بهـا ومفروغٌ منهـا .

يقـول تعـالى : ﴿وَلَيَنصُـرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُـرُهُۥٓ .. (٤٠)﴾ [الحـج] ويقول : ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ .. (٧)﴾
[محمد]

والحـق سبحـانه يريد أنْ نعـرف أنه قد وضـع فى يدنـا مفتـاح الجنـة ، ففى يد كلِّ واحد منـا مفتـاحَ الطريق الذى يقوده إلى الجنـة أو إلى النـار .

لذلك يقول تعـالى : ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِى أُوفِ بِعَهْدِكُمْ .. (٤٠)﴾ [البقرة] ويقول فى آية أخرى : ﴿فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ.. (١٥٢)﴾ [البقرة]

فـإذا وفيتَ بـالعهد أوفى الله ، وإذا ذكـرتَ الله ذكرك ، ومثلها إذا نصرتَ الله نصرك .

والحديث القدسى يقول : ((وإنْ تقرَّب إليَّ شبراً تقربتُ إليه ذراعاً ، وإنْ تقرَّب إليَّ ذراعاً تقرَّب إليه بـاعـاً ، وإنْ أتـانى يمشى أتيتُه هرْولةً))[1] .

هكـذا يريد الحق سبحـانه وتعـالى أنْ يُنبِّهنـا أن المفتـاح فى يدنـا نحن ، فإذا بدأنـا بـالطـاعـة فإنَّ عطاء الله بلا حدود ، وإذا تقرَّبنـا إلى الله تقرَّب إلينا ، وإذا بُعدنـا عنه نـادانـا ، هذا هو إيمـان الفطرة .

ويقـول تعـالى : ﴿كُونُوا أَنصَارَ اللهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِى إِلَى اللهِ .. (١٤)﴾ [الصف]

جاء عيسى بن مريم ليعلن قضية جامعة مـانعة ، فقـال ﴿ إِنَّ اللهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَـٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٥١)﴾ [آل عمـران] إنَّ فى ذلك تحذيـراً من أنْ يقـول أتبـاعُ عيسـى أىَّ شيء آخر عن عيسى غير أنه عبدٌ لله خـاضعٌ لله ، مـأمورٌ بـالطـاعة والعبـادة لله .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٤٠٥) وكذا مسلم فى صحيحه (٧٠٠٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وأوله : ((يقول الله عزَّ وجل : أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه حين يذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه ...)) الحديث بتمامه .

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ .. (٥٢)﴾ [آل عمران]

أى أنَّ كلّ صاحب فكرة ، وكلّ صاحب مهمة ، وكلّ صاحب هدف لابد أنْ يكون يقظَ الأحاسيس .

إن الداعيةَ مأمورٌ من الله أن يكون يقظاً لأنه إنِ اهتدى بكلماته أُناسٌ وسعدوا بها فإنه يُغضب أناساً آخرين ، فالداعية عليه أنْ يكون يقظَ الحسِّ ، ويقظةُ الحِسِّ معناها الالتفات إلى الأحاسيس الخفية الموجودة عند كلِّ إنسان.

وعندما أعلن عيسى بن مريم منهج الحق وجد أنصار الظلم وأنصار البغى، وأنصار الظلمات غير مُعجبين بالمنهج الواضح للإيمان بالله ، لذلك أحسّ منهم الكفر ، لقد كان مليئاً باليقظة والانتباه .

إنه يعلم أنه قد جاء برسالة من الله ليُخرج أناساً من مفسدة إلى مصلحة، وعندما أحسّ منهم الكفر أراد أنْ ينتدب جماعة ليُعينوه على أمر الدعوة ، فقال : ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ .. (٥٢)﴾ [آل عمران]

والدعوة تحتاج إلى معركة ، والمعركة تحتاج إلى تضحية والتضحية تكون بالنفس والنفيس ، لذلك لا بدّ أنْ يستثير ويُحرِّك مَنْ يجد فى نفسه العوْنَ على هذه المسألة .

ونلحظ هنا أنَّ الخطاب فى سورة آل عمران لم يكُن لأفراد محددين إنما طرح الدعوة ليأتى الأنصار الذين يستشرفون فى أنفسهم القدرة على حَمْل لواء الدعوة ، ولتكون التضحية بإقبال نفسٍ لا استجابة لداعٍ .

إنه لا يسأل عن أُناس يدخلون فى لواء الدعوة من أجل الغنيمة ، أو يدخلون من أجل الجاه أو غير ذلك ، إنه يسأل عن أهل العزم ليكون كلٌّ منهم متجهاً

بطاقته إلى نُصْرة الله وحده .

فالخطاب فى آية آل عمران عام ، أما فى سورة الصف فهو مُوجّه للحواريين خاصة من دون الناس فى زمن عيسى بن مريم ، لذلك قال : ﴿ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ .. (١٤)﴾ [الصف]

وقد قال البعض أن آية سورة الصف توضح المخاطب فى سورة آل عمران ، أى أن الحواريين هم المخاطبون ، ولكن هل أحسَّ عيسى من الحواريين الكفر ؟ وهم حواريُّوه وخلصاؤه .

والحواريون مأخوذة من الحَوَر وهو شدة البياض ، وهم جماعة أشرقتْ فى وجوههم سِيماء الإيمان فكأنها مُشرقةٌ بالنور ، ونورُ الوجه لا يُقصد به البشرة البيضاء ، ولكن نور الوجه فى المؤمن يكون بإشراقة الإيمان فى النفس .

وكلمة الحوارى مأخوذة من المحسَّات ، فالحوارى تُطلق على الدقيق النقى الخالص ، وأُطلقت على كلِّ شيء نقيٍّ بصفاء خالص . والحوارى هنا تعنى المخلِص والمحبّ لمنهج الخير .

فالصواب أن سؤال عيسى بن مريم ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ .. (٥٢)﴾ [آل عمران] فى سورة آل عمران عام ، فانتدب الحواريون أنفسهم لنصرة عيسى ابن مريم وتأييده ومؤازرته فقالوا ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ .. (٥٢)﴾ [آل عمران]

أما سؤال عيسى بن مريم ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ .. (١٤)﴾ [الصف] فى سورة الصف فقد كان مُوجهاً للحواريين ، قال تعالى : ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ .. (١٤)﴾ [الصف]

وكأنه أراد عليه السلام أنْ يستوثق منهم ، لا أنْ يتهمهم ، أو أنه كان حاضراً

بينهم أحدُ مُدّعى الصفاء والنقاء وكأنه حواريٌّ منهم .

﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ .. (١٤)﴾ [الصف] فكلُّ إنسان منهم يريد نصرة الله فينضم إلى الله ناصراً للمنهج ، وأهم مُقوِّمات نصرة الله هو الإيمان، وهو اطمئنانُ القلب إلى قضية ما .

وقد كان إيمان الحواريين بالله وبرسوله عيسى بن مريم مطلوبَ الله منهم، قال تعالى : ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (١١١)﴾ [المائدة]

والوحى هنا هو بمعناه العام أي الإعلام بخفاء ، أي أن الحق ألهمهم أنْ يؤمنوا برسالة عيسى المبلِّغ عن الله ، أى : أعلمهم بخواطر القلب التى أعلم بها أم موسى أنْ تُلقى ابنها فى اليم ليُلقيه اليمُّ إلى الساحل .

وهو غير الوحى للرسول ، فالوحى للرسول هو الوحى الشرعى بواسطة رسول مبلّغ عن الله هو سيدنا جبريل عليه السلام ، أما وحى الله إلى أم موسى أو إلى الحواريين فهو استقرار خاطر إيمانى يلتفت بعده الموحَى إليه ليجد الواقع يؤيد ذلك .

هذا الوحى إليهم والإلهام والخواطر جعلتْهم يُؤمنون بالله وبرسوله عيسى عليه السلام ، فعند طلب النُّصرة منهم وأنْ يكونوا أنصارَ الله نطقوا وفْق ما استقرَّ فى قلوبهم ، فقالوا : ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ .. (١٤)﴾ [الصف]

حينما طلبَ منهم الإيمان آمنوا ، فقالوا : ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ(٥٣)﴾ [آل عمران]

والإيمان المقصود به هنا ما جاء به عيسى من عند الله ، فإعلان الحواريين

هـو إعلانٌ بالإيمان بمـا جاء سابقاً على عيسى بن مريم من عقائد ، وبما جاء به عيسى بن مريم من أحكام وتشريعات .

فافـترق الناسُ طائفتيـن وأصبحـوا معسكرين ، معسكـر إيمـان ومعسكر كفـر ، لذلـك قـال تعـالى : ﴿ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ .. (١٤)﴾ [الصف]

وكلمـة (طائفـة) هى فى عُرْف اللفـظ مفرد ، وعندما تجمعهـا تقول : طوائف . لكن هى لفظ مفرد يدل على جَمْع ، فمرة يلحظ المفرد ، ومرة يلحظ ما يؤديه المفرد من الجمع .

فالطائفـة هم جماعة من البشر تجتمع لهـدف ويطوفون حول شيء واحد ، فالبعضـ مـن بنى إسرائيل آمنوا بما جاء به عيسى بـن مريم ، وآخرون كفروا بما جاء به .

ولكن لماذا يقول تعـالى ﴿مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ .. (١٤)﴾ [الصف] ؟

نقـول : لأن المسيـح عيسى بن مريم إنمـا هو مُرسَلٌ إلى بنى إسرائيل خاصة ، فرسالته ليستْ عامة .

لقـد جـاء عيسى عليـه السلام رسـولاً إلى بنـى إسرائيل لعله يستـلّ من قلوبهم المادية ، فمهمة عيسى جاءت لتكمل التوراة ويكمل ما أنقصه اليهود من التوراة .

وقد قـال تعالى هنـا فى سورة الصف ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ .. (٦)﴾ [الصف] فقد جاء مبعوثاً إلى بنى إسرائيل لصالح بنى إسرائيل .

ومشكلة بنى إسرائيل أنهم كانوا يتمردون على منـاهج الرسل لأنها لا تـأتى

بما تهواه أنفسهم ، وأول تمردهم التكذيب إلى أنْ يصل بهم هذا إلى التآمر على الأنبياء لإسكات دعوتهم ولو بقتلهم .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ[1] بَنِى إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَـٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (١١٠)﴾ [المائدة]

فإذا كان الحواريون قد آمنوا فإنَّ آخرين قد كفروا وأرادوا به السوء ، فكفَّ الله بني إسرائيل عنه عندما أرادوا إيذاءه وقتله ، وعندما رأوا كلَّ ذلك آمن بعضهم وكفر البعض ، واتهموا عيسى عليه السلام بأنه ساحر .

لقد كفرتْ هذه الطائفة من بني إسرائيل بعيسى عليه السلام ، وقالوا البهتان العظيم على مريم .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤)﴾ [الصف] فكان الله في جانب الذين آمنوا ونصروا رسوله ودعوته ، كان إلى جانبهم بالتأييد والنصرة ، فقال تعالى : ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ .. (١٤)﴾ [الصف] وعدوهم هم مَنْ لم يؤمنوا بعيسى بن مريم رسولاً من عند الله .

وقد غلبتْ الطائفة التي كفرتْ زماناً بعد رفْع عيسى عليه السلام ، حتى جاءت رسالة محمد فكانت تأييداً من الله لمَنْ آمن الإيمان الحق ، وذلك إلى يوم القيامة . وقد وصف الحقُّ سبحانه بعضاً من أهل الكتاب فقال : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ[2]

---

(١) كففت : منعت وصرفت بني إسرائيل يعني اليهود عنك حين همُّوا بقتلك . ومن جمال اللغة العربية هنا أن الكاف والفاء تدل على كف اليد وهو أصل صحيح يدل على قبض وانقباض ، من ذلك كف الإنسان لأنها تقبض الشيء وتحجزه وتمنعه .

(٢) قسيسين : جمع قَس والقسيس رئيس النصارى في الدين والعلم . وجمع القس قسوس . [العباب الزاخر للصاغاني] وهي من أصل آرامي هو Gachicho ومعناه كاهن وشيخ . وذكر بعض علماء اللغة أن القس والقسيس العالم العابد من رؤوس النصارى . أما الراهب وجمعه الرهبان فهو المنقطع للعبادة في الصوامع والبِيَع والقلايات ، هذا الأصل فيهم .

وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) ﴾ [المائدة]

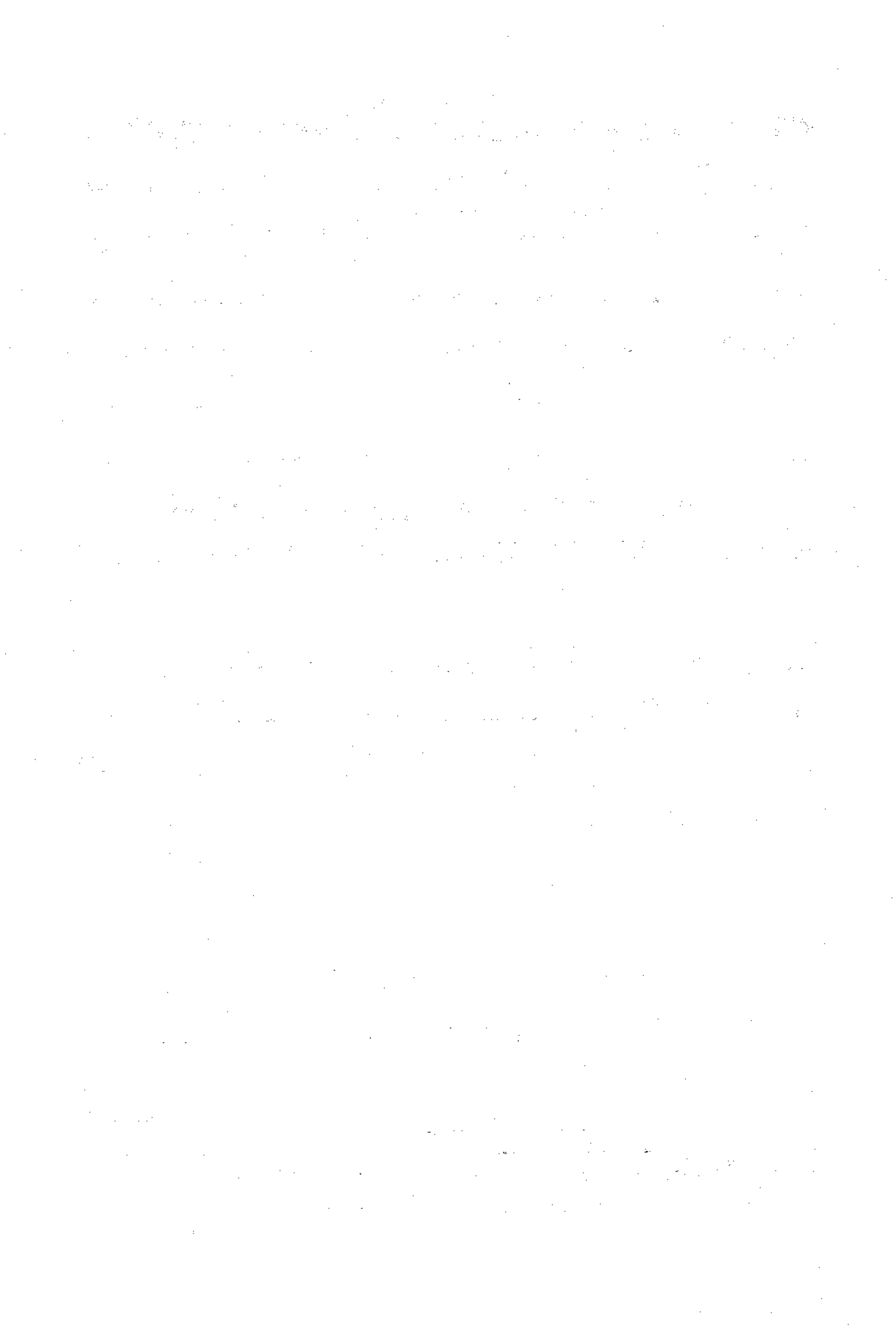
فالباطل مهما كانت له الغلبة الظاهرة فى جَلَبة وعُلوّ صوت إلاَّ أن الحقَّ يغلب القلوب الصافية فتؤثر فى وجداناتهم فتفيض أعينهم من الدمع ممَّا عرفوا من الحق .

﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤)﴾ [الصف] أى : عالين غالبين . فتأتى ظهر بمعنى « الغلبة » وبمعنى العلو فى قوله تعالى : ﴿فَمَا اسْطَاعُوا ..(٩٧)﴾ [الكهف] ومنه قوله تعالى : ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ (٤١)﴾ [الروم] أى : غلب الفسادُ الصلاحَ وعلا عليه .

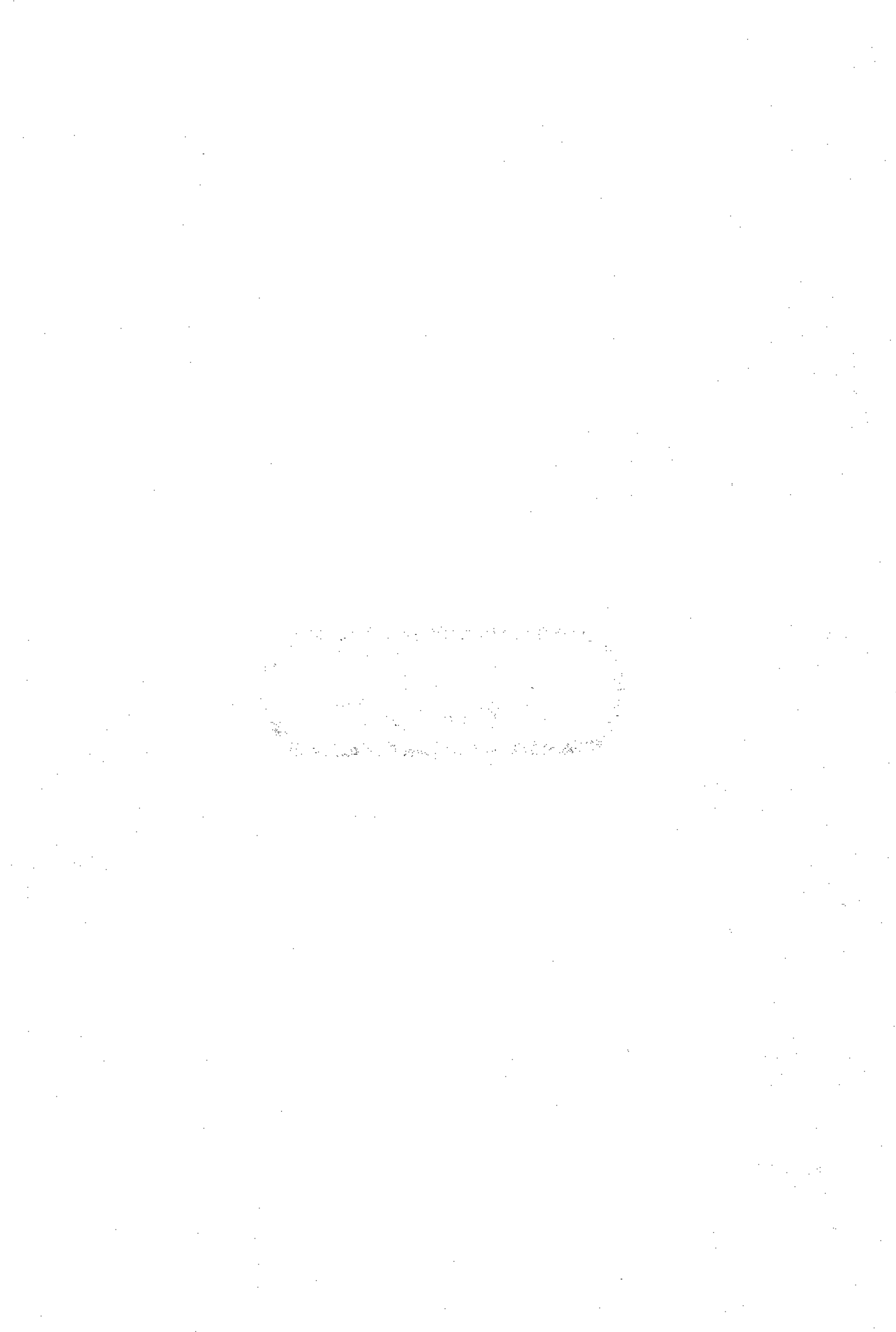
فالحق يعلو ولا يُعلَى عليه ، وهذا واضح فى قول النبى ﷺ : « لا تزال طائفةٌ من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم مَنْ خذلهم حتى يأتى أمرُ الله وهم كذلك »[1] .

---

(٢) عن معاوية بن أبى سفيان قال : سمعت رسول الله ﷺ قال : ((لا تزال طائفة من أمتى قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم ظاهرون على الناس)) . أخرجه أحمد فى مسنده (١٦٩٧٤) .




سُورَةُ الجُمُعَةِ



بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الجمعة(١)

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) ﴾

المتتبع لألفاظ التسبيح فى القرآن الكريم يجد أنَّ التسبيح ثابتٌ لله تعالى قبل أنْ يخلق المسبِّحين فى قوله ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ.. (١) ﴾ [الإسراء] ثم بعد أنْ خلق اللهُ الخَلْق ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ.. (١) ﴾ [الحشر]

وما زال الخَلْق يُسبِّح فى الحاضر ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ.. (١) ﴾ [الجمعة] فتسبيحُ الله كان وما يزال إلى قيام الساعة ، لذلك يأمر الحق سبحانه نبيه ﷺ ومعه أمته ألاَّ يخرج عن هذه المنظومة المسبِّحة ، فيقول له ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) ﴾ [الأعلى]

---

(١) سورة الجمعة هى السورة رقم (٦٢) فى ترتيب المصحف الشريف ، وهى ١١ آية ، وهى سورة مدنية فى قول الجميع . وقد قال السيوطى فى الدر المنثور (١٥١/٨) : أخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : نزلت سورة الجمعة بالمدينة . نزلت بعد سورة التحريم وقبل سورة التغابن . وآية الجمعة فيها مما تأخر نزوله عن حكمه ، بمعنى أن آية الجمعة نزلت بالمدينة رغم أن الجمعة فرضت بمكة . ويؤيد هذا ما أخرجه ابن ماجة عن عبد الرحمن بن كعب ابن مالك أن أسعد بن زرارة كان أول من صلى بهم الجمعة قبل مقدم رسول الله من مكة . [الإتقان فى علوم القرآن ١٠٨/١].

وجاء الأمر بذكر الله وبعد الأمر بتسبيحه تعالى وكأنه يقول لك كلما ذكرته: نزّهــه ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً ، فمن مصلحتك في رحلة الحياة ألاّ يكونَ لله مثيلٌ ولا شبيــهٌ ولا نظيرٌ ولا نِـدّ ، لأن الجميع سيكونون تحت عدله سبحانه ، فتنزيهُ الله لمصلحتك أنت أيها المسبِّح .

فالله مُنزَّه ومُقدَّس عن أنْ يُقاس بالكائن الموجود ، تعالى اسمه وتعالتْ ذاته ، وتعالتْ صفاته وأفعاله ، فسبحانه عما يصفونه بأوصاف لا تليق بذاته .

فــالله له التسبيــح والتقديس ثابت قبل أنْ يفعل ، وسبحان الله قبل أنْ يُوجد المسبّــح ، كمــا أنه تعالى خلق قبل أنْ يوجد مَنْ خلــق ، فهو بالخالقية فيه أولاً خلق .

وكما نقول في الريف (اللي ملوش كبير يشتري له كبير) فوجود كبير فوق الجميــع يحميـك أنْ يتكبَّر أحدٌ عليــه . إذن : عظمته تعالى وكبريــاؤه من أعظم النعم علينا .

فساعــة تُسبِّحــه وتُنزِّهـه احمد الله لأنه مُنزَّه ، احمــد الله أنه لا شريك له وأنَّ النــاسَ جميعاً عنده سواء ، احمد الله لأنَّ كلامه وأمره نافذ على الجميع ، احمد الله أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، وليس بينه وبين أحد من خَلْقه نسب .

وقــد جعل الحقُّ سبحانه ذكرك لــه وتسبيحك إيَّاه لصالحك أنت ، ومن النعم التــى لا تُحصــى أن السمــاوات والأرض وما فيها مُسبِّح لله مُنــزّه له مُقدّس له سبحانه ، وتسبيحها هذا يقتضى أنها خاضعةٌ له منقادةٌ لأوامره غير مُتمرِّدة على أوامر الله سبحانه .

فليطمئــن الإنســانُ أنْ الكونَ كلَّه مُسبِّح لله خاضعٌ له ، لأنه إنْ لم يكُن كذلك مــا استطــاع أنْ يعيش الإنسانُ على الأرض ، فــالله عز وجل بموجب أنه مُسبَّحٌ

من كلّ الخلائق حكم عليها بأن تكون مُسخرةً للإنسان .

وقد قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ .. (٢٠) ﴾ [لقمان]

وقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣) لَهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٦٥) ﴾ [الحج]

والحق سبحانه مُنزَّه عن كلّ نقص ومُسبّح لأنه سبحانه متصف بكلّ صفات الجمال ، فهو ﴿ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) ﴾ [الجمعة]

وقد كان رسول الله ﷺ يقرأ فى الوتر بسبح اسم ربك الأعلى ، وقل يأيها الكافرون ، وقل هو الله أحد .. فإذا سلَّم قال : سبحان الملك القدوس ، سبحان الملك القدوس ، سبحان الملك القدوس . ورفع بها صوته[1] .

فهو سبحانه (الملك) وإذا كان كلُّ إنسان مالكاً لما فى حوزته ، مالكاً لثوبه، أو مالكاً اللقمة التى يأكلها ، أو مالكاً البيت الذى ينام فيه ، أما الملِك فهو الذى يملك ويملك مَنْ ملك .

فلكلِّ إنسان مِلْكية ما ، ولكن هناك فرْقٌ بين أن يملك إنسانٌ ما لا يقدر على الاحتفاظ به ، وقد ملّك الحق سبحانه بعضنا أمرَ بعض ، فهناك مالكُ الطعام ومالكُ الثوب ، ولكن ليس كلُّ مالك ملكاً ، لأن الملك هو الذى يملك المالك ، وهذه سُنن الكون .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (١٥٣٩٠) والنسائى فى سننه (١٦٩٨) من حديث عبد الرحمن بن أبزى . وأخرجه البيهقى فى سننه (٥٠٥٧) والدار قطنى (١٦٧٩) من حديث ابن أبزى عن أبى بن كعب.

وفــى الآخرة هناك مالكٌ واحد هو مالك يوم الدين ، يقول تعالى : ﴿ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (٧٣) ﴾ [الأنعام] . وهل كان الملْك يوماً لغير الله ؟

فربّنا سبحانه وتعالى فى دنيا الأسباب جعل لكلٍّ واحد منّا مُلكاً ، وجعل لبعض علينا مُلكاً فبقوا ملوكاً ، لكن فى الآخرة لا يوجد شيءٌ من هذا ، لذلك يقول سبحانه : ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر]

ففى الدنيا قد تملك مثلاً أنْ توظفنى عندك وتُعطينى أجراً ، وقد تملك أنْ تطبخ لى طعامى أو تُعطينى طعاماً ، أو تملك أنْ تخيط جلبابى ، لكن فى الآخرة لا يملك أحدٌ لأحد سبباً ، لأننا نحيا فى الدنيا بالأسباب التى منحنا الله إياها، وفى الآخرة بالمسبب وحده دون أسباب .

لذلك نقول لكلّ ملك : إن هذا الملك ليس بذاتك ، لأنه لو كان بذاتك لما سلبك أحدٌ هذا الملْك أبداً ، وسبحانه القائل : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ.. (٢٦) ﴾ [آل عمران]

إذن : فليس هناك مَنْ له الملك بذاته إلا الله ، والله له ملْك السماوات والأرض فلا يضيرك أحد أو شيء ولا يفوتك مع الله فائت .

أما اسم الحق سبحانه (القدوس) فهو المطهّر ، فالتقديس هو تطهير الله سبحانه وتعالى عن كلّ الأغيار ، ولأنك يا ربى قدوسٌ طاهر فلا يليق أنْ يُرفع إليك إلا طاهر ، ولا يليق أنْ يصدر عمَّنْ خلقته بيديك إلا طاهر .

ويقال : قدّس الله . أى نزّه . فالله ذات وليست كذات الإنسان وله سبحانه صفاتٌ مُنزَّهة أنْ تكون كصفاتك ، وهو سبحانه له أفعال ، ولكن أفعاله مقدَّسة ومطهَّرة مُنزَّهة أنْ تكون كأفعالك .

فحياتـه سبحانـه مُنزهـة وذاته ليست كذاتـك ، وصفاته ليسـت كصفاتك ، فأنـت قـادر قدرة محدودة ، ولـه سبحانه طلاقةُ القدرة ، وهـو سبحانه سميع والعبد سميع ، لكن سمع البشر محدود وسمعه سبحانه لا حدودَ له .

إذن فصفاته مُقدَّسة . أى : أن صفاته مُطهرة وهو سبحانه قدوس مُنزَّه عن كلِّ نقص .

وقـد قالـت الملائكة ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ.. (٣٠) ﴾ [البقرة] والتسبيح هو التنزيه عما لا يليق بذات المنزّه ، والتقديس هو التطهير ، مأخوذ من القـدس وهو الدلو الذى كانوا يتطهرون به ، ولذلك نقول : سبّوح قدوس . سبوح أى مُنزَّه عن كلّ ما لا يليق بجلاله . وقدُّوس أى مطهّر .

والتسبيح تقديس لله وتنزيهه ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً ، ذاتاً فلا ذاتَ مثل ذاته تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ.. (١١) ﴾ [الشورى] لا فى الذات ولا فى الصفات ولا فـى الأفعـال ، فلا تَقُلْ : إنَّ سمع الله كسمعـك ، أو أنَّ بصره تعالى كبصرك ، أو أنَّ فعله كفعلك .

والمعنـى : نُسبِّحـك ونُقدِّسك تقديساً يليـق بألوهيتك الثابتة لـك ، فلا نزيد شيئاً مـن عندنا ، والتسبيح يُورث المسبِّح لذة فـى نفسه ، والطاعة من الطائع تُورثه لذةً فى نفسه ، كما قال النبى ﷺ : « وجُعلَتْ قُرَّة عينى فى الصلاة »[1] ، وكان ﷺ إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة[2] .

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل فى مسنده (١٢٣١٥ ، ١٣٠٧٩ ، ١٤٠٦٩) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه وتمامه : « حُبِّب إلىَّ من الدنيا : النساء ، والطيب ، وجعلت قرة عينى فى الصلاة » . وكذا أبو يعلى الموصلى فى مسنده (٣٤٨٢ ، ٣٥٣٠) .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٣٣٤٧) عن حذيفة رضى الله عنه «كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى». وحزبـه أى هجم عليه أو غلبه . وكذا أخرجه أبـو داود فى سننه (١٣١٩) والبيهقى فى سننه (٣١٨١ ، ٣١٨٢) وأبو نعيم فى معرفة الصحابة (٤٢١٦ ، ٤٢١٧) .

أمــا اسم الحق سبحـانـه (العزيز) فى قوله سبحـانـه : ﴿ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) ﴾ [الجمعة] فالعزيـز الـذى لا يُغلـب لجبروته ولا يسألـه أحد ، فلا يستطيـع أحـدٌ أنْ يدخل مع الله فى جدال ، إنمـا يدخل خَلْق الله مع خَلْق الله فى خلاف أو نضال .

لكن لا أحدَ يجرؤ على أنْ يدخل فى نضال مع الله لأنه عزيز لا يُغلب ، واعلم أنه لا يوجد مَنْ يغلبه على أمره ، فهو سبحانه الغالب على أمره ، ومع أنه غالبٌ على أمره فهو حكيم فى تصرّفه .

ويُعطينـا الحـق سبحانه لفتة لمعنى عزة الله مع حكمته سبحانه ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (٥٦) ﴾ [النساء]

والعزيـز هـو الذى لا يُغلب ولا تقدر أنْ تحتـاط من أنه يهزمك أبداً ، فقد يقول كافر : لقد تلذذنا بالمعصية مرة لمدة خمس دقائق ، ومرة لمدة ساعتين فيما يضيرنى أنْ يحترق جلدى وتنتهى المسألة .

نقول له : لا إن الذى يُعذِّبك لا يُغلب ، فسوف يُديم عليك العذاب بأنْ يُبدِّل لك الجلد بجلد آخر ، وسبحانه حكيم فالمسألة ليستْ مسألة جبروت يستعمله ، لا هو يستعمل جبروته بعدالة .

والحق سبحانه عزيز ذو انتقام ، وهو سبحانه يعفو عما سلف ، أما مَنْ عاد ليرتكب نواهى الله فى هذا المجال فيعاقبه الحق فلا يقبل منه هدى ولا إطعامَ مساكين ولا صوماً لأن فى تكرار المخالفة إصراراً عليها ، لذلك ينتقم منه الله، وهو العزيز الذى لا يُغلب .

وحدَّثنا الحق سبحانه عن تقدير الكواكب والأجرام ، فقال تعالى : ﴿ الشَّمْسُ

وَالْقَمَـرُ بِحُسْـبَانٍ[1] (٥) ﴾ [الرحمن] ، ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيـرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) ﴾ [يس] وكلمة العزيز تفيد الغلبة والقهر فلا يستطيع أحد أنْ يعلو عليه .

فهـذه الأجرام التى تراهـا أقوى منك ولا تتنـاولـهـا يدك ، إنـهـا تؤدى لك مـهمـة بـدون أنْ تقـرب منهـا ، فـأنت لا تقترب من الشمسـ لتضبطهـا ، مثلمـا تفعل فى السـاعة التى اخترعهـا إنسـانٌ مثلك .

والشمسـ لهـا قوة قـد أمدَّهـا الله خـالقهـا بهـا ولا شيءَ فـى صنعته ولا فى خَلْقه يتـأبّى عليه ، فهذا هو تقدير العزيز العليم ، وهو سبحـانه يعطينا حيثيات الثقة فى كونـهـا حسبـانـاً لنحسب عليـهـا ، فـهو جلّ جلالـه خـالقهـا بتقدير عزيز لا يُغلب ، وهـو عزيز يعلم علمـاً مطلقـاً لا نـهـايـة لـه ولا حـدود .

واعلم ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) ﴾ [هود] فـالحق سبحـانـه مقتدر يـأخذ كلّ كـافـر ولا يغلبـه أحد ولا يُعجزه شيء . والعزيز علـى إطلاقه هو الله ، ولكنَّا نقول عن إنسان مـا (عزيز قومـه) ونقول الغنـى على إطلاقـه هو الله ، ولكن نقول (فلان غنى) و (فلان فقير) .

وأسمــاء الله إمـا أنْ تكون أسمــاءَ ذات ، وإمـا أنْ تكون أسمـاءَ صـفـات وأفعـال ، فـإنْ كـان الاسـم لا مقـابلَ لـه فهو اسمُ ذات مثل العزيز ، أمــا إنْ كـان اسمَ صفة وفعلٍ مثل (المعز) فلابد أن لـه مقـابلاً وهو هنـا المذلّ .

ولو كان يقدر أنْ يُعز فقط ولا يقدر أنْ يُذل لما صـار إلـهاً ، ولو كـان يضر فقط ولا ينفع أحداً لما استطاع أنْ يكون إلـهاً ، ولو كـان يقدر أنْ يبسط فقط ولا يقدر

---

(١) بحسبـان : أى أن سيرهمـا بحساب دقيق ونظام ثابت [القـاموس القويم – ١/١٥٢] . قـال الأخفش : الحسبـان جماعة (جمع) الحساب مثل شهاب وشهبان . [الصحاح فى اللغة] وقال الزبيدى فى تاج العروس : « من غريب التفسير أن الحسبـان اسم جامد بمعنى الفلك من حساب الرحا وهو ما أحاط بها من أطرافها المستديرة . قاله الخفاجي ونقله شيخنا » .

أنْ يقبض لما استطاع أنْ يكون إلهاً .

وكلّ هذه صفات لها مقابل ويظهر فعلُها في الغير ، فسبحانه على سبيل المثال عزيز في ذاته ومُعزٌّ لغيره ومُذل لغيره .

وهو سبحانه عزيز رحيم ، والله تعالى عزيز يغلب ولا يُغلب ، ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ.. (١٤) ﴾ [الأنعام] وقوله تعالى ﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ.. (٨٨) ﴾ [المؤمنون]

وهو سبحانه مع عزته رحيم ، فهو تعالى رحيم حين يغلب ، لأنه ربّ الخلق أجمعين ، يرحمهم إنْ تابوا ويقبلهم إنْ رجعوا إلى ساحته .

جاء في الحديث الشريف : « لله أفرحُ بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة[1] فانفلتتْ منه وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها ، وقد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ، ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدي وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح »[2] .

فهو سبحانه مع عزته رحيم بعباده يفتح بابَ التوبة لمن تاب ، فلا يظننَّ أحدٌ أن في صفة (العزيز) جبروتاً ، فهو تعالى رحيم أيضاً .

ومن عظمة الأسلوب القرآني أنْ يجمع بين هاتين الصفتين عزيز ورحيم ، وكأنه يشير لنا إلى مبدأ إسلامي يُربي الإسلامُ عليه أتباعه ، ألاَ وهو الاعتدال

---

(١) فلاة : سميت فلاة لأنها فليت عن كل خير ، وقيل هي (الصحراء) التي لا ماء فيها . ومن أسمائها البيداء لأنها تبيد من يحلها . ومن أسمائها الملاة وهي الفلاة ذات حر وسراب . [المخصص لابن سيده] وفي المعجم الوسيط (الفلاة الأرض الواسعة المقفرة) .

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه (٧١٣٦) من حديث أنس بن مالك ، وقد أخرجه البخاري في صحيحه (٦٣٠٩) من حديث أنس بلفظ .. « الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضلَه في أرض فلاة » وليس فيه ما ذكره مسلم « فانفلتت منه » إلى « أخطأ من شدة الفرح » .

فـلا تطغـى عليك صفة أو خصلة أو طبعٌ أو خُلق ، والزم الوسط لأن كلَّ طبع فى الإنسان له مهمة .

وتأمـل قـوْل الله تعالى فى صفات المؤمنين : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ.. (٥٤) ﴾ [المائدة] فـالمسلم ليس مجبـولاً على الذلة ولا على العزة ، إنما الموقف هو الذى يجعله ذليلاً أو يجعله عزيزاً ، فـالمؤمن مَنْ يتصف بـالذلة والخضوع للمؤمنين ، ويتصف بـالعزة على الكافرين .

فعـزة العزيز علـى المتكبر رحمةٌ بـالمتكـبِّر عليه ، فعزَّته ورحمتـه لك أنت ، وليس هذا فحسب بل إنـه أيضاً عليم ، فقد يكون عزيزاً لا يُغلب لكن لا علم عنده ، فـالحق سبحـانه عزيز عليم يضـع العزة فى مكانهـا ، ويضـع الذلـة فى مكانهـا .

فعزتـه سبحـانـه وقـاهريتـه غـالبة عـالية ومـع ذلك فيُتبعها الحـق سبحـانه بصفـة الرحمـة ليُحدثَ فـى نفس المؤمن التـوازن بين صفتى القهـر والغلبة ، وبين صفة الرحمة .

وإنْ أردتم العزة الحقيقية فـاطلبوهـا ممن لا تتغير عزتـه ، وهو الحق سبحـانه وتعـالى : ﴿ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩) ﴾ [النساء] وفى هذا القول تصويب لطلب العـزة ، وليطلـب كلُّ إنسان العزة إيمانـاً بـالله ، فسبحـانه الـذى يهب العزة ولا تتغير عزتـه .

﴿ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩) ﴾ [النساء] وكلمة (جميعـاً) هذه دلَّتْ على أن العـزة لهـا أفراد شتى : عزة غنى وعزة سلطـان ، وعزة جـاه ، فـإنْ أراد واحد أنْ يعرفها ويعلمها فهى جميعاً فى الحق سبحـانه .

إذن : سـاعـة يقـول الحق ﴿ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩) ﴾ [النساء] فمعنـاهـا إنْ أردت أيهـا الإنسـان عِزاً ينتظم ويفوق كلَّ عزٍّ فـاذهب إلى الله ، لأنـه سبحـانـه أعزَّنـا فنحن خلْقه .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ .. (٨) ﴾ [المنافقون] فالعزة لله لا تتعداه ، ولكنه سبحانه شاء أنْ تكون عزة رسوله ﷺ وعزة المؤمنين من باطن عزة الله تعالى .

﴿ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩) ﴾ [النساء] أى : فى كل ألوانها هى لله سبحانه وتعالى ، إنْ كانت عزة حكمة فهو الحكيم ، وإنْ كانت عزة القبض على الأمور فهو العزيز ، وإنْ كانت عزةَ الحلم فهو الحليم ، وإنْ كانت عزة الغضب والانتقام فهو المنتقم الجبار .

أما اسم الحق سبحانه (الحكيم) فإطلاقُ صفة الحكيم على الخالق سبحانه وتعالى هو أنه جلَّ جلاله يحكم المخلوقات حتى لا تسير بغير هُدىً ودون دراية .

والحكمة فى الفقه أنْ يوضع هدفٌ لكلِّ حركة لتنسجم الحركاتُ بعضها مع بعض ، ويصير الكون محكوماً بالحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

والحكيم العليم الذى يضع لكلِّ كائن إطاره وحدوده ، والحكمة هى أنْ يؤدى كلُّ شيء ما هو مطلوب منه ببراعة ، والحكمة فى الفقه هى أنْ تستنبط الحكم السليم ، والحكمة فى الشعر أنْ تزنَ الكلمات على المفاعيل .

والحكمة فى الطب أنْ تعرف تشخيص المرض والدواء الذى يعالجه ، والحكمة فى الهندسة أنْ تصمم المستشفى طبقاً لاحتياجات المريض والطبيب وأجهزة العلاج ومخازن الأدوية وغير ذلك ، أو فى تصميم المنزل للسكن المريح ، وحكمة بناء منزل مثلاً تختلف عن حكمة بناء قصر أو مكان للعمل .

فإذا كان العزيز هو الذى لا يُغلب لجبروته ولا يسأله أحد ، فإنَّ الحكيم هو

الذى لا يصدر منه الشيء إلا بحكمة بالغة .

والحكمة مأخوذة من (الحَكَمة) التى تُوضع فى فم الفَرَس والتى نسميها اللجام ، وهى كما نعرف تتكوَّن من قطعة من الجلد تدخل على اللسان وفيها قطعة من الحديد ، فإنْ مالَ إلى غير الاتجاه الذى تريد يكون من السهل جَذْبه إلى الاتجاه الصحيح .

إنَّ وجود الحكمة يعنى وجودَ شيء يحكمه فلا ينحرف يميناً ولا يساراً ، وما دام الله قد شهد أنه لا إله إلا هو وشهدتْ الملائكة وشهد أولو العلم ، وانتهتْ القضية بعد هذه الشهادات إلى أنه لا إله إلا هو وأنه العزيز الحكيم ، فكلٌّ منهج منه يجب أنْ يسلم إليه وأنْ ينقاد له .

فما دام العبد قد آمن بالإله القادر الحكيم الخالق القيوم القدوس فليسمع من الإله ما يُصلح حياته ، فهو سبحانه حكيم يضع الشيء فى موضعه الدقيق بحكمة، فلا ينظر إلى ظاهر معطيات الشيء الآن ويغفل ما قد يأتى به من مضرَّة .

فالله هو الحكيم العزيز لا يأتمر بأمر أحد من خَلْقه ، ولا يعجل بعجلة العباد، وهو سبحانه الحكيم الذى لا يترك شيئاً للعبث ، فهو المقدِّر لكلٍّ أمر بحيث يكون موافقاً للصواب ، لذلك لا يمكن أنْ يصدر عن الواحد الحكيم أوامر متضاربة ، ولكنَّ التضارب إنما ينشأ من اختلاف الآخر ، أو من عدم حكمة الآمر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢ ﴾

لقد كان رسول الله ﷺ مبعوثاً إلى أمة أمية ، وجاء فى أمة أمية ليست لها ثقافة ، والقرآن إنما نزل ليخاطب أمة أمية وجاء على لسان رسول الله الأمى فى أمة لا تعرف المسائل العلمية الشديدة التعقيد والفلسفات والثقافات والحضارات .

فالله عز وجل لم يُنزل القرآن على أحد ممَّنْ تشبّع بفلسفات اليونان أو الإغريق أو الفراعنة إنما أنزله على نبيٍّ أمى لا يقرأ ولا يكتب فى أمة أمية ، وهذا له حكمة بالغة لأن معنى (أمى) أى أنه لم يأخذ علماً من البشر ، بل هو كما ولدتْه أمه ، إنما جاءتْ ثقافته وعلمه من السماء .

وقد قال قتادة بن دعامة السدوسي[1] فى قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢) ﴾ [الجمعة] قال : كان هذا الحيّ من العرب أمة أمية ليس فيها كتاب يقرأونه ، فبعث الله فيهم محمداً رحمة وهُدىً يهديهم به .

وإذا كان الحق سبحانه وصف نفسه بأنه ﴿ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) ﴾ [الجمعة] وأن ما فى السماوات والأرض مُسبّح له مُنزِّه له سبحانه ، فإنه هنا يعطينا مقتضى هذه الصفات والأسماء الحسنى .

فهو سبحانه لأنه الملك لكلِّ ما فى الدنيا ، ولكلِّ ما فى السماوات والأرض، ولكلِّ ما فى الآخرة من حساب وجنة ونار وميزان ، ولأنه سبحانه القدوس المنزَّه المطهر من العيوب والنقائص ولأنه عزيز لا يُغلب ، ولأنه حكيم يضع الأمور فى نصابها ولا يستخدم عزته سبحانه للقهر والجبروت .

---

(١) من التابعين ، يكنى أبا الخطاب بصرى ثقة كان ضرير البصر ، توفي بواسط فى الطاعون وهو ابن ست أو سبع وخمسين بعد موت الحسن البصرى بسبع سنين . روى عن أنس بن مالك ، وهو شيخ شعبة وأبى عوانة وغيرهم . كان حجة فى الحديث . [الثقات للعجلى] .

فإنــه سبحانــه يتجلى بكلٍّ هــذه الصفات علــى عباده فينذرهــم ويحذرهم ويُبشِّرهــم ويرســل إليهم الرسل بكُتُب مــن عنده إلى النــاس ليهتــدوا إلى طريق الحق .

ومــن نعمتــه سبحانه أنــه ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَــثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُــولًا مِنْهُمْ.. (٢) ﴾ [الجمعــة] هــو لا غــيره ، فإنه لا ربّ سواه ولا إله غــيره يرسل الأنبياء والرسل ، وعلى مرِّ العصور والأزمان وتتابع الرسالات لم يدَّع أحدٌ النبوة أو الرسالة من عند إله آخر غير الله .

حتى الذين ادَّعَوا أنهم رسلٌ وهم ليسوا كذلك قالوا أنهم رسلُ الله أو أنبياءُ الله .

فهــو سبحانــه الذى بعث ، وهو سبحانه الــذى أرسل ، لأنه هو سبحانه الذى خلــق لا أحدَ غــيره ، وهو سبحانــه المتكفل بخَلْقــه الذين خلقهم رزقــاً وقواماً لحياتهــم على الأرض ، وكذلك رسالةً ونبــوة وكتابــاً يهدى إلى القيم والأخلاق فى الدنيا ، ويُثيبهم الله الجنة فى الآخرة إنْ هم آمنوا .

ونلحــظ أن الحق سبحانه قــال ﴿ بَعَــثَ فِي الأُمِّيِّينَ.. (٢) ﴾ [الجمعة] ولم يقُلْ : أرسل إلى الأميين . فمعنى الإرسال أنه أرسل إليهم منهم أو من غيرهم ، وكذلك (بعــث إلى) ولكنــه سبحانه بعث فيهــم ، ومعنى البعث فيه التفــات إلى إعادة الحيــاة ، وهو هنا إعــادة الحياة لدين إبراهيم وإسماعيــل الذى كان فى العرب منذ أزمان طويلة .

فمعلــوم أن هــذه الأرض كانت غير ذى زرع ولم تكُــنْ مــأهولة أو بها نــاسٌ ، وقد منَّ اللهُ على هذه الأرض بــأنْ أوجد فيهــا إسمــاعيل بن إبراهيم وحيداً منفرداً مــع أمه هــاجر ، تركهــا إبراهيم بــأمر من الله فى هذه البقعة الجرداء البعيدة عن أىِّ مصدر للماء ، ولذلك لم يعمرهــا النــاسُ ولم يسكنوهــا .

ولم يسكنهـا النـاسُ إلا بعد أن انبجستْ بئر زمزم تحـت قدمى إسماعيل إلى أنْ رفع إبراهيمُ وإسماعيلُ القواعدَ من البيت وطهَّراه للعاكفين والركّع السّجود كما هو أمْر الله لهما .

يقـول الحق سبحانـه : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ[١] مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) ﴾ [البقرة]

إذن : فبدايـة المقـام فـى هذا المـكان كان لتوحيـد الله وإقامـة بيته ورفْع قواعـده ليكون ظاهراً للنـاس ، وأنْ يكون آمنـاً ليهفو النـاسُ إليه ويلجأون إليه ويسكنون حوله .

وبقيـتْ مناسـك الحج إلى بيت الله من طواف وسعى بـين الصفا والمروة دليلاً علـى ديـن إبراهيم الأول فـى هذا المكان ، ولكـن مع تطاول الزمـن أدخل العربُ عبادة الأصنام على يد عمرو بن لُحي[٢] ، حتى أصبحتْ الأصنام داخل بيت الله .

لهـذا كانت بعثـة رسول الله تُسمى بعثة ، لأنها بعثتْ ديـن إبراهيم وإسماعيل من جديد ليطهِّر البيت من الأصنام ويجعله خالصاً لله وحده .

لذلـك قـال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ .. (٢) ﴾ [الجمعة] والأميون هـم الذين لا يعرفون كتاباً سماوياً ، والحق سبحانه يُسمِّى العرب المعاصرين لرسول الله أميين ، أى ليس عندهم شيءٌ من أسباب العلم .

---

(١) مثابة للناس : أى يعودون إليه فهم يثوبون إلى زيارته . وقال ابن عباد فى (المحيط فى اللغة) أى مجتمعاً بعد التفرق ومعاداً . والمثاب والمثابة : البيت والملجأ . والمثابة : الموضع الذى يُثاب إليه أى يُرجع إليه مرة بعد أخرى . [تاج العروس مادة ثوب] .

(٢) هو أبو خزاعة عمرو بن لحى بن قمعة بن خندف ، قال عنه رسول الله ﷺ : « رأيت عمرو بن لحى يجر قصبه فى النار » وقال : « لأنه أول من غيَّر دين إسماعيل فنصب الأوثان وسيّب السائبة وبحر البحيرة ووصل الوصيلة وحمى الحامى » .

وهـذه الصفة ، صفة الأمية فى رسول الله ﷺ وفى أمته كانت شهادة تفوق لأنهـا أمـة لم تـأخذ علمها بـالقراءة عن حضـارات الأمم السابقة ، وإنما أخذتْه عـن الله لأنَّ أقصـى مـا يصل إليه غير الأميين فى علمهـم أنْ يجيء إليهم العلمُ من بعضـهم البعض .

ولكـن أمة محمد ﷺ جاء لـها العلم من الله وسادتْ الدنيا أكثر من ألف عام، فهـذه الأميـة شرفٌ لهـم كى لا يُقـال : إنهم أصحـابُ قفزة حضاريـة من أمة متمدينـة ، وكانـت هذه الأميـةُ ملفتةً لأنَّ ما جاء فى تلـك الأمة من تشريعات وقفت أمـامه الأمم الأخرى إلى زمـاننا هذا بـاندهـاش وتقدير .

والله عـز وجـل إنما بعـث فى هؤلاء الأميـين واحداً منهم أميـاً مثلهم ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ.. (٢) ﴾ [الجمعة]

ويقـول عنه الحـق سبحـانه : ﴿ وَمَـا كُنْتَ تَتْلُو مِـنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَـابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) ﴾ [العنكبوت]

فمـا كنتَ تقرأ من قبله ، ومـا كنتَ تكتب ، وفرْقٌ بين أنْ تقرأ وبين أنْ تكتب ، فقد تقرأ لأنك تحفظ ، وتحفظ نتيجة السمـاع ، أمـا أنْ تكتبه فهذا شيء آخر .

فلو كانَ عنده ﷺ شيءٌ من القراءة أو الكتـابة لكان لهم عذر ولكانَ فى الأمر شبهة تدعو إلى الارتيـاب فى أمرك ، لذلك وصفه ربُّه عز وجل بـأنه ﴿ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ.. (١٥٧) ﴾ [الأعراف]

وإياك أنْ تظن أنَّ الأميةَ عيبٌ فى رسول الله ، فإنْ كانت عيباً فى غيره فهى فيه شرفٌ، لأنَّ معنى أُميّ يعنى على فطرته كما ولدتْه أمه لم يتعلم شيئاً من أحد .

وكذلك رسول الله لم يتعلَّم من الخَلْق ، إنما تعلَّم من الخالق فعلَتْ مرتبته عن

الخلق ، وقد كانت هذه دعوة إبراهيم عليه السلام فقال : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩) ﴾ [البقرة]

فإبراهيم عليه السلام دعا الله سبحانه وتعالى ليُتمّ نعمته على ذريته ويزيد رحمته على عباده بأنْ يرسلَ لهم رسولاً يُبلغهم منهج السماء حتى لا تحدث فترةُ ظلام فى الأرض تنتشر فيها المعصية والفساد والكفر ويعبد الناسُ فيها الأصنامَ كما حدث قبل إبراهيم .

ومعنى ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ .. (١٢٩) ﴾ [البقرة] أى : يتلو عليهم آيات القرآن الكريم . ثم يقول ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ .. (١٢٩) ﴾ [البقرة] يجب أنْ تعرف أنَّ هناك فرقاً بين التلاوة وبين التعليم ، فالتلاوة هى أنْ تقرأ القرآن ، أما التعليم فهو أنْ تعرف معناها وما جاءت به لتُطبِّقه وتعرف من أين جاءت .

وإذا كان الكتاب هو القرآن الكريم ، فإن الحكمة هى أحاديث رسول الله ﷺ التى قال الحق سبحانه فيها فى خطابه لزوجات النبى ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ .. (٣٤) ﴾ [الأحزاب]

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١) ﴾ [البقرة]

فمؤدّى تلاوة آيات الله هى التزكية أى التطهير ، فآيات الله تطهر النفوس والقلوب من الدنس الذى قد يعلَق بها ، فطهَّرهم من عبادة الأصنام ومن وأْد البنات والخمر والميسر والربا . ومعنى التزكية أيضاً سَلْبُ المضار فكأنه جاءهم بالنفع وسلب منهم الضر .

وهو عندما يُزكّيهم ويُطهرهم إنما يقودهم إلى طريق الخير وتمام الإيمان، وهذا بتعليمهم الكتاب والحكمة ، والكتاب على إطلاقه ينصرف إلى القرآن الكريم، والحكمة هى وَضْع الشيء فى موضعه .

والكتاب يعطيك التكليف إما أنْ يأمرك بشيء ، وإما أنْ ينهاك عن شيء ، فهى دائرة بين الفعل والترك .

والحكمة أن تفعل الفعل الذى يُحقق لك خيراً أو يمنع عنك شراً ، وهى مأخوذة من الحَكمة[1] أو الحديدة التى تُوضع فى فم الجواد لتحكم حركته فى السير والوقوف ، وتصبح كل حركة تؤدى الغرض منها .

وقوله سبحانه : ﴿ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١) ﴾ [البقرة] لأنكم أمة أمية ، فإنْ بهرتكم الدنيا بحضارتها فستبهرونهم بالإشعاعات الإيمانية التى تجعلكم متفوقين عليهم ، فكلُّ ما يأتيكم من السماء هو فوق كلِّ حضارات الأرض .

ونحن عندما ننظر إلى مقاصد بعْث رسول الله وإرساله نجدها مذكورة فى الآية الكريمة ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ .. (٢) ﴾ [الجمعة]

فأول هذه المقاصد تلاوة آيات الله يقول تعالى : ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ .. (٢) ﴾ [الجمعة] ، وحدث التلاوة ليس قاصراً على رسول الله فقط ، بل هو جاء أيضاً فى حق الله سبحانه .

يقول تعالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢٥٢) ﴾ [البقرة] ويقول أيضاً ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ

---

(١) الحَكَمة : حديدة تُجعل على حنك الفرس تمنعه من الجرى. فلما كانت الحكمة تأخذ بفم الدابة وكان الحنك متصلاً بالرأس جعلها رسول الله تمنع مَنْ هى فى رأسه من الكبر كما تمنع الحكمة الدابة من الفساد والجرى (ابن الأنبارى فى الزاهر فى معانى كلمات الناس) (١/ ٣٤٤) .

(١٠٨) ﴾ [آل عمران] ويقول : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (٦) ﴾ [الجاثية]

فتلاوة الله لآياته على رسوله تُثبِّت رسوله الكريم أنه من المرسلين للناس بآيات الله وكلماته ، وهو يدل على مدى اعتناء الله سبحانه بهداية البشر إلى طريق الحق ، فالله سبحانه لا يريد ظلماً للعالمين .

فهو سبحانه يُبلغهم رسالاته وكلامه عن طريق رسله لئلا تكون لهم الحجة يوم القيامة أنهم لم تبلغهم كلمات الله ، لا إنه يتلوها على رسله ليبلغوها إلى الناس بالحق كما بلَّغها لهم ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (٦) ﴾ [الجاثية]

فالحق سبحانه لمطلق عدله ورحمته بعباده يرسل إليهم رسله بكتبه وصحفه ولا يُعذِّب أحداً دون أن تصله إنذاراتُ الله وبشاراته . يقول تعالى ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا.. (٥٩) ﴾ [القصص]

ومعنى ﴿ أُمِّهَا ﴾ أي أم القرى ومنها مكة المكرمة كأم وكأصل للقرى، وتُسمَّى مكة المكرمة (أم القرى) لأن كل القرى تزورها ، والقرية لا تُطلق إلا على مكان تتسع فيه مقومات الحياة اتساعاً يكفي لمَنْ يطرأ عليها من الضيوف فيجد بها قِرى[1] ، فإنْ كانت قرية كبيرة يأتيها الرزق الوفير من كل مكان كأنها أم نسميها (أم القرى) .

والحق سبحانه لا يُعذِّب أحداً إلا بعد أنْ يرسل له رسولاً يُبلغه أمر الله بافعل أو لا تفعل ، يقول الحق سبحانه ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥) ﴾ [الإسراء]

---

(١) القِرَى : الإحسان إلى الضيف ، قراه يقريه قِرَىً . والمقارى في بعض الأشعار جفان يُقرى فيها الأضياف . [العين للخليل بن أحمد] وقريت الماء في المقراة : جمعته . وسميت القرية قرية لاجتماع الناس فيها . والمقراة : الجفنة سُميت لاجتماع الضيف عليها أو لما جُمع فيها من الطعام [مقاييس اللغة] .

والله عزَّ وجل إنما أمر رسوله بأنْ يتلوَ القرآن ، يقول تعالى : ﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ.. (٢٧) ﴾ [الكهف] ويقول فى آية أخرى ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت]

فاقرأ يا محمد واتْل القرآن وداوم أنت على تلاوته وإنْ كذَّبوا به ، لعلَّ الله يأتى من هؤلاء بذرية تصفو قلوبهم لاستقبال إرسال السماء فيؤمنون بما جحده هؤلاء ، والأمر بالتلاوة لبقاء المعجزة .

فاقرأ ولا تعجز ولا تيأس ، فالقرآن سلوةُ نفسك ، وما دام قومك قد كذَّبوك فارجع إليّ بأنْ تستمع إلى كتابى الذى أنزلته معجزةً لك تُؤيِّدك ، وانتظر قوماً يأتون يسمعون منك كلام الله فيصادف منهم قلوباً صافية فيؤمنون به .

وهذه هى ميزة معجزتك يا محمد أنك تستطيع أنْ تُكرِّرها فى كل وقت وأنْ تتلوها كما تشاء وأنْ يتلوها بعدك مَنْ سمعها وستظل تتردد إلى يوم القيامة .

والمسألة ليست أنه يتلو الآيات ليُعجبوا منها فحسب ، لا فالرسول له مهمة إيمانية تلفت كلَّ سامع للقرآن إلى مَنْ خلق ذلك الكون الجميل البديع الذى فيه الآيات العجيبة .

ثم يعطى الرسول من بعد ذلك المنهج الذى يناسب جمال الكون . إذن : فالرسول ينقل المؤمنين إلى المنهج الذى يُزكِّى الإنسان .

وقوْل الحق سبحانه : ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ.. (٢) ﴾ [الجمعة] فأنت تعرف أنَّ يُزكيهم من الزكاة ، والزكاة أول معانيها التطهير والتنقية والنماء ، والآيات التى جاء بها رسول الله ﷺ إنما جاءتْ لتزكيهم .

وهذا التطهير لمصلحة المطهِّر أو المطهَّر؟ إنه لمصلحة المطهَّر ، التنقية والنماء

لمصلحتكم أنتم ، فالتنقية لصالحنا ، والتطهير لصالحنا ، والنماء لصالحنا .

والتزكيـة هى تطهير وتنقية ونماء ، والتزكيـة تزكية فى الإنسان نفسه فى ذاته ، بدلاً من أنْ يكذب لسانه طهَّره عن الكذب ، بدل أنْ تمتد عينُه إلى محارم غيره طهَّر عينه من النظر للمحرمات ، وبدلاً من أنْ تمتدَّ يده خُفية وتسرق فهو لا يفعل ذلك .

الحق سبحانه يريد طهارةَ الإنسان والذرية التى تأتى ، وأنْ يجعل لها وعاءً شريفاً عفيفاً وإطاراً لا تشويه شائبة ، فجاء المنهج ليُزكيكم فى كلِّ شيء يُزكى حركات جوارحكم ، فلا تتجه الحركة إلا لتحقق المطلوب منها عند مَنْ خلقها .

فالخالق قد أوضح : يا عين حدودك كذا ، يا لسان حدودك كذا ، يا يد حدودك كذا ، يـا رجْل حدودك كذا ، يا قلـب حدودك كذا . وهكذا نرى أنَّ المنهج قد جاء يُزكيكم . أى : يُطهركم ويُنقيكم ويُنميكم فى كلِّ مجال من مجالات الحياة .

والتزكيـة لابـدّ أنْ تقترن بتعليم الكتاب والحكمة ، فهنـا أمور ثلاثة : تلاوة القـرآن ، والتزكيـة ، ثم تعليم الكتـاب . أى : تعليمهم ما جاء فـى هذا الكتاب ، يُعلمهم وينذرهم .

والرسـول لا يُعلمهـم الكتاب فقط بـل أيضاً يُعلمهم الحكمـة ، وهى أحاديث رسـول الله ، قـال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِـنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ .. (٣٤) ﴾ [الأحزاب] فآيات الله آيات القرآن الكريم ، والحكمة أى حديث رسول الله وسُنته .

والحكمـة تقتضـى أنْ نعـرف إلى أىِّ الطـرق نهتـدى ونسـير ، ويقـول الحق سبحانـه : ﴿ يُؤْتِـي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَـاءُ وَمَنْ يُـؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَـيْرًا كَثِيرًا .. (٢٦٩) ﴾ [البقرة]

والحكمة هى وَضْع الشيء فى موضعه النافع ، فكأن الحق سبحانه يقول: كلّ ما أمرتكم به هو عيْن الحكمة لأنّى أريد أنْ أؤمِّن حياتكم الدنيا ، وأؤمِّن لكم سعادة الآخرة ، فإنْ صنع العبدُ المؤمن ما يأمر به الله فهذا وَضْع الأشياء فى موضعها ، وهو أخْذٌ بالحكمة .

هؤلاء الأُميون الذين بعث اللهُ فيهم رسولاً منهم ليتلو عليهم آيات الله ويُزكيهم ، ويُعلمهم الكتاب والحكمة ، هؤلاء ﴿ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢) ﴾ [الجمعة]

فما هو الضلال ؟ يقولون : ضَلَّ فلانٌ الطريق أى مشى فى مكان لا يُوصِّله للغاية أو يوصل إلى ضد الغاية ، فالضلال فى الدنيا والأمور المادية قد لا تُوصلنى لغايتى المرجوة ، لكن فى الأمر القيمى ماذا يفعل ؟

إنه لا يُوصلك إلى الغاية المرجوة وهى الجنة فحسب ، ولكنه يوصل للمقابل وهو النار ، هذا هو الضلال المبين ، إنه ضلالٌ واضح ظاهر ، وهو ضلالٌ يعرفه صاحبه .

فالضلال المبين الغيبة عن الحق ، وهو مبين أى محيط فى صورة لا يمكن النفاذ منها ، وهو أيضاً ضلالٌ مقصود وهو أن يعرف الإنسانُ طريقَ الحق ويذهب إلى الباطل ، وهناك ضلال غير مقصود مثل ضلال رجل يمشى فيسلك طرقاً لا يعرفها فيضلّ عن مقصده .

وقد وصف جعفر بن أبى طالب[1] رضى الله عنه وضع العرب قبل بعثة

---

(١) هو جعفر بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم ، صحابى ، يقال له جعفر الطيار وهو أخو على بن أبى طالب ، وكان أسنّ من على بعشر سنين ، أسلم قبل دخول النبى دار الأرقم ، هاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية ، قطعت يداه اليمنى ثم اليسرى وهو حامل الراية فى غزوة مؤتة حتى وقع شهيداً فقيل: إن الله عوضه عن يديه جناحين فى الجنة . توفى عام ٨ هجرية [الأعلام للزركلى ٢/١٢٥] .

رسول الله ، وذلك فى موقفه أمام النجاشى ملك الحبشة فى الهجرة للحبشة .

قال : « أيها الملك كنَّا أهلَ جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونُسيء الجوار ، ويأكل القويّ منّا الضعيف . فكنّا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان .

وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام فصدّقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله وحده لا نشرك به شيئاً ، وحرّمنا ما حرّم علينا ، وأحللْنَا ما أحلّ لنا »[1] .

وهذا وصف لحالة ضلال العرب قبل بعثة رسول الله ، وما أثَّرتْ بعثته ﷺ فيهم من تزكية وتطهير .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ ﴾

فإذا كان الحق سبحانه قد قال فى الآية السابقة ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ .. (٢) ﴾ [الجمعة] فى شأن قوم رسول الله ﷺ وفى شأن العرب ، فإنَّ رسالة محمد لم تكن للعرب فقط ، إنما كانت للعالمين أجمعين .

---

(١) أورده ابن الأثير فى كتابه (الكامل) (٢٦٦/١) باب ذكر إرسال قريش إلى النجاشى فى طلب المهاجرين (أى إلى الحبشة) وذلك أن قريشاً أرسلت عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى أمية ليرد النجاشى عليهم من هاجر من المسلمين ، فمن كلامهما أنهم جاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم . فكان أن النجاشى سألهم : ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا فى دينى ولا دين أحد من الملل ؟

لقد كانت رسالة محمد ﷺ للعرب وغير العرب ، كتابيين وغير كتابيين ، لذلك قال تعالى : ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣)﴾ [الجمعة]

وفي هذا جاء حديث رسول الله الذى رواه لنا أبو هريرة رضى الله عنه : «كنا جلوساً عند النبى ﷺ فنزلت عليه سورة الجمعة ، فلما قرأ ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ.. (٣)﴾ [الجمعة] قال رجل : مَنْ هؤلاء يا رسول الله ؟

قال : فلم يراجعه النبى ﷺ حتى سأله مرة أو مرتين أو ثلاثاً . قال : وفينا سلمان الفارسى ، فوضع النبى ﷺ يده على سلمان فقال : « لو كان الإيمانُ عند الثريا لناله رجال من هؤلاء»[1] .

والثريا نجم فى السماء كانوا يهتدون به فى الصحراوات والفلوات حتى أن العربى كان يقول مثلاً : اجعل الثريا عن يمينك أو النجم القطبى أو سهيل أو غيرها، وقد قال الحق سبحانه : ﴿ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦)﴾ [النحل]

فلو كان الإيمانُ عند الثريا أو مُعلَّقاً بالثريا لناله وتناوله رجلٌ من هؤلاء أى أبناء فارس أو الأعاجم عامة ، وذلك لعلو همتهم وعزيمتهم فى الأخْذ بالإيمان .

وسلمان الفارسي[2] كان له دور عظيم فى نصرة الإسلام فى غزوة الخندق ، والحديث لا يقصد سلمان ولكنه يعنى (رجل من هؤلاء) أى : لقوم يأتون بعد سلمان وغيره رضى الله عنهم .

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٨٩٧) وكذا مسلم فى صحيحه (٦٦٦٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . وكذا أحمد فى مسنده (٩٣٩٦) .

(٢) سلمان الفارسى : أصله من مجوس أصبهان ، عاش عمراً طويلاً ، قرأ كتب الفرس والروم واليهود ، قصد بلاد العرب فلقيه ركب من بنى كلب فاستخدموه ثم استعبدوه وباعوه وأعانه المسلمون على شراء نفسه من صاحبه ثم أسلم ، هو الذى أشار بحفر الخندق . توفى عام ٣٦ هجرية . [الأعلام للزركلى ٣/١١١] .

والحق سبحانه لم يحرم العجم من الفضل ، بل إن رسول الله ﷺ حين قال لسلمان الفارسي : « سلمان منا آل البيت »[1] لم يقل له : أنت من العرب ، لا بل نسبه لآل البيت .

أى نسبه إلى إرث النبوة بما يتطلبه هذا الإرث من تطبيق المنهج بتمامه ، فليس هذا الإرث بالدم إنما بتطبيق المنهج نصاً وروحاً .

وقد سعى منهم الكثيرون بحثاً عن الحق ، ومنهم سلمان الفارسى الذى رأى رسول الله فى المدينة ، ورأى منه علامات كثيرة أحبّ أنْ يرى فيه علامة مادية يعرفها عن نبيٍّ آخر الزمان ، فرأى فى كتف رسول الله ﷺ خاتم النبوة .

لذلك لما بلغ سلمان الفارسى أن بمكة نبياً جديداً ذهب إلى سيدنا رسول الله وأخذ يتأمله وينظر إليه بإمعان فوجد فيه علامتين مما ذكرت الكتب السابقة وهما أنه ﷺ يقبل الهدية ولا يقبل الصدقة .

فراح ينظر هنا وهناك لعله يرى الثالثة ، ففطن إليه رسول الله ﷺ بما آتاه الله من فطنة النبوة التى أودعها اللهُ فيه ، وقال : لعلك تريد هذا ، وكشف له عن خاتم النبوة ، وهو العلامة الثالثة[2] .

---

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٦٥٤١) والطبرانى فى المعجم الكبير (٦٠٤٠) قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٨٩/٦) (١٠١٣٧) : « رواه الطبرانى وفيه كثير بن عبد الله المزنى وقد ضعفه الجمهور وحسَّن الترمذى حديثه وبقية رجاله ثقات ». والحديث « أن رسول الله ﷺ خط الخندق عام حرب الأحزاب حتى بلغ المذاجح فقطع لكل عشرة أربعين ذراعاً فاحتج المهاجرون : سلمان منا . وقالت الأنصار : سلمان منا . فقال رسول الله ﷺ : سلمان منا أهل البيت ».

(٢) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٦٥٤٤) من حديث طويل عن سلمان الفارسي وفيه : فلما كانت الساعة التى أخبرتنى المرأة يجلس فيها هو وأصحابه خرجت أمشى حتى رأيت النبى ﷺ فإذا هو يحتبى، وإذا أصحابه حوله فأتيته من ورائه فعرف النبى ﷺ الذى أريد فأرسل حبوته فنظرت إلى خاتم النبوة بين كتفيه ، فقلت : الله أكبر . قال الحاكم : صحيح الإسناد . قال الذهبى : عبد القدوس ساقط .

ومـن هـؤلاء الذين قـال الله فيهم (وآخرين منهم) صـهيـب الرومي[١] رضى الله عنه أبو يحى ، وقد كان فى مكة وقد كبر سنّه وأسلم وأراد أنْ يهاجر ، فقال لـه الكفـار : لقد جئتَ مكة فقيراً وآوينـاك إلى جوارنا ، وأنت الآن ذو مال كثير وتريد أنْ تهاجر بمالك .

فقـال لهـم : أإذا خليتُ بينكم وبين مالى أأنتم تاركونى ؟ فقالوا : نعم . قال : تضمنون لى راحلة ونفقة إلى أنْ أذهب إلى المدينة ؟ قالوا : لكَ هذا[٢] .

إنـه قد شرى نفسه بهذا السلوك واستبقاها إيمانيـاً بثروته ، فلما ذهب إلى المدينـة لقيـه أبو بكر وعمر فقـالا لـه : ربح البيع يا أبا يحـى . قال : وأربح الله كل تجارتكم . وقال لـه سيدنا أبو بكر وسيدنا عمر : إن رسول الله ﷺ أخبرنا أن جبريل أخبره بقصتك[٣] .

ويُروى أن الرسول قال لـه : ربح البيعُ أبا يحى .

فدعوة الإسلام عامة وليست خاصة بالعرب، ولذلك كتب رسول الله ﷺ كتباً

---

(١) صهيب الرومى : هو صهيب بن سنان بن مالك ، من بنى النمر بن قاسط ، وُلد ٣٢ ق . هـ ، صحابى من أرمى العرب سهماً ، وهو أحد السابقين إلى الإسلام ، ولد صهيب بالموصل فأغارت الروم على ناحيتهم فسبوا صهيباً وهو صغير فنشأ بينهم فكان ألكن ، أسلم وأقام بمكة واشتغل بالتجارة ، توفى بالمدينة ٣٨ هجرية [الأعلام للزركلى ٣/ ٢١٠] .

(٢) أورده الذهبى فى سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٣) ، وابن الجوزى فى صفة الصفوة (١/ ١٧٠) ، وابن سعد فى (الطبقات) (٣/ ١٩٣) . قال صهيب : خرج رسول الله ﷺ إلى المدينة وقد كنت هممت بالخروج معه، فصدنى فتيان من قريش فجعلت ليلتى تلك أقوم لا أقعد . فقالوا : قد شغله الله عنكم ببطنه ولم أكن شاكياً فناموا فذهبت فلحقنى ناس منهم على بريد . فقلت لهم : أعطيكم أواقى من ذهب وتخلونى ؟ ففعلوا فقلت : احفروا تحت أسكفة الباب تجدوها وخذوا من فلانة الحلتين ، وخرجت حتى قدمت على رسول الله ﷺ قباء ، فلما رآنى قال : يا أبا يحى ربح البيع . ثلاثاً . فقلت : ما أخبرك إلا جبريل .

(٣) أورده السعدى فى تفسيره (١/ ١٨٢) من قول ابن عباس وأنس أن عمر بن الخطاب تلقاه إلى طرف الحرة فقالوا له : ربح البيع . فقال : وأنتم فلا أخسر الله تجارتكم وما ذاك ؟ فأخبروه أن الله أنزل فيه هذه الآية ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ .. (٢٠٧)﴾ [البقرة] .

إلى فارس والروم وغيرهم من الأمم يدعوهم إلى الله عز وجل وإلى اتباع ما جاء به(١).

فالإسلام دعوة عالمية لكل زمان ولكل مكان، فالدعوة ظلت تتسع في بعض العشائر والبطون إلى أنْ دالتْ عاصمة الكفر، وصارت مكةُ بيتَ الله الحرام كما شاء الله، وأسلمتْ الجزيرة كلها لمنهج الله، وأرسل ﷺ الكتب إلى الملوك والقياصرة، وكلها تتضمن قوله ﷺ « أسلم تسلم »(٢).

ودلتْ هذه الكتب على أن الدعوة الإسلامية هي دعوة ممتدة لكلِّ الناس، تطبيقاً لما قاله الحق سبحانه لرسول الله أنه « رسول للناس كافة ».

قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا.. (٢٨) ﴾ [سبأ] لذلك أرسل رسول الله إلى حكام العالم المعاصرين له دعوة لدخول الدين الخاتم، وقد ترك رسولُ الله تلك المهمة لمن يخلفونه، ودعا ﷺ الجزيرة العربية تحت لواء (لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله) بعد أنْ كانت قبائلَ متعددة.

وهكذا صارت القبائل أمة واحدة بعد أنْ جمعهم محمد رسول الله في وحدة

---

(١) أرسل رسول الله ﷺ هذه الكتب إلى الملوك في أول سنة ٤ هجرية وبعث إليهم يدعوهم إلى الله واتخذ خاتماً من فضة نقش فيه [محمد رسول الله] ليختم به الكتب، فبعث رسول الله عبد الله بن حذافة إلى كسرى بكتاب فأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين ليدفعه إلى كسرى، وبعث دحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر وهو هرقل ملك الروم وأمره أن يدفع الكتاب إلى عظيم بصرى فدفعه إلى هرقل، وبعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس صاحب الإسكندرية، وبعث عمرو بن أمية الضمري إلى أصحم بن أبجر النجاشي، فأما كسرى فمزق كتاب رسول الله فقال رسول الله لما بلغه ذلك: « مزق الله ملكه إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ».

(٢) كان نص كتاب رسول الله: « بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين و﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤) ﴾ [آل عمران] ». أخرجه مسلم في صحيحه (٤٧٠٧) وكذا البخاري في صحيحه (٤٥٥٣).

التكامل العقدى تحت لواء وراية الإسلام ، وهذه الأمة الأمية قال فيها الحق سبحانه : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ.. (٢) ﴾ [الجمعة]

وبعد رحيله ﷺ إلى الرفيق الأعلى انساح صحابته بالدين الخاتم فى الدنيا كلها ، وخلال نصف قرن من الزمان صار للإسلام جناحان : جناحٌ فى الشرق ، وجناحٌ فى الغرب .

وهزم الإسلامُ أكبر امبراطوريتين متعاصرتين له ، هما امبراطورية فارس بحضارتها وامبراطورية الروم ، وكانت البلاد تتخطف الإسلام كمنهج حياة .

حدث بعد ذلك أنْ حارب الإسلامُ الامبراطوريتين فى آن واحد وأقبل الناسُ على الإسلام ليتحققوا من معجزته التى لمسوها فى خلق مَنْ سمعوا القرآن وحملوا رسالته ، ثم فى اكتشافهم لعدالة القرآن فى إدارة حركة الحياة .

وهكذا اكتشفوا أن معجزة الإسلام عقلية ، وأن رسوله ﷺ هو الرسول الخاتم الذى لم يأتِ لهم بمعجزة حسِّية ، وإذا كان القرآنُ معجزة فى اللغة للقوم الذين نزل فيهم رسول الله ، فالقرآن لمَنْ لم يعرفوا لغة القرآن كان معجزة فى العدالة والقيم النابعة منه .

وكان الناسُ يندفعون إلى الإسلام بقوة دَفْع من المؤمنين به وبقوة جَذْب من غير المؤمنين حين يروْنَ ألاّ فرْقَ بين الأمير وأصغر فرد تحت رايته ، وحين يلمسون عدالته ومساواته بين البشر .

ولم يكُن الإسلامُ معجزةً لقومه فقط بل لكلّ الدنيا ، ويتحقق دائماً قوْل الحق سبحانه: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ.. (٥٣) ﴾ [فصلت]

ونجد مفكراً كبيراً من الغرب المعاصر يعلن إسلامه ، رغم أنه لم يقرأ القرآن

بـل نظر فقط فـي المبادىء التـي قنَّنها الإسـلام وكيف أنها تحمـل حلولاً لما عجزتْ عنه الحضارات المتعاقبة وأهل القوانين فى كل بلاد الأرض .

وفى مجال العلوم درس الألمانُ عملية إدراكات الحسِّ وكيف يشعر الإنسانُ بالألم ؟ وكيف يلمس الإنسانُ ببشرته شيئاً بملمس ناعم فيُسر منه ، ثم يلمس شيئاً خشناً فيتأذى منه .

واستمر الألمان يدرسون ذلك لسنوات كي يعرفوا مناط الإحساس وموقعه فى الإنسـان ، هل هو فـى المخ أم أين ؟ إلى أن انتهوا إلى أن مناط الإحساس فى كلّ إنسـان هو فى الجلد ، وأنها خلايا منبسطة تحت الجلد مباشرة ، بدليل أن الإبرة حين نغرزها فى جسم الإنسان فهو يتألم فقط فى منطقة دخولها وليس أكثر .

ولفـتَ ذلـك نظر أحد العلماء ، فقـال : لقد تحدّث القرآنُ عـن ذلك حين قال : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (٥٦) ﴾ [النساء]

ومـن الأمثلة المعاصرة فى العلوم الجنائية قصـة شاب مسلم من سوهاج سافر إلى ألمانيا ليعد رسالة الدكتوراة فى القانون ووجدهم يقفون عند قضية التعسـف فـى استعمال الحـق[١] ويعتبرونها مـن أهم الإنجـازات القانونية فى القرن العشرين .

فأوضـح لهم هذا الشاب أن الإسلام قد سبقهـم فى تقدير هذه المسألة ووضْع الحكـم المناسب فيهـا من أربعة عشر قرناً من الزمـان ، وروى لهم أن رجلاً جاء

(١) يقصد بها فى الشرع : « استعمال الحق لتحقيق مصلحة غير مقصودة شرعاً ، أو للإضرار بالغير مما يفوت مقصد الشارع من تشريع الحق » . وهى قاعدة إسلامية صرفة جاء بها القرآن والسنة ، ويتفرع عنها قواعد فقهية عديدة لمنع التعسف فى استعمال الحق ، منها قصد الإضرار ، مثل من يراجع امرأته لا رغبة فيها ولكن قصد الإضرار بها ، وكذلك من يستعمل حقه فى الوصية لا رغبة فى هذا بل إضراراً بالورثة والدائنين ، وكذلك من يقصد غرضاً غير مشروع كالذى يتزوج امرأة – وهذا حقه – ولكن قصده تحليلها لزوجها الأول لطلاقها ثلاثاً . [الفقه الإسلامى وأدلته – د. وهبة الزحيلى] .

إلى رسول الله ﷺ قائلاً : إن لفلان عندى فى ساحة بيتى نخلة ، وهو يدخل بيتى كلّ ساعة بحجة رعاية تلك النخلة ، مرة بدعوى تأبيرها ، وأخرى بدعوى جنى ثمارها ، وثالثة بدعوى الاطمئنان عليها حتى جعل النخلة شُغله الشاغل .

وشكا الرجلُ للرسول ﷺ أنه يتأذّى هو وأهل بيته من اقتحام الرجل للحياة الخاصة له ، فأرسل ﷺ إلى صاحب النخلة وقال له : أنت بالخيار بين ثلاثة مواقف ، إما أن تهبه النخلة – وتلك منتهى الأريحية – وإما أنْ تبيعها له ، وإما قطعناها[1] .

وهكذا وضع ﷺ قواعد للتعامل فيما يسمى «التعسف فى استعمال الحق». لذلك كان القرآن مُعجزاً مؤثراً فى إيمان غير العرب وإسلامهم لآثاره فى التطبيق ، لا لأنهم عرب أو قرأوا القرآن ، لذلك كان قوْل الحق سبحانه :

﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ.. (٣) ﴾ [الجمعة]

وقد ذهب العلماءُ إلى أن المقصود بهؤلاء هم الأعاجم ، وقال آخرون : إنما عنى بذلك جميع مَنْ دخل فى الإسلام من بَعْد النبى ﷺ ، كائناً مَنْ كان إلى يوم القيامة .

حتى أن الطبري[2] قال : أوْلَى القولين فى ذلك بالصواب عندى قول مَنْ قال:

---

(١) عن سمرة بن جندب أنه كانت له عضد من نخل فى حائط رجل من الأنصار. قال ومع الرجل أهله قال: فكان سمرة يدخل إلى نخله فيتأذى به ويشق عليه فطلب إليه أن يبيعه فأبى ، فطلب إليه أن يناقله فأبى فأتى النبى فذكر ذلك له فطلب إليه النبى أن يبيعه فأبى فطلب إليه أن يناقله فأبى. قال: فهبه له ولك كذا وكذا. أمراً رغَّبه فيه فأبى فقال : أنت مُضارّ. فقال رسول الله للأنصارى : اذهب فاقلع نخله. أخرجه أبو داود فى سننه (٣٦٣٨).

(٢) الطبرى : هو محمد بن جرير بن يزيد الطبرى أبو جعفر مؤرخ مفسر إمام ، ولد فى آمل طبرستان عام ٢٢٤ هـ ، استوطن بغداد وتوفى بها ٣١٠ هـ عن ٨٦ عاماً. رفض تولى القضاء والمظالم ، له (أخبار الرسل والملوك) و (جامع البيان فى تفسير القرآن) ، من ثقات المؤرخين ، كان أسمر أعين نحيف الجسم فصيحاً. [الأعلام للزركلى ٦/٩٦].

عُنـى بذلك كل لاحق لحق بـالذين كانـوا صحبوا النبى ﷺ فى إسلامهم من أىِّ الأجناس . ولم يخصص منهم نوعاً دون نوع ، فكلُّ لاحق بهم فهو من الآخرين الذين لم يكونوا فى عداد الأولين الذين كان رسول الله يتلو عليهم آيات الله[1] .

وهذه الآية معجزة من معجزات القرآن لأنها تُنبئنا أن الإسلام سينتشر ولن يقف مـدُّه عند حدود العرب فقـط ، بل سيشمل الجميع وستتسـع رقعة الإسلام شرقاً وغرباً .

فقولـه سبحانـه ﴿ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ .. (٣) ﴾ [الجمعة] أى : لم يجيئـوا بعد وسيجيئون .

وهـذا مثْل قوله تعـالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ .. (٣٩) ﴾ [يونس] أى : لم يعرفوا بمراميه وبمجرد أنْ سمعوا عن رسالته ﷺ فجأة اتهموه بالكذب والعياذ بالله .

فهـؤلاء القـوم قـد كذّبوا من قبـل أنْ يأتى لهـم التأويل ، كذلـك ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ .. (٣) ﴾ [الجمعة] أى ممَّنْ آمن وأسلم ﴿ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ .. (٣) ﴾ [الجمعة] أى: لم يأتوا بعد وسيأتون .

ومـن أدوات النفـى (لم) مثـل قولنـا : « لم يجـيء فـلان » ، ونقـول أيضـاً : لمـا يجـيء فلان ، والنفى فى الأولى جزم غـير متصل بالحاضر ، كأنه لم يأتِ بالأمس .

أمـا النفـى بـ (لما) فيعنى أن المجيء مُنتفٍ إلى ساعة الكلام أى الحاضر ، وقد يأتى من بعد ذلك لأن (لما) تفيد النفى وتفيد توقّع الإثبات .

والحـق سبحانه يقول عن الأعـراب ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ

---

(١) قاله الطبرى فى تفسيره للآية [الجمعة ٣] [المجلد ٢٢ / ٦٣١] طبعة دار هجر القاهرة .

قُولُوا أَسْلَمْنَا.. (١٤) ﴾ [الحجرات] فهم لم يؤمنوا ، وحين سمعوا قول الله بعده ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ.. (١٤) ﴾ [الحجرات] قالوا : الحمد لله لأن معنى ذلك أن الإيمانَ سوف يدخل قلوبهم .

وكذلك قوْل الحق سبحانه : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) ﴾ [آل عمران]

فحين سمعوا ذلك قالوا : إذن وثقنا أنه سيأتى علم الله سبحانه بنا كمجاهدين وصابرين ، وهكذا نعرف أنَّ (لما) تعنى أن المنفى بها متوقّع الحدوث .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.. (٣) ﴾ [الجمعة] وقد ناسب هنا الإتيان باسم الله (العزيز) فالعزة الغلبة . والآية تُحدّثنا عن نصرة الإسلام وظهوره على الدين كله واتساع رقعته وغلبته ، فناسب هذا أنه سبحانه عزيز .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١) ﴾ [غافر] وهو مع عزته وغلبته وقوته ونصره للمؤمنين به على أعدائهم هو أيضاً (الحكيم) ، والحكمة وضع الشيء فى مكانه وموضعه ليؤدى مهمته، فهو سبحانه يصنع كل شيء بحكمة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾ ﴾

(ذلك) كلمة تتكوّن من اسم الإشارة (ذَا) ثم اللام التى للبُعْد ، ثم (ك) التى للخطاب . واسم الإشارة هنا إنما يشير إلى ما جاء فى الآيات قبل ، وهو قوله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ.. (٢) ﴾ [الجمعة]

فاسم الإشارة (ذَا) يشير إلى نبوّة رسول الله ﷺ ، فنُبوته فضْل تفضّل به الله على محمد أولاً ثم على أمته ﴿ بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ.. (٢) ﴾ [الجمعة] ثم على العالمين ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ.. (٣) ﴾ [الجمعة]

والفضل هو الأمر الزائد عن حاجتك الضرورية ، ولذلك يقول رسول الله ﷺ: « مَنْ كان معه فضْل ظهر فليعُدْ به على مَنْ لا ظهر له ، ومَنْ كان معه فضْل زاد فليعُدْ به على مَنْ لا زاد له »[1] .

وفضْل مال أي مال زائد على حاجته ، هذا عن الفضل بالنسبة للبشر ، أما بالنسبة لله سبحانه وتعالى فإنّ كل ما في الكون الآن وفي الآخرة هو فضْل الله لأنه زائدٌ على حاجته ، فالله غير محتاج لخَلْقه ، ولا لكلٍّ نعمه التي سبقتْ والتي ستأتي .

والفضْل هنا هو نُبوة محمد ، وقد اعترض الكفارُ على نزول القرآن على محمد ﷺ وقالوا :﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

لذلك ردّ عليهم الحق سبحانه ، فقال : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا[2] وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) ﴾ [الزخرف]

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (١٦٦٥) وابن حبان في صحيحه (٥٤١٩) وأبو يعلى في مسنده (١٠٦٤) ولفظ الحديث : بينما نحن مع رسول الله في سفر إذ جاء رجل على ناقة له فجعل يصرفها يميناً وشمالاً . فقال رسول الله : « من كان عنده فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان عنده فضل زاد فليعد به على من لا زاد له » حتى ظننا أنه لا حقَّ لأحد منا في الفضل . ومعنى يصرف راحلته أنه كان يريد أن يتصدق عليه أحد ، وفطن رسول الله لهذا ، فكان هذا الحديث .

(٢) سخرياً : فيها قراءتان (سخريا) بضم السين ، ومعناها : يستخدم الأغنياء الفقراء بأموالهم فيلتئم قوام العالم . و(سِخريا) بكسر السين ومعناها : ليملك بعضهم بعضاً بالأموال فيتخذونهم عبيداً . [زاد المسير لابن الجوزي] .

هـم اعترفوا بعظمـة القرآن رغم أنهم حاولوا أنْ يجدوا في القرآن ثغرة فلم يجدوا ، وهم أمة فصاحة وبلاغـة ولسان ، ولكن الأمر الذى وقف فى حلوقهم هـو أن القرآن نزل على محمد ﷺ ، فقالـوا : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ.. (٣١) ﴾ [الزخرف]

الأمـر عندهـم حسـدٌ منهم ، لذلك قال تعـالى : ﴿ أَمْ يَحْسُـدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِه.. (٥٤) ﴾ [النساء]

وكلمـة النـاس تطلق على الإنسـان الذى يجمع خصائصـ متعددة ، والحق سبحانه هنا وصف رسولَ الله ﷺ بالناس ونحو هذا الرجل الذى ذهب للمؤمنين يخبرهـم باستعداد المشركين لقتالهم نزل فيه[1] قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ.. (١٧٣) ﴾ [آل عمران]

إنـه إنسان واحـد ، ومع ذلك وصفـه اللهُ بالنـاس ، كأنـه بتنبيهه للمسلمين يكون قد جمع كلّ صفات الخير التى فى النـاس .

والحسد هنا لرسول الله ﷺ ، لأن الحق سبحانه قد اصطفاه واختاره للرسالة ، إنهم يحسدون محمداً أنْ أنزل عليه القرآن ويحسدون النـاس أنْ جاءهم محمد .

والحسـد لا يتأتّـى إلاَّ عن قلب حاقد ، قلب متمرد علـى قسمة الله فى خَلْقه ، لأن الحسد هو أنْ تتمنى زوال نعمة غيرك ، هذا التمنِّى معناه أنك تكره أنْ تكون عند غيرك نعمة ، ولا تكره أنْ يكون عند غيرك نعمة إلا إذا كنتَ متمرداً على مَنْ يعطى النعم .

---

(١) أخرج ابن جرير الطبرى عن السدى قال : لما ندم أبو سفيان وأصحابه على الرجوع عن رسول الله ﷺ وأصحابه وقالوا : ارجعوا فاستأصلوهم ، فقذف الله فى قلوبهم الرعب فهزموا فلقوا أعرابياً فجعلوا له جُعلاً فقالوا له : إن لقيت محمداً وأصحابه فأخبرهم أنّا قد جمعنا لهم ، فأخبر الله رسوله ﷺ فطلبهم حتى بلغ حمراء الأسد فلقوا الأعراب فى الطريق فأخبرهم الخبر فقالوا : (حسبنا الله ونعم الوكيل) ثم رجعوا من حمراء الأسد ، فأنزل الله فيهم وفى الأعرابى الذى لقيهم ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ ..(١٧٣)﴾ [آل عمران] . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٤/١٤٤] .

إنهم حسدوه فى أنْ يأخذ هذا الفضل وهذه النعمة ، حتى اليهود وأهل الكتاب حسدوه فى أنْ يكون نبياً ، ونسُوا أن الله أعطى سيدنا إبراهيم الملْك، وأعطى لداود الملك ، وأعطى لسليمان الملك ، وأعطى ليوسف الملك ، فلماذا الحسد إذن عندما أراد الله سبحانه وتعالى أنْ يكرم الفرع الثانى من إبراهيم ، وهو إسماعيل عليه السلام ؟ .

لقد كرَّم الله سبحانه الفرع الأول فى إسحاق ، وجاء من إسحاق يعقوب ، ومن يعقوب يوسف ، ثم جاء موسى وهارون ثم داود وسليمان ، كلٌّ هؤلاء كرِّموا .

وعندما يُكرّم سبحانه الفرع الثانى لإبراهيم وهو ذرية إسماعيل ويرسل منهم رسولاً يحزنون ويقفون هذا الموقف ؟ وينسون أنه ليس لأحد أنْ يختار الرسول ، فالرسول مصطفى من الله .

والحق سبحانه لم يضع مفاتيح الرسالة فى أيدى المشركين أو غيرهم ليوزعوا هم الأمور ويقوموا بتدبير الأمر ، بل هو سبحانه الذى يوزع المواهب فى البشر رزقاً منه ليعتمد كلٌّ إنسان على الآخرين فى مواهبهم التى يعجز عنها ، ويعتمد عليها الآخرون فى موهبته التى يعجزون عنها .

ومسألة النبوة هى اصطفاء إلهى يكبر ويسمو على كل مقامات الدنيا ، وقد عبَّر عنها الحق سبحانه بقوله تعالى : ﴿ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ.. (٣٢) ﴾ [الزخرف] فالرحمة هى عطاءات ألوهية .

وإذا كان المولى سبحانه قد قسم رزقهم فى الأدنى وهو معيشتهم ، فكيف يريدون هم أنْ يتصرَّفوا فى الأعلى ، عليهم أنْ يتأدبوا مع الله سبحانه ، فهو لم يُوكلهم فى اختيار مَنْ يُنزل عليه رحمته ورسالته ، ولكنه سبحانه هو الذى يختار ، فالرسالة رحمة من الله يختص بها مَنْ يشاء من عباده .

﴿ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ.. (١٢٤) ﴾ [الأنعام] فالرسالة إنما تجيء لتنشر خيراً في الجميع ، والرسول قد جاء لينشر خيره للآخرين ، وهو نفسه لا ينال من هذا الخير إلا البلاغ به ، ويأمر سيدنا رسول الله قبل أنْ يموت ألاَّ يأخذ أهله الزكاة ، أما ما تركه فقد صار صدقةً للناس(1) .

أي أنه لم ينتفع به في الدنيا ، لذلك فهو مأمون على الرسالة ، ولم يرد أنْ يأخذ الدنيا ليرثها أهله من بعده ، وقد أراده الله كذلك ليكون خيره لكلِّ الناس .

فالرسالة تكليفٌ والنبوة ليس جزاؤها هنا ، بل من عظمة الجزاء أنه في الآخرة ، لذلك لا تقولوا لماذا أرسل محمداً بالتحديد ؟ فإنَّ هذا تدبير الله عز وجل الذي قال : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ .. (٢) ﴾ [يونس]

كيف يتعجبون وقد جئناهم برسول من أنفسهم ، فما كان يصح أنْ يكون أمراً عجيباً لأنه أمر منطقي وطبيعي ، وذلك فضل الله يؤتيه مَنْ يشاء ﴿ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣) ﴾ [آل عمران]

وما دام الفضلُ بيد الله فلن تستطيعوا يا أهل المكر بالمسلمين أنْ تخدعوا الناس عن دينهم وعن رسولهم وقرآنهم ، فالفضل حين يؤتيه الله لمَنْ آمن به فلن ينزعه إلا الله .

---

(1) اجتمع ربيعة بن الحارث وعباس بن عبد المطلب فقالا : والله لو بعثنا هذين الغلامين ، فقال لي وللفضل بن عباس إلى رسول الله ﷺ فأمرهما على هذه الصدقات فأدّيا ما يؤدى الناس وأصابا ما يصيب الناس من المنفعة ، فبينما هما في ذلك جاء علي بن أبي طالب فقال : ماذا تريدان ؟ فأخبراه بالذي أرادا . قال : فلا تفعلا فوالله ما هو بفاعل فقال : لمَ تصنع هذا فما هذا منك إلا نفاسة علينا ، لقد صحبت رسول الله ﷺ ونلت صهره ، فما نفسنا ذلك عليك ... فقلنا : يا رسول الله جئناك لتؤمرنا على هذه الصدقات فنصيب ما يصيب الناس من المنفعة ونؤدي إليك ما يؤدي الناس . قال : فسكت رسول الله ﷺ ورفع رأسه إلى سقفه حتى أردنا أن نكلمه . قال : فأشارت إلينا زينب بنت جحش زوج رسول الله – وقد كانوا في حجرتها – من وراء حجابها كأنها تنهانا عن كلامه وأقبل . فقال : ألا إن الصدقة لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد ، إنما هي أوساخ الناس . [أخرجه أحمد في مسنده (١٧٥١٩) وكذا مسلم في صحيحه (٢٥٣٠)] .

لذلك حينما يقول الحق سبحانه ﴿ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ.. (١٤٠) ﴾ [البقرة] فالسؤال هنا لا يوجد له إلا ردّ واحد ، لأنهم لن يستطيعوا أنْ يقولوا نحن أعلم من الله ، والله لا شكّ أعلم وهذا واقع .

والذى يصطفيه الله ليحمل رسالته إلى الناس إنما يصطفيه لمهمة وتكون مهمته صعبة ، وهو يصطفيه حتى يشيع اصطفاؤه فى الناس ، كأنَّ الله قد خصَّه بالاصطفاء من أجل الناس ومصلحتهم ، سواء أكان هذا الاصطفاء لمكان أم لإنسان أم لزمان ليشيع اصطفاؤه فى كل ما اصْطُفِى عليه .

والاصطفاء من الحق سبحانه يبرئه من كلٍّ ما يمكن أنْ يقع فيه نظيره من الاختيارات غير المُرضية ، والحق سبحانه يريده نموذجاً لا يقع منه إلا الخير .

والمثال الكامل على ذلك اصطفاء الحق سبحانه لرسوله محمد ﷺ من أول الأمر وجَعْله لا يفعل إلا السلوك الطيب من أول الأمر ، وذلك حتى يعطينا الرسولُ القدوة الإيمانية فى ثلاث وعشرين سنة هى مدة الرسالة المحمدية .

والحق سبحانه هو الأعلم بمَنْ يصطفى ، ومشيئة الاصطفاء والاجتباء والاختيار إنما تتم بمواصفات الحق سبحانه ، فهو القائل : ﴿ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ.. (١٢٤) ﴾ [الأنعام]

وفضْل الله بإرسال محمد قد أصاب العالمين جميعاً عربهم وعجمهم ، فهو ﷺ كان رحمة للعالمين ، لذلك قال الحق سبحانه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴾ [الأنبياء]

فالله رحمهم برسول الله وأعطاهم فضْل هذا الدين الخاتم ، فرحمة الله تعالى بمحمد ليستْ رحمةً خاصة به ولا بالعرب ، بل هى رحمة عامة لجميع العالمين ، وهذه منزلة كبيرة عالية .

وقد قال رسول الله ﷺ : « إن الله بعثنى رحمة للعالمين »[1] فقد بُعث رسول الله ليسعد ويُسعد معه قومه والناس أجمعون ، لا ليشقى ويشقى معه الناس .

فقمة رحمة الله للعالمين وفضله أنه سبحانه أرسل محمداً رسولاً خاتماً لا يُستدرك عليه برسول بعده ، لذلك جاءت رسالته الخاتمة متسعة لكلِّ أقضية الحياة التى تعاصرها أنت ويعاصرها مَنْ خلفك إلى يوم القيامة .

والحق سبحانه يختم الآية بقوله : ﴿ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٤) ﴾ [الجمعة] أى : ذو الفضل الهائل الزائد على حاجته ، لأنه ربما يكون عندى فضل ولكنى أُبقيه لأننى سأحتاج إليه مستقبلاً .

والفضل الحقيقى هو الذى من عند الله ، لذلك فإن الله سبحانه وتعالى هو ذو الفضل العظيم لأنه غير محتاج إلى كلِّ خَلْقه أو كوْنه ، لأن الله سبحانه كان قبل أنْ يوجد شيء وسيكون بعد ألاَّ يوجد شيء ، وهذا ما يُسمَّى بالفضل العظيم .

وحين يُوصف الفضل بأنه عظيم فمعنى ذلك أن هناك فضلاً أقلّ من عظيم، كما أن هناك فضلاً يعلوه تمييزاً ، ونعلم أن التفاضل موجود عند البشر ، هذا يتفضّل على هذا بطعام أو يتفضَّل عليه بملبس ، أو يتفضَّل عليه بشراب ، أو يتفضّل عليه بمسكن .

أى : أن هناك أنواعاً متعددة من الفضل ، لكنها لا تُوصف بالعظمة لأن الفضل العظيم يكون من الله تعالى فقط ، لأنه سيؤول إليه كلُّ فضْل من دونه .

فكلُّ فضل هو من الله ومآله مردود إلى الله ، وهذا هو الفضل العظيم ، ونجد أيضاً أن الذى يتفضل على واحد لابد أنه يبغى من وراء هذا الفضل شيئاً مثل

(١) أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (٧٨٠٣) من حديث أبى أمامة رضى الله عنه قال نبى الله ﷺ : « إن الله بعثنى رحمة للعالمين وهدى للعالمين » . وكذا أخرجه أحمد فى مسنده (٢٢٣٦١) والطيالسى فى مسنده (١١٣٤) .

كمال الذات ، وأنه يودّ الحمد والثناء ويبغى راحة نفس .

فالذى يتفضَّل إنما يريد شيئاً ، إما كمال مال أو ثناء وإطراء وراحة نفس من مناظر الإيلام التى يراها ، وهذا دليل على أنه يعانى من نقص ما ويريد أنْ يكمله ، فإذا كان اللهُ عز وجل هو صاحب الفضل أعندَ الله نقصٌ فى كمال ؟! لا .

إذن فهذا هو الفضل العظيم ويمنحه لعباده تفضُّلاً منه دون رغبة فى كمال أو ثناء ، وأيضاً فكلُّ فضل من دون الله يتضمن المنّ ، لكن فضْل الله ليس فيه منّ ، وليس فيه ذلة لأحد ، فالحياة نفسها كلّها هبة منه سبحانه .

وكل مظهر من مظاهر وجودك فى الحياة ومظاهر استبقاء حياتك ومظاهر نعيمك كلها إنْ نسبتها فستصل إلى الله ، وكلُّ شيء فى حياتك إنْ سلسلته ستجد أن أيدى المخلوقات من البشر تنتهى عند خَلْق لله وهبه للإنسان ، وهذا هو الفضل العظيم .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٦٤) ﴾ [البقرة]

فمن فضْل الله على أمة محمد قوله تعالى : ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ[١] إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ[٢] أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ .. (١٨٧) ﴾ [البقرة]

فالله يعلم أن الإنسان لا يقوى على الصوم كلّ الوقت عن الشهوة ، فعندما تركك تختان نفسك ثم أنزل لك الترخيص هنا تشعر بفضل الله عليك .

---

(١) الرفث : ما لا يحسُن التصريح به ويكنى به عن الجماع أو الإفضاء إلى النساء . [القاموس القويم ١/ ٢٧٠] . والرفث : الجماع وغيره مما يكون بين الرجل وامرأته يعنى التقبيل والمغازلة ونحوهما مما يكون فى حالة الجماع . [لسان العرب – مادة : رفث] .

(٢) يختانون : أى تخونون أنفسكم وتُعرضوها لعذاب الله وذلك بمباشرة النساء فى ليالى رمضان قبل إباحة الأكل والشرب والمباشرة طول الليل ، فقد كان ذلك التحريم فى أول فرض الصوم ثم أحلّ الله الأكل وغيره من المغرب إلى الفجر [القاموس القويم ١/ ٢٢٥] .

ومـن فضْـل الله عليكم أنه احترم أثر عملكم ونسبـه لكم حتى وإن احتاج أخوك فهو سبحانه يقول : ﴿ مَنْ ذَا الّذي يُقْرِضُ الله قَرْضًـا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً والله يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْه تُرْجَعُونَ (٢٤٥) ﴾ [البقرة] فجعلها الله قرضاً له سبحانه .

فمـن فضل الله على الإنسان أنه سبحانه حين يطلب من الإنسان بعضاً من المال المتبقى من حركته فهو يطلبه كقرض ويردّه مضاعفاً بعد ذلك .

ومن فضْل الله تبديل السيئات حسناتٍ ، ومن فضل الله أنه جعل المنهج من عنده للناس جميعاً حتى لا يتبع إنسان إنساناً آخر حتى لا يكون هوى إنسان مسيطراً على مقدرات إنسان آخر ، والحق سبحانه لا هوى له .

ومن فضل الله أنه أخفى غيْب الناس عن الناس ﴿ وَمَا كَانَ الله لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ .. (١٧٩) ﴾ [آل عمران] فكلُّ إنسان له هزات مع نفسه ، وقد تأتى له فترة يضعف فيها فى شيء من الأشياء ، فلو كان مَنْ حوله يعرفون غيبه لاستغلوا ما علموه من ضعفه .

وإيـاك أنْ تظـن أن عملك هو الذى سيعطيك الجـزاء . إنما فضل الله هو الذى سيعطيك الجزاء . يقول الحق سبحانه : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ الله وَبِرَحْمَته فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) ﴾ [يونس] فالفضل هو الذى يُفرِح قلب المؤمن .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٥ ﴾

يعطينا الحق سبحانه مثل الذين حُمِّلوا التوراة وهم اليهود ، فهناك صنف يحمل التوراة وهو لا يعرف عنها شيئاً ، فهم حُملوا التوراة ولكنهم لم يحملوها منهجاً وعملاً فكانوا كالحمار .

والحمار لا يستحق الذم لأنه لم يفقه ما فى الأسفار التى يحملها فوق ظهره، ذلك لأن مهمته ليس منها فقه وفهم ما فى الأسفار ، بل مهمته أنْ يحملها فقط وينقلها من مكان لآخر دون أن يفقه ما فيها ولا يعمل بما فيها .

وكأن الحق سبحانه يقول : لا تكونوا مثل الحمار الذى يكتفى من الخير بأنْ يحمله ، ولكن أريد منكم أنْ تحملوا المنهج ، وأنْ تنتفعوا بما يحويه من التشريع .

وقد قال تعالى : ﴿ يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ .. (١٢) ﴾ [مريم] ويحى من أنبياء بنى إسرائيل . ومعنى ﴿ خُذِ الْكِتَـٰبَ .. (١٢) ﴾ [مريم] أى : التوراة وفيها منهج الله الذى ينظم لهم حركة حياتهم ﴿ بِقُوَّةٍ .. (١٢) ﴾ [مريم] أى : بإخلاص فى حِفْظه وحِرْص على العمل به .

فالعلم السماوى والمنهج الإلهى الذى جاءكم فى التوراة ليس المراد أنْ تعلمه فقط بل ولتعمل به ، وإلا فقد قال تعالى فيهم : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا .. (٥) ﴾ [الجمعة]

فقد حمّلهم الله التوراة فلم يحملوها ولم يعملوا بها ، وهم حُملوا التوراة فحملوها بمعنى عرفوها وحفظوها فى كتبهم وفى صدورهم ،ولم يحملوها أى لم يؤدوا حَقَّ حملها ولم يعملوا بها .

أما لفظ (التوراة) فبعض العلماء حين يتعرضون للفظ من الألفاظ فهم يحاولون أنْ يجعلوه من اللغة العربية ، ويحاولون أنْ يعثروا له على وزن من

الأوزان العربية ، وأنْ يأتوا له بصفة من الصفات العربية .

فقال بعضهم عن التوراة : إنها (الوَرْى) بسكون الراء ، وكان الناسُ قديماً يُشعلون النار بضرب عود فى عود آخر . ويقولون : الزند قد ورى . أى قد خرجتْ ناره ، وقال بعضهم : إن الإنجيل من النجْل وهو الزيادة .

وأقول لهؤلاء العلماء : لقد نظرتُم إلى هذه الألفاظ على أنها ألفاظ عربية ، لكن التوراة لفظ عبرى ، والإنجيل لفظ سريانى أو لفظ يونانى ، وصارت تلك الكلمات عَلَماً على تلك الكتب وجاءت إلى لغتنا .

ولا تظنوا أن القرآن ما دام قد نزل عربياً فكلُّ ألفاظه عربية ، لا ، صحيح أن القرآن عربى ، وصحيح أيضاً أنه قد جاء وهذه الألفاظ دائرة على لسان العرب ، وإذا تم النطق بها يُفهم معناها .

والمثال على ذلك أننا فى العصر الحديث أدخلنا فى اللغة كلمة (بنك) وتكلمنا بها فأصبحت عربية ، لأنها تدور على اللسان العربى ، فمعنى أن القرآن عربى أن الله حينما خاطب العرب خاطبهم بألفاظ يفهمونها وهى دائرة فى ألسنتهم وإنْ لم تكُنْ فى أصلها عربية .

والتوراة هى كتاب اليهود ، وقد ذهب موسى عليه السلام لميقات الله ومعه نقباء[1] قومه ليتلقى المنهج والتوراة ، وعندما عاد موسى بالتوراة وبالألواح وجدوا فى تعاليمها مشقة عليهم ، وقالوا : نحن لا نطبق هذا التكليف وفكَّروا ألاَّ يلتزموا به وألا يقبلوه .

والتكليف هو من الله وهم يقولون : إن الله كلَّفهم ما لا يطيقونه ، مع أن الله

---

(١) النقباء : جمع نقيب ، وهو الرئيس على من تحته يتعرف أحوالهم وينقب عن احتياجاتهم ويضمن ما يُطلب منهم ، فهو نقيب عليهم ، قال تعالى : ﴿ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا .. (١٢)﴾ [المائدة] .

جلَّ جلاله لا يُكلِّف نفساً إلا وُسْعها ، فاليهود عندهم التوراة وهم مع ذلك لا يتبعون كتابهم .

ومثال أنهم لا يتبعون ما جاء فى كتابهم ولا يريدون هذا ويتحايلون للتفلّت من أمر الله لهم باتباع التوراة أنهم كانوا إذا عَرَض لهم أمر أو حُكْم يُحكِّمون رسول الله ﷺ فيه .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَـٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٣) ﴾ [المائدة]

فالحق سبحانه يوضح : كيف يأتونك طلباً للحكم منك وعندهم التوراة ، وهم لم يؤمنوا يا محمد بك رسولاً من الله ، فكيف يرضاك مَنْ لم يؤمن بك حكماً ؟

لا بدّ أن فى ذلك مصلحة مناقضة لما فى التوراة ، ولو لم تكن تلك المصلحة مناقضة لنفَّذوا الحكم الذى عندهم ، وهم إنما جاءوك طمعاً فى أنْ تعطيهم حكماً فيه شيء من التسهيل ، وظنُّوا والعياذ بالله أنك قد توفر لهم أكل السُّحْت وسماع الكذب .

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ.. (٤٣) ﴾ [المائدة] وهى مسألة عجيبة يجب أنْ يُفطن لها ، لأن عندهم التوراة فيها حكم الله ، فلو أنهم حكّموك فى أمر ليس فى التوراة لكانَ الأمر مقبولاً .

ولكن أنْ يُحكِّموك فى أمر موجود فى كتابهم التوراة ، فهذا معناه أنهم رغبوا فى الاحتيال وعدم الالتزام بما أنزله الله لهم فى التوراة . وقد استحفظ اللهُ الربانيين والأحبار التوراة ، أى طلب منهم أنْ يحفظوها ، وكان هذا أمراً تكليفياً ، والأمر التكليفى عُرْضة لأنْ يُطاع وعُرْضة لأنْ يُعصى ، واستحفظهم الله التوراة والإنجيل ﴿ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ.. (١٤) ﴾ [المائدة]

وصار أمر المنهج منسياً وليس على بالهم كثيراً ، لأن الأمر إذا توارد على البال واستقرّ دائماً فى بؤرة الشعور يظل فى الذهن ، لكن النسيان يأتى عندما يكون الأمرُ بعيداً عن البال .

والحق سبحانه طلب منهم أنْ يحفظوا المنهج ولكنهم ما عدا النبيين لم ينفذوا، وكلّ أمر تكليفى يدخل فى دائرة الاختيار ، ولذلك نجد أن الأحبار والربانيين قد نسُوا وما لم ينسُوه كتموه ، وأول مرحلة من مراحل عدم الحفظ أنهم نسُوا ، والمرحلة الثانية هى كتمان ما لم ينسوه ، والثالثة هى ما لم يكتموه حرّفوه ولووا به ألسنتهم .

وياليتهم اقتصروا على هذه المراحل فقط ، ولكنهم جاءوا بأشياء وقالوا : هى من عند الله . وهى ليست من عند الله : ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ.. (٧٩) ﴾ [البقرة]

إذن : فالحفظ منهم لم يتم ، لذلك لم يدع الله القرآن للحفظ بطريق التكليف، لأنه سبحانه اختبر البشر من قبل ولأنه سبحانه أراد القرآن معجزةً باقية لذلك لم يكلْ الحق سبحانه أمر حفْظه إلى الخَلْق ، ولكنه تكفَّل سبحانه بأمر حِفْظ القرآن ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ [الحجر]

والحق سبحانه يضرب لنا المثل ليقرِّب لنا الشيء المعنوى فيمثله بأمر حِسىٍّ نراه ونلمسه بأيدينا ، فحمْل التوراة ليس المقصود به حَمْلُه حِسْياً فعلاً ، وإلا أصبح على كلِّ يهودى أنْ يحملَ كتاب التوراة فى يده أو بأىّ طريقة أخرى .

ولكن المقصود هو الحمل المعنوى أى العمل بالتوراة والأخْذ بمنهج الله ، فهم طُلب منهم الالتزام بالتوراة وأحكامها ، ولكنهم لم يلتزموا بل تحايلوا على الانفلات من أحكامها بدعوى أنها شاقة .

حتى أنهم لم يلتزموا إلا بعد رفْع جبل الطور فوق رؤوسهم ، وهذا يحكيه لنا الحق سبحانه فيقول : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا[1] الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١) ﴾ [الأعراف]

أى : خذوا ما آتاكم فى الكتاب بجدٍّ واجتهاد فى الواقع العملى والواقع القيمى ، ولا تأخذوا التكليف بتخاذل ، والإنسانُ عادة يأخذ بقوة ما هو نافع له ، ولذلك فطبيعة مناهج الله أنْ تُؤخذ بقوة وبيقين لتعطى خيراً كثيراً بقوة ويقين .

وإذا أخذتَ منهج الله بقوة فقد أؤتمنتَ عليه وصدرك قد انشرح ، وتريد أنْ تأخذ أكثر .

فهم لم يستجيبوا لأمر الله إلا بعد أنْ رفع الله الجبل فوق رؤوسهم ، فهم لا يرضخون إلا بالآيات المادية ، لذلك رفع الله فوقهم الجبل ، فإما أنْ يأخذوا ما آتاهم الله بقوة ، ويُنفذوا المطلوب منهم ، وإما أنْ ينطبق عليهم الجبل .

حتى أن القرآن عابَ عليهم كيفية تنفيذهم لأمره لهم بذبح بقرة ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً.. (٦٧) ﴾ [البقرة]

فالله أعطى الأمر أولاً ليختبر قوة إيمان بنى إسرائيل ومدى قيامهم بتنفيذ التكليف دون تلكؤ أو تمهل ، ولكنهم بدلاً من أنْ يفعلوا ذلك أخذوا فى المساومة والتباطؤ .

فلو أن إنساناً يعقل أدنى عقل ثم يُطلب منه أنْ يذبح بقرة ، أهذه تحتاج إلى

---

(١) نتقنا الجبل : زعزعناه ورفعناه . والنتق : الزعزعة والهز والجذب والنفض . ونتق الشيء : جذبه واقتلعه . قال الفراء : كان نتق الجبل أنه قُطع منه شيء على قدر عسكر موسى فأظلَّ عليهم قال لهم موسى : إما أن تقبلوا التوراة ، وإما أن يسقط عليكم . [لسان العرب - مادة : نتق] .

إيضاح ؟ لو كانوا ذبحوا بقرة أى بقرة لكان كلّ شيء قد تم دون أيّ جهد ، فما دام اللهُ قد طلب منهم أنْ يذبحوا بقرة ، فكلّ ما عليهم هو التنفيذ .

ولكن انظر إلى الغباء حتى فى السؤال ، إنهم يريدون أنْ يفعلوا أىّ شيء لإبطال التكليف ، فهم أُمِروا بالتكليف ولكنهم لم يعجبهم التنفيذ ، ولم يكُنْ موافقاً لهواهم .

وتعاليم الله ومنهجه بالنسبة لهم ما هى إلا أسفار وكتب ، وقد قال تعالى :
﴿ وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا .. (٩١) ﴾ [الأنعام]

فالكتاب هنا هو الكتاب الذى أنزله الله على موسى وهو التوراة ، وقد جعلوه قراطيس أى جعلوه أوراقاً منفصلة يُظهِرون منها ما يريدون ويُخفون منها ما لا يريدون ، مثلما فعلوا فى مسألة الرجم كعقاب للزنا .

وذلك أن اثنين من يهود خيبر ، رجل وامرأة زَنَيا ، وكان الاثنان من أشراف القوم وأراد قومهما ألاَّ يُبرزوا حكم الله الذى جاء بالتوراة وهو الرجْم ، فاحتالوا حيلة وهى أنْ يذهبوا إلى رسول الله .

إن مجرد ذهابهم إلى رسول الله يعطينا فكرة عنهم ، لقد كانوا يريدون حُكماً مخفّفاً غير الرجم ، إنهم أرادوا أنْ يستنقذوا الزانيين من حكم الرجم لأنهما من أشراف خيبر ، فذهبوا ومعهم الأحبار الذين يريدون أنْ يلووا حكم الله السابق نزوله فى التوراة وهو الرجم .

وعندما دخلوا على رسول الله كان هناك أحدهم يسمى عبد الله بن صوريا[1]

---

(١) عبد الله بن صوريا : كان من بنى ثعلبة بن الفطيون ، وقد كان أعور ، ولم يكن بالحجاز فى زمانه أحد أعلم بالتوراة منه [الروض الأنف للسهيلى] وهناك اختلاف فى إسلامه [الإصابة فى تمييز الصحابة – ابن حجر العسقلانى – ترجمة (٤٧٨٢)] .

فقال لهم رسول الله ﷺ : أيُّكم أعلم بالتوراة ؟ فأشاروا إليه ، فأعطوه التوراة وقالوا : اقرأ فجلس عبد الله بن صوريا يقرأ ، فلما مَرَّ على آية الرجم وضع كفَّه عليها ليُخفيه وقرأ غيرها .

وكان عبد الله بن سلام حاضراً فقال : يا رسول الله أما رأيتَه قد ستر بكفِّه آية وقرأ ما بعدها ؟ وزحزح ابن سلام كفَّ الرجل وقرأ هو فإذا هى آية الرجم[1] .

والحق سبحانه عندما يعطينا المثل بالحمار أو الكلب ليس هذا تحقيراً للحمار أو الكلب ، فالحق سبحانه عندما يُمثّل الذين حُمِّلوا التوراة ولكنهم لم يحملوها ولم يلتزموا بها ولا بتكاليف الله ومنهجه وهو شيء سيء ، فليس معنى هذا أن هذا تحقير للحمار .

وكذلك عندما قال الحق سبحانه : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧) ﴾ [الأعراف]

فالحَمْل على الكلب ، فأنت حين تجلس ويقبل الكلب عليك وتزجره وتطرده

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٤٢٨٠) عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن اليهود جاءوا إلى النبى ﷺ برجل منهم وامرأة وقد زنيا ، فقال لهم : كيف تفعلون بمن زنى منكم ؟ قالوا : نحممهما ونضربهما . فقال : لا تجدون فى التوراة الرجم . فقالوا : لا نجد فيها شيئاً . فقال لهم عبد الله بن سلام: كذبتم . فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ، فوضع مدراسها الذى يدرسها (وهو عبد الله ابن صوريا) منهم كفَّه على آية الرجم فنزع يده عن آية الرجم ، فطفق يقرأ ما دون يده وما وراءها ولا يقرأ آية الرجم فنزع يده عن آية الرجم فقال : ما هذه ؟ فلما رأوا ذلك قالوا : هى آية الرجم فأمر بهما فرُجما قريباً من حيث موضع الجنائز عند المسجد فرأيت صاحبها يجنأ عليها يقيها الحجارة .

وتنهره ، فهذا تفسير لقوله «تحمل عليه» أى أنك تحمل عليه طرْداً أو زجْراً لذلك يلهث ، وإنْ تركتَ الكلب دون حمل عليه طرداً أو زجراً فهو يلهث ، لأن طبيعته أنه لاهث دائماً ، وهذه الخاصية فى الكلب وحده ، حيث يتنفس دائماً بسرعة مع إخراج لسانه .

والحيوانات لا تفعل مثل هذه المسألة إلا إذا كانت جائعة أو متعبة أو مهاجمة ، لكن الكلب وحده هو الذى يفعلها جائعاً أو شبعان ، عطشان أو غير عطشان ، مزجوراً أو غير مزجور إنه يلهث دائماً .

ولكن لماذا يُشبِّهه سبحانه بالكلب اللاهث ؟ فالذى ينسلخ من آيات الله ، ولاحظ أنه يتشابه مع الذى حُمِّل كتاب الله ولكنه لم يحمله ، ولم يُؤَدِّ ما عليه فيه ، فالذى يظهر بهذه الصورة تجده مكروهاً دائماً لأنه مُتبِّع لهواه وتتحكَّم فيه شهواته .

وحين تتحقق له شهوة الآن يتساءل : هل سيفعل مثلها غداً ؟ وتتملك الشهوةُ كلَّ وقته ، لذلك يعيش فى كَرْب مستمر لأنه يخاف أنْ يفوته النعيم أو أنْ يفوت هو النعيم ، ويصير حاله كحال الكلب يلهث آمناً أو غير آمن ، جائعاً أو غيرَ جائع ، عطشان أو غير عطشان .

وكما قال الحق سبحانه عن الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ .. (٥) ﴾ [الجمعة] قال أيضاً عمَّن انسلخ من آيات الله ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا .. (١٧٦) ﴾ [الأعراف]

والذين كذَّبوا بآيات الله هم الكافرون وهم المشركون وهم الذين يرفضون

الإسلام ، ويحاربون الدين ، وهؤلاء جميعاً حدَّد الله لنا مصيرهم .

والذين كذَّبوا بآيات الله هم إما مَنْ كذَّب الرسول فى الآيات الدالة على صدقه ، وهو المبلّغ عن الله ، وهؤلاء دخلوا فى دائرة الكفر ، وإما هم الذين كذَّبوا بآيات المنهج فلم يستخدموا المنهج على أصوله وانحرفوا عن الطريق المستقيم والطريق السَّوى .

هم إذن كذّبوا بآيات الله وكذَّبوا باليوم الآخر ولم يعملوا وفْق منهج الإيمان، فلهم جزاء وعقاب من الحق الذى أنزل هذا المنهج ، ولكنهم أعرضوا عنه وكذَّبوه .

والذين كذَّبوا بالآيات إما أنهم لا يؤمنون بإله ، أو يؤمنون بإله ولا يؤمنون برسول ، أو يؤمنون بإله ويؤمنون برسول ، ولكن لا يؤمنون بما أُنزل على رسول الله ﷺ .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥) ﴾ [الجمعة] فالمطرودون من هداية الله فى المعونة على الإيمان هم الظالمون ، وهو سبحانه منع إعانته للهداية عن ثلاثة أنواع من الناس ، الكافرين والظالمين والفاسقين .

ولكن هل هو سبحانه منع معونة الهداية أولاً ؟ أم أنهم هم الذين ارتكبوا من الضلال ما جعلهم لا يستحقون هداية الله ؟

هم الذين رفضوا حَمْل أمانة الله فى الكتاب الذى أُنزِل عليهم ، ورفضوا الالتزام بمنهج الله وبما جاء به أنبياؤهم من عند الله ، وكانوا كالحمار يحمل أسفاراً وكتباً لا يفهم ممّا فيها شيئاً ، فهكذا هؤلاء أغلقوا قلوبهم عن فَهْم ما يطلبه الله منهم أنْ يلتزموا به .

لذلك لم يستحقوا هداية الله وتوفيقه وإعانته لهم على الإيمان وعلى حُسْن

الإيمان بالله وبرسالاته وأخذ الكتاب الذى أُنزل عليهم بقوة وعزيمة وحُسْن إقبال .

والحق سبحانه يختم الآية بقوله ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ.. (٥) ﴾ [الجمعة] لا يهديهم إلى برهان ولا إلى دليل ولا إلى حجة ، لأن وليَّهم الشيطان .

ونعرف أن الظلم هو نقل حَقٍّ إلى غير صاحبه ، وأعلى مراتب الظلم هو الشرك بالله ، وهو الظلم العظيم ، والسبب فى عدم هدايتهم هو ظلمهم .

فظلمهم هو الذى يمنعهم من الهداية ، والحق سبحانه جعل للعبد أنْ يختار الهداية أو أن يختار الضلال ، وما يفعله العبد ويختاره لا يفعله قَهْراً عن الله، لأنه سبحانه لو لم يخلق كُلاًّ منا مختاراً لما استطاع الإنسانُ أنْ يفعل غير مراد الله .

ولكنه خلق الإنسان مختاراً ، وساعة ما تختار – أيها الإنسان – الهداية أو تختار الضلال فهذا ما منحه اللهُ لك ، وسبحانه قد بيَّن أنَّ الذى يظلم والذى يفسق هو أهْلٌ لأنْ يُعينه الله على ضلاله ، تماماً كما يعين مَنْ يختار الهداية ، لأنه أهْلٌ أنْ يُعينه الله على الهداية .

فعدم وجود الخير بدأ من ناحيتهم ، وسبحانه القائل : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) ﴾ [البقرة] فهم إذن سبقوا بالكفر فلم يَهْدِهم الله .

﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨) ﴾ [البقرة] وهم سبقوا بالظلم فلم يهدهم الله سبحانه وتعالى القائل ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (١٠٨) ﴾ [المائدة] وهم سبقوا بالفسق فلم يهدهم الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ ﴾

النداء لونٌ من ألوان الأساليب الكلامية ، والبلاغيون يُقسِّمون الكلام إلى خبر ، وهو أنْ تخبر عن شيء بكلام يحتمل الصدق والكذب . وإنشاء وهو أنْ تطلب بكلامك شيئاً ، والإنشاء قوْل لا يحتمل الصدق أو الكذب .

والنداء من الإنشاء ، لأنك تريد أنْ تنشىء شيئاً من عندك ، فلو قلتَ : يا محمد فأنت تريد أنْ تنشيء إقبالاً عليك ، فالنداء إذن طلب الإقبال عليك .

وقد تنوَّع النداء فى القرآن الكريم تنوعاً كبيراً ، منه ما هو نداء من الله عز وجل إلى خمسة عشر صنفاً من الناس والجمادات وغيرها ، ومنه ما هو نداء من الرسل لأقوامهم[1] ، ومنه ما هو نداء من الأمم والأقوام لرسلها[2] ، ومنه ما هو نداء من وإلى الملائكة ، ومنه أنواع أخرى كثيرة من النداءات .

---

(١) وهذا كثير فى القرآن ، منه نداء موسى لقومه : ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ باتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ.. (٥٤) ﴾ [البقرة] ، ومنه نداء نوح لقومه : ﴿ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ .. (٥٩) ﴾ [الأعراف] ، ومنه نداء هود لقومه : ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) ﴾ [الأعراف] ، ومنه نداء صالح لقومه ﴿ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (٧٩) ﴾ [الأعراف] ، ومنه قول شعيب لقومه : ﴿ يَٰقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا .. (٨٨) ﴾ [هود] .

(٢) أما نداء الأمم لرسلها ، فمنها ما نادى به قوم نوح نوحاً ﴿ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) ﴾ [الشعراء] . وكذلك هود : ﴿ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) ﴾ [هود] . وكذلك صالح : ﴿ يَٰصَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢) ﴾ [هود] وكذلك شعيب : ﴿ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ .. (٨٧) ﴾ [هود] .

وأكثر نداء ورد فى القرآن الكريم كان من الله عزَّ وجلَّ للمؤمنين ، فجاء نداء ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فى آيات كثيرة جداً تزيد على الثمانين آية ، تخاطب الذين آمنوا بالله وبرسوله ، ولذلك كانت النداءات لهم كلها تأتى وتطلب تكليفات يطالب بها كلّ مَنْ آمن بالمنهج .

والله عز وجل خاطب ونادى المؤمنين مباشرة دون أنْ يقول لمحمد ﷺ (قل) فلم تأت آية نداء للذين آمنوا تبدأ بـ (قُلْ) .

وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) ﴾ [البقرة] وقال : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) ﴾ [آل عمران]

وقال : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) ﴾ [المائدة] وغيرها كثير .

فهو نداء مباشر من الله سبحانه للمؤمنين ، أما عندما خاطب الحق سبحانه الذين هادوا[1] قال : ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ للهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦) ﴾ [الجمعة]

وهو النداء الوحيد الذى جاء بهذه الصيغة للذين هادوا ، ومع هذا جاء مُصدَّراً بقوله (قُل) أى قُل يا محمد ، وهذا يعطى لفتةً أن الله قد غضب عليهم ، وأن هذا إبعادٌ لهم عن أنْ يكونوا أولياء لله ، فضلاً عن أنْ يكونوا أبناءَ له وأحباء لله .

فأنت عندما تغضب من أحد بعد أنْ قرَّبته إليك وأحسنتَ إليه وأنعمتَ عليه

(١) هادوا : هاد إلى الشيء يهود هَوْداً : رجع إليه وتاب وأناب . [القاموس القويم ٢/٣٠٩] وقال الخليل ابن أحمد فى كتاب (العين) : يقال : نُسبوا إلى يهودا وهو أكبر ولد يعقوب ، وحُولت الذال إلى الدال حين عُربت . [باب الهاء والدال] .

ووقفتَ معه في محنه وأنقذته من عدوه ، ولكنه تنكَّر لكلِّ هذا ، حينها لا تخاطبه، وإنْ خاطبتَه جعلتَ بينك وبينه حاجزاً وواسطة تُكلِّمه من خلالها .

والحق سبحانه قد تفضَّل على اليهود بأفضال ، وأنعم عليهم كثيراً ، قال تعالى : ﴿ يَبَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠) ﴾ [البقرة]

ويقول تعالى أيضاً : ﴿ يَبَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ(1) الأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى (٨٠) كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ.. (٨١) ﴾ [طه]

ولكن بني إسرائيل لم يرعَوا حَقَّ الله فيما أنعم عليهم به ، بل افتروا على الله الأكاذيب وقتلوا أنبياءهم .

والحق سبحانه عندما يقول : ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا.. (٦) ﴾ [الجمعة] يقصد أتباع موسى عليه السلام ، وجاء الاسم من قولهم ﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ.. (١٥٦) ﴾ [الأعراف] أي : عُدْنا إليك . فالذين هادوا هم اليهود .

وهاد أي رجع . و (هدنا إليك) أي : رجعنا إليك ، وهذا كلام موسى عن نفسه وعن أخيه وعن القوم الذين عبدوا العجل ثم تابوا .

وتوبتهم كانت حدثاً قاسياً على بني إسرائيل ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤) ﴾ [البقرة]

لقد عبدوا غير الله والأنكى من هذا أنهم عبدوا عجلاً صنعه لهم السامريُّ من

(1) الطور : في كلام العرب الجبل . وقال الفراء : هو الجبل الذي بمدين الذي كلَّم الله تعالى موسى عليه تكليماً . وقال البغوي في تفسيره : الطور جبل بين مصر ومدين . ومعنى ﴿ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ.. (٨٠) ﴾ [طه] أي يمين موسى ، وكانت الشجرة في جانب الجبل عن يمين موسى حين أقبل من مدين إلى مصر، قاله الطبري وغيره فإن الجبال لا يمين لها ولا شمال .

الذهب الذى أخذوه معهم من مصر بعد أن ائتمنهم أهلُ مصر عليه .

وعندما نزل حكم الله بأنْ يقتلوا أنفسهم تكفيراً عن شركهم بالله وقف بنو إسرائيل صفوفاً ، وقال لهم : إن الذى لم يعبد العجل يقتل من عبده ، ولكنهم حين وقفوا للتنفيذ كان الواحد منهم يجد ابن عمه وأخاه وذوى رحمه أمامه فيشقّ عليه التنفيذ ، فرحمهم الله بأنْ بعث ضباباً يسترهم حتى لا يجدوا مشقة فى تنفيذ القتل ، وقيل : إنهم قتلوا من أنفسهم سبعين ألفاً[١] .

وقوله تعالى : ﴿ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ.. (٥٤) ﴾ [البقرة] لأن هذه الأنفس بشهوتها وعصيانها هى التى جعلتهم يتمردون على المنهج ، إنَّ التشريع هنا بالقتل هو كفارة الذنب ، لأن الذى عبد العجل واتخذ إلهاً آخر غير الله ثم يُقدِّم نفسه ليُقتل يعترف بأن العجل الذى كان يعبده إله باطل .

وهو بذلك يعيد نفسه التى تمردتْ على منهج الله إلى العبادة الصحيحة وهذا أقسى أنواع الكفارة ، وهو أنْ يقتل نفسه إثباتاً لإيمانه بأنه لا إله إلا الله ، وندماً على ما فعل وإعلاناً لذلك ، فكأن القتل هنا شهادةٌ صادقة للعودة إلى الإيمان .

لذلك أصبح ﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ.. (١٥٦) ﴾ [الأعراف] دليلاً على وقوعهم فى الشرك الأعظم الذى اقتضى منهم قتْل بعضهم البعض ، وأصبح اسم اليهود دليلاً على هذا الجُرْم الذى محاه قتْل أنفسهم ، ولكنهم لم يكفُّوا عن قتْل الأنبياء والتطاول عليهم ، بل والتطاول على الله عز وجل .

ومن تطاولهم على الله عز وجل أنهم قالوا ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ.. (١٨١) ﴾

---

(١) قال الزهرى : لما قيل لهم : ﴿ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ.. (٥٤) ﴾ [البقرة] قاموا صفين وقتل بعضهم بعضاً حتى قيل لهم : كفوا . وقال بعض المفسرين : أرسل الله عليهم ظلاماً ففعلوا ذلك . وقيل: وقف الذين عبدوا العجل صفاً ودخل الذين لم يعبدوه عليهم بالسلاح فقتلوهم . [أورده القرطبى فى تفسيره ١/٤٠١] وقد قال القرطبى : قال أرباب الخواطر : « ذللوها بالطاعات وكفوها عن الشهوات . والصحيح أنه قتل على الحقيقة هنا » .

[آل عمران] وذلك في قوله سبحانه : ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١) ﴾ [آل عمران]

وتروى لنا السيرة أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه دخل بيت المدراس[1] فوجد من يهود ناساً كثيرين قد اجتمعوا على رجل منهم يُقال له فنحاص ، وكان من علمائهم وأحبارهم ، ومعه حبر يقال له أشيع ، فقال له أبو بكر : ويحك يا فنحاص اتق الله وأسلم ، فو الله إنك لتعلم أن محمداً رسولُ الله من عند الله ، قد جاء بالحق من عنده تجدونه مكتوباً عندكم فى التوراة والإنجيل .

فقال فنحاص : والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة من فقر إنه إلينا لفقير ، ما نتضرَّع إليه كما يتضرَّع إلينا وإنَّا عنه لأغنياء ، ولو كان عنّا غنياً ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم ، ينهاكم عن الربا ويُعطينا ، ولو كان غنياً ما أعطانا الربا .

فغضب أبو بكر رضى الله عنه فضرب وجه فنحاص ضرباً شديداً وقال : والذى نفسى بيده لولا الذى بيننا وبينكَ من العهد لضربْتُ عنقك يا عدو الله فأكذِبُونا ما استطعتم إنْ كنتم صادقين .

فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد أبصر ما صنع بى صاحبك، فقال رسول الله : ما حملك على ما صنعتَ يا أبا بكر ؟ فقال : يا رسول الله إنَّ عدواً لله قال قولاً عظيماً يزعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء ، فلما قال ذلك غضبتُ لله

(١) بيت المدراس : هو الذى يدرسون فيه الكتب ، والمدراس صاحب دراسة كتبهم . [لسان العرب - مادة: درس] . فبيوت المدراس مواضع يتدارس فيها رجال دينهم أحكام شريعتهم وأيامهم الماضية وما جاء فى التوراة والمشنا . فهو إذن مجمع الأحبار والرؤساء وأصحاب الشرف فيهم . [المفصل فى تاريخ العرب] .

مما قال فضربتُ وجهه فجحد فنحاصُ ذلك ، وقال : ما قلتُ ذلك[1] .

فأنزل الله فيما قال فنحاص ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ.. (١٨١) ﴾ [آل عمران] هؤلاء لم يفطنوا إلى عظمة الله عز وجل وتطاولوا عليه سبحانه .

ورغم هذا ادعوْا وزعموا أنهم أبناءُ الله وأحباؤه ، قال الحق سبحانه : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ.. (١٨) ﴾ [المائدة] فيبطل الحق سبحانه زعمهم الباطل فيقول : ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ .. (١٨) ﴾ [المائدة]

فلو كنتُم أبناءَ الله حقيقةً وأحباءه لكنتم نجوتُم من العذاب على ما ارتكبتموه من ذنوب ، والحقيقة أنكم ﴿ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ.. (١٨) ﴾ [المائدة] وستدخلون فى مشيئة المغفرة ، أو المشيئة المعذّبة .

فهم يتوهمون أنهم مهما فعلوا من ذنوب فإن الله لن يعذبهم يوم القيامة، ولكن عدْلَ الله يأبى ذلك ، كيف يُعذِّب بشراً بذنوبهم ثم لا يعذِّب اليهود بما اقترفوا من ذنوب .

فكلُّ هذا غرور وافتراءات ، حتى أنهم ادعوْا أنهم لن تمسّهم النارُ إلا أياماً معدودات[2] ، وزعموا أيضاً أنه ﴿ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى.. (١١١) ﴾ [البقرة]

فاليهود قالوا أنهم سيدخلون الجنة وحدهم ، وقال النصارى نفس القول ،

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم فى تفسيره (٤٦٣٥) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما . وذكره الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول (١/١٢٦) وأخرجه ابن جرير الطبرى فى تفسيره (٨٣٠٠) .

(٢) وهم قصدوا بالأيام المعدودات الأربعون يوماً التى عبدوا فيها العجل ، ثم يُخرجهم ربهم منها . [تفسير الطبرى] وأورد الشوكانى فى تفسيره (فتح القدير) عن مجاهد قال : يعنون الأيام التى خلق الله فيها آدم .

فاحتكرتْ كلُّ طائفة الجنة لنفسها ، وقد ردّ عليهم الحق سبحانه هذه الادعاءات فقال ﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ.. (١١١) ﴾ [البقرة]

والأماني هي أنْ تُعلّق نفسك بأمنية ، وليس لهذه الأمنية سند من الواقع يُوصلك إلى تحقيق هذه الأمنية ، فالأماني هي مطامع الحمقى لأنها لا تتحقق .

ولذلك يقول لهم الحق سبحانه هنا ﴿ قُلْ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا.. (٦) ﴾ [الجمعة] وكأنه سبحانه يُذكّرهم بما تابوا منه سابقاً ، فلا تتمادوا في ادعاءاتكم ومزاعمكم الباطلة ، فسبق أن أخطأتم ثم هُدْتُم إلينا وعُدْتم وتبتم ، فلماذا استمرأتم الافتراء ؟

وها هم يزعمون زعماً آخر ، فيقول لهم الحق سبحانه : ﴿ إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ.. (٦) ﴾ [الجمعة]

وأولياء الله تأتي أحياناً بمعنى المعين للعباد المؤمنين فيكون اللهُ وليَّ الذين آمنوا، أي مُعينهم ومُقوّيهم ، وأولياء الله أيضاً هم الذين ينصرون الله فينصرهم الله .

فمرة تُطلق (الولي) ويُراد بها (المعين) ، ومرة أخرى تُطلق كلمة (الولي) ويُراد بها المُعان ، لأنك إنْ كنتَ أنت وليّ الله والله وليّك فإنْ الحق سبحانه معينٌ لك وأنت مُعان .

فكلمة (ولي) من وليه يليه أي : قريب منك ، وهو أول مَفْزع يَفزع إليه إنْ جاءه أمرٌ يحتاج فيه إلى معاونة من غيره ، وإن احتاج إلى نُصْرة فهو ينصره وخيره يفيض على مَنْ والاه .

فالوليّ هو القريب الناصر المعين الموالي ، فإذا كنتم أولياء الله كما تقولون يُواليكم وينصركم ويُفيض عليكم من فضله وخيره مهما ارتكبتُم من الذنوب، ولن تمسَّكم النار إلا أياماً معدودات ، وأنه لن يدخل أحدٌ الجنةَ إلا إذا كان يهودياً ، فلماذا لا تتمنوا الموت ؟

والحق سبحانه يسألهم هذا، وهو يعلم تمام العلم أنهم لن يتمنوا الموت أبداً، لأنهم كما قال عنهم فى آية أخرى: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) ﴾ [البقرة]

فإنْ كانت الآخرةُ لهم وحدهم عند الله لا يشاركهم فيها أحد، فكان الواجب عليهم أنْ يتمنوا الموت ليذهبوا إلى نعيم خالد، فما دامتْ لهم الدار الآخرة، وما داموا موقنين من دخول الجنة وحدهم، فما الذى يجعلهم يبقون فى الدنيا؟

ألاَ يتمنون الموت ليدخلوا الجنة؟

وقد قال لهم رسول الله ﷺ: «إنْ كنتُم فى مقالتكم صادقين قولوا اللهم أمتْنا، فو الذى نفسى بيده لا يقولها رجل منكم إلا غُصَّ بريقه فمات مكانه، فأبَوْا أنْ يفعلوا وكرهوا ما قال لهم فنزل ﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ.. (٩٥) ﴾ [البقرة] يعنى: عملتْه أيديهم ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) ﴾ [البقرة] إنهم لن يتمنوه فقال رسول الله ﷺ عند نزول هذه الآية: والله لا يتمنونه أبداً[1].

ولأن زعمهم أنهم أولياء لله من دون الناس زعمٌ كاذب فهم ليسوا على يقين من دخولهم الجنة فعلاً، بل قد يكون مصيرهم النار.

وقد قال لهم رسول الله ﷺ: «لو أن اليهود تمنَّوْا الموت لماتوا، ولرأوا مقاعدهم من النار»[2].

إنها الحسرة الكبرى أنْ يجدوا أنفسهم من أهل النار، حينها ينكشف أمرهم

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (١/ ٤٧١) وعزاه للبيهقى فى دلائل النبوة، وهو هناك قال البيهقى: حدثنى الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس. دلائل النبوة (٦/ ٢٧٤).

(٢) أخرج الإمام أحمد فى مسنده (٢٢٢٥) عن ابن عباس قال: قال أبو جهل: لئن رأيت رسول الله ﷺ يصلى عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على عنقه. قال ابن عباس: فقال رسول الله: لو فعل لأخذته الملائكة عياناً، ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم فى النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله لرجعوا لا يجدون مالاً ولا أهلاً. وكذا أخرجه البزار فى مسنده (٤٨١٤) والنسائى فى السنن الكبرى (١٠٩٩٥) وأبو يعلى الموصلى فى مسنده (٢٦٠٤).

وأنهـم ادعوا ادعـاءات ليس لهـا أسـاس ، وقـائمة علـى غرورهم وادعـائهم أنهم شعبُ الله المختار .

وهـم غـير صـادقين ، ولن يتمنـوا المـوت أبداً بمـا قدَّمـتْ أيديهم مـن الذنوب والمعاصى على الاجتراءات على الله ، ويعلمون جيداً أنهم سيُحاسبون عليها ، لذلك قال تعالى : ﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِم وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) ﴾ [البقرة]

والدليل على أنهم لن يتمنوا الموت أبداً أنهم أحرصُ الناس على الحياة ، قال تعالى : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ .. (٩٦) ﴾ [البقرة]

حتى أنهم حريصون على الحياة حرصاً يفوق حرصَ الذين أشركوا ، فالمشرك حريص علـى الحياة لأنه يعتقد أن الدنيا هى الغاية ، واليهود أشدُّ حرصاً على الحياة من المشركين لأنهم يخافون الموت لسوء أعمالهم السابقة.

لذلـك كلما طالـتْ حياتهم ظنُّوا أنهـم بعيدون عن عذاب الآخـرة ، الحياة لا تجعلهم يُواجهون العذاب ، ولذلك فهم يفرحون بها ، ولكن لماذا هم حريصـون على الحياة أكثر من المشركين ؟

إن المشرك لا آخـرةَ لـه ، فالدنيا هى كل همِّه وكلّ حياتـه ، لذلك يتمنى أنْ تطول حياتُه بأىِّ ثمن وبأىِّ شكل ، لأنه يعتقد أن بعد ذلك لا شيء ، ولا يعرف أن بعد ذلك العذابَ ، واليهود أحرصُ من المشركين على حياتهم .

حتى أن الحق سبحانه وتعالى يصـفهم فيقول : ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ .. (٩٦) ﴾ [البقرة] فهم يحبون أنْ يعيشـوا ألف سـنة أو أكثر وهم يظنون أن طولَ أعمارهم وبلوغ الواحد منهم ألف سنة أن هذا سيُنجيهم من العذاب .

ولكـنِ الحق سبحانه يقطع أملهـم من هذا ، فيقول : ﴿ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ .. (٩٦) ﴾ [البقرة] فهَبْ أنه عاش ألفَ سنة أو حتى أكثر من ذلك

أيُزحزحه هذا عن العذاب ؟ لا ، طول العمر لا يغير النهاية .

فما دامت النهاية هي الموت يتساوى مَنْ عاش سنواتٍ قليلة ومَنْ عاش ألوفَ السنين فلن يهرب من العذاب .

والحرص هو تعلُّق النفس وتعبئة جهوده للاحتفاظ بشيء نرى أنه يجلب لنا نفعاً أو يذهب بضُرٍّ ، وهو استمساك يتطلب جهداً .

وقد أعطانا الحق سبحانه مثالاً عملياً على حب اليهود للحياة ، حتى أنهم رفضوا نُصْرة موسى عليه السلام ونُصرة الله ودينه ، قال موسى لقومه : ﴿ يَـٰقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَـٰمُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) ﴾ [المائدة]

ولكنهم قالوا : ﴿ يَـٰمُوسَىٰ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) ﴾ [المائدة] فخلاصة قولهم لموسى عليه السلام : لا تُرهق نفسك ووفّر عليك جهدك ، فنحن لن ندخل هذه الأرض ما دام هؤلاء العمالقة[1] فيها ، وإنْ كنت مُصراً على دخولنا هذه الأرض فاذهب أنت وربُّك فقاتلا ، ونحن بانتظاركما هنا قاعدون .

هكذا بلغ بهم الخوف والحرص على حياتهم أنْ سخروا من موسى وربّ موسى ، إنهم دائماً يعصُون نبيهم موسى عليه السلام بل أنبياءهم جميعاً ، وقد قتلوا البعض منهم ، ومن عصيانهم لمن جاء بعد موسى عليه السلام أن الله عز وجل قال عنهم :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا

---

(١) العمالقة المقصودون هنا هم القوم الجبارون الذين ذُكروا في الآية . قال ابن كثير في تفسيره (٣/٧٥) أي ذوي خِلَقٍ هائلة وقوى شديدة . ومديفة الجبارين هذه هي مدينة أريحا . قاله عكرمة والسدي . قال البغوي (٣/٦٣) : كانوا من العمالقة وبقية قوم عاد .

نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) ﴾ [البقرة]

إنهم يخافون الموت حتى لو كان دفاعاً عن أبنائهم وديارهم ، فهم يدَّعون الالتزام بمنهج الله حتى أنهم قالوا لنبى لهم : ﴿ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ .. (٢٤٦) ﴾ [البقرة]

ولكنهم عند التنفيذ ﴿ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ .. (٢٤٦) ﴾ [البقرة] وحتى عندما بعث الله لهم طالوت ملكاً ليقاتل جالوت المتجبر رفضوا هذا ، يقول تعالى : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ.. (٢٤٧) ﴾ [البقرة]

إن أعينهم على الدنيا دائماً ومقياسهم للأشياء دائماً دنيوى ، المال والثروة عندهم هو الأساس ، وكذلك عنصريتهم المستمدة من الاعتداد بجاههم وسلطانهم ، ثم ﴿ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ .. (٢٤٧) ﴾ [البقرة]

ولكن الله يلفت نظرهم أن مقياسكم خاطىء ، إنما المقياس هو أنه مصطفى من الله ، والله يعلم المصلح من المفسد ، اختاره الله بعلم وحكمة ، ولأن الله اختاره بعلم وحكمة فإنَّ الله يعطينا ويعطي اليهود مسوِّغات تكليف طالوت .

﴿ قَالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ .. (٢٤٧) ﴾ [البقرة] فهو جاء لمهمة تقتضى أنْ يكون قوياً على الحرب والقتال (بسطة فى الجسم)، وأنْ يكون عالماً عليماً حكيماً يقود الأمة بعلم وحكمة (بسطة العلم) .

ولكن لأنهم لا يريدون الآخرة بل يريدون الدنيا تمرَّد الكثير منهم على طالوت، وقد امتحنهم فى طاعته فسقطوا ، يقول الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ

طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ.. (٢٤٩) ﴾ [البقرة]

لقد كان الاختبار فى منعهم مما تصبو إليه نفوسهم ، لأنهم ساعة يروْنَ ما يحبونه ويشتهونه فسيندفعون إليه وينسون أمر الله ، ومَنْ كانت هذه صفته فهو غير مأمون أنْ يكون فى جند الله .

أما الذى يرى الماء ويمتنع عنه وهو فى حاجة إليه فهو صابر قادر على نفسه ، وسيكون من جند الله لأنه آثر مطلوب الله على مطلوب بطنه ، وهو أهْلٌ لأنْ يُبتلى .

فى البداية سبق لهم أنْ تولّوْا وأعرضوا عن القتال إلا قليلاً ، وهنا امتنع عن الشرب قليلٌ من قليل ، وهذه غرابيل الاصطفاء أو مصافى الاختبار .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧ ﴾

القرآن تحدَّاهم أنْ يتمنوْا الموت ولم ولن يتمنوه أبداً ، وكان الكلام المنطقى أنه ما دامت الدارُ الآخرة خالصةً لهم والله تحداهم أنْ يتمنوا الموت إنْ كانوا صادقين لتمنوه ليذهبوا إلى نعيم أبدى .

ولكن الحق سبحانه حكم مُسْبقاً أن ذلك لن يحدث منهم ، لماذا ؟ لأنهم كاذبون ، ويعلمون أنهم كاذبون ، لذلك فهم يهربون من الموت ولا يتمنونه .

ولكن لماذا قطع الحق سبحانه بأنهم ﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا .. (٧) ﴾ [الجمعة] يوضح الحق سبحانه الأمر فيقول : ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ .. (٧) ﴾ [الجمعة]

أى: أن أعمالهم السيئة تجعلهم يخافون الموت، أما صاحب الأعمال الصالحة فهو يسعد بالموت، ولذلك نسمع أن فلاناً حين مات كان وجهه أشبه بالبدر لأن عمله صالح، فساعة الموت يعرف فيها الإنسانُ يقيناً أنه ميِّت.

وقد قال رسول الله ﷺ: « مَنْ أحب لقاء الله أحبَّ الله لقاءه، ومَنْ كره لقاء الله كره اللهُ لقاءه. فقالت عائشة - أو بعض أزواجه - إنّا لنكره الموت. قال: ليس ذاك، ولكن المؤمن إذا حضر الموت بُشِّر برضوان الله وكرامته، فليس شيءٌ أحبّ إليه مما أمامه فأحبّ لقاء الله وأحبَّ الله لقاءه.

وإن الكافر إذا حُضِر[1] بُشِّر بعذاب الله وعقوبته، فليس شيءٌ أكره إليه مما أمامه، كرِهَ لقاءَ الله وكره اللهُ لقاءه »[2].

فالمهتدون الذين التزموا الطريق الموصِّل للغاية، والغاية أن تغمرهم صلواتٌ من ربهم ورحمة، هؤلاء يقول الحق سبحانه عنهم: ﴿ أُولَـٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧) ﴾ [البقرة]

هؤلاء يحبون لقاءَ الله ويحب اللهُ لقاءهم لأنهم مُقدِمون على خير مما هم فيه من الدنيا، فتجد علامات البشرى على وجوههم لحظة الاحتضار بما عملوا من الصالحات.

أما الذين أسلموا فى الدنيا وظلموا أنفسهم بالتمرد على منهج الله كهؤلاء اليهود الذين يحفل سجلُهم التاريخى - منذ أنْ كان هناك شعبٌ يهودى -

---

(١) حُضِر: واحتُضر مبنى للمفعول يقالان فيمن حضره الموت. قاله ابن طريف. وقال برهان الدين الخوارزمى فى (المغرب فى ترتيب المعرب) احتضر: مات لأن الوفاة حضرته أو ملائكة الموت ويقال: فلان محتضر أى قريب من الموت. (٨/٢).

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥٠٧) وأورده ابن الأثير فى جامع الأصول فى أحاديث الرسول (٧٣٦٧) وعزاه للبخارى ومسلم والترمذى والنسائى، وعند بعضهم اقتصروا على (من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه) دون زيادة ما قالته عائشة.

يحفل سجلهم بمعصية الله والتحايل على عدم تنفيذ أوامر الله .

هؤلاء تجدهم يكرهون لقاءَ الله لأنهم يدركون ما فعلوه فى الدنيا وما قدَّمَتْ أيديهم فيخافون من لقاء الله ويودُّون لو لم يكُنْ هناك بَعْثٌ أو حساب .

والإنسان إذا مرض يأمل فى الشفاء ويستبعد الموت ، ولكن ساعة الغرغرة يتأكد الإنسان أنه ميت ويستعرض حياته فى شريط عاجل ، فإنْ كان عمله صالحاً تنبسط أساريره ويفرح لأنه سينعم فى الآخرة نعيماً خالداً ، لأنه فى هذه الساعة - والروح تغادر الجسد - يعرف الإنسانُ مصيره ، إما إلى الجنة وإما إلى النار .

وتتسلَّمه إما ملائكة الرحمة وإما ملائكة العذاب ، فالذى أطاع الله يستبشر بملائكة الرحمة ، والذى عصى وفعل ما يُغضب الله يستعرض شريط أعماله ، فيجده شريطَ سوء وهو مُقْبِل على الله ، وليست هناك فرصة للتوبة أو لتغيير أعماله .

عندما يرى مصيره إلى النار تنقبض أساريره وتُقبض روحه على هذه الهيئة، فيقال : مات فلان وهو أسود الوجه منقبض الأسارير . إذن : فالذى أساءَ فى دُنياه لا يتمنى الموتَ أبداً ، أما صاحب العمل الصالح فإنه يستبشر بلقاء الله .

وقد يسأل سائلٌ : الله يطلب منهم أنْ يتمنوا الموت ، كيف ورسول الله ﷺ نهى عن تمنِّى الموت فقال : « لا يتمنينَّ أحدكم الموتَ ولا يدعو به من قبْل أنْ يأتيه إلا أنْ يكون قد وثق بعمله »[1] .

نقول : إنَّ تمنى الموت المنهى عنه هو تمنِّى اليأس وتمنِّى الاحتجاج على المصائب، يعنى يتمنى الموت لأنه لا يستطيع أنْ يتحمل قَدَرَ الله فى مصيبة حدثتْ له .. أو يتمناه احتجاجاً على أقدار الله فى حياته ، هذا هو تمنِّى الموت المنهيّ عنه .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٨٥٩٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . بهذا اللفظ وتمامه : «فإنه إن مات أحدكم انقطع عنه عمله وإنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيراً » . قال شعيب الأرناؤوط : صحيح دون قوله « إلا أن يكون قد وثق بعمله » فإنها زيادة منكرة . وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٧٥٧٠) : « فيه ابن لهيعة وهو مدلس وفيه ضعف وقد وُثِّق وبقية رجاله رجال الصحيح » .

أما صاحب العمل الصالح فمستحبٌّ له أن يتمنى لقاء الله ، واقرأ قوله تعالى فى آخر سورة يوسف : ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .. (١٠١) ﴾ [يوسف] ثم قال ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١) ﴾ [يوسف]

وقوْل رسول الله ﷺ أى : لا تتمنوا الموت جزعاً مما يصيبكم من قدر الله ، ولكن اصبروا على قدر الله .

وقد ورد الحديث الشريف الذى يُرشدنا إذا ضاقتْ بنا الحياة ألاَّ نتمنى الموت، بل نقول : « اللهم أحْينى ما كانت الحياةُ خيراً لى ، وتوفَّنى ما كانت الوفاةُ خيراً لى »[1] .

وقُلنا : إنَّ تمنى الموت المنهيّ عنه ما كان فيه اعتراضٌ على قدر الله وتمرُّد على إرادته سبحانه ، كأن تكره الحياة والعيش إذا ضاقَ بك فتتمنَّى الموت ، أما أنْ تتمنى الموت لعلمك أنك ستصير إلى خير مما تركتَ فهذا أمر آخر .

ومَنْ يَعْصِ الله ويتمرَّد على أمره لا يتمنى الموت بما قدَّمت يداه ، ولكن هل معنى ذلك أن كل المعاصى من تقديم اليد فقط ؟ إن هناك معصيةً للعين ، ومعصية للسان ، ومعصية للرِّجْل ، ومعصية للقلب ، ولا حصرَ للمعاصى .

فلماذا إذن قال الحق سبحانه ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ .. (٧) ﴾ [الجمعة] قال الحق ذلك لأن الأعمال الظاهرة تُمارس عادة باليد ، فاليد هى الجارحة التى نفعل بها أكثر أمورنا ، وعلى ذلك يكون قوْل الحق ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ .. (٧) ﴾ [الجمعة] مقصودٌ به بما قدّموا ، بأيِّ جارحة من الجوارح .

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه من حديث أنس بن مالك (٦٣٥١) قال قال رسول الله ﷺ : « لا يتمنين أحد منكم الموت لضر نزل به ، فإن كان لابد متمنياً الموت فليقل : اللهم أحينى ما كانت الحياة خيراً لى ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى » . وكذا أخرجه مسلم فى صحيحه (٦٩٩٠) .

فالذنوب إما أقوال وإما أفعال وإما عمل من أعمال القلب ، كالحقد مثلاً أو النفاق .. إلخ لكن فى الغالب ما تُزاول بالأيدى .

ولكن ما الذى قدَّمتْه أيدى اليهود ، وبسبب ما قدمته أيديهم لنْ يتمنوا الموت لأنهم يخافون من عقابهم الأبدى ، على ما قدَّموه ؟

فمما قدَّمته أيديهم عبادتهم العجل ، قال تعالى : ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨) ﴾ [الأعراف]

لقد احتالوا على أهل مصر وأخذوا منهم الحُليّ كسُلْفة سيردُّونها من بعد ذلك، ثم جاء رحيلهم فأخذوا الحُلىَّ معهم ، وغرق قوم فرعون وبقيتْ الحُلىُّ مع قوم موسى ، وصنع موسى السامرى من ذهب هذه الحُلىِّ عجلاً .

وقد صنعه من الذهب وكأنه يريد أنْ يتميز عن الآلهة التى كانت من الأحجار، وحاول أنْ يجعله إلهاً نفيساً فصنعه من الحلى المسروقة .

لقد اتخذوا العجل بعد أنْ أتمَّ الله عليهم المنَّة العظيمة حين أنجاهم من فرعون وجنوده ، بل أغرق فرعون وجنوده وحاشيته .

وحدث أنه بعد أنْ جاوز الحقُّ سبحانه ببنى إسرائيل البحر ومرُّوا على قوم يعبدون الأصنام ، فقالوا لموسى عليه السلام : ﴿ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ..(١٣٨) ﴾ [الأعراف]

لقد قالوا ذلك وهم ما زالوا مغمورين فى نِعَم الله إنجاءً من عدو واستخلافاً فى الأرض ، ومع ذلك فبمجرد أنْ خرجوا إلى البَرِّ ورأوا جماعة يعبدون صنماً طالبوا موسى أنْ يجعل لهم صنماً يعبدونه .

لذلك توعدهم الحقُّ سبحانه فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ

مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢) ﴾ [الأعراف]

وقد نالهم الغضب من ربهم ونالتْهم الذلّة والخزى فى الحياة الدنيا بأنْ أمرهم بأنْ يقتلوا أنفسهم إنْ كانوا من التائبين ، يقول تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَـٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤) ﴾ [البقرة]

وهذه مخالفة خطيرة لمنهج الله ، وهى مخالفة فى القمة ، فى عبادة الله وحده .

ومما قدَّمتْ أيديهم أنهم طلبوا رؤية الله جَهْرة فهم لم يؤمنوا حقيقة ، إنما هم مؤمنون بالمادة المحسَّة المرئية لهم ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦) ﴾ [البقرة]

فبعد أنْ تاب الله على قوم موسى بعد عبادتهم للعجل عادوا مرة أخرى إلى عنادهم وماديتهم ، فهم كانوا يريدون إلهاً مادياً ، إلهاً يرونه ، ولكن الإله من عظمته أنه غَيْب لا تدركه الأبصار .

إنهم يطلبون رؤية جهرية واضحة يدركونها بحواسِّهم ، فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون ، بسبب اجترائهم هذا ، فأنت عندما ترى شيئاً بعينيك تكون قد حدَّدته فى حيِّز ، وهذا لا يجوز على الحق سبحانه .

وقد قدَّمت أيديهم أربعة جرائم أخرى ارتكبوها ويرتكبونها ، يقول الحق سبحانه : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ[1] بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥٥) ﴾ [النساء]

هذه أربع جرائم ما زالوا يرتكبونها وهم قائمون عليها ، لذلك عبَّر الحق

---

(١) غلف : قال ابن عباس : غلف : مملوءة علماً لا تحتاج إلى علم محمد ﷺ ولا غيره [الدر المنثور للسيوطى ١/ ٤٦٠] ومن قوله أيضاً : فى غطاء ، فى أكنة ، هى القلوب المطبوع عليها ، عليها غشاوة. ذكره مجاهد . وقال قتادة : لا تفقه .

سبحانه بذكر الاسم لا الفعل ، فقال (نقضهم) (كفرهم) (قتلهم الأنبياء) (قولهم قلوبنا غلف) .

فالاسم يفيد الديمومة والاستمرار بعكس الفعل الذى يُعبر عن زمن ويكون محدوداً بصيغته .

فهم مستمرون على نَقْض المواثيق والعهود ، ومستمرون على كفرهم بآيات الله سواء التى نزلتْ فى التوراة تُبشر برسول الله ، أو آيات القرآن الكريم الذين طُولبوا بالإيمان به فرفضوا ، وقد ذهبوا بعيداً فى الاجتراء على الله فقتلوا أنبياءه .

ومما قدَّمته أيديهم أنهم كانوا يكتبون الكتاب بأيديهم، ثم يدَّعُون أنه من عند الله ، وفى ذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩) ﴾ [البقرة]

فالله سبحانه يريد هنا أنْ يُبين لنا مدى تعمد هؤلاء للإثم ، فهم لا يكتفون مثلاً بأنْ يقولوا لغيرهم : اكتبوا ، ولكن لاهتمامهم بتزييف كلام الله سبحانه وتزويره يقومون بذلك بأيديهم ليتأكدوا أن الأمر قد تمَّ كما يريدون تماماً .

فليست المسألة نزوة عابرة أو أمراً عارضاً ، بل هو مع سبق الإصرار والترصُّد ، لذلك استحقُّوا عقاب الله ، وقد بدأت الآية الكريمة بقوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ .. (٧٩) ﴾ [البقرة] ثم جاء قوله تعالى : ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩) ﴾ [البقرة]

فساعة الكتابة لها ويل وعذاب ، وساعة بيْع الصفقة لها ويل وعذاب ، والذى يكسبونه هو ويل وعذاب .

﴿ أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦) ﴾ [البقرة] ومن اشترائهم الضلالة بالهدى أولئك الذين نزل فيهم قول الله

عز وجل ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا .. (٧٧) ﴾ [آل عمران]

فواقعة الحال التى نزلت فيها الآية هى أن جماعة فى عهد جدب ومجاعة دخلت على كعب بن الأشرف[١] اليهودى يطلبون منه الميرة أى الطعام والكسوة، فقال لهم : هل تعلمون أن هذا الرجل رسولُ الله ؟ قالوا : نعم . قال : إنِّى هممتُ أنْ أطعمكم وأنْ أكسوكم ، ولكن الله حَرَمكم خيراً كثيراً ، وتساءلوا : لماذا حرمنا اللهُ خيراً كثيراً ؟

وجاءتهم الإجابة : لقد أعلنتم الإيمان بمحمد : فلما وجدوا أنفسهم فى هذا الموقف قالوا لكعب بن الأشرف : دَعْنا فترة لأنه ربما غلبتْنا شبهة فلنراجع فيها أنفسنا .

وبعدما مرَّتْ الفترة فضَّلوا الطعام والكسوة على الإيمان، وقالوا لكعب ابن الأشرف : لقد قرأنا فى كتبنا الموجودة لدينا خطأ ، ومحمد ليس رسولاً فأعطاهم كعبٌ القوتَ والكسْوة[٢] .

فهل تظنون أن أناساً كهؤلاء من الممكن أنْ يتمنوا الموت ؟ أولئك الذين يقول الله فيهم ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا

---

(١) كعب بن الأشرف : رجل من نبهان من طيىء وأمه من بنى النضير . كنيته أبو نائلة . كان أبوه قد أصاب دماً فى الجاهلية فقدم المدينة وحالف يهود بنى النضير وتزوج عقيلة بنت أبى الحقيق فولدت له كعباً ، وكان شاعراً ناصب الإسلام العداء .

(٢) أورده الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول (١/١٠٦) من قول الكلبى : إن ناساً من علماء اليهود أولى فاقة أصابتهم سنة فاقتحموا إلى كعب بن الأشرف بالمدينة فسألهم كعب : هل تعلمون أن هذا الرجل رسول الله فى كتابكم ؟ قالوا : نعم وما تعلمه أنت ؟ قال : لا فقالوا : فإنا نشهد أنه عبد الله ورسوله .. قال : لقد حرمكم الله خيراً كثيراً لقد قدمتم عليَّ وأنا أريد أن أميركم وأكسو عيالكم فحرمكم الله وحرم عيالكم . قالوا : فإنه شُبِّه لنا ، فرويداً حتى نلقاه ، فانطلقوا فكتبوا صفة سوى صفة ، ثم انتهوا إلى نبى الله فكلموه وسائلوه ثم رجعوا إلى كعب وقالوا : لقد كنا نرى أنه رسول الله ، فلما أتيناه إذا هو ليس بالنعت الذى نعت لنا ، ووجدنا نعته مخالفاً للذى عندنا وأخرجوا الذى كتب فنظر ومارهم وأنفق عليهم . فأنزل الله تعالى هذه الآية .

قَلِيلًا مِنْهُمْ .. (١٣) ﴾ [المائدة]

وفـى آية أخرى يقول الحق سبحانه : ﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا[1] لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ.. (٤٦) ﴾ [النساء]

ويقول تعالى : ﴿ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨) ﴾ [آل عمران]

فهـم يفتلون بعض المعانى المستنبطة من الكلمات حتى يُوهموا المؤمنين بأن هذه المعانى غير المرادة وغير الصحيحة هى معانٍ مُرادة لله وصحيحة المعنى ، إنهم يدَّعُون على المنهج المنزَّل من السماء ما ليس فيه .

ولذلك يقول سبحانه : ﴿ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ .. (٧٨) ﴾ [آل عمران] إنهـم عندما يلوون ألسنتهم بالكتاب يُحرِّفونه رغبةً فى التلبيس والتدليس عليكم لتظنوا أنه من الكتاب المنزَّل من عند الله على رسولهم .

وهـم لم يكتفوا بتحريف كتابهم والدسّ فيه وكتمان ما فيه ، بل عمدوا إلى صَدِّ المؤمنين عن الإسلام والقرآن ، فأرادوا أنْ يُشككوا المسلمين فى أمر المنهج، لذلك اصطنعوا حيلةً ذكرها الحق سبحانه في قوله :

﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ[2] النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢) ﴾ [آل عمران]

وهـذا خلطٌ للحق بالباطل وخداع للمؤمنين ، فحاول بعض أهل الكتاب من اليهود أنْ يخدعوا المؤمنين بإعلان الإيمان أوّل النهار ثم إعلان الكفر آخره،

---

(١) راعنا : التى تقصدون بها - أيها المؤمنون - الرعاية والمراقبة بقصد الخير وحفظ الجانب ، فاغتنمها اليهود لموافقة كلمة سيئة عندهم فصاروا يلوون بها ألسنتهم ويقصدون بها الرعونة وهى إفراط الجهالة ، فنهاهم عن موافقتهم فى القول [محاسن التأويل للقاسمى] .

(٢) وجه النهار : أوّله . فوجه النهار : أول النهار . قال مجاهد وقتادة والزجاج . [زاد المسير لابن الجوزى ٣٦٣/١] .

والهدف بطبيعة الحال هو إشاعة الشكّ وزرع البلبلة فى نفوس المؤمنين بخصوص هذا الدين .

فقد يقول بعض القرشيين أو العرب : لقد اختبر أهلُ الكتاب هذا الدين الجديد وهم أهلُ علمٍ بمناهج السماء ، ولم يجدوه مطابقاً لمناهج السماء .

ولذلك عندما سألهم أهل قريش عن هذا الدين وسألوهم : أنحن أهدى أم محمد ؟ قالوا : بل أنتم الذين على الهدى . يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ[١] وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١) ﴾ [النساء]

فقد سأل كعبُ بن الأشرف أبا سفيان : ماذا فعل محمد معكم ؟ قال له : فارقَ دين آبائه وقطع رحمه وتركهم وفرّ إلى المدينة ونحن على غير ذلك ، نحن نسقى الحجيج ونقري[٢] الضيف ، ونفك العاني[٣] ونصل الرحم ، ونعمر البيت ، ونطوف به .

وعظّم أبو سفيان فى أفعال قريش ، فقال الذين أوتوا الكتاب لعداوتهم لمحمد قالوا لأبى سفيان وقومه : أنتم أهدى من محمد سبيلاً[٤] .

(١) الجبت : قال ابن الجوزى فى زاد المسير (٢/٤٥) : فيه سبعة أقوال : السحر ، الأصنام ، حى بن أخطب، كعب بن الأشرف ، الكاهن ، الشيطان ، الساحر . وذكر لكل قول قائلاً . قال أبو هلال العسكرى فى كتاب (الفروق اللغوية) : قيل : الجبت والطاغوت هما كل ما عُبد من دون الله من حجر أو صورة أو شيطان . (١/١٥٤) .

(٢) قرى الضيف قرى : أضافه . واستقرانى : طلب منى القرى . والمقراة : القصعة التى يقرى الضيف فيها. [المحكم والمحيط الأعظم - مادة قرى] .

(٣) العانى : الأسير . ويقال : العانى العبد والعانية الأمَة : وقال فى المعجم الوسيط : العانى الذليل والأسير . وكل من ذل واستكان فقد عَنَا .

(٤) أورده القرطبى فى تفسيره (٥/٢٤٩) أن كعب بن الأشرف خرج فى سبعين راكباً من اليهود إلى مكة بعد وقعة أُحد ليحالفوا قريشاً على قتال رسول الله ﷺ ، فنزل كعب على أبى سفيان فأحسن مثواه ونزلت اليهود فى دور قريش فتعاقدوا وتعاهدوا ليجتمعن على قتال محمد ، فقال أبو سفيان : إنك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم ونحن أميون لا نعلم ، فأينا أهدى سبيلاً وأقرب إلى الحق . نحن أم محمد ؟ فقال كعب : أنتم والله أهدى سبيلاً مما عليه محمد .

لذلك قال عنهم الحق سبحانه : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (٥٢) ﴾ [النساء] وذلك جزاء صدهم عن سبيله وتفضيلهم الكافرين الوثنيين على مَنْ بشَّرت به كتبهم ، بل زوّروا القول ، إذا كيف يصير المشركون عبدة الأصنام أهدى من محمد سبيلاً .

فكيف يلاقى هؤلاء الحقَّ سبحانه يوم القيامة ؟ فبأيِّ وجه يقفون أمام الله؟ لذلك كان من المستحيل عليهم أن يتمنوا الموت أو يُحبون لقاء الله ، فهم قد أُشربوا حُبَّ معصية الله والتمرد على أوامره .

فلا هم يستطيعون تصوُّر أنهم سيموتون ويُحاسبون على ما قدمت أيديهم، وما فعلوه وما اكتسبوه ، ولا هم يستطيعون الخروج عن طبائعهم الشريرة الدنية .

لذلك كانوا ظالمين لأنفسهم قبل أنْ يكونوا ظالمين لمن أضلوهم ، ويقول سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٧) ﴾ [الجمعة]

فالله عليم بظلمهم ومعصيتهم ، هذا الظلم والمعصية هو الذى يجعلهم يخافون الموت ولا يتمنونه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾

فالحق سبحانه يخاطب نبيه ورسوله محمداً ﷺ أنْ يقول لهؤلاء الناس من أهل الكتاب الذين يظنون أنهم لن يموتوا ، أو أنهم مخلدون فى الأرض ، أو أنهم

يستطيعون أن يفروا من الموت .

فالحق سبحانه يقول له (قل) ، فالله تعالى لم يُرد أنْ يخاطبهم مباشرةً لعِظم ما افتروا على الله سبحانه ، ولعظيم ما منَّ الله عليهم به طوال تاريخهم ، فلغضبه سبحانه من أفعالهم وصنيعهم وجَّه نبيه ﷺ أنْ يخاطبهم .

لقد كانوا سابقاً الأمناء على وحى الله وكتبه واستُحفِظوا عليها ولكنهم نقضوا عهودهم ومواثيقهم مع الله ، فانتقل ميراث النبوة منهم إلى غيرهم ، فانتقل الوحى إلى محمد ﷺ .

لقد أصبحوا مخاطبين من قِبَل رسول الله ، فالله يرسل إليهم ما يريده من خلال رسول الله محمد ، فقال لنبيه (قل) .

إنهم يريدون أنْ يفروا من الموت لأنهم لم يفعلوا شيئاً حسناً يكون لهم ذُخْراً يوم يقابلون الله فى يوم لابدّ أنه آتٍ ، لقد نسوا أنَّ الموتَ مُقدَّر على الناس جميعاً ، وأن الحياة الدنيا هى مرحلة بين قوسين .

القوس الأول هو أن الله يخلقنا ويُوجدنا وتمضى رحلة الحياة إلى القوس الثانى الذى تخمد فيه بشريتنا وتتوقف حياتنا وهو الموت . أى أننا فى رحلة الحياة من الله وإليه ، إذن : فحركة الحياة الدنيا هى بداية من الله بالحق ونهاية بالموت .

ولا أحدَ يملك الحياة أو الموت ، فإنْ كان أحدٌ يملك هذا فليمنع إنساناً واحداً أنْ يموت ، والموت نقْضٌ للحياة ، وقد أخفى الله تبارك وتعالى عنّا الموت زماناً ومكاناً وسبباً وعمراً ، لم يُخفه ليحجبه ، وإنما أخفاه حتى نتوقعه فى كلِّ لحظة .

وهذا إعلامٌ واسع بالموت حتى يُسرع الناسُ إلى العمل الصالح وإلى المثوبة،

لأنــه لا يوجـد عمـر مُتيقّن فى الدنيا فلا الصـغيرُ آمـنٌ على عمره ، ولا الشـابُّ آمـنٌ علـى عمره ، ولا الكهلُ آمن على عمره ، ولذلك يجب أنْ يسـارع كلٌّ منّا فى الخيرات حتى لا يفاجئه الموت ، فيموت وهو عَاصٍ .

فصـاحب الالتزام بالمنهج يطمئن إلى لقاء ربه ، ويطمئن إلى جزائه ، والذى لا يؤمـن بالآخرة أخذ مـن الله الحياة فأفناها فيما لا ينفع ، ثم بعد ذلك لا يجد شيئاً إلا الحساب والنار .

والنعمـة التـى أنت فيها زائلة عنـك ، إما أنْ تتركها بالمـوت ، أو تتركك هـى وتزول عنك ، وتخرج من الدنيا تحمل أعمالك فقط ، كلّ شيء زال وبقيتْ ذنوبك تحملها إلى الآخرة .

وعند مواجهة الموت ونهاية العمر يصـبح الإنسـانُ مقهـوراً وليس مختاراً ، فهو لا يملك شـيئاً لنفسـه ولا يسـتطيع أنْ يقول لن أموت الآن ، انتهتْ بشريته ، وانتهتْ سيطرته على نفسه حتى أعضاؤه تشهد عليه .

والحق سبحانه يؤكد أمر ملاقاة الموت هنا باستخدام لفظ (إن) ويستخدمه مرتـين فـى نفس الآية فيقول : ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ .. (٨) ﴾ [الجمعة]

فلا يحسـب أحدٌ أنه سـيفلت من الموت وملاقاة الله سـبحانه لأنه كما يقول عـز وجـل : ﴿ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا .. (١٤٨) ﴾ [البقرة] أى : أنه ليس هناك مكانٌ تستطيعون أنْ تختفوا فيه عن علم الله تبارك وتعالى .

فالحـقُّ جلَّ جلاله يريدنـا أنْ نعرف يقيناً أننا لا نسـتطيع أنْ نفرَّ من علمه ولا مـن قَدَره ولا من عذابه ، وأن الطريق الوحيد المفتوح أمامنا هو أنْ نفرَّ إلى الله ، وأنـه لا منجـاةَ مـن الله إلا إليه ، ولذلك لا يظنّ كافر أو عاصٍ أنه سـيفلت من الله .

والإنسـان قد يسـتقبلُ الموت فـى أيّ لحظة ، فلا أحدَ بقـادر علىٖ الاحتياط من الموت لا زمانـاً ولا مكانـاً ، وهـا هـو ذا الحق سبحـانه يقول : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ .. (٧٨) ﴾ [النساء]

فالعقـل البشرى الذى يتوهم أنَّ بإمكانه الاحتياطَ من الموت مكاناً عليه أنْ يعى جيداً أنه لا يسـتطيع ذلك ، فوجود الشـخص عند ظرف ما لا يدفع ولا يمنع عنه الموت .

فالمـوت مخلوق بسرٍّ دقيق للغاية يناسـب دقَّة الصـانع ، وهـو لطيف يأتى الإنسـان ويدهمـه فـى لحظة ومكان غـير معلوميْن له ، والحق سـبحـانه يقول : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ .. (٧٨) ﴾ [النساء]

وكلمة (يدرككم) دليل على أن الإنسان عندما تدبّ فيه الروح ينطلق الموت مع الروح إلى أنْ يدركها فى الزمن الذى قدَّره الله .

وكلمة (يدرك) توضـح لنا أنَّ الموتَ يلاحق الروحَ حتى إذا أدركها سـلبها ، وكما قال الأثر الصـالح عن ملاحقة الموت للحياة : « حتى إذا أدركها جرتْ لا أحدٌ منكم إلا هو مُدْرَك » .

ولذلك يقول أهل المعرفة والاستشراق : « الموت سهم أُرسل إليك وإنما عمرك هو بقدر سفره إليك » .

فالمـوت يلاحق حياة الإنسـان ويجرى وراء روحه حتـى يدركها ، فالموت سهم أُرسِل وعمرك بقدر سفره إليك[1] ، فالموت واقع لا محالة .

والدليـل على هذا هو اسـتخدام الحق سـبحـانه للفظة (تفـرون) فهم يفرون من الموت ، هم يجرُون والموت يجرى وراءهم ، إنهم يفرُّون هرباً لعدم ملاقاة الموت وخشية أنْ يدركهم ويلحق بهم .

---

(١) أورده الثعالبى فى كتاب (الإعجاز والإيجاز) من قول عبد الله بن المعتز (الموت سهم مرسل إليك عمرك بقدر سفره إليك) .

ولكن الحق سبحانه يقطع أملهم فى هذا، ويحبط آمالهم وتمنياتهم بأنهم يستطيعون الفرار من الموت والهرب منه، فيقول تعالى: ﴿ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ .. (٨) ﴾ [الجمعة]

والقرآن يتميز بأسلوبه البديع فى التعبير عن الحدث وتصويره فى صورة حِسّية مُشاهدة بالأبصار، أناس يفرُّون من شيء ما، وهذا الشيء يطاردهم حتى يدركهم، فقال: ﴿ يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ .. (٧٨) ﴾ [النساء]

ولكنه هنا يقول لمحة أخرى ﴿ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ .. (٨) ﴾ [الجمعة]، والملاقاة فيها معنى المقابلة وجهاً لوجه، وهذا غير تعبير (يدرككم) الذى يعنى الملاحقة والإدراك.

ومعنى الإدراك والدرك يتضح فى قوْل الحق سبحانه: ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) ﴾ [الشعراء]

فعندما لحق فرعون وجنوده بموسى وقومه، وصار كلٌّ منهما يرى الآخر، عندها ﴿ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) ﴾ [الشعراء]

فالحال أن البحر من أمامهم وجنود فرعون من خلفهم، فلا مناصَ ولا مهرب، ولكن الحق سبحانه طمأنهم وطمأن موسى عليه السلام فقال: ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ[١] بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى (٧٧) ﴾ [طه]

فمعنى ﴿ لَا تَخَافُ دَرَكًا .. (٧٧) ﴾ [طه] أى: لا تخفْ من فرعون أنْ يدركك. فسيدنا موسى عليه السلام عندما أراد أنْ يأخذ بنى إسرائيل من فرعون ويخرج بهم وقبل أنْ يصل بهم إلى البحر تنبَّه لهم قوم فرعون وجاءوا بجيوشهم وكان

---

(١) أسر بعبادى: أى سر بهم ليلاً من أرض مصر. [تفسير البغوى ٥/٢٨٦] قال علم الدين السخاوى فى تفسيره: الإسراء لا يكون إلا ليلاً. وقال فى مختار الصحاح: سرى يسرى بالكسر سُرى ومسرى وأسرى أى سار ليلاً.

قوم فرعون من ورائهم والبحر من أمامهم .

فقال قوم موسى إيماناً بالأسباب ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) ﴾ [الشعراء] فماذا قال موسى ؟ لم يقُلْ مثلما قال قومه ولكنه نظر للمسبِّب الأعلى ، فقال بملء فيه : ﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) ﴾ [الشعراء] فموسى المرسَل من الله عَلم أن الله لن يخذله ، لأنه يريد أنْ يُتمَّ نعمة الهداية على يديه ، فقد كان موسى ممتلئاً باليقين والثقة .

وإذا كان الموتُ يدرك الإنسان فيصيبه وينال منه فإنه في نفس الوقت يُلاقيه ، ويصبح الإنسان وجهاً لوجه مع ما كان يفرُّ منه ، فالموت مصير الإنسان وهو سابقه ، إنه سيسبقك وينتظرك عند اللحظة التى قدَّرها الله ، وفى المكان الذى سيشاؤه الحق سبحانه .

وهذا يعطى لفظة (يدرككم) معنى الإحاطة ، إن الموت سيأتى خلفك ، ولكنه فجأة يصبح أمامك ، أى أنك لا تعرف من أين أتى ، أهو من خلفك أم من أمامك؟

وملاقاةُ الموت ليستْ بالأمر الهيِّن ، خاصة على مَنْ أنفق حياته فى معصية الله ، فالعاصى والكافر الذى كان يعتقد أن لا موت ، أو كان يعتقد أنه من الممكن أن يفر منه تتكشَّف له الحقائق حينما تحضره سكرات الموت ويرى ما لا نراه نحن ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ [1] (٢٢) ﴾ [ق]

حينها يتمنى الإنسان أن يرجع إلى الدنيا وهو ما يزال يحتضر ، لماذا ؟ لأنه رأى الحقيقة التى كان ينكرها ويُكذِّب بها ولا يريد أنْ يواجهها ، لقد عاين ما كان يفر منه فإذا به يُلاقيه .

---

(١) حديد : قال مقاتل بن سليمان فى تفسيره (٣/ ٢٧١) : « يعنى يشخص بصره ويديم النظر فلا يطرف حتى يعاين فى الآخرة ما كان يكذب به فى الدنيا » . وقال الطبرى فى تفسيره (٢٢/ ٣٥٢) : فأنت اليوم نافذ البصر عالم بما كنت عنه فى الدنيا فى غفلة .

والذين يشاهدون حال الموتى ساعة الاحتضار يرون منهم إشاراتٍ تدل على أنهم يرونَ أشياء لا نراها نحن ، كُلٌّ حسب حاله وخاتمته .

يقول تعالى : ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ (٨٥) فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٨٧) ﴾ [الواقعة]

فمَنْ حضره الموت ويُعاين شدَّته ويرى ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب حسب عمله ، يوقن أنه لا محالة منتقلٌ من هذه الدنيا ، وأن فرصة عمله للصالح من الأعمال أو الإيمان قد انتهتْ .

حينها يرى ما كان محجوباً عنه في الدنيا ، حينئذ يستعرض أعماله ، فإنْ رأى شريط الحياة حُلواً منيراً ابتسم وانفرجتْ أساريره فيُقبض على هذا الوضع .

أما مَن امتلأتْ حياتُه بالسوء والمعاصي فوجهه يسودّ وتنقبض أساريره فيُقبض على هذا الوضع ، وهذا ما نُسميه الخاتمة ، فلحظة الاحتضار فيها يقينُ الموت ، تماماً كساعة الامتحان ، حيث تجد التلميذ الخائب مُصفرّ الوجه مرتعداً أو مُتشنجاً ، أما التلميذ المجتهد فيكون مبتسماً منفرج الأسارير .

وفي ساعة الاحتضار يخلو الذهن من أي شيء إلا صحيفة عمله ، فهي التي تبقى في بؤرة شعوره ، حينها لا يجد الميت في بؤرة شعوره خاطراً آخر يناقض أو يزاحم أمر الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه عن خروج روح الكافر والمنافق : ﴿ وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥) ﴾ [التوبة]

فساعةُ الموت تكون شاقة وصعبة على الكافر والمنافق ، لأنه يترك الأموال والأولاد والمساكن الطيبة والبروج التي شيَّدوها ويذهبون إلى العذاب .

والبروج التى شيَّدوها لن تحميهم من نزول الموت بهم فإنه لا يمنعه مانع مهما كان، ولا يدفعه دافع، ونلاحظ أن فكر اليهود من أهل الكتاب متجهٌ لإقامة الحصون والبروج والجدران، يظنون أنها ستمنع نزول عذاب الله بهم .

يقول تعالى عنهم : ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا(١) مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ .. (٢) ﴾ [الحشر]

وقد كان لهم فى المدينة حصونٌ وقلاع كحصن خيبر، وقد كانوا من أصحاب الحصون وأصحاب الزراعات ويعيشون على الربا، لقد غفلوا عن أنهم لو كانوا جميعاً معتصمين بحصونهم وبأبراج مُحاطة بأبراج أخرى، كأنه حِصْن مُحصَّن، فالحصون فى بعض الأحيان يتم بناؤها وكأنها نقطة محاطة بدائرة صغيرة، وحول الدائرة دائرة أخرى أوسع .

وبذلك تجد الحصن نقطة محاطة بعدد من الحصون، والموت يدرك البشر ولو كانوا فى برج محاط ببروج، فالحق سبحانه له القدرة المطلقة فى إنفاذ أمره بالموت .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ .. (٨) ﴾ [الجمعة]

والردّ إلى الله تعالى هو الرجوع إليه سبحانه بالبعث والإعادة يوم القيامة .

وكلمة (تردون) تفيد أنه كان التقاء به أولاً، وبعد ذلك سوف يُرجعون، فهم كانوا منه سبحانه إيجاداً، ثم ردُّوا إليه حساباً ثواباً وعقاباً .

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ .. (٣٠) ﴾ [يونس]

---

(١) معنى ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ .. (٢) ﴾ [الحشر] أى الذين كفروا بمحمد وكفروا بالقرآن الذى أنزل عليه، واكتفوا بكتابهم وبنبيهم واتهموا محمداً بالكذب، فكان تكذيبهم وكفرهم به ﷺ تكذيباً لله وكفراً به سبحانه .

فكلمة (ردُّوا إليه كذا) لا تدل على أنهم كانوا مع الضد وجاءوا له ، بل تدل على أنهم كانوا معه أولاً ثم ذهبوا إلى الضد ، ثم رُدُّوا إليه ثانياً .

وهذا مثْل قوْل الحق سبحانه عن موسى عليه السلام : ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ.. (١٣) ﴾ [القصص] فدلّتْ على أن موسى كان مع أمه ثم فارقها ، ثم رُدّ إليها .

ولا يحسبنَّ أحدٌ أنه بمفازة من الرجوع إلى الله والبعث والإعادة يوم القيامة، والحق سبحانه يحسم هذا الأمر فيقول : ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧) ﴾ [الكهف] أى : جمعناهم ليوم الحساب ، لأنهم فارقوا الدنيا على مراحل من لَدُن آدم عليه السلام ، والموت يحصد الأرواح وقد جاء اليوم الذى يُجمع فيه هؤلاء .

﴿ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧) ﴾ [الكهف] أى : لم نترك منهم واحداً حتى ولو كان ممَّنْ كانوا يدَّعُون أنهم أبناء الله وأحباؤه ، فالكل سيُعرض على الله .

وكلمة نغادر تُؤدى مادتها معنى الترك ، فالغدر مثلاً ترك الوفاء وخيانة الأمانة ، حتى (غدير) وهو جدول الماء الصغير سُمِّى غديراً لأن المطر حين ينزل على الأرض يذهب ويترك شيئاً قليلاً فى المواطىء .

وإذا كان المطر يترك شيئاً فى الغُدْران ، فإن الله - وله المثل الأعلى - لن يترك أحداً فلا يُعرض عليه ، فلن يُفلت واحدٌ ولا حتى ذرة من ذرات جسده من الوقوف بين يدى الله للحساب .

وهم سيُردُّون إلى ﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ .. (٨) ﴾ [الجمعة] وهذا تعبير دقيق، فالحق سبحانه ما دامَ أنه عالمُ الغيب فمن باب أوْلَى أنه يعلم المشهود .

فهو سبحانه يعلم ما خَفِى من حجاب الماضى أو المستقبل وكلّ ما غابَ عن الإنسان ويعلم المشهود من الإنسان ، فلم يقتصر عِلْمه على الغيب وترْك المشهود بغير علم منه ، لا بل هو يعلم الغيب ويعلم المشهود .

والمراد بالغيب الغيب المطلق يعنى ما غاب عنك وعن غيرك ، فنحن الآن مشهد لمَنْ حضر مجلسنا هذا ، إنما نحن غَيْبٌ لمن غاب عنه ، ومنه الكهرباء والجاذبية وغيرهما من اكتشافات البشرية ، فهذه الأشياء كانت غيباً عمَّنْ قبلنا مع أنها كانت موجودة ، فلما توصَّلنا إلى مُقدِّماتها ظهرت لنا وصارتْ مشهداً .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ .. (٢٥٥) ﴾ [البقرة] إذن: المعلوم لغيرك وغيبٌ عنك ليس غيباً ، وكذلك الغيب عنك وله مقدمات توصِّل إليه ليس غيباً ، إنما الغيبُ هو الغيب المطلق الذى غاب عنك وعن غيرك .

ولأنه سبحانه عالمُ الغيب والشهادة فإنه لا يغيب عن علمه شيءٌ من أفعال الناس وأقوالهم ، فإنه سبحانه يعلم ما هو أخفى من هذا ، يقول تعالى : ﴿ وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) ﴾ [طه]

فالجهر بالقول عند الله مثل السرِّ ، فكما يعلم اللهُ الجهرَ يعلم السرَّ ، بل هو يعلم ما هو أخفى من السِّرِّ ، والسرُّ هو أنْ تخصَّ واحداً بأنْ تضع فى أذنه كلاماً لا تحب أنْ يشيع عند الناس وتهمس فى أذنه بأنك المأمونُ على هذا الكلام ، وأنت ترتاح نفسياً حين تُلقى بسرِّك إلى مَنْ تثق فيه وتأمن ألاَّ يذيعه .

ولكن هناك ما هو أخفى من السر ، فإنْ كان سرّك قد خرج من فمك إلى أذن سامعك فهناك سرٌّ احتفظتَ به لنفسك ولم تتفوَّه به لأحد ، لذلك يقول تعالى : ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) ﴾ [الملك]

أى أنه سبحانه عليمٌ بمكنونات الصدور قبل أنْ تصير كلاماً . لكن بعض العارفين يقول : وهناك فى علم الله ما هو أخفى من الأخْفى ، فما هو ؟ يقول : إنه تعالى يعلم ما سيكون فى النفس قبل أن يكون .

إذن : لدينا جهر وسِرٌّ وأخفى من السرِّ وما هو أخفى من الأخفى كلٌّ هذا يعلمه الله ، وعندما يُرد الناس إلى عالم الغيب والشهادة سيخبرهم الله بكل ما عملوه، يقول تعالى : ﴿ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) ﴾ [الجمعة] والإنباء هو الإخبار.

والحق سبحانه لم يقُلْ إنه سيُنبئهم بما كانوا يفعلون أو يصنعون ، بل بما كانوا يعملون ، فالفعل مختصٌّ بما تعمله أيديكم أو أرجلكم وكذلك ما يصنعون، أما (يعملون) فهى تشمل كل ما يعمله الإنسان ولو كان بلسانه ، فما يلفظه اللسان مِنْ قول هو عمل وليس فعلاً .

لذلك قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) ﴾ [النور] فجمع الألسنة مع الأيدى والأرجل فيما كانوا يعملون .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) ﴾ [فصلت]

وعمل السمع والبصر ليس كعملِ الأيدى والأرجل ، ولكنه سبحانه جمعها كلها فى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ (٢٠) ﴾ [فصلت] فالأذن سمعت ما حرَّم الله ، والبصر نظر إلى ما حرم الله ولكنه ليس فعلاً بل عملاً ، بمعنى أنه لم يفعل فعلاً إيجابياً فى المقابل له ، فمَنْ سمع قد يكون قد سمع أمراً سيئاً ، ولكنه لم يضر غيره بما سمعه فهذا عمل .

ورسول الله يحدد لنا أعقلَ الناس وأضبطهم لمعرفة حقيقة الدنيا ، وأن العاقل فيها مَنْ يعرف ويوقن أن الحياة الدنيا ما هى إلا معبر إلى الحياة الآخرة، الحياة الحقيقية التى وصفها الحق سبحانه فقال : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ [العنكبوت]

فقال ﷺ : « الكيِّس[1] مَنْ دانَ نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنَّى على الله »[2].

أى أن العاقل هو مَنْ حاسب نفسه وعمل لما بعد الموت ، لأن الموت هو الحاجز بيننا وبين الحياة الآخرة ، وأننا لابدَّ أنْ يلاقينا الموت ، فكلُّ نفس ذائقة الموت .

ولا يخدعنَّ أحدٌ نفسه فيظن أنه سيستطيع أنْ يفرَّ من مصيره المحتوم ، وإلاَّ أصبح عاجزاً وعنده قصور فى عقله ، فتجده يتبع هوى نفسه ويتمنَّى على الله، كيف وأنت لم تعمل لما بعد الموت الأعمال التى تُنزلك منازل المكرمين بل أنزلتَ نفسك منازل المهانين المعذبين بما قدَّمتْ يداك ، وبما لم تفعل من الخير ولم تزددْ من الحسنات .

يقول الحق سبحانه :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ ﴾

فالحق سبحانه وتعالى يريد من عباده أنْ يجتمعوا كلَّ أسبوع مرة ، لأنك قد تُصلِّى فرضاً فى مصنعك أو فى مزرعتك أو فى أيّ مكان ، إنما يوم الجمعة لابدّ

---

(١) الكيِّس : العاقل . والكيْس العقل . وقال الجوهرى فى الصحاح فى اللغة : الكيْس : خلاف الحمق . وقال الصغانى فى العباب الزاخر : لأنه مجتمع الرأى والعقل . وقال أبو هلال العسكرى فى (الفروق اللغوية) : الكيس هو سرعة الحركة فى الأمور والأخذ فيما يعنى منها دون ما لا يعنى .

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٤٥٩) . وابن ماجه فى سننه (٤٢٦٠) وأحمد فى مسنده (١٧١٦٤) ، والبزار فى مسنده (٣٤٨٩) وأبو داود الطيالسى فى مسنده (١٢١٨) من حديث شداد بن أوس .

أنْ تجتمع مع غيرك ، لماذا ؟ لأنه من الجائز أنك تذلّ لله بينك وبينه ، وتخضع وتسجد ، وتبكى بينك وبين الله .

لكنه سبحانه يريد هذا الأمر أمام الناس ، لترى كل مَنْ له سيادة وجاه يسجد ويخشع معك لله ، وفى الحج ترى كل مَنْ له جاه ورئاسة يؤدى المناسك مثلك ، فتقول بينك وبين نفسك أو تقول له : لقد استويْنا فى العبودية ، فلا يرتفع أحدٌ على أحد ولا يذلّ له ، بل كلُّنا عبيدٌ لله ونخضع له وحده .

وهناك يومان فى الأسبوع ذُكِرا فى القرآن بالاسم ، وهما يوم الجمعة ويوم السبت ، بينما أيام الأسبوع سبعة ، خمسة أيام منها لم تُذكر فى القرآن بالاسم، وهى الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس .

الجمعة هى عيد المسلمين الذى شُرِع فيه اجتماعهم فى المساجد وأداء صلاة الجمعة ، ونلاحظ أن يوم الجمعة لم يأخذ اشتقاقه من العدد ، فأيام الأسبوع نُسبتْ إلى الأعداد فيما عدا الجمعة والسبت .

لذلك تجد الأحد منسوباً إلى واحد ، والاثنين منسوب إلى اثنين ، والثلاثاء منسوب إلى ثلاثة ، والأربعاء منسوب إلى أربعة ، والخميس منسوب إلى خمسة.

كان المفروض أنْ يُنسب يوم الجمعة إلى ستة ولكنه لم يُنسب ؟ لماذا ؟ لأنه اليوم الذى اجتمع فيه للكون نظامُ وجوده ، فسمَّاه الله تبارك وتعالى الجمعة وجعله له عيداً .

ورسول الله ﷺ يُحدِّثنا عن يوم الجمعة فيقول : « إن يوم الجمعة سيِّدُ الأيام وأعظمها عند الله ، وهو أعظم عند الله من يوم الأضحى ويوم الفطر . فيه خمس خلال : خلق اللهُ فيه آدم ، وأهبط اللهُ فيه آدمَ إلى الأرض ، وفيه توفَّى اللهُ آدم، وفيه ساعةٌ لا يسأل الله فيها العبدُ شيئاً إلا أعطاه ما لم يسأل حراماً، وفيه

تقوم الساعة ، ما من ملَك مُقرَّب ولا سماء ولا أرض ولا رياح ولا جبال ولا بحر إلا وهُنَّ يُشفقن من يوم الجمعة »[١].

والعيد هو اجتماع كلِّ الكون في هذا اليوم ، اجتماع نعمة الله في إيجاده الكون وتمامها في ذلك اليوم ، فالمؤمنون بالله يجتمعون اجتماعَ حفاوة بتمام خَلْق الكون لهم ، وكان تمام الخَلْق يوم الجمعة .

وقد شرع اللهُ اجتماعَ الجمعة لأمر اجتماعي ، وهو أنْ يتفقَّد الإنسان كلَّ أخ من إخوانه ، ما الذي أقعده ؟ أحاجة أم مرض ؟ أحدث أم مصيبة ؟ وحتى لا يُحوجه إلى أنْ يذلّ ويسأل ، وحين يفعل ذلك يكون له فطنة الإيمان .

وقد طلب بنو إسرائيل يوماً يرتاحون فيه من العمل ويتفرغون فيه لعبادة الله ، وقد اقترح عليهم نبيهم موسى عليه السلام أن يكون يوم الجمعة ، فهو اليوم الذي أتمَّ اللهُ فيه خَلْق الكون في ستة أيام ، وهو اليوم الذي اختاره الخليل إبراهيم ، ولكنهم رفضوا الجمعة واختاروا هم يوم السبت .

وقالوا : إن الله خلق الدنيا في ستة أيام ، بدأها بيوم الأحد وانتهى منها يوم الجمعة وارتاح يوم السبت ، وكذلك نحن نريد أنْ نرتاح ونتفرغ لعبادة الله يوم السبت ، وهكذا كانت هذه رغبتهم واختيارهم .

أما العيسويون فرفضوا أنْ يتبعوا اليهود في يوم السبت ، أو إبراهيم عليه السلام في يوم الجمعة ، واختاروا الأحد على اعتبار أنه أول بدء الخلق .

أما أمة محمد ﷺ فقد اختار لها اللهُ يوم الجمعة يوم الانتهاء وتمام النعمة .

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (١٠٨٤) والطبراني في المعجم الكبير (٤٣٨٧) والبيهقي في شُعب الإيمان (٢٧١٢) وابن أبي شيبة في مصنفه (٨١٥) ، وأبو نعيم الأصبهاني في معرفة الصحابة (٢٤٠٥) من حديث أبي لبابة بن عبد المنذر .

وهـذا التكليـف فى صـلاة الجمعة المفروضـة كصـلاة الجماعـة والجماعة مطلـوب فيهـا ، ومن الضـرورى أنْ نتواجد فيها كجمع ، لأن الجماعة مشروطةٌ فيها ، فلا تصحّ بدون الجماعة .

وقـوْل الحق سـبحانـه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) ﴾ [الجمعة]

فهـذان أمران أحدهما فى الديـن والثانى يتعلق بالدنيا ، وكلاهما من منهج الله ، فـالله لا يريـدك أنْ تتاجر وتعمل وقت الصـلاة ، ولا أنْ تترك عملك بلا دَاعٍ وتبقى فى المسجد بعد الصلاة .

إذا نُودى للصلاة فإلى المسجد .. وإذا قُضيَتْ الصلاة فإلى السعى للرزق .

والحق سـبحانه يخاطب مَنْ آمن بالمنهج ، فيقـول : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ .. (٩) ﴾ [الجمعة]

وعندمـا يرتفع صـوتُ المؤذن بقـوْل الله أكبر فهذه دعـوةٌ للإقبال على الله ، إقبـالٌ فى سـاعة معلومة لتقفوا أمامه سـبحانه وتعـالى وتكونوا فى حضرته يُعطيكم الله المدد .

وعندما يحضر الإنسـانُ لحضرة ربِّه بالصـلاة ويُكبِّر : الله أكبر فهو منذ تلك اللحظة يوجد فى حضرة الله .

وتلتفت سـاعةَ يقـول المؤذن (الله أكبر) أن الكلَّ قد جـاء الغنىُّ قبل الفقير ، والخفير مع الأمير ، ويخلع الجميعُ أقدارهم خارج المسجد مع نعالهم ليتساووا

فى الصلاة ، ومن له رئيس يتكبّر عليه يراه وهو ساجدٌ مثله لله ، فتريحه لحظةَ استطراق العبودية .

ولنفرض أن كُلاً منَّا سيُصلى بمفرده فى الصلاة اليومية ، لكن عندما يؤذّن لصلاة الجمعة يأمرنا أنْ نذرَ ونتركَ كلَّ شيء لنؤدى صلاة الجمعة معاً ، ويرى الضعيفَ عظيماً يتضرّع مثله إلى الله ، ويرى القويّ نفسه بجانب الضعيف ، وحين يعود كلٌّ منا إلى عمله تسقط أقنعةُ القوة والزهو ، لأننا جميعاً نقف أمام خالق واحد وكلنا سواء .

وكلمة (الله أكبر) فيها من اليقظة والانتباه ما يُذكّرنا بأن الله أكبر من كلّ ما يشغلك ، ونعلم أنّ من إعجازات الأذان أنه جعل النداء باسم (الله أكبر) ولم يقل : الله كبير . وذلك احتراماً لما يشغلنا فى الدنيا من موضوعات قد نراها كبيرة .

ذلك أن الدنيا لا يجب أنْ تُهان ، لأنها المعبر إلى الجزاء القادم فى الآخرة ، ولذلك أقول دائماً : إن الدنيا أهمّ من أنْ تُنسَى ، وفى نفس الوقت هى أتفه من أنْ تكونَ غاية ، فأنت فى الدنيا تضرب فى الأرض وتسعى لقُوتك وقُوتِ مَنْ تعول ، وليعينك هذا القوت على العبادة .

لذلك فلا يحتقر أحدٌ الدنيا ، بل ليشكر الله ويدعوه أنْ يوفقه فيها وأنْ يبذل كلَّ جَهْد فى سبيل نجاحه فى عمله ، فالعمل الطيب ينال عليه العبدُ حُسْن الجزاء .

وفور أنْ يسمع المؤمن (الله أكبر) فعليه أنْ يتجه إلى مَنْ هو أكبر فعلاً ، وهو الحق سبحانه ، وأنْ يُؤدّى الصلاة ، هذا هو المعنى المشتقى من المستقدم للصلاة والمستأخر عنها .

وحين تسمع (الله أكبر) يُنادى بها المؤذن لصلاة الجمعة مثلاً ، فعليك أنْ تترك أسبابَ الدنيا وتذهب لتقفَ بين يدى الله عزَّ وجلّ .

فعظمةُ الحق سبحانه فى نفس المؤمن أكبرُ من كلِّ شيء وأكبر من كلِّ كبير، لذلك جُعلتْ (الله أكبر) شعارَ أذانك وصلاتك ، فلا بدَّ أنْ تُكبّر الله وتجعله أكبرَ مما دونه من الأغيار .

فإنْ ناداك وأنت فى أيِّ عمل فقل : الله أكبر من عملى ، وإنْ ناداك وأنت فى حضرة عظيم فقُلْ : الله أكبر من كلِّ عظيم ، كبِّره تكبيراً بأنْ تقدم أوامره ونواهيه على كلِّ أمر وعلى كلِّ نهى .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤) ﴾ [طه] أى : لتتذكّرى لأن دوامَ ورتابة النعمة قد تُنسيك المنعِم ، فحين تسمع نداء (الله أكبر) وترى الناسَ تُهرع إلى بيوت الله لا يشغلهم شاغل عنها ، تتذكر إنْ كنتَ ناسياً ، وينتبه قلبك إنْ كنتَ غافلاً .

والذكر مصدر ، والمصدر يُضاف للفاعل مثل : أعجبنى ضَرْب الأمير لزيد . ويُضاف للمفعول مثل : أعجبنى ضربُ زيد من الأمير . فحين تقول (ذكر الله) يصح أنْ يكون المعنى : ذكر صادر من الله ، أو ذكر صادر من العبد لله .

فإنْ قلتَ : ذِكْر صادر من الله أى للمصلِّى ، فحين يُصلى الإنسانُ ويذكر اللهَ بالكبرياء فى قوله (الله أكبر) ويُنزِّهه بقوله (سبحان الله) ويسجد له سبحانه ويخضع فقد فعلتَ إذنْ فعلاً ذكرتَ الله فيه ذِكْراً بالقول والفعل ، والله تعالى يُجازيك بذكْرك له بأنْ يذكرَك ، فالذكر ذِكْر من الله لمن ذكَره فى صلاته .

ولا شكَّ أن ذِكْرَ الله لك أكبرُ وأعظم من ذِكْرك له سبحانه ؛ لأنك ذكرتَ الله منذ بلوغك إلى أنْ تموت ، أما هو سبحانه فسيعطيك بذكْرك له منازلَ عاليةً لا نهايةَ لها فى يوم لا تموتُ فيه ولا تنقطع عنك نِعَمه وآلاؤه .

وذِكْر الله لك بالثواب والرحمة أكبرُ من ذِكْرك له بالطاعة ، هذا على معنى أن الذكْرَ صادرٌ من الله للعبد .

المعنى الآخر أن يكون الذكرُ صادراً من العبد لله ، يعنى : ولذكر الله خارجَ الصلاة أكبرُ من ذكر الله فى الصلاة ، كيف ؟ قالوا : لأنك فى حضرة ربك بعد تكبيرة الإحرام ، فإذا ما انتهتْ الصلاة وخرجتَ منها إلى حركة الحياة فذِكْرك لله وأنت بعيدٌ عن حضرته ، وأنت مشغولٌ بحركة حياتك أعظم وأكبر من ذِكْرك فى الحضرة .

ولا تظنوا أنَّ الذكرَ قاصرٌ على الصلاة فقط ، إنما يجب ألاَّ يغيبَ ذِكْرُ الله عن بالك أبداً ، لأن ذكركَ لربِّكَ خارج الصلاة أكبرُ من ذِكْرك له سبحانه فى الصلاة .

وربُّك لا ينتظرك أنْ تأتيه ، إنما يدعوك لزيارته ، يُقبل عليك قبل أنْ تُقبل عليه ، ألم يقُل فى الحديث الشريف : « إنْ ذكرنى فى نفسه ذكرتُه فى نفسى ، ومَنْ ذكرنى فى ملأ ذكرتُه فى ملأ خَيْرٍ منه ، ومَنْ أتانى يمشى أتيتُه هَرْولة ، ومَنْ تقرَّب منّى ذراعاً تقرَّبتُ منه باعاً »[1] .

إذن : فالزمام فى يدك أنت ، ونِعْم الربُّ ربٌّ يعامل عباده هذه المعاملة ، ويُحسن إليهم كلَّ هذا الإحسان .

والسعى إلى ذكر الله وترْك البيع من أجل ذلك يعطى الإنسان طاقةً إيمانية يظهر آثارُها فى الحركة الثانية من حركات الإنسان ، ولذلك يقول الحقِ سبحانه بعد ذلك : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) ﴾ [الجمعة]

والحق سبحانه إنما ناداهم لإعلان الولاء الجماعى ، وهو إعلانُ كل مؤمن بالعبودية لله أمام بقية المخلوقات ، فحين يُناديك الله تعالى ويستدعيك لأداء فريضته يقول (الله أكبر) لأن حركة الحياة وضروريات العيش عند الله أمرٌ

---

(١) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه (٦٩٨١) وأحمد فى مسنده (٩٣٤٠ ، ١٠٢٥٨) والبيهقى فى الأربعين الصغرى (٤٣) والطبرانى فى الدعاء (١٨ ، ١٨٦٥ ، ١٨٧٠) وابن حبان فى صحيحه (٨١١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

كبير وأمرٌ هام لا يُغفل .

لكن إنْ كانت حركةُ الحياة والسعى فيها أمراً كبيراً فالله أكبر ، فربُّك يُخرِجك للصلاة من عمل ، ويدعوك بعدها إلى العمل .

ولنا ملحظ فى (الله أكبر) ، فأكبر أفعل تفضيل نزل على المبالغة ودون أكبر نقول (كبير) وكأنها إشارة إلى أن العمل والسعى ليس شيئاً هيِّناً أو تافهاً ، إنما هو كبير ينبغى الاهتمام به ، لأنه عَصَب الحياة ، ولا تستقيم الأمورُ فى عمارة الأرض إلا به .

لكن ، إنْ كان العملُ كبيراً فالله أكبر ، فربُّك عز وجل لا يُزهِّدك فى العمل ، ولا يُزهِّدك فى الدنيا ، لأنه خالقها على هذه الصورة جاعلٌ للعمل فيها دوراً .

ويلفتنا الحق سبحانه إلى إعجاز فى الأسلوب القرآنى لقوله تعالى :
﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ .. (٩) ﴾ [الجمعة]

فالحق سبحانه لم يقُلْ : للصلاة يوم الجمعة ، بل قال ﴿ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ .. (٩) ﴾ [الجمعة] فلفظة (من) أفادتْ تحديدَ زمن الصلاة المقصودة ، وهى صلاة الجمعة كصلاةٍ مخصوصةٍ بوقت الظهر ، وتُؤدَّى ركعتين لا أربعاً كالظهر .

وهذا من أسلوب القرآن الدقيق ، فإن ﴿ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ .. (٩) ﴾ [الجمعة] لا تخصّ زمناً معيناً بل يشيع فرضية الاجتماع للصلاة فى كلِّ الصلوات فى يوم الجمعة ، وهذا فيه مشقة ، والله لا يريد بعباده مشقة .

يقول الحق سبحانه : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ .. (١٨٥) ﴾ [البقرة] ويقول تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ .. (٧٨) ﴾ [الحج]

فالله لا يريد أنْ يُعنتكم ، أو يُضيِّق عليكم ، أو يعسِّر عليكم الأمور ، إنما جعل اللهُ الأمر كله يُسْراً ، وشرعه على قدْر الاستطاعة ورخَّص لكم ما يُخفِّف عنكم ،

ويُذهب عنكم الحرج والضيق .

أمـا قولـه ﴿ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ .. (٩) ﴾ [الجمعة] فالسَّـعى هنا هو التوجّه والسير إلى مساجد الله ، ولابد أنْ نعرف أننا ما دُمْنا قد خَصَصْنا مكاناً لعبادة الله ، فلابد أنْ نصـحب هذ التخصـيص فى المكانية إلى التخصيص فى المهمة التى يدخل الإنسانُ من أجلها للمسجد فيتجه إلى الله .

فالمسـجد خاصٌّ لعبادة الله ، ومع أن الأرضَ كلها تصـلح للصلاة فإنه لابدَّ حين تأتى إلى المسجد أنْ تصحب معك أخلاقَ التعبُّد .

ويجـب أنْ يكـونَ الانفعالُ والتفاعلُ والحركة والنشـاط كلـه فى الله ، ولذلك فأفضـل ما تفعله سـاعةَ تدخل المسـجد هو أنْ تنوى الاعتكاف ، فتنزع نفسـك ممَّنْ ينوى أنْ يتكلم معك فى أحوال الدنيا .

وقـد ورد الأثـر بالنهى عـن الحديث فى المسـاجد لأنه يحبـط العمل ويمحو الحسنات[1] ، وأنت قد تصنع الحسنات كثيراً خارج المسجد ولكن عليك ألاَّ تدخل المسـجد إلا بأدب المسـجد ، فالحضور بين يدى الله تعالى فى مسجده وفى بيته له آدابه .

فيجـب عليـك ألاَّ تتخطّى الرقاب ، وهذه تحتـاج إلى تنظيم ، بمعنى ألاّ تجعل الأماكـن فى الأمـام خالية وفى الخلـف مزدحمة حتى يسـتطيع أنْ يجلس كلّ مَنْ يحب أنْ يصـلى دون أنْ يتخطى الرقاب ، ويكون الجلوسُ فى المسـجد الأولَ فالأول ، وهكذا يتحقق الأدبُ الإيمانى فى المساجد .

ورسول الله ﷺ قال لسلمان الفارسى يوماً : « أتدرى ما يومُ الجمعة ؟ قال :

---

(١) هو مما ورد على ألسنة الناس من نحو «الحديث فى المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهائم الحشيش».
أورده الغزالى فى إحياء علوم الدين (١/١٣٦) وقال الحافظ العراقى فى تخريجه : لم أقف له على أصل . وقال السبكى فى طبقات الشافعية : لم أجد له إسناداً . ذكره الألبانى فى السلسلة الضعيفة (١/٦٠) وقال : لا أصل له .

الله ورسوله أعلم . قالها ثلاثَ مرات . ثم قال فى الثالثة : هو اليوم الذى جُمِع[1] فيه أبوكم آدم ، أفلا أحدِّثكم عن يوم الجمعة ؟ لا يتطهر رجلٌ فيُحسن طهوره ويلبس أحسن ثيابه ، ويصيب من طيب أهله إنْ كان لهم طيب وإلاَّ فالماء ، ثم يأتى المسجد فيجلس ويُنصت حتى يقضى الإمام صلاته إلا كانتْ كفّارة ما بين الجمعة ما اجتُنبَتْ الكبائر ، وذلك الدهر كله »[2] .

فهذا اليوم هو يوم الجمعة ، ولتعظيم هذا اليوم قال رسول الله ﷺ : « أفلا أُحدِّثكم عن يوم الجمعة ؟ » أى : ما يستحقه هذا اليوم من اهتمامنا بالتطهُّر فيه فيُحسن الطهور ويلبس أحسن ثيابه .

فتمام النعمة على المخلوق من الخالق أنْ يتطهرَ الإنسانُ بما حدده الله له، وأنْ يسعى إلى بيت الله حيث يُذكر الله سبحانه ، والمسلم حين يغتسل غسل الجمعة أو يتوضأ يكون قد حدث له أمران : التطهُّر والطُّهر .

ويُحدِّثنا رسول الله ﷺ عن أثر الوضوء فى تطهر المسلم وطُهْره ونقاء أعضائه من الدَّنَس والذنوب ، قال ﷺ : « إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرج من وجهه كلُّ خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء أو مع آخر قَطْر الماء ، فإذا غسل يديه خرج من يديه كلّ خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطْر الماء ، فإذا غسل رجليْه خرجتْ كلُّ خطيئة مشتْها رجلاه مع

---

(١) أخرج ابن جرير الطبرى والبيهقى فى الأسماء والصفات وابن عساكر عن ابن مسعود وناس من الصحابة قالوا : بعث الله جبريل إلى الأرض ليأتيه بطين منها فقالت الأرض : أعوذ منك أن تنقص منى فرجع ولم يأخذ شيئاً وقال : يا رب إنها أعاذت بك فأعذتها ، فبعث الله ميكائيل كذلك ، فبعث ملك الموت فعاذت منه فقال : وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره فأخذ من وجه الأرض وخلط ولم يأخذ من مكان واحد ، وأخذ من تربة حمراء وبيضاء وسوداء – فلذلك خرج بنو آدم مختلفين – فصعد به فبلَّ التراب حتى صار طيناً لازباً . أورده السيوطى فى الدر المنثور (١/ ٢٥٤) .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٣٧٦٩ ، ٢٣٧٨٠) وابن خزيمة فى صحيحه (١٧٣٢) والبزار فى مسنده (٢٥٢٦) والنسائى فى السنن الكبرى (١٦٧٧ ، ١٧٣٧) والحاكم فى مستدركه (١٠٢٨) والطبرانى فى المعجم الكبير (٥٩٦٧) من حديث سلمان الفارسى .

الماء ، أو مع آخر قطر الماء حتى يخرج نقياً من الذنوب »[١] .

وعلى المسلم الساعى إلى مساجد الله حيث يذكر الله ألاَّ يجرى ويُسرع ليلحق بالإمام ويدرك الخطبة أو الصلاة لأنه فى صلاة من لحظة أنْ توضأ وخرج من بيته للصلاة ، وإياك أنْ تفعل حركة تتناقض مع الصلاة ، وادخل المسجد بسكينة ووقار لتؤدِّى الصلاة مع الإمام[٢] .

وقد جعل الحق سبحانه أول وَصْف للمؤمنين الذين أفلحوا ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) ﴾ [المؤمنون] فلم يقُل مثلاً : مؤدُّون . لأن أمر أداء الصلاة فى حَقِّ المؤمنين مفروغٌ منه ، العبرة هنا بالكيفية والهيئة ، العبرة بالخشوع والخضوع وسكينة القلب وطمأنينته واستحضار الله الذى تقف بين يديه .

كما تقول لولدك : اجلسْ أمام المعلم باهتمام واستمع إليه بإنصات ، فأنت لا تُوصيه بالذهاب إلى المدرسة أو حضور الدرس فهذا أمر مفروغٌ منه ، لذلك نهتم بجوهر الموضوع والحالة التى ينبغى أنْ يكون عليها .

والخشوع أنْ يكون القلبُ مطمئناً ساكناً فى مهمته هذه ، فلا ينشغل بشيء آخر غير الصلاة ، لأن الله ما جعل لرجل من قلبين فى جوفه .

وما دام فى حضرة ربه عز وجل فلا ينبغى أنْ ينشغل بسِواه ، حتى إنَّ بعض العارفين لمعنى الخشوع يقول : إن الذى يتعمد معرفة مَنْ على يمينه أو مَنْ على

---

(١) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه (٦٠٠) ، والترمذى فى سننه (٢) وقال : حسن صحيح . وكذا أخرجه أحمد فى مسنده (٨٠٠٧) وابن خزيمة فى صحيحه (٤) وابن حبان فى صحيحه (١٠٤٠) والبيهقى فى السنن الكبرى (٣٨٥ ، ٣٨٧) كلهم من حديث أبى هريرة وفى الباب عن عبد الله الصنابحى .

(٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « إذا نودى بالصلاة فأتوها وأنتم تمشون وعليكم السكينة ، فما أدركتم فصلوا ، وما فاتكم فأتموه » أخرجه مسلم فى صحيحه (١٣٩١) والترمذى فى سننه (٣٢٧) وأحمد فى مسنده (٧٦٤٩ ، ٨٢٠٧) والبزار فى مسنده (٧٦٦٤) والبيهقى فى سننه الكبرى (٣٧٥٩ ، ٣٧٧٠ ، ٣٧٧٢) من حديث أبى هريرة .

يساره فى الصف تبطل صلاته[1] .

ولما دخل سيدنا عمر رضى الله عنه على رجل يصلى ويعبث بلحيته فضربه على يده وقال : لو خشع قلبك لخشعتْ جوارحك[2] .

بل إن الحق سبحانه جعل هؤلاء من عباد الرحمن ، قال تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَـٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا .. (٦٣) ﴾ [الفرقان]

يعنى : برفق وفى سكينة وبلين دون اختيال أو تكبُّر أو غطرسة ، لماذا ؟ لأن المشى هو الذى سيُعرِّضك لمقابلة مجتمعات متعددة ، وهذا الأدب الربانيّ فى المشى يُحدِث فى المجتمع استطراقاً إنسانياً يُسوِّى بين الجميع .

وفى موضع آخر يُعلِّمنا الحق سبحانه أدبَ المشى ، فيقول : ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ[3] مِنْ صَوْتِكَ .. (١٩) ﴾ [لقمان] وقالوا : إن المراد بالمشى الهون ، وهو الذى يسير فيه الإنسانُ على سجيته دون افتعال للعظمة أو الكِبْر ، لكن دون انكسار وذلة .

وسيدنا عمر رضى الله عنه حينما رأى رجلاً يسير متماوتاً ضربه ونهاه عن الانكسار والتماوت فى المشية ، وهكذا فمشية المؤمن وسطٌ ، لا متكبر ولا

---

(١) أورده أبو حامد الغزالى في (إحياء علوم الدين) (١/ ١٦٠) قال : « عن معاذ بن جبل : من عرف من على يمينه وشماله متعمداً وهو فى الصلاة فلا صلاة له » . وقال القشيرى فى رسالته القشيرية : «قيل شرط الخشوع فى الصلاة أن لا يعرف من على يمينه ومن على شماله » . وذكره السهروردى فى عوارف المعارف (١/ ٣٠٦) وعزاه لابن عباس من قوله .

(٢) المعروف أنه من قول سعيد بن المسيب ، أورده البيهقى فى سننه الكبرى (٣٦٩٢) ومحمد بن نصر المروزى (١٥١) فى كتاب « تعظيم قدر الصلاة » وابن أبى شيبة فى مصنفه (٦٨٥٤) وعبد الله بن المبارك فى الزهد (١١٨٨) ، وقد ذكره الحكيم الترمذى (٤/ ٢١٠) من حديث أبى هريرة مرفوعاً قال الألبانى (١١٠ - الضعيفة) : الحديث موضوع مرفوعاً ، ضعيف موقوفاً .

(٣) اغضض من صوتك : أى اخفض من صوتك عن الملأ ، فأمره بالاقتصاد فى صوته . فاجعله قصداً إذا تكلمت أى معتدلاً ، قاله يزيد بن أبى حبيب وذكره الطبرى فى تفسيره . وقال القرطبى : أى انقص منه فلا تتكلف رفع الصوت وخذ منه ما تحتاج إليه .

متماوت متهالك[1] .

والحق سبحانه يطلب منَّا حين يُنادينا للصلاة أنْ نسعى للمسجد ، ومع أن الأرض كلها مسجد وكلها طهور لكن المسجد خُصِّص للصلاة فينبغي أنْ تُؤدَّى فيه ، وأنت في صلاة ما دُمْت تسعى للصلاة ، فمَنْ كان بعيدَ البيت عن المسجد عليه أنْ يأتي الصلاةَ في سكينة ووقار ، ولا يخرج عن هذا السَّمْت حتى وإنْ تأخَّر عن تكبيرة الإحرام .

فلنجعل الجلوس في المسجد خاصاً بالمنعِم ، وهو الله سبحانه ، أما في خارج المسجد وفي سائر الأوقات فنحن نعيش مع النعمة التي أنعم اللهُ بها علينا .

والحق سبحانه عندما يأمرك بالسعي إلى ذكر الله في بيوت الله فإنما يدعوك إلى بيته ليُريحك وليحمل عنك همومك ، ويُصلح ما فسد فيك ويفتح لك أبوابَ الفرج .

والمسجد مكانٌ للعبادة لا يُعصى اللهُ فيه أبداً على خلاف البيوت والأماكن الأخرى ، فعظَّم الله بيوته أنْ يُعصى فيها ، وعظَّم روادها أنْ يشتغلوا فيها بسفاسف الأمور الحياتية الدنيوية ، فعليك أنْ تترك الدنيا على باب المسجد كما تترك الحذاء .

لذلك نهى الإسلامُ أن نعقد صفقةً في بيت الله ، أو حتى ننشد فيه الضالة ، لأن الصفقة التي تُعقد في بيت الله خاسرةٌ بائرة .

كيف تعيش كلَّ وقتك لأمور الدنيا على مدار اليوم والليلة ، ثم تستكثر على ربك الدقائقَ التي تُؤدّى فيها فرضَ الله عليك ، فتُجرجر الدنيا معك حتى في بيت الله ؟

---

(١) قال تعالى : ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ .. (١٩) ﴾ [لقمان] أي توسط فيه ، والقصد ما بين الإسراع والبطء . يقال: قصد فلان في مَشيته : إذا مشى مستوياً لا يدب دبيب المتماوتين ولا يثب وثوب الشياطين . قاله الشوكاني في فتح القدير (٥/ ٤٩٠) .

ألا تعلـم أنَ بيوتَ الله ما جُعلـتْ إلا لعبـادة الله ؟ لابدَّ للمؤمن أنْ يترك دُنْياه خارج المسـجد ، وأنْ ينوى الاعتكاف على عبادة ربه والمداومة على ذِكْره فى بيته ، فلا يليق بك أنْ تكون فى بيت الله وتنشغل بغيره .

فإن التزمتَ بآداب المسـجد تلقيتَ من ربك نوراً على نور ، وزال عن كاهلك الهمُّ والغمُّ ، وحُلَّت مشـاكلك من حيث لا تحتسـب ، فاجعل لحظاتك فى المسجد لله ، فالمسجد مكان للعبـادة .

لذلك أقول لمن يُحدِّثنى فى المسـجد بأىِّ شـيء يتعلق بحركة الحياة : أبشر بأنها لن تنفع لأنك دخلتَ المسـجد للعبـادة فقط ، إن لحظة دخولك المسجد هى لحظة جئت فيها لتقترب من ربك وتناجيه وتعيش فى حُضْـن عنايته ، فلماذا تأتى بالدنيا معك ؟

وليكُنْ لنا فى أحد الصحابة قدوة حسنة ، كان يقول : كنا نخلع أمر الدنيا مع نعالنا ، وزاد صحابيٌّ آخر فقال له : وزد يا أخى أننا نترك أقدارنا مع نعالنا .

انظر إلى الدقة ، إن الصـحابى المتبع لا يخلع الدنيا مع نعله فقط على باب المسـجد . ولكن يخلع أيضـاً قدْره فى الدنيا ، فيمكن أنْ تأخذك الدنيا سـاعات كثـيرة ، والمسـجد لن يأخذ منك إلا الوقتَ القليل فضَـعْ قـدرك مع نعلِكَ خارج المسجد ، وادخُلْ بلا قدر إلا قَدْر إيمانك بالله .

واجلس فـى المكان الـذى تجده خالياً فـلا تتخطَّ الرقاب لتصـل إلى مكان معين فى المسجد ، فأنت تدخل بعبودية الله .

وقد يأتى مجلسـك بجانب مَنْ يخدمك ، والصـغير يقعـد بجانب الكبير ، ولا تلحظ لك قدراً إلا قدرك عند الله .

إن النبى ﷺ كان يجلس حيث ينتهى به المجلس[١] أى عندما يجد مكاناً له، وهذا خلاف زماننا حيث يحجز إنسان مكاناً لإنسانٍ آخر بالسجادة .

وقد يدخل إنسانٌ ليتخطى الرقاب ويجلس فى الصف الأول ، وهو لا يعلمُ أن الله قد صَفَّ الصفوف قبل أنْ يأتى هو إلى المسجد .

وما دُمْنا سنترك أقدارنا فلا تقل : أين سأجلس وبجوار مَنْ ؟ بل اجلس حيث ينتهى بك المجلس ، ولا تتخطَّ الرقاب ، وانْوِ الاعتكاف ، ولا تتكلم فى أىّ أمر من أمور الدنيا حتى لا تدخلَ فى دعوة رَسول الله بألاَّ يبارك الله لك فى الضالة التى تنشدها وتطلبها[٢] .

وقد نهى النبى ﷺ أنْ يُوطِّن الإنسانُ لنفسه مكاناً فى المسجد يجلس فيه باستمرار[٣] ، لأن الأصل أنْ يجلس المصلى حيث ينتهى به المجلس ، فيجلس الناسُ بأولوية الحضور كلٌ حسب مكانه ومبادرته للصلاة ، فلا يتخطى الرقاب ولا يفرق بين اثنين .

ونرى بعض المصلين يسارع إلى الصفِّ الأول مثلاً ويضع سجادته ليحجز بها مكاناً ثم ينصرف لحاجته ، فإذا ما تأخر عن الصلاة أتى ليتخطى رقابَ الناس ليصل إلى مكانه ، فإذا بالناس يضيقون من هذا التصرف ويُنحّون سجادته جانباً ويجلسون مكانها .

---

(١) أخرج الطبرانى فى معجمه الكبير (١٧٨٦٨) من حديث هند بن أبى هالة التميمى وكان وصافاً عن حلية النبى ﷺ من حديث طويل « أنه ﷺ كان إذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهى به المجلس ويأمر بذلك » . وأخرجه عنه البيهقى فى دلائل النبوة (١/ ٢٩٠) .

(٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع فى المسجد فقولوا: لا أربح الله تجارتك ، وإذا رأيتم من ينشد فيه ضالة لا رد الله عليك » . أخرجه الترمذى فى سننه (١٣٢١) وابن خزيمة فى صحيحه (١٣٠٥) والبزار فى مسنده (٨٢٦٠) .

(٣) عن سلمان الفارسى قال قال النبى ﷺ : « لا يغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهر ما استطاع من طهر ويدهن من دهنه أو يمس من طيب بيته ثم يخرج فلا يفرق بين اثنين ثم يصلى ما كتب له ثم ينصت إذا تكلم الإمام إلا غُفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٨٨٣ ، ٩١٠) وأحمد فى مسنده (٢٣٧٦١) وابن حبان فى صحيحه (٢٧٧٦) .

إنــه تصـرُّف لا يليق ببيوت الله التى تُسـوِّى بـين خَلْق الله جميعـاً ، وتُحقِّق استطراقَ العبوديــة لله ، فـأنـت اليـوم بجوار فـلان ، وغداً بجوار آخـر ، الجميع خـاضع لله راكع وساجد ، فليس لأحد أنْ يتعالى على أحد .

فمن أخطر ما مُنى به المسـلمون أن تُجعل فى المسجد أماكن خاصة لنوعية معينــة يُخلَى لها المكان ، ويصــاحبها الحرس حتى فى بيـت الله ، ثم يأتى فى آخر الوقت ويجلس فى الصـف الأول ، وآخر يفرش سـجادته ليحجز بها مكاناً لحين حضوره فيجد المكان خالياً .

وينبغـى علـى عامة المسـلمين أن يرفضـوا هذا السـلوك ، وعليـك أن تُنحِّى سجادته جانباً وتجلس أنت ، لأن أولوية الجلوس بأولوية الحضور ، فقد صفَّها اللهُ فى المسجد إقبالاً عليه .

وهذه العادة السـيئة تُوقِع صـاحبها فى كثير من المحظورات حيث يتخطّى رقـاب النـاس ويُميِّز نفسـه عنهـم دون حق ، ويحدثُ انتقاصـ عبوديٍّ فى بيت الله.

فـالله تعالى قد وزَّع الأماكن على حسْـب الورود ، فإتيانـك إلى بيت الله أولاً يُعطيك ثوابَ الصف الأول ، وإنْ صليتَ فى الصفِّ الأخير .

وعدم توطين الأماكن ينشر الأُلْفة بين النـاس ، ويزيل الفوارق ويســاعد على التعارف ، فكلُّ صلاة أنت بجانب شخص جديد تتعرَّف عليه وتعرف أحواله .

فإذا جلس فى مكانه فليُنصـت إلى خطبة الإمام لأنها تشـتمل على آيات من القرآن ، والحق سـبحـانه قــال : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَـهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤) ﴾ [الأعراف]

ونبّـه البعضُـ إلى أن الإنصـاتَ للخطبـة ثبت بدليـل قوْل النبـى ﷺ : « إذا

قلتَ لصاحبك والإمامُ يخطب يوم الجمعة أنصِتْ فقد لغوْتَ »[1] إذن : الإنصاتُ للخطبة جاء بدليل من السنة .

والخطبة مأخوذة من مادة (الخاء) و (الطاء) و (الباء) ، وتدل على أمور تشترك فى عدة معالم : منها خُطبة بضم الخاء ، ومنها خَطْب وهو الأمر العظيم، ومنها الخِطْبة بكسر الخاء .

وكلّ هذه المعالم تدل على أن هناك الأمر العظيم الذى يُعالج ، فالخَطْب أمر عظيم ، لأنه أمرٌ فاصل بين حياتين : حياة الانطلاق وحياة التقيد بأسرة وبنظام ، وكلّها معَانٍ مشتركة فى أمر ذى بال وأمر خطير .

وأمْر صلاة الجمعة يقتضى منك أنْ تأخذ عندها زينتك ، مصداقاً لقوْل الحق سبحانه : ﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ .. (٣١) ﴾ [الأعراف]

وهذا ما عناه رسول الله ﷺ فى حديثه النبوى : « أفلا أُحدِّثكم عن يوم الجمعة ؟ لا يتطهّر رجلٌ فيُحسن طهوره ويلبس أحسن ثيابه ، ويُصيب من طِيبِ أهله إنْ كان لهم طِيبٌ ، وإلا فالماءُ ، ثم يأتى المسجد »[2] .

وقوله ﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ .. (٣١) ﴾ [الأعراف] فالزينة إذا سمعتها تنصرف إلى تجميل فوق قوام الشيء ، وهذا يعنى أنْ يذهب المسلم إلى المسجد بأفخر ما عنده من ملابس .

ونحن نعلم أن المسجد هو مكانُ اجتماع عباد الله ، وهم متنوِّعون فى

---

(١) أخرجه مالك فى الموطأ (٢٣٢) والبخارى فى صحيحه (٩٣٤) ومسلم فى صحيحه (٢٠٠٢) وأبو داود فى سننه (١١١٤) والنسائى فى سننه (١٤٠٢ ، ١٥٧٧) وغيرهم .

(٢) وعن سلمان الفارسى قال قال رسول الله ﷺ : « يا سلمان ، هل تدرى ما يوم الجمعة ؟ قلت : هو الذى جُمِع فيه أبوك أو أبوكم . قال : لا ولكن أحدثك عن يوم الجمعة ، ما من مسلم يتطهر ويلبس أحسن ثيابه ويصيب من طيب أهله إن كان لهم طيب وإلا فالماء ، ثم يأتى المسجد فينصت حتى يخرج الإمام ثم يصلى إلا كانت كفارة له بينه وبين الجمعة الأخرى ما اجتنبت المقتلة وذلك الدهر كله » . أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (٥٩٦٧) .

مُهمات حياتهم ، وكلّ مهمة فى الحياة لها زِيُّها ولها هندامها . فالذى يجلس علـى مكتب لمقابلة الناس له ملابس ، ومَنْ يعمل فى الحدادة لـه زِىٌّ خاصٌ مناسبٌ للعمل .

ولكن إذا ذهبتم إلى المسجد لتجتمعوا جميعاً فى لقاء الله ، أيأتى كل واحد بلباس مهنته ليدخل المسجد ؟ لا ، فليجعل للمسجد لباساً لا يضايق غيره .

فإنْ كانت ملابس العمل فى مصنع أو غير ذلك لا تليق ، فاجعل للمسجد ملابسَ نظيفة حتى لا يُؤذى أحد بالوجود بجانبك ، لأننا نذهب إلى المسجد لعمل مشترك يحكم الجميع ، وهو لقاء الله فى بيت الله ، فلابد أنْ تحتفى بهذا اللقاء .

وفى حديث آخر عن سلمان الفارسى أيضاً قال قال ﷺ : « مَن اغتسل يوم الجمعة وتطهَّر بما استطاع من طُهْر ثم ادَّهن أو مسَّ من طيب ، ثم راح فلم يفرق بين اثنين فصلّى ما كُتب لـه ، ثم إذا خرج الإمام أنصتَ غُفِر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى »[١] .

ثم إن الحق سبحانه الآمر بالسعى إلى الصلاة من يوم الجمعة ، هو سبحانه يأمر المؤمنين أنْ يذروا البيع من أجل صلاة الجمعة فقال : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ .. (٩) ﴾ [الجمعة]

والحق سبحانه لم يقل : اتركوا الزراعة أو اتركوا الصناعة أو اتركوا التدريس، بل اختار من كلِّ حركات الحياة حركةَ البيع على وجه الخصوص ، لأن فيه تجارة ، والتجارة هى الجامعة لكلِّ حركات الحياة .

والحق سبحانه إنما أخرجهم من البيع إلى الصلاة ولم يُخرجهم من فراغ ، بل أخرجهم من حركة البيع ، وجاء بـ (البيع) لأنه العملية التى يأتى ربحها مباشرة لأنك عندما تزرع زَرْعاً ستنتظر مدة تطول أو تقصر لتُخرج الثمار ،

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٩١٠) وابن حبان فى صحيحه (٢٧٧٦) والبيهقى فى السنن الكبرى (٦١٠٣) ، والدارمى فى سننه (١٥٤١) وابن حبان فى صحيحه (٢٧٧٦) من حديث سلمان الفارسى.

لكن البيعَ تأتى ثمرتُه مباشرة ، تبيع فتأخذ الربح فى الحال .

والبيع ينتظم كلّ حركات البيع ، لأن معنى البيع أنه وسط بين منتج ومستهلك ، فعندما تبيع سلعة ، هذه السلعة جاءت من منتج ، والمنتج يبحث عن وسيط يبيعها لمستهلك ، وهذا المستهلك تجده منتجاً أيضاً ، والمنتج تجده أيضاً مُستهلكاً .

فالإنتاج والاستهلاك تبادلٌ وحركة ، الحياة كلُّها فى البيع وفى الشراء ، وما دام هناك بيعٌ فهناك شراء ، فهذا استمرار لحركة الحياة ، فيوضح اللهُ سبحانه : اتركوا هذه العملية التى يأتى ربحها مباشرة ، ولبُّوا النداء لصلاة الجمعة .

وحين يذر الإنسانُ البيعَ فهو يذرُ الشراءَ من باب أَوْلَى ، لأن البيع والشراء وجهان لعملية واحدة ، الخلاف فقط أن المشترى قد يشترى السلعة وهو كارهٌ لأنْ يشترى ، لأنه يستهلك نقوده فيما يشتريه .

أما البائع فيريد أنْ يحصل على ثمن البيع فوراً ، وغالباً ما يحصل على ربح من وراء ذلك ، وتلك هى قمة الكسْب ، فكسْب الزارع على سبيل المثال يأتيه بعد شهور من الزراعة ، كسْب الموظف يأتيه أول الشهر ، أما البائع فيحصل على الكسب فوراً . ولذلك يأمرنا الحق أنْ نذرَ البيع إذا سمعنا نداء الصلاة يوم الجمعة .

ولو نظرنا إلى دقَّة الأداء فى البيع لوجدناها قمة الأخْذ المباشر للرزق ، فجاء الحق سبحانه بالبيع لأنه قمة النفعية العاجلة .

لقد جاء الأمرُ بترْك هذه الثمرة العاجلة لأداء صلاة الجمعة ، ويتضمن هذا الأمر ترْك كلِّ الأمور التى قد تأتى ثمراتها من بعد ذلك لأداء الصلاة .

إن البيع هو التعبير الدقيق لأن المتكلمَ هو الله ، والحق لم يتكلم هنا مثلاً عن الشراء ، لأن المشترى قد يشترى وهو كاره ، لكن البائع يملؤه السرور وهو يبيع ، فقد يذهب رجلٌ لشراء أشياء لبيته فيسمع الأذان فيُسرع إلى الصلاة ويقول

لأهله من بعد ذلك : لقد ذهبت إلى الشراء لكن المؤذنَ قد أذَّن لصلاة الجمعة .

ذلك لأن الإنسان لا يحب أنْ يدفع نقوداً ، أما البائع فيستفيد بقيمة الفائدة، فشهوة الإنسان متعلقة بالبيع لا بالشراء ، فالشراء يحتاج منَّا إلى مال على خلاف البيع الذى يجلب المال .

لذلك يحزن البائع إذا لم يبع ، أما المشترى فيقول حين لا يجد الشيء أو يجد المحلّ مُغلقاً : بركة يا جامع .

واعلم أنك إنْ أقبلتَ على الله أعطاكَ من الفُيوضات ما يُعوِّضك مكاسبَ الدنيا وتجارتها ، إنْ تركتها لإجابة النداء ، لذلك كان شعار الأذان الذى ارتضاه رسول الله ﷺ (الله أكبر) . أى : أكبر من أيِّ شيء غيره .

فإنْ كنتَ فى نوم فالله أكبر من النوم ، وإنْ كنتَ فى تجارة فالله أكبر من التجارة ، وإنْ كنتَ فى عمل فالله أكبر من العمل .. إلخ .

وعجيبٌ أنْ نرى مَنْ يُقدِّم العمل على الصلاة بحجة امتداد الوقت وإمكانية الصلاة بعد انتهاء العمل ، وهذه حجة واهية ، لأن ربَّك حين يناديك (الله أكبر) يريدك أنْ تستجيب على الفَوْر لا على التراخى ، وإلاَّ كيف تُسمَّى الاستجابة للنداء إذا تأخرتْ عن وقتها ؟

فطول الوقت خاصة بين الصبح والظهر ، وبين العشاء والصبح لا يعنى أنْ تصلى فى طُول هذا الوقت ، لأن النداء يقتضى الإسراع والاستجابة .

وقوله تعالى ﴿ ذَٰلِكُمْ .. (٩) ﴾ [الجمعة] هو الإشارة إلى ما سبق من السعى إلى ذِكْر الله ، وهو صلاة الجمعة واقترانه بترْك البيع .

و (ذا) اسم إشارة و (الحكيم) تشير للخطاب ، لأن الحق سبحانه وتعالى يخاطب جماعة . وبعض مَنْ لا يفهم اللغة يقول (ذلكم) كلمة واحدة خطاباً

أو إشـارة ، وتقول لهم : لا بل هى كلمتان إشـارة وخطاب . والإشارة هنا لشيء واحد والخطاب لجماعة .

﴿ خَـيْرٌ لَكُـمْ .. (٩) ﴾ [الجمعـة] وخير هى أفعل تفضـيل أصـلها أخْيَر . أى : يعطيك منفعةً ما وربحاً سريعاً ، وهذا شيء طيِّب يحمل خيراً للإنسان .

إذا كان هذا خيراً فإنَّ الأشدَّ خيْريَّة منه هو الاستجابة لنداء الصلاة من يوم الجمعة وترْك البيع ، والسعى إلى ذِكْر الله حيث ينادى به .

﴿ إنْ كُنْتُـمْ تَعْلَمُونَ (٩) ﴾ [الجمعة] والعلم هو أنْ تأخذ قضـية تعتقدها ولها واقع وتستطيع أنْ تُدلِّل عليها ، وإنْ اختلَّ شَرطٌ فيها فهذا خروجٌ عن العلم .

نقـول ﴿ إنْ كُنْتُـمْ تَعْلَمُـونَ (٩) ﴾ [الجمعة] أى : تتيقَّنون من قضـية نسـبية واقعة معتقدة تستطيعون أنْ تُدلِّلوا عليها ، فهناك موازين نعرف بها ما هو خَيْر ومـا هـو شَرٌّ ، وحينما يقول الحق سـبحانه ﴿ إنْ كُنْتُـمْ تَعْلَمُونَ (٩) ﴾ [الجمعة] فكأنَّ هناك مقدماتٍ للعلم ، فإن لم يكونوا يعلمون فالله يعلمهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٠ ﴾

فالحـق تبـارك وتعـالى حينما يُحدِّثنا عن الصـلاة من يـوم الجمعة يقول :
﴿ يَـاأَيُّهَـا الَّذِيـنَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَـةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْـعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُـونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ .. (١٠) ﴾ [الجمعة]

وهكذا أخرجنا الحق سبحانه إلى الصلاة من عمل، وبعد الصلاة أمرنا بالعمل والسَّعى والانتشار فى الأرض والابتغاء من فضْل الله.

فمخالفة الأمر فى ﴿ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ .. (٩) ﴾ [الجمعة] كمخالفة الأمر فى ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ .. (١٠) ﴾ [الجمعة]

فالإسلام لا يعرف التكاسل ولا يرضى بالتنبلة والقعود، ومَنْ أراد السكون فلا ينتفع بحركة متحرك، وسيدنا عمر رضى الله عنه حينما رأى رجلاً يقيم بالمسجد لا يفارقه سأل: ومَنْ ينفق عليه؟ قالوا: أخوه. قال: أخوه أعَبدُ منه[1]. لماذا؟ لأنه يسهم فى حركة الحياة ويوسع المنفعة على الناس.

إذن: فكل عمل نافع عبادةٌ شريطةَ أنْ تتوفر له النية، فالكافر يعمل وفى نيته أنْ يرزق نفسه، فلو فعل المؤمن كذلك، فما الفرق بينهما؟ المؤمن يعمل نعم ليقُوت نفسه، وأيضاً لييسِّر لإخوانه قُوتهم وحركة حياتهم.

فسائق التاكسى مثلاً إذا عمل بمبلغ يكفيه، ثم انصرف إلى بيته وأوقف سيارته، فمَنْ للمريض الذى يحتاج لمن يُوصِّله للطبيب؟ والبائع لو اكتسب رزقه ثم أغلق دكانه فمَنْ يبيع للناس؟

إذن: اعمل لنفسك وفى بالك أيضاً مصلحة الغير وحاجتهم، فإنْ فعلتَ ذلك فأنت فى عبادة، تعمل على قدر طاقتك، لا على قدر حاجتك، ثم تأخذ حاجتك من منتوج الطاقة، والباقى يُردّ على الناس إمّا فى صورة صدقة، وإما بثمن، وحسْبُك أنْ يسَّرت له السبيل.

---

(١) ما ذكره الغزالى فى الإحياء (٢/ ٣٥٠) هو من قول عيسى عليه السلام أنه قال للرجل: أخوك أعبد منك. وقد أخرجه أبو بكر الدينورى بسنده فى كتابه (المجالسة وجواهر العلم) (٧٥٣) وابن قتيبة فى عيون الأخبار (١/ ١٣٧). أما ما ورد عن عمر بن الخطاب إنما هو قوله لأحد المتبطلين: «إن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة». ذكره أبو حامد الغزالى (٢/ ٣٥١) قال عمر: لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق يقول: اللهم ارزقنى فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة».

إذن : نقول العبادة كل حركة تُؤدِّى خدمةً فى الكون نيتُك فيها لله ، والعبادة هى طاعة العابد للمعبود ، فلا تأخذها على أنها العبادات التى نفعلها فقط من الصلاة والصوم والزكاة والحج ، لأن هذه أركانُ الإسلام .

وما دامت هذه هى الأركان والأسس التى بُنى عليها الإسلام ، إذن : فالإسلام لا يتكوَّن من الأركان فقط ، بل الأركان هى الأسس التى بُنى عليها الإسلام .

والأسس التى بُنِى عليها البيت ليست هى كل البيت ، لذلك فالإسلام بُنيان متعدد ، فالذين يحاولون أنْ يأخذوا من المصطلح التصنيفى أو المصطلح الفنى فى العلوم ، ويقولون : إن العبادات هى الصلاة وما يتعلّق بها والزكاة والصوم والحج لأنها تُسمَّى فى كتب الفقه « العبادات » .

فلقد قلنا : إنَّ هذا هو الاسم الاصطلاحى، لكن كلّ أمر من الله فهو عبادة ، ولذلك فبعضُ الناسِ يقولون : نعبد الله ولا نعمل . نقول لهم : إن العبادةَ هى طاعة عابد لأمر معبود ، ولا تفهموا العبادة على أساس أنها الشعائر فقط ، فالشعائر هى إعلان واستدامةُ الولاء لله .

والشعائر تُعطى شحنة لتستقبل أحداثَ الحياة ، ولكن الشعائر وحدها ليستْ كلّ العبادة ، فالمعاملات عبادة ، والمفهوم الحقيقى للعبادة أنها تشمل عمارة الأرض .

لذلك قال تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ.. (١٠) ﴾ [الجمعة] فإنْ أطعنا الله فى الأمر الأولَ ﴿ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ.. (٩) ﴾ [الجمعة] فالأمر فى ﴿ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ .. (١٠) ﴾ [الجمعة] يستوجب الطاعة كذلك .

فكل حركة فى الحياة عبادة ، ثم ألاَ تحتاج الصلاةُ لقوام حياة ؟ لابد أنْ تتوافر لك مقومات حياة حتى تصلى ، فما هى مُقوِّمات حياتك ؟ إنها طعام

وشراب ومسكن وملبس ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

مثال ذلك أن الإنسان حين يصلى فهو يحتاج إلى قوة ، والقوة تتولد فى الجسم نتيجة تناول الطعام . إذن : عملية صناعة الطعام أمر واجب ، وكلّ ما يترتب على ذلك عملية واجبة .

لذلك عندما يأتى واحد ويقول : أريد أنْ أنقطع للعبادة وأعتزل حركة الحياة نقول له : افعلْ ذلك بشرط واحد هو ألاَّ تنتفعَ بحركة متحرك واحد فى الحياة ، ولا تتناول أيَّ طعام ، ذلك أن الرغيف الذى يُقدِّمه لك إنسان هو من عمل بشر كثيرين لم ينقطعوا عن الحياة .

ونقول له أيضاً : لماذا ترتدى هذا الجلباب ؟ إنه نتيجة حركة حياة بشر آخرين ، فهناك مَنْ زرع القطن ، وآخر حلج هذا القطن ، وثالث حوّله إلى غَزْل، ورابع نسجه ، وخامس قام بتفصيل هذا الجلباب .

ولتنظر إلى ما خلف كل واحد من الآلات ، وإياك أنْ تنتفع بحركة واحد مشغول بالأسباب ما دُمْتَ قد قررت الانقطاع عن حركة الحياة .

إن الشغل بالأسباب عبادة ، لأن العبادة لا تتم إلا به ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، ولذلك نتعلم المهارات المفيدة للحياة ، وهى فرض كفاية .

والفَرْض الواجب على الإنسان أحد اثنين : إما فرض عين وهو الأمر المكلَّف به الفرد ، ولابدّ أنْ يؤديه ولا يجوز أنْ يؤديه أحدٌ نيابةً عنه كالصلاة .

وإما فرض كفاية ، وهو ما لا يتم الواجب إلا به ، لذلك كان واجباً ، فكلٌّ منّا يريد الطعام ، لذلك لابدَّ من تقسيم العمل ، فهذا يزرع وهذا يصنع ، فلا بدَّ من زراعة القمح ، ولابدَّ من إقامة المطاحن ، ولابدَّ من إقامة الأفران ، ولابدَّ من مهندسين يُصمِّمون هذه الآلات .

وكل ذلك أمور تُسهِّل للإنسان أنْ يمتلكَ القوة لأداء الصلاة ، وأنْ يقف بين يدى الحق ليؤدى الصلاة ، ولكن ماذا بعد انتهاء الصلاة ؟ ها هو الحق سبحانه يقول :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) ﴾ [الجمعة]

إذن : فلا يقولنَّ أحدٌ أنا منقطع طوال حياتى للصلاة ، فلن يستطيع أحدٌ أنْ يذهب إلى الصلاة ما لم يكُنْ يملك مقوِّمات حياته ، ومقومات الحياة تقتضى أنْ يضربَ الإنسانُ فى الأرض ، ولابدَّ أنْ يبتغى الإنسانُ من فضل الله .

لقد أمر الحق سبحانه عباده المؤمنين بالانتشار فى الأرض ، لأن له هدفاً وغاية ، فالهدف السَّعى وطلب الرزق ، ومن معانى الانتشار السياحة وهى مأخوذة من ساح الماء إذا فاض وأخذ حيِّزاً أكبر .

والانتشار أو السياحة فى الأرض ينبغى أنْ تكون منظمة ، كما تنتشر نقطة الماء على القماش فتُحدث فيه دائرة منتظمة ، كذلك فى انتشاركم فى الأرض للسعى فى طلب الرزق يجب أنْ يكون بنظام معين ، بحيث لا يحدث تكدُّسٌ فى مكان أو زحام ، فى حين يخلو مكان آخر لا يجد مَنْ يعمره ويستنبط خيراته .

والسياحة فى الأرض أو الانتشار فيها اللهُ تعالى يريده منا لغايتين : الأولى الضرب فى الأرض وابتغاء رزق الله وفضله ، كما قال سبحانه وتعالى :

﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ.. (٢٠) ﴾ [المزمل]

والضَّربُ فى الأرض ليس مجرد الانتشار فيها ، إنما المراد العمل والكفاح واستخراج خيراتها ، لأن الخالق سبحانه نَثَر القُوتَ فى أنحاء الأرض بالتساوى ونثر فيها الخيرات .

لذلـك كلّ يـوم تُعطينـا الأرضُ جديداً من نِعَم الله ، كنَّـا لا نعرف من خيرات الأرضِ إلا الزراعة ، فلما تقدمتْ العلوم والاكتشـافات وتطـورت أدواته عرفنـا المعـادن والبترول والكنوز المطمورة فـى أرض الله ، وكلُّ أثر كنزيٍّ فى الأرض لا نستخرجه ولا نعرفه إلا بالضرب فى الأرض ، وسبق أنْ قلنا : الضرب إيقاع شيء بقوة .

كنّا نتعجب من الناس الذين يسكنون البوادى والصحراء ونشفق عليهم ، كيف يعيشون فى هذا الجَدْب والقَحْط ؟ ولماذا لا يتركون هذا المكانَ إلى غيره ؟

والآن وبعـد هـذه الاكتشـافات البترولية صـاروا هم أغنى النـاس وتأتيهم كلّ خيرات الدنيا تحت أقدامهم ، لماذا ؟ لأنهم تمسَّكوا بأرضهم وبلادهم وصبروا عليها، حتى آنَ الأوانُ لجنى خيراتها ، ولو أنهم يئسوا منها ما نالوا كلَّ هذا الخير.

أمـا الغاية الثانية للسـياحة فـى الأرض والضرب فيها أنْ تكون السـياحة للاعتبـار والتأمـل فى آيات الله فى كَوْنه ، فبالتنقُّل والسـير فـى الأرض أرى آياتٍ ليستْ موجودة فى بيئتى .

وفـى ذلـك قال تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) ﴾ [العنكبوت]

ويقول سبحانه فى موضع آخر : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا .. (١١) ﴾ [الأنعام] والمعنى أنَّ السـير فى الأرض لابتغاء الرزق ينبغى أنْ يصـاحبه نظرٌ وتأملٌ لآيات الله .

وإياك أنْ تظنَّ أن الله يريد أنْ تذكره ســاعةً فحسْـب ، إنما اذكره دائماً وأبداً، وإنْ كانـت الصـلاة لها ظـرفٌ تُؤدّى فيه فَذِكْـر الله لا وقتَ لـه ، لذلك جعله الله يسيراً سهلاً لا مشقةَ فيه ، لا بالوقت ولا بالجهد .

فيكفي في ذكر الله أنْ تتأمل المرائي التي تمرُّ بها ويقع عليها نظرك لترى فيها قدرة الله ، ومن كرمه سبحانه أنْ يُثيب العبد على كلِّ حركة خَيْر في دنياه، لأن هذه الحركة مطلوبةٌ للإيمان .

وأنت إذا أردتَ أنْ تؤدِّى فرْضَ الله فى الصلاة مثلاً ، فأنت تحتاج إلى قوة لتؤدى هذه الفريضة ، ولن تجد هذه القوة إلا بالطعام والشراب .

ولنأخذ أبسط ما يمكن تصوّره من الطعام .. رغيف العيش .. فانظر كم يد شاركتْ فيه منذ كان حبَّةَ قمح تُلْقى فى الأرض إلى أنْ أصبح رغيفاً شهياً .

إن هؤلاء جميعاً الذين أداروا دولاب هذه العملية يؤدون حركة إيجابية فى الحياة هى فى حَدِّ ذاتها عبادة ، لأنها أعانتْك على عبادة .

أيضاً إذا أردتَ أنْ تصلى فواجبٌ عليك أنْ تستر عورتك ، انظر إلى هذا القماش الذى لا تتم الصلاة إلا به ، كل مَنْ أسهم فى زراعة القطن أو تربية الضأن لأخذ الصوف وصناعته حتى وصل إليك جميعهم يؤدون عبادة بحركتهم فى صناعة هذا القماش .

إذن : كل شيء يُعينك على عبادة الله فهو عبادة ، وكل حركة فى الكون تؤدى إلى شيء من هذا فهى عبادة .

والحق سبحانه حينما استدعى المؤمنين لصلاة الجمعة قال سبحانه :
﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) ﴾ [الجمعة]

لم يأخذهم من فراغ بل من عمل ، فإذا انقضتْ الصلاة أمرنا بالعودة إلى العمل والسعى فى مناكب الأرض ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ.. (١٠) ﴾ [الجمعة]

واعلم أن ما تنتشر إليه من الرزق وما تبتغيه إنما هو من فَضْل الله ، فإياك أنْ يشغلك انتشارُك فى الأرض وابتغاؤك من فضل الله والأخْذ بأسباب الدنيا عن واجبك نحو الله ، بل عليك أنْ تذكره سبحانه .

﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ[1] وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥) ﴾ [الأعراف]

أى : لا تكُنْ من الغافلين عن مطلوبات الله بالحدود التى بيَّنها الله عز وجل ، لأن الغفلة معناها انشغال البال بغير خالقك ، وأنت إنْ جعلتَ خالقك فى بالك دائماً فإنك لا تغفل عن مطلوباته فى الغدوِّ والآصال ، وفى كل وقت سواء كنتَ فى الصلوات الخمس ، أو كنتَ تضرب الأرض بأىِّ معنى من المعانى .

ونداء ربك أكبر من حركة الحياة ، فعليك أنْ تستجيب له ، لأن نداءَ ربك هو الذى سيمنحك القوة والطاقة ، ويعطيك الشحنة الإيمانية فتُقبل على عملك بهمَّة وإخلاص .

ولننظر إلى الدقة فى قوله تعالى : ﴿ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ .. (١٠) ﴾ [الجمعة] فالانتشار يعنى أنْ ينساح البشر لينتظموا فى كل حركات الحياة ، وبذلك تعمر كلّ حركة فيها ، فكلُّ حركة فى الحياة هى عبادة .

وكأنك ذهبتَ للمسجد لتأخذَ شحنة إيمانية تُعينك وتُسيطر على كلِّ حواسك ، فى حركتك فى التجارة ، وفى الإنتاج وفى الاستهلاك ، وفى كلِّ ما ينفعك ويُنمى حياتك .

وحين يأمرك ربُّك أنْ تفرُغَ لأداء الصلاة لا يريد من هذا الفراغ أنْ يُعطِّل لك حركة الحياة ، إنما ليعطيك الوقود اللازم لتصبح حركةُ حياتك على وفق ما أراده الله .

---

(١) الآصال : جمع أصيل – آخر النهار . وهو ما بين العصر والمغرب . وهو المساء . وفى البحر المديد : الآصال : صلاة الظهر والعصر والعشاءين . وهو ما بين العصر إلى الليل .

وما أشبه هذا الوقت الذى نختزنه من مصالح دنيانا فى عبادة الله بشحن بطارية الكهرباء ، فحين تذهب بالبطارية إلى جهاز الشحن لا نقول : إنك عطلتَ البطارية ، إنما زدتَ من صلاحيتها لأداء مهمتها وأخْذ خيرها .

فالمطلوب من المؤمن أنْ يسهم فى حركة الحياة مساهمةً إيجابية بنّاءة نافعة فى الحياة مُعينة على التدين ، فلو أخذنا مثلاً سَتْر العورة وهى واجب لا تتم الصلاة إلا به ، فلكى تستر عورتك لتصلى تحتاج إلى ثوبٍ تلبسه ، كيف يتوفر لك هذا الثوب ؟

إنه يحتاج إلى خياط يخيطه ، ويحتاج إلى تاجر التجزئة الذى تشترى منه القماش ، ثم تاجر الجملة ، ثم مصنع النسيج والغزل والصباغة والحلج ، ثم الفلاح الذى يزرع القطن ويجمعه .

كلُّ هذه العملية تحتاج إلى عِدَد وماكينات وآلات وأيْدٍ عاملة ، فكُلُّ هذه الحركة من أجلك تخدمك وتعينك ، فهذه الأعمال الدنيوية التى لا تقوم الديانة إلا بها هى واجبة لا يُستهان بها ، بل ينبغى المحافظة عليها وتقديسها لأنها فى منزلة الواجب .

وحين يأخذك ربُّك من هذه الأعمال إلى الصلاة مثلاً لا يأخذك من عمل تافه هيِّن لا قيمَة له ، إنما يأخذك من عمل هو فى حَدِّ ذاته عبادة ، لذلك جعله كبيراً، أما الذى يناديك للصلاة فأكبر من هذا كله .

لذلك لم يُناد الحق سبحانه المؤمن فى صلاة إلا فى صلاة الجمعة ، حيث قال سبحانه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ .. (٩) ﴾ [الجمعة]

فإذا ما انتهت الصلاة ردّك ربُّك إلى العمل الذى استدعاك منه وأعادك إلى دنياك .

إذن : لا تستهِنْ بعمل الدنيا ولا تظنه بعيداً عن الدين بل هو جزء منه ، وما لا

يتم الواجبُ إلا به فهو واجب ، فأمرنا بالعودة إلى حركة الحياة لأنها الوسيلةُ للدار الآخرة والمزرعة التى تعد فيها الزاد للقاء الله تعالى .

إذن : الدنيا أهم من أنْ تُنسى من حيث هى معونة للآخرة ، ولكنها أتفه من أنْ تكونَ غايةً فى حَدِّ ذاتها ، أعطاك الحق سبحانه العقل لتفكر ، وأعطاك الطاقةَ لتفعل، وسخَّر لك الكون بالمطمور فيه من الرزق لتستخرجه وتتعيَّش منه .

وهكذا يتضح لك أنَّ كلَّ شيء يحتاج منك أنْ تتحرك ، وأنت فى حركتك تحتاج لطاقة تأخذها من الأعلى منك وتعطى للأدنى منك ، فأنت عندما تُدْعى إلى تلبية نداء الله تشحن طاقتك ، وتخرج للحياة بعد أنْ تُجدِّد ولاءك لمَن خلقك وخلق الأكوان كلها ، وإنْ أحسنتَ الوقوف بين يدى الله سيأتى مستقبلك مبنياً على هذا الإحسان .

ومن عِظم شعور التابعين بآيات الله عز وجل ذلك الذى رُوى عن عراك بن مالك[1] أنه كان إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد وقال : اللهم أجبتُ دعوتك ، وصليْتُ فريضتك ، وانتشرتُ كما أمرْتنى ، فارزقنى من فضلك، وأنت خيْرُ الرازقين[2] .

وقد قلتَ وقولك الحق : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) ﴾ [الجمعة]

---

(١) عراك بن مالك : أحد بني غفار بن مليل . توفى زمن يزيد بن عبد الملك فى منفاه عام ١٠٤ هجرية بدهلك ، كان شيخاً كبيراً ، تابعى ثقة من خيار التابعين وكان زاهداً عابداً ، كان من أشد أصحاب عمر ابن عبد العزيز على بنى مروان فى انتزاع ما حازوا من الفىء ، والمظالم من أيديهم .

(٢) ذكر هذا القرطبى فى تفسيره (١٨/١٠٩) وكذا ابن كثير (٨/١٢٢) وفخر الدين الرازى فى تفسيره مفاتيح الغيب (سورة الجمعة) ; وذكره أيضاً ابن رجب الحنبلى فى كتابه (فتح البارى بشرح صحيح البخارى) (ص ٥٤٦) .

وكان عبد الله بن بسر[1] إذا صلى الجمعة خرج من المسجد قدراً طويلاً ، ثم رجع إلى المسجد فيصلى ما شاء الله أنْ يصلى . فقيل له : يرحمك الله لأيِّ شيء تصنع هذا ؟ قال : لأنِّى رأيتُ سيد المسلمين ﷺ هكذا يصنع »[2] يعنى النبى .

والذين يريدون أنْ يعزلوا الدين عن حركة الحياة يقولون : إن الدين يهتم بالعبادات كالصلاة والصوم والزكاة والحج ، لهؤلاء نقول : أنتم تتكلمون عمَّا بلغكم من دين لم يجيء لينظم حركة الحياة ، وإنما جاء ليعطى الجرعة المفقودة عند اليهود وهى الجرعة الروحية .

أما الدين الإسلامى فقد جاء خاتماً للأديان ، مُنظِّماً لحركة الحياة ، فكلُّ أمر فى الحياة وكلُّ حركة فيها داخلة فى حدود الطاعة ، فالإسلام أوسع من الأركان الخمس ، فالأركان هى الشحنة التى يستدعيك ربُّك إليها ، فتأخذ من لقائه المدد الذى يُعينك على القيام بحركة الحياة .

ومثّلنا ذلك بالبطارية حين تذهب بها إلى الشحن ، فنحن لا نستفيد بها فى فترة الشحن ، إنما نعطيها الشحنة اللازمة لنعملَ بها بعد ذلك .

ومن عجيب أمر الرحمة الإلهية أن الله تعالى جعل الذهاب إلى شحنة الطاقة فرضاً تكليفياً لا بدَّ لك من القيام به ، لابدَّ لك أنْ تقابلنى خمس مرات فى اليوم والليلة ، ولابدَّ لك أنْ تسعى للصلاة من يوم الجمعة .

فأنت خَلْقى وصنعتى ، والصانع أعلم بما يُصلح صنعته ، وتصوَّر صنعة تُعرض على صانعها خمس مرات فى اليوم والليلة ، هل يبقى فيها عَطَب ؟

---

(١) عبد الله بن بسر المازنى أبو صفوان من بنى مازن بن منصور صحابى كان ممن صلى إلى القبلتين توفى بحمص بالشام عام ٨٨ هجرية عن ٩٥ عاماً ، وهو آخر الصحابة موتاً بالشام . [الأعلام للزركلى ٤/٧٤] وصفه الذهبى فى سير أعلام النبلاء (٣/٤٣٠) بأنه بركة الشام .

(٢) أورده السيوطى فى الدر المنثور (سورة الجمعة) وعزاه لأبى عبيد وابن المنذر والطبرانى وابن مردويه. وأورده الألوسى فى روح المعانى (١٤/٢٩٨) .

هـذا فـي الصـانع إنْ كان من البشر، فما بالك بالصـانع إنْ كان هو ربّ البشر وخالقهم سبحانه ؟

الصـانع من البشر يُصلح صنعته بشيء مادى، ذلك لأن المهندس وصنعته شيءٌ مادى فيصلح بالمادة، أما الخالق سبحانه فغيْب فحين يصلحك من عطب فيك يُصلحك بالغيب فلا تشعر به ولا تراه.

إذن : نقول لابد أنْ نفهم الدين على حقيقته، وأنْ نفهم أنَّ لكل منا مهمةً فإذا تفـوَّق عليـك غيرُك فاعلم أنَّ تفوّقه لصـالحك وعائدٌ عليك، لأنـه بتفوّقه يؤدى إليك خدمة فى حين أنه لا يستفيد منك.

وممـا يُلفـت إليه قـوْل الحق سـبحانه : ﴿ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ .. (٩) ﴾ [الجمعة] ثـم قوله ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ .. (١٠) ﴾ [الجمعة]

فالخطـاب كلُّه للرجال، فالرجال هم المكلَّفون بصـلاة الجمعة حيث يُنادى بها، وهم فى الغالب القائمون بعملية البيع، ولاحظ أن الحق سـبحانه لم يذكر الشراء وهو قد يقع من المرأة أكثر.

ثـم يأتـى ﴿ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ .. (١٠) ﴾ [الجمعة] فالانتشـار فى الأرض والسعى على الرزق إلا لضرورة ألجأتْها لهذا، وعلى المجتمع أنْ لا يجعل المرأة عُرْضة لتحكم الضرورات بها وبحياتها.

فالرجل هو المكلَّف والمُطالَب بالتحرُّك فى هذا الكون، أما المرأة فتدير بيتها لتكون سكناً لزوجها ولأولادها، ولتخرج رجالاً لهذا المجتمع، أما إذا ألجأتها الظـروف وضرورات الحياة فلها أنْ تتحرك لكسـب الرزق، ولكن بقدر ما يُحقِّق لهـا الاحـترام والتقدير مـن المجتمع، وعلـى المجتمع أنْ يكفيهـا احتياجاتها فيحفظ لها مكانتها.

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) ﴾ [الجمعة] ، فالحق سبحانه حين يخاطب المسلمين لا يقول كما يقول لبنى إسرائيل : اذكروا نعمة الله .

وإنما يقول (اذكروا الله) لأن بنى إسرائيل ماديون ودُنيويون ، فكأنَّ الحق سبحانه يقول لهم : ما دُمتم ماديين ودنيويين فاذكروا نعمة الله المادية عليكم.

ولكننا نحن المسلمين أمةٌ غير مادية ، وهناك فَرْقٌ بين أنْ يكونَ الإنسانُ مع النعمة وأنْ يكون مع المنعم ، الماديون يحبون النعمة ، وغير الماديين يحبون المنْعِم ويعيشون فى معيته سبحانه .

ولذلك فخطابه سبحانه للمسلمين ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ.. (١٠) ﴾ [الجمعة] لأننا نحن مع المنعِم ، بينما خطابه سبحانه لبنى إسرائيل ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ.. (٦) ﴾ [إبراهيم]

والحق تبارك وتعالى يقول مرة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) ﴾ [الأحزاب] ومرة يقول : ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ.. (٤١) ﴾ [آل عمران]

فقوله ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ.. (١٠) ﴾ [الجمعة] بلفظ الجلالة (الله) يستشعر سامعها التكاليف لأن الله هو المعبود ، والمعبود هو المطاع فى الأوامر والنواهى .

أما قوله ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ.. (٤١) ﴾ [آل عمران] فهو تذكير لك بما حَبَاك به من أفضال ، خَلَقك وربّاك وأعطاك من فيض نعمه ما لا يُعدُّ ولا يُحصى ، فاذكر ربك لأنك إنْ لم تعشقه تكليفاً فأنت قد عشقته لأنه مُمدُّك بالنعم ، وسبحانه يتفضَّل علينا ويُوالينا جميعاً بالنعم .

واذكر ربك على حالين : الأول تضرعاً أى بذلَّة لأنك قد تذكر واحداً بكبرياء، إنما الله الخالق المحسن يجب عليك أنْ تذكره بذلَّة عبوديةٍ لمقام الربوبية .

واذكر ربك خِيفة أى خائفاً متضرعاً ، لأنك كلما ذللتَ له يعزك ، ويطلق الذكر على تذكر الله دائماً .

وهو سبحانه القائل﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ .. (١٥٢) ﴾ [البقرة] أي : اذكروني بالطاعة أذكركم بالخير والتجليات ، فإذا كان الذكر بهذه المعاني ، فنحن نجد الاطمئنان في أيٍّ منها ، فالذكر بمعنى القرآن يُورِثُ الاطمئنان .

ولذلك يعطي رسولُ الله لنا المثل فيقول : « مَثَلُ الذي يذكر ربَّه ، والذي لا يذكر ربَّه مثل الحيِّ والميت »[1]

وعملية الذِّكْر نفسها عملية معنوية ، ولكي يُقرِّبه رسول الله ﷺ للأذهان ضرب مثلاً ، فمثَّله بالحي والميت ، فالحي كائن حَيّ يتحرك ويشعر ويسمع ويبصر ويتكلم أي فيه حياة ، أما الميت فقد ماتت فيه الأحاسيس ، بل هو جسد لا حِراكَ له .

فالذي يذكر اللهَ قلبُه حَيٌّ وضميره حَيٌّ وأحاسيسه حيَّة تستقبل كلام الله بقلبٍ مفتوح وعقلٍ مستوعب ، أما الميت فلا تنتظر منه خيراً لأنه ببساطة ميت .

ولا تظنوا أن الذكرَ قاصرٌ على الصلاة فقط ، إنما ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) ﴾ [الجمعة]

فيجب ألاَّ يغيبَ ذكْرُ الله عن بالك أبداً ، لأن ذِكْرك لربك خارج الصلاة أكبر من ذكرك له سبحانه في الصلاة .

ورُوي عن عطاء بن السائب[2] أن ابن عباس سأل عبد الله بن ربيعة[3] : ما

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٤٠٧) وأورده أبو محمد عبد الحق الإشبيلي في كتابه (الأحكام الشرعية) (٣/١٤١) ، وأخرجه البغوي في شرح السنة (١٢٤٣) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

(٢) عطاء بن السائب إمام حافظ محدث الكوفة أبو السائب ، كان من كبار العلماء ، لكنه ساء حفظه قليلاً في أواخر عمره . قال أبو حاتم : كان محله الصدق قديماً قبل أن يختلط ثم تغير حفظه . [سير أعلام النبلاء للذهبي] .

(٣) عبد الله بن ربيعة بن فرقد السلمي ، قيل : له صحبة ، فإن لم تكن فحديثه من قبيل المرسل نزل الكوفة، توفي بعد الثمانين . قال ابن ربيعة : صليت خلف عمر الفجر فقرأ سورة الحج وسورة يوسف قراءة بطيئة . (سير أعلام النبوة ١١٦ - ٣/٥٠٤) .

تقول فى قوله تعالى ﴿ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥) ﴾ [العنكبوت]

فقال : قراءة القرآن حسن ، والصلاة حسن ، وتسبيح الله حسن ، وتحميده حسن ، وتكبيره حسن ، والتهليل له حسن ، لكن أحسن من ذلك أنْ يكونَ ذكرُ الله عند طروق المعصية على الإنسان ، فيذكر ربه فيمتنع عن معصيته .

فماذا قال ابن عباس مع أن هذا القول مخالفٌ لقوله فى الآية ؟ قال : عجيبٌ والله . فأُعجب بقول ابن ربيعة وبَارك فَهْمه للآية ، ولم ينكر عليه اجتهاده ، لأن الإنسان طبيعى أنْ يذكر الله فى حال الطاعة فهو متهيىءٌ للذكر .

أما أنْ يذكره حال المعصية فيرتدع عنها فهذا أقوى وأبلغ ، وهذا أكبر كما قال سبحانه ﴿ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت]

لذلك جاء فى الحديث الشريف « سبعة يُظلُّهم الله فى ظِلّه يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّه – ومنهم : ورجل دَعَتْهُ امرأةٌ ذاتُ مَنصبٍ وجمال فقال : إنى أخاف الله »[1] .

هـذا هـو ذكـر الله الأكـبر ، لأن الدواعـى دواعى معصـية فيحتـاج الأمر إلى مجاهدة تُحوِّل المعصية إلى طاعة .

﴿ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت] فإياك أنْ تظنَّ أنَّ الله يريد أنْ تذكره ساعةَ الصلاة فحسب ، إنما اذكره دائماً وأبداً ، وإنْ كانت الصلاة لها ظرفٌ تُؤدَّى فيه ، فذِكْر الله لا وقتَ له .

لذلك جعل اللهُ الذكرَ سَهْلاً يسيراً ، لا مشقة فيه ، لا بالوقت ولا بالجهد ، فيكفى فى ذكر الله أنْ تتأمل المرائى التى تمرُّ بها ويقع عليها نظرك لترى فيها قدرةَ الله .

فذِكْر الله لا يُكلِّفك شيئاً ولا يشقّ عليك ، لذلك قال تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ

---

(١) أخرجه الإمام مالك فى موطئه (١٧٠٩) والبخارى فى صحيحه (٦٦٠) ومسلم فى صحيحه (٢٤٢٧)، وأحمد فى مسنده (٩٦٦٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

.. (٤٥) ﴾ [العنكبوت] يعني : أكبر من أيِّ طاعة أخرى لأنه يسيرٌ على لسانك ، تستطيعه في كلِّ عملٍ من أعمالك وفي كلِّ وقت وفي أيِّ مكان .

فذِكْر الله أكبر من أيِّ عبادة ، لأن العبادات كما ذكرنا تحتاج إلى استعداد وإلى وقت وإلى مشقة وإلى تفرُّغ وعدم مشغولية ، أما ذكر الله فهو يجرى على لسانك في أيِّ وقت ، وبدون استعداد أو مشقة ويلهج به لسانك في أيِّ وقت وعلى أيِّ حال أنت فيه .

واقرأ في ذلك قوله تعالى في سورة الجمعة : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) ﴾ [الجمعة]

فما دام أن الذكر هو أنْ تجعلَ اللهَ على بالك وعلى لسانك ، فلا يمنعْك من ذلك سعيٌ ولا عمل ، لأن الذكر أخفّ العبادات وأيسرها على النفس وأثقلها في الميزان .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلا (٤٢) ﴾ [الأحزاب]

فالحقّ سبحانه أمرنا بذكره ذِكْراً كثيراً ، لأن الذكرَ عمدةُ العبادات وأيسرُها على المؤمن ، لذلك نجد ربّنا يأمرنا به عند الانتهاء من العبادات كالصلاة والصيام والحج .

والذكر شَغْل الذاكرة وهي منطقة في المخ . قلنا : إنّ المعلومة يستقبلها الإنسانُ في بُؤرة شعوره ، فإذا أراد أنْ يحتفظَ بها لحين الحاجة إليها حفظها في الحافظة أو في حاشية الشعور .

فأنت مثلاً ترى شخصاً فتقول : هذا الرجل لم أره منذ عشرين سنة ، وآخر مرة رأيتُه كان في المكان الفلاني .

إذن : الذكر لشيء كان موجوداً في بؤرة الشعور ، الذكر يعني قضية موجودة عندك بواقع كان لها ساعة وجودها ، لكن حصلتْ عنها غفلةٌ نقلتْها إلى حاشية الشعور أو الحافظة بعد ذلك نريد منك ألاَّ تنساها في الحاشية أو في منطقة بعيدة بحيث تحتاج إلى مجهود لتذكّرها ، إنما اجعلها دائماً في منطقة قريبة لك ، بحيث يسهل عليك تذكُّرها دون عناء .

وكذلك ينبغي أنْ يكون ذكرُكَ لله ، فهو القضية الحيوية التي ينبغي أنْ تظلَّ على ذِكْر لها دائماً وأبداً ، وكيف تنسى ذكر ربك وقد أخذ عليك العهد وأنت في عالم الذر ، وأخذ منك الإقرار بأنه سبحانه ربك .

والذكر هو العبادة الوحيدة التي لا تُكلِّفك شيئاً ولا تعطل جارحةً من جوارحك ، ولا يحتاج منك إلى وقت ولا إلى مجهود وليس له وقتٌ مخصوص .

فمن ذكر الله قائماً ، أو ذكر الله على جَنْبه عُدَّ من الذاكرين ، هذا بالنسبة لوضعك حين الذكر ، ومن ذكر الله بُكرةً ، أو ذكر الله أصيلاً أو غُدواً أو عشياً أصبح من الذاكرين ، هذا بالنسبة لزمان ذكرك .

ومَنْ قال سبحان الله والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حوْلَ ولا قوةَ إلا بالله العليِّ العظيم ثلاثين مرة في اليوم كُتب من الذاكرين[١] ، ومَن استيقظ ليلاً فأيقظ أهله وصلى ركعتين فهو من الذاكرين[٢] .

إذن : فذكْر الله مسألةٌ سهلة تستطيع أنْ تذكر الله وأنت تعمل بالفأس أو تكتبَ بالقلم ، تذكر الله وأنت تأكل أو تشرب .. إلخ ، فذكْر الله وإن كان أكبر إلا أنه على المؤمن سهلٌ وهيِّن .

---

(١) عن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ لأبي بكر : ألا أدلك على صدقة تملأ ما بين السماء والأرض : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله في يوم ثلاثين مرة . أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٢٩٧٢٨) .

(٢) أخرجه البيهقي في سننه الصغرى (٦٠٩) عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : « من استيقظ من الليل فأيقظ أهله فصليا ركعتين جميعاً كُتب ليلتئذ من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات » .

واعلم أن ذكر الله سبحانه وتعالى يجعلك في ركن ركين لا يصل إليك مكروهٌ ولا شَرٌّ ، إنَّ ذكر الله المنعم يُعطينا حركة الحياة في كلِّ شيء ، فذكر الله يُوجد في القلوب الخشوعَ ، ويُقلِّل من المعاصي وينتفع الناسُ كلُّ الناس به ، ويجعل حركة الحياة مستقيمة .

وقد كان رسول الله ﷺ لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر[1] ، وفي الحديث « كان رسول الله يُكثر الذكر »[2] لماذا ؟ لأن الجلوس والقيام هو إبطالٌ حركة بحركة، فمَنْ كان قائماً فقعد فقد أدَّى حركة هي القعود ، ومَنْ كان جالساً فقام فقد أدَّى حركةً هي القيام ، وكان الرسول ﷺ يذكر الله في كل حركة شاكراً نعمة الخالق عز وجل .

وربُّ العزة سبحانه يقول في الحديث القدسي : « أنا عند ظَنِّ عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فإنْ ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي ، وإنْ ذكرني في ملأ ذكرتُه في ملأ خيْرٍ منه ، وإنْ تقرَّب إليَّ بشبر تقرَّبتُ إليه ذراعاً ، وإنْ تقرَّب إليَّ ذراعاً تقربتُ إليه باعاً ، وإنْ أتاني يمشي أتيتُه هرولة »[3] .

فأنت بإيمانك بالله تُعزِّز نفسك وتُقوِّيها بمعونة الله لك ، فإنْ أردتَ أنْ يذكرك اللهُ فاذكر الله ، فإنْ ذكرتَهُ في نفسك يذكرك في نفسه ، وإنْ ذكرتَهُ في ملأ يذكرك في ملأ خيْر منه ، وإنْ تقرَّبْتَ إليه شبراً تقرَّب إليك ذراعاً .

---

(١) أخرجه البيهقي في « شعب الإيمان » (١٣٦٢) عن الحسن بن علي بن أبي طالب قال : سألت خالي هند ابن أبي هالة وكان وصافاً ، فكان منه : « فسألته عن مجلسه فقال : كان رسول الله ﷺ لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر ولا يوطن الأماكن وينهى عن إيطانها ، وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس » ، وكذا أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٧٨٦٨) .

(٢) عن عبد الله بن أبي أوفى قال : « كان رسول الله ﷺ يكثر الذكر ويقل اللغو ويطيل الصلاة ويقصر الخطبة ولا يأنف أن يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي له الحاجة » . أخرجه النسائي في سننه (١٤١٤) والحاكم في مستدركه (٤٢٢٥) والطبراني في المعجم الكبير (١٣٧٧) .

(٣) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٧٤٠٥) وكذا مسلم في صحيحه (٦٩٨١ ، ٧٠٠٨) والترمذي في سننه (٣٦٠٣) وابن ماجه في سننه (٣٨٢٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

فماذا تريد أكثرَ من ذلك ، خاصةً أنك لن تضيف إليه شيئاً ، إذن : فالموقف فى يدك ، فإذا أردتَ أنْ يكونَ اللهُ معك فسِرْ فى طريقه تأتِك معونته فوراً ، وهكذا يكون الموقفُ معك وينتقل إليك ، وذلك بإيمانك بالله وإقبالك على حُبِّ الارتباط به وذِكْره سبحانه .

ويُحدِّثنا الحقُّ سبحانه عن أثر ذِكْر الله فى القلوب والأبدان ، فيقول تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ(١) قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) ﴾ [الأنفال]

فذِكْر الله يُحدِثُ فى قلوب المؤمنين وَجَلاً وخشيةً ، والوَجَل هو الخوف فى فزع ينشأ منه قشعريرة واضطرابٌ فى القلب ، ولكن إذا كان ذكْر الله عز وجل يدفع قلوب المؤمنين إلى الوجل ألاَ يتناقض هذا مع قوْل الحق سبحانه : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) ﴾ [الرعد]

وفى الحقيقة لا يوجد تعارض بين القولين ، لأن ذكرَ الله تعالى يأتى بأحوال متعددة ، فإنْ كان الإنسانُ مُسرفاً على نفسه فهو يرجف حين يذكر الله الذى خالف منهجه .

وإنْ كان الإنسانُ يُراعى حقَّ الله فى كلِّ عمل قَدْر الاستطاعة فلابدَّ أنْ يطمئنَّ قلبه لحظة ذِكْر الله ، لأنه اتبع منهج الله ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

إذن : فالخوف والوَجَل إنما ينشأ من مهابة وسطوة صفات الجلال ، والاطمئنان إنما يجيء من إشراقات وحنانِ صفات الجمال ، ولذلك تجمعها آية واحدة هى قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ .. (٢٣) ﴾ [الزمر]

---

(١) وجلت قلوبهم : أى خافت من الله جلَّ وعلا . وقال فى أيسر التفاسير : وجلت : فزعت ورقت استعظاماً وهيبة . الوجل هو الخوف لاسيما عند ذكر وعده ووعيده .

فالجلود تقشعرُّ خوفاً ووجلاً ومهابةً من الله عز وجل ، ثم تلين اطمئناناً وطمعاً فى حنان المنان سبحانه وتعالى ، لأن ربنا قال : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) ﴾ [الحجر]

وذِكْر الله يتأكد عند أقسى اللحظات على الإنسان وهو فى مواجهة العدو فى ساحة القتال ، فيقول تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) ﴾ [الأنفال]

وسبحانه وتعالى هو خالق النفس البشرية ، وهو العليم بها حين تكون أمام قوة لم تحسب حسابها ، وكيف تعانى النفس من كرْبٍ عظيم ، خصوصاً إذا كان ذلك فى ميدان القتال .

لذلك طلب من المؤمنين أنْ يتذكَّروا دائماً أنهم ليسوا وحدهم فى المعركة ، وأنه سبحانه وتعالى معهم فليذكروا هذا كثيراً ليُوالى نصرهم على عدوِّهم ، لأنهم إذا ما داوموا على ذِكْر الله تعالى فسيُقوِّى هذا الذكرُ إيمانهم ، ويجعل فى قلوبهم الشجاعة اللازمة لتحقيق النصر .

وقوْل الحق سبحانه هنا ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا .. (١٠) ﴾ [الجمعة] يعنى أن الإنسان لابدّ أنْ يذكر اللهَ على كلِّ حال ، فى الرخاء والشدة .

وقد وصف الحق سبحانه الذاكرين اللهَ كثيراً بأنهم أولو الألباب ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) ﴾ [آل عمران]

ثم وصفهم فقال : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ .. (١٩١) ﴾ [آل عمران] وقال بعض العلماء فى تفسيرهم للآية : إن المقصود بذلك هو الصلاة ، فمَنْ لا يستطيع الصلاة قائماً يُصلِّى قاعداً ، ومَنْ لا يستطيع الصلاة

قاعداً فليُصلِّ مُضطجعاً[1].

ونقول لهؤلاء العلماء : لقد خصصتُم هذا المعنى حيث المقام للتعميم ، وحتى لا يظنّ أحدٌ أنّ الفروض الخمسة هى التى يُذكر فيها الله فقط قال سبحانه :

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا (١٠٣) ﴾ [النساء]

فذِكْر الله أمر متصلٌ واجب فى الصلاة وفى غيرها . أى : اجعلوا الله دائماً على بالكم . والقلوب إنما تطمئن بذكر الله ، فالاطمئنان مستوعبٌ لكلِّ القلوب ، فكلُّ إنسانٍ له زاوية يضطرب فيها قلبه، وما أنْ يذكر الله حتى يجد الاطمئنان ويتثبَّت قلبه .

وذكر الله إنْ جاء بعد المخالفة لابدَّ للنفس أنْ تخاف وتَوْجَل وتضطرب هيبةً لله عزَّ وجل ، أما إنْ جاء ذكرُ الله بعد المصيبة أو الشدة فإنَّ النفسَ تطمئنُّ به وتأنس لما فيها من رصيد إيمانى ترجع إليه عند الشدة وتركن إليه عند الضيق والبلاء .

وما دام المؤمن قد ثبت قلبه بذكر الله وبالإيمان وبالقول الثابت فهو لا يتعرَّض لزيغ القلب ولا يتزعزع عن الحق .

ولكن ما هو الذكر ؟

الذكْر هو الحفظ من النسيان ، لأن روتينَ الحياة يجعلنا ننسى المُسبِّب للنعم، فالشمس تطلع كل يوم ، مَنْ منَّا يتذكر أنها لا تطلع إلا بإذن الله فيشكره ،

---

(١) عن الحسين بن علي رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : « يصلى المريض قائماً إن استطاع فإن لم يستطع صلى قاعداً ، فإن لم يستطع أن يسجد أومأ وجعل سجوده أخفض من ركوعه ، فإن لم يستطع أن يصلى قاعداً صلى على جنبه الأيمن مستقبل القبلة ، فإن لم يستطع أن يصلى على جنبه الأيمن صلى مستلقياً رجله مما يلى القبلة » أخرجه البيهقى فى سننه (٣٤٩٣) .

والمطر ينزل كل فترة ، مَنْ منَّا يتذكر أن المطر يُنزله الله فيشكره .

فالذكر يكون باللسان وبالقلب ، والله سبحانه وتعالى غيْبٌ مستور . وعظمته أنه مستورٌ ، ولكن نِعَم الله سبحانه تدلُّنا عليه ، فبالذكر يكون اللهُ فى بالنا دائماً ، وبنعمه يكون ذكره وشكره دائماً .

فالله سبحانه وتعالى يريد من عباده الذكر ، وهم كلما ذكروه سبحانه وشكروه شكرهم وزادهم ، فرغبةُ الكريم فى أن يعطى بشرط أنْ نكون أهلاً للعطاء لأنه يريد أنْ يعطيك أكثر وأكثر .

فقوله تعالى : (اذكرونى) أى : اذكروا الله فى كلِّ شيء فى نعمه ، فى عطائه، فى سَتْره ، فى رحمته ، فى توبته .

يقول بعض الصالحين : سمعتُ فيمَنْ سمع عن حبيبى رسول الله ﷺ أنك إذا ما أقبلت على شرب الماء فقسِّمه ثلاثاً : أول جرعة قل باسم الله واشربها ، ثم قل الحمد لله ، وابدأ شرب الجرعة الثانية وقل باسم الله ، وبعد الانتهاء منها قل الحمد لله .

ثم قل باسم الله واشرب الجرعة الثالثة واختمها بقولك الحمد لله ، فما دام هذا الماء فى جوفك فلن تُحدِّثك ذرة من جسدك بمعصية الله[1] .

جرِّبها يوماً فى نفسك وقُلْ باسم الله واشرب ، وقُل الحمد لله وكرِّرها ثلاثَ مرات فإنك تكون قد استقبلتَ النعمة بذكر المُنعِم ، وأبعدتَ عن نفسك حوْلَك وقوتك ، وأنهيتَ النعمة بالحمد لله .

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يشرب فى ثلاثة أنفاس ، إذا أدنى الإناء إلى فيه سمَّى الله ، فإذا أخَّره حمد الله ، يفعل به ثلاث مرات . أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (٣٣٢) ، وكذا فى المعجم الأوسط (٨٤٠) . وأخرجه أبو الشيخ الأصبهانى فى (أخلاق النبى) (٦٥٦) من حديث ابن مسعود قال : « كان رسول الله ﷺ إذا شرب تنفس على الإناء ثلاثة أنفاس ، يحمد الله على كل نفَس، ويشكره عند آخرهن » .

والذكْر مطلقاً هو ذكرُ الله بآلائه وعظمته وقُدرته وصفات الكمال له ، والتسبيح هو التنزيه لله ، لأن ما فعله الله لا يمكن أنْ يحدث مِنْ سواه .

فسبحان الله معناها تنزيه الله ، لأنه القادر على أنْ يفعل ما لا تفعله الأسبابُ ولا يقدر أحدٌ أنْ يصنعه ، إنه يريد أنْ يشكر الحقَّ الذى يرزق مَنْ يشاء بغير حساب .

فيُراد بالذكر أحياناً التسبيح والتحميد ، انظر إلى قوله الحق ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ .. (٣٧) ﴾ [النور]

وهو ذِكْر ، لأن هناك مَنْ يُسبِّح له فيها بالغدو والآصال ، وهم رجال موصوفون بأنهم لا تُلهيهم تجارة ولا بَيْع عن ذِكْر الله ، وقد يُطلق الذكر ويراد منه خيرُ الله على عباده ، ويُراد به كذلك ذِكْر عبادتهم له بالطاعة ، فسبحانه يذكُرهم بالخير وهم يذكُرونه بالطاعة .

فذِكْره لهم بالنِّعَم والخيرات فَضْل وإحسانٌ وهو الكبير المتعال ، فهناك إذن ذكْرٌ ثانٍ ذكر أقل منه وهو العبادة لربهم بالطاعة ، ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ .. (١٥٢) ﴾ [البقرة] أى : اذكرونى بالطاعة أذكركم بالخير .

ومحلُّ ذِكْر الله قد يكون المسجد أو غير المسجد ، داخله وخارجه ، فى بيتك ، فى عملك ، فى مَشْيك ، عند نومك ، فى انتباهتك من نومك ، وفى كلِّ حين وفى كلِّ مكان .

ولكن آكد ما يكون ذكر الله يكون فى المساجد بيوت الله ، لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا .. (١١٤) ﴾ [البقرة]

فلا يوجد أحدٌ أظلمَ من ذلك الذى يمنع مساجد الله أن يُذكر فيها اسمه ، فهذا هو الظلم العظيم وهو ظلم القمة ، وقوله تعالى : ﴿ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ..(١١٤) ﴾ [البقرة] أى : فى إزالتها أو بقائها غير صالحة لأداء العبادة ، والسعى فى خراب المسجد هو هدمه .

إننى أحذر كلَّ مؤمن أنْ يتخاذل أو يضعف أمام أولئك الذين يحاولون أنْ يمنعوا ذكر الله فى مساجد الله ، لأنه فى هذه الحالة يكون مرتكباً لذنبهم نفسه وربما أكثر ، ولا يتركه اللهُ يوم القيامة بل يسوقه إلى النار .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾

اثنا عشر رجلاً بقَوْا مع رسول الله ﷺ فيهم أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ، لم يتركوه قائماً يخطب كما تركه آخرون ، بل بقوا معه ﷺ لأنهم أصحابُ يقين أن الخير فى معية الحبيب المصطفى ، فهم معه يكونون فى ضيافة الحق سبحانه .

لذلك ثبتُوا مع رسول الله حينما نظر آخرون إلى الدنيا ومتاعها الزائل فانفضوا عنه ﷺ ، وخرجوا يستقبلون قافلة جاءت من الشام مصحوبةً بلَهْوٍ وطَبْل .

وشاء الحق سبحانه أنْ لا يعاقبهم أو يُعذِّبهم بما فعلوه لوجود رسول الله الذى كان أماناً لهم من أنْ ينزلَ بهم عذابٌ ، ولابد أنْ نعلم أنَّ المدينة كانت قد أصبحتْ منزلاً ينزل فيه ناسٌ من بقاعٍ شتى طالبين التعرُّف على الدين الجديد،

وكان فى المدينة الكثيرُ من حُدثاء عهدٍ بالإسلام أو منافقون .

وقد روى جابر بن عبد الله رضى الله عنه أن النبى ﷺ كان يخطب قائماً يوم الجمعة ، فجاءت عِيرٌ من الشام فانفتل[1] الناسُ إليها حتى لم يبْقَ إلا اثنى عشر رجلاً[2] ، فأنزلت هذه الآية التى فى الجمعة ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١) ﴾ [الجمعة]

وللقرآن دقّة فى الأداء الأسلوبى واللغوى ، ومن هذا أن القرآن هنا يقول ﴿ وَإِذَا رَأَوْا .. (١١) ﴾ [الجمعة] فكلمة رأى تُطلق ويُراد بها العلم ، مثل قوله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ .. (٤٣) ﴾ [الفرقان] أى : أعلمتَ .

فهؤلاء الذين كانوا فى مسجد رسول الله يستمعون لخطبته ﷺ فى يوم الجمعة لم يروا العير والقافلة التى جاءتْ رؤية العين ، إنما علموا بها أو سمعوا جلبةً وضوضاءَ للقافلة الآتية ، فإذا بهم يخرجون ويتركون رسول الله قائماً إلا اثنى عشر رجلاً فيهم أبو بكر وعمر .

ومثال أنّ (رأى) قد تأتى بمعنى (علم) أن الحق سبحانه يقول لنبيه ﷺ : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) ﴾ [الفيل]

يعنى : ألم تعلم علمَ اليقين ، فرسول الله وُلد عام الفيل فلم يَرَ هذه الحادثة ، وكأنَّ الله يُخبره بها ويقول له : ألم تعلم وكأنه يقول له : اعلم علماً يقينياً كأنك

---

(١) انفتل : التوى وانصرف ويقال انفتل عن رأيه وعن حاجته وانفتل وجهه عنهم . (المعجم الوسيط - باب الفاء) . وانفتل من الصلاة : انصرف .

(٢) أخرجه الطبرى فى تفسيره (٣٤٤٦٠) وذكره القرطبى فى تفسيره أنه فى صحيح مسلم وقال : فى رواية فيهم أبو بكر وعمر . (أى فى الذين بقوا مع رسول الله ﷺ) . وعند الدارقطنى أن الذين بقوا أربعون ، وقد ذكر الشوكانى فى فتح القدير (٧/٢٢٣) أنه كان بأهل المدينة فاقة وحاجة ، والحديث فى مسلم (٢٠٣٤) وصحيح ابن خزيمة (١٨٢٣) وأبو يعلى فى مسنده (١٨٨٨) والبيهقى فى سننه الكبرى (٥٨٣٢) .

تراه ، لأن ربك أوثقُ من عينيك .

هؤلاء رأوا عيناً ، أو رأوا سماعاً أو علماً ، رأوا تجارة أو لهواً ، رأوا تجارة كانوا ينتظرونها لِسَدِّ حاجتهم ، ولكن هذا لا يبيح لهم تَرْكَ رسول الله وهو يخطب فيهم، لذلك كان عتابُ الحق سبحانه لهم وحِلمه عليهم فلم يُعذِّبهم بما فعلوه .

والتجارة كانت تمثل أهمَّ نشاطٍ اقتصاديٍّ للعرب فى ذلك الوقت ، تجارة وقوافل وعير تنطلق إلى اليمن فى الشتاء ، وتنطلق إلى الشام فى الصيف ، وهو ما مَنَّ اللهُ به على أهل قريش ، فقال تعالى :

﴿ لإِيلافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) ﴾ [قريش]

فالتجارة كانت هى سِرّ معاشهم لجلْب البضائع من الشمال والجنوب لبيعها للزائرين للبيت الحرام فى مكة فى الجاهلية ، أو بيع تجارة الشام لأهل اليمن ، وبيع تجارة اليمن لأهل الشام .

فهما رحلتان كانتا لقريش فى العام : رحلة الشتاء إلى اليمن ، ورحلة الصيف إلى الشام ، وكانت تسلك سبلاً متعددة فتهتدى بالنجوم فى طريقها ، ولذلك كانوا أصحابَ قوة وأصحابَ مال .

وقد حقَّق اللهُ لهم الأمن والطمأنينة فى طريق التجارة بما كان لهم من السيادة على بيت الله الحرام ، والإنسان لا يطمئنُّ إلا فى المكان الخالى من المنغِّصات والذى يجد فيه كلَّ مُقوِّمات الحياة ، فالأمن والطمأنينة هما سِرُّ سعادة الحياة واستقرارها .

وحينما امتنَّ الله تعالى على قريش قال : ﴿ لإِيلافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش]

وقال الحق سبحانه عن مكة ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) ﴾ [القصص]

فهذه القرية كان يأتى إليها الرزقُ من كلِّ مكان ، أما المدينة فلم يكُنْ فيها البيتُ الحرام ، وتجارتها كانت مع الشام فقط ، فالطريق إلى اليمن كان محفوفاً بالمخاطر ، لأن قريشاً لم تكُنْ لتترك قوافلَ المسلمين تذهب إلى اليمن .

والروايات تروى أن صاحب القافلة[1] التى دخلتْ المدينة وقتذاك كان هو عبد الرحمن بن عوف ، وهو مَنْ هو فى عالم التجارة حتى أنه عندما هاجر من مكة إلى المدينة رفض أنْ يقاسم الأنصارى ماله وأهله وقال له : دُلَّنى على السوق[2] .

والتجارة بيعٌ وشراء ، وهى وساطةٌ بين المنتج والمستهلك ، المنتج يريد أنْ يبيعَ إنتاجه ، والمستهلك محتاجٌ إلى هذا الإنتاج ، وعملية الاتجار استخدمها الله سبحانه ليبيِّن لنا أنها أقصر طريق إلى النفع .

فالتجارة هى الجامعة لأعمال الحياة ، فتكون تجارة فى منتج زراعى أو صناعى أو خدمى ، لذلك كانت التجارةُ جامعةً لذلك كله .

وقد كانت هذه التجارةُ تتم على ظهور الجمال ، وكانت تأخذ وقتاً طويلاً حتى تعودَ إلى المدينة والجميع ينتظرها ، ووافق رجوعها وقت أنْ كان رسول الله ﷺ قائماً يخطب خطبة الجمعة ، فما ثبتَ جالساً يستمع إلى رسول الله إلا

---

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره (١٨/١٠٩) دار الكتب المصرية أن الذى قدم بالقافلة هو دحية بن خليفة الكلبى ، وذكره صاحب التحرير والتنوير عن مجاهد ومقاتل . وقد ذكر مقاتل بن سليمان فى تفسيره (٣/٣٦١) أن دحية وهو من بنى عامر بن عوف أقبل بتجارة من الشام قبل أن يسلم ، وكان يتلقاه أهل المدينة بالطبل والتصفيق ووافق قدومه يوم الجمعة .

(٢) عن أنس رضى الله عنه قال : قدم عبد الرحمن بن عوف فآخى النبى ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصارى ، فعرض عليه أن يناصفه أهله وماله ، فقال عبد الرحمن : بارك الله لك فى أهلك ومالك دلنى على السوق ، فربح شيئاً من أقط وسمن ، فرآه النبى ﷺ بعد أيام وعليه وضر من صفرة فقال النبى ﷺ : مهيم يا عبد الرحمن . قال : يا رسول الله تزوجت امرأة من الأنصار . قال : فما سقت فيها فقال : وزن نواة من ذهب . فقال النبى ﷺ : أولم ولو بشاة . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٩٣٧) .

اثنى عشر رجلاً ، والباقون خرجوا لمقابلة القافلة .

أما اللهو فهو قَتْل الوقت فى عمل قد ينقضى ويشغل الإنسان عن الواجب. فمعنى اللهو أنْ ننصرفَ إلى عمل لا هدفَ له ولا فائدةَ منه ، وإنْ نظرنا إلى الحياة مجردة من منهج الله فهى لعبٌ ولهو .

واللعب قد يكون لهواً وقد لا يكون ، فإذا شغلك اللعبُ عن شيء مطلوبٍ منك فهو لهو ، لأنك لهيتَ عن أمر واجب عليك ، فحين تُوجِّه طاقتك إلى ما هو أدنى من المهم فهذا هو اللهو .

وتجد خيبةَ اللهو ثقيلةً ، لأن الإنسانَ اللاهى يترك الأمرَ المهمّ ويذهب إلى الأمر غير المهم ، فيجلس إلى لعبة النرد[1] وهى الطاولة ويترك العمل الذى يُعطيه دخلاً يعيش منه .

وليتَ هذا اللهو مقصورٌ على اللاهى ، ولكنه يجذب أنظار غير اللاهى ويأخذ وقته ، هذا الوقت الذى كان يجب أنْ يُستغلَّ فى طاقة نافعة ، وفساد المجتمعات كلها إنما يأتى من أنَّ بعضاً من أفرادها يستغلون طاقاتهم فيما لا يعود على ذواتهم ولا على أمتهم بالخير .

إذن : فاللهو طاقة معطلة ، ومثال اللاهى الذى لا يُحقِّق شيئاً فى حياته ذلك الطالب الذى لا يذهب إلى المدرسة ولا يذاكر ، ولكن يقضى وقته فى اللعب واللهو وقد أعطى نفسه ما تريد ولكنه أخذ متعة محدودة ، ثم بعد ذلك يعيش فى شقاء بقية عمره .

أما الذى قيَّد حركته بالمذاكرة فقد منع شهوات نفسه فى اللعب واللهو ، وتكون الثمرةُ أنه يُحقِّق لنفسه مستقبلاً مُريحاً ومرموقاً بقية عمره .

---

(١) أخرج الإمام مسلم فى صحيحه (٦٠٣٣) عن بريدة أن النبى ﷺ قال : « من لعب بالنردشير فكأنما صبغ يده فى لحم خنزير ودمه » . وكذا أخرجه أبو داود فى سننه (٤٩٤١) وابن ماجه (٣٧٦٣) وأحمد فى مسنده (٢٣٠٢٩ ، ٢٣٠٧٥ ، ٢٣١٠٦) .

فكلٌ من الطالب الذى يجتهد وذلك الذى يلهو ويلعب ، كلٌّ منهما أخذ لوناً من المتعة ولكنَّ أحدهما أخذ متعة قصيرة جداً ، ثم أصبح من صعاليك الحياة ، أما الثانى فقد قيَّد نفسه سنوات معدودة ليستمتع بمستقبل ناجح .

كذلك أنت فى الدنيا إنْ قيَّدتَ نفسك بالتكاليف (افعل) و (لا تفعل) ، فظاهرُ الأمر أنك قيدتَ حريتك وإنْ فعلتَ ذلك برضاً ، فالله يعطيك راحة واطمئناناً ومتعةً فى النفس .

أما العمل النافع الذى ينبغى أنْ ينشغلَ الإنسانُ به فهو الذى يضعه لك مَنْ هو أعلى منك وأن يكون حكيماً مُحباً لك ، وهذه المواصفات لا تجدها إلاَّ فى الإله ، لذلك كلّ ما يُلهيك عمَّا يضعه لك إلهك فهو لهو لأنه شغلك عما هو أهمّ .

ومن اللهو ما ذكره الحق سبحانه فى سورة لقمان ، فقال تعالى :
﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ .. (٦) ﴾ [لقمان]

قال العلماء : لهو الحديث هو كلُّ ما يُلهى عن مطلوب الله ، وإنْ لم يكُنْ فى ذاته فى غير مطلوب الله لهواً ، وعليه فالعمل الذى يُلهى صاحبه من صناعة أو زراعة .. الخ يُعد من اللهو إنْ شغله مثلاً عن الصلاة أو عن أداء واجب لله تعالى.

لذلك قال تعالى فى سورة النور : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ[1] فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) ﴾ [النور]

فالحق سبحانه وصف هؤلاء الذين يعمرون بيوت الله بالذكر والتسبيح بأنهم ﴿ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ.. (٣٧) ﴾ [النور]

---

(١) تتقلب فيه القلوب : أى تضطرب وتتغير من الهول والفزع وتبلغ إلى الحناجر . أو تتقلب القلوب إلى الإيمان بعد الكفران . (البحر المديد ٥/ ١٢٥) وفى التفسير الميسر (٦/ ٢٤١) : تتقلب فيه القلوب بين الرجاء فى النجاة والخوف من الهلاك .

وكلمة ﴿ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ .. (٣٧) ﴾ [النور] لا تعنى تحريم التجارة ، فالإنسان الصادق لا تلهيه التجارة عن ذكر الله . وقد كان يسع هؤلاء أنْ ينتظروا حتى ينتهى رسولُ الله من خطبته للجمعة وينتظروا انتهاء الصلاة ، ثم يتوجهون للعِير التى قدمتْ للتجارة ، ساعتها لن يكون انشغالهم بالتجارة لهواً .

وقد يسأل سائل : الله عز وجل يقول ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا .. (١١) ﴾ [الجمعة] هذان أمران تجارة ولهو ، فلماذا قال بعدها ﴿ انْفَضُّوا إِلَيْهَا .. (١١) ﴾ [الجمعة] ولم يقل : انفضوا إليهما .

الحق سبحانه استخدم المفرد معهما فقال ﴿ انْفَضُّوا إِلَيْهَا .. (١١) ﴾ [الجمعة] لأن التجارة واللهو لهما عمل واحد ، هو شَغْل المؤمنين عن العبادة والذكر واستماع الخير .

والانفضاض هو الانصراف عن شيء كانوا مجتمعين عليه أو مجتمعين له ، ويقول الحق سبحانه فى آية أخرى : ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا .. (٧) ﴾ [المنافقون]

لقد أخطأوا الظنَّ بمَنْ آمنوا برسول الله ، فظنُّوا أنهم إنْ لم ينفقوا عليهم فسيرتدون عن إيمانهم ، ونسُوا أن المؤمنين المهاجرين قد تركوا أموالهم وتركوا بلادهم ، فمَنْ ترك أمواله للهجرة فى سبيل الله أيكفر به عندما لا يجد شيئاً ؟ لا لأنه ترك كلَّ شيءٍ فى سبيل الله .

فعندما يقول المنافقون كعبد الله بن أُبيّ للأنصار : لا تنفقوا على مَنْ عند رسول الله حتى ينفضوا . أى : يرتدوا ويبتعدوا عن دين محمد ﷺ ، لكنهم لم ينفضُّوا ، لقد كان مقصدهم تجويع مَنْ عند النبى ﷺ فينفضُّوا من حوله .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَتَرَكُوكَ قَائِمًا .. (١١) ﴾ [الجمعة] وهذا القيام

كان فى الخطبة ، ويروى جابر بن عبد الله رضى الله عنه فيقول : ما رأيت رسول الله ﷺ فى الخطبة إلا وهو قائم[١] .

وسُئل عبد الله بن مسعود[٢] : أكان النبى ﷺ يخطب قائماً أو قاعداً ؟ فقرأ ﴿ وَتَرَكُوكَ قَائِمًا .. (١١) ﴾ [الجمعة]

وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ كان يخطب خطبتين يجلس بينهما[٣] .

حتى أن كعب بن عجرة[٤] دخل المسجدَ وعبد الرحمن بن أُمِّ الحكم[٥] يخطب قاعداً ، فقال : انظروا إلى هذا الخبيث يخطب قاعداً[٦] وقد قال الله ﴿ وَتَرَكُوكَ قَائِمًا .. (١١) ﴾ [الجمعة]

---

(١) الحديث عن جابر بن سمرة وليس جابر بن عبد الله ، وقد أخرجه أحمد فى مسنده (٢٠٩٠٣ ، ٢٠٩٢٧) ولفظه : ما رأيت رسول الله ﷺ يخطب يوم الجمعة قط إلا وهو قائم ، فمن حدثك أنه رآه يخطب وهو قاعد فقد كذب .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى سننه (١١٠٨) وأبو يعلى فى مسنده (٥٠٣٤) والطبرانى فى المعجم الكبير (٩٨٦٠) من حديث عبد الله بن مسعود . وفى الأنجم الزاهرات : « لا نزاع فى سنيته . قال ابن المنذر : وعليه أهل العلم فى الأمصار . وحكى ابن عبد البر إجماع العلماء على أن الخطبة لا تكون إلا قائماً لمن أطاقه . قلنا : ومن لا يطيقه فله أن يعتمد على عصا » . وقد فعله رسول الله ﷺ .

(٣) عن جابر بن سمرة قال : كانت للنبى ﷺ خطبتان يجلس بينهما يقرأ القرآن ويُذكِّر الناس . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٠٣٢) وأبو داود فى سننه (١٠٩٦) وابن ماجه فى سننه (١١٠٣) من حديث ابن عمر .

(٤) هو : كعب بن عجرة بن أمية بن عدى البلوى ، حليف الأنصار ، صحابى يكنى أبا محمد . شهد المشاهد كلها ، سكن الكوفة ، توفى بالمدينة عام ٥١ هجرية عن ٧٥ عاماً . الأعلام للزركلى (٥/٢٢٧) .

(٥) هو عبد الرحمن بن عبد الله بن عثمان الثقفى بن أم الحكم . وأم الحكم هى أخت معاوية ، ولاه معاوية الكوفة . وقد ذكره محمد بن حبيب البغدادى فى كتابه « المحبَّر » ضمن (حمقى ثقيف) أسلمت أمه فى فتح مكة ، أما أبوه فقد مات كافراً فى الطائف . عزله خاله معاوية عن الكوفة بسبب إقدامه على قتل أحد أهل الذمة .

(٦) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٠٣٨) والبيهقى فى السنن الكبرى (٥٩١٤) ، وقد أخرجه أبو عروبة فى كتاب الأوائل (١/١٥٦) ، فذكر أن أول من جلس فى الخطبة يوم الجمعة معاوية ، ثم ذكر عبد الرحمن ابن أم الحكم .

واعتبره طاوس بن كيسان[1] بدعة ، فقال : الجلوس على المنبر يوم الجمعة بدعة[2] . وهذا لمن استطاع القيام فلا يجوز له أنْ يجلس وهو يخطب . وللعلماء في هذا تفصيلات كثيرة بين المذاهب الفقهية .

لقد كان الأوْلَى بهؤلاء الذين تركوا رسول الله قائماً يخطب وخرجوا وانفضوا أنْ يتأدَّبوا بخُلقي الحلْم والأناة والصبر ، وقد قال الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) ﴾ [الحجرات]

لقد كان عليهم إذا لم يظهر لهم رسول الله في المسجد أنْ ينتظروا خروجه وألاّ يُزعجوه ، فهو ولا بدّ في مهمة من هذه المهمات ، وربما كان مشغولاً في خُلْوة مع ربه عز وجل أو مع أهله .

وهؤلاء نادَوْا رسولَ الله كما ينادي بعضهم بعضاً ولم يراعوا حُرْمة رسول الله ومنزلته ، لذلك وُصف أكثرهم بأنهم لا يعقلون ، فالعقل يقضي خلاف هذا التصرف .

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ .. (٥) ﴾ [الحجرات] نعم لو صبروا لكان خيراً لهم أي أكثرَ خيرية ، فإنهم بعد أنْ نادوه واضطروه للخروج أطلقَ نصف الأسرى الذين جاءوا في فكاكهم ، وقال : والله لو صبروا حتى

---

(١) طاوس بن كيسان اليماني ، مولى أبناء الفرس ، مات بمكة حاجاً سنة ١٠٦ هـ ، كان فقيهاً جليلاً (طبقات الحفاظ) (١/٧٣) ، أدرك خمسين صحابياً من كبار التابعين في الفقه ورواية الحديث ، كان ذا جرأة على وعظ الخلفاء والملوك ، صلى عليه هشام بن عبد الملك أمير المؤمنين .

(٢) أورده السيوطي في الدر المنثور (١٤/٤٨٨) طبعة دار هجر - وعزاه لابن أبي شيبة عن طاوس . وقد أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٥٢٢٨) .

أخرج إليهم لأطلقتُ الأسرى كلهم[1].

فلرسول الله حَقٌّ فى أنْ تتأدب معه ، سواء فى ندائه أو فى عدم تركه وهو يتحدّث أو يخطب أو فى التعامل مع سُنته ﷺ .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ قُلْ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١) ﴾ [الجمعة]

فما عند الله لا خَوْفٌ عليه بل هو يُضاعف ويزداد ، وما عند الله لا حُزْن عليه لأن الإنسانَ يحزن إذا فاته خَيْرٌ ، ولكن ما عند الله باقٍ لا يفوتك ولا تفوته ، فلا يوجد شيء عند الله سبحانه وتعالى تحزن عليه لأنه فات .

﴿ إِنَّمَا عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ .. (٩٥) ﴾ [النحل] فالخير هو فى الحقيقة ليس فى متاع الدنيا مهما كثُر ، بل فيما عند الله تعالى ، فحظُّ الإنسان من دُنياه عَرَضٌ زائل ، فإما أنْ تفوته بالموت ، أو يفوتك هو بما يجرى عليك من أحداث ، أما ما عند الله فهو باقٍ لا نفادَ له .

فما عند الله خَيْر من لهوكم ومن تجارتكم ، فلا يجدر بكم ترك رسول الله لتخرجوا للهو أو حتى لتجارة ، فأنتم إنما أتيتم للجمعة بنداء الله لكم ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) ﴾ [الجمعة]

---

(١) ذكره البغوى فى تفسيره معالم التنزيل (٧/٣٣٣) دار طيبة . قال ابن عباس : بعث رسول الله ﷺ سرية إلى بنى العنبر وأمَّر عليهم عيينة بن حصن الفزارى ، فلما علموا أنه توجه نحوهم هربوا وتركوا عيالهم ، فسباهم عيينة بن حصن وقدم بهم على رسول الله ﷺ ، فجاء بعد ذلك رجالهم يفدون الذرارى ، فقدموا وقت الظهيرة ، ووافقوا رسول الله قائلاً فى أهله ، فلما رأتهم الذرارى أجهشوا إلى آبائهم يبكون ، وكان لكل امرأة من نساء رسول الله ﷺ حجرة فعجلوا أن يخرج إليهم رسول الله ﷺ فجعلوا ينادون : يا محمد اخرج إلينا حتى أيقظوه من نومه فخرج إليهم فقالوا : يا محمد فادنا عيالنا، فنزل جبريل عليه السلام فقال : إن الله يأمرك أن تجعل بينك وبينهم رجلاً ، فقال لهم رسول الله : أترضون أن يكون بينى وبينكم سبرة بن عمرو وهو على دينكم ؟ فقالوا : نعم . فقال سبرة : أنا لا أحكم بينهم إلا وعمى شاهد وهو الأعور بن بشامة فرضوا به . فقال الأعور : أرى أن تفادى نصفهم وتعتق نصفهم . فقال رسول الله : قد رضيت ففادى نصفهم وأعتق نصفهم .

فأنتم إذا تركتم مشاغل الدنيا لتلبُّوا نداء الله ، فكيف بعد أنْ لبَّيتم نداءه تنفضُّون عنه إذا رأيتم تجارة أو لهواً ، فالخير فيما عند الله وعند رسوله .

وإذا كنتم تبتغون الرزقَ في ذهابكم للتجارة ، فأين ستبتغون الرزق ، أليس عند الله سبحانه ؟ أليس هو الرزاق ؟ بل هو سبحانه ﴿ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١) ﴾ [الجمعة]

والرزق ليس مالاً فقط ولا طعاماً فقط ، بل الملبس رزقٌ والعلم رزقٌ ، والحلم رزق، وكل شيء تنتفع به هو رزقٌ من عند الله ، والعبد سببٌ في الرزق لأن الله تعالى هو خالق الرزق أولاً ، ثم أعطاك إياه تنتفع به وتعمل فيه وتُعطي منه للغير.

فالرزقُ منك مناولةٌ عن الرازق الأول سبحانه ، فأنت بهذا المعنى رازق ، وإنْ كرهوا أنْ يسمى الإنسان رازقاً حتى لا يفهم أحدٌ أنَّ الرزقَ من الناس .

لذلك نسمع كثيراً من العمال البسطاء أو موظفاً صغيراً أو بوابَ عمارة مثلاً حين يفصله صاحبُ العمل يقول له : يا سيدي الأرزاقُ بيد الله ، كيف وقد كنتَ تأخذ راتبك من يده ومن ماله ؟ قالوا : لأنه نظر إلى المناول الأول للرزق ، ولم ينظر إلى المناول الثاني .

وبعضُ القاصدين للطعن في القرآن يقولون : قوله ﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١) ﴾ [الجمعة] تجعل شراكةً في صفة الرزق ، فغيره سبحانه يرزق أيضاً ، لكن هو خَيْر الرازقين لأنه يرزقُ الخَلْق بأصول الأشياء التي يرزقون منها غيرهم ، فإنْ كنت ترزق غيرك طعاماً مثلاً فهو سبحانه أصلُ هذا الطعام ومصدره .

وقوله تعالى : ﴿ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١) ﴾ [الجمعة] مثله مثل قوله تعالى (أرحم الراحمين) أو (خير الوارثين) أو (أحسن الخالقين) وكل جَمْع هو وصف لله وإنه بهذا يدعو خَلْقه إلى التخلُّق بهذا الخُلُق ويُوصف به خَلْقه .

واعلم أن الله لم يحرمهم من وصفهم بهذه الصفات لأن لهم فيها عملاً وإنْ كان محدوداً يتناسب مع قدرتهم ومخلوقيتهم وعبوديتهم فضلاً على أنها عطاء ومنحةٌ منه سبحانه ، أما صفاتُ الله فهى صفاتٌ لا محدودة ولا متناهية جلالاً وكمالاً وجمالاً .

فإذا كان خَلْق الله هو (أرحم الراحمين) فهذا يعنى أنه سبحانه لم يمنع الرحمة من خَلْقه على خَلْقه ، فمن رحم أخاه سُمى رحيماً وراحماً ، ولكن الله أرحمُ الراحمين .

كذلك ﴿ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥) ﴾ [الأعراف] فالمغفرة قد تكون من الإنسان للإنسان ، ولكنا نعرف أن مغفرة الحق سبحانه فوق مغفرة الخَلْق ، لأن الغافر من البشر قد يغفر رياءً ، وقد يغفر سمعةً ، وقد يغفر لأنه خاف بطش المقابل ، لكنه سبحانه لا يخاف من أحد ، وهو خير الغافرين من غير مقابل .

ونلاحظ هنا أن هذه الآية ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا .. (١١) ﴾ [الجمعة]

هى تمهيدٌ وتوطئة ومقدمة للسورة الآتية بعدها ، وهى سورة (المنافقون) التى فضحتْهم وكشفَتْ أفعالهم .

وما موقفهم من تركْ رسول الله قائماً يخطب إلا ردّ فعل لِمَا فى نفوسهم من النفاق ، لذلك لم يستطيعوا أنْ يتحكَّموا فى ردِّ فعلهم ، فـ (انفضوا) تشعر فيها بسرعة الانصراف دون وعى ، لأن هذا هو حقيقة ما فى قلوبهم وعقولهم .

إنهم لا يؤمنون حقيقةً ، وإنْ أعلنوا إسلامهم وصلّوا مع رسول الله ومع المسلمين ، ولكنهم فى الحقيقة يُبطنون الكفر والنفاق وقد أشرِبوا فى قلوبهم حُبّ الدنيا والمال وزينة الحياة الدنيا ، لذلك كان انفضاضهم سريعاً إلى ما يحبونه ويأملونه من دنياهم ، وليس لهم فى الآخرة من نصيب .


سورة المنافقون



سورة المنافقون[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ۝١ ﴾

فالمنافقون جاءوا إلى رسول الله ليشهدوا بصدق رسالته ، والله سبحانه يعلم أن هذه الشهادة حقٌّ وصدقٌ ، لأنه جلَّ جلاله يعلم أن رسوله ﷺ صادقُ الرسالة ، ولكنه فى الوقت نفسه يشهد بأنّ المنافقين كاذبون ، كيف ؟

كيف يتفق كلام الله مع ما قاله المنافقون ، ثم يكونون كاذبين ؟

نقول : لأن المنافقين قالوا بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ، فهم شهدوا بألسنتهم فقط أن محمداً ﷺ رسولُ الله ، ولكنّ قلوبهم مُنكِرةٌ لذلك ، مكذِّبة به.

ولذلك فإن ما قاله المنافقون رغم أنه حقيقةٌ إلا أنهم يكذبون ويقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ، لأن الصدق هو أن يوافق الكلامُ حقيقةَ ما فى

---

(١) سورة المنافقون هى السورة رقم (٦٣) فى ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها ١١ آية . قال القرطبى فى تفسيره : مدنية فى قول الجميع . نزلت فى خصوص غزوة بنى المصطلق سنة ست هجرية بسبب ما قاله عبد الله بن أبى بن سلول . وقد نزلت سورة المنافقون بعد سورة الحج وقبل سورة المجادلة . [ذكره السيوطى فى الإتقان فى علوم القرآن ١/ ٧٨].

القلب ، وهؤلاء كذبوا لأنهم في شهادتهم لرسول الله لم يكونوا يُعبِّرون عن واقع قلوبهم ، بل قلوبهم تُكذِّب ما يقولون .

وكثيراً ما يخطيء الناس في فَهْم الواقع ، فيجدون تناقضاً في بعض الأساليب ، مثال ذلك حينما تعرَّض بعض المستشرقين لقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ .. (١) ﴾ [المنافقون]

تلك نسبة كلامية صدرتْ منهم ، فهل هي مطابقةٌ للواقع أم هي مخالفة له ؟ إنها مطابقة للواقع ، ويؤكد الحق سبحانه ذلك بقوله : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ .. (١) ﴾ [المنافقون] بعد ذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) ﴾ [المنافقون] ففيمَ كذب المنافقون ؟ هل كذبوا في قولهم ﴿ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ .. (١) ﴾ [المنافقون]

لا .. إن الحق سبحانه لم يُكذِّبهم في قولهم ﴿ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ .. (١) ﴾ [المنافقون] لأن الله قد أيَّد هذه الحقيقة بقوله ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ .. (١) ﴾ [المنافقون]

ولكن كذّبهم الله فيما سَهَا عنه المستشرق الناقد عندما قالوا : ﴿ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ .. (١) ﴾ [المنافقون]

لقد كذَّبهم الله في شهادتهم ، لا في المشهود به ، وهو أنَّ محمداً ﷺ رسولٌ من الله ، إن الله يعلم أن محمداً رسوله المبعوث منه رحمة للعالمين ، لكن الكذب كان في شهادتهم هم .

فالحق سبحانه لا يُكذِّبهم في أن محمداً رسول الله فهذه قضية صادقة ، ولكنه سبحانه قد كذَّبهم في قضية قالوها وهي (نشهد) لأن قولهم (نشهد) تعني أن يوافق الكلامُ المنطوق ما يعتقدون في قلوبهم .

وقولهـم (نشهـد) هو قوْلٌ لا يتفق مع ما فى قلوبهم ، ولذلك صاروا كذابين ، فلسانُ كلٍّ منهم لا يوافق ما فى قلبه .

وقـد قـال الحق سبحانه فـى آية أخـرى : ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) ﴾ [آل عمران] أى : أنهـم يقولـون كلامـاً ليس لـه نسبة خارجية تطابقه ، وهم يعلمون أنه كذب حتى لا نقول إنهم نطقوا بذلك غفلة .

لقـد تعمـدوا الكذب وهم يعرفـون أنهم يقولون الكذب ، والدقـة تقتضى أننا يجب أنْ نفرِّق بين صِدْق الخبر وصِـدق المخبر ، صدق المخبر هـو أنْ يطابق الواقع لكن أحياناً يكون المخبرُ صادقاً ، والخبر فى ذاته كذبٌ .

كأنْ يقول واحد (إن فلاناً يستذكر طول الليل) لأنـه شاهد حجرةَ فلان مضاءة وأنه يفتح كتاباً ، بينما يكون هذا الفلانُ غارقاً فى قراءة رواية ما ، إنَّ المخبر صادقٌ فى هذه الحالة ، لكن الخبر كاذب .

إذن : فهنـاك فَـرْق بـين صدق الخبر وصـدق المخبر عن الخبر ، فـإذا التقى الاعتقـاد بالواقع ، صَدَق الخبرُ وصَدَق المخـبرُ ، وإذا كان الخبرُ موافقاً للواقع ومخالفاً للاعتقاد فالخبر صادق ؛ ولكن المخبر كاذب .

فالمنـافقون شهدوا لفظاً أن رسولَ الله مرسلٌ من عند الله ، هذه قضية صدْق، لكـن الله العليـم بما فى القلوب يكشف أمرهـم إلى الرسول فيقول : ﴿ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) ﴾ [المنافقون]

لقد وافقتْ شهادتُهم بألسنتهم ما علمه الله ، لكن القول منهم يخالف ما فى قلوبهـم ، فشهـد الحقُّ إنهم لكاذبون ، ويعلم سبحـانه كذبهم فى شهادتهم ، لأن المنافـق منهـم لم يشهد صحيـح الشهادة ، لأن الشهادة الحقَّـة هى أنْ يواطيء اللسانُ القلبَ .

وبعض الأغبياء الذين يحاولون الاستدراك على القرآن قد عميتْ بصيرتهم عن الإحساس باللغة والفهم لأسرارها ، لذلك يتخبَّطون فى الفهم ، فهم لا يعرفون صفاء التلقِّي عن الله .

وقالوا : إن بالقرآن تضارباً ، وهم يعرفون أن كذب المنافقين لم يكُنْ فى مقولة : إن محمداً رسولُ الله ، ولكن فى شهادتهم بذلك وكذّبهم الله فى قولهم (نشهد) فقط ، فقد أعلنوا الإيمان بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم .

إن الحق سبحانه أراد أنْ يفضحهم ، فهم قد شهدوا بألسنتهم فقط ولكن قلوبهم منكرةٌ ، وفضح اللهُ ما فى قلوبهم ، وأوضح أنَّ ألسنتهم تكذب لأنها لا تنقل صِدْق ما فى قلوبهم .

فالمنافقون : ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ .. (١٦٧) ﴾ [آل عمران] فالقلب عملُه النية الإيمانية ، واللسان قد يقول ولا يفعل ما يقول . ولذلك قلنا : إن المنافق مُوزَّع النفس مُوزَّع الملَكات ، يقول بلسانه كلاماً وقلبه فيه إنكار ، ولذلك سيكونون فى الدرْك الأسفل من النار ، لأنهم غشاشون ونفوسهم مُوزَّعة .

والقول ضرورى بالفم ، لأن القول يُطلق ويُراد به البيان عما فى النفس ، فتوضيح الإنسان لما فى نفسه كتابة يعتبر قولاً - لغةً ، ولذلك فالذى يستحى من واحد أنْ يقول له كلاماً فهو يكتبه له فى ورقة ، فساعة يكتب يكون قد قال.

وهؤلاء المنافقون يقولون كلماتهم لا بوساطة كتاب بل بوساطة أفواههم، وهذا تبجُّح فى النفاق ، فلو كانوا يستحون لهَمَسُوا به ، والأنكى من هذا أنهم قالوا (نشهد) والشهادة آكد القول وأشدُّه وأقواه .

وقد كان رجل يأتى إلى النبى ﷺ فيقول : أى رسول الله أشهد أنك جئتَ

بالحق والصدق من عند الله ، قال : حتى يعجب النبى ﷺ بقوله . ثم يقول الرجل : أما والله يا رسول الله ، إن الله ليعلم ما فى قلبى مثل ما نطق به لسانى. فذلك قوله ﴿ وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ .. (٢٠٤) ﴾ [البقرة]

قال : هؤلاء المنافقون[١] وقرأ قول الله تبارك وتعالى : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) ﴾ [المنافقون]

فالحق سبحانه يُحذِّرنا ممنْ قال فيهم : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٢٠٤) ﴾ [البقرة] أى : الذين يُظهرون من خير خلاف ما يُبطنون من شر.

وليس ممنوعاً أنْ يُعجبك القول ، ولكن فليعجبك فى غير الحياة الدنيا ، فالقول الذى يعجب هو ما يتعلَّق بأمر الحياة الآخرة الباقية ليضمنَ لنا الخير عند مَنْ يملك كلَّ الخير.

إن الله سبحانه ينبهنا إلى ضرورة أنْ يكون المسلمُ يقظاً وفطناً ، ولذلك عندما أرسل خليفة المسلمين للإمام جعفر الصادق[٢] يقول له : لماذا لا تغشانا. أى لا تزورنا - كما يغشانا الناس ؟

---

(١) أخرجه الطبرى فى تفسيره (٣٩٩٣) قال قال ابن زيد : كان رجل يأتى إلى النبى ﷺ فيقول : أى رسول الله أشهد أنك جئت بالحق والصدق من عند الله . قال : حتى يُعجب النبى ﷺ بقوله . ثم يقول : أما والله يا رسول الله إن الله ليعلم ما فى قلبى مثل ما نطق به لسانى . فذلك قوله : ﴿ وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ .. (٢٠٤) ﴾ [البقرة] قال : هؤلاء المنافقون .

(٢) جعفر الصادق : هو جعفر بن محمد الباقر بن على زين العابدين الهاشمى القرشى أبو عبد الله الملقب بالصادق ، ولد بالمدينة المنورة عام ٨٠ هـ ، سادس الأئمة الاثنى عشر عند الإمامية ، كان من أجلاء التابعين وله منزلة رفيعة فى العلم ، أخذ عنه الإمامان أبو حنيفة ومالك . ولقب بالصادق لأنه لم يُعرف عنه الكذب قط ، كان جريئاً فى الحق . توفى بالمدينة عام ١٤٨ هـ . عن ٦٨ عاماً . [الأعلام للزركلى ٢/١٢٦] .

فكتب الإمام جعفر الصادق للخليفة يقول : أما بعد ، فليس عندى من الدنيا ما أخاف عليه ، وليس عندك من الآخرة ما أرجوك له[1] .

وكأنه يريد أنْ يقول له : اتركنا وحالنا ، فأنت محتاج لمن يجلس معك ويمدحك ، وأنت لا تعلم أنَّ أولَ أناس لهم رأى سيء فيك هم مَنْ يمدحونك .

وقد نزل قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٢٠٤) ﴾ [البقرة] فى الأخنس بن شريق الثقفى[2] واسمه أُبيّ ، ولُقِّب بالأخنس لأنه خنس ورجع يوم بدر فلم يقاتل المسلمين مع قريش ، واعتذر لهم بأن العير قد نجتْ من المسلمين وعادت إليه .

وكان ساعة يقابل رسول الله ﷺ يُظهر إسلامه ويُلين القول للرسول ويدَّعى أنه يحبه ، ولكنه بعد أنْ خرج من عند رسول الله مرَّ بزرع وحُمر لقوم من المسلمين ، فأحرق الزرع وقتل الحُمر[3] . والآية وإنْ نزلت فى الأخنس بن شريق فهى تشمل كلَّ منافق .

﴿ وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ[4] الْخِصَامِ .. (٢٠٤) ﴾ [البقرة] لا تقولوا

---

(١) حدث هذا مع الخليفة المنصور العباسى كتب لجعفر الصادق : لم لا تغشانا كما يغشانا سائر الناس؟ فأجابه : ليس لنا ما نخافك من أجله ، ولا عندك من أمر الآخرة ما نرجوك له ، ولا أنت فى نعمة فنهنئك ، ولا تراها نقمة فنعزيك بها ، فما نصنع عندك ؟ فكتب إليه المنصور : تصحبنا لتنصحنا فأجابه : من أراد الدنيا لا ينصحك ، ومن أراد الآخرة لا يصحبك . [التذكرة الحمدونية لابن حمدون ١/ ٢٤] .

(٢) الأخنس بن شريق ثقفى حليف بنى زهرة . واسمه أُبى بن عمرو بن وهب بن علاج بن أبى سلمة . وقد كان من المؤلفة قلوبهم وشهد حنيناً ومات فى أول خلافة عمر بن الخطاب . [الإصابة لابن حجر ١/ ٢٥] . خنس يوم بدر بثلثمائة رجل من حلفائه عن قتال رسول الله ، وكان رجلاً حلو القول والمنظر .

(٣) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٢/ ٤٧٦) وعزاه لابن جرير الطبرى وابن المنذر وابن أبى حاتم عن السدى .

(٤) الألد : أى الأشد خصومة وجدلاً . لُدّ : جمع ألدّ أو جمع لدود . ومنها قوله : ﴿ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا (٩٧) ﴾ [مريم] أشداء الخصومة . [القاموس القويم ٢/ ١٩١] .

«الله يشهد» ، وإنما هاتوا شهداءكم ليشهدوا على صدق قولكم لأن معنى «يُشهد الله» هو إخبارٌ منه بأنَّ الله يشهد له ، وهو كاذبٌ في هذه ويريد أن يُضفي المصداقية على كذبه بإقحام الله فى المسألة .

وساعة تسمع واحداً يقول لك : أُشهد الله على أنِّى كذا فقُلْ له : هذا إخبارٌ منك بأن الله يشهد ، وأنت قد تكذب فى هذا الخبر ، أنا أفضّل أنْ يشهد اثنان من البشر ولا نقحم الله فى هذه الشهادة .

والمنافقون من أشدِّ الناس عداوةً للمؤمنين وأكثرهم خطراً ، لأنهم يصنعون الفتنة وينشرون الأكاذيب بين المسلمين وهم يدَّعُون أنهم منهم ، ويُخذّلون المجاهدين فى سبيل الله عن الجهاد ، ويُمنُّون المتقاعسين بالنجاة من الموت ويعِدونهم برَغَد العيش .

بل إنهم يطعنون فى ثوابت المجتمع من الفضيلة والأخلاق ، ويدعُون إلى كلِّ ما يهدم الشريعة ويريدون تصدُّع كيان المجتمع المسلم والأسرة المسلمة.

فقد مارس المنافقون هذا فى عهد رسول الله ، لذلك حذَّر منهم الحق سبحانه فى القرآن الكريم فى آياتٍ كثيرة وخاصة سورة البقرة وآل عمران ، وخصَّص لهم سورةً باسمهم وهى سورة (المنافقون) .

وفيها وفى غيرها يفضحهم الله عز وجل ، ويفضح نظرات عيونهم وخبيئات قلوبهم، ويكشف خلجات جوارحهم والمواضيع التى يثيرون فيها الفتن بين المسلمين.

والناسُ فى الحياة الدنيا على ثلاثة أحوال : إما مؤمن ، وإما كافر وإما منافق . والله سبحانه وتعالى فى بداية القرآن الكريم فى سورة البقرة أراد أنْ يعطينا وصف البشر جميعاً بالنسبة لمنهج الله وأنهم ثلاث فئات :

الفئة الأولى : هم المؤمنون ، عرّفنا اللهُ سبحانه صفاتهم فى ثلاث آيات

فقال : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥) ﴾ [البقرة]

أما الفئة الثانية فهم الكفار ، وعرَّفنا الله سبحانه صفاتهم فى آيتين فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧) ﴾ [البقرة]

وجاء بذكْر المنافقين فعرّف صفاتهم فى ثلاث عشرة آية متتابعة لماذا ؟ لخطورتهم على الدين ، فالذى يهدم الدين هو المنافق ، أما الكافر فنحن نتقيه ونحذره لأنه يُعلن كفره .

أما المنافق فيتظاهر أمامك بالإيمان ولكنه يبطن الشر والكفر ، وقد تحسبه مؤمناً فتُطلعه على أسرارك فيتخذها سلاحاً لطَعْن الدين ، وقد خلق اللهُ فى الإنسان ملكاتٍ متعددة ، ولكى يعيش الإنسان فى سلام مع نفسه ، فلا بدّ أنْ تكون ملكاتُه منسجمةً وغير متناقضة .

فالمؤمن ملكاته منسجمة لأنه اعتقد بقلبه فى الإيمان ، ونطق لسانه بما يعتقد ، فلا تناقض بين ملكاته أبداً ، والكافر قد يُقال إنه يعيش فى سلام مع نفسه ، فقد رفض الإيمان وأنكره بقلبه ولسانه وينطق بذلك .

ولكن الذى فقد السلام مع ملكاته هو المنافق ، إنه فقد السلام مع مجتمعه، وفقد السلام مع نفسه فهو يقول بلسانه ما لا يعتقد قلبه ، يُظهر غير ما يُبطن ويقول غير ما يعتقد ، ويخشى أنْ يكشفه الناسُ فيعيش فى خوف عميق وهو يعتقد أن ذلك شيءُ مؤقتٌ سينتهى .

ولكـن هـذا التنـاقض يبقى معه إلى آخر يوم لـه فى الدنيا ، ثم ينتقل معه إلى الآخرة فينقضّ عليه ليقوده إلى النـار ، واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) ﴾ [فصلت]

إذن كلّ ملَكاتهـم انقضَّـتْ عليهـم فـى الآخـرة ، فـالسلام الذى كانـوا يتمنونه ويظنونــه لم يُحققـوه ، لا فى حياتهم ولا فى آخرتهم ، فلسان المنافق يشهد عليه، ويداه تشهدان عليه ، ورِجْلاه تشهدان عليه ، والجلود تشهد عليه ، فماذا بقى لـه ؟

بينـه وبـين ربه تنـاقض ، وبينه وبين نفسـه تنـاقض ، وبينه وبين مجتمعه تنـاقض ، وبينه وبين آخرتـه تنـاقض ، وبينه وبين الكافريـن تنـاقض ، يقول لسانُه مـا ليس فى قلبه .

وقـد وصف الحقُّ سبحانه المنـافقين ، فقـال : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (٨) ﴾ [البقرة]

هـذه أول صفات المنـافقين فى القرآن ، يُعلنون الإيمان وفى قلوبهم الكفر ، ولذلك فإنَّ إيمانهم كلّه تظاهر ، إذا ذهبوا للصلاة لا تكتب لهم لأنهم يتظاهرون بها ولا يُؤدُّونها عن إيمان .

وإذا أدَّوْا الزكاة فإنها تكون عليهم حسرةً لأنهم ينفقونها وهم لها كارهون، لأنها فى زعمهم نقصٌ من مالهم ، لا يأخذون عليها ثواباً فى الآخرة ، وإذا قُتلَ واحدٌ منهم فى غزوة انتابهم الحزن والأسى لأنهم أهدروا حياتهم ولم يُقدِّموها فى سبيل الله ، وهكذا يكون كلّ مـا يفعلونه شقاءً بالنسبة لهم .

أمـا المؤمن فحين يُصلِّى أو يؤدى الزكاة أو يستشهد فى سبيل الله فهو يرجو

الجنـة ، وأمـا المنافقون فإنهـم يفعلون كلّ هذا وهم لا يرجـون شيئاً ، فكأنهم بنفاقهـم قد حكـم عليهم الله سبحـانه بـالشقـاء فى الدنيـا والآخرة ، فلا هُم فى الدنيا لهم متعة المؤمن فيما يفعل فى سبيل الله ، ولا هم فى الآخرة لهم ثوابُ المؤمن فيما يرجو من الله .

أما الصفة الثانية من صفات المنافقين فهى صفةٌ تدلُّ على غفلتهم وحُمْق تفكيرهـم ، فإنهم يحسبون أنهم بنفاقهم يخدعـون الله سبحانه وتعالى ، وهل يستطيع بشر أنْ يخدع ربّ العالمين ؟

إن الله عليمٌ بكلِّ شيء ، عليمٌ بما نُخفى وما نُعلن ، عليم بالسِّرِّ وما هو أخفى من السرِّ ، وهل يوجد ما هو أخفى من السرّ ؟

نقـول : نعـم السرّ هو ما أسررتَ به لغيرك فكأنـه يعلمه اثنـان ، أنت ومَنْ أسررْتَ إليه .

ولكن ما هو أخفى من السرِّ ما تُخفيه فى نفسك ولا تخبر به أحداً ، إنه يظلُّ فـى قلبك لا تُسـرُّ به لإنسان ، والله سبحـانه وتعالى يقـول : ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) ﴾ [طه]

فـلا يوجد مخلـوقٌ يستطيع أنْ يخدع خـالقه ، ولكنهـم من غفلتهم يحسبون أنهـم يستطيعون خداعَ اللهِ جَلَّ جلالُه ، وفى تصرُّفهم هذا لا يكون هنـاك سلامٌ بينهم وبين الله ، بل يكون هنـاك مقْتٌ وغضب .

وهـم فى خداعهـم يحسبون أيضاً أنهم يخدعون الذين آمنوا ، بأنهم يقولون أمامهـم غـير ما يُبطنون ، ولكن هذا الخداع شقـاء لهم لأنهم يعيشون فى خوف مستمـر من أنْ يكشفهم المؤمنون أو يستمعوا إليهم فى مجالسهم الخاصة وهم يتحدَّثون بـالكفر ويسخرون من المؤمنين .

ولذلك إذا تحدّثوا لا بدَّ أنْ يتأكدوا أولاً من أنَّ أحداً من المؤمنين لا يسمعهم ويتأكدوا ثانياً من أنَّ أحداً من المؤمنين لن يدخل عليهم وهم يتحدَّثون ، فالخوف يملأ قلوبهم حتى وهم مع المؤمنين ، فكلٌّ واحد منهم يخشى أنْ تفلت منه كلمة تفضح نفاقه وكفره .

وهكذا فلا سلامَ بينهم وبين المؤمنين ، والحقيقة أنهم لا يخدعون إلا أنفسهم، فالله سبحانه وتعالى يعلم نفاقهم ، والمؤمنون قد يعلمون هذا النفاق ، فإنْ لم يعلموه فإنَّ الله يُخبرهم به .

واقرأ قول الحق سبحانه : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ[1] وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ[2] وَاللهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ .. (٣٠) ﴾ [محمد]

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) ﴾ [المنافقون]

فالله يفضح المنافقين ويُنبيء رسوله ﷺ بما يُضمرونه في قلوبهم، فخداعهم للمؤمنين رغم أنه خداعُ بشر لبشر إلا أنه أحياناً تفلتُ ألسنتهم فتعرف حقيقتهم .

وإذا لم يُفلت اللسان جاء البيانُ من الله سبحانه وتعالى ليفضحهم وتكون حصيلة هذا كلِّه أنهم لا يخدعون أحداً فالله يعلم سِرَّهم وجهرهم ، فمرَّةً يعين الله المؤمنين عليهم فيكشفونهم ، ومرّة تُفلت ألسنة المنافقين فيكشفون أنفسهم.

---

(١) بسيماهم : بعلامتهم . السيما والسيماء : العلامة . ويقول تعالى : ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ (٢٩) ﴾ [الفتح]. [القاموس القويم ١/٣٣٧] .

(٢) لحن القول : خطؤه وتحريفه . فقوله : ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ الْقَوْلِ .. (٣٠) ﴾ [محمد] أى إنك ستعرف المنافقين فى أسلوبهم فى القول بإخفائه وتحريفه . أى : ستعرفهم فى خطأ القول وزلات اللسان . [القاموس القويم ٢/١٩١] .

يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٢ ﴾

والأَيْمان جمع يمين وهو الحَلِف ، فالحلف والأَيْمان وسيلة من وسائل المنافقين للخداع التى يُجيدونها ويستترون خلفها فيتخذونها (جُنَّة) أى وقاية يختبئون وراءها ويحتمون بها حتى لا ينكشف أمرهم .

ومادة (جنَّ) تعنى : السَّتر والإخفاء ، ومنها (جن الليل) أى أظلم . والدرع الذى يحمى صدر الجندى اسمه المجنّ .

فالمنافقون يتخذون أيمانهم وحلِفهم وقَسمهم الكاذب جُنَّة تقيهم وتسترهم، وتُخفى ما يُبطنونه من الكفر ليعيشوا بين المسلمين دون أنْ يكتشف أحدٌ أمرهم.

لذلك يقول تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) ﴾ [النساء]

فهم يروْنَ النفاق يُحقّق نفعاً لهم ، فبه يستفيدون من إجراء أحكام الإسلام عليهم ، لذلك فعندما تحدث لهم مصيبة تفضحهم أمام الناس وتكشفهم تجدهم يلجئون إلى الحلف بالله كذباً لأنهم يريدون استدامة نفاقهم ، ويحاولون أنْ يبرروا ذهابهم إلى الطاغوت بأنهم ما أرادوا إلا الإحسان والمصلحة للتوفيق بينهم وبين خصومهم .

حتى أن الحق سبحانه قال : ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢) ﴾ [التوبة] فهدف الحلف كذباً هنا هو إرضاء

المؤمنين حتى يطمئنوا للمنافقين ولا يتوقعوا منهم الشرَّ .

وهذا دليل غبائهم فالذى يستحقّ الإرضاء هو الله سبحانه ورسوله ، فالإنسان قد يخدع البشر مثله ، ولكن لا يستطيع خداعَ الله سبحانه ، فلا يغيب عن علم الله ولا يفلت من عدالة الله .

والمنافق دائرٌ دائماً فى دائرة الحلف بأغلظ الأيمان لأنه يريد مُداراة كفره، وألاَّ يطلع أحدٌ على خبيئة نفسه المريضة ، أما الكافر الصريح الواضح فى كفره فلا يحتاج إلى ما يستر به كفره .

فالمنافق يُبطن الكفر ويُظهر الإسلام ، يقول الحق : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤)﴾ [البقرة]

فهم مع هؤلاء بوجه ، ومع الآخرين بوجه آخر ، لذلك يحتاجون إلى الحلف لأن لا أحدَ يُصدِّقهم ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ .. (٧٤)﴾ [التوبة]

فعندما دعا رسول الله ﷺ للجهاد فى سبيل الله والذهاب إلى قتال الروم فى غزوة تبوك تلمَّس المنافقون الأعذار الكاذبة حتى لا يذهبوا إلى الجهاد ، فظلَّ القرآن ينزل فى هؤلاء الذين تخلَّفوا عن هذه الغزوة شهرين كاملين .

فقال رجل اسمه الجلاس بن سويد[١] : والله إن كان ما يقوله محمد عن الذين تخلفوا عن القتال صدقاً فنحن شرٌّ من الحمير ، وهنا قال عامر بن قيس الأنصارى : لقد صدق رسول الله وأنتم شر من الحمير ، وأنت يا جلاس شر من

---

(١) الجلاس بن سويد أحد ستة وثلاثين منافقاً ، وهو أحد الذين تخلفوا يوم تبوك . ذكره محمد بن حبيب البغدادى فى [المحبّر ١/٤٦٧] .

الحمار[1].

وذهب عامر بن قيس إلى رسول الله وأخبره بما حدث ، فاستدعى رسول الله الجلاس بن سويد ، وسأله عن الخبر فحلف الجلاس بالله أن كل ما قاله عامر ابن قيس لم يحدث ، وأنه لم يقُلْ شيئاً يُغضب رسولَ الله .

تركه رسول الله بعد أنْ حلف بالله ، وهنا رفع عامر بن قيس يده إلى السماء وقال : اللهم إنِّي أسألك أنْ تُنزل على عبدك ونبيك محمد تصديقَ الصادق وتكذيبَ الكاذب .

فقال رسول الله ﷺ : آمين ، ولم ينتهوا من الدعاء حتى نزل الوحي بقول الحق جلَّ جلاله[2] : ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ .. (٧٤) ﴾ [التوبة]

هؤلاء الذين تخلَّفوا عن رسول الله واختلقوا الأعذار الكاذبة حتى لا يخرجوا معه ﷺ ، وقالوا لبعضهم البعض ﴿ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ .. (٨١) ﴾ [التوبة]

هؤلاء ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ .. (٩٥) ﴾ [التوبة] وكلمة (سيحلفون) تدلُّ بصيغتها على المستقبل ، أى أنهم لم يحلفوا بعد ، ورغم هذا جاءوا وحلفوا وأقسموا بالله مُبدين الأعذارَ الفارغة ، ولكنْ لماذا سيحلف المنافقون بالله للمؤمنين ؟

---

(١) أخرج أبو نعيم الأصفهانى فى معرفة الصحابة (٨٨/١٥) (٤٧١٦) عن محمد بن إسحاق قال : تخلف الجلاس بن سويد عن تبوك عن رسول الله ﷺ ، فقال : لئن كان هذا الرجل صادقاً فلنحن شر من الحمير ، فرفع ذلك من قوله إلى رسول الله ﷺ عمير بن سعد ، وكان فى حجر الجلاس خلف على أمه بعد أبيه ، فمشى إلى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له ، فكذبه الجلاس وحلف أنه لم يقل ، فأنزل الله ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا .. (٧٤) ﴾ [التوبة] .

(٢) أورده الفخر الرازى فى تفسيره (مفاتيح الغيب) فى تفسير الآية ٧٤ من التوبة ، وكذا الزمخشرى فى تفسير الكشاف (٢٩١/٢) والنسفى فى تفسيره (٤٥٥/١) والألوسى فى روح المعانى (٣٢٨/٥) .

يقول الحق سبحانه : ﴿ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ .. (٩٥) ﴾ [التوبة]

أى : لتعرضوا عن توبيخهم ولوْمهم وتعنيفهم لأنهم لم يجاهدوا معكم . ويرسم لنا الحقُّ سبحانه طريقةَ التعامل مع مثل هؤلاء ، فيقول : ﴿ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ .. (٩٥) ﴾ [التوبة]

هم قد طلبوا منكم أنْ تُعرضوا عنهم أى إعراض صَفْح ومغفرة ، ومن هذا قَوْلُ عزيز مصر ليوسف عليه السلام بعد أن انكشفتْ حيلةُ امرأته ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا .. (٢٩) ﴾ [يوسف] أى : اصفح عمَّا حدث واغفر لنا ما أسأنا به إليك .

لا تُعرضوا عنهم إعراضَ الصفح والمغفرة ، بل اعرضوا عنهم إعراضَ الاحتقار والإهانة ، فلا تلوموهم ولا تُوبخوهم ولا تُؤثِّموهم ، فإنَّ لَوْمهم دليلُ أنكم تعتقدون أن فيهم أملاً فى العودة للصواب ، والحقيقة غير هذا .

فهؤلاء المنافقون لا ينفع معهم التوبيخُ أو الإيلام النفسى ، فلا أملَ فيهم ﴿ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) ﴾ [التوبة]

وهم لا يُراقبون اللهَ فى أفعالهم ولا يعتقدون أن الله ينظر إليهم ويعلم ما فى قلوبهم وليس فى بالهم الله ، بل فى بالهم مَا يُحقّقونه من البشر من نَفْع أو مصلحة ، فهناك خللٌ فى اعتقادهم .

يقول الحق سبحانه : ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ .. (٩٦) ﴾ [التوبة] إنهم يطلبون رضاكم أنتم ، إنهم نَسُوا أن الرضا الحق هو رضا الله .

وقد ينالون بحلفهم وقسمهم رضاكم عنهم ، ولكن يقول الله : ﴿ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦) ﴾ [التوبة]

فـإنْ لم يرض الله عنهم فرضاكم لـن ينفعهم ، فرضاكم لن يقدم ولن يؤخر إلا إنْ كان من باطن رضا الله ورضا رسوله .

وهـم باتخاذهـم أَيْمانهم جُنَّة يصـدُّون عن سبيل الله ، فهـم يُغرون غيرهم بانتهـاج الخديعـة والمكر وسيلـة للاختفاء والاختباء ، فـلا يقعوا تحت طائلة الأحكام ، وهذا يُغرى النـاسَ بالالتفاف على منهج الله .

وعندنـا المثـل الدارج «قـالوا للحرامـى احلف قال جالك الفـرج» وهذا شأن المنحرفين الذين يصدُّون عن سبيل الله بسلوكهم المعوج .

والـذى يصـدُّ عن سبيل الله هـو مَن امتنع عن سبيل الله وصـدَّ غيره أى ضَلَّ فـى ذاتـه ثم أضلَّ غيره ، وهؤلاء هم الذين يطلبـون منهج الله مُعْوَجاً ويذمّونه ولا يؤمنـون به فيعترضون على إقامة الحدود والقصاص ويُنفِّرونَ النـاسَ من منهج الله ويُبغِّضونه إليهم لينصرف النـاسُ عن الدين .

فالنـاسُ حين يرون الكفار المعـاندين لمنهج الله ورسوله ﷺ وقد صارتْ لهم اليدُ العليا وهم يرقصون ويغنُّون لانتصارهم بالحيلة والخداع والحلف الكاذب والنفاق ، فسوف يُغرى ذلك النـاسَ باتبـاع منهج المعـاندين لمنهج الله.

والسبـب فـى صدِّهم عن سبيل الله أنهم يريدون الحـال مُعْوجاً ومائلاً ، وأنْ يُنفِّـروا النـاسَ من الإيمـان ليضمنوا لأنفسهـم السلطة الزمنيـة ويُفسدون فى الأرض ، لأن مجـيء الإصلاح بالإيمـان أمرٌ يُزعجهم تمامـاً ويسلب منهم ما ينتفعون به بالفساد .

وكيـف يكون الصـدّ عن سبيـل الله ؟ بمحـاولة أهل الضـلال أنْ يمنعوا آيات الهدى من أنْ تصل إلى آذان النـاس لأنهم يعرفون أن حلاوة الدعوة ستجعل مَنْ يستمع إلى دعوة الرسول يؤمن بها .

ومما فعلوه للصدِّ عن سبيل الله هو بناء المنافقين لمسجد سُمى بـ «مسجد الضرار»[1] . قال الحق سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ .. (١٠٧) ﴾ [التوبة]

فهؤلاء القوم أرادوا أن ينفسوا عن نفاقهم بمظهر من مظاهر الطاعة فقالوا: نقيم مسجداً وبذلك نفرق جماعة المسلمين ، فجماعة يصلون هنا وجماعة يصلون هناك .

وإنْ قعدنا نحن نصلى فيه نكون أحراراً ونتكلم مثلما نريد ، أما حين نذهب للصلاة فى المسجد الآخر فنحن نجلس هناك مكبوتين وغير قادرين على الكلام .

كان هدفهم التفريق بين المؤمنين ، وأيضاً ﴿ إِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ .. (١٠٧) ﴾ [التوبة] فالذين أقاموا هذا المسجد أرصدوه مترقبين ومنتظرين إنساناً له سابقةٌ فى عداء رسول الله ، وهو الذى طلب منهم إقامة هذا المسجد ، وهو أبو عامر الراهب وقد سمَّاه رسول الله (الفاسق) .

لقد بنوا ذلك المسجد ضراراً وكفراً وتفريقاً وإرصاداً وترقباً لذلك الراهب الذى سيذهب إلى الشام ويأتى بجنود لمحاربة الله ورسوله ، ورغم أنهم قد فعلوا ذلك فقد امتلكوا جراءة الحلف بالله كذباً ﴿ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ .. (١٠٧) ﴾ [التوبة]

---

(١) قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا .. (١٠٨) ﴾ [التوبة] ، عن ابن عباس قال : هم أناس من الأنصار ابتنوا مسجداً فقال لهم أبو عامر : ابنوا مسجدكم واستمدوا بما استطعتم من قوة وسلاح فإنى ذاهب إلى قيصر ملك الروم فآتى بجند من الروم فأخرج محمداً وأصحابه، فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبى ﷺ فقالوا : قد فرغنا من بناء مسجدنا فنحب أن تصلى فيه وتدعو بالبركة فأنزل الله ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا .. (١٠٨) ﴾ [التوبة] . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥٢٢/٧) وعزاه لابن جرير الطبرى وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل .

فهم أقسموا وقالوا : ما أردْنا باتخاذ هذا المسجد إلا مصلحة المسلمين وليُيسِّر على المعذورين والمرضى والعاجزين عن السير إلى المسجد الآخر ، وإنْ كانت ليلة مطيرة أو ليلة شاتية فيستطيع الناس أنْ يجدوا مسجداً ثانياً ليصلُّوا فيه .

إنهم أرادوا أنْ يصدُّوا عن سبيل الله ، لذلك نزل القرآن حاسماً فى قَطْع دابر هذا الأمر ، فقال الحق سبحانه : ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) ﴾ [التوبة]

ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ(١) أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (٥٣) ﴾ [المائدة]

فالمقسَم به هو الله ، والمقسِم هم المنافقون والمخالفون لرسول الله ، ولقد بالغوا فى القسَم مبالغة تُجهدهم ليُبيِّنوا لمَنْ يُقسمون لهم أنهم حريصون على أنْ يبرُّوا بالقسم ، فأفرغوا جهدهم ومشقتهم فى القسَم .

ومن الجائز أنهم حينما أقسموا بالله جَهْد أيمانهم كانوا قد اقتربوا فى هذا الوقت من الإيمان ، ولكن قلوبهم لا تثبت على عقيدة ، بل تتقلَّب دائماً ، وما دامتْ قلوبُهم لا تثبت فأنَّى لنا بتصديقهم لحظة أنْ أقسموا بالله جَهْد أيمانهم.

ومما فعلوه للصدِّ عن سبيل الله أنهم يشقُّون صَفَّ المسلمين الخارجين لملاقاة العدو ، يقول الحق سبحانه : ﴿ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا(٢) وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ

---

(١) حبط عمله يحبط : بطل ثوابه وأحبطه الله . [لسان العرب - مادة : حبط] . قال ابن الأثير : وهو من قولهم حبطت الدابة حبطاً بالتحريك إذا أصابت مرعىً طيباً فأفرطت فى الأكل حتى تنتفخ فتموت .

(٢) خفافاً : الخفة ضد الثقل والرجوح يكون فى الجسم والعقل والعمل . والخفوف : سرعة السير من المنزل . وقد يكون خفيف المتاع . أما الثقال فهو ضده .

وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١) ﴾ [التوبة].

هـذا أمْـر الله بإعلان النفير العـام ، ولكن المنافقين يريـدون أنْ يتفلَّتوا من هـذا الأمـر ، فبدأوا يختلقون الأعذار ، يقول تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا[1] لَاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ .. (٤٢) ﴾ [التوبة]

إنهـم لا يتحركـون عند المهمات إلا إذا كان الأمرُ سهلاً مُيسَّراً ، أما إذا كانت فيـه مشقـة فإنهم ﴿ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا .. (٦٣) ﴾ [النور] وآخر يقول ﴿ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا .. (٤٩) ﴾ [التوبة]

وقـد كـان رسـول الله ﷺ قلَّما كان يخرج فى وجه مـن مغازيه إلا أظهر أنه يريـد غـيره ، غير أنه فى غزوة تبوك قـال : أيها النـاس إنى أريد الروم فأعلمهم، وذلـك فى زمـان البأس وشدة الحـر وجدب البلاد وحين طابت ثمار المدينة ، والنـاس يحبون المقام فى ثمارهم وظلالهم ويكرهون الشخوص عنها .

فبينمـا رسـول الله ﷺ ذات يوم فى جهازه إذ قال للجد بن قيس : يا جَدُّ هل لـك فـى جِلَاد بنى الأصفر ؟ قال : يا رسول الله لقد علم قومى أنه ليس أحدٌ أشدّ عجبـاً بالنساء منى ، وإنى أخاف إنْ رأيـت نساء بنى الأصفر أنْ يفتننى فأذن لى يا رسول الله .

فأعرض عنه رسـول الله ﷺ وقـال : قد أذنت[2] . فأنزل الله : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ

---

(١) السفر القاصد : السهل الواضح المعروف هدفه وقصده . والسفر الذى كان مطلوباً منهم هو السفر إلى تبوك لغزو الروم ، وقد كان السفر إليها فى شدة الحر عسيراً فى وقت عسرة من النفقة والتجهيز فكان سفراً شاقاً وكان غير معروف الهدف ، لهذا تخلف المنافقون .

(٢) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٥/٢١٤) عن عاصم بن عمر بن قتادة وعبد الله بن أبى بكر بن حزم. وأورده السيوطى فى الدر المنثور (٧/٣٩٦) وعزاه لابن إسحاق وابن المنذر والبيهقى فى الدلائل . وقد أخرجه ابن أبى حاتم فى تفسيره (٦/١٨٠٩) من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه .

﴿ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا .. (٤٩) ﴾ [التوبة]

الغريب أن القرآن ينزل قبل رفضهم الخروج وينزل قبل أنْ يُقسموا بأغلظ الأيمان ، فيقول تعالى : ﴿ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢) ﴾ [التوبة]

واستخدام حرف السين هنا يعنى أنهم لم يكونوا قد قالوها بعد ، ولكنهم سيقولونها فى المستقبل ، ولو أنهم تنبَّهوا إلى ذلك لامتنعوا عن الحلف ولقالوا: إن القرآن قال سنحلف ولكننا لن نحلف .

ولكن الله أعماهم فحلفوا ، وهكذا يأتى خصومُ الإسلام ليشهدوا رغم أنوفهم للإسلام .

إنهم بحلفهم وقَسَمهم قد شقُّوا صَفَّ المسلمين الخارجين لصدِّ العدو لأنهم بهذا الحلف تقاعسوا عن الخروج فشجعوا غيرهم على التخاذل فأوقعوا الفتنة فى الصفوف ، وهذا دأب المنافقين دائماً .

صحيح أنّ عدمَ خروجهم كان خيراً للمسلمين ، قال تعالى : ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً[1] وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) ﴾ [التوبة]

فهم لن يكونوا إلا مصدراً لبلبلة الأفكار لو خرجوا معكم للقتال فلا تستطيعون اتخاذ القرار السليم ، فكأنهم عَيْنٌ عليكم وضدّكم وليسوا معكم ، وقد يكونون من عوامل الهزيمة التى لم يُرِدْها الله لكم .

---

(١) الخبال : النقصان والخسارة والهلاك . [القاموس القويم للقرآن الكريم ١٨٦/١] . وقال ابن الأعرابى : أى لا يُقصرون فى فسادكم . [لسان العرب – مادة : خبل] . أى : لا يقصرون فى فساد أمركم فى الحرب بالشائعات ووضع الفتنة والتحريش بينكم .

لـو خرجوا فيكـم كـانوا سيُحدثـون فُرْقة بين صفوف المؤمنـين ويُفرِّقونهم وسيتغلغلون بينهم للإفساد ، فيدخل واحد منهم بين فريق من المؤمنين فيفسد وآخر يُفسد فريقاً آخر ، وهكذا يمشُون خلال المؤمنين ليُفرِّقوا بينهم .

ولاحظ أنَّ الحق سبحانه قال : ﴿ خَرَجُوا فِيكُمْ .. (٤٧) ﴾ [التوبة]

ولم يقُلْ : خرجـوا معكـم . وفَـرْق كبـير بـين الأسلوبـين وبـين استخـدام (فيكم) و (معكم) ، فكلمة (معكم) تعنى خروجاً يتسم بالطاعة منهم قولاً وعملاً، قلباً وقالباً .

أمـا يخرجـون فيكم ففيها دخـولٌ فى شيء وهـو مواضع الخلـل والضعف يدخلون فيها فيُحدثون فيها مشاكلَ وجدالاً وفُرْقة كتلك التى تُحدثه المكيروبات والجراثيم فيما حولها فى نقاط ضعف جسم الإنسان .

وذلك بالهمس فى آذان المؤمنين بتزيين الباطل للطعن فى أىِّ قرار يُصدره القائـد الذى يتولّى الأمر ، فهم يبغون الفتنة ويبغُون هزيمة المسلمين ليرجعوا إلى المدينة مهزومين ، فتعلو أسهمهم هم فى مجتمع المدينة .

حتى أنَّ كبيرهم[1] قال : ﴿ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ .. (٨) ﴾ [المنافقون]

ثـم يصف الحق سبحانـه عملهم هذا بحلفهم بالله كذبـاً واتخاذهم أَيْمانهم جُنَّة للصدِّ عن سبيل الله ، فيقول تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ﴾ [المنافقون]

وسـاء أى قَبُـح . وليس قُبْحاً وقتياً الآن فقط ، بل هـو قُبْح حاليّ ومستقبليّ أيضـاً لأن آثاره مستمرة ، وقُبْح مـا يعملون لقولهم وفِعْلهم ، حلفهم بألسنتهم وتعمُّدهـم الكذب بقلوبهم ، ثم وَضْع الفتنة بين صفوف المسلمين وصدّهم عن سبيل الله .

---

(١) كبيرهم : المقصود به عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين فى المدينة .

لذلك قال الحق سبحانه : ﴿ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ﴾ [المنافقون] فأعمالهم السيئة القبيحة ليست عملاً واحداً ، ولكنها أعمال متعددة فهم يصدُّون الناسَ بالكلام ويمنعونهم باستخدام القوة فى بعض الأحيان .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ﴾

قوْل الحق سبحانه هذا يأتى بعد قوله ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .. (٢) ﴾ [المنافقون] فقوله ﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ﴾ [المنافقون] فسوءُ عملهم يتعلق بالأمرين معاً ، اتخاذهم أيمانهم جُنة للصدِّ عن سبيل الله ، وكذلك إيمانهم ثم كفرهم .

وقد حدَّثنا القرآن عمَّنْ آمنوا ثم كفروا فى عدة مواضع ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا (١٣٧) ﴾ [النساء]

وهؤلاء هم المنافقون الذين أعلنوا الإيمانَ وأبطنوا الكفر ، فهم حوَّلوا الإيمان من عقيدة يعتقدها القلب ويُصدِّقها العمل ، حوَّلوه إلى مجرد كلمة تُقال .

وكانوا فى غاية الحرص على تأدية مطلوبات الإسلام بالأعمال الظاهرية حتى يدفعوا عن إسلامهم الريبة ، أما قلوبهم فهى مع الكفر ، لذلك أرادوا أنْ يلبسوا فى المنطق ويُدلسوا فيه .

ويذكر الحق سبحانه عن الأعراب أنهم قالوا : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا

وَلَـٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ .. (١٤) ﴾ [الحجرات]

فالحق سبحانه يكشف دواخل نفوسهم عندما يعرفون أنهم مجرد مسلمين باللسان ولكن قلوبهم لم تؤمن ويُخبرهم الرسول بذلك ويقول لهم بلاغاً عن الله ﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَـٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ .. (١٤) ﴾ [الحجرات]

لقد كانوا أسبقَ الناس إلى صفوف الصلاة ، ولكن عندما كشف القرآنُ ما فى داخل نفوسهم عرفوا أن القرآن وَحْيٌ من الله ، عرف به محمد ﷺ خبايا قلوبهم .

ولو قالوا إنَّ محمداً هو الذى عَرَف خبايا نفوسهم لما اقتصر اعترافُهم به كرسُول ، بل ربما تمادَوْا فى الغَيِّ وأرادوا أنْ يجعلوه إلهاً ، ولكن رسولَ الله يحسم الأمرَ ويُبيِّن لهم أن الله هو الذى أبلغنى بدليل أنه أُمِر أنْ يقول لهم ﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا .. (١٤) ﴾ [الحجرات]

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا .. (١٣٧) ﴾ [النساء] أى ماتوا على الكفر . هؤلاء ﴿ لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا (١٣٧) ﴾ [النساء] لأنهم دخلوا فى الإيمان مرة ثم خرجوا من الإيمان .

وهم فى هذا يحققون ما جاء فى الآية قبلها : ﴿ فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ .. (٢) ﴾ [المنافقون] فهم بسلوكهم هذا يقصدون الفتنة ، لأن الآخرين سيشاهدونهم وقد آمنوا ، وسيشاهدونهم وهم يكفرون .

وسيُعلِّلون ذلك بأنهم عندما تعمَّقوا فى المسائل العقدية كفروا ، وهم يفعلون ذلك ليُهوِّنوا من شأن الإسلام ، فهم يقصدون الفتنة بإظهار الإيمان ثم إعلانهم الكفر ، وفى ذلك تشكيكٌ للمسلمين .

ويكون مصير مَنْ تردد بين الإيمان والكفر، وكان عاقبة أمرهم أنهم ازدادوا كفراً يكون مصيرهم ما جاء فى قوله : ﴿ لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا (١٣٧) ﴾ [النساء] فهم قد دخلوا فى الخيانة العظمى الإيمانية .

ويُحدِّثنا الحق سبحانه عن طائفة من أهل الكتاب آمنوا ثم كفروا ، فقال تعالى : ﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢) ﴾ [آل عمران]

فلقد أراد بعضٌ من أهل الكتاب أنْ يُشككوا المسلمين فى أمر المنهج ، لذلك اصطنعوا تلك الحيلة ، فالمؤمنون من العرب وقريش فى ذلك الزمن كانوا أُمّيين وكانوا يعرفون أن أهل الكتاب على علم بمناهج السماء ، فإذا ما آمن بعضهم برسالة رسول الله وجه النهار وكفروا به آخر النهار ، فهذا خَلْط للحق بالباطل، وفى هذا خداعٌ للمؤمنين وفتنةٌ لهم .

و ﴿ وَجْهَ النَّهَارِ .. (٧٢) ﴾ [آل عمران] أى أوله . ومقصود به ساعات الصبح والظهر ثم يكفرون آخر النهار ، وهدفهم إشاعة الشك وزرع البلبلة فى نفوس المؤمنين بخصوص هذا الدين ، وأيضاً صَدّ مَنْ أراد الإيمانَ، فيجعله هذا السلوكُ يتردد ثم يُحجم عن الإيمان ، وهذا لوقف انتشار هذا الدين.

والحق سبحانه يكشف ذلك المكر والخداع للذين حاولوا أنْ يكتموا خداعهم ولعبتهم الماكرة ، فطالبوا بعضهم البعض أنْ يظلَّ الأمرُ سراً حتّى لا يفقد المكرُ هدفه .

لذلك قال هؤلاء المتآمرون بعضهم لبعض ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ .. (٧٣) ﴾ [آل عمران] أى : لا تكشفوا سرَّ هذه الخدعة إلا لمنْ هو على شاكلتكم .

لكن الحق سبحانه يكشف الأمر كلَّه بنزول هذه الآية على رسول الله ﷺ

وبلاغـه إياها للمؤمنين ، وبذلـك فسد أمر تلك البلبلة وارتـدتْ الحرب النفسية إلى صدور مَنْ أشعلوها .

وهـؤلاء لا يهديهـم الله سبيلاً ، فيقول تعالى : ﴿ كَيْـفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْـدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُـمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦) ﴾ [آل عمران]

فهؤلاء آمنوا برسالة رسول الله ثم كفروا به ، كما حدث من بعضهم في عهد الرسـول ، مثـال ذلك طعمة بـن أبيرق وابن الأسْلت والحارث بـن سويد ، هؤلاء أعلنـوا الإيمـان واتجهوا إلى مكة ومكثوا فيها ، تـاب منهم واحد وأخذ له أخوه ضمانـاً عند رسول الله ، والباقون لم يتوبوا .

وقـوْل الحق سبحانه : ﴿ ثُـمَّ كَفَرُوا .. (٣) ﴾ [المنافقون] أي : ستروا الإيمان بالله ورسوله ، والكفر أيضاً هو محاولة سَتْر وجود الله واجب الوجود ، ومحاولة ستر هذا الوجـود هو إعلانٌ بـأنَّ الله تعالى موجود ، فأنت لا تحـاول أنْ تستر شيئاً إلا إذا كان له وجود أولاً .

إنَّ الشيء الذى لا وجودَ له لا يحتاج إلى سَتْر ، لأنه ليس موجوداً فى عقولنا ، فالذيـن كفروا يحاولـون ستر وجود الله ، وسَتْر وجود الله هـو إثباتٌ لوجوده ، لأنك لا تستر شيئاً غير موجود ، وهكذا يكون الكفرُ مُثبتاً للإيمان .

والكفـر هو سَتْر الوجود الأعلى ، والذى كفـر ستر وجود الله وحَرَم نفسه من المنهج الذى يأتى به الله ، إنه بذلك قد ضَلَّ ضلالاً بعيداً .

فالإيمان أصْلٌ فى وجود الخَلْق ، والخَلْق قد وُجدوا على الإيمان ثم جاء أناسٌ ستروا هذا الإيمان ، فكلمة الكفر التى معناها السَّتْر دليلٌ من أدلة الإيمان ، وإلا لو لم يكُنْ الله موجوداً فكيف يسترون ما ليس له وجود ؟

فـإذا قـال لك أحدٌ : إنه كفـر – والعياذ بـالله – تقول : الكفر هو الستر ، فماذا سترتَ ؟ لابد أنك سترتَ ما هو موجود .

فمَنْ كفـر بآيات الله الكونية فلـم يؤمن بها فهو قد سـتر وجودها وغطّاه ، رغم الآيات الظاهرة التى تملأ الكون ، وكفروا بآيات الرسل فكذَّبوا رسلهم رغم أنهـم جاءوهم بمعجزات تخرق قوانـين الحياة ، ولم يُصدِّقوا آيات الكتاب التى أُنزِلَتْ من السماء لتبين لهم منهج الله تعالى .

وكانت نتيجة إيمانهم ثم كُفرهم بعد إيمانهم ﴿ فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ .. (٣) ﴾ [المنافقون]

أى : أن الله طَبَـع علـى قلوبهـم وخَتَـم عليها حتـى لا ينفُذَ إليهـا شعاعٌ من الهداية ، ولا يخرج منها شعاع من الكفر ، والله لم يطبع على قلوبهم بداية فقد كفـروا أولاً ، وبعـد ذلك تركهم الله فى غيهـم وضلالـهم وطبع على القلوب ، فما فيها من كفر لا يخرج ، والخارج عنها لا يدخل إليها .

وقد كان بعضُ الكافرين يسمعون القرآن ثم يخرجون دون إيمانٍ ، يقول تعالى: ﴿ وَمِنْهُـمْ مَـنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُـوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا[1] أُولَـئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) ﴾ [محمد]

فـالذيـن لا يؤمنـون بـالقـرآن آذانهم تصمّ عن الفهـم وأعماقهم بلا بصيرة ، فلذلـك لا يفهمـون عن الله ، وهذا ما نسميه الرَّان أو الرَّيْن ، يقول تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) ﴾ [المطففين]

أى : صـارتْ قلوبهـم مُغلقةً ومُغطّاة بعد أنْ طبـعَ اللهُ وختم عليها فلا تقبل الخير ، ولا تميل إليه فلا يؤمنون .

والطَّبْع هو الخَتْم لأن قلوبهم ممتلئة بـالضلال لذلك يعلنون التكذيب للرسول،

(١) الآنف : الماضى القريب . فقوله عنهم أنهم قالوا ﴿ مَاذَا قَالَ آنِفًا .. (١٦) ﴾ [محمد] أى سابقاً فى الوقت القريب . [القاموس القويم ١/٣٨] .

وقد طبع اللهُ على قلوبهم لا قَهْراً منه ، ولكن لاستبطان الكفر وإخفائه فى قلوبهم ونفاقهم .

فهم الذين تسبَّبوا بهذا الطبْع لأنفسهم ، بعد أنْ بدأوا بالكفر . فطبع الحقُّ سبحانه على قلوبهم بما فيها من مرض ، ولو لم يبدءوا بالكفر لما طبع اللهُ على قلوبهم .

وساعة يُنسب الطبع إلى الله يكون أقوى طَبْع على القلوب ، ويأتى الطبْع من الله سبحانه كحكم نهائى من أنَّ الله قضى عليهم به ، فلا يخرج من قلوبهم ولو كان قَدْراً ضئيلاً من النفاق ، ولا تغادر قلوبهم ذرةٌ من كفر .

والحق سبحانه يلفتنا إلى أن المنافقين هم الذين جلبوا لأنفسهم هذا الطبْع على القلوب ، لأنهم وضعوا فى قلوبهم الكفر ثم أخذوا يتحدَّثون بألسنتهم عن الإيمان ، ويحاولون خداع المؤمنين ويُخادعون الله .

فأراد الله سبحانه أنْ يُوضِّح لهم : ما دُمْتم قد اخترتم النفاق والكفر فى قلوبكم فسنطبع على هذه القلوب ونختم عليها حتى لا يخرجَ الكفرُ منها ، ولا يدخل إليها الإيمان .

وهم قد عبَّروا عن هذا الطبْع بقولهم : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ[1] وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (٥) ﴾ [فصلت]

والأكِنَّة : أغطية جمع كِنْ ، فجعل اللهُ على قلوبهم أغطيةً فلا يدخلها الإيمانُ ولا يخرج منها الكفر ، وليس هذا اضطهاداً منه تعالى لعباده تعالى، تعالى اللهُ عن ذلك ، بل استجابة لما طلبوا وتلبيةً لما أحبُّوا ، فلما أحبُّوا الكفر وانشرحتْ به صدورهم زادهم منه لأنه رَبٌّ يعطى عبده ما يريد .

(١) الوقْر : ثقل فى الأذن . وقيل : هو أن يذهب السمع كله ، والثقل أخف من ذلك (أى أخف من الوقر) [لسان العرب – مادة : وقر] .

كمـا قال عنهـم في آية أخـرى : ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠) ﴾ [البقـرة] فـأجابهم الله إلى مـا أرادوا وختم على قلوبهم ليزدادوا كفراً ، وطالما أنهم يحبونه فلنزدهم منه .

ويقـول سبحانـه : ﴿ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣) ﴾ [المنافقـون] ، والفِقْه هو الفَهْم ، ويصير الفهمُ قضيةً مُرجِّحة انتهى إليها الاقتناع من المرائى والمحسَّات ، لكن هؤلاء الكافرين لا يروْنَ بأعينهم إلا هواهم .

وكذلك لا تسمـع آذانهـم إلا ما يـروق لهم ، فـلا يستمعـون إلى الهدى ، ولا يلتفتون إلى الآيات التى يستدلون بها على الخالق ، فتعيش قلوبهم بلا فقه .

فحين يقال ﴿ لَا يَفْقَهُونَ (٣) ﴾ [المنافقون] أى : لا يفهمون بذواتهم ، والفَهْم هـو أول مرحلة مـن مراحل الذات الإنسانيـة ، وهنـاك فَرْق بـين الفَهْم والعلم ، والفَهْم يعنى أنك تملك القدرةَ على تفهُّم ذاتية الأشياء بمَلَكَةٍ فيك .

لكنَّ العلم يعنى أنك قد لا تفهم أنت بذاتك ، وإنما يفهم غيرك ويُعلِّمك ، ولكنْ قد يقول قائل : ما داموا لا يفقهون فما ذنبهم ؟

ونقـول : الـذى لا يفهـم عليـه أنْ يتقبَّل التعليـم ، لكن هـؤلاء لم يفهموا ولم يتعلموا وأصرُّوا على عدم قبول العلم فاستحقُّوا الخَتْم والطَّبْع على قلوبهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٤) ﴾

الحق سبحانه يصف هؤلاء المنافقين بصفات متعددة ، منها ما يتعلق بمظهرهم البدنى ، فهم : ﴿ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ .. (٤) ﴾ [المنافقون] ومنها منطقهم وقولهم ﴿ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ .. (٤) ﴾ [المنافقون]

وهم كالخُشُب المسنَّدة ، ثم إنهم لنفاقهم وخَوْفهم من انكشاف أمرهم : ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ .. (٤) ﴾ [المنافقون]

وقد كان نفاقهم دليلاً على قوة الإسلام وقوة المسلمين فى المدينة ، فكانوا يأتون بأقوال وبأفعال تُعجب من يُنافَق ، ولذلك لم ينشأ النفاقُ فى مكة وإنما نشأ فى المدينة .

فالإسلامُ كان ضعيفاً فى مكة ، والضعيفُ لا ينافقه أحد ، والإسلام فى المدينة أصبح قوياً ، والقوى هو الذى ينافقه الناس .

فوجود النفاق فى المدينة كان ظاهرةً صحية تدلُّ على أن الإيمان أصبح قوياً بحيث يدعيه مَنْ ليس عنده إسلام .

وهؤلاء كانوا يقولون قَوْلاً حَسَناً جميلاً ، وقد يفعلون أمام مَنْ ينافقونه فِعْلاً يُعجب مَنْ يراهم أو يسمعهم ، ولكنهم لا يثبتُون على الحق ، فإذا ما تولوْا أى اختفَوْا عن أنظار مَنْ ينافقونه رجعوا إلى أصلهم الكُفْرى .

فكأنّ المظهر الذى يقول أو يفعل به ينافى التقوى لأنه قَوْلٌ معجب لا ينسجم مع باطن غير معجب ، صحيح أنه يصلى فى الصف الأول ويتحمَّس لقضايا الدين ، ويقول القول الجميل الذى يُعجب المؤمنين لكنه سلوك وقَوْل صادرٌ عن نِيَّة فاسدة .

والمؤمن لابدَّ وأنْ تكونَ عنده فِطْنة وذكاء وألمعية ويرى تصرفات المقابل

فـلا يـأخـذ بظاهـر الأمر ولا بمعسُـول القـول ولا بـالفعل ، إنـهْ لم يصادف فيه انسجام فِعْل مع انسجام قَوْل .

والحـق سبحانـه يكشـف لنـا واقعَ المنـافقـين بتجارب عمليـة حتى لا يقول واحـد منهـم : لستُ منـافقاً . وعندما يظهر الله المنـافـق ويكشفه بحادثة مُدويَّة فعلية ومُخجلة تُبيِّن أنه منافق ، فيكون قد وُصِم بالنفـاق .

فكثـيرٌ مـن النـاس الذيـن يظلُّون طوال عمرهـم يُنـافقون اعتمـاداً على أنهم مسلمون فى الظاهر لا يتركهم الله ، بل لابدّ أنْ يـأتـى الله لهم بخـاطر من الخواطر ويقعـوا فى فخّ اكتشاف المؤمنين لهم حتـى يعرفهم المؤمنون ويُقيّموهم على حقيقتهم .

فالمؤمـن حـين يجلس مع جماعـة من المنـافقين ويـأتى وقـت صلاة الظهر ويدعـو الأذان إلى الصـلاة تجد المؤمن يقول : فَلنقُـمْ إلى الصلاة ، وهنـا يسخر المنـافق ويقول للمؤمن : لتـأخذنى على جنـاحك للجنة يوم القيـامة .

أو عندمـا يدخل مؤمن على جماعة من النـاس فيهم منـافق ، فيستقبل المنـافقُ المؤمـنَ بلهجة من السُّخرية فى التحية : كيف حـالك يـا شيخ فلان ؟ معنى ذلك أنه غير مستريح لوجود المؤمن فيسخر منه .

والمنـافقـون لا يـألُـون فى مؤمـن إلاًّ[1] ولا ذمة ، وهذا يتضـح معنـا فى تلك القصـة التـى أوردهـا المفسرون فـى صحبة زيد بن ثـابت رضـى الله عنه لأحد هـؤلاء الذيـن يُبطنـون النفـاق والعـداوة ، ويُظهـرون الالتـزام بـالإسلام وهم يُضمرون الشرَّ فأراد قَتْل زيد .

---

(١) الإلّ : بكسر الهمزة وتشديد اللام : العهد . والإلّ : القرابة . ويقول تعالى : ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً (١٠) ﴾ [التوبة] أى : لا يراعون فى مؤمن عهداً ، أو لا يُراعون قرابة ولا أماناً ولا كفالة ولا حرمة [القاموس القويم ١/ ٢٥] .

فقد خرج زيد بن ثابت مع منافق من مكة إلى الطائف فبلغا خَربة فقال المنافق : ندخل هاهنا ونستريح ، فدخلا ونام زيد فأوثق المنافقُ زيداً وأراد قَتْله ، فقال زيدٌ : لِمَ تقتلني ؟ قال : لأن محمداً يُحبك وأنا أبغضه .

فقال زيد : يا رحمن أغثني . فسمع المنافقُ صوتاً يقول : ويحك لا تقتله . فخرج من الخربة ونظر فلم يَرَ أحداً . فرجع وأراد قتله فسمع صائحاً أقربَ من الأول يقول : لا تقتله فنظر فلم يجد أحداً .

فرجع الثالثة وأراد قَتْله فسمع صوتاً قريباً يقول : لا تقتله .

فخرج فرأى فارساً معه رُمْحٌ ، فضربه الفارس ضَرْبةً فقتله ، ودخل الخربة وحَلَّ وثاق زيد . وقال له : أما تعرفني ؟ أنا جبريل حين دعوتَ كنتُ فى السماء السابعة ، فقال الله عز وجل : أدرك عبدى .

وفى الثانية كنتُ فى السماء الدنيا . وفى الثالثة بلغتُ إلى المنافق[1] .

ولذلك قال تعالى : ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ .. (٤) ﴾ [المنافقون] فلا يأمن مؤمن لمنافق لا على حياته ، ولا على ماله ، ولا على عِرْضه ، ولا حتى على أفكاره وعقيدته ومبادئه .

فالمنافق استباح الكذبَ على الخالق ويظنُّ أنه غير مُطّلع عليه ، فما بالك بالكذب على العباد والتدليس عليهم ؟

ويقول تعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ .. (٣٠) ﴾ [محمد] فلو لاحظتَ كلامهم لعرفتَهم وللاحظتَ فى كلامهم لقطةً من نفاق .

---

(١) أورده فخر الدين الرازى فى تفسيره (مفاتيح الغيب) (١/١٥٤) وقد أورده بصيغة التمريض رُوى . وقد أورده عبد الرحمن الصفورى فى كتابه : « نزهة المجالس ومنتخب النفائس » (١/٨١) ونسبه للرازى فى تفسيره .

فلو شئنا أنْ نقول لك مَنْ هم لقُلْنا لك ودَلَلْناك عليهم حتى تعرفهم بأعيانهم، ولكنَّ الله ستر عليهم إبقاءً عليهم لعلهم يتوبون، ولتعرفنَّهم من فَحْوى كلامهم وأسلوبهم.

وفى هذا القول دعوةٌ لفحْص ما يقوله أهل النفاق، حتى وإنْ بدا القول على ألسنتهم جميلاً.

ويُنبِّهنا الحقُّ سبحانه إلى ضرورة الاحتياط، وأنْ يمتلك المؤمنون الفِطْنة والفراسة وصِدْق النظر إلى الأشياء، فكشف لنا سبحانه كُلَّ أوجه النفاق، فكشف منافقى المدينة حيث يوجد منافقون وغير منافقين، ومنافقى الأعراب الذين يُوجد بينهم منافقون وغير منافقين.

وعلّم الحقُّ سبحانه المؤمنين كيف يتعرَّفون على المنافقين بالمظاهر التى تكشف ما يدور فى صدورهم.

ومعنى ﴿ لَحْنِ الْقَوْلِ .. (٣٠) ﴾ [محمد] أنْ يميلوا به عن غير معناه، ومن ذلك قولهم فى السلام على رسول الله: السَّام عليكم. والسَّام هو الموت، وكما لووا ألسنتهم بكلمة (رَاعِنَا) فقالوا: رَاعُونا يقصدون الرُّعونة.

لذلك فاحذروهم، وسأفضح لكم أمرهم لتكونوا على بيِّنة من كلِّ تصرُّفاتهم وخائنات أعينهم وخائنات ألسنتهم.

ويقول الحق سبحانه: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) ﴾ [البقرة]

و ﴿ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ .. (٢٠٤) ﴾ [البقرة] هل الممنوع أنْ يُعجبك القول؟ لا يعجبنى القول ولكن فى غير الحياة الدنيا، فالقول الذى يُعجب هو ما يتعلّق

بأمر الحياة الآخرة الباقية ليضمَن لنا الخير عند مَنْ يملك الخير .

وكفى بالذى يسمع من مادح له مدحاً ، والمادح نفسه يُضمر فى قلبه كُرْهاً له ، وكفى بذلك شهادة تغفيل للممدوح ، بأنه يقول بينه وبين نفسه : «إن الممدوح غبى لأنى أمدحه وأنا له كاره وهو مصدق مدحى له» .

إن الله سبحانه وتعالى يُنبِّهنا إلى ضرورة أنْ يكون المسلمُ يقظاً وفَطِناً ، ومَنْ يقول لنا كلاماً يُعجبنا فى الحياة الدنيا نتهمه بأنَّ كلامه ليس حسناً ، لأن خَيْرَ الكلام هو ما يكون فى الأمر الباقى .

ولذلك عندما أرسل خليفة المسلمين للإمام جعفر الصادق يقول له : لماذا لا تغشانا - أى لا تزورنا - كما يغشانا الناس ؟ فكتب الإمام جعفر الصادق للخليفة يقول : أما بعد فليس عندى من الدنيا ما أخافك عليه ، وليس عندك من الآخرة ما أرجوك له .

وكأنه يريد أنْ يقولَ له : اتركْنَا وحالنا ، أنت محتاج لمَنْ يجلس معك ويمدحك وأنت لا تعلم أنَّ أول أُناس لهم رأى سيء فيك هم مَنْ يمدحونك .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٢٠٤) ﴾ [البقرة] وهذه الآية نزلتْ فى الأخنس بن شريق الثقفى واسمه أُبيّ ولُقِّب بالأخنس لأنه خنس ورجع يوم بدر ، فلم يقاتل المسلمين مع قريش واعتذر لهم بأنَّ العير قد نجتْ من المسلمين وجاءت إليهم .

وكان الأخنس ساعة يقابل رسول الله ﷺ يُظهر إسلامه ويُلين القَوْلَ للرسول ويدَّعى أنه يحبه ، والآية وإنْ نزلت فى الأخنس فهى تشمل كُلَّ منافق .

كأنَّ الحق تبارك وتعالى يُعلِّمنا أنَّ الكلام النظرى شيء ، والعمل الواقعى

شيءٌ آخر ، فقد تسمع من أحدهم الجميل من القول الذى يُعجبك ، فإذا ما جاء وقت العمل والتنفيذ لا تجد شيئاً ، لأن الكلام قد يُقال فى أول الأمر بعبارة الأريحية ، كمَنْ يقول لك : أنا رَهْنُ أمرك ورقبتى لك ، فإذا ما أحوجك الواقعُ إليه كنتَ كالقابض على الماء لا تجد منه شيئاً .

لذلك وصفهم الحق سبحانه فقال : ﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ .. (٤) ﴾ [المنافقون] فهم خُشب ، والخُشُب جمع خشبة ، فوصفهم الله بحُسن الصورة وكلامهم الجميل المعسول ولكنهم تركوا فَهْم ما يسمعون وعزفوا عن التحرك مع ما يقتضيه الإيمان والفَهْم ، لذلك كانوا بمنزلة الخشب ، كما تقول لأحدهم : «ما لك مخشِّب كده ليه ؟» .

فهو لا يريد أنْ يستجيب لما أمرتَه أو نصحتَه به ولا يريد أنْ يطيع فتجده كالخشبة جامدةً لا تتحرك ولا تستجيب ، ثم إنها خُشب مُسنَّدة ، فهى مسنودة أو مُمالة إلى حائط فهم حائط مائل ، ليس فيهم رجاءٌ ولا أملٌ .

وهم أشباهُ ناسٍ بلا أرواح ، وأجسام بلا عقول ، ولذلك قال بعضهم : خُشب جمع خشباء ، وهى الخشبة المجوَّفة المفرّغة من لُبِّها لا منفعة فيها .

كذلك المنافقون أجسام ضخمة تُعجب الرائى الناظر إليها وألسنَة فصيحة تنطق بما يريده السامع ، ولكن القلوبَ فارغةٌ من حقيقة الإيمان والطاعة .

ويقول تعالى : ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ .. (٤) ﴾ [المنافقون] وهم يتصرَّفون هكذا ، لأن الريبة تملأ أعماقهم ، وكلما رأى واحدٌ منهم مؤمناً يسير إلى ناحيته يظن أنه جاء ليؤدِّبه ضَرْباً أو قَتْلاً .

ونعلم أنَّ المريبَ يكاد أنْ يقول : خُذونى . إنه بسلوكه إنما يدلُّ على نفسه ، لقد قذف الله فى قلوبهم الرعب أى الخوف وهو جندى من جنود الله ، هذا الرعب

الـذى ألقـاه الله فى قلوبهم يملأ عليهم كيانهم كله ، فتجدهم مذعورين يملؤهم الرعب من انكشاف أمرهم .

والمقصود بـالصيحة هنـا ليستْ صيحةَ العذاب الذى كان يُنزل الله مثله على أقــوام سابقــين ، كما قـال تعالى عن قوم لوط : ﴿ لَعَمْرُكَ[1] إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ[2] يَعْمَهُونَ (٧٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣) ﴾ [الحجر]

ولكــن المقصــود صيحة التنــادى بمواجهتهــم ، والصيحة تُحـدِث رعباً فى الخصــم ، ونحن نرى هذه الأيــام بعضاً من الألعاب كلعبــة «الكاراتيه» تصدر صيحةٌ من اللاعب فى مواجهة خَصْمه ليزيد من رُعْبه .

كمــا نرى فى تدريبــات الصاعقة العسكرية نوعاً مــن الصرخات هدفها أنْ يُدخلَ المقـاتلُ الرعبَ فى قلب عدوِّه ، وكلّ ما يتطلب إرعابَ الخصم يبدأ بصيحة تُفقده توازنه الفكرى .

ويصــف الحقُّ سبحـانه سلوكَ المنـافقين ، فيقــول : ﴿ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ .. (١٩) ﴾ [الأحزاب]

فهـؤلاء تـدور أعينهم هنـا وهنـاك لا تهدأ ، إمـا من خوف ، أو من قلق ، أو من اضطـراب ، فـالهوْل والرعــب ساعة يستولى على الأعين ، فمــرة تشخصُ العين علــى مــا ترى لا تتعدَّاه إلى غيره من شدة الهول ، ومرة تدور هنـا وهنـاك تبحث عن مفرٍّ أو مخرج مما هـى فيه ، فهذه حـالات يتعرَّض لهـا الخـائفُ المفزَّع .

---

(١) لعمرك : أى لحياتك قسمى . أى أقسم بحياتك . والعَمرُ بالفتح : مدة الحياة . [القاموس القويم ٢ /٣٥] .

(٢) سكرتهم : السكرة غلبة اللذة على الشباب . ويقال : ذهب بين الصحوة والسكرة إنما هو بين أن يعقل ولا يعقل . [لسان العرب – مادة : سكر] وقال فى القاموس القويم ١ /٣٢٠ : قوله : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) ﴾ [الحجر] أى : فى غشية شهواتهم على عقولهم وغفلتهم واغترارهم بالدنيا اغتراراً يُضلهم فيعمون عن الحق .

لا تستقر أبصارهم ولا تسكُن إلى شيء ، زاغتْ أبصارهم ﴿ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ .. (١٩) ﴾ [الأحزاب] هذا حالهم عند الخوف والفزع : ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ(١) بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ .. (١٩) ﴾ [الأحزاب] ومعنى : ﴿ سَلَقُوكُم .. (١٩) ﴾ [الأحزاب] أى : آلموكم وآذوكم بألسنتهم بالتطاول بالقول والإيذاء والتأنيب .

ويقول تعالى : ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ .. (٤) ﴾ [المنافقون] فارصدوا حركاتهم حتى تأمنوا مكرهم وارصدوا كلامهم ، وارصدوا أفعالهم، ولا تجعلوهم يخرجون عن رقابتكم ، وافعلوا ما بوُسْعكم لتكونوا فى مأمن من شرورهم .

فإياكم أنْ يخدعوكم بمعسول الكلام وزَيْف الأساليب كى ترضوا عنهم ، فإنْ تحقَّق هذا الرضا منكم عنهم فهو رضا بعيد عن رضا الله ورسوله ، وليس من باطن رضا رسول الله .

وكلمة (عدو) فى ظاهرها أنها مفرد ، ولكنها تُطلق على الواحد ، وتُطلق على الاثنين ، وتُطلق على الجماعة . فتقول : هذا عدوٌّ لى ، وهذه عدوٌّ لى ، ولا تَقُلْ (عدوة) وتقول : هذانِ عدوٌّ لى ، وهاتان عدوٌّ لى ، لأن كلمة (عدو) تُطلق على الذكَر والأُنْثى وتُقال للمفرد وللمثنى وللجمع .

والحق سبحانه هنا يستخدم الضمير المنفصل (هم) ثم (الـ) التعريف فى كلمة (العدو) ، وكأنَّ الحقَّ سبحانه يحصر الأعداء جميعاً فى عدوٍّ واحد هم هؤلاء المنافقون ، لأنهم فى الحقيقة هم الأعداء الحقيقيون للمؤمنين .

---

(١) سلقوكم : سلقه بلسانه يسلقه سَلْقاً : بسط لسانه فيه بما يؤذيه [القاموس القويم ١/٣٢٣] سلقه بلسانه : أسمعه ما يكره فأكثره . ﴿ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ .. (١٩) ﴾ [الأحزاب] أى : بالغوا فيكم بالكلام وخاصموكم فى الغنيمة أشد مخاصمة وأبلغها . [لسان العرب – مادة : سلق] .

فهـؤلاء المنافقون يفتنون الناسَ فى دينهم ويُوقعون الفتنة بين المسلمين ويميـل لهـم ضعـافُ العقيدة والقلـوب ، ويشقُّون صَـفَّ المؤمنـين ، ويُشِيعون الأفكار الضالَّة بينهم .

والعـدو هـو الخَصْم الذى يريـد إلحاقَ الأذى والضـرر بـك ، وإذا كان العدوُّ الظاهر شَرُّه واضح ، فالعدو الخفيّ شَرٌّ من العدو الظاهر ، لأننا نكون على حذر مـن العـدو الظاهر ، لكننا لا نأخـذ الحذر من العدو الخفـيِّ ، وهو يعرف ما فى نفسـى ويعرف كُلَّ تحركاتى ويستطيع أنْ يغـدرَ بى فى أىِّ وقت دون أنْ يكون مُنتبهاً لهذا الغدر .

والعداوة تُؤدِّى بنا إلى نشاط وتنبُّه ، فالمستشرقون مثلاً يُعادون الإسلام ، ولكن معاداتهم هذه تُعطينا نشاطاً لكى نبحثَ ونطّلع حتى نردَّ عليهم ، وجنود الشيطـان مـن الإنس يُعـادُون المؤمنـين ، وعداوتهم هـذه تُعطينا مناعـةَ ألاَّ نُخطيء ، ولا نغفل ، فأنت ما دام لك عدوٌّ فحاول أنْ تتفوق عليه بكلِّ السُّبل .

لذلـك تجد رُوحَ الإيمان تقْوَى حين يُهاجَـم الإسلام من أىِّ عدوٍّ من أعدائه ، وتجد الإسلامَ قد استيقظ فى نفوس الناس ، فلو لم يُوجد فى الكون آثارٌ ضارَّةٌ للشرِّ لما اتجه الناسُ إلى الخير .

وكلمة (عدو) تعنى وجود صراعٍ ، فالمؤمن سيدخل مع المنافقين فى صراع ، وهـو صـراع بين الحق والباطل فى المبادىء والقيـم ، وهو صراعٌ لا يهدأ أبداً ، لأنه صراعُ أهواءٍ تتحكَّم فى البشر ، ولذلك يختلفون اختلافات عميقة .

وتستعر العداوة وتزكو نارُها ويحتدم بينهما صراعٌ ، والحق سبحانه يقول:
﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ .. (٦٠) ﴾ [الأنفال]

وهــذه لَفْتةٌ من الحق سبحـانـه وتعـالى إلى أنَّ أعداء المسلمين ليسوا هم فقط الذين ظهروا أثناء الرسالة من كفار قريش واليهود والمنـافقين وغيرهـم ، ولكنَّ هنــاك خَلْقاً كثيراً سيأتُون بعد ذلك أو مع ذلك لا تعلمونهم ، ولكن الله سبحانه وتعالى يعلمهم .

كمــا يلفتنـا سبحانــه إلى أنَّ أعداء المسلمـين ليسوا هم الذيـن يظهرون فى ميـدان القتال فقط ليحاربوا المسلمـين ، ولكن هنـاك كثيراً ممَّنْ لا يظهرون فى ميدان القتـال يحاربون دين الله ويحاربون المسلمين .

فكُـنْ صالحــاً فى أىِّ وقت أمــام أىِّ عـدو ستجد الله وهو يتـولاَّك بـالنصر ، واعلـم أنَّ المنـافق شَرٌّ من الكـافر ، لأن الكـافرَ يعلن عداءه للدين فـهو عدوٌّ ظاهرٌ لـك فتـأخـذ حذْرك منــه ، أما المنـافق فهـو يتظـاهر بـالإيمــان فتـأمن له ويكون إيذاؤُه لك أكبَر وقدرتُه على الغَدْر أشدَّ .

لذلك قـال تعـالى هنـا : ﴿ **هُمُ الْعَدُوُّ** .. (٤) ﴾ [المنافقون] فـإذا كنتم تظنون أنَّ الكافريــن هم أعداؤكم فلا تغفلوا عن أنَّ المنـافقين هم العدو الحقيقى وتجمعتْ عداواتهم كلُّها فـأصبحتْ عداوةً واحدةً ، وأصبح العدوُّ واحداً مُتمثِّلاً فيهم .

ثــم يقول تعــالى : ﴿ **فَاحْذَرْهُمْ** .. (٤) ﴾ [المنافقـون] وأَخْذ الحذر من الأعداء مفروغٌ منه ، ولكن الحق سبحـانه ينصُّ عليه هنـا فى حَقِّ المنـافقين .

والمنـافقـون يشعـرون فى داخـل صدورهــم أنَّ كُلَّ مسلم فى قلبــه شَكٌّ من نـاحية تصرُّفـاتهم ، والمؤمنون قد متّعهم الله بمناعة إيمانية فى صدورهم فلا يُصدِّقـون ما يقوله المنـافقون حتى يأخذوا حذرهم ويكونوا بمنجاة مما يُدبِّره هؤلاء المنـافقون من أذى .

ولذلك حذر سبحـانه وتعـالى المؤمنين من تصديقِ كلام المنـافقين حتى ولو حلفوا .

﴿ قَاتَلَهُمُ اللهُ .. (٤) ﴾ [المنافقون] أي : لعنهم الله وطردهم ، وأنت إذا رأيت فعْلاً قبيحاً من فرد تقول : قاتله الله لأنَّ حياته تزيد المنكرات .

﴿ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٤) ﴾ [المنافقون] وكلمة (أنَّى) تردُ بمعنيين ، فمرة تعنى: من أين ؟ ومرة أخرى تعنى : كيف ؟ ومثال المعنى الأول قوله سبحانه على لسان سيدنا زكريا عليه السلام لما دخل على مريم البتُول ﴿ أَنَّى لَكِ هَـٰذَا .. (٣٧) ﴾ [آل عمران] أى : من أين لكِ هذا ؟

أما هنا فبمعنى كيف ، ومثلْها قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ[1] قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠) ﴾ [التوبة]

أى : كيف يعدلون عن الحقِّ ، فما كان يصحُّ أنْ تغيبَ عنهم الحقيقة التى تُوجبها الفطرة الإيمانية ، وكيف يضلُّون عن الحق وهو ظاهر ويعدلون إلى الباطل .

ومَنْ يقدر على مقاتلة الله له ، ومثال هذا قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ .. (٢٧٩) ﴾ [البقرة]

وحَرْب الله لا نقول منها إلا قَوْل الله : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ .. (٣١) ﴾ [المدثر] ، ولا أحدَ يستطيع أنْ يحتاط لها ، وأمّا حرب رسول الله ﷺ وحرب المؤمنين للمنافقين ، فهذا هو الأمر الظاهر .

كأن الله سبحانه يُجرِّد على المنافقين تجريدةً هائلة من جنوده التى لا

---

(١) يضاهئون : يحاكون ويشابهون ويقولون مثله . [القاموس القويم ٣٩٦/١] قال الليث : المضاهاة مشاكلة الشيء بالشيء . وقال أبو إسحاق : معنى يُضاهون قول الذين كفروا أى يشابهون فى قولهم هذا قول من تقدَّم من كفرتهم ، أى إنما قالوه اتباعاً لهم [لسان العرب – مادة : ضها] .

يعلمها إلا هو كما جرَّد على المرابين .

ويقول سبحانه : ﴿ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٤) ﴾ [المنافقون] أى : كيف ينصرفون عن الله وينصرفون عن الحق ، والإفْك صَرْف الشيء عن وجهه لذلك سُمّى الكذبُ إفكاً ، لأن الكاذب يخبر بقضية تخالف الواقع فيأتى بها على غير وجهها ، أو يُوجدها وهى غير موجودة أو يُنكر وجودها ، والمنافق كاذب .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى (٥٣) ﴾ [النجم] وهى القرى التى قلبها الله فجعل عاليها سافلها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (٥) ﴾

لقد كان أهلُ يثرب يستعدون لتنصيب عبد الله بن أُبيّ بن سلول ملكاً على يثرب حينما جاءها رسول الله ﷺ مهاجراً من مكة إلى المدينة[1] .

فلما جاء رسولُ الله المدينةَ انفضَّ الناسُ عن ابن أُبـيّ ، وتوجهتْ الأنظارُ إليه ﷺ ، فغضب ابنُ أُبيٍّ وازداد كرهه لرسول الله وسعى لمحاربته ومناوأته ، وحسده على ما نال من حُبِّ الناس والتفافهم حوله .

ففى اليوم الذى دخل فيه رسول الله كانوا يصنعون لعبد الله بن أبيّ تاجاً ليُنصِّبوه ملكاً على المدينة ، فلما فُوجيء برسول الله واجتماع الناس عليه وانفضاضهم من حوله بقيتْ هذه فى نفسه .

---

(١) أورد ابن جرير فى تفسيره (٣٤٤٩٤) عن محمد بن إسحاق خبراً طويلاً فيه أن أسيد بن حضير قال لرسول الله : يا رسول الله ارفق به ، فوالله لقد جاء الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه ، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً . ومثله فى أسباب النزول للواحدى النيسابورى وكذلك البيهقى فى (دلائل النبوة) (٤/٥٣).

وحدث أن اجتمع الكافرون عند جبل أُحُد لمحاربة رسول الله فى ثلاثة آلاف مقاتل ، واستشار النبى ﷺ فى هذه المسألة أصحابه ، وأرسل إلى عبد الله بن أبيّ بن سلول ، وما استدعاه إلا فى هذه المعركة .

فقال عبد الله بن أُبيِّ بن سلول وأكثرُ الأنصار : يا رسولَ الله نحن لم نخرج إلى عدوٍّ خارج المدينة إلا نَالَ منَّا ، ولم يدخل علينا عدو إلا نِلْنَا منه .

فإنّا نرى ألاَّ تخرج إليهم فإنْ أقاموا أقاموا بشَرٍّ محبسٍ ، وإنْ دخلوها قاتلهم الرجالُ فى وجوههم ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإنْ رجعوا رجعوا خائبين .

وأشار آخرون من الصحابة بالخروج إليهم وقالوا : يا رسول الله ، اخرجْ بنا إلى أعدائنا لا يرون أنّا جبُنَّا عنهم وضعُفْنا .

ولم يترك أصحابُ هذا الرأى رسولَ الله حتى وافقهم على ما أرادوا ، فدخل رسولُ الله ﷺ بيته ، فلبس دِرْعه وأخذ سلاحه ، وظَنَّ الذين ألَحُّوا على رسول الله بالخروج أنهم قد استكرهوه على ما لا يريد فندموا على ما كان منهم .

ولما خرج عليهم قالوا : «استكرهناك يا رسول الله ولم يكُنْ لنا ذلك ، فإنْ شئتَ فاقْعُدْ ، فقال رسول الله ﷺ : ما ينبغى لنبيٍّ لبس لأمته[1] أنْ يضعها حتى يقاتل»[2] وخرجوا إلى الحرب .

وعندما نتابع هذا المنطق فى القصة فى ذاتها نجد أن ابنَ أُبيٍّ كان من رأيه

---

(١) اللأمة هى الدرع . ولأمة الحرب : أداتها . وقال بعضهم : اللأمة الدرع الحصينة ، سميت لأمة لإحكامها وجودة حلقها . وقيل : سميت لأمة لأنها تلائم الجسم وتلازمه . [لسان العرب – مادة : لأم] .

(٢) أورده أبو عمر بن عبد البر فى كتابه (الدرر فى اختصار المغازى والسير ١/١٤٥) فى كلامه عن غزوة أحد ، وفيه أن المسلمين قالوا : يا رسول الله إن شئت فارجع فقال رسول الله ﷺ : « ما ينبغى لنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل » . وكذا فى الرحيق المختوم للمباركفورى (١/٢١٥) والسهيلى فى الروض الأنف (٣/٢٤٣) .

أنْ يظلَّ رسولُ الله فى المدينة ، لماذا ؟ لأنه قد ثبت بالتجربة أنه إذا جاء قومٌ ليُغيروا على المدينة ودخلوها فأهْلُ المدينة ينتصرون عليهم ، وإذا خرج لهم أهل المدينة فهم ينهزمون .

إذن فالقضية واضحةٌ فى ذِهْن ابن أُبيٍّ ،فهو لم يَرْضَ أنْ يخرج لأن التجاربَ أثبتتْ له أنهم إذا خرجوا عن المدينة ليحاربوا العدو فعدُّوهم ينتصر عليهم، وإذا ظلُّوا انتصروا ، إذن فهو واثق من نتيجة الخروج .

ولكن ما دامتْ المسألة قد صدرتْ من رأس النفاق عبد الله بن أُبيٍّ فأنت لا تستطيع أنْ تحكمَ أين الحق ، فمن الجائز أنَّ آثار يوم الهجرة من مكة إلى المدينة ، كانت باقية فى نفس ابن أُبيٍّ .

ففى ذلك اليوم الذى جاء فيه الرسولُ إلى المدينة كان هو اليوم الذى كان سيُتوَّج فيه المنافق (ابن أُبيٍّ) ليكون مَلِكاً على المدينة ، فلما جاء الرسولُ بهذا الحدث الكبير تغيَّر الوضع وصار التاجُ من غير رأسٍ تلبسه ، فهذه قد حملها فى نفسه .

وقد قال الحق سبحانه : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨) ﴾ [آل عمران]

فعندما أراد ابن أُبيٍّ أنْ يخذلَ الجيش وافقه بعض المنافقين ولم يوافقه البعضُ، هؤلاء الذين خرجوا للقتال والجهاد ولم يُوافقوهم ثم قتلوا فرحوا فيهم ، وقالوا : لو كانوا أطاعونا ومكثوا فى المدينة ولم يخرجوا لَمَا انهزموا ولَمَا قتلوا .

وكأنَّ الحق سبحانه يُوضِّح لنا أسلوبهم ، لذلك سنأخذهم من منطقهم .. هم قعدوا وقالوا عن إخوانهم الذين قُتلوا فى المعركة والذين هم من جماعتهم ﴿ لَوْ أَطَاعُونَا .. (١٦٨) ﴾ [آل عمران]

كأنَّ قولاً صدر منهم : أنِ اقعدوا . ولكن القوم الآخرين الذين هم أقلُّ نفاقاً لم يُطاوعوهم وخرجوا ، فحدث لهم ما حدث .

فكيف يردُّ الله على هذه ؟ انظروا إلى الردِّ الجميل : أنتم تقولون : ﴿ لَوْ أَطَاعُونَا .. (١٦٨) ﴾ [آل عمران] فكأنَّ طاعتكم كانت وسيلة لسلامتهم من القتل . إذن : فأنتم تعرفون طريق السلامة من القتل .

والذى يعرف طريق السلامة من القتل هل يعرف طريق السلامة من الموت؟ ولذلك يقول الحق سُخريةً بهم : ﴿ فَادْرَءُوا[1] عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨) ﴾ [آل عمران] ففى ذلك رَدٌّ عليهم من كلامهم ﴿ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا .. (١٦٨) ﴾ [آل عمران]

فقلبُ عبد الله بن أُبيِّ بن سلول امتلأ حقداً فكانت ظلمة ، وملأت الحسرةُ قلبه فكانت ظلمة ، وملأتْ الكراهيةُ والبغضاء قلبه فكانت ظلمة ، فهى ظلماتٌ متعددة .

وقد كان ابن أُبيّ رأسَ النفاق فى المدينة ، ومن مواقف نفاقه ما ذكره حديث أنه لما قدم رسولُ الله المدينة - يعنى مرجعه من أُحُد ، وكان عبد الله ابن أُبيّ بن سلول له مقام يقومه كلَّ جمعة لا ينكر شرفاً له من نفسه ومن قومه وكان فيهم شريفاً .

---

(١) ادرءوا : الدرء الدفع . وفى الحديث « ادرءوا الحدود ما استطعتم » . وتدارأتم أى اختلفتم وتدافعتم . أدرؤه درءاً : دفعته . وتدارأ القوم : تدافعوا فى الخصومة . [لسان العرب - مادة : درأ] .

كان ابن أبيّ إذا جلس النبيُّ ﷺ يوم الجمعة وهو يخطب الناسَ قام ، فقال: أيُّها الناسُ ، هذا رسولُ الله بين أظهركم أكرمكم الله به وأعزَّكم به فانصروه وعزِّروه واسمعوا له وأطيعوا .. ثم يجلس .

حتى إذا صنع يوم أُحُد ما صنع ، يعنى مرجعه بثلث الجيش ورجع الناس، قام بفِعْل ذلك كما كان يفعله ، فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه ، وقالوا: اجلس أىْ عدوَّ الله لسْتَ لذلك بأهْلٍ وقد صنعتَ ما صنعتَ ، فخرج يتخطّى رقابَ الناس وهو يقول : والله لَكأنَّما قلتَ بُجراً[1] أن قمتُ أشْدُدْ أمره .

فلقيه رجالٌ من الأنصار بباب المسجد ، فقالوا : ويلك مالك ؟ قال : قُمْتُ أشدُد أمره فوثب عليّ رجالٌ من أصحابه يجذبوننى ويُعنِّفوننى لكأنما قلتُ بجراً أنْ قمت أشدد أمره .

قالوا : ويلك ارجع يستغفر لك رسولُ الله . قال : والله ما أبتغى أنْ يستغفر لي[2] .

لقد أراد أنْ يقوم بعدما رجع رسولُ الله من غزوة أُحُد ليقول نفس الكلام ونفس المقالة رغم أنه ارتكبَ كبيرةً من الكبائر وهو الفرارُ من الزحف والانسحاب بثُلث الجيش الذى خرج ليواجه الكافرين فى غزوة أحد .

فالتولِّى يوم الزحْف إحدى الموبقات التى أمر الرسولُ ﷺ باجتنابها حيث قال : «اجتنبوا السبع الموبقات . قالوا : يا رسول الله وما هُنَّ ؟ وذكر منهن : التولِّى يوم الزحف»[3] .

---

(١) بُجراً : البجارى أى الدواهى . والبُجر : الشر والعجب والأمر العظيم . [المعجم الوسيط] .

(٢) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٣/٣١٨) من حديث محمد بن شهاب الزهرى مرسلاً .

(٣) عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : اجتنبوا السبع الموبقات . قالوا : يا رسول الله وما هنّ ؟ قال : الشرك بالله والسحر وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٧٦٦) ومسلم فى صحيحه (٢٧٢) .

قال تعالى فى شأن هذا ﴿ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦) ﴾ [الأنفال]

فالمنسحب الفارّ الذى يصحبه فى انسحابه غضبٌ من الله ، والفارّ من مواجهة العدو فى معارك الإسلام لن يجد مأوىً إلا النار ، وحين تكون النارُ هى المأوى ، أليس ذلك هو بئس المرجع ؟

كأن الراجع من الزحف والفَارّ من مواجهة الأعداء ومخافة أنْ يُقتل سيذهب إلى شيء شَرٍّ من القتل .

لقد صدق فى ابن أُبيٍّ بن سلول قَوْل الحق سبحانه : ﴿ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ .. (٤) ﴾ [المنافقون] فقال عن رسول الله كلاماً جميلاً معسولاً ، وظن أنَّ هذا سيقبله المسلمون وسيمرُّ عليهم .

«حتى إذا صنع يوم أُحد ما صنع يعنى مرجعه بثلث الجيش ورجع الناس، قام بفعل ذلك كما كان يفعله ، فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه وقالوا :

اجلس عدوَّ الله لسْتَ لذلك بأهْل وقد صنعتَ ما صنعتَ فخرج يتخطّىَ رقاب الناس وهو يقول : والله لكأنّما قلت بُجراً أنّ قمتُ أَشْدُد أمره .

والبُجرَ جمع بُجرة ، وهى نتوء السُّرة يُعبَّر بها عن العيوب ، أى : كأننى قلتُ كلاماً معيوباً أنْ قُمْتُ أشدُدْ به أمره .

وهو قال ما قال نفاقاً ومُداراةً لما ارتكبه من التولِّى يوم أُحد وانسحابه بثُلث الجيش بعد أنْ خرج لملاقاة أهل قريش مع رسول الله وأصحابه ، وما دام يريد أنْ يشدُد أمر رسول الله ، فلماذا لم يشدد أمره فى ساحة القتال وعلى أرض الواقع ، لماذا انسحب وكشف المسلمين ؟

ألم يدرك أنَّ أهلَ قريش لو انتصروا سيكون هذا وبالاً على كلِّ أهل المدينة، فإذا انتصروا سيدخلون المدينة ويَسْبُون مَنْ فيها ويأخذون أسرى ويقتلون ويفعلون كلَّ منكر.

ولذلك قال عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري[١] للمنافقين: اخرجوا وقاتلوا معنا، وإنْ لم تخرجوا لتقاتلوا معنا اخرجوا لتدفعوا عن أنفسكم وعن أموالكم وعن نسائكم لأنهم إذا انتصروا على المسلمين فسيدخلون ويفعلون كذا وكذا[٢].

إنه دعاهم إلى القتال على طريق إثارة الحميّة والأَنَفة فيهم، وذلك بعد أنّ يئس من أنهم لن يقاتلوا في سبيل الله، ولما رأى إصرارهم على عدم الخروج قال لهم عبد الله: اذهبوا أعداءَ الله فسيغني اللهُ رسوله عنكم.

وقد قال تعالى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) ﴾ [آل عمران]

إن الحقَّ سبحانه يفضحهم ﴿ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ.. (١٦٧) ﴾

---

(١) هو عبد الله بن عمرو بن حرام بن ثعلبة، أبو جابر الأنصارى الخزرجى السلمى صحابى من أجلائهم، كان أحد النقباء الاثنى عشر، وشهد العقبة مع السبعين من الأنصار وبدراً وقتل يوم أحد سنة ٣ هجرية. [الأعلام للزركلى ٤/١١١].

(٢) ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٦٤) فى خروج رسول الله لأُحد وكان عبد الله بن أبى بن سلول يعارض الخروج من المدينة للحرب، ولكن رسول الله نزل على رأى الشباب « حتى إذا كانوا بالشوط بين المدينة وأحد انخذل عنه عبد الله بن أبى بن سلول بثلث الناس وقال: أطاعهم وعصانى، ما ندرى علام نقتل أنفسنا هاهنا، أيها الناس فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق والريب واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام أخو بنى سلمة يقول: يا قوم أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبيكم عندما حضر من عدوهم، فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم ولكنا لا نرى أنه يكون قتال. قال: فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف عنهم. قال: أبعدكم الله أعداء الله فسيغنى الله عنكم نبيه» وأخرجه الطبرى فى تفسيره (٨٢٣٦).

[آل عمران] فقبل ذلك كانوا فى نفاق مستور ، وما دام النفاقُ مستوراً فاللسان يقول ، والقلب ينكر ويجحد ، فهم مُذبذبون بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، هذه المسألة جعلتْه قريباً من الكفر الظاهر .

فلقيه – أى ابن أبيٍّ – رجالٌ من الأنصار بباب المسجد فقالوا : ويلك مالك؟ قال : قمتُ أَشْدُد أمره فوثبَ عليَّ رجالٌ من أصحابه يجذبوننى ويُعنِّفوننى لكأنما قلتُ بُجراً أنْ قمتُ أشدد أمره .

قالوا : ويلك ارجع يستغفر لك رسولُ الله . قال : والله ما أبتغى أنْ يستغفر لى .

فذلك قوله تعالى هنا : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٥) ﴾ [المنافقون]

فالقرآن الكريم يُعطينا صورة للإعراض عن الحقِّ والجدل ، فيقول : ﴿ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ .. (٥) ﴾ [المنافقون] ، والإعراض عن الحق دائماً يبدأ بليِّ الرأس ثم الجانب ثم يعطيك دُبره وعَرْض أكتافه ، هذه كلُّها ملاحظ للفرار من الجدل حين لا يَقْوى على الإقناع .

وذلك مثْلُ قوله ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِ[1] لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩) ﴾ [الحج]

فـ (ثانى) ثنى الشيء يعنى لواه . وعِطْفه يعنى جنبه . فالذى يجادل فى الله عن غير علم ولا هُدىً ولا كتاب مُنير يثنى عنك جانبه ويلوى رأسه ، لأن الكلام لا يعجبه ليس لأن كلامك باطل إنما لا يعجبه لأنه أفلسَ ، وليستْ لديه الحجة

---

(١) العطف : الجانب : عطفا الإنسان : جانباه . [القاموس القويم ٢ / ٢٥] قال قتادة : ثانى عطفه : هو المعرض من العظمة إنما ينظر فى جانب واحد . وقال ابن زيد : لاوى رأسه معرضاً مولياً لا يريد أن يسمع ما قيل له .

التى يُواجهك بها ، فلا يملك إلا هذه الحركة .

وهم إنما دعوْهُ ليرتفع لما هو أعلى ممَّا هو فيه ، لذلك قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا .. (٥) ﴾ [المنافقون] ومعناها : ارتفعوا من موقعكم الهابط ، فالمنهج جاء ليعصمنا من السقوط .

ومثلها قوله سبحانه : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ .. (١٠٤) ﴾ [المائدة] أى : ارتفعوا من حضيض ما عندكم إلى الإيمان بمنهج السماء ، وارتفعوا إلى مستوى التلقِّى من الله ولا تتبعوا أهواءكم وآراء بعضكم أو تشريع بعضكم .

وابنُ أُبيٍّ قالوا له : تعالَ يستغفر لكم رسولُ الله ، واستغفار رسول الله رحمةٌ لمَنْ يستغفر له وذهاب بذنوبه .

والله عزَّ وجلَّ يقول : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (٦٤) ﴾ [النساء]

فالأمر يحتاج ممَّنْ ظلم نفسه بالمعصية والاجتراء على أوامر الله والإضرار بالمسلمين أنْ يتوبوا أولاً عما اقترفوه ، وبعد ذلك يستغفرون الله ، وتطيب نفسُ رسول الله فيستغفر لهم ، واستغفارُ رسول الله هو دعاءٌ لله عزَّ وجلَّ أنْ يغفر لهم.

ولكنهم أركسوا ونكسوا فى الأرض وانقلبتْ الأمور عندهم ، فكان ردّ فعلهم على دعوتهم للمجيء لرسول الله ليستغفر لهم أنْ : ﴿ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ .. (٥) ﴾ [المنافقون]

﴿ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (٥) ﴾ [المنافقون] ، ومثلها قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ

صُدُودًا (٦١) ﴾ [النساء]

أى : يُعرضـون عنـك . وهنـا الصَّدُّ هـو الإعراض والتولِّى عـن اتباع الحق ، أمـا الصَّدُّ عن سبيل الله فهو صَدُّ الغـير ومنعه من أنْ يتبع سبيلَ الله ومنهجه ، والصَّادُّ عن سبيل الله أكبر وأعظم جُرْماً لأنه صَدَّ وأعرض فى نفسه ولم يكتفِ بهذا بل صَدَّ غيره .

والصَّادّ الـذى يصدّ عن الحق يفعله وهـو مُستكبر ، فهـو يستكبر عن اتباع الحق ويرى نفسه أعلى وأكبر ممَّنْ يدعوه إليه ، وابنُ أبيّ وبعضُ زعماء النفاق كانوا يروْنَ أنفسهم أعلى وأحقّ من رسول الله .

لذلـك رفضوا أنْ يجيئوا لرسول الله ليستغفر لهـم ، بل لووا رؤوسهم وصَدُّوا واستكبروا .

واستكـبر أى نصَّب من نفسه كبـيراً دون أنْ يملك مقوِّمات الكبير ، وصفـات وكمـالات الكـبر ليسـتْ ذاتية فـى أىِّ منَّا ، وقـد تُسلب ممَّنْ فـاء اللهُ عليه بها ، ولذلك يصبح من اللائق أنْ يتواضعَ كُلٌّ منَّا ، وأنّ يستحضر ربَّه ، وأنْ يتضاءلَ أمام خالقه .

فهـذا عند تذكـيره بآيات الله ورسوله ﴿ وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٧) ﴾ [لقمان]

ومعنـى (ولَّى) أى أعرض وأعطانا عرض أكتافه ﴿وَلَّى مُسْتَكْبِرًا.. (٧) ﴾ [لقمان] أى : تكبَّر على ما يُدعى إليه . واستكباره فى غير محلِّه ، والمستكبر دائماً إنسانٌ فى غفلةٍ عن الله لأنه نظر إلى نفسه بالنسبة للناس وغفلَ عن الله .

ولـو استحضر جلالَ ربِّه وكبرياءه سبحانه لاستحـى أنْ يتكبَّر ، فالكبرياء

صفةُ العظمة وصفةُ الجلال التى لا تنبغى إلا لله تعالى ، فكبرياؤه سبحانه شرفٌ لنا وحماية تمنعنا أنْ نكونَ عبيداً لغيره سبحانه .

وهذا المستكبر استكبر عن سماع الآيات ﴿ كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا .. (٧) ﴾ [لقمان] أى : ثِقَلٌ وصَمَم .

قالوا : ويلك ارجع يستغفر لك رسولُ الله . قال : والله ما أبتغى أنْ يستغفر لى .

إنه الحسد والحقد الذى ملأ قلبه بظلمات النفاق والكِبْر والدَّسّ على المسلمين ﴿ حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ .. (١٠٩) ﴾ [البقرة] . ويقول تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ .. (٥٤) ﴾ [النساء]

والحسد هنا لرسول الله ﷺ ، لأن ربَّنا قد اصطفاه واختاره للرسالة ، والحسد لا يتأتَّى إلا عن قلب حاقد ، قلْبٍ متمرد على قسمة الله فى خَلْقه .

والحسد هو تمنّى إنسانٍ زوالَ نعمة غيره ، وهو رَدٌّ لقدر الله فى خَلْق الله ، وقلبُه يحترق حِقْداً ، وابنُ أبيٍّ كان مثالاً واضحاً على هذا .

وهؤلاء لن يغفر الله لهم ، يقول الحق سبحانه :

﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ ﴾

أى : مهما استغفرتَ لهم فلن يغفر الله لهم ، ويقول تعالى فى آية أخرى : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٨٠) ﴾ [التوبة]

والأمر هنا له شقَّان : الشقّ الأول أنْ يغفر الله لهم . والشقّ الثانى : هو مجاملة رسول الله ﷺ لعبد الله بن عبد الله بن أبيّ الابن المؤمن لأب منافق ، فهو ﷺ يعلم أن الله لن يغفر للمنافقين .

وهناك استغفارٌ تنشأ عنه المغفرة ، واستغفار ينشأ عنه إرضاء عبد الله بن عبد الله بن أبيٍّ .

ثم إن الذى يريد أنْ يتوب ويستغفر لا يستغفر له رسول الله ﷺ إلا إذا استغفر مرتكبُ الذنب أولاً ، فلا بُدَّ أنْ يستغفروا الله من الذنوب أولاً ثم يستغفر لهم الرسول ، ولا يستغفر لهم الرسولُ بينما هم لا يستغفرون .

ورأْسُ النفاق ابن أُبيٍّ لم يفطن إلى كيفية الاستغفار ذلك لأنه لا يريده ، فقد كان عليه أنْ يأتى لرسول الله صاغراً ليستغفر الله أمامه ، لا أنْ يبحث عَمَّنْ يطلب له الاستغفار .

ثم يأتى الحق سبحانه وتعالى مُوضِّحاً سبب عدم غفرانه لهم ، سواء استغفر لهم الرسول أم لم يستغفر لهم ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٨٠) ﴾ [التوبة] وهنا قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٦) ﴾ [المنافقون]

والحق سبحانه منع هداية معونته وتوفيقه عن ثلاثة أنواع من الناس .

منعها عن الكافرين ، فقال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧) ﴾ [التوبة] ومنعها عن الظالمين فقال : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) ﴾ [التوبة] ومنعها عن الفاسقين فقال : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤) ﴾ [التوبة]

ولكن هل هو سبحانه منع معونة الهداية أولاً ؟ أم أنهم هم الذين ارتكبوا من الضلال ما جعلهم لا يستحقُّون هداية الله ؟ إنسان واجه الله بالكفر .. كفر بالله .. رفض أنْ يستمع لآيات الله ورسله .

وهـم سبقوا بالكفر فلم يهدهم **الله** . وهم سبقوا بالظلم فلم يهدهم **الله** ، وهم سبقوا بالفسق فلم يهدهم **الله** .

وبعض الناس يقولون : إنَّ الهدى من **الله** ، ولو أن **الله** هدانى ما قتلتُ وما سرقتُ وما ارتشيْتُ . ونقول : هذا فَهْم خاطيء ولنرجع إلى القرآن الكريم .

فالحقُّ تبارك وتعالى يقول : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي .. (٨٠) ﴾ [التوبة] أى : نفى ما يستوجب الهداية عمَّنْ ظلم أو فسق أو كفر ، لأن الحق سبحانه لا يهدى مَنْ قدَّم الكفر ، أو قدَّم الظلم ، أو قدَّم الفسق ، فكأن الكافر أو الظالم أو الفاسق هو الذى يمنع الهداية عن نفسه .

ولـو قدَّم الإنسانُ الإيمانَ لدخلَ فى هداية **الله** تعالى ، فكأنَّ خروجَ الإنسان عـن مشيئـة هداية **الله** هـى مسألة من عمل الإنسان وباختيـاره ، فقد يختار الإنسانُ طريقَ الغِواية ويترك طريقَ الهداية .

لذلك لا يهديه **الله** لأنه سبحانه لا يهدى إلا المؤمن به ، وإن اختار الإنسانُ طريقَ الهداية ، فالحق يعطيه المزيد من الهدى ، لأنه آمن **بالله** فاختار طريقَ الهداية واستقبل منهجَ **الله** بالرضى .

فالحق سبحانه يهدى مَن استمعَ إلى القرآن برُوح الإيمان واستقر فى يقينه أنَّ له رباً ، واعتقد أنَّ له إلهاً .

وقد أوضح الحقُّ سبحانه أنه لا يهدى الكافرين . إذن : فهو يهدى المؤمنين، وأوضح أنه لا يهدى الظالمين . إذن : فهو يهدى العادلين ، وأوضح جَلَّ وعَلا أنه لا يهدى الفاسقين . إذن : فهو يهدى الطائعين .

فالحق سبحانه يهدى مَنْ قدَّم أسباب الهداية وأسلم مقاليد زمامه للإيمان،

والله سبحانه يقول : ﴿ وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى (٧٦) ﴾ [مريم] ويقول أيضاً : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

فالله أخبرنا مُسْبقاً بمَنْ يستحقُّ هدايته ومَنْ لا يدخل فيها وأنت باختيارك طريقك . إما أنْ تؤمن فتدخل في الهداية ، وإما أنْ تختار طريقَ الكفر والظلم والعياذ بالله فتمتنع عنك الهداية .

من كُلِّ ذلك نفهم أن العمل السابق منهم هو الذي يجعله سبحانه لا يهديهم ، فمَنْ آثر الكفر وصَمَّم ألاّ يُؤمن فهو وشأنه ، بل ويزيده الله من الكفر ويختم على قلبه ، كما قال تعالى : ﴿ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠) ﴾ [الأنعام]

فهم امتنعوا عن هداية الدلالة فامتنعتْ عنهم هداية المعونة ، فالله سبحانه هدى الجميعَ هدايةَ الدلالة والإرشاد ، فلم يأخذْ بها هؤلاء فحُرِموا هداية الإيمان .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧ ﴾

محاربةُ المنافقين للرسول ﷺ والإسلام لم تقفْ عند حَدٍّ ، وهم أخطر الأعداء لأنهم يُظهرون إسلامهم ويُبطنون كفرهم وحقدهم وحسدهم لرسول الله وللمؤمنين به .

ومـن محاربتهم لرسول الله أنهم أرادوا صَـرْف الناس عنه بشتى الوسائل ، لأن زعيمهم يريد أنْ يكونَ مَلِكاً على أهل المدينة ، فظنُّوا أنَّ مَنْ حَوْل رسول الله سينفضُّون عنه إذا قطعوا عن فقرائهم ما يرفدونهم[1] به .

لقـد غفلوا عن إيمان هؤلاء المهاجريـن الوافدين عليهم وأنهم آمنوا لا لدُنيا ولا لمـال ولا رغبـة فى تقرُّب ممَّـنْ معهم المال ، بل آمنوا رغبـةً فى رِضاء الله ورسوله .

لقـد أخطئـوا الظـنَّ بمَـنْ آمنوا برسـول الله ، ظنُّـوا أنهم إن لم ينفقـوا عليهم فسيرتـدُّون عـن إيمانهـم ، ونسُـوا أن المؤمنـين المهاجرين قد تركـوا أموالهم وتركـوا بلادهـم ، فمَنْ ترك أمواله للهجرة فى سبيل الله أيكفر به عندما لا يجد شيئاً ؟

لا ، لأنه ترك كلَّ شيءٍ فى سبيل الله .

وهـا هو ذا سيدنـا مصعب بن عمير[2] الفتى المدلَّل فـى قريش ، وكانت أمه تُغدق عليه النعمـة وهو صاحب العطور ، وبعد ذلك يذهـب إلى المدينة فيلبس جلـدَ شاةٍ يستر بـه نفسه ، فينظر لـه النبى ﷺ يقول لأصحابـه : انظروا كيف

(١) الرفد : العطاء والصلة . رفده يرفده : أعطاه . ورفده : أعانه . وترافدوا : أعان بعضهم بعضاً . والرفادة: شيء كانت قريش تترافد به فى الجاهلية فيخرج كل إنسان مالاً بقدر طاقته فيجمعون من ذلك مالاً عظيماً أيام الموسم ، فيشترون به للحاج الجُزر (الجمال) والطعام والزبيب للنبيذ ، فلا يزالون يطعمون الناس حتى تنقضى أيام موسم الحج . [لسان العرب – مادة : رفد] .

(٢) مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف قرشي من بنى عبد الدار صحابى من السابقين إلى الإسلام وأسلم فى مكة وكتم إسلامه ، أسلم على يده أسيد بن حضير وسعد بن معاذ وشهد بدراً وحمل اللواء يوم أحد فاستشهد عام ٣ هجرية . [الأعلام للزركلى ٧/٢٤٨] .

صنع الإيمان بصاحبكم ؟[١].

فعندما يقول المنافقون كعبد الله بن أبيّ للأنصار: لا تنفقوا على مَنْ عند رسول الله حتى ينفضُّوا، يظنُّونَ أنَّ المؤمنين يمكن أنْ يبيعوا إيمانهم بلُقْمة، وكأنهم نسُوا أن الذى يبيع إيمانه باللقمة هو مَنْ يُحمل على مبدأ باطل.

لكن مَنْ يعتنق ويعتقد مبدأ حَقٍّ يجد حلاوته فى النفس، وأجره مُدَّخر عند ربِّه، إنه لا يتحوَّل عنه.

قال على بن أبى طالب رضى الله عنه: «فجئتُ المسجد فطلع علينا مصعب ابن عمير فى بُرْدة له مرقوعة بفروة، وكان أنعمَ غلام بمكة وأرْفَه، فلما رآه رسول الله ذكر ما كان فيه من النعيم، ورأى حاله التى هو عليها فذرفَتْ عيناه عليه. ثم قال: أنتم اليوم خَيْر أم إذا غُدى على أحدكم بجفنة من خبز ولحم؟ فقلنا: نحن يومئذ خَيْرٌ نُكْفَى المؤنة ونتفرغ للعبادة. فقال: بل أنتم اليوم خير منكم يومئذ»[٢].

فيجب أنْ تذكروا جيداً أنَّ من حلاوة اليقين وحلاوة الإيمان أنَّ المؤمن يُضحِّى بكُلِّ شيء فى سبيل رِفْعة الإيمان، لكن أصحابَ المبادىء الباطلة لا يُدخلون غيرهم فيها إلا إنْ دفعوا الثمن مُقدَّماً، أى: أنهم يشترونهم.

---

(١) قال السهيلى فى الروض الأنف (٢/٢٥١): كان مصعب بن عمير قبل إسلامه من أنعم قريش عيشاً وأعطرهم وكانت أمه شديدة الكلف به وكان يبيت وقعب الحيس عند رأسه يستيقظ فيأكل، فلما أسلم أصابه من الشدة ما غيّر لونه وأذهب لحمه ونهكت جسمه حتى كان رسول الله ﷺ ينظر إليه وعليه فروة قد رفعها فيبكى لما كان يعرف من نعمته».

(٢) أخرجه أبو يعلى الموصلى فى مسنده (٥٠٢) وفيه أن رسول الله ﷺ قال: «أنتم اليوم خير أم إذا غدى على أحدكم بجفنة من خبز ولحم وريح عليه بأخرى وغدا فى حلة وراح فى أخرى وسترتم بيوتكم كما تُستر الكعبة؟ قلنا: نحن يومئذ خير نتفرغ للعبادة. قال: بل أنتم اليوم خير. قال حسين سليم: إسناده ضعيف. وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/٢٣١): روى الترمذى بعضه. رواه أبو يعلى وفيه راو لم يسم وبقية رجاله ثقات.

فإذا رأيتَ مبدأ من المبادىء يشترى البشر فاعرف أنه مبدأ باطل ، ولو كان مبدأ حَقٍّ لدفع الإنسان من أجل أنْ يدخل فيه نفيسَ ماله ، بل ويُضحِّى فى سبيله بنفسه أيضاً .

ومن عجائب مبادىء الإسلام أن رسول الله ﷺ حينما أخذ العهد لنفسه فى بيعة العقبة قال له الأنصار : فإنْ نحن وفَّينا بهذا فماذا يكون لنا ؟ كأنهم يقولون : أنت أخذتَ ما لك فماذا يبقى لنا ؟

انظروا إلى سُمو الإيمان ويقين المصطفى بأن الإيمان نفسه جائزة ، فهل بشَّرهم بأنه سيعطيهم الأرض ؟ هل وعدهم بأنَّ هؤلاء المستضعفين هم الذين سيُمكَّنون فيها ؟ لا بل قال لهم : لكم الجنة(١) . فلو قال لهم : لكم سيادة الدنيا لكان فى ذلك نظر .

صحيح أنَّ الدنيا دانَتْ وخضعتْ لهم ، لكن منهم مَنْ مات قبل أنْ تدنُوَ له الدنيا وتذلّ ، فأين صِدْق النبوءة ؟

إذن : فقد قال لهم عن الشيء المضمون ، الشيء الذى يجد المؤمن فيه نفسه فَوْرَ أنْ يموت ، قال لهم : لكم الجنة . فقد قال لهم رسول الله ﷺ - وحوله عصابةٌ من أصحابه - : تعالوا بايعونى على ألاَّ تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولاتزنوا ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصُونى فى معروف ، فمَنْ وفَّى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من

(١) عن محمود بن لبيد أن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله ﷺ قام العباس بن عبادة بن نضلة الأنصارى ثم أحد بنى سالم بن عوف ، فقال : يا معشر الخزرج هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم. قال : إنكم تبايعون على حرب الأحمر والأسود من الناس ، وإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة ، وأشرافكم قتلى أسلمتموه ، فمن الآن فهو والله إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف ، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفَّينا ؟ قال : الجنة . قالوا : ابسط يدك فبسط يده فبايعوه . أخرجه أبو نعيم الأصفهانى فى (معرفة الصحابة) . والسهيلى فى (الروض الأنف) (٢٧١/٢) .

ذلك شيئاً فعُوقب به فى الدنيا فهو كفارةٌ له ، ومَنْ أصاب من ذلك شيئاً فستره الله فأمره إلى الله ، إنّ شاء عاقبه ، وإنْ شاء عفا عنه[1] .

لم يُغرهـم أنهـم سيكونون أصحـاب سلطان ، ولم يقُلْ لهـم : أنتم ستجلسون علـى البُسـط والدنيـا ستديـن لكم ، إنمـا قال لهم فـى أول البيعـة : لكم الجنة . فإياكم أنْ يطمع أحدٌ منكم فى شيء إلاَّ فى الجنة .

ولذلـك فالأنصار محبوبون لرسول الله ﷺ ، ولما كانت غزوة حُنين وأعطى المهاجريـن بعضاً من الغنائم ولم يكن للأنصـار منها شيء وجد الأنصار فى نفوسهم ، فلفتهم رسول الله لفتة إيمانية وقال لهم :

«ألاَ ترضـونَ يـا معشرَ الأنصـار أنْ يذهبَ النـاسُ بالشـاة والبعير وترجعوا برسـول الله إلى رِحَالكـم ، فـو الذى نفسُ محمـد بيده لولا الهجـرة لكنتُ امرءاً مـن الأنصار ، ولو سلـكَ النـاسُ شِعْباً ، وسلكتْ الأنصارُ شِعْباً آخر لَسلكتُ شِعْبَ الأنصار ، اللهم ارحمْ الأنصـارَ ، وأبنـاءَ الأنصار ، وأبنـاء أبنـاء الأنصار»[2] .

فبكى القوم حتى أخضلوا[3] لحاهم وقالوا : رضينا برسول الله قَسَماً وحظّاً.

أيّ سُمـو إيمانى هذا ؟ لكن المنـافقين قالوا للأنصـار : لا تنفقوا أموالكم على مَنْ عند رسول الله حتى ينفضُّوا ، لكن المؤمنين لم ينفضُّوا .

إنهم قد تركوا النعيم والأموال فى مكة وجاءوا مهاجرين ، فهم لم يأتوا ليأخذوا

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (١٨ ، ٣٨٩٢ ، ٦٨٠١ ، ٧٢١٣ ، ٧٤٦٨) وأحمد فى مسنده (٢٢٧٨٥) والنسائى فى سننه (٤١٦١ ، ٤١٧٨) والدارقطنى فى سننه (٣٥٠٦ ، ٣٥٠٧) من حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنه .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١١٧٤٨) وأورده السهيلى فى الروض الأُنف (٤/ ٢٧٤) وابن جرير الطبرى فى (تاريخ الأمم والملوك) (٢/ ١٧٧) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

(٣) أخضلوا لحاهم أى بلوها بالدموع . واخضل الثوب : ابتل . وأخضلتنا السماء : بلّتنا بلاّ شديداً . [لسان العرب – مادة : خضل] .

نعيماً مظنُوناً محدوداً قليلاً ، وحَسْبهم ما وُعدوا به من نعيم متيقَّن عريض بَاقٍ .

لقـد عرفـوا بـالإيمان أنَّ نعيم الدنيـا إما أنْ تفوته بـالمـوت ، وإما أنْ يفوتك بـالتقلُّب ، لكن نعيم الآخرة ليس لـه حَدٌّ ينتهى عنده ، ولا يفوتك ولا تفوتـه .

قـال المنـافقون للأنصـار وهم أثريـاء المدينـة : ﴿ لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّوا .. (٧) ﴾ [المنافقون]

لقـد كانـوا يريدون أنْ يضربـوا المؤاخـاة بـين المهـاجريـن والأنصـار ، وقد قـالوا: ﴿ رَسُولِ اللَّهِ .. (٧) ﴾ [المنافقون] تهكمـاً ، وهـم يُحرِّضون أثريـاء المدينـة على تجويع المهاجرين .

أى : لا تُنفقـوا عليهـم حتى يجوعوا فينفضُّوا مـن حولـه ، وهم يقولون عنه : ﴿ رَسُولِ اللَّهِ .. (٧) ﴾ [المنافقون] فهل آمنوا بذلك ؟ أم أن هذا من غَلَبة الحقِّ ؟

ورسـولُ الله لم يسْلَم من سُخريتهم واستهزائهم ،والقرآن يحكى عنهم قولهم لرسـول الله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) ﴾ [الحجر] فقولهم: ﴿ نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ .. (٦) ﴾ [الحجـر] أى : القرآن وهم لا يؤمنـون به سُخريةً واستهزاءً .

فقولهـم : ﴿ رَسُولِ اللَّهِ .. (٧) ﴾ [المنافقون] ليس إيمانـاً به ، ولكن إمـا غفلة منهـم عن الكـذب الذى يُمارسونـه ، وإمـا سُخريـةً واستهزاء ، كمـا لو كنتَ فى مجلس ورأيتَ أحدهم يدَّعى العلم ويتظاهر به فيقول : اسألوا هذا العـالم .

وفى آية أخرى يقول سبحانه عن استهزائهم برسول الله : ﴿ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) ﴾ [القلم]

والعجيب أنه يعترف أن محمداً رسول الله ، ويقولها علانية ومع ذلك يُنكرهـا بـأعمالـه وتصرُّفاته ويُحدِث تشويشاً فى الفكر وفى أداء العبارة .

فهم يعرفون أنه رسولُ الله ، ومع ذلك يمنعون الناسَ من الإنفاق على الفقراء الذين عنده ، إنه غباء حتى فى المواجهة .

فهم معترفون بالقرآن مقتنعون به ، لكن ما يقف فى حلوقهم أنْ ينزلَ القرآنُ على محمد من بين الناس جميعاً ، ثم نراهم يُناقضون أنفسهم فى هذه أيضاً ، ويعترفون من حيث لا يشعرون بأن محمداً رسولُ الله حينما قالوا :

﴿ لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا .. (٧) ﴾ [المنافقون] فما دمتم تعرفون أنه رسولُ الله ، فلماذا تُعادونه ؟ إذن : فالبديهة الفطرية تكذبهم فينطق الحقُّ على ألسنتهم على حِين غفلةٍ منهم .

وهم بقولهم ﴿ لَا تُنفِقُوا .. (٧) ﴾ [المنافقون] لا يبخلون فقط بل هم أيضاً يأمرون الناس بالبخل ، ويصدُق فيهم قَوْل الحق سبحانه : ﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (٣٧) ﴾ [النساء]

والبخيل تكون عنده مشقةٌ فى الإعطاء ، فعندما يقتطع شيئاً من خاصة ماله ليعطيها لغيره يجد فى ذلك مشقةً ولا يُقبل عليها ، لدرجة أنه قد يصل إلى درجة أنه يبخل حتى على نفسه .

والشاعر[1] يصور بخيلاً اسمه (عيسى) ويريد أنْ يذمه لأنه بخيل جداً ، ويظهر صورة البخل بأنه ليس على الناس فقط ، بل على نفسه أيضاً ، فيما لا يضرّ بذله ، ولا ينفعه منعه .

وما دام يُقتِّر على نفسه فسيكون تقتيره على غيره أمراً متوقعاً :

---

(١) الشاعر هو ابن الرومى على بن العباس بن جريج أبو الحسن ، ولد ببغداد ٢٢١ هـ ، شاعر كبير من طبقة بشار والمتنبى . قال المرزبانى : لا أعلم أنه مدح أحداً من رئيس أو مرؤوس إلا وعاد إليه فهجاه، له ديوان شعر فى ثلاثة أجزاء . توفى ببغداد مسموماً عام ٢٨٣ هـ عن ٦٢ عاماً . [الأعلام للزركلى ٢٩٧/٤] .

يُقتِّرُ عِيسَى عَلَى نَفْسِهِ وَلَيْسَ بِبَاقٍ وَلاَ خَالِدِ

فَلَوْ يَسْتَطِيعُ لِتَقْتِيرِهِ تنفَّسَ مِنْ مَنخَرٍ وَاحِدِ[1]

إنه بخيل لدرجة أنه يفكر لو استطاع أنْ يتنفس من فتحة أنف واحدة لفعلَ حتى لا يتنفَّس بفتحتى أنفه .

ويقول الحق سبحانه عن البخلاء : ﴿ وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠) ﴾ [آل عمران]

وقد شاهدوا رسول الله ﷺ فى أول الهجرة وقد آخى بين المهاجرين والأنصار وكانت تمرُّ على المسلمين الليالى دون طعام فيراهم اليهود والمنافقون ، فيتندرون على تلك الحال ويقول اليهود : إن يد الله مغلولة عن محمد وآله .

وقد كانوا يلمزون الذين يتطوَّعون بالصدقات ، يقول تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ[2] الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩) ﴾ [التوبة]

وهذه لها واقعة ، فقد هاجر عبد الرحمن بن عوف إلى المدينة وترك أمواله وكلَّ ما يملك فى مكة ، وآخى رسولُ الله بين المهاجرين والأنصار ، فجعل لكلِّ

(١) أورده البغدادى فى تاريخ بغداد (١٢/ ٣٥) . قال على بن العباس : كان البحترى معى جالساً فسلم علينا ابن عيسى بن المنصور فقال له : من هذا ؟ فقلت : هذا عيسى بن المنصور الذى يقول ابن الرومى فى أبيه (وذكر البيتين) فقال لى : أف هذا من خاطر الجن لا من خاطر الإنس ووثب ومضى . وذكره أبو هلال العسكرى فى (الصناعتين) (١/ ٣٤) وكذا ابن حمدون فى التذكرة الحمدونية (١/ ٢٢٨) وعزاه لابن الرومى من بحر المتقارب .

(٢) لمزه : عابه وطعن عرضه . قال تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ .. (٥٨) ﴾ [التوبة] يطعن فى عدالتك فى توزيع الصدقات . وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ .. (٧٩) ﴾ [التوبة] يعيبونهم ويحقرون صدقات فقراء المؤمنين . [القاموس القويم ٢/ ٢٠٢] .

رجلٍ من الأنصار رجلاً من المهاجرين يشاركه فى ماله .

ولما جاء عبد الرحمن بن عوف قال له أخوه من الأنصار : أقاسمك مالى . قال : بارك الله لك فى مالك ، دُلَّنى على السوق وذهب إلى السوق ، وبارك الله له فى تجارته فكان يقسم ربحه نصفين نصفاً للصدقة ونصفاً لأهله(١) .

وقد جاء عبد الرحمن بن عوف إلى رسول الله ﷺ وقال : يا رسول الله اكتسبتُ ثمانية آلاف درهم أُقرِض اللهَ أربعة ، وأُبقى لأهلى أربعة .

فقال له رسول الله : بارك اللهُ لك فيما أقرضتَ وفيما أبقيتَ(٢) .

فلما بلغ المنافقين ما تصدق به عبد الرحمن بن عوف قالوا : ما تصدق عبد الرحمن إلا رياءً وسمعة ، وهل الرياء يطَّلع عليه الناسُ أم يعرفه الله وحده ؟

وجاء عاصم بن عدي(٣) وكان صاحبَ بستان أعطى ثمراً كثيراً ، فجاء بمائة حِمْل من التمر وتصدَّق بها ، فقال المنافقون : والله ما فعل عاصم هذا إلا رياءً .

وجاء رجل يُدعى أبا عقيل الأنصارى إلى رسول الله ﷺ : يا رسول الله : لقد بتُّ ليلتى أعمل وأخذتُ أجرى صاعين من التمر ، احتفظتُ لأهلى بصاعٍ

---

(١) عن أنس بن مالك قال : قدم عبد الرحمن بن عوف فآخى النبى ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصارى فعرض عليه أن يناصفه أهله وماله ، فقال عبد الرحمن : بارك الله لك فى أهلك ومالك دلنى على السوق فربح شيئاً من أقط وسمن فرآه النبى ﷺ بعد أيام وعليه وضر من صفرة . [أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٩٣٧) والبزار فى مسنده (٦٥٤١ ، ٦٥٤٨) وأبو يعلى فى مسنده (٣٨٣٦)] .

(٢) أورده ابن عادل فى تفسير اللباب (١٠/١٥٧) والألوسى فى روح المعانى (٢/٣٣) والزحيلى فى التفسير الوسيط (١/١٥٤) والخازن فى (لباب التأويل) (٢/٣٨٩) أن رسول الله قال لابن عوف : بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت . فبارك الله فى ماله الشيء الكثير .

(٣) هو عاصم بن عدى بن الجد البلوى العجلانى ، حليف الأنصار ، كان سيد بنى عجلان ، استخلفه رسول الله ﷺ على العالية من المدينة ، وعاش عمراً طويلاً قيل ١٢٠ عاماً . توفى عام ٤٥ هجرية . [الأعلام للزركلى ٣/٢٤٨)] . وذلك أن عاصم بن عدى قال : يا رسول الله عندى سبعون وسقاً جذاذ العام فتكاثر المنافقون ما جاء به وقالوا : ما جاء بها إلا رياء وسمعة . الدر المنثور (٧/٤٦٧)] .

وجئتُكَ بصاعٍ لأتصدَّق به . قال المنافقون : تصدَّق بصاع من التمر ، الله ورسوله غنيٌّ عن صاعك يا أبا عقيل[١] .

هم إذن قد عابوا على عبد الرحمن بن عوف الذى تصدَّق بالكثير وقالوا : هذا رياء ، وعندما جاء عاصم بن عدى قالوا : يُرائى بالتصدُّق بنصف ثمار حديقته ، وعندما جاء مَنْ لا يملك إلا صاعَ تمر يتصدَّق به قالوا : الله ورسوله غنيٌّ عن تمرك .

لقد سخروا مِمَّنْ أعطى الكثير وسخروا مِمَّنْ أعطى القليل ، وكان يجب أنْ يُمدح المتصدِّقون ولا يسخر منهم ، لأن كلاً منهم تصدَّق على قَدْر طاقته ، وهم أعطوا منه فضل ما أعطاهم الله ، قلّ أو كَثُر .

وممَّنْ كان (عند رسول الله) فقراء مُعدَمُون ، هم أهل الصُّفَّة[٢] الذين قال الله عنهم: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ .. (٢٧٣) ﴾ [البقرة]

وعدم استطاعتهم ناشيء من أمر خارج عن إرادتهم ، أو من أمر كان فى نيتهم وهو أنْ يُرابطوا فى سبيل الله .

وكان الأنصارُ يأتون بالتمر ويتركونه فى سبائطه ويُعلِّقونه فى حبال مشدودة إلى صوارى المسجد ليأكل منها هؤلاء الفقراء ، ومنهم جماعة من أهل الله انقطعوا للعبادة فتناولتهم ألسنةُ الناس واعترضوا عليهم .

---

(١) ذكره مقاتل بن سليمان فى تفسيره (٢/٦٢) سورة الأنفال ، قال : جاء أبو عقيل بن قبيس الأنصارى من بنى عمرو بصاع فنثره فى الصدقة فقال : يا نبى الله بت ليلتى أعمل فى النخل أُجر بالجرين على صاعين ، فصاع أقرضته ربى وصاع تركته لأهلى فأحببت أن يكون لى نصيب فى الصدقة . وأورده ابن جرير الطبرى فى تفسيره (١٤/٣٨٧) أن المنافقين قالوا : إن الله لغنيٌّ عن صاع أبى عقيل .

(٢) أهل الصُّفة هم فقراء المهاجرين ومن لم يكن لهم منهم منزل يسكنه فكانوا يأوون إلى موضع مظلل فى مسجد المدينة يسكنونه . والصُّفَّة موضع مظلل من المسجد كان يأوى إليه المساكين . [لسان العرب – مادة : صفف] .

لمـاذا لا يعملون ؟ ولماذا لا يشتغلـون كباقى النـاس ؟ بل وذهبوا إلى رسول الله ﷺ يقولـون : نريـد أنْ تلتفتَ إلينـا ، وأنْ تترك هؤلاء المجاذيب ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨) ﴾ [الكهف]

هؤلاء أمر الله نبيَّه ﷺ برعايتهم فقال له : ﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ .. (٢٨) ﴾ [الكهف] أى : اجعل عينيك فيهم ولا تصرفها عنهم إلى غيرهم من أهل الدنيا ، لأن مدد النظرة من رسول الله زاد للمؤمن .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا .. (٢٨) ﴾ [الكهف]

لأنـه لا يأمرك بالانصراف عن هـؤلاء والالتفات إلى أهل الدنيا إلا مَن غفل عـن ذكر الله ، أما مَـنْ اطمأنَّ قلبه إلى ذكرنا وذاقَ حلاوة الإيمان فإنه لا يأمر بمثل هذا الأمر .

ثـم يقول تعـالى : ﴿ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (٧) ﴾ [المنافقون] وهو رَدٌّ على المنافقين الذين يظنُّونَ أنهم الذين يملكون مَنْح مَنْ عند رسول الله الرزقَ أو منعه عنه .

والحـق سبحانـه غنيٌّ عن العالمين ، ولذلك فهـو لايطمع فيما فى أيدينا من خير لأنه من عنده ، ولا يطمع فيما مغنا من مال لأن عنده خزائنَ السماوات والأرض .

وكلمة (خزائن) هذه مفردها «خزانة» وهى الشيء الذى يُكنز فيه كلُّ نفيس ليخـرجَ منه وقت الحاجـة ، ولا تقُلْ : خزانة إلا لشيء جعلتَهُ ظرفاً لشيء نفيس تخاف عليه من أنْ تُخرجه فى غير أوانِ وزمانِ إخراجه .

وخزائـنُ الأرض كلُّها يملكها الله ، فهو سبحانه وتعالى القائل : ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا

مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠) وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢١) ﴾ [الحجر]

والأشياء فى خزائن الله إما أنْ تكونَ مطمورة ، وإما أن تكون محكمة إحكاماً رقمياً يُظهره الله على يدى أحد فى وقت الحاجة إليه .

ومعنى أنَّ الحقَّ سبحانه يخاطب المنافقين ، فيقول : ﴿ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (٧) ﴾ [المنافقون] أى : إن كنتم تنظرون الآن إلى مَنْ عند رسول الله وحوله على أنهم فقراءُ مُعدمون فإنَّ الله له خزائنُ السماوات والأرض ، قادرٌ على إغنائهم وإعطائهم ، وأنْ يملكوا البلاد والأرض .

وهذا ما حدث وهذه نبوءة وبشارة لرسول الله أن الدنيا ستُفتح عليهم ، ومن هذا ما كان من أمر سُراقة بن مالك[١] الذى خرج خلف رسول الله فى رحلة الهجرة يريد طلبه والفوز بجائزة قريش .

وبعد أنْ تاب سراقة وعاد إلى الجادة كان الصحابة يعجبون لدقَّة ساعديه ويصفونهما بما يدعو إلى الضحك ، فكان ﷺ يقول عن ساعدى سراقة : كيف بهما فى سوارى كسري[٢] ؟

ويملك المسلمون بعد ذلك مُلْك كسرى ، ويكون سِوَارا كسرى من نصيب سراقة فيلبسهما ويراهما الناسُ فى يديه .

﴿ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (٧) ﴾ [المنافقون] أى : لا يفهمون ذلك لأنهم

---

(١) هو : سراقة بن مالك بن جعشم المدلجى الكنانى ، أبو سفيان صحابى له شعر كان ينزل قديداً ، له فى كتب الحديث ١٩ حديثاً ، وكان فى الجاهلية قائفاً أخرجه أبو سفيان ليقتاف أثر رسول الله حين خرج إلى الغار مع أبى بكر ، أسلم بعد غزوة الطائف سنة ٨ هجرية . توفى عام ٢٤ هـ . [الأعلام للزركلى ٣/ ٨٠] .

(٢) أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى (١٣٤١٤) وذكره ابن الأثير فى (أُسْد الغابة) (١/ ٤٢٢) . والصفدى فى الوافى بالوفيات (٥/ ٣٧) والذهبى فى (تاريخ الإسلام) (١/ ٣٧٧) .

﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (٧) ﴾ [الروم] فهم يعلمون أموراً ظاهرة مُزْخرفة، لكن ليس لها عُمْق أو عُمر أو نفاسة .

فهم لا يعلمون حقائق الأمور وبواطنها وعواقبها وتغيُّر أحوال الدنيا ، ولكنهم يعلمون العلوم السطحية الظاهرة منها ، لذلك يقعون فى عدم الفَهْم .

مثلهم مثل قوم قارون ، قال تعالى : ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) ﴾ [القصص]

فهم بُهروا بعظمة زينته لأنهم ينظرون دائماً للأمور من زاوية الارتفاع فى نصيب الحياة الدنيا كهؤلاء المنافقين الذين ينظرون لأقدار الناس بمدى غِنَاهم أو جاههم أو سَطْوتهم .

فهؤلاء لا يعنيهم إلا أمرُ الدنيا ومُتعها وزُخْرفها ، أما أهل العلم والمعرفة فلهم رأىٌ مخالفٌ ونظرةٌ أبعد للأمور .

هؤلاء قالوا : ﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠) ﴾ [القصص]

إنهم غفلوا عن حقيقة الأمر أن الزينة مظهرٌ دنيويٌّ لا يعبر عن عاقبة ما سيحدث لمَنْ يتجبَّر ويبطر ويفرح بزينته وما فى يده من مال .

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ .. (٨١) ﴾ [القصص] والخسف كان به وبداره التى فيها كنوزه وخزائنه وما يملك .

والمنافقون لا يفهمون أن مَنْ عند رسول الله لا ينفضُّون عنه لمجرد أنهم لن ينفقوا عليهم وسيمنعون عنهم النفقة ، فهم لم يتحلَّقوا حول رسول الله ﷺ لدُنيا يصيبونها ، إنما طاعة واتباعاً لرسول الله .

يقول الحق سبحانه :

﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾

لم يَكُفَّ المنافقون وعلى رأسهم رأس النفاق ابن أبيٍّ بن سلول عن الإساءة لرسول الله ﷺ ، وها هم يقولون : ﴿ **لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ** .. (٨) ﴾ [المنافقون] كانوا يقصدون أنهم هم الأعزُّ ، أما الأذلّ فهم المؤمنون .

ووافقهم الحق سبحانه على ما قالوا : نعم سيُخرج منها الأعزّ الأذلّ ، ولكنه سبحانه أراد أنْ يُبيِّنَ لهم مَنْ هو العزيز ومَنْ هو الذليل ، فقال : ﴿ **وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ** .. (٨) ﴾ [المنافقون]

فكأنَّ الحق سبحانه يؤكد لهم أنَّ الأعزَّ سيُخرج الأذل ، ولكنهم يحسبون أنفسهم هم الأعزاء ، فيقول لهم : ﴿ **وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ** .. (٨) ﴾ [المنافقون]

وهذا ما يسمُّونه القول بالموجب . أى : أنْ تتفق مع مَنْ يقول ويقصد أن يُوجِّه كلامه وجهةَ الشرِّ ، فتقلب المقصود من الكلام وتوجهه وجهة الخير .

وهذا مقصودٌ به هنا أنْ تزيد من ذلَّة المخاطب ، فأنت تجعله يعتقد أنك توافقه ، فتنفرج أساريره ويشعر بالسعادة ، ثم بعد ذلك تنقض ما قاله فيُصاب بالذلِّ .

تماماً كما يأتى الحارس لسجين يشعر بظمأ شديد ويُلح فى طلب كوب ماء ، فيقول له الحارس : سأحضر لك كوبَ الماء ، وفعلاً يُحضر الكوب مليئاً بالماء المثلج ويفرح السجين ويظن أنه سينال منه ما يريده ولكن ما إنْ يُقرِّب الحارسُ الكوبَ من فم السجين حتى يُفرغه على الأرض ، فيكون تعذيبُه أكبرَ مما لو رفض منذ البداية إحضار كوب الماء .

ومن هذا قوْل الله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١) ﴾ [التوبة]

وهـذا يقصـدون بـه سَبَّ رسول الله وإيذاءه ، فهـم أرادوا أنْ يتهموا رسولَ الله أنـه لا يُمحص القـول الذى يُنقل إليه ويُصدِّق كُلَّ مـا يُقـال لـه ، كما نقول نحن فى العامية «فلان ودَنى» أى : يعطى أذنه لكلِّ ما يُقال له .

فوافقهـم علـى أن رسـولَ الله ﷺ «أُذن» ، ثم جـاء بنقيض ما كانـوا يقصدونه ، فيردّ عليهم الحقُّ سبحانه ، نعم هو أُذن ولكن : ﴿أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ .. (٦١) ﴾ [التوبة]

فهو أذن خَيْر لأنـه الأُذن التى استمعتْ إلى آخر إرسال ينزل من السمـاء لهداية الأرض ، وهو خير يعودُ على البشرية كلِّها ، ولكن ليس بالمعنى الذى تعيبونه عليه ، فهو قد يسمع إساءاتكم ثم يسمع اعتذاركم فلا يؤذيكم ويعفو عنكم .

وكان ابن أُبيٍّ يعنى بـ «الأعزِّ» المنافقين فى المدينة ، وبـ «الأذل» المسلمين مـن المهاجريـن والأنصـار . وردَّ الله سبحانـه بـأنْ صدَّق على قولـه أنَّ الأعزَّ سيُخـرج الأذلَّ ، فقـال الحقُّ سبحانه وتعـالى : ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨) ﴾ [المنافقون]

فسيخـرج المنافقون من المدينـة ، وسيبقى فيها المؤمنـون وتكون لهم العزة ولكن لماذا قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ .. (٨) ﴾ [المنافقون] ولم تـأتِ بأسلوب القصر ؟ نقـول : لا . فالعزة لله لا تتعداه ، ولكنه سبحانه شاء أنْ تكون عزةُ رسوله ﷺ وعزةُ المؤمنين من باطن عزَّة الله تعالى .

ويقول الحق سبحانه فى موضع آخر : ﴿ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا .. (٦٥) ﴾ [يونس]

أي: في كلِّ ألوانها هي لله سبحانه وتعالى ، إنْ كانت عزةَ حكمة فهو الحكيم، وإنْ كانت عزةَ القبض على الأمور فهو العزيز ، وإنْ كانت عزةَ الحلم فهو الحليم، وإنْ كانت عزَّةَ الغضب والانتقام فهو المنتقم الجبار ، وكلُّ ألوان العزَّة لله تعالى .

وما دام الأمر كذلك فأنتم الأذلَّة وأنتم الخارجون وقد كان .

وسبب نزول الآية رواه لنا جابر بن عبد الله رضى الله عنه فقال : كنَّا مع النبي ﷺ في غزاة بني المصطلق[١] فكسع[٢] رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار ، فسمع ذلك النبي فقال : دعوها فإنها منتنة .

فسمع ذلك عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول فقال : أو قد فعلوها والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعز منها الأذل .

فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال عمر : يا رسول الله دَعْني أضرب عُنق هذا المنافق. فقال النبي ﷺ : دَعْه لا يتحدَّث الناسُ أنَّ محمداً يقتل أصحابه[٣] .

فقال له ابنه عبد الله : والله لا تنقلب حتى تُقِرّ أنكَ الذليلُ ورسولُ الله ﷺ العزيز ، ففعل[٤] .

(١) غزوة بني المصطلق هي الغزوة التاسعة من غزوات الرسول التسعة عشر كما ذكره البخاري وكانت قبل الحديبية ، وقد كان بنو المصطلق حلفاء قريش من الأحابيش . وهم قوم من خزاعة كانت الوقعة بهم في المريسيع من نحو قديد سنة ست من الهجرة . واسم المصطلق : جذيمة بن سعد .

(٢) كسع : الكسْع أن تضرب بيدك أو برجلك بصدر قدمك على دبر إنسان أو شيء . وكسعهم بالسيف : اتبع أدبارهم فضربهم بالسيف . والكسع أيضاً : تكلم فرماه على إثر قوله بكلمة يسوءه بها . وقيل : كسعه إذا همزه من ورائه بكلام قبيح . [لسان العرب - مادة : كسع] .

(٣) أخرج البخاري في صحيحه (٤٩٠٥) عن جابر بن عبد الله قال : كنا في غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار فقال الأنصاري: يا للأنصار وقال المهاجري : يا للمهاجرين . فسمع ذاك رسول الله ﷺ فقال : ما بال دعوى جاهلية ، قالوا : يا رسول الله كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار . فقال : دعوها فإنها منتنة . فسمع بذلك عبد الله بن أبي فقال : فعلوها أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، فبلغ النبي ﷺ فقام عمر فقال : يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق ، فقال النبي ﷺ : دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه .

(٤) أورده السيوطي في الدر المنثور (١٤/٥٠٣) وعزاه لسعيد بن منصور والبخاري ومسلم والترمذي وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن جابر بن عبد الله . قال السيوطي : زاد الترمذي: فقال له ابن عبد الله : والله لا تنقلب حتى تقر أنك الذليل ورسول الله العزيز ففعل . وقد أخرجه الترمذي في سننه (٣٦٣١) وقال : حديث حسن صحيح .

فهذه الواقعة تُبيِّن لنا دوْرَ المنافقين السَّلْبى فى المجتمع وانتهازهم أىَّ فرصةٍ للإيقاع بين المسلمين وإثارة نعرات التعصُّب الجاهلى وإيقاع الفُرْقة بينهم .

فالحادثة التى وقعتْ بين رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار حادثة قد تحدث فى أيِّ وقتٍ وفى أيِّ مكان ، ولكنْ أَبَى عبد الله بن أبيّ بن سلول إلا أنْ ينتهزها فرصة ليشفى الحقد الذى فى قلبه من ناحية رسول الله والإسلام والمسلمين .

وقد كان هذا دأبَ اليهود أيضاً ، فعندما جاء الإسلامُ إلى المدينة وحَّد رسولُ الله ﷺ بين الأوْس والخزرج وآخى بينهم .

فبهذه المؤاخاة ضاعتْ مكانة اليهود العلمية لأن الإسلامَ جاء بدين وكتاب مهيمن على الكتب السابقة له كلّها ، وكذلك ضاعتْ منهم المنزلة الحربية .

فقد رأوا قلَّة من المؤمنين هزموا الكفار وأنزلوا بهم هزيمة نَكْراء فى بدر ، وهكذا ضاع كلُّ سلطانٍ لليهود فى المدينة ، لذلك أرادوا أنْ يُعيدوا الأمر إلى ما كان عليه قبل أنْ يجيء الإسلام .

فقالوا : فَلْنُؤجج ونُشعل ما بين الأوس والخزرج من العداوات ونُهيِّجها ، وقال شخص اسمه «شأس بن قيس»[١] وقد رأى نور الإيمان يعلو وجوه الأوس والخزرج ويشملهم الانسجام الإيمانى ، وتوجد بينهم المودة وابتسامات الصفاء .

هيَّج ذلك شأس بن قيس وقال : «والله لابدَّ أنْ نُعيدها جَذَعة[٢] ونُرجعهم

(١) شأس بن قيس هو من يهود بنى قينقاع . كان شديد الكفر والعداوة للمسلمين ، وقد كان أحد الذين قالوا (يد الله مغلولة) . وقد كان أعمى .

(٢) جَذَعة : بدايته من جديد . يقال : أعدت الأمر جذعاً أى جديداً كما بدأ . وإذا طفئت حرب بين قوم فقال بعضهم : إن شئتم أعدناها جَذْعة أى أوّل ما يُبتدأ فيها . [لسان العرب – مادة : جذع] .

إلى مـا كانـوا عليه مـن أحقـاد وعـداوات : فـلا اسـتقرار لنا مـا داموا قد اجتمعوا»[١] .

فأرسـل فتـيً من اليهود وجلس بين الأوس والخزرج ، ثم تطرق الحديثُ منه إلى يوم يُسمَّى يوم «بُعاث» ، وهو اسم يوم من أيام العرب قبل الإسلام ، وكان بين الأوس والخزرج ، وكان النصر فيه للأوس على الخزرج .

جلس الفتى يذكر ويأتى بالشعر الذى قيل فى هذا اليوم ، فهيَّج حميَّة الأوس والخزرج ، وحدث النزاع وحصل التفاخر واستيقظ التباغض ، وقالوا : السلاح.. السلاح .

وهكـذا نجحت المكيـدة ونمى الخبر إلى سيدنا رسـول الله ، فقام ﷺ ومعه صحابتـه حتـى انتهوا إلى اجتمـاع الأوس والخزرج ، فوجـدوا الحال على أشدِّ درجـات الهياج ، نزاع وتباغض وسلاح محمول ، فقال الرسول ﷺ : أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم[٢] .

أى : كان مـن الواجـب أنْ تخجلـوا من أنفسكم ، لأن رسـول الله ﷺ بينكم ،

---

(١) عن زيد بن أسلم (مرسلاً) قال : مرَّ شاس بن قيس وكان شيخاً قد عسا فى الجاهلية عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين شديد الحسد لهم على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج فى مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه فغاظه ما رأى من جماعتهم وألفتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية ، فقال : قد اجتمع ملأ بنى قيلة بهذه البلاد لا ، والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار ، فأمر فتى شاباً من اليهود وكان معه فقال : اعمد إليهم فاجلس معهم وذكرهم يوم بعاث وما كان قبله وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار .. الحديث بطوله فى تفسير الطبرى (٧٥٦٣) وكذا الشوكانى فى فتح القدير (٢/٥) .

(٢) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٣/٦٩٩) وعزاه لابن إسحاق وابن جرير الطبرى وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبى الشيخ الأصبهانى عن زيد بن أسلم ، وفيه أن رسول الله قال لهم : يا معشر المسلمين الله الله ، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ هداكم الله إلى الإسلام وأكرمكم به وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألَّف به بينكم ، ترجعون إلى ما كنتم عليه كفاراً . فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوه لهم ، فألقوا السلاح وبكوا وعانق الرجال بعضهم بعضاً . وهو تفسير الطبرى (٥ / ٦٢٨) .

وأضـاف رسول الله : لقد أكرمكم الله بـالإسـلام ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، وألَّف بين قلوبكم ، فماذا كانت مواقع كلمات الرسول فى نفوس القوم ؟

لقـد دفعتْهـم كلماتُه ﷺ إلى إلقـاء السلاح وبكَوْا ، وعانـقَ بعضُهم بعضاً، وانصرفـوا مـع رسـول الله ، فمـا كان يـومٌ أقبـح أولاً ، وأحسن آخـراً من ذلك اليوم.

نفـس هذا الدور القبيح الذى مارسه اليهود فى المدينة بين الأوس والخزرج فعلـه ابـن أُبَىٍّ بن سلـول للإيقاع وزيـادة الفُرْقة والخلافات بـين المهاجرين والأنصار .

يقـول جابـر بن عبد الله رضى الله عنه : كنَّا مع النبى ﷺ فى غزاة ، يقصد غزاة بنى المصطلق ، فحدث أنْ كسع رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار .

والكسـع هـو أنْ تضرب دُبر إنسان بيـدك أو بصدر قدمك . وكسـعَ فلانٌ فلانـاً طرده ، ويُقال أيضاً : كسع فلانٌ فلاناً بما ساءه إذا همزه من ورائه بكلام قبيح.

فسمـع بذلك النبـى ﷺ فقال : دَعُوهـا فإنها مُنْتِنـة . أى : تجاوزوا عن هذا لأنـها ستُؤدى إلى شَرٍّ عظيم ووقيعة .

فـالفئـة المؤمنـة لا تـخضـع لعصبيـة الجاهليـة ، ولا تنفعل لهـا ولا لحمية النفـس، وهنا كَسَع رجلٌ من المهاجرين رجـلاً من الأنصار فقال الأنصارى : يا للأنصـار. وقال المهاجرى : يا للمهاجرين .

فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقـال : ما بـال دعوى الجاهلية ؟

فدعـوى الجاهلية دعوى تفريق بين الأنصـار والمهاجرين ، أو أى طائفتين مختلفتين ، واستنهاض كلِّ فريق للتحزُّب والشِّقاق والاشتجار ، هذا يؤدى إلى أفعال كلّها من أفعال الجاهلية .

فقــال ﷺ : « دعوهــا فإنها مُنتنة . أي : قبيحة ودنيئة لأنها تثير التعصُّب على غير الحق والتقاتل على الباطل ، ثم إنها تجرُّ إلى النار .

كما قال ﷺ : «مَنْ دعا بدعوى الجاهلية فليس منَّا ، وليتبوَّأ مقعده من النار»(١) .

ودعوى الجاهلية هى الاستغاثة عند إرادة الحرب ، فكانوا يقولون : يا آل فلان. فيجتمعون فينصرون القائل ولو كان ظالماً ، فجاء الإسلامُ بالنهى عن ذلك .

وقد كانت الجاهلية تتعاضد بالعصبية للقبائل فى أمور الدنيا ومتعلقاتها، وكانت الجاهلية تأخذ حقوقها بالعصبات والقبائل ، فجـاء الإسلام بإبطال ذلـك ، وفصّل القضايـا بالأحكام الشرعية ، فإذا اعتـدى إنسانٌ على آخر حكمَ القاضـى بينهمـا وألزمـه مقتضـى عدوانه ، كما تقـرَّر من قواعـد الإسلام ، لا بمقتضى العصبية لقبيلة من القبائل .

ومع دعـوى الجاهليـة والاستنصار بالقبائـل والعصبية يظهـر المنافقون الذين يريدون اشتعالَ النار وتأجُّجها لأنهم مستفيدون من هذا .

وهنـا ظهر عبد الله بن أُبيّ بن سلول رأس المنافقين وقد كان خارجَ المدينة ، فسمع ما حدث من اقتتال غلامين أحدهما مهاجرى والآخر أنصارى ، فضرب المهاجرىُّ الأنصارىَّ وعَلاَ عليه .

فقــال ابـن أُبـيٍّ : أو قد فعلوهــا ؟ كأنــه كان ينتظر هذا الحــادث فهو يبغى الفتنة ، يقول تعالى : ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) ﴾ [التوبة]

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (١٢٩٤ ، ١٢٩٨ ، ٣٥٢٠) وكذا مسلم فى صحيحه (١٤٨) من حديث عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ : « ليس منا من ضرب الخدود أو شق الجيوب أو دعا بدعوى الجاهلية » . وعن الحارث الأشعرى عن رسول الله ﷺ قال : « من دعا بدعوى الجاهلية فإنه من جثى جهنم . قال رجل : يا رسول الله وإن صام وصلى ؟ قال : نعم فادعوا بدعوة الله التى سماكم بها المسلمين والمؤمنين عباد الله . أخرجه الطيالسى وأحمد والترمذى وصححه وغيرهم .

فإنهم يُحدِثون فُرْقة بين صفوف المؤمنين ويُفرِّقونهم ويتغلغلون بينهم للإفساد، فالخِلال الفُرْجة بين الشيئين أو الشخصين، فيدخل واحد منهم بين فريق من المؤمنين فيفسد وآخر يفسد فريقاً آخر، وهكذا يمشُون خلال المؤمنين ليُفرِّقوا بينهم.

فقال ابن أُبَيّ: أو قد فعلوها. أي أو قد تجرَّأ المهاجرون على الأنصار، وقد كان الأنصار في أوَّل الأمر أكثر من المهاجرين، ثم كَثُر المهاجرون فيما بعد.

ثم قال ابن سلول: والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرِجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ.

ونحن نعرف أنَّ رأسَ المنافقين عبد الله بن أبيّ بن سلول كان سيُتوَّج مَلِكاً على المدينة، وأثناء الإعداد لمهرجان التتويج فُوجئوا بوصول رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة.

وكان هذا من أسباب حقد عبد الله بن أبيّ على رسول الله، فقد ضاع منه المُلْك، وكان لعبد الله بن أبيّ ولدٌ أسلم وحسُن إسلامه، اسمه عبد الله بن عبد الله بن أُبيّ.

وكان من حُسْن إسلام هذا الابن أنه ذهب إلى رسول الله ﷺ حين علم أنَّ رسولَ الله سيأمر بقتل أبيه، لأنه قال: ﴿ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ .. (٨) ﴾ [المنافقون]

فذهب الابنُ إلى رسول الله وقال: يا رسولَ الله، إنْ كنت ولا بدَّ آمراً بقَتْل أبى فأمرنى أنا بقتله، لأنى أخاف أنْ يقتله أخٌ مؤمن فأكرهه وأنا لا أحب أن أكره مؤمناً[1].

(١) أخرجه الطبرى فى تفسيره (٢٣ / ٤٠٧) عن عاصم بن عمر بن قتادة أن عبد الله بن عبد الله بن أبىّ أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إنه بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبى فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمرنى به فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان فيها رجل أبرّ بوالده منى، وإنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله، فلا تدعنى نفسى أن أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبى يمشى فى الناس فأقتله فأقتل مؤمناً بكافر، فأدخل النار، فقال رسول الله ﷺ: « بل نرفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا ». وكذا ابن الأثير فى (الكامل فى التاريخ) (١/ ٣٠٩).

وهكذا نرى قوة وصدق الإيمان ، وأراد رسولُ الله ﷺ أنْ يكرم ذلك المنافق مـن أجـل ابنه فلم يأمـر بقتله ، ومن بعد ذلك قال الابن : يـا رسولَ الله استغفر لأبى . أى : اطلب له من الله المغفرة .

ولأنـه ﷺ يعلـم أنه قد أُرسِلَ رحمةً للعالمـين ، لذلك طلب المغفرة لعبد الله ابن أُبيٍّ ، وحينئذ نزلتْ الآية الكريمة : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٨٠) ﴾ [التوبة]

لقد أراد الابن الصالح أنْ يقتلَ أباه بنفسه حتى لا يكون له ثأر عند أحدٍ من المسلمين ، ومن أخبار عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه عندما مرَّ أمامه قاتلُ أخيه زيد بن الخطاب، فقال له عمر : ازْوِ نفسك عنِّى فإنِّى لا أحبك .

فـردَّ الرجـل بكُلِّ جـرأة إيمانية : أو عدم حُبِّك لى يمنعنـى حقاً من حقوقى ؟ قال عمر : لا . قال الرجل : إنما يبكى على الحب النساء .

ولقد استدعى رسولُ الله عبدَ الله بن أُبيّ بن سلول ليسأله فأنكر وحلَف بالله أنـه مـا قال ، فنزل قوله تعـالى : ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ .. (٧٤) ﴾ [التوبة]

فجعـل ابـنُ سلول يحلف بالله مـا قاله ، وقد قال زيد بـن أرقم : خرجنا مع رسول الله ﷺ فى سفر ، فأصاب النـاسَ شدةٌ ، فقال عبدُ الله بن أُبىٍّ لأصحابه: لا تنفقوا على مَنْ عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله . وقال : لئن رجعنا إلى المدينـة ليُخرجـن الأعز منها الأذل فأتيتُ النبـى ﷺ فأخبرتُه بذلك ، فأرسل إلى عبد الله بن أبىّ فسأله فاجتهد يمينه ما فعل .

فقالوا : كذبَ زيدٌ رسولَ الله . فوقع في نفسى مما قالوا شدة حتى أنزل الله تصديقى في : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ .. (١) ﴾ [المنافقون] فدعاهم النبى ﷺ ليستغفر لهم فلووا رؤوسهم(١) .

ومن حُسْن إسلام الابن عبد الله أنَّ أباه لما عاد إلى المدينة أخذ ابنُه السيفَ، ثم قال لوالده : أنت تزعم لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ ، واللهِ لا تدخلها حتَّى يأذنَ رسولُ الله .

ومن كلامه أيضاً : والله لا تدخل المدينة أبداً حتى تقول : رسول الله ﷺ الأعزّ وأنا الأذلّ . والله عليَّ أنْ لا أغمده - أى السيف - حتى تقول : محمد الأعز وأنا الأذل . فأقرَّ له بها(٢) .

وقد كان ابنُ سلولٍ مُؤذياً على الدوام لرسول الله ﷺ حتى أن رجلين اقتتلا أحدهما من جهينة والآخر من غفار، وكانت جهينة حلفاء الأنصار، فظهر الغفارى على الجهنيّ ، فنادى عبد الله بن أبيّ : يا بنى أوس انصروا أخاكم . وقال : والله ما مَثَلُنا ومَثَلُ محمد إلا كما قال القائل : سمِّنْ كلبك

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (١٤/ ٥٠٤) وعزاه للطبراني عن أسامة بن زيد : لما رجع رسول الله ﷺ من بنى المصطلق قام عبد الله بن عبد الله بن أبى فسلَّ على أبيه السيف وقال : والله عليّ أن لا أغمَده حتى تقول : محمد الأعز وأنا الأذل . فقال : ويلك محمد الأعز وأنا الأذل ، فبلغت رسول الله فأعجبته وشكرها له . قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٥٧٥٩) : « فيه محمد بن الحسن بن زبالة وهو ضعيف » .

(٢) عن زيد بن أرقم قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ فى سفر أصاب الناس فيه شدة، فقال عبد الله بن أبى لأصحابه : لا تنفقوا على من عند رسول الله ﷺ حتى ينفضوا من حوله . وقال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . قال زيد : فأتيت النبى فأخبرته بذلك فأرسل إلى عبد الله بن أبى فسأله فاجتهد يمينه ما فعل فقال : كذب زيدٌ رسولَ الله . قال زيد : فوقع فى نفسى مما قالوه شدة حتى أنزل الله تصديقى ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ .. (١) ﴾ [المنافقون] . قال : ثم دعاهم النبى ﷺ ليستغفر لهم . قال: فلووا رؤوسهم.

يأكلك.[١] .

وهــو نفسه ابن أُبيٍّ الــذى آذى رسول الله ﷺ فى أهله زوجه عائشة رضى الله عنهــا وفى غزوة بنى المصطلــق أيضاً ، فخاض وتولَّى كبر الإساءة لرسول الله ، ورمى زوجه عائشة بالفاحشة .

لذلــك قــال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ .. (١١) ﴾ [النور] ثم قال : ﴿ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ .. (١١) ﴾ [النور]

فالــذى تولّى كِبر الأمر منهم هو عبد الله بن أُبيّ بن سلــول ، فهو الذى ابتدأ هــذا الــكلام وقال : امــرأة نبيكم باتتْ مــع رجل حتى أصبحــت ، ثم جاء يقود بهــا[٢] .

لقــد غفل المنافقون أن العزة لله ولرسولــه وللمؤمنين وأن الذلـةَ لهم ، ولذلك قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ .. (٨) ﴾ [المنافقون]

فــالله هو العزيز الذى يغلب ولا يغلبه أحدٌ ، والرسول عزيز له كرامةٌ وعِرْض لا يُمسّ ، والمؤمنون باتباعهم لكتاب الله تنالهم عزة لا تُدانيها عزَّة .

والعــزة مأخوذة من معنىً مــاديٍّ وهو الصَّلابة والشــدة ، فالأرض العَزاز .

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم فى تفسيره (١٠٤٠٣) عن قتادة قال : ذكر لنا أن رجلين اقتتلا أحدهما من جهينة والآخر من غفار وكانت جهينة حلفاء الأنصار فظهر الغفارى على الجهنى فنادى عبد الله بن أبى: يا بنى أوس انصروا أخاكم وقال : والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل : سمِّن كلبك يأكلك . وقد عزاه السيوطى فى الدر المنثور (٧/٤٤٥) لابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم .

(٢) أخرجه ابن جرير الطبرى فى تفسيره جامع البيان (٢٦٠٥٠) وعزاه لابن زيد المفسر قال : أما الذى تولى كبره منهم ، فعبد الله بن أبى بن سلول الخبيث هو الذى ابتدأ هذا الكلام وقال : امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ثم جاء يقود بها .

وقد روى ابن أبى مليكة عن عروة عن عائشة في حديث الإفك قالت : ثم ركبت وأخذ صفوان بالزمام فمررنا بملأ من المنافقين وكانت عادتهم أن ينزلوا منتبذين من الناس ، فقال عبد الله بن أبي رئيسهم: من هذه ؟ قالوا : عائشة . قال : والله ما نجت منه وما نجا منها . وقال : امرأة نبيكم مع رجل حتى أصبحت ثم جاء يقود بها . ذكره البغوى في تفسيره (٦/٢٣) .

أى: الصلبة التى لا ينالَ منها المِعْول ، ثم نقلت إلى كلِّ شديد ، فكلُّ شيءٍ شديدٌ فيه عِزَّة .

فـإذا قيـل : الله عزيز أى أنه سبحانه وتعالى غالبٌ على أمره ، شديد لا يمكن أنْ يقدر على مِحَاله أو مَكْره أو قوته أو عقابه أحدٌ .

وإذا قيـل : هـذا الشـيء عزيز أى نـادر ، ومـا دام الشيءُ نـادراً فهـو نفيس ، والمعادن النفيسة كلها أخذتْ حظَّها من نُدْرتها وقلَّتها .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَـٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨) ﴾ [المنافقون]

وليس هذا نفيـاً لعلمهم ووصول المعلومة إليهم ، بـل هو نفيٌ لاستفادتهم للعلم الذى وصل إليهم .

فالعلـم الـذى لا يخضع حركة الإنسان له فكأنه لم يعلـم شيئاً ، فكأَنَّ العلم لم يثبـت لـه لأنه لم ينتفع بـه ، فهم لا يعلمون العلم المفيـد ولا يعلمون بواطن الأمور ولا عواقبها .

وهـم لا يعلمـون ، لأنهم لا يُوازنـون الأمور بدقَّة تُـؤدى إلى النفع الحقيقى، وهـم لا يعلمـون قـدْرَ الإيمان الحـقّ ، والإنسانُ قد لا يفهم شيئـاً أى لا يفقهه ، ولكن قد يفهمه غيره ويعلمه هو عنه .

يقول الحق سبحانه :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَـٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَـٰسِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾

نظـام الحياة يجعلنـا ننسى المسبِّب للنِّعم سبحانه ، فـالشمس تطلع كل يوم، كـم منـا يتذكر أنهـا لا تطلع إلا بـإذن الله فيشكره ، والمطـر ينزل كل فترة ، مَنْ منَّا يتذكَّر أن المطر يُنزله الله فيشكره .

فـالذكـر يكـون بـاللسان وبـالقلـب ، والله سبحـانه وتعـالى غَيْـب مستور عنّا ، وعظمته أنه مستور ، ولكن نِعَم الله سبحـانه تدلّنا عليه ، فـالذكْر يكون في بـالنا دائمـاً ، وبنعمـه يكون ذِكْره وشُكْره دائمـاً .

ذكْـر الله سبحـانـه يعطينـا حركـة الحياة في كل شـيء ، ذِكْـر الله يُوجِد في القلـوب الخشوع ويُقلل المعاصي وينتفع النـاسُ كلُّ النـاس بـه ، ويجعل حركة الحياة مستقيمة .

والحق سبحانه هنا يقول : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) ﴾ [المنافقون]

فـالله يخـاطب الذين آمنوا ليحفظ عليهم إيمانهم صـافياً لا تشويه شائبة ولا يجرحــه شــيء ، وهــذه الآية لا بـدّ أن نـأخذهـا في سياق مـا قلنــاه في تفسيرنـا لسورة الجمعة .

فقـد قــال تعـالى هنـاك : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١) ﴾ [الجمعة]

فهؤلاء مؤمنون أُمروا بالسعي إلى ذكر الله إذا نُودي للصلاة من يوم الجمعة وعليهم أن يتركوا البيع ، حتى إذا انتهت الصلاة انتشرتم في الأرض ، وابتغوا من فضل الله، وأنتم في خلال هذا كله ﴿ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) ﴾ [الجمعة]

ونعَى الله على مَنْ انفضُّوا عن رسول الله ﷺ وهو يخطب خطبة الجمعة وألهتْهم التجارة التي وفدتْ على المدينة في ذلك اليوم ، وهم مؤمنون .

لذلك يخاطب الله هنا الذين آمنوا ، وهم المخاطبون بالتكليف يأمرهم وينهاهم ، أما الذين لم يؤمنوا فغير مخاطبين لا بأمر ولا بنهي .

فالمؤمن يلزم نفسه بالتكليف وبمنهج الله فيدخل في عقد إيماني مع الله تبارك وتعالى ، لذلك نجد أن الله جلَّ جلاله لا يخاطب الناسَ جميعاً في التكليف، وإنما يخاطب الذين آمنوا فقط .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) ﴾ [البقرة] ويقول سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) ﴾ [البقرة]

أي : أن الله جلَّ جلاله لا يكلف إلا المؤمن الذي يدخل في عقد إيماني ، فما دام العبد قد آمن فقد أصبحتْ مسئوليةُ حركته في الحياة عند ربه ، ولذلك يُوحى إليه بمنهج الحياة ، أما الكافر فلا يُكلفه الله بشيء .

فالإيمان التزام ، وما دُمتَ قد التزمتَ بأنه إله حكيم فخُذْ منه أحكام دينك ، وعَدْلُ الله اقتضى ألا نُكلِّف إلا مَن يؤمن ، وهذا على خلاف مألوف البشر ، لأن تكليفات القادة من البشر للبشر تكون لمَنْ يرضى بقيادتهم ومَنْ لم يرْضَ .

وإذا كان للقائد من البشر قوة فإنه يستخدمها لإرغام مَنْ يُوجدون تحت ولايته على تنفيذ ما يقول .

ولذلك يجيء الحق سبحانه دائماً قبل آيات التكليف بقوله سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. (٩) ﴾ [المنافقون] فهو لم يكلف مطلق الناس ، وإنما كلَّف مَنْ آمن به .

فهو سبحانه لم يقتحم على الناس تصرُّفاتهم الاختيارية لمنهجه ، بل يلزم ويأمر مَنْ آمن به ويُوجب عليه ، والحق سبحانه لم يكلف الكافر لأنه ليس بينه وبينه عهد ، إنما يكلف مَنْ آمن ، فتجد كل آية من آيات الأحكام تبدأ بهذا النداء الإيمانى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. (٩) ﴾ [المنافقون]

فحيثية تلقِّى الأحكام وطلب الله أنْ نلتزم بها هى إيماننا بالله الذى يُكلف بافعل ولا تفعل ، فالإنسان الذى ارتضى دخول الإيمان بالله جلَّ جلاله قد دخل فى عقد الإيمانى مع الله تبارك وتعالى .

وما دام قد دخل فى العقد الإيمانى فإنه يتلقَّى عن الله منهجه افعل ولا تفعل ، وهذا المنهج عليه أنْ يُطبِّقه دون أنْ يتساءل عن الحكمة فى كل شيء .

فحكمة أىِّ تكليف إيمانى هى أنه صادر من الله سبحانه وتعالى ، وما دام صادراً من الله فهو لم يصدر من مُساوٍ لك كى تناقشه ، ولكنه صادر من إله وجبتْ عليك له الطاعة لأنه إلهٌ وأنت له عابد .

فيكفى أنَّ الله سبحانه وتعالى قال : افعل حتى نفعل ، ويكفى أنه قال : لا تفعل حتى لا نفعل .

إذن : فكلُّ تكاليف من الله نفعلها لأن الله شرعها ولا نفعلها لأىِّ شيء آخر ، وكلُّ ما يأتينا من الله قرآنٌ نستقبله على أنه كلام الله ولا نستقبله بأىِّ صيغة أخرى ، ذلك هو الإيمان الذى يريد الله منَّا أنْ نتمسَّك به ، وأنْ يكون هو سلوك حياتنا .

وإذا كان الحق سبحانه قد نادى مَنْ آمن بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. (٩) ﴾

[المنافقون] فأمرهم بالسعي إلى ذكر الله : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ .. (٩) ﴾ [الجمعة] فهذا أمرٌ بافعل .

فإن الحق سبحانه نهى الذين آمنوا ، فقال هنا : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ .. (٩) ﴾ [المنافقون]

واللهو هو قتْل الوقت فى عمل قد يشغل الإنسان عن الواجب ، والحياة الدنيا إذا كانت مجردة من منهج الله الذى خلقها وخلق الإنسان فيها فهى لهو ولعب .

فاللهو هو الترويح عن النفس بما لا تقتضيه الحكمة ، فالدنيا تمرُّ عليهم فى لهو ولعب ومشاغل ، ولم يأخذ الحياة بالجد اللائق بها ، فكلُّ ما يُلهيك عمَّا يضعه لك إلهك هو لهو ، لأنه شغلك عما هو أهمّ .

وكلمة اللهو أى الشيء الذى لا مصلحةَ فيه ويشغلك عن مطلوب منك ، وهنا فرْق بين اللهو واللعب ، وكلاهما لا مصلحة فيه ويشغلك عن مطلوب منك .

وقد ذكر القرآن اللهو واللعب فى عدة آيات ، فتقدم اللعب على اللهو فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ (٣٢) ﴾ [الأنعام]

وفى قوله تعالى : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ .. (٢٠) ﴾ [الحديد] وتقدم اللهو فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا هَـٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ .. (٦٤) ﴾

[العنكبوت]

فقدَّمت الآياتُ اللعب فى آيتين ، لأن اللعب أنْ تصنع حركة غير مقصودة لمصلحة كما يلعب الأطفال ، يعنى حركة لا هدفَ لها ونقول عنها (لعب عيال) ، وسُميتْ لعباً لأن الطفل يلعب قبل أن يُكلَّف بشيء ، فلم يشغل باللعب عن غيره من المهمات .

لكن إذا انتقل إلى مرحلة التكليف فإن اللعب يشغله عن شيء طُلِب منه ، ويُسمَّى فى هذه الحالة لهواً .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا .. (١١) ﴾ [الجمعة] إذن : فاللهو هو الشيء الذى لا مصلحةَ فيه ويشغلك عن مطلوب منك .

فآية سورة العنكبوت التى قدَّمتْ اللهو على اللعب تعنى أن أمور الاشتغال بغير الدين قد بلغت مبلغاً ، وأن الفساد قد طمَّ واستشرى الانشغال بغير المطلوب عن المطلوب .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (٦) ﴾ [لقمان]

ومعنى (لهو الحديث) قال العلماء[1] : هو كل ما يُلهى عن مطلوب الله ، وعليه فالعمل الذى يُلهى صاحبه يُعد لهواً إنْ شغله مثلاً عن الصلاة ، أو عن أداء واجب لله تعالى .

ومنتهى اللهو واللعب أنْ يلعبوا عند سماع القرآن فلم يستمعوا له ، حتى على أنه لهو له غاية ، إنما على أنه لعب لا غاية له ولا فائدة منه ، لأن غايته ضارة .

واللعب وإنْ كان مُباحاً فى فترة ما قبل البلوغ ، إنما القلوب يجب أنْ تُربَّى على أنْ تلتفت إلى الله عزَّ وجلّ الخالق الرازق فى هذه الفترة المبكرة من حياة

(١) قال ابن عباس : لهو الحديث أى باطل الحديث . وهو الغناء ونحوه ، وقال ابن مسعود : هو رجل يشترى جارية تغنيه ليلاً أو نهاراً . ذكرهما السيوطى فى الدر المنثور . قال الشوكانى فى تفسيره فتح القدير (٤٨٣/٥) : هو كل ما يلهى عن الخير من الغناء والملاهى والأحاديث المكذوبة وكل ما هو منكر . وقال البقاعى فى (نظم الدرر) (٦/٦) : أى ما يلهى من الأشياء المتجددة التى تُستلذ فيقطع بها الزمان من الغناء والمضحكات وكل شيء لا اعتبار فيه .

الإنسان . وهذه مهمة الأب فإنْ أتى لولده بطعام أو شراب يقول أمام الولد الصغير : ربنا رزقنا به .

وهكذا في كل أمور الحياة يسند الأمر إلى الله ، وينبه الولد الصغير : قُلْ بسم الله . قُلْ : الحمد لله .

وهكذا تُربِّي في الولد مواجيده[1] على اليقين بالله القوى ، وإنْ كان الولد لا يراه فإنه يرى آثاره ونعمه ، ويرى أباه الذي يتعهده ويأتي له بكل شيء لا يتصيَّد المجد لنفسه ، إنما ينسب كلّ شيء إلى الله .

فأبوه - وهو المثل الأعلى له - يُزحزح هذه المسائل عنه وينسبها لله ، فيتربّى وجدان الولد على الإيمان ، فإذا لم يُربَّ الولد هذه التربية تسلَّل إلى نفسه اللهو واللعب .

والدنيا إذا ما بعدت عن منهج الله فهي دار لهو ولعب لا فائدةَ منها ، ولكنَّ الله خصَّ هنا من الدنيا أمرين : الأموال ، والأولاد ، فقال تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ .. (٩) ﴾ [المنافقون]

فالحق سبحانه ينهى الذين آمنوا أنْ تشغلهم أموالهم أو أولادهم عن ذكر الله، وهذان جمع الله بينهما في آية آل عمران ، يقول تعالى : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٤٦) ﴾[2] [الكهف]

وهذان العنصران أساسيان في فتنة الناس في الدنيا : المال والبنون ، لكن

---

(١) المواجيد : هي ما يجده الإنسان في نفسه من مشاعر الإيمان وحلاوة الطاعة وسرور المحبة . وهناك مواجيد ومشاعر معصية . وهناك مواجيد أهل التقوى وما يجدونه من العزة والشرف في الدنيا .

(٢) قال القرطبي في تفسيره (الكهف ٤٦) : إنما كان المال والبنون زينة الحياة الدنيا لأن في المال جمالاً ونفعاً . وفي البنين قوة ودفعاً ، فصارا زينة الحياة الدنيا . وقال البيضاوي في تفسيره (٣/ ٥٠٠): يتزين بها الإنسان في دنياه وتفنى عنه عما قريب . وقال ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٢٢٨) : هذا رد على المشركين الذين كانوا يفتخرون بالأموال والأولاد فأخبر الله تعالى أن ذلك مما يُتزين به في الدنيا .

لماذا قدَّم المال ؟ أهو أغلى عند الناس من البنين ؟

نقول : قدَّم الحق سبحانه المال على البنين، والأموال على الأولاد ليس لأنه أعزّ أو أغلى ، إنما لأن المال عام فى المخاطب على خلاف البنين ، فكلُّ إنسان لديه المال وإنْ قلَّ ، أما البنون فهذه خصوصية ، ومن الناس مَنْ حُرم منها .

كما أن الأولاد والبنين لا يأتُون إلا بالمال ، لأنه يحتاج إلى الزواج والنفقة لكى يتناسل وينجب . إذن : كلٌّ واحد له مال ، وليس لكل واحد بنون .

ومعنى أن : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٤٦) ﴾ [الكهف] أنهما ليسا من ضروريات الحياة ، فهما مجرد شكل وزخرف ، لأن المؤمن الراضى بما قُسِم له يعيش حياته سعيداً بدون مال وبدون أولاد .

فالإنسان قد يشقى بماله أو يشقى بولده لدرجة أنه يتمنى لو مات قبل أنْ يُرزق هذا المال أو هذا الولد ، وقد ترى الرجل كدراً مهموماً لأنه يريد الولد ليكون له عِزْوة وعزة ، وربما يُرزق الولد ويرى الذلَّ على يديه .

وليس المقصود بالأموال هنا الذهب والفضة ، إنما الأموال كلمة عامة تعم الذهب والفضة والنقود ، وتعمُّ الخيل والزرع والماشية وكلّ ما يُتموّل به إلا أننا نصرفه إلى شيء يمكن أنْ يأتى بكلٍّ ما يتمول ، وأسميناه النقد ، وأصبحت له الغلبة لأننا نشترى بالنقد كلَّ شيء .

والمال ينقسم قسمين : مال يمكن أنْ تنتفع به مباشرة ، فهناك مَنْ يملك الطعام ، وآخر يملك الشراب ، وثالث يملكَ أثواباً ، وهذا نوع من المال يُنتفع به مباشرة ، وهناك نوع آخر من المال وهو النقد ولا يُنتفع به مباشرة ، بل يُنتفع به بإيجاد ما يُنتفع به مباشرة .

فلا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله لأنها لن تُغنى عن أحد يوم

القيامـة ، يقول تعـالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا .. (١١٦) ﴾ [آل عمران]

فالأمـوال والأولاد هم من مظـانّ الفتنة ومصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨) ﴾ [الأنفال]

والمنـافقـون والكافـرون لا ينجحون فـى فتنة الأمـوال والأولاد ، بل سوف يأتى يومٌ لا يملكون فيه هذا المال ولا أولئك الأولاد ، وحتى إنْ ملكوا المال فلن يشتروا به فى الآخرة شيئاً ، وسيكون كلُّ واحد من أولادهم مشغولاً بنفسه .

وذلك مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ [1] (٣٣) ﴾ [لقمان]

وإذا كانـت الأموال والأولاد من زخرف وزينة الحياة الدنيا ، فلماذا نجعلها تُلهينا عن ذكر الله وتشغلنا عن واجبات وفرائض فرضها الله علينا وننصرف عمَّا هو أهمّ إلى ما هو زينة وزخرف ؟

وقـد سُئِـلَ رسول الله ﷺ عـن قوله تعـالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ .. (٩) ﴾ [المنافقـون] فقـال ﷺ : « هم عباد مـن أمتـى الصالحون منهم ، لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وعن الصلاة المفروضة الخمس »[2] .

---

(١) الغَرور : الشيطان . وهو الباطل . قاله قتادة . أخرجه عبد الرزاق فى تفسيره (٢٤٣٤) . والغرور : الشيطان يغر الناس بالأمانى الباطلة والمواعيد الكاذبة . [فتح القدير للشوكانى ٢/٦٢] .

(٢) أورده السيوطى فى الدر المنثور [المنافقون ٩] من حديث ابن عباس رضى الله عنهما وعزاه لابن مردويه . وذكره الشوكانى فى فتح القدير (٥/٢٢٨) بلفظ آخر عن ابن عباس ومعزواً لابن مردويه أيضاً قال : كانوا رجالاً يبتغون من فضل الله يشترون ويبيعون ، فإذا سمعوا النداء بالصلاة ألقوا ما فى أيديهم وقاموا إلى المسجد فصلوا .

فهـؤلاء عبـادٌ مـن أمة محمـد ﷺ ، ولكن رسـول الله يُخصِّص منهـم صنفاً معينـين ، فيقـول « الصالحون منهـم » ، أولئك الذين يَصلـون أنفسهم بـالله عز وجـل بذكره سبحـانه ، ويعطيهم المعونة ليكونوا أهلاً لقيادة حركة الحياة فى الأرضـ ، فيُوطدوا فيهـا الأمن والسـلام والرحمة والعدل ، وهذا هو ما يجب أنْ يكون مجالاً للفخر .

والسبيل إلى ذكر الله هو تجديد الصلة به سبحـانه والوقوف بين يديه مقيمين للصلاة ، حتى فى أثنـاء القتـال والخوف لا ننسى ذكر الله .

والذكْر مطلقاً هو ذِكْر الله بـآلائه وعظمته وقدرته وصفات الكمال له ، وذِكْر الله أمر متصلٌ واجب فى الصلاة وفى غيرهـا ، لذلك قـال تعـالى : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ .. (١٠٣) ﴾ [النساء]

والذكر أيضاً الاعتبـار والتذكُّر ، وأنْ تعيش كمسلم فى منهج الله ، ومرة يُراد بـالذكر التسبيح والتحميد ، يقول تعـالى : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ[1] (٣٦) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ .. (٣٧) ﴾ [النور]

وهـو ذِكْـر لأن هنـاك مَـنْ يُسبح لـه فيهـا بـالغـدو والآصال ، وهـم رجال موصوفون بـأنهم لا تُلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله .

وقد يُطلق الذكر ويُراد منه خير الله على عباده ، ويُراد به كذلك ذكر عبادتهم له بـالطاعة ، فسبحـانه يذكرهم بـالخير ، وهم يذكرونه بـالطاعة .

وإياكـم أنْ تُلهيكـم أعمالكم ومصالحكم الدنيويـة عن ذكر الله ، قـال تعـالى : ﴿ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) ﴾ [الجمعـة] هذا فى سورة

(١) الغدو صلاة الصبح . والآصال : صلاة الظهر والعصر والعشاءان . ومعنى بـالغدو والآصال : بـالغداة والعشى . [فتح القدير للشوكانى ٥/٢٢٤] .

الجمعة ، أما هنا فإياكم أنْ تلهيكم أموالكم وأولادكم عن ذكر الله .

قال تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ .. (٩) ﴾ [المنافقون]

وإياكم أنْ تعتقدوا أنْ ذِكْر الله فى المسجد أو وقت الصلاة فقط ، بل داوموا على ذِكْر الله فى كلِّ أحداث الحياة ، فإنْ فعلتم ذلك وذكرتم الله كثيراً فستكونون من المفلحين .

وذِكْر الله كثيراً معناه أنك تشعر فى كل لحظة أن الله سبحانه وتعالى معك فتخشاه وتحمده وتستعين به ، وهكذا تكون الصلةُ دائمةً بينك وبين الله عزَّ وجلَّ فى كلِّ وقت .

فمَنْ أخذه هواه وألهاه عن ذكر الله ، فما دام قد انشغل بشيء يوافق هواه فلن يهتم بمطلوب الله ، إنه مشغولٌ بمطلوب نفسه . فاستحضر ذكر الله واجعله على بالك دائماً .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت] أى : أكبر من أيِّ عبادة ، لأن العبادات كما ذكرنا تحتاج إلى استعداد وإلى وقت وإلى مشقة وإلى تفرُّغ وعدم مشغولية .

أما ذِكْر الله فهو يجرى على لسانك فى أيِّ وقت وبدون استعداد أو مشقة ويلهج به لسانك فى أيِّ وقت ، وعلى أيِّ حال أنت فيه .

وما دام أن الذكْر هو أنْ تجعل الله على بالك ، فلا يمنعك من ذلك سَعْيٌ ولا عمل ، لأن الذكر أخفُّ العبادات وأيسرُها على النفس وأثقلُها فى الميزان .

والذكر هو العبادة الوحيدة التى لا تُكلفك شيئاً ولا تعطل جارحة من جوارحك ولا يحتاج منك إلى وقت ولا إلى مجهود ، وليس له وقت مخصوص .

فمَنْ ذكر الله قائماً ، وذكر الله قاعداً ، وذكر الله على جَنْبه عُدَّ من الذاكرين[1] – هذا بالنسبة لوضعك – ومَنْ ذكر الله بُكْرة ، وذكر الله أصيلاً أو غدواً وعشياً أصبح من الذاكرين ، هذا بالنسبة للزمان .

ومن قال : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، ولا حوْلَ ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ثلاثين مرة فى اليوم كُتب من الذاكرين[2] ، ومَن استيقظ ليلاً فأيقظ أهله وصلَّى ركعتين فهو من الذاكرين[3] .

إذن : فذكْر الله مسألة سهلة تستطيع أنْ تذكر الله وأنت تعمل بالفأس أو تكتب بالقلم ، تذكر الله وأنت تأكل أو تشرب ، فذِكْر الله وإنْ كان أكبر إلا أنه علَى المؤمن سهلٌ هيِّن .

وقد يسأل سائل : وإذا كان ذِكْر الله سهلاً هيِّناً ويُعتبر أخفَّ العبادات ، فهل هذا يصعب على أحد أنْ يقوله ، ولماذا يقول تعالى : ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) ﴾ [المنافقون]

وهذا يُعطينا ملمحاً أن ذكر الله المقصود هنا هو أمر مطلق أكبر من الذِّكْر والتسبيح والتهليل ، وهو الالتزام بمنهج الله تعالى ، لذلك فمَنْ لا يلتزم بمنهج الله هم الخاسرون .

---

(١) أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ..(١٩١) ﴾ [آل عمران] قال : هذه حالاتك كلها يا ابن آدم ، اذكر الله وأنت قائم ، فإن لم تستطع فاذكره جالساً ، فإن لم تستطع فاذكره وأنت على جنبك . يُسر من الله وتخفيف . وأخرج ابن أبى حاتم فى تفسيره (٤٦٥٧) عن مجاهد قال : لا يكون العبد من الذاكرين كثيراً حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً .

(٢) أورده السمعانى فى تفسيره (٤/٢٨٤) قال : روى الضحاك بن مزاحم عن ابن عباس أن النبى ﷺ قال: « من قال سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله كُتب من الذاكرين الله كثيراً وتحات عنه خطاياه كما يتحات الورق عن الشجر ونظر الله إليه ومن نظر الله إليه لم يعذبه » .

(٣) أخرج البيهقى فى سننه الصغرى (٦٠٩) عن أبى سعيد وأبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ « من استيقظ من الليل فأيقظ أهله فصليا ركعتين جميعاً كتب ليلتئذ من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات » .

والخسـران أنَّ الـذى وصلوا إليه هو من عملهم ، لأنهـم تركوا المنهج وبدأوا يُشرِّعون لأنفسهم بهوى النفس .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ .. (١٦) ﴾ [البقرة]

فهـم خسـروا كلَّ شيء لأنهم لم يربحوا ، فكأنهـم لم يحققوا شيئاً له فائدة ، وخسـروا الهدى أى خسروا الربح ورأس المال ، وخسروا دنيـاهم وآخـرتهم ، وخسروا أنفسهم .

وقولـه تعـالى : ﴿ هُمُ الْخَاسِرُونَ .. (٩) ﴾ [المنافقون] يـدلُّ على أن الصفقة انتهت وضاع كلُّ شيء ، لأن نتيجتها كانت الخسران ، وليس الخسران موقوتاً ، ولا هـو خسران يمكـن أنْ يُعوّض فى الصفقة القادمة ، بـل هو خسرانٌ أبديٌّ والندم عليها سيكون شديداً .

أمـا الذيـن يذكرون الله فيتمسَّكون بمنهجه سبحانـه ويذكْره الذى أنزله الله علـى رسولـه ﷺ فـ : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .. (٥) ﴾ [البقـرة] والمعنى العام للفلاح هو الفوز ، والمفلح هو الفائز .

والفَـلاَح مأخوذ من شقِّ الأرض للبذر ، ومنـه سُمِّى الفلاَّح الذى صِفته شَقُّ الأرض ورَمْى البذور فيها .

فـإذا كانت الأرضُ صماء فحينما نشقُّها ونبذرهـا تعطى محصولاً عظيماً وافـراً ، ومـن هنا جاءت كلمة (المفلحون) ليعطينا الحق جلَّ جلاله من الأمور المـاديـة المشهودة ما يُعـين عقولنا المحدودة على فَهْم الغيب ، فيشبِّه التكليف وجزاءه فى الآخرة بالبذور والفلاحة .

فكلمة (المفلحون) هى كلمة معها دليلها ، فالمفلح هو الذى أخذ الصفقة الرابحة ، لذلك كان مقابلها (الخاسرون) .

فكيف تُلهيك الأموال والأولاد عن ذِكْر الله ومنهجه ، ومَنْ يغتر بالمال أو الأولاد فى الحياة يأتى يوم القيامة ويجد أمواله وأولاده حسرةً عليه ؟ لماذا؟ لأنه كلَّما تذكر أنَّ المال والأولاد أبعداه وألهياه عمَّا يُؤهِّله لهذا الموقف فهو يُعانى من الأسى ويقع فى الحسرة .

ولذلك أشار إليهم الحق سبحانه بقوله : ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) ﴾ [المنافقون]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

أنا لا أطلب منكم أن تنفقوا عليّ، ولكن أنفقوا من رزقكى عليكم ، فالرزق يأتى من حركة الإنسان ، وحركة الإنسان تحتاج طاقةً تتحرك فى شيء أو مادة، وهذه الحركة تأتى على ترتيب فكر ، وهذا الفكر رتَّبه من خلقه ، والجوارح التى تنفعل ، واليد التى تتحرك ، والرِّجْل التى تمشى خلقها الله ، والمادة التى تفعل بها مخلوقة لله .

وسنأخذ الزارع نموذجاً فنجد أن الأرض التى فيها العناصر مخلوقة لله . إذن : فالإنسان يُعمل العقل الذى خلقه الله ، ويُخطِّط بالجوارح التى خلقها الله

لتأتى له بالطاقة التى يعمل بها فى المادة التى خلقها الله لتعطى للإنسان خيرها ، فأىُّ شيء للإنسان إذن ؟

فحين يقول الله تعالى : ﴿ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ .. (١٠) ﴾ [المنافقون] فأنتم لا تتبرعون لذات الله ، بل تنفقون مما رزقكم الله ، ومن فضل الله عليكم أنه احترم أثر عملكم ونسبه لكم حتى أنه إن احتاج أخوك ، فإن الحق يستقرض منك .

فهو سبحانه يقول : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥) ﴾ [البقرة]

والحق سبحانه يُنبهنا أنْ ننفق من رزقه لنا من قبل أنْ يأتى اليوم الآخر الذى لا بيعٌ فيه ، يقول تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ[1] وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٥٤) ﴾ [البقرة]

فاليوم الآخر ليس فيه بيع ولا شراء ولا فيه خلة ولا شفاعة ، وهذه هى المنافذ التى يمكن للإنسان أنْ يستند عليها ، فأنت لا تملك ثمناً تشترى به ، ولا يملك غيرُك سلعة فى الآخرة ، إذن : فهذا الباب قد سُدَّ .

وكذلك لا توجد خُلَّة أو شفاعة ، فأنتم إذا أنفقتم اتقيتم ذلك اليوم ، فانتهزوا الفرصة من قبل أنْ يأتى يوم لا بيع فيه ولا خُلَّة ولا شفاعة .

وقوله تعالى : ﴿ مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ .. (١٠) ﴾ [المنافقون] فالرزق رزق الله ، ولكن الله جعله من كسب الإنسان ونسبه إليه ، فقال تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ .. (٢٦٧) ﴾ [البقرة]

ولكن لا تظن أن الكسبَ هو الأصل فى الرزق ، لا إنَّ الكسب هو حركة موهوبة لك من الله ، وهذا فى حَدِّ ذاته رزقُ الله لك ، إنك أيها العبد إنما تتحرك بطاقة

---

(١) خلة : الخلة خالص المودة مأخوذة من تخلل الأسرار بين الصديقين . [فتح القدير للشوكانى ١/ ٣٦٥] والخلة : الصداقة كأنها تتخلل الأعضاء .

موهوبة لك من الله وبفكر ممنوح لك من الله ، وفى أرض سخَّرها الله لك .

والإنفاق خاصة المتوازن يُثرى حركة الحياة ويُسهم فى إنمائها ورُقيِّها على خلاف القبْض والإمساك ، فإنه يُعرقل حركة الحياة وينتج عنه عطالة وبطالة وركود فى الأسواق وكساد يفسد الحياة ويعُوق حركتها .

إذن لابدَّ من الإنفاق لكى تساهم فى سَيْر عجلة الحياة ، والإنفاق يقتضى إخراج المال عن ملكية الإنسان ببيع أو هِبَة أو صِلَة .

وأصل كلمة الإنفاق مأخوذة من نفقتْ السوق أى راجتْ لأن السوق تقوم على البضاعة ، وحين تأتى إلى السوق ولا تجد سلعاً فذلك يعنى أن السوق رائجة ، ولكن عندما تجد البضائع مُكدَّسة بالسوق فذلك يعنى أن السوق لا زالتْ قائمة .

إذن : فمعنى « نفقتْ السوق » أى : ذهبت كلُّ البضائع كما تذهب الحياة من الدابة .

ولفظة ﴿ وَأَنْفِقُوا .. (١٠) ﴾ [المنافقون] هنا لا تعنى الصدقة فقط أو إخراج الزكوات ، إنما تعنى مطلق الإنفاق وعدم كنز المال ، يقول الحق سبحانه :
﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .. (٣٤) ﴾ [التوبة]

والكنْز مأخوذ من الامتلاء والتجمُّع ، ولذلك يُقال « الشاة مكتنزة » أى مليئة باللحم وتجمَّع فيها لحم كثير . إذن : فيكنزون أى يجمعون .

وقوْل الحق سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ .. (٣٤) ﴾ [التوبة]
وهذان المعدنان هما أساس الاقتصاد الدنيوى ، فقد بدأ التعامل الاقتصادى بالتبادل أى سلعة مقابل سلعة ، وهى ما تُسمَّى عمليات المقايضة ، وعندما ارتقى التعامل الاقتصادى اخترعت العملة التى صارت أساساً للتعامل بين الناس والدول .

فالحقُّ سبحانه أراد أنْ يلفتنا إلى أن الذهب والفضة هما أساس التعامل فى تسيير حركة الحياة الاقتصادية ، وأن هذا التعامل يقتضى الحركة الدائمة للمال ، لأن وظيفة المال هى الانتفاع به فى عمارة الأرض .

ولو أنك لم تُحرك مالك وكنتَ مؤمناً فإنه ينقص كلَّ عام بنسبة ٢,٥٪ وهى قيمة الزكاة ، ولذلك يفنى هذا المال فى أربعين سنة ، فإنْ أراد المؤمن أنْ يُبقى على ماله فيجب أنْ يُديره فى حركة الحياة ليستثمره وينميه ولا يكنزه حتى لا تأكله الزكاة ، وهى نسبة قليلة تُدفع من المال .

ولكن إذا أدار صاحب المال ما يملكه فى حركة الحياة فسينتفع به الناس وإنْ لم يقصد أنْ ينفعهم به ، لأن الذى يستثمر أمواله مثلاً فى بناء عمارة ليس فى باله إلا ما سيُحققه من ربح لذاته .

ولكن الناس ينتفعون بهذا المال ولو لم يقصد هو نفعهم ، فمَنْ وضع الأساس يأخذ أجراً ، ومَنْ جاء بالطوب يأخذ قدْر ثمنه ، ومَنْ أحضر أسمنتاً أخذ ، ومَنْ جاء بالحديد أخذ ، والمعامل التى صنعت مواد البناء أخذتْ ، وأخذ العمالُ أجورهم فى مصانع الأدوات الصحية وأسلاك الكهرباء وغيرها .

والذين قاموا بتركيب هذه الأشياء أخذوا . إذن : فقد انتفع عدد كبير فى المجتمع من صاحب العمارة ، وإنْ لم يقصد هو أن ينفعهم ، ولذلك فإن الذى يبنى عمارة يُقدِّم للمجتمع خدمة اقتصادية ينتفع بها عددٌ من الناس ، وكذلك كل مَنْ يقيم مشروعاً استثمارياً .

إذن : سبحانه وتعالى لا يريد من المال أنْ يكون راكداً ، ولكنه يريده مُتحركاً ولو كان فى أيدى الكافرين ، لأنه إذا تحرّك وأنفق أفاد الناسَ جميعاً ، فيحدث بيع وشراء وإنتاج للسلع وإنشاء للمصانع وتشغيلٌ للأيدى العاملة إلى غير ذلك .

ولكن إنْ كنز كلُّ واحد منَّا ماله فلم يُنفقه ولم يستثمره فى حركة الحياة

فالسلع لن تُستهلك ، والمصانع ستتوقف ويتعطّل الناسُ عن العمل .

إذن : فالحقُّ سبحانه وتعالى يريد للمال أنْ يتحرك ولا يكنز ، ولكن الكنز فى هذه الآية لا يأتى فقط بمعنى الجمع ، ولكنه أيضاً بمعنى أنهم لا يؤدون حَقَّ الله فيها .

ولذلك فإنَّ المال الذى أخرجتَ زكاته لا يُعَدُّ كنْزاً ، لأنه يتناقص بالزكاة عاماً بعد آخر .

وأنت إنْ أنفقتَ ولم تكنز المال حدثَ رواجٌ فى السوق ، والرواج معناه إيجادُ العمل ووسائل الرزق ، وإيجاد الحافز الذى يؤدى إلى ارتقاء البشرية ، وأنت حين تشترى لبيتك غسالة أو ثلاجة أو بنيتَ بيتاً صغيراً فإنك تُوجِد رواجاً اقتصادياً فى المجتمع .

وفى نفس الوقت ارتقيتَ بوسائل استخداماتك ، والرواج يدفع إلى اكتشاف الأحسن الذى يفيد البشرية ، ولكن إذا كنزتَ كلَّ مالك ساد الكساد الاقتصادى.

وليس معنى ذلك أنْ ينفق صاحبُ المال كلَّ ماله وزيادة ، لأن الحق سبحانه يريد الوسط فى كل شيء ، ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ[1] قَوَامًا (٦٧) ﴾ [الفرقان]

والحق سبحانه فى هذه الآية يحذر من سفاهة الإنفاق وعدم الإبقاء على جزء من المال لمواجهة أىِّ أزمة مفاجئة ، لكنك إنِ قترتَ حدث كسادٌ فى السوق

---

(١) ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان ٦٧] أى : عدلاً . يعنى بين الإسراف والإقتار مقتصداً . قال ابن زيد : القوام بين ذلك أن تنفقوا فى طاعة الله وتمسكوا عن محارم الله . [تفسير ابن أبى حاتم ١٥٣٩٥].

وتوقُّف الإنتاج وتعطّل العمال ، والإسلام يريد نفقة معتدلة تُوجد الرواج السلعي وادخاراً تستخدمه في الارتقاء بحياتك ومواجهة الأزمات .

والإنفاق أنواع : إنفاقٌ في المساوي لإبقاء الحركة الدائمة بين المنتج والمستهلك ، وإنفاق في غير المساوي بإعطاء الزكاة للفقير والمحتاج والمعدم، والزكاة تُنقِّي المجتمع من مفاسد كثيرة ، فهي تمنع الحقد بين الناس .

فالفقير إذا وجد مَنْ يعطيه فهو يتمنى له دوام النعمة حتى يستمر العطاء ، فلا يسخط الفقير على الغني ، والغني والفقير متساويان في الانتفاع .

فالفقير عندما يأخذ لا يسخط على أنه فقير ، ولكنه يُحِسُّ بالعطاء حوله ، والغنيُّ حين يُعطي يُحسُّ أنَّ هذا أمانٌ له ، لأنه إنْ ذهبتْ عنه النعمة فسوف يجد مَنْ يُعطيه .

وهكذا يحدث توازن في المجتمع بين الناس ، فلا يوجد مَنْ لا يستطيع الحصول على ضروريات الحياة ، ولا يوجد مَنْ لديه فائضٌ يحبسه عن الناس.

ومعنى قوله تعالى : ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ .. (١٠) ﴾ [المنافقون] أي : انتهزوا الفرصة وبادروا مهلة الحياة ، فمن حكمته سبحانه أنه أخفى ساعة موته ، أخفاها للفرد وأخفاها للجميع ، وربما لو عرف الإنسان ساعته لقال : أفعل ما أريد ثم أتوب قبل الموت .

ولا يشك أحدٌ في أنه سيموت ، فالموت مُقدَّر على الناس جميعاً ، الذي تخمد فيه بشريتنا ، وتتوقف حياتنا بالموت وينقطع عملنا .

وقد قال رسول الله ﷺ : « إذا ماتَ الإنسانُ انقطع عمله إلا من ثلاثة : صدقة

جارية ، أو علم يُنتفع به ، أو ولد صالح يدعو له »[١] .

فمَنْ مات انقطع عمله وطُويَتْ صحيفته ، ولا يمكنه تدارك ما فاته من الإيمان أو العمل الصالح ، فكأنَّ قيامته قامتْ بموته ، وإياك أنْ تستطيلَ عمر الدنيا ، لأن عمر الدنيا لك ولغيرك فلا تحسب الأمر بالنسبة إليك على أساس عمر غيرك الذى قد يطول عن عمرك .

إذن : مدة الحياة محدودة ، وما دام الموتُ قد جاء فعلى المؤمن أنْ يتذكَّر قوْلَ رسول الله ﷺ : « إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته »[٢] .

ومن حكمة الله أنْ أبهم الموت ، أبهمه وقتاً ، وأبهمه سبباً وأبهمه مكاناً، فكان إبهام الموت هو عَيْن البيان للموت ، لأن إبهامه يجعل الإنسانَ على استعداد للقائه فى أىِّ وقت ، وبأيِّ سبب ، وفى أىِّ مكان ، فالموت يأتى غفلة لأنه لا يتوقف على وقت أو سبب أو مكان .

فالطفل يموت وهو فى بطن أمه ، ويموت بعد يوم أو أيام من ولادته ، ويموت بعد مائة عام ، ويموت بسبب وبدون سبب ، وقد نتعجَّب من موت أحدنا فجأة دون سبب ظاهر ، فلم تصدمه سيارة ، ولم يقع عليه جدار أو حجر ، ولم يداهمه مرض ، فما السبب ؟

السبب هو الموت ، إنه سيموت ، أى : أنه مات لأنه يموت ، كما يقال : والموت من دون أسباب هو السبب .

وهذا الموت له لحظة محددة وساعة محددة لا يعلمها إلا الله ، وإذا جاءتْ

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٤٣١٠) وأبو داود فى سننه (٢٨٨٢) والترمذى فى سننه (١٣٧٦) وقال : حديث حسن صحيح . وأحمد فى مسنده (٨٨٣١) وإسناده صحيح . عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية ، أو علم يُنتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٤٣١٠) وأحمد فى مسنده (٨٨٣١) وأبو داود فى سننه (٢٨٨٢) والترمذى فى سننه (١٣٧٦) وقال : حسن صحيح . وكذا النسائى فى سننه (٣٦٥١) وصححه الألبانى .

ساعةُ موتِ إنسانٍ لا يستأخر ولا يستقدم لحظة ، قال تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ .. (٦١) ﴾ [النحل]

فإذا جاء الأجل لا أحدَ يستطيع تأخيره لأن التوقيتَ فى يد قيُّوم الكون . وهم أيضاً لا يستقدمون هذا الأجل ، فالأجل إذا جاء فهو لا يتأخر عن ميعاده ولا يتقدَّم عن ميعاده .

والبعض ممَّنْ قصَّروا فى حياتهم وفى مدة عمرهم فلم يُنفقوا مما رزقهم الله أو لم يُزكُّوا أو لم يُصلُّوا ويفاجئهم الموت ، يقول تعالى : ﴿ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ (١٠) ﴾ [المنافقون]

﴿ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي .. (١٠) ﴾ [المنافقون] أى : هلاّ أمهلتنى ومددْتَ فى عمرى : ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ .. (١٠) ﴾ [المنافقون] ولو لمدة يسيرة صغيرة ، فهو يريد أنْ يأخذ من الحياة فرصة أكبر .

والسبب فى هذا هو طُول الأمل الذى غرّه ، كهذا الذى عاجله الموت قبل أنْ يحجّ مثلاً ، فإنْ أمهله العمر حتى يحج فقد سقط عنه هذا الفرض ، لكن مَنْ يضمن له البقاء إلى أنْ يؤدى هذه الفريضة .

لذلك ورد فى الحديث : « حُجُّوا قبل أنْ لا تحجُّوا »[1] كذلك الحال فى وقت الصلاة فهو ممتد ، لكن مَنْ يضمن لك امتداده ، لذلك تارك الصلاة يأثم فى آخر لحظة من حياته ، فإنْ ظلَّ إلى أنْ يصلى فلا شيءَ عليه ، ثم إنَّ هذا العمر القصير مظنون غير متيقن ، فربما داهمك الموتُ فى أيِّ لحظة ، ومَنْ مات قامتْ قيامته .

---

(١) أخرج الدارقطنى فى سننه (٢٧٩٥) عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « حجوا قبل أن لا تحجوا. قيل : ما شأن الحج ؟ قال : تقعد أعرابها على أذناب أوديتها فلا يصل إلى الحج أحد . وكذا أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى (٨٩٦٣) والفاكهى فى أخبار مكة (٨٠٩) .

﴿ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ .. (١٠) ﴾ [المنافقون] فهم يطلبون الرجعة ليُصلحوا أعمالهم ، ومعلوم أنهم لا يُجابون إلى ذلك .

والمعلوم من طَبْع الناس عند حضور الموت الإنابة والتوبة والندم على ما سلف من العمل السيء أو التقصير فى فعل العمل الصالح .

فهو يطلب المهلة حتى يُزكِّى ويحجّ ويتصدَّق ويُكثر من النوافل والأعمال الصالحة ، ويتقرَّب إلى الله بما يحب من أنواع القربات والطاعات ، ولكن لا ينفعه التمنى ولا الطلب والدعاء .

فالمؤمن يسأل ربه سؤالاً حثيثاً أنْ يحقق تأخير موته إلى أجل يستدرك فيه ما اشتغل عنه من إنفاق وعمل صالح .

وقد يسأل سائل : لماذا قال : ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ .. (١٠) ﴾ [المنافقون] ولم يطلب أجلاً مُتسعاً بعيداً ؟

فنقول : إنَّ المتعارف عليه بين الناس أنَّ الأمر اليسير القريب أرْجَى لأنْ يستجيب له المسؤول فيغلب ذلك على شعورهم حين يسألون الله ، فتنساق بذلك نفوسهم إلى ما عرفوا .

﴿ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ .. (١٠) ﴾ [المنافقون] نقول فى حياتنا : فلانٌ رجل صالح ومقابله رجل طالح[1] ، والرجل الصالح يرى الأمر الصالح فى ذاته فيترك هذا الشيء على ما هو عليه أو يزيده صلاحاً ، أما الرجل الطالح أو المفسد فهو يأتى إلى الشيء الصالح فيفسده ولا يفعل صلاحاً .

فكلمة (رجل صالح) تعنى أنه صالح لأنْ يكون خليفةً عن الله فى الأرض

---

(١) طلح فلان : فسد وهو طالح بيِّن الطلاح . [أساس البلاغة للزمخشرى] قال ابن سيده فى المخصص (٢٨٥/١) : الطلاح ضد الصلاح . قال الأزهرى فى تهذيب اللغة (٢٢٣/٤) : رجل طالح أى فاسد الدين لا خير فيه .

يفعل الصلاح من كلِّ عمل ، ونلاحظ أن القرآن يربط بين التصدُّق والإنفاق فى سبيل الله وبين الصلاح وأنْ يكون الإنسانُ من الصالحين .

ففى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) ﴾ [التوبة]

فهذا ثعلبة[1] قد طلب من رسول الله ﷺ أنْ يدعو له بالغنى ، فلما دعا له ، ورزقه اللهُ الرزقَ الوفير بخل عن الزكاة ، وحاول أنْ يتهرَّب من دفعها .

وعندما نزلتْ هذه الآيات جاء ثعلبة ليدفع الزكاة لرسول الله فلم يقبلها منه ، وعندما تُوفى رسول الله جاء ثعلبة إلى أبى بكر رضى الله عنه فلم يقبل منه الزكاة ، وبعد أبى بكر جاء إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فلم يقبلها منه ، ومات ثعلبة فى عهد عثمان ، هذا هو عدم القبول[2] .

المهم هنا هو أن الصدقة والإنفاق فى سبيل الله وإيتاء الزكاة هو مظهرُ

---

(١) هو : ثعلبة بن حاطب بن عمرو بن عبيد الأوسي الأنصارى شهد بدراً ، قاله محمد بن إسحاق . وهو الذى سأل النبى ﷺ أن يدعو الله أن يرزقه مالاً ، ثم منع الزكاة ، وهو الذى نزل فيه قوله سبحانه ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) ﴾ [التوبة]

(٢) عن أبى أمامة الباهلى قال : جاء ثعلبة بن حاطب إلى رسول الله فقال : يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالاً قال : ويحك يا ثعلبة ، قليل تطيق شكره خير من كثير لا تطيقه . قال : يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالاً قال : ويحك يا ثعلبة أما تحب أن تكون مثلى فلو شئت أن يُسيِّر ربى هذه الجبال معى ذهباً لسارت . قال : يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالاً فو الذى بعثك بالحق إن أتانى الله عز وجل مالاً لأعطين كل ذى حق حقه . قال : ويحك يا ثعلبة قليل تطيق شكره خير من كثير لا تطيقه. قال : يا رسول الله ادع الله . فقال رسول الله : اللهم ارزقه مالاً . قال : فاتخذ أو اشترى غنماً فبورك له فيها ونمتْ كما ينمو الدود حتى ضاقت به المدينة فتنحى بها فكان يشهد الصلاة بالنهار مع رسول الله ولا يشهدها بالليل ، ثم نمت كما ينمو الدود فتنحى بها ، وكان لا يشهد الصلاة بالليل ، ولا بالنهار إلا من جمعة إلى جمعة مع رسول الله ، ثم نمت كما ينمو الدود فضاق به مكانه فتنحى به فكان لا يشهد جمعة ولا جنازة مع رسول الله فجعل يتلقى الركبان ويسألهم عن الأخبار وفقده رسول الله فسأل عنه فأخبروه أنه اشترى غنماً وأن المدينة ضاقت به وأخبروه خبره فقال رسول الله : ويح ثعلبة بن حاطب ويح ثعلبة بن حاطب .

صلاح الإنسان ، فالصدقة تنشر الخير فى المجتمع ، وتحمى الفقراء من السقوط فى هاوية المعاصى والانحراف .

فالتكافل الاجتماعى لابد أنْ يكون موجوداً فى المجتمع ، حتى يتكافل المجتمع كله ، فأنت إنْ كنتَ فقيراً أو مسكيناً ويأتيك من رجل غنى ما يُعينك على حياتك ، فإنك ستتمنى له الخير لأن هذا الخير يُصيبك ، ولكن إذا كان هذا الغنى لا يعطيك شيئاً فهو يزداد غنىً وأنت تزداد فقراً ، تكون النتيجة أنَّ حقدك يزداد عليه .

والحق سبحانه وتعالى يريد أنْ يُشيعَ فى المجتمع روح التكافل الاجتماعى، لذلك كان بعض فقهاء الأندلس[1] إذا منع الرجل زكاة تقرب من النصاب أُمِر بقطع يده كأنه سرقه ، لأن الله تعالى أسماه (حقاً) ، فمَنْ منع صاحب الحق من حقه فكأنه سرقه منه .

وقد سلك فقهاء الأندلس هذا المسلك لأنهم فى بلد ترف وغنى ، فتشددوا فى هذه المسألة لأنه لا عذرَ لأحد فيها .

والفرد حين يعمل الصالحات تكون حصيلته من صلاح غيره أكثر من حصيلته من عمله هو لأنه فرد واحد ويستفيد بصلاح المجتمع كله .

ومن هنا لا ينبغى أنْ تستثقل أوامر الشارع وتكليفاته لأنه يأخذ منك

---

(١) ثم إن الله تعالى أمر رسوله أن يأخذ الصدقات وأنزل الله عز وجل ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا .. (١٠٣) ﴾ [التوبة] فبعث رسول الله رجلين رجلاً من جهينة ورجلاً من بنى سلمة يأخذان الصدقة وكتب لهما أسنان الإبل والغنم كيف يأخذانها على وجوهها وأمرهما أن يمرا على ثعلبة بن حاطب ورجل من سليم فخرجا فمرا بثعلبة فسألاه الصدقة فقال : أريانى كتابكما فنظر فيه فقال : ما هذا إلا جزية انطلقا حتى تفرغا ثم مُرَّا بى .
فنزل فيه قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ .. (٧٥) ﴾ [التوبة] فقدم ثعلبة على رسول الله فقال : يا رسول الله هذه صدقة مالى فقال رسول الله : إن الله قد منعنى أن أقبل منك. قال : فجعل يبكى ويحثى التراب على رأسه ، فقال رسول الله : هذا عملك بنفسك ، أمرتك فلم تطعنى فلم يقبل منه رسول الله حتى مضى ، ثم أتى أبا بكر فلم يقبلها منه ، وكذا عمر . أخرجه البيهقى فى (دلائل النبوة ٥/ ٢٩٠) .

ليعطيـك وليُؤَمَّـن حياتك وقت الحاجة والعوز، وحينمـا يتوفر لك هذا التكافل الاجتماعى تستقبل الحياة بنفس راضية حال اليُسْر مطمئنة حالَ العُسْر.

والمؤمن يسأل الرَّجْعة ويسأل الله إمهاله لعله يعمل صالحاً، وحديث رسول الله يدل على هذا « مَنْ كان له مالٌ يبلغه حجّ بيت ربِّه أو تجب عليه فيه الزكاة فلم يفعل، فيسأل الرجعة عند الموت »(١).

وعندمـا روى ابـن عباس هذا الحديث قـال له رجل: يا ابـن عباس اتقِّ الله فإنمـا يسأل الرجعةَ الكفارُ. وذلك قوله سبحانه: ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠) ﴾ [المؤمنون]

ولكـن ترجمان القرآن ابـن عباس أوضح لهم ما خفى عنهـم، فقال: سأتلو عليكـم بذلك قرآناً: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ (١٠) ﴾ [المنافقون]

ويقول الحق سبحانه:

﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١) ﴾

المطلـوب مـن المؤمنين فى الحيـاة الدنيا أنْ يتسابقـوا إلى الخيرات قبل أنْ

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (المنافقون ٩) وعزاه لعبد بن حميد والترمذى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس، وقد أخرجه ابن أبى حاتم فى تفسيره (١٨٩٠١) والترمذى فى سننه (٣٣١٦) وحميد بن زنجويه فى كتاب (الأموال) (١٣٥٢).

يأتيهم الأجل ، ولا يحسب واحدٌ منهم أنه سيفلت من الله ، والحق سبحانه يقول:
﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُؤَجَّلا .. (١٤٥) ﴾ [آل عمران]

والكتـاب المؤجَّـل يُطلق مرة على زمن العمر كله ، ومـرة يُطلق على النهاية النهائيـة منـه ، والنهاية النهائيـة هي الموت الحقيقـي ، فـالقاتل حين ينقض بِنْية القتيل إنمـا يوافق الأجل المكتوب الذى أراده الله ، لكن لمـاذا نعـاقب القـاتل إذن ؟ نحن نعاقبه لأنه نقض بِنْية إنسان آخر.

فـالعلمـاء الذين يُدقِّقون فى الألفاظ يقولون : هذا المقتول لو لم يُقتل ، أكان يمـوت ؟ نقـول : نعم لأن المقتـول ميت بـأجله ، لكن الذى قتلـه هل كان يعرف ميعاد الأجل ؟ لا . إذن فهو يُعاقب على ارتكابه جريمة إزهاقِ الروح .

أمـا المقتـول فقـد كتب اللهُ عليه أنْ يفـارق الحياة بهذا العمـل ، فـالموت هو سَلْـب الحيـاة بدون نَقْض بِنْية ، وهذا لا يُجريه إلا الله ، إنمـا القتْل بهدم البنية ، فـأىُّ إنسان يستطيع أنْ يفعله فتخرج الروح بإذن الله .

وليس معنـى ذلك أن أحـداً عجّل بـأجل القتيـل ، لا ولكنه تدخَّـل فى بُنيان أقـامه اللهُ فهدمه ، ولو لم يتدخّل أحد فى بنيان الله ليهدمه لكان أجلُه قد جاء.

ولا أحدَ فينـا يعلم أجله مهمـا عرض نفسه على الأطبـاء ، ويقول تعالى :
﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (٢) ﴾
[الأنعام]

فقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَضَى أَجَلا .. (٢) ﴾ [الأنعام] أى : قضى أجلاً لكلِّ واحد، ثـم جعل أجـلاً مُسمى لكلِّ شيء ، والآجال فى الآحـاد تتـوارد إلى أنْ يـأتى أجلُ الكل ، وهو يوم القيـامة .

وتـأجيـل مـوت الإنسـان لأجل معلـوم لله سبحـانه جاء لحكمـة ، فـالأجل لو

عُـرف فقد يعصـى مَنْ يعلمه مدة طويلة ، ثم يقـوم بـالعمل الصـالح قبل ميعاد الأجل ، ولكن الله أراد من إبهـام زمـان الموت أنْ يشيع زمـانه فى كلِّ وقت .

ويقول الحق سبحـانه : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) ﴾ [الأعراف]

فـإذا جـاء الأجل فلا أحدَ يستطيع تـأخيره ، لأن التوقيت فى يد قيُّوم الكون ، وهم أيضـاً لا يستقدمون هذا الأجل ، وأنت لا تعرف متى يجيء الأجل ، وإبهـام الأجل من الله لنـا إشاعةٌ للأجل ، والإبهـام هو أوضـح أنواع البيـان ، فحين يريد ربنـا أنْ يُوضِّح أمراً توضيحياً كاملاً فهو يُبهمـه .

ومثــال ذلـك : لـو جعل الله للمـوت سنـاً لَصارَ الأمـرُ محدداً بلا أمـل ، لكنه سبحـانه لم يجعل للموت سِناً أو سبباً ، وأشاعه فى كلِّ الزمن ، والإنسان عُرْضة لأنْ يستقبل الموت فى أىِّ لحظة ، ونزول الموت لا يتوقف على سبب ، فقد يأتى بسبب وقد يـأتى بغير سبب .

ومـا دام الإنسـانُ يستقبل الموت فى أيِّ وقت ، فعلى العـاصى ألاَّ يستقبل الموت وهو على عصيان لله ، وهنـاك العديد من الأسبـاب للموت ، واعلم أن الموتَ بدون أسبـاب هـو السبب ، فـالإنسان الذى نفقده بـالموت مـات لأنَّ أجله قد انتهى .

هنــاك غـايــة تنتظركم ، غـايــات فردية هى آجـال النـاس بذواتهـم ، وآجال جمـاعية تتمثل فى يوم القيـامة ، وإذا جـاء الأجل فهو لا يتـأخر عن ميعـاده ، ولا يتقدم عن ميعـاده .

ولنعلـم أن كلَّ أجل - وإنْ طال - فهـو معدود - وكلّ معدود قليلٌ مهمـا بدا كثيراً ، لذلك فلنقُلْ أن كلَّ معدود قليل مـا دمنـا قـادرين على إحصـائه .

وهل يضمن أحدٌ أنْ يُمهلك الأجل إلى أنْ تتوب ، والموت يـأتى بغتة ، والنفس

محكوم عليها بأنها لا تستأخر ، لأن الاستئخار بعد بلوغ الأجل مستحيل .

وواقع الحياة يؤكد أنه لا وحدةَ في عمر ، ولا وحدةَ في سبب ، وقد جعل الله النفس البشرية تترقبه في كل لحظة ، فكلُّ لحظة تمرّ عليك يمكن أنْ يأتيك فيها الموت .

وهكذا أشاع الموت في كلِّ الزمن ، وما دام الأمرُ كذلك فلابد أنْ ينتبه الإنسانُ ويخشى أنْ يموت وهو على معصية ، فالإبهام هو كما قلنا عيْن البيان .

ومعنى قول الحق سبحانه : ﴿ وَلَنْ يُؤَخِّرَ .. (١١) ﴾ [المنافقون] هو قَطْع لأمل العصاة والمجرمين والمنافقين الذين يظنون أنه من الممكن أنْ يُؤخر الله نفساً استوفتْ أجلها ، فيمهلها حتى تفعل ما لم تفعله حال الصحة والسّعة والمهلة في الحياة الدنيا .

واستخدم الحقُّ سبحانه (لن) التي تعني التأبيد ، فكلمة (لن) جاءتْ بنفي المستقبل فلم يقُلْ مثلاً : لم يؤخر . بل قال : (لن يؤخر) . فالنفي هنا للتأبيد ، فلا تُمنُّوا أنفسكم بأوهام لا أساسَ لها ، ويقول تعالى : ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ .. (١٢٣) ﴾ [النساء]

ما هي الأمنية ؟ الأمنية هي الشيء الذي يحب الإنسان أنْ يحدث ولكن حدوثه مستحيل ، إذن لن يحدث ولن يكون له وجود ، فالأماني أنْ تعلَق نفسُك بأمنية وليس لهذه الأمنية سند من الواقع يُوصِّلك إلى تحقيق هذه الأمنية ، فالأماني هي مطامع الحمقى لأنها لا تتحقق .

والحق سبحانه هنا اختار لفظة (نفساً) لأنها مُعبِّرة عن مجموع مادة الإنسان وروحه ، فباجتماعهما تُوجد النفس ، والنفس هي التي لها اختيار أنْ تطيع أو تعصي .

ويتضح هذا أكثر فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ[١] فِيهَا .. (٧٢) ﴾ [البقرة] ففِعْل القتل وقع على المادة وهو الجسم بنقض البنية ووقع على الروح بإزهاقها ، فالنفس تجمع الاثنين معاً ، فهما يُشكلان معاً الإنسان .

وقد استخدمها الحق سبحانه هنا وفى آيات كثيرة نكرة مقابل (نفساً) ، والمتأمل لآيات القرآن يجد أن كلمة نفس إذا استُخدمت مُعرَّفةً بـ (ال) فنجدها تعنى الروح والمادة أيضاً .

قال الحق سبحانه : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ .. (٤٥) ﴾ [المائدة] وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ .. (١٥١) ﴾ [الأنعام] فالنفس هنا مُعرَّفة بـ (ال) مقصود بها مادة الإنسان وروحه معاً .

أما قوله تعالى : ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ .. (٥٣) ﴾ [يوسف] وقوله : ﴿ يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ﴾ [الفجر] فالنفس فيهما مقصودٌ بها روح الإنسان .

ومن روعة الأسلوب القرآنى أنه يعبر باللفظ الموجز عن معانٍ كثيرة جداً، كقول الحق سبحانه هنا : ﴿ إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا .. (١١) ﴾ [المنافقون] فلم يَقُلْ القرآن : إذا جاء الأجل ، بل قال أجلها . فنسب الأجل إلى النفس التى أوردها هنا نكرة .

وهذا معناه أن لكلٍّ نفس أجلاً خاصاً بها لا يتحد مع الآخرين ، فهناك مَنْ يموت فى بطن أمه ، وهناك مَنْ يعيش ساعةً أو ساعات ثم يموت ، وهناك مَنْ يعيش إلى أرذل العمر .

---

(١) فادارأتم : اختلفتم . قاله ابن عباس ومجاهد . وقال الزجاج : أى تدافعتم . وألقى بعضكم على بعض . [زاد المسير لابن الجوزى ١/٨٤] . وقال الربيع بن أنس : تدافعتم أى يحيل بعضكم على بعض من الدرء وهو الدفع ، فكان كل واحد يدفع عن نفسه . [تفسير البغوى ١/١٠٨] .

حتـى الجنـين الذى يمـوت فى بطن أمه نجـده يختلف من جنـين لآخر فهذا حَمْل يسقط من بعد ساعة ، وذاك حَمْل يسقط من بعد شهر أو شهور .

والمـوت يـدرك كلَّ حيٍّ ، يقول تعالى : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ .. (٧٨) ﴾ [النسـاء] وكلمـة يدرككم الموت دليـل على أن الإنسان عندما تـدبّ فيه الروح ينطلق الموت مع الروح إلى أنْ يُدركها فى الزمن الذى قدرَّه الله .

ولذلـك يقـول أهل المعرفة والإشراق : « الموت سهمٌ أُرسِل إليك ، وإنما عمرك هـو بقـدر سفره إليـك »[1] وهكذا نعـرف أن قوله الحـق : ﴿ يُدْرِككُّمُ .. (٧٨) ﴾ [النسـاء] يـدل على أن الموت يلاحـق حياة الإنسـان ويجـرى وراء روحه حتى يدركها .

ويقول الحق سبحـانه عن لحظة الموت : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (٦١) ﴾ [الأنعام]

فهـم لا يُهملون ولا يُقصرون ولا يتجـاوزون الحدَّ ، إنهم يـأتونه فى اللحظة المحددة سلفاً من الله عز وجل لا قبل ولا بعد ، لذلك قـال تعـالى : ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا .. (٦١) ﴾ [الأنعام] وقولـه : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا .. (٤٢) ﴾ [الزمر]

ومعنـى : ﴿ مُتَوَفِّيـكَ .. (٥٥) ﴾ [آل عمـران] قد يكون هـو أَخْذك الشيء تـاماً ، واللغـة العربية توضح ذلـك ، فـأنت تقول – على سبيل المثـال – لمن أقرضتَه مبلغـاً من المـال ويطلـب منك أنْ تتنـازل عن بعضه لا ، لابـد أنْ أستوفى مـالى ، وعندمـا يعطيـك كلَّ مـالك تقول لـه : استوفيت مـالى تمـامـاً ، فتوفيتـه أى : أنك أخذتَه بتمـامه .

والحـق سبحـانه يقول : ﴿ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا

---

(١) قاله عبد الله بن المعتز من فصوله القصار : « الموت سهم مرسل إليك عمرك بقدر سفره إليك » . [الإعجاز للثعالبى ١/ ٩٠] وأبو إسحاق القيروانى فى زهر الآداب وثمر الألباب [٢/ ٢٥١] .

﴿ رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (٤٤) ﴾ [إبراهيم]

فهناك خشية أنْ يشابه قولكم ما يقوله الكافرون ويظنونه ، وأن الحق سبحانه سيُؤخر حسابهم ، وأنه سيعيدهم إلى الدنيا لعلّهم يعملون عملاً صالحاً ويجيبون دعوة الرسل .

مع أنهم من قبل كانوا يقسمون أنه لا بعث بعد الموت ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (٤٤) ﴾ [إبراهيم]

وهل يستطيع أحد أنْ يتمرد على الموت إذا نزل بساحته ؟ فهو مقهور على خروج روحه : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً[1] حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (٦١) ﴾ [الأنعام]

والحق سبحانه يُطلقها قضية مفروغاً منها ، حيث يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ .. (٢٨) ﴾ [الأنعام] فسواء رُدُّوا إلى الحياة مرة أخرى ، أو أُخِّر أجلهم وساعة موتهم لعادوا إلى الأعمال السيئة ، ولعادوا إلى ما نُهوا عنه .

فلا هم صادقون فى طلب الرجعة ، ولا هم صادقون فى طلب تأجيل وتأخير الأجل ، فمَنْ كان يريد فعل الصلاح لفعله فى زمن المهلة والصحة والقوة على الفعل فليفعله .

لذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا .. (١١) ﴾ [المنافقون] حضّ على المبادرة ومسابقة الأجل بالعمل الصالح ، فسارعوا فى الخيرات واستعدوا لما هو آتٍ .

---

(١) الحفظة: جمع حافظ ، قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً .. (٦١) ﴾ [الأنعام] أى : ملائكة رقباء . [القاموس القويم ١/١٦٣] قال ابن منظور فى لسان العرب (مادة حفظ) : « الحفظة الذين يحصون الأعمال ويكتبونها على بنى آدم من الملائكة وهم الحافظون » .

فلن يمهل الله أحداً أياً كان إذا انتهى أجله ولن يزيد فى عمره ، وفيه تحريض على المبادرة بأعمال الطاعات ، حذراً أنْ يجيء الأجل وقد فرط ولم يستعد للقاء ربِّه .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١) ﴾ [المنافقون]

قضية أن الله سبحانه خبير بما نعمل تجعل القلبَ يرتجف خوفاً ورعباً ، فقد يُدلِّس الإنسانُ على البشر ، فتجد مَنْ يتهرب من الضرائب ويصنع تزويراً دفترين للضرائب ، واحداً للكسب الصحيح وآخر للخسارة الخاطئة ، ويكون هذا المتهرب من الضرائب يملك المال ثم ينكر ذلك .

هذا الإنسان عليه أنْ يعرف أن الله خبيرٌ بكلِّ ما يعمل ، ولذلك نجد الحق سبحانه يصف ذاته فى مواقع كثيرة من القرآن بأنه لطيف خبير ، لطيفٌ يعلم ما يدخل ويتغلغل فى الأشياء ، وخبيرٌ بكل شيء وقدير على كلِّ شيء .

ونحن فى حياتنا نسمع كلمة « خبير » فعندما نقابل أىَّ مشكلة من المشكلات نجد مَنْ يقول : نريد أنْ نسمع رأى الخبير فيها ، وفى القضاء نجد القاضى يستدعى خبيراً ليكتب تقريراً فى أمر يحتاج إلى مَنْ هو متخصِّص فيه وعليم به .

إذن : فالخبير فى مجال ما هو الذى يعرف تفاصيل الأمر ، فما بالنا بالخبير الأعلى الذى لا يستعصى عليه شيءٌ فى مُلكه ، ولا تخفى عليه خافيةٌ ، فلا تخدعوا أنفسكم وتحسبوا أنكم إنْ أخفيتُم شيئاً عن عيون الخلق قد يخفى على الله أبداً ، فلن يخفى شيءٌ عن الخالق سبحانه ، لأنكم إنْ عمّيتم على قضاء الأرض فلن تُعمُّوا على قضاء السماء .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١١) ﴾
[هود]

فالله سبحانه خبير بما يفعل العباد ، وهو سبحانه يعلم أفعال العبد قبل أنْ تقع ، ولكنها حين تقع لا يمكن أنْ تنسى أو تذهب أدراج الرياح ،لأن مَنْ يعلمها هو الخبير صاحب العلم الدقيق .

والخبير يختلف عن العالم الذى قد يعلم الإجماليات ، لكن الخبير هو المدرّب على التخصص ، ولذلك غالباً ما تأتى كلمتا (اللطيف والخبير) معاً ، لأن الخبير هو مَنْ يعلم مواقع الأشياء .

واللطيف هو مَنْ يعرف الوصول إلى مواقع تلك الأشياء .

ومثال هذا : أنك قد تعرف مكانَ اختباء رجل فى جبل مثلاً ، هذه المعرفة وهذا العلم لا يكفيان للوصول والنفاذ إلى مكانه ، بل إن هذا يحتاج إلى ما هو أكثر وهو الخبرة ، والأكثر من هذا الدقة واللطف .

ولا شيءَ يعوق الله تعالى أبداً ، وهو العليم بموقع وموضع كلِّ شيء ، فهو يجمع بين اللطْف والخبرة ، فلُطْفه لا يقف أمامه شيءٌ ، ولا يوجد ما هو مستور عنه ، ولا يقوم أمام مراده شيءٌ .

وسبحانه خبير بمواضع الأشياء ، وعلمه سبحانه مطلق ، وهو حكيم يُجرى كلَّ حدث بمراد دقيق ، ولا يضيف إليه أحدٌ أىَّ شيء ، فهو صاحب الكمال المطلق .

وقد جمع الحق سبحانه بين صفتى اللطيف والخبير ، فقال تعالى : ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ[1] فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) ﴾ [لقمان]

وقوله تعالى : ﴿ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ .. (١٦) ﴾ [لقمان] أى : وزن حبة

(١) الخردل : نبات له حب صغير جداً وإذا جفت حبة الخردل كانت نهاية فى الصغر وهو نبات عشبى تستعمل بذوره فى الطب وهو حرِّيف . [القاموس القويم ١/ ١٩٠] .

الخـردل ، وكانت أصغـرَ شيء وقتها ، فجعلوها وحدة قياس للقلّة ، وليس لك الآن أنْ تقول : وهل حبة الخردل أصغر شيء في الوجود ؟

فالقـرآن ذكرها مثالاً للصِّغر على قدر معرفة الناس بالأشياء عند نزوله ، أما من حيث التحقيق فقد ذكر القرآن الذرَّة والأقل منها .

والحـق سبحانه لطيـف ، فمهما صَغُرت الأشياء ودقَّتْ يصل إليها ، فهو إذن عليم خبير بكلِّ شيء مهما صَغُر ، قادر على الإتيان بها مهما دقَّ ، لأنه لطيف لا يمنعه مانع ، فصفة اللطف هذه للتغلغل في الأشياء .

فقولـه تعـالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لَطِيـفٌ خَبِيرٌ (١٦) ﴾ [لقمان] يعنـي : لا يُعوزه علم بالمكان ، ولا سهولة ويُسْر في الوصول إلى الأشياء .

وقولـه تعـالى : ﴿ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١) ﴾ [المنافقون] وما دام سبحانه خبيراً بما تعملون فهو الذي يُهيء لكم صلاحَ العمل بخبرته وحكمته وقدرته وقيوميته .

والخـبرة تـدلُّ على منتهـى العلم وعلى العلـم الواسع الـذي لا تفوته جزئية مهما صَغُرتْ .

والله خبـير بما في النفوس ، وهو سبحانه أعلم بما في نفس الإنسان ونيته مـن العمـل الصالح ، وهَبْ أنه فعل أيَّ فعل علـى غير مرأى من أحد ، فلا تعتقد أن المجتمـع وإنْ لم يشهـد منك ذلك أن المسألة انتهتْ ، لا إن اللهَ عليمٌ بما تفعل وإنْ لم يطلع عليك أحدٌ من الناس .

وقـد يسـأل سائل : لماذا أنهـى الحقُّ سبحانـه سورة المنافقـين بهذه الآية ﴿ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١) ﴾ [المنافقون] ؟

نقول : الأمر واضح ، فأصل النفاق هو إضمار شيء في النفس غير ما يظهر

من الإنسان على لسانه أو فى جوارحه ، لذلك فالله يخبرهم أن الله خبيرٌ بحقيقة ما يفعلونه ويعملونه ويقولونه ، يعلم سِرَّهم ونجواهم وما تُخفيه صدورهم .

وقد تكلمتْ سورة المنافقين عن الصدقة والنفقة ، فقال تعالى : ﴿ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠) ﴾ [المنافقون]

والله خبيرٌ بالنية وراء صدقتك سواء أعلنتها أو أخفيْتَها ، والله يُجازى على قدْر نية العبد فى الإبداء أو فى الإخفاء ، وإبداء الصدقات لا مانع منه إنْ كان مَنْ يفعل ذلك يريد أنْ يكون ذلك أسْوة .

المهم أنْ يخرج الرياءُ من القلب لحظة إعطاء الصدقة ، فالحق يوضح : إياك أنْ تنفق وفيك رياء ، أما مَنْ يُخرج الصدقة وفى قلبه رياء فالله لا يحرم المحتاجين من عطاء مُعْط ، لأنه سبحانه يؤكد : خذوا منه وهو الخاسر ، لأنه لن يأخذ ثواباً ، لكن المجتمع ينتفع .

فخاتمة سورة المنافقين مناسبة لموضوع السورة ، فقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١) ﴾ [المنافقون] هو تذكير للمنافقين وتنبيه لهم ، وتحذير أنه لا تَخْفى منهم خافية .

والحق سبحانه لم يقُلْ : خبير بما تفعلون . ولم يقُلْ : بما تقولون . بل قال سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١) ﴾ [المنافقون] وتعملون تشمل الأمرين الفعل والقول .

فالله سبحانه خبير بكلِّ فعل وإحساس ، وذلك يحتاج إلى خبير لطيف ، والعمل ينقسم إلى ثلاثة أقسام : قول باللسان ، وفعل بجوارح غير اللسان ، ونيات قلوب وهوى .

وإياكم أنْ تعملوا أعمالاً ظاهرها عدلٌ وباطنها رياء، لأننا نعلم أن لكلٍّ جارحة من الجوارح مجالاً تؤدى فيه وظيفتها، فاللسان أداؤه ووظيفته القول، والأذن فعلها أنْ تسمع، والأنف أداؤه أنْ يشمّ، ويجمع الجميع العمل، فالعمل إما أنْ يكون قولاً، وإما أن يكون فعلاً.

فالقول محلُّه اللسان، والفعل محله بقية الجوارح، والاثنان يجمعهما العمل.

وسورة المنافقين تعرضتْ لما قاله المنافقون ﴿ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ .. (١) ﴾ [المنافقون] ولأن الله خبير قال: ﴿ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) ﴾ [المنافقون]

وقال فيهم: ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا .. (٧) ﴾ [المنافقون]

وهم الذين قالوا: ﴿ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ .. (٨) ﴾ [المنافقون]

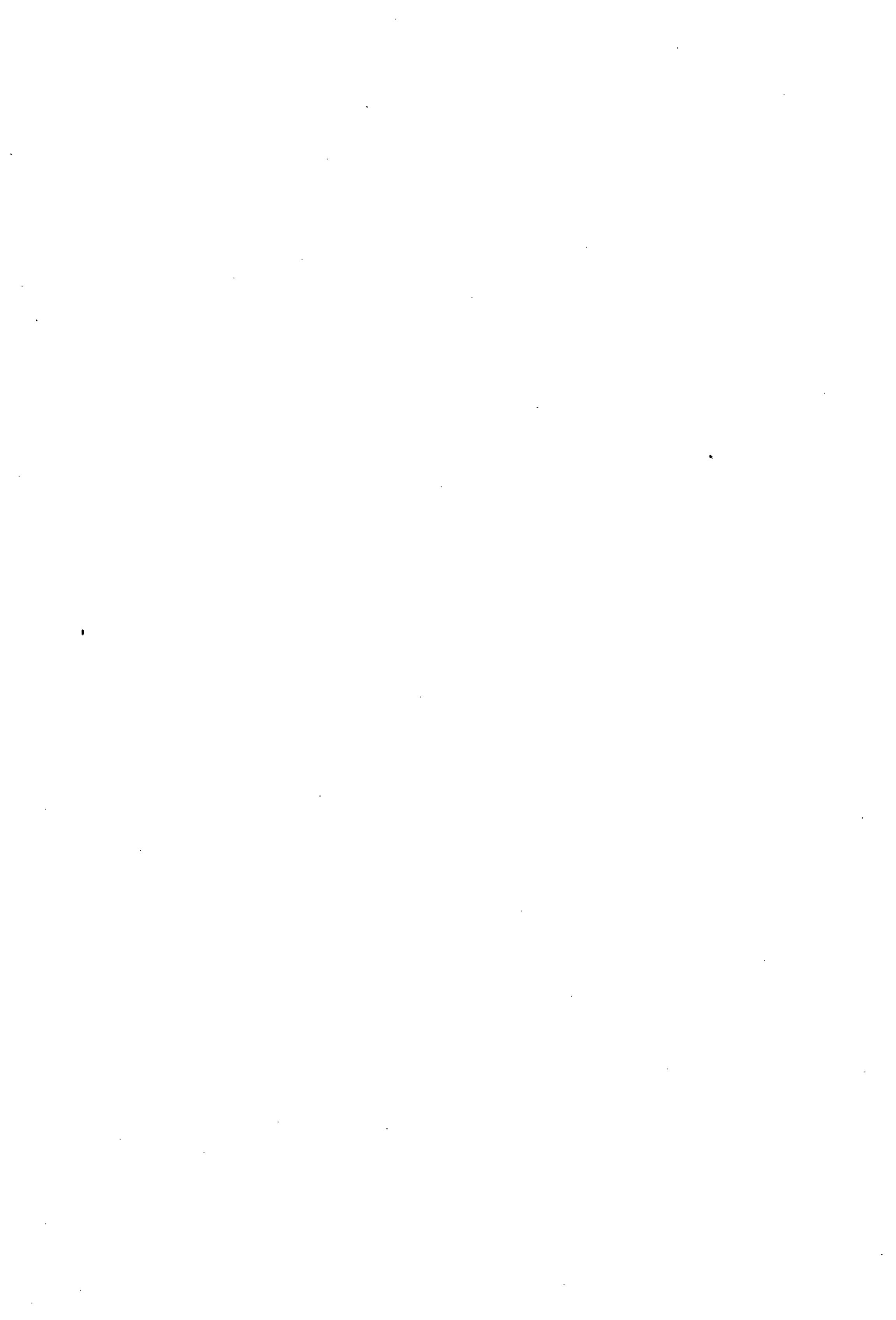
هذا عن القول، أما عن الفعل فإن المنافقين تلهيهم أموالهم وأولادهم عن ذكر الله، لذلك وجَّه الحق سبحانه المؤمنين ألاَّ يشابهوا المنافقين فى فعلهم، فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ .. (٩) ﴾ [المنافقون]

ولأن هذا فعلٌ قال تعالى بعدها: ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) ﴾ [المنافقون]

ثم إن المنافقين لا يتصدَّقون ويمنعون غيرهم عن التصدُّق، وهذا فعل. فكلمة: ﴿ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١) ﴾ [المنافقون] استوعبتْ ما قالوه وما لم يفعلوه، فالعمل هو فعل وقول.

١٥٥٠٧





سورة التغابن[١]



﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾

يُقرر الحق سبحانه أمراً يغفل عنه الإنسان ، فالأرض التى تحته يسير عليها ويطؤها بقدميه وسخَّرها الله له تُسبِّح الله ، والسماء التى تعلوه وتُظله ويُمسكها الله أنْ تسقط على الأرض هى الأخرى تُسبح الله .

فلماذا يخرج الإنسان عن هذا فلا يُسبّح الله ويُنزِّهه عن النقائص كالجمادات التى يظنها الإنسان جماداتٍ لا تُحسّ ، ولكن حقيقة الأمر غير هذا .

وتسبيحهم لله ليس عارضاً ، إنما هو مستمر دائم ، لذلك عبّر الحق سبحانه بالفعل المضارع (يُسبح) الذى يعنى أن حدثَ تسبيحهم لله بدأ فى الماضى ،

(١) عدد آياتها ١٨ آية ، وهى مختلف فيها هل مكية أو مدنية . قال السمعانى فى تفسيره (٥/٤٤٨) : هى مدنية فى قول الأكثرين . وقال الضحاك : مكية . وقال الكلبى : مكية ومدنية . ومعناه أن بعضها آيات مكية وبعضها مدنية . نزلت بعد سورة التحريم . وهى السورة ٦٤ فى ترتيب المصحف الشريف. وهى آخر السور المفتتحة بالتسبيح .

وهو مستمر الآن ، ولا دليلَ على انقطاعه فى المستقبل .

والسماوات والأرض هما القدْر المُشَاهد للإنسان الذى يستطيع إدراكَ بعض حقائقه ويغفل عن الكثير منها ، ولكن الكون واسع مُمتد ، والسماوات والأرض فى قبضة الله سبحانه وملكه ، وهو قدير عليها تستجيب لأمره سبحانه .

وحتى لو لم يفهم الإنسانُ كُنْه تسبيح السماوات والأرض وكيفيته فليفهمه على أنَّ إمطار السماء بالماء هو تسبيح لله لأنها استجابتْ لأمر الله لتتنزل غيْثاً على عباده ، وأن الأرضَ تسبيحها أنها تنبت نباتاً شتى ، وهو تسبيح عمليٌّ .

فماذا تفعل أنت أيها الإنسان ؟ أنت تتمرد على الله وتعصى أوامره ، فلا أنت مع ما فى السماوات فى تسبيحهم لله ، ولا أنت مع ما فى الأرض فى الخضوع لله وإعطاء الخير للناس .

والحق سبحانه يقول عن طاعة السماء والأرض : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) ﴾ [فصلت]

فيا مَنْ آمنت بالله إلهاً سبِّح كما سبّح كلّ الكون ، وإياك أنْ تظن أنك خارج عن مُلْكه ، لذلك قال تعالى بعدها ﴿ لَهُ الْمُلْكُ .. (١) ﴾ [التغابن] فأنت وكل ما تملك مِلْك لله ، وهو عليك قدير .

ثم يقول سبحانه ﴿ لَهُ الْمُلْكُ .. (١) ﴾ [التغابن] فسبحانه له الملْك وحده ، وقد جعل سبحانه الملْك فى الدنيا لأسباب الناس أيضاً ، أما فى الآخرة فلا مِلْكَ لأحد ولا مُلْكَ لأحد ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ .. (١٦) ﴾ [غافر]

وسبحانه القائل : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ .. (٢٦) ﴾ [آل عمران] فليس هناك مَنْ له المُلْك بذاته إلا الله سبحانه ، لذلك نقول لكل مَلك : إن هذا الملْك الذى تتمتع به ليس بذاتك ، لأنه لو كان بذاتك لما سُلبك أحدٌ هذا المُلْكَ ولما زالَ عنك أبداً .

والحق سبحانه هو الذى يعطى الملْك لمَنْ يشاء ، وهو الذى يعطى السيادة والنفوذ والسلطان ، فلا أحدَ يملك قهراً عن الله ، وحتى الظالم لا يملك قهراً عن الله .

ولذلك يقول الحق سبحانه فى آية أخرى من القرآن : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) ﴾ [آل عمران]

ولابدّ أنْ نعرف أن هناك فرْقاً بين (الملْك) و (المُلْك) ، وكل إنسان له شيء يملكه مثل ملابسه أو قلمه أو أثاث بيته . ومثل هذا من الأشياء ، وهذا ما يُسمَّى (الملْك) ، أما المُلْك فهو أنْ تملك مَنْ يملك .

وقد ملَّك اللهُ بعضاً من خَلْقه لخَلْقه ، ملّكهم أولاً ما فى حوزتهم ، وملّكهم غيرهم ، وسبحانه ينزع الملْك من واحد ويهبه لآخر ، كى لا تصبح المسألةُ رتابةَ ذاتٍ .

فالحق سبحانه له الملْك الحق ويهَبُ من مُلكه لمَنْ يشاء ، لكنْ يظلّ الملك وما ملكه فى قبضة الله لأنه سبحانه قيُّوم على خَلْقه لا يخرج أحدٌ عن قيوميته .

وهو سبحانه له الملْك الدائم فى الدنيا وفى الآخرة ، فهناك ملك فى الدنيا يُملِّكه لخَلْقه كما قال سبحانه : ﴿ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ .. (٢٥٨) ﴾ [البقرة]

وقال سبحانه : ﴿ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ .. (٢٦) ﴾ [آل عمران]

إذن : فالملْك مُلْك الله ، وهو سبحانه الذى يُملِّك خَلْقه فى الدنيا دنيا الأسباب، لكن فى الآخرة تُنزع الملكية من أىِّ أحد إلا الله وحده ، حتى إرادة الإنسان على جوارحه تُسلب منه ، فتشهد عليه بما كان منه فى الدنيا .

وكوْن المُلْك لله سبحانه هو تطمينٌ لنا أنَّ مقومات حياتك على الأرض ،

دائمـة ؛ فلـن ينقطع عنك الهواء فـى يوم من الأيام ، ولن تتأبَّـى عليك الشمس أو القمـر أو الأرض لأنها مِلْك لله ، لا يُشاركه سبحانه فى ملكيتها أحدٌ يمنعها عنك، فاطمئن إلى أنها مضمونة فلا تشغل نفسك بها .

ولأن المُلْك لله وحده سبحانه بسماواته وأرضه وما عليهما وما فيهما وما بينهما ، يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي[١] سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ[٢] يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ[٣] فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا[٤] بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣) ﴾ [النور]

وعندما يقول الحق سبحانه : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨٨) ﴾ [آل عمران]

فهذا الوعيد سيتحقق لأن أحداً لا يفلت منه ، فلأنه سبحانه له مُلْك السماوات والأرض ، فالله حين يُوعد فهو سبحانه قادر على إنفاذ ما أوعد به ، ولن يُفلت أحدٌ منه أبداً .

ونحن بين قوسين ، سماء تُظِلّ وأرض تُقِلّ ، فكلٌّ منَّا محصور بين مملوكين لله ، وما دام كلٌّ منَّا محصوراً بين مملوكين لله ، فأين تذهبون ؟!

وقدرة الحق سبحانه تتجلى أمامنا فى مسألة الإنجاب ، فهو القائل سبحانه:

---

(١) زجا الشيء يزجو وأزجاه : ساقه برفق . قال تعالى : ﴿ رَبُّكُمُ الَّذِى يُزْجِى لَكُمُ الْفُلْكَ فِى الْبَحْرِ .. (٦٦) ﴾ [الإسراء] أى يدفعها ويُسيِّرها برفق فوق الماء . [القاموس القويم ١/ ٢٨٤] .

(٢) الودق : المطر . وودقت السحابة تدق ودقاً : أمطرت . أى أن المطر يخرج من خلال السحاب المتراكم فى السماء . [القاموس القويم ٢/ ٣٢٧] والودق : المطر كله شديده وهيِّنه .

(٣) البرد : حبات صغار من الثلج تسقط مع المطر أحياناً . والبرد أيضاً : سحاب كالجمد سُمى بذلك لشدة برده . [لسان العرب مادة : برد] .

(٤) يطلق السنا على الضوء : ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣) ﴾ [النور] أى : ضوء برقه . [القاموس القويم ١/ ٣٣٢] .

﴿ لله مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا .. (٥٠) ﴾ [الشورى]

فربنا سبحانه له طلاقةُ القدرة فى أنْ يخلق ما يشاء ، وقد أراد خَلْقه على القسمة العقلية المنطقية الأربعة : إما أنْ يكون من أب وأم مثلنا جميعاً ، وإما أنْ يكون بعدمهما مثل آدم ، وإما أنْ يكون بالذكر دون الأنثى كحواء ، وإما أن يكون بالأنثى دون الذكر كعيسى عليه السلام .

والسماء والأرض هما ظرفان للوجود وللكائنات كلها من أبراج وشمس وكواكب وقمر ونجوم وهواء وغمام وماء وحيوان وإنسان ، فالأرض وهى المُلْك الأسفل الذى نراه وما فيه من أقوات وحيوان وإنسان .

والسماء وما تحوى وتضمُّ من الملكوت الأعلى هما جميعاً لله مِلْكاً ومُلْكاً ، فهو سبحانه الذى يملك كلَّ شيء ويملك كذلك المالك للشيء .

وليس لشيء من خَلْق الله أنْ يخرج عن مرادات الله ، أما فى الدنيا فقد جعل اللهُ أسبابها فى أيدى الناس ، رزْق إنسان فى يد إنسان آخر ، وملّك بعضنا أمر بعض ، فهناك مالك الطعام ومالك الثوب .

ولكن ليس كلُّ مالك ملكاً ، لأن الملك هو الذى يملك المالك وهذه سنن الكون ، وفى الآخرة هناك مالك واحد هو مَلِك يوم الدين ، فسبحانه يملك الكون كله ، والكون مُكوَّن من أجناس متعددة .

وأول جنس فى الكون هو الخادم الذى لا يُخدم وهو الجماد ، والجماد قد يكون ماءً أو جبالاً أو حديداً أو شمساً أو قمراً أو نجوماً ، كل هذه جمادات ، أى ليس لها حِسّ ، وهذه الجمادات تخدم أول ما تخدم النبات ، والنبات يخدم الحيوان ، والحيوان يخدم الإنسان .

هكذا يكون الجمادُ خادماً لكلٍ ما يعلوه من نبات وحيوان وإنسان ، والنبات أيضاً ما يعلوه ؛ فيخدم الحيوان والإنسان ، والحيوان يخدم ما يعلوه ، وهو الإنسان .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ لَهُ الْمُلْكُ .. (١) ﴾ [التغابن] ساعة تسمع كلمة الحمد ، فعليك أنْ تفهم أنها كلمة المدح والثناء والشكر ، فالحمد أمر فطريٌّ موجود ونُوجِّهه لله ، فهو سبحانه الذى أمدّ كلّ إنسان بشيء من أسبابه ، وهو سبحانه واهب النعم .

ومن رحمة الله سبحانه أنه جعل الشكر له فى كلمتين اثنتين هما : الحمد لله ، فأنت حين تريد أنْ تشكر بشراً على جميل فِعْله قد تظل ساعات وساعات تُعدّ كلمات الشكر والثناء وتحذف وتضيف وتأخذ رأى الناس حتى تصل إلى قصيدة أو خطاب مليء بالثناء والشكر .

ومن رحمة الله سبحانه أنه علَّمنا صيغة الحمد ، فلو أنه تركها دون أنْ يُحدِّدها بكلمتين لكانَ من الصعب على البشر أنْ يجدوا الصيغة المناسبة ليحمدوا اللهَ على هذا الكمال الإلهى .

فمهما أُوتى الناسُ من بلاغة وقدرة على التعبير فهم عاجزون عن أنْ يصلوا إلى صيغة الحمد التى تليق بجلال المنعم ، فكيف نحمد الله والعقل عاجز عن أنْ يدرك قدرته سبحانه أو يُحصى نِعَمه أو يحيط برحمته ؟

ورسول الله ﷺ أعطانا صورة العجز البشرى عن حَمْد كمال الألوهية لله تعالى ، فقال : « لا أُحصى ثناءً عليك ، أنت كما أثنيتَ على نفسك »[(١)] .

وكلمتا « الحمد لله » ساوى الله بهما بين البشر جميعاً ، يُعبر بهما الأميّ

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش ، فالتمسته فوقعت يدى على بطن قدميه وهو فى المسجد وهما منصوبتان وهو يقول : « اللهم أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه (١١١٨) وأبو داود فى سننه (٨٧٩) والترمذى فى سننه (٣٤٩٣) .

الـذى لا يقرأ ولا يكتب ، ويُعبر بها العالم ، ولكن الحق تبارك وتعالى شاء عدله أنْ يُسوِّى بين عباده جميعاً فى صيغة الحمد لله .

فأول كلمات الله فى القرآن : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) ﴾ [الفاتحة]

والحق سبحانه قبل أنْ يخلقنا خلق لنا مُوجبات الحمد من النِّعم ، فخلق لنا السماوات والأرض وأوجد لنا الماء والهواء ، ووضع فى الأرض أقواتها إلى يوم القيامة .

وهذه نعمة يستحق الحمد عليها لأنه جعل النعمة تسبق الوجود الإنسانى، فعندما خلق الإنسان كانت النعمة موجودة تستقبله ، بل إن الله جلَّ جلاله قبل أنْ يخلق آدم أبا البشر جميعاً سبقتْه الجنة التى عاش فيها لا يتعب ولا يَشْقى .

فالحق سبحانه له الحمد لأن مُوجبات الحمد وهى النعمة موجودة فى الكون قبل الوجود الإنسانى ، والله سبحانه وتعالى خلق لنا فى هذا الكون أشياء تعطى الإنسان بغير قدرة منه ودون خضوع له ، والإنسان عاجزٌ عن أنْ يُقدِّم لنفسه هذه النعم التى يُقدِّمها الحق تبارك وتعالى له بلا جهد .

فالشمس تعطى الدفء والحياة للأرض بلا مقابل وبلا فعل من البشر والمطر ينزل من السماء دون أنْ يكون لك جَهْد فيه أو قدرة على إنزاله ، والهواء موجود حولك فى كلِّ مكان تتنفس منه دون جهد منك ولا قدرة .

والأرض تعطيك الثمر بمجرد أنْ تبذر فيها الحَبَّ وتسقيه ، فالزرع ينبت بقدرة الله ، والليل والنهار يتعاقبان حتى تستطيع أنْ تنام لترتاح وأنْ تسعى لحياتك .

لا أنت أتيتَ بضوء النهار ، ولا أنتَ الذى صنعتَ ظلمة الليل ، ولكنك تأخذ

الراحة فى الليل والعمل فى النهار بقدرة الله دون أنْ تفعل شيئاً ، وهذا يقتضى وجوب الحمد .

عندما تقول (الحمد لله) كلها تحمل الثناء العاجز عن الشكر لكمال الله وعطائه .

والحمد لله ليس ألفاظاً تُردّد باللسان فحسب ، بل هو يمر أولاً على العقل ليعي معنى النِّعم ، ثم تستقر فى القلب فينفعل بها ، وتنتقل إلى الجوارح فأقوم وأصلى لله شاكراً ويهتزّ جسدى كله وتفيض الدمعة من عينى .

إننا بمجرد استيقاظنا من النوم وأن الله سبحانه ردَّ علينا أرواحنا وهذا الردّ يستوجب الحمد ، فإذا قُمْنا فالله سبحانه هو الذى يعطينا القدرة على الحركة ، ولولا عطاؤه ما استطعنا أنْ نقوم ، وهذا يستوجب منا الحمد[١] .

إن كلَّ حركة حياة فى الدنيا من الإنسان تستوجب منا الحمد ، ولهذا لابدَّ أنْ يكونَ الإنسانُ حامداً دائماً ، بل إن الإنسان يجب أنْ يحمد الله على أيِّ مكروه أصابه ، لأنه قد يكون الشيء الذى يعتبره شراً هو عينه الخير .

فأنت تحمد الله على كلِّ حال لأن قضاءه خير ، سواء أحببتَ القضاء أو كرهته فإنه خيرٌ لك ، لأنك لا تعلم والله سبحانه وتعالى يعلم .

ومن أسمائه الحسنى : ﴿ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (٧٣) ﴾ [هود] فهو سبحانه يستحق الحمد لذاته ، وكلّ ما يصدر عنه يستوجب الحمد له من عباده فلا حَدَّ لخيره وإحسانه .

وكلمة : ﴿ حَمِيدٌ.. (٧٣) ﴾ [هود] تأتى بمعنيين (حامد) و (محمود) ،

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال إذا اضطجع فليقل : باسمك ربى وضعت جنبى وبك أرفعه ، فإن أمسكت نفسى فارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين ، فإذا استيقظ فليقل : الحمد لله الذى عافانى فى جسدى وردّ عليَّ روحى وأذن لى بذكره . أخرجه الترمذى فى سننه (٣٤٠١) والنسائى فى سننه الكبرى (١٠٦٣٦) .

فالحق سبحانه حميد لأنه حامد لمَنْ يطيعه طاعة نابعة من الإيمان ، والله سبحانه محمود ممن أنعم عليهم نعمه السَّابغة .

ومما نحمد الله عليه أنَّ قضاء السماء وعلم الله بالغيب مسألة يجب أنْ نحمده عليها ، لأنه هو الذى سيحمى كلَّ واحد منَّا من غيره ، وعندما ستر الله غيبنا عن الآخرين فتلك نعمةٌ يجب أنْ نشكره عليها لأن النفوسَ مُتقلِّبة .

فلو علمتَ ما فى نفسى عليك فى لحظة فقد لا يسرُّك ، وقد لا تنساه أبداً ويظلّ رأيك فيَّ سيئاً ، لكن الظنون والآراء تمرُّ عندى وعندك وتنتهى .

ولو اطلع كلٌّ منَّا على غَيْب الآخر لكانت الحياةُ مرهقةً ، والقول المأثور يذكر ذلك : « لو تكاشفتم ما تدافنتم »[1] . إذن : فمن رحمة الله ومن أكبر نعمه على خَلْقه التى تستوجب الحمد له سبحانه أنْ ستر غَيْب خَلْقه عن خَلْقه .

والحمد لله أيضاً : ﴿ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (١١١) ﴾ [الإسراء]

فقد تنزَّه سبحانه عن اتخاذ الولد وجعل الخَلْق جميعاً عياله وكلهم عنده سواء ، وأحبُّهم إليه تعالى أتقاهم له ، وهكذا يحظى الخَلْق جميعاً بكلِّ حنان ربهم وبكلِّ رحمة ربهم .

وإذا كانت آية سورة التغابن قالت ﴿ لَهُ الْمُلْكُ .. (١) ﴾ [التغابن] فإنه سبحانه يقول فى سورة الإسراء : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ .. (١١١) ﴾ [الإسراء]

وهذا أيضاً من النِّعم التى تستوجب الحمد ، ولك أنْ تتصوَّر لو أن لله تعالى شريكاً فى الملك ، كم تكون حَيْرة العباد فأيُّهما تطيع ؟ وأيهما تُرضى ؟

(١) ذكره أبو بكر الدينورى فى كتابه (المجالسة وجواهر العلم) (٣/ ٢١) (٦١٦) عن الحسن البصرى: إنى أسمع حسيساً ولا أرى أنيساً ، ذهب الناس وبقى النسناس ، لو تكاشفتم لما تدافنتم ، تهاديتم الأطباق ولم تهادوا النصائح . وقال المبرد : لو علم بعضكم سريرة بعض لاستثقل تشييعه ودفنه . [غريب الحديث لابن الجوزى ٢/ ٢٩١] .

لقد أوضح لنا الحقُّ سبحانه هذه المسألة في هذا المثل الذي ضربه لنا :
﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا(١) لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً .. (٢٩) ﴾ [الزمر]

فكَوْنه سبحانه واحداً لا شريكَ له في مُلكه يجعلك تطمئنّ إلى أمره ونهيه فتطيعه وأنت مطمئنٌ ، فأوامره سبحانه نافذة لا مُعقِّبَ لها ولا مُعترضَ عليه ، فليس هناك إلهٌ آخر يأمرك بأمر مخالف ، أليستْ هذه نعمة تستوجب الحمد ؟

والحق سبحانه ليس له ولى يلجأ إليه ليعزه ، لأنه سبحانه العزيز المعزّ القائم بذاته سبحانه ، ولا حاجةَ له إلى أحد : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ .. (١١١) ﴾ [الإسراء]

ونِعَم الله التى تستوجب أنْ نحمده عليها نعم لا تُعد ولا تُحصَى ، لكن هذه الثلاث هى قمة النِّعم التى تستوجب الحمد ، فالحمد لله الذى لم يتخذ ولداً فهو سبحانه واحد أحد ، والحمد لله الذى لم يتخذ شريكاً لأنه واحد ، والحمد لله الذى لم يكُنْ له وليٌّ من الذُّل لأنه القاهر العزيز المعز .

و (الحمد) بالألف واللام الدالة على الحصر ، فالمراد الحمد المطلق الكامل لله ، الحمد المستوعب لكلِّ شيء ، لذلك قال : ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ .. (١) ﴾ [التغابن] فحصر الحمد المطلق لله سبحانه ، بتقديم له ثم تعريف الحمد .

والحمد المطلق لله هو حَمْد على حَمْد على حَمْد ، فيظل اللهُ محموداً دائماً ، ويظل العبد حامداً إلى ما لا نهاية .

ومن الحمد أننا نحمده على أنه مُسبَّح من الخلائق كلها : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ .. (١) ﴾ [التغابن] فهو سبحانه مُتنزِّه عن مشابهة

---

(١) رجل سلماً لرجل : أى ملكاً خالصاً له لا ينازعه فيه أحد . [القاموس القويم ١/٣٢٤] . قال القرطبى فى تفسيره (سورة الزمر آية ٢٩) أى خالصاً لسيد واحد وهو مثل من يعبد الله وحده . وقال البغوى (١١٨/٧) : أى « خالصاً له لا شريك ولا منازع له فيه » .

الأحـداث كلها ، وهى نعمة يجب أنْ نشكـر الله ونحمده عليها ، نحمده على أنه ليس كمثله شيء .

فهـو القـوى الذى لا يضعـف أبداً ، وهو العليم الذى لا يخفـى عليه شيءٌ فى الأرض ولا فـى السمـاء ، وهو الكريم الـذى لا يبخل أبداً ، وهـو القدير الذى لا يعجز أبداً .

وهـذه نعمة كبيرة تستحقّ وتستوجب الحمد ، فلو كان ضعيفاً فكيف ينصر مَنْ آمن به ، ولو كان لا يعلم فكيف يعلم بالمضطرين من عباده ؟ وكيف يجيب سُؤْلهم ؟ وكيف يبخل إله على مَنْ خلقهم ؟

لذلـك كان سبحانه له الحمـد أنْ كان مُنزّهاً عن النقص ، لذلك يقول سبحانه: ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) ﴾ [التغابن] ، فكلُّ شيء داخل فى إرادة الله وقدرته سبحانه ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (٤٠) ﴾ [المائدة] ، فكلُّ شيء فى الوجود هو مُلك لله ، وهو يتصرّف بقدرته فيما يملك .

ولذلـك عندما هاجـر رسول الله ﷺ إلى المدينـة ، كان اليهود يملكون المال ولهم معرفة ببعض العلم الدنيوى، لذلك سادوا المدينة ، وبدأوا يمكرون برسول الله ﷺ .

والله تبارك وتعالى طمأنَ رسوله بأن طلاقةَ القدرة فى الكون هى لله وحده، وأنـه إذا كان لهـم ملك فإنه لا يدوم لأن الله ينزع الملك ممَّنْ يشاء ويُعطيه لمَنْ يشاء .

وما دام الله هو المالك وحده فإنه يستطيع أنْ ينزع من اليهود وغيرهم ومن الدنيا كلها ما يملكونه ، فالحق سبحانه وتعالى لا يُعجزه شيء ، ولا يخرج عن طاعته شيء ، إنه سبحانه على كلِّ شيء قدير .

لذلك فأنت حين تلجأ ، تلجأ إلى الخالق الأعلى الذى بيده مقاليد كل شيء، الذى لا يوجد مَنْ يغلبه على أمره ، وهو سبحانه القدير أبداً على أنْ يمنحك ويمسَّك بالخير ، وقدرتُه لا حدودَ لها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢ ﴾

خبر الخلق إنما نأخذه عن الله سبحانه لأنه الخالق ، لذلك نحن نُصدِّق الذى خلقنا فى أمْر خَلْقنا ، وهو سبحانه يقول : ﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا[1] (٥١) ﴾ [الكهف]

ولم يدّع الخَلْقَ أحدٌ ، وهذه بدهية من بدهيات هذا الكون ، فالله تبارك وتعالى خلق الكون وخلق كلَّ ما فيه ، وقال سبحانه إنه خلق ، ولم يأتِ ولن يأتى مَنْ يدَّعى الخلق ، فالدَّعوى خالصة لله تبارك وتعالى .

ولو كان فى هذا الكون آلهة متعددة لادَّعى كلُّ واحد منهم الخَلْق ، ولكن لم يَقُمْ معارض يقول : أنا الذى خلقتُ ، فإذْ لم يأتِ مَنْ يقول هذا فقد ثبتتْ الدعوى لصاحبها .

ولا يستطيع أحدٌ ادّعاء أنه خلق نفسه أو خلق غيره ، والخَلْق قضية محسومة لله سبحانه .

والله سبحانه ذكر لنا غَيْب الخَلْق فى القرآن الكريم ، فقال جَلَّ جلاله أنه

---

(١) العضد : المُعين والنصير . أي : ما كنت يا محمد متخذ المضلين أنصاراً . والاعتضاد : التقوّى والاستعانة. وفلان يعضد فلاناً أى يعينه ، واعتضدت بفلان : استعنت . [لسان العرب مادة : عضد].

خلق الإنسان من تراب ومن طين ومن حمأ مسنون[1] ثم نفخ فيه من روحه .

واقرأ قوْل الحق سبحانه : ﴿ إِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ (٥) ﴾ [الحج] . وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ﴾ [المؤمنون] ، وقوله : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ[2] لازِبٍ (١١) ﴾ [الصافات] ، وقوله: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٦) ﴾ [الحجر] ، وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ .. (٧٢) ﴾ [ص]

الذى خلق قال : أنا خلقتُك من تراب .. من طين .. من حمأ مسنون .. من صلصال كالفخار .. فالماء وُضع على تراب فأصبح طيناً .. والطين تركناه فتغيَّر لونه ورائحته وأصبح حمأ مسنوناً .. فإذا جف وتصلب فهو صلصال كالفخار ، بعد أن سوَّاه فى صورة إنسان . ثم نفخ الحق سبحانه فيه الروح فأصبح بشراً .

هذه المراحل لم يَرَهَا الإنسانُ ولم يشهدها أحد ، ولكن الله جعل عليها دليلاً بما نراه عند الموت ، فأوّلُ شيء يخرج من الجسد هو الروح وهو آخر ما دخل فيه ، ثم بعد ذلك يتصلَّب الجسد ويصبح صلصالاً كالفخار ثم يتعفَّن ، فيصبح كالحمأ المسنون ، ثم يتبخر الماء الذى فيه فيعود تراباً .

فمما نراه عند موت الإنسان ومراحل تحلُّله ندرك مراحل خَلْقه من التراب ، وهذا الخَلْق من التراب حدث مرة واحدة مع آدم عليه السلام فقط ، ثم خلق حواء من لحم آدم ، ثم جعله تناسلاً من ماء الرجل وماء المرأة .

يقول تعالى : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ

---

(١) الحمأ : الطين الأسود . والمسنون : المصبوب فى قالب إنسانى أو مصوَّر بصورة إنسانية أو طين كالفخار صالح للتصوير والصقل . [القاموس القويم ١/٣٣١] .

(٢) لزب الطين يلزب : قلَّ ماؤه وتماسكت أجزاؤه فهو لازب : لاصق متماسك [القاموس القويم ٢/١٩٢]. طين لازب أى لازق لاصق . [لسان العرب – مادة : لزب] .

الصُّلب[1] وَالتَّرَائب (٧) ﴾ [الطارق] وهو ماءٌ له خصوصية وهو المنىّ الذى قال الله فيه ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) ﴾ [القيامة]

والله يخلق من الشيء ذكراً أو أنثى ، ويعطيهما القدرة على التناسل فها هو ذا قَوْل الحق سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون]

وقد جاء فى حديث رسول الله : « إنَّ أحدكم يُجمع فى بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقةً مثل ذلك ، ثم يكون مُضْغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله مَلَكاً فيُؤمر بأربع كلمات ، ويُقال له : اكتب عمله ورزقه وأجله وشقيّ أو سعيد ، ثم يُنفخ فيه الروح»[2] .

فأول مرحلة هى النطفة ، نطفة الرجل التى تخرج دافقةً من الرجل لتصل إلى رحم المرأة ، وهى ما نُسميه الحيوان المنوى ، وهو الذى يحمل خصائص الأنوثة أو الذكورة كما أثبت العلم الحديث .

وليس للمرأة شأنٌ بهذا التحديد ، وكأنَّ فى ذلك إشارة إلى مهمة المرأة كسكن، لأن البويضة تتلقَّى الحيوان المنوى وتحتضنه ، ليكتمل النمو إلى أنْ يصير كائناً بشرياً .

والنطفة تختلط بماء المرأة وتُكوّن ما يُسمَّى العلقة حيث تتعلق بجدار الرحم، وذلك بعد أربعين يوماً ، والعلماء يُسمونها (الزيجوت) وهى عبارة عن بويضة

---

(١) الترائب : عظام الصدر والنحر. قال ابن عباس : هى موضع القلادة من الصدر وروى الوالبى عنه : بين ثديى المرأة . [تفسير البغوى ٨/ ٣٩٤] .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢٠٨ ، ٣٣٣٢ ، ٦٥٩٤) ومسلم فى صحيحه (٦٨٩٣) وأحمد فى مسنده (٣٦٢٤ ، ٤٠٩١) والبيهقى فى سننه الكبرى (١٥٨١٩ ، ٢١٨١٦) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

مُخصَّبة وتبدأ فى أَخْذ غذائها منه .

﴿ فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً .. (١٤) ﴾ [المؤمنون] والمضغة هى الشيء الممضوغ وهى قطعة لحم صغيرة قدْر ما يُمضغ من الطعام ، وهو خليط من عدة أشياء ، كما لو أكلتَ مثلاً قطعةَ لحم مع ملعقة خضار مع ملعقة أرز ، وبالمضغ يتحوَّل هذا إلى خليط .

والمضغة منها مُخلَّقة وغير مُخلّقة ، والمضغة المخلّقة هى التى تتكوَّن منها جوارحُ الإنسان وأعضاؤه ، وغير المخلقة لصيانة ما يتلف من الجسم، كما يحدث مثلاً فى الجروح وما شابه ذلك من عطب يصيب الإنسان ، فتقوم غير المخلَّقة بدورها الاحتياطى .

فالمخلَّقة هى التى تكوّن الأعضاء ، وغير المخلَّقة هى الرصيد المختزن فى الجسم ، وبه يعوض أىّ خلل فى الأعضاء المخلّقة فهى التى تمدّه بما يُصلحه.

وهى تبقى مُضغةً أربعين يوماً ثالثة ، ويحدث التصوير فى الأرحام ، وهو إيجاد المادة التى سيوجد منها الإنسان على هيئة خاصة ، هذه الهيئة تختلف نوعيتها : ذكورةً وأنوثةً ، والذكورة والأنوثة تختلفان أشكالاً ، بيضاء وسمراء وقمحية وخمرية وقصيرة وطويلة .

هذه الأشكال التى يوجد عليها الخَلْق ، ثم بعد التصوير « يبعث الله ملكاً فيؤمر بأربع كلمات ويُقال له : اكتب عمله ورزقه وأجله ، وشقى أو سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح » .

والشقاء ثابتٌ لمن نُعت بالشقى ، وعَلِم اللهُ بعلمه الأزلى أنه سيكون شقياً، والسعادة ثابتةٌ لمن نُعت بالسعيد ، وعلم الله بعلمه الأزلى أنه سيكون من السعداء .

وهـذا مـا لم يستطع العلم الحديث الوصول إليه ، فقـد استطاعوا معرفة نوع الجنين ذكراً أو أنثى ، ولكن لا يعرفون أهو طويل أم قصير؟ ذكى أم غبى ؟ شقىٌّ أو سعيـد ؟ وأيضـاً أجله زمانـاً ومكانـاً ، وهذا مـا أعجـزَ الأطباءَ والباحثين إلى اليوم وما بعد اليوم .

والحـق سبحانـه عبَّر بـاسـم الإشارة (الـذى) بعد الضمـير المنفصل (هو) فقـال: ﴿ هُوَ الَّـذى خَلَقَكُمْ .. (٢) ﴾ [التغابن] ، وذلـك لحصر الخَلْق فى الله عز وجلّ ، ولتأكيد أنْ لا أحدَ فى الكون خلق الإنسان غير الله عز وجل .

وقد جاء هذا كثيراً فى القرآن الكريم فى ثمانية وعشرين موضعاً نحو قوله تعـالى : ﴿ هُوَ الَّـذى خَلَقَ لَكُمْ مَا فى الأَرْضِ جَميعًـا .. (٢٩) ﴾ [البقرة] ، وقـال : ﴿ هُوَ الَّذى يُصَـوِّرُكُمْ فى الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَـاءُ .. (٦) ﴾ [آل عمران] ، وقـال : ﴿ هُوَ الَّذى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكتَابَ .. (٧) ﴾ [آل عمران]

وقـال : ﴿ هُوَ الَّذى جَعَلَ الشَّمْسَ ضيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا .. (٥) ﴾ [يونس] ، وقـال: ﴿ هُوَ الَّذى أَنْزَلَ منَ السَّمَاء مَاءً لَكُمْ منْهُ شَرَابٌ وَمنْهُ شَجَرٌ فيه تُسيمُونَ[1] (١٠) ﴾ [النحل] ، وقـال : ﴿ قُلْ هُوَ الَّذى أَنْشَـأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّـمْعَ وَالأَبْصَـارَ وَالأَفْئدَةَ قَليلاً مَا تَشْكُرُونَ (٢٣) ﴾ [الملك]

وقد يسأل سائل : وإذا كان الخَلْق هو لله عز وجل حَصْراً ، فلمـاذا يقول الحق سبحـانـه فى القرآن ﴿ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَـنُ الْخَالقينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون] فهل هنـاك خالقون والله أحسن الخـالقين ؟

نقول : الحق سبحـانـه لم يمنـع خَلْقه أنْ يخلقوا أشياء ، ولكن خَلْق الله أحسن، لمـاذا ؟ لأنـه يخلق من عدم ، أمـا البشر فيخلقون من موجـود ، الحق سبحـانـه

---

(١) تسيمون : ترعون فيه أنعامكم . قاله ابن عباس . معزواً لابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم . يقال: سامت السائمة تسوم رعت فهى سائمة . وقال النسفى فى تفسيره (١٥٣/٢) : « وهى من السومة وهى العلامة لأنها تؤثر بالرعى علامات فى الأرض » .

يخلـق ويُوجـد فى مخلوقاتـه حياة وتكاثـراً ، أما البشر فيخلقـون بلا نمو ولا حياة .

فـكأنَّ الحـق سبحانه جعـل من خَلْقه خالقـين ، لكن الخالقين مـن خَلْقه لم يخلقوا من عدم محض ، وإنما كوّنوا مُركّباً من موجود فى مواده ، فأخذوا من موادّ خلقها **الله** فركّبوا وأوجدوا .

فأنتم أيها البشر إنما تخلقون من مخلوقات خلقها **الله** ، ولم تخلقوا من غير مخلوق **لله** ، وإننا نرى دائماً أن خَلْق الإنسان لشيء إنما يظل معقوداً على حاله فلا ينسل ولا ينمو ولا يُحس ، والخالق العظيم يخلق من عدم .

وهكـذا شـاء الحق سبحانـه أنْ يفيض على عباده بـأنْ يعطيهـم صفة أنهم يخلقـون ولكنهـم لا يخلقـون كخَلْقـه ، فهو قد خلـق آدم ثم أوجدهم مـن نسله ، والبشـر قد يخلقون بعضاً مـن مُعدّات وأدوات حياتهم لكنهـم لا يخلقون كخَلْق **الله**، فهم لا يخلقون من معدوم بل من موجود ، وما يخلقونه جامد على حاله .

لذلـك الذين اعتقدوا فى ألوهية عيسـى عليه السلام ظنوا أن خَلْقه للطير من الطين هو دليلُ ألوهيته ، وهم بذلك أخطئوا خطأ كبيراً وضلُّوا ضلالاً بعيداً .

فالحـق سبحانه قال علـى لسان عيسى عليه السلام : ﴿ **أَنِّـى أَخْلُقُ لَكُم مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ الله** .. (٤٩) ﴾ [آل عمران]

فالمسيـح عليـه السلام لم يخلق الطير من العـدم ، إنما خلقه من طين مُكوَّن مـن تـراب ومـاء ، وكلاهما **الله** هـو الذى خلقهمـا لا أحدَ غيره ، فهـو شكَّل من الطين شكلاً على هيئة الطير من مخلوق خلقه **الله** أصلاً .

فعمـل المسيح هنا يتلخَّص فى التشكيل أو قُل النحت ، ثم قـال : ﴿ **فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُـونُ طَـيْرًا بِإِذْنِ الله** .. (٤٩) ﴾ [آل عمـران] فنفْخ الروح فى الطير المشكّل ليس

لذاتية فى عيسى عليه السلام إنما هى ﴿ بِإِذْنِ اللهِ .. (٤٩) ﴾ [آل عمران]

فلـو لم يأذن الله بـأنْ تكون هذه النفخة هى باعثة الـروح فى التمثال على هيئة طير ما صار طيراً ، ولو استمر النفخ فيه إلى يوم القيامة .

فخصائص عيسى ابن مريم عليه السلام لا تكـون إلا بإذن من الله ، فقدرة عيسى عليه السـلام أنْ يصنع من الطين ما هو على هيئة الطير ، وإذا نفخ فيه بـإذن الله لأصبح طيراً ، وكذلك إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى ، إن ذلك كله بإذن ممنْ ؟ بإذن من الله .

إذن : فعيسى عليه السلام لا يخلق الطـير ولكن يصنع من الطين مثل هيئة الطير ، فالحق وحده هو الذى يخلق ، فلأنه سبحانه الإله فهو الذى يخلق خَلْقاً عامـاً ، أما البشر فبإمكانهم أنْ يخلقـوا أشياء ويُشكِّلوهـا كمثل المخلوقات ، لكنها ليست مخلوقات على الحقيقة .

ونحـن نرى ذلك فى التماثيل التى ينحتها المثَّال من الصخر أو يُشكِّلها من الطين كهيئة الجمل أو العصفور ، لكنه لا يملك أنْ ينفخ فيه الروح ، وقد يخترع الإنسانُ أشياء مثل الكوب من الرمل المصهور المنقَّى ، لكننا لم نسمع عن خَلْق كوب ذكر وكوب أنثى ليتوالد من الاثنين نسلٌ من الأكواب .

وقـد سمَّـى اللهُ الإنسـان خالقـاً فأنصفـه واحترم إيجـاده للمعـدوم ، لكنه سبحانـه أحسن الخالقين ، ووجـه الحُسْن أن الله تعالى خلق من لا شيء ، وأنت خلقتَ من موجـود ، الله خلق خلقاً فيه حياة ونمو وتكاثـر ، وأنت خلقتَ شيئاً جامداً على حالته الأولى .

ففـى قولـه تعالى : ﴿ أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَـةِ الطَّيْرِ .. (٤٩) ﴾ [آل عمران] معلوم أنه فى مقدور كلِّ إنسان أنْ يُصوِّر من الطين طيراً ؟ ويُصممه على شكله،

لكن أيُقال له : إنه خلق بهذا التصوير طيراً ؟

وهل العظمة فى تصويره على هيئة الطير ؟ العظمة فى أنْ تبعث فيه الحياة ، وهذه لا تكون إلا من عند الله ، لذلك قال عيسى عليه السلام : ﴿ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ .. (٤٩) ﴾ [آل عمران]

والحق سبحانه يقول بعد ذلك : ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ .. (٢) ﴾ [التغابن]

وقد تكلم العلماء على قوله تعالى : ﴿ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ .. (٢) ﴾ [التغابن] بعد قوله (خلقكم) ، هل معنى هذا أن الله خلق المؤمن مؤمناً والكافر كافراً ، فهل الإنسان مقهور ومجبور على كفره . إذاً فلماذا يُعذِّبه الله ويُدخله النار بل ويُخلده فيها ؟

البعض فهم الآية على أن الله خلق المؤمن يوم خلقه فى بطن أمه خلقه مؤمناً ، وخلق الكافر يوم خلقه فى بطن أمه خلقه كافراً .

واستدلُّوا على هذا بحديث رسول الله ﷺ : « خلق الله فرعون فى بطن أمه كافراً ، وخلق يحيى بن زكريا فى بطن أمه مؤمناً »[1] .

ويستدلون أيضاً بقوله ﷺ : « إنَّ أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراعٌ أو باعٌ[2] فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإنَّ أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى لم يبْقَ بينه وبينها إلا ذراعٌ

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٣/٥٢٩) عن ابن مسعود مرفوعاً وعزاه لابن عدى والدارقطنى فى الأفراد والبيهقى وابن عساكر . وأخرجه البيهقى فى القضاء والقدر (٦٩) (١/٨٠) وابن عدى فى (الكامل فى ضعفاء الرجال) (٨/٢٧٧) .

(٢) الذراع من الإنسان من المرفق إلى أطراف الأصابع ومقياس للأطوال بمقدار ٧٥ سنتيمتراً أو ٥٨ سنتيمتراً . والباع قدر مدّ اليدين من أطراف أصابع اليد إلى أطراف الأصابع الأخرى . فالباع هو المسافة بين طرف اليد اليمنى واليد اليسرى إذا مدهما الرجل [تأسيس الأحكام ٤/١٠٦] .

أو باع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها »[١] .

وهذه الآية وهذه الأحاديث لا تُعطى الفهم والمدلول الذى فهمه البعض من أنَّ العبد مجبور على عمله لا اختيارَ له كالورقة فى مَهبِّ الريح .

فليس معنى أن الله خلق فرعون فى بطن أمه كافراً أنه أجبره على الكفر وحكم عليه دون ذنب من فرعون ، إنما الأمر أنَّ الله خلقه كافراً بمقتضى علمه سبحانه الأزلى من أن فرعون لن يؤمن وسيموت كافراً .

ولو كان الحق سبحانه قد أجبر فرعون على الكفر لما أرسل إليه موسى رسولاً وأعطاه الفرصة للإيمان بالله ، ولكن سبق فيه علم الله سبحانه من أنه سيكفر وأنه سيدَّعى الألوهية .

ولذلك يقول رسول الله ﷺ : « فيسبق عليه الكتاب » أى : بما كتبه اللهُ فى اللوح المحفوظ بما هو كائن إلى يوم القيامة ، لا بما فرضه الله على عباده وعبيده ، بل بما علمه أنهم يفعلونه بمحض إرادتهم .

والبعض وقف فى القراءة عند كلمة (خلقكم) ثم استأنف ﴿ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُمْ مُؤْمِنٌ .. (٢) ﴾ [التغابن]

أى أن الله خلقكم يوم خلقكم على الفطرة ، كما يقول رسول الله ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يُمجِّسانه أو يُهوِّدانه أو يُنصِّرانه »[٢] .

فالكفر والإيمان يأتى من كلٍّ من الكافر والمؤمن فيما بعد ، وهى إرادة

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٣٢) وكذا مسلم فى صحيحه (٦٨٩٣) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

(٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال النبى ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهوِّدانه أو يُنصِّرانه أو يُمجسانه كمثل البهيمة تنتج البهيمة هل ترى فيها من جدعاء ؟ » أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣٨٥) وأبو داود فى سننه (٤٧١٦) والترمذى فى سننه (٢١٣٨) وأحمد فى مسنده (٧١٨١، ٧٦٩٨) .

العبد فى أنْ يكفر أو يؤمن ، ونضرب لذلك مثلاً من قوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ .. (٤٥) ﴾ [النور] ثم ﴿ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ .. (٤٥) ﴾ [النور]

فالله خلق كلَّ الدواب من الماء ، ثم يأتى الفعلُ منهم بعد الخَلْق ، فيختلف الفعل بين دابة وأخرى ، فمن الدوابِّ مَنْ يمشى على بطنه كالزواحف والثعابين، ومنهم مَنْ يمشى على رِجْليْن كالإنسان وكالطيور مثلاً ، ومنهم مَنْ يمشى على أربع كالبهائم البقر والماعز والأغنام .

فالله خلقهم ولكن جعل المشى من فعلهم ، فقال : ﴿ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي .. (٤٥) ﴾ [النور] ، والقائلون بهذا غفلوا عن أنَّ مَشْى بعضهم على بطنه ، وبعضهم على رجليْن ، وبعضهم على أربع هو من تمام خِلْقتهم التى خلقهم الله عليها .

بمعنى أن الله سبحانه هو الذى أراد وخلق الثعبان والزواحف ماشية على بطنها فكان ، وهو سبحانه الذى أراد وشاء أنْ يمشى الإنسانُ على رجلين فكان ، وهو سبحانه الذى شاء أنْ تمشى البهائم والسِّباع على أربع فكان ، لا أن هذا محضُ إرادة منها وفعل مستقل بذاتها منها .

ولكن يبقى أنْ قوْلَ أهل السنة هو وَسَط بين طرفين ، بين مَنْ قالوا بالإرادة المطلقة لله ، وأن الله خالقُ العباد وخالق أفعالهم ، وليس للعبد أىُّ إرادة أو أىُّ فعل ، وهؤلاء هم الجبرية[1] .

وكذلك بين مَنْ قالوا بإرادة الإنسان المطلقة ، وأن الله خلق الكون وخلق الناس وتركهم ، وليس لله إرادة مع إرادة البشر .

---

(١) الجبرية هم الذين يعتقدون أن العبد مجبور على أفعاله قسراً ولا فعل له أصلاً بل إثبات الفعل للعبد هو عين الشرك عندهم بل هو كالهاوى من أعلى إلى أسفل وكالسعفة تحركها الريح لم يعمل باختياره طاعة ولا معصية ولم يكلفه الله وسعه بل حمَّله ما لا طاقة له به ، ولم يخلق فيه اختياراً لأفعاله ولا قدرة له عليها ، فرفعوا اللوم عن كل كافر وفاسق وعاصٍ . [معارج القبول ١/٣٧٢].

وكلا القولين خطأ ، والصواب هو الوسط بين القولين ، وقد ناقش الناسُ مسألة « خَلْق أفعال العباد » ، ولكن ما الفعل ؟ الفعل توجيه طاقة لإحداث حدث ، ففى اليد مثلاً طاقة تصلح لأنْ تفعل الخير وتفعل الشر .

فطاقة اليد أنها تعمل أىّ عمل تريده منها ، قد تضرب بها إنساناً ، أو تحمل بها إنساناً ساقطاً على الأرض ، أو تُربِّت بها على رأس يتيم .

فجوارحك واستعدادها للفعل سواء كان خيراً أو شراً الخالقُ لها اللهُ ، أما توجيه الجارحة إلى فعل ما هو محلّ التكليف ، وهو فعل العبد الذى يُثاب عليه أو يُجازى .

إذن : فأنت تُحاسب لأنك فعلتَ ، لا لأنك خلقتَ ، لأن خالق الأفعال هو الله سبحانه وتعالى، وأنت تفعل بمجرد الإرادة والاختيار ، مثل اللسان فيه طاقة مخلوقة لبيان ما فى النفس ، إنّ أردتَ أنْ تقول بها « لا إله إلا الله » صَلُحتْ، وصلُحَتْ كذلك عند الملحد أنْ يقول - والعياذ بالله - لا يوجد إله . واللسان نفسه الذى خلقه الله فى الإنسان لم يعصِ الله فى هذه ولا فى تلك .

ولذلك فجوارح الإنسان هى مجرد شهود على الإنسان فتشهد عليه يوم القيامة، يقول الحق سبحانه : ﴿ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِى أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) ﴾ [فصلت]

ومَنْ يتأمل قوله تعالى : ﴿ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ .. (٢) ﴾ [التغابن] يجد أن الله قدّم ذِكْر الكافر على المؤمن ، لماذا ؟

المقام مقامُ توبيخ للإنسان الذى خلقه الله ووهبه الحياة والنِّعم التى لا تُعدُّ ولا تُحصَى ، ومع ذلك يكفر منه فريقٌ من الناس ، وهو الفريق الأغلب عدداً .

ولـذا يقـول الله فـى يوم الموقف : يـا آدم أخرج بعث النـار . قال : وما بعث النار ؟ (أى عدده) قال الله : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين[1] .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣) ﴾ [سبأ]

ويقول تعالى : ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١) ﴾ [الرعد]

ونلاحـظ أن الآيــة القرآنيــة لم تذكـر إلا صنفين مـن الناس ، وهمـا الكافر والمؤمـن ، فقالـت ﴿ فَمِنْكُـمْ كَافِـرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِـنٌ .. (٢) ﴾ [التغابـن] فلم تذكر المنافق أو الفاسق أو الظالم .

وذلك لأن المقام هنا هـو مقام الحديث عن خَلْق الإنسان ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ (٢) ﴾ [التغابن] وسيأتى قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ .. (٣) ﴾ [التغابن] والناس ينقسمون بهذا الاعتبار إلى مؤمنين أو كافرين ، إما مؤمنين بأن الله هو الخالق ، وإما أنهم كافرون بهذا ، لِهذا لم يذكر اللهُ إلا صنفين .

والبعضـ أخذ من هذا أنَّ الآية رَدٌّ على القائلين بالمنزلة بين المنزلتين ، أى منزلـة بين الإيمـان والكفر ، ورغم قولنـا أن هذا المبدأ خاطـيء إلا أن الآية لا علاقةَ لها هنا بموضوع المنزلة بين المنزلتين .

إنمـا الآية تتحدث عن مَنْ ينكرون وجـود الله عز وجل ويُنكرون خالقية الله للوجود بسماواته وأرضه وبشره وجنِّه وملائكته .

وإذا كانـت السورة السابقة سورة المنافقـين حدَّثتنا عن صنف المنافقين ، وكشفتهم وفضحتهم ، فإن المنافقين العليمى النفاق يندرجون تحت الكافرين،

---

(١) عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : يقول الله تعالى : يا آدم فيقول : لبيك وسعديك والخير فى يديك . فيقول : أخرج بعث النار . قال : وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين . فعنده يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٤٨) ومسلم فى صحيحه (٥٥٤) .

لأنهم على الحقيقة كافرون ، وإنْ أظهروا غير ذلك .

بل إنَّ المنافقين أشدُّ خطراً من الكافرين الصريحى الكفر ، وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِى الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ .. (١٤٥) ﴾ [النساء]

ولكن الكلام هنا فى المؤمنين بخالقية الله سبحانه وأنه الخالق البارى ، فمنكم كافر بخلقه وأنه خلقه ، ومنكم مؤمن مُصدِّق أنه خالقه أو بارئه ، وهذا ليس فيه منزلة بين المنزلتين .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) ﴾ [التغابن] فقوله (بما تعملون) يشمل أفعالهم وأقوالهم ، فالعمل يشمل الفعل والقول .

وهذه الآية ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) ﴾ [التغابن] تُعطينا دلالَة أن الآية تدلُّ على الأعمال التى يعملها كلُّ مخلوق ، إما أنْ تكون أعمالاً تدلُّ على إيمانه فيكون مؤمناً ، وإما أعمالاً تدلُّ على كفره فيكون كافراً .

فالكلام فى الأعمال ، والله لا يُجبر أحداً على عمل الإيمان أو عمل الكفر أو الفسق أو الظلم .

﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) ﴾ [التغابن] أى : يعرف ما يعملونه فلا تعتقد أن هناك شيئاً يَخْفى على الله ، أو أنَّ أحداً يستطيع أنْ يخدع الله ، فالله سبحانه وتعالى بصير بكلِّ شيء ، ليس بالظاهر منك فقط ، ولكن بما تُخفيه فى نفسك ولا تُطلع عليه أحداً من خَلْق الله .

وقد قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ .. (١٥) ﴾ [آل عمران] فلم يقل الله : إنه عليم بالعباد ، لأن « عليم » تكون للأمور العقدية ، لقد قال الحق سبحانه فى وصف ذاته هنا : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) ﴾ [التغابن] والبصر لا يأتى إلا ليدرك حركةً وسلوكاً .

فمـاذا يـرى الله من العباد ؟ إنه سبحانه يـرى العباد المتحركين فى الكون، وهـل حركـة العبد منهـم تطابـق الإسـلام أو لا ؟ ومتـابعة الحركـة تحتـاج إلى البصر، ولا تحتاج إلى العلم .

واختيـار (بصـير) يدلُّ على أنهم قد بلغوا من الغبـاء أنهم لم يستتروا حتى فى المعصية ، ولكنهم جعلوها حركة تُرى ، وهذا القول هنا أقوى من (عليم) ، لأن (عليم) تؤدى إلى أنْ نفهم أنهم يملكون بعضاً من حياء ويسترون الأشياء، ولكن حركتهم صارتْ واضحة بحيث تُبصر .

ومـن عجائـب القرآن أنه عنـد الكلام علـى المنافقين قـال : ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُـونَ (١١) ﴾ [المنافقـون] فأعمالهـم الظاهـرة متوافقـة مـع قواعـد الدين وأحكامـه من صلاة وصيام مما يفعلـه كلُّ المسلمين بل حرص على الصفوف الأولى فـى المساجد ، ولكنّ أعمالهم هـذه تحتاج إلى خبرة الخبير سبحانه بما فى نياتهم ، وصِدْق ما تطويه نفوسهم .

أما المؤمنون والكافرون فأعمالهم ظاهرةٌ واضحةٌ للعيان ، سواء كانت أعمالَ خير أو أعمالَ سُوء ، لذلك ناسب هنا أنْ يقول تعالى : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) ﴾ [التغابـن] فهـو سبحانـه يعلم حركـة العبـادة ، لأن حركة العبـادة مرئية ، وهو سبحانـه بصير بذنوب عباده ، وقـد جمع الله بين الخبير والبصير بأعمال العباد فى قوله تعالى : ﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (١٧) ﴾ [الإسراء]

والبصر هو من مُوجبات أنْ يكونَ الإلهُ إلهاً ، لذلك كان إبراهيم عليه السلام يقول لأبيه : ﴿ يَـٰأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنْكَ شَيْئًا (٢٤) ﴾ [مريم]

فكيـف تعبـد إلهاً مزعومـاً لا يسمـع ، فهـو أصم لا يسمع دعـاء الداعين من عبـاده ، ولا يسمـع تأوّهـاتهـم وآلامهـم ، ولا يبصـر فهو أعمى لا يـرى ، فهذه الصفات لا تكون فى المعبود .

وليس معنى أن الله بصير بعباده أن له عيناً كأعيننا ، إنما هذا يجب أنْ نأخذه في إطار : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) ﴾ [الشورى] فأنت تسمع والله يسمع ، وأنت تبصر والله يبصر ؛ ولكن ليس السمع كالسمع ، وليس البصر كالبصر ، تعالى الله عن مشابهة الخلائق ، علواً كبيراً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ ﴾

تستمر الآيات في الحديث عن الخَلْق ، فذكرتْ أولاً خلقنا ، فقال تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ .. (٢) ﴾ [التغابن] ، ثم تُحدِّثنا الآياتُ عما هو أكبر وأعظم من خَلْق الإنسان ، وهو خَلْق السماوات والأرض .

قال تعالى : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٥٧) ﴾
[غافر]

فالناسُ إنما خُلقوا من الأرض ، وقد قال رسول الله ﷺ : « إنَّ الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنُو آدم على قدر الأرض ، جاء منهم الأحمر والأسود والأبيض وبين ذلك ، والسهل والحَزَن[1] والخبيث والطيب »[2] .

ومسألة خَلْق السموات والأرض يجب أنْ يبدأ منها التعجب ، وأنت أيها

---

(١) الحزن هو الوعر . السهل يُوطأ ويُمتهن . والحزونة شدة . فالتربة الطيبة نفوسها سهلة كريمة وليست فيها كزازة ولا يبوسة ولا شعوثة ، فالآخرون كانت الحزونة في تربتهم فجاءت الكزازة والشعوثة والصعوبة . [نوادر الأصول في أحاديث الرسول ١/ ٣٣٢] .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (٤٦٩٥) والترمذي في سننه (٢٩٥٥) وأحمد في مسنده (١٩٥٩٧ ، ١٩٦٥٩) والبزار في مسنده (٣٠٢٦) والبيهقي في سننه الكبرى (١٨١٦٣) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

الإنسان يجب أنْ تفطن إلى ما خُلق لك لتستدلّ على خالقك ولتُؤمن وتشهد أنه إله واحد .

فلو أنَّ الإنسانَ نظر فى خَلْق السماوات والأرض لاهتدى بفطرته إلى أن لهذا الوجود المتقن المحكم صانعاً قد صنعه ، ولو فكرتَ أيها الإنسان فى خَلْق السماوات والأرض لوجدته أكبر من خَلْق الناس ، إنه الكونُ بسماواته وأرضه .

ولقد أوجد سبحانه السماوات والأرض من عدم ، وليس لأحد أنْ يجتريء ليقول لله: كيف خلقتَ السماوات والأرض ؟ لأنه سبحانه يقول : ﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾ [الكهف]

فعلينا أنْ نأخذ خبر الخَلْق من خالقهما وهو الله ، وقد أتى بعضُ الناس وقالوا : إن الأرضَ انفصلتْ عن الشمس ثم بردتْ ، وهذه مجرد ظنون لا تثبت ، لأن أحداً منهم لم يَرَ خَلْق السماوات والأرض .

وهؤلاء هم أهل الظنون الذين يدخلون فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾ [الكهف]

وحين تتأمل السماء والأرض تجد دقة الخَلْق ، وخَلْق السماوات والأرض هو الظرف الوجودى للإنسان الخليفة ، وطرأ الإنسان على هذا الكون بكلِّ ما فيه من قوى ونواميس ، فكأنَّ الله أعدَّ الكون للخليفة قبل أنْ يخلق الخليفة، ليجد كوْناً مسخَّراً له ، ولا يستطيع أيّ كائن فيه أنْ يخرج عن مراد الله فى شيء .

وقد شاء الحقُّ سبحانه أنْ يخلق الأرض والسماوات فى ستة أيام من أيام الدنيا ، وكان من الممكن أنْ يخلقها فى أقلّ من طَرْفة عين بكلمة (كُنْ) ، وهناك فرْق بين إيجاد الشيء وطرْح مُكوِّنات إيجاد الشيء .

وأنت حين تفكر في خَلْق السماوات والأرض ستجده مسألة في غاية الضخامة ، ويكفيك أنْ تتحيَّر في مسألة خَلْقك وتكوينك ، وأنت مجرد فرد محدود بحيِّز ، ولك عمرٌ محدود ببداية ونهاية ، فما بالك بخَلْق السماوات والأرض التي وُجدت من قبلك ، وستستمر من بعدك إلى أنْ تنشقَّ بأمر الله وتتكسَّر لحظتها النجوم .

وقد حجز الحق سبحانه عن العقول المتطفلة أمرين ، فلا داعي أنْ تُرهق نفسك فيهما :

الأمر الأول : هو كيفية خَلْق الإنسان ، وهل كان فرداً في البداية ثم تطوَّر ؟ تلك مسألة لا تخصُّك فلا تتدخل فيها بافتراضات تؤدي بك إلى الضلال .

والأمر الثاني : هو مسألة خَلْق السماوات والأرض فتقول : إن الأرض كانت جزءاً من الشمس ثم انفصل وبرد سطحه وتجمَّد ، ومثل هذا الكلام لا يستند إلى دليل أو واقع أو شواهد .

ولا أحدَ قادرٌ على أنْ يخلقَ مثل السماوات والأرض ، وهي مخلوقة على غير مثال سابق ، لذلك قال تعالى : ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (١١٧) ﴾ [البقرة]

أي : أنه سبحانه خلق السماوات والأرض وكلّ ما فيهما من خَلْق على غير مثال سابق ، أي لم يكُن هناك سماء أو أرض أو ملائكة أو جنّ أو إنسان ، ثم جاء الله سبحانه وتعالى وأوجد مُشابهاً لهم في شكل أو حجم أو قدرة ، فهو سبحانه لم يلجأ إلى ما نُسمِّيه نحن بالقالب .

إن الذي يصنع كوبَ الماء يصنع أولاً قالباً يصبُّ فيه خام الزجاج المنصهر، فتخرج في النهاية أكوابٌ متشابهة ، وكلُّ صناعة لغير الله تتمّ على أساس صُنْع القالب أولاً ، ثم بعد ذلك يأتي الإنتاج .

ولذلك فإن التكلفة الحقيقية هى فى إعداد القالب الجيد الذى يعطينا صورةً لما نريد ، فالذى يخبز رغيفاً مثلاً قد لا يستخدم قالباً ، ولكنه يقلد شيئاً سبق، فشكل الرغيف وخامته سبق أنْ تمَّ وهو يقوم بتقليدها فى كلِّ مرة ، ولكنه لا يستطيع أنْ يُعطى التماثل فى الميزان أو الشكل أو الاستدارة ، بل هناك اختلافٌ فى التقليد ولا يوجد كمالٌ فى الصَّنْعة .

وحين خلق الله جلَّ جلاله الخَلْق من آدم إلى أنْ تقوم الساعة جعل الخَلْق متشابهين فى كلِّ شيء ، فى تكوين الجسم وفى شكله فى الرأس والقدمين واليدين والعينين وغير ذلك من أعضاء الجسم تماثلاً دقيقاً فى الشكل وفى الوظائف ، بحيث يؤدى كُلُّ عضو مهمته فى الحياة .

ولكن هذا التماثل لم يتم على قالب ، وإنما تمَّ بكلمة (كُنْ) وعلى غير مثال سابق ، فهو سبحانه الخالق البديع ، ومهمة آيات الله الكونية أنْ تلفتَ نظر المخلوق إلى بديع صُنْع الخالق وضرورة الإيمان به .

فمنها نعلم أنْ وراء الكون البديع خالقاً وقوة تُمدّه وتُديره ، فمَنْ يمد هذه الشمس بهذه القوة الهائلة ؟ ومَنْ خلقها من عدم وأمدَّها بالطاقة من عدم ؟

ولو نظرتَ إلى الشمس وسألتَ نفسك : كم من الأجيال قد استمتعوا بدفئها واستفادوا منها ، فمن المؤكد أنك لن تعرف عدد الأجيال ، لأن الشمس مخلوقة من قبْل خَلْق البشر ، وكلُّ إنسان يستمتع بالشمس ويستفيد منها عدد سنوات حياته ثم يذهب إلى الموت .

وقد حدَّثنا الحق سبحانه عن خَلْق السماوات والأرض ، فقال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ (٣٠) ﴾ [الأنبياء]

وهـذا لم يصل مَـنْ سبقونـا إلى فَهْمه الفَهْم العميق ، لكـن إنسان هذا العصر الذى نعيشه فهمها بعد أنْ توصَّل العلماء إلى أن السماوات والأرض كانتا كتلةً واحدة وفصلهما الحق بإرادته ، وجعل من الماء حياة لكلِّ كائن حَيٍّ .

والرتق : الشيء الملتحم الملتصق ، ومعنى : ﴿ فَفَتَقْنَاهُمَا .. (٣٠) ﴾ [الأنبياء] أى : فصلناهما وأزحْنا هذا الالتحام .

ومن العلماء[1] مَنْ رأى أن المعنى خاص بكلٍّ من الأرض والسماء ، كلٌّ على حدة ، وأنهما لم تكونا ملتحمتين ، واعتمدوا على بعض الآيات مثل قوله تعالى : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) ﴾ [عبس]

وفى موضع آخر قال : ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) ﴾ [القمر]

فالمـراد إذن أن الأرض وحدها كانت رتْقاً فتفجـرتْ بالنبات ، وأن السماء كانـت رتْقاً فتفجرتْ بالمطر ، فشقّ الله السمـاء بالمطر ، وشقَّ الأرضَ بالنبات الذى يصدعها .

نفهـم مـن هذا الـرأى أن الفتْق ليس فتْـق السماء عن الأرض ، إنما فَتْق كلٍّ منهما على حدة .

والحـق سبحانـه إنما خلق السمـاوات والأرض بالحق ، فالكـون مبنيٌّ على الحـق : ﴿ مَـا خَلَقْنَاهُمَـا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِـنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُـونَ (٣٩) ﴾ [الدخان] ،

---

(١) عن ابن عباس قال : فتقت السماء بالغيث ، وفتقت الأرض بالنبات . أخرجه الفريابى وعبد بن حميد والحاكم وصححه والبيهقى فى الأسماء والصفات . وعن ابن عمر أن رجلاً أتاه فسأله عن (السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما) قال : « اذهب إلى ذلك الشيخ فاسأله ثم تعال فأخبرنى ما قال ، فذهب إلى ابن عباس فسأله قال : نعم كانت السماء رتقاء لا تمطر ، وكانت الأرض رتقاء لا تنبت ، فلما خلق الله الأرض فتق هذه بالمطر وفتق هذه بالنبات .

والحق هو الشيء الثابت ، وما دام ثابتاً فهو لا يتغير ، وقضية الحق فيه تكون مُطردة ، فالله حَقٌّ ، خلق السماوات والأرض وكلّ الكون بالحق ، ونشأ الكون منه بقانون حق ، واستمرتْ سُنن الله فى الكون بالحق .

وقد جعل سبحانه من دعاء المؤمنين : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) ﴾ [آل عمران]

فسبحانك حَقٌّ وخلقتَ السماوات والأرض بالحق ، ووضعتَ لها نواميسها وقوانينها بالحق ، فيجب أنْ نستقبل النعمة التى خلقتَها لنا بالحق ، فإن استقبلها بعضُ الناس بغير الحقِّ ، فإنها تكونُ وبالاً عليهم .

والله سبحانه هو الحق الأعلى ، وهو الذى خلق كلَّ شيء بالحق : سماء مخلوقة بالحق ، وأرض مخلوقة بالحق ، وشمس تجرى بالحق ، ومطر ينزل بالحق ، وكلّ شيء ثابت ومتحرك بقوانين أرادها الحق سبحانه .

ومعنى الخَلْق بالحق أنَّ مَنْ خلق السماوات والأرض إنما فعل ذلك بموازين دقيقة مُحكمة وضعها على نظام ثابت له قضية تحكمه من الحق والحكمة .

فالشمس مثلاً لم تتخلَّف يوماً ، فتقول مثلاً : لن أطلع اليوم على هؤلاء الناس لأنهم ظالمون ، لأن لها قانوناً تسير به ، وهى مخلوقة بحق ثابت لا يتغيَّر ، وما دامت هذه الكونيات خُلقتْ بالحق وبشيء ثابت ، فلك أنْ تُرتِّب عليها حساباتك وتضبط بها وقتك ، وأنت لا تضبط وقتك على ساعة إلا إذا كانت هى فى ذاتها منضبطة .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) ﴾ [الرحمن] أى : مخلوقة بحساب ، ولأنه سبحانه خلقها بحساب جعلها آلةً للحساب .

وقد قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ (٣٨) ﴾ [الدخان] فالله لم يخلق السماوات والأرض لعبة ، بل خلقهما بالحق ، وهناك فارقٌ بين اللعبة والحق ، فاللعبة قد يتوصَّل إليها مَنْ يعبث بشيء ، فتخرج له صدفة ، يستخدمها هو أو غيره كلعبة .

ولأن الخَلْق كله كان بالحق فالله لن يترك الناسَ سُدى ولم يخلقهم هَملاً ، بل كلُّ عمل يفعله الإنسان مُحصىً عليه وسيُسأل عنه يوم القيامة .

﴿ أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى .. (٣٩) ﴾ [القيامة]

فنحن لم نُخلق عبثاً ولن نُترك سُدى ، كما قال سبحانه : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) ﴾ [المؤمنون] ولو تركنا الله تعالى بلا حساب لكانَ المنحرف الذى أعطى لنفسه شهواتها فى الدنيا أوفرَ حظاً من المستقيم ، وما كان الله تعالى ليغُشّ عبده الذى آمن به وسار على منهجه ، أو يُسلمه للظلمة والمنحرفين .

فالله إنما خلق السماوات والأرض ، وخلق الشمس والقمر وجعلهما آيتين دالتين على كمال قدرته سبحانه وعظيم سلطانه ، ولم يخلقهما عبثاً ، بل لحكمة عظيمة : ﴿ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ .. (٥) ﴾ [يونس] فلا شيءَ يُخلق عبثاً بل بالحق .

والله سبحانه لا يمتنُّ بخَلق السماء والأرض وما بينهما لأنهما أعجب شيء، ولكن لأنهما مخلوقتان للناس ومُسخَّرتان لخدمتهم ، الكل مخلوق لك أيها الإنسان ، وكان يجب عليك أنْ تبحثَ بعقلك فيمن سخّر لك هذا كله ، كان عليك أنْ تهتدى إلى الخالق سبحانه للسماء والأرض وما بينهما ، لأنه سبحانه ما

خلقهما عبثاً ولا خلقهما للعب ، إنما خلقهما من أجلكَ أنت .

ثم قال تعالى : ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ .. (٣) ﴾ [التغابن] والحق سبحانه يقصد هنا التصوير فى الأرحام ، وليس التصوير الأول عند خَلْق آدم الخَلْق الأول من الطين ، لذلك قال تعالى : ﴿ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ.. (٣) ﴾ [التغابن] فجمع (صوركم) .

والحق سبحانه يقول فى آية أخرى : ﴿ هُوَ الَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ .. (٦) ﴾ [آل عمران]

والتصوير فى الأرحام هو إيجاد المادة التى سيُوجد منها الإنسان على هيئة خاصة ، هذه الهيئة تختلف نوعيتها : ذكورةً وأنوثةً ، الذكورة والأنوثة تختلف أشكالاً : بيضاء وسمراء وقمحية وخمرية وقصيرة وطويلة .

وقوله ﴿ كَيْفَ يَشَاءُ .. (٦) ﴾ [آل عمران] معناه أن تصوير أشكالنا هو محْضُ اختيار الله سبحانه لنا ، وكلّ تصوير له حكمة ، وما دام كلُّ تصوير له حكمة فكلُّ خَلْق الله جميل .

وعليك ألاّ تأخذ الخَلْق مفصولاً عن حكمة خالقه ، بل خذ كُل خَلْق مع حكمته، فالذى يجعلك تقول : هذا قبيح أنك تفصل المخلوق عن حكمته .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ يَاأَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِى أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨) ﴾ [الانفطار]

فالحق سبحانه يُعدِّد شيئاً من مواد إكرامه للإنسان وخَلْقه فى أحسن صورة، من حيث الخَلْق والتسوية والتعديل ، وهذا أمر لا يشكّ فيه إنسان حين يجد فكره ، وحين يجد شكله ، وحين يجد تسويته واعتداله عن سائر ما خلق الله عز وجل .

فلـم يخلقـه الله ماشياً على بطنـه ، ولم يخلقه يمشى علـى أربـع ، ولم يجعل قامته مُلتوية إلى أسفل ، بل جعله مرتفع القامة ، هذا بخلاف التسوية والتعديل فى أجهزته الدقيقة التى لا يزال علماءُ كلِّ جهاز من هذه الأجهزة يقفون دائماً عندها عجباً ويكتشفون سِراً .

ويمـتنُّ الحقُّ سبحـانه علـى الإنسـان ، فيقول : ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) ﴾ [البلد]

ومـا دام المُلْـك لله سبحانه وكذلك الخَلْق له وحـده ، فكذلك تصوير الإنسان فى الأرحام له وحده : ﴿ هُوَ الَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ .. (٦) ﴾ [آل عمران]

ومعنـى (لا إلـه إلا هـو) أى سيُصـور وهو عالم أنَّ ما يُصوِّره سيكون على هذه الصورة ، لأنه لا يوجد إلهٌ آخر يقول له : هذه الصورة لا تعجبنى وسأصوِّر صورة أخرى .

لا ، لأن الـذى يفعـل ذلك عزيـز أى لا يُغلب على أمـر ، وكل ما يريده يحدث، وكل أمـر عنـده لحكمـة ، لأنـه عندما يقـول ﴿ يُصَوِّرُكُمْ فِى الْأَرْحَامِ .. (٦) ﴾ [آل عمران] قد يقول أحد النـاس : إن هناك صُوراً شاذة وصوراً غير طبيعية .

وهـو سبحـانـه يقول لك : أنـا حكيـم وأفعلها لحكمة ، فـلا تفصل الحدث عن حكمتـه ، خُذ الحدث بحكمته ، وإذا أردتَ الحـدث بحكمته تجده الجمال بعينه ، وهو سبحـانه المصوِّر فى الرحم كيف يشاء .

وقد علَّمنا رسول الله ﷺ الإقرار بهذا في سجودنا ، فكان ﷺ إذا سجد قال: « اللهم لك سجدتُ ، وبك آمنتُ ، ولك أسلمتُ ، سجد وجهى للذى خلقه وصوَّره ،

وشقّ سمعه وبصره ، تبارك الله أحسن الخالقين »[1] .

وقد كان رسول الله ﷺ إذا نظر فى المرآة قال : « الحمد لله الذى حسَّن خَلْقى وخُلقى ، وزانَ منى ما شانَ من غيرى »[2] .

وقد قال تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ﴾ [التين] أى : سوَّاه البارى سبحانه على هيئة مستقيمة وعلى أحسن تقويم ، فالإنسان خَلْقه وصنعته ، خلقه الله وصوَّره وشكّله فى أحسن تقويم وعلى أحسن هيئة .

هذا من حيث المادة ، ويريد الله أنْ يظلَّ هكذا سويَّ التكوين فى كل شيء ، فإذا ما خرج هذا الخليفة المخلوق لله على قانون صيانته فإنه ولا شكَّ لابدّ أنْ يُغضب الله لأن الله يريد أنْ تظل صنعته جميلة كما أبدعها سبحانه .

وإذا كان الحق سبحانه هنا حدَّثنا عن تصوير الإنسان فى أحسن صورة بعد الكلام عن خَلْق السماوات والأرض ، فإنه سبحانه فى آية أخرى قال : ﴿ اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ .. (٦٤) ﴾ [غافر]

فهناك خَلْق للسماوات و الأرض ، وهنا جعْل هذه الأرض المخلوقة قراراً أى مكاناً مُستقراً صالحاً لعيش الإنسان عليها ، وجعل السماء المخلوقة بناءً متماسكاً يُمسكها الحق سبحانه أنْ تسقط على الأرض .

واقترانُ خَلْق الإنسان وتصويره على هذه الصورة والهيئة ، اقتران هذا بخَلْق السماوات والأرض التى لم يدّع أحدٌ خَلْقها ، هذا دليل قاطع على أن

---

(١) عن على بن أبى طالب عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا سجد قال : « اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت ، سجد وجهى للذى خلقه وصوَّره وشقَّ سمعه وبصره تبارك الله أحسن الخالقين » . أخرجه مسلم فى صحيحه (١٨٤٨) وأبو داود فى سننه (٧٦٠) والترمذى فى سننه (٣٤٢١) قال الترمذى : حديث حسن صحيح .

(٢) أخرجه أبو يعلى فى مسنده (٢٦١١) ، والطبرانى فى الدعاء (٤٠٢) عن ابن عباس رضى الله عنهما .

الله سبحانـه هو المصوِّر للإنسـان على غير مثال سابق ، كما أنه أبدع الوجود كله.

وهـذا يقطـع الطريق على القائلين بنظرية تطور الإنسـان عن القرد ، وكيف نُصدِّق ترقى القـرد إلى الإنسان ؟ ولماذا ترقـى قرد داروين ولم تترقَّ باقى القرود ؟ ولماذا لم تؤثر فى بقية القرود ليكونوا أناساً وينعدم جنس القرد ؟

والـذى يهـدم نظريـة داروين مـن أولهـا هو هـذا الفهـم لطبيعـة التطور : ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ .. (٤٩) ﴾ [الذاريات] أى : أن كلَّ الكائنـات مخلوقة ابتداءً من الله ، ولا يوجد جنسٌ قد نشأ من جنس آخر .

وتصويـر الإنسان علـى هذه الصورة البديعة هو تكـريم للإنسان ، وقد قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ .. (٧٠) ﴾ [الإسراء]

وأوجه التكريم فى الإنسان كثيرة ، فهو كُرِّم بالعقل ، وكرِّم بالتمييز ، وكُرِّم بالاختيار ، وكُرِّم أيضـاً بأنـه يسير مرفوع القامـة لا على أربـع منحنياً إلى الأرض كالبهائـم ، وكُرِّم بشكل الأصابع وتناسقها فـى شكل بديع يسمح لها بالحركة السلسة فى تناول الأشياء ومزاولة أعمال دقيقة .

وكُـرِّم أيضـاً بأنه يأكل بيده لا بفمه كالحيـوان ، ولا بمنقاره كالطائر ، ولا بخرطومه كالفيل ، وكل هذا مُلاحظ فى تكريم الإنسان .

والحـق سبحانـه مـن أسمائه الحسنـى (المصـوِّر) ، اسم فاعـل للموصوف بالتصوير ، وهو جَعْل الشيء على صورة لا يتماثل فيها جنسان أو نوعان ، بل لا يتساوى فردان ، فلكلٍّ صورته وسيرته وما يخصُّه ويتميز به عن غيره .

فالمصوِّر فى أسماء الله الحسنى هو مُبدع صُور المخلوقات ومُزيِّنها بحكمته ومعطـى كلّ مخلوق صورته على ما اقتضـتْ حكمته الأزلية ، وكذلك صورَ اللهُ

الناسَ فى الأرحام أطواراً وشكّلهم أشكالاً .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) ﴾ [التغابن] أى : إلى الله المرجع والمآب فلن يستطيعوا أنْ يُفلتوا ، فمصير جميع العباد ومرجعهم يوم القيامة يكون إلى الله تعالى .

فمصير الجميع الرجوع والانقلاب إلى الله ، يقول تعالى : ﴿ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (٥٠) ﴾ [الشعراء] . وكوْن المصير إلى الله سبحانه هو اطمئنان لمن آمن ، وما دمنا إليه نرجع ومنه بدأنا ، فالحياة بدايتها من الله ونهايتها إلى الله فلنجعلها هى نفسها إلى الله .

وإذا كان الحقُّ سبحانه خلق السماوات والأرض بالحق فإنه سبحانه لم يخلق الناسَ عبثاً أو لعباً أو لهواً . إنما خلقهم أيضاً بالحق ، فقال تعالى :
﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) ﴾ [المؤمنون]

وكوْننا نؤمن أنَّ إلى الله المصير هو من صلب الإيمان ، لأن هذا إيمانٌ باليوم الآخر وبالبعث بعد الموت ، وإذا كان إلى الله المصير فلماذا نعصيه ونخرج عن منهجه سبحانه ؟

وإذا كنتَ قد عصيتَ الله بما منحناه لك فى الدنيا من خيارات الطاعة أو المعصية ، فإنك بعد الموت ليس لك أىّ خيار إلا الرجوع إلى الله إما طائعاً مختاراً مُحباً للقاء الله ، وإما كارهاً مضطراً رغماً عنك ودون إرادتك .

ولا تظن أن هناك مفراً ﴿ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (٦) فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٩) يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (١٠) كَلَّا لَا وَزَرَ (١١) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (١٢) ﴾ [القيامة]

ويقول تعالى : ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ

تَخْتَلِفُونَ (٤٨) ﴾ [المائدة]

فلتتسابقوا فى الوصول إلى الخيرات وفِعْلها ، فإن الكلَّ يرجع إلى الله سواء الملتزم أو المنحرف ، فنُرد إلى مصيرنا المحتوم وهو الوقوف أمام الله فيُنبئنا بما كنا فيه نختلف .

وإذا كانت بدايتكم من صُنْع الله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ .. (٢) ﴾ [التغابن] ، وإذا كان الله هو الذى ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ .. (٣) ﴾ [التغابن] ، بل إنه سبحانه هو الذى شكَّل صُوركم هذه التى أنتم عليها ، فلماذا يستبعد البعض منكم أنه سبحانه ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) ﴾ [التغابن]

وقد قدَّم الحق سبحانه الظرف الجار والمجرور (إليه) ليلفت أنظارنا أن المصير مفروغٌ منه ، وأن الإنسان لابدّ له من مرجع يعود إليه ، ولكن ليعلم أن هذا المصير هو (إليه) إلى الله سبحانه ، لا إلى إله آخر من آلهة البشر المزعومة.

فالمصير إنما هو إلى خالقكم وخالق السماوات والأرض ومُصوِّركم فى الأرحام كيف يشاء . ولا بد أنْ يكون المصير إلى الله ، وإلا لنجا الذى ملأ الدنيا شروراً دون أنْ يُجازَى على ما فعل ، ولكانَ الذى التزم بالتكليف والعبادة وحرم نفسه من متع دنيوية كثيرة إرضاءً لله قد شقى فى الحياة الدنيا عبثاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ
وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾ ﴾

الحق سبحانه لـه مُلْك السماوات والأرض ، وهـو سبحانه خالقهما وخالق البشر ، خلـق كلَّ شـيء بالحق ، وهـو سبحانه الـذى صوَّرنا فأحسـن صورنا وهيئاتنا .

ومـا دام الحـق سبحانه هو مالك الملْك ، وهو خالـق كلِّ شيء فإنه سبحانه يعلـم كلّ شـيء فيمـا خلق ، فـكأنّ هذه الآيـة التى معنا هـى نتيجة ومحصلة للآيات السابقة عليها من سورة التغابن .

﴿ يُسَبِّحُ للهِ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) هُـوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِـيرٌ (٢) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) ﴾ [التغابن]

فعندمـا يُقـال لنا : إن الله يعلم كلَّ شيء فيك ، لا يدخل معك فى متاهة ، هو سبحانه يقول لك : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [الملك]

فالـذى صنع الكرسى - ولله المثل الأعلـى - ألاَ يعرف أن الكرسى مصنوع مـن الخشـب ، ونـوع الخشـب (زان) أو (أرو) أو (مُجنـة) ، وأن المسمار الذى يربـط الجزء بالجزء ، إما مسمار صلب وإما من معدن آخر ، وكذلك يعلم صانع الكرسـى أىّ صنـف من الغراء استُعمـل فى لصق أجزاء الكرسـى ، وكذلك مواد الدهـان التى دهن الكرسى بها .

إذن : فقـول الحـق سبحانـه : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيـفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [الملـك] لا يحتـاج إلى دليـل ، ولذلك نجد النجار الذى يرغـب أنْ تكون صنعتهُ مكشوفة واضحة يقول للمشترى : سوف أصنع الكرسى من خشب الزان ، وعليك أنْ تمرَّ يومياً لترى مراحل فِعْله .

وخَلْق الحق سبحانه ظاهرٌ للعيان واضح ، يقول تعالى : ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ

بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ[1] بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) ﴾ [لقمان]

ثم قال تعالى في وضوح : ﴿ هَٰذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ .. (١١) ﴾ [لقمان]

فخَلْق السماوات والأرض والشمس والقمر إعجازٌ للدنيا كلها ، وهو من الوضوح بحيث لا يستطيع أحدٌ إنكاره ، لذلك عندما يقول لهم الحق سبحانه : ﴿ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ .. (١١) ﴾ [لقمان] لا تجد عندهم إجابة لهذا السؤال ، حيث لا واقع له يستدلون به ولا حتى بالمكابرة .

فالحق أبلج والباطل لجلج[2] ، لذلك لم نسمع لهم صوتاً ولم يجرؤ واحد منهم مثلاً على أنْ يقول : آلهتنا خلقت الجبال مثلاً أو الشمس أو القمر ، فلم يستطيعوا الردّ رغم كفرهم وعنادهم .

ومعنى ﴿ هَٰذَا خَلْقُ اللهِ .. (١١) ﴾ [لقمان] أي مخلوقاته . وأنت أيها الإنسان لن نطلب منك خَلْقاً كخلق السماء والأرض والجبال ولا إنزال المطر وإحياء الأرض بالنبات ، بل سنطلبْ منكم ما هو أهون من هذا بكثير وأدنى .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ .. (٧٣) ﴾ [الحج] فأولئك الذين تدعونهم وتعبدونهم وتتجهون إليهم من دون الله

---

(١) أن تميد : أي لئلا تميد . وقال الزجاج : كراهة أن تميد . وقال ابن قتيبة : الميد الحركة والميل . ومادت الأغصان : تمايلت . ماد الشيء يميد : تحرك . قال الزبيدي في تاج العروس (مادة ميد) : « أي تضطرب بكم وتدور بكم وتحرككم حركة شديدة » .

(٢) الحق أبلج : أبيض واضح . وكل واضح أبلج . واللجلجة والتلجلج : التردد في الكلام . واللجلاج : من كان ثقيل اللسان يتردد في كلامه (المعجم الوسيط) وأبلج الحق : ظهر . وكل متضح أبلج من صبح وحق وأمر ووجه . وقال الزبيدي : أي لا تخفى معالمه . [تاج العروس] .

﴿ لَـنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا .. (٧٣) ﴾ [الحـج] وهو أصغر المخلوقات ﴿ وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ .. (٧٣) ﴾ [الحج]

يعنى : ولو تضافرت جهودهم واجتمع أمرهم جميعاً لا واحداً واحداً ، فالحق سبحانـه لم يتحدهـم بخلْق السماوات ، ولا بخلـق الأرض ، ولا بخلق الإنسان ، بـل إنه سبحانـه تحداهم بخلق ذباب ، وحسم الأمر فقال : ﴿ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا .. (٧٣) ﴾ [الحج]

فـالآيـة جاءت بنفـى المستقبل ، فهى لم تنْفِ الماضى إنمـا نَفتْ المستقبل ، فالنفـى هنـا للتأبيد ، فهم ما استطاعوا فى الماضى ولن يستطيعوا أيضاً فيما بعد حتى لا يظنّ أحدٌ أنهم ربما تمكَّنوا من ذلك فى مستقبل الأيام .

وإذا كان أمـر الخَلْـق محسوماً لله عـز وجل فإن أمر اتصـاف الخالق بالعلم محسـومٌ أيضـاً ، فمَـنْ خلق شيئاً يعلم كل شيء عما خلقـه : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [الملك]

ومـا دام سبحانـه هـو خالق كل شيء ، فليس غريباً أنـه سبحانه يعلم كل شيء عما خلق ، وكل صانع فى مجاله يعلم أسرار صنعته ، فما بالنا بالخالق الأعظم سبحانه ، إنه خبير عليم بكلِّ شيء .

وقـد روى لنـا عبد الله بـن مسعود رضى الله عنـه قصة ثقفيـين وقرشى كثيرةٌ شحوم بطونهم ، قليل فقه قلوبهم ، اجتمعوا عند البيت الحرام ، فقال أحدهم : أترون أن الله يسمع ما نقول ؟ قال الآخر : يسمع إنْ جهرنا ، ولا يسمع إنْ أخفينا .

وقال الآخر : إنْ كان يسمع إذا جهرنا فإنه يسمع إذا أخفينا[1] .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٨١٧ ، ٧٥٢١) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٧٧٥) وأحمد فى مسنده (٣٨٧٥) وابن حبان فى صحيحه (٣٩١) ، وكذا البزار فى مسنده (١٧٩٨) والطيالسى فى مسنده (٣٦١)، عن ابن مسعود رضى الله عنه ، وقد صححه الألبانى فى صحيح وضعيف الترمذى (٣٢٤٨).

فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَـٰكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) ﴾ [فصلت]

فهؤلاء الثلاثة كانوا يظنون لضحالة فكرهم واهتمامهم بعظَم أجسامهم وإنْ صغُرتْ عقولهم ، كانوا يظنون أن الله لا يعلم كثيراً مما يقولون ومما يعملون ، فظنوا أن الله لا يعلم ما أسرُّوه لبعضهم البعض ولم يعلنوه ، وأنه لا يعلم ما يُخفونه فى داخل صدورهم .

ولكن أحدهم كان أكثر فهماً وإنْ كانوا جميعاً مشتركين فى قِلَّة فقه قلوبهم فقال : إنْ كان يسمع إذا جهرنا فإنه يسمع إذا أخفينا .

والحق سبحانه بيده الخَلْق من بدايته ، وبيده سبحانه الوفاة والمرجع ﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ .. (٣) ﴾ [التغابن] ، وهذا يتطلب علماً ، فلا بدَّ من علم ، لأن الذى يصنع صنعةً لابد أنْ يعرف ما يُصلحها وما يفسدها ، وذلك يتطلب قدرة للإدراك ، فالعلم وحده لا يكفى .

لذلك قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ .. (٧٠) ﴾ [النحل] ، وقال : ﴿ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ .. (٥٤) ﴾ [الروم] ، فالخَلْق ناشيء عن علم ، لكن العلم وحده لا يكفى ، فقد تكون عالماً لكنك غيرُ قادر على تنفيذ ما تعلم .

وذلك كمهندس الكهرباء تجد عنده علماً واسعاً عن الكهرباء ، لكنه لا يستطيع تنفيذ شبكة أو معمل كهرباء ، فيذهب إلى أحد الممولين ليعينه على التنفيذ ، لذلك وصف الحق سبحانه نفسه بالعلم والقدرة .

والحق سبحانه يقول هنا ﴿ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (٤) ﴾ [التغابن] فهو سبحانه الأعلم والأحكم ، فعلْمه مطلق وحكمته مطلقة ، فلا تخفى عليه خافيةٌ فى الأرض ولا فى السماء .

﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٥٩) ﴾ [الأنعام]

فعند الله علْم جميع الغيب ويحيط علمه بكلِّ شيء ولا تخفى عليه خافية، فيعلم ما فى السماوات بكلٍّ ما فيها من فضاءات وأجرام وشموس ونجوم، يعلم ما يجرى من السحاب الثقال بما يحمله من خير للناس وللأرض وما عليها من دواب .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا .. (٢٧) ﴾ [فاطر]، فهو سبحانه الذى أنزل من السماء ماء، وليس لأحد من خلقه أى دخل فى هذا، لأن الماء إنما يتبخر دون أنْ يدرى الإنسان وعرفنا كيف يتكوَّن السحاب من المطر، ثم ينزل المطر من بعد ذلك .

﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ .. (٥٩) ﴾ [الأنعام] ففى البر من مخلوقات الله ما لا يُعد ولا يُحصى ولا يعلمه إلا الله، وكذلك ما فى البحر، ففيه من أنواع المخلوقات ما لا يحيط به علم إنسان .

والبَرُّ مُحسٌّ لكلِّ إنسان بما فيه من جمادات ونباتات وأشجار وحيوانات وأُناس وبلاد وطرق، وهناك من البلاد ما لا تُطل على بحار أبداً، ولذلك جاء الحق بالبَرِّ أولاً، ثم جاء بالبحر الذى يمكن أنْ يُشاهد .

وعِلْم الله بما فى السماوات والأرض ليس علماً إجمالياً، بل هو علم تفصيلى بكل ما يحدث فى السماوات والأرض وما بينهما، فالحق سبحانه يقول :

﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا .. (٥٩) ﴾ [الأنعام]

فالحق سبحانه يعلم كلَّ ما يتعلق بورقة شجرة بعد أنْ تؤدى مهمتها من

التمثيل (الكلورفيلى) وتغذية الشجرة وإنضاج الثمار ثم سقوطها على الأرض .

فالحق سبحانه يعلم أوقات حركة كلِّ ورقة من أية شجرة ، وهذا يدل على كمال الإحاطة والعلم .

﴿ وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ (٥٩) ﴾ [الأنعام] فالله جلَّتْ قدرته يعلم أمر كل كائن فى هذه الحياة ، لأن كلّ كائن فى هذه الدنيا إما رطب وإما يابس .

والحق سبحانه يقول : ﴿ يَـٰبُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى السَّمَاوَاتِ أَوْ فِى الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) ﴾ [لقمان]

فلقمان عليه السلام يدلُّ ولده على صفة من صفات الحق سبحانه ، هى صفة العلم المطلق الذى لا تخفى عليه خافية ، فكأنه يقول له : إياك أنْ تظن أنَّ ما يخفى على الناس يخفى على الله تعالى .

وكما أن الله تعالى لا يخفى عليه مثقال حبة من خردل حتى إن كانت فى باطن صخرة أو فى السماوات أو فى الأرض ، كذلك لا تخفى عليه حسنة ولا سيئة مهما دقَّتْ ، ومهما حاول صاحبها إخفاءها .

فعلْم الحق جلَّ جلاله لا يغيب عنه شيء ، والخردل مثال للصِّغر للدلالة على استقصاء كل شيء .

ثم ينقلنا الحق سبحانه إلى مجال علم آخر له سبحانه ، وهو علم ما يُسره الإنسان أو يُعلنه ، فيقول تعالى : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ .. (٤) ﴾ [التغابن]

ويقول فى آية أخرى : ﴿ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (١٩) ﴾ [النحل]

والسرّ كما نعلم هو ما حبسْته فى نفسك ، أو ما أسررتَ به لغيرك ، وطلبتَ منه ألا يُعلمه لأحد ، والحق سبحانه يعلم السر بل يعلم ما هو أخفى ، فهو القائل : ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) ﴾ [طه]

أى أنه سبحانه يعلم ما نُسرُّه فى أنفسنا ، ويعلم أيضاً ما يمكن أن يكون سراً قبل أن نُسره فى أنفسنا ، وهو سبحانه لا يعلم السر فقط بل ما هو أخفى من السر .

فلا يستطيع بشر أنْ يخدع ربَّ العالمين ، فالله عليم بكلِّ شيء ، عليم بما نُخفى وما نُعلن ، عليم بالسر وما هو أخفى من السر ، وهل يوجد ما هو أخفى من السر ؟

نقول : نعم ، السرّ هو ما أسررتَ به لغيرك فكأنه يعلمه اثنان ، أنت ومن أسررتَ إليه ، ولكن ما هو أخفى من السر ما تُبقيه فى نفسك ولا تخبر به أحداً ، إنه يظل فى قلبك لا تُسر به لإنسان ، والله سبحانه يقول : ﴿ وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى .. (٧) ﴾ [طه]

وينتقد الحق سبحانه أولئك المنافقين الذين يظنون أن بمقدورهم خداع الله تعالى ، فيقول عنهم : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦) ﴾ [البقرة]

لذلك قال تعالى فى الآية بعدها : ﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧) ﴾ [البقرة]

ما هو السر وما هو العلن ؟ الأمر المعلن هو الذى يخرج منك إلى مَنْ عنده آلةٌ للسماع ليسمعك ، والأمر المعلن يخرج منك إلى مَنْ عنده آلةٌ للرؤية ليراك ، فإنْ كان حركةً بلا صوت فهذا عُدته العين ، وإنْ كان بصوت فعُدته الأذن ،

هذه وسائل الإدراك الأصلية .

أمـا السـر فهو ما لم تهمس به إلى غيرك ، لأن همسك للغير بالشيء لم يعد سـراً ، ولكـن السر هو ما تُسـره فى نفسك ولا تهمس به لأحد مـن الناس ، وإذا كان السر هو ما تُسره فى نفسك فالعلن هو ما تجاهر به ، ويكون علناً ما دام قد علمه اثنان .

والعلن عند الناس واضح ، والسرّ عندهم أخفى ، والله سبحانه يعلم السر والعلن، بل إنه سبحانه يعلم ما هو أخفى من السر ، ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) ﴾ [طه]

فـإذا كان السـر هو ما تُخفيه فى نفسك وله واقعٌ داخلك (ما هو أخفى) هو أن الله يعلـم أنك ستفعله قبل أنْ تفعلـه ، ويعلم أنه سيحدث منك قبل أنْ يحدث منك .

وقـد يجعـل الله عز وجـل الإخفـاء مقابلاً للإعـلان ، فيقول تعـالى : ﴿ أَلَّا يَسْجُـدُوا لله الَّذى يُخْرِجُ الْخَـبْءَ[1] فِى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَـمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) ﴾ [النمل]

وهذه الآية تُرجعنا مرة أخرى إلى ارتباط علم الله ما فى السماوات والأرض بعلم ما يُخفى الإنسان أو يُعلنه ، فالمراد بالخبء فى السماوات المطر ، والخبء فـى الأرض النبات ، ومنهما تأتى مقوِّمـات الحياة ، فمن ماء المطر وخصوبة الأرض يأتى النبات ، وعلى النبات يتغذَّى الحيوان ويتغذَّى الإنسان .

بـل إن : ﴿ الله عَلِيـمٌ بِـذَاتِ الصُّدُورِ (٤) ﴾ [التغابن] فكلمـة « ذات الصدور» معناهـا صاحبـة الصـدور ، وفى الصـدر يحرص الإنسـان على إخفـاء الأمر

(١) الخبء : كل ما غاب . كل ما خبأته فهو خبء . فمعنى ﴿ الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ..(٢٥) ﴾ [النمل] قال ابن قتيبة : أى المستقر فيهما . خبء السماوات : المطر وخبء الأرض : النبات. (زاد المسير لابن الجوزى – سورة النمل آية ٢٥).

الذى يجب أنْ يحتفظ به لنفسه بحرص كحرص الصاحب على صاحبه ، كأن الصدر حريصٌ على ألاَّ يسلم ما فيه ، ولكن الله سبحانه يفضحهم أمام الناس ويفضحهم أمام نفوسهم ، فقد يجوز أنْ يكونوا مغشوشين فى نفوسهم .

فيقصد بـ (ذات الصدور) أى المعانى التى لا تفارق الصدور ، فهى صاحبات دائمة الوجود فى تلك الصدور ، سواء كانت حقداً أو كراهية ، أو هى الأحاسيس التى لا تظهر فى الحركة العادية ، سواء أكانت نية حسنة أو نية سيئة .

والحق سبحانه يعطينا صورة لهؤلاء الذين يظنون أن الله لا يعلم سرهم ونجواهم ، أو أنه لا يعلم ما تكنُّه صدورهم ، أو أنهم يخفَوْنَ على الله فيقول تعالى : ﴿ أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ[1] ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٥) ﴾ [هود]

فحين يثنى الإنسان صدره فهو يثنيه إلى الأمام ناحية بطنه ويدارى بذلك وجهه ، والغرض هنا من مداراة الوجه هو إخفاء الملامح ، لأن انفعال مواجيد النفس البشرية تنضح على الوجوه .

وهم قد استغشوا ثيابهم ليغطوا وجوههم مداراةً للانفعالات التى تحملها هذه الوجوه .

والحق سبحانه يقول : ﴿ قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ وَيَعْلَمُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٢٩) ﴾ [آل عمران]

فإخفاء ما فى الصدور هو الذى يعلمه الله ، أما إبداء ما فى الصدر فإنه

(١) يستغشون : يأوون إلى فراشهم ويتدثرون بثيابهم ، وذلك أن بعض الكفار كان إذا مرّ به رسول الله ﷺ ثنى صدره وولى ظهره واستغشى ثيابه لئلا يسمع كلام رسول الله . [فتح القدير للشوكانى ٣/٤٢٥].

قد علمه أحدٌ غير الله ، لذلك كان ما يُخفيه الإنسان فى صدره هو محضُ علم الله سبحانه لا يطلع على ما فى صدر الإنسان إنسانٌ آخر ، أما الله الذى خلق الإنسان فهو يعلم ما فى الصدور .

ولاحظ أن الله بعد كلامه عن علم الله لما تُخفيه فى صدرك أو تُبديه لفت نظرنا إلى : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ .. (٢٩) ﴾ [آل عمران]

والحق سبحانه هو العليم الذى يعلم كلَّ شيء خافياً كان أو ظاهراً ، والعلم كله منه سبحانه ، وهو سبحانه العليم بنيتنا ومدى إخلاصنا ، وهو العليم بما يُدبِّره الكافرون والمنافقون ، بل يعلم ما فى صدورهم قبل أنْ ينطقوا به .

وباستحضار الإنسان لصفة الله واسمه العليم ينضبط سلوكه فى الحياة؛ لأنه يعلم جيداً ويُوقن أن الله عليم بما يعلنه وبما يُسره ، وبما يستكنُّ فى صدورهم.

ويعطينا الحق سبحانه مثالاً لهذا ، فيقول : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨٠) فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨١) ﴾ [البقرة]

فالحق سبحانه يفترض وهو الأعلم بنفوس عباده أنَّ الموصى قد لا يكون على حق ، والوارث قد يكون على حق ، لذلك احتاط التشريع لهذه الحالة ، لأن الموصَى له حين يأخذ حظَّه من الوصية سينقص من نصيب الوارث .

ولذلك يريد الحق سبحانه أنْ يعصم الأطراف كلها ، إنه يحمى الذى وصّى والموصَى له والوارث ، ومن هنا يقول الحق سبحانه : ﴿ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨١) ﴾ [البقرة]

فالموصِى قد برئتْ ذمته ، أما ذمة الموصَى له والوارث فهى التى تستحق

أنْ تنتبه إلى أنَّ الله يعلم خفايا الصدور ، وهو السميع العليم .

وفى مجال آخر يقول تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٤) ﴾ [البقرة]

فالحق سبحانه سميع باليمين الذى حلفته ، والله عليم بنيتك إنْ كانت خيراً أو شراً ، فلا تتخذ اليمين حُجة لأن تمنع البر والتقوى والإصلاح .

وعلم الله ذاتى ، أما علمُ الإنسان فقد يكون أثراً من ضغط الأحداث عليه فيفكر الإنسان فى تقنين شيء يُخرجه مما يكون فيه من شرّ ، ولكنّ علم العليم الأعلى سابقٌ على ذلك لأنه علم ذاتيّ .

وما دام علمُ الله ذاتياً ، وما دام سبحانه هو الحق العليم بما تُخفى الصدور فهو قادر ليس فقط على الجزاء بما يفعلونه من عمل نزوعى ، ولكنه قادرٌ على أنْ يُجازيهم أيضاً بأنْ يفضح الأعمال غير النزوعية الكامنة فى صدورهم .

وأكثر ما يكون العلم يكون لما لا يبدو من أمر الناس ، سواء كان مسموعاً أو مرئياً ، لذلك قرن الحق سبحانه السمع بالعلم ، فقال : ﴿وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٧٦) ﴾ [المائدة] فالسميع تدلّ على قوْلٍ قيل فسُمع ، أما كلمة (العليم) فتدلّ على شيء يدور فى الخواطر .

فإنْ كان قد حصل كلامٌ فهو قد سمعه ، وإنْ كانت قد دارتْ خواطر فى النفس فهو يعلمها ، لأن العاقل قبل أنْ يتكلم لابد أنْ يدير الكلام فى النفس ، وكل كلام يُقال لابدّ له من نزوع ، هذا النزوع يعلمه الله ، وهو سبحانه العليم أزلاً وأبداً .

ومثل هذا قوله تعالى : ﴿ إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١) ﴾ [الإسراء] فالسميع

لمـا يُسمـع والبصير لما يُرى ، أما العليم فهو لمـا لا يُسمع ولا لما يُرى ، بل هو لمكنونـات النفس ، فسبحانـه يسمع قوْل مَنْ لا يستطيـع ولا يملك القدرة على سلوك ما ، وسبحانه بصير يرى صاحب كلِّ سلوك .

أمـا النيـة فهذه تحتـاج إلى علم العليم وخبرة الخبـير سبحانه ، يقولُ ﷺ : « إنمـا الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امريء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه »[(١)] .

وكذلك كل فعل نيتك فيه يعلمها الله سبحانه ، فالذى يمسح على رأس اليتيم مثـلاً يكون صاحب حـظ عظيم فى الثواب[(٢)] ، ومَنْ يكفـل اليتيم فهو مع النبى ﷺ[(٣)] .

لكـن الـذى يُقـدِّر ذلك هـو الله سبحانـه العليم بخفايـا الإنسـان حسب نية الشخـص الـذى يقوم بهـذا العمل، فقد يتقـرب واحد من يتيـم ويتكلف العطف والحنـان بينما هو يقصد التقرب إلى أم اليتيم[(٤)] .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (١) كتاب بدء الوحى ، وكذا أبو داود فى سننه (٢٢٠٣) وابن ماجه فى سننه (٤٢٢٧) والبيهقى فى سننه (١٨٤ ، ١٥٣٩١) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

(٢) أخرج أحمد فى مسنده (٧٥٦٦ ، ٩٠٠٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رجلاً شكا إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه فقال له : « إن أردت تليين قلبك فأطعم المسكين وامسح رأس اليتيم » وكذا أخرجه البيهقى فى سننه الكبرى (٧٣٤٥) .

(٣) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين فى الجنة » وأشار مالك بالسبابة والوسطى . أخرجه مسلم فى صحيحه (٧٦٦٠) وأحمد فى مسنده (٨٨٦٨) .

(٤) أخرج البخارى فى صحيحه (٢٧٦٣) أن عروة كان يحدِّث أنه سأل عائشة رضى الله عنها ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ .. (٤)﴾ [النساء] قالت : هى اليتيمة فى حجر وليها فيرغب فى جمالها ومالها ويريد أن يتزوجها بأدنى من سنة نسائها فنهوا عن نكاحهن إلا أن يقسطوا لهن فى إكمال الصداق وأمروا بنكاح من سواهن من النساء . قالت عائشة : ثم استفتى الناس رسول الله بعد ، فأنزل الله ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ .. (١٢٧)﴾ [النساء] .

لذلك فمناط الجزاء ومناط الثواب هو فى النية الدافعة والباعثة على العمل، لذلك خذوا بالكم واجعلوا مسح رأس اليتيم لله ، ليس للتقرب من أمه الجميلة مثلاً .

والنية لا تكون لله ولا تكون صالحة إلا إذا اقترن هذا بتقوى الله ، يقول تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧) ﴾ [المائدة]

فالتقوى لا تنشأ من الأفعال المحسَّة المدركة فقط ، بل تنشأ أيضاً فى الأحوال الدخيلة المضمرة ، ومثال ذلك نية سيئة ونية حسنة ، فالحقد والحسد والتبييت والمكر ، كلّ ذلك صفات سيئة وهى خبيئة النفس ودخيلته وذات صدْر الإنسان يعلمها الله من نفوسنا .

وتقوى الله تجعلُك تُطهِّر نفسك من هذه الصفات السيئة ، ليكون سلوكُك مبنياً على تقوى الله وعلى اليقين أنَّ الله يعلم ما فى نفسك حتى قبل أنْ تنطق به أو تمارسه فعلاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾

ساعة يقول: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ .. (٥) ﴾ [التغابن] فهنا همزة الاستفهام ، ولم للنفى ، والهمزة تنفى هذا النفى ، أى : أتاكم نبأ هؤلاء ، وحين يُنفَى النفى لأمر فالمراد إثباتُ الأمر .

وأنـت لا تستفهم الاستفهام الإنكارى إلا وأنـت واثق من أنَّ الجواب عند مَنْ تسأله هو : نعم . فحين تقول لإنسان : أنت تخليتَ عنِّى فى محنتى . فيقول : ألم أُزْرْكَ فى يوم كذا ؟ ألم أُعطك كذا ؟ ألم أصنع مع ابنك كذا ؟

فهو واثق أنك لا تستطيع إنكارَ شيء من هذا لأنه ثابتٌ ثبوتاً حقيقياً .

ونلحـظ أن الحق سبحانه جاء هنا بالخطاب للمخاطـب ، فقال : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ .. (٥) ﴾ [التغابن] ، وذلك مثل قوله سبحانه مخاطباً الجن والإنس : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِى .. (١٣٠) ﴾ [الأنعام]

ومثل قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ .. (٩) ﴾ [إبراهيم]

والخطاب من بداية سورة التغابن هو للمخاطب : ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ .. (٢) ﴾ [التغابن] ، ثم قال : ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ .. (٣) ﴾ [التغابن]

فصيغة المخاطبة مستمرة ، فخاطب أولاً الكافرين ثم تحدَّث عمّن آمن، لذلك عندما قال سبحانه : ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ .. (٢) ﴾ [التغابن] وأراد أنْ يخاطب خَلْقه قال : ﴿ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ .. (٢)﴾ [التغابن]

وما دام الحق سبحانه يخاطب الكافرين ، فيقول : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ .. (٥) ﴾ [التغابن] فيكون الاستفهام هنا للتقريع والتبكيت لمن كذّب وكفر.

وقوله سبحانه ﴿ نبأ ﴾ يدل على أهمية ما يريد أنْ يلفتهم إليه ، فكلمة (نبأ) لا تأتى إلا فى الخبر العظيم ، والنبأ هو الخبر المهم ، فنحن لا نطلق النبأ على مطلق الخبر ، ولكن نطلقه على الخبر اللافت للنظر .

مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢) ﴾ [النبأ] إذن: فكلمة نبأ هى الخبر المهم الشديد الذى له وَقْع وأثر عظيم .

فليس كلُّ خبر نبأ ، ذلك أن هناك الكثير من الأخبار التافهة التى يتساوى فيها العلم الذى لا ينفع بالجهل الذى لا يضر . فالنبأ إذن هو الخبر العظيم المدهش ، الذى له جدوى اعتبارية ، ويمكن أن ننتفع به وليس مطلق خبر .

والنبأ أصله من نبا ينبو نبْوة ، والنبوة الأمر الواضح الظاهر وليس مطموساً، ولذلك فكل شيء هام ظاهر قد حدث يُقال عنه : نبأ .

ومن هذا قوله تعالى : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) ﴾ [الحجر] فالإنباء هنا بأمر خطير له خطورته ، ولا يقال (نبىء) فى خبر بسيط لا قيمة له .

ومن الأنباء العظيمة قوله ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨) ﴾ [ص] فنبأ الآخرة نبأ عظيم ، لا يجب أنْ نغفل عنه ، بل نجعله نُصْب أعيننا ونستعد له ، لا أنْ نُعرض عنه ونتجاهله بسلوكنا فى مسالك تُوردنا المهالك .

فالنبأ يجب أنْ يُنصت له ، وأنْ تُؤخذ منه العبرة والعظة ، لأنه خبر هائل يهز الدنيا كلها ويملأ الأسماع .

والحق سبحانه إنما قال : ﴿ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (٥) ﴾ [التغابن] ولم يقل : أنباء الذين كفروا . فأفرد النبأ رغم أن الذين كفروا جمع وأقوام كثيرة ، حتى عندما ذكر الحق سبحانه الأقوام الذين كفروا قال :

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ[1] وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ

(١) مدين : مدينة كانت موجودة فى شمال غرب الجزيرة العربية منطقة البدع حاليا تابعة لمنطقة تبوك شمال غرب المملكة العربية السعودية وكان أهلها يعملون بالتجارة ، وقد كانوا ينقصون المكيال والميزان ، فأرسل الله إليهم شعيباً نبياً ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ .. (٨٤) ﴾ [هود] .

يَظْلِمُونَ (٧٠) ﴾ [التوبة]

فأفرد (نبأ) وهذا إشارة إلى أن فعل الكفر منهم برسله هو فعل واحد وإنْ تعددت الرسل ، وكما نقول (ملة الكفر واحدة) .

أما عندما ذكر الرسل قال ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ .. (١٢٠) ﴾ [هود] فقال (أنباء) بالجمع ، لأن الكلام هنا يتعلق بتجربة كل رسول مع قومه ، فما قاساه نوحٌ مع قومه غير ما قاساه صالح أو هود أو موسى أو عيسى أو إبراهيم .

كلٌّ له قصة مختلفة ، لذلك كان قصصهم (أنباء) ، ثم إن أخبار الرسل عليهم السلام تتناثر لقطات مختلفة عبْر سور القرآن الكريم ، مُوضِّحة ما جاء به كلّ رسول معالجاً الداء الذى عانى منه قومه ، وكذلك ما عاناه كلُّ رسول من عَنَت القوم المبعوث لهم .

وجاء ذِكْر تلك الأنباء فى القرآن لتثبيت فؤاد الرسول ﷺ ، لأن الرسول سيصادف فى الدعوة المتاعب والمصاعب .

ولكن كيف سيأتيهم نبأ الذين كفروا ؟ نقول : أهل قريش كانوا أهلَ تجارة وكانت لهم رحلتان فى العام ، إحداهما فى الصيف إلى الشام ، والأخرى فى الشتاء إلى اليمن .

قال تعالى : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) ﴾ [قريش]، وقد أعطى الله لقريش السيادة ، لذلك كانت قوافلهم تذهب بالتجارة لليمن والشام ولا يجرؤ أحدٌ من القبائل أنْ يتعرَّض لها .

فعزّ قريش فى بيت الله الحرام وأمنهم وسيادتهم فى أنهم جالسون فى راحة، وتتنقل قوافلهم إلى الشام وإلى اليمن ، ثم تعود مُحمَّلة بالخير والربح وهم آمنون مطمئنون .

وهـم فى تجارتهم هذه كانـوا يسمعون بقصص الأمم السابقة ، وما حدث للأقـوام من قبل ، وكان سير قريش بقوافلهـا إلى الشام واليمن يجعلها قادرة علـى أن تـرى آثار المكذِّبين سـواء من أهل ثمود أو قوم عـاد أو غيرهم ، وكان عليهم أنْ يأخذوا العبرة فى أثناء سعيهم لتجارتهم .

يقـول الحـق سبحانه : ﴿ قُـلْ سِيرُوا فِـى الْأَرْضِ ثُـمَّ انْظُرُوا كَيْـفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِـينَ (١١) ﴾ [الأنعـام] فالغرض من السير الاعتبـار والاتعاظ ، ولابد إذن منِ وجود بقايا وأطلال تدلّ على هؤلاء السابقين المكذبين أصحاب الحضارات التى أصبحتْ أثراً بعد عين .

فهـؤلاء الذيـن سبقوكم بقيتْ لهم مساكن ، فمَنْ شـاء أنْ يذهب إليها ليتأكد فليذهـب ، ولا تـزال مدائن صالح ، ولا تزال هناك آثار عاد ، وكلّ مكان فيه أثر من الآثار .

ولذلك يوضح الحق سبحانه : فإنْ كنتم تريدون التأكد من ذلك فأنا قد أخبرت، ومَـنْ آمـن بى فليُصـدق خبرى ، ولغـير المؤمن ولمـن يريد اطمئنـان قلبه، يقول سبحانه : ﴿ فَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦) ﴾ [النحل]

وقـد قـال تعالى عنهـم : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِـينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُـونَ (١٣٨) ﴾ [الصافـات] فقـد كنتـم تمرون على آثارهم فـى سدوم صباح مسـاء، فـى رحلاتكـم وأسفاركم وفـى تجارتكم فى رحلـة الشتـاء والصيف ، وتشاهدون آثارهم وما تبقَّى من ديارهم .

فأنتـم تمرون على تلـك الأماكن التـى أقامها بعضٌ ممـن سبقوكم وظلموا أنفسهم بالكفر ، وأنزل الحق سبحانه عليهم العقاب .

وقـد قال تعالى عـن مساكن سدوم ، وهـى مساكن قوم لـوط الذين نزل بهم

العذاب : ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ (٧٦) ﴾ [الحجر] أى : أنها على طريق ثابت تمرُّون عليه إنْ ذهبتم ناحية هذا المكان .

فهذه المدينة إذن فى طريق ثابت ، لن تضيعه عوامل التعرية أو الأغيار ، ولن تضيعه تلك العوامل إلا إذا شاء الحق سبحانه ذلك ، فأنتم أهل سَيْر وترحال، وأهل نظر فى مصير من قبلكم ، فكيف يقبل منكم الانصراف عن آيات الله ؟ وكيف لا تعقلون آيات الله ؟ وكيف لا تحرك قلوبكم ؟!

حتى أن الله قال عنهم : ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا (٤٠) ﴾ [الفرقان] والقرية التى أمطرت مطر السوء هم سدوم[1] قرية قوم لوط ﴿ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا .. (٤٠) ﴾ [الفرقان] أى : أفلم يشاهدوها فى أسفارهم ؟

وهى مشاهد ليست مجرد تاريخ يحكيه القرآن ، بل هى مشاهد ومَرَاءٍ رآها كفار مكة فى رحلة الصيف يمرُّون على هذه الديار فيجدونها خاوية : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا .. (٥٢) ﴾ [النمل]

وقد روى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : مررنا مع رسول الله ﷺ على الحِجْر[2] ، فقال لنا رسول الله : « لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين ، حذراً أنْ يصيبكم مثل ما أصابهم . ثم زجر[3] فأسرع حتى

---

(١) مدينتا سدوم وعمورية مدينتان تقعان فى وادى سديم ، فتقع مدينة سدوم جنوب شرق البحر الميت فى غور الأردن .

(٢) قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠) ﴾ [الحجر] فأصحاب الحجر هم ثمود . قال ابن عباس : كانت منازلهم بالحجر بين المدينة والشام . وقال ابن جرير : هى أرض بين الحجاز والشام . وقال الشيخ الشعراوى : كانت المنطقة التى يقيمون فيها كلها من الحجارة ولا يزال مقامهم معروفاً فى المسافة بين خيبر وتبوك.

(٣) زجر الراعى النَّعَم : صاح بها . وزجر البعير : حثّه على السرعة .

خلّفها »[1] .

فالمسلم الحق تجده ذاكراً الله عز وجل ، فى حِلّه وترحاله ، دارساً لتاريخ الأمم من قبله ، عارفاً ما حلَّ بهم ، مُتقياً أنْ يقع فيما وقعوا فيه فاستحقوا عذاب الله .

حتى إذا مرَّ على آثار ومواقع ومساكن مَنْ نزل بهم العذاب عليه أنْ لا يدخلها إلا إذا كان مُستحضراً ما نزل بهم ، باكياً داعياً الله أنْ لا يصيبه وقومه ما أصاب هؤلاء .

وقد كان رسول الله الحريص على أمته حريصاً على هذا ، وحدث أنْ كان رسول الله ومعه الصحابة فى غزوة تبوك ، وهى شمال المدينة المنورة على بُعْد كبير منها على طريق الشام .

يقول ابن عمر : « مررنا مع رسول الله على الحِجْر » وقد قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠)﴾ [الحجر]

وأصحاب الحجر هم قوم صالح . وكانت المنطقة التى يقيمون فيها كلها من الحجارة ولا يزال مقامهم معروفاً بين خيبر وتبوك ، وقال فيهم الحق سبحانه : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩)﴾ [الشعراء]

وقوم صالح هم ثمود الذين قال الله فيهم ﴿ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩)﴾ [الفجر] وكانت إمكانات ثمود أكبر من إمكانات قريش ، فقريش لا سيادةَ لها إلا بسبب وجود الكعبة ، ولو كان الحق سبحانه ترك أبرهة يهدم الكعبة لما مكّن لهم فى الأرض.

لقد كان قوم صالح مساكنهم فى الصخر ، وهم قوم كانوا نابغين فى نحت

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٧٦٥٦) وأورده ابن الخراط الإشبيلى فى كتابه (الأحكام الشرعية (٣/٣٥٤) وعزاه لمسلم ، وأخرجه ابن حبان فى صحيحه (٦١٩٩) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما .

بيوتهـم فـى الجبال ، ومَنْ يـزُر المنطقة الواقعة بين الشـام والمدينة يمكنه أنْ يشاهد مدائن صالح وهى منحوتة فى الجبال .

قال الحق سبحانه فيهم : ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) ﴾ [الشعراء] وقد كفروا بصالح عليه السلام رغم أنهم طلبوا منه أنْ يأتيهم بآية وحددوا الآية ناقة عُشَراء تخرج من صخرة معينة حددوها[١] .

ولكنهم عقـروا النـاقة ، وعَقْرهـم النـاقة كان علامـة نزول العقـاب والعذاب بهم ، قال تعالى : ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ[٢] ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) ﴾ [هود]

فتلك مساكن الذين ظلموا كانت دليلاً وما زالت على دعوة الحق التى رفضها قوم ثمود وقوم عاد وقوم لوط ، وكان من الواجب على المارِّ بها الاعتبار بها، وألاَّ يمرّ عليها مرورَ اللاهى الغافل .

وهـم إنما ظلموا أنفسهـم بكفرهم وتكذيبهـم ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨) ﴾ [النحل]

ومعنـى قـول رسـول الله ﷺ : « إلاّ أنْ تكونوا باكـين » أى : لا تدخلوها ولا تمـرُّوا بهـا إلا وأنتم مُتعظون بمـا ترونَه من رسومٍ دارسة وآثـار قد تركها مَنْ سكنوها ، أو أميتوا داخلها وفيها .

وذلـك حذراً وخوفاً من أن يصيبكم مثل مـا أصابهم ، فاحذروا أنْ يصيبكم مـا أصابهم ، فلستُم أشدَّ منهم قوة ولا مَنَعة ولا بطشاً ولا جبروتاً .

(١) ناقة عشراء : مضى لحملها عشرة أشهر .

(٢) أخرج سنيد وابن جرير والحاكم عن عمرو بن خارجة عن رسول الله ﷺ قال : كانت ثمود قوم صالح أعمرهم الله فى الدنيا .. وفيه : فقال صالح لقومه : لكل رغوة أجل فتمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب ، ألا إن آية العذاب أن اليوم الأول تصبح وجوهكم مصفرة ، واليوم الثانى محمرة واليوم الثالث مسودة . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٤٥٨) .

وقد زجر رسول الله ناقته عند المرور بمساكن ثمود ، فنخس ناقته لتسرع السير لتخرج من هذه البقعة التى نزل عليها عذاب الله ، فأسرعت الناقةُ حتى خلَّفها أى حتى تجاوز مساكن قوم ثمود المنحوتة فى الجبال .

وقد طالب الله قريشاً بالإيمان بمحمد وبالقرآن الذى أنزله الله عليه ، ولكن الكثيرين منهم كفروا وحاربوه ، ولذلك ذكَّرهم الحق سبحانه بما يرونه صيفاً وشتاءً ، صباح مساء من ديار الأقوام السابقين .

وهم أتاهم نبأ الذين كفروا من قبل من عدة طرق ، فهم لم يكونوا فقط يمرُّون على ديار المعذّبين من الأقوام السابقة ، بل سكنوا فى مساكنهم ، يقول الحق سبحانه : ﴿ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ (٤٥) ﴾ [إبراهيم]

فأنتم لم تتعظوا بالسوابق التى ما كان يجب أنْ تغيب عنكم ، فأنتم تمرون فى رحلات الصيف والشتاء على مدائن صالح . وتروْن آثار الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك ، وتمرون على الأحقاف ، وترون ماذا حاق بقوم عاد .

وكلٌّ أولئك نالوا العقاب من الله ، سواء بالريح الصرصر[1] العاتية ، أو أرسل على بعضهم حاصباً من السماء ، أو أنزل عليهم الصيحة ، أو أغرقهم كآل فرعون وأخذ كلّ قوم من هؤلاء بذنبه .

فالحق سبحانه يوضح أنَّ مشيئته فى إنزال العقاب قد وضحتْ أمام الذين عاصروا رسالة محمد ﷺ فى مساكن الأقوام التى سبقتْهم وكفروا برسالات الرسل .

والنبأ الذى أتاهم هنا ليس أيّ نبأ فى العموم ، إنما هو: ﴿ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا

---

(١) صرصر لصوت الريح الشديدة . وقال الأزهرى فى (الصحاح فى اللغة) : ريح صرصر أى باردة . ريح صرصر : مبالغة فى الشدة . صرصر : ريح شديدة البرد جداً . والصر : البرد الذى يضرب كل شيء ويحسُّه .

مِنْ قَبْلُ.. (٥) ﴾ [التغابن]

فـ : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (٥) ﴾ [التغابن] أى : ستروا الإيمان بالله ورسوله، هؤلاء يختم الله بكفرهم على آلات الإدراك كلها ، القلب والسمع والبصر ، فالكفر هو محاولة ستر وجود الله واجب الوجود ، ومحاولة الستر هذه هى إعلان بأن الله تعالى موجودٌ ، فأنت لا تحاول أنْ تستر شيئاً إلا إذا كان له وجود أولاً .

وسنة الله فى أرضه أنَّ الذين كفروا برسالات الله فى الأرض يتلقون بعض العذاب فى الدنيا ، لأن الله لا يدخر كلَّ العقاب للآخرة وإلاَّ لشقى الناس بالكافرين وبالعاصين ، ولذلك فإن الله يُعجل بشيء من العقاب للكافرين والعاصين فى هذه الدنيا .

﴿ سُنَّةَ اللهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا (٦٢) ﴾ [الأحزاب]

والسنة هى الناموس الحاكم لحركة الحياة ، فنبأ الذين كفروا من قبل عرفنا منه ما حدث للذين أطاعوا رسلهم ، وما حدث للذين كذَّبوا رسلهم .

قال الحق سبحانه فى شأنهم : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) ﴾ [العنكبوت]

وهذه عقوبات نزلتْ بمَنْ كفر ممنْ سبقوهم ، وحدثتْ لهم أحداث يعلمونها، فهل هم ينتظرون أياماً مثل هذه ، يقول تعالى : ﴿ فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (١٠٢) ﴾ [يونس]

فما كان يصح لهم أنْ يستمرئوا الكفر حتى لا تتكرر معهم مآسٍ كالتى حدثتْ لمن سبقهم إلى الكفر .

ونلاحظ أنَّ الحق سبحانه قد جمع العقوبات التى نزلتْ بالكافرين ممن

سبق رغم اختلاف أزمانهم وسبب نزول العقاب بكلٍّ منهم ، فجمعهم سبحانه فى آية واحدة ، وذلك لأنهم طائفة واحدة .

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ .. (٤٠) ﴾ [العنكبوت] ليس ظلماً ولا جبروتاً ولا جُزافاً، إنما جزاءً بذنوبهم وعدلاً ، لذلك قال تعالى فى تذييل الآية : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) ﴾ [العنكبوت]

﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا .. (٤٠) ﴾ [العنكبوت] والحاصب هو الحصى الصغار تُرمى لا لتجرح ، ولكن يُحمى عليها لتكون حامية وتلسع حين يرميهم بها الريح ، ولم يقُلْ هنا : أرسلنا عليهم ناراً مثلاً ، لأن النارَ ربما إنْ أحرقته يموت وينقطع أمله ، لكنّ رميهم بالحجارة المحمية تلسعهم وتُديم آلامهم .

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ .. (٤٠) ﴾ [العنكبوت] وهو الصوت الشديد الذى تتزلزل منه الأرض ، وهم ثمود : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ .. (٤٠) ﴾ [العنكبوت] أى قارون . ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا .. (٤٠) ﴾ [العنكبوت] وهم قوم نوح وفرعون .

وهذه وسائل أربعة لإهلاك المكذبين : النار فى الحصباء ، والهواء فى الصيحة ، والتراب فى الخسف ، ثم الماء فى الإغراق .

وهم بدل أنْ يتعظوا بمَنْ سبقوهم تجد رجلاً منهم اسمه عمرو بن لحي[1] سافر إلى بلاد الشام ، فوجد أوثاناً وأصناماً فنقل منها صنماً يُقال له (هبل) نقله إلى مكة ، وكان هو مَنْ أدخل الأصنام إلى مكة ، فالأصنام التى عبدوها جاءتهم من الروم ونصبوها حول الكعبة بيت الله .

---

(١) عمرو بن لحى كان من خزاعة وكان سيد مكة ، يعد أول من غيَّر دين إبراهيم (الحنيفية) ، حيث إنه أدخل الأصنام لتُعبد من دون الله بالجزيرة العربية ، من بلاد الشام ، وابتدع كل شيء خارج عن حنيفية إبراهيم ، فسيَّب السائبة وبحر البحيرة ووصل الوصيلة وحمى الحام . [ويكيبيديا] .

وقـول الحـق سبحـانـه : ﴿ مِـنْ قَبْلُ .. (٥) ﴾ [التغابن] هـو طمأنة لرسول الله ﷺ ، فإنهم ليسوا أوَّلَ من كذّب رسولهم ، فالأقوام من قبلهم كذّبتْ رسلها .

يقـول تعـالى : ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) ﴾ [الحج] ، فأنت لستَ فى ذلك بدعاً من الرسل ، فقد كُذّب كثيرٌ من الرسل قبلك .

ولا يجـب أنْ ننظر إلى مسألة التكذيب منفصلة عن عاقبته ، نعم كذَّب القوم لكن كيف كانت العاقبة ؟ أتركناهم أم أخذناهم أخْذ عزيز مقتدر ؟

فلا تحزن فسوف يحلُّ بهم ما حَلَّ بسابقيهم من المكذِّبين والمعاندين مثل : ﴿ قَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) ﴾ [الحج]

فأمليتُ لهم وأمهلتُهم حتى ظنّوه إهمالاً ، أعطاهـم الفرصة والوقت كاملاً ليؤمنـوا ويهتدوا ، ولكن كيف يؤمنون وهـم مجرمون لا يكتفون بأنهم ضلُّوا ، بل يريدون إضلالَ مَنْ آمن ؛ فنزل بهم عقاب الله .

وهنـا يقول الحق سبحـانه : ﴿ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ .. (٥) ﴾ [التغابن] والوبـال : هو الثقل والعاقبة الوخيمة . ولكى تعرف معنى إذاقة الوبال اقرأ قوْل الحق سبحـانه : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً [١] كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) ﴾ [النحل]

ونعلـم أن الـذى يُذاق هو الطعم ، والطعم يكـون باللسان وحده ، أما اللباس فيعـم كلّ الجسـم ، والحق سبحـانه هنـا يعطى الإذاقـة ولا يكون الذائق هو الفم

(١) القرية :مكة . قاله ابن جرير الطبرى [تفسير سورة النحل ١١٢] ذكره عن مجاهد بن جبر وقتادة. ولكن الطبرى ذكر أقوالاً أخرى منها المدينة مدينة رسول الله . وقال ابن الجوزى فى زاد المسير (٤/١٣٢) أن هذا على سبيل التمثيل لا على وجه التفسير . ولكن ذكر قولاً آخر وعزاه للحسن البصرى قال : إنها قرية أوسع الله على أهلها حتى كانوا يستنجون بالخبز ، فبعث الله عليهم الجوع حتى كانوا يأكلون ما يقعدون .

فقط بل كل الجسم ، فالفم إنما يتناول لصالح بقية الجسم ، وعندما لا تصل مادة الحياة إلى بقية الجسم ، فكلّ الجسم يذوق الجوع أيضاً .

والحق سبحانه جعل كلّ جارحة فيهم تذوق الوبال فتذوق العذاب ، ويجعل لكلِّ عضو فى الجسم حساسية الذَّوْق كالتى فى اللسان ، وهذه هى الإذاقة كأنها صارت لباساً من الجوع يشمل الجسد كله ، والإذاقة أشدّ الإدراكات تأثيراً ، واللباس أشمل للجسد .

فكأنَّ الإذاقة تتعدى إلى كلِّ البدن ، فالأنامل تذوق ، والرِّجْل تذوق ، والصدر يذوق ، والرقبة تذوق .

ودقة الأسلوب القرآنى جاء بقوله : ﴿ فَذَاقُوا .. (٥) ﴾ [التغابن] والذوق غير البلْع والشِّبع ، والعذاب الذى رآه الكفار على أيدى المؤمنين فى غزوة بدر كان مجرد ذوْقٍ هيّن جداً بالنسبة لما سوف يروْنه فى الآخرة من العقاب الشديد والعذاب الأليم ، وسيأتى الشِّبع من العذاب فى الآخرة .

قال تعالى مخاطباً مشركى قريش بعد هزيمتهم فى غزوة بدر: ﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (١٤) ﴾ [الأنفال]

فـ : ﴿ ذَٰلِكُمْ .. (١٤) ﴾ [الأنفال] هنا إشارة لما حدث فى بدر من ضرب المؤمنين للكافرين فوق الأعناق ، وضرْب كلِّ بنان[١] كافر : ﴿ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) ﴾ [الأنفال]

والكافرون فى كل زمن ذاقوا وبالَ أمرهم ، أى شأنهم الذى هم فيه من الكفر والجحود والتكذيب والخروج عن منهج الله ورفَضْ طاعة مَنْ أُرسل إليهم من الرسل .

---

(١) البنان الأصابع أو أطراف الأصابع . قيل : سميت بذلك لأن بها إصلاح الأحوال التى تمكّن الإنسان أن يبنَّ فيما يريد . وقال الزجاج : الأصابع وغيرها من جميع الأعضاء . وقال الليث : البنان فى كتاب الله تعالى ، هو الشَّوى وهى الأيدى والأرجل . [تاج العروس للزبيدى - مادة : بنن] .

هذه الإذاقة يذوقونها فى الدنيا ولكن فى الآخرة : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥) ﴾ [التغابن] ، فليت الأمر يقتصر عند حَدِّ عذاب الدنيا ، ولكن ينتظرهم فى الآخرة عذابٌ أليم غير العذاب الذى عانوه .

ومعنى ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥) ﴾ [التغابن] أى مؤلم ، كأنّ هناك عذاباً فقط ، ثم يأتى عذابٌ أليم مُوجع مؤلم شديد بل هو الأشد ، ونحن فى أمثالنا نقول (ضربه فين يوجعه) .

فكأن (أليم) يُقصد بها إيقاع العذاب فى المواطن التى تسبب للإنسان أشدَّ الألم ، ولابد أنْ نأخذ قوة الحدث بفاعل الحدث .

وفى حياتنا العادية عندما يُقال : صفع الطفلُ فلاناً الرجل ، نفهم بطبيعة الحال أن صفعة الطفل تختلف فى قوتها عن صفعة الشاب ، وكذلك صفعة الشاب تختلف عن صفعة بطل فى الملاكمة .

إذن : فالحدث يختلف باختلاف فاعله قوةً وضعفاً على المفعول به الذى هو مناط الحدث ، فإذا كان فاعل العذاب هو الله فلابدّ أنْ يكون عذاباً أليماً ولا حدودَ لألمه ، أنجانا الله وإياكم منه .

والعذاب له جهات متعددة ، فقد يوجد عذاب أليم مؤلم ، ولكن المعذَّب يتجلَّد أمام مَنْ يُعذِّبه ويظهر أنه ما زال يملك بقيةً من جَلَد ، إنه يتألم لكنه يستكبر على الألم .

ولذلك قال الشاعر(١) :

وَتجلُّدِى لِلشَّامِتينَ أُرِيهُمُو ... أَنِّى لريْبِ الدَّهْرِ لاَ أَتَضَعْضَعُ(٢)

---

(١) الشاعر هو أبو ذؤيب الهذلى ، شاعر مخضرم ، وكان له سبعة أولاد فماتوا كلهم إلا طفلاً . أسلم على عهد النبى ﷺ إلا أنه لم يره . وهو خويلد بن خالد بن محرث ، سكن المدينة واشترك فى الغزو والفتوح ، عاش إلى أيام عثمان وشهد فتح إفريقية (تونس) . مات ٢٧ هجرية . [الأعلام للزركلى ٢/٣٢٥] .

(٢) هو من قصيدة من مشهورات المراثى من بحر الكامل .

فالتجلُّد هو نوع من الكبرياء على الواقع ، لذلك يأتيه عذابٌ من نوع آخر، وهو العذاب العظيم أى العظيم فى كميته وقدره ، وأليم فى وقعه ومهين فى إذلال ودَكّ النفس البشرية وغرورها .

فيُقال للمُعذَّب ﴿ ذُق إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) ﴾ [الدخان] وهذا هو العذاب المهين لغرور مَنْ كفر واستكبر واستعلى على الله سبحانه ورسله ، فلو كان الكافرُ عزيزاً كريماً عند نفسه لما كفر ولمَا استقرَّ فى الجحيم .

﴿ ذُقْ .. (٤٩) ﴾ [الدخان] أى ذُقْ طَعْم الإهانة والمذلَّة ، لا مما يُطعم أو مما يُشرب ، ولكن بالإحساس ، وهو أشدّ وأقسى وأعظمُ إيلاماً ، وقانا اللهُ شرَّ النار وعذابها وطُول القيام للعرض والحساب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ۝٦ ﴾

لابد أنْ نعرف أنَّ (ذلك) ليست كلمة واحدة ، وإنما هى ثلاث كلمات . (ذا) اسم إشارة . و (اللام) تدل على البُعد . و(ك) لمخاطبة الناس .

وكلمة (ذلك) هنا إشارة إلى سبب العذاب الذى وقع بهم ، فهى إشارةٌ إلى قوله تعالى : ﴿ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ .. (٥) ﴾ [التغابن] ، فما وقع بهم لم يكُنْ ظلماً لهم ، بل كان بسبب فعلهم وصُنْعهم هم .

وهذا مثل قوله سبحانه : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) ﴾ [المائدة]

فلعنُهـم وإخراجهم من رحمة الله كان بسبب عصيانهم وتجاوزهم لأوامر الله واعتدائهـم ، وفـى آية أخرى يقـول تعـالى : ﴿ وَضُرِبَـتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّـةُ وَالْمَسْكَنَةُ[1] وَبَـاءُوا بِغَضَـبٍ مِنَ اللهِ .. (٦١) ﴾ [البقرة] ثـم قـال : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَـاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّـينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ ثـم قـال : ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ .. (٦١) ﴾ [البقرة]

ويخاطبهم الحق سبحانه فيقول : ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا[2] إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْـنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١) ﴾ [آل عمران]

ثـم يقـول : ﴿ ذَٰلِكَ بِمَـا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُـمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْـسَ بِظَـلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (١٨٢) ﴾ [آل عمـران] فـ (ذلـك) إشـارة إلى عذاب الحريق ، والحـق سبحـانه لم يظلمهم ،

---

(١) الذِّلة : الصَّغار وهى ضد العزة . أما المسكنة فهى الفقر والحاجة مشتقة من السكون لأن الفقر يقلل حركة صاحبه . [التحرير والتنوير] وقال ابن عطية فى تفسيره [المحرر الوجيز ١/٨٨] : الذلة : فعلة من الذل كأنها الهيئة والحال . والمسكنة من المسكين . قال الزجاج : « هى مأخوذة من السكون وهى هنا زى الفقر وخضوعه ، وإن وجد يهودى غنى فلا يخلو من زى الفقر ومهانته » .

(٢) عن ابن عباس قال : (دخل أبو بكر الصديق بيت المدراس فوجد يهود قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له فنحاص وكان من علمائهم وأحبارهم فقال أبو بكر : ويلك يا فنحاص اتق الله وأسلم فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله تجدونه مكتوباً عندكم فى التوراة فقال فنحاص : والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر وإنه إلينا لفقير وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا وإنّا عنه لأغنياء ولو كان غنياً عنا ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم ينهاكم عن الربا ويعطينا ولو كان غنياً عنا ما أعطانا الربا. فغضب أبو بكر فضرب وجه فنحاص ضربة شديدة وقال : والذى نفسى بيده لولا العهد الذى بيننا وبينك لضربت عنقك يا عدو الله ، فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد انظر ما صنع صاحبك بى فقال رسول الله ﷺ لأبى بكر : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : يا رسول الله قال قولاً عظيماً : يزعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء ، فلما قال ذلك غضبت لله مما قال فضربت وجهه، فجحد فنحاص (أي أنكر) فقال: ما قلت ذلك ، فأنزل الله فيما قال فنحاص تصديقاً لأبى بكر ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ (١٨٢) ﴾ [آل عمران] الآية ، ونزل فى أبى بكر وما بلغه فى ذلك من الغضب ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا.. (١٨٦) ﴾ [آل عمران] ذكره السيوطى فى الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ، وعزاه لابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس .

لكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم .

والقضية العامة فى الإسلام أن الله ليس بظلام للعبيد ، ويقول تعالى : ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .. (٤٠)﴾ [العنكبوت] وهذا دليلٌ على أنَّ الحق سبحانه وتعالى يحاسبهم على قدر استيعابهم للمعجزة .

فالمعنى أنه لا ينبغى لله تعالى أنْ يظلمهم ، فساعة تسمع ما كان لك أنْ تفعل كذا ، فالمعنى أنك تقدر على هذا ، لكن لا يصح منك ، فالحق سبحانه ينفى الظلم عن نفسه ، لا لأنه لا يقدر عليه ، إنما لا ينبغى له أنْ يظلم ، لأن الظلم يعنى أنْ تأخذ حق الغير ، والله سبحانه مالك كل شيء، فلماذا يظلم إذن؟

﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَـٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٣٣) ﴾ [النحل] فالحق سبحانه لم يظلمهم حين قدَّر أنْ يُجازيهم بكذا وكذا .

ونحن لم نعاقبهم دون إنذار ودون أنْ نُجرِّم هذا الفعل ، لأنك لا تعاقب شخصاً على ذنب إلا إذا كنتَ قد نبّهته إليه ، وعرَّفته بعقوبته ، فإنْ عاقبته دون علمه بأنَّ هذا ذنب وهذه جريمة فقد ظلمته ، لذلك فأهلُ القانون يقولون: لا عقوبةَ إلا بتجريم ولا تجريمَ إلا بنصٍّ .

وقد جاءكم النصّ الذى يُبيِّن لكم ويُجرِّم هذا الفعل ، وقد أبلغتكم الرسل وسبق إليكم الإنذار ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا .. (١٥) ﴾ [الإسراء]

وهذه السببية تؤكد ما سبق أنْ قلناه فى قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ .. (٢) ﴾ [التغابن] ، فالله لم يجبرك على إيمان أو على كفر ، بل الأمر اختيارٌ منك تُصدِّقه أعمالك وأقوالك .

فالحق سبحانه خلقنا ولنا اختيارٌ فى أنْ نأتيه أو لا نأتيه ، فى أنْ نطيعه

أو نعصيه ، فى أنْ نؤمن به أو لا نؤمن به ، فالحق سبحانه أعطى الناسَ ذاتيةَ الاختيار فى الدنيا ، ولم يختاروا قهراً عن الله (حاشاه) سبحانه ، بل اختاروا عدم الإيمان بمشيئة الاختيار التى أعطاها الله لهم .

فالحقُّ سبحانه لو كان قهرهم على اختيارهم هذا ، فلِمَ يُعذّبهم فهم محقّقون لإرادته سبحانه فيهم .

والحق سبحانه خلقنا مختارين ولم يخلقْنا مقهورين ، وجعل لنا طاقة تستطيع أنْ تعصى وأنْ تطيع ، وما دام هناك اختيارٌ فالإنسانُ يختار هذه أو تلك .

فليس للبشر على الله حجة ، خلقهم مختارين وأرسل إليهم الرسل ليبشرهم إنْ هم أطاعوا . ولينذرهم عذاب الله إنْ عصوا ، بعث إليهم الرسل هُداةً لهم يهدونهم طريق الحق .

وقبل أنْ نتحدث عن إتيان الرسل إليهم وبأيِّ شيء أتوهم ، من الضرورى أن نقول إن هذه الآية قاطعةٌ لحجة الذين كفروا يوم القيامة الذى أسماه الله عز وجل هنا (يوم التغابن) .

ويوم التغابن هو يوم التظالم ، وسُمى يوم القيامة يوم التغابن لأنه غبن فيه أهلُ الجنة أهلَ النار ، أى : أن أهل الجنة أخذوا الجنة وأخذ أهل النار النارَ على طريق المبادلة .

فوقع الغبْن لأَجل مبادلتهم الخير بالشر ، والجيد بالردىء ، والنعيم بالعذاب ، وهذا مثل أننا نقول لك : لقد غبنتَ فلاناً إذا بايعته أو شاريته ، فكان النقصُ عليه والغلبة لك .

ولا شكّ أن مَنْ غُبن سيكون ألمه شديداً وحُزنه عظيماً ، فما بالك بمَنْ يشعر

بهذا يوم القيامة ، ففى الدنيا قد يقول أحدٌ لنفسه : يومٌ لك ويوم عليك ، أما فى الآخرة فهو التغابن الذى لا جبرانَ لنهايته .

ولكن على الكافر الذى خلق اللهُ له مكاناً فى الجنة وخسره بكفره وذهب إلى مؤمن آمن بالله أنْ يُدرك أنَّ هذا كان بسببه هو ، لا بسبب أحد آخر ، فهو الذى كفر وتنكَّب الطريق ورفض الإيمان وعاند فطرته التى خلقه اللهُ عليها .

ونحن نعلم أن الحق سبحانه قال : ﴿ أُولَـٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١) ﴾ [المؤمنون]

فساعةَ تقرأ هذه الآية الكريمة تعرفَ أنَّ الله سبحانه سيجعلك فى الجنة تأخذ ما كان لغيرك لو كان قد آمن ، فالميراث يأتيك من غيرك .

وقد سبق علمُ الله سبحانه خلْقَ الناسِ جميعاً ، وقبل أنْ يخلق أعدّ لكلِّ خَلْقه مقعداً فى النار ومقعداً فى الجنة ، فالذين سيدخلون النار خالدين فيها مقاعدهم فى الجنة ستكون خالية ، فيأتى الله سبحانه يعطيها للمؤمنين ليرثوها فوق مقاعدهم ومنازلهم فى الجنة .

وقد قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد إلا وله منزلان : منزلٌ فى الجنة، ومنزلٌ فى النار ، وإنْ مات ودخل النارَ ورث أهلُ الجنة منزله »(١) .

والكافر فقد مكانه فى الجنة بسبب منه ويظلم منه هو لنفسه ، لم يظلمه أحد ، وإنْ كان قد وقع عليه غبن فهو الذى أوقعه بنفسه ، فقوله سبحانه هنا (ذلك) تسبيبٌ لوقوع العذاب بالكافرين فى الدنيا ويوم القيامة ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥) ﴾ [التغابن]

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه (٤٣٤١) والبيهقى فى كتابه (البعث والنشور) (١/١٥١) قال الألبانى فى السلسلة الضعيفة أنه مخرج فى الصحيحة (٢٢٧٩) .

ثم يُفصِّل الحق سبحانه الأمر فيقول : ﴿ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم .. (٦) ﴾[التغابن]

وإذا كان الحقُّ سبحانه هنا قد أجمل الأقوام الذين أتتهم رسلهم بقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ .. (٥) ﴾ [التغابن] فإنه سبحانه يذكرهم بالتفصيل فى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ[1] أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٧٠) ﴾ [التوبة]

فقوم نوح وقوم إبراهيم وغيرهم أتتهم رسالات السماء ولم تأتهم الرسالةُ كمنهج فقط ، بل جاءتْهم معجزات تثبت صدق بلاغ الرسل عن ربهم ، فكأنه لا حجةَ لهم أنْ ينصرفوا عن منهج السماء أو أنْ يُكذِّبوا به ، لأن كلَّ منهج مُؤيّد بمعجزة تثبت صدق الرسول فى رسالته .

وقد تتابع هؤلاء الرسل على البشر ليهدوهم إلى منهج السماء ، ويُبيِّنوا لهم طريق الحق .

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩) ﴾ [إبراهيم]

فالرسل حملوا لأقوامهم منهج الله ، فجاءوا أقوامهم برسالات ربهم ، ولكن ردَّ فعل أقوامهم أنْ ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ.. (٩) ﴾ [إبراهيم]

(١) المؤتفكات : جمع مؤتفكة وهى قرى لوط ، ائتفكت بهم الأرض أى انقلبت [تفسير زاد المسير لابن الجوزى ٣/٢٠٢] . وقال أبو بكر الجزائرى فى [أيسر التفاسير ٢/٨٩] أى المنقلبات حيث صار عاليها سافلها وهى ثلاث مدن . ولفظ مؤتفكات يعبر تماماً عما حدث لهذه القرى وهو من إعجاز القرآن ، فقد أثبتت الأبحاث الآثارية والجيولوجيةالمستمرة أن طبقات الأرض للمنطقة حول مدينة سدوم مرتبة بشكل معين معاكس للطبقات التى تحويها المنطقة المحيطة بقرية سدوم وتسلسل معاكس تماماً .

فالكافرون وضعوا أيديهم على أفواههم كأنهم يقولون للرسل : اصمتوا ولا تتكلموا بما جئتم به من بلاغ ، أو أن بعضهم قال للرسل : لا فائدة من كلامكم في هؤلاء .

وهم هنا يعلنون كفرهم صراحةً : ﴿ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ .. (٩) ﴾ [إبراهيم] فيعلنون إنكارهم ، ولكنهم أرادوا أنْ يكونوا منطقيين مع أنفسهم ، وكأن هناك استعداداً عندهم للإيمان ولكنهم في شكٍّ وارتياب مما أتتْهم رسلهم ، وكأنهم مستعدون لإزالة هذا الشك .

فقالوا : ﴿ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩) ﴾ [إبراهيم] ، أما الآية التى معنا هنا فى سورة التغابن فيقولون ﴿ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا .. (٦) ﴾ [التغابن]

فهم يُعلِّقون كفرهم على سبب آخر غير الشك فى المنهج ، وهو مجرد (تماحيك) ومبررات لا أساسَ لها فيقولون : ﴿ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا .. (٦) ﴾ [التغابن] فهم مثلنا وليسوا أفضلَ منا ، فكيف يهدوننا ؟ وهل الرسول يهديكم ببشريته أم بشيء جاءه من أعلى ؟ هل المنهج الذى أتى به جاء من عنده ؟

فأيّ رسول هو مبلّغ عن الله ، وأرسل اللهُ عز وجل بشراً رجالاً ، فقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ .. (١٠٩) ﴾ [يوسف] فالله اختارهم بشراً .

وقد كانت هذه حجةً يحتجُّ بها الكافرون على عدم إيمانهم ، قال تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا (٩٤) ﴾ [الإسراء] ، فهم كانوا يطلبون رسلاً من غير البشر .

ولماذا يرسل اللهُ ملائكةً إلى البشر ، فلو كان سكانُ الأرض ملائكةً لأرسل إليهم رسلاً ملائكة مثلاً ، ولكنّ البشر هم مَنْ يسكنون الأرضَ فكان المناسب

لهم أنْ يرسل لهم بشراً منهم ومن أوسطهم .

لذلك قال تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا (٩٥) ﴾ [الإسراء]

حتى أن جبريل عليه السلام لما جاء لرسول الله يسأله : ما الإسلام ؟ ما الإيمان ؟ ما الإحسان ؟ لم يأتِ كملَك بل جاء فى صورة رجل ، وبعد أنْ أدّى مهمته انصرف دون أنْ يشعر به أحد ، فلما سألوا عنه قال لهم رسول الله ﷺ : « إنه جبريل أتاكم ليعلمكم أمور دينكم »[1] .

وأحد مَنْ حضروا هذه الواقعة هو عمر بن الخطاب قال : بينما نحن عند رسول الله ذات يوم إذ طلع علينا رجلٌ شديدُ بياضِ الثياب ، شديدُ سوادِ الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبى ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفَّيه على فخذيه » .

ونلاحظ فى حديث رسول الله أن عمر رضى الله عنه قال : طلع علينا رجل شديد بياض الثياب . أى أن ثيابه لم تتسخ ولم يُعفرها تراب الصحراء ، وأكد الفاروق عمر هذا فقال : « لا يُرى عليه أثر السفر » .

والمهم أنه « لا يعرفه منّا أحد » . إذن : فهو ليس بشراً بل مَلَك ظهر فجأة بينهم فى صورة بشرية على هيئة رجل .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩) ﴾ [الأنعام] إنهم طلبوا أنْ ينزل الله عليهم ملكاً ، ولو استجاب الله لهم

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠ ، ٤٧٧٧) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٠٦ ، ١٠٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : كان النبى ﷺ بارزاً يوماً للناس فأتاه جبريل فقال: ما الإيمان ؟ ما الإسلام ؟ ما الإحسان ؟ ورسول الله يجيبه ، ثم أدبر جبريل فقال ﷺ : ردوه فلم يروا شيئاً فقال : « هذا جبريل جاء ليعلِّم الناس دينهم » .

وأرسل رسوله ملكاً لتجسد الملك فى صورة بشرية ، وهم من بعد ذلك قد يستمرون على الكفر ويعاندون ولا يؤمنون .

إذن : فلو أراد الله أنْ يبعث رسولاً من الملائكة لجعله على هيئة البشر لعدم استطاعتهم معاينةَ الملَك على صورته الأصلية وقد يهلكون عند رؤيته .

حتى أن إبراهيم عليه السلام فزع من الملائكة الذين جاءوه فى صورة بشر ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ[1] حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ[2] مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) ﴾ [هود]

وكذلك الصبية مريم ابنة عمران فزعت من جبريل روح القدس حينما جاءها على هيئة بشر وهى فى المحراب تتعبد ، قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ[3] مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (١٨) ﴾ [مريم]

ورغم أنه تمثَّل لها فى صورة بشرية لتأنس به ولا تفزع إنْ رأته على صورته الملائكية فى صورة سوية أى سوى الخِلْقة والتكوين ، وسيماً قد

---

(١) فى الحنيذ ستة أقوال :
أحدها : أنه النضيج . قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة .
والثانى : أنه الذى يقطر ماؤه ودسمه وقد شوى . قاله شمر بن عطية .
والثالث : أنه ما حفرت الأرض ثم غممته وهو من فعل أهل البادية . قاله الفراء .
والرابع : أنه المشوى . قاله أبو عبيدة . والخامس : المشوى بالحجارة المحماة .
والسادس : السميط ذكره الزجاج . [ابن الجوزى فى زاد المسير ٣/٣٥٨] .

(٢) أوجس منهم خيفة . أى : أضمر فى نفسه خوفاً . وكانت سنة فى زمانهم إذا ورد عليهم القوم فأتوهم بالطعام فلم يمسوه ظنوا أنهم عدو أو لصوص . قاله الفراء .

(٣) انتبذت : انفردت من أهلها . ذكره ابن جرير الطبرى . وقال القرطبى : تنحت وتباعدت . وقال ابن قتيبة: اعتزلت . والمعانى متقاربة . [فتح القدير للشوكانى ٤/٤٤٧] .

انسجمتْ أعضاؤه وتناسقتْ على أجمل ما يكون البشر ، فلا يعيبه كِبَر جبهته أو أنفه أو فمه .

رغم هذا فإنها فزعتْ وارتعبت فقالت : ﴿ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَـٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (١٨) ﴾ [مريم] أى : ألجأ وأعتصم بالله منك لأنني أخاف أنْ تفتكَ بى أو تعتدى عليَّ وأنا ضعيفة فأستعيذ به منك .

لذلك أرسل اللهُ بشراً كرسل للبشر لا ملائكة ، وأرسلهم بآيات ومعجزات تؤيد إرسال الله لهم ، فقال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ .. (٦) ﴾ [التغابن]

أى : جاءوا بالآيات الواضحة الدلالة على المراد ، والآيات قد تكون لفتاً للآيات الكونية ، وقد تكون المعجزات الدالة على صدقهم ، وجاء كلُّ رسول إلى قومه بالبينات ، أى بالآيات الواضحات الدالة على صِدْق بلاغهم عن الله تعالى .

فالبينات إمَّا أنْ تكون المعجزات الدالة على صدقهم ، أو هى الآيات المشتملة على الأحكام الواضحة التى تنظم حركة حياتهم لتسعدهم .

وأصْل البينات أنها هى الأمر البيِّن الواضح الذى لا يشكّ فيه أحد ، ومع ذلك لم يؤمنوا وكذَّبوا .

وكلُّ الرسل جاءوا أقوامهم بالبينات ، قال تعالى : ﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ[1] وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (١٨٤) ﴾ [آل عمران]

فموسى جاء قومه بالبينات ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ

(١) الزبر : جمع زبور وهو الكتاب . وكل كتاب فهو زبور . [الطبرى ٧/ ٤٥١] وقال البغوى : أى الكتب المزبورة . يعنى المكتوبة . واحدها زبور مثل : رسول ورُسْل . قال رشيد رضا فى تفسير المنار (٤/ ٢٢٠) : « أصل معنى الزبْر القطع . ومنه زبر الحديد قطعه ، ويوشك أن تكون الزبر هنا المواعظ» أو الزبر صحف الأنبياء والكتاب المنير الإنجيل . وقال ابن الجوزى فى (زاد المسير ١/ ٤٦٧) : « الزبور : كل كتاب ذى حكمة » .

اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٩٢) ﴾ [البقرة]

وقــال : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَــى تِسْعَ آيَاتٍ(١) بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِــي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَــمُوسَى مَسْحُورًا (١٠١) ﴾ [الإسراء]

وهــى الآيــات التى أُرسل بهــا موسى إلى فرعون وقومه وهــى : العصا التى انقلبـت حيـة ، واليـد التى أخرجها من جيبـه بيضـاء منورة ، وأَخْـذ آل فرعون بـالسنـين ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، ثم لما كذّبوا أنزل الله عليهم الطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم .

وآيــات أخرى كانت خاصة ببنى إسرائيل كضرب الحجر بـالعصا فـانفجرتْ مــن الحجـر اثنتــا عشرة عينــاً(٢) ، ونتق الجبل فوقهـم كأنه ظلــة ، وإنزل المنّ والسلوى عليهم .

ولكنهم كفروا وتولوا ، قال تعالى : ﴿ فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا .. (٦) ﴾ [التغابن] وهذا حـدث من قــوم هود وقوم نوح وقوم صالح وقوم شعيـب وقوم لوط وغيرهـم ، والتولّى هو الإعراض مع تعمد الإعراض وعدم الإيمان بما جاءهم به رسولهم بـالبينـات . فـأعرضوا وصدوا .

وعلــى أمــة محمد ﷺ أن لا تتشبه بهؤلاء المتولــين المعرضين ، لذلك قـال تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) ﴾ [الأنفال]

فــإنْ تولّوا عنـك فـأبلغهم أنك تخــاف عليهم من عذاب اليـوم الآخر ، وأنني

---

(١) الآيـات التسع هـى : بياض يده كلما أدخلها فى جيبه وأخرجها . وانقلاب العصا حية ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم . والرجز وهو الدمل ، والقحط وهو السنون ونقص الثمرات .

(٢) قال ابن عطية : لا خلاف أنه كان حجراً مربعاً يخرج من كل جهة ثلاث عيون إذا ضربه موسى سالت العيون وإذا استغنت عن الماء جفت . [فتح القدير للشوكانى ١/١٠٩] . وعيون موسى الاثنى عشر تقع على بُعد ٦٠ كم جنوبى نفق الشهيد أحمد حمدى (أسفل قناة السويس) ولها فوائد صحية عديدة حيث تعالج بعض الأمراض الجلدية والروماتيزم وتفيد أيضاً الجهاز الهضمى .

﴿ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ .. (٥٧) ﴾ [هود]

وإنْ (تولَّوا) فقد أبلغتُكم المنهج الذى أُرسلتُ به إليكم ، ولا عُذْرَ لكم عندى ، لأن الحق سبحانه لا يعذب قوماً وهم غافلون .

وقد أخذ التولِّى والإعراض عند الأقوام السابقين صوراً كثيرة ، منها ما حدث مع نوح عليه السلام : ﴿ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ[1] فِى آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ﴾ [نوح]

إنهم جعلوا أنامل أصابعهم فى آذانهم حتى لا يسمعوا أيَّ دعوة ، بل إنهم غطُّوا رؤوسهم وآذانهم بثيابهم كراهية لمنهج الله وكراهية لدعوة التوحيد التى جاءهم بها نوح عليه السلام ، فصمُّوا آذانهم .

ومنهم اليهود الذين قالوا ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌ .. (٨٨) ﴾ [البقرة] أى : أن قلوبهم مغلَّفة مغطاة أى جُعل عليها غلاف ، بحيث لا يخرج منها ما فيها ، ولا يدخل فيها ما هو خارجٌ عنها .

ومن هؤلاء أيضاً قومُ شعيب الذين قالوا : ﴿ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ .. (٩١) ﴾ [هود] وهذا فى حقيقة الأمر إعراض عن الفهم رغم أنهم يفقهون ويفهمون ما يقول شعيب .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَاسْتَغْنَى اللهُ .. (٦) ﴾ [التغابن] فالله لن يزيده إيمانُ أحد شيئاً ، ولن ينقصه كفرُ العالمين شيئاً مما له سبحانه من كمالات الصفات وألوهيته وربوبيته سبحانه .

---

(١) جعلوا أصابعهم فى آذانهم : من البداهة أن الأصبع لا تدخل كلها إلى الأذن . إنما الأنملة تسد فقط فتحة السمع . فهو مجاز مرسل إذ المراد رؤوس أصابعهم من إطلاق الكل وإرادة الجزء . [التفسير المنير للزحيلى] ؛ وإنما جاء التعبير بالأصابع إظهاراً لشدة إدخال الأنامل إمعاناً فى الغلق .

فـالله سبحانـه غنيٌّ عـن العالمين ، فـإنْ أعرض بعضُ خَلْقه عـن الإيمان واستغنـوا واختـاروا الكفر ، فإنَّ الله يساعده على هذا الاستغناء ولا يعينه على أنْ يكون مؤمناً .

فالخالق جَلَّ جلاله أغنى الشركاء عن الشرك ، ومَنْ أشرك به فهو غنيٌّ عنه ، لذلك عاتب اللهُ رسوله فقال : ﴿ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (٧) ﴾ [عبس]

فهـذا قد استغنى عن الإيمـان بالله وبمحمد ﷺ وعن منهجه الربانى بمنهج الجاهلية الشهوانى المتمثل فى الجاه والسيطرة والنفوذ والقوة .

فأنـت تتصدى وتحرص على مـن استغنى عن الإيمان ، فلماذا تحرص على مَن استغنى ، فمَنِ استغنى استغنى اللهُ عنه .

وقد روى أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يعظ أصحابه، فإذا ثلاثةُ نفر يمرُّون ، فجاء أحدهم فجلس إلى النبى ، ومضى الثانى قليلاً ثم جلس ، ومضى الثالث على وجهه .

فقال رسول الله : « ألاَ أُنبئكم بهؤلاء الثلاثة ؟ أما الذى جاء فجلس إلينا فإنه تاب فتاب الله عليه .

وأما الذى مضى قليلاً ثم جلس فإنه استحيا، فاستحيا الله منه .

وأما الذى مضى على وجهه فإنه استغنى فاستغنى الله عنه »[1] .

---

(١) أخرجه البزار فى مسنده (٧٢٤٣) عن أنس بن مالك ، وأصله فى صحيح البخارى (٦٦ ، ٤٧٤) وكذا مسلم فى صحيحه (٥٨١٠) من حديث أبى واقد الليثى أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس فى المسجد والناس معه إذ أقبل نفر ثلاثة فأقبل اثنان إلى رسول الله وذهب واحد . فوقفا على رسول الله فأما أحدهما فرأى فرجة فى الحلقة فجلس فيها ، وأما الآخر فجلس خلفهم ، وأما الثالث فأدبر ذاهباً ، فلما فرغ رسول الله ﷺ قال : « ألا أخبركم عن النفر الثلاثة ، أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله ، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه ، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه » .

﴿ وَاللهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٦) ﴾ [التغابن] فهـو سبحانه الغنى الحميد أى المحمود فى غِنَاه عن خَلْقه ، فغناه لا يعود عليه سبحانه بمنفعة ، بل المنفعة عائدة إلى العبد ؛ ولا يكون الغنيُّ محموداً إلا إذا كان غيرُ الغنى مستفيداً من غِنَاه .

فمنفعة الإيمان إنما تعود على مَنْ آمن ، يقول تعالى : ﴿ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢) ﴾ [لقمان]

فسبحانه هو الغنيُّ عن العباد : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩) ﴾ [الكهف]

ويقول سبحانه : ﴿ وَاللهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨) ﴾ [محمد] فإنْ أعرض أناسٌ عن منهج الله ، فالله يستبدل بهم غيرهم .

فالمنهج الذى نزل على الخَلْق أنزله الحقُّ سبحانه لصلاح العباد ، وهو سبحانه خلق أولاً بكلِّ صفات الكمال فيه ، ولن يزيده العباد وصفاً من الأوصاف ، ولن يسلبه أحدٌ وصفاً من الأوصاف .

وهو سبحانه الحميد فى ذاته ، فسواء حمدته أم لم تحمده فهو الحميد ، فالحميد الذى يستحق الحمد ، وإنْ لم يوجد له حامد ، فصفاته سبحانه أزلية ، وحميد فعيل بمعنى محمود .

فالله غنى عن جميع خَلْقه ، محمود عند جميعهم بجميل أياديه عندهم ، وكريم فعاله فيهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝٧ ﴾

تكبَّر الذين كفروا من الأقوام السابقة عن أنْ يتبعوا أو يعترفوا بالرسل الذين أرسلهم اللهُ تعالى ، واستبعدوا أنْ يرسل اللهُ إليهم بشراً يهدونهم طريقَ الهداية.

وهذا استعلاء واستكبار منهم وحسد من نفوسهم لمن أرسلهم الله ، قال تعالى عنهم أنهم قالوا : ﴿ أَؤُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا .. (٨) ﴾ [ص]

فبعد أنْ كانوا يعترضون على بشرية الرسول ويطلبون أنْ يكون الرسولُ ملكاً ، الآن يتنازلون عن هذا المبدأ ويتحولون إلى الذات فقالوا : ﴿ أَؤُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا .. (٨) ﴾ [ص]

ويقولون في موضعٍ آخر : ﴿ أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ[1] (٢٥) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ (٢٦) ﴾ [القمر]

فكلّها مزاعم يزعمونها، والحقيقة سيعلمونها غداً عندما يجمعهم اللهُ ليعاقبهم ويُجازيهم على كفرهم بالله .

ومشكلة هؤلاء الكافرين وكل كافرين في أيِّ زمن أنهم ينكرون البعث والحساب ، وأن هناك يوماً يُرجعون فيه إلى الله ، لأنهم يريدون أنْ يستمروا في شرورهم وتسلطهم على العباد ؛ فيفعلوا ما يشاؤون من مُوبقات دون رادع من رسول أو كتاب أو مبادئ أو أخلاق .

يقول الحق سبحانه عنهم ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (٧) ﴾ [التغابن] والزعم هو القول المخالف للواقع ويقولون : الزعم مطية الكذب .

ويخاطبهم الحق سبحانه فيقول : ﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا (٤٨) ﴾

---

(١) الأشر ، فيها قولان ذكرهما ابن الجوزي في تفسيره (زاد المسير ٥/٤٥٤) الأول : أنه المرِح المتكبر. قاله ابن قتيبة . الثاني : البَطِر . قاله الزجاج . وقال السعدي في تفسيره (تيسير الكريم الرحمن ٨٢٦/١) : أي كثير الكذب والشر .

[الكهف] والخطاب هنا مُوجّه للكفار الذين أنكروا البعث والحساب .

و ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (٧) ﴾ [التغابن] أي : كذبوا في ادعائهم أنه لا بعث ، وأنهم لا يُبعثون ولا يُحاسبون ، والزعم ناتج عن ظنونهم وأوهامهم التي ليس لها نصيبٌ من الواقع والحقيقة .

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ .. (٢٤) ﴾ [الجاثية]

وأمنية الكافر والمسرف على نفسه ألاّ يكون هناك بعثٌ أو حساب ، والمسرف على نفسه إنما ينكر البعث لأنه لا يقدر على ضبْط نفسه ويظن أنه بإنكار البعث لن يلقى المصير الأسود الذي سيلقاه في الآخرة .

لذلك تجدهم يُشكِّكون في البعث ، وهم لا ينتبهون أنهم سواء شككوا في البعث أم لم يُشكِّكوا فإنهم مبعوثون لا محالة ، فالذي خلقهم من العدم قادرٌ على إعادتهم وهو أهون عليه .

والذي خلقهم هو الذي أرسل لهم الرسل يُحذرهم يوم القيامة، وهو الذي أرسل إليهم الرسل بالكتب ، وهو الذي له مُلْك السماوات والأرض .

ولكن ماذا زعم الذين كفروا ، زعموا : ﴿ أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا .. (٧) ﴾ [التغابن] وقد حاول الكفار والملحدون وأصحاب الفلسفات المادية أنْ ينكروا قضية البعث، وهم في هذا لم يأتوا بجديد ، بل جاءوا بالكلام نفسه الذي قاله أصحاب الجاهلية الأولى .

وكان مما قاله أصحابُ الجاهلية الأولى أنهم قالوا : ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا (١)

---

(١) ضللنا في الأرض : أي صارت عظامنا ولحومنا تراباً كالأرض . [زاد المسير لابن الجوزي ٥/ ١١٥] قال ابن كثير في تفسيره (٦/ ٣٦٠) : « أي تمزقت أجسامنا وتفرقت في أجزاء الأرض وذهبت» .

فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠) ﴾ [السجدة]

والضلال يأتى على معانٍ متعددة ، منها ما جاء هنا : ﴿ ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ .. (١٠) ﴾ [السجدة] بمعنى الذهاب والفناء فى الشيء ، لقد تساءل الكافرون: أبعد أنْ نذوب فى الأرض ونتحلل إلى عناصرنا الأولية نعود ثانية ونُبعث من جديد ؟

فهم كمنكرين للبعث يتساءلون باندهاش : أئذا غابوا فى الأرض واختلطوا بعناصرها ، أيمكن أنْ يبعثهم ربُّهم من جديد ؟ فهم لا يُصدِّقون أن الذى أنشأهم أول مرة قادر على أنْ يعيدهم مرة أخرى .

وقد قال الكافرون ما ذكره القرآن ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) ﴾ [ق] . لذلك ردَّ اللهُ عليهم فقال : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٤) ﴾ [يونس]

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : جاء أُبىّ بن خلف الجمحى إلى رسول الله ﷺ بعظم نَخِر ، فقال : أتعدنا يا محمد إذا بليتْ عظامنا فكانت رميماً أن الله باعثنا خَلْقاً جديداً ، ثم جعل يفتّ العظم ويذرُّه فى الريح ، فيقول : يا محمد مَنْ يُحى هذا ؟

فقال رسول الله ﷺ : « نعم ، يُميتك الله ، ثم يُحييك ويجعلك فى جهنم »[1] .

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور وعزاه لابن مردويه عن ابن عباس . وأخرج عبد الرزاق فى مصنفه (١٠٠١) عن معمر عن الزهرى فى قوله ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ .. (١٧) ﴾ [الأنفال] . قال : جاء أبى بن خلف الجمحى بعظم حائل فقال : الله يحى هذا يا محمد وهو رميم ؟ وهو يفت العظم فقال النبى ﷺ : يحييك ثم يبعثك ثم يدخلك النار ، فلما كان يوم أحد قال : لئن رأيت محمداً لأقتلنه فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال : بل أنا قاتله إن شاء الله .

ونـزل على رسـول الله ﷺ قوله تعـالى : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِـيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيـهَا الَّذِى أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) ﴾ [يس]

وأُبـيّ بن خلف كان عدواً لدوداً خَصْماً شديداً للإسلام، ومن هذا موقفه هنـا أنـه يأتـى لرسول الله بعظـم نَخرٍ بالٍ ويُفتتـه ويفركه بيديه أمـام رسول الله ، ويقـول: أتعدنـا يا محمـد إذا بليتْ عظامنا فكانـت رميمـاً أن الله باعثنا خَلْقاً جديداً ، ثم جعل يفتُّ العظم ويذرُّه فى الريح ويقول : يا محمد مَنْ يحيى هذا ؟

ولشدتــه وجبروته وقوته أجابه رسول الله ﷺ بردٍّ قويٍّ شديد حاسم : « نعم يميتك الله ثم يحييك ويجعلك فى جهنم » .

هــذا الجبـار قال لرسـول الله ﷺ يوماً مـا وكانت عنده رمكـة[1] فقال لرسـول الله : هذه الرمكة أنا أعلفها كل يوم فِرْقاً[2] من ذرة لأقتلك عليها ، فيقـول له رسول الله قَوْلةَ الواثق مـن أن ربه لن يخذله : « بل أنا أقتلك إنْ شاء الله »[3].

هــذا الرجل الذى يتوعد رسول الله لم يلتقِ مع رسول الله وهو فى قوته لينفذ وعيده ، ولكنه جـاء لرسول الله وهو فى هذا الموقف الـذى أثخنتْه فيه الجراح وكُسرت رباعيته[4] ودخلـتْ حَلْقتا المغفر فى وجنتيه وسـال دمه ، وبعد ذلك

---

(١) الرمكة : الفرس والبرذونة تُتخذ للنسل . [المغرب فى ترتيب المعرب – مادة : رمك] والفرس هى أنثى الحصان .

(٢) الفرق : الفلق من الشيء إذا انفلق . والفرق : القطيع من الغنم . هذا فى أصله اللغوى . وقال ابن فارس فى مقاييس اللغة : مما شذ عن هذا الباب الفَرَق : مكيال من المكاييل . ويقال إنه ستة عشر رطلاً أى حوالى ٦ كجم . [مقاييس اللغة ٤/٣٩٣] .

(٣) أورده البغوى فى تفسيره (٢/١١٤) وأخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٣/٢١١) .

(٤) رباعيته : هى الأسنان فى مقدم الفم . بين الثنايا والأنياب . والجمع رباعيات ، وهن أربع رباعيات بعد الثنايا من فوق وأسفل .

يأتـى إليـه هذا الرجل أُبى بن خلف الجمحى وهو يقـول : أين محمد ؟ لا نجوتُ إنْ نجا .

فأخـذ رسولُ الله الحرْبة وهو مُنهك القوى ، وضرب أُبىّ بن خلف بها فنالتْ منـه ، فسقط من علـى فرسه يخور كما يخور الثور ، فقال له أصحابه : لا بأسَ عليك يا أُبيّ .. ما أجزعك إنما هو خدش .

هـذا الجبـار قال لأصحابه : لا والله لقد علمتُ أنه يقتلنى لأنه قال لى بمكة : أنـا قاتلـك إنْ شاء الله ، فو الله لو بصق عليَّ لقتلنى ، فمات وهم قافلون به إلى مكة(١) .

الـذى خلقنا من عـدم كتب علينا المـوت وأخبرنا بالغيب أننـا سنُبعث يوم القيامـة ، وسيُعـاد هذا الخَلْق مرة أخرى ، فالذيـن لم يملكوا إنكار الخَلْق أنكروا البعث ، فقالوا كما حكى القرآن :

﴿ ق وَالْقُـرْآنِ الْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُـمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَـٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) ﴾ [ق]

فاستبعـدوا البعـث بعد المـوت وتحلُّل الأجساد فى التراب ، ولكـن الله يحسم الأمر ، فيقول : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦) ﴾ [المؤمنون]

وإذا كان الحق سبحانه هو القائل : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا .. (٤) ﴾ [يونس] فلا بد أنه الوعد الحقُّ لأنه سبحانه يملك ما يعد به ، وسبحانه مُنزَّه عن الكذب وعن الخديعة ، لأنه القائل : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا (١٢٢) ﴾ [النساء]

---

(١) أورده القرطبى فى تفسيره (٧/ ٣٨٥) والسمرقندى فى بحر العلوم (١/ ٣١٨) ومحمد الطاهر التونسى فى (التحرير والتنوير ٢٥/ ٢٠) .

والحق سبحانه هنا كأنه يقول : إياكم أنْ تظنُّوا أنكم أخذتم الحياة وأفلتم بها وتمتعتم ثم ينتهى الأمر، لا إن هناك بعثاً وحساباً ، ولماذا تستبعدون هذا، فهو سبحانه القائل : ﴿ إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ .. (٤) ﴾ [يونس] فالذى قدر على أنْ يخلق من عدم أيعجز أنْ يعيد من موجود ؟

وهو سبحانه القائل : ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩) ﴾ [مريم] فإذا شاء سبحانه أنْ يعيدكم فلا تتساءلوا كيف ؟ لأن ذراتكم موجودة ، والحق سبحانه يقول : ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥) ﴾ [ق]

وهكذا يستدل الحق سبحانه بالخَلْق الأول على إمكان الخَلْق الثانى ، فإنْ كنتم تتعجبون من أنكم تعودون بعد أنْ أوجد الحق أجزاءكم وذراتكم ومواصفاتكم فانظروا إلى الخلق الأول ، فقد خلقكم من لا شيء ، أفيعجز أنْ يُعيدكم من شيء؟

وهم قد استهزءوا بالبعث والحساب وما ينتظرهم من العذاب ، فقالوا كما حكى القرآن: ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧) ﴾ [الصافات]

ثم بلغ بهم الاستهزاء أنْ تعجّلوا العذاب فقالوا : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) ﴾ [الأعراف] ، وقالوا : ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا .. (٩٢) ﴾ [الإسراء]

وهل يطلب أحدٌ من عدوه أنْ يُنزل به العذاب إلا إذا كان مُستهزئاً ؟ إنهم يسخرون من فكرة أنهم بعد أنْ يضلُّوا فى الأرض فتأكل الأرضُ ذراتهم وتُغيِّبهم فى بطنها أن ذراتهم تعود مرة أخرى .

وتكذيبهم للبعث ليس للبعث فى حَدِّ ذاته، إنما هو تكذيبٌ للقاء الله وللحساب، لكنهم ينكرون البعث لأنه يؤدى إلى لقاء الله، وهم يكرهون لقاء الله فينكرون المسألة من بدايتها.

فهم عندما قالوا ﴿ أَئِذَا ضَلَلْنَا فِى الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ .. (١٠) ﴾ [السجدة] لم يكونوا صادقين فى تكذيبهم للبعث والحشر، لذلك قال تعالى:

﴿ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠) ﴾ [السجدة]

و (بل) تفيد الإضراب عن كلامهم السابق وتقرير حقيقة أخرى، وهى أنهم لا ينكرون البعث والحشر إلا خوفاً وفَرَقاً ورعباً من لقاء ربهم.

﴿ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) ﴾ [الإسراء] والرفات هو الفُتات ومسحوق الشيء وهو التراب أو الحطام، فالرفات هو الفتات وزناً ومعنى، وهو الشيء الجاف المتكسِّر.

لذلك جاءت بالترتيب هكذا: عظاماً ورُفاتاً، لأن جسم الإنسان يتحلّل وتمتصّ الأرض عناصر تكوينه، ولا يبقى منه إلا العظام، وبمرور الزمن تتكسَّر هذه العظام، وتتفتّت وتصير رُفاتاً، وهم يستبعدون البعث بعدما صاروا عظاماً ورفاتاً.

وقولهم ﴿ أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ .. (٤٩) ﴾ [الإسراء] الهمزة هنا استفهام يفيد الإنكار، فلماذا ينكر هؤلاء مسألة البعث بعد الموت؟

نقول: الكافر عنده لدد فى ذات إيمانه، ومن مصلحة آماله أنْ ينكر البعث، وهم يظنون أنهم على فرض أنه سيحدث فإنهم سيكونون فى الآخرة سادةً، كما كانوا سادةً فى الدنيا.

ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَضَرَبَ[1] لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) ﴾ [يس]

ومن الكافرين مَنْ قال : سنصير تراباً ثم نختلط بالتربة ويتم زراعة هذه التربة ، فتمتزج عناصرنا بما تُنبته الأرض من فواكه وخضر وأشجار ، ثم يأكل طفلٌ من الثمرة التى تغذَّتْ بعناصرنا ، فيصير بعضٌ منّا فى مكوِّنات هذا الطفل ، والقياس يوضح أننا سوف نتناثر فكيف يأتى بنا الله ؟ وكيف يُنشئنا من جديد ؟

والحق سبحانه يحسم الأمر ، فيقول : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ .. (٧٩) ﴾ [يس] فلو تذكر الإنسان خَلْقه الأول ما ضرب لنا هذا المثل . قُلْ لهم يا محمد : يُحييها الذى أنشأها أول مرة ، فقد خلقها من عدم .

ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) ﴾ [الروم]

إن الله سبحانه وتعالى قادرٌ على أنْ يبدأ الخَلْق على غير مثال ، ثم يُعيده بعد الموت ، وإعادته أهون عليه من ابتدائه بالنظر إلى مقاييس اعتقاد مَنْ يظن أن إعادةَ الشيء أسهلُ من ابتدائه ، فالله له مطلقُ القدرة فى خَلْقه ، وهو الغالب فى مُلْكه ، وهو الحكيم فى فعله وتقديره .

إن الذى يعيد إنما يعيد من موجود ، أما الذى بدأ فمن معدوم فالأهون هو الإعادة ، أما الابتداء فهو ابتداء من معدوم .

---

(١) الذى ضرب المثل لرسول الله وأتى بعظم نخر فقال : أتعدنا يا محمد إذا بليت عظامنا فكانت رميماً أن الله باعثنا خلقاً جديداً ثم جعل يفت العظم ويذره فى الريح ، هو أبى بن خلف . [أخرجه ابن مردويه وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر] . وذكر ابن مردويه رواية أخرى أنه أبو جهل بن هشام .

ويُوجِّـه الحـق سبحـانه رسوله محمداً ﷺ ، فيقول : ﴿ قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ .. (٧) ﴾ [التغابن]

يعني : قل بملء فيك (بلى) و (بلى) نفى للنفى السابق فى قولهم ﴿ أَن لَّن يُبْعَثُوا .. (٧) ﴾ [التغابن] وحين ننقض النفى فإننا نثبت المقابل له ، فمعنى (بلى) أنهم سيُبعثون .

ثم لا يكتفى الأسلوب بذلك ، إنما يؤكد هذه القضية بالقسم ، فالحق سبحانه يعلّم رسوله أنْ يحلف بذاته سبحانه وهو مطمئن أنهم سيُبعثون وسيُحشرون، والحق سبحانه لا يُلقّن رسوله يميناً كاذباً والحق سبحانه صادق دون حلِف ، فما بالك حين يحلف لك ؟

وكلمة (بلى) هى حرف جواب مثل نعم تماماً ، ولكن (بلى) حرف جواب فى النفى ، يعنى ينفى الذى قبله ، وهناك أمثلة قرآنية كثيرة لاستخدام هذا الأسلوب .

منها ما قاله أهل الكتاب : ﴿ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً .. (٨٠) ﴾ [البقرة] ثم جاء الجواب بعدها ﴿ بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١) ﴾ [البقرة]

فجاءت (بلى) لتنفى ما سبق من اعتقادهم أن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة ، ثم أكدت أن النارَ مصيرُ مَنْ أحاطتْ به خطيئته واستمرأ عصيان الله والتمرد عليه سبحانه .

ومثلها قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ .. (١١١) ﴾ [البقرة] ثم قال : ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢) ﴾ [البقرة]

فعندما يقول سبحانه (بلى) ، فهو سبحانه ينفى ما يقولونه وأن كلامهم غير صحيح ، وأنه سيدخلها غير هؤلاء .

فساعةَ تأتى قضيةٌ منفية ، ثم يأتى بعدها كلمة (بلى) فإنها تنقض القضية التى سبقتْها ، ومعنى ذلك أنها تثبت ضدها .

والغريب أن الكافرين يؤكدون أنه لا بعثَ ولا حشرَ ولا حساب وكأنهم أخذوا عهداً بذلك ، ممَّنْ ؟ لا أحدَ يعرف ، ولكن الله قال عن هذا : ﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ .. (١١١) ﴾ [البقرة] ، والأمانى هى مطامع الحمقى لأنها لا تتحقق ، وهى أن تُعلِّق نفسك بأمنية ، وليس لهذه الأُمنية سندٌ من الواقع يُوصِّلك إلى تحقيق أمنيتك .

ويقول الحق سبحانه عنهم : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ .. (٣٨) ﴾ [النحل] أى : أقسموا مبالغين فى اليمين مُؤكدينه ، فيرد عليهم الحق سبحانه : ﴿ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا .. (٣٨) ﴾ [النحل]

﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ .. (٧) ﴾ [التغابن] ورغم أن مسألة البعث لا تحتاج إلى تأكيد ، إلا أن الحق سبحانه هنا أكَّد بعثَ الناس بعد الموت فى يوم يعلمه الله ، فاستخدم الحقّ سبحانه (اللام) ثم (النون) المؤكدة بعد (تُبعثُ) .

﴿ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ .. (٧) ﴾ [التغابن] فأنتم لن تُبعثوا فقط ، بل سننبئكم بما عملتم فى فترة حياتكم فى الدنيا إنْ خيراً فخير ، وإنْ شراً فشرّ .

وكلمة (تُنبؤن) من النبأ ، ولا يُطلق النبأ إلا على الخبر الهام ، وليس مطلق الخبر ، فالنبأ خبر عجيب وهام وعظيم ، فإخبارهم بما عملوا بعد بعثهم وفى هذا الموقف هو نبأ عجيب وهام بالنسبة لهم ، لأنهم كانوا يستبعدون هذا اليوم ويستبعدون أنْ يكون ما أخبرهم به الرسل حقاً ، فإذا بهم يُبعثون .

وليس هذا فقط، بل سيُنبئهم الله بما عملوا، أي يخبرهم إخباراً يزلزل كيانهم، فعن هؤلاء يقول: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ [1] يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾ [النور]

فالكافر سيُفاجأ في الآخرة بالله الذي لم يكُنْ في باله أنه سيحاسبه على ما فعل، إنه يُفاجأ بوجود الله، ولم يكُنْ هذا الإله في باله ساعة أنْ قام بهذا العمل.

وهم يعلمون أنْ لو كان هناك بعث وحساب سيُجازون بما عملوا، وهذه مسألة صعبة عليهم، ومن مصلحتهم أنْ تكون الآخرة كذباً.

وصدق أبو العلاء المعري[2] حين قال:

زَعَمَ المنجِّمُ وَالطَّبِيبُ كِلاَهُمَا ... لاَ تُحْشَرُ الأَجْسَادُ قُلْتُ إليكُمَا

إنْ صَحَّ قَوْلكُمَا فَلَسْتُ بخَاسِرٍ ... أَوْ صَحَّ قَوْلِي فَالخسَارُ عَليْكُمَا

أي: أن المؤمن بالبعث إنْ لم يكسب فلن يخسر، أما أنتم أيها المنكرون فخاسرون، فكُلُّ مكذِّب بالآخرة خاسر، والنفس البشرية لابد أنْ تحتاط للقاء الله، وأنْ تعترف أنَّ هناك حَشراً وتعمل لذلك.

---

(١) القيعة: أرض مستوية. أي قاع من الأرض. قال البغوي في تفسيره (٦/٥٢): القيعة جمع القاع وهو المنبسط الواسع من الأرض وفيه يكون السراب. وقال السعدي: لا شجر فيه ولا نبت. والسراب ظاهرة خداع بصري ضوئي تحدث نتيجة ظروف البيئة المحيطة من اشتداد درجات الحرارة والأرض المستوية واختلاف في معامل الانكسار مما يجعلها في حالة توهج شديد حيث تبدو كالماء الذي يلتصق بالأرض ليعكس صوراً وهمية للأجسام وكأنها منعكسة عن سطح مرآة كبيرة.

(٢) أبو العلاء المعري: أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي المعري، شاعر فيلسوف. ولد ٣٦٣ هجرية ومات ٤٤٩ هـ في معرة النعمان. كان نحيف الجسم، أصيب بالجدري صغيراً فعمي في السنة الرابعة من عمره، قال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة. لما مات وقف على قبره ٨٤ شاعراً يرثونه. كان يحرِّم إيلام الحيوان ولم يأكل اللحم خمساً وأربعين عاماً وكان يلبس خشن الثياب. [الأعلام للزركلي ١/١٥٧].

وهـذه الأبيـات أخرجتْ المعرى مما اتهموه بـه مـن أنه ينكر البعث ، صحيح أنه فى أول حياته قال :

تَحْطِمُنَا الأَيَّامُ حَتَّى كَأَنَّنَا   زُجَاجٌ وَلكِنْ لاَ يُعادُ لَنَا سَبْكُ[1]

فقولـه : (لا يُعـاد لنا سَبْكُ) معناه أنه ينفى قـدرة الحق على أنْ يبعثنا مرة أخرى ، مع أنه من الممكن أنْ يتـأوَّل فيها ، أى لا يُعاد لنا سَبْكٌ فى حياتنا هذه، ونحن لا نرى مَنْ مات يعود مرة ثانية .

وهـذا قاله فـى أول حياته ، ولكنـه آخر الأمر طلب من الطبيـب والمنجِّم أنْ يكفَّـا عـن إفساد العقول بـالشك ، وهَبْ أنه اعتقـد ألاّ بعث ، وواحد آخر اعتقد أن هناك بعثاً ، نقول لـه : إما أنْ يجيء بعثٌ فيكذب مَنْ قـال : لا بعث .

وإما ألاَّ يجيء بعثٌ ، فإذا لم يجيء البعث ما الذى ضَرَّ مَنْ آمن بـالبعث ، وإذا جاء البعث فمَنْ الذى خسر ؟ سيخسر مَنْ أنكره . إذن : فـالذى ينكر البعث يخسر ولا يكسب ، لكن مَنْ قـال : إن هنـاك بعثاً لا يخسر وهكذا .

فإنْ كـان كلامكُم صحيحاً من أنه لا يوجد بعث – والعيـاذ بـالله – فلن أخسر شيئـاً لأنِّـى أعمـل الأعمال الطيبة ، وإن كـان هنـاك بعـث – وهـو حقٌّ – فسوف ألقى الجزاء فى الجنة ، وبذلك لم أخسر بل كسبت .

لكـن افرضوا أنكم عملتم الشرَّ كلّه وجاء البعث فـأنتم الخـاسرون ، والقضية الفلسفيـة المنطقية هنـا هــى : إنْ لم أكسب فلن أخسر ، وأنتم إنْ لم تخسروا فلن تكسبوا .

ومعنى قوله تعالى ﴿ بِمَا عَمِلْتُمْ .. (٧) ﴾ [التغابن] أن الله قد أحصى عليهم

(١) أورده صلاح الدين الصفدى فى نكت الهميان (٣٦/١) وعبد الرحيم العباسى فى معاهد التنصيص (١٤٠/١).

أعمالهم وهذه مفاجأة أخرى لهم ، يقول تعالى : ﴿ أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ .. (٦) ﴾ [المجادلة] فنحن نسجل عليهم أعمالهم ونُحصيها .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ .. (٧) ﴾ [التغابن] فكلُّ فعل على الله يسير ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ (١٩) ﴾ [العنكبوت]

فأيهما يسيرٌ على الله ، الخَلْق أم الإعادة ؟ هل الذى خلق من عدم يعجز عن إعادة ما خلق ؟ الخَلْق الأول من عدم ، أما الإعادة فمن موجود ، فأيُّهما أهون وأيسر فى عُرْفكم وحسب منطقكم ؟

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ .. (٢٧) ﴾ [الروم] مع أن الحق سبحانه لا يُقال فى حقّه : هذا هيِّن وهذا أهون ، لكنه سبحانه يخاطبنا بما تفهمه عقولنا .

فإيجاد ما كان موجوداً أسهل من الإيجاد من عدم على غير مثال موجود ، فالبعث أهونُ على الله من بداية الخَلْق ، فبالنسبة للخالق سبحانه فليس عنده هيِّن وأهون منه ، لأنه سبحانه لا يفعل الأفعال معالجةً ولا يزاولها ، وإنما بقوله تعالى (كُنْ) .

فالحق سبحانه وتعالى إذا أراد أمراً فإنه يقول له (كُنْ فيكون) ، وكلمة (كُنْ) نفسها هى أقصر أمر ، إن أمره ألطف وأدقّ من أنْ يدركه على حقيقته مخلوق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٨﴾

الإيمان منهج تطبيقى يمزج بين العقل والقلب من ناحية، والقول باللسان من ناحية ثانية، والعمل بجوارح الإنسان من ناحية ثالثة، فالإيمان ليس نظرية فكرية يعتقدها عقل الإنسان وقلبه فقط، بل يجب أن يكون فى قوْل الإنسان وسلوكه العملى ما يصدق هذا الفكر وهذا المعتقد.

لذلك عندما قال الحق سبحانه: ﴿ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذى أَنْزَلْنَا .. (٨) ﴾ [التغابن] لم يقُل الحق بعدها: والله بما تعتقدون خبير. أو: والله بما تؤمنون خبير.

لا .. قال: ﴿ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨) ﴾ [التغابن] فنقلنا من الإيمان النظرى إلى الإيمان العملى، فالمؤمن عليه أنْ يتحرك فيمَنْ حوله بسلوكيات توافق إيمانه بالله ورسوله والقرآن، فلا يعمل ولا يسلك سلوكيات تناقض هذا الإيمان.

فلا يسع المؤمن الذى آمن بالله وبالرسول وبالقرآن إلا أنْ يطبق ما جاء فى القرآن وطاعة رسول الله فيما جاء به من عند الله تعالى، وليس له أنْ يدعو أو يسعى لإبطال شريعة الله أو الخروج عليها أو الدعوة إلى غيرها.

وقد نعى الحق سبحانه على أولئك الذين شابهوا الكافرين الذين كفروا من قبل، فشابهوهم فى رفض أنْ يكون رسلُ الله إليهم من البشر ﴿ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا .. (٦) ﴾ [التغابن]

وأيضاً شابهوهم فى إنكار البعث ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا .. (٧) ﴾ [التغابن]

هـم يريـدون التملُّص مـن الإيمان فيُبـدون الأعذار والتبريـرات ، ويضعون العقبـات تِلْو العقبات حتى لا يؤمنوا ، وعدم الإيمـان بالرسل الذين يرسلهم الله هـو فى الحقيقة عـدم إيمان بالله عز وجل ، فإذا كنـتَ لا تعترف بالرسل فأنت فى الواقع لا تعترف بمَنْ أرسلهم .

وكان لابـدّ لهـم أنْ يؤمنوا بمَنْ يرسلهـم الله سواء كانوا بشراً أو غير بشر ، والله لـه حكمـةٌ فى أنْ يكونوا من البشر ليكونَ أسهـل فى التخاطب مع الناس، وأيضـاً ليكونوا قـدوة ، فلو كانوا ملائكةً لاحتجَّ هؤلاء الكافـرون أيضاً بأنهم كيـف يتبعون ملائكـة ، فالملائكة قادرون على ما يُؤمرون بـه ، أما نحن فلا نستطيع تنفيذ ما أُمروا به .

وبعضهم أقرَّ بأنْ يكونوا من البشر ولكنْ أرادوا هم أنْ يختاروا الله مَنْ سيرسله لهم، فقالوا : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْءانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

لقد كانوا يريدونه أنْ ينزل على سيد من سادة قريش ، فاعتبروا أن المشكلة ليست فى القرآن ، ولكن المشكلة والآفة بالنسبة إليهم أنه نزل على محمد ﷺ.

فقـال أهل الجاهلية : لمـاذا لم ينزل القرآن على رجـل عظيم من مكة أو من الطائـف ، قالـوا ذلك استهزاءً بشأن رسول الله وتقليـلاً من مكانته ، فهم طلبوا أنْ تكون السيادةُ لغنى من أغنياء القريتين مكة أو الطائف[1] .

لقـد أرادوا أنْ يظلُّوا فى السيادة والجـبروت والقهر للغير ، والقرآن إنما جاء ليساوى بين البشر جميعاً أمام الحق الواحد الأحد .

---

(١) ذكر الطبرى فى (تفسير الزخرف ٣١) عن ابن عباس قال : يعنى بالعظيم الوليد بن المغيرة القرشي، أو حبيب بن عمرو بن عمير الثقفى . وعنى بالقريتين : مكة والطائف . وقال آخرون : بل عنى به عتبة ابن ربيعة من أهل مكة وابن عبد ياليل من أهل الطائف .

لقد استكثروا على رسول الله أنْ ينزل عليه هذا القرآنُ العظيم ، وفي هذا القول فتنةٌ واختبار لرسول الله ، وهو يصبر على ذلك ويمضي إلى إتمام البلاغ عن الله ولا يلتفت إلى ما يقولون ، بل يأخذ هذا دليلاً على قوة المعجزة الدالة على صِدْق رسالته .

والحق سبحانه يدعو هؤلاء الكافرين إلى الإيمان بالله أولاً ، ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ .. (٨) ﴾ [التغابن] ، فالإيمان بالله هو أصل العقيدة وفي القمة منها، وليس المقصود هنا هو الإيمان بوجود الله فقط ، بل المقصود الإيمان بالله إلهاً واحداً أحداً مستحقاً وحده للعبودية ، لأنه وحده الذي خلق هذا الكون بسمائه وأرضه وإنسانه وحيوانه ونباته .

فلا يكفي أنْ نقول نحن نؤمن بوجود الله وأننا لسنا ملحدين ، فإنَّ مشركي قريش الذين بُعث فيهم رسول الله ، يقول تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٦١) ﴾ [العنكبوت]

ويقول سبحانه : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٦٣) ﴾ [العنكبوت]

حتى خلق الله للإنسان نفسه كانوا يعترفون ويُقرُّون به : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٨٧) ﴾ [الزخرف]

فمشكلتهم وسبب كفرهم أنهم كانوا يشركون مع الله آلهة أخرى وأصناماً وأوثاناً ، ويتخذونها وسائط عند الله بزعمهم ، قالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى .. (٣) ﴾ [الزمر]

ولو قالوا : لا نذبح لهم إلا ليقربونا إلى الله زُلْفى ، لكان من الجائز أنْ يدخلوا في عبادة الله ، ولكنهم يثبتون العبادة للأصنام ، لذلك لا مفرَّ من دخولهم

في الشرك .

وهم يعترفون أن المتقرَّب إليه هو الله ، ولكن الحق يحسم أمر الشرك فيقول على لسان رسوله : ﴿ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (١٩) ﴾ [الأنعام] فالرسول ﷺ لا يشهد بأى آلهة غير الله .

ثم إن الجميع شهد لله عز وجل بالربوبية لحظة الخَلْق الأولى ، يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا[1] .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

هم إذن قد أقرُّوا لحظة الخَلْق الأول بوحدانية الله وعاهدوا الله تعالى على ذلك ، لكنهم كفروا بتلك الشهادة وأشركوا به سبحانه ووضعوا فى بيت الله الحرام أصناماً ، وادَّعوا الكذب وقالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى .. (٣) ﴾ [الزمر]

ومن الإيمان بالله الإيمانُ بألوهيته سبحانه لا ربوبيته فقط ، أى : أنه صاحب التشريع والمنهج الذى يُنزله على رسله ليبلِّغوه للناس وليس للصنعة أنْ تتمرَّد على صانعها وتطلب صلاحها ممَّنْ تظنه صانعها ، أو أنها هى تُصلح نفسها .

---

(١) عن أبى سعيد الخدرى قال : حججنا مع عمر بن الخطاب ، فلما دخل الطواف استقبل الحجر فقال : إنى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ قبَّلك ما قبَّلتك ثم قبَّله ، فقال له على ابن أبى طالب : بلى يا أمير المؤمنين إنه يضر وينفع ، قال ثم قال : بكتاب الله تبارك وتعالى . قال : وأين ذلك من كتاب الله ؟ قال الله عز وجل ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف] خلق الله آدم ومسح على ظهره فقرره بأنه الرب وأنهم العبيد، وأخذ عهودهم ومواثيقهم وكتب ذلك فى رقٍّ وكان لهذا الحجر عينان ولسان فقال له افتح فاك قال: ففتح فاه فألقمه ذلك الرق وقال : اشهد لمن وافاك بالموافاة يوم القيامة وإنى أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول : يؤتى يوم القيامة بالحجر الأسود وله لسان ذلق يشهد لمن يستلمه بالتوحيد فهو يا أمير المؤمنين يضر وينفع ، فقال عمر : أعوذ بالله أن أعيش فى قوم لست فيهم يا أبا الحسن . [أخرجه الحاكم فى مستدركه (١٦٨٢)] .

فالله لم يبعث الرسل عبثاً ، ولم يُنزل الكتب لعباً ، بل أرسلهم بالحق ، وأنزل إليهم الكتب بالحق لتهدى الناس إلى المنهج الحق ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [الملك]

والكون لا يصلح إلا بمنهج الله ، فالله هو الذى خلق، وهو الذى أوجد ، وهو أدرى وأعلم بصنعته وبما يُفسدها وبما يُصلحها ، لأنه هو الصانع ولا يوجد مَنْ يعلم سِرّ ما يُصلح صنعته أكثر من صانعها .

وهناك أناسٌ يكرهون الإيمانَ أشدَّ الكراهية ، هؤلاء قال الله فيهم : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ[١] أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِنْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣) ﴾ [البقرة]

فالرسول ﷺ يدعوهم للإيمان ، والمسلمون يدعونهم للإيمان ولكنهم يصفون الذين آمنوا بأنهم سفهاء ، أى أنهم فقراء من أراذل القوم ، أما سادة قريش فهم عقلاء مالكون للمال لا يليق بهم أنْ يؤمنوا .

ولفرط كراهيتهم للإيمان بألوهية الله ووحدانيته تجد الحق سبحانه يقول عنهم : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ[٢] قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥) ﴾ [الزمر]

والإنسان حين يسمع شيئاً لا يحبه يشمئز ، يعنى يظهر على سحنته الامتعاض، ثم تحدث منه نُفْرة وقشعريرة كئيبة ، ثم ينصرف عن هذا الشيء.

(١) السفهاء هنا : الجهلة ، وأصل السَّفه فى اللغة : خفة الحلم (خفة العقل) وقال الطبرى فى تفسيره (١/ ٢٩٣) : قال عامة أهل التأويل : هم النساء والصبيان لضعف آرائهم وقلة معرفتهم بمواضع المصالح والمضار التى تصرف إليها الأموال ، وذلك فى قوله تعالى ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا .. (٥) ﴾ [النساء] .

(٢) اشمأزت ، فيها ثلاثة أقوال : الأول : انقبضت عن التوحيد . قاله ابن عباس ومجاهد . الثانى : استكبرت. قاله قتادة . والثالث : نفرت . قاله أبو عبيدة والزجاج . (زاد المسير لابن الجوزى ٥/ ٢٧١) .

كذلك حال هؤلاء لما سمعوا ذكر الله وحده نفرتْ نفوسهم وانقبضوا عن توحيد الله، لكن لماذا؟ فمعنى توحيدهم الله أنْ يؤمنوا بالبعث والحشر وملاقاة الله، وقد يُلاقون عقاباً على ما فعلوا وهو ما قالتْه سورة التغابن هنا: ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ (٧) ﴾ [التغابن]

أما ما يعبدونه من أصنام فلا تأمرهم بأمر ولا تنهاهم عن شيء، ولا هي تُحدِّثهم عن بعث أو حساب، لذلك يستبشرون عندما يُذكر الذين من دون الله.

وهم يستبشرون لأسباب أخرى، منها ظنُّهم أنهم يشفعون لهم، لكنهم خائبون في هذه وخائبون في هذه، فإنَّ ما عبدوهم من دون الله سيسبقونهم إلى النار.

يقول تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ[1] جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨) لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (٩٩) ﴾ [الأنبياء]، فتلك الأصنام والحجارة التي عبدتموها من دون الله ستكون وقود النار التي يُعذّب بها مَنْ عبدها، وبذلك ينقطع عن الكافرين المشركين كلُّ أمل في أنْ تنقذهم آلهتهم المزيفة.

والحصب مثل الحطب وهو كلّ ما تُوقد به النار أيّاً كان، خشباً أو قشاً أو بترولاً أو كهرباء، وهنا وقودها العابدون وما عبدوه، فما عبدتموه لن يقيكم يومئذ من عذاب النار.

والحق سبحانه هنا عندما يطالبهم بالإيمان بالله في سياق سورة التغابن

---

(١) الحصب مشتق من الحصباء والحجارة. يُرمى به في جهنم. وأرض محصبة ذات حصى. وحصبت النار: إذا ألقيت فيها ما تستوقد به. [الاشتقاق لابن دريد ١/٥٢٩] قال أبو عبيدة: كل ما ألقيته في النار فقد حصبتها به. [الصحاح في اللغة ١/١٣١].

نجد أن المطلوب هو الإيمان بالله خالقاً للسماوات والأرض ، خالقاً للإنسان صوَّره فأحسن صورته ، وأنه سبحانه له الملْك وأنه سبحانه لا يُعجزه شيء ، لأنه ﴿ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .. (١) ﴾ [التغابن]

وهو سبحانه العليم ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ .. (٤) ﴾ [التغابن]

وهو سبحانه غنيٌّ عن العالمين لا يحتاج إليهم ، قال ربُّ العزة في الحديث القدسي : « يا عبادي ، لو أنَّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زادَ ذلك في مُلْكي شيئاً . يا عبادي لو أنّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ، ما نقص ذلك من مُلْكي شيئاً »[1] .

وآفة هؤلاء الكافرين أنهم لم يقدروا الله حقَّ قدْره ، وظنوا أن المسألة بالنسبة للحق سبحانه هو تعذيبهم ، مع أنه سبحانه يقول في وضوح : ﴿ مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (١٤٧) ﴾ [النساء]

وعظمة الحقِّ سبحانه أنه لا يوجد شيءٌ من طاعة يعود إلى الله بنفع ، ولا يوجد شيءٌ من معصية يعود إلى الله بالضرر .

ثم يقرن الحق سبحانه بين الإيمان بالله والإيمان برسوله ، فقال : ﴿ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ .. (٨) ﴾ [التغابن] وقد قال الإمام الشافعي[2] : وضع الله رسوله من دينه وفَرْضه وكتابه الموضع الذي أبان جَلَّ ثناؤه أنه جعله عَلَماً لدينه بما

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٦٧٣٧) وأحمد بن حنبل في مسنده (٢١٤٥٨) والبزار في مسنده (٤٠٥٣) والبيهقي في سننه الكبرى (١١٨٣٧) والبخاري في الأدب المفرد (٤٩٠) عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه .

(٢) هو : محمد بن إدريس الشافعي الهاشمي القرشي أبو عبد الله ، ولد في غزة عام ١٥٠ هـ ، زار بغداد مرتين وقصد مصر سنة ١٩٩ فتوفي بها عام ٢٠٤ هجرية . وقبره معروف في القاهرة . كان الشافعي أشعر الناس وأعرفهم بالفقه والقراءات . أفتى وهو ابن عشرين سنة . له مؤلفات وكتب كثيرة . أشهرها : كتاب الأم في الفقه ، وله المسند في الحديث . و (أحكام القرآن) و (الرسالة) في أصول الفقه . [الأعلام للزركلي ٦/٢٦] .

افــترض مـن طاعته وحرم من معصيته وأبان مـن فضيلته بما قرن من الإيمان برسولــه مع الإيمان بـه[1] ، فقال تعالى : ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ .. (٨) ﴾ [التغابن]

وثانــي ما يطالبُ الله الكافرين بالإيمان بـه هو الإيمان برسوله ﷺ ، لأنهم إذا كانـوا قـد آمنوا بالله فلا بـدّ أنْ يُؤمنـوا برسوله الذى أرسلـه إليهم ليبلِّغهم منهج الله أمراً ونهياً ، أم أنكم تظنُّون أنّ الله خلقكم سُدى وترككم هملاً ؟

وكثيـراً مـا ربـط القرآنُ بيـن الإيمان بـالله والإيمانِ برسـول الله فى آيات كثيرة ، يقول تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨) ﴾ [الأعراف]

وهذه الآيةُ آيةٌ جامعة فى ماهية الإيمان برسول الله ﷺ ، فهو : ﴿ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا .. (١٥٨) ﴾ [الأعراف] فرسالته ﷺ عامة وليستْ خاصة بالعرب فقط ، بل هى رسالةٌ للعالمين الإنس والجن ، عربهم وعجمهم .

فكلُّ رسالـة مَن الرسالات التـى سبقتْ رسالة رسـول الله ﷺ وجاءتْ لقوم مُحددين ولزمن مُحدّد ولعلاج داءات وآفات أصابتْ مجتمعاً ما ، أما رسول الله فهـو رسـولٌ إلى كلِّ الناس ، لذلك كان هو الرسول الخاتم الذى أعطى الخير كلَّه والنور كلَّه .

فرسالـة الإسلام رسالـة خاتمة ، وإيماننـا بالرسول يقتضـى أنْ نؤمن أنه خاتم الأنبياء بحقٍّ ، وقد قال رسول الله : « مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثَلِ رجـل بنى بيتاً فأحسنـه وأجمله إلا موضعَ لبنة من زاويـة من زواياه ، فجعل الناسُ يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وُضعتْ هذه اللبنة ، فأنا اللبنةُ

---

(١) قاله الشافعى فى كتابه (الرسالة) (١/٧٣) فقرة (٢٣٦) .

وأنا خاتمُ النبيين»[١].

فهو ﷺ خاتم النبيين وخاتم المرسلين، يقول تعالى: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَـٰكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ .. (٤٠) ﴾ [الأحزاب]

وبعض أهل الضلال يؤمنون برسول الله على نحو مخالف لمراد الله، فيؤمنون به خاتماً للنبيين كما نصَّ عليه القرآن، ولكنْ لا يؤمنون به ﷺ خاتماً للرسل، فيدَّعون رسولاً بعد رسول الله، ويدَّعون كتاباً بعد النور الذى أنزله الله مع نبيه ورسوله محمد.

وتجد مثل هذه الدعاوى فى البهائية[٢] والقاديانية[٣] وغيرها من المعتقدات الزائفة، وهم ينسُون أو يتعمدون هذا، فالرسول لا يكون رسولاً إلا إذا كان نبياً، فكلُّ رسولٍ نبيٌّ، وليس كلُّ نبيٍّ رسولاً. هذا بالنظر إلى الشريعة التى تأتى مع الرسول ولا تأتى مع النبى.

أما بالمعنى اللغوى والمعنى الاصطلاحى فالقرآن يقول: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ .. (٥٢) ﴾ [الحج]

فالنبى أيضاً مُرسَلٌ من الله، وعلى ذلك فكلاهما – النبى والرسول – مرسل من عند الله، لكن يوجد فرْق بين أنْ يرسل الحقُّ تشريعاً مع رسول، ويكون هذا التشريع مستوعباً لأشياء وأحكام لم تكُنْ موجودة فى الرسالة السابقة

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٥٣٥) والبزار فى مسنده (٨٢٣٣)، والطبرانى فى مسند الشاميين (١٣٠). من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) البهائية حركة نبعت من المذهب الشيعى الشيخى سنة ١٢٦٠ هـ تحت رعاية اليهودية العالمية والاستعمار الإنجليزى بهدف إفساد العقيدة الإسلامية وتفكيك وحدة المسلمين، أسسها الميرزا على محمد رضا الشيرازى، مقرهم الرئيسى فى إسرائيل فى حيفا، ويقطن أغلبيتهم فى إيران.

(٣) القاديانية دين مخترع ظهر أواخر القرن التاسع عشر الميلادى بقاديان إحدى قرى البنجاب الهندية. أسسه ميرزا غلام أحمد القاديانى المولود عام ١٢٦٥، ادعى أنه المهدى المنتظر والمسيح الموعود، ثم ادعى أنه المسيح نفسه، ثم ادعى نبوته وأن نبوته أعلى وأرقى من نبوة رسول الله.

عليه ، وبين أنْ يأتى إنسانٌ مُصطفى من الله ليطبق فقط ما جاء فى الرسالات السابقة .

فالأنبياء قد أرسلهم اللهُ ليكونوا نموذجاً تطبيقياً للشرع السابق عليهم ولم يأتُوا بشرع جديد ، لكنَّ الرسولَ هو مَنْ أرسله اللهُ بشرع جديد ليعمل به وأمره الحقُّ بتطبيقه ، هذا هو الزائد فى مهمة الرسول .

إن الحقَّ سبحانه أرسل الأنبياء ليكونوا الأسوة السلوكية فيُطبقوا ما أُرسلَ به الرسلُ السابقون عليهم ، أما الرسلُ فأرسلهم الله بالشرع والتبليغ والتطبيق.

ومن الإيمان برسول الله أنْ تؤمن بأنه نبيٌّ أُميٌّ ، فالأمية فى رسُول الله شرف ، ولكنها أيضاً دليلٌ على صِدْقية القرآن ﴿ وَالنُّورِ الَّذِى أَنْزَلْنَا .. (٨) ﴾ [التغابن] وأنه وحيٌ مجرد من الله عزَّ وجل ، ليس لرسول الله فيه دورٌ إلا تبليغه فقط .

لذلك كان لابد له أنْ يكون أُمياً ، ورغم أن هذا واضحٌ الوضوح كله ، ولكن غير المؤمنين قديماً وحديثاً ادَّعوْا على رسول الله أن القرآنَ من تأليفه وأنه ليس وحياً ، ولكنه أخذه عن الكتب السابقة .

كيف وهو أُميٌّ لا يقرأ ولا يكتب ولم يُعرف بالبلاغة والشعر والخطابة بين قومه حتى يستطيع أنْ يأتى من عنده بهذا الكلام المعجز الذى لم يستطع فطاحل شعراء العرب الذين تمرَّسوا فى البلاغة واللغة أنْ يأتوا بآية من مثله .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) ﴾ [البقرة]

وثالث ما طلب الله ودعا إليه هو أنْ تؤمنوا بالنور الذى أنزله سبحانه على رسوله محمد وهو القرآن ، ولم يشأ اللهُ سبحانه أنْ يقول هنا : والكتاب الذى

أنزلنا . بل قال هنا : النور .

وهذا إشارة لهم أنَّ ما أنتم عليه هو الظلام بذاته ، وأن إيمانهم بالله ورسوله سيُخرجهم من الظلمات إلى النور الذى أنزله الله على رسوله .

فمهمة هذا الكتاب حدَّدها الحقُّ سبحانه فى قوله تعالى : ﴿ الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١) ﴾ [إبراهيم]

وهو كتاب يُبصِّرنا بقضية القمة فى العقيدة ، وهى أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسولُ الله ، وهو بهذا يُخرجهم من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد .

وهو كتابٌ يلفتهم إلى آيات الكون ، وأنْ يعرفوا أن هناك آخرة ونعيماً أبدياً وشقاءً أبدياً ، وهو يقيم الدليل والحجة على الكافرين ويُحاجِجهم ويناقش ادعاءاتهم على مُنزِل الكتاب ، وعلى مَنْ نزل عليه ذلك الكتاب ، إنه كتابٌ يناقش صِدْقية القرآن نفسه ويردُّ على الطاعنين فيه .

وعندما جاء هذا النورُ ؛ فبدلاً من أنْ يأخذوا نور الإيمان انصرفوا عنه ، فكأنهم انصرفوا عن كلِّ ما يهديهم إلى طريق الله ، ولو آمنوا لأضاء نورُ الإيمان والإسلام طريقهم ، ولكن قلوبهم مملوءةٌ بظلمات الكفر فلا يروْنَ طريق النور .

إن القرآنَ هو وَحْيٌ مُنزَّل من عند الله ، يُعرف المؤمنين النور إلى الهداية وتكاليف الحق ويهدى مَنْ اختار الهدى ، وإنَّك يا محمد لتدعو بهذا القرآن إلى صراط مستقيم .

والإيمان بالله مسألة تطبيقية مرحلية ، فـ « الله » هو قمة الإيمان ، و« رسوله » هو المبلّغ عن الله ، لأنه جاء لنا بالنور وهو القرآن : ﴿ الَّذِى أَنْزَلْنَا .. (٨) ﴾ [التغابن]

وفي آية أخرى يقول تعالى : ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ[١] وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ .. (١٥٧) ﴾ [الأعراف] فالنور مرتبط برسول الله فهو أُنزل معه ﷺ وحَلّ معه ، فلا تظنُّوا أنكم تستطيعون الفصل بين الإيمان بالله وبين الإيمان برسوله وبالنور والكتاب الذى أُنزل معه .

واعلموا أن ﴿ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨) ﴾ [التغابن] وهذه الآية تلفتنا إلى أمر هام ، فصدر الآية يُحدِّثنا عن الإيمان ، وهو أمر قلبيٌّ يخصُّ معتقد الإنسان ، فهو أمر نظرى يتعلق بالنظرية والمعتقد .

أما عَجُز الآية فيُحدِّثنا عن التطبيق ، فنقلنا الحق سبحانه إلى الجانب العملى فى الإيمان ، فقال : ﴿ بِمَا تَعْمَلُونَ .. (٨) ﴾ [التغابن]

وقد قال الحسن البصري[٢]: « ليس الإيمانُ بالتحلِّى ولا بالتمنِّى ، إنما الإيمانُ ما وقر فى القلب وصدَّقه العمل »[٣] .

و ﴿ بِمَا تَعْمَلُونَ .. (٨) ﴾ [التغابن] تشمل قولك وفعلك ، فالقول عمل اللسان، والفعل عمل اليد أو الرِّجْل أو العين ، وسواءً كان الإيمان الذى فى القلب أو العمل الذى فى الجوارح فلا تظنُّوا أنَّ شيئاً من هذا يَخْفى على الله ، فإنه سبحانه : ﴿ خَبِيرٌ .. (٨) ﴾ [التغابن]

فإنه سبحانه خبيرٌ بما فى قلبك، عليمٌ بإيمانك بالله ورسوله والقرآن

---

(١) معنى عزروه : نصروه وأعانوه ، قاله مقاتل . وقال ابن قتيبة : عزروه أى عظموه . (زاد المسير لابن الجوزى ٣/٤٣) وقال الأخفش : أى عظموه ووقروه ، وقيل : معناه منعوه من عدوه وأصل العَزْر المنع. [فتح القدير للشوكانى ٣/١٠٢] .

(٢) الحسن البصرى هو : الحسن بن يسار أبو سعيد تابعى ، كان إمام أهل البصرة، ولد ٢١ هـ ، هو أحد العلماء الفقهاء النساك ، ولد بالمدينة وشب فى كنف على بن أبى طالب . سكن البصرة ، له مع الحجاج ابن يوسف الثقفى مواقف ، توفى ١١٠ هجرية [الأعلام للزركلى ٢/٢٢٦] .

(٣) قال ابن تيمية فى [أحكام المرتد ١/٢٢٩] : « هذا مشهور عن الحسن يروى عنه من غير وجه ، كما رواه عباس الدروى حدثنا حجاج حدثنا أبو عبيدة الناجى عن الحسن . وأخرجه من قول الحسن البصرى ابن بطة العكبرى فى [الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ١٠٩٣] .

ومدى وماهية إيمانك ، ويعلم بنيّتك عند عملك وفِعْلك وقولك ، خبير بما تفعله وتصنعه، وإنْ لم يطلع عليك أحدٌ من الناس .

فالله خبير بنية مَنْ أبدى صدقة ، أو جاهد فى سبيل الله ، والله يجازيك على قدْر نيتك وقصدك ، إنْ كنتَ تبتغى بما تفعل مرضاةَ الله سبحانه أم لا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾

الحق سبحانه هنا يؤكد لمن يُنكرون البعث والحساب وإنباءهم بما عملوا فى الدنيا أنهم لا مفرَّ لهم ولا حيلةَ لهم فى الهروب والفرار من مواجهة ذلك اليوم الذى يجمعكم فيه .

وهو سبحانه يُبطل زعمهم : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ .. (٧) ﴾ [التغابن]

ثم قال : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ .. (٩) ﴾ [التغابن]

فكأن (يوم) هنا وهى ظرف زمان يحدث فيه إنباؤهم بما عملوا فى الدنيا، كأنه سبحانه قال : والله يُنبئكم بما عملتم ويعاقبكم عليها يوم يجمعكم .

---

(١) يكفِّر عنه سيئاته : يمحو عنه ذنوبه . قال مقاتل بن سليمان : أى يغفر له ذنوبه . وقال أبو بكر جابر الجزائرى فى تفسيره [أيسر التفاسير ٣/١٩٢] : « معنى يُكفرها عنهم يغطيها ويسترها ولم يطالبهم بها كأنهم لن يفعلوها » .

وبعض العلماء ذهبوا إلى أن (يوم) هنا متعلقة بـ (خبير) قبلها ، على معنى أنهم سيُفاجئون أن الله يوم يجمعهم خبيرٌ بما عملوا ، وقد كانوا يظنّون أنْ لا شيءَ مما عملوه سيُحصَى عليهم ويقابلونه ويجدونه أمامهم يوم القيامة.

وقد قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا[1] بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠) ﴾ [آل عمران]

يعنى أنه يجد جزاءَ عمله خيراً كان أو شراً ، أما صاحب العمل الخيِّر فإنه يُثاب ويرفل فى نعيم الله ، أما ما عملتْه النفسُ من السوء فهو يود أنْ يكونَ بينه وبينه أمدٌ بعيد أى غاية بعيدة .

والبعض قال : إن (يوم) هنا ليست متعلقة بـ : ﴿ لَتُنَبَّؤُنَّ .. (٧) ﴾ [التغابن] أو خبير ، بل متعلِّقة بما دلَّ عليه الكلام والسياق الآتى والحادث بعده ، وهو تغابُن المؤمنين والكافرين وتظالمهم ، أى : تتفاوتون وتتغابنون يوم يجمعكم.

وكلُّه صحيحٌ ومُحتمل وقد لا يكون أيّ شيء من هذا ، وأنْ تكون (يوم) متعلقة بفعل محذوف هو (اذكر) أو (اذكروا) أى : اذكروا يوم يجمعكم ليوم الجمع ؛ ولكن ما لا يحتاج إلى تقدير أولى مما يحتاج ، والله أعلم .

ورسول الله ﷺ إنما أُرسلَ لينذركم هذا اليوم ، يقول تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (٧) ﴾ [الشورى]

---

(١) الأمد : الغاية . [زاد المسير لابن الجوزى ١/٣٢٢] وقال الطبرى فى تفسيره (٦/٣١٩) : يعنى غاية بعيدة . قال الشيخ رشيد رضا فى تفسير المنار (٣/٢٣٣) : « قد اختلف فى تفسير الأمد فقيل : الغاية. وقيل الأجل ، وقيل : المكان . وقال الراغب (الأصفهانى) : الأمد والأبد يتقاربان ، لكن الأبد عبارة عن مدة من الزمان ليس لها حد محدود ولا يتقيد . والأمد مدة لها حد مجهول إذا أطلق . والفرق بين الزمان والأمد أن الأمد يقال باعتبار الغاية، والزمان عام فى المبدأ والغاية .

فاذكروا يوم الجمع الذى يجمع اللهُ فيه الأولين والآخرين ﴿ هَـٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ (٣٨) ﴾ [المرسلات] فجمعناكم لموعدكم الذى كنا نعدكم فى الدنيا ، نجمع فيه بينكم وبين سائر مَنْ كان قبلكم من الأمم الهالكة .

فقد وفَّيْنا لكم بذلك ﴿ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (٣٩) ﴾ [المرسلات] فالله مُنجز لكم ما وعدكم فى الدنيا من العقاب على تكذيبكم إيَّاه بأنكم مبعوثون لهذا اليوم ، فإنْ كانت لكم حيلةٌ تحتالونها فى التخلُّص من عقابه اليوم فاحتالوا .

إنَّ كذبهم سينكشف فى هذا اليوم ، فالفاضحة قد جاءت ، والفاضحة هى القيامة ، إنها تفضح كلَّ كذَّاب مكذِّب بيوم الدين ، وتفضح كلَّ غشاش وكلَّ داعية بغير الحق .

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٥) ﴾ [آل عمران]

كيف يكون حالُهم يوم يجمعهم اللهُ للجزاء فى يوم لا ريبَ فيه ولا شكَّ فى مجيئه ، وهذا اليوم قادمٌ لا محالةَ لقيام الأدلة على وجوده ، ورغم خصومتهم لله فإنَّ الله العادل الحق لا يظلمهم ، بل سيأخذهم بمقاييس العدل .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ اللهُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا (٨٧) ﴾ [النساء]

فالله سبحانه هو القادر على الجمع والحشر يوم القيامة ، وقد أكَّد الحق سبحانه الجمع باللام ثم نون التوكيد ، ولا تظنُّوا أن الله يكذب عليهم فى هذا لأنه لا أحدَ أصدقُ من الله ، ويسوقها الله لنا بصيغة الاستفهام : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا (٨٧) ﴾ [النساء]

وعندما يأتى الخبر فى صيغة استفهام ويطلب منك اللهُ إجابة ، فالحق

سبحانـه يعلـم تمامَ العلم أنه لن يسعك إلا أنْ تجيب أن الله هو الأصدق حديثاً ، إنمـا هو سبحانه يُعطيـك الفرصة لتبحث لتقتنع أنه لا أحدَ أصدقُ من الله ، فلا تخدعنّ نفسك .

فمـا وعدكم الحقُّ سبحانه ستجدونه ، يقول تعالى : ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ[١] بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) ﴾ [الأعراف]

وقـد روى أنس بن مالـك رضى الله عنه أن رسـول الله ﷺ كان ينـادى على قليـب[٢] بـدر : يا أبا جهل بن هشام ، يا عتبة بن ربيعة ، يا شيبة بن ربيعة ، يا أميـة بـن خلف : هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ، فإنِّى وجدتُ ما وعدنى ربى حقاً . قالوا : يا رسول الله تنادى قوماً قد جيَّفوا . قال : ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون أنْ يُجيبوا»[٣] .

وكمـا يكـون الجمـعُ جمعـاً للأولـين والآخرين هـو أيضـاً جَمْـع للأتباع والمتبوعـين ، وحين يجتمعـون يتبرءون من بعضهم البعض ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً[٤] فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧) ﴾ [البقرة]

---

(١) فأذن مؤذن : أى أعلم مُعْلِم ونادى مُناد . (ابن كثير فى تفسيره ٣/٤١٧) . وقال القرطبى فى تفسيره ٧/٢٠٩) « أى نادى وصوَّت يعنى من الملائكة » . ويُروى أن طاوساً دخل على هشام بن عبد الملك فقال له : اتق الله واحذر يوم الأذان . فقال : وما يوم الأذان ؟ قال : ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) ﴾ [الأعراف] فصعق هشام فقال : هذا ذل الصفة فكيف ذل المعاينة ؟

(٢) القليب : البئر . جمعه أقلبة وقُلب . [معجم اللغة العربية المعاصرة مادة قلب] والقليب هو البئر التى لم تطو . وقيل : العادية القديمة التى لا يعرف صاحبها فائدة . [فتح البارى لابن حجر ١/٣٥٢] .

(٣) أخرجه النسائى فى سننه (٢٠٧٥) عن أنس بن مالك وصححه الألبانى . وأحمد فى مسنده (١٨٢ ، ١٢٠٣٩ ، ١٢٨٩٦) وأبو يعلى فى مسنده (٣٨٠٨) وابن أبى عاصم فى كتابه (السنة ٢٨٧٨) .

(٤) قال الطبرى فى تفسيره (٣/٢٩٣) : « يعنى بالكرَّة الرجعة إلى الدنيا . والكرة المرة الواحدة » . وقال أبو بكر الجزائرى فى (أيسر التفاسير ١/٧٠) : كرة : رجعة وعودة إلى الحياة الدنيا .

وقد أُمر رسول الله ﷺ أنْ يخاطب قومه فيقول : ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٤) قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) ﴾ [سبأ]

ثم يقول : ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٢٦) ﴾ [سبأ] فلن نطيل معكم النقاش والحجة ، لأننا نتكلم بالحق وأنتم تتلاعبون بالباطل ، فالخلاصة معكم أنْ يفصل اللهُ بيننا وبينكم فى محكمته الإلهية : ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا .. (٢٦) ﴾ [سبأ] أى : يوم القيامة .

﴿ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٥) ﴾ [الشورى]

فما دُمْنا لم نجتمع على الحق فى الدنيا فسوف يجمعنا الله جميعاً يوم القيامة للحساب ، حيث يجازى كلاً بعمله ، ويعطى كل ذى حقٍّ حقه ، وكوْنك ترد الأمر فى الحكومة إلى إله عادل فهذا دليل على أنك على الحق ، وكفى بالله حَكَماً .

والبشر إنما يفارقون الدنيا على مراحل من لدن آدم عليه السلام ، والموت يحصد الأرواح ، وقد جاء اليوم الذى يُجمع فيه هؤلاء ، وإنْ تركوا الدنيا فى أوقات مختلفة متتابعة ، فإن هذا اليوم يُجمع فيه الجميع لا يتخلف منهم أحد.

﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧) ﴾ [الكهف] أى : لم نترك منهم أحداً.

ويقول تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩) ﴾ [الكهف] وهذه هى النفخة الثانية ، فالنفخة الأولى نفخة الصعق ، أما الثانية فهى نفخة البعث والقيامة والجمع من القبور والأجداث[1].

---

(١) الأجداث : القبور . جمع جدث . والمجتدث : الذى يحفر الجدث ويكوِّم التراب عليه . [المحيط فى اللغة — الجيم والدال مع الثاء] .

يقول الحق سبحانه : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ (٥١) ﴾ [يس] والأجداث القبور ، وهم يخرجون من القبور كالخيوطِ التى نُسلتْ من القماش .

فإذا ما خرجوا من قبورهم ورأوا الحقيقة التى طالما كذَّبوها قالوا : ﴿ يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا .. (٥٢) ﴾ [يس] وعجيبٌ منهم أنْ يقولوا الآن ﴿ مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا .. (٥٢) ﴾ [يس] فمعنى أنهم كانوا راقدين فى مراقدهم، فمعنى هذا أنهم سيستيقظون من مرقدهم .

إنهم نسُوا أن الله ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٩) ﴾ [آل عمران]

فالذى يخلف الميعاد إنما تمنعه قوةٌ قاهرة تأتيه تمنعه أنْ يفعل ، أما الله فلا تأتى قوة قاهرة لتغير ما يريد أنْ يفعل ، ولا يمكن أنْ يتغير ، لأن التغيُّر ليس من صفات القديم الأزلى .

فلا يظنَّنَ كافر أو منافق أن هناك شيئاً قد ينقذه مما سيحدث فى ذلك اليوم.

ثم يقول تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ .. (٩) ﴾ [التغابن] وبه سُميت السورة ، وهو من أسماء يوم القيامة ، وهو يوم غبْن أهل الجنة أهلَ النار ، وهم يتغابنون عند الله فى المنازل فريق فى الجنة وفريق فى السعير .

فأخذ أهلُ الجنةِ الجنةَ ، وأخذ أهل النارِ النارَ على طريق المبادلة ، فوقع الغبن لأجل مبادلتهم الخير بالشر ، والجيد بالرديء ، والنعيم بالعذاب .

وهذا نراه فى حياتنا عندما نبيع ونشترى ، ويُقال فى أمثالنا لمَنْ يبيع ملكه : البائع خسران والمشترى كسبان . ولو أن ظاهر الأمر أن البائع أخذ

نقـوداً نظير عقـاره ، ولكن فى الحقيقة أن المال الذى أخـذه عُرْضة للنقصان ، بعكس مشترى العقار الذى اشترى شيئاً تزداد قيمته مع الوقت حتى وإنْ دفع فيه ثمناً غالياً .

فهـؤلاء الكافـرون باعوا منازلهـم وبيوتهم وقصورهم التـى كانت لهم فى الجنـة ، والتـى كان قـد أعدَّهـا اللهُ لهم يـوم خلقهـم ، باعوها واشـتروا الدنيا ومتعهـا ، فآلـتْ إلى أهل الجنة فزادوا نعيماً إلى نعيمهـم وتركوا مقاعدهم فى النار لمن استحقَّ النارَ يُعذب فيها .

وهـذا هو قوله تعـالى : ﴿ أُولَـٰئِكَ هُـمُ الْوَارِثُـونَ (١٠) ﴾ [المؤمنون] فالحق سبحانـه عندمـا خلق الخَلْق ، وجعـل فيهم الاختيار بين الإيمـان والكفر وبين الطاعة والمعصية رتَّب على ذلك أموراً ، فجعل الجنة على فرض أن الخَلْق كلهم مؤمنون بحيث لو دخلوا الجنة جميعاً لكان لكلٍّ منهم مكانه فى الجنة .

وكذلك جعل النـار على فرْض أن الخَلْق كلهم كـافرون ، فلو كفر النـاس جميعاً لكانَ لكلٍّ منهم مكانه فى النـار .

وعليـه فحين يدخل أهـلُ الجنةِ الجنةَ يتركون أمـاكنهـم التى لهم فى النـار ، وحين يدخل أهلُ النارِ النـارَ يتركون أماكنهم التى كانت لهم فى الجنة ، فيرث أهلُ النـار الأمـاكن الشاغرة فيها ، ويرث أهلُ الجنةِ الأمـاكنَ الشاغرة فيها .

﴿ ذَٰلِـكَ يَـوْمُ التَّغَابُنِ .. (٩) ﴾ [التغابن] أى التغابن الذى لا جبرانَ لنهايته ، وقد يحدث التغابن فى الدنيا ، وذلك ما قالـه الحسن وقتـادة : بلغنـا أن التغـابن فى ثلاثة أصنـاف :

- رجـل علـم علماً فعلّمـه وضيّعه هو ولم يعمل بـه فشقى هو ، وعمل به مَنْ تعلَّمـه منه فنجا به .

– ورجـل اكتسب مالاً من وجوه يسأل عنها وشحَّ عليه وفرَّط فى طاعة ربه بسببه ولم يعمل فيه خيراً ، وتركه لوارث لا حسابَ عليه فيه فعمل ذلك الوارث فيه بطاعة ربه .

– ورجـلٌ كان لـه عبد فعمل العبد بطاعة ربه فسعـد ، وعمل السيد بمعصية ربه فشقى .

ورُوى عن النبى ﷺ أنه قال : « إن الله تعالى يقيم الرجل والمرأة يوم القيامة بـين يديـه ، فيقول الله تعـالى لهما قولاً ، فمـا أنتما بقائلـين ؟ فيقول الرجل : يـا رب أوجبـتَ نفقتهـا علىَّ فتعسفتهـا[1] من حلال وحرام ، وهـؤلاء الخصوم يطلبون ذلك ولم يَبْقَ لى ما أوفى به . فتقول المرأة : يا رب وما عسى أنْ أقول : اكتسبـه حرامـاً وأكلتُه حلالاً ، وعصاك فى مرضاتى ولم أرْضَ له بذلك ، فبُعداً له وسُحقاً .

فيقـول الله تعـالى : قـد صدقتِ فيُؤمـر به إلى النـار ويُؤمر بهـا إلى الجنة ، فتطلع عليـه من طبقـات الجنة ، وتقول له : غبنّاك غبنّاك ، سعدنا بما شقيتَ أنت به»[2] .

فالتغابـن تفاعلٌ من الغَبْن وهو فـوْتُ الحظِّ ، والمراد بالمغبون من غُبن عن أهله ومنازله فى الجنة ، فيظهر يومئذ غبن كلِّ كافر بتركه الإيمان ، وغبن كلِّ مؤمن بتقصيره فى الإحسان .

فى ذلك اليوم يكون الناسُ فريقين ، فريق فى الجنة وفريق فى السعير ، أما فريق الجنـة فيقول تعالى عنـه: ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِـاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْـهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ

(١) العسيف : الأجير . وأعسف : إذا سار بالليل خبط عشواء . والمعنى هنا أنه سار خبط عشواء فى تحصيل ماله من الحلال والحرام .

(٢) ذكره القرطبى فى تفسيره (١٨/ ١٣٧) سورة التغابن بدون عزو ولا راوٍ بصيغة رُوى وهى صيغة تمريض تفيد الضعف . حتى أن ابن عادل فى تفسيره اللباب (١/ ٤٩٤٢) قال : روى القرطبى .

جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) ﴾ [التغابن]

فمَـنْ يؤمن بـالله أى يؤمن فى قلبه بـالله سبحانـه خـالقاً ورازقاً ومـالكاً لملْك السماوات والأرض ، خالقاً للإنسان فى أحسن صورة ، وأنه سبحانه يبعث النـاسَ جميعاً ويحشرهم ويجازيهم على أفعـالهم إنْ خيراً فخير ، وإنْ شراً فشرّ .

ثـم يضيـف إلى هذا العمـل بـالمنهج الـذى أرسله الله وأنزلـه إلى رسوله ﷺ فـى كتابـه : ﴿ وَالنُّورِ الَّذِى أَنْزَلْنَا .. (٨) ﴾ [التغابن] أى : أنه أضاف إلى إيمـانه القلبى العقلى عملاً تطبيقياً للمنهج .

وأنـت عندمـا تعمل عمـلاً صـالحاً فإنه يرجـع عليك بـالخير ، فـلا تعتقد أن العمل الصالح يخرج منك ولا يعود ، ولكنه لابدّ أن يعود عليك بـالخير .

والعمـل الصـالـح هو مـراد الله من إيمـاننـا لتستقيم حياتنـا ، فإنه لا يعمل صـالحـاً إلا إذا كان مؤمنـاً ، لذلك يقـول تعـالى : ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤) ﴾ [الروم] ولم يقل : فهو يمهد لنفسه ، فلمـاذا ؟

لأن الـذى يعمـل الصـالح لا يعود نفعه فى الدنيـا على ذاته فقط ، بل يتعدَّى نفعـه إلى المجتمع كله ويزداد صلاحـاً ويستقيم ، فلو أن كلَّ فرد عمل الصـالح ولم يفسد وترك الصـالح على صلاحه لَعمَّ الصلاح ونبتتْ نبتات طيبة ، ولحفِظَ المسلمون طاقـاتهم من إهدارهـا فى الرذيلة .

فمَنْ عمل صـالحاً سيجد صلاحَ عمله ، ومَنْ أساء فسيجد عمله السيء ، لذلك فمَنْ عمل صـالحاً يفرح بـالرجوع إلى الله ، ومَنْ عصى وكفر فهو يحزن ويخـاف ويتردد ويحـاول ألاَّ يرجع ، ولكنه يرجع رغم أنفه .

هـذا المؤمن بـالله العـامـل بـالصـالحات قد يقع فى السيئـات ، وخـالق الخَلْق

يعلم ما خلقه ، لذلك قال بعدها : ﴿ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاته .. (٩) ﴾ [التغابن]

فالحق سبحانه يذكر جزاء الإيمان والعمل الصالح : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ (٧) ﴾ [العنكبوت]

وهنا تتجلَّى العظمة الإلهية ، حيث بدأ بتكفير السيئات وقدَّمها على إعطاء الحسنات ، فالتخلية قبل التحلية ، فهو سبحانه يُكفِّر عنه سيئاته ثم يُثيبه على أعماله الصالحة بإدخاله الجنةَ .

وكأنَّ الحقَّ سبحانه يقول لعباده : اطمئنوا فسوف أُطهركم من هذه الذنوب أولاً قبل أنْ أعطيكم الحسنات ، فالإنسان بطبعه أميلُ إلى السيئة منه إلى الحسنة .

بل هناك ما هو أعظم من هذا عند الله ، ففى آية أخرى يقول سبحانه : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَـٰئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٠) ﴾ [الفرقان]

فالأمر لا يقف عند تكفيرها وتطهير المؤمن منها ، بل إن الأمر يتعدَّى هذا أنْ تُبدَّل له السيئات فتصبح حسنات ، وفى موضع آخر يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ .. (١١٤) ﴾ [هود]

وفى الحديث الشريف : « وأتبع السيئةَ الحسنةَ تمحُها»[1] .

فعطاء الله لا نهايةَ له ، ما دمتَ قد آمنتَ بالله وبرسوله وبالكتاب الذى أنزله الله على رسوله الذى وصفه الله بالنور، وهو تكفير سيئاتك وتطهيرك منها ، ثم إبدال سيئاتك حسنات ، ثم يعطيك ثواب ما عملت من العمل الصالح .

---

(١) عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن » . أخرجه الترمذى فى سننه (١٩٨٧) وأحمد فى مسنده (٢١٣٩٢، ٢١٤٤١) والبزار فى مسنده (٤٠٢٢) والحاكم فى مستدركه (١٧٨) وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . ووافقه الذهبى .

فكأنّ الله يُطهرك من ذنوبك وسيئاتك ويُكفرها عنك لتكون محلاً طيباً صالحاً لاستقبال ثواب الله ، ولتعيش فى جنته طاهراً مُطهراً قبل أنْ تدخلها ، قد حلَّتْ عليك نعمةُ الله وثوابه فتدخل مُكرّماً .

بل إن الحقَّ سبحانه سيُطهر المؤمنين من غلٍّ قلوبهم وأمراض قلوبهم يقول تعالى : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ للهِ الَّذِى هَدَانَا لِهَـٰذَا .. (٤٣) ﴾ [الأعراف]

فالمؤمنون فى الآخرة مطهرون من كلِّ نقائص الدنيا ومتاعبها، وأولها الغلّ والحقد .

وجزاء هؤلاء المؤمنين العاملين بالصالحات المطهرين من ذنوبهم وآثامهم جزاءٌ عظيم : ﴿ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ .. (٩) ﴾ [التغابن] ولم يقل : يسكنه . بل قال : يُدخله . والدخول فى ذاته هو فوز عظيم لا يدانيه فوز .

يقول تعالى : ﴿ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ .. (١٨٥) ﴾ [آل عمران] فمجرد أنْ تُزحزح عن النار فوزٌ عظيم ، فأولى درجات الفوز أنْ يُزحزح الإنسانُ عن النار ولو إلى الأعراف .

فمجرد الزحزحة عن النار نعيم ، وعندما تقول : زحزحتُ فلاناً ومعناه أنه كان متوقفاً برعب وقد رأى النار بأُم عينه وهى تُسعَّر وتُوقد وتشتعل وتحطم بعضُها بعضاً ، فإذا زحزح عنها فهذا نعيم ما بعده نعيم .

ولكن الله سيُدخله الجنة : ﴿ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ .. (٩) ﴾ [التغابن] فهى ليستْ جنة واحدة بل جناتٍ ، منها ما يخصّه ، ومنها ما يعمّ الجميع ويشتركون فيه .

ورسول الله ﷺ يقول : « موضع سَوْطٍ فى الجنة خير من الدنيا وما فيها،

اقـرأوا إنْ شئتـم : ﴿ فَمَـنْ زُحْـزِحَ عَنِ النَّـارِ وَأُدْخِـلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَـازَ .. (١٨٥) ﴾ [آل عمران]»[1] .

وهـى جنـات : ﴿ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ .. (٩) ﴾ [التغابن] ليست نـهراً واحداً ، بل هـى أنهـارٌ جارية تجرى من تحت الجنات ، وقد فصّل الحق سبحانه هذه الأنـهار ، فقـال : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى .. (١٥) ﴾ [محمد]

مـاء ولبن وخمر وعسل ، وليس هذا فقط ، بل : ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ .. (١٥) ﴾ [محمد]

هـذه الجنات وهذه الأنـهـار سيُقيمون فيهـا خالدين أبـداً ، فلن يُخرجهم من نعيـم الله أحـدٌ ، ومـا داموا هـم خـالدين فيهـا فكذلك هذا النعيـم خـالد لا ينقطع عنهم ولا يتغيَّر ولا يزول ولا ينقص .

﴿ ذَٰلِـكَ الْفَـوْزُ الْعَظِيـمُ (٩) ﴾ [التغابن] فـالفوز الـذى تحصله فى الدنيـا من إيمـانك ومن عملك الصـالح ليس هـو الفوز العظيم ، بل هنـاك مـا هـو أعظم ، وهـو مثوبـة الله لك يوم القيـامة .

فـأيُّ نعيم تُحصِّله فى الدنيا زائل ، وأيُّ جائزة أو فوْز فى الدنيا ذاهب ، أمـا فوزك يوم الجمع فـهو الفوز العظيم ، لأنـه فوزٌ ليس بعده خسران .

ثم يقول الحق سبحـانـه :

---

(١) عن سهل بن سعد الساعدى قال قال رسول الله ﷺ : « موضع سوط فى الجنة خير من الدنيا وما فيهـا» أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢٥٠ ، ٦٤١٥) وأضاف : « ولغدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها » . أما أبو هريرة فقد رواه باللفظ الذى معنا ، أخرجه الترمذى فى سننه (٣٠١٣) وقال : حسن صحيح . والحاكم فى مستدركه (٣١٧٠) وصححه على شرط مسلم ، وابن حبان فى صحيحه (٧٤١٧) وحسَّن إسناده شعيب الأرناؤط .

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝١٠﴾

حدَّثنا الحق سبحانه فى الآية السابقة فقال : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا .. (٩) ﴾ [التغابن] ثم حدَّثنا عن ثوابهم فقال : ﴿ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاته وَيُدْخِلْهُ جَنَّات تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) ﴾ [التغابن]

كذلك هنا قال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ ثم قال : ﴿ أُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٠) ﴾ [التغابن] ، فكان جزاء الذين كفروا وكذَّبوا بآيات الله أنهم أصبحوا أصحابَ النار ، يُصاحبونها وتُصاحبهم .

والناس إما مؤمنون وإما كافرون ، هكذا خلقهم الله : ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ .. (٢) ﴾ [التغابن] لذلك دائماً يُحدِّثنا القرآن عن الفريقين ، فيقول : ﴿ فَرِيقٌ فِى الْجَنَّة وَفَرِيقٌ فِى السَّعِيرِ (٧) ﴾ [الشورى]

وقد تكلَّمنا عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وعن ثوابهم ، ثم ثنَّى الحق سبحانه الكلامَ عن الذين كفروا ، فقال : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا .. (١٠) ﴾ [التغابن]

والكفر هو محاولة سَتْر وجود الله واجب الوجود ، وسَتْر وجود الله سبحانه هو إثباتٌ لوجوده ، لأنك لا تستر شيئاً غير موجود ، وهكذا يكون الكفرُ مثبتاً للإيمان .

وكيف تكفر بالله تبارك وتعالى وتستر وجوده ، وكلُّ ما فى الكون وما فى

نفسك شاهدٌ ودليل على وجود الحق سبحانه .

والذين كفروا صنفان .. صنف كفر بالله وعندما جاء الهدى حكّم عقله وعرف الحق فآمن ، والصنف الآخر مستفيد من الكفر ولذلك فهو متشبثٌ بالكفر مهما جاءه من الإيمان والأدلة الإيمانية والآيات فإنه يعاند ويكفر .

فهو يريد أنْ يحتفظ بسلطاته الدنيوية ، ونفوذه القائم على الظلم والطغيان، ولا يقبل أنْ يُجرَّد منهما ولو بالحق ، هذا الصِّنف هو الذى قال عنه الله تبارك وتعالى :
﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) ﴾ [البقرة]

إنهم لم يكفروا لأن بلاغاً عن الله سبحانه وتعالى لم يصلهم ، ولم يكفروا لأنهم فى حاجة إلى أنْ يلفتهم رسولٌ أو نبيٌّ إلى منهج الله ، هؤلاء اتخذوا الكفرَ صناعةً ومنهجَ حياة ، فهم مستفيدون من الكفر لأنه جعلهم سادة . ولأنهم متميزون عن غيرهم بالباطل ، ولأنهم لو جاء الإيمانُ الذى يساوى بين الناس جميعاً ويرفض الظلم لأصبحوا أشخاصاً عاديين غير مُميزين فى أيِّ شيء .

وهم لم يستحقُّوا أنْ يكونوا أصحابَ النار لمجرد أنهم كفروا ، بل أيضاً لأنهم:
﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا .. (١٠) ﴾ [التغابن]

هؤلاء الذين كذَّبوا بآيات الله وصفهم الله بأنهم : ﴿ صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ (٣٩) ﴾ [الأنعام] والصَّمم آفةٌ تصيب الأذن فلا تسمع ، والبكم آفةٌ تُصيب اللسانَ فلا ينطق .

ومعنى أنهم : ﴿ صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ .. (٣٩) ﴾ [الأنعام] أنهم بلا قدرة أيضاً على إبصار الهداية من أيِّ ناحية ، صُمٌّ لا يسمعون لكلمة الحق ، وبُكْم لا ينطقون ، وفى ظلماتٍ لا يهتدون إلى إدراكات الأشياء ولا إلى الإيمان .

والذين كذَّبوا بآيات الله هم إما مَنْ كذَّب الرسول فى الآيات الدالة على

صِدقِهِ وهو المبلِّغ عن الله ، وهؤلاء دخلوا فى دائرة الكفر ، وإما هم الذين كذَّبوا بآيات المنهج .

ومَنْ يكذِّب الآيات ويستكبر عن اتباع الرسول لا تُفتَّح له أبواب السماء ، يقول تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُجْرِمِينَ (٤٠) ﴾ [الأعراف]

وبذلك نعرف مَنْ هم الذين لا تُفتَّح لهم أبواب السماء ، وبطبيعة الحال نعرف أن المقابلين لهم هم الذين تُفتَّح لهم أبواب السماء ، إنهم المؤمنون . وحين تصعد أرواحهم إلى الملأ الأعلى تجد أعمالهم الصالحة تصعد وترتفع بهم إلى أعلى ، أما المكذِّبون فهم لا يترقون بل يهبطون ولا يدخلون الجنة .

وقد علّق سبحانه دخولهم الجنة بمستحيل عقلاً وعادة وطبعاً ﴿ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ .. (٤٠) ﴾ [الأعراف]

و(سَمّ الخياط) هو ثُقب الإبرة ، أى : الذى تُدخل فيه فتلة الخيط ، ولا تدخل فتلة الخيط فى الثقب إلا أنْ يكون قُطر الفتلة أقلَّ من قطر الثقب ، وأنْ تكون الفتلةُ من الصلابة بحيث تنفذ ، وأنْ تكونَ الفتلةُ غير مستوية الطرف ، لأنها إنْ كانت مقصوصة وأطرافها مستوية فهى لا تدخل فى الثقب ، لذلك نجد الخياط يجعل للفتلة سِناً ليُدخلها فى ثقب الإبرة .

وحين تأتى بالجمل وتقول له : ادخل فى سمِّ الخياط فهل يستطيع ؟ طبعاً لا ، لذلك نجد الحق سبحانه قد علَّق دخول هؤلاء الجنةَ على مستحيل .

والذين كذَّبوا بآيات الله الكونية ولم يعتبروا بها ولم يستنبطوا منها وجود إله قوى قادر حكيم ، وكذبوا الآيات المعجزات لصدق النبوة ، وكذلك كذَّبوا آيات القرآن فلم يعملوا بها ولم يتمسَّكوا بها ، هؤلاء يلقون الحكم من الله فلن

يُدخلهم الحقُّ الجنة .

وإذا كان مشركو قريش قد كفروا بآيات الله ، فلماذا يكفر أهل الكتاب الذين يؤمنون بوجود الله ، ونزلتْ عليهم الكتب السابقة ، لذلك يقول سبحانه وتعالى لرسول الله: ﴿ قُلْ يَـأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَـاتِ اللهِ وَاللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ (٩٨) ﴾ [آل عمران]

فكفرهـم بآيـات الله ليس سَتْراً أولياً لها ، إنما هـم آمنوا بالله وآمنوا بأن له آيات ، وكانت البشارات بالإسلام وبمحمد ﷺ مكتوبةً فى التوراة ومكتوبة فى الإنجيل ، وهم قد آمنوا بها قبل أنْ يجيء سيدنا رسول الله ، فلما جاء رسول الله بالفعل كفروا بها .

وفى هذا جاء القول الكريم : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ[1] عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) ﴾ [البقرة]

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ يَـأَهْلَ الْكِتَـابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَـاتِ اللهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠) ﴾ [آل عمران]

إن الحق يسألهم على لسان رسوله ﷺ : لم تكفرون بآيات الله العجيبة وأنتم تشهدون ؟ لقد كانوا يستفتحون على مَنْ يقاتلونهم بمجيء نبى قادم .

إنهـم كانوا يدعون الله قائلين : إنّا نسألك بحقِّ النبى الأمى الذى وعدتنا أنْ

---

(١) أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وأبو نعيم والبيهقى كلاهما فى الدلائل من طريق عاصم ابن عمر بن قتادة الأنصارى حدثنى أشياخ منا قالوا : لم يكن أحد من العرب أعلم بشأن رسول الله ﷺ منا ، كان معنا يهود وكانوا أهل كتاب وكنا أصحاب وثن وكنا إذا بلغنا منهم ما يكرهون قالوا : إن نبياً يُبعث الآن قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم . فلما بعث الله رسوله اتبعناه وكفروا به ، ففينا والله وفيهم أنزل الله ﴿ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) ﴾ [البقرة] أورده السيوطى فى [الدر المنثور ٤٥٦/١] .

تُخرجـه لنا فى آخر الزمان إلا تنصرنـا عليهم ، فكانوا يُنصرون على أعدائهم فلما بُعث ﷺ كفروا به بغياً وحسداً .

لقد كفروا من أجل السلطة الزمنية ، فقد كانوا يريدون المُلْك والحكم ، وهؤلاء لم يلجئوا فقط لمجرد التكذيب ، بل قاموا بتحريف ما بأيديهم من الكتب الدالة على صحَّة نبوة رسول الله .

وصنـف آخر كذَّب بالبعث والحشر يـوم القيامة ثم الحساب والجزاء ، وكذَّب بآيـات الله الظاهـرة للعيان فى الكـون ، والتى تدلُّ بذاتها علـى قدرة الله على البعث والإعادة .

وهـؤلاء ذكرهم فى السورة التـى معنا ، فقال تعالى : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا .. (٧) ﴾ [التغابن] هؤلاء أكَّد الحقُّ سبحانه لهم ﴿ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ .. (٧) ﴾ [التغابن]

هـؤلاء لـن يدخلوا فقط النـار ، بل سيُصبحـون هم أصحابهـا ، سيُصبحون أصحـابَ دار كمـا نقول فى الريف ، فبئس الـدارُ دارهم ، دارُ نار وسعير وزقّوم وعويل وصياح وصديد وسلاسل وقيود واحتراق أجساد .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (٥٦) ﴾ [النساء]

فالحـق يُـديم عليهم الحيـاة ليُديم عليهـم التعذيب ، إنهـم سيذوقون العذاب بأمـر من الحق دائمـاً وأبداً ، وقد توصَّـل العلم إلى أن الإنسـان تقلُّ حساسيته لـلألم الناتج من الضرب بالسوط بعد العشرين سوطاً الأولى ، وهو بذلك ينسى أن العذاب فى الآخرة على نمط آخر .

إن الله يخلق للمعذّب إحساساً جديداً ليظلَّ مُستشعراً دائماً العذاب ، قال تعالى: ﴿ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٨) ﴾ [آل عمران]

وهكذا يستمر العذاب باستمرار الجلود وتبديلها ، والمعروف عن النار أنها تأكل ما فيها ثم تنتهى ، أما هذه النار فلا نهايةَ لها ، فكلما نضجتْ جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ، وهكذا تظلُّ النارُ متوقدة لا تنطفيء .

ثم يُحدِّثنا الحق سبحانه عن هؤلاء الذين كفروا وكذَّبوا بآيات الله ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ .. (١٠) ﴾ [التغابن]

والحق سبحانه جمع الكافرين والمكذبين بآيات الله فى عقاب واحد ، فقال: ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ .. (١٠) ﴾ [التغابن] والصاحب هو الذى يألف صاحبه ويحب أنْ يجلس معه ويقضى أجمل أوقاته .

فكان قوله تعالى ﴿ أَصْحَابُ النَّارِ .. (١٠) ﴾ [التغابن] دليلاً على عشق النار لهم فهى تفرح بهم عندما يدخلونها ، كما يفرح الصديق بصديقه ولا تريد أنْ تفارقهم أبداً ، ولذلك اقرأ قول الحق سبحانه : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (٣٠) ﴾ [ق]

وهكذا نرى مدى العشق بين النار والكافرين ، إن النار تصاحبهم فى كلِّ مكان ، وهى ليستْ مصاحبة كريمة بالنسبة للنار ، ولكنها مصاحبة تحبُّها النار ، فالنار حين تحرق كل كافر وآثم ومنافق تكون سعيدة لأنها تعاقب الذين كفروا بمنهج الله وكذَّبوا بآياته فى الحياة الدنيا .

وكذلك الحال بالنسبة للجنة . فإن الجنة أيضاً تحب مصاحبة كلِّ مَنْ آمن بالله وأخلص له العبادة وطبَّق منهجه ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

وَأَخْبَتُوا[1] إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣) ﴾ [هود]

أى أن الجنة تصاحب المؤمنين وتحبهم وتلازمهم مثلما تصاحب النار الكافرين والمكذِّبين ، وكما أن النار تكون سعيدة وهى تحرق الكافر فالجنة تكون سعيدةً وهى تُمتع المؤمن .

فـ ﴿ أَصْحَابُ النَّارِ .. (١٠) ﴾ [التغابن] يعنى : أنْ يصاحب ويلازم المذنب النارَ كما يصاحب ويلازم الإنسانُ منا صاحبه، لأن النار على إلْفٍ بالعاصين، وهى التى تتساءل ﴿ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (٣٠) ﴾ [ق]

فالصُّحبة تقتضى نوعاً من الملازمة فيها تجاذبُ المتصاحبين ، ومعنى ذلك أنه سيكون هناك تجاذبٌ بينهم وبين النار .

وكلمة (صاحب) تُطلق على مَنْ تعرفه معرفةً تروق كيانك وذاتك، فهناك مَنْ تصاحبه ، وهناك مَنْ تصادقه ، وهناك مَنْ تؤاخيه ، وهناك مَنْ تعرفه معرفةً سطحية ولا تقيم علاقةً عميقة معه .

إن المعرفة مراتب والصحبة تآلفٌ وتجاذبٌ بين اثنين ، ومَنْ يصاحب النار فهو مَنْ تعشقه النار ويعشق هو النار .

وهناك أيضاً ﴿ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٠) ﴾ [المائدة] فقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ .. (١٠) ﴾ [المائدة]

وحين نسمع قوله تعالى : ﴿ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ .. (١٠) ﴾ [المائدة] تتزلزل النفوس رهبة من تلك الصُّحبة التى نبرأ منها ، فالصُّحبة كما قلنا تدلُّ على التلازم وتعنى الارتباط معاً ، وألاّ يتركَ أحدُهما الآخر ، كأن الجحيمَ لا تتركهم وهم لا يتركون الجحيم ، بل تكون الجحيمُ نفسُها فى اشتياق لهم .

(١) ورد فى معنى (أخبتوا) سبعة معان : خافوا ربهم ، أنابوا إلى ربهم ، وثابوا إلى ربهم ، اطمأنوا ، أخلصوا ، تخشّعوا لربهم ، تواضعوا لربهم . أوردها ابن الجوزى فى زاد المسير ٣/٣٣٣ .

وللجحيم يوم القيامة عملان ، العمل الأول الصحبة التى لا يقدر الكافر على الفكاك منها ، والثانى لا تترك الجحيمُ فرصةً للكافر ليفكّ منها . ولأن النار تعشق هؤلاء الكافرين وتنتظرهم ، قال تعالى : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا[1] حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا .. (٧١) ﴾ [الزمر] أما أهل الجنة وأصحابها فيقول سبحانه : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا .. (٧٣) ﴾ [الزمر]

فالنار تُفتّح أبوابها بمجرد ورود الكفار مُساقين إلى النار زمراً وجماعات، وكما نقول نحن : من الدار للنار .

أما أهل الجنة فهناك حفلُ استقبال لهم وتكريم على أبواب الجنة ، فجاءت الواو ﴿ وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا .. (٧٣) ﴾ [الزمر] مُشعرةً بأنّ أبوابَ الجنة تُفتح على تُؤدة ومهل للاحتفاء بالأبرار الوافدين لتستقبلهم الملائكةُ على أبواب الجنة، أما الذين كفروا وكذَّبوا بآيات الله الذين هم أصحاب النار فيُؤخذون من الموقف العظيم المهول إلى تنفيذ العقوبة عليهم فوراً ، بل إنهم يُدفعون دَفْعاً ويُزجرون زَجْراً .

يقول تعالى : ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) ﴾ [الطور] أى يوم يُدفعون إلى نار جهنم دفعاً ، ويُساقون إليها سَوْقاً عنيفاً ، ويُجرُّون على وجوههم ويُقال لهم توبيخاً ولوْماً ﴿ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) ﴾ [الطور] فاليوم ذوقوا عذاب الخُلْد الذى لا يبلغ قدره ولا يُوصف أمره .

والدَّع هو الدفْع بعنف وجفْوة ، والمعنى أنهم يُدفعون إلى النار دفعاً عنيفاً شديداً ، وقال مقاتل : تُغلّ أيديهم إلى أعناقهم ، وتُجمع نواصيهم إلى أقدامهم ، ثم يُدفعون إلى جهنم دفْعاً على وجوههم .

---

(١) زمراً : جماعات . وقال ابن كثير فى تفسيره (٧/١١٩) : أى جماعة بعد جماعة . وقال البغوى : أفواجاً بعضها على إثر بعض : كل أمة على حدة . وقال السعدى : أى فرقاً متفرقة كل زمرة مع الزمرة التى تناسب عملها وتشاكل سعيها .

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا .. (١٠) ﴾ [التغابن] هو قطعٌ لأمل هؤلاء الكافرين المكذِّبين لآيات الله في أنْ يخرجوا من هذا العذاب ، إنه الخلود الذي لا يفنى ، ولا يتركه الإنسانُ ولايترك هو الإنسان .

فهم أصحاب النار تلازمهم ويلازمونها ، فلا هي تزولُ عنهم ولا هم يُزحزحون عنها .

ولكن هل الخلود هو المكْث طويلاً أو على طريقة التأبيد ؟ بمعنى أن زمن الخلود لا ينتهي ، ولو أن زمن الخلود لا ينتهي لَمَا وصف الحق سبحانه المكث في النار مرةً بقوله : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا .. (٨٨) ﴾ [آل عمران] ومرة أخرى بقوله : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا .. (١٦٩) ﴾ [النساء]

هذا القول يدلُّ على أن لفظ التأبيد في « أبداً » فيه ملحظٌ يزيد على معنى الخلود دون تأبِيد ، وإذا اتحد القولان في أن الخلود على إطلاقه يفيد التأبيد ، وأن ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا .. (١٦٩) ﴾ [النساء] تفيد التأبيد أيضاً ، فمعنى ذلك أن لفظ « أبداً » لم يأتِ بشيء زائد ، والقرآن كلامُ الله ، وكلامُ الله مُنزَّه عن العبث أو التكرار .

إذن : لابد من وقفة تفيدنا أن الخلود هو المكْث طويلاً ، وأن الخلود أبداً هو المكث طويلاً طُولاً لا ينتهي ، فكلُّ لفظٍ في القرآن محكم وله معنى .

ثم إن كلمة (خالدين) حين وردتْ في القرآن فإننا نجد الحقَّ سبحانه وتعالى يقول في خلود النار : ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ[1] وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (١٠٧) ﴾ [هود]

---

(١) زفير وشهيق : أي صوت شديد وهو الزفير ، وصوت ضعيف وهو الشهيق . قاله أبو بكر الجزائري في تفسيره (أيسر التفاسير) . وقال السمرقندي في بحر العلوم (٢/ ٣٥٥) : قال الربيع بن أنس : الزفير في الحلق والشهيق في الصدر . وروى عن ابن عباس أنه قال : زفير كزفير الحمار وهو أول ما ينهق الحمار والشهيق ، وهو أول ما يفرغ من نهيقه في آخره . معناه : أنيناً وصراخاً .

ولم يقُل الحقُّ سبحانه بالخلود فى النار أبداً إلا فى ثلاث آيات فقط فى القرآن الكريم :

فى قوله تعالى : ﴿ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٦٩) ﴾ [النساء] ، وقوله جلَّ جلاله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٦٥) ﴾ [الأحزاب] ، وقوله جلَّ جلاله : ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (٢٣) ﴾ [الجن]

وقال رسول الله ﷺ : « يُؤتى بالموت كهيئة كبش أملح[١] ، فينادى مُنادٍ : يا أهل الجنة فيشرئبون وينظرون . فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم هذا الموت . وكلهم قد رآه .

ثم ينادى : يا أهل النار فيشرئبون وينظرون ، فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم هذا الموت . وكلهم قد رآه ، فيُذبح .

ثم يقول : يا أهلَ الجنة خلودٌ فلا موت . ويا أهلَ النار خلودٌ فلا موت »[٢].

ثم قرأ ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ .. (٣٩) ﴾ [مريم]

وهؤلاء فى غفلة أهل الدنيا ﴿ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ .. (٣٩) ﴾ [مريم]

فتجسيد الموت فى صورة كبْش معناه أن للموت كينونةً ، ويُعلمنا الله أنه يقضى على الموت فنحيا فى خلود بلا موت ، فالله يجسد الموت أمامهم كهيئة كبش أملح ، فيشرئب أهل الجنة وأهل النار ناظرين إلى هذا الذى جِيءَ به

---

(١) الكبش الأملح هو الذى فى أطراف صوفه بياض يشتمل على سائر جسده [الاشتقاق لابن دريد ١٢/١] قال الكسائى وأبو زيد : الأملح الذى فيه بياض وسواد ويكون البياض أكثر . [ابن منظور فى لسان العرب – مادة : ملح] .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧٣٠) ومسلم فى صحيحه (٧٣٦٠) وكذا أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٣١٦٥) .

فيرونـه ويتحققـون منه أنه الموت. فيذبحه الله أمامهم ، وهذا قطْعٌ لأمل الذين كفروا فى النجاة مما هم فيه من العذاب ، فالموتُ قد مات .

والحق سبحانه كما أثبتَ الخلود فى النار لهؤلاء الكافرين الذين كذَّبوا بآيات الله ، فهو سبحانه قطع أملهم أيضاً فى تخفيف العذاب عنهم أو حتى النظر فى أمرهم ، أو إليهم ، سواء كان نظراً حقيقياً أو نظر رحمة .

يقول تعالى : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ (١٦٢) ﴾ [البقرة] فلا يجب أنْ يعيشوا على أمل أن العذابَ فى الآخرة سيُخفف عنهم أو ستقلّ درجته أو تنقص مدته ، أو سيأتى العذاب يوماً ولا يأتى يوماً .

فالإنسان عندما يُعذَّب بشيء ، فإن تكرارَ العذاب عليه ربما يجعله يألف العذاب، ولكن الواقع يقول : إن العذابَ يشتد عليه ، فالتخفيف لا علاقةَ له بالزمن.

فالعذاب يظلّ دائماً أبداً ، وقد يظنُّ بعض الناس أن الكافر ما دام سيدخل النار ويحترق فسوف ينتهى أمره ، لا إنه يغفل قضية ويذكر قضية ، إنه يتناسى قوْلَ الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ[1] نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (٥٦) ﴾ [النساء]

وعذابهم مؤكد ولا يتركهم الحق ليستريحوا من عذابهم ، وقد قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ (٤٩) ﴾ [غافر]

ويقول تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ (٨٦) ﴾ [البقرة] ولا يملك أحدٌ تخفيفه . ويقول تعالى أيضاً : ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ (٧٧) ﴾ [الزخرف]

فأصحاب النار ينادون مالكاً خازنَ النار ﴿ يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ .. (٧٧) ﴾

(١) سوف نصليهم : سوف ننضجهم فى نار يُصلوْن فيها أى يشوون فيها [الطبرى فى تفسيره (٨/ ٤٨٤) وقال البغوى فى تفسيره : ندخلهم ناراً . قال السمرقندى (١/٣٩٣) يقال : صلى إذا دخل النار لأجل شيء وأصلاه إذا أدخله للاحتراق . والاصطلاء بالنار الاستدفاء .

[الزخرف] يعنى : بالموت لنستريح مما نحن فيه من العذاب الدائم الذى لا ينتهى .

﴿ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ (٧٧) ﴾ [التغابن] أى : باقون فى النار خالدون فيها لأنه لاعذر لكم . وهكذا قضى الله الأمرَ ليقطع الأملَ على الكفار الذين قد يظنون أن الموت سيأتى ليُخرجهم مما هم فيه من العذاب ويُريحهم ، فقطع الله عليهم هذا الأمل وآيسهم منه ، حيث جاء بالموت مُشخَّصاً وذبحه أمامهم، فلا موتَ بعد الآن ، فقد مات الموت .

لذلك وصف الحق سبحانه مصيرهم هذا بأنه ﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٠) ﴾ [التغابن] والمصير هو المرجع الأخير لأى شيء ، ومعنى ﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٠) ﴾ [التغابن] أى : ساءتْ نهايتكم ومرجعكم . وهى تُستعمل لذمٍّ وتقبيح الشيء . فحين تكون النار هى المأوى الأخير الدائم ، أليس ذلك هو بئس المرجع ؟

إنهم لم يجدوا منفذاً إلا أنْ يدخلوا جهنم ، وهى بطبيعة الحال بئس المصير.

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ
ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ
بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾

لاشيء يخرج عن تقدير الله ، وقد جفَّ القلم على ما كُتب ، وعلى ما قُدر ، فلا يستطيع أحدٌ أنْ يتأبَّى على الله إذا أراد أنْ يُمرضه أو يُفقره أو يُميته .

فليس فى كوْن الله شيءٌ يستطيع الخروج عن مرادات الله ، وما دُمْتَ لا تقدر فلتخضع راضياً وتكسب الأمر ، وتأخذ الصبر على مقادير الله ، لتذوق

وتستعذب طعم الإيمان بأنَّ الله عليم ، وأنه حكيم وأنه قادر .

وقال عبادة بن الصامت[1] لابنه : يا بُنى إنك لن تجد طعمَ حقيقة الإيمان حتى تعلم أنَّ ما أصابك لم يكُنْ ليُخطئك ، وما أخطأك لم يكُنْ ليصيبك . سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « إن أول ما خلق اللهُ القلم فقال له : اكتب . قال : ربِّ وماذا أكتب ؟ قال : اكتب مقادير كلِّ شيء حتى تقوم الساعة . يا بُنى إنى سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ مات على غير هذا فليس منى »[2] .

والحق سبحانه يقول هنا : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١) ﴾ [التغابن]

فبعد أنْ ذكر الحقُّ سبحانه ثوابَ مَنْ آمن ، فقال : ﴿ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) ﴾ [التغابن]

ثم ذكر سبحانه جزاء من كفر ، فقال : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٠) ﴾ [التغابن]

أراد الحقُّ سبحانه أنْ يوضح لنا عناصر هذا الإيمان الذى طلبه من الناس ﴿ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِى أَنْزَلْنَا وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨) ﴾ [التغابن]

إيمانٌ بالله ، وإيمانٌ برسوله ، وإيمانٌ بالكتاب الذى أُنزل معه وهو القرآن، ثم إيمانٌ بالقدر ، لذلك قال تعالى هنا : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ .. (١١) ﴾ [التغابن]

---

(١) هو : عبادة بن الصامت بن قيس الأنصارى الخزرجى أبو الوليد ، صحابى ، ولد ٣٨ قبل الهجرة . من الموصوفين بالورع ، شهد العقبة وكان أحد النقباء وبدراً وسائر المشاهد ، ثم حضر فتح مصر ، وهو أول من ولى القضاء بفلسطين ومات بالرملة أو ببيت المقدس عام ٣٤ هجرية عن ٧٢ عاماً ، كان من سادات الصحابة . [الأعلام للزركلى ٣/٢٥٨] .

(٢) أخرجه أبو داود فى سننه (٤٧٠٢) والبيهقى فى السنن الكبرى (٢١٤٠٠) والطبرانى فى مسند الشاميين (٥٩) والبيهقى فى القضاء والقدر (٨) وأبو نعيم الأصفهانى فى حلية الأولياء (٥/٢٤٨) عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه .

وقد روى عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجلٌ شديدُ بياضِ الثياب . شديدُ سواد الشعر لا يُرى عليه أثرُ السفر ، ولا يعرفه منّا أحدٌ ، حتى جلس إلى النبى ﷺ ، فأسند رُكْبتيه إلى رُكبتيه ، ووضع كفَّيه على فَخِذيه .

قال : يا محمد أخبرنى عن الإيمان ، فقال رسول الله ﷺ : أنْ تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره قال : صدقتَ »[1] .

فهناك أشياء تجرى على الإنسان لا اختيارَ له فيها كأنْ يمرض ولا يقدر أنْ يقول : لا لن أمرض . أو قد يأتيه الموتُ فلا يقدر أنْ يقول : لن أموت .

وقد يهلك ماله أو تحترق داره فلا يستطيع رفْع القدر ، والمصائب هى من قَدر الله عزَّ وجل ، وهى تأتى لإفادة المؤمن ، فالمؤمن حين يُصاب إمَّا أنْ يُكفّر الله عنه ذنباً ، وإمَّا أنْ يرفعه درجةً .

فإنْ استقبل المؤمن المصيبةَ بالرضا وعلم أنَّ الذى أجراها عليه حكيم ولا يجرى عليه إلا ما يعلم سبحانه أنه الخير وإنْ لم يعلمه المصاب ، فهو ينال الثواب على الصبر والأجر على الرضا ، وهكذا يخرج من دائرة الألم العنيف .

فالمؤمن يستقبل كلَّ قدر الله عليه بالرضا ، فالذى يُجرى عليه القدر ما دام لم يأمره بما لم يقع فى اختياره فهو حكيم ، ولا يُجرى سبحانه عليه إلا ما كان فى صالحه ، وبعد أنْ ترضى النفس بما أجرى عليها تعرف الحكمة .

فلو أحسنتَ استقبال القدر فيما يمرُّ بك من أحداث ، لعلمتَ تقصيرك فيما لك فيه دخْلٌ بأىِّ حادث وقع عليك نتيجة لعملك ، أما ما وقع عليك ولا دخْلَ لك

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣٦٧) والنسائى فى سننه (٤٩٩٠) والطيالسى فى مسنده (٢١) والبيهقى فى سننه الكبرى (٢١٣٩٣) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وهو حديث جبريل يسأل عن الإسلام والإيمان والإحسان وقد كان على هيئة بشرية .

فيه فهذا من أمر القدر الذى أراده الحق لك لحكمةٍ قد لا تعلمها وهى خيرٌ لك .

إذن : استقبال القدر إنْ كان من خارج النفس فهو لك ، وإنْ كان من داخل النفس فهو عليك ، ولو قمتَ بإحصاء ما ينفعك من وقوع القدر عليك لوجدته أكثَر بكثير مما سلبه منك .

فعلى الإنسان المؤمن أنْ يكون موصولاً بالمسبِّب الأعلى وأنْ يتوكل عليه سبحانه وحده ، وأنْ يعلم أن التوكل على الله يعنى أن تعمل الجوارحُ ، وأنْ تتوكلَ القلوب ، لأنّ التوكلَ عملُ القلوب وليس عمل القوالب .

ولينتبه كلٌّ منَّا إلى أن الله قد يُغيِّب الأسباب كى لا نغتر بها ، وبذلك يعتدل إيمانك به ويعتدل إيمان غيرك ، فتسجد لله شكراً ، مُتقبِّلاً قضاء الله وقدره .

ولهذا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ واللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ (٢١٦) ﴾ [البقرة]

وهكذا نجد أن مَنْ يقبل قدرَ الله فيه ، ويذكر أنَّ له رباً فوق كل الأسباب فالاطمئنان يعمر قلبه أمام أىِّ حدث مهما كان .

والمسلم إذا استسلم لقضاء الله ورضى بقدره فسوف يجنى ثمار هذا الاستسلام ، والذى يُطيل أمد القضاء على الناس أنهم لا يرضوْن به ، والحقُّ تبارك وتعالى لا يُجبره أحد ، فالقضاء نافذ نافذ ، رضيتَ به أم لم ترْضَ .

وحين تُسلِّم لله وترضى بقضائه يرفعه عنك ، أو يُبين لك وجه الخير فيه . إذن : عليك أنْ تحترم القدر وترضى به ، لأنه من ربك الخالق الحكيم ، ولا يُرفع قضاءُ الله عن الخَلْق حتى يرضوا به .

وكثيراً ما نرى اعتراض الناس على قضاء الله خاصة عند موت الطفل الصغير ، فتراهم يُكثرون عليه البكاء والعويل ، يقول أحدهم : إنه لم يتمتع بشبابه .

ونعجب من مثل هذه الجهالات : أىّ شباب ؟ وأية متعة هذه ؟ وقد فارق فى صِغَره دنيا باطلة زائلة ، ومتعة موقوتة إلى دار باقية ومتعة دائمة ؟ كيف وقد فارق العيش مع المخلوق ، وذهب إلى رحاب الخالق سبحانه ؟

وحين تجرى عليك الأقدار المؤلمة فيكفيك للصبر عليها أنْ تعلم أنها حكمة لله ، ويكفيك أنْ مُجريها عليك ربُّك .

وإذا أيقن المصابُ أنَّ ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ .. (١١) ﴾ [التغابن] فلا بدّ أنْ يرجع إلى الله ، يقول تعالى عمن أصيب ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) ﴾ [البقرة]

والمصيبة هى الأمر الذى ينال الإنسان منه المشقة والألم ، وهى مأخوذة من إصابة الهدف ، والمؤمن يستقبل المصيبة واثقاً أنها على قدْر إيلامها يكون الثوابُ عليها .

ومعنى قولهم ﴿ إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) ﴾ [البقرة] أى نحن مملوكون لله ونحن راجعون إليه ، وحتى إنْ كان فى مصائب الدنيا ظلْم لنا وقع علينا من إنسان ، فسوف نأخذ ثوابَ ما ظُلمنا فيه عند الرجوع إلى الله .

إذن : فنحن لله ابتداء بالملكية ، ونحن لله نهاية فى المرجع ، هو سبحانه ملك القوسين الابتداء والانتهاء ، ولذلك علَّمنا رسولُ الله ﷺ عند أىِّ مصيبة تصيب الإنسان أنْ نسترجع ، أى أنْ نقول ﴿إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) ﴾ [البقرة]

وزادنا أيضاً أنْ نقول : « اللهم أجِرْنى فى مصيبتى واخلُفْ لى خيراً منها»[1]

---

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (٢١٦٥) عن أم سلمة رضى الله عنها أنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم أجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيراً منها ، إلا أخلف الله له خيراً منها » وكذا أخرجه أحمد فى مسنده (١٦٣٨٨، ٢٦٦٧٧) والبيهقى فى السنن الكبرى (٧٣٧٦) .

إنـك إذا ما قلتهــا عند أى مصيبة تصيبك فلا بدَّ أنْ تجد فيما يأتى بعدها خيراً منها .

والمؤمن قد يُصاب فى عزيز لديه ، ثم يقف موقفاً إيمانياً فى استقبال هذه المصيبة ويقول : « إن حزنى لن يرده فالأفضل أنْ أكسب به الجنة » .

ويزيـد علـى ذلك : يكفينـى عزاءً الأجر عليـه ، فأنا لم أكُنْ سآخذ منه طيلة حياته مثل الأجر الذى سآخذه فى صبرى على مصيبتى فيه .

فـإذا مـا أُصيب الإنسـان بمصيبة فما عليه إلا أنْ يرضـى ويقول : ما دامت هـذه المصيبة لا دخْـلَ لحركتى فيهـا وأجراها علىَّ خالقى فهـى اختبارٌ منه سبحانه .

فمَنْ تحدُث له مصيبة بأنْ يموت ولد له ، ويظل فاتحاً لباب الحزن فى البيت وتبكـى الأم كلما رأتْ مَنْ فى مثل سِنّه فسيظل باب الحزن مفتوحاً، وإنْ أرادوا أنْ يزيل الله عنهما هذا الابتلاء فليقفلا باب الحزن بالرضا .

وليعلـم كل مؤمن أنَّ ما أُخذ منه هو مُعوَّض عنه بأجر خير منه ، والمأخوذ الذى قبضه الله إليه وتوفاه معوَّض بجزاء خير مما يترك فى الدنيا .

ولذلـك يُقال : المصـاب ليس مَنْ وقعت عليه مصيبـةٌ وفارقه الأحباب ، بل المصاب مَنْ حُرم الثواب[1] ، فكأنه باع نكبته بثمن بخس .

فصاحب المصيبة حين يستحضر الجزاء عليها إنما يحيا فى متعة ، ولذلك لا تتعجب حين يحمد أناسٌ خالقهم على المصائب ، لأن الحمد يكون على النعمة ، والمصيبة قد تأتى للإنسان بنعمة أوسع مما أفقدته .

---

(١) أخرج البيهقى فى سننه الكبرى (٧٣٤٢) عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال : لما توفى رسول الله ﷺ وجاءت التعزية سمعوا قائلاً يقول : إن فى الله عزاء من كل مصيبة وخلفاً من كل هالك ودركاً من كل ما فات فبالله فثقوا وإياه فارجوا فإن المصاب من حُرم الثواب . وقد أخرجه الحاكم فى مستدركه (٤٣٩١) وصححه ووافقه الذهبى .

فعليك أنْ تستقبل هذه المصيبة بالرضا ، وإياك أنْ تفصل المصيبة عن مُجريها وفاعلها ، بل تأمل ما يعقبها من الخير ، ولا تفصل المصيبة عن مجريها عليك ولا تقنط .

فالقنوط عند المصيبة لا محلّ له ، ولو ربطتَ المصيبة بمجريها لعلمتَ أنه حكيم ، ولابد أنْ تكون له حكمةٌ قد تغيب عنك الآن ، لكن إذا أدرْتَ المسألة فى نفسك فسوف تصل إلى هذه الحكمة .

والمصيبة لا تصيب أحداً إلا بإذن الله ، فلا يجرى فى مُلْك الله شيء لايريده الله .

لذلك يقول تعالى : ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا .. (٥١) ﴾ [التوبة] فإنه لن يحدث لنا إلا ما كتبه الله لنا . والحق سبحانه قال : ﴿ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا .. (٥١) ﴾ [التوبة] ولم يقُلْ : ما كتب اللهُ علينا .

وعندما نتأمل هذا نجد هذه المسألة ستكون لحسابنا ، وسنأخذ عليها حُسن الثواب من الله . ولم يقُل الحق : كتب اللهُ علينا لأنها لو كانت كذلك لكانَ معناها أنها جزاءٌ وعقابٌ من الله .

فالمؤمن يستقبل كلَّ مصيبة متوقعاً أنْ يأتى له منها خير ، وما دُمْنا لا نستطيع أنْ نمنع وقوع المصائب والأحداث فلنقبلها كمؤمنين .

وهو سبحانه الذى كتب لنا ، وهذا يُشعرنا أن المصيبة تقع لمصلحة مَنْ يُصاب بها ، فإنْ رأيتم مصيبةً قد نزلت بنا وظننتم أنها تُسيئنا فاعلموا أننا نثقُ فيمَنْ أجراها ، وأنه أجراها لحكمة تأديبية لنا ، وأنَّ كل شيء مكتوبٌ لنا لا علينا .

فكلُّ ما كتبه الله هو لصالح المؤمنين به ، إما أدباً وإما ثواباً ، وإما ارتقاءً فى الحياة ، ولذلك فهو خير .

وقولـه تعـالى : ﴿ إِلَّا بِـإِذْنِ اللهِ .. (١١) ﴾ [التغابـن] فكـوْن المصيبة لا تقع بـالإنسـان إلا بإذنـه سبحـانه ، وهذا محض نعمة من الله لأنـه ينقذ الإنسانَ من التذلُّل للآخرين ، فهؤلاء الآخرون لا يستطيعون الإضرار به إلا إذا كان هذا مما كتبه الله .

وهـذا تأكيـد لما قالـه رسول الله في الحديث النبوى الشريـف : « إذا سألتَ فاسـأل الله ، وإذا استعنـتَ فاستعِـنْ بالله ، واعلم أن الأمـةَ إذا اجتمعتْ على أنْ ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أنْ يضروك فلن يضروك إلا بشيء قد كتبه اللهُ عليك ، رُفِعت الأقلامُ وجفَّتْ الصُّحف »[1].

ثم يقول الحق سبحـانه : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ .. (١١) ﴾ [التغابن] ومن عظمـة الإيمان أن الإنسان حين يؤمـن بالله وتخلُص النية بهذا الإيمـان ، وبعد ذلك جاء قدر الله بما لا يحبه الإنسان تجد هذا الإيمان يهدى قلبه .

ويهدى أى يدل ويرشد ويُبين ويُوضح ، هذه هداية الدلالة ، وهناك هداية التوفيق والمعونة ، وهو المعنى الأرجح هنا : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ .. (١١) ﴾ [التغابن]

أى يوفـق قلبـه ويُعينـه علـى تقبُّل قـدر الله وقضـائـه فيما قـد يصيبه من المصائب ، والله هو الهادى ونحن المهديون والغاية هى الصراط المستقيم .

فللاهتـداء سبيلٌ واحد لا غير هو منهجُ الله تعالى ، وصراطه المستقيم الذى يجعله صابراً محتسباً راضياً .

وقـد فسَّر حَبْر الأمة وترجمـان القرآن عبد الله بن عباس قوله : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ .. (١١) ﴾ [التغابـن] يعنى : يهد قلبه لليقين ، فيعلم أنَّ ما أصابه لم يكُنْ ليُخطئه ، وما أخطأه لم يكُنْ ليُصيبه .

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٥١٦) وقال : حسن صحيح . وأخرجه أحمد فى مسنده (٢٧٦٣) ، وأبو يعلى فى مسنده (٢٥٥٦) وصححه حسين سليم أسد ، وهو عن ابن عباس رضى الله عنهما .

وعـن أبـى العـالية[1] قـال : إن الله قضى على نفسه أن مَنْ آمن بـه هداه ، ومَنْ توكل عليه كفاه ، ومَنْ أقرضـه جـازاه ، ومَنْ وثق بـه أنجاه ، ومَنْ دعـاه استجابَ لـه بعد أنْ يستجيب لله [2] .

وقـال مقـاتل بن سليمـان[3] : مَنْ يصدق بـالله فى المصيبة ويعلم أن المصيبة مـن الله ويسلـم لأمر الله يهـده الله تعـالى للاسترجـاع يقـول : ﴿ إِنَّـا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) ﴾ [البقرة]

فمعنى ﴿ يَهْدِ قَلْبَهُ .. (١١) ﴾ [التغابن] يوفق الله قلبه بـالتسليم لأمره والرضـا بقضـائه ، لأنه يعلم أنهـا من عند الله فيسلم لهـا ويرضى .

حينهـا هدى اللهُ قلبه فـاطمأنَّ ولم ينزعج عند المصـائب ويرزقه الثبات عند ورودهـا والقيـام بموجب الصبر ، فيحصل لـه بذلك ثـوابٌ عـاجل مع مـا يدخره الله لـه يوم الجزاء من الثواب .

كمـا قـال تعـالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ .. (١٠) ﴾ [الزمر]

---

(١) هو أبو العالية رفيع بن مهران الإمام المقرئ الحافظ المفسر ، الرياحى البصرى أحد الأعلام . كان مولى لامرأة من بنى رياح بن يربوع ثم من بنى تميم ، أدرك زمان النبى ﷺ وهو شاب وأسلم فى خلافة أبى بكر الصديق ، سمع من عمر وعلى وأبى ذر وجمع من الصحابة . مات سنة ٩٣ هجرية .

(٢) أورده الذهبى فى سير أعلام النبلاء (٤/٢١١) قال أبو العالية : إن الله قضى على نفسه أن من آمن به هداه وتصديق ذلك فى كتاب الله ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ .. (١١)﴾ [التغابن] ومن توكل عليه كفاه وتصديق ذلك فى كتاب الله ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ .. (٣)﴾ [الطلاق] ومن أقرضه جازاه وتصديق ذلك فى كتاب الله ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً .. (٢٤٥)﴾ [البقرة] ومن استجار من عذابه أجاره ، وتصديق ذلك فى كتاب الله ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا .. (١٠٣)﴾ [آل عمران] والاعتصام بـالله الثقة . ومن دعاه أجابه وتصديق ذلك فى كتاب الله ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ .. (١٨٦)﴾ [البقرة] وقد أخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء (٢/٢٢١) .

(٣) مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدى بالولاء البلخى أبو الحسن ، من أعلام المفسرين ، أصله من بلخ انتقل إلى البصرة ودخل بغداد فحدث بها وتوفى بالبصرة عام ١٥٠ هجرية ، كان متروك الحديث، من كتبه التفسير الكبير ، ونوادر التفسير ، والرد على القدرية ، ومتشابه القرآن . الأعلام للزركلى (٧/٢٨١) .

أمـا مَنْ جزع وهلع فلا يثبت أمـام المصائب جميعها فى النفس والمال والولد والأحباب .

فمَـنْ هـدى الله قلبـه لا يجزع بل يصبر صـبراً جميلاً ، وهو يكـون صبراً لا شكوى فيه ولا جزع ولا فزع .

والإنسـان إذا ما وقع فى مأزق أقوى مـن قدراته ولا فجوة فيه للنجاة فهو يستقبل هذا المأزق بأحد الاستقبالين : الاستقبـال الأول أنْ يجزع ويتضرع . والاستقبال الثانى أنْ يصمد ويصبر .

والمؤمنـون هـم أهـل الابتـلاء مـن الله ، والابتـلاء مـن الله نعمـة ، فمجرد الابتلاء ليس شراً ، ولكن الشر هو أنْ تسقط فى الابتلاء ، فكلُّ ابتلاءٍ هو اختبارٌ وامتحان.

ويقـول تعـالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) ﴾ [البقرة]

فـأول تلـك الابتلاءات هو الخـوف ، فـأنت بخوفك تُعـين مصدر الخوف على نفسك ، فلا تعِشْ فى فزعك وخوفك قبل أنْ يـأتيك .

فآفـةُ النـاس أنهـم يعيشون فى المصائب قبل وقوعهـا ، وهم بذلك يطيلون علـى أنفسهم أمدَ المصائـب ، فـالمصيبة قد تـأتى مثلاً بعـد شهر ، فلماذا تطيل من عمر المصيبة بـالتوجس منها والرهبة من مواجهتها ؟

ولك أنْ تعرف أنَّ الحق سبحـانه ساعةَ تـأتى المصيبة فهو برحمته يُنزل معها اللطـف ، فكأنـك إنْ عِشْتَ فى المصيبة قبل أنْ تقـع ، فـأنت تعيش فى المصيبة وحدهـا معزولة عن اللطف المصاحب لها ، لكن لو ظللت صابراً محتسباً قـادراً على مواجهة أى أمرٍ صعب فـأنت لن تعيش فى المصيبة بدون اللطف .

وثانى الابتلاءات هو الجوع ، وثالثها نقص الأموال ، ورابعها نقص الأنفس، وخامسها صبر على نقص الثمرات .

المهم أنْ ينجح المؤمنُ فى كلِّ هذه الابتلاءات حتى يواجه الحياةَ صلباً ويواجه الحياة قوياً . والابتلاء غير مذموم فى ذاته ، وهو اختبارٌ قد ينجح فيه إنسان ، وقد يفشل فيه إنسانٌ آخر .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ .. (١١) ﴾ [التغابن] فالذى ينجح إنما هو مَنْ آمن حقَّ الإيمان ، وذاق حلاوة إيمانه بأن المقادير تجرى بيد الله ، هذا المؤمن يهدى اللهُ قلبه .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١) ﴾ [التغابن] فالله بكلِّ شىء ذو علم بما كان ويكون وما هو كائن من قبل أنْ يكون ، فلا يخفى عليه تسليمُ مَنْ انقاد وسلَّم لأمره ، ولا كراهةَ مَنْ كرهه . فالله عليمٌ بليغُ العلم لا تخفى عليه من ذلك خافية ، ولا يحدث حدث فى الكون إلا بعلمه وإذنه .

وهو سبحانه عالمٌ بثواب مَنْ صبر على المصيبة ، عليمٌ بكل شىء ، عليم بما نُخفى وما نعلن ، عليمٌ بالسر وما هو أخفى من السر ، ولا تغيب ذرة من مُلكه عن علمه .

فالله عليمٌ بما تكون عليه أحوال الناس ، يعرف الأقوال وكذلك الأفعال والخبايا ، وعِلْم الله شاملٌ ، إنه يعلم ما فى نيتك ، ويعلم مدى صبرك على ما أصابك ومدى يقينك وتسليمك لله عز وجل .

والأب هنا يُوصى ابنه وصيةَ الموت الذى سيفارق بها الدنيا مُقبلاً على الله عزَّ وجل ، تاركاً الدنيا ، وذلك أن الوليد بن عبادة بن الصامت دخل على أبيه عُبادة وهو مريض يتخايل فيه الموت .

يقول الوليد : فقلتُ يا أبتاه أوصنى واجتهد لى . فقال : أجلسونى . فقال: يا

بنى إنك لن تطعم طعم الإيمان ، ولن تبلغ حقَّ حقيقة العلم بالله تبارك وتعالى حتى تؤمن بالقدر خيره وشره .

قال قلتُ : يا أبتاه فكيف لى أنْ أعلم ما خير القدر وشره ؟.

قال : تعلم أنَّ ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك ، يا بُنى إنى سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : إنَّ أولَ ما خلق الله تبارك وتعالى القلم . ثم قال : اكتب . فجرى فى تلك الساعة بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة ، يا بُنى إنْ متَّ ولسْتَ على ذلك دخلتَ النار(١) .

ولكن من المصائب ما يكون بسبب من المصاب نفسه ، يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦) ﴾ [الروم]

ولو ربطتم وجود الرحمة أو المصيبة بمَنْ فعلها لعلمتُم أنه حكيم فى هذه وفى تلك ، ولو نظرتَ إلى المصيبة التى تُحزن الناس فيقنطون وييئسون بسببها . ولو نظرتَ إلى مَنْ أنزلها بك لارتاح بالُك واطمأنتْ نفسُك ، فالمصيبة تعنى الشيء الذى يُصيبك خيراً كان أو شراً .

وكلمة أصاب تدل على أنَّ سهم المصيبة أُطلق عليك ، وعمرها مقدار وصولها إليك ، فهى لابد صائبتُك لن تتخلَّف عنك أبداً ، ولن تُخطئك لأن الذى أطلقها إلهٌ وربٌّ حكيم .

فإنْ كانت حسنة فسوف تأتيك فلا تُتعب نفسك ولا تزاحم الناس عليها ، وإنْ كانت سيئة فإياك أنْ تقول : أحتاط لها لأدفعها عن نفسى لأنه لا مهربَ لك منها .

ثم لماذا تقنط وتيئس إنْ أصابتْك مصيبة ؟ لماذا لا تنتظر وتتأمل لعلَّ لها

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٢٧٥٧) والطبرانى فى مسند الشاميين (١٩٤٩) والضياء المقدسى فى الأحاديث المختارة . من حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنه .

حكمـة ، ولعلَّ من ورائها خـيراً لاتعلمه الآن ، وربما كانت ضائقة سوف يكون لها فرجٌ قريب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ (١٢) ﴾

يأمـر الحق جـل جلاله المسلمين بطاعـة الرسول ﷺ لأنها مـن طاعة الله ، فيقـول جَـلَّ وعلا : ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (٨٠) ﴾ [النساء]

فطاعـةُ رسـول الله من طاعـة الله ، ومَنْ يُعرض عن طاعتـه فله العقاب في الآخـرة ، بـل قـال تعالى عمَّـنْ تمرد على طاعـة رسـول الله : ﴿ قُـلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢) ﴾ [آل عمران]

وعـن عبد الله بن عمر رضـى الله عنهمـا قال : كنتُ جالسـاً مع رسول الله ﷺ فـى رجـال من أصحـابه ، فقـال رسول الله : أليس تعلمون أنِّى رسول الله إليكم ؟ قـالوا : نشهد أنك رسول الله .

قـال : أليس تعلمون أن الله تبارك وتعالى أنزل فى كتابه أنه من أطاعنى فقد أطاع الله ؟

قـالوا : نشهد أنه مَنْ أطاعك فقد أطاع الله ، أمر اللهُ بطاعتك . قـال : أطيعوا الله وأطيعـوا الرسول ، فـإنَّ طاعة الله طاعتى ، وإن طاعتى أنْ تُطيعوا أئمتكم ، فـإنْ صلّى قـاعداً فصلُّوا قعوداً[1] .

والطاعـة أنْ تمتثل أمراً وتجتنـب نهياً ، تلك هى الطاعة ، كل منهج أو دين ،

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥٦٧٩) ، والبزار فى مسنده (٦٠٩٣) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٣٠٦٠) وأبو جعفر الطحاوى فى شرح مشكل الآثار (٥٦٤٤) وابن عساكر فى معجم شيوخ ابن عساكر (٧٣٣).

أمر أو نهى ، فامتثل الأمر واجتنب النهى .

وأنت إذا تصفحتَ القرآن وجدت آيات الطاعة المطلوبة من المؤمن بمنهج الله، والذى شهد بأنه لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسولُ الله تتمثل فى الأمر والنهى.

فإذا ما استقرأتَ القرآن وجدت أن الحق سبحانه يقول مرة فى الطاعة : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ .. (٣٢) ﴾ [آل عمران] ولم يكرر الحق هنا أمر الطاعة فالمطاع هو المكرر ، فـ (أطيعوا) أمر واحد ، نطيع مَنْ ؟ الله والرسول ، المطاع هنا هو الله والرسول .

ومرة يكرر أمر الطاعة ، فيقول : ﴿ وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ .. (٩٢) ﴾ [المائدة] ومرة ثالثة يقول : ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦) ﴾ [النور]

ومرة رابعة يقول : ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ .. (٥٩) ﴾ [النساء]. وأدخل هنا أُولي الأمر أيضاً .

فإذا قال لك : أطيعوا الله والرسول ، فالأمر قد توارد فيه حكم الله وحكم الرسول . إذن : فتطيع فيه الله والرسول ، وإذا كان لله أمر إجماليٌّ وللرسول أمر تفصيليٌّ كالصلاة والزكاة والحج . إذن : فتطيع الله وتطيع الرسول .

وإذا لم يكُنْ لله أمرٌ فيه بل جاء من باطن التفويض فى قوله سبحانه : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا .. (٧) ﴾ [الحشر]

فهذا الأمر أطيع فيه الرسولَ لأنه جاء فى آية أخرى قوله : ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ .. (٨٠) ﴾ [النساء] لماذا : لأن الرسول عمل بالتفويض الذى أعطاه الله له حسب قول الحق : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا.. (٧) ﴾ [الحشر]

فقوله : (أطيعوا الله) يلزم منها إطاعة الرسول ، فلرسول الله ثلاثةُ ملاحظ

في التشريـع : ملحـظ يشـرع فيـه ما شـرع الله تـأكيـداً لــه ، أو أن الله قد شرع إجمالاً، والرسول عيَّن تفصيلاً .

والأمثلة على ذلك أن الله فرض علينا خمس صلوات ، وفرض علينا الزكاة ، وهذه تكليفاتٌ قالها ربّنا ، والرسول يُوضِّحها : النِّصاب كذا ، والسهم كذا .

إذن : فنحن نطيع ربنا فى الأمر إجمالاً ، ونطيع الرسول فى الأمر التفصيلى. أو أن الأمر لم يتكلم فيه اللهُ حكماً ، وإنما جاء من الرسول بتفويض من الله .

ولذلك فإن قال لك أيُّ إنسان عن أيِّ حكم من الأحكام : هات دليله من القرآن ولم تجد دليلاً من القرآن فقُلْ له : دليل أى أمر قال به الرسول من القرآن هو قول الحق : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا .. (٧) ﴾ [الحشر]

والحـق سبحانـه يأمـر المسلمين بطاعة الرسـول ﷺ لأنها مـن طاعة الله ، فيقـول جـلَّ وعلا : ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (٨٠) ﴾ [النساء]

فطاعـة الرسـول مـن طاعة الله ، ومَـنْ يُعرض عـن طاعته فلـه العقاب فى الآخـرة، ويؤكـد الحـق سبحانه على طاعتـه وطاعة الرسـول ، فطاعة الرحمن تستوجب طاعة الرسول .

والطاعـة هـى طاعةٌ بألوان التكليـف وأنواعها ، فمرة يكون الأمر من الله قد جاء بها ، وأن يكون الرسول قد أكَّدها بقوله وسلوكه ، فالمؤمن حين يطيع فى هـذا الأمر الواحد فهـو يطيع الله والرسول معاً . ومرة يأتى حكمٌ من الله إجمالاً ويأتى الرسول ليُفصِّله .

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦) ﴾ [النور]

فالواحـد منـا لم يكُنْ يعـرف كم صلاة فى اليوم ، ولا عـدد الركعات فى كل

صلاة ، ولا نعرف كيفيتها لكنَّ الرسول ﷺ قد فصَّل لنا الأمر فى كل صلاة .

إذن : فالمؤمن يطيع الله فى الإجمال ، ويطيع الرسول فى التفصيل ، إنَّ علينا أن نلتفت إلى أنَّ هنا طاعتين : الأولى طاعة الله . والثانية طاعة الرسول . أما فى الأمر المتحد فتكون الطاعةُ لله والرسول لأنه أمرٌ واحد ، وأما الأمر الذى جاء من الله فيه تكليف إجمالى فقد ترك اللهُ للرسول ﷺ بيانه .

فالمؤمن يطيع الله فى الأمر الإجمالى كأمر الصلاة وإقامتها ، ويطيع الرسول فى تفصيل أمر الصلاة وكيفيتها ، وأحياناً يجيء الحكم بالتفويض الأعلى من الله للرسول .

لقد ترك الحق سبحانه للرسول أنْ يصدر التشريعات اللازمة لاستقامة حياة المؤمنين ، لقد أعطاه الحق سبحانه التفويض العام ، وما دام سبحانه قد أعطى الرسول التفويض العام فإنَّ طاعة المؤمن تكون للرسول فيما يقوله الرسول ، وإنْ لم يقُلْ الله به .

إننا على سبيل المثال لا نجد فى القرآن دليلاً على أن صلاة الفجر ركعتان، لكن الرسول ﷺ هو الذى فصَّل لنا الصلاة فعرفنا أن الفجر ركعتان ، والظهر أربع ركعات ، والعصر مثل الظهر ، والمغرب ثلاث ركعات ، والعشاء أربع ركعات[1] .

والطاعة مطلوبة ممَّنْ آمن ، فيقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ .. (٥٩) ﴾ [النساء]

فما دُمْتَ قد آمنت بالله إلهاً حكيماً خالقاً عالماً مُكلِّفاً فاسمع مايريد أنْ يقوله لك ، فلم يكلف اللهُ مطلق الناس بأنْ يطيعوه ، إنما دعا مطلق الناس أنْ

---

(١) عن أبى مسعود قال : أتى جبريل عليه السلام النبى ﷺ فقال : قم فصل وذلك لزوال الشمس حين مالت الشمس ، فقام فصلى الظهر أربعاً ثم أتاه حين كان ظله مثله فقال : قم فصل فصلى العصر أربعاً . ثم أتاه حين غربت الشمس فقال : قم فصل فصلى المغرب ثلاثاً ، ثم أتاه حين غاب الشفق فقال : قم فصل العشاء الآخرة أربعاً ثم أتاه حين برق الفجر فقال : قم فصلِّ فصلى الفجر ركعتين » الحديث بطوله أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٤١٤٣) عن أبى مسعود الأنصارى .

يؤمنوا به ، ومَنْ يؤمن يقول له : أطعنى ما دمتَ قد آمنتَ بى .

فحيثية الطاعة للرسول ﷺ نشأتْ من الإيمان بالله وبالرسول ، وهذه عدالة كاملة لأنه سبحانه لا يكلف واحداً أنْ يفعل فعلاً إلا إذا كان قد آمن به سبحانه، أما الذى لا يؤمن به فهو لا يقول له : افعل كذا ولا تفعل كذا .

إنه سبحانه يطالبه أنْ يؤمن به أولاً ، فإذا ما آمن به يقول له : استمع إليَّ ، لذلك تجد كلّ تكليف يُصدَّر بقوله سبحانه ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا .. (٥٩) ﴾ [النساء]

ولكن إياكم أنْ تُقبلوا على أحكام الله بالبحث فيها أولاً ، فإن اقتنعتم بها أخذتموها وإنْ لم تقتنعوا بها تركتموها ، فإنَّ مثل هذا التصرف معناه أنك شككتَ فى الحكم ، بل عليك أنْ تُقبل على تنفيذ أحكامه لأنه سبحانه قالها وأنت مؤمنٌ بأنه إله حكيم .

والحق سبحانه يُحذِّرنا من عدم طاعة الله ورسوله ، فيقول : ﴿ وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا .. (٩٢) ﴾ [المائدة] لماذا هذا التحذير ؟ يأتى هذا التحذير ليُعلِّمنا الله أن الشيطان لن يدعنا ندخل فى مجال طاعة الله وطاعة الرسول ، وسيحاول جاهداً أنْ يُلبِّس علينا الأمر .

فعندما يعرف الشيطان ميلاً فى نفس الإنسان إلى لون من الشهوات يدخل إليه من باب المعاصى ، وإنْ كان الإنسانُ قد أوصد بعض السبل أمام الشيطان فلا يستطيع مثلاً إغراءه بالسرقة أو شرب الخمر .

لا يتركه بل يدخل إليه من باب الطاعة ، فيأتى الشيطانُ إلى الإنسان لحظة الوضوء ويُنسيه غسل هذه اليد أو تلك ، وهل أسبغ الوضوء أم لا ؟

أو يأتى الشيطان إلى المؤمن لحظة الصلاة فيُنسيه عدد الركعات أو عدد السجدات ، وهكذا يدخل الشيطان للمؤمن من ناحية الطاعة ، لذلك قال الحق سبحانه : ﴿ وَٱحْذَرُوا .. (٩٢) ﴾ [المائدة]

وقد قال تعالى عن الشيطان أنه توعَّد فقال : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ .. (١٦) ﴾ [الأعراف] فهو قد أقسم أنْ يقعد لهم على الطريق المستقيم لا الطريق المعوج ، ويقعد لهم على طريق الطاعة ليصرفهم عن الطاعة .

ومثال ذلك : عندما يتصدَّق إنسانٌ بصدقة قد يُعلنها ويقول : لقد تصدقت أكثر من فلان . وهكذا يضيع منه الأجر . الشيطان يحاول أنْ يدخل علينا من بابٍ لا نفطن إليه ، وهو باب الطاعة .

والحق سبحانه لا يجبر الإنسان على الطاعة ، بل ترك لك الاختيار ، فأوجد لك هذا الاختيار حتى يكون الحساب في الآخرة عدلاً ، فإذا اخترتَ الكفر لا يُجبرك اللهُ على الإيمان ، وإذا اخترتَ الفسوق لا يجبرك اللهُ على الطاعة ، إنه يحترم اختيارك لأنه أعطاك هذا الاختيار ليحاسبك عليه يوم القيامة .

فالحق سبحانه يترك لنا الإيمان بالاختيار ، ويترك لنا الطاعة والمعصية اختياراً ، ليعلم مَنْ يأتيه حباً ومَنْ يأتيه قهراً .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ .. (١٢) ﴾ [التغابن] التولِّي هو الانصراف والإعراض . فقوله : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ .. (١٢) ﴾ [التغابن] أى : فإنْ أعرضتم عن منهج الله ونسيتموه ولم تلتفتوا إليه ورفضتم طاعة الله وطاعة رسوله .

وقد أمر الحقُّ سبحانه المؤمنين بأنْ لا يتولوا وأنْ لا يُعرضوا ، فقال تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) ﴾ [الأنفال]

فما دمتم قد آمنتم فلا إعراضَ عما تؤمنون به ، والملحظ الجميل أنه سبحانه لم يقُلْ : ولا تولوا عنهما قياساً بالأسلوب البشرى ، لكنه قال : ﴿ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ .. (٢٠) ﴾ [الأنفال] أى : أنه سبحانه قد وحَّد الكلام في أمرين اثنين طاعة الله وطاعة الرسول ، ولأن الرسول مبلّغ عن الله فلا تقسيم بين الطاعتين ، لأن

طاعةَ الرسول هى طاعةٌ لله تعالى .

أو نقول : إنّ التولى لا يكون أبداً بالنسبة إلى الله ، فلا أحدَ بقادر على أنْ يتولى عن الله ، لأن الله لاحقه ومدركه فى أيّ وقت .

﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٢) ﴾ [التغابن] أى : فإنْ أعرضتم عمّا كلفتكم به فاعلموا أنكم بتولّيكم وإعراضكم لن تضروا الرسول ، لأن الرسول ما كلف إلا أنْ يقوم بالبلاغ المبين .

وإنما أضررتم بأنفسكم حين أعرضتم عمّا كُلفتم به ، إن الحق سبحانه يعلم أزلاً أنَّ بعضاً من عباده قد يقول : إن هذا الحكم لم يرد فى القرآن ، لذلك جاء الأمرُ بطاعة الرسول .

وهكذا صارت للرسول طاعةٌ مستقلة ، وأرادها الله حتى يرد مقدَّماً على الذين يسألون عن نص فيه كل تفصيل ، بينما نجد هذه التفاصيل فى السنة النبوية الشريفة . فسبحانه قد علم أزلاً أن هناك مَنْ سيدّعى أنه لن يطيع إلا الله فى قرآنه .

ولذلك قال الرسول ﷺ : « يُوشك أنْ يقعد الرجلُ منكم على أريكته يُحدَّث بحديثى فيقول : بينى وبينكم كتاب الله عز وجل ، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه، وما وجدنا فيه حراماً حرَّمناه ، وإن ما حرم رسول الله كما حرَّم الله »[1] .

أى أن الرسول هو المبلّغ عن ربه ، وأنَّ علينا أنْ نحذر الشيطان إذا أراد أنْ يدخل علينا من باب الطاعة .

ولكن لماذا قال الحق : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ .. (١٢) ﴾ [التغابن] ؟ وعن أيِّ شيء يكون التولّى ؟

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٤٦٠٦) والترمذى فى سننه (٢٦٦٤) ، وابن ماجه فى سننه (١٢) وأحمد فى مسنده (١٧٢١٣ ، ١٧٢٣٣) والدار قطنى فى سننه (٤٧٦٧) من حديث المقدام بن معد يكرب .

قال الحق ذلك ليوضح لنا أنَّ الإنسان له الاختيار فى أنْ يذهب إلى الطاعة، وله الاختيار فى أنْ يذهب إلى المعصية ، وإنْ تولّى الإنسان عن الطاعة إلى المعصية وعن الإيمان الذى جاء به الرسول الذى بلغ عن الله إلى البقاء فى الكفر ، فليعلم ذلك الإنسان أن الرسول قد أوفى مهمته وأدّاها .

فالمطلوب من الرسول أنْ يبلغ المنهج، وقد بلَّغ ﷺ بلاغاً مبيناً محيطاً واضحاً ومُستوعباً لكلِّ أقضية الحياة .

لقد أبلغنا ﷺ مطلوبَ الله أنْ نؤمن بإله واحد قادر حكيم له كلُّ صفات الكمال ، وأبلغنا ﷺ أنْ نبتعد عما كان عليه العرب من الأنصاب ومن الأوثان ومن الأصنام .

وبلاغ رسول الله ﷺ يتطلَّب منا إيماناً وعملاً ، والعمل ينقسم إلى قسمين : عمل إيجابى ، وعمل سلبى . ويتركز العمل الإيجابى فى « افعل كذا» إذا لم تكُنْ تفعله ، أما العمل السلبى فهو أنْ تكُفّ عما نهاك عنه الله ونهاك عنه رسول الله.

والله لا يريد للرسل أنْ يتعبوا أنفسهم فى حَمْل الناس على الإيمان ، إنما وظيفة الرسول هى البلاغ حتى يكون الحسابُ حقاً وعدلاً .

ورسول الله ليس مسئولاً عن الذين سيلقون بأنفسهم فى النار والعذاب ، وليس مسئولاً عن هُداهم وإنما عليه البلاغ . لذلك قال تعالى : ﴿ **إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١١٩)** ﴾ [البقرة]

والرسول يحب أنْ يهتدى إلى الإيمان كلُّ فرد فى أمته ، فقال الحق : ﴿ **لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨)** ﴾ [آل عمران]

أى : ليس لك يا محمد من الأمر شيءٌ إلاَّ أنْ يتوب الله عليهم فتفرح بتوبتهم أو يُعذِّبهم ، فلا يحزنك ذلك لأنهم ظالمون ، أى : ما عليك يا محمد إلا البلاغ فقط، أما هم فقد ظلموا أنفسهم بالكفر .

أرِحْ نفسك ، فما عليك إلا البلاغ فقط ، وهكذا يُخفّف الله مهمة الرسول ، لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (٨٠) ﴾ [النساء]

والحفيظ هو الذي يحافظ على مَنْ يُبلغه أمر الله ، وأنْ يكون سائراً على منهج الله ، إنْ أراد أن ينحرف يعدله ، فيوضح سبحانه : أنا لم أرسلك حفيظاً عليهم ، أنا أرسلتك لتبلغهم ، وهم أحرار يدخلون فى التكليف أو لا يدخلون .

فإذا بلّغ الرسول حُكماً من الأحكام فعليهم أنْ يستقبلوا الحكم على أساس أنه قادم من الله ، وسبحانه يعلم أنَّ رسوله لا يكتم البلاغ ولكن ليجعل لرسوله العذر عند البشر .

فمهمة الرسول ﷺ هى البلاغ ﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ .. (٩٩) ﴾ [المائدة] أما تنفيذ البلاغ فهو دور المؤمنين برسالة رسول الله ، فإنْ أدّوْها فلهم الجنة، وإنْ لم يُؤدوها فعليهم العقاب .

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ[1] مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (١٠٤) ﴾ [الأنعام]

وقد حكم الله أن البصائر جاءتنا ، وحكم بأن رسوله بلّغ ، فسبحانه أعطى لرسوله والرسول ناولنا ، فالحقُّ قد شرَّع ورسوله قد بلّغ ، وبقى أنْ تُؤدوا ، ولا عذرَ لكم من المشرِّع الأعلى الذى خلق وهو الرب ، ولا من المبلّغ المعصوم وهو الرسول .

والبلاغ يجب أنْ يكون بالرِّفْق واللِّين ، وقد قال تعالى على لسان رسوله نوح :
﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٢) ﴾ [الأعراف]

---

(١) بصائر: بينة وبينات . قال ابن الجوزى فى زاد المسير: البصائر جمع بصيرة وهى الدلالة التى توجب البصر بالشيء والعلم به . وقال البغوى : أى الحجج البينة التى تبصرون بها الهدى .

فالبلاغ يقتضى أنْ يقول لهم منهج الله ثم يدعو القوم لاتباع هذا المنهج بأنْ يُرقِّق قلوبهم ويخاطبهم بالأسلوب الهادئ وينصحهم، والأداء القرآنى معجز، فهو يقول: ﴿ وَأَنْصَحُ لَكُمْ .. (٦٢) ﴾ [الأعراف] فلم يقُلْ: وأنصحكم.

فمعنى: ﴿ لَكُمْ .. (٦٢) ﴾ [الأعراف] هنا أن النصيحة هنا والبلاغ ليس فيها مسألة خاصة بك، بل كل ما فيها لصالح مَنْ تبلغه فقط، وبذلك يتضح الفارق بين « نصحتك » و « نصحت لك »، أو نصحته ونصحت له .

ولا تظنوا أن الرسول ﷺ له مصلحة فى إيمانكم، فلن نعطيه مكافأة أو عمولة على كلِّ مَنْ يؤمن به، فإياكم أنْ تظنُّوا أنكم بكفركم تُقلِّلون من مكافأة النبى خاصة، وقد كانوا كارهين له .

فسواء آمنتم أو كفرتم فلن تعود عليَّ منفعة منكم، فتولِّيكم عن سماع ما أبلغكم به لا يضرنى ولا ينفعنى لأنكم لا تملكون لى ضُراً، ولا تملكون لى نفعاً، لأنِّى لن آخذ منكم أجراً .

كلمة: ﴿ عَلَى رَسُولِنَا .. (١٢) ﴾ [التغابن] تعطى معنى التكليف الذى يكلف به الرسول، فحرف (على) مع (فإنما) يحصر ذلك التكليف فى التبليغ وبلاغ الرسالة وأنْ يُؤديها كما طلب منه لا ينقص فيه ولا يزيد .

فليس لرسول الله الزيادة على ما أنزل الله عليه من قرآن، لذلك يقول تعالى: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى .. (٤) ﴾ [النجم] فاطمئنوا إلى حكمه لأنه لا ينطق عن هوى، فليس فى نفسه ما يريد تحقيقه إلا دعوة الخلق وتبليغهم قرآن ربهم، يقول تعالى على لسان رسوله: ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ .. (٥٠) ﴾ [الأنعام] فهو ﷺ لا ينطق عن الهوى بل يُبلِّغ ما جاء به الوحى .

فما هو إلا بشر يُبلِّغكم رسالة ربكم وأفعل ما أمرنى به، كما فى قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ

عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) ﴾ [يونس]

ورسول الله يضيف لنا بُعداً آخر للطاعة فى قوله ﷺ : « وإن طاعتى أنْ تطيعوا أئمتكم ، فإنْ صلَّى قاعداً فصلُّوا قعوداً » .

فرسول الله يُحدِّثنا عن إمامة الصلاة ، وأنه لابدّ من الاقتداء بهم فى هيئات الصلاة ، فإنْ صلُّوا قعوداً فلابدَّ أنْ نقتدى بهم فنصلى قعوداً أيضاً .

وقد حدثنا جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : اشتكى رسول الله ﷺ فصلَّينا وهو قاعد، وأبو بكر يُكبِّر يُسْمِع الناس ، فالتفتَ إلينا فرآنا قياماً ، فأومأ إلينا فقعدنا .

فلما سلَّم قال : إن فارس والروم يقومون على ملوكهم وهم قعود ، فلا تفعلوا ، ائتموا بأئمتكم ، فإنْ صلَّى الإمامُ قائماً فصلُّوا قياماً ، وإنْ صلَّى قاعداً فصلُّوا قعوداً »[1] .

ولابد أنْ يكون البلاغُ عن الله بلاغاً مبيناً ، لذلك قال هنا : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٢) ﴾ [التغابن] والمبين الذى يبين كلّ شيء تحتاجه حركة الإنسان الخليفة فى الأرض .

فمعنى ﴿ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٢) ﴾ [التغابن] أى البلاغ التام الكامل الذى يشمل كل جزئيات الحياة وحركاتها ، فقد جاء المنهجُ الإلهى شاملاً لكلِّ جوانب الحياة بدايةً بقول : لا إله إلا الله حتى إماطة الأذى عن الطريق[2] فلم يترك شيئاً إلا حدَّثنا فيه .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٩٥٥) وابن ماجه فى سننه (١٢٤٠) وأحمد فى مسنده (١٤٦٣٠) وابن خزيمة فى صحيحه (٤٨٦) من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٦٢) وكذا الترمذى فى سننه (٢٦١٤) والنسائى فى سننه (٥٠٠٥) وابن ماجه فى سننه (٥٧) وأحمد فى مسنده (٨٩١٣) من حديث أبى هريرة ، ولفظ مسلم « الإيمان بضع وسبعون – أو بضع وستون شعبة – فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان » .

فهـذا بلاغٌ مبين محيط لمصالح النـاس ، فلا يأتى الآن مَنْ يتمحك ويقول : ربنـا ترك كذا أو كذا .. فمنهج الله كامل .

ومعنــى (مبين) أى مُوضِّح كاشف لمنهــج الله ، فهو ليس بلاغـاً بـائنـاً فقط، بـل إنــه مُبين بـاستخدام اسـم الفـاعل ، وذلك تـأكيد وإمعـان فى وضوح البلاغ وتيسـير الله لــه ليصـل للأفهـام البسيطـة القـاصرة قبـل الأفهام التـى تتسم بـالثقافة والعقل والتفكر ، فلا يُحرم من الخير أحدٌ لتواضع استقبـالـه لمعطيـات القرآن ،بل يفهمـه كل أحد .

لذلـك قــال تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا .. (٩٧) ﴾ [مريم] ويسَّرنـا القرآن أى طوَّعنـاه لك حفظاً وأداء وإلقـاءَ معـانٍ ، فـأنت توظفه فى المهمة التى نزل من أجلها ، وهى البلاغ عن الله .

يقول الحق سبحـانـه :

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

عندمــا نقــول (الله) فـإن الذِّهْن ينصرف إلى الـذات الواجبة الوجود ، فكلمة (الله) هى علَم على واجب الوجود .

والحــق سبحـانــه حين أعلمنـا بـاسمه (الله) أعطـانـا فكرة على أن كلمة (الله) هذه يتحدَّى بهـا سبحـانـه أنْ يُسمَّى بهـا سواه ، ورغم أن هنـاك ملحدين وكـافرين ومتمردين ، فلم يجرؤ واحدٌ من هؤلاء أنْ يسمى نفسه الله .

ولم يجـرؤ واحــدٌ من هــؤلاء أنْ يدخل فى هــذه التجربة ، لقــد كـان بوُسْعهم أنْ يقولـوا : سنسمــى ونــرى مـا يحدث ، ولكــن هذا لم يحــدث . فكلمة (الله) هى الاسم الذى اختـاره الله لنفسه وأعلمنـا بـه ، وهـو اسم شـامل لكلِّ صفـات الكمـال، والصفــات الأخـرى نـحـن نسميهـا الأسمــاء الحسنى : مثـل القــادر ، والسميع،

والبصير، والحي القيوم القهار، كلُّها صفات صارت أسماء لأنها مطلقة بالنسبة لله .

وهذه الصفات حين تنصرف على إطلاقها فهي (الله)، ومن الجائز أنْ تُضاف في نسبتها الحادثة إلى غير الله ، أما اسم (الله) فلا يُطلق إلا على الحق سبحانه .

وساعة تسمع لفظ الجلالة (الله) فعليك أنْ تأخذه بكلِّ ما يدل عليه من صفات الجلال وصفات الجمال ، ما عرفته وما لم تعرفه ، لأنه سبحانه خلق الكون كله وهو قيُّوم عليه .

وهذا الخَلْق وتلك القيومية فعلٌ يقتضي صفات متعددة ، تقتضي قدرة وحكمة وعلماً واسعاً ورحمةً وبَسْطة وقبضاً وغير ذلك ،وبدلاً من أنْ يأتي لك بصفات القدرة وصفات الجمال ويذكرها ويُعددها لك يقول سبحانه عن نفسه (الله) ، لأنه الاسم الجامع لكلِّ صفاته .

وأنت تقول في بدء كلِّ عمل (باسم الله) ، وفي ذلك إيجاز لما يحتاج إليه أيّ عمل ، لأن أيّ عمل يحتاج إلى قدرة فتقول : باسم القادر . ويحتاج إلى علم فتقول : باسم العليم . ويحتاج إلى حكمة فتقول : باسم الحكيم . ويحتاج إلى عزة فتقول : باسم العزيز . وقد تحتاج إلى قهر عدوك لأنك قد تدخل معه في حرب فتقول : باسم القاهر .

إذن : كلُّ عمل يحتاج إلى حشد من صفات الكمال والجلال يخدم الفعل ، فبدلاً من أنْ يقول : باسم القادر وباسم الحليم وباسم العليم وباسم القابض ، يوفر عليك سبحانه كلّ ذلك فتقول : باسم الله ، لأن اسم الجلالة وهو (الله) هو الجامع لكلِّ صفات الكمال .

فإنْ قلتَ : « باسم الله » فهي تكفيك ، فإذا احتجتَ إلى قدرة وجدتها ، وإنِ

احتجتَ إلى غنيّ وجدته ، وإنِ احتجتَ إلى بسط وجدته . فلحظة أنْ تقول (الله) كأنك قلت : القادر ، الضار ، النافع ، السميع ، البصير ، المعطى إلى آخر أسماء الله الحسنى . فلفظ (الله) اسم ذات لا يدل على صفة معينة ، لكنه يحمل فى طياته كلّ صفات الكمال فيه .

والحق سبحانه أثبت لنفسه جميع صفات الكمال فى اسمه (الله) ، ثم جاء بالقضية الأساسية ، وهو قوله تعالى (لا إله إلا الله) أى : لا معبودَ بحقٍّ إلا الله .

وقد جعل الحق سبحانه كلمة (لا إله إلا الله) شعاراً للمؤمنين ، والشعار هو المعْلَم الذى يكون مُميزاً لمجموعة من الناس أو لشعيرة معينة من شعائر الله ، فشعار أذانك مثلاً وصلاتك هو (الله أكبر) أى : أن الله أكبر من كلِّ شيء غيره.

وشعار كلّ مؤمن واقع فى كرب : لا كربَ وأنت رب ، ومؤدّى هذا الشعار أنه ما دام لك ربٌّ فلا تهتم ، ولا تيأس ، فليست مع الله مشكلة ، المشكلة ألاَّ يكون لك ربٌّ تلجأ إليه .

وقد كان شعار المصطفى ﷺ لمَّا تجمع الأحزاب وحاصروا وأحاطوا بمدينة رسول الله أنْ جعل شعاره الإيمانى « لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ،وأعزَّ جنده ، وهزم الأحزاب وحده »[1].

كذلك هنا قد جعل رسول الله شعار المؤمنين يوم يُبعثون من قبورهم « لا إله إلا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون » فشعارهم التوحيد وقد بعثهم الله موحدين متوكلين عليه وحده .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « شعار المؤمنين

---

(١) أخرجه البزار فى مسنده (٨٤٣٨) عن أبى هريرة رضى الله عنه « أن رسول الله ﷺ كان يقول : لا إله إلا الله وحده ، نصر عبده ، وغلب الأحزاب وحده ، فلا شيء بعده » .

يوم يُبعثون من قبورهم : لا إله إلا الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون »[١] .

قد وحَّدوه فى الدنيا وتوكلوا عليه ، وهاهم يخرجون من أجداثهم وقبورهم وهم على ما عاشوا وما ماتوا عليه ويرجون رحمة الله .

وكلمة (لا إله إلا الله) كلمة تحمل نفياً وإثباتاً ، النفى فى (لا إله) والإثبات فى (إلا الله) ، فكلمة (لا إله إلا الله) معها دليلُ الصدق ، فلو كان هذا كذباً فهل سمعنا حساً أو حركة لمنْ يدَّعى أنه الله .

ولذلك ربنا سبحانه يأتى بهذه القضية من ناحية أخرى فيقول : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤٣) ﴾ [الإسراء]

فلو كان عند تلك الآلهة المزعومة مظاهر قوة لذهبوا إلى الله سبحانه وأنكروا ألوهيته ، ولو كان هناك إلهٌ غير الله لحدثتْ معركةٌ بين الآلهة ، ولكنَّ هذا لم يحدث .

فكلمة (لا إله إلا هو) صِدْقٌ فى ذاتها حتى عند مَنْ ينكرها ، والدليل فيها هو عدم وجود المنازع لهذه الدعوة ، لأنه إنْ لم يوجد منازع فقد ثبت أنه سبحانه لا إله إلا الله ، وإنْ وُجد المنازع نقول : أين هو ؟

والله هو المعبود الذى يُتوجَّه إليه بالعبادة ، والعبادة هى الطاعة ، فمعنى عابد أى طائع ، وكل طاعة تقتضى أمراً وتقتضى نهياً .

والحق سبحانه شهد لنفسه بأنه لا إله إلا هو ، فقال تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) ﴾ [آل عمران]

فالله يشهد أن لا إله إلا هو ، ورسول الله يشهد أنْ لا إله إلا الله ، وهذه شهادة

(١) أورده السيوطى فى الجامع الصغير (٤٨٨٦) وعزاه لابن مردويه عن عائشة وحسَّنه . وكذا أورده المتقى الهندى فى كنز العمال (٣٩٠٣٢) .

الـذات للـذات ، وشهـادة الملائكة أيضاً وكفى بـالله شهيداً . فشهـادة الملائكة شهـادة المشهـد ، ويُضـاف إلى الملائكـة ﴿ وَأُولُو الْعِلْـمِ .. (١٨) ﴾ [آل عمران] الذين يستنبطون من كوْن الله أدلة على أنه لا إله إلا هو .

والله سبحانه وتعالى شهد أنه لا إله إلا هو قبل أن يوجد أحدٌ من خَلْقه يشهد بوحدانيـة ألوهيتـه ، شهـد أنـه لا إله إلا هو قبـل أنْ يخلق الملائكـة ، ليشهدوا شهادة مشهد بأنـه لا إلـه إلا الله .

والحـق سبحانـه أطلقها علـى نفسه وقال ﴿ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ هُـوَ .. (١٨) ﴾ [آل عمران] وجعلهـا كلمة التوحيد وجعل الأمـر فى غاية اليُسْروالسهولـة والبساطة ، فلم يشـأ الله أنْ يجعـل دليلَ الإيمـان بـالقوة العليـا دليلاً مُعقّداً ، أو دليلاً فلسفياً ، أو لا يستطيع أحدٌ أنْ يصل إليه إلا أهل الثقافة العالية .

لا إن الديـنَ مطلبٌ للجميع من راعى الشاة إلى الفيلسوف ، إنه مطلوبٌ للذى يكنس فى الشارع ، كما هو مطلوب من الأستاذ الجامعى ، فيجب أنْ تكون هذه المسألـة فـى منتهى البساطة ، وأنْ تكون فـى مستوى هذه العقول جميعاً ، فلا فلسفة فى المسألة .

فـالله شهد بألوهيتـه من البداية ، ومـن أسمائه سبحانـه (المؤمن) ونحن مؤمنـون بالله ، وربنـا المؤمن بأنه إلهٌ واحـد ، لذلك قبل أنْ يطلب منّـا أنْ نشهد له بـالوحدانية والتفرد بالألوهية شهد بهـا لذاته تعـالى .

فلـو قـال معترض : كيف يشهد لذاته ؟ نقـول : نعم يشهد لذاته سبحـانه لأنه لا أحـدَ غـيره ، لا أحـدَ معــه ، فشهـادة الذات للذات هنـا شيءٌ طبيعـى ، وكأنه سبحـانـه يقول : لا أحدَ غيرى ، وإنْ كان هنـاك إلهٌ غيرى فليُرني نفسه وليفصح عن وجوده .

فلـو علمتْ الآلهة المدعّـاة المزعومة بهذه الشهـادة ، فسكوتهم عليها وعدم

اعتراضهم عجزٌ ، وإنْ لم يدروا بها فهم غافلون نائمون ، وفى كلتا الحالتين لا يصح أنْ يكونوا آلهة ، فأيّ آلهة تلك التى لا تدرى بما يدور حولها أو تجبُن عن مواجهة خصمها .

ومادام « لا إله إلا هو » فليكن اعتمادك وتوكلك عليه وحده ، واعلم أنك إنِ اعتمدتَ عليه وحده إلهاً فأنت قد اعتمدت على عزيز لا يُغلب على أمره .

قال ﷺ : « إذا سألتَ فاسأل الله ، وإذا استعنتَ فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعتْ على أنْ ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أنْ يضرُّوك فلن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رُفِعتْ الأقلام وجفَّتْ الصّحف »[1] .

إنك هنا تلجأ إلى خالق أعلى بيده مقاليد كلِّ شيء وهو على كل شيء قدير، فـ « لا إله إلا هو » تُغنيك وتكفيك عن الكل ، توكلْ واعمل لإله واحد ولوجه واحد يكفِكَ كل الأوجه ، واعلم أنه لا يوجد مَنْ يغلبه على أمره .

واستعانتك بالله وحده ، ولجوؤك إليه وحده ، وتوكلك عليه وحده يُحررك من ذُلِّ الدنيا ، بالحى الذى لا يموت ، بالقوى الذى لا يضعف ، بالقاهر الذى لا يخرج عن أمره أحد .

إذا استعنتَ بالله سبحانه وحده كان الله جل جلاله بجانبك ، وهو وحده سبحانه الذى يملك أنْ يُحوِّل ضعفك إلى قوة ، وذُلّك إلى عِزٍّ .

لذلك كان شعار المؤمنين بالله وحده « لا إله إلا الله » ، فهذه الكلمة مَعْلَم من معالم هذا الدين ، فالشعار هو المعْلَم الذى يدل على الشيء .

ومنها أيضاً الشعائر ، وهى معالم دين الله المتركزة فى « افعل » و «لاتفعل» زماناً ومكاناً ، عقائد وأحكاماً ، لكن الشعائر غلبتْ على ما نُسميه « مناسك الحج » .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٧٦٣) وكذا الترمذى فى سننه (٢٥١٦) وأبو يعلى الموصلى فى مسنده (٢٥٥٦) ، والبيهقى فى شُعب الإيمان (١٠٤٣) من حديث عبد الله بن عباس رضى الله عنهما .

ومـن شعار المؤمنين أيضـاً التوكل على الله وحده ، فمـا دُمْنا قد آمنا بـأنه لا إلـه إلا هـو فلماذا يتوكَّلْ بعضنـا على غير الله ، ولماذا نضـع أملنا ورغبتنا وثقتنا فى غير الله ؟

يقـول الحـق سبحانـه : ﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٣) ﴾ [التغابن] فالمؤمنـون بالله هم الذيـن يتوكلون عليه ، ففائدة الإيمـان أن الجوارح تعمل والقلوب تتوكل .

الجوارح تقول : نزرع ، نحرث ، نأتى بالبذر الجيد ونروى ونضع سماداً ، ونفترض أنَّ الصقيع قد يأتى ونخشى على النبات منه فنأتى بقشٍّ ونحوه ونغطيه .

كلُّ هذه عمل الجوارح ، وبعد ذلك القلوب تتوكل ، فإياك أنْ تقول : المحصول آتٍ لأننى أحسنتُ أسبابى . لا بل لأن فوق الأسباب مسبِّبها .

ففائـدة الإيمـان أننى مؤمـن بإله له طلاقة القدرة ، يخلـق بأسباب ويخلق بغير أسباب ، والأسباب لك ، أما الذى فوق الأسباب فهو الله ، فأنت حين تعمل أخذتَ بالأسباب ، وحين تتوكل ضمنتَ المسبِّب ، وهو الله سبحانه .

وإياك أنْ تظنّ أن التوكل يعنى أنْ تترك الجوارح بلا عمل ، لا فهذا هو التواكل أو الكسـل ، إنـه التوكل الكاذب ، والدليل على كذب مَنْ يقـول ذلك أنه يحب أنْ يتوكل فيما فيه مشقة ، والسهل لا يُتوكل فيه .

والذى لا يتوكل على الله عليه أنْ يراجع إيمانه ، ولكل جارحة عمل ، وعملُ جارحة القلب هو اليقين والتوكل ، ولنتذكر أن السعى للقدم والعمل لليد والتوكل للقلب .

فلا تنقل عملَ القلب إلى القدم أو اليد ، لأن التوكل الحقيقى أنْ تعمل الجوارح وتتوكل القلوب ، وكم من عامل بلا توكل ، فتكون نتيجة عمله إحباطاً .

إننـا نجـد الزارع الذى لا يتوكل على الله ينمـو زَرْعه بشكل جيد ومتميز ، ثم تهبُّ عليه عاصفة أو يتغيّر الجو فيُصيبه الهلاك ، وتكون النتيجة الإحباط .

واحذر إهمال الأسباب أو أنْ تفتنك الأسبابُ ، لأنك إنْ أهملتَ الأسباب فأنت غير متوكل بل متواكل ، تنقل عمل القلب إلى الجوارح .

وإذا قال لك واحد : أنا لا أعمل بل أتوكل على الله ، قل له : هيا نرى كيف يكون التوكل ، وأحضر له طبقَ طعام يُحبه ، وعندما يمد يده إلى الطعام قُلْ له: اترك الطعام يقفز من الطبق إلى فمك .

فالذين لا يعملون بجوارحهم ويُعلنون أنهم متوكلون على الله ، نقول لهم : أنتم كاذبون ، لأن التوكل ليس من عمل الجوارح بل من عمل القلوب ، فالجوارح تعمل والقلوب تتوكل .

لكن على مَنْ نتوكل ؟ يأتي قوله ﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٣) ﴾ [التغابن] إنك حين تتوكل على الحيِّ الذى لا يموت ، فلن يضيع عملك ، أما إنِ اتكلتَ على إنسان مثلك – حتى وإنْ كان ذا قوة – فقد تنقلب قوته ضعفاً ، وقد يُكرهك أو يُذلّك ، وقد تصيبه كارثة فيموت . فعلى الله وحده يتوكل المؤمنون ويُفوضون كلّ أمورهم إليه وحده ، حتى أن المؤمنين يقولون : ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢) ﴾ [إبراهيم]

والحق سبحانه يأمرنا أنْ نتوكل على الحي الذى لا يموت ، فلا تتكل على واحد من الأغيار ، فقد يصبح الصباح فتجده قد خلا بك وتخلَّى عنك ، أما إذا كان مولاك هو الحق فلن يخذلك .

فإذا كان المولى غير الله فهو من الأغيار ، فقد يكون اليوم قوياً قادراً على أنْ يأخذ بيدنا وينصرنا ونتوكل عليه ولكنه قد يموت غداً ، لذلك فهو لا يصلح مولى ، وقد يسقط عنه سلطانه وقوته ويصبح ضعيفاً محتاجاً لمنْ ينصره فلا ينفع ولياً ولا مُعيناً لأحد .

والمولى الحق الذى نتوكَّل عليه الذى يجب أنْ نتمسَّك به هو الذى لا تُصيبه الأغيار لأنه دائم الوجود لا ينتهى بالموت ، وهو دائم القوة والقدرة لا يضعف أبداً .

هذا هو المولى الذى تضع فيه ثقتك وتتوكل عليه ، ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يُوضِّح لنا أننا يجب ألاَّ نضع ثقتنا وأملنا إلا فيه ، وتوكلنا إلا عليه سبحانه وتعالى ، فيقول : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ .. (٥٨) ﴾ [الفرقان]

أى : إذا أردتَ فعلاً أنْ تتوكل ، فتوكَّلْ على مَنْ هو موجود دائماً ، قويٌّ دائماً، فتوكل على **الله** .

فإياك أنْ تتوكَّل على غير **الله** ، بل اجعل توكُّلك يكون على مَنْ لا يتغير . **فالله** هو القادر دائماً ، القاهر دائماً ، الغالب دائماً ، الموجود دائماً ، الناصر دائماً ، وهو سبحانه الدائم الباقى دائماً .

فلا تتوكل على مَنْ قد تصبح غداً فتجده ميتاً ولكن توكَّل على الحى الموجود دائماً ، العزيز الذى لا يُقهر ، القوى الذى لا يُغلب .

وصدق الشاعر حين قال :

اجْعَلْ بِرَبِّكَ كُلَّ عِزِّكَ ... يَسْتَقِرّ وَيَثْبُتُ

فَإِذَا اعْتَزَزْتَ بِمَنْ يَمُوتُ ... فَإِنَّ عِزَّكَ مَيِّتُ

والعاقل الفطن لايتوكل إلا على مَنْ يثق به ويضمن معاونته ، وأنه سيوافقك فى كلِّ ما تريد ، لكن ما جدوى أنْ تتوكل على أحد ليقضى لك مصلحة ، وفى الصباح تسمع خبر موته .

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ (٥٨) ﴾ [الفرقان] وكأنَّ الحق تبارك وتعالى يريد أنْ ينصح خَلْقه : إنْ أردتَ أن تتوكل فتوكل على مَنْ ينفعك ولا يتركك ، على مَنْ يظل على العهد معك لايتخلى عنك،

على مَنْ لايُعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء ، هذه هى الفِطنة .

لكن ما جدوى أنْ تتوكَّل على مَنْ ليس فيه حياة ؟ وعلى فرض أنّ فيه حياة دائمة فلا تضمن ألاَّ يتغير قلبُه عليك ؟

ويقول تعالى : ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (٧٩) ﴾ [النمل] فأنت تتوكل على الله وأنت على الحق ، وعلى الطاعة له عز وجل ، لا على معصيته، ومـا دُمْتَ تتوكل على الله وأنت على حال الطاعة ، فلابدّ أنْ يكون نصيرك ومُعينك .

واستغْن بوكالة الله عن كلِّ شيء ﴿ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلا (٣) ﴾ [الأحزاب] وهو سبحانه نعم الوكيل ، وهذا يُطمئن عباده .

ويقول تعالى : ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) ﴾ [الأنعام] واعلم أن الله سبحانه ليس وكيلاً لك ، بل هو وكيل عنك ، لأن الوكيل لك ينفذ أوامرك ، لكن هو وكيل عليك ، مثل الوصى على القاصر هو وكيل عليه . ويقول للقاصر : افعل كذا فيفعل وسبحانه وكيل علينا .

وهم لايتخذون وكيلاً غير الله ، فالتوكل أنْ تؤمن بأن لك وكيلاً يقوم لك بمهام أمورك ، بدليل أن الشيء الذى لا تَقْوَى عليه تقول بصدده : « وكَّلتُ فلاناً ينجزه لى على خير وجه » .

فالمؤمنون يتوكلون على ربهم ، فهم يكلون أمورهم إلى مَن ائتمنوه على مصالحهم .

﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلا (٢) ﴾ [الإسراء]

فإياك أنْ تتخذ من دون الله وكيلاً ﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلا (٦٥) ﴾ [الإسراء] فإنْ كان فى البشر مَنْ تثق به وتأتمنه على مصالحك ، فما بالك إنْ كان وكيلك

هـو الله عـز وجل ؟ لاشك إنْ كـان وكيلك الله فهو كـافيك ومُؤيِّدك ونـاصرك ، فلا يُحوجك لغيره سبحـانه .

فيكفيـك أنْ يكـون الله وكيلك ، لأنـه لا شيءَ يتأبّى عليـه ، ولا يستحيل عليه شيء ، فإنـه لا تُعوزه أسباب ، ولا يُثنيه عن إرادته شيء .

وإذا كان الحـق سبحانـه يقول هنـا : ﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَـوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٣) ﴾ [التغابن]، فإنه في آيات أخـرى يقـول تعـالى : ﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢) ﴾ [إبراهيم]

وفـي آيـة أخرى يقول تعـالى : ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ عَلَيْـهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) ﴾ [يوسف]

فـإذا كنتَ مُتوكلاً حقاً كما تدَّعى وتقول فتوكل على الله ، فإذا كـان الإيمـانُ ملحوظاً في آية سورة التغابن : ﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٣) ﴾ [التغـابن]، فـالملحوظ هنـا هو أنْ يكون توكلك على الله توكلاً حقيقياً وليس ادعاءً .

فـالتـوكل الحقيقـي للجـوارح هو أنْ تعمـل ، ولذلك لابـدَّ من العمـل والأخْذ بـالأسبـاب مع التـوكل ، أمـا التواكل فـأنْ ترفض الأسباب التـي قدَّمهـا الله لك وتقعـد عـن الأخْذ بهـا ، وتقـول : توكلتُ علـى الله .لا .. إنمـا استنفـد الأسباب الموجـودة لك من ربك ، فإنْ عـزَّتْ عليك الأسباب فلا تيأسْ ، لأن لك رباً أقوى من الأسباب لأنه سبحـانه خـالقُ الأسبـاب .

فلابدَّ أنْ نُفرِّق هنـا بين التوكل والتواكل : التوكل أنْ تكون عـاجزاً في شيء، فتذهب إلى مَنْ هو أقوى منك فيه ، وتعتمد عليه في أنْ يقضيه لك ، شريطةَ أنْ تستنفد فيه الأسباب التي خلقهـا الله لك .

وقد ضرب لنـا سيدنـا رسول الله ﷺ مثلاً توضيحياً في هذه المسألة بـالطير، فقـال : « لـو توكلتم على الله حَقَّ توكله لرزقكم كمـا يرزق الطير ، تغدو خمـاصـاً

وتروح بطاناً »[1].

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) ﴾

يخاطب الحق سبحانه هنا الذين آمنوا بأنه لا إله إلا هو، فهم يتوكلون على الله، ويخاطب الذين أطاعوا الله وأطاعوا الرسول، وما داموا آمنوا وأطاعوا فلن يرفضوا تحذير الله لهم من أزواجهم وأولادهم.

فهم فى حالة كفرهم بالله هم أعداء أنفسهم، فلن يخاطب اللهُ الكافرين ويُحذِّرهم من أزواجهم وأولادهم، فالتحذير أوجب لهم من أنفسهم ذاتهم قبل الأزواج والأولاد.

وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٤) ﴾ [التغابن] أى: ياأيها الذين آمنتم بالله إلهاً ودخلتُم معه فى عقد إيمانى، فيا مَنْ آمنت بالله رباً وإلهاً وخالقاً خُذْ عَنِ الله وافعل لأنك آمنت بمَنْ أمرك.

فالإيمان هنا هو سبب التكليف، فالله لا يُكلف كافراً أو غير مؤمن، ولا يأمر بتكليف إلا لمَنْ آمنوا، فما دام العبد قد آمن فقد أصبحتْ مسئولية حركته فى الحياة عند ربه، ولذلك يوحى إليه بمنهج الحياة، أما الكافر فلا يُكلِّفه الله بشيء.

---

(١) عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله ﷺ: « لو أنكم كنتم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً » [أخرجه الترمذى فى سننه (٢٣٤٤) وقال: حسن صحيح. وكذا ابن ماجه فى سننه (٤١٦٤) وأحمد فى مسنده (٢٠٥، ٣٧٠، ٣٧٣)].

فالآية تبدأ بنداء الذين آمنوا بالله وكأنه يقول لهم : يا مَنْ آمنتم بى استمعوا لحديثى ، فلم يكلف الله من لم يؤمن به ، وإنما خاطب الذين أحبوه وآمنوا به، وما داموا قد أحبُّوا الله فلابد أنْ يتجه كلُّ مؤمن إلى مَنْ يحبه، لأن الله لن يعطيه إلا ما يُسعده .

والحق سبحانه هنا يلفت نظر مَنْ آمن به إلى قضية هامة هى علاقة الإنسان بأزواجه وأولاده وتأثيرهم عليه فى صَرْفه عن مقتضيات ومتطلبات ما آمن به واعتقده بقلبه ومارسه بجوارحه .

فيقول تعالى : ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ .. (١٤) ﴾ [التغابن]

وقد اختار الحقُّ سبحانه صنفين من الناس حول كلِّ إنسان منا ، وهم الأزواج والأولاد ، فهؤلاء هم الملاصقون المباشرون للإنسان .

وسبحانه يقول : ﴿ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ .. (١٤) ﴾ [التغابن] و (من) للتبعيض ، أى : ليس كلُّ أزواجكم أو أولادكم عدواً لكم ، بل بعضهم .

وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ .. (١١٢) ﴾ [طه] ، ومن هنا للتبعيض ، فيكفى أنْ تفعل بعض الصالحات ، لأن طاقة الإنسان لاتسع كلّ الصالحات ولا تقْوَى عليها ، فحسْبُك أنْ تأخذ منها طرفاً ، وآخر يأخذ طرفاً ، فإذا ما تجمعتْ كلُّ هذه الأطراف من العمل الصالح من الخلق كوَّنتْ لنا الصلاح الكامل في المجتمع كله .

ومثله أيضاً ﴿ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَٰلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ .. (٤٠) ﴾ [الروم] فتكررت (مِنْ) التى للتبعيض ، والمعنى لايستطيع أحدٌ من شركائكم أنْ يفعل شيئاً ولو هيِّناً من الخلق أو الرزق أو الإحياء أو الإماتة .

ويقول تعالى : ﴿ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ .. (١٤) ﴾ [التغابن] والأزواج متقدِّمون فى الإغواء والتوجيه إلى الشر قبل الأعداء ، لأن الزوج أو الزوجة قد يكون هو

الشيطان الملازم الذى يُهيء الانحراف إلى ما يريد .

وكلمة الأزواج جمع زوج . وتُقال للرجل والمرأة ، والزوج لا يعنى اثنين معاً كما يظن البعض ، إنما الزوج يعنى الفرد الذى معه مثله من جنسه ، ومثله تماماً كلمة (التوأم) . فهى تعنى (واحد) لكن معه مثله .

والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ .. (٤٩) ﴾ [الذاريات] يعنى : ذكر وأنثى ، فالذكر وحده زوج ، والأنثى زوج ، وهذه القسمة موجودة فى المخلوقات ، وتُجمع زوج أيضاً على زوجات .

ونلحظ فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ .. (٥٠) ﴾ [الأحزاب] أن الأزواج جاءت بصيغة المذكّر ولم يقُلْ زوجاتك ، لأن الزوج يُطلق على الرجل وعلى المرأة .

وهذا تأخذ منه أن الله عندما نادى المؤمنين بندائه ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٤) ﴾ [التغابن] لم يكُنْ يعنى الرجال فقط من المؤمنين بل النساء أيضاً ، فقد يكون الرجلُ مؤمناً صالحاً ، وزوجته هى التى تأخذه بعيداً عن منهج الإيمان.

وقد تكونُ المرأة مؤمنةً صالحة ، وزوجها هو الذى يأخذها بعيداً عن منهج الإيمان ، وهذا تجده فى حديث الله سبحانه عن زوجات أنبياء كُنَّ كافرات ، وأزواج مؤمنات كانوا كافرين .

ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (١٠) ﴾ [التحريم]

فلم يستطع نوح عليه السلام أنْ يستلب العقيدة الكافرة من زوجته ، ولم يستطع لوط عليه السلام أنْ يسلب العقيدة الفاسدة من زوجته ، بل كانت كلتا

المرأتـين تتآمـر كل منهمـا ضد زوجهـا – وهـو الرسول – مع قومهـا ، لذلك كان مصير كلٍّ منهمـا النـار .

وقـد كانـت امرأةُ لـوط تدلُّ قومهـا على مَنْ يـزور لوطاً من الرجـال ليأتوا ويفعلـوا بهـم الفـاحشـة ، وقد حدث هذا فى وفـد الملائكة الذى جـاء فى هيئة شبـاب كـأحسن الشبـاب .

ويقـول تعـالى :﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا[1] وَقَالَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَـٰقَوْمِ هَـٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ (٧٨) ﴾ [هود]

فلـوطٌ عليـه السلام يعلم أنْ آفةَ قومـه هـى إتيـان الذكور ، وامرأته تعلم هذه الآفـة ، لكـن موقفهـا من هذا غير موقف لـوط ، فهى ترحب بتلك الآفـة . ويُقال: إنهـا انتبهـت لمجيء الرجـال الحسان ولم تعرف أنهـم ملائكة العذاب وصعدت إلى سطح المنزل وصفَّقت لعلَّ القوم ينتبهون لهـا ، فلم يلتفت لهـا أحد ، فأشعلتْ نـاراً فـانتبـه لهـا القـوم ، وأشـارتْ لهم بمـا يعبر عن مجيء ضيـوف يتميزون بـالجمـال .

وفـى حياتنـا العـادية نجـد أن المرأة إنْ لم تكُنْ صـالحة كـانت عدوة لزوجهـا، فتجـد مُنغِّصـات تستطيـع أنْ تضعهـا المرأة فى حياة زوجهـا تجعله شقياً فى حياتـه ، كـأنْ تكـون سليطـةَ اللسان ، أو دائمـة الشِّجـار ، أو لا تعطى اهتمـاماً لزوجهـا ، أو تحـاول إثـارتـه بـأنْ تجعله يشكّ فيهـا.

وقـد يكـون الرجلُ طاهـرَ الأسلوب فى الحيـاة وتكون زوجتُـه راغبة فى أنْ

---

(١) وضاق بهم ذرعاً : ضاق صبره وعظم المكروه عليه ، وأصله من ذرع فلاناً القيء : إذا غلبه وسبقه . وأيضاً معناه : ضاق بهم وُسْعه . فناب الذراع عن الوسع . ويقولون : ضقت بهذا الأمر ذراعاً . (زاد المسير لابن الجوزى) .

يأتيها بالمال من أيِّ طريق ، وقد تكون المرأةُ طاهرة الأسلوب فى الحياة ، فلا ترضى أنْ يتكسَّب زوجها من مال حرام .

والحق سبحانه عندما يقول : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ .. (١٤) ﴾ [التغابن]

وفى هذا القول نجد أن العداوة تأتى من الأزواج قبل الأولاد ، ونعلم أن الزوجة فى بعض الأحيان هى التى تكره أولاً ، ثم يتأثر بكراهيتها ويتشبَّه بها الأبناء.

وكثيراً ما يكون الأولادُ فتنةً للآباء ، والفتنةُ بالأولاد تأتى من حِرْص الآباء عليهم والسعى إلى جعلهم فى أحسن حال ، وربما كانت الإمكاناتُ غيرَ كافية، فيُضطر الأبُ إلى الحرام من أجل أولاده .

فالفتنة تأتى الإنسانَ غالباً من الزوجة لزوجها ، أو من الزوج لزوجته أو من الولد ، لماذا ؟ لأنهما يحملانك على ما لا تطيق ، ويضطرانك ربما للسرقة أو للرشوة لتوفر لهما ما يلزمهما .

ورسول الله ﷺ قال : « ليس عدوك الذى إنْ قتلتَه كان لك نوراً ، وإنْ قتلك دخلتَ الجنة ، ولكنَّ أعدى عدوك ولدك الذى خرج من صُلْبك ، ثم أعدى عدوٍّ لك مالُكَ الذى ملكتْ يمينُك » [1].

فالإنسان منا حينما يُرزق بالولد أو البنت يطير به فرحاً ، ويُؤثره على نفسه ، ويُخرج اللقمة من فِيه ليضعها فى فم ولده ، ويسعى جاهداً ليوفر له رفاهية العيش ، ويُؤمِّن له المستقبل المُرضى .

---

(١) أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (٣٣٦٧) وكذا فى مسند الشاميين (ص ٣٣٢) وقد ضعفه الألبانى فى السلسلة الضعيفة (٤٣٧٥) وقد قال ابن حجر الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٧٧٩٩) : فيه محمد بن إسماعيل بن عياش وهو ضعيف

وصدق الشاعر[1] حين قال :

إِنَّمَا أَوْلادُنَا أَكْبَادُنَا ... تَمْشِى عَلَى الأَرْضِ

إِنْ هَبَّتْ الرِّيحُ عَلَى بَعْضِهِم ... امْتَنَعَتْ عَيْنِى عَنِ الغُمْضِ[2]

ولكن أحياناً كثيرة يكون بعض الأولاد سببَ شقاء آبائهم ، ويكونون أعداء لذويهم ، إمّا بصَرْفهم عن الطاعة ، أو باضطرارهم إلى كسْب المال الحرام لتوفية متطلباتهم الحياتية التى لا تنتهى .

وليس الأولاد وحدهم بل الأزواج أيضاً ، ففى رواية لهذا الحديث : « ولكن أعدى عدوِّك نفسك التى بين جَنْبيْكَ ، وامرأتك تُضاجعك على فراشك وولدك من صُلْبك »[3].

ونحن نجد فى القرآن قصة العبد الصالح الذى قتل غلاماً كان أبواه مؤمنين، فخشى العبد الصالح أنْ يُرهقهما طغياناً وكفراً ، فهذا الولد كان فتنة ، ولعله كان سيدفع أبويه إلى كلِّ محرَّم ويأتى لهما بالشقاء .

وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) ﴾ [الكهف]

وكثيراً ما يكون الأولادُ فتنةً للآباء ، والفتنة بالأولاد تأتى من حِرْص الآباء عليهم والسَّعى إلى جَعْلهم فى أحسن حال ، وربما كانت الإمكاناتُ غيرَ كافية، فيُضطر الأب إلى الحرام من أجل أولاده .

---

(١) هو حبيب بن أوس الطائى أبو تمام ، ولد ١٨٨ هـ فى جاسم من قرى حوران بسورية نزل مصر وبغداد، كان أسمر طويلاً ، فى شعره قوة وجزالة ، توفى عام (٢٣١) عام قيام الدولة العباسية .

(٢) أورده ابن أبى عون فى التشبيهات وعزاه لـ (حطان بن المعلّى) ، وكذا البصرى فى الحماسة البصرية:

وإنما أولادنا بيننا ... أكبادنا تمشى على الأرض

ولكن أورده ابن العديم فى (الدرارى فى ذكر الذرارى) لأبى تمام حبيب بن أوس الطائى (البيتان معاً).

(٣) أخرجه الديلمى فى (الفردوس بمأثور الخطاب) (٥٢٤٨) وعزاه لأبى مالك الأشعرى . وأورده المتقى الهندى فى كنز العمال (١١٢٦٤) .

وقد علم الحق سبحانه وتعالى أنَّ هذا الغلام سيكون فتنة لأبويه وهما مؤمنان ، ولم يُرد الله تعالى لهما الفتنة وقضى أنْ يقبضهما إليه على حال الإيمان .

﴿ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) ﴾ [الكهف] وخشينا أى خفْنا . فالواحد منا يُولد له ابنٌ فيكون قرة عَيْن وسنداً ، وقد يكون هذا الابن سبباً فى فساد دين أبيه ويحمله على الكذب والرشوة والسرقة ، فهذا الابن يقود أباه إلى الجحيم .

وأوضح قصة للولد الذى عصى أباه وصار عدواً لدعوته ابن نوح ﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) ﴾ [هود]

فكان ردّ الولد على أبيه : ﴿ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ .. (٤٣) ﴾ [هود]

فقال نوح : ﴿ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ .. (٤٣) ﴾ [هود]

فعندما دعا نوحٌ عليه السلام ابنه ليركب معه فى السفينة ، رفض الولد طاعة أبيه ورفض الإيمان وآثر أنْ يظلّ فى جانب الكفر بما فيه من فناء للقوم الكافرين ، وظنَّ أنه قادر على أنْ يأوى إلى جبل يعصمه من الطوفان .

فظنَّ ابن نوح أنه سينجو إنْ آوى إلى جبل ، لعل ارتفاع الجبل يعصمه من الغرق ، لكن نوحاً عليه السلام يعلم أنْ لا نجاةَ لكافر ، بل النجاة فقط هى لمن رحمه الله بالإيمان .

فنبَّهه أبوه وحذَّره فقال : ﴿ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ .. (٤٣) ﴾ [هود]

فهذا عدو أبيه ، بل هو عدو نفسه لأنه أوردها المهالك ، ومعلومٌ أنّ الإنسانَ قد يظلم غيره لحظِّ نفسه ولصالحها ، فكيف يظلم هو نفسه ، وهذا يُسمُّونه الظلم الأحمق حين تظلم نفسك التى بين جنبيْك ، ولكن كيف ذلك ؟

نعرف أنَّ العدو إذا كان من الخارج فسهْلٌ التصدِّى له ، بخلاف إذا جاءك من نفسك التى بين جنبيك ، فهذا عدو خطير صَعْب التصدى له والتخلُّص منه .

والولد ونفسك التى بين جنبيْك ، وزوجك التى هى أقرب الناس إليك وقد أفضيتُما إلى بعضكما البعض ، قد تصبح هى أعدى أعدائك بأنْ تملك عليك لُبَّك وعقلك ونفسك ، فتقنعك بما فيه هلاكك وبما يبعدك عن منطق الإيمان .

وقد نزلت هذه الآية في عوف بن مالك الأشجعي[1] وكان ذا أهل وولد ، فكان إذا أراد الغزو بكوا عليه ورقّقوه ، فقالوا : إلى مَنْ تدعنا ؟ فيرقّ ويقيم [2].

وقال مجاهد : يحمل أحدَكم حبُّ ولده وزوجته على قطيعة الرحم أو على معصية ربه ، ولا يستطيع مع حبه إلا أنْ يعطيه ، فنهى اللهُ عن طاعتهم فى ذلك .

وهم فى هذا يُضاهون قوْلَ العدو الأول لبنى آدم وهو الشيطان ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « إنَّ الشيطانَ قعد لابن آدم فى طريق الإيمان ، فقال له : أتؤمن وتذر دينك ودين أهلك ومالك ؟ فخالفه فآمن ، ثم قعد له على طريق الهجرة فقال له : أتهاجر وتترك أهلك ؟ فخالفه وهاجر. ثم قعد له على طريق الجهاد فقال له : أتجاهد فتقتل نفسك فتنكح نساؤك ويقسَّم مالك ؟ فخالفه فجاهد فقُتل ، فحقٌّ على الله أنْ يُدخله الجنة [3] .

فعداوته للإنسان عداوة مُسبقة ، وقد أقسم أنْ يُغوى بنى آدم جميعاً ،

---

(١) عوف بن مالك الأشجعى ، يكنى أبا عبد الرحمن ، أول مشاهده خيبر ، كانت معه راية أشجع يوم الفتح وسكن الشام توفى بدمشق عام ٧٣ هـ [أسد الغابة ٣٨/٢] شهد غزوة ذات السلاسل ومؤتة وتبوك . كان من نبلاء الصحابة .

(٢) أخرجه الطبرى فى تفسيره (جامع البيان) فى تفسير آية ١٤ التغابن (٣٤٥١٧ طبعة دار هجر) . وأورده محمد الطاهر بن عاشور فى التحرير والتنوير .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (١٦٠٠٠) والنسائى فى سننه (٣١٣٤) وابن حبان فى صحيحه (٤٥٩٣) وأبو القاسم البغوى فى معجم الصحابة (١١٨٨) والطبرانى فى المعجم الكبير (٦٤٢٨) عن سبرة بن أبى فاكه رضى الله عنه .

فقال : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ﴾ [الأعراف] ، وقال : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص] ، وقال : ﴿ لَأَحْتَنِكَنَّ[1] ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (٦٢) ﴾ [الإسراء]

فأقسم بعزة الله سبحانه أنْ يُغوى خَلْقه ، لذلك كان الشيطانُ هو أول عدوٍّ للإنسان ، ويقف على الطريق المستقيم ، مثال ذلك عندما يتصدّق إنسان بصدقة قد يعلنها ويقول : لقد تصدقتُ أكثرَ من فلان .

ونجد أن إبراهيم عليه السلام قد نجح في اختبار الله له بابنه إسماعيل ، فكان الولد عَوْناً لأبيه على طاعة ربه ، لا عدواً له ، لذلك نقرأ على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى .. (١٠٢) ﴾ [الصافات]

ولننظر إلى ما قاله إسماعيل عليه السلام : ﴿ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) ﴾ [الصافات] فإسماعيل أخذ الكلام على أنه أمرٌ من الله ، فكان ممتثلاً لأمره .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) ﴾ [التغابن]

قد يسأل سائل : ما مناسبة الكلام هنا عن العفو والصلح والمغفرة بعد الحديث عن عداوة بعض الأزواج والأولاد ، ولابد أنْ نعرف هنا سببَ نزول هذه الآية .

فقد نزلتْ في أولاد الذين هاجروا من مكة إلى المدينة ، وأراد أهلوهم وزوجاتهم وعيالهم أنْ يصرفوهم عن الهجرة بقولهم : لمن تتركوننا ؟ فالبعض كان يستجيب لهم ويقعد عن الهجرة ، فيرقّ قلبه لتوسلاتهم بالبقاء وعدم الهجرة .

---

(١) لأحتنكن : لأستولين ولأحتوينهم ولأضلنهم ولأستأصلنهم . قال القرطبي : والمعنى متقارب أي لأستأصلن ذريته بالإغواء والإضلال .

والبعض الآخر كان لا يستجيب لهم ، فكانوا يقطعون عنهم النفقة ، وكان البعض يقول لمن تخلَّف من أزواجه وأولاده : لئن جمعنا الله وإياكم لا تصيبون منِّي خيراً ، ولأفعلن وأفعلن ، فأنزل الله هذه الآية [1].

لذلك جاء قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) ﴾ [التغابن] بعد قوله ﴿ فَاحْذَرُوهُمْ .. (١٤) ﴾ [التغابن]

فهو دعوة إلى الرفق في الحذر والتلطف في لقاء المكروه الذي يجيء إلى المؤمن من زوجه أو ولده ، فإذا كان من واجب المؤمن أنْ يحذر هذا العدو الكامن في أقرب الناس إليه وآثرهم عنده .

فإنَّ هذا العدو يجب أنْ يُنظر إليه من جانب آخر على أنه صديق ، وأن هذه العداوة طارئة ، وأنه يمكن أنْ تعالج هذه العداوة بالحكمة والحسنى على ألاَّ يكون ذلك على حساب الدين .

فالعفو والصفح والمغفرة من المؤمن لزوجه وولده الواقعيْن في موقع الفتنة والعداوة له في دينه ، إنما هو صبرٌ على الأذى واحتمال الضّر في سبيل الإبقاء على علائق الود ووشائج القربى التي هي من أمر الدين ومن طبيعة الحياة .

ونلاحظ أن الحق سبحانه هنا جمع بين مراتب ثلاثة : العفو والصفح والمغفرة . والواو التي بين (تعفوا) و (تصفحوا) و (تغفروا) هي واو المغايرة، أي : أن العفو مقام آخر ومرتبة أخرى غير الصفح وغير المغفرة .

فقد تعفو عمَّنْ أساء إليك في خصوص موقف ما ولكنك لا تصفح عنه ، فإنَّ الصفحَ يدفعك أنْ تعفو عنه في مواقف أخرى ، ولكنك لا تفعل لأنك لم تصفح، وكذلك الصفح غير المغفرة ، فقد تصفح عن إنسان فلا تذكر سيئته أمام أحد ولا تُعاقبه وتصفح عنه في مواقف أخرى .

---

(١) أورده مقاتل بن سليمان في تفسيره (٣/٣٦٩) وكذا أبو إسحاق الثعلبي في (الكشف والبيان عن تفسير القرآن) (٩/٣٢٩) .

أمـا المغفـرة فإنها مرتبـة أخرى ومقـام آخر عـالٍ لا يتسم بـه إلا الأقلُّون أصحاب الحظ العظيم فى العفو والصفح ، فتجده يتخلَّق بخُلق الله سبحانه فى المغفرة .

فالمغفـرة أصبحتْ سلـوك حياته وأخلاقه فيتجاوز عـن كلِّ إساءات الناس ولـو تكـررتْ ويكل أمره إلى الله ، فلا ينتصر لنفسه ولا ينتظر من أحد طلبَ عفو أو صفـح ، فتجـده سهلاً ليِّناً مُعرضاً عن الانتصار لنفسه ، ولو بالنظرة الحادة لمَنْ أساء إليه .

ومثـل هذه المقامات المتدرجة نجدها أيضاً فى قوله تعالى : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ واللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) ﴾ [آل عمران]

فأنـت تكظـم غيظك فـى المرحلة الأولى ، وتعفـو فى المرحلـة الثانية ، وإنْ أخرجـت الانفعال من قلبـك وصلتَ إلى المرحلة الثالثـة ، وهى التى تمثل قمة الإيمان وهى الإحسان .

فـإذا كان المطلـوب فى المرحلة الأولى منع العمـل النزوعى فتكظم غيظك ، فالأرقى من ذلك أنْ تعفو ، والعفو هو أنْ تُخرج المسألة التى تغيظك من قلبك ، وإنْ كنتَ تطلب مرحلة أرقى فى كظم الغيظ والعفو فأحسِن إليه بالكلمة الطيبة ولو أنْ تهدى إليه شيئاً .

وقد يقول قائل : ولكن الآية التى معنا هنا بدأت بالعفو وليس بكظم الغيظ ، فقال : ﴿ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا .. (١٤) ﴾ [التغابن]

نعـم ، هنا العفو هـو المرحلة الأولى بينما هو فى سـورة آل عمران المرحلة الثـانيـة بعد كظم الغيـظ ، وذلك لأن آية سورة آل عمران تتحدث عن ضرر واقع على نفس أو سَمْع الإنسان ، فكان لابدَّ من الكظم أولاً .

أمـا آيـة التغابن فالأمـر يتعلق بعـدم طاعة الأب فـى تنفيذ أمر مـن أوامر

منهـج الله ، فيحتــاج إلى العفو والملاينة والملاطفة لعـلاج ما اعوجَّ من زوجه وأولاده.

والفـرق بـين العفو والصفـح أنَّ العفو هو أنْ تمحو من نفسـك أثر أى إساءة، وكأنه لم يحدث شيء . يقال : عفَتِ الريحُ الأثرَ أى : مسحته وأزالتْه ، فالإنسان حين يمشى على الرمال تترك قدمُه أثراً فتأتى الريح وتعفو الأثر أى تزيله .

أمـا الصفح فيعنى طَيّ صفحات هذا الموضوع لا تجعله فى بالك ، ولا تجعله يشغلك .

فهناك فرق بين أنْ تمحو الخطيئة ويبقى أثرها فى نفسك وتظل فى حالة من الغيـظ والحقد ، والحق هنا يأمر بالعفـو أى إزالة أثر ما حدث ، ويأمر بالصفح أى أنْ تُخرج أثر الخطيئة من بالك .

فعنـد الصفـح لا يبقى أثـرٌ لهذا الذنب مطلقـاً فلا يعمل فى قلبـه ، بل يأتى الصفح حتى لا ينشغل قلبُ المؤمن بشيء قد عفا عنه ، ثم تأتى المرحلة الثالثة، وهــى فرصة مفتوحة لمَنْ يريد أنْ يتمادى فى مرتبـة الإحسان وترقى اليقين والإيمان بأنْ يُحسن الإنسان إلى مَنْ أساء إليه .

وهــذه المرتبة هى مقام المغفـرة ﴿ وَتَغْفِرُوا .. (١٤) ﴾ [التغابن] هذه المغفرة تجعلـك مُنفِّذاً لقـول الرسول الكريم ﷺ مما رواه أبيّ بن كعـب قال : لما أنزل الله عـز وجـل على نبيـه : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُـرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَـنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) ﴾ [الأعراف]

قــال رسـول الله : ما هذا يا جبريل ؟ قال : إن الله أمرك أن تعفو عمن ظلمك ، وتعطى مَنْ حرمك ، وتصِل مَنْ قطعك »[1].

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٧٠٨) من حديث الشعبى مرسلاً وعزاه لابن أبى الدنيا وابن جرير الطبرى وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبى الشيخ الأصبهانى . وأخرجه أبو نعيم الأصفهانى فى معرفة الصحابة (٥١٣٤) من حديث قيس بن سعد بن عبادة .

فمغفرتـك تجعلك تعفو رغم الظلـم الواقع عليك ، وتعطى رغم أنهم حرموك ، وتصل مَنْ طردك وقطعك .

ويُنهـى الحق سبحانـه الآية بقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ اللهَ غَفُـورٌ رَحِيمٌ .. (١٤) ﴾ [التغابن] . وغفور صيغة مبالغة (فعول) فهو سبحانه دائم المغفرة ، لأنه ربٌّ وبربوبيته يعفو ويصفح ويغفر ، وعلى العبد أنْ يتخلَّق بأخلاق الله سبحانه .

والحـق سبحانه يقـول : ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّـونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢) ﴾ [النور]

فـإنْ كنتَ تحـب أنْ يغفر اللهُ لك ، أفلا تغفر لمن فعـل معك سيئة ؟ وما دمت تريـد أن يغفـر الله لك فاغفر للناس خطأهم ، وهـو سبحانه ﴿ غَفُورٌ .. (١٤) ﴾ [التغابـن] لمـا قد بدر وحصل منكم من ذنوب استغفرتم ربكم منها ، وهو أيضاً ﴿ رَحِيـمٌ (١٤) ﴾ [التغابـن] بكم فلا يعاجلكـم بالعقوبة شفقةً عليكم وحُباً فى رجوعكم إليه .

يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾

فقد تجد البعضَ يستمتعون بالمال والولد ، ولا يلتفت الإنسانُ الناظر إليهم إلى أن المـال والولـد هما أدواتُ عذابه ،وقد يقول إنسـانٌ : إنَّ الله قال : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٤٦) ﴾ [الكهف]

ونقول لمن يقول ذلك : أكمل الآية : ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (٤٦) ﴾ [الكهف]

ولا يغتر أحدٌ بالمال والولد ، لذلك يقول تعالى : ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥) ﴾ [التوبة]

فإياكم أنْ تروا واحداً من هؤلاء ممَّنْ رزقهم الله المال والولد ثم تقولون : كيف يكون عذابهم فى الدنيا وهم يملكون المال والولد ؟ ومثل هذا التعجب يعنى استحسان المال والولد والظن أن فيهما الخير كله .

لكنك إنْ نظرتَ بعمق إلى المال والولد وكل حطام الدنيا فستجده لا يستحق الإعجاب ، وإياك أنْ تغترَّ بشيء يمكن أنْ يتركك ، ويمكن أنْ يكون سبباً فى عذابك .

فالمال والولد قد يجعلان الإنسان مُلتفتاً إلى النعمة ويُلهيانه عن المنعم ، وإنْ لم يلتفت الإنسانُ إلى المنعم لا يذكره ، وإنْ لم يذكر الله أهمل منهجه .

والمال والولد فى الحياة الدنيا قد يكونان سببين فى أنْ يخاف الإنسان ترك الدنيا ، فإنْ لم يكُنْ لك إيمان بما عند الله فى الآخرة فقد تخاف أنْ يتركك المال أو الولد .

والذى لا يؤمن باليوم الآخر فالدنيا هى كل زمنه ، وإنْ فاتها كان ذلك مصيبة له ، وإنْ فاتته كان ذلك مصيبة عليه ، وإنْ آمن الإنسان بالله واليوم الآخر لَقالَ : لئن فاتتْنى الدنيا فلِى عند الله خيرٌ منها .

ويريد الحق سبحانه أنْ يمنع عن المؤمنين به فتنة النعمة التى تُلهى عن المنعم . فيقول الحق سبحانه : ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ .. (٥٥) ﴾ [التوبة] وهذا يدلُّنا على أن للمال وحده إعجاباً ، وللأولاد وحدهم إعجاباً .

فمَنْ عنده مالٌ معجبٌ بما عنده ، ومَنْ ليس عنده مالٌ وعنده أولاد معجبٌ بهم أيضاً ، فإذا اجتمع الاثنان معاً يكون الإعجابُ أكبرَ وأشملَ .

والحق سبحانه وتعالى يريدنا أنْ نفهم أنَّ اجتماعَ المال والولد يجب ألاَّ يثير الإعجاب في نفوسنا ، بل إنَّ سياق الآية يحذرنا من أنْ نعجب بمن عنده المال وحده ، أو بمَنْ عنده الأولاد وحدهم ، لذلك كرر الحق سبحانه كلمة (لا) فقال : ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ .. (٥٥) ﴾ [التوبة]

وأفهمنا الحقّ سبحانه أنه إذا أمدّ الكافر أو المنافق بالمال والولد ، فذلك ليس رفعةً من شأنه ، وإنما ليُعذبه بهما في الدنيا والآخرة ، فقال : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا .. (٥٥) ﴾ [التوبة]

واللام هنا في ﴿ لِيُعَذِّبَهُمْ .. (٥٥) ﴾ [التوبة] هي لام تدخل على الفعل واسمها « لام العاقبة » ، وهي تعني أننا ربما نقوم بالفعل لهدف معين ، ولكن قد تكون عاقبتُه شيئاً آخر تماماً غير الذي قصدناه ، بل ربما تكون عكس الذي قصدناه .

والأموال والأولاد لا يُغْنون من الله ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا .. (١١٦) ﴾ [آل عمران]

فالكافرون يظنُّون أن الأموال والأولاد قد تُغني من الله ، إنهم لا يُحسنون التقدير ، فالأموال والأولاد هم من مظانِّ الفتن ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨) ﴾ [الأنفال]

وما دامت الأموال والأولاد فتنة فلا بد أنْ نفهم الأمر على حقيقته ، فالفتنة ليست مذمومة في ذاتها ،لأن معنى (فتنة) اختبار وامتحان ، وقد يمر الإنسان بالفتنة وينجح .

وذلك كأنْ يكون عنده الأموال والأولاد ، وهم فتنة بالفعل فلا يغره المال ، بل إنه استعمله في الخير ، ولم يُصبه الأولاد بالغرور بل علّمهم حَمْلَ منهج الله وجعلهم يَنشئون على النماذج السلوكية في الدين .

لذلك فساعة يسمع الإنسانُ أيّ أمر فيه فتنة فلا يظن أنها أمر سيء ، بل عليه أنْ يتذكّر أنّ الفتنة هى اختبار وابتلاء وامتحان ، وعلى الإنسان أنْ ينجح مع هذه الفتنة ، فالفتنة إنما تضر مَنْ يُخفق ويضعف عند مواجهتها .

والكافرون لاينجحون فى فتنة الأموال والأولاد ، بل سوف يأتى يوم لا يملكون فيه هذا المال ، ولا أولئك الأولاد ، وحتى إنْ ملكوا المال فلن يشتروا به فى الآخرة شيئاً ، وسيكون كلُّ واحد من أولادهم مشغولاً بنفسه .

فالكافر من هؤلاء يخدع نفسه ويغشّها ويغتر بالمال والأولاد وينسى أن الحياة تسير بأمر مَنْ يملك المُلْك كله ، إن الكافر يأخذ مسألة الحياة فى غير موقعها ، فالغرور بالمال والأولاد فى الحياة أمر خادع ، فالإنسان يستطيع أنْ يعيش الحياةَ بلا مال أو أولاد .

ومَنْ يغتر بالمال أو الأولاد فى الحياة يأتى يوم القيامة ويجد أمواله وأولاده حسرةً عليه لماذا ؟ لأنه كلما تذكر أن المال والأولاد أبعداه عما يؤهله لهذا الموقف فهو يعانى من الأسى ويقع فى الحسرة .

ويقول الحق سبحانه عن هذا المغتر بالمال والأولاد وهو كافر بالله : ﴿ وَأُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١٦) ﴾ [آل عمران] وهذا مصيرٌ يليق بمَنْ يقع فى خديعة نفسه بالمال أو الأولاد .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ .. (٢٨) ﴾ [الأنفال]

وفى هذا المعنى نجد سيدنا عمر رضى الله عنه وقد دخل عليه حذيفة فسأله: كيف أصبحتَ ؟ أجاب حذيفة : أصبحتُ أحبُّ الفتنة ، وأكره الحقَّ ، وأصلى بغير وضوء ، ولى فى الأرض ما ليس لله فى السماء .

وغضب سيدنا عمر ، ولولا دخول سيدنا على بن أبى طالب لَكَانَ لسيدنا عمر شأن آخر مع حذيفة . وسأل عليٌّ عمرَ : ما يُغضبك يا أمير المؤمنين ؟ قال عمر:

سألت حذيفة كيف أصبحت فقال كذا وكذا .

فقال على رضى الله عنه : نعم يا أمير المؤمنين ، أصبح يحب الفتنة ، أى يحب ماله وولده ، فالحق سبحانه قال : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ .. (١٥) ﴾ [التغابن] وهو يكره الموت والموت حَقٌّ ، مَنْ فينا يحبه يا أمير المؤمنين ؟

وهو يصلى بغير وضوء على النبى ﷺ ، وله فى الأرض زوجة وله ولد وهو ما ليس لله فى السماء ، فقال عمر قولته المشهورة : بئس المقام بأرض ليس فيها أبو الحسن [1].

والحق سبحانه فى آية سورة الأنفال قال : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا.. (٢٨) ﴾ [الأنفال] وفى آية سورة التغابن قال ﴿ إِنَّمَا .. (١٥) ﴾ [التغابن] ، وكلاهما يدل على أن الله يخبرهم ويعلمهم ويعلمنا بحقيقة كونية ، وهى أن الأموال والأولاد فتنة أى محنة واختبار وابتلاء . ففى الآية الأخرى يؤكد الأمر بـ(إنما) .

وقد يسأل سائل : لماذا بدأ الكلام بالأموال أولاً ثم ذكر الأولاد ؟

نقول : المتتبع لآيات القرآن يجد أنها دائماً تذكر المال قبل الأولاد ، يقول تعالى : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٤٦) ﴾ [الكهف] فذكرَ المال أولاً ، ثم ذكر (البنون) .

ويقول تعالى لإبليس : ﴿ وَاسْتَفْزِزْ[2] مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ .. (٦٤) ﴾ [الإسراء]

---

(١) أخرج ابن سعد فى الطبقات الكبرى (٢/٣٣٩) عن سعيد بن المسيب قال : كان عمر يتعوذ بالله من معضلة ليس فيها أبو الحسن ، وذكره السيوطى فى جامع الأحاديث (٣٠٨٢٩) .

(٢) واستفزز أى استزل واستخف . أى استنهض ليقوم ويخف ويتحرك . (بصوتك) أى بوسوستك . (وأجلب عليهم) أى صِحْ عليهم من الجلبة وهى الصياح ﴿ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ (٦٤) ﴾ [الإسراء] المقصود وأجلب راكبى الخيل وهم الفرسان . ورجلك : الماشين على أرجلهم . والمقصود بجيشك راكبين أو ماشين .

ويقـول : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَـاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُـرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ .. (٢٠) ﴾ [الحديد]

فدائمـاً القـرآن يذكر الأموال قبل الأولاد . فلماذا قـدَّم المال ؟ أهو أغلى عند الناس من البنين ؟ وقد قدَّمه سبحانه لأن المال عام فى المخاطب على خلاف البنين .

فـكلّ إنسان لديـه المال وإنْ قلَّ ، أما البنون فهـذه خصوصية ، ومن النـاس مَـنْ حُـرم منها ، كمـا أن البنـين لا تأتى إلا بالمـال ، لأنه يحتـاج إلى الزواج والنفقة لكى يتناسل وينجب .

إذن : كلٌّ واحد له مـال وليس لكلِّ واحد بنون .

والحـق سبحانـه يقـول : ﴿ إِنَّمَـا أَمْوَالُكُـمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَـةٌ .. (١٥) ﴾ [التغابن]
والفتنـة ابتـلاء واختبـار ، والحق سبحانـه يختبر الإيمان بـالفتنـة ، ويخطىء الناس عندما يظنون أن الابتلاء فى ذاته شر ، لا إن الابتلاء مجردُ اختبار .

والاختبار عُرْضة أنْ تنجح فيه وأنْ ترسب ، فالفتنة ليست شيئاً مذموماً ولا هى مصيبة تقع ، ولكن المصيبة تقع إذا رسب الإنسانُ فى الفتنة .

والفتنـة مأخوذة من أمر حسِّيٍّ هو فتنة الذهب وكذلك الحديد ، فتنة الذهب هى صَهْر الذهب فى البوتقة حتى ينصهر ، فتطفو كالزبد كل العناصر الشائبة المختلطـة بالذهب ، وكذلك الحديد يتم صَهْـره حتى تنفصل الذرات المتماسكة بعضها فى بعض ويطفو الخبث .

ونعـرف أن الحديـد أنواع ، فالحديد الزهر شوائبه ظاهرة به وسهل الكسر ، بينما نجد الحديد الصلب بلا خَبَث فهو صلب ، وفتنة الذهب والحديد تكشف عن المعادن الغريبة المختلطة به .

ونُقلت كلمة « الفتنة » من المحسَّات إلى المعانى وصارت الفتنة هى الاختبار الذى ينجح فيه الإنسان أو يرسب ، فهى ليستْ ضارة فى ذاتها ولكنها ضارة لمَنْ يرسب فيها .

فالاختبارات التى يمرُّ بها الإنسان كلّها هى فتنة ، والذى ينجح تكون الفتنةُ بالنسبة إليه طيبةً ، والذى يرسب ويفشل فالفتنة بالنسبة إليه سيئة .

وإذا كان رسول الله ﷺ قد استشهد هنا بآية سورة التغابن : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ .. (١٥) ﴾ [التغابن] فى الحديث الشريف الذى رواه عبد الله بن بريدة عن أبيه بريدة الأسلمى [١] قال : رأيتُ رسول الله ﷺ يخطب ،فجاء الحسن والحسين رضى الله عنهما وعليهما قميصان أحمران يمشيانِ ويعثرانِ ، فنزل ﷺ فحملهما بين يديه ثم قال : « صدق الله عز وجل : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ .. (١٥) ﴾ [التغابن] نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعتُ حديثى ورفعتُهما [٢] ثم أخذ فى خطبته .

فرسول الله يقصد بفتنة الأولاد هنا الانشغال وأخْذ الفكر ، لا أنهما سيأخذانه لطريق غير طريق الإيمان ، بل هى الفتنة بمعنى أنْ يشغلاه عمَّا هو فيه من عمل وخطبة لا أكثر .

ومن هذا أيضاً ما رواه أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ تجوَّز ذات يوم فى صلاة الفجر . فقيل : يا رسول الله لم تجوَّزْتَ ؟ قال : سمعتُ بكاءَ صبيٍّ فظننتُ أنَّ أمه معنا تصلى فأردتُ أن أفرغ له أمه [٣].

---

(١) بريدة الأسلمى هو بريدة بن الخصيب ، كان رئيس قبيلة أسلم ، ولما هاجر رسول الله ﷺ مر بكراع الغميم وبريدة بها فدعاهم رسول الله إلى الإسلام فأسلموا ، ثم قدم بريدة على رسول الله المدينة وهو يبنى المسجد ، ومات بريدة فى خلافة يزيد بن معاوية بمرو .

(٢) أخرجه أبو داود فى سننه (١١١١) والترمذى فى سننه (٣٧٧٤) والنسائى فى سننه (١٤١٣) وكذا ابن ماجه (٣٦٠٠) وأحمد فى مسنده (٢٣٠٤٥) من حديث بريدة الأسلمى .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (١٣٧٢٦) من حديث أنس بن مالك . وقد أخرج ابن أبى داود فى كتاب (المصاحف) (٤٢٤) عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ كان يقرأ فى الفجر بأول المفصل ، فقرأ ذات يوم بقصار المفصل . قيل له فقال : إنى سمعت بكاء صبى ،فأحببت أن أفرغ له أمه .

لقد شغله بكاء الصبى ، فما بال قلب أمه ؟! إنه أراد أنْ يرحم الأم ويرحم الصبيّ الذى يبكى يريد أمه لأمر ، وهذا إذا قلنا عنه أنه فتنة فى الصلاة بسبب الولد ، فإنه لا يصل إلى معنى الفتنة التى تقصده آية سورة التغابن .

فرقَّةُ قلب رسول الله وحُبه لابنيْ ابنته فاطمة الحسن والحسين ، وحُبه لفاطمة التى قال عنها « إنما هى بضعة منى »[1] لقد كانت أحبَّ بناته إليه ، لذلك كان الحسن والحسين أحبَّ أحفاده إلى قلبه ، فأبوهم عليّ ابن عمه الذى فاداه بنفسه ليلة الهجرة إلى المدينة .

لقد صَعُبَ عليه أنْ يرى حفيديْه يمشيان ويعثران فيما يلبسانه ، فأراد أنْ يقِيل عثرتهما ، فترك خطبته ونزل من على منبره الشريف وأخذهما بيديْه ورفعهما من على الأرض .

ثم قال : صدق الله : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ .. (١٥) ﴾ [التغابن] ، فالأولاد قد يكونون فتنة واختباراً ، المهم هل هما فتنة واختبار خيْر أم شر .

فليست كلُّ فتنة شراً ، وليس كلُّها خيراً ، فالفتنة لابدَّ منها ، يقول تعالى : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) ﴾ [العنكبوت]

وفتنة الأموال تأمر الناس بالبخل والكنز والفساد بكلِّ أصنافه ، وفتنة الأولاد تدعو إلى التقاعس عن القيام بالمهمات الكبرى التى قد تطلب من الإنسان فتدعوه إلى الجُبْن والبُخْل والشُّح أيضاً .

والواجب على المؤمن أنْ يستعلى على فتنة المال ويُرخص من قيمته فى النفوس ، فلا يجعل المال يشغله أو يُعطله .

وإذا كان يبغى من وراء المال أو الأولاد المنفعة ، فلا تنظر إلى منفعة عاجلة

---

(١) عن المسور بن مخرمة قال قال رسول الله ﷺ : « إنما فاطمة بضعة منى يؤذينى ما آذاها » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦١) ومسلم فى صحيحه (٣٧١٤ ، ٣٧٦٧) .

مهما كبرتْ وكثرتْ ، ولكن انظر إلى منفعة آجلة عظيمة بعظمة مَنْ يعطيك أجراً عليها .

وأجرك ليس عند أحد من الخَلْق ، بل هو عند مَنْ خلق الخَلْق .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) ﴾ [التغابن] الحق سبحانه يحب من عباده أنْ ينجحوا في الاختبارات التي يتعرَّضون لها ، لا أنْ يفشلوا ، فأنت إذا كنتَ تسعى لتحصيل المال من أيِّ طريق ، أو تستجيب لفتنة أولادك لك فيصرفونك عما لابدَّ لك من الثبات على الطاعة والبُعْد عن المال الحرام حتى ينشأ أولادك من حلال .

واستقامتكم على منهج الله لن تضيع ويجعل الله لكم في طاعتكم ونجاحكم في الفتنة أجراً عظيماً ، لذلك قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) ﴾ [التغابن]

فالنفس البشرية مُولَعة بحكم تكوينها الفطري من الله بحب النفع لنفسها ، ولكن المختلَف فيه هو قيمة هذا النفع ، وعمر هذا النفع لأن الذي يسرق إنما يريد أنْ ينفع نفسه بجهد غيره ، ومَنْ لا يسرق يريد أيضاً أنْ ينفع نفسه ليبارك الله له في المال ، وأنْ يعطيه الرزق الحلال .

وهكذا تكون النفعية وراء كلِّ عمل ، سواء أكان إيجاباً أم سلباً ، فإذا كانت الخيانةُ ستؤدي لك نفعاً في أولادك أو أموالك ، فاذكر ما يقابل الأمانة من الأجر عند الله عزَّ وجل ، وضع هذه في كفة وضَعْ تلك في الكفّة الأخرى ، وانظر أيّ كفّة ترجح ، ولا بد أنْ ترجح كفّة الأجر عند الله عز وجل .

ولنا أنْ نتصوَّر عظمة عطاء الحق ، فالمنهج الإيماني يعود خيره على مَنْ يُؤديه ، وفي هذا يقول تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً .. (٩٧) ﴾ [النحل] ثم يقول ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا

كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧) ﴾ [النحل]

فالحياة الطيبة هى النتيجة الطبيعية للعمل الصالح الذى يبتغى صاحبه وجه الله والدار الآخرة ، فيجمع الله له حظَّيْن من الجزاء ، حظاً فى الدنيا بالحياة الطيبة الهانئة ،وحظاً فى الآخرة : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧) ﴾ [النحل]

فهو ينتفع من اتباعه منهجَ الله حياةً طيبة مطمئنةً سعيدةً بطاعة الله ، فهو يعيش فى نور الله وبركة رزق الله ، ومع هذا يعطيه الله أجراً على طاعته وثواباً على استقامته رغم أنه انتفع باستقامته .

ثم إن الأجر عند البشر يساوى قيمة العمل ، لكن الأجر عند الله لا يساوى العمل فقط ، بل هو عظيمٌ بطلاقة قدرة الحق سبحانه وتعالى .

فهناك فرْقٌ بين أجر الناس للناس فى الدنيا ، وأجْر المُنعم سبحانه فى الآخرة ، والناس قد ألِفُوا الأجر على أنه جُعْل[1] على عمل ، فعلى قدْر ما تعمل يكون أجرك ، فإن لم تعمل فلا أجرَ لك .

أما أجر الله لعباده فى الآخرة فهو أجر عظيم دائم ، فإن ظلمك الناس فى تقدير أجرك فى الدنيا ، فالله تعالى عادل لا يظلم ، يعطيك بسخاء لأنه المنصف المتفضّل ، وإن انقطع الأجرُ فى الدنيا فإنه دائم فى الآخرة ، لأنك مهما أخذتَ من نعيم الدنيا فهو نعيمٌ زائل ، إما أنْ تتركه وإما أنْ يتركك .

ووصْف الأجر بأنه عظيم يدلُّ على كِبرَ فى الحجم ونفاسة فى الصفات وامتداد فى الزمن ، وهذه هى عناصر العظمة فى الشيء ، وأى أجر أعظم من أجر الله لعباده فى الآخرة !!؟

---

(١) الجُعْل : ما يُجعل من العطية أو غيرها أو أجر على عمل . فالجُعل بالضم ما جُعل للإنسان من شيء على شيء يفعله وكذلك الجِعالة بالكسر . وفى كتاب التعريفات للجرجانى : الجعل ما يُجعل للعامل على عمله .

وعظمـةُ الأجـر أيضاً أنه عند الله لا عند البشر، قال تعـالى: ﴿ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) ﴾ [التغابن] وفى آية أخرى ﴿ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ .. (١١٢) ﴾ [البقرة]

فـالله جعل التكليف منـه سبحانه، فالمنطقى أنْ يكـون الأجرُ عند الله، فلا يوجد خوفٌ أو حزنٌ من أنْ لا ينالوا أجرهم الذى وعدهم الله به، فالخوف يكون من شيء سيقع، والحزنُ يأتى على شيء قد وقع، ولا هذه ولا تلك تحدث عندما يكون أجرُنا عند الله.

فما عند الله لا خوفٌ عليه بل هو يُضاعف ويزداد، وما عند الله لا حزن عليه، لأن الإنسان يحزن إذا فاته خيرٌ ولكن ما عند الله باق لا يفوتك ولا تفوته.

وقـد كانـت السيدة فاطمـة بنت رسـول الله ﷺ تجلـو الدرهـم وتُطيِّبه عند التصـدُّق به، فلما قيـل لها: ماذا تصنعين؟ قالت: أجلـو درهماً وأطيِّبه لأنِّى نويتُ أنْ أتصدَّق به، فقيل لها: أتتصدقين به مجلواً ومُعطراً؟

قالـت الزهراء بنـت رسول الله ﷺ: لأنِّى أعلم أنه يقع فى يد الله قبل أنْ يقع فى يد الفقير[1].

إن الأجر يكون عند من يُغليه ويُعليه ويرتفع بقيمته، وهو الخالق الوهاب.

ومَنْ يتأمل آيات القرآن يجد فيها معنًى جميلاً فى الأجر العظيم، أن الأجر أحياناً لا يكون مقابلاً للعمل الحسن، بل يكون محْضَ الفضل.

يقـول تعـالى: ﴿ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِـنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (٤٠) ﴾ [النساء] فقد أسماه الله أَجراً مع أنه زائد، لأن هذا الفضل جاء تابعاً للأجر، فإذا لم يعمل الإنسان هذا العمل فإنه لا يستحق أجراً، وبالتالى لا ينال فضلاً.

وما دام الأجر من عند الله فهو عظيم، لأنه أجر مناسب للمعطى وهو الله عز وجل.

(١) ذكر السمعانى فى تفسيره (٢/٣٤٦): رُوى عن ابن مسعود أنه قال: إن الصدقة تقع فى يد الله قبل أن تقع فى يد الفقير.

ويقول تعالى : ﴿ وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) ﴾ [النساء]
فما هو الأجر العظيم ؟ يأتى بعده قوله تعالى : ﴿ دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٩٦) ﴾ [النساء]

والدرجات جمع درجة ، وهى المنزلة الارتقائية التى يرتقى فيها الإنسان ، ويضيف عليها الحقُّ سبحانه المغفرة والرحمة .

وكلمة ﴿ عِنْدَهُ .. (١٥) ﴾ [التغابن] فى الآية تعطى ملمحين :

الملمح الأول : هو تيئيس مَنْ لم يؤمن بالله من أن يجد أجْراً فى الآخرة على ما قد يعمله من أفعال الخير دون أنْ يؤمن بالله ، فإنه لم يفعل الصالحات ابتغاءَ مرضاة الله ، أو فعلها لأجل آلهة أخرى مزعومة .

إذن : فخُذْ أجرك ممن فعلت له ، وهذا غير متحقق لأنه لا إله إلاَّ الله ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

والحق سبحانه يقول : ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر] فلا أحدَ له مُلْك يوم القيامة .

وكيف ينتظرون من الله أجراً على أعمالٍ لم يعملوها لله ، بل عملوها لينالوا حظوةً عند الناس فى الدنيا ، وقد نالوها ، وغيرهم فعلوها لآلهة أخرى .

الملمح الثانى : أن كلمة ﴿ عِنْدَهُ .. (١٥) ﴾ [التغابن] تعطى معنى أن الأجر سيكون فى الدنيا أو سيكون فى الآخرة ، لأن الله يملك الدنيا والآخرة ، فـ ﴿ عِنْدَهُ .. (١٥) ﴾ [التغابن] تحتمل العندية فى الدنيا والعندية فى الآخرة .

وهذا غير قوله تعالى عن إيتاء الأجر فى الآخرة ، يقول تعالى : ﴿ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤) ﴾ [النساء]

فنحن أمام ثلاث مراحل لترتيب الجزاء على الفعل : جزاء يأتى فور حصول

الشرط ، وجـزاء يأتى بعـد زمن يسير تؤديه « السين » . وجـزاء يأتى بعد زمن أطول تؤديه « سوف » .

ويستخـدم الحـقِ سبحانــه هنا كلمة (سـوف) ، وكان من الممكـن أنْ يأتى القـول ﴿ فَسَيُؤْتِيـه أَجْـرًا عَظِيمًا .. (١٠) ﴾ [الفتـح] ، ولكن لدقَّـة الأداء القرآنى البالغة جاءتْ بأبعد المسافات وهى (سوف) .

ونعـرف أنَّ جـواب شرط الفعـل إذا ما جاء علـى مسافة قريبـة فنحن نستخدم (السين) ، وإذا ما جاء جوابُ الشرط على مسافة بعيدة فنحن نستخدم (سوف) .

وجـاء الحـق هنا بـ (سوف) لأن مناطَ الجـزاء هو الآخرة ، فإيَّاك أيُّها العبد المؤمن أنْ تقول : لماذا لم يُعطنى اللهُ الجزاءَ على الطيِّب فى الدنيا ؟

لأن الحـق سبحانــه وتعالى لم يقل (فسنؤتيه) ولكنه قــال : ﴿ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤) ﴾ [النساء] مما يدلُّ على أنَّ الفضل والإكرام من الله ، وإنْ كان عاجلاً ليس هو الجزاء على هذا العمل ، لأن جزاء الحق لعباده المؤمنين سيكون كبيراً ، ولا يدلُّ على هذا الجزاء فى الآخرة إلا ﴿ فَسَوْفَ .. (٧٤) ﴾ [النساء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (١٦) ﴾

الاتقاء من الوقـاية ، والوقـاية هى الاحتراس والبُعْد عن الشر ، وقوله تعـالى: ﴿ فَاتَّقُـوا الله .. (١٦) ﴾ [التغابـن] أى : اتقـوا غضـب الله الذى يـؤدى بنـا إلى أنْ نتقـى كلَّ صفـات جلاله ونجعل بيننـا وبينها وقـايـة ، فمن اتقى صفات جلال

الله أخذ صفات جماله .

فصفات الجلال تجدها فى القهار والجبار والمذل والمنعم والضّار ، فمَن اتقى واحترس من قهر الله وجبروته وانتقامه أخذ صفات الجمال المتمثلة فى الغفار والرحيم والتواب والعفوّ .

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ .. (١٦) ﴾ [التغابن] أى : جعلوا بينكم وبين صفات الجلال فى الله وقاية حتى لا يصيبكم عذابٌ عظيم ، ولا تصيبكم آثارُ صفات الجلال، وذلك بأَنْ تكون أعمالكم فى الدنيا وفقاً لمنهج الله سبحانه وتعالى . إذن : فالتقوى مطلوبة فى الدنيا .

وأنتم لا تتحملون متعلقات آثار صفات الجلال ، فأنتم لا تتحملون غضب الله ولا قَهْر الله ولا بطش الله .

فإياكم أَنْ تُغضبوا ربكم فى أيّ عمل من هذه الأعمال ، وكُنْ أيها المسلم فى هذه التقوى على يقين من أنك ملاقي الله ، ولا تشك فى هذا اللقاء أبداً ، وما دُمْت ستتقى الله وتكون على يقين أنك تلاقيه ؛ لم يَبْقَ لك إلا أَنْ تُبشر بالجنة .

يقول تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٢٢٣) ﴾ [البقرة]

وتقوى الله تعنى أَنْ نفعل أوامر الله وأَنْ نتجنَّب نواهيه ، لنحكم حركة اختياراتنا بمنهج ربنا ، فإنْ حكمنا حركة اختياراتنا بمنهج الله صِرْنا مع الكون كأننا مُسخَّرون لقضايا المصلحة والخير .

وبعض السطحيين قد ينظر إلى بعض من آيات القرآن ويقول : إن بها تناقضاً . فيقولون : بعض من آيات القرآن تقول :﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ .. (٢٤) ﴾ [البقرة] . وبعض الآيات تقول ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ .. (٢٧٨) ﴾ [البقرة] فهل للنار وقاية؟ وهل لله وقاية ؟

وهـؤلاء لا يفهمـون أن ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ .. (٢٧٨) ﴾ [البقـرة] تعنى : اجعل وقـاية بينك وبين ما يؤذيك ويُتعبك ، فـ ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ .. (٢٧٨) ﴾ [البقرة] تعنى : اجعل بينك وبين عقاب الله وقـاية ، وهـى الدرع التى يقيمهـا الإنسان بتنفيذ أوامر الله بـ (افعل) والامتثال لنواهى الله بـ (لا تفعل) .

وعندما تجعل بينك وبين الله وقاية فأنت تجعل بينك وبين غضب الله وقاية، وهكذا تتساوى « تقوى الله » مع « اتقاء النار » .

والمتقون هم الذين يجعلون بينهم وبين أيّ شيء يُغضب الله وقاية ، والطريق أنْ نتبع منهجه فلا ندخل النار التى هى جند من جنود الله ، والوقـاية من النار لا تكون إلا بطاعة الله باتباع أوامره واجتناب نواهيه.

فمعنـى اتـق الله : اجعـل بينك وبين عـذاب الله وغضبه وقـايـة ، وهذا نفسه معنى : اتق النار . يعنى : ابتعد عن أسبابها حتى لا تمسَّك النار .

والحق سبحانه يقول هنا : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. (١٦) ﴾ [التغابن] والفاء هنا للتعقيب على ما سبق من قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) ﴾ [التغابن]

فـلا تجعلوا أموالكم وأولادكم يصرفونكم عن طاعـة الله واتبـاع منهج الله ، وإلا تكونون قد فشلتم ورسبتم فى اختبار الله لكم ، وتكون نتيجة الفتنة سلبية بالنسبة لكم .

لذلـك جـاء بعدهــا (فـاتقوا) بوضع فاء قبـل (اتقـوا) أى : انتبهوا واجعلوا تقـوى الله وخشيتـه والخـوف منه هو الـذى يُحرككم لا أهواؤكـم فى الميل مع رغبات أولادكم ورغباتكم فى كَنْز المال والشُّح به والبخل .

ولـو تـأملنـا القرآن نجـده يقول : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. (١٦) ﴾ [التغابن] فلمـاذا قـال هنـا ﴿ مَـا اسْتَطَعْتُمْ .. (١٦) ﴾ [التغابن] وعلَّق الأمر على استطاعة العبـد لتنفيذ التقـوى ، مـع أنـه سبحـانـه قـال فـى آيـة أخرى : ﴿ يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ .. (١٠٢) ﴾ [آل عمران]

ومَـنْ يستطيـع أنْ يتقى الله حـقَّ تقـاتـه ؟ ذلك صَعْب علـى المسلمين ، ولذلك عندمـا نزلـت آية سورة آل عمران قـالوا : ليس منّـا مَنْ يستطيع أنْ يتقى الله حقَّ تقـاتـه ، فنزلت الآيـة الكريمة : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) ﴾ [التغابن]

والـذى يطبـق الآية الكريمـة : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَـقَّ تُقَاتِـهِ .. (١٠٢) ﴾ [آل عمران] يحقـق خـيراً أكبر فى عملـه ولكنه لا يستطيـع أنْ يتقى الله حـقَّ تقـاتـه إلاَّ فـى أعمـال محدودة جداً . إذن : الخير هنـا أكبر ، ولكن العمل الذى تنطبق عليه الآية محدود .

أمـا قولـه تعـالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُـمْ .. (١٦) ﴾ [التغابن] فإنـه قد حدد التقـوى بقدْر الاستطاعة ، ولذلك تكون الأعمـال المقبولـة كثيرة وإنْ كـان الأجرُ عليها أقلّ .

وعندمـا نـأتى إلى النتيجة العـامة .. أعمـالٌ أجرُهـا أعلى ولكنها قليلة ومحدودة جداً ، وأعمـالٌ أجرُهـا أقلّ ولكنهـا كثيرة ، أيّهمـا فيه الخير ؟ طبعـاً الأعمـال الكثيرة ذات الأجر الأقل فى مجموعهـا تفوق الأعمـال القليلة ذات الأجر المرتفع .

ولكـن مـا حـقّ التُّقى ؟ هـو أنْ يكـون إيمـانُك أيهـا المؤمن إيمـانـاً راسخـاً لا يغـادرك ولا تتذبـذب فيه ، واتقـاء الله حقَّ تُقاته هو اتبـاعُ منهجه فيُطاع الله باتبـاع المنهج فلا يُعصى ، ويُذكر فلا يُنسى ، ويُشكر فلا يكفر .

وقيل في معنى : ﴿ حَقَّ تُقَاتِهِ .. (١٠٢) ﴾ [آل عمران] أى : أنه لا تأخذك في الله لومة لائم ، أو أنْ تقول الحق ولو على نفسك . هذا ما يُقال عنه « حق التقى » أى : التُّقى الحق الذى يُعتبر تُقى بحقٍّ وصدق .

وقال العلماء : إن هذه الآية عندما نزلتْ وسمعها الصحابة استضعف الصحابة نفوسهم أمام مطلوبها ، فقال بعضهم : مَنْ يقدر على حقِّ التقى ؟ ويقال : إن الله أنزل بعد ذلك : ﴿ فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. (١٦) ﴾ [التغابن]

فهل معنى هذا أن الله كلّف الناس أولاً ما لا يستطيعون ، ثم قال من بعد ذلك: ﴿ فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. (١٦) ﴾ [التغابن]

لا .. إن الحق سبحانه لا يكلف إلا بما فى الوُسْع ، والناس قد يخطئون الفهم لقوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. (١٦) ﴾ [التغابن] فيقول العبد :أنا غير مستطيع أنْ أقوم بذلك التكليف ، ويظنُّ هذا العبد أن التكليف يسقط عنه ، لا إنَّ هذا فَهْم خاطيء .

إنَّ قوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. (١٦) ﴾ [التغابن] أى : إنك تتقى الله بما كان فى استطاعتك من الوُسْع ، فما باستطاعتك أن تقوم به عليك أن تقوم به ، فلا يهرب أحدٌ إلى المعنى المناقض ويقول : أنا غير مستطيع لأنَّ الله يعلم حدودَ استطاعتك .

وساعةَ تكون غيرَ مستطيع فهو سبحانه الذى يُخفِّف ، فالحق سبحانه هو الذى يعلم إذا كان الأمرُ خارجاً عن استطاعتك أو لا ، وساعة يكون الأمرُ خارجاً عن استطاعتك فالله هو الذى يُخفِّف عنك .

فقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ .. (١٠٢) ﴾ [آل عمران] هذه منزلة عالية فى التقوى لا يقوم بها إلا الخواصّ من عباد الله ،وعندما

شقَّتْ هذه الآية على الصحابة وقالوا[1] : ومَنْ يستطيع ذلك يا رسول الله ؟

فنزلت ﴿ فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. (١٦) ﴾ [التغابن] وجعل اللهُ التقوى على قدر الاستطاعة ، وهكذا نُسخت الآية الأولى مطلوباً لازماً ، ولكنها بقيتْ ارتقاءً، فمَنْ أراد أنْ يرتقي بتقواه إلى ﴿ حَقَّ تُقَاته .. (١٠٢) ﴾ [آل عمران] فبها ونعمتْ، ومَنْ لم يستطع أخذ بالثانية .

وفي تأمُّل آخر للآيتين سنجد ملمحاً آخر يردّ على مَنْ يقول بالتناقض في الآيتين ، فآية ﴿ حَقَّ تُقَاته .. (١٠٢) ﴾ [آل عمران] جاءت في سياق يختلف عن آية ﴿ فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .. (١٦) ﴾ [التغابن]

فآية ﴿ حَقَّ تُقَاته .. (١٠٢) ﴾ [آل عمران] جاءت في سياق آيات تُحدِّثنا عن الكفر والإيمان ، قال تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٠١) ﴾ [آل عمران]

فالكلام هنا عن إيمان وكفر ، فلا يناسبه فعله بحسب الاستطاعة ، فالذي يناسب المقام هو قوله : ﴿ اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاته .. (١٠٢) ﴾ [آل عمران] ، فالإنسان مُطالب بالإيمان بالله بما أمر به الله ، ولا يقرب الكفر ولا الشرك بأيّ شكل من الأشكال .

وعليه فالإيمان بالله ورسُله وكتبه واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، وهذه كلها

---

(١) قال سعيد بن جبير (وهو من كبار التابعين) : لما نزلت الآية ﴿ اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاته وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ .. (١٠٢) ﴾ [آل عمران] اشتد على القوم العمل ، فقاموا حتى ورمت عراقيبهم وتقرَّحت جباههم ، فأنزل الله تخفيفاً على المسلمين ﴿ فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. (١٦) ﴾ [التغابن] فنسخت الآية الأولى ، أورده ابن كثير في تفسيره (٨/ ١٤٠) وعزاه لابن أبي حاتم .

معانٍ لا تقبل الاستطاعة ، بل لا بدّ من حق التقاة .

فالاستطاعة تأتى فى الأمور التى تجوز فيها ، وهذا يناسب الموقف الذى فى سورة التغابن ، فالإنسان يكون مؤمناً ولكن تغلبه نفسه أو حُبه للمال أو حُبه لأولاده وأهله فيستجيب لهم فى بعض الأمور التى ليس من بينها الكفر والشرك ، حينها يناسبه ﴿ فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. (١٦) ﴾ [التغابن]

فالله هو الخالق سبحانه يعلم ضعف الإنسان والظروف التى قد تأخذ به يميناً ويساراً ، ولكن ليس الإيمان من بين هذه التى تحتمل الاستطاعة ، تستطيع أو لا تستطيع إلا فى حالة الإكراه ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ .. (١٠٦) ﴾ [النحل]

ثم يقول تعالى : ﴿ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا .. (١٦) ﴾ [التغابن] فالمطلوب ليس السمع بجارحة الأذن فقط ، بل المطلوب سمع يتبعه طاعة وتنفيذ لما سمعت .

فأنت تسمع كلَّ ما يُقال حولك ، وقد تنتبه إلى ما تسمع وقد لا تنتبه ، لذلك يقول تعالى : ﴿ وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ (١٢) ﴾ [الحاقة] فوعى الأذن لما تسمع يجعلها تستفيد مما تسمع وتعتبر بما يرد عليها ، فلا يكون ما تسمعه مجرد أصوات كهؤلاء الذين قال الله عنهم :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا .. (١٦) ﴾ [محمد]

فهم استمعوا وسمعوا ما قال رسول الله ، ولكنهم خرجوا من عنده يقولون ﴿مَاذَا قَالَ آنِفًا .. (١٦) ﴾ [محمد] أى : أنهم يسمعون ولا يعقلون ولا يدخل النورُ إلى قلوبهم ، فكأنهم صُمٌّ عن آيات الله لا يسمعونها .

فالمؤمن يسمع ويتأثر بما يسمع فيزداد إيمانه ، أما الكافر فلا تستطيع أذنه أنْ تنقل الوعى والإدراك بما سمع .

المؤمنــون تفيضــ أعينهم من الدمع عند سماع قول الله وسماع القرآن ، أما مَــنْ غلُظت قلوبهم فلم يتخللهــا أو يدخلها ويخالطها نورُ القرآن ، فهؤلاء تغلظ قلوبهم عن سماع الحق وإنْ سمعوه بجارحة الأذن .

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ .. (٤٤) ﴾ [فصلت] أى : صَمَم فلا يسمعون ، وما دام فى الأذن وَقْر وصمم فلن تسمع ، وإنْ سمعت شيئاً أنكره القلب ، والجوارح لا تنفعل إلاَّ بما شُحن به القلب من عقائد .

أما الذين هداهم الله فيسمعون كلمة الحق وتستقبلها قلوبهم بالرضا فتنفعل لها جوارحهم بالالتزام ، فتسمع بالأذن وتقبل بالقلب وتنفعل بالجوارح طاعةً والتزاماً بما أمرت به .

وهــذا هــو مقصودُ الحق سبحانه هنا ﴿ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا .. (١٦) ﴾ [التغابن] وارتباط السمع والطاعة بالتقوى قد صرَّح به حديثُ رسول الله .

ويقــول الحــق سبحانه عــن المؤمنين : ﴿ آمَــنَ الرَّسُولُ بِمَــا أُنْزِلَ إِلَيْــهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُــونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِــهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَــدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا .. (٢٨٥) ﴾ [البقرة]

ويقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا .. (٥١) ﴾ [النور]

فالسمــاع هــو بلوغ الدعــوة ، والطاعة هــى انفعالٌ بالمطلــوب ، وأن يمتثل المؤمن أمراً ويمتثل المؤمنُ نهياً فى كلِّ أمر يتعلق بحركة الكون .

فمعنــى ﴿ وَاسْمَعُــوا وَأَطِيعُــوا .. (١٦) ﴾ [التغابــن] أى : اسمعوا سمعاً واعياً يليــه إجابــة وطاعة ، لا مجرد أنْ يصــل الصوتُ إلى أذن السامــع دون أنْ يؤثر فيه شيئاً .

فالسمع له وظيفة ، وهو إبلاغ كلام الله لمدركات الإنسان العقلية والقلبية، ثم يتبعه تنفيذ وطاعة .

والحق سبحانه يريد لنا أن نكون ممن يسمعون ويطيعون ، لا أنْ نكون من هؤلاء الذين قالوا (سمعنا وعصينا) .

يقول الحق سبحانه عنْ أولئك اليهود : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا .. (٩٣) ﴾ [البقرة]

فهم سمعوا ما قاله لهم الله سبحانه وعصَوْهُ ، فهم سمعوا فى القول وعصوا فى الفعل ، فهم قالوا : سمعنا ولكنهم لم ينفذوا فلم يفعلوا ، والله سبحانه يريدهم أن يسمعوا سماع طاعة لا مجرد سماع بالجارحة .

لذلك يحب الله من المؤمنين أن يسمعوا سماع طاعة وسماع تنفيذ .

ومن هنا ينقلهم الحق سبحانه إلى الإنفاق كوجه من أوجه طاعة الله سبحانه، فيقول : ﴿ وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ .. (١٦) ﴾ [التغابن]

ولاحظ أن الحق سبحانه يقول (خيراً) أى : أن الحق سبحانه يقارن بين أمرين ، أحدهما خيرٌ من الآخر وأكثر نفعاً وخَيْرية من الأمر الآخر .

هذان الأمران هما الإنفاق والشح ، وشُح النفس يأتى لأن الإنسان لا يأمن أبداً أنْ يأتيه العجزُ من بعد القدرة ، لذلك فإنه يحاول إنْ كان يملك شيئاً أنْ يُؤَمِّن العجز المتوهم ، فيحافظ على ما عنده من حاجات .

وهو يظن أنّ شُحه وبُخله واحتفاظه بالشيء عنده ، وفى ملكيته خيرٌ له ، لذلك يُلفت الحقُّ سبحانه نظرهم ، فيقول : ﴿ وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ .. (١٦) ﴾ [التغابن]

والحق سبحانه يُطمئن المنفقين ، فيقول : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ

وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) ﴾ [البقرة]

فالإنفاق في سبيل الله يردُّه الله لك مضاعفاً ، لذلك لا تحزن ولا تخف على مالك لأنك أعطيتَه لمقتدر قادر واسع عليم ، فأنفق لأنه سبحانه سيزيدك .

وقد دخل رسول الله ﷺ على بلال وعنده صَبَرٌ[1] من المال ، فقال له رسول الله : أنفق يا بلال ولا تَخْشَ من ذى العرش إقلالاً[2].

وفي رواية أنه كان تمراً ، فقال رسول الله : ما هذا يا بلال ؟ فقال : تمرٌ أدخره ، قال : ويحك يا بلال أو ما تخاف أنْ يكونَ له بُخار فى النار ؟ أنفق يا بلال ولا تخْشَ من ذى العرش إقلالاً[3] .

فرسولُ الله يطلب من بلال أنْ ينفق ، على فَقْر بلال وحاجته ، فما بالنا بغيره ممَّنْ يعبُّون المال عباً ويكنزونه ولاينفقونه فى سبيل الله .

وقد كان بلال بن رباح رضى الله عنه رجلاً فقيراً لم يُؤْت سَعة من المال أو الرزق . وقد أراد أنْ يدَّخر بعض تمره لأضياف رسول الله عندما يأتيه ، ورغم هذا وجَّهه رسولُ الله إلى الإنفاق لا الادخار ، فقال له : أنفق يا بلال ، ولا تخْش من ذى العرش إقلالاً .

وليس معنى هذا أن رسول الله لا يحضُّ على أنْ يدخر الإنسان جزءاً من ماله أو رزقه لوقت حاجة ، أو ليرتقى بما يدخره فى مستقبل الأيام ، إنما هو خشى على بلال من أنْ يكون يدخر هذا خشية أنْ لا يرزقه اللهُ غيره ، فأراد أنْ تبقى قلوبُ أصحابه نقيةً من الدنيا .

---

(١) الصُّبرة : واحدة صبر . تقول : اشتريت الشيء صبرة أى بلا كيل ولا وزن . [أنيس الفقهاء ١/٧٣] وهو كما نقول فى العامية : شروة . فالصبرة : الكومة من أى شيء [المعجم الوسيط] .

(٢) أخرجه البزار فى مسنده (١٣٦٦) من حديث بلال بن رباح .

(٣) أخرجه البزار فى مسنده (١٩٧٨) من حديث ابن مسعود (٩٨٩٣) من حديث أبى هريرة ، وكذا أبو يعلى فى مسنده (٦٠٤٠) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٠١٧) .

وهـذا أمر يرتبط بتقـوى قلبه وخوفه من الله ، وخـوف أنْ يسمع ولا يطيع ، وخوْف أنْ يعصى أمر الله ﴿ وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ .. (١٦) ﴾ [التغابن] وكذلك خـوْف أنْ يتأصَّـل فى قلبـه حُبُّ الدنيا فيقع فى قلبه بُخْـلٌ أو شح ، فإنَّ ﴿ مَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) ﴾ [التغابن]

فقول الحق سبحـانه ﴿ وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ .. (١٦) ﴾ [التغابن] هـو قـانون يريـد بـه الله أنْ يحارب الشـحَّ فى نفوس المخلوقين ، إنه يقـول لكلٍّ منَّـا : انظر النظـرة الواعيـة ، فالصدقة والنفقة فى الخـير ، والمصلحة والصلاح لا تنقص ما عند الإنسان بل ستزيده .

فالأرض لا تنقص من مخزنـك حين تعطيهـا كيْلة مـن القمـح ، صحيحٌ أنـك أنقصـتَ كيلـةً من القمـح لتزرعهـا ، ولكنك تتوقـع أنْ تـأخذ مـن الأرض أضعافها.

والحـق سبحانه حين تعرَّض لمنابع الشح فى النفس الإنسانية أوضح أنَّ أول شيء تتعرّض له النفسُ البشرية أن الإنسان يخاف من النفقة لأنها تنقص ما عنده .

وقد حذَّر رسول الله من الشُّح فى قوله « اتقوا الظلم ، فإنَّ الظلم ظلماتٌ يوم القيامـة واتقوا الشُّـحَّ فإن الشُّحَّ أهلـك مَنْ كان قبلكم ، حملهم علـى أنْ سفكوا دماءهم واستحلّوا محارمهم »[1].

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) ﴾ [التغابن]

فشـحُّ النفس أمر غـالب على النفس الإنسانية ، لذلك قـال : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ .. (١٦) ﴾ [التغابن] فيقيه الله أنْ يكونَ شحيحـاً بخيلاً ، فهذه نعمةٌ من

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٦٧٤١) وأحمد فى مسنده (١٤٥٠١) والبيهقى فى السنن الكبرى (١١٨٣٥ ، ٢٠٩٥٤) والبخارى فى الأدب المفرد (٤٨٣ ، ٤٨٨) وصححه الألبانى .

الله ورحمــةٌ يرحمه الله بها ، لأن مَـنْ تشح نفسه بالمال أو بالعلم الذى تعلَّمه ، أو بالحكمة التى وهبها اللهُ له تجد مآله ومصيره إلى الخسران.

أمـا ﴿ وَمَـنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِه .. (١٦) ﴾ [التغابن] فيكون ضمن مَنْ أفلح ونجا من الخسران وفاز ، لأنه أنفق المال فى سبيل الله فأعطاه اللهُ أضعاف ما أنفق ، فهو تاجر مع الله سبحانه : ﴿ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ .. (٢٦١) ﴾ [البقرة]

ومَـنْ بذل علمـه للآخرين أثابه الله عـن كلِّ نفس تعلمت منـه شيئاً نافعاً ، سـواء فى علم دنيوى أو دينى ، ومَنْ آتاه اللهُ حكمةً وعقلاً فنقله إلى غيره فإنه يجنب مَنْ لا خبرة عنده الوقوع فيما يُغضب الله .

لذلـك قال تعـالى : ﴿ فَأُولَـئِكَ هُـمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) ﴾ [التغابـن] والفلاح هو الفوز والمفلح هو الفائز ، أى أولئك هُم الفائزون .

فكلمـة ﴿ الْمُفْلِحُـونَ (١٦) ﴾ [التغابـن] معها دليلها ، فالمفلـح هو الذى أخذ الصفقـة الرابحـة ، والكلمـة مأخوذة مـن فلح الأرض ، فالذى يفلـح الأرض ويحرثها ثم يزرعها يجد الثمرة تجيئه فى النهاية .

فالمفلـح هـو الفائز الناجـى المستفيد بثمرة عمله ، والفـلاح لايقتصر على الآخـرة ، إنمـا هناك فـلاح فى الدنيا يكون ثمـرة للإنفاق ، لذلـك قال تعالى : ﴿ وَالَّذِيـنَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّـةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) ﴾ [التوبة]

والإنفاق فى سبيل الله يشمل مجالاتٍ متعددة ، ففى سبيل الله تحدث حركة فـى المجتمع يستفيد منهـا النـاس ، فحين تخرج الـزكاة يستفيد منها الناس ، وحين تجهز بها جيوش المسلمين يستفيد منها الناس .

فأنـت إنْ أنفقـتَ ولم تكنـز حـدث رواجٌ فى السـوق ، والرواج معنـاه العمل ووسائل الرزق ، وإيجاد الحافز الذى يؤدى إلى ارتقاء البشرية .

وأنـت حين تشترى لبيتك غسالة أو ثلاجـة أو بنيتَ بيتاً صغيراً فإنك تُوجد رواجاً اقتصادياً فى المجتمع ، وفى نفس الوقت ارتقيتَ بوسائل استخداماتك، والـرواج يدفـع إلى اكتشاف الأحسن الـذى يفيد البشرية ، ولكـن إذا كنزتَ كلَّ مـالك ساد الكساد الاقتصادى .

وليس معنى ذلك أنْ ينفق صاحبُ المال كلَّ ماله وزيادة ، لأن الحق سبحانه يريـد الوسـط فى كلِّ شيء ، لذلك يقول تعـالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا[1] وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (٦٧) ﴾ [الفرقان]

فـالحـق سبحـانه يحذر مـن سفاهة الإنفاق وعدم الإبقاء على جزء من المال لمواجهـة أى أزمـة مفاجئـة ، لكنـك إنْ قترتَ حـدث كسادٌ فى السـوق وتوقَّف الإنتاجُ وتعطّل العمال .

والإسـلامُ يريد نفقـةً معتدلة توجد الـرواج السلعى وادخـاراً تستخدمه فى الارتقـاء بحياتـك ومواجهـة الأزمات ، حينهـا نكون من المفلحـين فى الدنيا والآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾

حدَّثنا الحق سبحانه فى الآية السابقة عن الإنفاق ، فقال تعالى : ﴿ وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) ﴾ [التغابن]

فـلا تجعـل الدنيا فى قلبـك ، بل اجعلها فى يدك لتنفقَ مـن مالك على أهلك

---

(١) الإقتار : التقصير عن الذى لابد منه ، بأن يجيعهم أو يعريهم بخلاً وشحاً ، فالتقتير التضييق الذى هو نقيض الإسراف .

وعلـى مصالـح أولادك ومجتمعك ، فـإنَّ الدنيا إذا سكنت قلبـك لم تخلص من الشحّ والبخل حتى ولو بعلمك أو رأيك أو نصيحتك .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) ﴾ [التغابن]، فالمشكلة فى النفس الشحيحة التى تشح حتى تبسّمه فى وجه أخيه ، رغم أن رسول الله ﷺ قال : « تبسُّمك فى وجه أخيك صدقة »[1] .

فطهِّـر قلبـك من الشّح ، لأنك لن تفلح إلا إذا طهّرتَ قلبك من الشح ، فمَنْ شحَّ إنمـا يشـحّ على نفسه ، وليس ذلك فى صالـح مَنْ يشحّ ؛ فالكريم يستزيد من الله العطاء ، أما الشحيح فليس له زيادةٌ من الله .

لذلـك يقول تعـالى : ﴿ هَـٰأَنْتُمْ هَـٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُـوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ .. (٣٨) ﴾ [محمد]

وربـك حـين يراك تنفق مما أعطـاك يزيدك ، لأنك مؤتمن علـى الرزق ، لذلك يقول أحد الصالحين : اللهم إنك عوّدتنى خيراً ، وعوَّدتَ خلقك خيراً ، فلا تقطع ما عوَّدتنى حتى لا أقطعَ عن النـاس ما عوَّدتـهم .

إذن : فالعطاء استدرارٌ لنعمة الله وسببٌ للمزيد منهـا .

وهَـبْ أن لك عدة أولاد وأعطيتَ لواحد منهم جنيهاً مثلاً ، فذهب واشترى به حلـوى ثم وزَّعها على إخوته ولم يُؤثـر نفسه عليهم لا بد أنك ستأتمنه وتعطيه المزيد ، لأن الخير فى يده يفيض على الآخرين .

واعلـم أنـك أيها القادر حين تحرم فقيراً فأنت المحـروم ، لأن الله غنيٌّ عنك بقدرته المطلقة ، غنيٌّ وقادر أنْ يستبدل بالقوم البخلاء قوماً يسخون بما أفاء

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (١٩٥٦) وابن حبان فى صحيحه (٤٧٤) من حديث أبى ذر . وقد أخرجه البزار فى مسنده (٤٠٧٠) بأتم من هذا فقال : « تبسمك فى وجه أخيك صدقة ، وإفراغك من دلوك فى دلو أخيك صدقة ، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر تكتب لك صدقة ، وإماطتك الشوك والحجر عن الطريق صدقة ، وإرشادك الضال عن الطريق صدقة » .

الله عليهم من رزق فى سبيل الله ، فالذى يمسك عن العطاء إنما منع عن نفسه باب رحمة .

والإنفاق قد يكون صدقةً أو زكاة أو إنفاقاً يصبُّ فى رواج اقتصادى وتشغيل الشباب ، وهذا فى حَدٍّ ذاته يقى المجتمعات من الانحراف وضياع الأجيال فى مهاوى الضياع .

ومن الإنفاق إقراض المحتاج ، وكان من الممكن ألاَّ يكون هناك محتاج إذا آتى كلٌّ منَّا قُرْباه ويحملهم على فائض ماله وفائض حركته ، فلو أن كل قادر تولَّى الفقراء والمساكين من أقربائه لما وُجد محتاج فى مجتمع المسلمين .

فإذا أردتَ أنْ تفتح لنفسك باب البر مع الله فوسِّع دائرة الإنفاق ، وأنت إذا أنفقتَ على المحتاج الذى استدعاه اللهُ للوجود فإنك تتودد إلى الله بمساعدة المحتاجين من خَلْقه دون أنْ يلزمك به الله .

والغنيُّ حين يقبض يده عن المحتاج فإنه يُدخل فى قلب المحتاج الحقد ، وأىّ مجتمع يدخل فى قلبه الحقد نجد كل المنكرات تنتشر فيه ، والحق سبحانه إنما يطلب تطهير المال بالإنفاق منه فى سبيل الله ليزيد وينمو ، وليخرج الضغن والحقد من المجتمع ، فالحقد إذا دخل مجتمعاً فعلى هذا المجتمع السلام .

وكأنَّ الحق سبحانه يقول للإنسان : تحرك فى الحياة وأنا أحمى نتيجة ما تتحرك فيه ، ولكن لى فى مالك الذى جعلتُك فيه خليفة حقّ عليك أنْ تعطى بعضاً منه لأخيك المحتاج .

وإنْ لم يقف الغنيُّ بجانب المحتاج فى لحظة احتياجه لمن يعينه ، فقد يأخذ المحتاج ما يحتاج تلصّصاً بأنْ يتحايل عليه ليسرقه أو ينهبه ، أو ربما دفعه

الحقد والحسد إلى أنْ يقتله أو يتآمر على قتْله .

وحين تعطى المحتاج فإنما أنت مناول عن الله ، ويدُ الله الممدودة بأسباب الله .

والحق سبحانه يقول : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ .. (٢٥٤) ﴾ [البقرة] فأنتم تنفقون من فضل الله عليكم ومما رزقكم ، ومن فضل الله عليكم أنه احترم أثر عملكم ونسبه لكم حتى وإن احتاج أخوك .

والحق سبحانه قد اعتبر النفقة فى سبيل الله هى قرض من العبد للربِّ الخالق الوهّاب لكلّ رزق ، والمال فى الحقيقة مال الله ، لكن إنْ ملَّكك الله وطلب منك أنْ تُعطى أخاك الفقير يحترم ملكيتك ولا يعود سبحانه فى هِبَته لك .

لذلك يأخذ منك الصدقة على أنها قرْضٌ لا يرده الفقير ، إنما يتولى ربك عز وجل ردّه ، فيقول تعالى : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا .. (٢٤٥) ﴾ [البقرة] ولم يقُلْ سبحانه : يُقرض فلاناً وإنما يُقرض الله لأنه تعالى هو الخالق .

وهنا قال تعالى أيضاً : ﴿ إِنْ تُقْرِضُوا اللهَ .. (١٧) ﴾ [التغابن] فأنت عندما تُقرض إنساناً فكأنك تُقرض الله .

والقرض فى اللغة معناه قضْم الشيء بالناب ، وهو سبحانه وتعالى يعلم أن عملية الإقراض هى مسألة صعبة ، وحتى يُبيِّن للناس أنه يعلم صعوبتها جاء بقوله (يقرض) ، إنه سبحانه المقدِّر لصعوبتها ويُقدِّر الجزاء على قدر الصعوبة .

فإعطاؤك للقرض أصعب من إعطائك الصدقة ، فأنت عندما تعطى الصدقة تجد نفسك غير قلقة على ما تُخرجه من مالك لأنك أصلاً قد أخرجتها من حساباتك فأنت لا تنتظر رداً ممَّنْ تصدّقت عليه .

أمـا القرض فأنـت حين تُقرض أحداً وقبل أنْ تقرضـه تفكر فى أمور كثيرة وتسأل أسئلة عديدة ، هل سيردّ لك ما اقترضه منك ؟ هل تعطيه قرضاً أقلّ مما يقول ؟ وماذا لو لم يرد كيف أسترد مالى ؟

لذلـك تجـد القرضَ أصعبَ من الصدقة ، ثم إنه طـوال الوقت يحسب كم بقى مـن الوقـت ويحل السداد ، وقد تجده يقع فى ذنوب كثـيرة بسبب إقراضه لأحد الناس ، فكلما قابله كأنه يريد أنْ يطالبه بالقرض .

وقـد يحدث مَنٌّ وأذى وتلتقى أعينهما ، فتجـد نُفْرة وعتاباً وعدم قدرة على التحدّث معاً بشكل طبيعي ، ولذلك كان القرضُ أصعبَ .

لذلـك رتَّب الحق سبحانه على القرض ثواباً أكـبر وأعظم من ثواب الصدقة، وأذكر ونحن فى أمريكا سألنا أحدِ المستشرقين يقول : هناك تعارض بين قوْل القرآن ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا .. (١٦٠) ﴾ [الأنعام] وبين قول النبى ﷺ : « مكتـوب علـى بـاب الجنـة : الصدقة بعشر أمثالها ، والقرضـ بثمانية عشر»[1].

فشـاء الله أنْ يلهـم بكلمتين للـرد عليه ، فقلت للمترجم : نعـم الحسنة بعشر أمثالهـا حـين تتصدق ، لكـن فى القرض مثلاً لـو تصدَّق بـدولار فهو عند الله بعشرة دولارات ، لكن يعود عليك دولارك مرة أخرى ، فكأنَّ لك تسعةَ دولارات، فحين تضاعف تصير ثمانية عشر .

قـالـوا : فلمـاذا زاد ثوابُ القرض ؟ نقول : لأن المتصدق حين يتصدَّق ينقطع أمله فيما قدَّم ، لكن المقرض لا يزال مُعلَّق البال في القرض ينتظر ردَّه ، فكلما صـبر عليه أخذ أجراً ، ثـم إن المقترض لا يقترض إلا عن حاجة ، أما المتصدَّق

(١) عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ : « رأيت ليلة أسرى بى على باب الجنة مكتوباً : الصدقة بعشر أمثالها ، والقرض بثمانية عشر . فقلت : يا جبريل ما بال القرض أفضل من الصدقة ؟ قال : لأن السائل يسأل وعنده ، والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجة . أخرجه ابن ماجه فى سننه (٢٤٣١) والطبرانى فى المعجم الأوسط (٦٧١٩) والبيهقى فى شعب الإيمان (٣٢٨٨) .

عليه فقد يقبل الصدقة وهو غير محتاج إليها ، وربما كان ممَّنْ يكنزون المال.

والحق سبحانه يريد أنْ ينمي القرض لماذا ؟ قالوا : لأن الله يريد أنْ تسير حركة الحياة وأنْ تتكامل ، وأنت تعتز بمالك وتخاف عليه وتريد له النماء ، وسوف تجد هذا كلَّه في القرض فاجعله قرضاً ، فهو الباب الذي فتحه الله لك للزيادة وللثواب .

لذلك يقول تعالى : ﴿ إِنْ تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ .. (١٧) ﴾ [التغابن]

ولكن الحق سبحانه وضع شرطاً في القرض لكي يُضاعفه لك ، وهو أن يكون قرضاً حسناً ، فما هو القرض الحسن ؟

والتعبير بالقرض الحسن هنا يدل على أن مصدر المال الذي تقرض منه لابد أن يكون من حلال ، وكما يقول رسول الله فإن الله طيب لا يقبل إلا طيباً[1].

فأنت عندما تُقرض أخاك المحتاج إنما تقرض الله عز وجل ، فأنت فى هذا تتعامل مع الله ، فلا بد أن يكون تعاملك مما اكتسبته من حلال ، إذ كيف تتعامل مع الله بمال حرام أخذته نُهْبة من الناس سرقةً أو اختلاساً أو رِباً أو من اقترافك أيّ معصية .

فلا بدَّ أنْ يكون مالُكَ الذي تُقرض منه مالاً حلالاً طيباً ليكون قرضاً حسناً.

ويصف الحق سبحانه القرض بأنه حسن حتى لا يكون فيه منٌّ ولا أذى أو

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) ﴾ [المؤمنون] وقال ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ .. (١٧٢) ﴾ [البقرة] ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء : يا رب .. يا رب .. ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغُذِّى بالحرام فأنى يستجاب لذلك » . أخرجه مسلم في صحيحه (٢٣٩٣) وأحمد فى مسنده (٨٢٣٠) والترمذي فى سننه (٢٩٨٩) .

منفعـة تعود على المقرض وإلاَّ صـار في القرض ربا ، ولنا الأسوة الحسنة في الإمـام أبي حنيفـة[1] عندما كان يجلس في ظل بيت صاحـب له ، ثم حدث أن اقترض صاحبُ هذا البيت من أبي حنيفة بعض المال .

وجـاء اليـوم التالي للقرضـ فجلس أبو حنيفـة بعيداً عن ظـل البيت فسأله صاحب البيت لماذا ؟ أجاب أبو حنيفة : خفْتُ أنْ يكون ذلك لوناً من الربا .

أمـا عـن المنّ والأذى فقـد نهى القـرآن عن المـنِّ والأذى ، فقـال : ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلاَ أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢) قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣)﴾ [البقرة]

وإذا كان الحـقُّ سبحانـه يُحدِّثنا هنا عن الصدقة ، فإن القرض أيضاً يدخل في بـاب الإنفـاق في سبيل الله ، وأيضاً فإن الإقراضـ كما قلنا عملية أشدّ من الصدقة على النفس .

فإيـاك حـين تنفق مـالك في سبيـل الله سواء كانت صدقـة أو قرضاً أنْ تمنّ علـى مَـنْ تعطيه أو تؤذيه ، فـالمـنّ هو أنْ يعتدّ على مَنْ أحسـن إليه بإحسانه ، ويُريه أنه أوجب عليه حقاً له ، وأنه أصبح صاحبَ فضل عليه .

فمـن الأدب الإيمانـي في الإنسان أنْ ينسى أنه أهـدى وينسى أنه أنفق ، ولا يُطلع أحداً من ذويه على إحسانه على الفقير أو تصدقه عليه ، وخاصة الأطفال الصغار الذين لا يفهمون منطق الله في الأشياء .

فعندمـا يعـرف ابني أنني أعطي لجاري كذا ، ربما دلّ ابنـي ومَنَّ على ابن جـاري ، فإيـاك أنْ تُتبع النفقة منـاً أو أذى لأنك إنْ أتبعتهـا بـالمنّ كرههـا مَنْ

---

(١) أبو حنيفة هو النعمان بن ثابت التيمي بالولاء الكوفي ، ولد بالكوفة عام ٨٠ هـ ونشأ بها ، كان يبيع الخز (الحرير) ويطلب العلم في صباه ثم انقطع للتدريس والإفتاء . إمام الحنفية أحد الأئمة الأربعة توفي عام ١٥٠ هجرية عن ٧٠ عاماً . [الأعلام للزركلي ٣٦/٨] .

تصدَّقتَ عليه أو أقرضته ، وتولّد عنده حقد تجاهك وبغض .

لذلك تجد كثيراً من الناس يقولون : كم صنعتَ بفلان وفلان الجميل ، هذا كذا وهذا كذا ، ثم خرجوا عليّ فأنكروه . وما دمت تتذكر ما أسديته إليهم فمن العدالة من الله أنْ ينكروه ، ولو أنك عاملتَ الله لما أنكروه ، فما دُمْتَ لم تعامل الله فإنك تقابل بنكران ما أنفقت .

ويجب أنْ يظلَّ الإنفاق غير مصحوب بالمنِّ ، وأنْ يبتعد المنفق عن المنّ دائماً ، فلا يمتنع عن المنّ فقط وقت العطاء ، ولكن لابدّ أنْ يستمر عدم المنّ حتى بعد العطاء وإنْ طال الزمن .

فأنت فى الإنفاق تتعامل مع الله سبحانه ، ولتنظر إلى ما فعلته سيدتنا فاطمة[1] بنت رسول الله ﷺ ، لقد راحت تجلو الدرهم وتُطيِّبه ، فلما قيل لها : ماذا تصنعين ؟ قالت : أجلو درهماً وأُطيِّبه لأنى نويتُ أنْ أتصدَّق به . فقيل لها: أتتصدَّقين به مجلواً ومُعطراً ؟

قالت الزهراء بنت رسول الله : لأنِّى أعلم أنه يقع فى يد الله قبل أنْ يقع فى يد الفقير[2] .

والقرض لكى يكون قرضاً حسناً لابدّ أنْ يكون بلا فائدة ربوية تعود على المقرض ، فإن الربا يجعله قرضاً سيئاً يدخل الضيق والجهد والضنك على مَنْ يقترض بالربا وإنْ كان محتاجاً ، وأيضاً فهو يدخل الخراب على مَنْ يقرض ماله لآخر ويأخذ زيادة على ماله بازدياد المدة استغلالاً لحاجة المقترض .

(١) هى فاطمة بنت رسول الله الهاشمية القرشية وأمها خديجة بنت خويلد ، ولدت ١٨ قبل الهجرة ، إحدى الفصيحات العاقلات ، تزوجها ابن عم رسول الله على بن أبى طالب فى الثامنة عشرة من عمرها ، وولدت له الحسن والحسين وأم كلثوم وزينب . عاشت بعد أبيها ستة أشهر . عام ١١ هجرية عن ٢٩ عاماً . [الأعلام للزركلي ٥/١٣٢] .

(٢) الذى فى نزهة المجالس لعبد الرحمن الصفورى (١/ ٣٣٤) أن عائشة رضى الله عنها كانت إذا تصدقت بدرهم طيبته فسألها النبي ﷺ عن ذلك فقالت : يا نبى الله أحببت أن يكون درهمى مطيباً لأنه يقع فى يد الله قبل يد السائل فقال : « لقد وفقك الله يا عائشة » .

ورسول الله ﷺ يقول : « كلُّ قرض جَرَّ نفعاً فهو ربا »[(١)].

وربُّ العزة سبحانه يقول : ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩) ﴾ [الروم]

فما آتيتم من ربا تبغُون به الزيادة ، سواء أكانت نفعاً أو مالاً أو غير مال، سواء أكانتْ مشروطة أو غير مشروطة ، والله سبحانه حرَّم الربا لأن المال فى الربا يصبح سلعة ، فالمائة تُردّ مائة وخمسين مثْلاً .

وهذا يفسد المجتمع لأنه من المفروض أنْ يزيد المال بالعمل ، فإذا أصبحت زيادة المال بدون عمل فسدتْ حركة الحياة ، وزاد الفقير فقراً ، وزاد الغنيُّ غنيً، وهذا ما نراه فى العالم اليوم .

حتى على مستوى الدول نجد الدول الفقيرة تزداد فقراً ، لأنها تقترض المال وتتراكم عليها فوائده حتى تكون الفائدةُ أكثر من الدَّيْن نفسه ، وكلما مرَّ الوقت زادتْ الفوائد فيتضاعف الدَّيْن ويستحيل التسديد ، والدول الغنية تزداد غِنىً ، لأنها تدفع القرض وتسترده بأضعاف قيمته .

وعقد الربا لا يحمى إلا الطرف الدائن فقط ، وهناك أمر خلقى آخر وهو أن الإنسان لا يعطى ربا إلا إذا كان عنده فائض زائد على حاجته ، ولا يأخذ إنسانٌ من المرابى إلا إذا كان محتاجاً .

فانظروا إلى النكسة الخلقية فى الكون ، إن المعدم الفقير الذى لا يجد ما يسُدُّ جوعه وحاجته يُضطر إلى الاستدانة ، وهذا الفقير المعدم هو الذى يتكفّل بأنْ يعطى الأصل والزائد إلى الغنى غير المحتاج .

---

(١) أورده العجلونى فى كتابه « كشف الخفاء» (١٩٩١) وقال : رواه الحارث بن أبى أسامة فى مسنده عن على رفعه . قال فى التمييز : إسناده ساقط . وأورده الزيلعى فى (نصب الراية) كتاب الحوالة، ومن طريق الحارث بن أبى أسامة ذكره عبد الحق فى أحكامه فى البيوع، وأعلّه بسوّار بن مصعب وقال : متروك .

فكيف يكون هذا القرض حلالاً ؟ وهو يخرج عن وَصْف القرض الحسن الذى يسُدّ حاجة الفقير المحتاج لمال لسَدّ حاجة ما أو حلٍّ مشكلة ما تعترضه ، ولكن فى نفس الوقت لا يضرّ به ولا يُكربه فى حياته ، ويجعله يعيش فى كرْب وهَمٍّ من الدَّيْن الذى عليه ، ومن الفائدة المفروضة على الدَّيْن .

ولكى يكون القرْضُ قرضاً حسناً لابد أنْ يكونَ محكوماً بضوابط الشرع الشريف الحكيم عندما يُوجب كتابة الدَّيْن والإشهاد عليه وإنْ كان صغيراً حتى لا تكونَ هناك مُضارّة للدائن أو المدين .

يقول تعالى : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِجَالِكُمْ فَإِن لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا .. (٢٨٢)﴾ [البقرة]

فالحق سبحانه يضع ضوابط للتداين والاقتراض بين الناس ، حتى يضبط القرض بكتابته حفْظاً للحقوق ونشْراً للأمان فى نفوس أصحاب الأموال على أموالهم ليستمر سيال الإقراض وإغاثة المحتاج والملهوف دون الإضرار بصاحب المال .

فالحق سبحانه كما أغلق باب الإقراض بالربا يفتح أبواب القرض الحسن ولكن بضوابط من الكتابة والإشهاد عليه ، وقد قال رسول الله ﷺ عن الربا « ربا الجاهلية موضوع ، وأول ربا أضعه ربانا ، ربا العباس بن عبد المطلب ،

فإنه موضوع كله »[1].

ويقول تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) ﴾ [البقرة]

وإذا كان الله قد حرَّم إقراض المال بالربا والزيادة فإنه أحلَّ الإقراض قرضاً حسناً ، بل ندب إليه ورغَّب فيه ليتكافل المجتمع ، ولكن بضوابطه بكتابته مثلاً .

فإلزام الحق سبحانه بكتابة الدَّيْن هو تنفيذ لأمر الله يحقق رفْع الحرج بين الأحباء خاصة ، ويظن كثيرٌ من الناس أن الله يريد بالكتابة حماية الدائن لا ، فالمقصود بذلك والمهم هو حماية المدين ، لأن المدين إنْ علم أن الدَّيْن موثَّقٌ عليه حرص أنْ يعمل ليؤدى دَيْنه .

أما إذا كان الدَّيْن غير مُوثَّق فمن الجائز أنْ يكسل عن العمل وعن سداد الدَّيْن، وبذلك يحصل هو وأسرته على حاجته مرة واحدة ، ثم يضنّ المجتمع الغنيُّ على المجتمع الفقير فلا يُقرضه ، ويأخذون عدم أداء ذلك الإنسان القرض الذى اقترضه ذريعةً لذلك .

ويقع هذا الإنسان الذى لم يُؤد دَيْنه فى دائرة تحمُّل الوِزْر المضاعف لأنه ضيّق باب القرض الحسن .

إن الله يريد أنْ يسير دولاب الحياة الاقتصادية عند مَنْ لا يملك ، لأن مَنْ يملك يستطيع أن يُسيِّر حياته ، أما مَنْ لا يملك فهو المحتاج ، ولذلك فهناك مثَل فى الريف المصرى يقول : مَنْ يأخذ ويعطى يصير المالُ ماله .

---

(١) أخرجه ابن خزيمة فى صحيحه (٢٨٠٩) من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه . ومن حديث عمرو ابن الأحوص « ألا وإن كل ربا فى الجاهلية موضوع ، لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تُظلمون غير ربا العباس بن عبد المطلب فإنه موضوع كله» أخرجه الترمذى فى سننه (٣٠٨٧) .

إنه يقترض ويسدد ، لذلك يثق فيه كل الناس ، ويرونه أميناً ويرونه مُجداً ، ويرونه مخلصاً ، ويعرفون عنه أنه إذا أخذ وفّى ، فكلُّ المال يصبح ماله . إذن: فالله سبحانه بكتابة الدَّيْن يريد حماية حركة الحياة عند غير الواجد ، لأن الواجد فى غير حاجة إلى القرض .

ويؤكد الحق سبحانه كتابة القرض الحسن بقوله : ﴿ وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا .. (٢٨٢) ﴾ [البقرة] فلا تملُّوا من كتابة أيِّ دَيْن ، سواء كان صغيراً أو كبيراً .

ولتأكيد حماية المدين قال تعالى ﴿ وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا .. (٢٨٢) ﴾ [البقرة] فالمدين الذى عليه الدَّيْن المقترض هو الذى يُملى الدَّيْن الذى عليه ﴿ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا .. (٢٨٢) ﴾ [البقرة]

ولماذا لا يُملى المقرض صاحب الدين ؟ لأن المدين يكون عادة فى مركز الضعف ، فلعلَّ الدائن عندما تأتى لحظة كتابة ميعاد السداد فقد يُقلل هذا الميعاد ، وقد يخجل المدين أنْ يتكلم ويصمت لأنه فى مركز الضعف .

ولا شكَّ أن كتابة الدَّيْن تحمى مصالح الدائن أيضاً ، فلا يرفض أنْ يُقرض أحداً ، وهذا فيه إشاعة للقرض الحسن بين الناس .

وقد يسأل سائل : الحق سبحانه يقول هنا ﴿ إِنْ تُقْرِضُوا اللهَ .. (١٧) ﴾ [التغابن] فيستخدم (إنْ) التى تدل على الشك ، بينما فى آية أخرى قال تعالى : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥) ﴾ [البقرة]

ويقول أيضاً ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١١) ﴾ [الحديد]

والجواب عن هذا أن آية سورة التغابن ﴿ إِنْ تُقْرِضُوا .. (١٧) ﴾ [التغابن] جاءت بعد حديث الله عن مَنْ يشحّ بماله ويبخل ، فقال : ﴿ وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) ﴾ [التغابن]

والشحيح الذى طبعه الشّح ، صعب عليه الإنفاق ، سواء كان صدقة أو قرضاً، ونحن فى أمثلتنا العامية نقول : الطبع غلب التطبّع ، لذلك قال تعالى: ﴿ إِنْ تُقْرِضُوا اللهَ .. (١٧) ﴾ [التغابن]

وقد رتَّب الحق سبحانه ثواباً مضاعفاً على الإقراض ، فقال : ﴿ إِنْ تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ .. (١٧) ﴾ [التغابن] فالله يعطيك أضعافاً مضاعفة نتيجة هذا القرض .

فإذا كان القرض يُنقص من مالك فى ظاهر الأمر لأنك كان من الممكن أنْ تستخدمه واستثماره بما يعود عليك بربح وفير يُعظم من مالك ، ولكنك اخترتَ أنْ تُقرضه لمحتاجين عوناً لهم ورغبةً فى ثواب الله .

لذلك فالله يزيد مالك ويبسطه ويعطيك ويُرجع إليك مالك أضعافاً مضاعفة، وفى الآخرة يكون الجزاء جزيلاً ، فأنت أقرضتَ الله والله يردّ ما اقترضه لأجل الفقراء أضعافاً مضاعفة ، فالله يعطيك أضعافاً مضاعفة نتيجة هذا القرض .

ثم إنه يُتبع هذا بقوله ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ .. (١٧) ﴾ [التغابن] فالغفران هنا لأىّ شيء ؟ إنه لما يعتمل فى نفس المقرض من قلق على ماله ، ولما قد يصدر منه تجاه مَنْ اقترض منه.

وفي آية أخرى يقول تعالى ﴿ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ[1] وَأَقْرَضْتُمُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا لأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ .. (١٢) ﴾ [المائدة]

فغفران الذنوب وتكفير السيئات هو جزاء ومكافأة فوق مضاعفة مالك أضعافاً مضاعفة ، فيضم لكم إلى تلك المضاعفة غفرانَ ذنوبكم .

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿ وَاللهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) ﴾ [التغابن]

فالله يشكر للمنفق والمتصدّق والمقرض أنْ وقفوا بجانب المحتاجين من خَلْقه ، وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله أيّ الناس أحبّ إلى الله ؟ وأيّ الأعمال أحبّ إلى الله؟ فقال رسول الله ﷺ : « أحبّ الناس إلى الله تعالى أنفعهم للناس ، وأحبّ الأعمال إلى الله تعالى سُرورٌ تُدخله على مسلم ، أو تكشف عنه كربة ، أو تقضي عنه دَيْناً ، أو تطرد عنه جوعاً » [2].

وهو سبحانه الشكور الذي يعطي على القليل الكثير ، يشكر مَنْ يشكره على نعمه بطاعته ، فمَنْ شكر الله بالحمد شكره الله بالزيادة ، لذلك من أسمائه تعالى (الشكور)

فالله يشكر للعبد وقوفه بجانب خَلْقه ، وإذا كان الناس يشكرون بعضهم بعضاً فما بالك بشكر الله سبحانه ؟ وأنتَ إنْ شكرتَ الله يزدك ، فهذه الزيادة شُكْر لك على شُكْرك لربك ، أي مكافأة لك .

---

(١) عزرتموهم : الإعانة والنصر . قاله ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة والسدي . ومعناه أيضاً : التعظيم والتوقير . قاله عطاء وأبو عبيدة . [زاد المسير] والتعزير : التعظيم وهو الثناء بخير ، وهو رد الظلم والمنع ، ورددتم وردعتم سفهاءهم عنهم . [الدر المصون في علم الكتاب المكنون] .

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٣٤٦٨) وكذا في معجمه الأوسط (٦٠٢٦) وكذا في معجمه الصغير (٨٦١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، وفيه سكين بن سراج اتهمه ابن حبان برواية الموضوعات وتركه الحافظ في التقريب . قال الألباني في السلسلة الصحيحة : « قد جاء بإسناد خير من هذا رواه ابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج وابن عساكر عن بعض أصحاب النبي » (٩٠٦) .

ولكن لماذا قال الحق سبحانه ﴿ وَاللهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) ﴾ [التغابن] ؟ فما الذي يجمع بين الشكر والحلم ؟ خاصة أنه سبحانه في آيات أخرى جمع بين المغفرة والحلم ، فقال تعالى : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ[1] فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٥) ﴾ [البقرة]

أما أنْ يجمع سبحانه بين الشكر والحلم فهذا يثير تساؤلاً ويدعو إلى التأمل، والحلم خُلق يجعل صاحبه صبوراً على الأذى صفوحاً عن الذنب ، وفي حَقِّ الله الحليم الذي لا يعاجل الغافلين بالعقوبة .

والحليم الذي يحلم على البعد إنْ أساء ويتجاوز للصالحين عن الهفوات ، فإنْ خالط عملك الصالح سوءٌ ، وإنْ خالفتَ منهج الله في غفلة أو هفوة فلا تجعل هذا يُعكِّر صَفْو علاقتك بربك أو يُنغِّص عليك طمأنينة حياتك ، لأن ربك حليمٌ سيتجاوز عن مثل هذا على حَدِّ قولهم (حبيبك يبلع لك الزلط) .

فكأنَّ الحق سبحانه في قوله ﴿ وَاللهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) ﴾ [التغابن] يريد أنْ يقول لعباده : إنني شكور لإقراضكم للمحتاجين من عبادي وحليم لكم ، فلن أعاجلكم بعقوبة لو بدر في إقراضكم منٌّ وإيذاءٌ عسى أنْ تتوبوا لتأخذوا ثوابكم أضعافاً مضاعفة ، المهم أنَّ مصلحة المحتاج تتحقق .

وقد روتْ لنا كتب السنة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : لما نزلت ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا .. (٢٤٥) ﴾ [البقرة] قال أبو الدحداح:

---

(١) اللغو هنا له معان متعددة :

١ - أن يحلف على الشيء يظن أنه كما حلف ثم يتبين له أنه بخلافه .

٢ - أنه : لا والله ، وبلى والله من غير قصد لعقد اليمين .

٣ - أنه يمين الرجل وهو غضبان .

٤ - أنه حلف الرجل على معصية فليحنث وليكفِّر ولا إثم عليه .

٥ - أن يحلف الرجل على شيء ثم ينساه .

يا رسول الله إنَّ الله يريد منا القرض ؟ قال : نعم يا أبا الدحداح [1] . قال : أرنا يدك . قال : فناوله يده .

قال : أقرضتُ ربى حائطى ، وحائطه فيه ستمائة نخلة ، فجاء يمشى حتى أتى الحائط ، وأم الدحداح فيها وعيالها . فنادى : يا أم الدحداح . قالت : لبيك. فقال : اخرجى فقد أقرضتُه ربي [2].

فأبو الدحداح يعلم أن ربه شكور حليم ، فما كان منه إلا مدّ يده لرسول الله وقال : أقرضتُ ربى حائطى ، وهو بستان به ستمائة نخلة رغم أن امرأته وعياله فيه ، وما كان من امرأته إلا قالت : لبَّيكَ يا أبا الدحداح ولم ترفض أو تعترض ، فإنه أقرضه لله سبحانه ، ليذهب إنتاجه للفقراء والمساكين والمحتاجين وفى سبيل الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾

تُحدِّثنا الآيات هنا عن ثلاثة أسماء من أسماء الله الحسنى ، وسورة التغابن بها عدَّة أسماء من أسماء الله ، فمنها (القدير) ، ومنها (البصير) ، ومنها (العليم) ، ومنها (الغنى) ، ومنها (الحميد) ، ومنها (الخبير) ، ومنها (الغفور)، ومنها (الرحيم) ، ومنها (الشكور) ، ومنها (الحليم) .

ثم يُنهيها الحق سبحانه بقوله : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) ﴾ [التغابن]

فهو سبحانه أولاً ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ .. (١٨) ﴾ [التغابن] . والغيب هو

---

(١) أبو الدحداح ثابت بن الدحداح ، كان فى بنى أنيف أو فى بنى العجلان ، شهد أحداً وقتل بها شهيداً على يد خالد بن الوليد وقد كان مشركاً ، وقيل إنه مات على فراشه مرجع النبى ﷺ من الحديبية .

(٢) أخرجه أحمدبن حنبل فى مسنده (١٢٥٠٤) وابن حبان فى صحيحه (٧١٥٩) والبزار فى مسنده (٢٠٣٣) والحاكم فى مستدركه (٢١٩٤) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

ما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى ، والله تعالى عالم الغيب فلا يُطلع أحداً من خَلْقه على غيبه إلا مَن ارتضاه واصطفاه من البشر .

﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) ﴾ [الجن]

والغيب هو ما يغيب عنك وعن غيرك ، أما الشيء الذى يغيب عنك ولا يغيب عن غيرك فلا يكون غيباً ، فإذا سُرق منك مال مثلاً فأنت لا تعرف مَن الذى سرق ، والسارق فى هذه الحالة غيْبٌ عنك ، ولكنه ليس غيباً عن غيرك .

فالسارق يعرف نفسه ، والذى دبّر له الجريمة يعرفه ، ومَنْ رآه وستر عليه يعرفه ، وأنت أيضاً لا تعرف مكان المسروقات ، ولكن السارق يعرف المكان الذى خبَّأها فيه .

إذن : فهى غيْبٌ عنك وليست غيباً عن غيرك ، ولكن هناك غيب عنك وعن غيرك ، وهذا ما ينفرد به الحق سبحانه وتعالى فى قوله سبحانه : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ .. (٢٧) ﴾ [الجن]

فالغيب الذى يقصده الحق سبحانه فى قوله (عالم الغيب) ، هو غيب يختصُّ نفسه به ، وهو الغيب المطلق .

وبعض العارفين بالله قد يكشف لهم الله لمحةً من لمحات الغيب ، فيخبر الواحد منهم الناس فيخلف الله سبحانه وتعالى ما كشفه حتى يظلَّ الله وحده عالم الغيب ، فما دام ذلك اصطفاه الله بغيب أطلع الناس عليه ، فسبحانه قد يُغير أحداث الغيب ولا يعطى لذلك الشخص خبراً عن أىّ غيب آخر ، فلا يقال له (عالم الغيب) ولكن قل : إنه معلَّم غيب .

فالحق سبحانه عالمٌ بالغيب المطلق الذى لا توجد له مقدمات تُوصِّلنا إليه، ولذلك لا نستطيع أنْ نعرف الغيب المطلق لأنه ليس معروفاً عند البعض، ومجهولاً عند غيرهم ، وليس له مقدمات توصلنا إليه لأنه الغيب الذى ينفرد

به الحق عز وجل .

والغيب المطلق هو الذى لا يعرفه إلا الحق تبارك وتعالى وليس له مقدمات، ويكشفه الله لمن يرتضيه مصداقاً لقوله سبحانه ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ .. (٢٧)﴾ [الجن]

وهذا الغيب المطلق يختلف عن الغيب المقيد الذى له مقدمات ، ما إنْ يأخذ بها الإنسان ويُرتبها حتى يصل إلى اكتشاف سرٍّ من أسرار الكون .

ومن هذا الغيب المطلق قضية القيامة ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ .. (٦٥) ﴾ [النمل] فالقيامة لا يعلم وقتها إلا الله سبحانه ، إلا أنه جعل لها مقدمات وعلاماتٍ تدلّ عليها وتُنبيء بقُرْبها .

والنبى ﷺ يفتخر بأنه لا يعلم موعد يوم القيامة ، فيقول حين سُئِل عن الساعة : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل »[1].

وسَتْر الغيب عن الخَلْق نعمة كبرى لله تعالى ، لأنه سبحانه ربُّ الناس جميعاً، ويريد سبحانه أنْ ينتفع خَلْقه بخَلْقه ، ألا ترى أنك إنْ علمتَ فى إنسانٍ سيئة واحدة تزهدك فى كلٍّ حسناته وتجعلك تكرهه ، وتكره كلّ حسنة من حسناته ، فستر الله عنك غيبَ الآخرين لتنتفع بحسناتهم .

والغيب حجزه الله عنَّا ، إما بحجاب الزمن الماضى أو الزمن المستقبل ، أو بحجاب المكان ، فأنت لا تعرف أحداث الماضى قبل أنْ تولد إلى أنْ يأتى مَنْ تثق به فيخبرك بما حدث فى الماضى ، وكذلك لا تعرف ما سيحدث فى المستقبل .

أما حاجز المكان فأنت لا تعرف ما يوجد فى مكان آخر غير مكانك ، وقد

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠ ، ٤٧٧٧) وأخرجه مسلم فى صحيحه (١٠٢ ، ١٠٦ ، ١٠٨) وأخرجه أبو داود فى سننه (٤٦٩٧) والترمذى فى سننه (٢٦١٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه. قال السائل : متى الساعة ؟ قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل وسأخبرك عن أشراطها .

يكون الشيءُ في مكانك لكن له مكينٌ فلا تطلع عليه .

والحق سبحانه يقول هنا : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ .. (١٨) ﴾ [التغابن] وكلمة (عالم الغيب والشهادة) تشرح لنا أنه سبحانه ما دام عالم الغيب فمن باب أوْلَى أنه يعلم المشهود ، فيعلمَ عالم الشهادة .

وقد يظنّ ظانّ أنه جلس في مكان معزول مستور ويفعل ما يريد ، فلن يشهده الله لأنه قد يفعل ما يريد دون أنْ يراه أحد ، لكن ذلك غير حقيقي، لأن الحقَّ سبحانه عالم الغيب والشهادة ، فلا يوجد مستورٌ عنه في هذا الكون ، فلا الغيب يغيب عن علمه ، ولا العالم المشهود يغيب عن علمه .

فأيُّ سرٍّ يوجد لابد أنْ يعلمه سبحانه ، وهو سبحانه القائل : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (٥) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (٦) وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) ﴾ [طه]

والشهادة يعني المشهود ، والله يعلم الغيب الذي غيّب عني ويعلم الشهادة لغيري ، فربما ظنَّ البعض أنْ المستتر الغيب لا يعلم إلا الغيب ، فأراد سبحانه وتعالى أنْ يؤكد على هذه المسألة ، فهو سبحانه غيب لكنه يعلم الغيب والشهادة.

وكوْنُ الله سبحانه يعلم عالم الشهادة وهو المشهود من الناس للناس يحمي الناس من تطاولهم على بعضهم وتجاوزهم الحدّ ، لأنهم يوقنون أن الله يعلم مشهدهم كما يعلم غيبهم .

لذلك كان الله هو خير الشاهدين ، فالشهود قد يكونون عدولاً ، أو يكونون ممَّنْ يُدارون فسقهم في ظاهر العدالة ، وهو سبحانه خير الشاهدين .

ويقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧) ﴾ [الحج] والشهيد هو الرائي الذي لا عملَ له في تحريك المشهود إلى غير ما يشهده ، والله تعالى هو

الحكم الذى يفصل بين عباده .

والحكم يحتاج إلى بينة أو شهود ، والشهود لابد أنْ يكونوا عدولاً ، ولا يتحقق العدل فى الشهادة إلاَّ بدين يمنع الإنسان أنْ يميل عن الحق ، فإن كان الحكم هو الله فلا حاجة لبينة ، ولا حاجة لشهود ، لأنه سبحانه يحيط علمه بكلِّ شيء ، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض .

وكلمة الشهادة تعنى تسجيل ما فعلوا وتسجيل أيضاً أنهم بُلِّغوا المنهج وعاندوه وخرجوا عليه ، فارتكبوا الجريمة التى تقتضى العقاب لأن العقوبة لا تكون إلا بجريمة ، ولا تجريم إلا بنصٍّ ، ولا نصَّ إلا بإعلام .

ولذلك يُقال ﴿ قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٩٦) ﴾ [الإسراء] وشهادة الحق سبحانه تعنى أنه تعالى الشهيد الذى رأى ، والحاكم الذى يحكم ، والسلطة التنفيذية التى تنفذ .

ثم يصف الله سبحانه نفسه فيقول ﴿ الْعَزِيزُ .. (١٨) ﴾ [التغابن] ، والعزيز الذى لا يُغلب لجبروته ولا يسأله أحد ، فهو سبحانه الغالب على أمره ، لا تسيطر عليه قوة ، ولا تحمى هؤلاء الناس قوةٌ من دون الله ، فهو القادر العزيز .

فكلمة « العزيز » تفيد الغلبة والقهر ، فلا يستطيع أحد أنْ يعلو عليه فلا يُنال ولا يقدر عليه أحد ، والشيء العزيز أى نادر الوجود ، فالعزة تأتى لامتناع شيء إما لقدرته ، أو عزيز بمعنى نادر أو يستحيل .

والعزيز هو الأمر الذى يعزّ على الناس أنْ يتداولوه ، فيقال : عزَّ عليَّ أنْ أصل إلى قمة الجبل .

وهو سبحانه العزيز المطلق لأنه لا إله إلا هو ، لا يُغلب ولا يُقهر ، يقول تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) ﴾ [هود]

وكلمة العزيز مأخوذة من المعانى الحسية ، فيقال : الأرض العزاز . أى : الأرض الصخرية التى يصعب المشى عليها ولا يقدر أحدٌ أنْ يطأها ، ومن هذا

المعنى جاءت كلمة « العزيز » .

والعزيز على إطلاقه هو الله ، ولكنّا نقول عن إنسان ما : عزيز قومه . فهى صفة أخذت مرتبة الأسماء ، وهى إذا أُطلقت إنما تشير إليه سبحانه ، وأسماء الله إما أنْ تكون أسماء ذات ، وإما أنْ تكون أسماء صفات ، فإنْ كان الاسم لا مقابلَ له فهو اسم ذات مثل « العزيز » .

أما إنْ كان الاسمُ صفة الصفة والفعل مثل (المعز) فلا بدّ أنْ له مقابلاً وهو هنا « المذل » ، ولو كان يقدر أنْ يُعز فقط ولا يقدر أنْ يُذل لما صار إلهاً .

فـ (العزيز) على إطلاقه لا تنصرف إلا لله تعالى ، لكن يمكن أنْ نقول : فلان العزيز فى قومه ، فلان الرحيم بمَنْ معه ، فلان النافع لمن يتصل به ، إنما لو قلت : النافع على إطلاقه فهو الله سبحانه وتعالى .

والحق سبحانه ليس (العزيز) فقط ، بل هو (رب العزة) ، قال تعالى :

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) ﴾ [الصافات]

ويقول تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩) ﴾ [النساء]

فإذا أردتم العزة فاطلبوها من صاحب العزة الذاتية الأزلية الأبدية وهو الحق سبحانه وتعالى ، ولو أردتم العزة الحقيقية التى تُغنيكم عن الطلب من الأغيار مثلكم ، فلتذهبوا إلى مصدر العزة الذى لا تناله الأغيار ، وهو الحق سبحانه وتعالى .

فإنْ أردتم عزةً حقيقية فاطلبوها ممنّ لا تتغير عزّته ، وهو الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩) ﴾ [النساء] ، وفى هذا القول تصويبٌ لطلب العزة ، وليطلب كلّ إنسان العزة إيماناً بالله ، فسبحانه الذى يهب العزة ولا تتغير عزّته .

وكلمة ﴿ جَمِيعًا (١٣٩) ﴾ [النساء] تدلُّ على أن العزة لها أفرادٌ شتى : عزةُ غنى ، وعزة سلطان ، وعزة جاه ، فإنْ أراد واحد أنْ يعرفها ويعلمها فهى جميعاً فى الحق سبحانه وتعالى .

فإنْ أردتَ أيها الإنسان عزاً ينتظم ويفوق كل عزٍّ فاذهب إلى الله ، واجعلوا العزة والمرجع إليه وحده ، وما دام الله عزيزاً فالذى آمن به عزيز ، يقول تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ .. (٨) ﴾ [المنافقون] فلا تلتمس العزة إلا من الحق سبحانه .

فالعزة لله لا تتعداه ، ولكنه سبحانه شاء أنْ تكون عزةُ رسوله ﷺ وعزة المؤمنين من باطن عزة الله تعالى ، والعزة لله فى كلِّ ألوانها ، إنْ كانت عزةَ حكمة فهو الحكيم ، وإنْ كانت عزةَ القبض على الأمور فهو العزيز القابض، وإنْ كانت عزة الحلم فهو الحليم ، وإنْ كانت عزةَ الغضب والانتقام فهو المنتقم الجبار ، فكلُّ ألوان العزة لله تعالى .

وليس لأحد أنْ يسأله لمَ فعل هذا ؟ ولمَ ترك هذا ؟ لذلك كان هذا هو معنى العزة ، ولذلك كان سبحانه عزيزاً .

ولكى تكون عزيزاً فخُذ العزة من الله ورسوله وبالبيئة الإيمانية ، وقد قال الحق سبحانه عن البعض : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) ﴾ [مريم]

فهم يطلبون العزة فى عبادة هذه الآلهة ، فما الذى سيعود عليكم من عبادتها؟ لذلك يردّ عليهم الحق تبارك وتعالى ﴿ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ .. (٨٢) ﴾ [مريم] و(كلا) تنفى أن يكون لهؤلاء عزٌ فى عبادة ما دون الله ، بل إنها ستكون ضِداً لهم وخَصْماً .

ثم يصف الحق سبحانه نفسه بأنه (الحكيم) الذى لا يصدر منه الشيء إلا بحكمة بالغة ، فمع أنه سبحانه العزيز الغالب على أمره فإنه سبحانه حكيم

فى تصرُّفه ، حكيمٌ يستعمل القهر والغلبة بحكمة .

وهذا نجده فى وَصْف خليل الله إبراهيم عليه السلام لربه سبحانه ، فيقول: ﴿ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦) ﴾ [العنكبوت] ، فاختار من صفات ربه (العزيز) أى الذى لا يُغلب وهو يَغْلِب ، وهذه الصفة تناسب ما كان من محاولة إحراقه وكأنه يقول للقوم : أنا ذاهب إلى حِمىً مَنْ لا يُغلب .

ثم يصف ربه بأنه (الحكيم) أى فى تصرفاته ، فلابدّ أنه سبحانه سينقلنى إلى مكان يناسب دعوتى ، وأناس يستحقون هذه الدعوة بما لديهم من آذان صاغية للحق وقلوب وأفئدة متشوِّقة إليه .

فهو سبحانه الحكيم فى كلِّ ما قضى وأمر ، وهو سبحانه عزيز بذاته ، ومع عزَّته سبحانه حكيم لا يظلم ، فهو صاحب العزة التى لا تُعارض ، والحكمة التى لا تخطيء .

والحكمة من (الْحَكَمَة) وهى قطعة الحديد التى تُوضع فى فم الفرس لتلجمه حتى يمكن للراكب أنْ يتحكَّم فيه ، ذلك أن الحصان حيوان مُدلَّل شارد يحتاج إلى ترويض ، وقطعة الحديد التى تُوضع فى فمه تجعله أكثرَ طاعة لصاحبه .

وكأن إطلاق صفة الحكيم على الخالق سبحانه وتعالى هو أنه جَلَّ جلاله يحكم المخلوقات حتى لا تسير بغير هدى ودون دراية .

والحكمة أنْ يُوضع هدف لكلِّ حركة لتنسجم الحركات بعضها مع بعض ، ويصير الكونُ محكوماً بالحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والحكيم هو الذى يضع لكلِّ كائن إطاره وحدوده .

والحكمة هى أنْ يؤدى كل شيء ما هو مطلوب منه ببراعة ، والحكمة فى الفقه هى أنْ تستنبط الحكم السليم ، والحكمة فى الشعر أنْ تزنَ الكلمات على التفاعيل، والحكمة فى الطب أنْ تعرف تشخيص المرض والدواء الذى يعالجه.

والحكمة فى الهندسة أنْ تُصمّم المستشفى طبقاً لاحتياجات المريض والطبيب وأجهزة العلاج ومخازن الأدوية وغير ذلك أو فى تصميم المنزل للسكن المريح ، وحكمة بناء منزل مثلاً تختلف عن حكمة بناء مستشفى أو حتى (كوبرى) أى معبر .

ولو أننا تأملنا آيات سورة التغابن فى ضوء اسم الله (الحكيم) الذى أنهى الله به السورة سنجد أن الله حكيم فى خَلْقه الناس مؤمنين وكافرين ، وحكيم فى خَلْق السموات والأرض ، حكيم فيما أصاب الناسَ من مصائب ، حكيم فى أنه جعل من أزواجنا وأولادنا عدواً لنا ، حكيم فى أنْ جعل الناسَ أغنياءَ وفقراء ، وطالب الأغنياء بالإنفاق فى سبيل الله زكاةً وصدقةً وإقراضاً للفقراء والمحتاجين .

حكيم فى ترتيب الثواب العظيم المضاعف على إعانة المحتاجين بإقراضهم قرضاً حسناً .

وعظمة الحق سبحانه أنه عزيزٌ لا يُغلب على أمره ، وهو صاحبُ كلِّ الحكمة فى وَضْع الأشياء فى مواضعها ، بحيث إذا ما عرفتَ حكمة ما يُجريه الله سبحانه وتعالى على خَلْقه فأنتَ تتعجَّب من عظمة قدرة الله .

فالحكمة هى وَضْع الشيء فى موضعه ، وما دمتَ قد وضعتَ الشيء فى موضعه فإنه لا يكون هناك قلقٌ ، وما دام الشيء موضوعاً فى مكانه فهو مُستقر ، وما دام الشيءُ مُستقراً فإنه لا يتلوَّن وتزداد الثقة فيه .

وإذا كان الحق سبحانه يقول : ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨) ﴾ [التغابن] فإن الإيمان هو انقيادٌ وتسليم لله سبحانه وتعالى ، فإذا أمر الله بأمر من الأمور فلا اختيارَ لنا فيه ، لأنه سبحانه يرى بحكمته وعلمه هدفاً أو أهدافاً أو حكمة .

وهنا يجب أنْ يقف الاختيار البشرى بمعنى أنه لا أحدَ يملك تعديل مرادات

الله بـأىِّ شكل من الأشكال ، لأننا فى حياتنـا اليومية حين نـرى واحداً من البشر قد اشـتهر بحكمته وعلمه فى أمر من الأمور أكثر منّا ، نقول له : وكّلناك فـى هذا الأمر وسنسـير وراءك فيما تقـرره ، ومعنى هذا أننا سنُسلم اختيارنا لاختيارات هذا الحكيم .

إننـا لا نعطى أحـداً هذه الصـلاحية إلا إذا تأكدنا بالتجربـة أنه عليم بهذه المسألة ، وأنه حكيم فى تصرّفه ، وإنْ سألك أحدٌ من الناس : لماذا تتصرف فى ضوء ما يقوله لك فلان ؟ فتقول : إنه حكيم وخبير فى هذه المسائل، وهذا دليلٌ منك على أنك واثقٌ فى علمه ، وواثقٌ فى صدقه ، وواثقٌ فى حكمته.

فـ (الحكيـم) لا ينظر إلى ظاهر معطيات الشـيء الآن ويغفل ما قد يأتى به مـن مضـرّة ، ولله المثل الأعلى : إنك قد تصـل إلى الشـيء ، وتظن أنه يُخلِّصـك من متاعب أخرى ، لكنه قد يؤدى إلى شيء أضرّ ، وهذا هو السبب فى اختلاف ألوان ووظائف العقاقير المختلفة .

ولذلك نجد الطبيب الحاذق يكتب عدداً من الأدوية ليستخلص المريض منها ما يشفيه ، ويحاول بقدر الإمكان أنْ يُجنِّبه الآثار الجانبية لتلك الأدوية .

إذن : فهـذه حكمـة لأن الطبيبَ لا يكتب الدواء الواحـد الذى قد يأتى منه أثرٌ ضـارٌ، بـل يكتب معـه دواءً يُخفِّـف من ضرره ، وهـذه حكمة منـه لأنه يعمل احتياطات لما قد ينشأ من ضرر أو أثر جانبى .

وفـى أريافنـا يُسمون الطبيـب (الحكيم) ، لأنـه يتعامل مع الجسـم البشرى بحكمة ، بإعطائه الأدوية التى تشفيه دون أنْ تضره ، أو لا تضرّه ضرراً بالغاً.

والحكيـم هـو الذى لا يترك شـيئاً للعبـث ، فهو المقدِّر لكلِّ أمـر بحيث يكون موافقاً للصواب .

ووَصْـف الحق سـبحانه نفسه بأنه (الحكيم) ينسـحب أيضاً على كتاب الله سـبحانه ، فالحقّ سـبحانه وصف قرآنه أيضـاً بالحكمة ، قال تعالى : ﴿ الم (١)

تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢) ﴾ [لقمان] أى الموصوف بالحكمة ، أو الحكيم قائله ، أو الحكيم مُنزله .

وقد أنزل الله المنهج فى الكتاب ليقود حياتنا إلى كل صلاح ، فإنْ طبقناه فلسوف يأتى منه كلّ نفع ، ولن يأتى لنا أيّ ضرر ، وهذا هو عين الحكمة . فـ ﴿ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ .. (١) ﴾ [يونس] أنه الكتاب الذى يمتليء بالحكمة الصادرة من الله ، أو الكتابَ الذى أنزله الربُّ الحكيم .

ومعنى كلمة (الحكيم) يتضح لنا من سياقها ، فإنْ نسبت الأمر إلى الحكم فهو كتابٌ صادرٌ من الحق سبحانه ، وإنْ أردتَ الوصف بمعنى فاعل فهو من حاكم ، والحاكم هو الذى يحكم فى قضايا ليبين وجه الحق فيها ، والقرآن يحكم فى كلِّ قضايا الإيمان .

وقد جعل رسول الله ﷺ الثناء على الله بأنه عالم الغيب والشهادة فى دعاء وذكر نقوله صباح مساء ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال أبو بكر : يا رسول الله مُرْنى بشيء أقوله إذا أصبحتُ وإذا أمسيت . فقال رسول الله ﷺ : « قل اللهم عالم الغيب والشهادة ، فاطرَ السماوات والأرض ، ربَّ كلِّ شيء ومليكه، أشهد أنْ لا إله إلا أنت ، أعوذ بك من شرِّ نفسى ومن شرِّ الشيطان وشركه»[1].

فالإصباح على إيمان ، والإمساء على إيمان كان حرْصَ المؤمنين الأوائل بالإسلام ، حتى أن الحارث بن مالك الأنصارى مرَّ برسول الله ﷺ فقال له : كيف أصبحتَ يا حارث ؟ فقال : أصبحتُ مؤمناً حقاً . فقال له رسول الله : انظر ما تقول ، فإنَّ لكلِّ شيءٍ حقيقةً ، فما حقيقةُ إيمانك ؟

فقال : عزفت نفسى عن الدنيا فأسهرتُ ليلى ، وأظمأتُ نهارى ، وكأنِّى أنظر إلى عرش ربِّى بارزاً ، وكأنِّى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأنِّى أنظر

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٣٣٩٢) وقال الترمذى : حديث حسن صحيح . وكذا أحمد بن حنبل فى مسنده (٦٣) والطيالسى فى مسنده (٩) والنسائى فى السنن الكبرى (٧٦٥٢ ، ١٠٥٦٣) والبخارى فى الأدب المفرد (١٢٠٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

إلى أهل النار يتضاغوْن[1] فيها، فقال : يا حارث عرفتَ فالزم ، عرفتَ فالزم ، عرفتَ فالزم[2].

وهنا يقول أبو بكر الصديق رضى الله عنه : يا رسول الله ، مُرْنى بشيء أقوله إذا أصبحتُ وإذا أمسيتُ .

وأبو بكر لا يسأل عن مجرد ألفاظ يحرِّك بها لسانه ، إنما يسأل عن دعاء وذكر يعيشه بكلِّ جوارحه الناطقة والفاعلة والنابضة . فالجوارح منها الناطقة كاللسان ، ومنها الفاعلة كاليد والرِّجْل ، ومنها النابضة كالقلب ، ومنها المفكرة كالعقل الكامن فى مركز التفكير فى المخ .

فأرشده رسول الله ﷺ إلى ذكر ودعاء يقوله إذا أصبح وإذا أمسى ، وأيضاً إذا أخذ مضجعه للنوم أو للراحة .

قال : قل اللهم عالم الغيب والشهادة ، فاطرَ السماوات والأرض ، ربَّ كلِّ شيء ومليكه ، أشهد أنْ لا إله إلاَّ إلا أنت ، أعوذ بك من شرِّ نفسى ومن شرِّ الشيطان وشَرَكه .

ذِكْر لله عز وجل وثناءٌ عليه بأنه سبحانه عالمُ الغيب والشهادة يعلم ما غاب عنَّا وعن غيرنا ، ويعلم المشهود منّا ومن غيرنا ، وكيف لا وهو سبحانه فاطر السماوات والأرض هو سبحانه الذى خلقها وابتدأها على غير مثال سابق .

وهو سبحانه ربّ كلِّ شيء ومليكه ، هو مالك كلِّ شيء فى السماء والأرض، يملكك ويملك ما تملكه ، بل يملك أعزّ ما يقوم به ذاتك وهو روحك .

فهو المتفرد وحده بالألوهية فلا إله إلا هو ، هو أوجدنا فى الحياة ووهبنا

---

(١) يتضاغون : يتصايحون ويتباكون . ضغا يضغو إذا صاح وضجَّ . ويقال : رأيت بنى فلان يتضاغون من الجوع أى يصيحون ويتباكون . [لسان العرب – مادة : ضغا] .

(٢) أخرجه أبو القاسم عبد الله بن محمد البغوى فى (معجم الصحابة) وابن أبى شيبة فى مصنفه (٣١٠٦٤) والطبرانى فى المعجم الكبير (٣٢٨٩) والبيهقى فى شعب الإيمان (١٠١٠٧) من حديث الحارث بن مالك .

أرواحنا لتتحرّك أجسادنا فى الأرض بمنهج الله وحده ، لا بمناهج أخرى تأخذ بنا بعيداً عمَّنْ يعلم غيبنا ومشهودنا .

وكما نُثنى على الله ونذكره وندعوه ونلجأ إليه سبحانه ، فنحن نعوذ به من شرِّ نفوسنا الأمَّارة بالسوء التى إن اتبعنا هوانا فى طاعتها وطاعة أهوائها فسنقع فيما هو أشدُّ ، وهو شرُّ الشيطان وشركه وأشراكه التى ينصبها لنا ، فالشيطان أقسم بعزة الله ليبذل كلَّ جهد لإغواء بنى آدم .

يقين الإنسان بأن الله هو فاطر السماوات والأرض ، ربُّ كل شيء ومليكه ، وأنه لا إله إلا الله ، ويجرى تأكيد هذا صباحاً ومساء ، وكذلك إذا أسلم الروحَ إلى الخالق سبحانه وديعة عنده عند النوم ، إنْ شاء قبضها وإنْ شاء أرسلها .

هذا اليقين يتأكد عندما تؤمن أنه سبحانه العليم البصير السميع عالم الغيب والشهادة ، لا يخفى عليه منك شيءٌ ، وأنه سبحانه العزيز ، وأنه سبحانه الحكيم.

ومن هنا ندرك معنى أنْ تبدأ سورة التغابن بالتسبيح ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) ﴾ [التغابن]

وتنتهى أيضاً بالتسبيح ، يقول تعالى : ﴿ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(١٨) ﴾ [التغابن]


سورة الطلاق



سورة الطلاق(١)



يقول الحق سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا (١) ﴾

تبدأ الآية بخطاب النبى ﷺ فقالت (يا أيها النبى) ، ومن عظمة نبينا ورسولنا محمد وعلو مكانته عند مَنْ اصطفاه خاتماً لرسالته فى الأرض أنّ الله ذكر الرسل والأنبياء فى خطابه لهم بنداء أسمائهم فقط ، كقوله تعالى :

﴿ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ .. (٣٣) ﴾ [البقرة] ، وقوله تعالى ﴿ يَـٰمُوسَىٰ إِنِّي

---

(١) سورة الطلاق سورة مدنية عدد آياتها ١٢ آية . وتسمى أيضاً سورة النساء الصغرى أو القُصرى سماها بهذا ابن مسعود . نزلت بعد سورة البقرة [التحريم والتنوير سورة الطلاق] وقبل سورة البينة ، هى السورة رقم ٩٦ فى ترتيب النزول ، أما ترتيبها فى ترتيب المصحف فهو ٦٥ .

أَنَا اللهُ .. (٣٠) ﴾ [القصص] ، وقوله تعالى ﴿ يَـٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ .. (١١٦) ﴾ [المائدة] ، وقوله تعالى ﴿ يَـٰنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ .. (٤٨) ﴾ [هود]

فسبحانه ينادى كلَّ رسول له بالاسم المشخَّص للذات بصرف النظر عن أيِّ صفة ، لكن رسول الله لم يُناد باسمه أبداً بل ناداه الحق بالمشخص للوصف ﴿ يَأَيُّهَا الرَّسُولُ .. (٤١) ﴾ [المائدة] أو قوله الحق ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ .. (٦٥) ﴾ [الأنفال]

ولأن الحق سبحانه لم يُناد نبيه ورسوله محمداً باسمه ، فلا يجوز لنا أنْ نناديه ﷺ كما ننادى بعضنا بعضاً فلا نقول (يا محمد) ، قال تعالى ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا .. (٦٣) ﴾ [النور]

فلا يليق أنْ نناديه ﷺ باسمه : يا محمد . لأن الجامع بين الرسول وأمته ليس أنه محمد ، إنما الجامع أنه رسولُ الله ، فلابد أنْ نناديه بوصف النبى أو الرسول .

فإذا كان الحقُّ تبارك وتعالى لم يجعل دعاءه للرسول وللنبى كدعائه لباقى رسله وأنبيائه ، أفندعوه نحن باسمه ؟ ينبغى أنْ نقول : يا أيها الرسول ، يا أيها النبى ، يا رسول الله ، يا نبى الله ، فهذا هو الوصف اللائق المشرِّف .

ونُودى ﷺ بـ (يأيها النبى) و (يا أيها الرسول) تعظيماً له ، ونحن حين نريد أنْ نُعظِّم من ننادى نسبق الاسم بمقدمات ، فقول : يا سيدى فلان ، يا فضيلة الشيخ ، يا صاحب العزة .. إلخ .

والحق سبحانه نادى رسوله بـ (يا أيها النبى) و (يأيها الرسول) ، والرسول هو سفير بين الله وبين خَلْقه ، ليُبلغهم منهجه الذى يريد أنْ تسير عليه حياتهم ، فالرسول مُبلِّغ ، أما النبى فمُرْسَل أيضاً من قِبَل الحق سبحانه ، لكن ليس معه شرعٌ جديد ، إنما يسير على شرع مَنْ سبقه من الرسل ، أما هو فقدوة وأُسْوة سلوكية لقومه .

ومحمد ﷺ جمع الأمرين معاً ، فهو نبى ورسول له خصوصيات أمر بها ولم يُؤمر بتبليغها ، وهذه مسائل خاصة بالنبوة ، وله أمورٌ أخرى أُمر بها وأُمِرَ بتبليغها .

وقد يسأل سائلٌ : ولكن لماذا نادى الله محمداً ﷺ هنا بالنبوة ؟ فقال : (يأيها النبى) ولم يُناده بالرسالة (يأيها الرسول) ، مع أن الأمر هنا بعد (يأيها النبى) يتعلق بتشريع ؟ ذلك لتغليب الأسوة السلوكية ؛ التى تمثلها النبوة .

ونلاحظ هنا أن كلمة (النبى) مأخوذةٌ من النبأ وهو الخبر الهام ، فالخبر يكون من البشر للبشر ، فإنْ كان من خالق البشر فهو نبأ . أى : أمر عظيم ينبغى الاهتمام به .

وهو هنا أمر الطلاق والذى يخص أمر العلاقات الزوجية التى تمسّ صميم الحياة الاجتماعية لأىّ مجتمع والذى ينظم علاقة الرجل بالمرأة ويمتد أثره للأبناء ، وعدم تنظيم هذا الأمر يؤدى إلى خلل بالغ يصيب المجتمعات بالاضطراب .

والطلاق مأخوذٌ من الانطلاق والتحرر ، وتشريع الطلاق حدٌّ من حدود الله، فإنْ حاولتَ أنْ تأتى بأمر لا يناسب ما أمر الله به فى تنظيم اجتماعى فقد نقلتَ المأمور به إلى حيز المنهى عنه ، وبذلك تُحدِث ظلماً .

والحق سبحانه وتعالى حينما يعالج قضايا المجتمع يعالجها علاجاً يمنع وقوع المجتمع فى الأمراض والآفات ، والبشر إنْ أحسنَّا الظن بهم فى أنهم يشرعون للخير وللمصلحة . فهم يشرعون على قدر علمهم بالأشياء ، لكننا لا نأمن أنْ يجهلوا شيئاً يحدث ولا يعرفوه .

فهم شرّعوا لما عرفوا ، وإذا شرعوا لما عرفوا وفوجئوا بأشياء لم يعرفوها، ماذا يكون الموقف ؟

إنْ كانوا مخلصين بحقٍّ داسوا على كبرياء غرورهم التشريعى وقالوا : نُعدِّل

ما شرعنا ، وإنْ ظلّوا فى غلوائهم فمَنْ الذى يشقى ؟ إنَّ المجتمع هو الذى يشقى بعنادهم .

فالذى يشقى بأخطاء المقننين من البشر هو المجتمع ، إلى أنْ يجيء مُقنِّن يعطف على المجتمع ويُعدل خطأ مَنْ سبقه .

أما الحق سبحانه فقد جاءنا بتشريع يحمى البشر من الشقاء واختلاف الأهواء ، حتى يضمن أن المجتمع لا يشقى بخطأ من المشرعين لفترة من الزمن إلى أنْ يجيء شرعٌ آخر ، ويُعدِّل للناس ما أخطأ فيه غيره .

فالذى وضع التشريع الأول لم يكن له من العلم ما يدل على مقتضيات الأمور التى تجدّ ، فلما جدَّت أمور فى الحياة لم تكُنْ فى ذهن مَنْ شرَّع أولاً ، احتاج الناس إلى تعديل التشريع .

ولنمسك بأىِّ قانون بشرى مُعدَّل فى أيِّ قضية من قضايا الكون ، ولننظر إلى أيِّ اتجاه يسير ؟ إنه دائماً يتجه إلى الإسلام ، وإنْ لم يلتق مع الإسلام فإنه يقرب من الإسلام .

وعندما قامت فى أوربا ضجة على الطلاق فى الإسلام ، ما الذى حدث ؟ جاء التشريع بالطلاق فى إيطاليا تحت سمع وبصر الفاتيكان ، هل شرعوا الطلاق لأن الإسلام أباح الطلاق ؟

لا ، إنما شرّعوه لأن أمور الحياة أخضعتهم إلى ضرورة تشريع الطلاق ، فكأنهم أقاموا الدليل بخضوعهم لأمور الحياة على أنَّ ما جاء به الإسلام قبل التجربة كان حقاً ، بدليل أنَّ أوربا لجأت إلى تشريع الطلاق لا كمسلمين ، ولكن لأن مصالح حياتهم لا تتأتّى إلا به .

والطلاق عملية صعبة ، فهو عملية تأتى والنفس فيها غضب ، وتأتى والزوج والزوجة وأهل الزوج وأهل الزوجة فى كدر .

والزواج صلَة مَبْناها السكن والمودة والرحمة ، فإن انعدمت هذه العناصر

فكيف يستمر الزواج ؟ وكيف ترغم زوجاً على أنْ يعايش زوجة لا يحبها ولا يقبلها ، وتُرغم زوجة أنْ تعيش مع زوج لا تحبه ؟

إن التفريق بينهما فى مثل هذه الحالة قد يكون وسيلة أرادها الله سبحانه ليرزق الزوجَ خيراً منها ، ويرزق الزوجةَ خيراً منه .

وكثيراً ما شهدنا هذا فى واقع الحياة ، وعاش الزوج مع الزوجة الجديدة سعيداً ، وعاشت الزوجة مع الزوج الجديد سعيدة .

صحيح أن مثل هذا الحل للعلاقة بين الرجل والمرأة قد يحمل الكثير من القسوة على الأسرة .

والحق سبحانه يذكر عناصر ثلاثة لاستبقاء العلاقة الزوجية ، فيقول تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) ﴾ [الروم]

ولو تأملنا هذه المراحل الثلاثة لوجدنا السكن بين الزوجين ، حيث يرتاح كلٌّ منهما إلى الآخر ويطمئنّ له ويسعد به ويجد لديه حاجته ، فإذا ما اهتزتْ هذه الدرجة ونَفَر أحدهما من الآخر جاء دور المودة والمحبة التى تُمسك بزمام الحياة الزوجية ، وتوفر لكليهما قدراً كافياً من القبول .

فإذا ما ضَعُف أحدهما عن القيام بواجبه نحو الآخر جاء دور الرحمة ، فيرحم كلٌّ منهما صاحبه ، يرحم ضعفه ، يرحم مرضه ، وبذلك تستمر الحياة الزوجية ، ولا تكون عُرْضة للعواصف فى رحلة الحياة .

فإذا ما استنفد الزوجان هذه المراحل فلم يَعُدْ بينهما سكن ولا مودة ، ولا حتى يرحم أحدُهما صاحبه فقد استحالتْ بينهما العِشْرة ، وأصبح من الحكمة مفارقة أحدهما للآخر .

وهنا شرع الحق سبحانه الطلاق ليكون حلاً لمثل هذه الحالات ، ومع ذلك

جعله ربنا سبحانه أبغضَ الحلال حتى لا نُقدِم عليه إلا مضطرين مُجبرين .

والحق سبحانه يريدك أنْ تبتعد عن لفظ الطلاق ، وألاَّ تلجأ إليه إلاَّ عند الضرورة القصوى ، لذلك يُعلمنا رسول الله ﷺ فيقول : « إنَّ أبغضَ الحلال عند الله الطلاق »[1].

ولذلك يقول الحق سبحانه هنا ﴿ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ .. (١) ﴾ [الطلاق] فاستخدم سبحانه لفظة (إذا) الشرطية أى إذا حدث وطلقتم النساء ، وهى تعطى معنى أنه ليس القاعدة .

والحق سبحانه إذا كان استخدم هنا (إذا) الشرطية ، فإنه استخدم أيضاً (إن) فى آيات أخرى كقوله تعالى : ﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ[2] قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (٢٣٦) ﴾ [البقرة]

فالحق سبحانه جاء بكلمة (إن) فى احتمال وقوع الطلاق ، و (إن) كما نعرف تُستخدم للشكّ ، فكأن الله عَزَّ وجلَّ لا يريد أنْ يكونَ الطلاقُ مُجترءاً عليه ومُحققاً .

وقد خاطب الحقُّ سبحانه هنا نبيه ﷺ ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ .. (١) ﴾ [الطلاق]وهو خطابٌ للأمة كلّها فى شخص رسول الله ، لأنه ﷺ هو المبلِّغ ، والمبلِّغ هو الذى يتلقَّى الأمر ويقتنع به أولاً ليستطيع أنْ يُبلِّغه .

ومثله قوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا .. (٣٠) ﴾ [الروم] فـ (أقم) هنا بمعنى أقيموا ، لأن خطابَ الرسول خطابٌ لأمته ، بدليل أنه سبحانه يقول

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٢١٨٠) ، وابن ماجه فى سننه (٢٠١٨) والبيهقى فى سننه الكبرى (١٥٢٩٢) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما . وقد أخرج أبو نعيم الأصبهانى فى (أخبار أصبهان) (٥٤٠) من حديث على أن رسول الله قال : « تزوجوا ولا تطلقوا ، فإن الطلاق يهتز له العرش» ولكن رماه الألبانى بالوضع .

(٢) المقتر : المعسر . فالمقتر من أقتر الرجل إذا قلَّ ماله وافتقر وقتر على عياله : ضيق عليهم فى النفقة.

فـى الآيـة بعدهـا ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ .. (٣١) ﴾ [الروم] ولـو كـان الأمر له وحده لقالَ منيباً إليه .

وقد يسأل سائلٌ هنا : لماذا لم يقُلْ هنا : يأيها الذين آمنوا إذا طلقتم النساء. بـل قـال ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ .. (١) ﴾ [الطلاق] رغم أن الفعل بعدها يخاطب الجماعة (طلقتم) ؟

كما قلنا : الله يخاطب الأمة تبعاً لخطابه لرسـول الله ، وهو تكريمٌ وتشريف لرسول الله ، ولكن أيضاً فإنَّ الموضوع الذى تتعرض له سورةُ الطلاق موضوعٌ يمسُّ حياة الناس ويُنظّم العلاقات الزوجة زواجاً وطلاقاً ، إنها تتحدث فى أمر تنهدم به الأُسَر والمجتمعات .

لذلك كان لابدّ من تنظيم أمر الطلاق حتى لا تكون فوضى منعاً لظلم المرأة أو الرجل ، ومنعاً لاختلاط الأنساب ، فالأمر ليس متروكاً لآحاد الناس يُنظمونه كما يشاؤون ، بل هو منُوط بوليٍ الأمر أو مَنْ ينوب عنه من القضاة .

لذلـك خاطب الله هنا رسـول الله كولىٍّ لأمر المسـلمين والقاضـى بينهم فى أقضـيتهم فى زمن وجوده ﷺ ، فأمر الطـلاق وأحكامه تقوم الدولة على إلزام النـاس بأحـكام الشرع فيه ، لذلك نـاسـب هنـا أن لا يخاطب الذيـن آمنوا ، بل يخاطب ولى الأمر .

فليس لإنسـان أنْ يتزوج هكذا مع نفســه دون ولى للمرأة ودون عقد وإشهار وصـداق ، وليس له أنْ يطلق دون أنْ يسـجل طلاقه أو يُشـهد عليه الثقات من النـاس ، وبالتالى ليس لـه أنْ يراجع امرأته إلا أن يُشـهد الناس على مراجعته لامرأته، وذلك حفظاً لحقوق المرأة وعدم الوقوع فى الإثم .

فقد يُطلِّق رجل امرأة مع نفسه وينسى أو يَذْهل أو يسافر دون أنْ يخبر أحداً وتجد المرأة نفسها بعد سنين طويلة أنها كانت تعيش معه فى رباط غير رباط الزواج.

ولذلك لما سُئل ﷺ عن الرجل يُطلِّق امرأته ثم يقع بها ولم يُشهد على طلاقها ولا على رجعتها ، فقال : طلقتَ لغير سنة وراجعتَ لغير سُنة ، أشهِدْ على طلاقها وعلى رجعتها ، ولا تَعُدْ[1].

والحق سبحانه هنا يقول : ﴿ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ .. (١) ﴾ [الطلاق] ففعْل الشرط هنا (طلقتم) ، وجوابه هو ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ .. (١) ﴾ [الطلاق] فالطلاق ليكون لِعدَّة محددة ، ولأجل محدد مُسمّى .

ونظام العدَّة له حالات :

- إنْ كانت المطلَّقة غير حامل فعدَّتها ثلاثة قروء ، أى ثلاثة أطهار إنْ كانت ممَّنْ يحضِنْ .

- وإنْ كانت حاملاً فعدَّتها أنْ تضع حملها .

- وإنْ لم تكُنْ حاملاً وقد بلغتْ سِنَّ اليأس ولم تَعُد تحيض ، أو كانت صغيرة ولم تصل لِسِنِّ الحيض ، هذه وتلك عدّتها ثلاثة أشهر .

أما الحالة الأولى فيقول تعالى : ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ .. (٢٢٨) ﴾ [البقرة] والمقصود بالمطلقات هنا أى المطلقات طلاقاً رجعياً ، فمن حق الزوج أنْ يراجع زوجته فى أثناء فترة العدة فى الطلاق الرجعى ، فإن انتهت عدَّتها فقد سقط حقه فى مراجعة الزوجة بنفسه ، وله أنْ يراجعها ولكن بمهر وعقد جديدين ما دام قد بقى له حَقٌّ ، أى لم يستنفد مرات الطلاق .

والعِدَّة هى الفترة الزمنية التى شرَّعها الله بعد زواج انتهى بطلاق أو بوفاة الزوج ، فإنْ كانت العدَّة بعد طلاق فمدّتها ثلاثة قروء ، والقرء هو الحيضة أو الطُّهْر ، فإنْ كانت المطلَّقة صغيرة لم تحِضْ بعد ، أو كانت كبيرة تعدَّتْ سِنَّ

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٢١٨٦) وابن ماجه فى سننه (٢٠٢٥) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٤٦٩٠) من حديث عمران بن حصين . قال السندى فى حاشيته على سنن ابن ماجه : « يريد أن اللائق الإشهاد فى الحالتين لئلا يقع النزاع والتهمة » .

الحيض ، فالعدَّة تنقلب من القروء إلى الأشهر ، وتصبح « ثلاثة أشهر ».

فالعدَّة فى حالة الطلاق الرجعى تعطى للزوج فرصة أنْ يراجع زوجته ، وأنْ يعيدها بنفسه إلى عصمته ، والعدَّة تكون لاستبراء الرحم والتأكد من خُلوِّه من الحمل ، وقد تكون العدَّة لا لهذا ولا لذاك ، ولكن لأنه توفى عنها .

فالعدَّة قبل الدخول لها حكم ، وبعد الدخول لها حكم آخر .

وقول الحق سبحانه : ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ .. (٢٢٨) ﴾ [البقرة] أى : ينتظرن، واللفظ هنا يناسب المقام تماماً ، فالمتربِّصة هى المطلَّقة ، ومعنى مطلقة أنها مزهودٌ فيها وتتربَّص انتهاءَ عدَّتها حتى ترد اعتبارها بصلاحيتها للزواج من زوج آخر .

وقوله ﴿ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ .. (٢٢٨) ﴾ [البقرة] المقصود به الطُّهْر ، لأنه قال (ثلاثة) بالتاء ، ونحن نعرف أن التاء تأتى مع المذكر فى تمييز العدد ، ولا تأتى مع المؤنث ، والحيضة مؤنثة . والطُّهْر مذكّر . إذن ﴿ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ .. (٢٢٨) ﴾ [البقرة] هى ثلاثة أطهار متواليات .

– أما الحالة الثانية فى العدَّة فهى المطلقة التى تُطلَّق وهى حامل فعدَّتها أنْ تضع حملها ، فيقول تعالى : ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ .. (٢٢٨) ﴾ [البقرة]

وعليها ألاَّ تكتمَ ذلك ، فقد يجوز أنْ تكون حاملاً وبعد ذلك تكتم ما فى بطنها حتى لا تنتظر طول مدة الحمل وتتزوج رجلاً آخر ، فيُنسب الولد لغير أبيه .

وقد تتزوَّج المرأة المطلَّقة بعد ثلاثة شهور وتدَّعى أنها حاملٌ من الزوج الجديد ، وأنَّ حملها لم يستمر سوى سبعة أشهر أو ستة أشهر .

– أما الحالة الثالثة فهى المطلَّقة التى بلغتْ سِنَّ اليأس ولم تَعُد تحيض

ولم تكُنْ حاملاً ، أو كانت صغيرة لم تصل لِسِنِّ الحيض ، فهذه كما قلنا عدَّتها ثلاثة أشهر .

فكلمة (النساء) في قوله تعالى : ﴿ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ .. (١) ﴾ [الطلاق] تشمل كل هذه الأصناف من المطلَّقات ، ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ .. (١) ﴾ [الطلاق] أي : طلِّقوا كل واحدة مِنْهُنّ بحسب حالتها ولعدَّتها التي حدَّدها الله لكلِّ حالة.

والكلام هنا ليس عن فرد واحد ولكن عن كثيرين ، والأمر لجماعة يعني أمراً لكلِّ فرد فيها ، فإذا قال المدرس للتلاميذ : أخرجوا أقلامكم . فمعنى ذلك أن كلَّ تلميذ يُخرج قلمه . وإذا قال رئيس الجماعة : اركبوا سياراتكم ، فمعنى ذلك أن كل واحد يركب سيارته .

فمقابلة الجمع بالجمع تقتضي القسمة آحاداً ، ومثله قوله تعالى : ﴿ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً .. (٣) ﴾ [النساء]

وهو قوْل يخاطب جماعة ، وليس فيه إلزام لكلِّ أحد أنْ يُعدِّد ، ولكنه واحد ينكح اثنتين ، وآخر ينكح ثلاث نساء ، وآخر ينكح أربع نساء ، وآخر لا يستطيع أيَّ شيء من هذا ، فله أنْ يتزوّج بواحدة ويقتصر عليها .

وهنا أمر يجب الالتفات إليه ، وهو أن قوله : ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ .. (١) ﴾ [الطلاق] معناه أن الطلاق يكون للعدَّة ، بمعنى أنْ لا يطلقها وهي حائض ، ولا يُطلِّقها في طُهْر قد جامعها فيه ، ولكن يتركها حتى إذا حاضت وطهرت طلَّقها تطليقة ، فإنْ كانت تحيض فعدَّتها ثلاث حيض ، وإنْ كانت لا تحيض فعدَّتها ثلاثة أشهر ، وإنْ كانت حاملاً فعدّتها أنْ تضع حملها .

فالمعتبر في العدَّة هو الطهر ، وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه طلَّق امرأته وهي حائض على عهد رسول الله ﷺ ، فسأل عمر بن الخطاب

رسول الله عن ذلك ، فقال رسول الله ﷺ :

« مُـرْه فليراجعهـا ، ثم ليمسكها حتى تطهر ، ثم تحيض ، ثـم تطهر ، ثم إنْ شـاء أمسـك بعد ، وإنْ شاء طلَّق قبل أنْ يمس ، فتلك العدَّة التى أمر الله أنْ تُطلَّق لها النساء»[1].

فقـد شـاءت إرادة الله عـز وجل ألاَّ يُطلِّـق الرجلُ زوجته وهـى حـائض ، لأن المرأة فى فترة الحيض لا يكون لزوجها رغبةٌ فيها وربما ينفر منها ، لكن يريد الحق عز وجل ألاَّ يُطلِّق الرجلُ زوجته إلا فى طُهْر لم يسـبق له أنْ عاشرها فيه معاشرة الزوج زوجته ، وبعد أنْ تغتسـل من الحيض ، وذلك حتى لا يُطلِّقها إلاّ وهو فى أشدِّ الأوقات رغبةً إليها .

وهذا ما حدث مع عبد الله بن عمر عندما طلَّق امرأته وهى حائض على عهد رسول الله ، فسأل عمر بن الخطاب رسول الله عن ذلك ، فأمره رسول الله أنْ يأمر ابنه عبد الله أنْ يراجع امرأته ، ثم ليُمسكها حتى تطهر من حيضها ، وليس هذا فقط بل تحيض مرة أخرى ثم تطهر ، أى أكثر من شهر ، طُهرين .

وله بعد ذلك أنْ يمسـك زوجته فلا يُطلِّقها ، وإنْ شـاء طلَّقها قبل أن يمسَّـها ويعاشرهـا معاشـرةَ الأزواج ، ثم قال ﷺ : « فتلك العدة التى أمر الله أنْ تُطلَّق لها النساء » .

ولا شك أنَّ هذا يعطى فرصة كبيرة ليراجع الرجل نفسه أكثر من مرة قبل أنْ يُطلِّق زوجته ويهدم بيته .

ثـم يقـول تعـالى : ﴿ وَأَحْصُـوا الْعِـدَّةَ .. (١) ﴾ [الطلاق] أى احفظوها أى : احفظوا الوقتَ الذى وقع فيه الطلاق ، حتى إذا بلغْنَ أجل عِدَّتهن بحسْب حالتها حَلَّتْ للأزواج .

فالإحصـاء معرفة ابتداء وقت العدَّة ومعرفة انتهاء وقتها ، لئلا تطول فترة

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٢٥١) وكذا مسلم فى صحيحه (٣٧٢٥) من حديث عبدالله بن عمر . وكذا أبو داود فى سننه (٢١٨١) والنسائى فى سننه (٣٣٩٠) .

العدَّة على المرأة فتمتنع من الأزواج .

ولكن مَنْ المخاطب هنا بقوله : ﴿ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ .. (١) ﴾ [الطلاق] مَنِ الذى سيحصى العدة ، هل هم الأزواج ؟ أم الزوجات ؟ أم المسلمون على العموم ؟

البعض من العلماء قال : إن المُطالب بإحصاء العدَّة هم الأزواج لأنهم الذين تلزمهم الحقوق وتلزمهم النفقة ويلزمهم الرجعة إنْ أرادوها ، فإنْ لم يُحصوا العدَّة ومضتْ المدة قد يُراجِعُون ، بينما كان الوقت قد فات ولزمهم حينها عقد جديد بمهر جديد .

ففى الإحصاء فوائد ، منها مراعاة الرجعة ، وزمان النفقة والسُّكنى ، والإحصاء معرفة العدّ وضبطه ، وهو مشتق من الحصى وهى صغار الحجارة لأنهم كانوا إذا كثرتْ أعداد شيء جعلوا لكلِّ معدود حصاة ، ثم عدُّوا ذلك الحصى .

ولاحظ أن الله لم يقُل : احسبوا العدة ولكنه قال (وأحصوا) والإحصاء فيه تدقيق أكثر فى حساب الشيء ، لأن التساهل قد يؤدى إلى أحد أمرين :

إما التزويج قبل انتهائها فربما اختلط النسب ، وإما تطويل المدة على المطلَّقة فى أيام منْعها من التزوّج لأنها فى مدّة العدّة لا تخلو من حاجة إلى مَنْ يقوم بها .

والمراد بالإحصاء هنا شدة الضبط والعناية بشأن العد حتى لا يحصل خطأ فى وقت العدة . والمعنى : يا أيها النبى أخبر المؤمنين ومُرْهم إذا أرادوا تطليق نسائهم المدخول بهن من المعتدَّات بالحيض ، فعليهم أنْ يطلقوهن فى وقت عدتهن .

أى فى طهر لم يُجامعوهن فيه ثم يتركوهن حتى تنقضى عدَّتهن ، وهذا ما فعله رسول الله عندما أمر عمر بن الخطاب أنْ يأمر ابنه عبد الله أنْ يراجع امرأته ، وأنْ لا يُطلِّقها إلاّ فى طهر لم يجامعها أو لم يمسّها فيه .

وهنـا لفتةٌ أخرى فى قوله تعـالى : ﴿ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ .. (١) ﴾ [الطلاق] أى : أن الـكلام هنا بخصـوص المرأة المطلَّقة المدخول بهـا ، لأن غير المدخول بها لا عدَّةَ لهـا .

وأيضاً فإن الحق سبحانه حمى حقَّ الزوج بهذه العدّة ، وكذلك حق المتوفَّى عنهـا زوجُها فى أثناء العدَّة ، وحمى أيضـاً كرامة المَـرأة ، وجعل المرأة حرماً لا يقـترب منه أحدٌ يخدش حياءها وحجابها ، إن عليها عدة محسـوبة فى هذا الوقت لرجل آخر ، فلا يحقّ لأحد أنْ يقترب منها .

فالمـرأة خاصـةً إذا كانـت مُطلّقـة قد تمتلكهـا رغبةٌ فـى أنْ تثأر لنفسـها ولكرامتهـا ، وربمـا تعجلت الزواج ، وربما كانت مسـائل الافـتراق أو الخلاف ناشئةً عن اندساس رغبة راغبٍ فيها .

وبمجرد أنْ يتم طلاقها وتعيش فترة العدة فقد يحوم حولها الراغبون فيها ، أو تسـتشرف هى من ناحيتها مَنْ تراه صـالحاً كزوج لها ، ولذلك يفرض الحق سـبحانه سـياجاً من الزمن ويجعل العِدَّة كمنطقة حرام ليحمـى المرأةَ حمايةً موضوعية لا شكلية .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ .. (١) ﴾ [الطلاق]

يلفتنـا الحق سـبحانه هنـا إلى أمر هـام ينتظم سـورة الطلاق كلها ، وينتظم أمور العلاقات الزوجية زواجاً وطلاقاً ، عدةً ونفقة .

قـال تعـالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) ﴾ [الطلاق] وقـال : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤) ﴾ [الطلاق] ، وقـال : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ .. (٥) ﴾ [الطلاق] وقـال : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٠) ﴾ [الطلاق]

وتقوى الله تعني أنْ نفعل أوامر الله وأنْ نتجنَّب نواهيه لنحكم حركة اختياراتنا بمنهج ربنا ، فإنْ حكمنا حركة اختياراتنا بمنهج الله صِرْنا مع الكون كأننا مسخرون لقضايا المصلحة والخير .

فالتقوى فى معناها العام طاعةُ الله باتباع أوامره واجتناب نواهيه ، فمعنى التقوى هو أنْ تتقى معضلات الحياة ومشكلاتها بأنْ تلتزم منهج الله ، وساعة ترى منهج الله وتُطبقه فتكون قد اتقيتَ المشكلات .

أما مَنْ يُعرض عن تقوى الله فإن الحقَّ سبحانه يقول عن مصيره : ﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا .. (١٢٤) ﴾ [طه]

ولا يظن أحدٌ أنَّ التقوى هى اتقاء النار ، لا إنها أعمّ من ذلك ، إنها اتقاء المشكلات والمخاطر التى تنشأ من مخالفة منهج الله ، وليعلم الإنسانُ أن كلَّ مخالفة ارتكبها لابد أنْ يمر عليها يومٌ ترتكب فيه هذه المخالفة كما ارتكبها فى غيره .

فالتقوى هى تقوى كل مشاكل الحياة ، فالذى يجعل الحياة مليئةً بالمشاكل هو أننا نأخذ بالقوانين التى نسُنها لأنفسنا ونعمل بها ، ولكن إذا أخذنا تقنين الله لنا فمعنى ذلك أننا نتقى المشاكل .

ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا .. (١٢٤) ﴾ [طه] أى : أن حياته تمتلئ بالهموم والمشاكل لأنه يخالف منهج الله، وإذا لم تنشأ المشاكل مع المخالفات لقال الناس : خالفنا منهج الله وفلحنا .

لذلك كان لابد أنْ توجد المشاكل لتنبهنا أنَّ منهج الله يجب أنْ يسيطر ، وحين يتمسَّك الناسُ بمنهج الله لا تأتى لهم المشاكل بإذن الله .

والضنك هو الضيق الشديد الذى تحاول أنْ تُفلت منه هنا أو هناك فلا تستطيع ، والضنك لا يعنى فقط الفقْر والحاجة ، إنما له صُور أخرى كثيرة .

فلا تقِسْ مستوى التحضُّر بالماديات فحسب ، إنما خُذْ فى حسبانك كُلَّ

النواحى الأخرى ، فمن أتقن النواحى المادية الدنيوية أخذها وترف بها فى الدنيا ، أما الصلاح الدينى والخلقى والقيمى فهو سبيلٌ لترف الدنيا ونعيم الآخرة .

والمسألة ليست حالة اقتصادية إنما هى مسألة منهج لله تعالى غير مُطبَّق وغير معمول به ، لذلك لو عِشنا بمنهج الله لوجدنا لذة العيش ولو مع الفقر .

فالمعيشة الضنك والعياذ بالله تأتى حين تنطمس النورانية الإيمانية، وحين لا تحافظ على إشراقية هذه الذرة التى شهدتْ خَلْق الله وشهدتْ له بالربوبية ولو حافظت عليها لظلَّتْ كل التعاليم واضحة أمامك ، وما غفلتَ عن منهج ربك هذه الغفلة التى جرَّتْ عليك المعيشة الضنك .

لذلك تسمع مَنْ يقول : العيشة ضنك ، فلا يقفز إلى ذهنك عند سماع هذه الكلمة إلا مشكلة الفقر ، لكن الضنك أوسع من ذلك بكثير ، فقد يوجد الغِنَى والترف ورَغد العيش ، وترى الناس مع ذلك فى ضنك شديد .

فانظر مثلاً إلى السويد ، وهى من أغنى دول العالم ، ومع ذلك يكثر بها الجنون والشذوذ والعُقد النفسية ، ويكثر بها الانتحار نتيجة الضيق الذى يعانونه ، مع أنهم أغنى وأعلى فى مستوى دخْل الفرد .

وارتباط تطليق النساء بتقوى الله ذكره القرآن فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ .. (٢٣١) ﴾ [البقرة]

فمعنى (تتقى) أى : أنْ تلتحم بمنهج الحق ، فالمؤمن التقى هو الذى يخاف الله ، وقد أوصى رسول الله ﷺ الرجال فقال : « الله الله فى النساء ، فإنهن

عَـوَانٌ[1] فى أيديكــم ، أخذتمـوهن بـأمـانة الله ، واسـتحللتم فروجهـن بكلمـة الله »[2].

والحـق سـبحانه يقـول ﴿ وَاتَّقُـوا اللهَ .. (١) ﴾ [الطلاق] ثم يـقـول بعدها : (ربكم) ، فهو سـبحانه يجمع بين صـفة الألوهية لله وصفة الربوبيـة ، فيقـول (الله ربكم) .

فالربُّ عطاؤه مكفول لكلِّ مَنْ خلق ، مؤمنهم وكافرهم ، فهو سبحانه وتعالى الذى استدعاهم للوجود وخلقهم ، فالربّ سبحانه يضمن لهم رزقهم وحياتهم، والله سبحانه لا يحرم خَلْقاً من خَلْقه من عطاء ربوبيته فى الدنيا .

وعطـاء الألوهيـة تكليف ، وعطـاء الربوبية رزق وتربيـة ، والرزق والتربية مطلوبـات لـكلِّ مَـنْ كان على الأرض ، لأننا لم نعلـم أن أحداً فـى الوجود قد اسـتدعى نفســه فى الوجود ، وإنما اسـتدعاه خالقه، وما دام الخالق الأكرم هو الذى استدعى العبد مؤمناً أو كافراً فهو المتكفِّل برزقه .

وعطاء الربوبية يشـمل الخَلْق جميعاً ، فالخالـق الأكرم هو ربّ الناس كلهم ويتـولى تربيتهـم جميعــاً ، فعطاءُ الربوبيـة للجميع ، أما عطـاء الألوهيـة فهو « افعل » و « لا تفعل » .

والرب هو الذى يتولّى تربية المربى لبلوغه حدّ الكمال المنشود له ، وكلمة (رب) تعنــى أنــه تـولى تربية الخَلْـق إلى غاية ومهمة ، والتربيـة تحتـاج إلى مقومـات ماديــة ومقومات معنويــة روحية ومنهجية ، لذلـك يأتى بها الحق سـبحانه شـاملةً للكون كله ، كما فى فاتحة الكتاب ﴿ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) ﴾ [الفاتحة]

---

(١) عوان : أسرى مستسلمات ، فهُنَّ بمنزلة الأسير . وعوان جمع عانية وهى الأسيرة . وما دامت المرأة أسيرة عند الرجل فليحسن عشرتها لأنها لا تملك من أمر نفسها شيئاً .

(٢) أخرج البيهقى فى شُعب الإيمان (٤٨٨١) عن جابر بن عبد الله عن النبى ﷺ فى خطبته بعرفات : « اتقوا الله فى النساء ، فإنهن عوان عندكم ، اتخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ».

فهو سيِّد كل العالمين ومالكهم ومُربِّيهم ، وهو الذى يُنشِّئهم التنشئة التى تجعلهم صالحين لأداء مهمتهم فى الحياة بقوة البنيان وبقاء النوع بالتزاوج وبقوة القيم .

وفى آية يقول تعالى : ﴿ وَلَـٰكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ .. (٦١) ﴾ [الأعراف] أى من سيد العالمين ومن مُتولِّى تربية العالمين ، ومَنْ يتولَّ التربية لا يُنزل منهجاً يُضل به مَنْ يربيهم ، بل يُنزل منهجاً ليصلح مَنْ يُربيهم .

ومعنى ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ .. (١) ﴾ [الطلاق] أى : لا تعصوه فيما أمركم به، فلا تُطلِّقوا النساء فى الدم ولا فى الطهارة وقد جامعتموهن إلا فى الطهارة بعدما يغتسلْنَ من الحيض من قبْل أن تُجامعوهن .

وهو تحذيرٌ من التساهل فى أحكام الطلاق والعدة ، وذلك أنَّ أهل الجاهلية لم يكونوا يقيمون للنساء وزناً ، وكان قرابة المطلقات قلّما يُدافعن عنهنّ فتناسى الناسُ تلك الحقوق وغمصوها .

فلذلك كانت هذه الآياتُ شديدةَ اللهجة فى التحدى ، وعبَّر عن تلك الحقوق بالتقوى وبحدود الله ، ولزيادة الحرص على التقوى أتبع اسم الجلالة بوصف (ربكم) للتذكير بأنه حقيقٌ بأنْ يتقى غضبه .

فاتقوا الله ربكم فى تطويل العِدَّة عليهن والإضرار بهن ، فلا تعصوه فيما أمركم به .

وهى دعوةٌ للرجال خاصةً إلى تقوى الله فى هذا الموقف ، وألاَّ يكونَ الطلاقُ عن عدوان أو انتقام أو اتباع لشهوة عارضة أو نزوة طارئة ، فإن الرسول ﷺ يقول : «إنَّ من أبغض الحلال إلى الله الطلاق»[1].

فاتقوا الله ربكم بأنْ تصونوا أنفسكم عن معصيته التى من مظاهرها إلحاق

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٢١٨٠) وابن ماجه فى سننه (٢٠١٨) والبيهقى فى السنن الكبرى (١٥٢٩٢) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما . وكذا أخرجه الطرسوسى فى مسنده (١٤) .

الضرر بأزواجكم بتطليقهن فى وقت حيضهن ، أو فى غير ذلك من الأوقات المنهيّ عن وقوع الطلاق فيها .

فعندما يأمركم الحقّ سبحانه بأمر يخصُّ زوجك وأهل بيتك بموجب أنه **الله**، وأنّ علينا أنْ نستجيب لأمر **الله** ، ولكنه أيضاً بموجب ربوبية **الله** يدلّنا على ما يُصلح حالك مع زوجك وأهل بيتك .

وعندما يحدث الطلاق لابد أنْ يحدثَ بما شرَّعه **الله** ، وأنْ تكون كل أموره محوطة بتقوى **الله** ، ومخافته وخشيته .

فالله يُربِّيكم بمنهجه ويكلؤكم تحت عينه ، ليستقيم أمر حياتكم على منهج **الله** ، وتقوى **الله** هنا تخصّ إحصاء عدة المرأة المطلقة ، وتخص أيضاً عدم إخراج المرأة المطلّقة طلاقاً رجعياً من مسكن الزوجية ، فالله ربٌّ ويعلم نفوس عباده رجالاً ونساء ، ويعلم أنَّ هذا قد يُقرب بين رجل طلّق امرأته فى لحظة طيش وبين مطلقته .

فيجعل المرأة قريبة من الرجل عسى أن يوفق **الله** بينهما، فيرجع الرجلُ امرأته وتستقيم الأمور بينهما .

وقد روى جابر بن عبد **الله** رضى **الله** عنه قال : طُلِّقتْ خالتى ، فأرادت أنْ تجُدَّ[1] نخلها فزجرها رجل أنْ تخرج ، فأتت النبى ﷺ فقال : « بلى فجُدِّى نخلكِ ، فإنكِ عسى أنْ تصَّدَّقى أو تفعلى معروفاً »[2] .

والبعض قد يفهم تعارضاً بين هذا الحديث الشريف وبين قوله تعالى الذى نحن بصدد خواطرنا عنه ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ .. (١) ﴾ [الطلاق]

فالمرأة فى الإسلام لها ذمتها المالية المستقلة ، ولها أنْ ترعى مالها بذاتها أو بتوكيل مَنْ تثق فيه ، ولكن قد يقف أمامها أمرٌ شرعه **الله** ، وهو أنها قد

---

(١) تجد نخلها : تصرمها . وجداد النخل : صرامها . والصرام : القطع .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٣٧٩٤) وأبو داود فى سننه (٢٢٩٩) والنسائى فى سننه (٣٥٥٠) وابن ماجه فى سننه (٢٠٣٤) وأحمد فى مسنده (١٤٤٨٤) من حديث جابر بن عبد الله .

تكون مُطلَّقة لا يحقّ لها أنْ تخرج فى مدة عدَّتها .

ولكن هذا ليس على إطلاقه ، فإن المرأة المطلقة لها الحق فى الخروج لحاجاتها الضرورية ولمباشرة مالها ، والحديث يعطينا مثالاً عملياً ، فخالة جابر بن عبد الله طُلِّقَتْ فأرادت أنْ تجُدَّ نخلها أى تجزّه لتستفيد منه ، فزجرها أحد الرجال أنْ تخرج .

فأتت المرأة لنبى الله ﷺ لتسأله ، فأباح لها رسول الله أنْ تخرج لتجُدَّ نخلها ، فرسول الله نظر نظرةً أبعد ، فقال : « إنكِ عسى أنْ تصّدَّقى أو تفعلى معروفاً » .

فرسول الله أراد أنْ يُوجهها إلى فعل الخير ، كأنْ تتصدَّق أو تفعل معروفاً كإغاثة ملهوف أو سداد دَيْنِ مَن غلبَهُ الدين ، أو إعانة مَنْ يريد التزوج ، أو وضْع شيء من هذا النخل للفقراء والمحتاجين .

ثم يقول تعالى : ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ .. (١) ﴾ [الطلاق] أى : لا تُخرجوهن من بيوتهن حتى تنقضى عدتهن ، وليس لها أنْ تخرج إلا بإذنه، وليس للزوج أنْ يُخرِجها ما كانت فى العدة ، فإنْ خرجت فلا سُكْنى لها ولا نفقة .

وقد نسب الحقُّ سبحانه البيوت إلى ضمير النساء من المطلقات ، وهو إشارةٌ إلى أنهن مستحقات المكث فى البيوت مدة العدَّة بمنزلة مالك الشيء ، وهذا ما يُسمى فى الفقه مِلْك الانتفاع دون العين ، وللمطلقة حكم الزوجة ما دامت فى العدة إلاَّ فى استمتاع المطلِّق .

فلا تُخرجوهن حتى تنقضى عدتهُنَّ من بيوتهن من مساكنهن التى يسكنّها قبل العدة وهى بيوت الأزواج ، وأضيفتْ إليهن لاختصاصها بهنَّ من حيث السُّكْنى .

فهذا نَهْى للرجال عن أنْ يُخرِجوا مُطلقاتهم قبل انقضاء العدة ، بل ينبغى أنْ يُمسِكوهن فى بيت الزوجة ، فإنهن زوجاتٌ إلى أنْ تنقضى العدة .

وفى إضافة بيوت الأزواج إلى الزوجات ما يُدخل فى شعور كلٍّ من الرجل والمرأة أن الزوجية لا تزال قائمة بينهما فى أثناء العدة ، وأن الزوجة ما زالت فى بيتها بيت الزوجية .

وهذا من شأنه أنْ يجعل المسافة النفسية قريبةً بينهما ، وأنْ يكون ذلك داعيةً إلى إصلاح ذات البين وإزالة أسباب الفُرْقة ، فالمرأة فى أثناء العدة لا تزال فى بيتها بيت الزوجية وليست غريبة عنه ، وهى بهذا الشعور تتصرف كما كانت تتصرف قبل إيقاع الطلاق عليها ، وهذا مدخل واسع إلى المصافاة وإصلاح ما بالنفوس .

فلا تُخرجوا المعتدات من المساكن التى كنتم تُساكنوهن فيها قبل الطلاق، غضباً عليهنَّ أو كراهة لمساكنتهن أو لحاجة لكم إلى المساكن ، لأن تلك السُّكْنى حقّ الله تعالى أوجبه للزوجات ، فليس لكم أنْ تتعدوه إلا لضرورة ، كانهدام المنزل أو الحريق أو السيل أو خوف الفتنة فى الدين .

فاتقوا الله ربكم فى الإضرار بهنَّ لا تُخرجوهن من بيوتهن أى من مساكنهن عند الفراق إلى أنْ تنقضى عِدّتهن ، فقوله ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ .. (١) ﴾ [الطلاق] فيه دليلٌ على وجوب السُّكنى لها ما دامت فى العدة .

فإنَّ بيوتهن التى نهى الله تعالى عن إخراجهنّ منها هى البيوت التى كانت تسكنها قبل الطلاق ، فأمره بإقرارها فى بيتها ، ونسبه إليها بالسُّكنى .

ويقول سبحانه : ﴿ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ .. (١) ﴾ [الطلاق] فلا تخرج المطلَّقة ما دام لزوجها عليها رجعة وكانت فى عدةٍ ، وهذا الخروج ألاَّ تتحول من بيتها وإنِ احتاجتْ إلى الخروج بالنهار لحاجتها خرجت ولا تبيت إلا فى بيتها .

وليس للزوج أنْ يُخرجها من مسكن الزوجية ما دامت فى العدة ، ولا يجوز لها الخروج أيضاً لحقِّ الزوج إلا لضرورة ظاهرة ، فإنْ خرجت أثمت ولا تنقطع

العدة ، والرجعية والمبتوتة فى هذا سواء ، وهذا لصيانة ماء الرجل .

ويقول تعالى ﴿ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ .. (١) ﴾ [الطلاق] وفى سورة النساء يقول تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ[1] لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ .. (١٩) ﴾ [النساء]

ويقول تعالى فى سورة الأحزاب : ﴿ يَٰنِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا (٣٠) ﴾ [الأحزاب]

والفاحشة هى الذنب الفظيع ، وموقف العلماء من الفاحشة فيه اختلاف ، فبعض العلماء قال : إنها الكبيرة من الكبائر ، وقال بعض آخر من العلماء : إن الفاحشة هى الزنا .

والفاحشة مأخوذة من التفحُّش أى التزايد فى القبح ، ولذلك صرفها بعض العلماء إلى لوْنٍ خاص من الذنوب وهو الزنا ، لأن هذا تزيُّد فى القبح .

والذين قالوا : إن الفاحشة المقصود بها الزنا نظروا إلى قول الله سبحانه : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (٣٢) ﴾ [الإسراء] أو الفاحشة هى ما فيه حدٌّ ، أو الفاحشة هى الكبائر ونحن نأخذها على أنها التزيُّد فى القبح على أىِّ لوْنٍ من الألوان .

فكلمة (فاحشة) ليست قُبحاً فقط ، بل تزيُّد وإيغال وتعمُّق فى القبح ومبالغة فيه .

والمتتبع لآيات القرآن الكريم سيجد أنَّ الزنا هو الذنب الوحيد الذى سماه القرآنُ فاحشةً فهى إذن الزنا ، أو كلّ شيء يخدش حكماً من أحكام الله تعالى ،

---

(١) فى العضل عدة أقوال منها :
– أن الرجل يكره صحبة امرأته ولها عليه مهر فيحبسها ويضربها لتفتدى . قاله ابن عباس وقتادة .
– أن الرجل يطلق امرأته ثم يراجعها ثم يطلقها كذلك أبداً إلى غير غاية يقصد إضرارها .

ولكن لماذا الزنا بالذات ؟

نقول : لأن كلَّ الذنوب الأخرى غير الزنا إنما تتعلَّق بمحيطات النفس الإنسانية ، أما الزنا فيتعلق بالنفس الإنسانية ذاتها ، ويترتب عليه اختلاط الأنساب وبه تُدنّس الأعراض ، وبه يشكّ الرجل فى أهله وأولاده ، ويحدث بسبب هذا من الفساد مَا لا يعلمه إلا الله .

لذلك نصَّ عليه القرآن صراحةً فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (٣٢) ﴾ [الإسراء]

ومن أقوال العلماء فى الفاحشة : أنها الذنب العظيم الذى يخجل صاحبه منه ويستره عن الناس ، فلا يستطيع أنْ يجاهر به ، كأنه هو نفسه حينما يقع فيه يعلم أنه لا يصح ولا ينبغى لأحد أنْ يطلع عليه .

فالفاحشة هى الشيء الذى اشتد قُبْحه ، والدليل على فُحْشه أن الموصوم به يحب ألاَّ يعرف وأنْ تظلّ جرائمه خِلْسةً من المجتمع ، وأن الذى يقترف هذه الفاحشة يكره أن تُفعل فى محارمه ، ويكفيها فحشاً أن الله تعالى سماها فاحشة ، وشرع لها حداً يُقام على مرتكبها علانية أمام أعين الجميع .

ولكن ما معنى الفاحشة هنا فى هذه الآية ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ .. (١) ﴾ [الطلاق]

البعض من العلماء قالوا : الفاحشة البغض والنشوز ، فإذا فعلتْ ذلك فقد حلّ له منها الفدية . وقال ابن مسعود : إذا آذتك فقد حلّ لك أخْذ ما أخذَتْ منك[1] .

ومن العلماء مَنْ قال : خروجها قبل انقضاء العدة من بيتها الفاحشة المبينة ومنهم مَنْ رأى أن فاحشةَ المرأة هنا هى أنْ تبذوَ[2] المرأة على أهل الرجل ، فإذا

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٤/ ٢٩٠) وعزاه لابن جرير الطبرى فى تفسير الآية [النساء : ١٩] .
(٢) تبذو : تجيء بالكلام القبيح والفحش . وتبذو : تشتم وتسبّ وتسيء القول فى أقارب زوجها ، فهذه يجوز إخراجها ونقلها إلى مكان آخر لقطع إيذائها عنهم . فلسانها ذربٌ فتؤذيهم بلسانها السليط .

بذت عليهم بلسانها فقد حَلَّ لهم إخراجها .

فالفاحشة هنا بمعنى العصيان البيّن وهو النشوز، فالفاحشة المبيّنة أنْ تفحُشَ المرأةُ على أهل الرجل وتُؤذيهم ، فتكون امرأةً سيئةَ الخُلق .

فالمرأة السيئة الخُلق البذيئة اللسان على زوجها وأهل زوجها لا تستحق أنْ يتم الاحتفاظ لها بحقِّها فى البقاء فى مسكن الزوجية مع طليقها إلى أنْ تنقضى عِدَّتها .

وقد أحلَّ الإمام الشافعى إخراجَ المرأة البذيئة على أحمائها ، فالفاحشة المبينة الأمر القبيح الواضح الموجب لإخراجها ، بحيث يدخل على أهل البيت الضرر من عدم إخراجها كالأذى بالأقوال والأفعال الفاحشة .

ففى هذه الحال يجوز لهم إخراجها ، لأنها هى التى تسببت لإخراج نفسها، والإسكان فيه جَبْر لخاطرها ورِفْق بها ، فهى التى أدخلت الضرر على نفسها.

وهذا فى المعتدَّة الرجعية ، أما البائن فليس لها سُكْنى واجبة ، لأن السكن تبع للنفقة ، والنفقة تجب للرجعية دون البائن .

ولأن الشارع سبحانه حكيم ، فوراء السُّكنى للمطلَّقة حكمة بالغة فهذا حِفْظ للأعراض ، فإن المطلقة يكثر التفات العيون لها .

والملفت أن الحق سبحانه استخدم كلمة (مبيِّنة) ولم يقل سبحانه : بفاحشة بيِّنة . أى واضحة ، ولكنه سبحانه قال (مبيِّنة) فالفاحشة هنا واضحة ظاهرة ظهوراً لا لبْسَ فيها ، فهى مبيِّنة بذاتها موضحة لنفسها وُضوحاً لا يَخْفى على أحد .

وهذا تعبيرٌ عن مجاهرة المرأة بفاحشتها أو ببذاءتها مجاهرةً لا يحتملها أحدٌ أو تطاولها على زوجها بالسُّباب والنشوز والارتفاع عليه والتمرد عليه وعلى أهله .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا (١) ﴾ [الطلاق]

قوله (وتلك) اسم إشارة لمؤنث ، ولابد أنْ نعرف أنَّ (تلك) ليست كلمة واحدة وإنما هي ثلاث كلمات . (ت) اسم إشارة وهو مؤنث (ذا) التي في (ذلك). واللام تدل على البُعد ورفعة هذه الحدود وتأكيد عدم تعدِّيها وتجاوزها . و (ك) لمخاطبة الناس جميعاً .

فـ (تلك) هي إشارةٌ لأمر بعيد ، فعندما نشير إلى شيء قريب فإننا نقول (ذا) . وعندما نستخدم صيغة الإشارة مع الخطاب نقول : ذاك . وعندما نشير إلى مؤنث فنقول (تِ) . وعندما نشير إلى خطاب مؤنث نقول : (تيك) . واللام كما عرفنا هنا للبُعد أو للمنزلة العالية .

فـ (تلك) إشارة ، ولابد أنْ نُفرِّق بين الإشارة والخطاب ، لأن البعض يخلط بينهما ، فالإشارةُ هي التي تشير إلى شيء مثل قولنا : هذا وذا أو تلك ، وهذا : إشارة لمذكر .

والمثال هو قولنا : هذا القلم جميل . أما قولنا : تلك الدواة جميلة فـ (تلك) إشارةٌ لمؤنثة . أما الكاف فهي حرف خطاب ، فالتاء إشارة للآيات وهي مؤنثة. والكاف في (تلك) للمخاطب .

والمشار إليه هنا هو حدود **الله** والمتمثِّلة هنا في هذه الآية في أحكام التطليق ما دام لم يُعدْ هناك مجال لاستمرار الحياة الزوجية ، فإنْ كان الطلاقُ واقعاً لا محالة فلا بد أنْ يتمَّ بطريقة شرعية تحفظ للمرأة حقوقها ، وتحفظ للرجل رغبته في إعادة امرأته إليه مرة أخرى ، وتحفظ للمجتمع حمايةَ النسل وعدم اختلاط الأنساب .

فتلك حدود **الله** ، وليس من الصواب أنْ نحصر الحدود في حدود الجزاءات والعقوبات على السرقة والزنا والحرابة[1] والقتل ، فالحدود التي وضعها **الله**

---

(١) يقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ..(٣٣) ﴾ [المائدة] وهذا حكم الله في الحرابة أي قطع الطريق، فالحرابة هي أشد الجرائم لأن منها عدة جرائم كالسرقة بالإكراه والقتل والإخافة والترويع وهدم عامر البنيان وتهديد الأبرياء ، فعند فعل عمل يجمع بين هذه الجرائم فهذه حرابة يطبق فيها حكم الآية.

سبحانه هى أحكام ، ومرة تكون هذه الأحكام أوامر ، ومرّة تكون نواهى .

ومعنى « الحد » هو الفاصل المانع من اختلاط شيء بشيء ، وحدودُ الله هى محارمه ، والمحارم هى التي يضع الله لها حداً فلا تتعداه . فلكي تمنع نفسك من تلك المحرمات فعليك ألاَّ تقربَ النواهى ، وفى الأوامر عليك ألاَّ تتعداها .

فحدودُ الله هى ما شرعه لعباده حداً مانعاً بين الحِلِّ والحرمة ، وحدودُ الله إمّا أنْ ترد بعد المناهى ، وإما أنْ ترد بعد الأوامر .

فإنْ وردت بعد الأوامر فإنه يقول : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا .. (٢٢٩) ﴾ [البقرة] أي آخر غايتكم هنا ولا تتعدوا الحد ، ولكن إن جاءت بعد النواهى يقول ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا .. (١٨٧) ﴾ [البقرة]

فالحق سبحانه يريد أنْ يمنع النفس من تأثير المحرمات على النفس ، فتُلح عليها أنْ تفعل ، فإنْ كنت بعيداً عنها فالأفضل أنْ تظلَّ بعيداً .

وانظر جيداً فيما قال رسول الله ﷺ : «إن الحلال بيِّن ، وإنَّ الحرام بيّن ، وبينهما أمورٌ مشتبهات ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعِرْضه ، ومَنْ وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعي يرعى حول الحِمَى يُوشك أنْ يقع فيه، ألا وإنَّ لكل ملك حِمى ، ألا وإنَّ حِمى الله فى أرضه محارمه »[1].

وما دامت الحدودُ تشمل مناهى الله وتشمل أوامر الله ، فكلُّ شيء مأمورٌ به، وكلُّ شيء منهيٌّ عنه يجب أنْ يظل فى مجاله من الفعل فى (افعل) ، ومن النهى فى (لا تفعل) .

وإذا انتقل نظام (افعل) إلى دائرة (لا تفعل) ، وانتقل ما يدخل فى دائرة (لا تفعل) إلى دائرة (افعل) . هنا يختلّ نظام الكون ، وما دام نظام الكون أصابه الخلل فقد حدث الظلم .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٢ ، ٢٠٥١) وكذا مسلم فى صحيحه (٤١٧٨ ، ٤١٨١) وأبو داود فى سننه (٣٣٣١) والترمذى فى سننه (١٢٠٥) والنسائى فى سننه (٤٤٥٣) وابن ماجه فى سننه (٣٩٨٤) من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه .

فالظلم هو أنْ تنقل حقَّ إنسـان وتعطيه لإنسـان آخـر ، وتشريع الطلاق حَدٌّ مـن حـدود الله ، فإنْ حاولت أنْ تأتى بأمر لا ينـاسـب مـا أمر الله به فى تنظيم اجتماعى فقد نقلت المأمور به إلى حيز المنهيّ عنه وبذلك نحدث ظلماً .

وحين يحدّ الله حُدوداً أى يمنع أنْ يلتبس حقٌّ بحقٍّ ، أو أنْ يلتبس حقٌّ بباطل فهو الذى يضع الحدود ، وهو الذى فضل حقوقاً عن حقوق .

ونحن فى حياتنا عندما نقوم بفصل حقوق عن حقوق فى البيوت والأراضى فنحن نضـع حدوداً واضـحة ، ومعنى « حد » أى فاصـل بين حقّيْن ، بحيث لا يأخذ أحدٌ ما ليس له من آخر .

والحـدود التى نصـنعها نحن والتى قـد لا ينتبه إليها كثيرٌ مـن الناس هى نوعـان : نـوع لا يتعدّى بالبناء ، فعندما يريد واحد أنْ يبنى فالأول يبنى على الأرض التى هى حَقٌّ له ، ويكون الجداران ملتصقيْن بعضهما ببعض .

وعندمـا يـزرع فلاح بجانـب فلاح آخر ، فـكلُّ فلاح يزرع فى أرضـه وبين القطعتين حَدٌّ ، وهذا يحدث فى النفع .

لكن لنفترض أنَّ فلاحاً يريد أنْ يزرع أرزاً ، وجاره لن يزرع أرزاً ، فالذى لن يزرع الأرز قد تأخذ أرضه مياهاً زائدة ، فالمياه تصلح للأرز وقد تفسد غيره.

ولذلـك يكـون الحكم هنا أنْ يقيم زارع الأرز حداً اسـمه « حدّ الجيرة » ليمنع الضـرر، وهـو ليس «حد الملكية » فـزارع الأرز هنا ينقص من زراعته مسافة متريـن ، ويصـنع بهما حَدّ الجيرة ، حتى لا تتعـدى المياه التى يُروى بها الأرز إلى أرض الجار ، إنه حَدٌّ يمنع الضرر وهو يختلف عن الحدِّ الذى يمنع التملُّك .

إذن : فمن ناحية حماية الإنسان لنفسه من أنْ يُوقع الضرر بالآخرين عليه أنْ ينتبـه إلى المقولة الواضـحة « لا تجعـل حقَّك عند آخر حدِّك ، بل اجعل حقَّك فـى الانتفـا ع بعيـداً عن حدِّك » وهذا فـى الملكية ، وذلـك إذا كان انتفاعُك بما تملكه كله سيضرّ بجارك .

وكذلـك يعاملنـا الله ويقول فـى الأوامـر : ﴿ تلْكَ حُدُودُ الله فَـلا تَعْتَدُوهَا .. (٢٢٩) ﴾ [البقرة] ، وفى النواهى يقول سبحانه : ﴿ تلْكَ حُدُودُ الله فَلا تَقْرَبُوهَا .. (١٨٧) ﴾ [البقرة]

أى : أنـك إذا مـا تلقيـتَ أمراً فلا تتعـدَّ هذا الأمر وهذه هـى الملكية ، وإذا ما تلقيتَ نهياً فلا تقرب الأمر المنهيّ عنه .

مثال ذلك النهى عن الخمر ، فالحق لا يقول « لا تشرب الخمر » وإنما يقول : ﴿يَـأَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ .. (٩٠) ﴾ [المائدة]

أى لا تذهـب إلى المكان الذى يوجد فيه من الأصـل ، كُـنْ فى جانب ، وهذه الأشياء فى جانب آخر .

والحق سبحانه يحب مَنْ يقف عند الحدود ، ففى المنهيات لا تقترب . وفيما أحلَّه الله : لا تتعدَّ .

وهذه الأمور التى بيَّنتُها لكم من الطلاق للعدَّة وإحصاء العدة والأمر باتقاء الله ، وأنْ لا تخرج المطلقة من بيتها إلا أنْ تأتى بفاحشة مبيِّنة حدود الله التى حدَّها لكم أيها الناس .

وتلك طاعة الله فلا تعتدوها ، فلُبُّ طاعتك الله وتقواك له أن تقفَ عند حدوده لا بالنقصـان عنـه ولا بالزيادة عليـه ، ومَنْ راعى مع الله حـدَّه أخلص الله له عهده .

لذلـك يقـول تعـالى : ﴿ وَمَـنْ يَتَعَـدَّ حُـدُودَ الله فَقَـدْ ظَلَـمَ نَفْسَـهُ .. (١) ﴾ [الطـلاق]، وفـى آية أخرى يقول : ﴿ وَمَنْ يَتَعَدّ حُـدُودَ الله فَأُولَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٢٩) ﴾ [البقرة]

فإياكـم أنْ تتعـدَّوا هذه الحدود ، لأن الإنسـان إذا مـا تعدَّى هذه الحدود يقع

فــى ظلم نفســه ، وظلم مَنْ يعول ، وظلم المجتمع . ومَــنْ تعدى هذه الحدود فقد أسرف .

والعَــادُون هم المعتــدون المتجاوزون لما شُرع لهــم ، وربنـا تبارك وتعـالى حينما يُحذِّرنـا من التعدى يفرِّق بين التعدِّى فى الأوامر ، والتعدِّى فى النواهـى، فــإنْ كـان فــى الأوامر يقول ﴿ فَــلا تَعْتَدُوهَا .. (٢٢٩) ﴾ [البقـرة]، وإنْ كـان فـى النواهـى يقول ﴿ فَلَا تَقْرَبُوهَا .. (١٨٧) ﴾ [البقرة]

ثــم يقــول تعـالى : ﴿ فَقَدْ ظَلَــمَ نَفْسَهُ .. (١) ﴾ [الطـلاق] ومثلها قوله تعـالى فى ســورة البقرة : ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُــمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُــنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُــنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ .. (٢٣١) ﴾ [البقرة]

فـالحق سـبحـانه يحذر من مثل هذا السلوك ، فـإيـاك أنْ تظنَّ أنك حين تعتدى علــى زوجتك بعــد أنْ تراجعها أنــك ظلمتها هى ، لا إنما أنت تظلم نفســك لأنك حــين تعتــدى على إنســان فقد جعلت رَبَّهُ فــى جانبه ، فإنْ دعــا عليك قبِل الله دعوته ، وبذلك تحرم نفســك من رضــا الله عنك ، فهل هنـاك ظلمٌ أكثر من الظلم الذى يـأتيك بسخط الله عليك ؟

فمِن الظلم ظلم الإنســان لنفسه حينمـا يُحقق لهـا شهوة عـاجلة ومتعةً زائفة تُورثه ندمـاً وحسرة وألمـاً آجلاً ، وبذلك يكون قد ظلم نفسه ظلمـاً كبيراً وجرَّ عليهـا مـا لا تطيق ، ذلك فضلاً عن ظلم الإنسان لغيره بشتى أنواع الظلم وأشكاله.

ومنتهى الحُمْق أنْ يظلم الإنسانُ نفسه ، لو ظلم غيره لقلنـا : خيرٌ يجلبه لنفسه ، لكن مـا الخير فى ظلم الإنسـان لنفسه ؟ ومن ظلم نفسه لا تَلُمْه إنْ ظلم الآخرين .

وظلم النفس هو أنْ نخـالف مـا شرع الله للنفس لينفعهـا نفعـاً أبديـاً مستوفيـاً ، ولكن النفس قد تندفـع وراء حُبهـا للشهوات وتمنيهـا للنفـع العـاجل الذى لا خلودَ

له ، وعندما يحقق الإنسان هذا النفع العاجل لنفسه فهو يظلم نفسه .

فظلمُ النفس هو الفعل الذى يُسيء إلى النفس وحدها ، أو أن الإنسان يصنع سيئة ويُمتع نفسه بها لحظة من اللحظات ، ولا يستحضر عقوبتها الشديدة فى الآخرة .

والحق سبحانه حين يُحرم عليك أنْ تظلم غيرك فهو قد حرَّم عليك أيضاً ظلم نفسك .

فظلمُ النفس هو الظلم الأحمق ، لأن ظلم الغير قد يعود على الظالم بنوع من النفع ، أما ظلم النفس فلا يعود عليها بشيء ، فمَنْ خالف منهج الله فى أحكامه حتى ولو كان مما بينه وبين زوجته ، وبذلك يكون قد فوَّت على نفسه نعيم الدنيا ونعيم الآخرة .

فمَنْ يتعدَّ حدود الله فى أحكام الطلاق والرجعة والعدَّة وعدم إخراج المطلقة طلاقاً رجعياً من بيت الزوجية يكون قد ظلم نفسه قبل أنْ يظلم غيره .

فهو من البداية هدم بيته بطلاق قد يكون هو السبب فيه بعدم استطاعته التعامل السليم مع زوجته مما أدى إلى الشقاق والفراق وتشرُّد الأولاد .

فمَنْ يتعدَّ حدود الله وأمره فيُطلّق لغير العدّة التى هى ثلاثة طُهورات فقد ظلم نفسه ، ومن الناس مَنْ يريد بالتطليق مُضارة المرأة وإغاظتها والإضرار بها ، وهؤلاء الذين قال الله فيهم :

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا[1] لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ .. (٢٣١) ﴾ [البقرة]

---

(١) قال الضحاك : إنما كانوا يضارّون المرأة لتفتدى . وقال عدة من العلماء : كان الرجل يطلق المرأة فإذا قاربت انقضاء العدة راجعها ضراراً لئلا تذهب إلى غيره ثم يطلقها فتعتد فإذا شارفت على انقضاء العدة طلق لتطول عليها العدة فنهاهم الله عن ذلك وتوعدهم عليه . تفسير ابن كثير (١/ ٦٢٩) .

فكان الرجل يطلق امرأته تطليقة واحدة ثم يدعها ، حتى إذا كادَ أنْ تخلو عدتها راجعها ، ثم يُطلقها حتى إذا كاد أنْ تخلو عدتها راجعها ولا حاجة له فيها ، إنما هو ليطوّل عليها ليُضارها بذلك ، فنهى الله عن ذلك .

فلا تُبقِ أيها الرجل على الحياة الزوجية من أجل الإضرار بالمرأة وإذلالها، ومعنى الضرار أنك تصنع شيئاً فى ظاهره أنك تريد الخير ، وفى الباطن تريد الشر .

يقول الرجل أنا لا أريد طلاقها وسأعيدها لبيتها يقول ذلك ويُبيِّت فى نفسه أنْ يُعيدها ليُذلّها وينتقم منها ، وذلك لا يُقره الإسلام بل وينهى عنه .

فظُلْمك لامرأتك أو مطلقتك يؤدى إلى اختلال المعاشرة واضطراب حال البيت وفوْت المصالح بالمخاصمات والمشاحنات والمشاجرات والدخول فى تعاند الإرادات والتنابذ بالألفاظ .

فهو قد عبث بآيات الله واتخذ الرخصة التى جعلها الله له فى مراجعة زوجه، والتى من شأنها أنْ تُصلح ما أفسد اتخذها وسيلة لمزيد من الإفساد .

فالله قد أتاح للزوج فرصة مراجعتها وإمساكها بعد أنْ قطع حبل الزوجية ، فأسكن الله زوجته أو مطلقته الرجعية فى مسكن الزوجية حتى تنقضى عِدَّتها، فإنْ شاء راجعها فلا يُطلقها من يده مرة أخرى .

﴿ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا (١) ﴾ [الطلاق] فأنت لا تدرى فربما كان بقاء المرأة فى مسكنها مدة العدة يدعوك إلى أنْ تراجع نفسك وترجع عما فعلته فتراجعها فى العِدَّة ، وهذا كثيراً ما يحدث .

بخلاف ما لو خرجت من البيت وكثر القيل والقال وتدخّل الناس بالإفساد انقطع حبْل الصِّلة ، والمشرِّع حريص جداً على عدم انقطاعه .

وقوله ﴿ لَا تَدْرِي .. (١) ﴾ [الطلاق] وإنْ كنتَ لاتدرى فالتزم حكم الله الذى يعلم المصلحة وتوجيهها ، فالله يُصلحك بمنهجه .

ومعنى ﴿ لَا تَدْرِي .. (١) ﴾ [الطلاق] أي : لا تعلم ، يُقال : هل دريْتَ بالموضوع الفلاني ؟ يعني : علمت به .

والحق سبحانه يقول : ﴿ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللهَ .. (١) ﴾ [الطلاق] و « لعل » من أفعال الرجاء ، وذكرها يعني الرجاء في أنْ يتحقق ما يأتي بعدها ، ومراتب الرجاء بالنسبة للنفس وبالنسبة للغير وبالنسبة لله تختلف .

أنت تقول : اسأل فلاناً لعلّه يعطيك ، هذه مرتبة من الرجاء . وتقول : لعلّي أعطيك . وهذه أقرب إلى التحقيق من أنْ أرجو غيري أنْ يُعطيك .

إذن فهي مرحلة أعلى في الإجابة وأنْ تقول : لعلَّ الله يعطيك مرحلةً ثالثة وعالية من الرجاء لأنك ترجو الله ولا ترجو أحداً من البشر ، فإذا قال الله ﴿لَعَلَّ اللهَ .. (١) ﴾ [الطلاق] ، فيكون هذا توقعاً مُؤكداً للعطاء .

فمراحل الرجاء رجاء لغيرك من غيرك ، ورجاء منك لغيرك ، ورجاء من الله لسواك ، فالرجاء من الله رجاءٌ مُحقَّق لأنه سبحانه كريم يحب أنْ يرحمنا ، ولا شيء يمنعه من أنْ يُحقق ذلك .

فأقوى درجات الرجاء وآكدها الرجاءُ من الله ، فالوعد من الله ، والرجاء فيه سبحانه لا يخيب .

وقد تقول : لعلِّي أعطيك ، فهو من كلامك أنت ومع ذلك قد لا تستطيع تحقيقه. أما إذا قال الله : لعلكم . فهذا أرجى الرجاءات ولا بد أنْ يتحقّق .

وعن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أن أبا عمرو بن حفص بن المغيرة خرج مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى اليمن ، فأرسل إلى امرأته فاطمة بنت قيس[1] بتطليقة كانت بقيتْ من طلاقها ، فأمر عليٌّ الحارثَ بنَ هشام وعيّاش ابنَ أبي ربيعة لها بنفقة . قالا : والله ما لكِ من نفقة إلا أنْ تكوني حاملاً .

---

(١) فاطمة بنت قيس بن خالد القرشية الفهرية أخت الأمير الضحاك بن قيس ، صحابية من المهاجرات الأول . لها رواية للحديث ، كانت ذات جمال وعقل ، وفي بيتها اجتمع أصحاب الشورى عند قتل عمر، توفيت عام (٥٠هـ) [الأعلام للزركلي] توفيت في خلافة معاوية .

فأتت النبى ﷺ فذكرت له قولها ، فقال : لا نفقةَ لكِ .

واستأذنتْه فى الانتقال (أى فى الخروج من بيت مطلِّقها) فأذن لها ، فقالت: إلى أين يا رسول الله ؟ قال : إلى ابن أم مكتوم ، وكان أعمى تضع ثيابها عنده ولا يراها . فلما مضت عدتها أنكحها النبى ﷺ أسامة بن زيد .

فأرسل إليها مروان بن الحكم قبيصة بن ذؤيب يسألها عن هذا الحديث فحدَّثته به . فقال مروان : لم نسمع بهذا الحديث إلا من امرأة ، سنأخذ بالعصمة التى وجدنا الناس عليها[1] .

فقالت فاطمة حين بلغها قول مروان : بينى وبينكم القرآن ، قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ.. (١) ﴾ [الطلاق] حتى بلغ ﴿ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا (١) ﴾ [الطلاق]

قالت : هذا لمَنْ كانت له مراجعة فأيُّ أمر يحدث بعد الثلاث ؟ فكيف تقولون: لا نفقةَ لها إذا لم تكُنْ حاملاً فعلام تحبسونها ؟

هذا الحديث يُعطينا لمحة مهمة عن صحابية من الصحابيات كانت تفقه كتاب ربها ولها فيه استنباط وفَهْم ورأى تستدرك به على أفهام أخرى له ، وهى الصحابية فاطمة بنت قيس .

وقد طُلِّقَتْ فاطمة مرتين من أبى عمرو بن حفص بن المغيرة فطلَّقها التطليقة الثالثة ، فأمر عليٌّ بن أبى طالب رضى الله عنه الحارثَ بن هشام وعيّاش بن أبى ربيعة أنْ يتكفَّلا بنفقتها ، فرفضا لأنها ليستْ حاملاً ، فلا يحقّ لها نفقة خاصة لأن طلقتها كانت طلقة بائنة بينونة كبرى لأنها طُلِّقت للمرة الثالثة .

وقد سألت رسول الله فقال : لا نفقةَ لكِ ، وما دام ليس لها نفقة فليس لها سُكْنى ، لذلك استأذنت رسول الله فى الانتقال من بيت مَنْ طلَّقها ، فأذن لها فى

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٣٧٧١ ، ٣٧٧٢ ، ٣٧٧٧) وأبو داود فى سننه (٢٢٩٢) والنسائى فى سننه الكبرى (٩١٩٩) والطبرانى فى المعجم الكبير (٢٠٣٦٦) من حديث فاطمة بنت قيس .

الانتقال إلى بيت عبد الله بن أم مكتوم ، وقد كان أعمى حتَّى تستوفى عِدَّتها .

فلما استوفتْ عِدَّتها زوَّجها[١] رسول الله أسامة بن زيد . وفى عهد مروان ابن الحكم[٢] سألها مروان عن هذا الحديث فقصَّته ، فلما استنكر مروانُ كلامَها قالت فاطمة : بينى وبينكم القرآن . وهو استنكر أمر خروجها وانتقالها .

لذلك قالت الآية :﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ.. (١)﴾ [الطلاق] حتى بلغ ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا (١)﴾ [الطلاق]

فقالت : هذا لمَنْ كانت له مراجعة واستشهدتْ بقوله تعالى : ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا (١)﴾ [الطلاق] أن الأمر هنا هو أمرُ رخصة المراجعة للرجل .

ومن نهاية الآية استشهدت على أنَّ عدم الإخراج والخروج إنما هو للمطلَّقة طلاقاً رجعياً ، لذلك قالت بعدها : فأيّ أمر يحدث بعد الثلاث ؟ أى الثلاث طلقات .

والمقصود بالعصمة أى ما كان عليه الناسُ من عدم خروج المطلَّقة أثناء العدَّة ، ولكن فاطمة بنت قيس قالت : لا نفقة لها إذا لم تكُنْ حاملاً ، فعلام تحبسونها ؟

فالله سبحانه لأنه حكيم ولأنه رحيم لا يترك عباده فى حرج أو كرب دون

---

(١) بعدما طُلقت فاطمة بنت قيس طلبها للزواج معاوية بن أبى سفيان وأبو الجهم ، فقال لها رسول الله ﷺ : أما أبو الجهم فشديد . وأما معاوية فصعلوك لا مال له . ولكن أنكحك أسامة ؟ فقالت : أسامة ! تهاوناً بأمر أسامة ثم قالت : سمعاً وطاعة لله ولرسوله فزوجنيه فكرمنى الله بأبى زيد وشرفنى الله ورفعنى به [أخرجه مسلم فى صحيحه (١٤٨٠)] وقد كان أسامة بن زيد حب رسول الله صغير السن حتى أنه عندما مات رسول الله كان عمره عشرين سنة ، ولكنه كان متزوجاً قبلها بهند بنت الفاكه ، وأيضاً درة بنت عدى وكان له منها [محمد وهند] ثم تزوج فاطمة بنت قيس فولدت له جبيراً وزيداً وعائشة وتزوج غيرهن أيضاً توفى ٥٠ هـ . [طبقات ابن سعد ٤/٦٦] .

(٢) هو : مروان بن الحكم بن أبى العاص أبو عبد الملك خليفة أموى (ولد ٢ هـ) ، وإليه ينسب (بنو مروان) ودولتهم (المروانية) . ولد بمكة ونشأ بالطائف وسكن المدينة (توفى عام ٦٥ هـ) عن ٦٣ سنة . [الأعلام للزركلى ٧/٢٠٧] .

أَنْ يُفرِّج هذا الكرب وهذه المشكلة عنهم ،وشريعة الله عدلٌ كلها ورحمة كلها .

فإذا كان الله قد أباح للرجل تطليق امرأته فإنه سبحانه وضع له حدوداً لا يتعداها ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ .. (١) ﴾ [الطلاق] ثم ﴿ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ .. (١) ﴾ [الطلاق] ثم ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ .. (١) ﴾ [الطلاق] ثم ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ .. (١) ﴾ [الطلاق]

والله يفتح للرجل المطلِّق طلاقاً رجعياً ، وللزوجة المطلَّقة طلاقاً رجعياً ، يفتح لهما باب الرجعة مرة واثنتين لرأب صَدْع حياتهما الزوجية ، فلعلَّ الله يُحدِث بعد طلاقكم إياهنَّ رجعة ، فلعل الرجل يراجعها فى عدَّتها .

فكأنَّ الحق سبحانه يقول : إنما أبقينا المطلَّقة فى منزل الزوج فى مدة العدة لعلَّ الزوج يندم على طلاقها ويخلق الله فى قلبه رجعتها ، فيكون ذلك أيسرَ وأسهل .

فلعلَّ الله أن يُحدث فى قلب المطلِّق الرحمة والمودة ، فيراجع مَنْ طلَّقها ويستأنف عِشْرتها فيتمكن من ذلك مدة العدة ، أو لعله يُطلِّقها لسبب منها فيزول ذلك السبب فى مدة العدة ، فيراجعها لانتفاء سبب الطلاق .

والبعض لفتَ إلى أمر آخر ، وهو أنَّ هذه الآية تحريضٌ على الطلاق الرجعى، والنهى عن الطلاق ثلاثاً أو طلاقاً غير رجعى ، فإنه إذا طلق ثلاثاً أضرَّ بنفسه عند الندم على الفراق والرغبة فى الارتجاع فلا يجد إلى المراجعة سبيلاً .

وقد يسأل سائل : قوله تعالى : ﴿ لَا تَدْرِي .. (١) ﴾ [الطلاق] هل المخاطب هنا هو رسول الله ؟ فنقول : هو خطابٌ للمتعدى لا للنبى ﷺ ، فالمعنى : ومَنْ يتعدَّ حدود الله فقد أضرَّ بنفسه ، فإنك لا تدرى أيها المتعدِّى عاقبةَ الأمر .

لعلَّ الله يُحدث فى قلبك بعد ذلك الذى فعلت من التعدِّى أمراً يقتضى خلاف ما فعلته فيبدل ببغضها محبة ، وبالإعراض عنها إقبالاً إليها ويتسنَّى تلافيه

رجعةً أو استئنافَ نكاح .

وهـذه الآيـة مثـل قوله تعـالى : ﴿ وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ .. (١٥) ﴾ [النساء] ثم قال : ﴿ أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلا (١٥) ﴾ [النساء]

فالسبيل هنا هو المخرج الذى يخرُجْنَ به من الحبس فى البيوت ، وهو الجَلْد أو الرجم ، أى توقيع عقوبة عليهن يتطهرن بها إنْ أخلصْنَ قلباً وقالباً .

ذلك أن الحق سبحانه يقول : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ .. (٧٨) ﴾ [الحج] ويقول ﴿ مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ .. (٦) ﴾ [المائدة]

فالله ما اجتباكم ليُعنتكم أو ليُضيق عليكم ، أو ليعسِّر عليكم الأمور ، إنما جعل الأمرَ كله يُسْراً وشرعه على قدر الاستطاعة ، ورخَّص لكم ما يُخفِّف عنكم، ويُذهب عنكم الحرج والضيق .

فالله يُحدث من الأمور ما يُخفِّف ويرأب الصدع ليحيا المجتمع سليماً مُعافى.

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ ﴾

قوله سبحانه : ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ .. (٢) ﴾ [الطلاق] فالبلوغ يأتى بمعنيين ، فمرَّة

يُطلق البلوغ على القرب ، ومرة أخرى يُطلق على البلوغ الحقيقى الفِعلى، فمثال مقاربة الشيء يقول تعالى : ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ .. (٦) ﴾ [المائدة] أى : إذا قاربتم القيام إلى الصلاة فافعلوا كذا من أفعال الوضوء والاستعداد للصلاة ، أما البلوغ الحقيقى فمثاله عندما يصل الطيار بالطائرة إلى محطة الوصول فتجده يعلن أنه وصل إلى البلد الفلانى .

وهنا طلَّق الرجل زوجته لكن عدَّتها لم تنته بل قاربتْ على الانتهاء ، فربما يمكنه أنْ يُسرِّحها أو يُمسكها بإحسان ، وأصبح للزوج قدر من زمن العدة يبيح له أنْ يُمسك أو يُسرّح لكنه زمنٌ قليل .

إن الحق سبحانه يريد أنْ يتمسَّك الزوج بالإبقاء على زوجته إلى آخر لحظة ويستبقى أسباب الالتقاء وعدم الانفصال حتى آخر لحظة .

وهذه علَّة التعبير بقوله تعالى : ﴿ بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ .. (٢) ﴾ [الطلاق] أى : قاربْنَ بلوغ الأجل، إن الحق سبحانه يريدنا أنْ نتمسك باستبقاء الحياة الزوجية إلى آخر فرصة تتسع للإمساك ، فهى لحظة قد ينطق فيها الرجلُ بكلمة يترتب عليها إما طلاق، وإما عودة الحياة الزوجية .

أما قوله فى الآية الأخرى ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ .. (٢٣٢) ﴾ [البقرة]

﴿ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ .. (٢٣٢) ﴾ [البقرة] هنا معناه إذا انتهت العدة ولم يَعُد للزوج حَقٌّ فى أنْ يراجعها إلا بعد عقد ومهر جديدين ، وهَبْ أن الزوج أراد أنْ يعيد زوجته إلى عصمته مرة أخرى ، وهنا يتدخّل أهل اللدد والخصومة من الأقارب ويقفون فى وجه إتمام الزواج .

ونقول لهؤلاء : ما دام الزوجان قد تراضيا على العودة فلا يصح أنْ يقف أحدٌ فى طريق عودة الأمور إلى ما كانت عليه .

فبلوغ الأجل فى سورة الطلاق معناه أن عدة المرأة لم تَنْتَه بعد ، بل قاربتْ على الانتهاء وإلا لم يكُن هناك معنى لقوله : ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ .. (٢) ﴾ [الطلاق]

أما بلوغ الأجل فى سورة البقرة فهو انتهاء عدة المرأة فعلياً ، ومثله قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤) ﴾ [البقرة]

فهنا قوله ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ .. (٢٣٤) ﴾ [البقرة] أى انتهت عدَّتها ، وهى هنا عدَّة المرأة الأرملة التى تُوفِّى زوجها وعدَّتها أربعة أشهر وعشراً ، لذلك قال تعالى: ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ .. (٢٣٤) ﴾ [البقرة]
والمقصود هنا أنْ تتزوج زواجاً جديداً بعد انقضاء عدتها ، وهى لا تستطيع هذا إلا إذا انتهت عِدَّتها وانقضتْ .

أما الأجل المقصود فى العدة التى حددها الحق سبحانه للمطلَّقة بثلاثة قروء ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ .. (٢٢٨) ﴾ [البقرة]
فهو هنا ليس أجلاً مُحدداً بزمن ، وإلا لكان الأجل هو الزمن نفسه ، إنما الأجل هنا محدد بحدث يحدث ، وهو الثلاثة قروء أى الثلاثة طهورات من دم الحيض ، وقد يتأخر الطُّهر من الحيض فيتأخر الأجل المضروب للمرأة لاستيفاء عِدَّتها .

وهذا الأجل للمطلَّقة التى تحيض ، أما التى يئستْ من المحيض أو لم تحِضْ من الأساس فأجلُها هو نفسه الزمن ، فلا تعلق عدَّتها على حدث يحدث ، لأن

الحدث أصلاً لن يحدث، لذلك قال تعالى فى شأنها : ﴿ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ .. (٤) ﴾ [الطلاق]

فالعدة هنا محددة بزمن وهو ثلاثة أشهر محددة .

ويقول تعالى : ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ .. (٢) ﴾ [الطلاق] وفى آية أخرى يُعبر بالمصدر فيقول : ﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ .. (٢٢٩) ﴾ [البقرة]

﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ .. (٢) ﴾ [الطلاق] هنا معناه راجعوهن بحُسن معاشرة ورغبة فيهن فأمسكوهن برجعة تراجعونهن بها إن أردتم ذلك، فالزوج أمام خيارين إما الإمساك ومراجعتها إلى عصمة نكاحه والاستمرار بها على ما كانت عليه عنده .

ولكن لا بد أنْ يكون إمساكك بالمعروف، والمعروف اسم جامع لكل ما عُرف من طاعة الله والتقرب إليه والإحسان إلى الناس وكل ما ندب إليه الشرع، ونهى عنه من المحسِّنات والمقبحات .

والمعروف ما يُستحسن من الأفعال، والمعروف فى الإمساك النّصفة وحُسن العشرة والصُّحبة فيما للزوجة على زوجها .

والمعروف مقابل للمنكر، فالأمر الخيِّر متعارف عليه بالسَّجية، والفطرة وكأنَّ المتعارف عليه دائماً من جنس الجمال ومن جنس الخير، أما الأمر الذى تُنكره النفس فمن جنس الشر وجنس القبح .

فمن شأن الجمال ومن شأن الحُسْن أنْ يكونَ معروفاً، وكلمة المعروف تعنى الأمر المتداول عند الناس، وقد حدَّثنا الحق سبحانه عن المعاشرة بالمعروف، فقال : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ .. (١٩) ﴾ [النساء]

وهناك فَرْق بين الود والمعروف، فالود يكون عن حُب، لكن المعروف ليس

ضرورياً أنْ يكون عن حُبٍّ ، فالبيوت لا تُبنى على المودة والحب فقط ، فهل لو لم يكُنْ هناك حُبٌّ ومودة أتخرب البيوت ؟

لا ، بل ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ .. (١٩) ﴾ [النساء] حتى لو لم تحبوهن ، وهذا يُرغّب الرجل في إرجاع زوجته إليه واستمرار الحياة معها ، وإنْ كان يكره منها سلوكاً أو خلقاً أو تصرفاً ، فإنه قد يُرجعها حفاظاً على أولادهما ولمحاولة الإصلاح .

فقوله تعالى : ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ .. (٢) ﴾ [الطلاق] يخفف الضغط النفسي الواقع على الزوج والذي يدفعه إلى عدم إرجاع زوجه إلى عصمته لأنه لم يَعُدْ يحبها ، فلا تنسَ أنّ المطلوب منك أنْ تعاملها بمعروف لا بالحب والود، وهذا تدرج مع الزواج ، فقد يبدأ الأمر بالمعاملة بالمعروف ، ثم ينقلب إلى وُدٍّ وحب .

فالإمساك بالمعروف هو القيام بما يجب لها من حَقٍّ على زوجها ، ولذلك قال بعض العلماء : من الإمساك بالمعروف أنَّ الزوج إذا لم يجد ما ينفق على الزوجة أنْ يُطلقها ، فإنْ لم يفعل خرج عن المعروف .

﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ .. (٢) ﴾ [الطلاق] أي : فراجعهون بما أمركم الله به من الحقوق التي أوجبها الله لهنَّ من النفقة والكسوة والمسكن وحُسْن الصحبة.

وكلمة ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ .. (٢) ﴾ [الطلاق] تعطى معنى الضنِّ بالشيء وعدم التفريط فيه ، فكأن الحق سبحانه يقول للمطلق : لا تفرط في زوجتك لعلّ الله يجعل فيها خيراً ، ولعلَّ الأمور تنصلح فيما بينكم .

ومثل هذا قوله تعالى على لسان نبيه محمد ﷺ لزيد[1] : ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ

(١) هو زيد بن حارثة بن شراحيل بن عبد العزى ، شاعر وصحابي من بني كلب وأمه من طيء ، أسره بنو القين في غارة على طيء وباعوه بمكة فاشترته خديجة بنت خويلد التي وهبته للنبي ﷺ فتبناه ثم نزل تحريم التبني بخصوصه ، ونزل فيه آية من القرآن في تزويجه لزينب بنت جحش ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا (٣٧) ﴾ [الأحزاب] توفي عام ٨ هجرية .

زَوْجَكَ .. (٣٧) ﴾ [الأحزاب] ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ .. (٣٧) ﴾ [الأحزاب]

ومن الإمساك بالمعروف أنْ لا تُمسكها ضراراً ، قال تعالى فى سورة البقرة: ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا .. (٢٣١) ﴾ [البقرة]

فلا تُبْق أيها الرجل على الحياة الزوجية من أجل الإضرار بالمرأة وإذلالها، فالضِّرار فى الزواج أن الرجل يقول: أنا لا أريد طلاقها وسأعيدها لبيتها، يقول ذلك ويُبيِّت فى نفسه أنْ يعيدها ليذلها وينتقم منها ، وذلك لا يُقرّه الإسلام بل وينهى عنه .

ولكن كيف تكون المراجعة ، قال الشافعي[1] : لما لم يكُنْ نكاح ولا طلاق إلا بكلام لم تكُنْ الرجعة إلا بكلام . وقال أبو حنيفة : تصح الرجعة بالوطء . وقال مالك : إن نوى الرجعة بالوطء كانت رجعة وإلا فلا .

والرجعة بالقول كأن يقول : راجعتُ زوجتى ونحوها مثل : رددتها أو أعدتها. والأصل فى الرجْعة هى القول لأنه يصح أنْ يُراجعها قبل طهورها الثالث من حيضتها الثالثة ﴿ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ .. (٢٢٨) ﴾ [البقرة]

وهذا لا يكون بالوطء لأنه لن يطأها فى حيضتها ، فإنها إذا طهرتْ من حيضتها الثالثة دون أنْ يُرجعها تكون مُسرَّحة منه، وتكون قد حدثتْ المفارقة .

---

(١) أورد هذه الأقوال الماوردى فى الحاوى الكبير (١٠/٧٥٩ ، ٧٦٠) واستطرد : ولا تصح الرجعة إلا بكلام من الناطق وبالإشارة من الأخرس ولا تصح بالفعل من الوطء والاستمتاع . أما أبو حنيفة فقال : تصح الرجعة بالقول وبالفعل كالوطء والقبلة حتى لو نظر إليها بشهوة صحت الرجعة . أما الإمام مالك فعلَّق الفعل بالنية منه .

أمـا المفارقة فقد قال عنها الحق سـبحانه : ﴿ أَوْ فَارِقُوهُـنَّ بِمَعْرُوفٍ .. (٢) ﴾ [الطلاق]ويقول تعالى فى آية أخرى ﴿ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ .. (٢٣١) ﴾ [البقرة]

وذلك يدلُّ على أن المفارقة بين الزوجين إنْ تمت إنما تتم بالجمال أى اللطف والرقَّـة والرحمـة بدون بشـاعة وبدون عنـف ، لأن التسريح فـى ذاته مفارقة مؤلمة، فلا يجمع الله عليها شدتين : شدة الطلاق وشدة العنف والقسوة .

والتسريـح والمفارقة يكون دون مشـاحنة ولا خصـومة ولا خروج عن حَدِّ الاعتـدال ، بـل يكون ﴿ تَسْرِيـحٌ بِإِحْسَـانٍ .. (٢٢٩) ﴾ [البقرة] ولا بـد أنْ يكون السراحُ سراحاً جميلاً .

قـال تعـالى : ﴿ يَاأَيُّهَـا الَّذِيـنَ آمَنُـوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَـاتِ ثُـمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْـلِ أَنْ تَمَسُّوهُـنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِـنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُـنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً (٤٩) ﴾ [الأحزاب]

وتسريح الزوجة عادة ما يُصاحبه غضب وانفعال ، فينبغى أنْ يكون التسريحُ جميـلاً لا عنـف فيه ، كأنْ يُطيِّب خاطرها بقوله : هـذا قدرنـا ، وأرجو أنْ يعوِّض الله عليك بخير منى أو غير ذلك مما يراه مناسباً لتخفيف الخطْب عليها .

ويكفى أنْ تتحمل هى ألم المفارقة ومصيبة الطلاق ، وأيّ جمال فيمَنْ يفارق زوجته بالسِّباب والشتائم ويؤذيها بأنْ يمنعها حقاً من حقوقها ؟

ومـن التسريح بمعروف إعطاء المرأة حقوقها ، يقول تعـالى : ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (٢٤١) ﴾ [البقرة] ، ولكل مطلَّقة متعةٌ بالقدر الذى قاله سبحانه .

فإنْ لم تفرضوا لهنَّ فريضة أى مهراً معيناً ، فقال : ﴿ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ .. (٢٣٦) ﴾ [البقرة] ، وإنْ كنتم فرضتم لها مهراً فنصفُ ما فرضتم ، فكأنَّ الله قد جعل لكل حالة حكماً يناسبها .

والحق سبحانه لم يجعل لكل حالة حكماً يناسبها فقط ، بل جعل لكل حالة تعبيراً ولفظاً يناسب هذه الحالة .

فالمرأة التى تُطلَّق من قبل أنْ يمسَّها زوجها أى دون أنْ يجامعها ويعاشرها يقول تعالى عنها : ﴿ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلا (٤٩) ﴾ [الأحزاب] فيذكر الحق سبحانه فى حقها لفظ التسريح ، وهو لفظ يعبر عن المفارقة دون ألم يُذكر فى كلا الجانبين .

فالمرأة التى لم تُمس وتُطلَّق دون مسيس لا يجد الرجل شيئاً فى نفسه إنْ طلقها ، ولا يجد تعلقاً بها ولا رغبة فيها ، لذلك لابد أن يكون تسريحه لها سراحاً جميلاً لأنها لا شك متألمة أشد الألم .

ثم إنها ليست لها عدَّة لأنها طُلِّقت قبل الدخول بها وقبل الخلوة بها خلوة شرعية ، فحقَّ لها أنْ تتزوج فوراً إنْ جاءها مَنْ يخطبها ليُطيِّب خاطرها ، بل تُعطى أيضاً نفقة متعة تعويضاً لها عما أصابها من ألم نفسىٍّ .

أما المرأة المطلَّقة بعد الدخول بها ، فيقول الحق سبحانه عنها : ﴿ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ .. (٢) ﴾ [الطلاق] وكأنَّ الحق سبحانه يُذكِّر الرجل والمرأة معاً بأنه سبحانه جمع بينهما فى رباط الزوجية ، وقال ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ .. (١٨٧) ﴾ [البقرة] ، وقال : ﴿ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ .. (٢١) ﴾ [النساء] .

والإفضاء معناه أنكم دخلتم معاً أوسعَ مداخلة ، وحسْبُك من قمة المداخلة أن عورتها التى تسترها عن أبيها وعن أخيها وحتى عن أمها وأختها تُظهرها لك .

ولا يوجد إفضاء أكثر من هذا ودخلت معها فى الاتصال الواسع ، أنفاسك ، ملامستك ، مباشرتك ، معاشرتك ، مدخلك ، مخرجك ، فى حمامك ، فى المطبخ فى كل شيء حدثتْ إفضاءات .

وأنت ما دُمتَ قد أفضيتَ لها ، وهى قد أفضتْ لك فقد حدثتْ المداخلة الشاملة ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ .. (١٨٧) ﴾ [البقرة] هنا عندما يُطلق الرجلُ زوجته بعد أن أفضى بعضهم إلى بعض وتداخلا هكذا ، يقول تعالى :
﴿ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ .. (٢) ﴾ [الطلاق]

فيستخدم الحق سبحانه لفظ التفريق لا التسريح ، وكأن الحق سبحانه يُذكِّره بما كان بينه وبينها من حميم العلاقات ومن حبهما لبعضيهما ، فيستخدم لفظاً شديداً (فارقوهن) كأنه يقول له : تذكَّرْ أنك ستفارق ما أحببته ، وكأنه يحثُّه على مراجعتها .

وإنْ كان لا بدّ من المفارقة فليكُنْ فراقاً لا محذورَ فيه ، من غير تشاتم ولا تخاصم ولا قهر لها على أخْذ شيء من مالها ، بل يُطلِّقها على وجه جميل وسبيل حسن .

ونلاحظ أنَّ الحق سبحانه قد قدَّم الإمساك والمراجعة على المُضيِّ فى المفارقة ، وهذا إشارة إلى أن الإمساك أرضى لله تعالى وأوفق بمقاصد الشريعة، فالمراجعة مندوب إليها لأن أبغض الحلال عند الله الطلاق .

ولا بد أن يكون إمساكاً مأذوناً فيه ، بمعنى أنه إمساك مقيد بأن يكون بالمعروف ليس فيه إضرار .

ومن المفارقة بالمعروف الإشهاد على الرجعة ، فإذا أراد مراجعتها قبل أنْ تنقضى عدّتها أشهد على ذلك رجلين عند الطلاق وعند المراجعة ، فإنْ راجعها فهى عنده على تطليقتين ، وإن لم يراجعها فإذا انقضت عدَّتها فقد بانتْ منه واحدة ، وهى أملَكُ بنفسها ثم تتزوج مَنْ شاءت هو أو غيره .

وكلُّ مَنْ راجع فى العدة فإنه لا يلزمه شيءٌ من أحكام النكاح غير الإشهاد على المراجعة فقط ، فذكر الإشهاد فى المراجعة ولم يذكره فى النكاح ولا فى الطلاق .

وفائدة الإشهاد ألاَّ يقع بينهما التجاحد، وألاَّ يُتهم فى إمساكها، ولئلا يموت أحدهما فيدَّعى الباقى ثبوت الزوجية ليرث.

وإنْ سأل أحد: كيف نأتى بذوى العدل؟ ونقول: انظر إلى عدالتهما فى نفسيهما وَلْنَرَ تصرفات الإنسان هل هى مستقيمة أو لا؟ وهل هو مسرف أو معتدل سواء فى الطعام أو الغضب، أو فى أيِّ لون من ألوان السلوك؟

ومَنْ كان مأموناً على نفسه فهو مأمون على غيره، ويجب كذلك أنْ يكون من ذوى الخبرة فى هذا الأمر.

وإذا كان الحقُّ قد أمرنا أنْ نختار ذوى العدل للحكم فى رقبة شاة[1]، فما بالنا برقاب الناس ومصالح الناس؟

ونحن إذاً مطالبون بأنْ نميز ذوى العدل بين الناس من خلال مراقبة حركة الإنسان مع نفسه وعلى نفسه وعلى أهله، وعندما نكتشف أنه صار مأموناً على نفسه، هنا نستطيع أنْ نُوليه أمور غيره بالخدمة العامة، وذلك حتى لا تخيب الأمة، فالأمم إنما تخيب باختيارٍ غير مدروس لقيادات المواقع المختلفة فيها.

ومعنى: ﴿ ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ .. (٢) ﴾ [الطلاق] أى اللذان يُرضى دينهما وأمانتهما وعدالتهما، والعدالة هى الاعتدال فى الأحوال الدينية، وذلك بأنْ يكون مجتنباً للكبائر محافظاً على مروءته وعلى ترْك الصغائر، ظاهر الأمانة غير مغفل، وأنْ يتسم بصفاء السريرة واستقامة السيرة.

وآيات القرآن فى الإشهاد والاستشهاد منها المطلق ومنها المقيد. قال تعالى فى اللاتى يأتين الفاحشة من المسلمات ﴿ وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ

---

(١) وذلك إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ .. (٩٥) ﴾ [المائدة]..

فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ .. (١٥) ﴾ [النساء] فجاء قيد (منكم) .

وقال تعالى في شأن المطلَّقات المعتدات : ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ .. (٢) ﴾ [الطلاق] فجاء قيد (منكم) .

أما في آية التداين فقال : ﴿ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ .. (٢٨٢) ﴾ [البقرة] ثم قال فيها: ﴿ وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ .. (٢٨٢) ﴾ [البقرة]

فلم يقيد الإشهاد أو الاستشهاد بالعدل ولا بـ (منكم) ، أي من المسلمين . وكذلك لم يضع هذين الشرطين .

فالحق سبحانه اشترط في الاستشهاد أو الإشهاد في الوقائع المتعلّقة بأمور المؤمنات الشخصية أنْ يكون الإشهادُ من المؤمنين ولم يذكر هذا القيد في الإشهاد على دفع أموال اليتامى إليهم ، ولا في الإشهاد على البيع ، والفرق بين الأحكام المالية المحضة وأحكام النساء المؤمنات جليّ واضح .

ولكن مجموع الآيات على أن الأصل أو الكمال في الإشهاد أن يكون الشهودُ من عدول المؤمنين للثقة بشهادتهم والاحتراز من الكذب والزور والخيانة التي يكثر وقوعها ممَّنْ لا ثقةَ بأيمانهم وعدالتهم .

أما الإشهاد على الأمور الخاصة بنساء المسلمين وبيوتهم إذ لا يحتاج فيها إلى غيرهم وليس من شأن سواهم أنْ يعرفها ولوجوب الاحتياط فيها .

أما قوله تعالى : ﴿ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ .. (٢٨٢) ﴾ [البقرة] ففيه توسعة عظيمة في الإشهاد ، فكثيرٌ من الجنايات والعقود والإقرار قد تقع من بعض المسلمين على مرأىً ومسمع من غيرهم ، وقد يكون هؤلاء الذين سمعوا ورأوا من أهل الصدق والأمانة ، لأن دينهم يحرم الكذب والخيانة .

وليس كلّ أحد صالحاً للشهادة ،ولقبول شهادة أحد هناك شرائط عشرة ، وهو أن يكون حُراً بالغاً مسلماً عدلاً عالماً بما شهد به ، ولم يجرّ بتلك الشهادة منفعة إلى نفسه ، ولا يدفع بها مضرَّة عن نفسه ، ولا يكون معروفاً بكثرة الغلط ، ولا بترك المروءة ، ولا يكون بينه وبين مَنْ يشهد عليه عداوة .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ .. (٢) ﴾ [الطلاق] فإذا شهدتم على شيء فأقيموه ، ومن إقامة الشهادة أنْ لا تشهد إلا على مثل الشمس أو دَعْ[1] ، فلا تشهد على شهادة حتى تكون الشهادةُ عندك أضوأ من الشمس .

ومن إقامتها أنْ تشهد بها تقرّباً إلى الله في إقامتها على وجهها إذا مسَّتْ الحاجة إليها من غير تبديل ، ولا تغيير ولا كتمان .

وليكُنْ أداؤها ابتغاءَ وجه الله فحينئذ تكون صحيحة عادلة حقاً ، وقد قال تعالى عن القائمين بشهاداتهم ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (٣٣) ﴾ [المعارج]، ثم قال ﴿ أُولَـٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ (٣٥) ﴾ [المعارج]

وهم الذين لا يشهدون إلا بما يعلمونه ، ولا يُحابي فيها قريباً ولا صديقاً ولا نفسه ، رفيعاً كان أو وضيعاً ، ولا يكتمونها ولا يُغيرونها .

ويقول تعالى : ﴿ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا .. (٢٨٢) ﴾ [البقرة] ، فما دُمتَ قد دُعيتَ للشهادة فلا يسعْكَ إلا المبادرة إلى الشهادة ، أما إذا لم تُدْعَ إلى الشهادة فالشهادة حينها على ثلاثة أقسام :

– حقوق الناس ، فلا يجوز أداء الشهادة حتى يدعوه صاحب الحق إلى ذلك.

– حقوق الله ، التي يُستدام فيها التحريم كالطلاق والعتق ، فيجب أداء

(١) عن ابن عباس قال : سئل النبي ﷺ عن الشهادة . قال : هل ترى الشمس ؟ قال : نعم . قال : على مثلها فاشهد أو دع . أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٠٤٦٩) ومحمد بن يحي المزكي النيسابوري في المزكيات (٢١) وأورده المتقي الهندي في كنز العمال (١٧٧٨٢) وأورده الحافظ ابن حجر العسقلاني في بلوغ المرام (١٤٠٥) ، وقال : أخرجه ابن عدي بإسناد ضعيف وصححه الحاكم فأخطأ .

الشهادة بذلك دُعِى أو لم يُدْعَ .

– حقوق الله التى لا يُستدام فيها التحريم كالحدود ، فهذا ينبغى سَتْره حتى يُدعَى إليها .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) ﴾ [الطلاق]

قوله ﴿ ذَٰلِكُمْ .. (٢) ﴾ [الطلاق] ذا وحدها للإشارة و « الكاف » للخطاب، والخطاب إذا أُفرد فالمراد به خطاب الله لرسوله ، والمؤمنون فى طى ذلك الخطاب ، فيقول (ذلك) .

ومرة يقول ﴿ ذَٰلِكُمْ .. (٢) ﴾ [الطلاق] أى : أنه سبحانه يخاطبنا نحن ، والميم للجمع . مثل ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) ﴾ [الجمعة]

واللام للبُعد والميم للجمع . فحين يريد الحق أنْ يخاطب رسوله يقول : ﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ .. (٢) ﴾ [البقرة] ، ولكنه هنا يخاطبنا فيقول ﴿ ذَٰلِكُمْ .. (٢) ﴾ [الطلاق] إشارة إلى كل ما سبق من أحكام الطلاق والعدَّة وإحصائها وعدم إخراج المعتدَّة من بيت الزوجية حتى تنقضى عِدَّتها .

وكذلك عدم تعدِّى الحدود التى حدَّها الله بأنْ لا يخرجْنَ إلاَّ أنْ يأتينَ بفاحشة مبيِّنة .

ومما يشير الله سبحانه إليه هو الإمساك بالمعروف إنْ وفَّقه الله لأنْ يمسك زوجته قبل انتهاء عِدّتها ، وليكُنْ هذا بالمعروف والإحسان دون قهر أو إذلال أو قصد الإضرار بها .

حتى إنْ عزما الفراق فليكُنْ هذا بالمعروف دون شَتْم أو أكل حَقٍّ لها عندك، ولا بد أنْ تشهد ذوى عدل من المسلمين على الطلاق وعلى الرجعة ليكون هذا

رادعاً لكلا الطرفين من التلاعب أو ادعاء غير الحقيقة .

ومما يُوعظون به إقامة الشهادة لله ، فيقول تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ .. (٢) ﴾ [الطلاق] ومعنى (أقيموا الشهادة) أى : أدّوها على الوجه الأكمل وأدوها على ما أحبّ منكم فى أدائها .

وإقامة الشيء أداؤه على الوجه الأكمل الذى يُؤدِّى غايته ، فالشهادة المطلوبة هى الشهادة المستوفاة الشروط والتى تقيمها كما يريدها مَنْ شرعها .

ومعنى إقامة الشهادة لله أنْ تجعل وجهتك لربك وحدك ، ولا تلتفت عنه يميناً ولا شمالاً .

ويقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ[١] بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٣٥) ﴾ [النساء]

واللى هو التحريف أى تُحرِّفوا الشهادة وتُغيِّروها فإنَّ الله بما تعملون خبير، أو أن يُعرض الشخص عن أداء الشهادة لأنه يخاف من المشهود عليه ، لأن الشهادة ترجِّح حكم المشهود له ، لهذا فهو يُعرض عن الشهادة .

وإنْ جاء للشهادة فهو يلف الكلمات ويلوى لسانه بها ، لذلك قيل : الذى يُفسد العدل هو الهوى ، والهوى عمل القلب ، لذلك نحتاج إلى خبرة الخبير اللطيف .

وقد قال تعالى أيضاً : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ[٢] شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ

---

(١) القوّام : مبالغة من قائم . والقسط : العدل . قال ابن عباس : كونوا قوّالين بالعدل فى الشهادة على من كانت ولو على أنفسكم . [زاد المسير لابن الجوزى] .

(٢) لا يجرمنكم : لا يحملنكم . أو لا يدخلنكم الجرم . (شنآن) : بُغض قوم . [زاد المسير] قال الشوكانى فى فتح القدير : لا يحملنكم بغض قوم على الاعتداء عليهم .

خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨) ﴾ [المائدة]

فتدليس الشهادة يقود إلى خراب المجتمعات ، ولو أن المجتمع حينما يرى أن شهادة أفراده هي شهادة بالقسط وشهادة بالعدل ، فإن كلَّ فرد في المجتمع إذا همَّ بظلم يرتدع قبل أنْ يفعل الظلم .

والمؤمن مطالب بالقيام لله بإصلاح ذاته ، ومطالب ثانياً أنْ يشهد بالقسط والعدل لإصلاح غيره .

والهدف هو أنْ تأتي الشهادة على الوجه الصحيح لها ، والشهادة تُطلق على أي أمر نحضره ، والشهادة تطلق على متلازمات متعددة يجمعها كلها « الحضور » كقوله تعالى : ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ[1] يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ .. (٢٨) ﴾ [الحج]

وما دام الشاهدُ صادقاً فلن يخشى محاورة أي طرف يسأله ، وما دامت الواقعة صادقة تظل كما هي مهما تنوعتْ الأسئلة وتغيرتْ الأساليب ، فالشاهد الصادق يستوحي واقعاً لا يتغير ، أما الشاهد الكاذب فهو يلفّ ويدور ويُغيِّر من أقواله .

والشهادة هي الفيصل من التنازع ، ولذلك يُوصي النبي ﷺ ألاَّ يشهد الرجل على أمر إلا بعد أنْ يكون قد رآه رأي العين كما يرى الشمس « على مثلها فاشهد أو دَعْ » .

والشهادة تتطلب أمرين : الأول هو حضور الشاهد لحظة وقوع المشهود به. والثاني هو أمانة النقل .

---

(١) ضامر : بعير أو فرس مهزول من بُعْد الشُّقة . فهي جمال هزيلة قد هزلت من طول السفر ، وقد ضمر جنباه من كثرة ما سيق إلى البيت أي اشتد عليه الحمل والركوب والسير إلى أن وصل إلى البيت العتيق فضمر جنب الدابة فسُمي ضامراً .

وقـال تعـالى : ﴿ ذَٰلِـكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُـوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَـا .. (١٠٨) ﴾ [المائدة]
والشـاهد والشـهيد هـو الذى يُرجـح حكم الحق ، فـإذا ظهر أمر مـن الأمور فى حياتنـا الدنيا الذى نحتاج إلى حكم فيهـا ، فنحن نرفع الأمر الذى فيه خلاف إلى القاضى فيقول : هـاتوا الشهود .

ويستجوب القاضى الشهود ليحكم فى ضوء الشهادة .

وإقامة الشـهادة تعنى أيضـاً أنْ تكون الغاية النهائية فى الشهادة وفى كل عمل هى ابتغاء مرضـاة الله سـبحانه ، فاقصـد فى كل شـهادة تشـهدها وجه الله.

﴿ ذَٰلِكُـمْ يُوعَـظُ بِهِ .. (٢) ﴾ [الطلاق] فهذا تشريـع ربكم ، وهو موعظة لكم يـا مَنْ تؤمنـون بـالله ربـاً حكيماً مشرعاً وعـالماً بنوازع الخير والشر فى نفوس البشر .

والموعظة تعنى ألاَّ تُنشـيء حكماً للسـامع ، بل تعظـه بتنفيذ ما عُلم له من قبـل ، ولذلـك يُقال : واعظ وهو الذى لا يُنشـيء مسـائل جديدة ، بـل يعرف أن المستمع يعلم أركان الدين ويعظه بما يعلم .

ولأنهـا موعظـة قادمـة من ربكم فلا بدَّ مـن الالتفات والانتبـاه ، وهى من كمـالات التربيـة ، فالموعظة نوع مـن التربية جاءت من ربكـم الأمين عليكم، فالموعظة هنا تأتى ممَّنْ يعطى ولا ينتظر منك شـيئاً ، فهو سـبحانه مُنزَّه عن الغرض لأنه لن ينال شيئاً منك ، فأنت لا تقدر على شيء مع قدرته سبحانه .

والموعظـة بالمنهج تخصُّ العقلاء الراشـدين لأن حركة العاقل الراشـد تمرُّ علـى عقلـه أولاً ويختـار بين البدائـل ، أما حركة المجنون فهـى غير مرتَّبة ولا منسَّقة ولا تمر على عقله لأن عقله مختلّ الإدراك ، وفاقدٌ القدرة على الاختيار بين البدائل .

والعاقل الراشد هو الذى يُوعظ بما يُقال له ويُوعظ به ، فلا يُعرض عن الموعظة ، ولا يبعد عن منهج الله وشرعه الذى شرعه فى علاقاته الاجتماعية مع زوجه وطليقته .

﴿ **يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ** .. (٢) ﴾ [الطلاق] فمَنْ يؤمن بالله يعرف أن للإيمان مطلوباً ووراءه مسئولية عملية ، وأن من مقتضى الإيمان بالله أنْ تعمل بمراده وتأخذ بمنهجه .

فحين تدخل إلى الإيمان مختاراً يجب أنْ تلتزم بعهد الإيمان ، وأول شيء استؤمنتَ عليه عهد الإيمان بالله الذى أخذه الله عليك ، وما دُمت قد آمنتَ بالإله فعليك أنْ تُنفِّذ أوامره .

والحق سبحانه بدأ هنا ببداية الإيمان وهو الإيمان بالله ، ثم يأتى بعد ذلك بنهاية الإيمان وهو ضرورة الإيمان بـ (اليوم الآخر) ، فبداية القوس هو الإيمان بالله ، وطرفه الأخير الإيمان باليوم الآخر .

والإيمان باليوم الآخر يأتى بأنْ تؤمن بالله ثم تؤمن بما يخبرك به الله ، فالإيمان بالله أولاً ، وبعد ذلك الإيمان بما أخبرنى به الله .

فهذا الذى أمرناكم به من الإشهاد وإقامة الشهادة إنما يأتمر به مَنْ يؤمن بالله وأنه شرع هذا ، ومَنْ يخاف عقاب الله فى الدار الآخرة .

فإنَّ مَنْ يؤمن بالله واليوم الآخر يتعظ بمواعظ الله ويُقدِّم لآخرته من الأعمال الصالحة ما استطاعه بخلاف مَنْ ترحل الإيمان عن قلبه فإنه لا يبالى بما أقدم عليه من الشر .

وخَصَّ الله تعالى المؤمن بالله واليوم الآخر لأنه المنتفع بذلك دون غيره ، فالوعظ التحذير مما يضرّ والتذكير المُلين للقلوب ، وقد قال تعالى فى سورة البقرة : ﴿ **ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ**

وَأَطْهَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢٣٢) ﴾ [البقرة]

والحق سبحانه هنا يقول ﴿ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ .. (٢٣٢) ﴾ [البقرة] بالإفراد في (ذلك) ، أما في سورة الطلاق ﴿ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ .. (٢) ﴾ [الطلاق] بالجمع في (ذلكم) .

ففي سورة البقرة يخاطب شخصاً واحداً أو صنفاً واحداً ، وهو الذي يعضل المطلَّقة التي بانت من زوجها بينونةً صغرى بأن انقضت عِدَّتها ، فهو يعضلها أنْ تعود زوجة مرة أخرى لزوجها الأول بعقد جديد ومهر جديد .

أما في سورة الطلاق فالحق سبحانه يخاطب متعددين بأوامرَ ونواهٍ مختلفة، يخاطب المطلّق بأنْ يُطلِّق المرأة لعدَّتها ، وأنْ يُحصي العدة ، وأنْ لا يُخرجها من بيتها ويخاطب المطلَّقة بأنْ تُحصي عِدَّتها ، وأنْ لا تخرج من بيتها .

يخاطب مَنْ يريد أنْ يراجع امرأته في عِدَّتها أنْ يُمسكها بالمعروف أو يُفارقها بالمعروف ، ويخاطبه كذلك بأنْ يشهد ذوي عدلٍ منكم على رجعته، ويخاطب الشهود أنْ يقيموا الشهادة لله ، ثم قال :﴿ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ .. (٢) ﴾ [الطلاق]

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) ﴾ [الطلاق]

ولكل آية من آيات القرآن مقام ومنزلة ومكانة ، منها هذه الآية التي جاءت في سياق الكلام عن أحكام الطلاق والعدَّة وسُكْنى المطلَّقة وعدم إخراجها ، ولكنها آية عامة تعم كل مَنْ كان في ضيق وهمٍّ وكرب .

لذلك قال رسول الله ﷺ[1] : « إني لأعلم آية لو أخذ بها الناس لكفتهم ﴿ وَمَنْ

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (٤٢٢٠) والنسائي في سننه الكبرى (١١٥٣٩) والحاكم في مستدركه (٣٨١٩) وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، والدارمي في مسنده (٢٧٦٧) وأحمد في مسنده (٢١٥٩١) وزاد فيه : فجعل يتلو بها ويرددها عليَّ حتى نعستُ .

يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) ﴾ [الطلاق]

فهى كافية لعباد الله عن اللجوء أو التذلل لغيره ، لأنها آية تفتح باب الأمل لكلِّ مهموم وحزين ، أو مَنْ ضاقت عليه الدنيا .

ويقول تعالى مخاطباً مَنْ آمن به : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا .. (٢٩) ﴾ [الأنفال] . وفرقاناً هنا هى المخرج الذى يجعله الله لمن اتقاه، وهو أيضاً النجاة ، وهو أيضاً النصر ، وهو الهدى فى قلوب المتقين .

فالتقوى تُنجى المؤمن وتنصره على ذاته وعلى قلقه على ما هو فيه وعلى رزقه ، فأنت عندما تتقى الله فهو سبحانه يجعل لك مخرجاً ، وعليك أنْ تترك كلَّ عمل فيه معصية لله ، وانظر إلى يد الله الممدودة لك بخيره .

وهذه مسألة تحدث لمن يتقى الله ، فما دام يأخذ بالأسباب ويتقى الله فسوف يجد فى لحظة من لحظات الكرب أنَّ الفرج قد جاء من حيث لا يحتسب، لأن الله هو الرصيد النهائى للمؤمن .

فإذا فقدتَ الأسباب وضاقتْ بك الحيل لم يبْقَ لك إلاَّ أنْ تلجأ إلى المسبِّب سبحانه ، فمَنْ ضاقت به أسبابه فى حياته فليلجأ إلى الله فإنه لن يجد مخرجاً إلا عنده .

ومخرجه أنه يعلم أنه قَبل أمر الله ، وأن الله هو الذى يعطيه ، وهو يمنعه ، وهو يبتليه ، وهو يعافيه ، وهو يدفع عنه .

وقد ذكر عبادة بن الصامت[1] أن بعض آبائه طلَّق امرأته ألفاً فانطلق بنوه إلى رسول الله ﷺ ، فقالوا : يا رسول الله إن أبانا طلَّق أمنا ألفاً فهل له من

---

(١) عبادة بن الصامت بن قيس الأنصارى الخزرجى أبو الوليد صحابى من الموصوفين بالورع وُلد عام ٣٨ ق. هـ شهد العقبة وكان أحد النقباء وبدراً وسائر المشاهد ثم حضر فتح مصر . وهو أول من ولى القضاء بفلسطين ومات بالرملة أو ببيت المقدس عام ٣٤ هـ عن ٧٢ عاماً [الأعلام للزركلى ٢٥٨/٣] وكان أسود يفوق طوله المترين .

مخرج؟ فقال : إن أباكم لم يتق الله فيجعل له من أمره مخرجاً ، بانتْ منه بثلاث على غير السُّنة ، والباقى إثم فى عنقه[1] .

وقد سأل رجلٌ ابنَ عباسٍ رضى الله عنهما عن أنه طلَّق امرأته مائة ، فقال له ابن عباس[2] : عصيتَ ربك ، وبانتْ منك امرأتُك ، ولم تتق الله فيجعل لك مخرجاً . وقرأ هذه الآية ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) ﴾ [الطلاق]

فمَنْ يخف الله فيعمل بما أمره به ويجتنب ما نهاه عنه يجعل له من أمره مخرجاً ، فالمطلق إذا طلَّق جعل الله له عدَّة المرأة مخرجاً للمراجعة ، وحتى إذا انقضتْ عدّتها دون أنْ يراجعها ثم طلبتها نفسه وأرادها جعل الله له مخرجاً بأنْ جعل له السبيل إلى خطبتها ونكاحها .

أما إذا طلَّقها ثلاثاً فلم يكُنْ له إلى ذلك سبيل .

فمَنْ يتق الله يجعل له من أمره يُسْراً . قال : يعنى بالمخرج واليُسْر ما قلناه من أنه إذا طلَّق طلقة واحدة ثم سكت عنها ، فإنْ شاء راجعها بشهادة رجلين عدلين ، وإنْ مضتْ عدَّتها ولم يراجعها كان خاطباً من الخُطّاب .

فالتقوى هنا مع إيمانه بالله واليوم الآخر تجعله يخاف من الله أنْ يتخذ الطلاق لعبةً فيُطلِّق امرأته طلقةً عند كلِّ حيضة فقد أخطأ السنة وعصى الرب وأخذ بالعُسْر ، فمن أين له بالمخرج ؟

فمَنْ يتق الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه يجعل له مخرجاً من المعصية إلى الطاعة ، ويُقال : من الحرام والشبهات إلى الحلال . وقيل : يجعل له مخرجاً من شبهات الدنيا ومن غمرات الدنيا ومن شدائد يوم القيامة .

---

(١) أخرجه الدارقطنى فى سننه (٣٩٤٣) من حديث عبادة . قال الدارقطنى : رواته مجهولون وضعفاء كلهم إلا شيخنا (أبو محمد بن صاعد) وابن عبد الباقى . وقد أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٧٧٧٢) ، وفيه أن رسول الله ﷺ قال لعبادة : « أما اتقى الله جدك ، أما ثلاثة فله ، وأما تسعمائة وسبعة وتسعون فعدوان وظلم ، إن شاء عذبه ، وإن شاء غفر له».

(٢) أخرجه البيهقى فى سننه الكبرى (١٥٣٧٣) وسعيد بن منصور فى سننه (١٠٦٤) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٠٩٩٤) من حديث ابن عباس .

فاحذر من مخالفة منهج الله سبحانه، لأن المخالفة تنافى التقوى، فالتقوى هى أنْ تتقى معضلات الحياة ومشكلاتها بأنْ تلتزم منهج الله، وساعة ترى منهجَ الله وتطبقه فأنت اتقيت المشكلات.

أما مَنْ يُعرض عن تقوى الله فإنَّ الله يقول عن مصيره ﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا .. (١٢٤) ﴾ [طه]

ولا يظن أحدٌ أن التقوى هى اتقاء النار، لا إنها أعم من ذلك، إنها اتقاء المشكلات والمخاطر التى تنشأ من مخالفة منهج الله.

فالذى يجعل الحياةَ مليئة بالمشاكل هو أننا نأخذ بالقوانين التى نسُنّها لأنفسنا ونعمل بها، ولكن إذا أخذنا تقنين الله لنا فمعنى ذلك أننا نتقى المشاكل.

لذلك يقول الحق سبحانه: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا .. (١٢٤) ﴾ [طه] أى أن حياته تمتلىء بالهموم والمشاكل لأنه يخالف منهج الله، أما المتبع للمنهج فإنه يأخذ نفعه ساعة تأدية هذا المنهج.

والضَّنك هو الضيق الشديد الذى تحاول أنْ تفلت منه هنا أو هناك فلا تستطيع، والمعيشة الضنك هذه تصيب مَنْ أعرض عن الله، لأن مَنْ آمن بالله إن عزَّتْ عليه الأسباب لا تضيق به الحياة أبداً، لأنه يعلم أن له رباً يُخرجه مما هو فيه.

أما غير المؤمن فحينما تضيق به الأسباب وتُعجزه لا يجد مَنْ يلجأ إليه فينتحر، وليس الضنك والضيق هو الفقر والحاجة فقط، إنما له صور أخرى، فهناك مجتمعات راقية مادية ومعيشياً طعاماً وشراباً وترفاً، ففى السويد -مثلاً- أعلى نسبة انتحار، وأعلى نسبة شذوذ رغم أنها أعلى دول العالم دخلاً.

فلا تقيسوا مستوى التحضر بالماديات فحسب، إنما خُذْ فى حسبانك كلَّ

النواحى الأخرى ، فمن أتقن النواحى المادية الدنيوية أخذها وترف بها فى الدنيا ، أما الصلاح الدينى والخلقى والقيمى فهو سبيلٌ لترف الدنيا ونعيم الآخرة .

وهذه الآية ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ .. (٣) ﴾ [الطلاق] البعض أخذها على أنها آيةٌ عامة فى كلّ أمر يصيبك بالضيق، وتحتاج فيه للخروج منه إلى مخرج ، ولم يُخصِّصها بأمر الطلاق .

فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : جاء عوف بن مالك الأشجعى إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله إن ابنى أسره العدو وجزعتْ الأم ، فما تأمرنى؟ قال : اتقِّ الله واصبر . وآمرك وإياها أنْ تستكثر من قول : لا حوْلَ ولا قوة إلا بالله .

فانصرف إليها وقالت : ما قال لك النبى ﷺ ؟ قال : أمرنى وإياك أنْ نستكثر من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله . قالت : نِعْم ما أمرك به ، فجعلا يقولان ، فغفل عنه العدو فسَاقَ غنمهم فجاء بها إلى أبيه وهى أربعة آلاف شاة .

فنزلتْ ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ .. (٣) ﴾ [الطلاق] ما ساق من الغنيمة[١].

ويُحكى أنَّ رجلاً أتى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : ولِّنى ما ولاَّك الله . قال : أتقرأ القرآن ؟ قال : لا . فقال : إنَّا لا نُولى مَنْ لا يقرأ القرآن . فانصرف الرجل واجتهد فى تعلّم القرآن رجاء أنْ يعود إلى عمر فيولّيه عملاً .

فلما تعلّم القرآن تخلَّف عن عمر ، فرآه ذات يوم فقال : يا هذا هجرتنا . فقال: يا أمير المؤمنين لستَ ممَّنْ يُهْجَر ، ولكنى تعلمتُ القرآن فأغنانى الله

---

(١) رواه الثعلبى فى تفسيره بسنده إلى الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس . أورده الزيلعى فى تخريج أحاديث الكشاف (٤/ ٥٢).

تعالى عن عمر وعن باب عمر[1].

فقال : أيّ آية أغنتْك ؟ فقال : قول الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ .. (٣) ﴾ [الطلاق]

والله تعالى جعل للتقيِّ مخرجاً من كلِّ ما يضيق عليه ، ومَنْ لا يتقي يقع في كلِّ شدة .

فمَنْ يلتزم حدود الله ويراقب ربَّه ويخشى سلطانه يجعل له مخرجاً مما هو فيه من معاناة وضيق ، فإذا اتقى الله ولزم حدوده اختار له الله سبحانه الطريق المستقيم ، الذى يتبدَّل فيه حاله من ضيق إلى سعة ، ومن همٍّ إلى فرج، سواء كان ذلك بإمساك الزوجة أو فراقها ، أو فى أى أمر من أمور الحياة يعرض له .

فالتقوى هى المخرج من الشدائد ، والتقوى ظاهر وباطن ، فالظاهر ما يحل بظاهر البدن ، وهو المحافظة على حدود الله تعالى فلا يتجاوز شيئاً منها ما استطاع ، وإذا أُكره يبادر حالاً للاستغفار والرجوع .

والباطن ما يحلّ بباطنه من الإخلاص فى العمل وحُسْن النية ، وقد اتفقتْ الأمة على فضلها ولزوم التحلى بها وعدم مرافقة غير أهلها ، فالذى يريد أنْ يحيا حياةً طيبة فعليه أنْ يقضى حياته مع المتقين كى يكون حَيَّ القلب ، دائمَ اليقظة ، بعيداً عن الغفلة .

والتقوى تُورث خشية الله ، وخشية الله تمنع صاحبها من كلِّ سوء .

وقد ضمن الله للمتقين أنْ يجعل لهم مخرجاً مما يضيق على الناس ، فإذا لم يحصل ذلك دلَّ على أن فى التقوى خللاً فليستغفر الله وليتُبْ إليه .

---

(١) أورده الثعلبى النيسابورى فى الكشف والبيان عن تفسير القرآن (٩/٣٣٨) سورة الطلاق . وكذا أورده شمس الدين الشربينى فى تفسير السراج المنير (٤/٢٢٧) . وكذا البقاعى فى (نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور)(٨/٣١) .

والله يجعل لك من كلِّ ضيق مخرجاً إنِ اتقيته ، والضيق أنْ يتضاءل الشيءُ الواسع أمامك عما كنتَ تُقدِّره ، والضيق يقع للإنسان على درجات فقد تضيق به بلده فينتقل إلى بلد آخر .

وربما ضاقتْ عليه الدنيا كلها ، وفى هذه الحالة يمكن أنْ تسعه نفسه ، فإذا ضاقتْ عليه نفسه فقد بلغ أقصى درجات الضيق ، والذى يضيق بأمرٍ ما ، هو الذى لا يجد فى مجال فكره وبدائله ما يخرج به من هذا الضيق ، إنما الذى يعرف أنَّ له منفذاً ومخرجاً فلا يكون فى ضيق .

ولذلك يقول : لا كرب وأنت رب ، فساعة أنْ تضيق بك الدنيا والأهل والأحباب، وتضيق بك نفسك فليسعك ربك ولتكن فى معيته سبحانه .

لذلك قال تعالى بعد ذلك واصفاً مَنْ ينجون من هذا الضيق ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (١٢٨) ﴾ [النحل]

فالله فى معية مَنْ اتقاه ، فمَنِ اتقى الله فهو فى جواره ومعيته ، وإذا كنتَ فى معية ربك فكيف يجرؤ عليك ضيق ، والتقوى فى معناها العام طاعة الله باتباع أوامره واجتناب نواهيه .

كذلك مَنْ وقع فى ضيق بسبب مشاكله مع امرأته حتى وصل الأمر إلى الطلاق فإنه إذا كان مُتقياً لله يجعل له الله مخرجاً يُخرجه مما هو فيه ، ويحفظ عليه بيته وزوجه وأولاده ، فمن اتقى الله فى امرأته وأولاده هداه الله إلى طريق يستطيع بها إصلاحهم لا كسْرهم وتشتيتهم .

فالأساس فى أمور الزواج هى التقوى وخشية الله ، وهذا يمنع شروراً كثيرة، وأيضاً مَن احتكمت معه الأمور فاضطر إلى التطليق فليكُنْ الطلاق كما أمر الله، أى لا يكون فى حيضة المرأة بل فى طهرها منه ، وهذا يعطى فرصة للتعقّل وتدبُّر الأمر وتداركه .

وحتى إذا طلَّقها فى طهر فله أنْ يراجعها فى عِدَّتها ، وقد جعل الله الفرصة أكبر بعدم إخراج المرأة المطلقة طلاقاً رجعياً من بيت الزوجية ليكون المجالُ أوسعَ للتراضى والتقارب والهدوء فيراجعها ويرأب الصدع .

حتى مَنْ كان جاهلاً بتحريم طلاق البدعة فلم يعلم أنَّ الطلاق فى الحيض محرَّم أو أنَّ جمع الثلاث محرم ، فهذا إذا عرف التحريم وتاب صار مِمَّنْ اتقى الله فاستحقَّ أنْ يجعل الله له مخرجاً .

والأمر يحتمل معنى آخر ، فمَنْ طلَّق امرأته قد يكون طلَّقها اضطراراً لسبب يعود إليها هى ، ومعه منها أولاد فتضيق به الدنيا هو وأولاده، حينها لا بد أنْ يعلم أن الله سيجعل له مخرجاً بأنْ يُهيء الله له زوجة أخرى تحفظ عليه حياته وتحفظ له أولاده .

وسيرزقه الله حتماً من حيث لا يحتسب ، مصداقاً لقوله تعالى فيما بعد ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ .. (٣) ﴾ [الطلاق] يرزقه فرجاً ، ويرزقه زوجة، ويرزقه مالاً إنْ كان فقره هو سبب الطلاق ، ويرزقه صحةً إنْ كانت صحته العليلة هى سبب طلاقه لامرأته .

ولكلٍّ آية من آيات القرآن مقام ومنزلة ومكانة ، منها هذه الآية التى جاءت فى سياق الكلام عن أحكام الطلاق والعدة وسُكْنى المطلقة وعدم إخراجها ، ولكنها آية عامة تعم كل مَنْ كان فى ضيق وهَمٍّ وكرب .

لذلك قال رسول الله ﷺ : « إنِّى لأعلم آيةً لو أخذ بها الناس لكفتْهم »[١] . فهى كافية لعباد الله عن اللجوء أو التذلّل لغيره ، لأنها آية تفتح باب الأمل لكلٍّ مهموم وحزين، أو مَنْ ضاقت عليه الدنيا .

ويقول تعالى مخاطباً مَنْ آمن به : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه (٤٢٢٠) مختصراً ، وكذا أخرجه النسائى فى السنن الكبرى (١١٥٣٩)، والحاكم فى مستدركه (٣٨١٩) . وأخرجه مطولاً الإمام أحمد فى مسنده (٢١٥٩١) وابن حبان فى صحيحه (٦٦٦٩) .

فُرْقَانًا .. (٢٩) ﴾ [الأنفال] وفرقاناً هنا هو المخرج الذى يجعله الله لمن اتقاه ، وهو أيضاً النجاة ، وهو أيضاً النصر ، وهو الهدى فى قلوب المتقين .

فالتقوى تُنجى المؤمن وتنصره على ذاته وعلى قلقه على ما هو فيه وعلى رزقه ، فمَن اتقى الله والتزم بحدود الله ولم يتعدَّها رزقه الله من حيث لا يحتسب وجعل له مخرجاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝٣ ﴾

فأنت عندما تتقى الله فهو سبحانه يجعل لك مخرجاً ، وعليك أنْ تترك كل عمل فيه معصية لله ، وانظر إلى يد الله الممدودة لك بخيره ، ولا تُدخل فى بطنك وبطن مَنْ تعول إلا مالاً من حق ، ومالاً بحركة شريفة نظيفة .

وليكن سند المؤمن دائماً قول الحق سبحانه : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ .. (٣) ﴾ [الطلاق]

ويجب أنْ نفهم أيضاً أن قول الله سبحانه وتعالى ﴿ وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ .. (٢١٢) ﴾ [البقرة] ينسحب على معنى آخر وهو أنه سبحانه لا يحب أنْ تُقدر أنت رزقك بحساب حركة عملك فقط ، فحساب حركة عملك قد يخطيء.

فعلى الإنسان أنْ يعمل فى الأسباب ، ولكنه لا يأخذ حساباً من الأسباب ويظن أنْ ذلك هو رزقه ، لأن الرزق قد يأتى من طريق لم يدخل فى حسابك ولا فى حساباتك .

وقـال الله فـى ذلـك : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ .. (٣) ﴾ [الطلاق]

وما دام المؤمن قد أخذ بالأسباب فسبحانه يهبه مما فوق الأسباب ، وهذه مسألة تحدث لمَنْ يتقى الله ، أتحدى أنْ يوجد مؤمن ليس فى حياته مثل هذه الأمور ما دام يأخذ بالأسباب ويتقى الله وسوف يجد فى لحظة من لحظات كربه أنَّ الفرج قد جاء من حيث لا يحتسب ، لأن الله هو الرصيد النهائى للمؤمن .

وهَبْ أنك سائر فى الطريق وفى جيبك جنيه واحد ، وليس عندك غيره وضاع منك ، هل تحزن ؟ نعم سوف تحزن ، ولكن إنْ كان فى بيتك عشرة جنيهات فحُزْنك يكون خفيفاً لضياع الجنيه ، ولو كان رصيدك فى البنك ألفاً من الجنيهات فلن تحزن على الجنيه الذى ضاع .

ومَنْ له ربٌّ ويبذل الجهد فى الأخْذ بالأسباب سيجد الحلَّ والفرج من أيّ كرب بما هو فوق الأسباب ، وأنت لا تبحث عن رزقك بقدر ما يبحث هو عنك ، ويقول أهل المعرفة : رزقك أعلم بمكانك منك بمكانه ، يعنى يعرف عنوانك .

أما أنتَ فلا تعرف عنوانه ، بدليل أنك قد تطلب الرزق فى مكان فلا تُرزق منه بشيء ، وقد ترى الزرع زاهياً فى الحقول تأمل فيه المحصول الوفير وتبنى عليه الآمال ، فإذا بعاصفة أو آفة تأتى عليه ، فلا تُرزق منه حتى بما يسدّ الرمق .

والحق سبحانه يرزق مَنْ يشاء بغير حساب ، ولا يظُنّن إنسانٌ أنَّ عمله هو الذى سيرزقه ، إنما يرزقه الله بسبب هذا العمل ، فإن انتقل من عمل باطل إلى عمل آخر حلال فلن يضنّ الله عليه بعمل حق ورزق حلال ليقتات منه .

ولكن ما هو الرزق ؟ الرزق عند القوم هو كل ما يُنتفع به ، فكلُّ شيء تنتفع به هو رزق ، والناس يقصدون كلمة الرزق على شيء واحد يشغل بالهم دائماً وهو المال .

نقول لهم : إن الرزق هو كلُّ ما يُنتفع به ، فكلُّ شيء يكون مجاله الانتفاع يدخل فى الرزق : علمك رزق ، وخلقك رزق ، وجاهك رزق ، وكل شيء تنتفع به هو رزق .

لكن الناس لا يفهمون الرزق إلا على أنه مال ، ولا يفهمون أنه يُطلق على كل شيء ينتفعون به .

والحق سبحانه يقول للمطلق والمطلقة إنْ حاولا كل الوسائل لعدم المفارقة ولكنهما لم يُفلحا ، فيقول تعالى : ﴿ وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا (١٣٠) ﴾ [النساء]

فسبحانه عنده الفضل الواسع ، وهو القادر على أنْ يرزق الزوج زوجةً صالحة تُشبع كلَّ مطالبه ، ويرزق الزوجة زوجاً آخر يُشبع كل احتياجاتها ويقبل دمامتها لو كانت دميمة ، ويجعله الله صاحب عيون ترى نواحى الخير والجمال فيها .

فإياك أنْ تظن أنَّ الله ليس عنده ما يريح كل إنسان ، فسبحانه عنده كل ما يريح كل الناس ، وصيدلية منهج الله مليئة بالأدوية، ومن الحكمة أنه سبحانه لا يُرغم اثنين على أنْ يعيشا معاً وهما كارهان لأنهما افتقدا المودة والرحمة فيما بينهما .

والله واسع عليم ، أى يتسع لكل مُلْكه ، لا يشغله شيء عن شيء ، لذلك عندما سُئل الإمام على كرم الله وجهه : كيف يحاسب الله الناسَ جميعاً فى وقت واحد؟ قال : كما يرزقهم جميعاً فى وقت واحد[1] .

فالله واسعٌ فضله ، بمعنى أنه قادر على إعطاء الفضل لكلِّ الخلق ، ولن ينقص ذلك من فضله شيئاً .

---

(١) سئل الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه : كيف يحاسب الله الخلق على كثرتهم ؟ فقال : كما يرزقهم على كثرتهم [شرح نهج البلاغة للشريف الرضى - طبعة دار الشعب ص ٤٠٤ فقرة ٢٩٨] . وهناك زيادة : " فقيل : كيف يحاسبهم ولا يرونه فقال الإمام على : كما يرزقهم ولا يرونه " .

والـرزق كمـا قلنـا هو كل ما يُنتفع بـه ، فالقوة رزقٌ ، والعلم رزقٌ ، والحكمة رزق ، والتواضع رزق ، والزوج رزق ، والزوجة رزق ، وكلٌ ما فيه حركة للحياة رزق .

فـإنْ لم يكُـنْ عندك مـال لتنفق منه فعنـدك عافية تعمل بها لتحصـل على المال ، وتتصـدق منه على العاجز والمريض ، وإنْ كان عندك حلم فإنك تنفقه بأنْ تقى الأحمق من تصرفات قد تؤذى المجتمع وتؤذيك ، وإنْ كان عندك علم فلتنفقه لتُعلِّم الجاهل ولتعمل به أولاً .

والبعض قد يكون رزقه علماً وحكمة فى مواجهة مواقف تحدث فى بيوتنا ومع أزواجنا ، فالأمر يحتاج توفيق **الله** سبحانه حتى لا يقع فى مأزق مفارقة زوجتـه ، وهـذا لا يكـون إلا باتبـاع منهج **الله** وشرعـه ، فى التعامـل معها أو إمساكها بالمعروف ، أو حتى مفارقتها بالمعروف .

ولا يظُـنّن أحـدٌ أنَّ مفارقـة الزوج أو الزوجة هو نهايـة الحياة ، بل قد يكون بدايةَ حياة على أسس جديدة .

﴿ **مِـنْ حَيْـثُ لَا يَحْتَسِبُ** .. (٣) ﴾ [الطلاق] أى من حيث لا يدرى أو يُؤمِّل أو يرجو ، بل إنَّ **الله** يسبِّب له أسباب الرزق من حيث لا يشعر ولا يعلم .

حتـى أن بعض العلمـاء قال : إذا اتقى وآثر الحلال والتصـبُّر على أهله فتح **الله** عليه إنْ كان ذا ضـيقة ، ورزقه من حيث لا يحتسب ، أى يرزقه من جهة لا تخطر بباله .

وفـى هذا يروى أبو ذر رضـى **الله** عنـه حواراً دار بينه وبين رسـول **الله** ﷺ قـال: جعل رسـول **الله** يتلـو عليَّ هذه الآيـة : ﴿ **وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَـهُ مَخْرَجًا** (٢) **وَيَرْزُقْـهُ مِـنْ حَيْـثُ لَا يَحْتَسِبُ** .. (٣)﴾ [الطلاق] حتى فرغ مـن الآية ، ثم قال : « يا أبا ذر لو أن الناس كلهم أخذوا بها لكفتهم »

قـال أبـو ذر : فجعل يتلوها ويُردِّدها عليَّ حتى نعسـتُ ، ثم قـال : يا أبا ذر

كيف تصنع إنْ أُخرجتَ من المدينة ؟ قلت : إلى السعة والدعة[1] ، أنطلق فأكون حمامة من حمام مكة ؟ قال : كيف تصنع إنْ أخرجت من مكة ؟ قال قلت : إلى السعة والدعة وإلى الشام والأرض المقدسة .

قال : وكيف تصنع إنْ أُخرجت من الشام ؟ قلت : إذاً والذى بعثك بالحق أضع سيفى على عاتقى ، قال : أو خيرٌ من ذلك ؟ قلت : أو خير من ذلك ؟ قال : تسمع وتطيع وإنْ كان عبداً حبشياً[2] .

فمن توكل على الله لم تضِقْ نفسه أبداً ، فهو يعلم تماماً أن الله سيجعل له من كل ضيق مخرجاً ، وسيهيء له فرجاً لا يحتسبه ولا يظنه ، ولا يدرى من أين يأتيه ، فالله يُنجيه من كلِّ كرْب فى الدنيا والآخرة .

هذا اليقين أتى به رسول الله ﷺ فى وصيته لابن عباس رضى الله عنهما ، وقد كان ابن عباس غلاماً صغيراً ، كان عمره يوم وفاة النبى ﷺ ١٤ عاماً .

قال رسول الله : « يا غلام ، إنِّى مُعلِّمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، وإذا سألتَ فاسأل الله ، وإذا استعنتَ فاستعِنْ بالله ، واعلم أنَّ الأمة لو اجتمعت على أنْ ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه اللهُ لك ، ولو اجتمعت على أنْ يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه اللهُ عليك ، رُفعت الأقلام وجفَّتْ الصحف »[3] .

ما كتبه الله سواء لك أو عليك هو ما سيكون ، كتبه سبحانه بموجب علمه تعالى ، فليكُنْ اعتمادك عليه وحده ، واعلم أنك إن اعتمدت عليه وحده إلهاً

(١) الدعة : السكون والراحة ولين العيش والرخاء والرفاهية . والدعة هى النَّعْمة المذكورة فى قوله تعالى ﴿ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) ﴾ [الدخان] قال البغوى فى تفسيره (ونعمة) ومتعة وعيش ليِّن .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٢١٥٩١) والطبرانى فى المعجم الأوسط (٢٤٧٤) من حديث أبى ذر رضى الله عنه .

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٦٦٩ ، ٢٧٦٣ ، ٢٨٠٤) ، والترمذى فى مسنده (٢٥١٦) وأبو يعلى الموصلى فى مسنده (٢٥٥٦) ، والحاكم فى مستدركه (٦٣٠٤) والطبرانى فى المعجم الكبير (١١٠٨٠ ، ١١٣٩٤) ، والبيهقى فى شعب الإيمان (١٩٢ ، ١٠٤٣ ، ٩٥٢٨ ، ٩٥٢٩) عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما .

فأنت قد اعتمدتَ على عزيز لا يُغلب على أمره .

فاعمل لوجه الله وحده يكفِكَ كلَّ الأوجه ، فلا تلجأ إلا إليه ولا تستعن إلا به سبحانه ، فالاستعانة بالله تُخرجك عن ذُلِّ الدنيا ، فأنت حين تستعين بغير الله فإنك تستعين ببشر مهما بلغ نفوذه وقوته ، فكلها فى حدود بشريته .

فلتكُنْ استعانتك بالحى الذى لا يموت ، فالاستعانة طلب المعونة ، فإذا استنفد الإنسان أسبابه لا بد أنْ يتذكر أنَّ له رباً لا يُعبد سواه .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ[1] .. (٣) ﴾ [الطلاق] ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠) ﴾ [آل عمران] ويقول أيضاً: ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩) ﴾ [آل عمران] والذى لا يتوكل على الله عليه أنْ يراجع إيمانه .

ولكلٍّ جارحة عمل ، وعمل جارحة القلب هو اليقين والتوكل ، ولنتذكر أن السعى للقدم ، والعمل لليد ، والتوكل للقلب ، فلا تنقل عمل القلب إلى القدم أو اليد ، لأن التوكل الحقيقى أنْ تعمل الجوارح وتتوكل القلوب ، وكم من عامل بلا توكل فتكون نتيجة عمله إحباطاً .

إننا نجد الزارع الذى لا يتوكل على الله ينمو زرعه بشكل جيد ومتميز ، ثم تهبُّ عليه عاصفة ، أو يتغير الجو فيصيبه الهلاك وتكون النتيجة الإحباط .

واحذر إهمال الأسباب أو أنْ تفتنك الأسباب ، لأنك إنْ أهملتَ الأسباب فأنت غير متوكل بل متواكل تنقل عمل القلب إلى الجوارح ، فالجوارح تعمل والقلوب تتوكل .

إياك أنْ تظن أنَّ التوكل يعنى أنْ تترك الجوارح بلا عمل ، لا فهذا هو التواكل أو الكسل ، إنه التوكل الكاذب ، والدليل على كذب مَنْ يقول ذلك أنه يحب أنْ يتوكَّل فيما فيه مشقة ، والسهل لا يتوكل فيه .

ونقول للرجل الذى يدَّعى أنه يتوكل ولا يعمل : أنت لستَ متوكلاً ولو كنتَ

---

(١) فهو حسبه : كفاه الله ما أهمَّه . فمن وثق بالله فيما نابه كفاه ما أهمه .

صادقاً في التوكل ، إياك أنْ تمدَّ يدك إلى لقمة وتضعها في فمك ، كُنْ متوكلاً كما تدَّعى ودَع التوكل يضع لك اللقمة في فمك واترك التوكل ليمضغها لك ، وادعاؤك التوكل دون أخذ بالأسباب هو بلادة حِسٍّ إيماني وليس توكلاً .

ومعنى أنِّي أتوكل على الله أنني استنفدت أسبابي ، ولذلك أرجع إلى مَنْ عنده قدرة وليس عنده عجز ، وهذا هو التوكل المطلق ، والتوكل الإيماني معناه تسليمك زمام أمورك إلى الحق ثقةً بحُسْن تدبيره ، ومن تدبيره أنْ أعطاك الأسباب فلا تردّ يدَ الله الممدودة بالأسباب ، زاعماً التوكل .

والله لا يترك مَنْ توكل عليه ، ومثال هذا توكل هاجر[1] عليها السلام امرأة إبراهيم الخليل عليه السلام ، فقد تركها إبراهيم عند بيت الله الحرام ، ليس معها إلا رضيعها إسماعيل في مكان لا طعام فيه ولا ماء .

وهنا قالت هاجر قولتها المشهورة لإبراهيم عليه السلام : إلى مَنْ تكلنا؟ آللهُ أمرك بذلك ؟ فقال سيدنا إبراهيم : نعم . فقالت : إذن لن يُضيِّعنا[2]، لقد استغنتْ بالخالق عن المخلوق .

لقد عطش ولدها وأرادت أنْ تبحث عن منبع ماء أو طير ينزل في مكان لتعلم أن فيه ماء أو ترى قافلة تسير ومعها ماء ، لذلك خرجت إلى أعلى مكان وتركت الوادي وصعدت إلى أعلى جبل الصفا فلم تجد شيئاً ، فنظرتْ إلى الجهة الأخرى إلى المروة وصعدتْ فلم تجد شيئاً .

وظلتْ تتردد بين الصفا والمروة سبعة أشواط ، ولنا أنْ نتصوَّر حالتها ، امرأة في مثل سِنِّها ، وفي مثل وحدتها ، وفي مثل عدم وجود ماء عندها

---

(١) هاجر جارية مصرية . ومعناها بالهيروغليفية زهرة اللوتس . وهاجر من القبط من قرية نحو الفرما يقال لها أم العرب . فصارت العرب كافة من مصر بأمهم هاجر لأنها أم إسماعيل وهو أبو العرب . [فضائل مصر المحروسة – الكندي ١/٢] .

(٢) عن ابن عباس قال : جاء نبي الله إبراهيم بإسماعيل وهاجر فوضعهما بمكة في موضع زمزم فلما مضى نادته هاجر : يا إبراهيم إنما أسألك ثلاث مرات : من أمرك أن تضعني بأرض ليس فيها ضرع ولا زرع ولا أنيس ولا زاد ولا ماء ؟ قال : ربي أمرني . قالت : فإنه لن يُضيعنا . أخرجه الطبري في تفسيره (٢٠٩٥٤) .

ولا بُدَّ أنها عطشتْ كما عطش وليدها .

وعندما بلغ منها الجهد انتهت محاولاتها وعادت إلى حيث يوجد وليدها، ولو أنَّ سعيها بين الصفا والمروة أجدى فرأت ماء لقُلْنا : إن السعي وحده قد جاء لها بالماء ، لكنها هي التي قالت من قبل : إذن لن يُضيعنا .

وهي بهذا القول قد ارتبطت بالمسبِّب لا بالسبب ، فلو أنه أعطاها بالسبب المباشر وهو بحثُها عن الماء لما كان عندها حجة على صِدْقها في قولها : « إذن لن يضيعنا » .

ويريد الحق سبحانه أنْ ينتهي سعيها سبع مرات بلا نتيجة وتعود إلى وليدها فتجد الماء عند قدم الوليد ، وهكذا صدقت هاجر في يقينها عندما وثقتْ أن الله لن يضيعها ، وأراد الله أنْ يقول لها : نعم لن أضيعك وليس بسعيك، ولكن بقدم طفلك الرضيع يضرب بها الأرض فينبع منها الماء .

وضرْبُ الوليد للأرض بقدمه سببٌ غير فاعل في العادة ، لكن الله أراده سبباً حتى يستبقي السببية ولو لم تُؤدِّ إلى الغرض ، وعندما تتوكل توكَّلْ على الحي الذي لا يموت ، فلا تتوكل على مَنْ قد تصبح غداً فتجده ميتاً ، ولكن توكلْ على الحي الموجود دائماً ، العزيز الذي لا يُقهر ، القوي الذي لا يُغلب .

ومعنى ﴿ فَهُوَ حَسْبُهُ .. (٣) ﴾ [الطلاق] أي هو سنده ويكفيه ، ومنه قوله تعالى: ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤) ﴾ [الأنفال] أي : يكفيك الله ، فحسبك الله وهو حسْب مَن اتبعك من المؤمنين ، أي يكفيكم الله .

ويمكن أنْ يكون المعنى : يكفيك الله فيما لا تستطيع أنْ تحققه بالأسباب ، ويكفيك المؤمنون فيما توجد فيه أسباب .

ويقول تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩) ﴾ [التوبة]

وقد جاء سبحانه بـ (حسبى) من الحساب ، واحسبها فلن تجد إلا الله ، وما دام حسبك الله ولا إله إلا هو فسبحانه يبسط عليك حمايته ونُصْرته لك ، فمن العقل أنْ تضع نفسك بين يدى رسولك الذى أبلغك البلاغ الكامل عن الله ، وأنْ تتوكل عليه سبحانه .

وما دام سبحانه هو حسبك ولا إله إلا هو ، والواجب يفرض عليك أنْ تظلَّ فى معيته سبحانه ، ومعنى حسبك الله يعنى : كافيك عن الاحتياج لغيره لأنه يعطيك كل ما تحتاج إليه ويمنع عنك الشر وإنْ كنت تظنه خيراً لك .

وإذا توكلتَ على الحى الذى لا يموت ، فآثار هذا التوكل أنْ يحميك من ذنوب العباد ، فهو وحده الذى يعلم ذنوبهم ويعلم حتى ما يدور فى أنفسهم .

فمنْ يتق الله فى أموره ويُفوِّضها إليه فهو كافيه ، وقد قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه[1] : إنَّ أكبر آية فى القرآن تفويضاً آية ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ .. (٣) ﴾ [الطلاق]

فمن فوَّض إليه أمره كفاه ما أهمه ، والحسب الكافى ، فبيَّن أنه كافٍ مَنْ توكل عليه ، ولذلك قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أحبَّ أنْ يكون أقوى الناس فليتوكلْ على الله »[2] .

فمعنى قوله ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ .. (٣) ﴾ [الطلاق] أى : يثق بالله ويُفوِّض أمره إليه . ويقال : التوكل على الله هو الرضا بقضائه . وقد قال

---

(١) أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (٨٥٧٧) والبخارى فى الأدب المفرد (٤٨٩) وعبد الرزاق فى مصنفه (٦٠٠٢) والبيهقى فى شعب الإيمان (٢١٧٣) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه.

(٢) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٧٧٠٧) وصححه . وكذا أخرجه عبد بن حميد فى مسنده (٦٧٥) من حديث ابن عباس : « إن لكل شيء شرفاً ، وإن أشرف المجالس ما استقبل به القبلة ، وإنما يجالس بالأمانة ، ولا تصلوا خلف النائم ولا المتحدث ، واقتلوا الحية والعقرب وإن كنتم فى صلاتكم، ولا تستروا الجدر بالثياب ، ومن نظر فى كتاب أخيه بغير إذنه فكأنما ينظر فى النار ، ومن أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله، ومن أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله » .

وهب بن منبه[1] : « يقول الرب تبارك وتعالى : إذا توكل عليَّ عبدى لو كادتْه السماوات والأرض جعلتُ له من بين ذلك المخرج »[2] .

فقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ .. (٣) ﴾ [الطلاق] شرط وجواب يدخل فيه كل من الزوج والزوجة كما يدخل فى حَيِّزه الناس جميعاً ، فمَنْ يتوكل على الله ويُسلِّم أمره إليه فهو حسبه وكافيه ومُدبِّر أمره .

فمَنْ يتوكل على الله فى أمر دينه ودنياه بأنْ يعتمد على الله فى جَلْب ما ينفعه ودفْع ما يضره ويثق به فى تسهيل ذلك ﴿ فَهُوَ حَسْبُهُ .. (٣) ﴾ [الطلاق] أى : كافيه الأمر الذى توكَّل عليه فيه .

﴿ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ .. (٣) ﴾ [الطلاق] أى لا بدّ من نفاذ قضائه وقدره ، فأمره يبلغ على من توكل وعلى مَنْ لم يتوكل ، فهو سبحانه منفذ قضاياه وأحكامه فى خَلْقه بما يريده ويشاؤه .

وقد قال عبد الله بن رافع : لما نزل قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ .. (٣) ﴾ [الطلاق] قال أصحاب النبى ﷺ : فنحن إذا توكلنا عليه نرسل ما كان لنا ولا نحفظه ، فنزلتْ ﴿ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ .. (٣) ﴾ [الطلاق] فيكم وعليكم .

فلا بدّ من نفاذ أمر الله ، توكلتَ أيها المرء أو لم تتوكل ، فإنْ توكلت كفاك وتعجلتَ الراحة والبركة ، وإنْ لم تتوكل وكلك إلى عجزك وتسخطك ، وأمرُه فى الوجهين نافذ .

فلا تستبعدوا وقوع ما وعدكم الله حين ترون أسباب ذلك مفقودة ، فإنَّ الله إذا وعد وعداً فقد أراده ، وإذا أراد الله أمراً يسَّر أسبابه ، فهو سبحانه هو المالك

---

(١) وهب بن منبه أبو عبد الله ، من أبناء فارس ، إخبارى قصصى ، تابعى ثقة ، قاضى صنعاء ، وكان صاحب حكمة وفطنة .

(٢) أخرجه أحمد فى الزهد (٢٩١) عن وهب بن منبه قال يقول الرب تعالى : إذا توكل علىَّ عبدى لو كادته السماوات والأرض جعلت له من بين ذلك المخرج ، وأورده الألوسى فى تفسيره (روح المعانى) (١٤ / ٣٣١) وعزاه لأحمد فى الزهد عن وهب بن منبه .

المتصرف في هذا الوجود ، وكل شيء بيده خاضعٌ لمشيئته مستجيبٌ لإرادته ، وما يريده سبحانه واقع لا محالة دون أنْ يَعوقه مُعوّق أو يغيره أحد .

ومعنى ﴿ بَالِغُ أَمْرِهِ .. (٣) ﴾ [الطلاق] أي واصل إلى مراده ، والبلوغ مجاز في الحصول على المراد .

﴿ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣) ﴾ [الطلاق] أي جعل لكلِّ شيء أجلاً ومنتهى يُنتهى إليه ، فالحق سبحانه قد جعل لكل شيء من الطلاق والعدة وغير ذلك حداً وأجلاً وقدراً ينتهى إليه .

لذلك قال تعالى هنا : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ .. (٣) ﴾ [الطلاق] فلا تقلق على شيء من الدنيا ما دُمْتَ في معية الله ، فالله عنده المخرج مما أنت فيه ، وعنده الرزق، فقط توكَّلْ عليه سبحانه ، واعلم أنَّ أمر الله وقضاءه وقدره الذى قدَّره لك نافذ .

﴿ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ .. (٣) ﴾ [الطلاق] وقد جعل لكلِّ شيء قدراً ، فالله حين يقدر قدراً لا يمكن لمخلوق أنْ يُفلت من هذا القدر .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا (٤) ﴾

عملية الحيض في المرأة عملية كيماوية ضرورية لحياتها وحياة الإنجاب، والكلام هنا ليس عن الحيض ، ولكن عن عدة المرأة التى انقطع حيضها وقد طُلّقت، فإذا كان الحق سبحانه قد حدَّد عدة المرأة المطلقة طلاقاً رجعياً

يراجعها فيها زوجها ، قد حددت هذه العدة بالنسبة لها ثلاثة طهورات أى تحيض وتطهر ، وتحيض وتطهر ، وتحيض وتطهر .

ولكن ما موقف التى انقطع حيْضها وقد يئستْ منه ، فكيف تحسب عدَّتها ،وقد أمرنا الحق سبحانه بإحصاء العدة ، فقال : ﴿ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ .. (١) ﴾ [الطلاق]

فالمرأة التى انقطعت عنها الدورة الشهرية فعدَّتها ليست عدَّةَ حيض وطهارة، إنما عدة زمنية محددة وهى ثلاثة أشهر .

وهو ما يُسمونه « سنّ اليأس » ، واليأس هو أنْ تقطع الأمل من أمر مراد لك ، ولا تملك الوسائل لتحقيقه ، فقد أصابهن اليأس من الحيض لكبرهِنَّ ببلوغهن سِنَّ الخامسة والخمسين والستين .

فعدَّتهن ثلاثة أشهر عوضاً عن الثلاثة قروء في حَقِّ مَنْ تحيض، والتى ذكرتها سورة البقرة ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ[١] بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ .. (٢٢٨) ﴾ [البقرة]

فأصل العدة بالحيض ، والأشهر بدل من الحيضات عند عدمها ، فاللائى يئسْنَ من المحيض هُنَّ القواعد اللائى قعدنَ عن المحيض ، بأنْ كُنَّ يحضن ثم ارتفع حيضهن لكبر أو غيره ولم يُرج رجوعه، فإنَّ عدتها ثلاثة أشهر، جعل لكلِّ شهر مقابله حيضة .

وسنّ اليأس يختلف تحديده باختلاف الذوات والأقطار كما يختلف سن ابتداء الحيض كذلك .

وكلمة (المحيض) هى مصدر ميمى أى مبدوء بالميم بمعنى الحيض ، أي: دم الحيض . وقد يأتى بمعنى مكان الحيض كما فى قوله تعالى : ﴿ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ .. (٢٢٢) ﴾ [البقرة]

---

(١) يتربصن : ينتظرن ويعتددن مدة . والتربص : الانتظار . وهو خبر فى معنى الأمر أى ليتربصن قصد بإخراجه مخرج الخبر تأكيد وقوعه .

ومَنْ جعل المحيض بمعنى الحيض أراد اعتزلوهنَّ فى أيام حيضهنَّ ، فهو اسمٌ لمكان الحيض ، ومصدر لحدث الحيض نفسه ، ومنه الحوض لأن الماء يحيض أى يسيل إليه .

والحائض هى التى يقع لها حدث الحيض وإنْ لم يكُنْ واقعاً بها فى ذات اللحظة ، ومنه حديث رسول الله ﷺ : « لا تُقبل صلاةُ حائض إلا بخمار »[1] فهو لا يقصد وهى فى أيام حيضها لأن الحائض لا صلاةَ عليها أصلاً ، وإنما المراد : التى من شأنها أن تحيض .

فعندما ينقطع حيضها تزولُ عنها صفةُ أنها حائض ، وتصبح من القواعد من النساء اللاتى قعدْنَ عن المحيض ، ولكن لا يزول عنها أنها لا تصلى إلا بخمار سواء كانت قد بلغت سِنَّ المحيض أو يئستْ منه .

ويضع الحق سبحانه جملة ﴿ إِنِ ارْتَبْتُمْ .. (٤) ﴾ [الطلاق] والارتياب محله القلب ، فإنْ شككتم ولم تتيقنوا أتحيض أم لا تحيض ، هل انقطع حيضُها أم لا ، فالتى قعدتْ عن المحيض والتى لم تحِضْ بَعْد فعدَّتها ثلاثة أشهر .

أما إذا امتنع حيض المرأة وهى شابة ، فإنه يُتأنَّى بها حتى يُنظر ، حامل أم هى غير حامل ؟ فإن استبان حملها فأجلُها أنْ تضع حملها فإنْ لم يستبنْ حملُها فحتى يستبين بها وأقصى ذلك سنة .

فـ (ارتبتم) أى شككتم وجهلتم كيف عدتهن .

ومن هذه التى قد يقع الشك فيها والجهل ﴿ اللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ .. (٤) ﴾ [الطلاق] وهُنَّ الصغيرات إذا طلقهنَّ أزواجهن بعد الدخول ، فهن لم يبلغن المحيض وقد مُسِسْن ، فعدتهن ثلاثة أشهر .

فاللاتى فى حال الصِّغر هُنَّ بمنزلة الكبيرة التى يئست من المحيض ، فـ ﴿ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ .. (٤) ﴾ [الطلاق] معطوف على ﴿ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٦٤١) ، وابن ماجه فى سننه (٦٥٥) ، وأحمد فى مسنده (٢٥٢٠٨ ، ٢٥٨٧٥ ، ٢٦٢٦٩) ، وابن حبان فى صحيحه (١٧١١) والبيهقى فى سننه الكبرى (٣٣٧٩) عن عائشة رضى الله عنها .

.. (٤) ﴾ [الطلاق] فيأخذن حُكماً واحداً وهو أنَّ عدتهنَّ بالأشهر، وليستْ بالطهر من الحيض ، لأنهنَّ إمَّا لم يحضْنَ أصلاً ، أو يئسْنَ من المحيض .

وزواج الصغيرة جائز بنصِّ هذه الآية ، ورسول الله ﷺ عقد على عائشة رضى الله عنها وعمرها ست سنوات(١) ، فالإسلام فيه سعة ، وتؤمن به مجتمعات متباينة ، والفقهاء أجازوا زواج الصغيرة بشرط عدم الإضرار بها بمعنى تحملها للوطء .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ .. (٤) ﴾ [الطلاق] فعدَّة المرأة الحامل التى طلَّقها زوجها هىَ أنْ تضع حملها ، وعلى هذه المرأة أنْ لا تكتم حملها .

قال تعالى : ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ .. (٢٢٨) ﴾ [البقرة]

وهذا يدلُّ على أن المرأة لها شهادتها لنفسها فى الأمر الذى يخصُّها ولا يطَّلع عليه سواها ، وهى التى تُقرر المسألة بنفسها فتقول أنا حامل أو لا ، وعليها ألاَّ تكتم ذلك ، فقد يجوز أنْ تكون حاملاً وبعد ذلك تكتم ما فى بطنها حتى لا تنتظر طول مدة الحمل وتتزوج رجلاً آخر فينسب الولد لغير أبيه .

فغالباً ما يستمر الحمل تسعة أشهر ولكن هناك استثناء ، فهناك حملٌ مدّته سبعة أشهر ، وأحياناً ستة شهور .

فكتمان المطلَّقة لحملها يترتب عليه أكثر من إشكال ، منها ألاَّ يرث الولدُ من الأب الأول ، وأن محارمه لم تعُد مُحرَّمة عليه ، فأخته من أبيه لم تعُدْ أخته ، وكذلك عماته وخالاته وتنقلب الموازين ، هذا من جانب الأب الأصلى .

---

(١) أخرج البيهقى فى السنن الكبرى (١٣٨٠٥) وكذا فى (دلائل النبوة ٧/ ٢٨٤) باب تسمية أزواج النبى. وفيه : « ثم تزوج رسول الله عائشة بعد خديجة وعائشة يومئذ بنت ست سنين فنكحها رسول الله ﷺ بمكة وهى ابنة ست سنين ، ثم إن رسول الله ﷺ بنى بعائشة بعدما قدم المدينة وعائشة يوم بنى بها بنت تسع سنين» .

أما من جانب الزوج الثانى فالطفل يكتسب حقوقاً غير مشروعة له ، سيرث منه وتصبح محارم الرجل الثانى محارمه فيدخل عليهن بلا حق ، ويرى عوراتهن وتحدث تداخلات غير مشروعة .

فقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِى أَرْحَامِهِنَّ .. (٢٢٨) ﴾ [البقرة] هو قولٌ يريد به الحق أنْ تقوم الحياة على طُهْر وعلى شرف وعلى عفاف ، ولا يعتدى أحدٌ على حقوق الآخر .

فأجلهنَّ أنْ يضعْنَ حملهنَّ ، فإذا نفضت الرحم ما فيها فقد انقضتْ عدَّتها، وقد حدث أن وضعت امرأة على عهد رسول الله اسمها سُبَيْعة بنت الحارث الأسلمية[1] بعد وفاة زوجها بخمس عشرة ليلة فأمرها نبى الله ﷺ أن تزوج .

وكان عمر يقول : لو وضعتْ ما فى بطنها وهو موضوع على سريره من قبل أنْ يقبر حلَّتْ . أى حلَّتْ أنْ يتزوجها رجل آخر بعد وفاة زوجها .

وكلَّ مطلقة حامل أو مُتوفّى عنها زوجها وهى حامل أيضاً فأجلُها أنْ تضع حملها حتى ولو كان سقطاً ، فإذا ما وضعت ما فى رحمها فقد انقضتْ عدتها، فليس المحيض من أمرها فى شيء إذا كانت حاملاً .

ولا يحلُّ للمطلَّقة أنْ تقول إنِّى حائض وليستْ بحائض ، أو تقول إنى حُبْلَى وليست بحُبْلَى ، أو تقول لست بحائض وهى حائض ، أو تقول لست بحبلى وهى حُبْلى لتبين من زوجها قبل أنْ تنقضى العدة ، وتضيف الولد إلى الزوج الثانى وتستوجب الميراث إذا مات الرجل فتقول لم تنقض عدَّتى وقد انقضتْ عدَّتها .

وقد يسأل سائل : وما عِدَّة المرأة التى تُوفِّى عنها زوجها وهى حامل وقد

---

(١) سبيعة بنت الحارث الأسلمية ، كانت امرأة سعد بن خولة ، فتوفى عنها بمكة فى حجة الوداع وهى حامل ووضعت بعد وفاته بعشرين يوماً . وهى صحابية جليلة ، روت عن رسول الله أحاديث ، وروى عنها عبد الله بن عمر وزفر بن أوس ومسروق . وهى ممن نزل فيهن قوله تعالى ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ .. (١٠) ﴾ [الممتحنة] .

يكون حملها فى بدايته ، هل تعتد عدة المتوفَّى عنها زوجها أربعة أشهر وعشراً، أم عدة الحامل بوضع حملها ؟

ولهذا السائل نقول : الله عز وجل حدد عدَّة المرأة المتوفَّى عنها زوجها ، فقال: ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤) ﴾ [البقرة]

فعدَّة المتوفَّى عنها زوجها أنها تتربَّص بنفسها أربعة أشهر وعشراً ، هذا إذا لم تكُنْ حاملاً ، فإنْ كانت حاملاً فعدَّتها أبعد الأجلين ، فإنْ كان الأجلُ الأبعد هو أربعة أشهر وعشراً فتلك عدَّتها .

وإنْ كان الأجل الأبعد هو الحمل فعدَّتها أن ينتهى الحمل ، ولكن أليس من الجائز أنْ يموت زوجها وهى فى الشهر التاسع من الحمل فتلد قبل أنْ يُدفن ؟ وهل يعنى ذلك أنَّ عدَّتها انتهت ؟

لا ، إنها تنتهى بأبعد الأجلين وهو فى هذه الحالة مرور أربعة أشهر وعشْر، وإنْ قال بعض الفقهاء : إنَّ عدة الحامل بوضع الحمل .

لكن إذا لم يكُنْ زوجها متوفى عنها فعدَّتها أنْ تضع حملها ، وإنْ شاءت أن تتزوج بعد ذلك فلها ذلك ولو بعد لحظة .

وبعض الناس يفسرون الحكمة من جَعْل عدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشراً ، فيقولون : لأنها إنْ كانت حاملاً بذكر فسيظهر حملها عندما يتحرك بعد ثلاثة أشهر ، وإنْ كانت حاملاً بأنثى فستتحرك بعد أربعة أشهر ونعطيها مهلة عشر ليالٍ .

ونقول لهم : جزاكم الله خيراً على تفسيركم ،ولكن العدة ليست لاستبراء الرحم لأنها لو كانت لاستبراء الرحم لانتهتْ عدَّة المرأة بمجرد ولادتها .

ولو كان الأمر للتأكد من وجود حَمْل أو عدمه لكانتْ عِدَّتها ثلاث حيضات إنْ كانت من ذوات الحيض ، وإنْ كانت من غير ذوات الحيض لصغر أو لكبر سِنٍّ لكانت عدَّتها ثلاثة أشهر ، لكن الله اختصها بأربعة أشهر وعشر وفاءً لحق زوجها عليها وإكراماً لحياتهما الزوجية .

والمرأة الحامل التى تُوفِّى عنها زوجها إذا قعدت أقصى أو أبعد الأجلين تكون قد عملتْ بمقتضى الآيتين ، وإنْ اعتدَّتْ بوضع الحمل فقد تركتْ العمل بآية عدَّة الوفاة ، والجمع بين الآيتين أوْلَى من الترجيح باتفاق أهل الأصول .

فلو أنَّ امرأة حاملاً تُوفِّى عنها زوجها وهى حامل فى الشهر الأول مثلاً فعدَّتها ليست أربعة أشهر وعشراً ، بل عدتها وضعها الحمل فتنتهى عدتها بوضعها لحملها .

أما القول بأقرب الأجلين فهو قول خطأ لا يقول به أحد ، لأن مقتضى هذا القول هو أنها إذا كانت حاملاً الآن فى الشهر الأول فمرَّ عليها أربعة أشهر وعشر وهى ما زالت فى السادس يحل لها على هذا القول أنْ تتزوج . وهذا لا يجوز بحال ، فإن الرجل الجديد سيسقى ماؤه زرع غيره فلا يحل هذا بحال وهو من أكبر الكبائر .

ويقول رسول الله ﷺ : « لا تُوطأ حاملٌ حتى تضع »[1] ، وقال أيضاً « لا يحلّ لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أنْ يسقى ماؤه زرعَ غيره »[2] .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤) ﴾ [الطلاق]

---

(١) عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ورفعه أن رسول الله قال فى سبايا أوطاس : "لا تُوطأ حامل حتى تضع ولا غير ذات حمل حتى تحيض حيضة "أخرجه أبو داود فى سننه (٢١٥٩) وأحمد فى مسنده (١١٦١٤) والبيهقى فى سننه (١١١٠٥) والحاكم فى مستدركه (٢٧٩٠) وصححه على شرط مسلم .

(٢) عن رويفع بن ثابت الأنصارى قال قام فينا خطيباً قال : أما إنى لا أقول لكم إلا ما سمعت رسول الله ﷺ يقول يوم حنين قال : «لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقى ماؤه زرع غيره» يعنى إتيان الحبالى .

هذه هى المرة الثالثة التى يذكر الحق سبحانه فيها أمر التقوى فى سورة الطلاق فى خلال أربع آيات فقط، فى الآية الأولى قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ .. (١) ﴾ [الطلاق]

وفى الآية الثانية قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) ﴾ [الطلاق]
وهنا قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤) ﴾ [الطلاق]

وذلك لعظم التقوى ومخافة ومراعاة حدود الله والخوف من عقابه سبحانه، لذلك أكَّد سبحانه على التقوى، فمَنْ خاف الله فاجتنب معاصيه وأدَّى فرائضه، ولم يخالف إذنه فى طلاق امرأته فإنه يجعل الله له من طلاقه يُسْراً، وهو أنْ يُسهِّل عليه إنْ أراد الرخصة.

فمَنْ يتق الله فى اجتناب معاصيه يجعل له من أمره يُسْراً فى توفيقه للطاعة، فيسهل له أمره ويُيسِّره عليه ويجعل له فرجاً قريباً ومخرجاً عاجلاً.

فمَن اتقى الله تعالى يسَّر له الأمور وسهَّل عليه كلَّ عسير، وهو تسهيل الرجعة ما دامت فى عِدَّتها والقدرة على خطبتها إنْ انقضت ودعتْه إليها بسبب التقوى.

فالحق سبحانه يعظ الرجال والنساء للأخذ بما فى هذه الأحكام مما عسى أنْ يكون فيه مشقةٌ على أحد بأنَّ على كلٍّ أنْ يصبر لذلك امتثالاً لأمر الله، فإنَّ الممتثل لأمر الله وهو المتقى يجعل الله له يُسراً فيما لحقه من عُسْر.

والأمر فى قوله تعالى ﴿ مِنْ أَمْرِهِ .. (٤) ﴾ [الطلاق] هو الشأن والحال، والمقصود يجعل له من أمره العسير فى نظره يُسْراً، بدلالة أنه سبحانه يجعل من أمره نفسه الذى هو فيه يجعله يُسراً.

واليُسْر انتفاء الصعوبة أى انتفاء ما يُسبِّب له مشقة أو أمراً مكروهاً.

والمقصود من هذا تحقيق الوعد باليسر فيما شأنه العُسْر لحثِّ الأزواج على امتثال ما أمر الله به الزوج من الإنفاق فى مدة العدَّة، ومن المراجعة وترْك

منزله لأجل سُكْناها إذا كان لا يسعهما ، وكذلك أمر المرأة من تربُّص أمد العدة وعدم الخروج ، فمَنْ يراقب الله ويخشاه في أقواله وأفعاله ويجتنب ما حرّم الله عليه يسهِّل عليه أمره ويُوفِّقه لكل خير .

والحق سبحانه إنما يريد بنا اليُسْر ولا يريد بنا العُسْر ، قال تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ .. (١٨٥) ﴾ [البقرة] فالله يريد أنْ نعيش في يسر وسهولة من أيسرنا ، لا أن نعيش في عسر وضيق .

والذي يُسبِّب لنا العسر والضيق هو عدم الالتزام بمنهج الله وعدم تقوى الله، واعلم أنَّ مع العسر يُسْراً ، فالعسر الذي تظنه عُسْراً هو نفسه معه يُسْر .

ويقول تعالى ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ .. (٧٨) ﴾ [الحج] فالله لا يريد أنْ يُضيق عليكم أو يُعسِّر عليكم الأمور ، إنما جعل الأمر كله يُسْراً ورخّص لكم ما يُخفِّف عنكم ويُذهب عنكم الحرج والضيق .

ونلاحظ أنَّ الحق سبحانه يقول ﴿ يَجْعَلْ لَهُ .. (٤) ﴾ [الطلاق] فالله إنما يريد مصلحتك ويريد نفعك ، فالله ليس له هوى فيما يأمرك به ، إنما هي مصلحتك وسلامتك .

فمن الآثار المترتبة على تقوى الله عز وجل أنْ يُيسِّر له الأمور ، وأنْ يُهيء له سُبُل الخير ، وأنْ يفتح الطرق التي تُوصله إلى سعادة الدنيا وسعادة الآخرة .

فالمؤمن التقي يُيسِّر الله له أموره ويُيَسر لليُسْرى ويُجنِّبه العسرى ويُسهِّل عليه الصعاب ، ويجعل له من كلِّ هَمٍّ فرجاً ، ومن كل ضيق مخرجاً ، ويرزقه من حيث لا يحتسب .

فبالتقوى ينضج عقل الإنسان وتتكوَّن عنده ملكةٌ قوية وبصيرة نيِّرة تضيء له الطريق المظلم ، ويفرق بها بين الحق والباطل ، وبين النافع والضار.

يقول تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا[١] وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ .. (٢٩) ﴾ [الأنفال]

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ[٢] مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ .. (٢٨) ﴾ [الحديد]

بالتقوى يأمن الإنسان إذا خاف الناس ، ويُسَرُّ إذا حزنوا ، ويستبشر إذا قنطوا ويئسوا ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ .. (٦٤) ﴾ [يونس] بالتقوى تزداد علاقة الإنسان بربه ، وينال الفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة .

بالتقوى يطمئن المسلم على ذريته من بعده ، ولاسيما ضعفاؤهم ، قال تعالى : ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٩) ﴾ [النساء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ۝٥ ﴾

قوله (ذلك) إشارة إلى كلِّ ما سبق من أحكام الطلاق والرجْعة والعدَّة وعدم إخراج المرأة المطلقة طلاقاً رجعياً من بيت الزوجية ، وكذلك أحكام العدة بين اللاتي يئسْنَ من المحيض ، واللاتي لم يحضْنَ أصلاً .

(١) الفرقان : المخرج . عن ابن عباس ، والمعنى : يجعل لكم مخرجاً في الدين من الضلال . وهو أيضاً : النجاة . قاله قتادة والسدي . وهو أيضاً : النصر . قاله الفراء . وهو أيضاً هدى في قلوبهم يفرقون به بين الحق والباطل . قاله ابن زيد وابن إسحاق . (زاد المسير لابن الجوزي) .

(٢) كفلين : نصيبين وحظين . يعني يؤتكم أجرين لإيمانكم بعيسى ومحمد وبالإنجيل والقرآن . والمقصود نصيبين من رحمته بسبب إيمانكم برسوله بعد إيمانكم بمن قبله من الرسل . [فتح القدير للشوكاني].

فقوله (ذلك) يعنى ما ذُكِر من الأحكام وما عُلِم من حكم هؤلاء المعتدَّات، ونلاحظ أن الحق سبحانه لم يقُلْ : هذا أمر الله . بل قال : ﴿ ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ .. (٥) ﴾ [الطلاق]

واللام فى (ذلك) للبُعد إشارة لبُعد منزلة هذا الأمر وأهميته وعظيم اهتمام الشارع به . وقد أفرد الكاف مع أن الخطاب للجمع كما يُفصح عنه قوله تعالى : ﴿ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ .. (٥) ﴾ [الطلاق] ؛ لأن الكاف هنا لتعيين الفرق بين البعد والقرب ، لا لتعيين خصوصية المخاطبين: فلم يقل سبحانه هنا (ذلكم) كما قاله فى آيات أخرى ، فقد قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤) ﴾ [البقرة] ، وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) ﴾ [النور]

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) ﴾ [الجمعة]

﴿ ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ .. (٥) ﴾ [الطلاق] كلمة (أمر الله) وردت فى القرآن فى مواضع عدة بمعان ، منها قضاء الله أى ما قضاه الله على عباده ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٤٧) ﴾ [النساء] وذلك فى الكلام عن بنى إسرائيل .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ[1] وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ[2] وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ

---

(١) نطمس : الطمس هو المحو . أى نذهب بآثار الوجه وتخطيطه حتى يصير على هيئة القفا . وقيل : إنه بعد الطمس يردها إلى موضع القفا والقفا إلى مواضعها . [فتح القدير للشوكانى] .

(٢) أصحاب السبت هم أهل أيلة . وزاد ابن عباس : بين مدين والطور . وهى إيلات أو أم الرشراش . وتقع فى أقصى جنوب فلسطين بين مدينة العقبة الأردنية من الشرق وبلدة طابا المصرية من الغرب . وهى قرية مصرية يحتلها الإسرائيليون منذ عام ١٩٤٩م . بينما هى مصرية بموجب فرمان رسم الحدود مع فلسطين عام ١٩٠٦ .

مَفْعُولاً (٤٧) ﴾ [النساء]

فالحق سبحانه بقدرته الشاملة وصفات جلاله الكاملة لا يتخلف شيء فى وجوده عن أمره ، فإذا وعد بشيء فلا بد أنْ يحدث ، فأمر الله غير أوامر البشر ، فأوامرُ البشر هى التى تتخلَّف أحياناً ، سواء أكانت وعداً أم وعيداً .

فأنت قد تعد إنساناً بخير ولكنك ساعةَ أداء الخير لا تستطيعه ، فتكون قدرتك هى التى تحتاج إلى أداء الخير ، أو توعد إنساناً وتهدده بشرٍّ وستعمل فيه غداً كذا ، وقد يأتيك غداً مرض يُقعدك فلا تستطيع إنفاذ وعيدك .

إذن فأنت قد لا تستطيع إنفاذ شيءٍ من وعدك ولا شيءَ من وعيدك ، لأنَّ قدرتك من الأغيار ، وما دامت قدرتكم من الأغيار فقد تُوجد أو لا توجد .

لكن الحق سبحانه وتعالى إذا وعد بوعد أو أوعد بوعيد ، أيوجد شيء يُغيِّر هذا ؟ لا ، إذن فساعةَ يقول ربنا بوعد أو وعيد فاعرف أن هذا سيحدث فى الوعد، أما فى الوعيد فإنَّ الله قد يتجاوز عنه كرماً وفضلاً ما عدا الشرك بالله .

وأمْر الله قد يكون ما سيكون فى يوم القيامة وما سيحدث قبل وقوعها ، يقول تعالى : ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. (١) ﴾ [النحل]

وأمْر الله قد يكونُ هنا قضاء الله وحُكْمه بنصر الرسول والمؤمنين لا شكَّ فيه ولا محالةَ ، وأن هزيمة أهل الكفر قادمة ولا مفرَّ منها إنْ هم استمروا على الكفر .

وساعة سمع الكلُّ ذلك فزعوا ، لأن أمر الله واقعٌ لا محالة ، ثم جاء قوله ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. (١) ﴾ [النحل] فالأمر الذى يعلنه محمد ﷺ لا يعلم ميعاده إلا الله سبحانه .

وكلمة (أتى) تدلُّ على أن الذى يخبرك وهو الله يستوى معه الزمن ، فـ (أتى) فعل ماض ، ولا تستعجلوه مستقبل ، كيف يقول الله سبحانه (أتى) ثم يقول (فلا تستعجلوه) ؟

إنه مستقبل بالنسبة لنا ، أما بالنسبة لله تبارك وتعالى ، فما دام قد قال (أتى) فمعنى ذلك أنه حدث ، فلا أحد يملك أنْ يمنع أمراً من أمور الله من الحدوث، فالعذاب آت لهم ، ولا يخفف عنهم لأن أحداً لا يملك تخفيفه .

وقد يكون ﴿ أَمْرُ الله .. (٤٧) ﴾ [النساء] بمعنى قضاء الخير للإنسان ، قال تعالى : ﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) ﴾ [هود]

فقال لها تعالى : ﴿ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ الله رَحْمَةُ الله وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (٧٣) ﴾ [هود]

وأمر الله هنا هو أمرُ خيرٍ لامرأة إبراهيم عليه السلام المرأة العجوز العقيم وزوجها شيخ كبير ، والله يردُّها إلى مسبِّب الأسباب ، فالأسباب لا تعطى وحدها، فالأسباب عندها تعطلت ، أما حين تصل الأسباب إلى الله فلا عجب .

ولكم ما معنى (أمر الله) هنا فى قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ أَمْرُ الله أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ .. (٥) ﴾ [الطلاق]

الأمر هنا هو الحكم أو التشريع الذى شرَّعه سبحانه ، فهو حكمه الذى حكم به بين عباده ، وشرعه الذى شرعه لهم ، وهو أمر الله لا أمر أحدٍ غير الله ، لذلك أضاف الأمر إلى صاحبه سبحانه وهو الله عز وجل .

وهذا الذى شرع لكم من الأحكام هو أمر الله الذى أنزله إليكم لتسيروا على منهجه وتعملوا به ، دون تحايل منكم على أمر الله ، فلا تكونوا مثل بنى إسرائيل الذين يعشقون التحايل على أمر الله لئلا يُنفِّذوا ما أمرهم به .

قال تعالى : ﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ[1] الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي

---

(١) فى تعيين هذه القرية خمسة أقوال ، ذكرها ابن الجوزى فى زاد المسير :
- أيلة . قاله ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن جبير . وهى ما يعرف الآن بـ (إيلات) .
- مدين . عن ابن عباس . - ساحل مدين . عن قتادة - طبرية . قاله الزهرى .
- قرية يقال لها مقنا بين مدين وعينونا . قاله ابن زيد .

السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) ﴾ [الأعراف]

فهـؤلاء كانوا أهـل قرية حاضرة البحر أى قريبة مـن البحر ومشرفة عليه، لأننـا نقـول فلان حضـر أى كان بعيداً فاقـترب ، وهـم من اليهـود لأنهم حُرِّم عليهم العمل يوم السبت .

فابتلاهـم الله عز وجل بلاءً عظيماً فحـرَّم عليهم ما لم يحرمه على آخرين ، وذلـك لتعنتهم وخروجهم عن أحكام الله فشـدَّد الله عليهـم ، فكان هؤلاء يروْنَ السـمك فى المياه يوم السـبت وهو يرفع زعانفه كشراع المركب وتطل عليهم أشرعة الحيتان وهم فى بيوتهم .

وهذا ابتلاءٌ من ربهم لهم فى يوم السبت وعقاب لأنهم ممنوعون من صيده ، ويروْنَ هذا السمك أمامهم في يوم السبت ، لكن فى بقية الأيام التى يُباح فيها العمل كيوم الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة لا تظهر لهم ولا سمكة واحدة .

وهنا قالوا : ما دام ربنا قد حرَّم علينا أنْ نصطاد يوم السبت فعلينا أنْ نحتال وصنعوا أكياساً من السلك المضفَّر والذى نسميه الجوبية يدخل السمك فيها ولا يستطيع الخروج منها ، فيأتى السمك يوم السبت فى الجوبية ويستخرجونه يوم الأحد .

أو يصنعون حوضاً لـه مدخل وليس له مخرج ، وفى هذا المكر وتمكر لهم السماء بحيلة أشد ، لقد أراد الله ابتلاءهم لأنهم فسقوا عن المنهج ، وخرجوا عن الطاعة واستحلُّوا أشياء حرمها الله ، لذلك يُحرِّم الله عليهم أشياء أحلَّها لغيرهم .

فهـم تحايلـوا على أمر الله بأنْ صنعوا مصايد للأسماك تدخل فيها ولا تستطيع الخروج ، وهذا تحايل على أمر الله .

والله عز وجل لا يغيب عن علمه شيء ، فهو يعلم ما فى النفوس والنوايا ، وهذا مثل أمر الله ورسوله بالاصطفاف صفوفاً للصلاة ، وأنْ يقف الرجال أولاً ثم الأطفال ثم النساء ، ومن الرجال مَنْ يتقدم الصفوف كيْلا تقع عيونه على امرأة ، ومنهم مَنْ قد يتحايل ويقف فى الصفوف الأخيرة ليرى النساء من تحت أذرعه وهو راكع أو ساجد .

فأوضح الحقُّ سبحانه أنَّ مثل هذه الأمور لا تفوت عليه ، فهو العالم بالأسرار وأخفى منها .

وأمور الزواج والطلاق وأحكامهما وأحكام العدة والرجعة يحدث فيها تحايل كثير سواء من الرجل أو المرأة ، لذلك قال تعالى هنا : ﴿ ذَٰلِكَ أَمْرُ اللهِ .. (٥) ﴾ [الطلاق]

فهو أمر الله لا يجوز لأحد التحايل عليه أو التهرُّب من تنفيذه ، فتنفيذ أمر الله فى هذه العلاقات بين الرجل والمرأة يُجنِّبهما مشاكل كثيرة تسبب لدداً فى الخصومة .

ورسول الله ﷺ يقول : « اللهم إنى أحرِّج حقَّ الضعيفين المرأة واليتيم »[1]، وكأنه ﷺ يقول : إنى لا أسمح لأحد أنْ يجور أو يتحايل على حقٍّ هذين الضعيفين : المرأة واليتيم .

والمرأة يشتد ضعفها عندما تكون مطلَّقة أو أرملة ، ففى كلتا الحالتين تفقد زوجها وتفقد وجوده إلى جوارها ، والأمر يحتاج إلى تقوى الله وخشيته حتى لا يتم الإضرار بها بقصد الإيذاء والإعضال .

إذ كيف نقف أمام الله ونحن قد أوقعناها فى حرج ، فهذا ما أحذر منه تحذيراً بالغاً وأزجر عنه زجراً أكيداً فإنه ظلم لهما ، والله لا يأمر بالظلم إنما

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه (٣٦٧٨) وأحمد فى مسنده (٩٦٦٤) والنسائى فى السنن الكبرى (٩١٠٤، ٩١٠٥) والحاكم فى مستدركه (٢١١) وصححه على شرط مسلم ، والبزار فى مسنده (٨٤٨٣ ، ٨٤٨٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

يأمر بالعدل والإحسان .

وقد حدَّد حدوداً لا للزواج فقط ، بل لإنهاء علاقة الزواج بالطلاق فوضع أموراً للعدة وإحصائها ، هذا أمر الله الذى ليس لأحد تجاوزه .

ورسول الله ﷺ يقول : « إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم »(1) فالذى يجابهك بالخصومة يجعلك تحتاط له ، أما الذى يقابلك بنفاق فهو الذى يريد أنْ يخدعك ، وهذا عنف فى الخصومة .

فالخصم الواضح أفضل لأنه يواجهك بما فى باطنه ، لكن إذا جابهتَ الذى يبطن خصومته ويُظهر محبته يكون قاسياً عليك فى خصومته لأنه يريد أنْ يخدعك ويُبيِّت لك .

لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ .. (٥) ﴾ [الطلاق] فلم يقُل الحق سبحانه : أنزله إليك . رغم أن أمر الله وحكمه وتشريعه أنزله الله على محمد رسول الله ﷺ ، وهذا دليلٌ من الله على أن الله يخاطب بهذا التشريع كل أحد من أمة محمد ، وكأنه أنزله على كل فرد من أفراد الأمة .

ثم إن أمْر الله أمر خالق ربٍّ ، فالحق سبحانه هو المتولِّى التربية ، ومعنى التربية هو إيصال مَنْ تتم تربيته إلى الكمال المطلوب له ، فهناك ربٌّ يربِّى ، وهناك عبد تتم تربيته ، والرب يعطى الإنسان ما يؤهله إلى الكمال المطلوب له .

والله عز وجل ربٌّ ، ومن عادة الرب أنْ يتعهد المربَّى ليؤدى غايته على الوجه الأكمل ، أرأيتم أباً يربى أبناءه إلا لغاية ؟ وما دام هو سبحانه ربِّى فلا يأمرنى إلا لصالحى وصالح مجتمعى ، فلا شيء من طاعتنا يعود عليه بالنفع، ولا شيء من معاصينا يعود عليه بالضرر ، لأنه سبحانه خلق الكون كله بصفات الكمال المطلق .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٥٧ ، ٧١٨٨) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٦٩٥١) والترمذى فى سننه (٢٩٧٦) والنسائى فى سننه (٥٤٢٣) وصححه الألبانى .

والفطرة السليمة تقتضى استقبال أوامر الله بالقبول والتسليم ، ولو تأملنا السورة من أولها سنجد أن الله كرر الحديث عن أمر الله ، فقال فى الآية الأولى: ﴿ لَا تَدْرِى لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا .. (١) ﴾ [الطلاق] وفى الآية الثالثة قال : ﴿ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ .. (٣) ﴾ [الطلاق]

ثم يقول تعالى فى الآية الرابعة : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا .. (٤) ﴾ [الطلاق]

ثم يقول تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ أَمْرُ اللهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ .. (٥) ﴾ [الطلاق] فكأنَّ الأمر الذى سيُحدثه الله بعد ذلك هو ذلك التشريع والحكم فى العِدَّة وقبلها الرجعة ، وهذا الأمر سيكون يُسْراً على عباده لا عسراً ، لذلك قال تعالى : ﴿ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا .. (٤) ﴾ [الطلاق]

ولم تتوقف الآيات عن ذكر أمر الله ، بل قال تعالى فى الآية الثامنة : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ[1] عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا .. (٨) ﴾ [الطلاق]

وكأنَّ الله يُحذر ويُنبه لعاقبة الخروج عن أمر الله وشرْعه وحكمه ، لذلك ناسب هنا أنْ يذكر الحقّ سبحانه تقوى الله وخشيته للمرة الرابعة من بداية السورة ، فيقول تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا (٥) ﴾ [الطلاق]

يُحدِّثنا الحق سبحانه مرة ثالثة عن ثواب التقوى وجزائها ، أما الأولى فقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ .. (٣) ﴾ [الطلاق] أما الثانية فقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤) ﴾ [الطلاق]

---

(١) عتت : كفرت وتركت أمر ربها فلم تقبله . [زاد المسير الطلاق ٨] عتت : عصت وطغت . [البغوى فى تفسيره] . عتت : أعرضت . عتت : تكبرت وطغت .

إيجاد مخرج للمتقى مما هو فيه ، ثم التكفّل برزقه من حيث لا يحتسب ثم تيسير أمره ، وكلّ هذا فى الدنيا ، سنحلّ لك مشكلتك بإيجاد المخرج لك منها، وسنجعل رزقك من مصادر وموارد لم تكن تتوقعها ، وسنيُسّر لك أمرك ، كلُّ هذا بفضل تقواك لله ، فتقواك هى التى فتحت لك أبواب الخير كلها فى الدنيا .

ولكن ماذا عن الآخرة ؟ هنا تأتى آية ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا (٥) ﴾ [الطلاق] فجزاءُ التقوى فى الآخرة أمران ذكرتهما الآية : تكفير السيئات ، وإعظام الثواب والأجر .

وتكفير السيئات مرتبطٌ بأنْ يجتنبَ الإنسان كبائر الذنوب كالزنا والقتل، يقول تعالى : ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا (٣١) ﴾ [النساء]

واجتناب الكبائر ليس معناه فقط عدم مزاولة الحدث أو الفعل ، ولكن أيضاً عدم الاقتراب من مظانّ الحدث حتى يسدّ المؤمنُ على نفسه مخايلة شهوة المعصية له وتصوّره لها وترائيها له .

ومعنى تكفير السيئات أى إماطة العقاب ، فإنِ ارتكب إنسانٌ أمراً يستحقّ عليه عقاباً وقد اجتنب الكبائر يُكفِّر عنه الله أى يضع ويستر عنه العقاب .

فالاجتناب إعطاءُ الشيء جانباً وهو التباعد ، وهو أبلغ من مزاولة الفعل. والكبائر جمع كبيرة وهى مقابلةٌ للصغير من السيئات ، وهناك ما هو أصغر من الصغيرة وهو اللمم[1] .

---

(١) اللمم فى كلام العرب : المقاربة للشيء . والمراد به هاهنا ستة أقوال :
– ما ألموا به من الإثم والفواحش فى الجاهلية فإنه يُغفر فى الإسلام .
– أن يلم بالذنب مرة ثم يتوب ولا يعود .
– أنه صغار الذنوب كالنظرة والقبلة .
– أنه ما يَهُم به الإنسان .
– أنه ما خطر بالقلب .
– أنه النظر من غير تعمد . [زاد المسير لابن الجوزى] .

والحق سبحانه هنا عندما يقول ﴿ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ .. (٣) ﴾ [الطلاق] المقصود بها صغائر الذنوب لا كبائرها ، لأن تكفير السيئاتَ مشروطٌ باجتناب الكبائر ، إذن ليست الكبائر هي التي ستكفَّر بل الصغائر ، فالسيئات منوطةٌ بالأمر الصغير وبالأصغر .

والحق سبحانه لن يسقط العذاب والعقاب فقط ، بل سيزيدكم الله فسيعطيكم المدخل الكريم ، فقال تعالى : ﴿ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا (٣١) ﴾ [النساء] ، ويقول سبحانه : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ .. (٢٦) ﴾ [يونس]

وقد كان يكفي تكفير السيئات وألاَّ تعاقب ، لكنك حين تتجنب الكبائر لا يسقط عنك العقاب فقط ، بل يُدخلك الله مُدخلاً كريماً .

والمدخل الكريم يتناسب مع مَن يُدخلك في مُدْخله ، فما بالك بمدخل يُدخلك إياه الله ؟

يقول رسول الله ﷺ : قال الله تعالى : « أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأتْ ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر واقرءوا إن شئتم : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ .. (١٧) ﴾ [السجدة] [1]

ولتكفير الذنوب والسيئات طرق أخرى هيأها الله لعباده تطهيراً لهم من السيئات والخطايا وتخفيفاً لأثقالهم في يوم الحساب ، كالمرض والموت وغيرهما من القدريات التي يُجريها الله عليك ، حينها قُلْ إنَّ ربي أراد بي خيراً.

فبها تُكفَّر الذنوب والسيئات وبها أنال أجر الصابرين ، وربما أنني غفلتُ عن ربي أو غرَّتني النعمة فابتلاني الله ليلفتني إليه ويُذكِّرني به .

وقد فتح الحق سبحانه أبواباً أخرى لتكفير السيئات والذنوب ، فجعل من

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٣٢٤٤) وكذا مسلم في صحيحه (٧٣١٠) والترمذي في سننه (٣١٩٧) وابن ماجه في سننه (٤٣٢٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

أسس الاستغفار : من الصلاة للصلاة كفارةُ ما بينهما ، الجمعة للجمعة كفارة، الحج كفارة ، الصوم كفارة .

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة كفارةٌ لما بينهن ما لم تُغْشَ الكبائر »(١).

أى أن ربنا قد جعل أبواباً متعددة للمغفرة والرحمة ، من هذه الأبواب أيضاً صوم يوم عرفة ، ألم يقُلْ رسول الله ﷺ : « صوم يوم عرفة إلى صوم يوم عرفة يُذهب السيئات »(٢) .

ويقول تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا(٣) مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ .. (١١٤) ﴾ [هود]

وأول هذه الحسنات التى تُذهِب السيئات هى الإيمان بالله وأنْ تشهد أن لا إله إلا الله ، وهذه حسنةٌ أذهبت الكفر ، فالإيمان بالله هو أكبر صفة ، وهذه الحسنة تُذهِب الكفر .

وذهاب السيئة يكون إما عن طريق مَنْ يحفظ عليك العمل ويكتبه عليك فيمحوه الله من كتاب سيئاتك ، أو أنْ يعفو الله سبحانه عنك فلا يعاقبك عليه، أو يكون ذهاب العمل فى ذاته فلا يتأتّى ، وما وقع لا يرتفع أو يحفظها الله إنْ وقعتْ .

فهو سبحانه القائل : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١١٨) ﴾ [ق] ويقول سبحانه : ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) ﴾ [الانفطار]

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٥٧٢) ، وأخرجه الترمذى فى سننه (٢١٤) ، وابن ماجه فى سننه (١٠٨٦)، وأحمد فى مسنده (١٠٢٩٠) وابن خزيمة فى صحيحه (٣١٤) عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) مما ورد فى هذا ما أخرجه البيهقى عن الفضل بن عباس عن النبى ﷺ قال : "من حفظ لسانه وسمعه وبصره يوم عرفة غفر له من عرفة إلى عرفة" . شعب الإيمان (٣٤٩٠) .

(٣) الزلف : ساعات الليل ، واحدتها زلفة . وزلف الليل : المغرب والعشاء .

وهكـذا يكون إذهـاب السـيئة وتكفيرهـا ، إما محوهـا مـن الكتـاب ، وإما أنْ تظلّ فى الكتـاب ، ويُذهب الله سبحـانه عقوبتهـا بـالمغفرة .

والتقوى تنتظم كلّ أفعـال الخير والحسـنات التى تُذهب السـيئـات ، لذلك قـال تعـالى : ﴿ وَمَـنْ يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْـهُ سَيِّئَاته .. (٥) ﴾ [الطـلاق] وأنت عندما تتقى الله فى زوجك وأولادك وأهل بيتك وتعـامَلهم بمـا يُرضـى الله سبحـانه وتجنِّبهم الحرج والعَوَز يغفر لك الله ويكفر عنك سيئـاتك .

والتقـوى مخاطـبٌ بهـا الرجـل الزوج أو المطلّـق ، ومخـاطبٌ بهـا الزوجة أو المطلَّقة ، فليتق الله كلٌّ منهمـا فى أحكام الله سـواء الرجعة أو إحصـاء العدَّة من قبَل الزوج أو الزوجة ، وأنْ لا تتلاعب المرأة فى أمر حيضتهـا وحمْلهـا لتتلاعب بـأمر ميراث أو غيره .

لهؤلاء جميعـاً يقول تعـالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاته .. (٥) ﴾ [الطلاق] وليس هذا فقط ﴿ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا .. (٥) ﴾ [الطلاق]

بعد محو السـيئـات ومحو العقـاب عليهـا يـأتى إعظـامُ الأجر والثواب ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ .. (٢٦) ﴾ [يونس]

وتعظيم الأجر قد يكون بمضـاعفة الجزاء علي الحسـنة بعشرة أضـعـاف إلى سـبعمائة ضـعْف . يقول تعـالى : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَـةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَـا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (١٦٠) ﴾ [الأنعام]

فـالأصـل هو الحسـنة ، وهذا هو مطلق الرحمة والفضل ، ولذلك ورد الحديث: « إنَّ ربكم عز وجلّ رحيم ، ومَنْ هَمَّ بحسـنة فلم يعملهـا كُتبت له حسـنة ، فإنْ عملهـا كُتبتْ له عشراً إلى سـبعمـائة ضعف إلى أضعـاف كثيرة ، ومَنْ همَّ بسيئة فلـم يعملهـا كُتبت لـه حسـنة ، فإنْ عملهـا كُتبـت لـه واحـدة أو يمحوهـا الله عز وجل، ولا يهلك على الله إلا هـالك »[1].

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٥١٩) والنسائى فى السنن الكبرى (٧٦٢٣ ، ١١٨٠١) وأبو عوانة فى مستخرجه (١٨٧) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٢٥٩١) وابن منده فى التوحيد (١٩٠) من حديث عبد الله بن عباس رضى الله عنهما .

ولكن لماذا يجعل الله لنا أجراً على فعلنا الخير وعلى تقوانا له ، أليس الأوْلَى أنْ يكون فعل الخير وتقوانا لله بدونِ أجر ؟

لقد وضع الحق سبحانه هذا الأجر لأنه جلَّ وعلا يريد للحسنة أن تُفعل وينتفع الغير بها ، فإنْ كان فاعلها حريصاً على الأجر الزائد فهو يقدمها بنية مخلصة، والناس يختلفون فيما بينهم ، والأكثرون يحبون أنْ يُؤجروا عما يفعلونه ، بل يزداد فعلهم للخير أكثر عندما يزداد الأجر ، هكذا طبيعة البشر .

والقليل هم الذين يفعلون الخير لحبِّهم لفعل الخير ويحبون الله لأنهم يحبونه، ولأنــه أهْــلٌ للطاعة ولأنه أهْلٌ للحــب ، فمَنْ أطاع الله رغبةً فــى النعيم بالجنة يأخذ جنة الله ، ومَنْ أطاع الله لأن ذات الله أهْلٌ لأنْ تُطاع فإن الله يعطيه متعةَ ولذةَ النظر إليه سبحانه .

تقول رابعة العدوية[١] فى هذا المعنى :

كُلُّهُمْ يَعْبُدُون مِنْ خَوْفِ نَارٍ ... وَيَرَوْنَ النَّجَــاةَ حَظــاً جَزِيلاً

إنَّنِــى لسْتُ مِثْلَهــم وَلهــذَا ... لَسْتُ أبْغى بمَنْ أُحِــبُّ بَديــلاً

وقالت أيضاً : اللهم إنْ كنتَ تعلم أنِّى أعبدك خوفاً من نارك فأدخلنى فيها، وإنْ كنــتَ تعلــم أنى أعبــدك طمعاً فى جنتك فاحرمنى منهــا ، إنما أعبدك لأنك تستحقّ أنْ تُعبد .

فحبُّك لله ولطاعتــه ولتقواه هو الــذى يرتقى بك فى مقامــات الإيمان لا حُبك للثواب والأجر ، ورسول الله ﷺ يقول : « ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وجد بهنَّ حلاوة الإيمان: مَنْ كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ، وأنْ يُحبَّ المرء لا يحبه إلا لله ، وأنْ يكره أنْ يعود فى الكفر بعد أنْ أنقذه الله منه كما يكره أنْ يُقذَف فى النار »[٢] .

---

(١) هى رابعة بنت إسماعيل العدوية أم الخير مولاة آل عتيك البصرية ، صالحة مشهورة مولدها بالبصرة، لها أخبار فى العبادة والنسك ولها شعر، توفيت بالقدس عام ١٣٥ هجرية .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٦ ، ٢١ ، ٦٩٤١) وكذا مسلم فى صحيحه (١٧٤ ، ١٧٥) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه ، وكذا أخرجه الترمذى فى سننه (٢٦٢٤) والنسائى فى سننه (٤٩٨٧ ، ٤٩٨٨) .

وفى الحديث القدسى : « أوَلوْ لمْ أخلق جنة وناراً ، أما كنت أهْلاً لأنْ أُعبد »؟ .

فالله تعالى بذاته سبحانه أكبر من أيِّ شيء حتى وإنْ كانت الجنة والأجر من الله ، ففى آخر سورة الكهف يقول تعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠) ﴾ [الكهف]

فلم يقُلْ : مَنْ كان يرجو جزاء ربه أو أجر ربه أو جنة ربه أو نعيم ربه ، إنَّ المؤمن الحق لا ينظر إلى النعيم بل يطمع فى لقاء المنعم سبحانه .

ومن تعظيم الأجر تبديل السيئات حسنات ، قال تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَـٰئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ .. (٧٠) ﴾ [الفرقان]

فالحسنة تعملها تُحسب لك بعشرة أضعاف إلى سبعمائة ضعف ، أما السيئة فتُحسب لك سيئة واحدة ، فكم من الحسنات ستكتب لك ؟ وكم من السيئات ستُكتب عليك ؟ ومع هذا فإن الله سيبدل سيئاتك هذه القليلة إلى حسنات .

وهذا دليلٌ على عظيم فضل الله ، وأنه سبحانه لا يريد أنْ يعذب عباده فهم خَلْقه خلقهم الله بيديه ، يقول تعالى : ﴿ مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (١٤٧) ﴾ [النساء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ (٦) ﴾

لقد رتَّب الحق سبحانه حقوقاً للمرأة المطلَّقة فى السُّكنى والنفقة لم يرتبها دينٌ من الأديان ، ولا تشريع من الشرائع ، رَاعَى فيها الحق سبحانه أحوال المرأة من حيث طلاقها الرجعى أو البات البائن بينونةً صُغْرى أو كبرى .

ورتَّب حقوقاً للمطلَّقة الحامل لأنها أَوْلَى بالرعاية ، هى وابنها الذى من حقِّه رضاعة أمه له وإنفاق أبيه على رضاعته ، وأمر الجميع بالتشاور والتناصح من أجل مصلحة طفلهما رغبةً فى إرضاء الله .

والإسلام يحفظ للمرأة حقوقها تجاه زوجها الذى طلَّقها ، أياً كانت الحالة التى طُلِّقت عليها ، فإنْ كان طلاقها رجعياً احتفظ لها بحق السكنى فى مسكن الزوجية ، وكذلك النفقة عليها عسى أنْ يذيبَ القُرْب ما حدث بينهما من جفاء، فيُرجعها زوجها وتستمر بهما الحياة ويستقر الأمر بينهما ، وينشأ الأولاد بينهما فى جو سليم .

بل إن الله حرَّم على الزوج طرْدَ مطلّقته الرجعية من البيت وإلقاءها فى الشارع ، أو إرجاع الزوجة إلى بيت أهلها ، إلا إنْ جاءت بفاحشة واضحة لا تحتمل اللبس أو الشك أو عدم اليقين .

قال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ .. (١) ﴾ [الطلاق]

ولكن ماذا عن حقِّها وقد بانتْ منه ، سواء بانقضاء عدَّتها أو أنه طلقها طلاقاً بائناً ، حينها لا يحقّ لها الرجوع إليه إلا بعقد جديد ومهر جديد .

وإلى أنْ تعود إليه بعقد جديد وصَداق جديد لها عليه حَقّ السُّكنى ، قال تعالى : ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ .. (٦) ﴾ [الطلاق] فقوله تعالى : ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ .. (٦) ﴾ [الطلاق] يعنى المطلقات اللاتى بِنَّ من أزواجهن فلا رجعة لهم عليهنَّ وليست حاملاً .

ولو كانت السُّكنى مع أزواجهن فى بيوتهن لما قال تعالى : (أسكنوهن) وكلمة ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ .. (٦) ﴾ [الطلاق] فيها معنى السكينة والطمأنينة ، أى أنْ يكون المسكنُ آمناً لها ، فالسكن هو المكان الذى يستريح فيه الإنسان ويرجع إليه دائماً ،ولذلك قال تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ .. (٣٥) ﴾ [البقرة]

فـ (اسكن) فيها عنصران : الهدوء والاطمئنان ، هذا هو معنى اسكن : توفير الهدوء والاطمئنان ، ومنه أخذ اسم السكن وكلمة المسكن ، وإذا فقد المكان الذى تسكن فيه عنصراً من هذين العنصرين ، وهما الهدوء والطمأنينة لا يقال عليه مسكن .

والسكن يحقق الاستقرار ويتيح للإنسان أنْ يأكل براحة وتأنٍّ ، فسكنُك الحقيقى هو الذى تشعر فيه بالهدوء والراحة والخصوصية ، فالسكن يحتاج إلى استقرار ذاتيٍّ لا يشاركك فيه أحد .

وقوله تعالى : ﴿ مِنْ حَيْثُ .. (٦) ﴾ [الطلاق] فـ (من) للتبعيض ، ومعناه : أسكنوهن مكاناً من بعض مساكنكم ، ولذلك قال قتادة : لو لم يكُنْ له إلا بيت واحد أسكنها فى بعض جوانبه[1] .

وذلك كقوله تعالى : ﴿ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ .. (٣٠) ﴾ [النور] أى بعض أبصارهم ، فمن الأبصار ما لا يُغضّ كالقاضى الذى يحكم فى قضية طرفها امرأة لا بدّ له من التحقُّق منها والنظر إليها .

وإذا كانت المرأة المطلَّقة من حقها مسكن مناسب هادىء مريح لها ولأولادها ، فمن باب أوْلى أن يُسكِن الزوجُ زوجته التى معه سكناً كريماً مناسباً ، فحق السُّكنى هو حقٌّ أوجبه الله تعالى .

---

(١) ذكره الطبرى فى تفسيره من قول سعيد بن جبير : فإن لم تجد إلا ناحية بيتك فأسكنها فيه . وذكره ابن كثير فى تفسيره من قول قتادة : إن لم تجد إلا جنب بيتك فأسكنها فيه . وكذا الشوكانى فى فتح القدير (٢٤٦/٧) .

فإذا وجبت السُّكنى للمطلَّقة فللتى فى صلب النكاح أَوْلَى ، قال تعالى : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ .. (١٩) ﴾ [النساء] ومن المعروف أن يُسكنها فى مسكن ، لأنها لا تستغنى عن المسكن للاستتار عن العيون وليكون لها حرية تصرُّف فى مسكنها وحفظ متاعها وحاجياتها .

ويجب أنْ يكون السكن متناسباً مع متطلبات العصر وتتوفر فيه مقومات الحياة الضرورية ، ولكن ليس معنى هذا أنْ تتعنت المرأة فى طلباتها وتُرهق زوجها أو حتى طليقها بطلبات لا يستطيعها .

لذلك قال تعالى : ﴿ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ .. (٦) ﴾ [الطلاق] أى سكناً مناسباً لحالتك المادية يتوافق معك قبل أنْ يتوافق معها، بحيث إنك ترضى أنْ تسكن فيه ولا تعافه ولا تستقذره .

ثم يضيف الحق سبحانه : ﴿ مِنْ وُجْدِكُمْ .. (٦) ﴾ [الطلاق] فالشيء يتناسب مع قدرة صاحبه ، فالرجل الفقير حين يبنى مسكناً يكون المسكن متواضعاً مجرد حوائط تستر الإنسان ، أما صاحبُ الإمكانات الضخمة فيبنى قصراً كبيراً .

فالله أوجب السكن للمطلَّقة على مُطلِّقها ولكن مما يستطيعه ومما يجده لا يُكلِّف أكثر من طاقته ، ولا يقصر عن طاقته الفعلية ، فلا يكون ذا إمكانات مرتفعة ، ثم يُسكن زوجته أو مُطلَّقته سكناً غير مناسب لها ولا لقدرته المادية.

فقوله تعالى : ﴿ مِنْ وُجْدِكُمْ .. (٦) ﴾ [الطلاق] قوْلٌ مُعجز يندرج تحته كلام كثير ، وهو حَلٌ لمشاكل اجتماعية كثيرة تقع بين الرجل والمرأة .

فقوله ﴿ مِنْ وُجْدِكُمْ .. (٦) ﴾ [الطلاق] يعنى : من سعتكم التى تجدون ، والوُجْد : الغنى والمقدرة . إنْ كان موسراً يُوسع عليها فى المسكن والنفقة ، وإنْ كان فقيراً فعلى قدْر الطاقة .

فقدْر وحالة المسكن تكون بالمعروف بين الناس ، فهو البيت الذى يسكنه مثلُه ومثلها بحسب وُجد الزوج وعُسْره ، والوُجْد المقدرة والطاقة على ما يجد، فإنْ كان مُوسَّعاً عليه وسَّع عليها فى المسكن والنفقة ، وإنْ كان مُقتَّراً عليه فعلى قدْر ذلك .

والحق سبحانه يقول في موضع آخر : ﴿ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (٢٣٦) ﴾ [البقرة]

فنفقة المتعة تكون فى حدود تناسب حالة الزوج . والموسّع الغنى عليه أنْ يعطى ما يليق بعطاء الله له ، والمقتر الفقير عليه أنْ يعطى فى حدود طاقته .

فالموسع هو الذى أوسع على نفسه بتوسيع حركة أسبابه فى الحياة ، والإقتار هو الإقلال ، وعلى قدْر السّعة وعلى قدْر الإقتار تكون المتعة ، كذلك السكن والنفقة .

والحق سبحانه لا يُكلّفنا إلا بما نقدر عليه ونطيقه ، يقول تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا .. (٢٨٦) ﴾ [البقرة] ، وكلّ تكاليف الرحمن تدخل فى الوُسْع ، فإنْ كان سبحانه قد كلَّف فاعلم أيها الإنسان أنه سبحانه قد كلّف بما فى وُسْعك وبما يدخل فى طوْعك .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ .. (٦) ﴾ [الطلاق] يعطينا الحق سبحانه هنا لفتةً إلى استخدام كلمة ﴿ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ .. (٦) ﴾ [الطلاق] ولم يقُل تعالى : ولا تضروهن . وكلاهما من مادة واحدة (ض ر ر) ولكن الفرق كبير بين اللفظين .

فـ (تضروهن) تدل على إيقاع الضرر ولكن قد يكون عن غير قصد ، فالزوج قد يفعل فعلاً ونيته حسنة ، فيتسبَّب هذا فى وقوع ضرر بالمرأة .

أما المضارَّة فهى الإضرار عن قصد وعمد ، بل وببذل الجهْد الكبير والمال للإضرار بالمرأة ، وهذه المضارَّة لها صور كثيرة يفعلها ويقع فيها مَنْ لم

يتأدَّبوا بأدب الإسلام ، فتجد رجلاً يضارُّ امرأته لتفتدى نفسها منه بمالها ، أو تخرج من مسكنه الذى اتخذه لها .

وقد تكون للمضارَّة صورةٌ أخرى فقد يُطلِّقها ، فإذا بقى يومان راجعها ، وبذلك يضيع حقُّها فى السُّكنى ، إنه لا يريد أنْ يلتزم بما حدَّه الله من حدود فى علاقته بامرأته فتجده يبذل كلَّ جَهْد ليُضيع حقّ المرأة ، فهو غير مُوقِن باطلاع الله عليه .

فلا تضارُّوهن عند سُكْناهن بقول أو بفعل ، وغرضكم من هذا أنْ يَمْلَلْن فيخرجن من البيوت قبل تمام العدَّة ، لأنكم حينئذ تكونون قد وقعتم فى نَهْى الله عن إخراجهن ، قال تعالى : ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ .. (١)﴾ [الطلاق]

فالحق سبحانه نهى عن إخراجهن ، ونهاهُنَّ عن الخروج وأمر بسُكْناهن ، ولكن على وجه لا يضرُّ بهن ولا يُسبِّب لهنَّ مشقة أو عنتاً .

فقوله ﴿ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ .. (٦) ﴾ [الطلاق] هو خطاب للأزواج بأنْ يلتزموا حدود الله مع مطلقاتهن اللاتى أمسكوا بهن فى بيوتهم ، وألاَّ يستعملوا معهنَّ الكيْد والضرر وصولاً إلى حملهن على ترْك ما لهنَّ من حقوق على أزواجهن .

فحقوق المعتدَّة هى السُّكنى والنفقة ، فأسكنوا المطلَّقات فى مسكن مشابه لما تسكنون فيه بقدْر أحوالكم وسِعتكم ، ولو فى غرفة من غرف البيت الذى تسكنون فيه .

ولا تُلحقوا بهنَّ ضرراً فى النفقة والسُّكنى فتضطروهن إلى الخروج من المسكن أو التنازل عن النفقة ، فلا تؤذوهن ولو بالكلام ﴿ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ .. (٦) ﴾ [الطلاق] كى يخرجن من بيوتهن كرهاً ، بل عاملوهن بالحسنى مدة عدَّتهن ، وتذكَّروا وصية الله فيهن .

فالأمر يحتاج من الجميع مروءةً ومرحمةً وأدباً في التعامل ووقوفاً عند حدود الله وأوامره ، غير عامدين إلى مضارّتهم ، سواء بالتضييق عليهن في فسحة المسكن أو مستواه أو في المعاملة فيه .

فحالات الطلاق دائماً فيها مُشادَّة وغيظ وحنق وكيد وتدبير مكائد ، لذلك يعالج الحق سبحانه هذا بشيء فوق القانون وهو الأخْذ بيد الجميع برفق ورحمة ليأخذوا من ينابيع المودة والمعروف التي فجَّرها في القلوب بلمسات التقوى والأمل في الله وانتظار رضاه وفرجه ويُسْره ومخرجه مما هم فيه .

فالله سبحانه يُرتِّب تعويضاً لمن يتقي الله ، فيقول : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ .. (٣) ﴾ [الطلاق] ويقول : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا .. (٤) ﴾ [الطلاق] ، ويقول : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا .. (٥) ﴾ [الطلاق]

وقد قال رسول الله ﷺ : « مَنْ ضارّ أضرَّ اللهُ به ، ومَنْ شاقّ شاقَّ اللهُ عليه »[1] .

بل إن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ملعونٌ مَنْ ضارَّ مؤمناً أو مكر به » وقال : « ملعونٌ مَنْ ضارَّ مسلماً أو غرَّه »[2] أي : خدعه وغشّه .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ .. (٦) ﴾ [الطلاق]

المطلَّقات قد يكُنَّ حوامل وقد يكُنَّ غير حوامل ، وقد خَصَّ اللهُ هنا ذوات الأحمال بحديث وبكلام يخصهنَّ لعظم الوصاية بهنّ ، فإن الله هو خالق

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٧٩٣) والترمذي في سننه (١٩٤٠) وأبو داود (٣٦٣٧) ، وابن ماجه (٢٣٤٢) وأبو القاسم البغوي في معجم الصحابة (١٩٦٥) ، من حديث أبي صِرْمة واسمه قيس الأنصاري .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (١٩٤١) وقال : حديث غريب . وضعَّفه الألباني وكذا أبو بكر المروزي في مسند أبي بكر (١٠٠) مختصراً ، وقد رواه البزار في مسنده (٤٣) مطولاً بلفظ : "لا يدخل الجنة جسد غُذِّي بحرام ، ولا يدخل الجنة سيء الملكة ، ملعون من ضارّ مسلماً أو غرّه" .

النـاس وعـالمٌ بنفوسـهم ، فهو سـبحانه يعلم أنّ بعض الرجال قد يمتنعون عن النفقة على مطلّقاتهم من الحوامل رغم أنهن حوامل فى أبنائهن .

فـإنّ عدة الحامل هى حتى تضـع حملها ، قال تعـالى : ﴿ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ .. (٤) ﴾ [الطلاق] وهذه المـدة قد تطول فقد يكون قد طلّقها وهى فى الشهر الأول ، وهو مُلزم بالإنفاق عليها طول مدة عدّتها .

لذلـك جـاء قول الحق سـبحانه : ﴿ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ .. (٦) ﴾ [الطلاق] ، فنفقتُها واجبة عليه حتّى تضـع حملها أى حتى تنتهى عِدّتها .

والحـق سـبحانه تحدَّث فـى عموم المطلّقـات البائنات أولاً عنـد الكلام عن السُّكنى ، ولكنه سبحانه أوجب للحامل منهنَّ حقاً آخر وهو النفقة عليهن ، وقد قـال بعض العلمـاء : إن الله سـبحانه لما ذكر السُّكنى أطلقها لكلِّ مطلَّقة ، فلما ذكر النفقة قيَّدهـا بـالحمْل ، فدلَّ على أن المطلقة البائن لا نفقةَ لهـا .

ويدلُّ على هذا حديث رسول الله ﷺ الذى حدَّثتْ به فـاطمة بنت قيس[١] قـالت: أرسل إليَّ زوجى أبو عمرو بن حفص بطلاقى ، وأرسل معه بخمسة آصع[٢] تمر وخمسة آصع شعير ، فقلت : أما لى نفقة إلا هذا ولا أعتدّ فى منزلكم ؟ قـال : لا ، قـالت : فشددتُ عليَّ ثيابى وأتيتُ رسول الله ﷺ ، فقـال : كم طلَّقك ؟ قلتُ : ثلاثـاً. قـال : صـدق ليس لك نفقة . اعتدّى فى بيت ابن عمك ابن أم مكتوم فـإنه ضرير البصر تلقى ثوبك عنده ، فـإذا انقضتْ عِدَّتك فـآذنيني[٣] أى : أعلمينى .

(١) فـاطمة بنت قيس هى أخت الضحـاك بن قيس القريشية الفهرية ، إحدى المهاجرات الأُوَل الجميلات العـاقلات ، وهى التى روت قصة الجساسة بطولها فـانفردت بها مطولة ، فى بيتها اجتمع أهل الشورى لما قتل عمر . قال ابن سعد : أمها أميمة بنت ربيعة من بنى كنانة . (طبقات ابن سعد ٨/ ٢٠٠) . وانظر أسد الغـابة لابن الأثير (٣/ ٤٠٠) .

(٢) آصع : جمع صـاع . والصـاع يساوى أربعة أمداد ، والمدّ ملء كفَّى الرجل وذهبت هيئة كبـار العلماء فى السعودية إلى أن الصـاع يساوى ٢,٦٠٠ كيلو جرام ، على أساس أن المدّ لديهم هو ٦٥٠ جراماً . ومعلوم أن المد يختلف من رجل لآخر .

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه (٣٧٨٦) والترمذى فى سننه (١١٣٥) والنسائى فى سننه (٣٤١٨) وأحمد فى مسنده (٢٧٣٦١) والنسائى فى السنن الكبرى (٥٥٨١) من حديث فاطمة بنت قيس .

فهذه امرأة طُلِّقت طلاقاً بائناً فليس لها سُكنى ولا نفقة ، وإنْ كان الإمام أبو حنيفة قد ذهب إلى أنَّ لها سكنى ونفقة ، لأن منع هذا عنها هو مضارَّة لها ، والمضارَّة نهى الله عنها ﴿ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ .. (٦) ﴾ [الطلاق]

ثم يُحدِّثنا الحق سبحانه عن حق الرضيع بعد وَضْع الحمل وقد انقطعتْ نفقتها فيُرتِّب الحق سبحانه حقاً مالياً آخر فى ذمة الزوج تجاه الرضيع ، فيقول تعالى : ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ .. (٦) ﴾ [الطلاق]

وكأنَّ الحق سبحانه يجعل للمرأة حقاً ولكن من خلال حق الرضيع ، فهى أم ، وعلى كل الأحوال فهى ستُرضع ابنها ، ولكن الله يجعل لها أجراً على إرضاعها ابنها .

والحق سبحانه يُنزل للرضيع لبناً فى صَدر أمه يجده وقت أنْ يجوع ويمتنع وقت أنْ يشبع وينتهى ، ويتوقف عندما تتوقف الرضاعة ، فالله يُنزله للرضيع، ومع ذلك يُوجب الحق سبحانه على مطلّق المرأة أنْ يدفع لها أجراً على إرضاعها لطفله الذى هو طفلها .

وذلك وضْع للرجل أمام مسؤلياته فهو مسئولٌ عن إرضاع ابنه ، ثم إنه مسئولٌ عن نفقة ابنه بعد انتهاء فترة رضاعته التى قد تصل إلى عامين كاملين .

يقول تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ .. (٢٣٣) ﴾ [الطلاق]

فعظمةُ الحق سبحانه أنه يتكلم عن إرضاع الوالدات لأولادهنَّ بعد الطلاق، فالطلاق يُورث الشقاق بين الرجل والمرأة ، والحق سبحانه وتعالى ينظر للمسألة نظرةَ الرحيم العليم بعباده ، فيريد أنْ يحمى الثمرة التى نتجتْ من الزواج قبل أنْ يحدث الشقاق بين الأبوين . فيُبلغنا سبحانه : لا تجعلوا شقاقكم

وخلافكم وطلاقكم مصدر تعاسة للطفل البريء الرضيع .

وهـذا كلامٌ عـن المطلَّقات اللاتى تركْـنَ بيوت أزواجهن ، فهُـنَّ بعيدات عن الرجل ، لأنها لو كانت معه لكان رزقُ الوليد وكسوتُه أمراً مفروغاً منه ،والحق سبحانه هنا يفرض حقاً للرضيع ، وأمه لم تكُنْ تستحقه لولا الرضاع .

وبعضُ الناس فهموا خطأً أن الرزق والكسوة للزوجات عموماً ، ونقول لهم: إن الرزق والكسوة هنا للمطلَّقات اللاتى يُرضعن فقط .

وقد تُرضـع الأم المطلقة ابنها وقد لا تُرضـعه هى ، فإنْ أرضعته هى فعلى مُطلِّقها أبى الولد أنْ يعطيها أجرَ ما أرضعتْ ، هذا طبعاً فى المطلَّقات ، بالاتفاق بينهما ، فـإذا رضـيتْ بأنْ تُرضـعه بأجر مثلها لم يكُـنْ للأب أنْ يسترضـع غيرها.

وعليه أنْ يُوفيها أجر رضاعتها وكلّ ما يلزم من أصناف النفقة ، وهى أحقُّ بولدها من غيرها ، فشفقة الأم على ابنها أتمّ من شفقة غيرها عليه .

فإذا وضـعنَ حملهن وهُنَّ طوالق فقد بِنَّ بانقضـاء عِدَّتهن ، ولها حينئذ أنْ تُرضـع الولد ، ولها أنْ تمتنع منه ولكن بعد أنْ تُغذيه باللبأ وهو باكورة اللبن الذى لا قوامَ للولد غالباً إلا به ، وهو ما يسميه العامة (لبن السرسـوب) ، فإنْ أرضـعتْ اسـتحقتْ أجر مثلها ، ولها أنْ تُعاقد أباه أو وليّه على ما يتفقان عليه من أجرة .

وقـد نصَّ الحق سـبحانه هنا ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ .. (٦) ﴾ [الطلاق] نصّ على أن أجر الرضـاع وما يلحق به من الكسـوة والرزق إنما هو على الرجل المطلق ، لأن الرضـاعة كانت حقـاً على المرأة دون طلب أجر وهى فى عصمة زوجها ، فلما بانتْ منه بوضْعها لحملها أراد الحق سبحانه أنْ يُنبه الرجل على مسئولية المطلِّق عن رضاع ولده .

ثـم يقـول تعـالى : ﴿ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ .. (٦) ﴾ [الطـلاق] هنـا دعوة

للرجل والمرأة للتشاور فى أمر رضاعة الرضيع والتفاهم فيما بينهما فيما يتعلق بشئون أبنائهما ، وفيما هو أنفع لهم .

والحق سبحانه يحثُّهما على أن يكون تشاورهما وتفاهمهما بمعروف، بالحسنى وبرحابة الصدر والعقل . دون مماكسة وتهرُّب من جانب الزوج ، ودون معاسرة وإحراج للآباء من جانب المطلَّقة .

فلتتشاورا ولتأتمرا فيما بينكما بأمر ينتهى باتفاق على أجرة معقولة، لا إفراطَ فيها ولا تفريط ، من غير إضرار ولا مضارة ، كما قال تعالى : ﴿ لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِه .. (٢٣٣) ﴾ [البقرة]

فقوله تعالى : ﴿ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوف .. (٦) ﴾ [الطلاق] هو خطاب للرجال والنساء ، أى يأمر كل واحد منكم صاحبه بخير من المسامحة والرفق والإحسان.

فتُؤمر أنت بالإحسان إليها ، وتؤمر هى بالطاعة لك ، فليقبل بعضكم من بعض ما أمره به من المعروف الجميل من كلٍّ منهما ، فالجميل منها إرضاع الولد من غير أجرة ، والجميل منه توفير الأجرة عليها للإرضاع ، فالمهم هو مصلحة الولد وألاَّ يلحق به ضرر .

وليأمر كلّ واحد صاحبه بخيرٍ ، ولا شكّ أن مَنْ أمر بخير فهو أسرع إلى فعل ذلك الخير ، ليقبل كلّ واحد ما أُمِر به من المعروف والقبول والامتثال بما ائتمروا عليه بمعروف .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٧) ﴾ [البقرة] فالعدل وحده قد يكون شاقاً ، وقد يُبقى البغضاء فى النفوس ، أما عملية الفضل فتُنهى المشاحّة والمخاصمة والبغضاء .

والمخاصمة إنما تأتى عندما أظن أنِّى صاحب الحق وأنت تظن أنك صاحب الحق ، ومن الجائز أنْ تأتى ظروف تُزيِّن لى فَهْمى ، وتأتى لك ظروف تُزيِّن لك

فهمك ، فحين نتمسَّك بقضية العدل لن نصل إلى مبلغ التراضى فى النفوس البشرية ،ولكن إذا جئنا للفضل تراضيْنا وانتهينا .

فالفضل أنْ تتنازلَ عن حقك ، وهو يتنازل عن حقه وتنتهى المسألة ، والحق سبحانه حين يُشرِّع الحقوق يضع الضمانات ، ولكنه لا يمنع الفضل بين الناس.

ولكن المشكلة هى أنه فى حالات كثيرة يكون العذر والمكابرة والمخاصمة والمشاحنة هو الأكثر بين الناس إلا مَنْ رحم ربِّى ، ووارد أنْ يحدث عدم اتفاق على أجر الإرضاع والنفقة ، إما من قِبَل الزوج الذى لا يريد أنْ يدفع ، أو يدفع ولكن يدفع أجراً زهيداً لا يقوم بالطفل ولا بأمه .

أو يأتى من قِبَل المطلَّقة بالشطط فى الحدِّ الذى تريده أجرةً على الرضاع ، بأنْ تطلب ما لا يستطيعه الزوج ويُسبِّب عُسْراً له ، وأحياناً يكون رفْض الزوج للدفع هو هذا الشطط .

فمعنى ﴿ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ .. (٦) ﴾ [الطلاق] أى إذا تضايقتم وتشاكستم ، والتعاسر مأخوذ من العُسْر الذى هو ضد اليُسْر والسماحة .

فماذا يكون الحل أمام الأب إزاء تعنُّت المرأة فى طلباتها ، حينها من حقِّه أنْ يبحث عن مرضعة أخرى تُرضع له ولده .

ومن إعجاز القرآن قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى (٦) ﴾ [الطلاق] ، وكأن الحق سبحانه يلفت نظر المرأة أنَّ الأمر ليس وقفاً عليه ، فإنْ كنت لن تُرضعيه بالمعروف والإحسان ﴿ فَسَتُرْضِعُ لَهُ .. (٦) ﴾ [الطلاق] أى للأب ﴿ أُخْرَى (٦) ﴾ [الطلاق] أى امرأة أخرى .

فـ (الفاء) هنا تنبيه للمرأة أن هناك حلاً آخر بعيداً عنها ،وسيُنزع منها الطفل لتُرضعه أخرى وتضمّه لصدرها وتُحرم هى من نظرة طفلها لها وهى تُرضعه .

والمرأة هنا هى الأَوْلَى بالمعاتبة لأن المطلوب منها هو اللين فقط مع الرجل وعدم إعساره وإعجازه ، فهو دافِعٌ للمال فلا داعيَ للتعنُّت معه كَثُر أم قَلّ، فلتلينى راضيةً وإلا ﴿ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى (٦) ﴾ [الطلاق]

وأيضاً فالمطلوب منها هو لبنها لولدها ، وهذا لن تدفع فيه شيئاً ، فالله يُنزله فى ثدييها دون إرادة منها إلا ما كان من الاهتمام بأمر غذائها ليجرى فيها لبنٌ يكفى طفلها ويقوم بها .

ولكن قد يُقال : ماذا لو لم يقبل الطفلُ ثدى امرأة أخرى ، حينها تُجبر أمه على إرضاعه بأجرة مثلها حتى لا يتضرَّر الولد .

وللاسترضاع آدابه التى حدَّثنا الحق سبحانه عنه ، فقال : ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ .. (٢٣٣) ﴾ [البقرة]

فإنْ أردتم أنْ تأتوا للطفل بمرضعة فلا لوْمَ عليكم فى ذلك ، وهذه المرضعة التى تُرضع الوليد تحتاج إلى أنْ يُعطيها الأب ما يسخيها ويجعلها تُقبل على إرضاع الولد بأمانة والإشراف عليه بصدق .

وعلى الرجل ألاَّ يُدلِّس على المجتمع ويتظاهر بتنفيذ أحكام الله فى الاسترضاع، فيقول تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣) ﴾ [الطلاق]

فتجد الأب عندما يرى مرضعةَ ابنه أمام الناس فهو يدَّعى أنه ينفق عليها ويُعطيها أجرها كاملاً ويقابلها بالحفاوة والتكريم ، بينما الواقع مخالفٌ لذلك، فأنت لا تعامل المجتمع وإنما تعامل الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧ ﴾

على الإنسـان أنْ يُحسـن الحركة فى الأرض ويعمل عملاً يكفيه ويكفى مَنْ يعول ، ثم يفيض لديه ما يُحسن به .

والفـارق بـين المؤمن والكافر فى حركة الحياة أن الكافر يعمل فى أسـباب الحياة لينتج ما يقُوته ويقُوت مَنْ يعول فقط ، أما المؤمن فإنه يزيد عليه أنَّ ما يفيض عنه يتوجه به إلى غير القادر على العمل مُحتسباً ذلك عند الله .

فلم يُغر اللهُ الإنسان أنْ يتحرَّك لنفسه فقط ، ولكن أغراه أنْ يتحرك فى الحياة حركةً تسعه وتسع مَنْ يعول ، فحركتُك ستنفع كلَّ الدوائر حولك .

هذه الدوائر هى المذكورة هنا فى حديث رسـول الله : نفسـك ، ولدك ، أهلك ، زوجتك ، خادمتك .

وما دام الحق قد وضـع لنا الأسـباب لاستبقاء الحياة ، ووضـع لنا أسلوبَ السعى فى الأرض لتستبقى الحياة بالحركة فيها ، فقد وضـع أيضـاً الوسيلة الكريمة لاستبقاء النوع ، وجعل من حركة الأصل ما يعود على الفرعِ .

وقـد أوجد الحق سبحانه فـى نفس كل واحد غريزةَ الحب والحنان ، ونحن نـرى هـذه الغريزة كآية من آيـات الله مُتمكِّنة فى نفوس الآباء ، ولهذا يسـعى الأب فى الحياة ليستفيد هو وأولاده .

والـذى يتحرك حركةً واسـعة فـى الحياة قد يأتـى عليه زمـان يكفيه عائد حركتـه بقيـة عمره لأنه تحرَّك بهمة وإخلاص ، وأفـاء الله عليه الرزق الوفير ، وقد يتحرك رجلٌ لمدة عشرين عاماً أو يزيد ، ويضمن لنفسه ولأولاده من بعده الثروة الوفيرة .

وهنـاك مَنْ يكدّ ويتعب فى الحياة ويكسب رزقاً يكفيه ويكفى الأبناء والأحفاد ، وهكذا نجد الذين يتحركون لا يسـتفيدون وحدهم فقط ، ولكن المجتمع يستفيد أيضـاً .

والحـق سـبحانه يكلِّف كلَّ مؤمـن أنْ يأخذ مسـئولية الإنفاق علـى الدائرة

القريبة منه ، ليتحمل كلّ موجود فى الحياة مسئولية قطاع من المجتمع مربوط به رباطاً نسبياً كالوالدين والأقربين .

بل إنه سبحانه أمرنا أنْ نجعل الضعفاء من الأيتام مشاعاً على المجتمع مطلوبين من الجميع ، سواء كانت تربطهم بنا قرابةٌ أو لا تربطنا بهم قرابة ، فهم جميعاً أقاربنا لأن الله كلّفنا بأنْ نرعاهم .

واعلم أن هذا رزقهم هم ساقه الله إليهم عن طريقك ، فقد تربح مالاً وفيراً ولكنك لا تنفقه ولا تستفيد منه فلا يكون هذا رزقك ولكنه رزق غيرك وأنت تظل حارساً عليه ، لا تنفق منه قرشاً واحداً حتى تُوصّله إلى صاحبه .

ولو امتنَّ عليك خادمك بالخدمة فتقول له : بل خدمتَ نفسك وخدمتَ عيالك حينما خدمت لتوفر لك ولهم أسباب العيش ، وأنا الذى تعبتُ وعرقتُ لأوفّر لك المال الذى تأخذه لتنفقه وتُوصّله لعيالك .

فكلٌّ يخدم عياله ويسعى ويكدّ ليجنى مالاً ينفقه على عياله ، والرزق من الله عز وجل، والحق سبحانه يقول : ﴿ اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ .. (٢٦) ﴾ [الرعد] أى : أنه سبحانه يمدّ الرزق ﴿ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ .. (٢٦) ﴾ [الرعد] من القدْر .

أى فى حالة إقداره على المقدور عليه ، وهو مَنْ يعطيه سبحانه على قدر احتياجه ، لأن القَدْر هو قطع شيء على مساحة شيء ، كأنْ يعطى الفقير ويبسط له الرزق على قدر احتياجه .

أو يقدر بمعنى يضيق على إطلاقها ، ويقول سبحانه : ﴿ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ .. (٧) ﴾ [الطلاق] ولأن الله آتاه فهذا يعنى أنه بسط له بقدره . والبسْط يكون بقدر أيضاً ، ومعنى ﴿ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ .. (٧) ﴾ [الطلاق] أى : يضيق عليه .

واللام فى قوله تعالى : (لينفق) هى لام الأمر وقد جاءتْ مكسورةً لأنها فى أول الجملة ، ولايُبتدأ فى اللغة بساكن فحركت بالكسر للتخلّص من السكون. ثم يقول سبحانه : ﴿ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ .. (٧) ﴾ [الطلاق]

فجاءت لام الأمر ساكنة ، لأنها واقعة في وسط الكلام .

والحق سبحانه يأمر بالإنفاق ، فالإنفاق فيه حركة للمجتمع وفيه تكافلٌ، أما عدم الإنفاق والتقتير فإنه يُوقف حركة المجتمع ، وما دام الحق سبحانه يأمر بالإنفاق فلا بدّ أنْ نعرف ما هو الشيء الذى سننفقه ، ومَن الذى يستحق أنْ ينفق عليه .

وقد روى أبو هريرة رضى الله عنه أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله عندى دينار . قال : أنفقه على نفسك . قال : عندى آخر . قال : أنفقه على ولدك . قال : عندى آخر . قال : أنفقه على أهلك ، قال : عندى آخر . قال : أنفقه على خادمك . قال : عندى آخر . قال : أنت أعلم[(١)] .

وقد كان أبو هريرة رضى الله عنه إذا حدَّث بهذا الحديث يقول : يقول ولدك: أنفق عليَّ إلى مَنْ تكلني . تقول زوجتك : أنفق عليَّ أو طلِّقنى ، يقول خادمك : إلى مَنْ تكلنى أنفق عليَّ أو بعْني[(٢)] .

والحق سبحانه يقول : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢١٥) ﴾ [البقرة]

فالإنفاق يكون من الخير الذى آتانا الله إياه وهو الشيء الحسن النافع ، والمنفق عليه هو دوائر الذى ينفق ، لأن الله يريد أنْ يحمل المؤمن دوائره الخاصة، حتى تلتحم الدوائر مع بعضها فيكون قد حمل المجتمع على كل المجتمع .

فالحق سبحانه حين يُحمِّلنى مهمة الإنفاق على أسرتى ووالديَّ والأقربين فهذه صيانة للأهل ، وكلٌ واحد منّا له والدان وأقربون ودائرتى أنا تشمل والدى

---

(١) أخرجه ابن حبان فى صحيحه (٣٣٣٧) ، وأحمد فى مسنده (٢/٢٥١ ، ٤٧١) ، وأبو داود فى سننه (١٦٩١) والنسائى فى سننه (٥/٦٢) والحاكم فى مستدركه (١/٤١٥) والبيهقى فى سننه (٧/٤٦٦) . عن أبى هريرة رضى الله عنه . وفى بعض روايات الحديث : أنت أبصر .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٧٤٢٣) من حديث أبى هريرة ، وقالوا : يا أبا هريرة هذا شيء قاله رسول الله أم هذا من كيسك ؟ قال : بل هذا من كيسى . (أى من عقلى) .

وأقاربى وهكذا ، ثم تشيع مهمة الإنفاق فى أمر آخر فى اليتامى والمساكين .

ولو حسبنا دوائر كل واحد من الوالدين والأقربين وما يكون حوله من اليتامى والمساكين فسنجد الدوائر المتماسكة قد شملت كل المحتاجين ويكون المجتمع قد حمل بعضه بعضاً ، ولا يوجد بعد ذلك إلا العاجز عن العمل .

والإنفاق هو الإخراج ، أى إخراج المال عن ملكية الإنسان ببيع أو هبة أو صلة ، فإنْ أردتَ أنْ تفتح لنفسك باب البر مع الله ، فوسع دائرة الإنفاق وستجد أن البر قد أخذ حيزاً كبيراً من الإنفاق ، لأن المنفق مُستخلف عن الله .

فالله هو الذى استدعى الإنسان إلى الوجود ، وما دام هو المستدعى إلى الوجود فهو سبحانه مكلّف بإطعامه ، وأنت إذا أنفقتَ على مَنْ كلّفك الله بالإنفاق عليه فإنك تتودد إلى الله بمساعدة المحتاجين من خلقه دون أنْ يلزمك به الله .

إنَّ عليك أنْ تتحرك فى الحياة حركةً تسعك وتسع أنْ تنفق على مَنْ تعول، وإلا لو تحركتَ حركة على قدرك فقد لا تجد ما تنفقه ، فعلى كلِّ مؤمن أنْ يأخذ مسئولية الإنفاق على الدائرة القريبة منه ، ليتحمل كلُّ موجود فى الحياة مسئولية قطاع من المجتمع مربوط به رباطاً نسبياً كالوالدين والأقربين .

والرجل مُطالب بالكدح والسَّعى من أجل الإنفاق ، والإنفاق يجب أنْ يكون من الكسب الطيب الحلال ، فلا تأتِ بمال من مصدر غير حلال لتنفق منه .

والمنفق إما ذو سعة قد وسَّع الله عليه وبسطَ له الرزق ، وإما رجل قد قُدر عليه زرقه فله قدرٌ محدَّد من الرزق .

ومناسبة الآية هنا الكلام عن الإنفاق على قدر السعة جاء باعتبار الآية السابقة قوله تعالى : ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ .. (٦) ﴾ [الطلاق] أى : مما تجدونه دون إرهاقكم بشىء فوق طاقتكم . ثم قوله تعالى : ﴿ وَإِن كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ .. (٦) ﴾ [الطلاق]

يريد الحق سبحانه أنْ لا تشتط المرأة فى طلبات النفقة عليها وإلزامه بما

لا يستطيعه ، ويكون فوق طاقته واحتماله ورزقه الذى رزقه الله به وبما آتاه إياه .

فيُبيِّن الحق سبحانه أنَّ أمره للرجل بالإنفاق مرتبط بقدر سعة ماله وغناه ورزقه ، فينبغى أنْ تكون النفقةُ فى حدود تناسب حالة الزوج ، فالموسع الغنى عليه أنْ يعطى ما يليق بعطاء الله له ، والمقتر الفقير عليه أنْ يعطى ما يليق بعطاء الله له ، والمقتر الفقير عليه أن يعطى فى حدود طاقته .

يقول تعالى : ﴿ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ .. (٢٣٦) ﴾ [البقرة] و (الموسع) مشتق من « أوسع » واسم الفاعل (موسع) ، واسم المفعول (موسَع له) .

فإنْ نظرتَ إلى أنَّ الرزق من الحق فهو (موسَع له) ، وإنْ نظرتَ إلى أن الحقَّ يطلب منه أنْ توسع حركة حياتك ليأتيك رزقك ، وعلى قدر توسيعها يكون اتساع الله لك فهو موسع .

فـ (الموسع) هو الذى أوسع على نفسه بتوسيع حركة أسبابه فى الحياة . والإقتار هو الإقلال ، وعلى قدر السعة وعلى قدر الإقتار يكون الإنفاق .

والله سبحانه هو الواسع العليم ، مُلْكه واسع ورزقه واسع ، ولا تظنوا أنَّ كوْنَ الله سيضيق عن رزق الرجل المفارق لزوجته ، أو المرأة المفارقة لزوجها من عطاء الله لهما .

فما دام سبحانه قد قرر الفراق كحلٍّ لعدم توافق فى حياتهما معاً ، فهو سبحانه سيعطى عن سعة للزوج وعن سعة للزوجة ، فلينفق الرجل من سعته على مُطلَّقته وعلى رضيعه ، ولتتأكد الزوجة أن الله سيُوسع لها فى الرزق إنِ اتقتْ الله عز وجل ولم تتعنت فى طلباتها المالية وطلبات رضيعها .

يقول تعالى : ﴿ اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ .. (٢٦) ﴾ [الرعد] والبسط هو مدّ الشيء ، فالحق سبحانه يمد الرزق لمن يشاء ويقدر .

ويقول سبحانه أيضاً : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٣٠) ﴾ [الإسراء]

فالله الذى لا تنفد خزائنه يعطى خلْقه بقدر ، فلا يبسط لهم الرزق كلّ البسط ولا يقبضه عنهم كلّ القبض ، بل يبسط على قوم ويقبض على آخرين لتسير حركة الحياة لأنه سبحانه لو بسط الرزق ووسَّعه على جميع الناس لاستغنى الناسُ عن الناس ، وحدثتْ بينهم مقاطعة تفسد عليهم حياتهم .

ووراء ذلك حكمة بالغة لله تعالى ، وعلى العبد أنْ يرضى بما قسم له فى الحالتين ، وأنْ يسير فى حركة حياته سيراً يناسب ما قدّره الله له من الرزق .

﴿ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ .. (٧) ﴾ [الطلاق] أى : مَنْ ضيق عليه الرزق فلينفقْ على قدره ولا يتطلع إلى ما هو فوق قدرته وإمكانياته ، وهذه نظرية اقتصادية تضمن للإنسان الراحة فى الدنيا وتوفِّر له سلامة العيش .

ومَنْ يتأمل قوله تعالى : ﴿ لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ .. (٧) ﴾ [الطلاق] يجد أن الحق سبحانه نسب السعة إلى الإنسان الموسَّع عليه الغنى المتيسّر الحال ، أما مَنْ قُدر عليه رزقه ، فقال تعالى : ﴿ مِمَّا آتَاهُ اللهُ .. (٧) ﴾ [الطلاق]

فنسب ما عند الفقير إلى أن هذا هو ما آتاه الله إياه ، وكأنَّ الحق سبحانه فى الأولى يجعل السعة من سعى الإنسان مع أنَّ ما كسبه نتيجة سعيه هو أيضاً مما آتاه الله .

فالله كما قلنا يبسط الرزق لمَنْ يشاء ، أما قوله تعالى فى حالة التقدير ﴿ مِمَّا آتَاهُ اللهُ .. (٧) ﴾ [الطلاق] فهى لفتةٌ للمرأة أنه إذا كان مُطلّقها غير قادر ، وليس عنده ما يُلبِّى طلباتها فهذا ليس ذنبه ، إنما هذا ما قدَّره الله له من رزق .

ولذلك قال تعالى : ﴿ وَمَنْ قُدِرَ .. (٧) ﴾ [الطلاق] ببناء الفعل للمجهول دلالةً على أنَّ أمر الرزق وتوسيعه أو تقريره ليس بيد الإنسان ، إنما هو محْضُ عطاء من الله ، فهذا الذى قدر عليه رزقه إنما قدّره الله وحدَّد له رزقاً محدداً .

والإنسـان إنمـا يُنفق مما آتاه الله ويرزقه إياه، بقـدر غناه وثرائه أو فقره، فعلى الوالد أنْ ينفق على الأم المرضع التى طلَّقها بقدر سعته وغناه.

ومَـنْ كان رزقـه بمقدار القوت فحسـب فلينفقْ على مقـدار ذلك لا يُكلف الله أحداً من النفقة على مَنْ تلزمه نفقتهم إلا بمقدار ما آتاه الله من الرزق.

وهذا بحسب إعسـاره أو يسـاره، وغناه أو فقره، فالله لا يُكلِّف نفساً إلا ما أعطاها من قدرة أو غِنى، وعند الاختلاف يُقدِّر القاضى النفقة وتكون بحسب دخْل الرجل وما يملك من مال.

وهـذا فيه مراعـاةٌ لحال المعسر إنْ كان صـادقاً، وترغيب لـه فى أنْ يبذل مجهوده للإنفاق.

والإنسان إنما ينفق بحسب سعته، وقد سأل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عن أبى عبيدة أى عن حاله، فقيل: إنه يلبس الغليظ من الثياب ويأكل أخشن الطعام فبعث إليه بألف دينار.

وقال للرسـول: انظر ما يصـنع بها إذا هو أخذهـا، فما لبث أنْ لبس الليِّن من الثياب وأكل طيِّب الطعام فجاءه الرسـول فأخبره فقال: رحمه الله تأوّل هـذه الآيـة ﴿ لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُـدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ .. (٧) ﴾ [الطلاق][1]

وعـن أبى مـالك الأشـعرى قـال قـال رسـول الله ﷺ: ثلاثـة نفر كان لأحدهم عشرة دنـانير فتصدَّق منهـا بدينـار، وكان لآخر عشر أواق فتصدَّق منها بأوقية، وكان لآخر مائة أوقية فتصدّق منها بعشر أواق[2].

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور وعزاه لابن جرير الطبرى عن أبى سنان (الطلاق ٧) وأخرجه الطبرى فى تفسيره (٣٤٦٦٦)، وهو فى جامع الأحاديث (٣٠١٢١) وكنز العمال (٤٦٥٧) وعزاه لابن جرير الطبرى.

(٢) أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (٣٣٦١)، وكذا فى معجم الشاميين (١٦٦٢) وضعَّفه الألبانى فى السلسلة الضعيفة (٣٤٤٩) من حديث أبى مالك الأشعرى، وكذلك ضعفه فى ضعيف الجامع (حديث رقم ٢٥٨٨).

فقال رسول الله : هم فى الأجر سواء ، كُلٌّ قد تصدَّق بعشر ماله ، قال تعالى: ﴿ لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَته .. (٧) ﴾ [الطلاق] ، فلا يكلِّف الفقير مثلما يكلِّف الغنى ، لذلك قال تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا .. (٧) ﴾ [الطلاق]

فمَنْ وسَّع اللهُ عليه الرزق فلينفق عن سعة فى السكن والنفقة وأجر الرضاع، ومن كان رزقه ضيقاً فلا حرج عليه فلينفق بقدر ما يستطيع .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا .. (٢٨٦) ﴾ [البقرة] والوسع هو الطاقة والقوة والقدرة ، فعلى قدْر طاقتك وقدرتك يُكلفك ربك .

وهو سبحانه لا يكلفُ إلا بما فى وُسْعك ، بدليل أن المشرع سبحانه يعطى الرخصة عندما يكون التكليفُ ليس فى الوسع ، وهنا سبحانه يأمر بالإنفاق فقال (لينفق) ثم يعطى الرخصة فى نفس الآية ، فيقول تعالى : ﴿ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَته .. (٧) ﴾ [الطلاق]

فالتكليف مرتبط بالوسع والطاقة ، أما مَنْ لا يقدر ولا يستطيع فيفتح اللهُ له باباً فسيحاً يُهدِّىء النفوس ويحدُّ من الخلافات والمشاحنات ، فيضع الحقُّ سبحانه مبدأ :

﴿ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا .. (٧) ﴾ [الطلاق] فلا تظنُّوا أنّ الله حين يكلف الإنسان يُكلِّفه شططاً ، ولكن الإنسان هو الذى يضع نفسه فى موضع الشطط .

فلا تفترض وتُقدِّر أنت تكاليف المعيشة ، ثم تحاول إخضاع إرادتك إلى هذا التصوّر ، بل انظر إلى الوارد إليك وعِشْ في حيز وإطار هذا الوارد ، ولا تختلس ولا ترتشِ . ثم تقول : هذا ما آتانى الله .

فإنْ كان دخلُك مائة جنيه فرتِّب حياتك على أنْ يكون مصروفك يساوى دخلك لأن الله لا يكلفك إلا ما آتاك ، ولننظر إلى ما آتانا الله ، لذلك لا تدخل فى حساب الرزق إلا ما شرع الله ، فلا تسرق ولا تنهب .

عليك ألاّ تأخذَ ولا تنتفع إلا بما أحلَّ الله لك ، فإنْ عشْتَ فى نطاق ما أحلَّ الله يُعنك الله على كلِّ أمرك وكلِّ حاجاتك ، لأنك تحيا بمنهج الله ، فيصرف عنك الحقُّ مهمات الحياة التى تتطلب أنْ تزيدَ على ما آتاك الله ، فلا تخطر على بالك أو على بال أولادك .

فأنت إذا دخلتَ السوق وآتاك اللهُ قدراً محدوداً من المال ، وترى الكثير من الخيرات لكن الحقَّ سبحانه يجعلك لا تنظر إلا فى حدود ما فى طاقتك ، وكذلك يحسِّن لك الله ما فى طاقتك ويُبعد عنك ما فوق طاقتك ، لأنَ الله لا يُكلِّف نفساً إلا ما آتاها ، ولا يُحرِّك شهوات النفس إلا فى حدود ذلك .

والحق سبحانه يُطمئن الجميع ، فيقول تعالى واعداً : ﴿ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (٧) ﴾ [الطلاق] فمن قتر عليه رزقه سيُيسِّر الله حاله ويُزيل حالة عُسْره، ويُبدِّله بدلاً منها يُسراً .

وقد كان عبد الله بن مسعود رضى الله عنه يقول : ما أبالى على أيِّ حال رجعتُ إلى أهلى ، لئن كانوا على عُسْر إنِّى لأنتظر اليسر ، وإنْ كانوا على يُسْر إنِّى لأنتظر العسر[1] .

فمن بعد الشدة يأتى الرخاء ، ومن بعد الضيق تأتى السعة ، ومن بعد الفقر يأتى الغنى .

فهذا وعدٌ للمعسر أنْ ينتظر الرزق من الله ويتأكد أنْ اليُسْر آتٍ إليه ، يفرج به كرْبه ويُوسِّع عليه معيشته ، وما دام الله سيجعل بعد عُسْر يُسْراً ، فإنْ جاءك اليُسْر فلا تضنّ به ولا تبخل .

فهذه بشارة للمعسرين ، فالله تعالى سيزيل عنهم الشدة ويرفع عنهم المشقة، فهم وإنْ كانوا فى حالٍ ضيقة فإنه سبحانه سيفتح عليهم وسيوسرهم .

والله سبحانه هنا يجعل اليسر بعد العسر ، فالذى لا يتأبَّى ولا يتمرد على

---

(١) أورده الغزالى فى إحياء علوم الدين (٣/٣١٩) ، قال ابن مسعود : ما أصبحت على حال فتمنيت أن أكون على غيرها . وقال عمر : ما أبالى أصبحت على عسر أو يسر لأنى لا أدرى أيهما خير لى .

قدر الله فى رزقه وفى عمله فإن الله يجعل له بعد العُسْر يُسراً .

وفى آية أخرى يجعل الله اليُسْر مع العسر لا بعده ، فقال تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦) ﴾ [الشرح]

وقد خرج رسول الله ﷺ يوماً مسروراً فرحاً وهو يضحك وهو يقول : « لن يغلب عُسْرٌ يُسْرَيْن »[1] .

والله إنما يريد بنا اليسر ولا يريد بنا العسر ، فلماذا تُعسِّرون على أنفسكم فكأنكم لو خالفتم ما أمر الله به توقعون أنفسكم فى العُسْر والعنت والمشقة حينها ستكونون أنتم المعسِّرين على أنفسكم .

ولا تنسوا أنَّ الله هو سبحانه الذى سيجعل بعد العُسْر يُسْراً ، فكثير من الناس يُنسيهم اليُسْر أن الله أنعم عليهم ويظنون أن النعمة قد جاءتْ عن علم منهم ، وبعض الناس تلهيهم النعمة عن أنْ يُحسُّوا بآلام الغير ويشغلوا بآلام أنفسهم ، لكن المؤمنين لا ينسون ربهم أبداً .

وإذا كان الله سيجعل بعد عُسْر يُسراً فإنَّ من الجاهلين مَنْ يأتيهم اليُسْر فيريدونه عسْراً ويأتيهم السهل فيريدونه صعباً ، يأتيهم الفرج والمخرج من الله فيرفضون فرج الله ويُسْره .

والله لا يُيسِّر إلا لمَنْ علم من قلبه إخلاصه وتجرّده والتزامه بأوامر الله سبحانه ، كهذا الذى يقترض من الناس مالاً وفى نيته أداؤه ، فإنَّ الله يُيسِّر له سبيل الأداء .

أما مَنْ أخذ أموال الناس يريد إتلافها فالله لا يُيسِّر له أنْ يُسدد[2] .

---

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٣٩٥٠) عن الحسن البصرى مرسلاً . ولكن قد أخرج الإمام مالك فى موطئه (٩٦١) من قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : أما بعد فإنه مهما ينزل بعبد مؤمن من منزل شدة يجعل الله بعده فرجاً وإنه لن يغلب عسر يسرين .

(٢) أخرج البخارى فى صحيحه (٢٣٨٧) من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : «من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ، ومن أخذ يريد إتلافها أتلفه الله » ، وكذا ابن ماجة فى سننه (٢٤١١)، وأحمد فى مسنده (٨٧١٨) والبزار فى مسنده (٨١٥٨) والبيهقى فى سننه الكبرى (١١٢٧٤) .

وإذا كان الحق سبحانه استخدم (السين) التى للمستقبل فى قوله : ﴿ سَيَجْعَلُ اللهُ .. (٧) ﴾ [الطلاق] فهذا معناه لا تستبطئوا يُسْر الله فكونوا على يقين أنه آتٍ، وأن الله يَفى بوعده لكم .

ولاحظ أن الحق سبحانه لم يقُلْ : سوف يجعل ، فإنَّ (سوف) فيها امتداد لتحقُّق الأمر فى المستقبل ، أما (السين) فإنها تدلّ على قرْب حدوث اليُسْر إن اتقيتُم الله وصبرتم .

ثم يُحدِّثنا الحق سبحانه عن عاقبة العتو عن أمر الله والخروج عنه ، فيقول:

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ ﴾

قوله تعالى (وكأين) هى للتكثير مثل (كم) ، فعندما يقول لك إنسان مثلاً: لماذا تُجافينى ؟ فتقول له : كم زُرْتك ؟ وهو لا يقصد به الاستفهام أو أنْ يذكر لك عدد زياراتك له ، إنما المقصود هو اعترافه بكثرة زياراتك له . وأنت لا تقول له : كم زُرْتك . إلا وأنت واثقٌ أنه إذا أراد أنْ يجيبَ فسيقول : زُرْتنى كثيراً .

فعندما تقول له : كم زُرْتك ؟ كم تفضلت عليك ؟ كم واسيْتك ؟ كم أكرمتك؟ فإن (كم) تأتى للتكثير وتأتى مثلها (كأيِّن) فهى للتكثير أيضاً ، فعندما تقول مثلاً على قول بعض العامة « ياما حصل كذا » فـ « ياما » هذه معناها (كأيِّن) .

ومثل هذه الآية قوله فى آية أخرى ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ[1] كَثِيرٌ .. (١٤٦) ﴾ [آل عمران] فمعناها أنبياء كثيرون قاتل معهم مؤمنون برسالتهم كما حدث وحصل مع رسول الله .

---

(١) الربيون : الجموع الكثيرة . وقال الحسن : ربيون كثير : علماء كثير . وقال أيضاً : أبرار أتقياء صبر. قال ابن الجوزى فى زاد المسير (١/٤٢٦) : فى معنى الربيين خمسة أقوال : الألوف – الجماعات الكثيرة – الفقهاء والعلماء – الأتباع – المتألهون العارفون بالله .

ويقول تعالى أيضاً : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف]

فإذا سمعت (كأين) فافهم أنَّ معناها كثير كثير بما يفوق الحصر ، والعدّ هو مظنّة الحصر ، والشيء الذى فوق الحصر تنصرف عن عدِّه ، ولا أحد يحصر رمال الصحراء مثلاً .

فالانصراف عن العَدِّ معناه أنَّ الأمر الذى نريد أنْ نتوجه لعدِّه فوق الحصر ولا أحدَ يعُد النجوم أو يُحصيها ، لذلك قال تعالى ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ .. (١٠٥) ﴾ [يوسف] لكثرة هذه الآيات فى السماوات والأرض بما يفوق الحصر والعَدَّ .

فحين يقول سبحانه (وكأين) معناه أنَّ ما يأتى بعدها كثير جداً ، الذى بلغ من الكثرة مبلغاً يُبرِّر لنا العذر أمام الغير إنْ لم نُحصِه ، وآيات الله فى السموات والأرض كثيرة كثيرةٌ لا تُحصى ، والآيات جمع آية وهى الشيء العجيب .

فـ (كأين) تدلُّ على الكثرة مثل (كم) الخبرية حين نقول : كم أحسنتُ إليك تعنى مرات عديدة تفوق الحصر ، فهى تدلّ على المبالغة فى العدد والكمية ، ومنها أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ .. (٦٠) ﴾ [العنكبوت]

فالكثرة الكاثرة من الدواب لا تحمل رزقها ومع ذلك تأكل وتعيش ، فالبعوض والذباب مع ضَعْفه فإنه يتغذَّى على دم الإنسان القوى ، كذلك الميكروب الذى يفتك بالإنسان لا يحمل رزقه .

والغريب أنّك تجد الحصان والحمار والماشية لا تحمل رزقها رغم قدرتها على الحمل ، لذلك تراه إنْ شبع لا يدخر شيئاً ليأكله فى وقت آخر ، ربما يدوس الطعام الباقى منه أو يبول عليه ، وكذلك كل الحيوانات حتى أنهم يقولون : لا يعرف الادخار من المخلوقات إلا الإنسان والفأر والنمل .

إذن: قوله تعالى : (كأيِّن) يدلّ على الكثرة التى تفوق الحصر والعد .

وهنا الحق سبحانه يقول : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ .. (٨) ﴾ [الطلاق]

والقرية هى تجمُّع جماعة من الناس يسكنون فى مكان محدود .

والمراد بالقرية ليس قرية الريف التى نتعارف عليها اليوم ، لأن القرية فى عُرْف العربى القديم هى المكان الذى يقابل العاصمة ، وكانت البيئة العربية قديماً بيئة « التبدّى » أى أنهم يُقيمون فى البادية وينتقلون من مكان إلى مكان ، ولم يكونوا مُتوطِّنين فى مكان واحد .

فكانت عاصمة البدو هى القرية التى تتكوَّن من عدد صغير من البيوت ، ولذلك يُسمِّى القرآن الكريم (مكة) بأم القرى ، فيقول تعالى : ﴿ وَهَـٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا .. (٩٢) ﴾ [الأنعام]

ويقول فى آية أخرى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا .. (٧) ﴾ [الشورى]

فـ (أم القرى) هى مكة ، وهى أعظم القرى شأناً وهى محطّ أنظار مَنْ حولها، وفيها حاجيات كثيرة تفى بحاجات مَنْ يقيم فيها ومَنْ ينزلها لحج أو تجارة أو غيره ، ففيها كلُّ متطلبات الحياة .

والقرية لها تسلسل فنقول (نَجْع) وهو المكان الذى تسكنه أسرة واحدة . و (كَفْر) لعدة أسر ، ثم (قرية) ثم (أم القرى) وهى الحضر أو العاصمة .

وقد حدَّثنا الحق سبحانه عن قرى كثيرة ، فحدَّثنا عن القرية التى كانت حاضرة البحر وهى أيلة أو طبرية ، قال تعالى : ﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ .. (١٦٣) ﴾ [الأعراف]

وهناك القرية التى هى بيت المقدس وفى قول آخر أنها أريحا ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَـٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا .. (٥٨) ﴾ [البقرة]

وعندما يقول الحق سبحانه على لسان إخوة يوسف بعد خروجهم من مصر ورجوعهم إلى أبيهم بدون أخيهم بنيامين : ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا .. (٨٢) ﴾ [يوسف] ، فإنما كانوا يقصدون بالقرية عاصمة مصر فى ذلك الوقت ، وهى مدينة منف[1] أو ما نعرفه الآن بـ « البدرشين » .

وكما ذكر القرآن (القرية) كحاضرةٍ من حواضر المجتمعات فى ذلك الوقت حدثنا أيضاً عن (المدينة) .

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَـٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ .. (١٢٣) ﴾ [الأعراف] وقال تعالى عن موسى : ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا .. (١٥) ﴾ [القصص] وقال : ﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ .. (١٨) ﴾ [القصص]

وقال : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ .. (٢٠) ﴾ [القصص] فالمدينة فى هذه الآيات هى عاصمة ملك فرعون مصر .

أما قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) ﴾ [يس] فالمقصود بها أنطاكية فى قول جميع المفسرين[2] .

والمدينة تتميز بشيء ليس فى القرية حتى بالمعنى القديم لها ، فالمدينة الأمر فيها منظم بقوانين وملك ووزراء ومسئولين ودستور يحكم المكان ، وجيش منظم يدافع عنه .

ولذلك نجد مدينة الفرعون أو مدينة أنطاكية ، وفوق هذا مدينة رسول الله التى كانت فى البداية يثرب ثم أصبحت المدينة لأنها كانت قد أصبحت عاصمة لدولة وليدة .

---

(١) منف مدينة مصرية قديمة ، أسسها عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد الملك نارمر وكانت عاصمة مصر فى عصر الدولة القديمة (الأسرات ٣-٦) وكانت فيها عبادة الإله بتاح ومكانها الحالى بالقرب من منطقة سقارة بقرية ميت رهينة . وهى أول عاصمة لمصر الموحدة ، وكلمة منف هى الاسم العربى لها . ومعناها الجدار الأبيض .

(٢) المدينة : أنطاكية. فهم المقصودون بقصة أصحاب القرية ، والرجل الذى جاء من أقصى المدينة هو حبيب النجار وكان مجذوماً ، وكان منزله فى أقصى البلد .

وقد قال تعالى عن المدينة مدينة رسول الله : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ .. (١٠١) ﴾ [التوبة] ، وقال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ .. (١٢٠) ﴾ [التوبة]

ويذكر لنا الحق سبحانه ويقول : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ .. (٨) ﴾ [الطلاق]

فالكثير من القرى عتتْ عن أمر ربِّها ، وذكر كثيراً من هذه القرى ، وأكثر قرية ذكرها الحق سبحانه في القرآن قرية قوم لوط[1] ﴿ وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ (٧٤) ﴾ [الأنبياء]

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ .. (٤٠) ﴾ [الفرقان] وقال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١) ﴾ [العنكبوت]

وقال أيضاً : ﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا[2] مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٣٤) ﴾ [العنكبوت]

لقد كانت قرية لوط عليه السلام أكثر قرية عتتْ عن أمر ربِّها فاستحقت عذاب الله مطراً بالحجارة ، وجعل عاليها سافلها بما فعلوه من الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحدٌ من العالمين .

والحق سبحانه عندما يقول : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ .. (٨) ﴾ [الطلاق] لا يقصد المكان كبيوت وشوارع وحارات ، إنما يقصد سبحانه أهل القرية وسكانها ، فالقرية اسمٌ للمكان المُعدّ إعداداً خاصاً لمعيشة الناس فيه .

---

(١) سدوم وعمورة هي قرى قوم لوط عليه السلام والتي خسف الله بها بسبب ما كان يقترفه أهلها من مفاسد ، ويعتقد كثير من الباحثين وعلماء الدين أن القرى التي خسفها الله تقع في منطقة البحر الميت وغور الأردن . وحسب المصادر العبرية القرى هي : سدوم وعمورة وأدومة ، وصبييم . وقد يأتون الذكور من دون النساء .

(٢) الرجز هنا معناه : الحصب والخسف . (زاد المسير لابن الجوزي ٥/٧٦) ورجزاً : عذاباً . وهو الرمي بالحجارة . وقيل : إحراقهم بنار نازلة من السماء [فتح القدير للشوكاني ٥/٤٤٠] .

وبطبيعة الحال ، عندما يقول ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا .. (٨٢) ﴾ [يوسف] لن يسأل إنسان المكان أو المبانى ، بل يسأل أهل القرية .

فالقرية هنا لم تتمرد على أمر الله وترفضه وتأباه ، إنما الذى تمرد هم أهلها ، فقوله : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ .. (٨) ﴾ [الطلاق] أى : أن أهلها عتوا وفسدوا وأفسدوا .

والعُتو كبرياء وإباء ، وهو المرود والتمرد على أمر الله وبلوغ الغاية من الفساد، وما هذا إلا لأنهم لم يكونوا يرجون أو ينتظرون لقاء الله ، لذلك وصفهم الحق سبحانه فقال : ﴿ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (٢١) ﴾ [الفرقان]

فـ (عتوا) أى بالغوا فى الظلم والتحدى وتجاوزوا الحدود ، بل أكد العتو بالمصدر (عتواً) ، ثم وصف المصدر أيضاً فقال ﴿ عُتُوًّا كَبِيرًا (٢١) ﴾ [الفرقان]

وعُتو هذه القرى كان عن أمر ربها ورسله ، فهم تعاتوا على أمر الله سبحانه وعلى أمر رسوله ، فالعاتى الذى بلغ فى الظلم الحد مثل الطاغوت الذى إنْ خاف الناس منه انتفش وتمادى وازداد قوة .

فـ (عتت) أى أبت وعصت واستكبرت فحقَّ عليها عذاب الله ، وقد ذكر الحق سبحانه ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ .. (٨) ﴾ [الطلاق] فى ثلاثة مواضع من القرآن ، فقال تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (٤٨) ﴾ [الحج]

وقال : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣) ﴾ [محمد]

والموضع الثالث الذى معنا هنا فى سورة الطلاق ، فهم إنما استحقوا العذاب والهلاك لأنهم عتوا ﴿ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ .. (٨) ﴾ [الطلاق]

وأمر ربِّها ورسله هنا هو تهديد لمن يخرجون عن شرع الله فى أحكام الطلاق والعدة وعدم إخراج المرأة من مسكن الزوجية طالما أنها فى العدَّة

وعدم الالتزام بأحكام الرضاع .

لأن بهـذا الخروج عن أمر الله تزداد المظـالم فى المجتمعات ويتشرد الأبناء وتفسد النسـاء ويتعنت الرجال ويتمرد النسـاء ، ويعيش المجتمع فى ظلمات من التخبيط قد تـؤدى إلى القتل وإراقة الدماء ، بل إنـه بيقين يؤدى إلى تأخر المجتمـع لأن المجتمـع حينها يغرق فى المشـاكل والمنازعات والخصـومات والمشاكلات والكيد والاحتيال .

لذلك قال العلماء ﴿ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِه .. (٨) ﴾ [الطلاق] أى لم تأتمر بأمر الله ورسوله ولم تنته بنهى الله ورسوله ، فأعرضت عن أمر الله إعراضَ العاتى المعانذ .

فالحـق سبحانه يوجـه تهديداً شديداً لأولئك الذين يخالفـون شريعة الله ويبتغـون شرائعهـم من مناهـج أخـرى وثقافات أخرى تمـردتْ وعتتْ عن أمر الله .

والحق سبحانه لم يُنزل عذابه بأهل هذه القرى دون سـابق إنذار أو إرشـاد أو إرسـال الرسـل ، بل أرسل الرسل وأنزل الكتب لهداية أهل تلك القرى وأمهلهم لعلهم يرتدعون وينزجرون رغم إقامتهم على الظلم ،لذلك قال تعالى : ﴿ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ .. (٤٨) ﴾ [الحج]

فهـى مقيمـة على الظلـم مُصرة عليه ، فـالله يملى للظالم حتـى إذا أخذه لم يفلته كما قال رسول الله ﷺ .

وبعد الإملاء والإمهال يأتى الحسـاب الشـديد ، يقول تعـالى : ﴿ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا .. (٨) ﴾ [الطلاق] ، فالله سيحاسبهم حساباً عسيراً على أعمالهم كلها ، والحسـاب يكـون بالتنقير والاستقصـاء لذنوبهم ومحاسبتهم على كل شيء صغيراً أو كبيراً دون تجاوز لهم أو عفو .

فالحساب يكون بالمناقشة والاستقصاء ، والحق سبحانه أوجد لك الاختيار

حتى يكون الحساب عدلاً ، فإذا اختار أحد الكفر لا يجبره الله على الإيمان ، وإذا اختار الظلم لا يجبره الله على العدل ، وإذا اختار الفسوق لا يجبره الله على الطاعة .

فالحق سبحانه يحمي اختيارك لأنه أعطاك هذا الاختيار ليحاسبك عليه يوم القيامة .

وكلمة ﴿ حِسَابًا .. (٨) ﴾ [الطلاق] تدل على الدقة ، والحساب يفيد العدد والأرقام ، وأحياناً تفيد الظن والفكر .

وقد قرن الحق سبحانه بين الحساب والعذاب ، فقال : ﴿ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا (٨) ﴾ [الطلاق]

وقد قال رسول الله ﷺ : « مَنْ نُوقش الحساب عُذِّب »[1] فهناك ارتباط بين المحاسبة ومناقشة الإنسان فيما فعل فى الدنيا وسؤاله عن ماله وشبابه وبين إيقاع العذاب به ، فما من عبد يخلو من الذنوب .

وقد روت عائشة رضى الله عنها عن رسول الله ﷺ « مَنْ حُوسب يوم القيامة عُذِّب » . فقالت عائشة : أليس قد قال الله عز وجل : ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) ﴾ [الانشقاق] فقال رسول الله : « ليس ذلك الحساب ، إنما ذلك العرض، مَنْ نُوقش الحساب يوم القيامة عُذِّب »[2] .

فقوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) ﴾ [الانشقاق] خاص

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥٣٦) والبزار فى مسنده (١٩٩) ، وأحمد فى مسنده (٢٤٩٥٨) من حديث عائشة رضى الله عنها قالت قلت أليس يقول الله تعالى ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) ﴾ [الانشقاق] قال : ذلك العرض . وقد أخرجه الحاكم فى مستدركه (١٩٠) بلفظ آخر : سمعت رسول الله ﷺ يقول فى بعض صلاته : اللهم حاسبنى حساباً يسيراً فلما انصرف قلت : يا رسول الله ما الحساب؟ قال : ينظر فى كتابه ويتجاوز عنه إنه من نوقش الحساب يومئذ يا عائشة هلك ، وكل ما يصيب المؤمن يلقى الله عنه حتى الشوكة يشاكها .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٥٠٠٢) ، ومسلم فى صحيحه (٧٤٠٦) من حديث عائشة رضى الله عنها.

بصنف من أصناف أهل الجنة وهم مَنْ أوتى كتابه بيمينه ، لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩) ﴾ [الانشقاق] أى : مسروراً بثواب الله وفضله عليه .

فمَنْ أُوتى كتابه بيمينه يقول ﴿ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) ﴾ [الحاقة] لذلك ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) ﴾ [الحاقة]

إنه يدعو الناس ليقرءوا كتابه فإنه كتابُ حسنات كتاب نجاته من النار ، لذلك كان حسابه حساباً يسيراً وهو العرض وقراءة كتابه ، كأنَّ مجرد هذا هو حساب فى حقه أو عذاب ، عذاب انتظار القرار الإلهى ، هذه اللحظات العصيبة على المؤمن تجعلها حساباً .

فهذا حساب العرض لا حساب المناقشة ، والعرض أنْ يُقال له : فعلت كذا وفعلت كذا ، ثم يقال : سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ، فيتجاوز عنه الله .

أما الذى عتا عن أمر ربه وأمر رسوله وعصى الله تمرداً على أمره سبحانه فسوف يُحاسب حساباً شديداً عسيراً بالاستقصاء فى كل صغيرة وكبيرة والمباحثة والمناقشة فى كلِّ نقير وقطمير(١) .

حتى أنهم سيقولون ﴿ مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا .. (٤٩) ﴾ [الكهف]

وقد يكون حسابهم هذا فى الدنيا ، فيُحاسبون على أعمالهم حساباً شديداً

(١) النقير : النقرة التى فى ظهر النواة . [الصحاح فى اللغة] ، قال أبو على القالى فى كتابه (الأمالى) (١/ ٢٣٠) : فيكون معناه حقيراً متناهياً فى الحقارة . قال الواحدى فى شرح ديوان المتنبى (١/ ١٢٧) : النقير النقرة تكون فى ظهر النواة يضرب مثلاً للشيء الحقير .
القطمير : القشرة الرقيقة على النواة كاللفافة لها . قال فى المعجم الوسيط : الشيء الهين الحقير يقال: ما أصبت منه قطميراً .

فيقع بهم عذابٌ مهلك شديد ، وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا .. (٤٨) ﴾ [الحج]

فالأخذ هو في الدنيا أى إيقاع العذاب بهم وإهلاكهم مهما كانت قوتهم ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ .. (١٣) ﴾ [محمد]

والإهلاك شاءه الحقُّ سبحانه بوسائل كثيرة ، قال تعالى : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا .. (٤٠) ﴾ [العنكبوت]

فالحاصب هو الحصى الصغار ترمى لتجرح ولكن يحمى عليها لتكوى وتلسع حين يرميهم بها الريح . ولم يقُلْ هنا : أرسلنا عليهم ناراً مثلاً لأن النار ربما إنْ أحرقته يموت وينقطع ألمه ، لكن رميهم بالحجارة المحمية تلسعهم وتديم آلامهم .

أما الصيحة فهى الصوت الشديد الذى تتزلزل منه الأرض وتُصم منه الآذان، وتلك كانت عقوبة ثمود ، وقد سماها الحق سبحانه أيضاً الطاغية ، فقال : ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) ﴾ [الحاقة]

فالله يُملى للعتاة والمتجبرين ويمدّ لهم الأمر ثم يأخذهم بغتة بالعذاب ، وقد يأتى العذاب من فوقهم كما جاء لقوم أبرهة الذين أرادوا هدم الكعبة فسلط عليهم طيراً أبابيل[1] ترميهم بحجارة من سجيل[2] فجعلهم كعصف مأكول ، وهناك مَنْ أخذهم بالصيحة ، وهناك من أهلكهم بريح صرصر[3] عاتية .

(١) الأبابيل : جماعات متفرقة . (زاد المسير لابن الجوزى) . قال الطبرى فى تفسيره : طيراً متفرقة يتبع بعضها بعضاً من نواح شتى . فـ (أبابيل) : فرق شتى متتابعة مجتمعة ، أتتهم من كل مكان .

(٢) السجيل : الطين المتحجِّر . قال موسى بن أبى عائشة : كانت الحجارة التى رُموا بها أكبر من العدسة وأصغر من الحمّصة . وقال قتادة : كانت مع كل طير ثلاثة أحجار : حجران فى رجليه وحجر فى منقاره فجعلت ترميهم بها . [ذكره الطبرى فى تفسيره] .

(٣) قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) ﴾ [الحاقة] . الصرصر : صوت الريح الشديدة . وفى الصحاح : الريح الصرصر الباردة . فالأمر يحتمل المعنيين . والعاتية : الشديدة الغالبة .

ومنهم مَنْ أهلكه الله بأنْ انشقَّتْ الأرض من تحته فابتلعته وابتلعتْ قصره وكلّ ما يملك كقارون، ومنهم مَنْ يغرق بالماء كفرعون، وكلها عذابات استئصال.

ويُعطينا الحق سبحانه مثالاً آخر فى قصة مملكة سبأ باليمن، فقال تعالى:
﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا .. (١٦) ﴾ [سبأ]

فكانت نتيجة إعراضهم ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ (١) وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ (٢) وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ﴾ [سبأ]

فأهل سبأ رزقهم الله فأعرضوا عن شكره وأمره، وكانوا يتيهون بالسدِّ الذى يحفظ لهم مياه الأمطار ويمدّهم بما يحتاجون إليه منها طوال العام، وأخذوا يتفاخرون ونسوا الله، فكان هذا السد هو النكبة أو الكارثة التى أهلكتْ زرعهم، فكان فى هذا هلاكهم.

وكما كان الحساب حساباً شديداً كان العذاب عذاباً نُكْراً، والعذاب النُّكر أى المنكر الذى لا نعرفه والذى لا عهد لنا به أو أُلْفة، بل هو عذاب منكر فظيع عظيم، فهو عذاب لا يخطر فى بال أحد لعظم شدته.

وبعض العلماء ذهب إلى أنّ هذه الآية ﴿ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا (٨) ﴾ [الطلاق] أنها على التقديم والتأخير، يعنى فعذَّبناها فى الدنيا وحاسبناها فى الآخرة حساباً شديداً.

أى عذّبنا أهلها عذاباً نكراً فى الدنيا بالجوع والقحط والسيف والخسف

---

(١) ذكر ابن الجوزى فى زاد المسير (٥/ ١٦٠) أربعة أقوال:
أحدها: العرم: الشديد. وقال ابن الأعرابى: العرم السيل الذى لا يُطاق. الثانى: أنه اسم الوادى. والثالث: أنه المسنّاة. والرابع: أنه الجرذ الذى نقب عليهم السد.

(٢) المراد بالخمط ثلاثة أقوال: الأول: أنه الأراك. قاله ابن عباس والحسن ومجاهد. والثانى: أنه كل شجرة ذات شوك. قاله أبو عبيدة. والثالث: أنه كل نبْت قد أخذ طعماً من المرارة حتى لا يمكن أكله. [زاد المسير لابن الجوزى ٥/ ١٦٠].

والمسْخ وحاسبناهم فى الآخرة حساباً شديداً .

وقد روتْ عائشة رضى الله عنها أنها قالت : يا رسول الله هل أتى عليك يومٌ كان أشدّ من يوم أُحُد ؟ فقال : لقد لقيت من قومك وكان أشدّ ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضتُ نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال ، فلم يُجبْنى إلى ما أردت .

فانطلقت وأنا مهوم(١) على وجهى فلم أستفق إلا بقرن الثعالب فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلّتنى ، فنظرت فإذا فيها جبريل فنادانى فقال : إنَّ الله عزَّ وجلَّ قد سمع قول قومك لك وما ردّوا عليك ،وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم .

قال : فنادانى ملك الجبال وسلَّم عليَّ ، ثم قال : يا محمد إنَّ الله قد سمع قوْل قومك لك وأنا ملك الجبال ، وقد بعثنى ربك إليك لتأمرنى بأمرك فما شئت ، إنْ شئت أنْ أطبق عليهم الأخشبين .

فقال له رسول الله ﷺ : بل أرجو أنْ يُخرج الله من أصلابهم مَنْ يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً(٢) .

فلله سبحانه سنن فى خَلْقه وسنن فيما سبق من أقوام ، وقد عرفنا الذين أطاعوا رسلهم ماذا حدث لهم ، والذين كذَّبوا رسلهم ماذا حدث لهم .

وكان على أهل مكة الذين بُعث فيهم رسول الله أنْ يأخذوا عبرةً من الرسل السابقين ، وبما حلَّ بأعدائهم من عذاب الله ، لقد أرسل الله الرسل فكُذِّبوا وعُودوا واضطهدوا .

---

(١) مهوم : أى نام نوماً خفيفاً . ومثاله : هوَم المسافر فى القطار . ومعناه أيضاً : هزَ رأسه من النعاس . ومثاله : هوَم وهو جالس . [معجم اللغة العربية المعاصرة ٢/٢٣٧٦] .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٢٣١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٤٧٥٤) ، والبزار فى مسنده (١٠٣) ، والنسائى فى السنن الكبرى (٧٦٥٩) ، والطبرانى فى المعجم الأوسط (٨٩٠٢) من حديث عائشة رضى الله عنها .

وقد مرَّتْ على رسول الله أيام شديدة عصيبة ، حاربه فيها قومه وعادوه كيوم أُحُد ، وما حدث فيه من كسر إحدى أسنانه ، وكيوم حنين يوم فوجيء المسلمون بالمشركين ففروا لولا أن رسول الله نادى فيهم : أنا النبى لا كذب .. أنا ابن عبد المطلب[1] .

ولكن ما كان أشد على نفسه الشريفة ﷺ هو أنه دعا الناس فلم يستجيبوا وعرض نفسه بالدعوة إلى الله فلم يُبالوا به وأعرضوا عنه ، بل سلَّطوا عليه سفهاءهم .

كان هذا أشدّ على رسول الله لأنه يعلم عاقبة مَنْ كذَّب الرسل وأعرض عنهم، فمن شفقته وخوفه على أمته لم يدْعُ عليهم بل دعا لهم بالهداية ، فقال : « اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون »[2] .

حتى إن ملك الجبال قال له : إنْ شئت أنْ أُطبق عليهم الأخشبين والأخشبان جبلا مكة المحيطان بها ، والأخشب هو الجبل العظيم ، ولو شاء رسول الله لأمر ملك الجبال بإطباق الجبلين على أهل مكة ، ولكن رسول الله مفطور على الرحمة.

فالرسول ﷺ لا يُبقى على هؤلاء ، ولكنه يحرص أيضاً على الأجيال القادمة، لذلك قال : « بل أرجو أنْ يُخرج الله من أصلابهم مَنْ يعبد الله وحده لا يشرك

---

(١) عن البراء بن عازب رضى الله عنه أن رجلاً سأله : أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين قال : لكن رسول الله لم يفر إن هوازن كانوا قوماً رماة وإنَّا لما لقيناهم حملنا عليهم فانهزموا فأقبل المسلمون على الغنائم واستقبلونا بالسهام ، فأما رسول الله ﷺ فلم يفر ، فلقد رأيته وإنه لعلى بغلته البيضاء ، وإن أبا سفيان آخذ بلجامها والنبى ﷺ يقول : أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٨٦٤) وكذا مسلم فى صحيحه (٤٧١٦) وفيه زيادة : اللهم نزِّل نصرك . قال البراء : كنا والله إذا احمر البأس نتقى به وإن الشجاع منا للذى يحاذى به يعنى النبى ﷺ .

(٢) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (١٣٧٥) من حديث عبد الله بن عبيد قال : لما كُسرت رباعية رسول الله ﷺ وشُجَّ فى جبهته فجعلت الدماء تسيل على وجهه . قيل : يا رسول الله ادع الله عليهم فقال ﷺ: « إن الله تعالى لم يبعثنى طعاناً ولا لعاناً ولكن بعثنى داعية ورحمة ، اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون» . قال البيهقى : وهذا مرسل .

به شيئاً »[1] . وقد كان وخرج من أولاد كفار قريش صناديد وأبطال وجنود دعوة وشهداء .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (٤٨) ﴾ [الحج] فالله يُمليهم ويُمهلهم ويُؤخرهم إلى أجل معين قد يكون لمدة ثم يقع بهم العذاب كما حدث مع الأمم السابقة التى أهلكها الله بسبب عُتُوِّهم وتمردهم وعصيانهم لله ورسله .

للذلك قال الحق سبحانه بعدها :

﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ ﴾

والإذاقة هى أشد الإدراكات تأثيراً ، فالإذاقة هى الإحساس الشديد بالمطعوم، شراباً كان أو طعاماً ، إلا أنه تعدّى كلَّ مُحسٍّ به ولو لم يكُنْ مطعوماً أو مشروباً.

والحق سبحانه يقول : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) ﴾ [الدخان] أى ذُقْ الإهانة والمذلة ، لا مما يُطعم أو مما يُشرب ، ولكن بالإحساس فذوْقُ الطعام هو الحاسَّة الظاهرة فى الإنسان ، قد يجده بالذوق حريفاً أو حُلْواً أو خَشِناً أو ناعماً إلى غير ذلك .

ولكن الإذاقة التى يعنيها الحق سبحانه شيء أكبر من ذوْق المطعوم والمشروب ، إنما هو أمر يتعدى إلى كل البدن ، فالأنامل تذوق ، والرِّجْل تذوق، والصدر يذوق ، والرقبة تذوق .

وفى إطار هذا نفهم قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٣٢٣١) من حديث عائشة أنها قالت للنبى ﷺ : هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد . قال : لقد لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن كلال فلم يجبنى إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهى فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب فرفعت رأسى ..." الحديث بطوله .

يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) ﴾ [النحل]

فالجوع سلب الطعام ، فكيف تكون إذاقة الجوع ؟ فالجوع ليس مما يُذاق ، ولا اللباس مما يُذاق . ولكن المقصود هنا هو الإحساس الشديد به ، فالذوق هو للإدراك لا للأكل ، فأنت حين تشترى فاكهة يقول لك البائع : تفضل ذُقْ فتأخذ واحدة منها لتستطيب طعامها .

فالذوق إذن هو تناول الشيء لإدراك طعمه ، والإذاقة من الذوق وهو أعم الملكات شُيوعاً في النفس ، فأنت ترى بعينك ، وتسمع بأذنك وتشم بأنفك ، لكن المذاق تشترك فيه كلُّ الملكات الإدراكية ، بل هى أقوى أنواع الإدراك .

والحق سبحانه أخبر عن القرية التى عتت وتمردت على أمر ربها فقال :
﴿ فَذَاقَتْ .. (٩) ﴾ [الطلاق]

فاختار سبحانه حاسة الذوق لأن كلَّ وسيلة إدراك قد تتصل بلون من ألوان الترف فى الحياة ، أما الذوق فيتصل بإمداد الحياة وهو الأكل والشرب وبهما قوام حياة الإنسان ، فهما ضرورتان للحياة لا مجرد ترف فيها .

فليس الذائق هو الفم فقط بل كل الجسم ، والحق سبحانه يقول : ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١) ﴾ [آل عمران] ويقول أيضاً : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (٨) ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩) ﴾ [الحج]

والحريق ليس طعاماً يُذاق إنما هو يصنع إيلاماً إحساسياً فى الجلد وفى النفس ، وقد يفقد الإنسان حاسة ما من حواسه كالبصر أو اللمس أو الشم ، ولكنه لا يفقد حاسة الذوق أبداً ، بهذا المعنى ، الذى يتعدى اللسان ؛ فيستولى على كل الأعضاء .

ومثل عذاب الحريق فى الأثر (عذاب النار) ، قال تعالى : ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ

النَّارِ الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠) ﴾ [السجدة] فالإذاقة تتعدى اللسان وتستولى على كل الأعضاء ، فكلّ ذرة فيه تذوق عذاب النار .

والحق سبحانه ينبه بلفظ الإذاقة (فذاقت) أن أهل هذه القرى أحسَّتْ بعذاب الله بكلّ الحواس التى فيها حِسّ ، حتى تلك الحاسة المختفية داخل النفس ، فذلك يشمل كل جزء فى الإنسان .

ومن الضرورى أن نفهم أنَّ الذوق غير البلع والشبع ، ونرى ذلك فى عالمنا السلعى والتجارى ، فساعة تشترى مثلاً فاكهة يقول لك البائع : إنها فاكهة حلوة ذُقْ منها . ولا يقول لك : كل منها واشبع . إنه يطلب منك أن تجرب طعم الفاكهة فقط ثم تشترى لتأكل بعد ذلك حسب رغبتك وطاقتك .

وإذا كان الأمر أمر ذوْق وتذوّق للعذاب ، فما بالك بالعذاب نفسه وألمه ، فعندما يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) ﴾ [القمر]

وفى آيات أخرى يقول تعالى : ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ (٢٨) ﴾ [المدثر]

فنار سقر[1] لا تترك شيئاً من اللحم ولا العصب إلا أهلكته ثم يعود كما كان لإدامة العذاب ، وهى نار تغير البشرة وتُسود الجلود محرقة للجلود .

و (سقر) اسم لجهنم من سقرته الشمس إذا آلمتْ دماغه لشدة إيلامها ، فإذا كان مسُّ سقر بهذه البشاعة والقسوة والإيلام ، فما بالك بدخولها ؟

وقوله تعالى : ﴿ فَذَاقَتْ .. (٩) ﴾ [الطلاق] فيه ترتيب وتعقيب على الآية قبلها ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا (٨) ﴾ [الطلاق]

فبسبب عُتوّها وعصيانها وتمردها ذاقتْ وبال أمرها وعاقبة ما فعلوه .

(١) سقر : اسم من أسماء النار . والسقر : البُعد . وسقرته الشمس : لوّحته وآلمت دماغه بحرِّها . وقيل : سميت النار سقر لأنها تذيب الأجسام أما الأرواح فهى جوهر غير قابل للذوبان .

وقد قال تعالى : ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ .. (٥٢) ﴾ [يونس]

ويقول : ﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .. (٥٥) ﴾ [العنكبوت]

ويقول الحق سبحانه : ﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٤) ﴾ [الزمر]

فالحق سبحانه لم يظلمهم ، فذوقوا ما عملتم كأنّ العمل نفسه الذى عملوه هو نفسه سيكون هو النار التى تحرقهم ، وليس ذلك تجنياً من الله ولا بسلطة القهر لعباده ، ولكن بعدالة الحكم لأن ذلك إنما حدث بسبب ما كسبتم .

ونلاحظ أن الحق سبحانه لم يقُلْ : بما كنتم تكتسبون ، لأن اكتسابهم لم يعُدْ فيه افتعال ، بل صار أمراً طبيعياً بالنسبة لهم ، لذلك قال تعالى : ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ .. (٥٢) ﴾ [يونس]

فهؤلاء من إفراط إدمانهم للسيئات وعتوهم عن أمر الله فسدتْ فطرتهم ، ولم تعُدْ ملكاتهم تتضارب عند فعل السيئات .

وحين ترى جملة فيها الفاء فاعلم أنها مُسبَّبة عن شيء قبلها ، وإذا سمعت مثلاً قول الحق سبحانه : ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ .. (٢١) ﴾ [عبس] فمعنى ذلك أن القبر جاء بعد الموت ، فإذا وجدت « الفاء » فاعرف أن ما قبلها سببٌ فيما بعدها ، ويُسمونها « فاء » السببية[1] .

ولكن ماذا ذاقت القرية التى عتت عن أمرها ؟ يقول تعالى : ﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا .. (٩) ﴾ [الطلاق]

---

(١) فاء السببية هى التى يكون ما قبلها سبباً لما بعدها "لا تظلم فتُظلم". ويشترط لها أن تسبق بنفى أو طلب . فأما النفى فكقولك : لم تحضر فتستفيد . وتقول : جارك غير مقصر فتعنفه . لا فرق بين أن يكون باسم أو بفعل أو بحرف .

الوبـال هو الثقل والعاقبة ، وهو ما يجرُّه عليه عصيانه وتمرده من عاقبة السوء ، فكلُّ عاص أو رافض لحكم الله يظن أن هذا سينفعه ويغيب عنه ما يجرُّ عليه من الوبال فيما بعد ذلك ، رغم أنه قد يكون استفاد استفادةً وقتيةً من فساده .

والحقّ سبحانه يقول : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا به فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ[1] (٤٤) ﴾ [الأنعام]

فهؤلاء قد فتح الله عليهم أبواب كل شيء ، مال وجاه وسلطة ، ولكنها لم تكن لهم بل عليهم ، ولكنهم فرحوا بها وبطروا نعمة الله فعاثوا فى الأرض فساداً بما أنعم الله عليهم .

﴿ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤) ﴾ [الأنعام] فكان وبال عاقبتهم أَنْ أخذهم الله بغتةً ، فليس هذا كله فى صالحهم بل هو وبالٌ عليهم فلا تغترُّوا بها ، فقد أعطاها الله لهم وهم سيبطرون بها فتكون سببَ عذابهم .

فمَنْ ضلَّ عن الحق وزاغ عن طريق الاستقامة فإنما يجنى على نفسه وإنما يعود وبالُ ذلك عليه ، لأنه هو الذى يجنى ثمرة عواقبه السيئة الوخيمة فيخلد فى النار .

والوبال فى أصله اللغوى مصدر الوبيل ، وهو الطعام الثقيل الذى لا يوافق أكله وتكون له عواقبُ سيئة ، وهذا اللفظ بهذا المعنى مناسب لقوله تعالى : ﴿ فَذَاقَتْ .. (٩) ﴾ [الطلاق]

وهى ذاقت ﴿ وَبَالَ أَمْرِهَا .. (٩) ﴾ [الطلاق] فأضاف الوبال إلى الأمر الذى فيه القرية وأهلها من إضافة المسبب إلى السبب ، أى ذاقوا الوبال الذى تسبَّب لهم فيه أمرهم وشأنهم الذى كانوا عليه .

---

(١) مبلسون : هو الآيس من رحمة الله . وهو المجهود المكروب الذى قد نزل به من الشر ما لا يستطيعه . وهو المكتئب الحزين النادم الشديد الحسرة وهو الساكت المتحير . ذكر هذه الأقوال ابن الجوزى فى زاد المسير . (٢/ ٣٣٤) .

والأمر هو الحال والشأن الذى هى عليه ، ويحتمل المعنى أيضاً الذنب أى ذاقت جزاء ذنبها الذى فعلته بعتوِّها عن أمر ربها وحكمه .

والقرية التى عتتْ عن أمر ربها إنما ذاقت وبال أمرها وذنبها فى الدنيا كالطاعم يأكل طعاماً وبيلاً وخيماً فيجد وبال شره عليه ، لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (٩) ﴾ [الطلاق] أى فى الآخرة .

والعواقب هى أدبار الأشياء وأعقابها ، والأمر كان يحتاج منهم النظر إلى أدبار الأشياء وعواقبها ،ولكن طيشهم وسفههم صرفهم عن التفكُّر فى عاقبة الأشياء فأذهله وجعله ينظر إلى الأمور نظرة سطحية متعجلة .

لقد نظروا إلى متعة زائلة موقوتة ونسوا تبعة ثقيلة لن يقدروا عليها فيما بعد، ولو كانوا يهتدون بهدى الله وهدى رسوله ويرون العذاب الذى أنذرهم به حقيقة وواقعاً لا يتخلفون عنه لما حدث لهم هذا ولما واجهوا هذه العاقبة .

فمرجع الخَلْق جميعاً إلى الله سبحانه ،ومشكلة هؤلاء أنهم لم يلتفتوا إلى عاقبة الأمور ولا إلى مَنْ بيده عاقبة الأمر كله فلم يرتدعوا ، أما مَنْ نظر إلى عاقبة الأمر وأحسن فى الدنيا فمرجعه إلى حُسْن الثواب والجنة ، ومَنْ لم ينظر إلى عاقبة الأمر وعتا وعصا وتمرد فمآل أمره ومآبه إلى العذاب ..

وذلك مصداق لقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠) ﴾ [يونس]

فلو تبصَّروا بالعواقب ولو تفكَّروا فى عاقبة أمرهم ما تجرأوا على المعصية، فالحق سبحانه يقول : ﴿ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا .. (١٥) ﴾ [الإسراء]

أى تعود عليه عاقبة انصرافه عن منهج الله ، لأن شرَّ الإنسان فى عدم التزامه بمنهج الله يعود عليك ويعود على الناس من حوله ، فيشقى هو بشرِّه ويشقى به المجتمع .

وقد قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١) ﴾ [الحج] يعنى : النهاية إلينا

وآخر المطاف عندنا .

وقد قال تعالى : ﴿ وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (٩) ﴾ [الطلاق] فعاقبة ذنبها وعُتوها هو الخسران ، واستخدام الحق سبحانه لكلمة (خسراً) تدل على أنهم كانوا يعتقدون أنهم بأعمالهم حققوا لأنفسهم نفعاً ، بينما هم لم يحققوا لأنفسهم إلا الخسران المبين .

وهو ليس خسراناً موقوتاً ، ولا هو خسران يمكن أنْ يُعوَّض فى الصفقة القادمة ، بل هو خسران أبديّ ، والندم سيكون عليها شديداً ،وخسرانهم لا ينتهى من فور مجيء الساعة ، ولكنه يبدأ لحظة مفاجأة الساعة لهم ، فهم يُفاجئون بوقوع ما كانوا يكذبون به ، ويعلمون جيداً أن ما صنعوه فى الدنيا لا يستوجب إلا العذاب .

و ﴿ خُسْرًا (٩) ﴾ [الطلاق] تعنى أنها خسران مبين يلازم الإنسان ولا ينفكّ عنه ، وهو خسران لا يقتصر على الدنيا فقط فيمكن أنْ تعوضه أو تصبر عليه، إنما يمتد للآخرة حيث لا عوض لخسارتها ولا صبر على شدتها .

ويقول تعالى أيضاً : ﴿ وَهُمْ فِى الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ (٥) ﴾ [النمل] والأخسر مبالغة فى الخسران ، فلم يقل : خاسر إنما أخسر لأنه خسر النعيم لأنه لم يقدم صالحاً فى الدنيا ، وليته ظلّ بلا نعيم وترك فى حاله ، إنما يأتيه العذاب الذى يسوؤه .

لذلك قال تعالى : ﴿ هُمُ الأَخْسَرُونَ (٥) ﴾ [النمل] لأنهم لم يدخلوا الجنة لعدم استحقاقهم لها ، وهذه خسارة لهم ، ثم هم فى النار وهذه خسارة أخرى.

خسروا دنياهم وخسروا آخرتهم وخسروا أنفسهم خسراناً أبدياً ، والأكثر خسارة هم الأخسرون الذين قال الله عنهم : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤)

أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ﴾ [الكهف]

وقد استثنى الحقُّ سبحانه من الخسران ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [العصر]

إيمان بالله ورسوله وقرآنه وعمل بالصالحات . ثم التواصي بالصبر والتواصي بالحق يُخرج الإنسان من دائرة الخسران ، ويقول تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) ﴾ [العصر]

فالإنسان على إطلاقه في خُسْر ، ولكن مَنْ الذى ينجو من الخسران ؟ تأتى الإجابة من الحق فيقول : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [العصر]

فالإنسان المعزول عن منهج الله هو الذي يحيا فى خسران ، أما مَنْ يعيش فى رحاب المنهج فهو الذى لا يخسر أبداً ، فالمنهج يحميه من الزلل والخسران .

والحق سبحانه إنما يخاطب الناس بالمنطق الذى يفهمونه منطق المكسب والخسارة ، فالمؤمنون رابحون على كل حال ، أما الكافرون والعصاة الذين تمرَّدوا على منهج الله فهم خاسرون على كلِّ حال .

فهم خاسرون لأنهم ﴿ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ .. (١٦) ﴾ [البقرة]

فقوله : ﴿ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ .. (١٦) ﴾ [البقرة] التجارة بيع وشراء ، كاسب وخاسر ، فحظّ البائع من البيع والشراء أنْ يكسب ، فإذا كسب قيل : ربحت تجارته ، وإذا لم يكسب ولم يخسر ، أو إذا خسر ولم يكسب ففى الحالين لا يحقق ربحاً ونقول ما ربحت تجارته .

فقوله ﴿ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦) ﴾ [البقرة] يدل على أنهم خسروا كلّ شيء لأنهم لم يربحوا ، فكأنهم لم يحققوا شيئاً له فائدة ، وخسروا الهدى أى خسروا الربح ورأس المال .

ما ربحت تجارتهم ، وربما يكونون لم يكسبوا ولم يخسروا ، ولكن هم قدَّموا الهدى ثمناً للضلال فلم يربحوا وضاع منهم الهدى أى رأس مالهم .

فجنوا ثمار ما غرست أيديهم من أعمال السوء ، فكان عاقبة أمرهم الخسران والنكال ، ذلك لعُتوهم ولتكبُّرهم ، فكانت عاقبتهم الخسران والهلاك خُسْراناً لا خُسْرانَ بعده .

ثم يقول الحق سبحانه عما أعدَّه الله لهؤلاء التعساء الخاسرين :

﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠) ﴾

قوله سبحانه ﴿ أَعَدَّ .. (١٠) ﴾ [الطلاق] أى أعددنا وهيّأنا ، والذى أعدَّ هو الله القوى القادر سبحانه هو الذى يُعد ، وهو يُعدّها على قدر سعة قدرته ، وقد أعدَّ الحقُّ العذاب الأليم لهم أى الشديد إيلامه .

وقال تعالى : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (٣٧) ﴾ [النساء] فمعنى (أعتدنا) : أعددنا ، فالمسألة منتهية مُسبقاً ،فالجنة والنار مخلوقة فعلاً ومُعدَّة ومجهزة ، لا أنها ستعد فى المستقبل ، وقد أُعِدَّت إعدادَ قادرٍ حكيم .

والعذاب إيلامُ حيٍّ يشعر بالعذاب ويُحسُّ به ، وهذا غير الإهلاك الذى يُذهب الحياة ، فالإهلاك والاستئصال يمنع الإحساس بالعذاب ، ولا بد لأيِّ قرية طغتْ وبغتْ أنْ ينالها شيءٌ من العذاب .

وشدة العذاب وقوته تناسب قوة مَنْ يُوقع العذاب ، فنأخذ الحدث قياساً

بالنسبة لفاعله ، فإذا كان الفاعل هو الله فهل لأحد طاقة على عذاب الله ؟

والعذاب يُوصف مرَّة بأنه أليم ، ويُوصف مرة بأنه مهين ، ويُوصف هنا بأنه شديد ، ولكلٍّ نوع من أنواع العذاب أثره السيء في المعذَّب .

فالعذاب المهين الذى تكون فيه ذلة النفس ، أما العذاب الأليم فهو الذى يكون فى البنية ، فالإنسان له بنيةٌ جسدية وله معنويات ، فمن ناحية البنية الجسدية يصيبه العذاب الأليم ، ومن ناحية المعانى النفسية تصيبه الإهانة .

أما العذاب الشديد فهو الذى لا يقوى الإنسان على تحمُّله ، ودرجة العذاب وشدته وقوته تختلف باختلاف المعذَّب ، فإنْ كان المعذِّب ضعيفاً فتعذيبه يكون ضعيفاً ، وإنْ كان المعذِّب متوسط القوة فتعذيبه يكون متوسطاً .

أما إنْ كان المعذِّب هو قوة القوى فلابد أنْ يكون عذابه شديداً ، يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥) ﴾ [البقرة]

فهم ساعة يروْنَ العذاب حقَّ اليقين سيدركون عندها أنّ القوة لله ، وأنه شديد العقاب ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦) ﴾ [البقرة]

والعقاب من الله سيأتى فى وقت ليس للفرد فيه جاه من مال أو حسب أو نسب يحميه من الله ، فإنْ أطمعك ضعفُ المجتمع فى أنْ تعصى الله وتتمرّد على منهجه فعليك أنْ تخاف الله لأن عقابه شديد .

فالذين يُشاقون الله ورسوله يستحقُّون عذاب الله وعقابه ، وعليهم أن يتحملوا العقاب الشديد من الله .

﴿ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٥٢) ﴾ [الأنفال] فالله أقوى من كلِّ ما تصنعون فى كونه ، وعقابه تعالى شديد وأليم .

ونعلم أن العقاب لا يعم الناس إلا بقدْر ذنوبهم ، فليس معنى أنّ الله شديد

العقاب أنْ تُصيب شدة العذاب من فعل ذنباً يسيراً ، ولكن لكلٍّ جزاؤه على قدر ذنبه ، وهذا العقاب والعذاب مهما كان يسيراً فهو شديد أليم .

أعدَّ الله عذاباً شديداً لمَنْ عتا عن أمر الله وعصى الله وتمرد على منهج الله ، ومن عذابه طعام الزقوم ، وهى شجرة ﴿ تَخْرُجُ فِى أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا[١] كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) ﴾ [الصافات]

ثم يقول تعالى : ﴿ فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ﴾ [الصافات] ، ويقول تعالى فى آيات أخرى : ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ[٢] يَغْلِى فِى الْبُطُونِ (٤٥) ﴾ [الدخان]

ورسول الله ﷺ يعطينا لمحةً عن هذا العذاب الشديد من طعام الزقوم ، ليس بأكلة منه إنما بقطرة واحدة ، فيقول رسول الله ﷺ : « لو أن قطرةً قُطرت فى بحار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم »[٣] .

قطرة واحدة فى بحار الدنيا على عظمها وتلاطمها ومساحاتها الشاسعة لو سقطتْ تلك القطرة فيها لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم ، فلا يستفيدون من تلك البحار بشيء أبداً ، لا بمائها ، ولا بحيواناتها البحرية فكيف بمَنْ يكون الزقوم طعامه ؟

---

(١) أول حمل النخل الطلع فإذا انشق فهو الضحك وهو الإغريض ثم البلح ثم السياب ثم الجدال إذا استدار واخضر قبل أن يشتد ثم البسر إذا عظم ، ثم الزهو إذا احمر . [أدب الكتاب لابن قتيبة ١/٢٢] .

(٢) المهل : الصديد والقيح . ودردى الزيت وما أذيب من نحاس أو فضة . وفى حديث أبى بكر : " ادفنونى فى ثوبيَّ هذين فإنما هما للمهل والتراب " . [الصحاح فى اللغة ٢/١٨١ للجوهرى] .

(٣) عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) ﴾ [آل عمران] فلو أن قطرة من الزقوم قطرت فى بحار الدنيا أفسدت على أهل الدنيا معايشهم ، كيف من يكون طعامه ؟ "أخرجه أبو داود الطيالسى (٢٧٦٥) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٠٩٠٥) وفى المعجم الأوسط (٧٥٢٥) وفى المعجم الصغير (٩١١) وكلها من طريق أبى داود الطيالسى .

وإذا كان الله قد أعدَّ لهم عذاباً شديداً فناسب أنْ يقول هنا : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ .. (١٠) ﴾ [الطلاق] وأمْر التقوى أمر عجيب ، فتجد الحق سبحانه يقول (اتقوا الله) وأحياناً يقول (اتقوا النار) ، فكيف نأخذ سلوكاً واحداً تجاه الحق سبحانه وتعالى ، وتجاه النار التي سيُعذّب فيها الكافرون ، والنار خَلْق من خَلْق الله؟

فالله تعالى يقول (اتقوا النار) أي : لا تفعلوا ما يغضب الله حتى لا تُعذّبوا في النار ، فكأنك قد جعلت بينك وبين النار وقاية بأنْ تركت المعاصي وفعلت الخير .

والنار أحد جنود العذاب لله سبحانه ، فالله يريدنا أنْ نجعل بيننا وبين عذاب النار وقاية ، وأنْ نجعل بيننا وبين صفات الجلال في الله وقاية .

والنار من متعلِّقات صفات الجلال ، لذلك فإنّ قوله (اتقوا الله) تساوي (اتقوا النار) ، والنار لا تفعل العذاب بالعصاة بذاتها ، إنما بتسليط الله لها على العاصي .

ويقول تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٢٢٣) ﴾ [البقرة] أي : إياكم أنْ تغضبوا ربكم في أي عمل من هذه الأعمال ، وكُنْ أيها المسلمُ في هذه التقوى على يقين من أنك مُلاقي الله ، ولا تشك في هذا اللقاء أبداً ، وما دُمت ستتقي الله وتكون على يقين أنك تلاقيه لم يبْقَ لك إلا أنْ تُبشَّر بالجنة .

فاجعلوا بينكم وبين صفات الجلال وقاية ، لأن الحق له صفات جلال هي الجبروت والانتقام والقهر ، وللحقّ صفات جمال فهو الغفور الرحيم المغني الحكيم إلى غير ذلك من صفات الجمال ، إذن فلنجعل بيننا وبين صفات الجلال وقاية تقينا من جنود صفات الجلال ومنها النار .

ولا يعي هذا ويفهمه ويسلك سلوكاً قويماً يتقي الله فيه إلا أولو الألباب والعقول الذين يدركون بعقولهم أنَّ تقوى الله وإيمانهم بالله هو الذي سيُنجيهم

من عذاب الله الشديد المعدّ لمَنْ عتَا وتمرد .

وقولـه ﴿ يَـٰٓأُولِي الْأَلْبَابِ .. (١٠) ﴾ [الطلاق] و (أولو الألباب) هم أصحاب العقول الراجحة ، والألباب جمع لُـبّ . واللبّ هو جوهر الشيء المطلوب ، أما القشر فهو موجود لصيانة اللبّ . وسُمِّى العقلُ لُباً لأنه ينثر القشور بعيداً ويعطينا جوهر الأشياء وخيرها .

فـ (لُبّ الشيء) حقيقة جوهره ، فالقشرة توجد لتحفظ هذا اللبّ ، والمحفوظ دائماً هو أنفَسُ من الشيء الذى يُغلِّفه ليحفظه .

وهكذا يكون أولو الألباب هم البشر الذين يستقبلون القضية الإيمانية بعقولهم ، ويحركون عقولهم ليتذكروها دائماً ، ذلك أنّ مشاغل الحياة ومُتعها وشهواتها قد تصرف الإنسان عن المنهج .

ولذلك قال الحق سبحانه : ﴿ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٥٢) ﴾ [إبراهيم] أى : يتذَّكر أصحاب العقول أن الله واحدٌ أحد ، فلا إله إلا هو .

فـ (أولو الألباب) أى : أصحاب العقول المحفوظة من الهوى ، لأن آفة الرأى الهوى ، والهوى يتمايل به .

فـ (اللبّ) الذى هو العقل يحكم لُبَّ الأشياء لا ظواهر الأشياء وعوارضها ، فهناك أحكام تأتى للأمر الظاهر والحق للُبِّ .

فـ (أولو الألباب) هم أصحاب العقول القادرة على التدبُّر والتفكُّر والتمييز. وقد أسماهم الحق فى آيات أخرى (أولى النهى) قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ (٥٤) ﴾ [طه]

والنُّهى : العقول ، وبها تتم عملية التدبير فى الاختيارات ، والعقل من العقال الذى تعقل به الدابة حتى لا تشرد منك ، وكذلك العقل لم يُخلق لك كى تشطح به كما تحب ، إنما لتعقل غرائزك وتحكمها على قدر مهمتها فى حياتك .

وسُمِّيت العقول كذلك النُّهَى لأنها تنهى عن مثل هذه الشطحات. إذن: فلا بدّ للإنسان من عقل يعقل غرائزه حتى لا تتعدّى المهمة التى جعلت لها ويُوقفها عند حدِّها المطلوب منها، وإلا انطلقتْ وعربدت فى الكون.

لا بدَّ للإنسان من نُهْية تنهاه وتقول له: لا لشهوات النفس وأهوائها، وإلاَّ فكيف تطلق العنان لشهواتك، ولستَ وحدك فى الكون؟ وما الحال لو أطلقَ غيْرِكَ العنان لشهواتهم؟

وسُمّى العقل لُباً ليشير لك إلى حقائق الأشياء لا إلى قشورها، ولتكون أبعدَ نظراً وأعمقَ فكراً فى الأمور.

فالعقل هو الميزان، وهو الذى يُجرى المعادلة ويُوازن بين الأشياء، وكذلك إنْ جاء بمعنى النُّهى أو اللبّ فإنها تؤدى نفس المعنى، فالنّهى من النَّهْى عن الشيء. واللبّ أى حقيقة الشيء وأصله، لا أنْ يكون سطحيَّ التفكير يشرد منك هنا وهناك.

والله لا يُنبِّه الناس إلى ما فيهم من عقل إلا وهو يريد منهم أنْ يحكِّموا عقولهم فى القضية، لأنه جلَّ شأنه يريد منك أنْ تحكِّم عقلك، فإنْ حكَّمت عقلك فى القضية فسيكون حكمُ العقل فى صَفِّ أمر الله.

فمجرد التعقُّل يعطى الإنسانَ الخيرَ، والتعقُّل هو محاولة فَهْم نواميس الكون من الأسباب والمسبِّبات، فيقول تعالى فى آيات كثيرة: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٨٠) ﴾ [المؤمنون]، ويقول تعالى: ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٤) ﴾ [السجدة]

فهو يُحرِّض الإنسان على أنْ يتذكّر ويتفكّر ويعتبر، ولو كان القرآن يريد أنْ يخدع الإنسان لما أثار انتباهه إلى ضرورة التذكّر والتفكّر والتدبّر والاعتبار.

وحين يُنبِّهك الحق سبحانه إلى أنْ تستعمل عقلك فهذا دليلٌ على الثقة فى أنك إذا استعملتَ عقلك وصلتَ إلى القضية المرادة، فلو أنهم استعملوا عقولهم فى استخدام المقدِّمات المحسَّة التى يؤمنون بها ويسلمون.

فمهمة العقل مأخوذة من اشتقاقه ، فالعقل مأخوذ من عقال البعير ، وعقال البعير هو الحبل الذى يُربط به ساقا الجمل حتى لا ينهض ويقوم .

والعقل إنما جاء ليحكم الملكات ، لأن كل ملكة لها نزوع إلى شيء ، فالعين لها ملكة أنْ ترى كلّ شيء ، فيقول لها العقل : لا داعى أنْ تشاهدى ذلك لأنه منظر سيؤذيك ، والأذن تحب أنْ تسمع كل قول فيقول لها العقل : لا تسمعى إلى ذلك حتى لا يضرك .

فالعقل هو الضابط على بقية الجوارح ، ثم ينقلنا الحق سبحانه لوصف آخر للعقل وهو اللبّ ، أى العقل الذى يهتم بمعالى الأمور ويزن الأمور بحكمة ويصل بلُبّه إلى حقائق الأشياء وجوهرها .

ولكن مَنْ هم أولو الألباب ؟

الحق سبحانه هنا يقول : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٠) ﴾ [الطلاق] فـ (الذين آمنوا) بدل من ﴿ أُولِي الْأَلْبَابِ ..(١٠) ﴾ [الطلاق] أى : أن أولى الألباب هم الذين آمنوا .

أى : الذين آمنوا بالله إلهاً ودخلوا معه فى عقد إيمانى ، فآمنوا بالله ورسوله ليس فى قلوبهم ريب ولا شكّ ، بل هم يؤمنون بأن القرآن مُوحى به من الله مُبلَّغ إلى محمد ﷺ بالوحي المُنزَّل من السماء .

آمنوا بالله رباً وإلهاً وخالقاً ، لذلك استحقوا وصف (أولى الألباب) فخذوا عن الله وافعلوا كما أُمرتم لأنكم آمنتم بمَنْ أمركم ، فالذين آمنوا ملتزمون ، وما دام الإنسان ملتزماً فسيعوق نفسه عن حركات الوجود التى تأتيه من غير حِلٍّ.

فيا مَنْ آمنتم بى بمحض اختياركم ، وآمنتم بى إلهاً له كلُّ صفات العلم والقدرة والحكمة والقيومية ، ما دُمتم قد آمنتم بهذا الإله فاسمعوا من الإله الأحكام التى يطلبها منكم .

والحق سبحانه لم يحدِّد فى قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٠) ﴾ [الطلاق]

آمنوا بماذا ؟ فالإنسان إنْ آمن بالله فقط ، فهذا يقتضى أنْ يبحث المؤمنُ بالله عن مطلوب الله ، ومطلوبُ الله إنما جاء به رسول ، لذلك فالإيمان بالله يقتضى أنْ يؤمن الإنسانُ برسول ، لأن قصارى ما يعطيك العقل أيها الإنسان أنْ تؤمن بأن وراء الكون إلهاً خالقاً ويُدبِّره .

وإيمانك برسول يُعتبر إيماناً بالكتاب الذى جاء به وكذلك إيماناً بالملائكة، وكان الذين آمنوا من أولى الألباب ، أو هم أولو الألباب ؛ لأنهم استخدموا عقولهم استخداماً صحيحاً ووصلوا إلى الإيمان الحق بالله وبرسوله وبكتابه ، فلم تأخذهم الأهواء .

ومَن استعمل عقله فى استخدام المقدِّمات المحسَّة التى يؤمنون بها ويُسلمون ، فالعقل أراده الله سبحانه لنا ليحجزنا عن الانطلاق والفوضى فى تحقيق شهوات النفس ، فالحق سبحانه يعقلك عن الحركة التى فيها هوى بأنْ منحك العقلَ ليؤدى لكِ هذه المهمة .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠) ﴾ [الطلاق] نحن نعلم أن (قد) للتحقيق . فـ (قد) إذا دخلت على الفعل الماضى تكون للتحقيق ، وإنْ دخلت على المضارع فهى للتكثير إنْ كانت منطقية الأسباب ، وهى للتقليل إنْ كانت غير منطقية الأسباب .

وكلمة ﴿ أَنْزَلَ .. (١٠) ﴾ [الطلاق] تعنى : أوجد وخلق من أعلى ، وما دام كلُّ شيء قد وُجِد بمشيئة مَنْ هو أعلى من كلِّ الوجود ، فكلُّ شيء لصالحك مباشرة أو بوسائط .

ولا تأخذ كلمة (أنزل) من جهة العلو الحسية ، بل خُذْها من جهة العلو المعنوية، فالمطر مثلاً ينزل من أعلى حسِّياً ويختلط بالأرض فيأخذ النبات غذاءه منها ، والرزق بالمطر ومن الأرض مُقدَّر ممَّنْ خلق ، وهو الأعلى سبحانه .

وقد قال الحق سبحانه : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ

لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥) ﴾ [الحديد]

فقد أنزل الحقُّ سبحانه منهجه على الرسل عليهم السلام لتصلح حياة الناس، وأنزل الحديد أيضاً هذا الذى نستخرجه من الجبال ومن الأرض ، فالمراد هنا بالإنزال الإيجاد ممنْ هو أعلى منك لصالحك أيها الإنسان .

فالله إنما أنزل المنهج ليعمل به الإنسانُ لتستقيم حركة حياته وحياة ذريته، فالله أنزل إلينا منهجه ليُرينا طريق الخير ويُبعدنا عن طريق الشر .

فمنهجُ الله الذى أنزله على رسوله قد عرَّفنا أن الله تبارك وتعالى هو الذى خلق لنا هذا الكون وخلقنا ، وبيَّن اللهُ لنا ماذا يريد الحق منا ، وكيف نعبده ، ومنهج الله أعطانا الطريق وشرعَ لنا أسلوبَ حياتنا تشريعاً حقاً .

أنزل اللهُ تعالى منهجاً للحياة الطيبة للإنسان على الأرض ، فإذا سمعت كلمة ﴿ أَنْزَلَ .. (١٠) ﴾ [الطلاق] تجدها منسوبةً إلى الله دائماً : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) ﴾ [القدر]. إذن : فكلمة (أنزل) مقصورة على الله ، إنما كلمة (نزَّل) تأتى من الملائكة ، و (نَزَل) تأتى من الروح الأمين الذى هو جبريل .

فكأن كلمة ﴿ أَنْزَلَ .. (١٠) ﴾ [الطلاق] بهمزة التعدية ، عدَّتْ القرآن من وجوده مسطوراً فى اللوح المحفوظ إلى أنْ يبرز إلى الوجود الإنسانى ليباشر مهمته .

فلغتنا العربية دقيقة ، وعندنا فرْق بين (أنزل) و (نَزَّل) و (نَزَل) ، ولذلك فكلمة (نَزَل) تأتى للكتاب ، وتأتى للنازل بالكتاب ، يقول تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) ﴾ [الشعراء]

ويقول سبحانه : ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ .. (١٠٥) ﴾ [الإسراء] وكلمة (أنزل) ، (ونزل) تُشعرنا بعُلو المكانة التى نزل منها المنهج ، ونلاحظ أنَّ الحق سبحانه قال هنا : ﴿ قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ .. (١٠) ﴾ [الطلاق]

ويقـول تعالى أيضـاً : ﴿ وَالَّذِيـنَ يُؤْمِنُونَ بِمَـا أُنْزِلَ إِلَيْـكَ وَمَا أُنْزِلَ مِـنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) ﴾ [البقرة]

ولكـن الحق سـبحـانـه يقول فى آيات أخـرى : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْـكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤) ﴾ [النحل]

وهكذا نجد أن الإنزال يـأتى مرة مُتعدِّياً بـ (إلى) ، ويـأتـى مرة أخرى متعدياً بـ (على) ، وقـال بعض من العلمـاء : إن الكلام حينمـا يكون موجهاً لرسول الله ﷺ ، فـالحق يقول : ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ .. (٦٤) ﴾ [النحل]

وكأنَّ هؤلاء العلمـاء – دون قصـد منهم – يفصـلون بين بلاغ الله للرسـول والبـلاغ إلى أمة الرسـول ﷺ ، ولم يلتفتـوا إلى أن الغـاية من إنزال المنهج على الرسول هو هداية الأمـة .

وعلينـا ألاَّ نـأخذ الأمر بسطحية ، فـ (إلى) و (على) إنمـا تفيدان أن المنهج نزل للأمـة وللرسـول ﷺ ، فمرة يـأتى الحق بـالنزول مُتعدياً بـ (إلى) ، ومرة يـأتى الحق بـالنزول مُتعدياً بـ (على) ، ويوجـه الخطـاب لرسـول الله كقوله سـبحـانـه: ﴿ وَمَـا أَنْزَلْنَا عَلَيْـكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُـمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُـدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤) ﴾ [النحل]

ومرة ثـالثة يـأتى الحق بـالإنزال فى حديث إلى المؤمنين : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَـابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُـمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَـا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُـدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ .. (١٤٠) ﴾ [النساء]

إنـه كتـابٌ مُنـزَّل من السمـاء وملحوظ فيه العلـو ، والغـاية مـن النزول هـو مصـلحـة الأمـة ، فـالإتيـان بـ (على) يفيد العلو ، ولمصـلحـة الأمة . (العلوية) هنـا ليُعلى مقـام المنهج فى نظر المؤمنين فهو قد نزل لمصلحتهم .

فـالمنهج هو من حيث العلو يـأتى بـ (على) ، ومن حيث الغـاية يـأتى بـ (إلى)،

فهو منهج نزل من الحق الأعلى ونزل إلى الرسول وعلى الرسول ليُبلغه إلى المؤمنين لمصلحتهم . فكلمة (أنزل) تدل على أن هذا عطاء علوى .

﴿ قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠) ﴾ [الطلاق] ، والذكْر هو حفظ الشيء أو استحضاره، وقد يكون الذكر بمعنى القول لأنك لا تقول الشيء إلا بعد أنْ تستحضره .

وقد أنزل سبحانه القرآنَ ، ورسولُ الله هو أول مَنْ طبَّق القرآن والسنة ، ويقول تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤) ﴾ [النحل]

فالذكر يأتى أحياناً مقصوداً به التذكير بالقرآن وهو المنهج النازل من السماء وطبَّقه رسول الله ، وسنة رسولِ الله من الذكر أيضاً ، والحق سبحانه يصف القرآن فيقول : ﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١) ﴾ [ص] والذكْر ضد النسيان ، وقد وردت معانٍ كثيرة للذكر في القرآن ، وأول هذه المعاني وقمتها أن الذكر حين يُطلق يُراد به القرآن : ﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (٥٨) ﴾ [آل عمران]

وكذلك فى قوله الحق : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ .. (٩) ﴾ [الحجر] إذن: يُطلق الذكر ويُراد به القرآن ، ومرة يُطلق الذكر ويُراد به الصيت أى الشهرة الإعلامية الواسعة ، وقد قال الحق لرسوله عن القرآن : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ .. (٤٤) ﴾ [الزخرف]

أى أن القرآنَ شرفٌ كبير لك ولأمتك ، وسيجعل لكم به صيتاً إلى يوم القيامة، ويقول تعالى : ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ .. (١٠) ﴾ [الأنبياء] أى : فيه شرفكم وفيه صيتكم وفيه تاريخكم .

وشرفُ القرآن دائم أبداً : ﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١) ﴾ [ص] ، وتجد القرآن يقرأ مُرتّلاً ، ويقرأ مُجوّداً ، وكلٌّ هذا ذِكْر وشَرف كبير .

وقد يُراد بالذكْر ما نزل على جميع الرسل ، فالحق سبحانه يقول : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (١) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ[1] إِلَّا

---

(١) محدث : يعني ما يحدث الله من تنزيل شيء من القرآن ويعظهم به . قال مقاتل : يحدث الله الأمر بعد الأمر. وقيل : الذكر المحدث ما قاله النبي ﷺ وبيّنه من السنن والمواعظ سوى القرآن . [تفسير البغوي ٥/٣٠٦].

اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) ﴾ [الأنبياء]

أى : أن كل ما نزل على الرسل ذكر ، ويقول سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ (٤٨) ﴾ [الأنبياء] فالمراد بالذكر كل ما نزل على الرسل من منهج الله .

والذكْر أيضاً التذكير ، فقد أنزل اللهُ تعالى إليهم قرآناً يُذكِّرهم بربهم وخالقهم ليعملوا بما يُرضيه تعالى ، فـ (ذكراً) هنا أي قرآناً يُذكرهم ، فالله أنزل إليكم ذكراً يُذكركم به وينبهكم على حظكم من الإيمان بالله والعمل بطاعته ، فالله أنزل إليكم كتاباً لكم فيه شرفٌ وعِزٌّ وهو القرآن .

ويخاطب الحق سبحانه : ﴿ المص (١) كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ .. (٣) ﴾ [الأعراف]

فهو كتابٌ أنزل من الله وهو المرسل ، و ﴿ إِلَيْكَ .. (٢) ﴾ [الأعراف] لأنك رسول ، والمرسَل إليهم هم الأمة ، إمَّا أنْ تنذرهم إنْ خالفوا ، وإما أنْ تُذكرهم وتهديهم وتُعينهم أو تُبشّرهم إنْ كانوا مؤمنين .

وذِكْر الله إنما أنزله اللهُ ليُتَّبع : ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ .. (٣) ﴾ [الأعراف] فالمنهج الذى يأتى من الرب الأعلى هو الذى يُصلح الحياة ، فاتبعوا ما أنزِل إليكم من ربكم من أعلى .

فلا يصح أنْ تأتى لمن دونه وتأخذ منه ، مثلما يفعل العالم الآن حين يأخذ قوانينه من دون الله ومن هوى البشر ، فهذا يحب الرأسمالية فيفرضها بالسيف ، وآخر يحبّ الاشتراكية فيفرضها على البشر بالسيف ، وكل واحد يفرض بسيفه القوانين التى تلائمه .

وكلها دون منهج الله لأنها أفكار بشر وتتصادم بأفكار بشر ، والأوْلَى من هذا وذاك أنْ نأخذ ممن لا نستنكف جميعاً أنْ نكون عبيداً له ، ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالحَات من الظُّلُمَات إِلَى النُّور وَمَنْ يُؤْمنْ بالله وَيَعْمَلْ صَالحًا يُدْخلْهُ جَنَّات تَجْري مِنْ تَحْتهَا الْأَنْهَارُ خَالدينَ فيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رزْقًا (١١) ﴾ [الطلاق]

فقوله تعالى (رَسُولاً) على البدل من (ذكراً) أي : أنزل اللهُ إليكم ذكراً هو الرسول . وهو معنىً من معاني الآية ، ولكن من معانيها أيضاً أنَّ الله أنزل إليكم ذِكْراً وأرسل رسولاً .

وعلى هذا لا تكون (رسولاً) بدلاً من (ذكراً) ، بل تكون بتقدير (أرسل). والرسول إما هو جبريل عليه السلام ، فيكون القرآن مُنزلاً ، ويكون جبريل الرسول مُنزلاً أيضاً ، لأنه نزل بالقرآن على محمد ﷺ .

فرسولُ الله من الملائكة إلى رسله من البشر هو جبريل عليه السلام ، وقد قال تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) ﴾ [الشعراء] أي نزل جبريل بالقرآن، فجبريل هو الروح الأمين على الوحي وعلى كلام الله ، فـ (نزل) تأتي للنازل بالكتاب .

فجبريل رسولٌ من الله إلى رسول الله ﷺ ، وهو حاملٌ للوحي من الله ، فالقرآن لم ينزل وحده ، وقد نالت الملائكة شرفَ أنْ يكون المبلّغ لرسول الله منهم ، وهو جبريل عليه السلام .

لذلك قال تعالى : ﴿ لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ .. (١٦٦) ﴾ [النساء] والرسول أيضاً هو محمد ﷺ ، فيكون الله قد أنزل إليكم ذِكْراً وبعث إليكم رسولاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَـٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ﴾

فمن نعمة الله علينا أنْ أرسل إلينا رسولاً يتلو علينا آيات الله ، والرسول جاء يتلو آيات الله وآيات القرآن ، وكانت عجيبة عليهم ، وقد جاءهم الرسول بآيات مقروءة ليلفت الناس إلى الآيات المنظورة .

والحق سبحانه يقول : ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ .. (١٦٤) ﴾ [آل عمران] ، وليست المسألة أنه يتلو الآيات ليعجبوا منها فحسب ، فالرسول له مهمة إيمانية تلفت كلَّ سامع للقرآن إلى مَنْ خلق ذلك الكون الجميل البديع الذى فيه الآيات العجيبة .

وهناك فَرْقٌ بين التلاوة والتعليم ، فالتلاوة أنْ يتلو عليهم ، أى أنَّ الرسول هو الذى يتلو ، والتعليم يكون بأنْ يتلوا هم القرآن ، ثم قال : ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ .. (١٦٤) ﴾ [آل عمران] ، وعلَّم أى نقل العلم من معلِّم إلى معلَّم .

وقد كان رسول الله ﷺ ينزل عليه الوحى بعدة آيات ، وقد يطول إلى رُبْعين أو ثلاثة أرباع ، فلما أنْ يُسرَّي[1] عنه يتلو ما نزل عليه على صحابته ليكتبوه، ويتلوه كما أنزل عليه ، فيكتبه الكتبة ويحفظه مَنْ يحفظه منهم ، وكانوا أمةَ روايةٍ وأمةَ حفظٍ .

فالتلاوة هى أنْ تقرأ القرآن ، وأما التعليم فهو أنْ تعرف معنى آيات الله وما جاءتْ به لتُطبِّقه وتعرف من أين جاءت ، ومحمد ﷺ نشأ بينهم ولم يعرف له قراءة ، ولا تلاوة كتاب ، ولا جلوساً إلى معلم .

فمعنى ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ .. (٦٩) ﴾ [الشعراء] أى : اقرأ . ونقول للقراءة (تلاوة) لأنه لا يُتلى إلا المكتوب المعلوم المفهوم ﴿ عَلَيْهِمْ .. (٦٩) ﴾ [الشعراء] أى : على أمة الدعوة كلها ، المصدِّقين بالقرآن والرسول والمكذِّبين .

---

(١) يُسرَّى عنه : يُكشف عنه . سُرِّى عنه بضم السين المهملة وكسر الراء المشددة ، أي كشف عنه شيئاً بعد شيء بالتدريج (عمدة القاري شرح صحيح البخاري لبدر الدين العيني ١٤/٢٤٧) .

فهـذه التلاوة للدعوة ، أما في قولـه تعالى : ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ .. (٤٥) ﴾ [العنكبوت] فهـي تلاوة المسـلم للقرآن للأُنس الذى لا ينقضـى ، وهو كتابُ الله ومعجزته التى أنزلها الله ، فاشتغل بتلاوته ، فمع كل تلاوة له ستجد سكناً إلى ربك .

فـ (اتل) أى اقرأ ولا تعجز ولا تيأس ، فالقرآن سلوة لنفسك ، فميزة معجزتك يـا محمـد أنك تستطيع أنْ تُكرِّرها فـى كلِّ وقـت ، وأنْ تتلوها كما تشـاء وأنْ يتلوها بعدك مَنْ سـمعها ، وسـتظلّ تتردد إلى يوم القيامـة ، والتلاوة قوْلٌ من فعل اللسان .

وقد كان رسـول الله يتلـو القرآن وآيات الله فى بيـوت أزواجه ، قال تعالى :
﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ .. (٣٤) ﴾ [الأحزاب]

فكتابُ الله المقصـود هنـا وآياته هى القرآن الكريم ، ويقول الحق سـبحانه لنبيّه ورسوله محمد ﷺ : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ .. (٢٥٢) ﴾ [البقرة] فكلمة ﴿ آيَاتُ اللهِ .. (٢٥٢) ﴾ [البقرة] تعنى الأشياء العجيبة ، و﴿ نَتْلُوهَا .. (٢٥٢) ﴾ [البقرة] أى : نجعل كلمة بعد كلمة ، وهى من (ولى) أى جاء بعده بلا فاصل .

وآيات الله ثلاثة أنواع :

– آيات كونية ، وهى العجائب التى فى الكون ويُسـمِّيها الله سبحانه آيات ، وقد سمَّى الحقُّ سبحانه الظواهر الكونية آيات ، فقال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ .. (٣٧) ﴾ [فصلت]. وقال سبحانه : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا .. (٢١) ﴾ [الروم]

– وهناك آياتٌ ، هى الدليل على صِدْق الرسل عليهم السلام فى البلاغ عن الله وهى المعجزات لأنها خالفتْ ناموسَ الكون المألوف للناس ، فكلّ شيء له طبيعة ، فإذا خرج عن طبيعته ، فهذا يستدعى الانتباه .

ومثل هذه الآيات النار التى أُلقى فيها إبراهيم عليه السلام ولم تحرقه، فأعداؤه أخذوه وألقوْا به فى النار فنجَّاه الله سبحانه من النار فخرج منها سالماً .

ولم يكُنْ المقصود من ذلك أنْ ينجو إبراهيمَ من النار، فكان من الممكن أنْ لا يُمكِّنهم الحق عزّ وجلَّ من أنْ يُمسكوه ابتداءً، ولو شاء الله تعالى أنْ يطفيء النارَ بقليل من المطر لفعلَ، لكن ذلك لم يحدث .

الذى حدث أنهم أمسكوا بإبراهيم عليه السلام وألقوا به فى نار عظيمة، ولكن النار لم تحرقه لأنَّ الله أمرها، فقال : ﴿ يَـٰنَارُ كُونِي بَرْدًا[1] وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ .. (٦٩) ﴾ [الأنبياء]

- وتُطلق الآيات أيضاً على آيات القرآن الكريم، وما دامت الآيات القرآنية من الله، والمعجزات من الله، وخَلْق الكون من الله، فهل هناك آية تصادم آية؟ لا لأن الذى خلق الكون وأرسل الرسل بالمعجزات وأنزل القرآن هو الله إلهاً واحداً، ولو كان الأمرُ غير ذلك لحدث التصادم بين الآيات .

وكلمة الآيات تُستعمل للأمور العجيبة اللافتة للنظر، تقول مثلاً : فلان آيةٌ فى الحسن، أى أن حُسْنه لافتٌ للنظر، وتقول : فلانٌ آية فى الذكاء، صحيح أنَّ هناك أذكياءَ كثيرين لكنه آية فى الذكاء . أى أن هذا الإنسان أمره عجيبٌ فى الذكاء، فالآيات هى التى يقف الإنسان عندها وقفةً طويلة ليتأمل فى عجائبها .

فالآيات قسمان : منظور ومقروء . المنظور : كل الكون .. والمقروء هو القرآن، فالقرآن يفسر آيات الكون، وآياتُ الكون تفسر آيات القرآن، والرسول جاء يتلو آيات القرآن، ليلفت الناسَ إلى الآيات المنظورة .

وبتلك الآيات المنظورة يكون العجب من دِقَّة خَلْق الكون، فينتهى الإنسانُ إلى الإيمان بمَنْ خلق هذا الكون .

---

(١) قال ابن عباس : لو لم يقل سلاماً لمات إبراهيم من بردها، ومن المعروف في الآثار أنه لم يبق يومئذ نار في الأرض إلا طفئت، فلم يُنتفع في ذلك اليوم بنار في العالم . [تفسير البغوي ٥/٣٢٨] .

فالرسول له مهمة إيمانية تلفت كلَّ سامع للقرآن إلى مَنْ خلق هذا الكون الجميل البديع الذى فيه الآيات العجيبة ، ثم يعطى الرسول من بعد ذلك المنهج الذى يناسب جمال الكون ، فالرسول ينقل المؤمنين إلى المنهج الذى يُزكى الإنسان .

منهج النور الواضح فى كلماته ، فالمطلوب من الرسول أنْ يبلّغ المنهج ، وقد بلّغه ﷺ بلاغاً مبيناً محيطاً واضحاً ومستوعباً لكل أقضية الحياة .

وقوله تعالى ﴿ **مُبَيِّنَات** .. (١١) ﴾ [الطلاق] أى : مُبيّنات لمن سمعها وتدبّرها أنها من عند الله ، يُبين لكُم ما تحتاجون إليه من الأحكام ، وهى فى ذاتها بيِّنة واضحة جلية .

و﴿ **مُبَيِّنَات** .. (١١) ﴾ [الطلاق] بكسر الياء هى قراءة حفص[1] وغيره على صيغة اسم الفاعل ، أى أن الآيات تبين للناس ما يحتاجون إليه من الأحكام، أما قراءة الجمهور فهى : مبيَّنات . بفتح الياء أى بيَّنها الله وأوضحها ، كقوله تعالى: ﴿ **قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ** .. (١١٨) ﴾ [آل عمران] بيَّن الله فيه الحلال والحرام.

وقد قال تعالى فى آيات أخرى : ﴿ **وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ** .. (٣٤) ﴾ [النور] فالله تعالى قد أنزل لكم الآيات الواضحة التى تضمنُ لكم شرف الحياة وطهارتها ونقاء نسل الخليفة لله فى الأرض .

وهذه الآيات ما تركت شيئاً من أقضية الحياة إلا تناولته وأنزلت الحكم فيه ، وقد نلتمس لكم العذر لو أن فى حياتكم مسألة أو قضية ما لم يتناولها التشريع ولم ينظمها .

---

(١) هو حفص بن عمر بن عبد العزيز الأزدي الدوري أبو عمر ، إمام القراءة في عصره ، كان ثقة ثبتاً ضابطاً ، هو أول من جمع القراءات ، كان ضريراً نسبته إلى الدور وهي محلة ببغداد ، نزل سامراء ، وتوفي بقرية من قرى الري وهي طهران حالياً وذلك عام ٢٤٦ هجرية [الأعلام للزركلي ٢٦٤/٢] وانظر تراجم القراء (١٣/١) للشيخ فائز بن عبد القادر .

لذلك يقول سيدنا على رضى الله عنه عن القرآن : فيه حكم مابينكم ، وخبر ما قبلكم . ونبأ ما بعدكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله[1].

ولا يزال الزمان يثبت صدق هذه المقولة ، وانظر هنا وهناك لتجد مصارع الآراء والمذاهب والأحزاب والدول التى قامت لتناقض الإسلام ، سواء كانت رأسمالية شرسة أو شيوعية ملحدة .. إلخ كلها انهارت على مرأى ومسمع من الجميع.

نعم . مَنْ تركه من جبار قصمه الله ، ومَنْ ابتغى الهدى فى غيره أضلّه الله لأنه خالقك ،وهو أعلمُ بما يُصلحك ، فلا يليق بك إذن أنْ تأخذ خَلْق الله لك ثم تتكبَّر عليه وتضع لنفسك قانوناً من عندك أنت .

ومعنى ﴿ مُبَيِّنَاتٍ .. (١١) ﴾ [الطلاق] أى : مبينات لاستقامة حركة الحياة ، لأن حركة الحياة تحتاج لأنْ يتحرك الجميع ، ويؤدى كلٌّ مهمته حتى تتساند الحركاتُ ولا تتعاند ، فالذى يُتعِب الناس فى هذه الدنيا أنْ تبنى وغيرك يهدم .

ومقصود هذه الآيات هو ما قاله تعالى هنا : ﴿ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .. (١١) ﴾ [الطلاق]

والرسول عندما يأتى ليُخرج الناسَ من الظلمات إلى النور يريد أناساً تفهم عنه ، لذلك يأتى من أنفسهم ، ويكون إنساناً له مواصفاتكم ، لذلك قال تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ .. (١٦٤) ﴾ [آل عمران]

فالقرآنُ نزل ليُخرج الناسَ من الظلمات إلى النور ، فيسير الناسُ على هدى وعلى بصيرة .

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٢٩٠٦) والبزار في مسنده (٨٣٦) والدارمي في سننه (٣٣٣١) وابن أبي شيبة في مصنفه (٣٠٦٢٩) من حديث علي بن أبي طالب عن رسول الله ﷺ : « ألا إنها ستكون فتنة . فقلت : ما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : «كتاب الله فيه نبأ ما كان قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم» . إلخ .

والحق سبحانه يعقد لنا مقارنة بين الذين آمنوا والذين كفروا ، يقول تعالى: ﴿ اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .. (٢٥٧) ﴾ [البقرة] ثم يقول : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ .. (٢٥٧) ﴾ [البقرة]

فالمؤمنون وليّهم الله ، والله لا يترك عباده فى ظلمات الشرك والكفر، بل يُخرجهم من الظلمات إلى نور الإيمان والتوحيد والطاعة ، فالله وليّ الذين آمنوا يتولّى شئونهم وأمورهم ، وهو ناصرهم ومُحبّهم ومُعينهم .

وهو سبحانه يُخرجهم من ظلمات الجهل إلى نور الإيمان ، أما الذين كفروا فأولياؤهم الطاغوت يُخرجهم من النور إلى الظلمات .

والذين آمنوا هم الذين اتبعوا رضوانه فسلكوا سبل السلام ، قال تعالى : ﴿ يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .. (١٦) ﴾ [المائدة]

فمَن اتبع رضوانه يهديه الله لسُبل السلام ، ففيه رضوان مُتبع ، وفيه سبل سلام كمكافأة ، هؤلاء يُخرجهم الله من الظلمات إلى النور ، والظلمات هى محلّ الاصطدام .

وعندما يُخرجهم من الظلمات إلى النور يروْنَ الطريق الصحيح الموصِّل إلى الخير والطريق الموصِّل إلى غير الخير ، والله لم يقُلْ : ليُخرج الذين آمنوا من الظلمات إلى الأنوار ، فلم يجمع (النور) بل جعله مفرداً ، فالنور واحد لا يتعدد، أما الظلمات فمتعددة بتعدُّد الأضواء ، ظلمة هنا وظلمة هناك .

والحياة لا تحتاج فقط إلى ما يثير المظاهر المادية بالنور ، بل تحتاج أيضاً إلى نور ينير ويكشف المظاهر المعنوية .

والنور الذى جاء به رسول الله ﷺ يجلى الحسَّ والمعنى فى آن واحد لنتجنب

الأشياء التى تطمسها الظلمة ، ولنسير على بيِّنة من المعانى فلا نصطدم بالعقبات.

وقد يقول قائل : لماذا يعيش الناسُ فى الظلام ولا يتجهون إلى النور من أول الأمر؟ وتكون الإجابة : إنَّ هناك أناساً يستفيدون من وجود الناس في الظلمات ، لذلك يكون بينهم أناسٌ ظالمون وأناسٌ مظلومون .

والظالم الذى يأخذ – اغتصاباً – خير الآخرين ويُعربد فى الكون يخاف من رجل الدعوة الذى ينهاه عن الظلم ويدعوه إلى هداية العقل ومنطقه ، ومثل هذا الظالم عندما يسمع كلمة المنطق والدعوة إلى الإيمان لا يحب أنْ تُنطق هذه الكلمة ، إنه يكره الكلمة والقائل لها .

والذين يعيشون فى الظلام يكونون قد ألفوا الظلمة والفوضى ، وكُلٌّ منهم يعربد فى الآخرين ، وعندما جاء الدين فرَّ بعضهم من مجيء النور ، لأن النور يحرمهم من لذَّات الضلال ، ولأن النور يوضح الرؤية .

والظلمات هى محلّ الاصطدام ، وعندما يُخرجهم من الظلمات إلى النور يروْنَ الطريق الصحيح الموصِّل إلى الخير ، والطريق الموصِّل إلى غير الخير، وبعدما يخرجون من الظلمات إلى النور تكون حركاتهم متساندة وليست متعاندة ، ولا يوجد صدام ولا شيءَ يُورثهم بغضاء وشحناء .

والظلمة المعنوية أقوى من الظلمة الحسِّية ، وكذلك النور المعنوى أقوى من النور الحسى .

والله إنما يُخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فكلُّ عمل سلوكيٍّ لا بد أنْ يوجد من ينبوع عقدىٍّ ، والإيمان أنْ تنسجم حركة الحياة مع ما فى القلب وفْق مراد الله سبحانه ، فكأنّ العملَ الصالح ينبوعه الإيمان .

ونحن حين نسمع ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا .. (١١) ﴾ [الطلاق] فهذا عمل قلبى ونسمع بعده ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (١١) ﴾ [الطلاق] وهذا عمل الجوارح ، فبعمل القلب مع عمل الجوارح يتحقق من السلوك ما يتفق مع العقيدة .

والاعتقاد القلبى يجعل مشاقّ التكليف فى الأعمال الصالحة مقبولة وهيِّنة، وفائدة الإيمان إنما تتحقق بالعمل الصالح .

والصالحات هى جمع صالحة ، والصالحة هى الأمر المستقيم مع المنهج، وضدها الفساد ، وأقلّ الصالحات هو أنْ يترك الصالح على صلاحه أو يزيده صلاحاً .

ولا يوجد إنسان يعمل كل الصالحات ، لذلك يقول تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (١٢٤) ﴾ [النساء]

فهناك مَنْ يحاول عمل بعض من الصالحات حسْب قدرته ، والمطلوب من المؤمن أنْ يعمل من الصالحات على قدْر إمكاناته ومواهبه .

وأول مرتبة فى الأعمال الصالحة أنْ يترك الإنسانُ الأمورَ الصالحة على صلاحها ، فإبقاء الصالح على صلاحه معناه أن المؤمن لن يعمل الفساد ، وكلُّ عمل تصلح به خلافة الإنسان فى الأرض هو عمل صالح .

فالذى يرصف طريقاً حتى يستريح الناسُ من التعب عمل صالح ، وتهيئة المواصلات للبشر حتى يصلوا إلى غايتهم عملٌ صالح ، ومَنْ يعمل على ألاَّ ينشغلَ بالُ البشر بأشياء من ضروريات الحياة فهذا عملٌ صالح .

وقد رتَّب الحق سبحانه على الإيمان بالله وعمل الصالحات ثواباً فى الآخرة، فقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ .. (١١) ﴾ [الطلاق] فالحق سبحانه مع الحياة الطيبة التى يمنحها الله لمن أطاعه بإيمانه وعمله الصالح فيحيا فى الدنيا حياةً مطمئنةً بالإيمان، فالله أيضاً يُدخله جنات ، وليس جنة واحدة بل هى جنات تجرى من تحتها الأنهار.

فهى تجرى من تحتها فكأنَّ منبعها ومصدرها من تحت هذه الجنات بزروعها وبنيانها ، فإن الزروع هى التى تحتاج إلى مياه ، أما المبانى فنحن

نخشى على المبانى من المياه ، وهذا بتقديرنا نحن ، أما بتقدير الله فهو يُعد الشيءَ إعداداً يليق به سبحانه .

فالخَلْق قد يشقُّون نهراً ،و نجد بعد ذلك النشْع يضرب فى المبانى ، لكن تصميمات الحق بطلاقة قدرته سبحانه تكون فيه الجناتُ تجرى من تحتها الأنهار ولا يحدث منها نشع ، سواء من تحت أبنية الجنات ، أو من تحت زروعها.

والحق سبحانه مرة يقول : ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ .. (١١) ﴾ [الطلاق] ومرة أخرى يقول : ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ .. (١٠٠) ﴾ [التوبة] فهذا ممكن وهذا ممكن .

وهى أنهار ذاتية ، وهى أنهار لا شُطآن لها ، وهى أنهارٌ من أشياء متنوعة مُحبَّبة للإنسان ، قال تعالى : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ[١] وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى .. (١٥) ﴾ [محمد]

فآفة ماء النهر فى الدنيا أنه قد يقف ويركد ويصبح ماءً راكداً آسناً متغيرَ الرائحة ، وتظهر فيه الطحالب ،لذلك قال تعالى عن أنهار الماء فى الجنة أنها ﴿ أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ .. (١٥) ﴾ [محمد]

فالله ينزع منها الأكدار التى تراها فى الأنهار الحادثة فى الحياة الدنيا ، وهى جاريةٌ أبداً فى أنهار لا شطوط لها تحجز الماء .

وقد روى أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ مرفوعاً أنه قال: « أظنكم تظنون أن أنهارَ الجنة أخدودٌ فى الأرض ، لا والله إنها لسائحة على وجه الأرض، إحدى حافتيها اللؤلؤ والأخرى الياقوت ، وطينها المسك الأذفر . قلت : ما

(١) الماء الآسن : المتغير الريح . قاله أبو عبيدة والزجاج . وقال ابن قتيبة : هو الماء المتغير الريح والطعم. [زاد المسير لابن الجوزى ٥/ ٣٧٥].

الأذفر ؟ قال : الذى لا خلطَ له »[1].

أمـا أنهار اللـبن الذى لم يتغير طعمه ، فقد كان العربيُّ يأخذ اللبن من الإبل ويخزنه فى القِرَب ، وبعد ذلك ترحل الإبل بعيداً إلى المراعى إلى حيث تسـافر، وعندمـا كان الأعرابـى يحتاج إلى اللبن فلم يكُنْ أمامـه غير اللبن المُخزَّن فى القِرَب، ويجده متغيرَ الطعم لكن لا يجد غيره .

لذلك يُعطيهم الحق سبحانه أنهاراً تجرى باللبن لم يتغير طعمه ، ولن يتغير طعمه لأنهم سيحيوْنَ فى هذه الجنة ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا .. (١١) ﴾ [الطلاق]

﴿ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ .. (١٥) ﴾ [محمد] ولكن خمر ليست كخمر الدنيـا إضـاعةً للعقـل وذهاباً به ، إنما هى مجرد ﴿ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ .. (١٥) ﴾ [محمد]، وخمـر الدنيـا لا يشربها الناسُ بلـذَّة ، بدليل أنك عندمَا ترى مَـنْ يشرب كأسَ خمر فهو يسكبه فى فمه مرة واحدة .

ليس كمـا تشرب أنت كوباً من مانجـو وتتلذذ به ، إنه يأخـذه دفعة واحدة ليُقلِّل سرعة مروره على مذاقاته لأنه لاذع ومحمِّض وتغتال العقولَ وتفسدها، لكن خمر الآخرة لا اغتيالَ فيها للعقول .

ورابع الأنهار أنهار العسـل المُصفَّى ، وهو عسـلٌ لا رملَ فيه ولا حصى ولا شـوائب ، فمـا يُعكر عليك العسـل فـى الدنيا سأُصفِّيه أنا لك فـى الآخرة دون معالجة منك ، ودون بذْل مجهود .

عسلٌ ليس فيه كلّ الشوائب الموجودة فى عسل الدنيا ، فالله يُقدِّم لنا خير ما كنا نحبه من عسل الدنيا ولكن بدون ما يُكدره .

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا .. (١١) ﴾ [الطلاق] فجنةُ الآخـرة لا تزول عنهم ولا هم يُزحزحونَ عنها ، والخلود أبداً هو المكث طويلاً طولاً لا ينتهى ، فإذا كان الخلودُ هو

---

(١) أخرجه أبو نعيم الأصفهاني في كتابه (حلية الأولياء) [٦/٢٠٥] ، وابن أبي الدنيا في (صفة الجنة ٦٦) والديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب (٥٤١٢) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

المكث طويلاً فإن ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا .. (١١) ﴾ [الطلاق] أى أن المكث فى الجنة ينتقل من المكث طويلاً إلى المكث الدائم .

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ .. (١٠٨) ﴾ [هود]

فعن أى سماء وأى أرض تلك التى تحدَّث عنها الحق سبحانه ؟ هل هى السماء التى نراها ؟ أو الأرض التى نعيش عليها ؟ كيف والله يقول : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ .. (٤٨) ﴾ [إبراهيم]

فهذه الأرض التى نعيش عليها والسماء التى تُظلنا ستدمَّران يوم القيامة ، فأين هى الأبدية والخلود ؟ ولا بد أنْ نغفل عن الخلود هنا بالأرض والسماوات المبدَّلات ، وهى أرض المعاد ، أرضٌ حياتُك فيها بدون أسباب ، لا تزرع ولا تحصد ولا تصنع لتعيش .

بل هى أرضٌ ساعةَ يخطر الشيء على بالك تجده أمامك دون أنْ تتحمل أيَّ مشقة .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقًا .. (١١) ﴾ [الطلاق]

كلمة ﴿ رِزْقًا (١١) ﴾ [الطلاق] هنا تذكِّرنا بالوعد الذى قطعه اللهُ على نفسه العلية لمن اتقى الله ، فقال : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ .. (٣) ﴾ [الطلاق]

فالله يرزق مَنْ يتقى الله فى الدنيا رزقاً واسعاً من حيث لا يظن أو يحتسب أو يتوقَّع ، فيرزقه رزقَ نفسه وامرأته التى فى عصمته أو نفقة المرأة التى طلّقها، ويرزقه رزقَ أبنائه .

حتى إذا كانت الآخرةُ رزقه اللهُ رزقاً آخر فيدخله جناتٍ تجرى من تحتها الأنهار

خالدين فيها أبداً ، ثم يُتبعها الله بقوله : ﴿ قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا (١١) ﴾ [الطلاق]

فالله يُوسِّع له في الجنات رزقاً بما فيها من المطاعم والمشارب وسائر ما أعدَّ لأوليائه فيها فطيَّبه لهم ، في جنة لا ينقطع نعيمها .

فهذا وعد كريم من ربٍّ رحيم يعد كل مَنْ آمنْ به وعمل صالحاً أنْ يُدخله جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ، قد أحسن اللهُ له فيها رزقاً ، وهو نعيمُ الجنة الذي لا ينفد ولا ينقطع أبداً .

وأيّ جزاء أحسن من الجنة ؟! وأيّ رزق أحسن من رزقها ؟! فلا يُقاس رزق الأرض برزق الآخرة في الجنة ، والله هو الرازق في الدنيا والآخرة ولكن الله يُهوِّن من رزق الأرض إلى جانب رزق الجنة .

والحق سبحانه لم يقُلْ هنا : قد أحسن اللهُ لهم بل قال تعالى : ﴿ قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ .. (١١) ﴾ [الطلاق] بالإفراد دلالةً على أن لكلٍّ فرد رزقاً على وجه الخصوص به لا رزقاً على العموم ، والناسُ يتفاوتون في رزق الدنيا وأيضاً يتفاوتون في رزق الجنة من مطاعم ومشارب ومساكن .

أما الذي يشتركون فيه جميعاً فهو الخلود في الجنة ، لذلك قال تعالى : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا .. (١١) ﴾ [الطلاق] بالجمع ، فالخلود يشمل الجميع .

وقد حدَّثنا الله عن رزق الجنة في آيات كثيرة ، فقال سبحانه : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَـٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا .. (٢٥) ﴾ [البقرة]

وكما في البقرة حديث عن أنهار الجنة كذلك في سورة الطلاق ، وأيضاً تحدثت الآيتان في سورتين عن رزق الجنة ، وهو حديث عن ثمر الجنة وثمر الجنة يختلف عن ثمر الدنيا في طعمه وفي رائحته حتى وإنْ تشابها في الاسم[1].

---

(١) عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ : ﴿ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا .. (٢٥) ﴾ [البقرة] في اللون والمرأى وليس يشبه الطعم . وعن ابن عباس قال : ليس في الدنيا من الجنة شيء إلا الأسماء . وقال عبد الرحمن بن زيد : يعرفون أسماءه كما كانوا في الدنيا ، التفاح بالتفاح ، والرمان بالرمان [تفسير الطبري ١/٤١٦] .

فأهـل الجنة يـروْنَ ثمرهـا ويتحدَّثون يقول ربمـا تكون هذه الثمرة هـى ثمرة المـانجو أو التين الذى أكلنـاه فى الدنيـا ولكنهـا تـختلف تمامـاً فى الحقيقة .

فطعـام أهـل الجنة لا ينتج عنه فضـلات ، فـالإنسـان يـأكل كمـا يشـاء دون أنْ يحتـاج إلى إخـراج فضـلات ، وذلـك لاختلاف ثمـار الدنيـا عـن الآخرة فى التكوين.

ورزق الدنيا قد يكون فتنة ، ثم إن الرزقَ فى الجنة يأتى من الله بدون أسباب، وهو أفضل وأعلى منزلة من الرزق الذى يتم بـالأسبـاب .

ومـا دام قد أحسـن اللهُ له رزقاً والله يخـبر كلَّ مؤمن بهذا من الآن فما عليه إلا أنْ يُحسن فى عمله الصالح ، وهذا كما قال قوم قارون له : ﴿ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا .. (٧٧) ﴾ [القصص]

ثم يقولون له : ﴿ وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) ﴾ [القصص]

فكمـا أحسـن الله إليك أحسِـنْ إلى النـاس ، وكمـا تحـب أنْ يغفر الله لك فـاغفر لغيرك إساءته ، ومـا دام ربّك يعطيك فعليك أنْ تعطى ، ومن الإحسان أنْ لا تبغى الفساد فى الأرض ، والفساد يأتى من الخروج عن منهج الله فإنْ غيّرت فيه فقد أفسدتَ ، فـالفساد كمـا يكون فى المـادة يكون فى المنهج وفى المعنويات .

يقـول سـبحـانـه : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا .. (٥٦) ﴾ [الأعراف] فـالحق سـبحـانه خلق كل شيء على هيئة الصـلاح لإسعاد خَلْقه فلا تعمد إليه أنت فتفسده ، ومن هذا الصلاح المنهج ، فـالمنهج هو قوام الحياة المعنوية أوْلَى من قوام الحياة المـادية .

إذن : فلتكُنْ مؤدّباً مع الكون من حولك ، فإذا لم تستطع أنْ تزيده حُسناً فلا

أقلّ من أنْ تدعه كما هو دون أنْ تُفسده .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢) ﴾

فمنهج الله الذى أنزله على رسله قد عرفنا أن الله تبارك وتعالى هو الذى خلق لنا هذا الكون وخلقنا ، فدقة الخلق وعظمته تدلّنا على أن هناك خالقاً عظيماً .

والله هنا يُذكِّرنا بعظمة الخالق سبحانه ، وقد قال تعالى فى آيات أخرى : ﴿ اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) ﴾ [الرعد]

وقال : ﴿ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٢) ﴾ [إبراهيم]

﴿ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ (١) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) ﴾ [إبراهيم]

(١) دائبين : دؤوبهما في طاعة الله . قاله ابن عباس . [الطبري ٢٠٩٣٧] قال ابن كثير في تفسيره (٥١١/٤) : دائبين أي يسيران لا يقران ليلاً ولا نهاراً . (٥٧٧/٦) : لا يفتران ولا يقفان إلي يوم القيامة .

والله سبحانه وتعالى يعطينا خبر خَلْقه السماوات والأرض ، وأوضح سبحانه أن السماوات سبع وقد جاءت مجموعة ، أما الأرض فجاء بها مفردة، فقال تعالى:
﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ .. (٥٤) ﴾ [الأعراف]

لكنه جلَّ وعلا يقول هنا فى سورة الطلاق : ﴿ اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ .. (١٢) ﴾ [الطلاق]

فكما خلق سبع سماوات خلق سبع أراضين ، ولكن لماذا جاء بالسماء بالجمع فقال (سموات) وترك لفظ (الأرض) مفرداً ؟ لماذا لم يقل : سبع أراضين ؟ وذلك لأن كلمة (أرضين) ثقيلة على اللسان فتركها لثقلها ، وأتى بالسماوات مجموعةً لخفّتها ويُسْر نطقها .

فحين تكلم الحق سبحانه عن الأرض والسماء قال ، إنها سبع سماوات ولم يقل سبع أراضين ، بل قال : ﴿ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ .. (١٢) ﴾ [الطلاق] فدلَّ على أن الأرض سبع كالسماء ، وإنْ كانت السماء كل ما أظلّك ، فالأرض كلّ ما أقلَّك، لكن أين هذه الأراضين السبع ؟

لقد أخبرنا القرآن الكريم أن السماوات سبع ، وأخبرنا النبى ﷺ أنه مرَّ بها فى مرحلة المعراج فقال فى الأولى كذا وكذا ، وفى الثانية كذا وكذا[1] وما دامت السماء كل ما أظلّك والأرض كل ما أقلّك ، فالخَلْق فى السماء الأولى مثلاً سماؤهم السماء الثانية ، وأرضهم سماؤنا الأولى وهكذا وهكذا ..

فالسماء سقف ، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا

---

(١) أخرج البخاري في صحيحه (٣٤٩ أبو ذر) (٣٨٨٧ مالك بن صعصعة) قال أبو ذر : فُرج عن سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم ثم جاء بطست من ذهب ممتلىء حكمة وإيماناً فأفرغه في صدري ثم أطبقه ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء الدنيا .. وفيه : فإذا رجل قاعد على يمينه أسودة وعلى يساره أسودة إذا نظر قبل يمينه ضحك وإذا نظر قبَل يساره بكى فقال : مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح . قلت لجبريل : من هذا ؟ قال : هذا آدم . وفي السماء الثانية ابنا الخالة يحى وعيسى عليهما السلام . وفي السماء الثالثة يوسف . وفي السماء الرابعة إدريس . وفي السماء الخامسة هارون . وفي السماء السادسة موسى عليه السلام .

مُعْرِضُونَ (٣٢) ﴾ [الأنبياء]وهو سقف من صُنْع الخالق العظيم ، سقف يغطى الأرض كلها ومحفوظ بلا أعمدة يراها البشر .

لذلك قال تعالى : ﴿ اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا .. (٢) ﴾ [الرعد]، وقال : ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ .. (١٠) ﴾ [لقمان]

فالله سبحانه خلق السماوات مرتفعة قائمة بقدرته لا تستند على شيء وأنتم تنظرون إليها وتشاهدونها بغير دعائم ، ويصح أيضاً أن تعود إلى العمد أى بغير العمد التى نعرفها ، ولكن رفعها الحق بقوانين الجاذبية .

أو رفع السماوات ﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا .. (١٠) ﴾ [لقمان] أى أن العمد مختفية عن رؤية البشر .

فحين ننظر إلى الأفق نجد السماء من غير عمد ، وخَلْق السماوات والأرض ليست عملية سهلة وهو سبحانه القادر ، إنه سبحانه خلق الإنسان خَلْقاً عجيباً، وأعجب منه خَلْق السماوات والأرض ، فهو سبحانه القائل : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ .. (٥٧) ﴾ [غافر]

وهكذا نعلم أنه سبحانه إما أنه حمل السماوات على أعمدة أدقّ وألطف من أنْ تراها أعيننا ، ولذلك نراها بغير أعمدة ، أو أنها مرفوعة بلا أعمدة على الإطلاق .

وقد تكون موجودة ، ولكنكم لا ترونها بحكم قانون إبصاركم ، ولا تعجب من أنْ يوجد مخلوق لا تراه ،فالعين وسيلة من وسائل الإدراك ولها قانون خاص فهى ترى أشياء ولا ترى أشياء أخرى .

و ﴿ اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ .. (١٢) ﴾ [الطلاق] فليس الله هو ما يعبده المشركون من الآلهة والأوثان التى لا تقدر على خَلْق شيء، ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ

﴿ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ .. (٤٠) ﴾ [فاطر]

وخَلْق السماوات والأرض دليل على كمال قدرته سبحانه وعظمته ، يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) ﴾ [نوح] فالحق سبحانه هو الخالق لسبع سموات بإتقان بعضها فوق بعض ، فلا يرى الناظرُ أيَّ خلل فى هذا الخلق .

ويقول تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا[1] مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ[2] فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ .. (٣) ﴾ [الملك]

فليُعد الإنسانُ النظرَ إلى السماء فلن يجد أيَّ خلل من شقوق أو فروق ، و (فطور) معناها شقوق . وهذه صنعة الخالق سبحانه الذى يبنى ويُسوِّى ويُزيِّن .

﴿ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ .. (١٢) ﴾ [الطلاق] فالله خلق من الأرض مثل السبع سماوات ، فى كل واحدة منهن مثل ما فى السماوات من الخَلْق مالا يعلمه إلا الله .

والحق سبحانه يقول : ﴿ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ .. (١٢) ﴾ [الطلاق] يتنزل الأمر أمر الله بين السماء السابعة والأرض السابعة ، فبين كلِّ سماءين أرض وأمر ، والأمر قد يكون الوحى ، وقد يكون القضاء والقدر .

وذلك بحياة بعض وموت بعض ، وغِنَى قوم وفَقْر قوم ، ولله فى أمره تدابير، فيُنزل سبحانه المطر ويُخرج النبات ، ويأتى بالليل والنهار ، والصيف والشتاء.

---

(١) طباقاً : مطابقات بعضها فوق بعض . [زاد المسير لابن الجوزي ٦/ ٥٠] قال مقاتل بن سليمان في تفسيره (٣/ ٤٠٢) : ما بين كل سماءين مسيرة خمسمائة عام وعظمها مسيرة خمسمائة عام . وقال ابن جرير الطبري (٢٣/ ١١٩) : طبقاً فوق طبق .

(٢) تفاوت : تشقق . قاله ابن عباس . وقال قتادة : من تفاوت أى من اختلاف . قال ابن كثير في تفسيره (٨/ ١٧٧) : أي مستو ليس فيه اختلاف ولا تنافر ولا مخالفة ولا نقص ولا عيب ولا خلل .

وقال البعض من العلماء[1] : فى كل أرض من أرضه ، وسماء من سمائه خَلْقٌ من خلقه ، وأمر من أمره ، وقضاء من قضائه .

فالأمر يعم الوحى وجميع ما يأمر به سبحانه من تصريف الرياح والسحاب وغير ذلك من عجائب صُنْعه لا إله غيره .

ثم يقول سبحانه : ﴿ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٢) ﴾ [الطلاق] فقضاء الله وأمره يتنزّل بين ذلك كى تعلموا أيها الناس كُنْه قدرته وسلطانه ، وأنه لا يتعذَّر عليه شيء أراده ، ولا يمتنع عليه أمر شاءه ولكنه على ما يشاء قدير .

فكلُّ شيء يدخل فى إرادة الله وقدرته سبحانه ، فالله له مُلْك السماوات والأرض ، وهو على كل شيء قدير ، فلله طلاقة القدرة فى مُلْكه ، ولذلك إذا قال أنه سيأتى بأمر فسيتحقق هذا الأمر حتماً وسيتم ، ولا توجد قدرة فى هذا الكون إلا قدرة الله سبحانه ، ولا قوةَ إلا قوته جلَّ جلاله ، ولا فعل إلا ما أراد .

فالله لا يُعجزه شيء ولا يخرج عن طاعته شيء ، وهو سبحانه القادر الأعلى، القادر على كلِّ شيء ، وهو قدير على أنْ تظل سننه دائمة ولا توجد قوة تزحزح هذه القضية لأن السنن وضعها الله ، فمَن الذى يُغيِّرها ؟

إنها لن تتغير إلاَّ بقوة أعلى ، ومعاذ الله أنْ تكون هناك قوة أعلى من قوة الله .

والله قدير حتى قبل أنْ يوجد مقدورٌ عليه ، فلم يكُنْ قديراً فقط عندما خلق الإنسان ، بل بصفة القدرة خلق الإنسان ،لأن الله سبحانه وتعالى ليس له أغيار ، لذلك يظلّ قديراً وموجوداً فى كل لحظة ، وهو كان وما يزال .

وسبحانه وتعالى القدير أبداً ، فسبحانه قد قدر على أن يُوجد خَلقه كلهم،

(١) قاله قتادة فيما ذكره عنه السيوطي في الدر المنثور (١٤/ ٥٦١) وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر. وأخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٣٢٤٠) وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٦/ ٤٤).

ويعطى لهم ما يحفظ لهم حياتهم ويحفظ لهم نوعهم ، إنه قادر على أنْ يعطى رزق القوت ورزق المبادىء والقيم وأنْ يُوفى خَلْقه رزقهم في كلٍّ عطاء .والله يُنزل قضاءه وأمره بين ذلك كى تعلموا أيها الناس كُنْه قدرته وسلطانه ، وأنه لا يتعذر عليه أمر شاءه ، ولكنه على ما يشاء قدير.

ثم يقول تعالى : ﴿ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢) ﴾ [الطلاق] فالله سبحانه مدرك لكل الأشياء والخواطر ، فما بالسمع يسمعه ، وما بالعين يراه ، وما فى الصدر يعلمه . وما هو فى أيّ حِسٍّ من أحاسيس الإنسان هو عليم به، لأنه أحاط بكلٍّ شيء علماً .

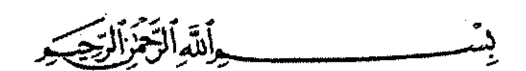
والإحاطة تقتضى العلم والقدرة على الناس ، فلن يُفلتوا من علم الله ولا من قدرته ، ولا بدَّ من العلم مع القدرة ، لذلك قال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ .. (٦٠) ﴾ [الإسراء]

فإحاطته سبحانه بالناس تعنى أنه سبحانه يعلمهم ويقدر على تنفيذ أمره فيهم .




سورة التحريم

سورة التحريم [١]



يقول الحق سبحانه : [٢]

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) ﴾

الجامع بين الرسول ﷺ وأمته ليس أنه محمد ، إنما الجامع أنه رسول الله وأنه نبيُّ الله ، فلا بد أنْ نناديه بهذا الوصف ، ولم لا وربّه عز وجل وهو خالقه ومصطفيه ، قد ميّزه عن سائر إخوانه من الرسل ومن أولى العزم ، فناداهم بأسمائهم .

---

(١) سورة التحريم سورة مدنية ، وهي رقم ٦٦ في ترتيب المصحف . عدد آياتها ١٢ آية . ترتيب نزولها ١٠٧ نزلت بعد سورة الحجرات . ومن أسمائها أيضاً سورة (لم تحرم) نزل بعدها سورة الجمعة .

(٢) سبب نزول الآية : عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يحب الحلواء والعسل وكان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه فدخل على حفصة بنت عمر واحتبس عندها أكثر مما كان يحتبس ، فعرفت فسألت عن ذلك فقيل لي : أهدت لها امرأة من قومها عُكة عسل فسقت منه النبي ﷺ شربة ، قلت : أما والله لنحتالن له . فقلت لسودة بن زمعة : إنه سيدنو منك إذا دخل عليك . فقولي له : يا رسول الله أكلت مغافير ؟ فإنه سيقول لك : سقتني حفصة شربة عسل . فقولي : جرستْ نحلُه العرفط . وسأقول ذلك وقولي أنت يا صفية ذلك . قالت سودة : فوالله ما هو إلا أن قام على الباب فكدت أن أبادئه بما أمرتني به ، فلما دنا منها قالت له سودة : يا رسول الله أكلت مغافير ؟ ...» الحديث بطوله أخرجه الواحدي في أسباب النزول (٤٣٠) .

﴿ يَـٰٓـَٔادَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ .. (٣٥) ﴾ [البقرة] ، وقال : ﴿ يَـٰنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا .. (٤٨) ﴾ [هود] ، وقال : ﴿ يَـٰٓإِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا .. (١٠٥) ﴾ [الصافات] ، وقال : ﴿ يَـٰمُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ .. (٣٠) ﴾ [القصص] ، وقال : ﴿ يَـٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ .. (١١٦) ﴾ [المائدة] ، وقال : ﴿ يَـٰدَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ .. (٢٦) ﴾ [ص]

لكن لم يُناد رسول الله باسمه أبداً ، إنما ناداه بـ (يأيها الرسول) أو (يأيها النبى) ، فإذا كان الحقُّ تبارك وتعالى لم يجعل دعاءه للنبى كدعائه لباقى أنبيائه ورسله ، أفندعوه نحن باسمه .

ينبغى أنْ نقول : يأيها الرسول ، يأيها النبى ، يارسول الله ، يانبيَّ الله، فهذا هو الوصف اللائق المشرف به ﷺ .

وحين ينادى الحق سبحانه وتعالى أشرف مَنْ ناداهم وهم رسله ، نجد أنه سبحانه نادى كل الرسل بمشخصاتهم العَلَمية (يا آدم) والمشخَّص العَلَمى هو الاسم ، وهو لا يعطى وصفاً إلا تشخيص الذات بدون صفاتها .

فكلُّ الرسل ناداهم الحق سبحانه بالمشخَّص العَلَمَى الذى لا يعطى إلا التشخيص ، أما رسول الله خاتم الرسل فما ناداه الله باسمه أبداً ، إنما ناداه الله بالوصف الزائد عن مشخَّصات الذات .

وذلك لأن الله سبحانه يريد أنْ يبلغنا أن محمداً ﷺ هو الرسول الذى جاء ناسخاً ومؤمناً بالكل ، هو الذى يستحق النداء بالوصف الزائد عن مشخَّصات الذات (يأيها الرسول) ، وهو الرسول الذى تقوم عليه الساعة .

فقوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ .. (١) ﴾ [التحريم] نداء لرسول الله ﷺ ، والمنادِى هو الحق سبحانه ، رسول الله لقبه ، واسمه محمد ، واسمه أحمد كما ذكر فى القرآن ، والإنسان حين يُولد يُوضَع له اسم يدل على مُسمَّاه .

ورسـول الله لـه اسـم وكنية ولقـب ، أمـا اسـمـه فمحمد ، وقد ورد فـي القرآن الكـريم أربـع مرات ، ﴿ وَمَا مُحَمَّـدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِـهِ الرُّسُلُ .. (١٤٤) ﴾ [آل عمـران] ، ﴿ مَـا كَانَ مُحَمَّـدٌ أَبَا أَحَدٍ مِـنْ رِجَالِكُمْ وَلَـٰكِنْ رَسُـولَ اللهِ.. (٤٠) ﴾ [الأحـزاب] ، ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُـولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ .. (٢٩) ﴾ [الفتح] ، ﴿ وَالَّذِيـنَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُـزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ .. (٢) ﴾
[محمد]

وورد بـاسم أحمد فى موضع واحد هو ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ .. (٦) ﴾
[الصف]

أمـا كنيتـه فـأبو القـاسـم ،ولقبـه رسـول الله ، فرسـول الله لما وُلد أسـمـاه جده بـأحبّ الأسمـاء عنده ، وقـال : سمّيته محمداً ليحمد فى الأرض وفى السمـاء [1].

ولمـا وُلد القـاسم كُنِّي بـه رسول الله فقيل : أبو القـاسم ، فلمـا اختـاره الله للرسـالـة وللسـفـارة بينـه تعـالى وبين الخَلْق لقبه برسـول الله ويـالنبى وهذان اللقبـان على قدر عظيم من الرِّفْعة لو جاءت من البشر ، فمـا بـالك وهـى من عند الله .

ونُـودى ﷺ بيـأيها النبى ويـأيها الرسـول تعظيمـاً لـه ، ونحـن حين نريد أنْ نعظم مَن ننـادى نسبق الاسم بمقدمـات ، نقول : يـا سيدى فلان يـا فضيلة الشيخ، يا صاحب العزة .. الخ

وقـد تقدَّمـتْ (أيهـا) على المنادى هنـا ، لأن الاسـم المنـادى المُحلَّى بـأل لا يُنـادى مبـاشرة إلا فى لفظ الجلالـة (الله) فنقول : يـا الله ، فكأنَّ الحق سـبحـانه توحّد حتى فى النداء ، وهذا فى نداء المفرد .

والحق سـبحـانه نـادى رسـولـه بيـأيهـا النبى ، ويـأيهـا الرسـول ، الرسـول هو

---

(١) ذكره محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت ١٣٩٣ هـ) في كتابه (التحرير والتنوير ٢٣٧/٣) أن جد رسول الله عبد المطلب بن عبد منـاف قيل لـه : لم سميتـه محمداً وليس من أسماء آبـائك ؟ فقال : رجوت أن يحمده النـاس .

سفير بين الله وبين خَلْقه ، ليُبلغهم منهجه الذى يريد أن تسير عليه حياتهم فالرسول مُبلِّغ ، أما النبى فرسول أيضاً من قِبَل الحق سبحانه ، لكن ليس معه شرع جديد ، إنما يسير على شرع مَنْ سبقه من الرسل ، أما هو فقدوة وأسْوة سلوكية لقومه .

ومحمد ﷺ جمع الأمرين معاً ، فهو نبى ورسول له خصوصيات أُمر بها ولم يُؤمر بتبليغها – وهذه مسائل خاصة بالنبوة – وله أمور أخرى أُمر بها وأمر بتبليغها .

والمعلوم من أقوال العلماء أن كل رسول نبى ، وليس كل نبى رسولاً بالمعنى الاصطلاحى ، وإلا فهم جميعاً مُرْسَلون من قِبَل الله .

وقوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ .. (١) ﴾ [التحريم] فكلمة النبى مأخوذة من النبأ وهو الخبر الهام ، فالخبر يكون من البشر للبشر ، فإنْ كان من خالق البشر فهو نبأ ، أى أمر عظيم ينبغى الاهتمام به وأصله من النَّبْوة ، وهى الشيء العالى المستدير فى وسط شيء مُسْتو .

فحين تقول : رأيت فلاناً اليوم . هذا لا يُسمَّى نبأ إنما خبر ، لذلك قال سبحانه: ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ .. (٢) ﴾ [النبأ] أى الخبر الهائل الذى هزَّ الدنيا كلها وملأ الأسماع وزلزل العروش .

ونبوة رسول الله نبوة رحيمة كانت سبباً فى تنزُّل الرحمة تِلْو الرحمة، ولنبوته أدبٌ وخُلُق عظيم عالٍ ، وأهل النبوة هم الذين اتبعوا منهج النبى .

والنبوة حينما تأتى إنما تأتى لتلفت الناسَ إلى السماء وإلى منهجها ، ولتنتظم حركة حياتها فى الكون ، وأن المنتفع أولاً وأخيراً بالمنهج هم أنفسهم، لأنهم هم الذين يشقُون بمخالفتهم منهج الله .

ومسألة النبوة هى اصطفاءٌ إلهيّ يكبر ويسمو على كلّ مقامات الدنيا ،

والنبوة رحمة ، قال تعالى : ﴿ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا.. (٦٥) ﴾ [الكهف]

ولذلك عندما قالوا : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْءانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف] ردَّ الله عليهم ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ .. (٣٢) ﴾ [الزخرف] أى النبوة .

ويقول تعالى : ﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥) ﴾ [البقرة]

فالله يعطى الرحمة لمن يشاء لكى يؤدى مهمته أو يُنزل رحمته على مَنْ يشاء ، والرحمة هى عطاءات ألوهية ، وهى رحمة الله العليا أنْ يرسل رسولاً، ومطلق الرحمة تأتى على يد جبريل عليه السلام وعلى يد الرسل ، فعطاؤه تعالى فى النبوات رحمة أشاعها الله فى ذرية إبراهيم عليه السلام .

فكيف يقسمون رحمة الله التى هى النبوة وهى قمة حياتهم ، ونحن نقسم لهم أرزاقهم ومعايشهم فى الدنيا ؟ فمعنى ﴿ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا .. (٧٥) ﴾ [الأنبياء] أى فى ركْب النبوة ﴿ إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ .. (٧٥) ﴾ [الأنبياء] أى : للنبوة، والله أعلم حيث يجعل رسالته .

لكن قمة هذه الرحمة جاءت فى النبى الخاتم والرسول الذى لا يُستدرَك عليه برسول بعده ، لذلك خاطبه ربه بقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴾ [الأنبياء] ، فالرسل قبل محمد ﷺ كانوا رحمة لأممهم ، أما محمد فرحمة لجميع العالمين .

والرسالة رحمة من الله يختصّ بها مَنْ يشاء من عباده ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ .. (١٢٤) ﴾ [الأنعام]

وحتى نفرق بين النبى والرسول نقول : النبى مُرسل والرسول مرسل كلاهما مُرْسَل من الله ، ولكن النبى لا يأتى بتشريع جديد ، وإنما هو مُرسل على منهج الرسول الذى سبقه .

واقرأ قوله سبحانه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ .. (٥٢) ﴾ [الحج] فالنبيّ مُرْسَل أيضاً ولكنه أُسْوة سلوكية لتطبيق منهج الرسول الذى سبقه .

لكنْ هناك فرْقٌ بين أنْ يرسل الحقّ تشريعاً مع رسول ، ويكون هذا التشريع مُستوعباً لأشياء وأحكام لم تكُنْ موجودة فى الرسالة السابقة عليه وبين أنْ يأتى إنسانٌ مُصْطفى من الله ليطبق فقط ما جاء فى الرسالات السابقة .

فالأنبياء قد أرسلهم الله ليكونوا نموذجاً تطبيقياً للشرع السابق عليهم ولم يأتوا بشرع جديد ، لكن الرسول هو مَنْ أرسله الله بشرع جديد ليعمل به وأمره الحق بتطبيقه ، هذا هو الزائد فى مهمة الرسول .

إن الحقّ سبحانه أرسل الرسل بالشرع والتبليغ والتطبيق ، وأرسل الحقّ الأنبياء ليكونوا الأُسْوة السلوكية فيُطبِّقوا ما أرسل به الرسل السابقون عليهم.

والحق سبحانه هنا يخاطب نبيه ﷺ : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ .. (١) ﴾ [التحريم]

وهو خطابٌ ونداء معاتبة لرسول الله ، وكثيراً ما تجد فى القرآن عتاباً لرسول الله ، وهو عتابٌ لصالحه لا عليه ، كما تعاتب ولدك الذى أجهد نفسه فى المذاكرة خوفاً عليه .

ومن ذلك قوله تعالى معاتباً نبيه ﷺ : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ (٣) ﴾ [عبس]

والعتاب هنا لأن رسول الله ﷺ ترك الرجل المؤمن[1] الذى جاءه يستفهم عن أمور دينه وذهب يدعو الكفار والمكذِّبين به ، فكأنه اختار الصعب الشاق وترك السهل اليسير .

(١) هو عبد الله بن أم مكتوم . أخو بني فهر وقد كان أعمى . وعن عائشة قالت : أنزلت ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [عبس : ١] في ابن أم مكتوم قالت : أتى إلى رسول الله ﷺ فجعل يقول : أرشدني . قالت : وعند رسول الله من عظماء المشركين قالت : فجعل النبي ﷺ يعرض عنه ويقبل على الآخر . ويقول : أترى بما أقوله بأساً ؟ فيقول : لي . ففي هذا أنزلت ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ تفسير الطبري (٢٤/٢١٧) .

إذن : فالعتاب هو عتابٌ لصالح الرسول لا ضده ، كما يظن البعض فى فهمهم لهذه الآيات .

كذلك الأمر فى قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ .. (١) ﴾ [التحريم] فالله يعاتب رسوله لأنه ضيَّق على نفسه ، فحرَّم عليها ما أحلَّه الله لها .

فالله كثيراً ما عاتب رسوله ، وعتابه لرسوله له لا عليه ، ففى عتابه فى شأن ابن أم مكتوم نجد أن الرسول وجد طريق الإيمان برسالته يسير سيراً سهلاً بين الضعفاء ، ولكنه شغل نفسه وأجهدها رجاء أنْ يتذوق المستكبرون المتجبِّرون حلاوة الإيمان .

فالعتاب هنا لصالح مَنْ ؟ إنه عتابٌ لصالح رسول الله ، ولشدة حرصه ﷺ على هداية القوم أجمعين ، كان يحب أنْ يعامل الطغاة بشيء من اللين ليتألف قلوبهم .

وهنا يقول تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ .. (١) ﴾ [التحريم] وكان الرسول ﷺ قد حرَّم أموراً على نفسه[1] ولم يحرمها على الناس .

وهنا يوضح له الحق سبحانه : لا تُحرم على نفسك ما أحللتُ لك . إذن : هذا أمرٌ لمصلحة الرسول .

فأمر التحريم موكولٌ إلى الخالق سبحانه وكذا أمر التحليل ، وليس للإنسان أنْ يتدخّل فى ذلك أبداً ، فتدخُّل الإنسان يكون أحياناً بتحريم ما أحلَّ الله وأحياناً يكون تدخُّله بتحليل ما حرّم الله .

والله عزَّ وجلَّ يقول : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ .. (٨٧) ﴾ [المائدة]

---

(١) حرَّم على نفسه أكل العسل ، وفي رواية أنه حرّم على نفسه إتيان مارية لأنه أتاها في غرفة حفصة رضي الله عنها .

وآية ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ .. (١) ﴾ [التحريم] تشـير إلى أمر أغضـب النبـى ﷺ ، فامتنـع عـن بعض ما ترغب فيـه النفس البشرية مـن أمور حلَّلها الله.

والنبى ﷺ لم يُحل ما حرَّم الله بل حرَّم على نفسه ما أحلَّ الله له ، وهذا ضد مصلحته وكأنَّ الحق سبحانه يُسائله : لماذا ترهق نفسك ؟ فهدا عتب لمصلحة النبى ﷺ .

والتحريم تضييق على النفس ، فالحق سبحانه يعتب على رسوله لأنه ضيَّق على نفسه ، وحرَّم عليها ما أحلَّه الله له ، كما تعتب على ولدك الذى سهر طويلاً فى المذاكرة حتى أرهق نفسه ، فالعتاب لصالح الرسول لا ضدَّه .

والله تعالى أحلَّ أشياء وحرَّم أشياء ، فلا تنقل شيئاً مما حُرِّم إلى شيء أُحِلّ، ولا شـيئاً مما أُحلَّ إلى شـيء حُرِّم ، كما قال الحق سبحانه : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ .. (٣٢) ﴾ [الأعراف]

وربُّك يا محمد لا يُضـيِّق عليك ، وينهاك أَنْ تضيِّق على نفسك وتحرِّم عليها ما أحلَّ لها ، كما يلومك على أن تحلل ما حرّم عليك ، لأن ذلك فى صالحك .

وقد روتْ السـيدة عائشـة رضى الله عنها أن النبى ﷺ كان يمكث عند زينب بنت جحش فيشرب عندها عسلاً ، قالت عائشة : فتواطأتُ أنا وحفصة أنْ أيّتنا ما دخل عليها رسول الله فلتقُلْ له : إنِّى أجد منك ريح مغافير أكلتَ مغافير(١).

فدخل رسـول الله على إحداهما فقالت له ذلك . فقال ﷺ : بل شربتُ عسـلاً عند زينب ولن أعود له ، فنزل قوله تعالى : ﴿ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ

(١) مغافير : صمغ كريه الرائحة يصدر عن شجر الطلح وهو العُرفط . وهو جمع مغفور . قال الكرماني : هو نوع من الصمغ يحلب عن بعض الشجر يحل بالماء ويشرب وله رائحة كريهة . [عمدة القاري ٨٧/٣٠] وقد كان رسول الله يكره أن تشم منه رائحة كريهة .

أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ[١] أَيْمَانِكُمْ وَاللهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ[٢] قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا[٣] عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ .. (٤) ﴾ [التحريم]

وأصل هذه القضية أنَّ رسول الله كان إذا صلَّى الغداة دخل على نسائه امرأة امرأة ، وكانت قد أهديت لحفصة بنت عمر رضي الله عنه عكة[٤] من عسل، فكانت حفصةُ إذا دخل عليها رسول الله مسلِّماً حبسته وسقته منها ، وأنَّ عائشة رضى الله تعالى عنها أنكرت احتباسه عندها .

فقالت عائشة لجويرية عندها حبشية يُقال لها خضراء :[٥] إذا دخل رسول الله على حفصة فادخلى عليها فانظرى ماذا تصنع فأخبرتها الخبر وشأن العسل فغارت فأرسلت إلى صواحبها ، وقالت : إذا دخل عليكُنَّ رسول الله ، فقُلْنَ: إنَّا نجد منك ريح مغافير ، وهو صمغ العرفط[٦] كريه الرائحة ، وكان رسول الله يكره ويشقُّ عليه أنْ يوجد منه ريحٌ منتنة لأنه يأتيه الملَك .

---

(١) تحلة أيمانكم : كفارة أيمانكم . والمعنى : قد بيَّن الله لكم تحليل أيمانكم بالكفارة فأمره الله أن يكفِّر يمينه فأعتق رقبة . [زاد المسير لابن الجوزي ٦/ ٤٥] .

(٢) صغت قلوبكما : زاغت وأثمت . قال الزجاج : عدلت [فتح القدير للشوكاني ٧/ ٢٥٢] .

(٣) تظاهرا عليه : أي تتظاهرا . قرأ الجمهور (تظاهرا) بحذف إحدى التاءين تخفيفاً . والمراد بالتظاهر التعاضد والتعاون . والمعنى : إنْ تعاضدا وتعاونا في الغيرة عليه منكما وإفشاء سره . [فتح القدير للشوكاني ٧/ ٢٥٢] .

(٤) العُكة : آنية السمن أصغر من القِرْبة . جمعها عُكَك وعكَاك . نقل السيوطي في (المزهر في علوم اللغة ١/ ٣٤٤) : الاسم العام في ظروف الجلود للبن وغيره الزقف ، إن كان فيه لبن فهو وطيف ، وإن كان فيه سمن فهو نحْي ، فإن كان فيه عسل فهو عكة ، فإن كان فيه ماء فهو شكوة وقربة ، فإن كان فيه زيت فهو حمين .

(٥) في (الشمائل الشريفة) للسيوطي (١/ ٢٣٦) : « كانت ناقته تسمى العضباء وبغلته الشهباء وحماره يعفور وجاريته خضراء » . نقله عن البيهقي في سننه عن جعفر بن محمد عن أبيه مرسلاً .

(٦) العرفط : شجر من العضاه (كل شجر له شوك) ينضح المغفور منه . وهو يفترش على الأرض لا يذهب في السماء (أي ليست له ساق) له ورقة عريضة وشوكة حديدة حجناء (مُعْوجَّة) . مفرد العرفط عرفطه .

وكان أنْ دخل رسولُ الله على امرأة امرأة وهُنَّ يقُلْنَ له ذلك ، ثم دخل على عائشة فأخذتْ بأنفها ، فقال لها النبى : ما شأنك ؟ قالت : أجد ريح المغافير أأكلتها يا رسول الله . قال : لا بل سقتْنى حفصة عسلاً . قالت : جرستْ نحلُه[1] العُرْفط . فقال لها : والله لا أطعمه أبداً فحرمه على نفسه[2] .

والحق سبحانه يربأ برسوله وحبيبه محمد ﷺ أنْ يقع فيما وقع فيه يعقوب عليه السلام عندما حرَّم على نفسه أشياء لم يحرمها الله بل كانت حلالاً .

قال تعالى : ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٣) ﴾ [آل عمران]

فيعقوب عليه السلام أو إسرائيل حرَّم بعضاً من الطعام على نفسه وهو حُرٌّ فى أنْ يأخذ أو يترك ، أو أنه قد حرَّم على نفسه فوافقه الله ، لأن الناذر حين ينذر شيئاً لم يفرضه الله عليه ، فهو قد ألزم نفسه بالنذر أمام الله .

وإسرائيل إنما حرَّم على نفسه بعضاً من الأطعمة ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ .. (٩٣) ﴾ [آل عمران]

وصار ما حرَّمه إسرائيل على نفسه مُحرَّماً على بنى إسرائيل ، أما ما حرّمه رسولُ الله على نفسه فقد عاتبه الله فيه ولم يَسْرِ التحريم على أمته ﷺ ، بل أرسى الله قاعدة فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ .. (٣٢) ﴾ [الأعراف]

وما دام قد أخرج اللهُ الزينة لعباده فهو قد أرادها لهم .

وقوله : ﴿ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ .. (١) ﴾ [التحريم] أى تبتغى بذلك التحريم

---

(١) جرست : رعت . [مقدمة فتح الباري ١/ ٩٥] والمعنى أن نحل هذا العسل الذي شربته قد رعت شجر العرفط ، لذلك ظهرت رائحته الكريهة في العسل .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٥٢٦٨ ، ٦٩٧٢) وكذا مسلم في صحيحه (٣٧٥٢) . من حديث عائشة رضي الله عنها .

مرضاة زوجاتك ، فقوله (تبتغي) مفسرٌ لقوله (تحرم) . وهو أيضاً بمعنى مُبتغياً به مرضاة أزواجك في محلٍ نصب على الحال من فاعل (تحرم) .

و ﴿ مَرْضَاةَ .. (١) ﴾ [التحريم] لترضى أزواجك ، وأزواج جمع زوج ، وكلمة الزوج تعني مفرداً معه مثله ، فلا نأخذ كلمة الزوج على أنها اثنان ، يقول تعالى : ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٣٩) ﴾ [القيامة] إذن : فالذكر زوج والأنثى زوج أيضاً .

وقد كان رسول الله خيْرَ الناس لأهله وأزواجه ، وكان حريصاً على الإحسان إليهنَّ وإرضائهن ما استطاع ، فأراد الحق سبحانه أنْ يُصوِّب هذا الأمر ليضعه في إطاره الصحيح ، أن الزوج لا يُحرِّم شيئاً أحلَّه الله له لمجرد إرضاء الزوجات، فالأغلب فيهنَّ أنْ لا يَرضَيْن بشيء .

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) ﴾ [التحريم] وهو دليلٌ على أن الله تعالى قد غفر لرسوله ما وقع فيه من تحريم ما أحلَّه وأباحه.

فالمغفرة من الله والرحمة منه أيضاً ، فالله ﴿ غَفُورٌ .. (١) ﴾ [التحريم] لما قد بدر وحصل منكم من ذنوب استغفرتم ربكم منها ، فهو ﴿ رَحِيمٌ (١) ﴾ [التحريم] بكم فلا يعاجلكم بالعقوبة شفقةً عليكم وحُباً في رجوعكم إليه .

والله غفور رحيم حتى لمَنْ توانى قليلاً ، وذلك حتى يلحق بالركْب الإيماني ويتدارك ما فاته ، لأن الله يغفر ما فات إنْ حاول العبد تداركه ، والله سبحانه غفور رحيم أزلاً ، فهو غفور رحيم قبل أنْ يوجد مغفور له ، وهو سبحانه رحيم قبل أنْ يوجد مرحوم .

فالصفات ثابتة له سبحانه ، والله هو الذي يُغير ولا يتغيَّر فلن يغيره زمنٌ ما ، بل كان في الأزل غفوراً رحيماً ، وما يزال أيضاً غفوراً رحيماً ، وكذلك كان علمُ الله أزلياً وحكمته لا حدودَ لها .

وصفة المغفرة وصفة الرحمة فى مطلقهما تكون لله وحده ، وهى توبةٌ للجانى ورحمة للمجنى عليه ، فالله سبحانه له طلاقةُ القدرة فى أنْ يغفر وأنْ يرحم .

فاياك أنْ تقول : إنَّ فلاناً لا يستحق المغفرة والرحمة لأنه سبحانه مالك السماء والأرض ، وهو الذى أعطى للبشر ما يستحقون بالحق الذى أوجبه على نفسه وله طلاقةُ القدرة فى الكون .

والله غلبت رحمتُه ومغفرتُه غضبَه وعقابه ، وقد قال رسول الله ﷺ « إن الله كتب كتاباً قبل أنْ يخلق الخَلْق : إنَّ رحمتى سبقتْ غضبى ، فهو مكتوبٌ عنده فوق العرش»[١].

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢ ﴾

نحن نعلم أن (قد) للتحقيق . و (فرض) فعل ماضٍ يدلّ على أن حدث الفعل وقع فى زمن الماضى ، فكفّارة اليمين قد أوجبها الله قبل وقوع اليمين من رسول الله ﷺ .

و (قد) إذا دخلتْ على الفعل الماضي تكون للتحقيق ، أما إذا دخلتْ على المضارع فهى للتكثير إنْ كانت منطقية الأسباب ، وهى للتقليل إنْ كانت غير منطقية الأسباب .

ولكن (قد) أحياناً تكون للتحقيق إذا دخلتْ على المضارع إذا كان الفعلُ متعلقاً بصفة من صفات الله ، مثل قوله تعالى : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِي

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٧٥٥٤) وأبو يعلي في مسنده (٦٤٣٢) وابن منده في التوحيد (٧١٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

يَقُولُونَ .. (٣٣) ﴾ [الأنعام]

فعلم الله علمٌ أزليٌ ، ولا قوةَ ولا أمرَ يخرجّان عن معلوم الله ، فـ (قد) هنا داخلةٌ على الفعل المضارع وهى هنا للتحقيق ، فالحق سبحانه أراد أنْ يُبلغنا أنه علم أزلاً بما حدث ، وجاء بـ (قد) لنستحضر صورة الفعل .

والفرض هو التكليف الذى كلَّفنا الله به ، فالله فرض علينا خمس صلوات فى اليوم والليلة ، وفرض علينا صيام شهر رمضان ، وفرض زكاةً قدرُها باثنين ونصف بالمائة من مالك الذى بلغ النصاب وحال عليه حول أى عام كامل ، وفرض على المستطيع حج بيت الله الحرام مرة فى العمر .

فإذا زاد الإنسانُ ركعات كتطوع أو صيام أيام من غير شهر رمضان أو تصدّق بما يزيد على ما فرضه الله من زكاة أو حج أكثر من مرة حج الفريضة أو اعتمر، فهذا ليس فرضاً عليه إنما هو تطوَّع تطوُّع به من جنس ما فُرض عليه .

فالحق سبحانه عندما يقول ﴿ وَبِالْأَسْحَارِ[1] هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) ﴾ [الذاريات]
وقوله ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) ﴾ [الذاريات]

هل الحق سبحانه هنا فرض على المؤمنين أنْ يُصلُّوا آناء الليل فلا يهجعون إلا قليلاً من الليل ؟ لا ، ولكن مَنْ يريد أنْ يدخل فى مقام الإحسان فهو يفعل ذلك .

أما المسلم العادى فيكتفى بصلاة العشاء ، وعندما يأتى الصبح فهو يؤدى الفريضة ، ولكن مَنْ يدخل فى مقام الإحسان فقليلاً من الليل ما يهجع .

وكلمة (فرض) تقتضى أنْ يوجد فارض ، ويوجد مفروض عليه ، والفارض هنا هو الله الذى ملك ، وهناك فرق دقيق بين (فرض) و (واجب) ، فالفرض يكون قادماً من أعلى ، لكن الواجب قد يكون من الإنسان نفسه ، فالإنسان قد يُوجب على نفسه شيئاً .

---

(١) الأسحار : قال محمد رشيد رضا في تفسير المنار (٣/٢٠٧) : هو الوقت الذي يطيب فيه النوم ويشق القيام . قال الطاهر بن عاشور في (التحرير والتنوير) الأسحار جمع السَّحَر وهو آخر الليل .

ولكى نُوضح أمر الفرض والفريضة نجد قوله تعالى عن المهور ﴿ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً .. (٢٤) ﴾ [النساء] أى : أن الذى فرض المهر أو الصداق للمرأة هو الله .

﴿ وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ .. (٢٤) ﴾ [النساء] ، ونلحظ هنا أن هناك فرقاً بين أنْ يشرع الحق لحق ، وأن يترك باب الفضل مفتوحاً ، فمن حقّها أنْ تأخذ المهر ، لكن ماذا إذا تراضتْ المرأة مع الرجل فى ألاّ تأخذ المهر وتنازلت له عنه ؟

أو أنْ يعطيها أكثر من المهر ؟ هذا ما يدخل فى قوله تعالى : ﴿ وَلا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ.. (٢٣٧) ﴾ [البقرة] فلا لوْمَ ولا تثريبَ فيما يتراضى به الزوجان من بعد الفريضة .

ويقول الحق سبحانه فى أول سورة النور : ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا .. (١) ﴾ [النور] والشيء المفروض هنا معناه الواجب أن يُعمل لأنَّ المشرع قاله وحكم به وقدَّره .

ومنه قوله سبحانه : ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ .. (٢٣٧) ﴾ [البقرة] أى نصفَ ما قدَّرتم . إذن : كل شيء له حكمٌ فى الشرع ، فإنَّ الله تعالى مقدره تقديراً حكيماً على قدره .

هذا الفرض غير فرض الأركان الخمسة للإسلام التى هى فرض من الله عز وجل ، أما هنا فهو إيجاب يُوجبه الفرد على نفسه .

ومعنى ﴿ فَرَضْنَاهَا .. (١) ﴾ [النور] أى فرضنا ما فيها من أحكام ، فهى سورة عظيمة من القرآن أنزلناها وأوجبنا العمل بأحكامها .

والحق سبحانه يقول هنا ﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ .. (٢) ﴾ [التحريم] فقال تعالى : (لكم) ولم يقُلْ : عليكم . فالفرض هنا والإيجاب هو لمصلحتكم لتجدوا مخرجاً من الأيمان التى أقسمتموها وأوقعتم بها أنفسكم فى الحرج ، فهو سبحانه يُبين لكم المخرج من أيمانكم .

وقال بعض العلماء[1] : إذا وصل بـ (على) لم يحتمل غير الإيجاب كما فى قوله تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ .. (٥٠) ﴾ [الأحزاب] ، أما إذا وُصل باللام (لكم) احتمل الوجهين ، التبيين والإيجاب .

ونلاحظ أن الحق سبحانه عندما خاطب رسوله ﷺ قال : ﴿يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ .. (١) ﴾ [التحريم] فخاطب مفرداً ، ولكن عندما أشار إلى فرضه كفارة اليمين قال تعالى : ﴿ قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ .. (٢) ﴾ [التحريم]

فانتقل من خطاب المفرد إلى خطاب المجموع ، ولذلك اختلف العلماء هل كفَّر رسول الله عن يمينه أم لا ؟ أَمْ أن المطالب بتكفير اليمين هم ما دون رسول الله .

فذهب الحسن البصرى إلى أن رسول الله لم يكفِّر عن يمينه لأنه كان مغفوراً له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر[2]، إنما هو تعليم للمؤمنين ، ولكن هل هذا ذنب ؟

هل امتناع رسول الله عن أكل العسل أو حلفه على هذا مرضاةٌ لأزواجه ؟ وهل هذا يُعد ذنباً لكى نقول إنه ﷺ قد غُفرت له ذنوبه المتقدمة والمتأخرة ، لذلك فهو لا يحتاج إلى التكفير عن يمينه ؟

ورسول الله ﷺ هو القائل لنفر من الأشعريين ، والله لا أحملكم وما عندى ما أحملكم . وأُتى رسول الله بنهب[3] إبل ، فسأل عنّا فقال : أين النفر الأشعريون، فأمر لنا بخمس ذود غُر الذّرى ، فلما انطلقنا قلنا : ما صنعنا لا يُبارك لنا ، فرجعنا إليه فقلنا : إنّا سألناك أنْ تحملنا ، فحلفت أنْ لا تحملنا أفنسيت ؟

---

(١) قال فخر الدين الرازي في تفسيره (٣٠/٥٦٩) : قال صاحب (النظم) : إذا وصل بـ (علي) لم يحتمل غير الإيجاب كما في قوله تعالى ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ .. (٥٠)﴾ [الأحزاب] وإذا وصل باللام احتمل الوجهين .

(٢) ذكره الفخر الرازي في (مفاتيح الغيب) (٣٠ / ٣٧٠) .

(٣) نهب إبل : غنيمة إبل ، والجمع : النِّهاب . [الصحاح في اللغة للجوهري ٢/٢٣٤] والنهب : الغنيمة . [كتاب العين للخليل بن أحمد – ٤/٥٩] والجمع نهاب ونهوب ، [لسان العرب – مادة نهب] .

قال : لستُ أنا حملتكم ولكن الله حملكم وإنّى والله إنْ شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذى هو خير وتحللتها[1] وقد أنزل الله فى هؤلاء قرآناً فقال تعالى : ﴿ وَلاَ عَلَى الذينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (٩٢) ﴾ [التوبة]

فلم يكن بحوزة رسول الله دواب تحملهم فينصرفون وأعينهم تفيض من الدمع حزناً لأنهم لا يجدون ما ينفقون ، وكان المؤمن من هؤلاء يحزن لأن رسول الله لم يجد له فرساً أو دابة تنقله إلى موقع القتال .

وهم لم يدمعوا أمام النبى ، ولكنهم أدمعوا فى حال تولِّيهم ، وهذا انفعال نفسيٌّ من فرط التأثر لأنهم لا يشتركون فى القتال ، ولو دمعوا أمامه ﷺ لقال المنافقون إنهم يتصنّعون تعصير أعينهم ويبذلون جهدهم للمراءاة ، ولكن انفعالهم كان بعيداً عن أعين رسول الله ، فكان نزولُ القرآن بقصتهم دليلَ صدقِ رسول الله وأن القرآنَ وَحْى من عند الله سبحانه .

إذن فكفَّارة اليمين كانت لرسول الله أيضاً ولعموم المسلمين وإذا تأملنا الآيتين معاً : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ .. (١) ﴾ [التحريم] . ثم قوله : ﴿ قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللهُ مَوْلاَكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ .. (٢) ﴾ [التحريم] ثم قوله : ﴿ قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ .. (٢) ﴾ [التحريم]

الآية الأولى تكلَّمتْ عن التحريم ولم تُحدثنا عن يمين أقسمه رسول الله ، والآية الثانية تحدثنا عن كفارة اليمين ، فهل معنى هذا أنَّ مجرد التحريم دون قسَم يُعد يميناً وقسماً ؟

اختلف الناس فى هذا ، ولكن سواء كان مجرد التحريم يُوجب الكفارة ، أم أنه اقترن عند رسول الله بيمين كما جاء فى بعض روايات الحديث ، فالآية

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٣١٣٣ ، ٤٣٨٥ ، ٥٥١٨ ، ٦٦٤٩) وكذا مسلم في صحيحه (٤٣٥٤ ، ٤٣٥٨) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

تُوجب تحلَّة يمين أو بمعنى آخر كفارة يمين .

وكفارة اليمين ذكرها الله عزَّ وجل ، فقال : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ (١) فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَـٰكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٨٩) ﴾ [المائدة]

والكفارة ستر العقوبة ، وليس معنى هذا أن الإنسان تلزمه الكفارة ما دام قد عقَّد الأيمان وأقسم يميناً مؤكداً ، فالكفارة تكون فقط حين يحنث فى القسم فلم يبر به .

فتكون الكفارة أحد أربعة أشياء : إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أى كسوة عشرة مساكين ، أو تحرير رقبة بإعتاق عبد أو غيره إنْ وُجد ، أو صوم ثلاثة أيام لمن لم يجد .

والحق سبحانه عندما قال فى سورة التحريم : ﴿ قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ .. (٢) ﴾ [التحريم] فهو سبحانه يشير إلى الكفارة التى فى سورة المائدة، فسورة التحريم نزلت بعد سورة المائدة .

والكفارة فيها جانبان : جانب منهما لزجر النفس وجانب آخر لجبر الذنب ، لذلك عندما حلف خليفة أندلسى يميناً وأراد أنْ يؤدى عن اليمين كفارة ، فأفتاه القاضى منذر بن سعيد[٢] بأن كفارة يمينه هذا هو صيام ثلاثة أيام ، مع أن الصيام لمن لم يجد مالاً ليطعم أو يكسو أو يعتق ، فهل الخليفة لا يجد مالاً ؟ لا؛

---

(١) اللغو في الأيمان : لغا الرجل تكلم باللغو وهو اختلاط الكلام ويستعمل اللغو فيما لا يعتد به ، ومنه اللغو في الأيمان أي ما لا يعقد عليه القلب . [التوقيف على مهمات التعاريف - للمناوي ١/٦٢٣] قال برهان الدين الخوارزمي (ت ٦١٠ هـ) في (المغرب في ترتيب المعرَّب) : اللغو الباطل من الكلام.

(٢) هو منذر بن سعيد البلوطي القاضي الأندلسي ، من فحص البلوط قرب قرطبة ، يكنى أبا الحكم ولد ٢٧٣ هـ . كان فقيهاً خطيباً شاعراً فصيحاً ، أخذ عن بعض علماء مكة ومصر ، ولي قضاء (ماردة) ثم قضاء (الثغور) ، ثم قضاء الجماعة (قرطبة) إلى أن توفي عام ٣٥٥ هجرية عن ٨٣ عاماً . [الأعلام للزركلي ٧/٢٩٤] .

ولكن القاضى منذر بن سعيد نظر إلى جانب زَجْر النفس فى الكفارة ، ولذلك قال لمن سأله : أمثل أمير المؤمنين يُزجر بعتق رقبة أو إطعام عشرة مساكين ؟

وقد يسأل سائل : ولكن رسول الله لم يحنث فى يمينه حتى تجب عليه الكفارة؟ نعم رسول الله لم يحنث فى يمينه بمعنى أنه لم يخالف يمينه فذهب وشرب عسلاً ، أو أنه خالف يمينه وجامع مارية فى رواية مَنْ قال أن الآية نزلتْ بسبب أن رسول الله جامع مارية زوجه فى غرفة حفصة رضى الله عنها ، فغضبتْ حفصة ، فحلف رسول الله أنْ لا يقربها وحرَّم مارية على نفسه فنزلت الآية .

ولكن الكفارة أيضاً شرعها الله ليس للعقوبة فقط على مَنْ حنث فى يمينه وأتى بعكس ما حلف عليه ، بل شرعها الله أيضاً ﴿ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ .. (٢) ﴾ [التحريم] أى شرع لكم وقدر ما به تنحلّ أيمانكم قبل الحنث ، وما به الكفارة بعد الحنث .

فكلّ مَنْ حرّم حلالاً عليه من طعام أو شراب أو سرية ، أو حلف يميناً بالله على فعل أو ترك ثم حنث أو أراد الحنث ، فعليه هذه الكفارة المذكورة .

وقوله تعالى : ﴿ تَحِلَّةَ .. (٢) ﴾ [التحريم] تحلة أصلها تحللة فأُدغمت اللامان، وهى من مصادر التفعيل كالتوصية والتسمية ، فكأنَّ اليمين عقد ، والكفارة حلّ، لأنها تُحل للحالف ما حرَّمه على نفسه .

فكلمة ﴿ تَحِلَّةَ .. (٢) ﴾ [التحريم] دليل على أن رسول الله لم يحنث فى يمينه، فالتحلة لا تكون بعد الحنث ، فإنه بالحنث ينحلّ اليمين وتجب حينها الكفارة، وإنما تكون التحلة إذا أُخرجت قبل الحنث لينحلّ اليمين ، وإنما هى بعد الحنث كفارة لأنها كفّرت ما فى الحنث من سبب الإثم لنقض عهد الله .

فإعجاز النظم القرآنى هنا أنه لم يذكر شيئاً عن الكفارة فلم يقُلْ الله تعالى : قد فرض الله عليكم كفارة أيمانكم ، بل قال : ﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ .. (٢) ﴾ [التحريم]

وسبق أنْ تكلَّمنا على (لكم) أى لمصلحتكم ، فلو كانت كفارة لقال عليكم عقوبة على الإثم الذى ارتكبتموه .

ونلحظ ملحظاً آخر فى قوله تعالى ﴿ تَحِلَّةَ .. (٢) ﴾ [التحريم] فنرى فيها تقليل استعمال اليمين ، لذلك قال تعالى هناك ﴿ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ .. (٨٩) ﴾ [المائدة]

والحفظ هو عدم التضييع ، فعلى الإنسان ألاَّ يجرى اليمين على لسانه والدليل على التقليل فى قوله (تحلة) قول رسول الله فى الحديث : « لا يموت لمسلم ثلاثةٌ من الولد فيلج النار إلا تحلَّة القسم »[1] ، أى القسم الذى قاله الله فى الآية ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا .. (٧١) ﴾ [مريم]

ومعنى تحلة القسم أى قدْر ما حلت به يمينى ولم أبالغ ، أى أن النار لا تمسّ مَنْ مات له ثلاثة من الولد فصبر ولم يجزع ولم يقنط ، ولم يكْفُر؛ فلا تمسُّه النار إلا بقدر الورود.

والله يعطينا مثالاً بمسألة تحلَّة القسم ، فقال تعالى فى قصة أيوب عليه السلام ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا [2] فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ .. (٤٤) ﴾ [ص]

فأيوب عليه السلام قد حلف أنْ يضرب امرأته إذا بريء من مرضه مائة سوط ، وأراد الله أنْ يُحلَّه من هذا القسم فأمره أنْ يأخذ حزمة من حشيش أو عُشْب فيها مائة عود ويضربها بها ضربة خفيفة ليبرَّ فى قسمه .

وكان ذلك رحمة من الله به وبزوجه التى قامت على رعايته وقت مرضه، وكان أيوب عبداً شاكراً لله كأنَّ الضربة الواحدة هى مائة ضربة ، وهذا تحليل للقسم .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (١٢٥١ ، ٦٦٥٦) وكذا مسلم في صحيحه (٦٨٦٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . قال أبو عبد الله البخاري : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ..(٧١) ﴾ [مريم]

(٢) الضغث : عثكال النخل بشماريخه . وقيل : هو قبضة من حشيش مختلط رطبها بيابسها . قال الواحدي: الضغث ملء الكف من الشجر والحشيش والشماريخ . [فتح القدير للشوكاني ٦/ ٢٥٠] .

ولا تقصير فى الأخذ بالرخصة بتحليل القسم ، ففى الكفارة ما يكفى للوفاء بتعظيم اليمين بالله ، لذلك ابتدأ الحق سبحانه الآية بحرف التحقيق (قد) فقال ﴿ قَدْ فَرَضَ اللهُ .. (٢) ﴾ [التحريم] فلا تستعظموا الأخْذ بالرخصة للتحلل من اليمين مع صدق قلوبكم ونياتكم .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَاللهُ مَوْلَاكُمْ .. (٢) ﴾ [التحريم] يعنى المتولّى شئونكم وكلمة (مولى) تأخذ معنى القريب والناصر والمعين الذى تفزع إليه فى شدائدك .

فقد يُوجد لك مولى فى الدنيا وهو من الأغيار ، ومن الجائز أنْ يتغير قلبه عليك ، ومن الجائز أنْ تنالك الأحداث التى هى فوق قدرتك وطاقتك .

ومن الجائز أن يكون لك مولى تنشده وتطلبه لنصرتك فيرفض ، لأنَّ خصمك له بهذا المولى ولاء أقوى وأشد ، فيقف بجانب خصمك وقد يُوهمك أنه معك لكن قلبه ليس معك .

أما الله عز وجل فهو المولى الحق ، فلا تُوجد قوة أعلى منه وهو لا يتغير لأن الأغيار من طبيعة الخَلْق ؛ فسبحان الخالق !

ثم يُنهى الحق سبحانه الآية بقوله عن ذاته العلية ﴿ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) ﴾ [التحريم] فيصف الحقّ سبحانه نفسه بصفتين : العلم والحكمة .

فهو سبحانه (العليم) أى الذى يعلم كل شيء خافياً كان أو ظاهراً ، والعلم كله منه سبحانه ، وهو سبحانه العليم بنيتنا ومدى إخلاصنا يعلم ما فى صدورنا قبل أنْ ننطق به .

فلا شيءَ يفوت على الله سبحانه أو يُفلت منه ، عليم بخبايا البشر ، عليم بالضرورات التى تطرأ على التكليف فهو سبحانه يشرع لهذه الضرورات . وهو سبحانه العليم بكلِّ خفايا عباده والكاشف لكلِّ الملكات النفسية فى خلقه ، عليم بما تسعه نفسُ الإنسان ، لذلك فهو لا يكلف نفساً إلا وُسْعها .

وهو سبحانه العليم بالمناسب لكلِّ حال ، وهو العليم أبداً بما ينفع الناس جميعاً ، وهو العليم بما تتطلبه الحكمة علماً يحيط بكل الزوايا والجهات ، العليم بما يجول في الخواطر .

ثم إنه ﴿ الْحَكِيمُ (٢) ﴾ [التحريم] فهو الحكيم الذي لا يصدر منه الشيء إلا بحكمة بالغة ، وهو الحكيم في فعله وتقديره وتصرُّفه .

فالحكيم هو الذي يضع كلَّ أمر في مكانه ، الذي لا يأمر إلا بما فيه مصلحتكم، الذي يضع الشيء في موضعه الدقيق بحكمة ، فلا ينظر إلى ظاهر معطيات الشيء الآن ، ويغفل ما قد يأتي به من مضرَّة .

فأنت قد تصل إلى الشيء وتظن أنه يُخلِّصك من متاعب أخرى ، لكنه قد يؤدي إلى شيء آخر ، فهو سبحانه الذي لا يترك شيئاً للعبث ، فهو المقدِّر لكلِّ أمر بحيث يكون موافقاً للصواب .

فهو سبحانه ﴿ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) ﴾ [التحريم] الذي أحاط علمه بظواهركم وبواطنكم ، وهو الحكيم في جميع ما خلقه وحكم به ، فلذلك شرع لكم من الأحكام ما يعلم أنه موافق لمصالحكم ومناسب لأحوالكم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا
فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ
وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ
هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) ﴾

السر هـو مـا أسررتَ بـه لغيرك ، فكأنـه يعلمـه اثنـان ، أنت ومَنْ أسررتَ إليه ، ولكـن هنـاك مـا هوْ أخفى من السر وهو مـا تُبقيه فى نفسـك ولا تخبر به أحداً ، إنه يظلّ فى قلبك لا تُسرّ به لإنسان .

والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) ﴾ [طه]

فما أُسرُّ به إلى غيرى فهو السر ، وما أُخفيه فى صدرى ولا يطلع عليه أحد هـو أخْفـى من السرِّ ، فلا يُقال أسررت إلا إذا بُحت به لغيرى ، أما ما أخفيه فى صدرى فلا يعلمه أحدٌ إلا الله ، فهذا ما هو أخفى من السرِّ .

وأنـت عندمـا تضـع سرَّك عنـد أحد فـأنت تثق فيه وتسـتأمنه عليـه ، وكأن الأسرار فى خزانة لن يعرف أحدٌ ما بداخلها ، فأنت عندما تُسرّ إلى إنسان أمراً ما فأنت تعتبره كنفسك ، وأن السرَّ لن يخرج خارجه .

أما عندما تُسرُّ إلى إنسـان بكلام وسـط مجموع من النـاس ولكنك تهمس بـه فهذه نجوى ، ويكون السرُّ حينئذ هو ما احتفظتَ به داخل نفسك .

يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ .. (٧٨) ﴾ [التوبة] فالسر هنـا مـا تكتمه فى نفسك ولا تُطلع عليه أحداً ، فليس السِر هو ما تُسِر به للغير لأن هذه هى النجوى ، وهى ما أسررت به للغير بحيث لا يعلمه مَنْ يجالسكما .

وسـواء كان السر هو مـا أسررتَ بـه لغيرك وخرج منك لأنك اسـتأمنتَ الغير علـى ألاَّ يقولـه ، أو كان السر ما أخفيتَه أنت فى نفسـك ، فـالله هو العالم به فى الحالتين .

فـالسرُّ هنـا فى الآيـة : ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ .. (٣) ﴾ [التحريم] كان السر عند رسول الله ﷺ وانتقل إلى بعض من أزواجه .

والأخفى من السرِّ هو ما قبل أنْ تبوح بـالسر وكتمته ولم تبح بـه ، وسبحانه

يعلم هذا السر وما تُخفيه ، أى السر الذى لم تقُلْه لأحد ، بل ويعلمه قبل أنْ يكون سراً .

فالسر ما تركته فى نفسك محبوساً وأسررته عن الخَلْق لا يعرفه إلا أنت ، أو السر ما أسررت به إلى الغير وساعتها لن يبقى سراً ، وإذا ضاق صدرك بأمرك فصدْرُ غيرك به أضْيق .

وقوله تعالى : ﴿ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ .. (٣) ﴾ [التحريم] أى ليس كل أزواجه وإلا لم يكُنْ سراً ، فرسول الله أسَرّ إلى البعض من أزواجه .

وبعض الشيء طائفة منه ، والبعض يصدق على الواحد والواحدة ، وهى هنا حفصة بنت عمر بن الخطاب زوج النبى ﷺ .

وقد حدث أن رسول الله دخل بمارية[1] القبطية سريته بيت حفصة بنت عمر، فوجدتها معه . فقالت حفصة : يارسول الله فى بيتى من بين بيوت نسائك ؟! قال : فإنها عليّ حرام أن أمسَّها يا حفصة واكتمى هذا عليَّ .

فخرجت حفصةُ حتى أتتْ عائشة ، فقالت : يابنت أبى بكر ألا أُبشِّرِك ؟ فقالت: بماذا ؟ قالت : وجدتُ مارية مع رسول الله فى بيتى . فقلت : يا رسول الله فى بيتى من بين بيوت نسائك ؟! وبى تفعل هذا من بين نسائك ؟!

فكان أول السِّرّ أن حرَّمها على نفسه . ثم قال لى : يا حفصة ألا أبشرك ؟ فقلت : بلى بأبى وأمى يارسول الله . فأعلمنى أن أباك يلى الأمر من بعده ، وأن أبى يليه بعد أبيك . وقد استكتمنى ذلك فاكتميه »[2].

---

(١) مارية القبطية : أم إبراهيم بن رسول الله . تسرَّى بها رسول الله فولدت له . وهي مارية بنت شمعون. مصرية الأصل بيضاء ، ولدت في قرية (حفن) من كورة (أنصنا) بصعيد مصر . أهداها المقوقس سنة ٧ هـ للنبى هى وأخت لها تُدعى (سيرين) ولدت لحسان بن ثابت ولده عبد الرحمن وماتت في خلافة عمر (١٦ هـ) ودفنت بالبقيع . [الأعلام للزركلي ٥/٢٥٥] .

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٥٠٤) ، وكذا في المعجم الأوسط (٢٣١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . قال ابن حجر العسقلاني في (تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي) (٣/٤٤٦): « أصل هذا الحديث رواه النسائي والحاكم وصححه من حديث أنس » .

فـ (مارية) كانت سرية رسول الله أهداها له المقوقس[1] عظيم القبط في مصر بعد رسالة رسول الله إليه « أسلم تسلم »[2] فكان أنْ أهدى المقوقس لرسول الله مارية القبطية وتسرَّى بها رسول الله وولدتْ له إبراهيم فصارت أم ولد وأعتقتْ وأصبحتْ زوجةً لرسول الله .

وأزواج جمع زوج والزوج يُطلق على الشيء معه ما يقارنه فكلمة زوج تُطلق ويراد بها الشيء الواحد الذى معه ما يقارنه ، والحق سبحانه يقول : ﴿ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ .. (٣٥) ﴾ [البقرة] فكلمة زوج هنا أُطلقت على حواء ، فآدم زوج وحواء زوج .

فكلُّ زوجة من زوجات رسول الله هى زوج له ، فلا نأخذ كلمة زوج على أنها اثنان بل هى مفرد ، وقد قال تعالى : ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا .. (١) ﴾ [النساء]

ورسول الله حرَّم على نفسه مارية إرضاءً لحفصة ، وعاتبه الله في ذلك كما عاتبه فى أمر تحريمه للعسل إرضاء لأزواجه ، فقال تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .. (١) ﴾ [التحريم]

وأمر العسل معروف لمعظم أزواجه بل إنهنَّ اتفقن على أنْ تقول كلٌّ منهن لرسول الله إذا دخل عليها : شربتَ عسلاً ؟ فالأمر مستفيض بينهن .

أما أمر تحريم رسول الله مارية على نفسه فهو خاص بحفصة ، وكذلك أمر

(١) المقوقس : صاحب الإسكندرية . لا مدخل له في الصحابة فإنه لم يسلم ولم يزل نصرانياً . قال ابن ماكولا : اسم المقوقس جُريج ، يعني بجيمين أولهما مضمومة . [أسد الغابة ٤٣/٣] . وقال ابن الأثير في البداية والنهاية (٣١٠/٤) : « اسمه جريج بن مينا » . (٣٢٦/٥) أنه من بطاركة الروم . أي حكام مصر في ذلك الزمن .

(٢) نص كتاب رسول الله إلى المقوقس أرسل به حاطب بن أبي بلتعة فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلي المقوقس عظيم القبط سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم . أسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم القبط ﴿ يَـٰأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا .. (٦٤) ﴾ [آل عمران] [نصب الراية للزيلعي ٤٢١/٤] .

خلافة أبيها عمر بعد أبى بكر الصديق أبى عائشة ، وهذان الأمران هما اللذان أسرَّهما رسول الله لحفصة .

ولكنها لم تلبث حفصة أنْ أخبرت عائشة بأمر حديث رسول الله إليها ، فقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ .. (٣) ﴾ [التحريم] أى أخبرت به ، ولكن حفصة لم تخبر به خبراً عادياً على سبيل الكلام العادى أو كما نقول (الثرثرة) ، بل ﴿ نَبَّأَتْ بِهِ .. (٣) ﴾ [التحريم]

ونحن قلنا من قبل : إن كلمة (نبأ) لا تأتى إلا فى الخبر العظيم ، والنبأ هو الخبر المهم ، فنحن لا نطلق النبأ على مطلق الخبر ، بل نطلقه على الخبر اللافت للنظر .

فالنبأ هو الخبر المهم الشديد الذى له وقْع وأثر عظيم ، لذلك قال : ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ .. (٣) ﴾ [التحريم] و(نبّأ) تعطى معنى أكثر من (أنبأ) فـ (نبأت) بتضعيف الباء ، أى أن الكلمة فيها حرفان من شكل واحد أى متماثلان .

و﴿ نَبَّأَتْ .. (٣) ﴾ [التحريم] تعطى معنى الاهتمام بالإخبار ، فليس مجرد إخبار بل هو خبر مهم جمعتْ حفصة رضى الله عنها نفسها له وحدَّثتْ عائشة عنه باهتمام شديد ، فلم يقُل (أنبأت) .

﴿ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ .. (٣) ﴾ [التحريم] أى أظهره الله على قول حفصة لعائشة، فأظهر الله نبيه محمداً ﷺ على أنها قد أنبأت بذلك صاحبتها ، فـ (أظهره) أطلعه على أن حفصة قد نبَّأت عائشة بما أسرَّه إليها رسول الله .

ويظهر على كذا لها معنيان فى اللغة : الأول بمعنى يعلم كما فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ .. (٢٠) ﴾ [الكهف] يعنى : إنْ علموا بكم وعرفوا مكانكم .

والثانى بمعنى يعلو ويغلب ويقهر كما فى قوله تعالى : ﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ .. (٩٧) ﴾ [الكهف] أى السد الذى بناه ذو القرنين ، فالمعنى ما استطاعوا أنْ يعلوه ويرتفعوا عليه .

ومنها ﴿ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ .. (٣١) ﴾ [النور] يعنى : يعرفونها ويستبينونها أو يقدرون على مطلوباتها ، فليس لهم علم أو دراية بهذه المسائل، فهم لم يطلعوا على عورات النساء .

فـ ﴿ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ .. (٣) ﴾ [التحريم] أى : أطلعه . ولكن أظهره تعطى معنى الاستعلاء والعلو على ما حدث وعلى إفشاء حفصة للسرِّ الذى أسرّ به لها على أنْ تكتمه .

لذلك قال بعدها ﴿ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ .. (٣) ﴾ [التحريم] فعاتب رسول الله حفصة على بعض ما أسرَّ لها به وأعرض عن بعضه تكرُّماً منه ﷺ، حتى أن بعض العلماء قال : ما استقصى كريمٌ قط[1].

فيقال : عرَّفها أمر تحدُّثها عن مارية وما حدث معها وتحريم رسول لها على نفسه ، وأعرض عن تحدُّثها عن خلافة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما له ﷺ .

وأنت إذا أسررتَ إلى إنسان بعدة أمور ووجدته قد أفشى سِرَّك فعندما تواجهه تجده محتاراً هل وصلك الحديث كله أم بعضه ، فإذا ذكرت أمراً واحداً تجده قلقاً متحيراً خجلاً حيياً من أنْ يكون وصلك الحديث كله خاصة أنك طلبت كتمانه.

ورسول الله ﷺ قال هنا لحفصة : « واكتمى هذا عليَّ » .

﴿ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَٰذَا .. (٣) ﴾ [التحريم] ، لقد ظنت حفصة أن عائشة رضى الله عنها هى التى أخبرته ، فلا يعتقد أحدٌ أن حفصة تشك فى أن الله يخبر نبيه ورسوله بما لا يحيط به علماً من أمر الأمة .

---

(١) ذكره أبو طالب المكي في كتابه (قوت القلوب في معاملة المحبوب) (٢/ ٤٣٤) وعزاه لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه . وذكره السيوطي في الدر المنثور (١٤/ ٥٧٧) وعزاه لابن مردويه من قول علي ، أما البغوي في تفسيره (٨/ ١٦٤) فقد عزاه للحسن البصري .

وبسبب ظنها أن عائشة قد تكون هي التي أخبرت رسول الله ، لذلك سألت ﴿ مَنْ أَنْبَأَكَ هَـٰذَا .. (٣) ﴾ [التحريم] أي مَنْ أعلمك وأخبرك أنِّي قد أفشيتُ سرَّك الذي أسررتَ إليَّ به .

كيف وصلك الأمر ، وما تحدَّثتُ به مع عائشة كان بيني وبينها ، فهل هي التي أخبرتك ؟

﴿ قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) ﴾ [التحريم] أي : الله الذي لا تخفى عليه خافية، فهو سبحانه العليم الخبير .

فالعليم الذي يعلم كل شيء خافياً كان أو ظاهراً ، والعلم كله منه ، سميع بما يُقال عليمٌ بما في الصدور قبل أنْ ينطقوا به ، فكل حركة قبل أن تحدث يعلمها سبحانه .

والخبير يزيد على العلم بإحاطته التامة لكلِّ شيء ، فالخبير صاحب العلم الدقيق الذي يعلم خبايا الأمور ، ونحن حتى في مسائل الدنيا الهامة نقول : نستدعي لها الخبير ، فالمختص العادي لا يقدر عليها .

فالخبير هو مَنْ وصل إلى منتهى العلم الدقيق ، فلا يسأل أهل العلم السطحي، فالخبير هو الذي لا يغيب عنه شيء .

ثم يخاطب الحق سبحانه حفصة وعائشة رضي الله عنهما فيقول :

﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾

والتوبة مطلوب من الله طلبه من عباده ، فالتوبة رحمة بعباده ، فتشريع التوبة ليس رحمةً بالعاصى وحده ، ولكنه رحمة بالمجتمع كله ، فالتوبة لو لم تشرع لَعانَى المجتمع كله .

فلو لم يشرع الله التوبة ، ولو لم يُبشِّرنا بأنه سيقبلها لكانَ الذى يذنب ذنباً واحداً لا يرجع عن المعصية أبداً .

والله شرع قبول التوبة حتى لا ييأس الإنسان ، فيُحسُّ أن أبواب السماء مفتوحة له دائماً ، وأن الله الذى خلقه رحيمٌ به ، إذا أخطأ فتح له أبواب التوبة وغفر له ذنوبه ، حتى يُحسَّ كلُّ إنسان برعاية الله سبحانه له هو على الأرض من أول بداية الحياة .

فالمنهج موجود لمن يريد أنْ يؤمن ، والتوبة قائمة لكل مَنْ يخطيء ، والتوبة هى أصل المغفرة ، أنت تتوب عن فعلك للذنب وتعتزم ألاَّ تعود لمثله أبداً ، ويقبل الله توبتك ويعفو عنك .

والحق سبحانه يحب التوبة من عباده ، وهو سبحانه أفرح بتوبة عبده المؤمن من أحدكم وقع على بعيره وقد أضله فى فلاة[1].

فإنْ ترجعا إلى الله نادمتين تائبتين فقد فعلتما ما يوجب التوبة ، فقوْل الحق سبحانه ﴿ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ .. (٤) ﴾ [التحريم] هو حضٌّ على التوبة وهو أيضاً عرْضٌ للتوبة عليهما ، لأن الحق سبحانه يقول بعدها : ﴿ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ .. (٤) ﴾ [التحريم]

﴿ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا .. (٣) ﴾ [التحريم] والإصغاء هو ميْل الأذن إلى المتكلم ، لأنك قد لا تسمع مَنْ يتكلم بغير إصغاء ، وحين يسير الإنسان

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٣٠٩) عن أنس قال قال رسول الله ﷺ « الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضلّه في أرض فلاة » وكذا في صحيح مسلم (٧١٣٧) . والأرض الفلاة التي ليس فيها ما يقوم به البدن من المأكول والمشروب . وكأنها فليت من مقومات الحياة .

منّا فى الطريق فهو يسمع الكثير، ولكن أذنه لا تتوقف عند كلِّ ما يسمع بل قد تقف الأذن عندما يظن الإنسانُ أنه كلامٌ مُهم .

وقد قال تعالى : ﴿ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ (١١٣) ﴾ [الأنعام] والأفئدة هى القلوب ، صحيح أن الآذان هى التى تصغى ، لكن القلوب قد تتسمع ما يُقال .

وعندما يقول تعالى : ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا .. (٤) ﴾ [التحريم] أى : أنه سبحانه نقل الإصغاء من الآذان إلى القلوب وهذا إدراك ، فقلوبهم مالتْ إلى حبِّ تحريم رسول الله ماريةَ على نفسه رغم كراهيته ﷺ لذلك .

والبعض من العلماء ذهب إلى أن ﴿ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا .. (٤) ﴾ [التحريم] هنا المقصود بها أنها مالتْ إلى التوبة مما فعلتاه ، فقال : ﴿ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا .. (٤) ﴾ [التحريم] أى : مالت واتجهت إلى التوبة .

فقلوبكما قد صغتْ إلى الحق ، وهو ما وجب من الابتعاد عن ما يُسخط رسول الله .

﴿ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ .. (٤) ﴾ [التحريم] أى : تعاونا عليه . والظهير : المعين. والحق سبحانه يقول : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا .. (٤) ﴾ [التوبة]

ويُظاهر أى يُعاون ، وكلّها مأخوذة من مادة الظهر ، وهو يتحمل أكثر من اليد ، فالإنسان لا يقدر أنْ يحمل جوالَ قمح بيده مثلاً ، ولكنه يقدر أنْ يحمله على ظهره .

ولذلك يقول المثل العامى : مَنْ له ظهر لا يُضرب على بطنه . إذن : فالظهر للمعونة ، والحق سبحانه يقول : ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا

ظَاهِرِينَ (١٤) ﴾ [الصف] أى : عالين .

فقوله سبحانه : ﴿ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ .. (٤) ﴾ [التحريم] يعنى تعاونا ، وهى مأخوذة من الظهر ، كأنك قلتَ : أعطنى ظهرك مع ظهرى لنحمل الحمل معاً ، والظهر محل الحمل .

﴿ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ .. (٤) ﴾ [التحريم] أى : تظاهرا وتعاونا على أذى النبى ﷺ ، فإنْ تعاضدا وتعاونا فى الغيرة عليه منكما وإفشاء سِرِّه وتتفقا على ما يسوؤه من إفراطهم فى الغيرة .

فإنْ تعاونا على هذا وتآزرا ، وكان كلٌّ منهما عَوْناً للأخرى عليه ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ .. (٤) ﴾ [التحريم] أى ناصره ومُعينه ، وحين يكون الله فى معونته فهو يعطيه من قدرته غير المحدودة .

فالله هو المولى الحق ، فلا توجد قوة أعلى منه وهو لا يتغير ، والحق سبحانه يؤكد الأمر بالضمير المنفصل (هو) ، فيقول ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ .. (٤) ﴾ [التحريم] وكان من الممكن أنْ تكون العبارة : فإنَّ الله مولاه .

أما وقد جاء بـ (هو) بين لفظ الجلالة و (مولاه) فإنه تأكيد لإعانة الله لرسوله ونُصْرته له . وليس الله وحده سبحانه هو مولى رسول الله ، ولكن أيضاً ﴿ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ .. (٤) ﴾ [التحريم]

وقد خصَّ الله هنا (جبريل) بالذكر رغم أنه سبحانه سيذكر الملائكة بعد ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ (٤) ﴾ [التحريم] . فجبريل عليه السلام هو أمين الوحى وهو أقرب الملائكة إلى الأنبياء والرسل لا سيما رسول الله ﷺ ، فكل رسول كان مُؤيَّداً بروح القدس ، وهو جبريل عليه السلام .

وقد حدَّثنا ربُّ العزة سبحانه عن جبريل فقال : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧) مَنْ كَانَ عَدُوًّا

لله وَمَلائكته وَرُسُله وَجبْرِيلَ وَميكَالَ[1] فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ (٩٨) ﴾ [البقرة]

وقد وصف الحق سبحانه جبريل فقال : ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (٥) ذُو مِرَّةٍ[2] فَاسْتَوَى (٦) ﴾ [النجم] أي : ذو قوة .

وقال الحق سبحانه : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) ﴾ [التكوير] فجبريل شديد القوة الظاهرة والباطنة، قويّ على تنفيذ ما أمره الله بتنفيذه ، قوى على إيصال الوحى إلى الرسول ﷺ .

وليس جبريل وحده ، بل : ﴿ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ .. (٤) ﴾ [التحريم] هما أبو بكر وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما . والمقصود كلّ مؤمن صالح .

وقد كان عمر بن الخطاب يحفظ لرسول الله أمره ويشدد على ابنته حفصة فى أمر مراجعة رسول الله ، وقد كان يظن أن هذا لا يحدث .

قال عمر : بينما أنا فى أمر أتأمَّره إذ قالت امرأتى : لو صنعت كذا وكذا . قال فقلت لها : مالكِ ولما هاهنا فيما تكلفك فى أمر أريده . فقالت لى : عجباً لك يابن الخطاب ، ماتريد أنْ تُراجع أنت وإن ابنتك لتراجع رسول الله ﷺ حتى يظلّ يومه غضبان .

فقام عمر فأخذ رداءه مكانه حتى دخل على حفصة ، فقال لها : يابُنية إنك لتراجعين رسول الله ﷺ حتى يظلَّ يومه غضبان ، فقالت حفصة : والله إنَّا لنراجعه . فقلت : تعلمين أنِّى أحذرك عقوبة الله وغضب رسول الله .

يابنية لا يغرنك هذه التى أعجبها حُسْنها وحب رسول الله إياها . يقصد

---

(١) ميكال : مفعال بغير همز ، هي لغة أهل الحجاز ، وبها قراءة حفص ، وميكائيل لغة تميم وقيس وكثير من أهل نجد . وهناك قراءات أخرى ، قال ابن الجوزي في زاد المسير (١/١٠١) : قال الكسائى : جبريل وميكال اسمان لم تكن العرب تعرفهما فلما جاء عرَّبتهما .

(٢) المِرَّة : القوة والشدة في الخلق . وقيل : ذو صحة جسم وسلامة من الآفات . ومنه قول النبي ﷺ « لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مِرَّة سوي » . وقيل : ذو حصانة عقل ومتانة رأي . [فتح القدير للشوكاني ٦٧/٧] .

عائشة[1].

بل إن الحق سبحانه يذيِّل الآية بقوله ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ (٤) ﴾ [التحريم]

فالله هو مولاه وجبريل والصالحون من المؤمنين ، ويعين المؤمن فى نصرة رسول الله الملائكة ، فإنهم ﴿ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ (٤) ﴾ [التحريم]

والملائكة لفظها لفظ مؤنث ولكن لم يقل الحق سبحانه : ظهيرة ، لأن (ظهير) يعنى معين ، والمعونة تتطلب القوة والعزم والمدد ، لذلك جاء لها باللفظ المناسب الذى يدل على القوة ، وهو (ظهير) .

فـ (ظهير) فى الآية الكريمة أى معين . لذلك يُقال : فلان يشد ظهرى أى يعاوننى بقوة . ويُقال : ظهر فلان على فلان أى غلبه وتفوّق عليه . ويقال : وعلا ظهره .

و (ظهير) على وزن فعيل ، وهذا الوزن يستوى فيه المذكر والمؤنث ، ومثلها قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) ﴾ [الأعراف]

فالجميع سيكونون أعواناً له ﷺ على مَنْ آذاه وأراد ما يسوءه . وظهير هنا أيضاً بمعنى الجمع أى ظهراء ، كقوله تعالى : ﴿ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ﴾ [النساء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ۝٥ ﴾

كلمة (عسى) فى اللغة تأخذ أوضاعاً متعددة ، فـ (عسى) معناها فى اللغة

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٤٩١٣) ، وكذا أخرجه مسلم في صحيحه (٣٧٦٥) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

الرجـاء . كقول واحد : عسـى أنْ يجيء فـلان . أى : أرجو أن يجيء فلان أو قول واحـد مخاطباً صـاحباً له : عسـى أنْ يأتيك فلان بخير . وهذا رجـاء أنْ يأتى فـلان إلى فـلان بعض الخير ، وقد يأتى فلان بالخير وقد لا يأتى ، لكن الرجاء قد حدث .

وقد يقول واحد لصـاحبه : عسـى أنْ آتيك أنا بخير ، هنا يكون الرجاء أكثر قـوة ، لأن الرجـاء فى الأولى فى يد واحد آخر غير المتحدث ، أما الخير هنا فهو فى يد المتحدث ، لكن أيضـمن المتحدث أنْ توجد له القوة والوجود حتى يأتى بالخير لمَنْ يتحدَّث إليه ؟

وإذا قال قائل : عسى الله أنْ يأتيك بالفرج ، فهذه أوغل فى الرجاء ، لكن هل مَـنْ يقـول ذلك واثق من أن الله يجيب الرجاء ؟ قد يجيب الله وقد لا يجيب وفقاً لإرادة الله سبحانه ، لا لمعايير مَنْ يرجو أو المرجو له .

أما عندما يقول الحق سبحانه عن نفسه ﴿ عَسَى رَبُّهُ .. (٥) ﴾ [التحريم] ، فهذا هـو القول البالـغ لنهايات كلِّ الرجاءات ، فـ (عسـى) بمراحلها المختلفة تبلغ قيمتها عندما يقول الحقُّ ذلك .

فالأقـوى علـى الإطـلاق هـو أنْ يقول الله عـن نفسـه ﴿ عَسَى رَبُّـهُ .. (٥) ﴾ [التحريم] بالنسبة لله رجاء محقق لأنه إطماعٌ من الله عز وجلَّ .

ومثلهـا قولـه ﴿ فَأُولَـٰئِـكَ عَسَـى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُـمْ .. (٩٩) ﴾ [النسـاء] فهذا إطماعٌ من كريم قادر .

والله لا شـيءَ يُعطله أو يستعصى أو يتأبّى عليه ، فإذا ما قال الحق سبحانه عن نفسه ﴿ عَسَى رَبُّهُ .. (٥) ﴾ [التحريم] فقد انتهتْ المسألة وتقرر الوعد وتحقَّق، وهذا ما يقال عنه رجاء محقق .

فلتكُـنْ علـى وجل مـن أنْ يحقق اللهُ هذا الرجـاء ويبدِّل رسـوله ﷺ أزواجاً

غيركُنَّ ، فالرجاء من الله إيجاب ، ونلاحظ أنّ يعقوب عليه السلام لثقته فى إنجاز الله لوعده نجده يقول : ﴿ عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا .. (٨٣) ﴾ [يوسف]، ففى هذه الآية طلبُ الأمل الذى يُوحى بالفرج وقد كان .

فهو لم يقل : عسى أنْ يأتونى جميعاً ، بل نسب الأمر إلى الله طمعاً ورجاءً فى عظيم فضل الله فقال : ﴿ عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا .. (٨٣) ﴾ [يوسف]

فإذا قلت ﴿ عَسَى اللهُ .. (٨٣) ﴾ [يوسف] أنْ يعطيك فهو أقوى الرجاء لأنك رجوتَ مَنْ لا يُعجزه شيء ولا يتعاظمه شيء ولا تناوله الأغيار . إذن : فالرجاء فيه محقَّق لا شكَّ فيه .

والمسألة ليست عند محمد ، إنما عند ربِّ محمد ، لذلك قال تعالى : ﴿ عَسَى رَبُّهُ .. (٥) ﴾ [التحريم] فلم يقل : عسى الله ، بل قال (ربه) ، فربُّه هو الذى سيُبدِّلكُن لأنكُنَّ لم ترعيْنَ حقَّ النبوة والرسالة .

والتعبير بـ (ربه) يُذكِّرنا بقوله ﷺ : « أدَّبنى ربى فأحسنَ تأديبى »[1]. فالله تعالى هو الذى ربَّاه وأدَّبه أحسن تأديب .

ومنزلة المربِّى تعظم فى التربية بمقدار كمال المربِّى ، فكأنه تعالى يقول : أنا ربك الذى أكملتُ تربيتك على أحسن حال ، فمَنْ أراد أنْ يرى قدرة الربوبية فليرها فى تربيتك أنت ، والمربَّى يبلغ القمة فى التربية إنْ كان مَنْ ربَّاه عظيماً .

فـ (ربه) الذى رباه لن يتخلَّى عنه ولن يخذله ، ونجد هذا نفسه فى دعاء يوسف عليه السلام والتجائه إلى ربه واعتصامه به ، فقال : ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ .. (٣٣) ﴾ [يوسف]

(١) أورده الألباني في السلسلة الضعيفة (١/ ١٧٢) وقال : ضعيف . قال ابن تيمية في (مجموعة الرسائل الكبرى) (٢/ ٣٣٦) : معناه صحيح ولكن لا يُعرف له إسناد ثابت وأيده السخاوي والسيوطى . انظر كشف الخفاء للعجلوني (١/ ٧٠) .

فدعا يوسف ربه باسم الربوبية اعترافاً بفضله سبحانه ، لأنه هو جلّ جلاله مَنْ ربَّاه وتعهَّده ، وهو هنا يدعوه باسم الربوبية ألاَّ يتخلى عنه فى هذا الموقف.

فالربّ هو الذى يتولّى التربية والإعطاء ، بينما مطلوب (الله) هو العبودية والتكاليف ، لذلك ينادى المؤمن ربه فى الموقف الصعب (ياربنا) أى يا مَنْ خلقتنا وتتولاّنا وتمدّنا بالأسباب .

وقد قالت السيدة عائشة لرسول الله : « يا رسول الله ، ما أرى ربك إلا يُسارع فى هواك »[(١)] . فقال لها ﷺ : وأنتِ يا عائشة لو اتقيتِ الله لسارع فى هواك »

فالله يسارع فى هواى لأننى سارعت فى هواه ، طلب منى فأديت ، لذلك يلبى لى ما أريد من قبل أنْ أطلب منه .

والحق سبحانه هنا جعل محمداً غائباً عبَّر عنه بضمير الغائب ، فقال ﴿ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ .. (٥) ﴾ [التحريم] فالحق سبحانه يخاطب أزواج رسول الله مدافعاً عنه ، فرسول الله لم يخطيء معهن فى شيء .

فحقُّه أنْ يأكل ما شاء عند مَنْ يشاء منهن ، وحقُّه أنْ يقترب ممن شاء من زوجاته فى أيِّ بيت من بيوته ، ولكنه ﷺ تنازل فحرَّم على نفسه شرب العسل، وحرَّم على نفسه مارية أم ولده إبراهيم ، فماذا تريدون أكثر من هذا ؟

لذلك كان الخطاب هنا لأزواج رسول الله ، إنه سبحانه يضعهن أمام حقيقة أنه ربُّ محمد وأنه لن يتخلَّى عنه ، فهو كما قال سبحانه : ﴿ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ

---

(١) عن عائشة رضي الله عنها قالت : كنت أغار على اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ وأقول : أتهب المرأة نفسها ؟ فلما أنزل الله تعالى : ﴿ تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ .. (٥١) ﴾ [الأحزاب] قلت : ما أرى ربك إلا يسارع في هواك . [أخرجه البخاري في صحيحه (٤٧٨٨)] قال النووي : معناه يخفف عنك ويوسع عليك في الأمور ولهذا خيَّرك .

﴿ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ (٤) ﴾ [التحريم]

وقد قلنا إن ﴿ صَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ .. (٤) ﴾ [التحريم] هما أبو بكر وعمر، وقد حدث أن قال عمر: بلغنى عن بعض أمهاتنا أمهات المؤمنين شدة على رسول الله ﷺ وأذاهنَّ إياه، فاستقريتهن امرأةً امرأةً، أعظها وأنهاها عن أذى رسول الله وأقول: إنْ أبيتُنّ أبدَله اللهُ خيراً منكن.

حتى أتيتُ على زينب فقالت: يا ابن الخطاب أما فى رسول الله ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت؟ فأنزل الله ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ .. (٥) ﴾ [التحريم][1]

إذن: فالإبدال هنا سيكون بطلاقهن ولكنه مشروطٌ بطلاق رسول الله لأزواجه ﴿ إِن طَلَّقَكُنَّ .. (٥) ﴾ [التحريم]، لذلك كانت (عسى) هنا لا تعنى وجوبَ وقوع الإبدال، لأنه مشروطٌ بشرط تطليقه لهنَّ وهو ما لم يحدث. والأمر لم يتعدّ تخويفهن ونصيحتهن.

فإنْ طلقهنَّ رسول الله فسيُبدله أزواجاً، أول صفة لهنَّ الإسلام لله فى كلِّ ما يأمر به، وثانيها الإيمانُ بالله ورسوله. أى فيهما ما عندكم وأكثر، فإسلامهن وإيمانهن لن يكونا قولاً فقط.

أما قوله تعالى: ﴿ قَانِتَاتٍ .. (٥) ﴾ [التحريم] القنوت هو دوام الطاعة لله سبحانه، ومنه قنوتُ الفجر الذى نقنته، وندعو ونقف مدة أطول فى الصلاة التى فيها قنوت.

والمرأة القانتة خاضعةٌ لله، لذلك فهى امرأة صالحة، لذلك قال تعالى فى آية أخرى: ﴿ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ .. (٣٤) ﴾ [النساء] فالمرأة الصالحة هى التى

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في (فضائل الصحابة) (٤٣٤ ، ٤٩٥) عن أنس بن مالك رضي الله عنه. ومعنى استقريتهن أي مررت بهن واحدة واحدة. قال الأزهري في تهذيب اللغة (٩/٢٠٧): « الإنسان يقتري أرضاً ويستقريها إذا سار فيها ينظر حالها وأمرها. وقال بعضهم: ما زلت أستقري هذه الأرض قرية قرية ».

استقامتْ على المنهج الذى وضعه لها مَنْ خلقها فى نوعها .

والقنوتُ هو عبادةٌ مع خشوع وخضوع واستدامة ، فالقنوت هو العبادة الخالصة لله الخاضعة الخاشعة .

والحق سبحانه يخاطبهنَّ : ﴿ يَـٰنِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) ﴾ [الأحزاب] ثم يقول: ﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا .. (٣١) ﴾ [الأحزاب]

ومعنى ﴿ وَمَن يَقْنُتْ .. (٣١) ﴾ [الأحزاب] أى : بالغ فى الصلاح والورع حتى وصل إلى درجة الخضوع ، وهو الخضوع والخشوع ، فالقنوت خضوعٌ تام وكاملٌ لله وتخشُّع وتذلّل لله فى دعائه .

ويقول تعالى : ﴿ يَـٰمَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ .. (٤٣) ﴾ [آل عمران] أى : بالغى فى الخشوع والخضوع لله بوضع الجبهة التى هى أشرف شيء فى الإنسان على الأرض ، لأن السجود هو أعلى مرتبةً من الخضوع .

والله لا يريد قوالب تعبده بل يريد قلوباً قانتة خاشعة ، فالذى يُقبل على طاعة الله ثم ينصرف عنها كأنه قد جرَّب وُدَّه لله ، فلم يجد الله أهلاً للود .

أما العبد الطائع القانت فلا ينصرف عن العبادة لأنه ذاق حلاوة استدامة العبادة لله ، وما دام قد أدرك حلاوة العبادة فهو يقبل عليها بخشوع واطمئنان واستدامة ويدخل فى دائرة القانتين .

فالله يُوجههنَّ لما هو أوْلَى بهنَّ وأليق وأجدر بأنْ يجتَهدْنَ لله فى الطاعة .

ثم إنهن سيكُنَّ ﴿ تَائِبَاتٍ .. (٥) ﴾ [التحريم] والتوبة تقتضى عزماً على ألاَّ تُنشئوا ذنوباً جديدة ، والله يفتح لنا أبواب التوبة باباً بعد آخر ، ونعصى فلا يأخذنا بذنوبنا ولا يحرمنا من نعمه ، ولا يُهلكنا بما فعلنا .

فمن رحمة الله سبحانه أنه شرع لنا التوبة ليرحمنا من شراسة الأذى والمعصية، ورسول الله ﷺ : « كلُّ بنى آدم خطَّاء ، وخَيْر الخطائين التوابون »(١).

ولو لم يشرع الله التوبة ولو لم يُبشِّرنا بأنه سيقبلها لكان الذى يذنب ذنباً واحداً لا يرجع عن المعصية أبداً وكان العالم كله سيعانى .

والله يحبُّ التوابين توبة نصوحاً صادقة خالصة لا رجوعَ فيها ، وهذه التوبة تتسم بالإقلاع عن الذنب والندم على ما فات ، والعزم على عدم العودة للذنب مرة أخرى .

وقد قال ﷺ : « إنَّ الله يبسط يده بالليل ليتوب مُسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوبَ مُسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها »(٢).

فـ ﴿ تَائِبَاتٍ .. (٥) ﴾ [التحريم] أى : من ذنوبهن راجعاتٍ إلى أمر رسول الله تاركات لما تحبه أنفسهن ؛ إنْ كان مكروهاً لرسول الله .

﴿ عَابِدَاتٍ .. (٥) ﴾ [التحريم] وتلك صفة أخرى وإنْ كانت مُتضمَّنة فى وصفهن بـ ﴿ قَانِتَاتٍ .. (٥) ﴾ [التحريم]، ولكن الله يؤكد عليها هنا ، وهذا دليلُ أن العبادة ليست فقطْ أداءَ الصلاة والصيام والخشوع والخضوع فى أثناء العبادات .

ولكنَّ العبادة هى طاعةُ المعبود فى (افعل) و (لاتفعل) فـ (عابدات) هنا معناها طائعات لأمر الآمر وممتثلات لنهْى الناهى ، فالله هو الإله المعبود فى كونه ، ومعنى معبود أنه يُطاع فيما يأمر به ولا نُقدِم على ما نهى عنه .

والحق سبحانه يقول ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ .. (٥٦) ﴾ [الذاريات]

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (٤٢٥١) والبزار في مسنده (٧٢٣٦) وأبو يعلي في مسنده (٢٩٢٢) والحاكم في مستدركه (٧٦١٧) وصحح إسناده ، وقد ليَّن الذهبي علي بن مسعدة . والدارمي في سننه (٢٧٢٧) والبيهقي في شعب الإيمان (٦٧٢٥) .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٧١٦٥) وأحمد في مسنده (١٩٥٤٧ ، ١٩٦٣٥) وكذا البزار في مسنده (٣٠٢١) والطيالسي في مسنده (٤٩٢) من حديث أبي موسى الأشعري .

فعلّة الخَلْق هى العبادة ، ولكن هل العبادة هى الجلوس فى المساجد والتسبيح ، أو أنها منهجٌ يشمل الحياة كلَّها فى بيتك وفى عملك وفى السعى فى الأرض ؟

فالعبادة هي طاعةُ أوامر الله واجتناب نواهيه ، فما قال لى الله : افعل فإنِّى أفعل . وما قال : لا تفعل . فإننى لا أفعل لأن العبادة هى طاعةُ مخلوقٍ لخالقه فى أوامره ونواهيه .

والله عز وجل يقول : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ .. (٥٣) ﴾ [الأحزاب] ، فهناك نهى عن إيذاء رسول الله ، فإنْ طلقكنَّ رسول الله فسأبدله بأخريات يكُنَّ عابدات لله يمتثلْنَ أمر الله فى أنْ لا يُؤذِين رسول الله ، وأنْ يخترْنَ ما يختاره ﷺ ويُسارعن فى مَحابِّه .

ثم يذكر الحق سبحانه صفة أخرى ، وهى قوله تعالى : ﴿ سَائِحَاتٍ .. (٥) ﴾ [التحريم] والسائح هو مَنْ ترك المكان الذى هو موطن له ، فيه بيته وأهلُه وأولاده وأُنْس بالناس ، ثم يسيح إلى مكان ليس له فيه شيء ، بل قد يتعرض فيه للمخاطر .

فالسياحة هى السير المستوعب سيْرَ اعتبار لينظر فى ملكوت السماوات والأرض ، وليستنبط من آيات الله ما يدل على تأكيد إيمانه بربه ، ومنه سير استثمار بأنْ يضربَ فى الأرض ليبتغيَ من فضل الله .

وسياحة الاعتبار هى أمر مشترك بين الرجل والمرأة ، بدليل أنَّ الله قال ذلك فى وصف النساء : ﴿ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ .. (٥) ﴾ [التحريم]

إذن ﴿ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ .. (٥) ﴾ [التحريم] هنا مقصود بها سياحة اعتبار ، أو تكون السياحة التى تكون فيها الزوجة فى صُحْبة زوجها الذى يضرب فى الأرض .

والسياحة أيضاً تُطلق على الصيام ، لأن السياحة تُخرجك عما ألفْتَ من إقامة فى وطن ومال وأهل ، والصيام يُخرجك عمّا ألفْتَ من طعام وشراب

وشهوة . إذن : القدر المشترك بين الرجال والنساء هو فى سياحة الاعتبار وسياحة الصوم .

وقد حدث أنْ أراد رسول الله ﷺ أنْ يُطلِّق حفصة ، فجاء جبريل فقال : لا تُطلقها فإنها صوَّامة قوَّامة وإنها زوجتك فى الجنة[1] .

حتى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه بلَغه هذا ، فوضع التراب على رأسه ، فقال : ما يعبأ الله بك يا ابْنَ الخطاب بعدها ، فنزل جبريل على النبى ﷺ فقال: إنَّ الله يأمرك أنْ تُراجع حفصة رحمةً لعمر .

وعمر بن الخطاب يروى لنا هذا الموقف فيقول : لما اعتزل رسول الله نساءه دخلتُ المسجد ، فإذا الناسُ ينكتون بالحصى ويقولون : طلَّق رسولُ الله نساءه، وذلك قبل أنْ يُؤمر بالحجاب .

فدخلتُ على عائشة فقلت : يابنت أبى بكر ، أقد بلغ من شأنك أنْ تُؤذى رسول الله ؟ قالت : مالى ولكَ ياابن الخطاب .

فدخلتُ على حفصة ، فقلت لها : يا حفصة أقد بلغ من شأنك أنْ تُؤذى رسول الله ؟ والله لقد علمتُ أن رسول الله لا يحبك ، ولولا أنا لطلّقك رسول الله ، فبكتْ أشد البكاء .

فقلتُ لها : أين رسول الله ؟ قالت : هو فى خزانته فى المشْرُبة[2] . فدخلتُ فإذا أنا برباح مولى رسول الله قاعداً على أسكفة[3] المشربة مُدلياً رجله على نقير من خشب وهو جذْع يرقى عليه رسول الله وينحدر .

---

(١) أخرجه البزار في مسنده (١٤٠١) والطبراني في المعجم الكبير (١٨٨٢٧) وأبو بكر الشيباني في (الآحاد والمثاني) (٣٠٥٢) وأبو نعيم الأصبهاني في معرفة الصحابة (٦٧٧٠) وكذا في حلية الأولياء (٢/ ٥٠) من حديث عمار بن ياسر .

(٢) المشربة : الغرفة . قال ابن منظور في لسان العرب : قيل للغرفة المشربة لأنهم كانوا يشربون فيها وهي مشاربهم . (مادة شرب) . والخزانة : المخدع ، والمخدع هو البيت الصغير الذي يكون داخل البيت الكبير .

(٣) أسكفة الباب : عتبة الباب فالأسكفة العتبة للباب وللغرفة وهي هنا أسكفة المشربة أي عتبة الغرفة . وقال النضر : أسكفة الباب عتبتها التي تُوطأ .

فاستأذن عمر على رسول الله ثلاث مرات ، وفى الآخرة قال عمر : يا رباح استئذنْ لي عندك على رسول الله بضرب عنقها لأضربنَّ عنقها ، ورفعتُ صوتى فأومأ إليَّ بيده أنْ أرقهْ ، فدخلتُ على رسول الله وهو مضطجع على حصير ودخلتُ عليه حين دخلتُ ، وأنا أرى فى وجهه الغضب فقلت :

يا رسول الله ما يشق عليك من شأن النساء ، فإنْ كنتَ طلقتهنَّ فإن الله تعالى معك وملائكته وجبريل وميكائيل وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك .

وقلَّما تكلمت وأحمد الله بكلام إلا رجوتُ أنْ يكون الله يُصدِّق قولى الذى أقوله، ونزلت هذه الآية : ﴿ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ .. (٥) ﴾ [التحريم] ﴿ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ (٤) ﴾ [التحريم] وكانت عائشة بنت أبى بكر وحفصة تظاهران على سائر نساء النبى ، فقلتُ : يارسول الله أطلقتهن ؟ قال : لا . قلت :

يا رسول الله إنِّى دخلتُ المسجد والمؤمنون ينكتون الحصى ويقولون : طلَّق رسولُ الله نساءه ، أفأنزل فأخبرهم أنك لم تُطلقهنَّ . قال : نعم إنْ شئتَ . ثم لم أزلْ أُحدِّثه حتى تحسَّر الغضب عن وجهه وحتى كشَّر وضحك ، وكان من أحسن الناس ثَغْراً[1].

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا .. (٥) ﴾ [التحريم] ، وإذا كانت الصفات الستّ السابقة تتعلّق بصفاتٍ تخصُّ الإسلام والإيمان والقنوت والتوبة والعبادة والسياحة ، سواء كانت للاعتبار أو الاستثمار أو كانت الصيام ، فإنها كلّها صفاتٌ معنوية .

والله سبحانه يخاطب فى الآية نساءً منهن نساء تشتدّ عندهن الغيرة على

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٣٧٦٤) وابن حبان في صحيحه (٤١٨٨) والبزار في مسنده (١٩٥) وأبو يعلى في مسنده (١٦٤) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه . والثغر : ما تقدم من الأسنان [الصحاح في اللغة] والثغر : الفم . وقيل : هو اسم للأسنان كلها ما دامت في منابتها . [المحكم لابن سيده] .

رسول الله ، إنه سبحانه يريد أنْ يقضى على هذه الغيرة ، فإنْ كان منكنَّ ثيِّبات وأبكار ، فإن الله قادر على أنْ يُبدِّلكُنَّ ويأتى لرسول الله بنساء أخريات ثيِّبات، وليس ثيبات فقط بل وأبكاراً أيضاً .

والثيِّبات جمع ثيِّب ، وهى المرأة التى سبق لها الزواج سواء كانت مطلّقةً أو أرملة ، وسُمِّيت ثيِّباً لأنها تثوب إلى زوجها أى ترجع إليه أو تثوب وترجع إلى غيره إنْ فارقها بالطلاق أو بالموت ، حينها تثوب وترجع إلى بيت أبويْها .

أما الأبكار فهى جمع بِكْر التى بقيتْ على عُذريتها ، وهاتان الصفتان الثيبات والأبكار لا تجتمعان فى امرأة واحدة ، لذلك استخدم الحق سبحانه (الواو) بينهما ، فقال تعالى : ﴿ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا .. (٥) ﴾ [التحريم]

أما الصفات الستّ الأولى فقد تجتمع فى إنسان واحد رجلاً كان أو امرأة ، لذلك لم يستخدم الحق سبحانه (الواو) ، فقد تجد امرأة مسلمة مؤمنة قانتة تائبة عابدة سائحة صائمة فى وقت واحد .

والآية تحتمل أنها تشير إلى عائشة رضى الله عنها وحفصة رضى الله عنها، فالله يقول : ﴿ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا .. (٥) ﴾ [التحريم] ، وقد كانت حفصة ثيباً عندما تزوجها رسول الله .

أما عائشة فكانت بكْراً حينما تزوجها رسول الله ، بل إنها كانت رضى الله عنها تفتخر بهذا من بين النساء اللاتى تزوجهن رسول الله ، حتى أنها سألتْ رسول الله يوماً ، فقالت :

يارسول الله ، أرأيتَ لو نزلتَ وادياً وفيه شجرةٌ قد أُكل منها ، ووجدتَ شُجراً لم يُؤكل منها ، فى أيِّها كنتَ تُرتع بعيرك . قال : فى الذى لم يُرتع منها[1] ، تعنى أن رسول الله لم يتزوج بكْراً غيرها .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٥٠٧٧) وابن حبان في صحيحه (٤٣٣١) من حديث عائشة رضي الله عنها .

وقد يقول قائل : وإنْ كان رسول الله يميل إلى أنْ يُرتع بعيره فى الشجرة التى يُرتع فيها ، فما الفضيلة فى أنْ يعده الله بـ ﴿ ثَيِّبَاتٍ .. (٥) ﴾ [التحريم]

خاصة أنه ﷺ قد قال لجابر بن عبد الله وقدتزوج : هل تزوجتَ بكراً أم ثيباً؟ فقال : تزوجت ثيباً . فقال ﷺ : هلاَّ تزوجتَ بكراً تلاعبها وتلاعبك[١] .

ولكن للثيِّب فى الحياة العملية فوائد ، ذكرها جابر فى سبب تفضيله للثيب على البكْر ، فقال : يا رسول الله تُوفى والدى ولى أخواتٌ صغار ، فكرهتُ أنْ أتزوَّج مثلهن فلا تُؤَدِّبهن ولا تقوم عليهنَّ ، فتزوجت ثيباً لتقوم عليهنّ وتُؤَدِّبهنّ[٢] .

وقد كان لجابر بن عبد الله تسع بنات صغيرات أخوات تركهنَّ له أبوه عبد الله بن حرام[٣] ، فأراد أنْ يتزوَّج ثيباً ترعاهن وتقوم على أمورهن .

وهذا المعنى لم يغبْ عن رسول الله ، ولكنه ﷺ أراد أنْ يُسرِّى عن جابر بعد وفاة أبيه .

فقوله تعالى (ثيبات) دليل أنه كان يقصد حفصة رضى الله عنها ، وأنه كما له زوجات ثيِّبات فى الدنيا سنُبدله ثيِّبات أيضاً ، وكذلك أبكاراً ، ولكن ﴿ خَيْرًا مِنْكُنَّ .. (٥) ﴾ [التحريم]

ولا شيءَ أشدّ وأقسى على المرأة من الطلاق والعزم على التزوج بزوجة أخرى ، فذلك قاصم لظهر المرأة مُؤرِّق لبالها ، لذلك كان هذا التهديدُ تهديداً غاية فى الشدة .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٩٦٧ – ٥٢٤٧) ، وكذا مسلم في صحيحه (٣٧٠٩) من حديث جابر ابن عبد الله . وفي لفظ مسلم زيادة : « قلت يا رسول الله إن لي أخوات فخشيت أن تدخل بيني وبينهن. قال : فذاك إذاً ، إن المرأة تنكح على دينها ومالها وجمالها فعليك بذات الدين تربت يداك » .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه مطولاً (٢٩٦٧) وكذا مسلم في صحيحه (٤١٨٤) وأبو عوانة في مستخرجه (٣٩٢٤) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه .

(٣) عبد الله بن حرام بن ثعلبة أبو جابر الأنصاري الخزرجي صحابي من أجلائهم كان أحد النقباء الاثنى عشر شهد العقبة مع السبعين من الأنصار وبدراً وقُتِل يوم أحد عام ٣ هجرية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾

الحق سبحانه هنا يخاطب الذين آمنوا ، أى : يا أيها الذين آمنتم بالله إلهاً ودخلتم معه فى عقد إيمانى .

فالحق سبحانه ساعةَ يخاطب الناس جميعاً فهو يلفتهم إلى قضية الإيمان، ولكن حين يخاطب المؤمنين فهو يعطيهم أحكام الإيمان ، فالله لا يكلف بحكم إلا مَنْ آمن به ، أما مَنْ لم يؤمن به فلا يُكلفه بأيِّ حكم لأن الإيمانَ التزام ، وما دُمت قد التزمتَ بأنه إلهٌ حكيم فخُذْ منه أحكام دينك .

والمؤمنون يأخذون خطاب الحق لهم ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. (٦) ﴾ [التحريم] بمقياس المحبة لكلٍّ ما يأتى منه سبحانه من تكليف ، حتى وإنْ كان فيه مشقة ، سواء كان صياماً أو قتالاً فى سبيل الله .

ففى الصيام قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) ﴾ [البقرة]

فالصيام نوعٌ من الإمساك ، وهو فى الإسلام صومٌ عن شهوتَىْ البطن والفَرْج منْ الفجر وحتى الغروب ، إنه إمساكٌ مطلق عن الطعام والشراب ونكاح النساء خلال هذه المدة الزمنية من اليوم لمدة شهر كامل .

ولا شكَّ أن الصيامَ تكليفٌ شاق ، ولكن المؤمن لأنه مؤمن يفرح به وينتظره من العام للعام .

والحق سبحانه يقول فى آية أخرى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى (١٧٨) ﴾ [البقرة]

فالقصاص قد يكون قاسياً ولكن المؤمنين يتقبَّلونه ، لأن فيه صلاحَ المجتمع وردْع المجرمين ، لذلك قال تعالى فى الآية بعدها : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَـٰأُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩) ﴾ [البقرة]

فالمؤمنون بالله يؤمنون أنّ تشريعه دقيقٌ ومحكمٌ يأتى بواجبات وبحقوق، فلا واجبَ بغير حَقٍّ ، ولا حقَّ بغير واجب ، وحتى نعرف سُمو التشريع مطلوبٌ من كلِّ مؤمن أنْ ينظر إلى ما يجب عليه من تكاليفه ويقرنه بما له من حقوق ، ولسوف يكتشف المؤمنُ أنه فى ضوء منهج الله قد نال مطلق العدالة .

وهنا يقول الحقّ سبحانه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا .. (٦) ﴾ [التحريم] أى : اعملوا بينكم وبين النارَ وقايةً ، واحترسوا من أنْ تقعوا فيها ، فالوقاية هى الاحتراس والبُعْد عن الشر .

ولا يُطلب منك أنْ تجعل وقايةً بينك وبين شيء إلا إنْ كنتَ لا تتحمل هذا الشيء ، فمعنى : ﴿ قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا .. (٦) ﴾ [التحريم] أى : اجعلوا بينكم وبين النار حاجزاً .

والحق سبحانه هو الذى سوَّى النفس البشرية بعظمته ، ففى الذات الواحدة آمرٌ ومأمورٌ ، فالإنسان يقى نفسه بأنْ يجعل الآمر يُوجِّه الأمر للمأمور ، ويجعل المأمور يطيع الآمر .

فأنت مطلوبٌ منك أنْ تقى نفسك مواردَ الهلاك فتأمرها وتنهاها ، ومثال هذا قوله تعالى عن قابيل : ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ .. (٣٠) ﴾ [المائدة]

وهذا معناه أنَّ جزءاً من الذات هو الذى طوَّع بقية ذات قابيل لتقتل هابيل، فقد خلق الله النفسَ البشرية كملكات متعددة ، ملكة تحب الأريحية وأخرى تحب الشّح ، والملَكة التى تحب الأريحية إنما تطلب ثناء الناس ، والتى تحب

الشح إنما تفعل ذلك ليطمئنَ صاحبُها أنه يملك ما يُغنيه .

وكلتا الملكتين تتصارعان فى النفس الواحدة ، لذلك يقول الحق سبحانه: ﴿ قُوا أَنْفُسَكُمْ .. (٦) ﴾ [التحريم] ، فالنفس تقى النفس ، لأن الملكات فيها متعددة.

فبعضُ الملكات تحبُّ تحقيق المتعة والشهوة ، لكن هناك مَلَكة إيمانية تقول: تذكَّر أنَّ هذه الشهوات عاجلة ولكنها عظيمةُ المتاعب فيما بعد ، إذن : فهناك صراعٌ داخل ملكَات الإنسان .

فالنفس البشرية لها ألوانٌ ، فهناك النفسُ اللوامة تصنع شراً مرة فيأتى من داخل النفس ما يستنكر هذا الشر فتعود إلى الخير .

والحق سبحانه وتعالى ساعة ينزل منهجه يجعل فى كلِّ نَفس خلية إيمانية، والخلية الإيمانية تستيقظ مرة فتلتزم ، وتغفل مرة ، فتنحرف ، ثم يأتى الاستيقاظ بعد الانحراف فيكون الانتباه .

وهكذا توجد النفس اللوامة ، تلك النفس التى تهمس للإنسان عند الفعل الخاطيء ، أن الله لم يأمر بذلك ، ويعود الإنسان إلى منهج الله تائباً ومستغفراً.

فإنْ لم توجد النفس اللوامة صارت النفسُ أمَّارة بالسوء ، وهى التى تتجه دائماً إلى الانحراف .

وحول النفس الواحدة توجد نفوسٌ متعددة تحاول أنْ تقاوم وتقوّم المعوج، وهى نفوس من البيئة والمجتمع ، فمرَّة يكون الاعتدال والاتجاه إلى الصواب بعد الخطأ قادماً من ذات الإنسان أى من النفس اللوامة ، ومرة لا توجد النفسُ اللوَّامة ، بل توجد النفس الأمّارة بالسوء .

والغفلة عن المنهج إنما تتم على مراحل ، فبعد بلاغ المنهج نجد إنساناً يغفل عن جزئية ما فى هذا المنهج ، وتُنبِّهه نفسه وتلومه على تركه لتلك الجزئية ، ونُسمِّى هذا الموقف بصاحب النفس اللوامة .

إنه يفعل السيئة لكن نفسه تعود إلى اليقظة لمنهج الله ، لأنه يتمتع بوجود خلية المناعة الإيمانية فيه .

وهناك إنسانٌ آخر يستمريء المخالفة للمنهج وتُلح عليه نفسه بالمخالفة ، إنه صاحبُ النفس الأمَّارة بالسوء ، وتتوالى به دواعى ارتكاب السيئات ، ومثل هذا الإنسان يحتاج إلى غيره من خارج نفسه ليلفته إلى الخير .

وقد جعل اللهُ فى النفس الإنسانية نفساً لوَّامة ونفساً تأمر بالسوء ، ونفساً مطمئنة ، إن مهمة النفس اللوامة هى أنْ ترد على كلِّ ما تُوسوس به النفس الأمَّارة بالسوء .

لكن إنْ لم تَلُم النفس اللوامة ، فالنفس الآمرة بالسوء تتمادى ولا يردعها رادعٌ ، أما النفسُ المطمئنة فهى النفس التى تطمئن إلى منهج الله .

ولنعلم أن النفسَ البشرية قد فُطرتْ على محبة الخير ، فإنْ لم يحكمها هواها فهى تفعل الخير وتحبه ، فإنْ حكمها هواها ستر عنها الخير وفتح الهوى للنفس أبوابَ الشر .

وقد يطيع الإنسانُ هواه فى أمر من الأمور ثم يفيق فتلومه نفسه على ما فعل ، هذه هى النفس اللوَّامة التى تلوم صاحبها على الشر وتدفعه إلى الخير.

وإذا وُجدت النفس المطمئنة والنفس اللوامة ، فاعلم أنَّ المجتمع بخير لأن النفسَ المطمئنة تطيع وتأمر بالطاعة ، والنفس اللوَّامة تلوم صاحبها على الشر .

ولكلِّ مؤمن نقطة ضعف ، فإذا ضعف مؤمن يُسرع له أخوه المؤمن ليلومه

على ضعفه ويُصحِّح له مساره .

وإذا كان الإنسانُ مسئولاً عن نفسه ليقى نفسه النار ، فإنَّ الإنسانَ مسئولٌ أيضاً عن أهله ، والأهل هنا تعنى أهلَ بيته من زوجة وأولاد .

وقد سُئِل رسولُ الله ﷺ : كيف نقى أهلنا ناراً ؟ قال : « تأمرونهم بما يحبه الله ، وتنهونهم عمّا يكره الله »[1].

أى : علِّموا أنفسكم وأهليكم الخير ، فعلِّموا بعضكم بعضاً ما تقُون به مَنْ تُعلِّمونه النار وتدفعونها عنه إذا عمل به من طاعة الله واعملوا بطاعة الله .

ورسول الله ﷺ يقول : « ابدأ بنفسك ثم بمَنْ تعول »[2] فالإنسان يبدأ بنفسه أولاً، ثم إلى القرابة القريبة ، ثم القرابة البعيدة ، ثم على الأباعد .

والإنسانُ مسئولٌ عن أهل بيته ورَاعٍ لهم ، وقد قال رسول الله ﷺ : « كلكم راعٍ ، وكلكم مسئولٌ عن رعيته » .

وأصل المادة مأخوذةٌ من راعى الأغنام ، لأن راعى الغنم لا بدّ أنْ يتجه بها إلى الأماكن التى فيها العُشب والماء ، أى إلى أماكن الرعى ، وأنْ يكون حارساً عليها حتى لا تشردَ واحدةٌ أو تضلّ فتفتك بها ذئاب الصحارى ، وأنْ يُوفِّر لها الراحة حتى لا تتعب وتَنْفَق فى الطريق .

---

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور (٥٨٨/١٤) وعزاه لابن مردويه عن زيد بن أسلم مرسلاً . وقال علي ابن أبي طالب : علِّموا أنفسكم وأهليكم الخير وأدِّبوهم . أخرجه عبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وغيرهم .

(٢) هذان حديثان : الأول : عن جابر بن عبد الله أن رسول الله قال : « ابدأ بنفسك فتصدق عليها ، فإن فضل شيء فلأهلك ، فإن فضل عن أهلك شيء فلذي قرابتك ، فإن فضل عن ذي قرابتك شيء فهكذا وهكذا » . [مسلم في صحيحه ٢٣٦٠] .

أما الحديث الثاني : عن أبي هريرة عن النبي قال : « خير الصدقة ما كان عن ظهر غِنىً وابدأ بمن تعول » . [البخاري في صحيحه ١٤٢٦] .

فالرجل عليه مسئولية نحو أهل بيته، فـ « الرجل راعٍ على أهل بيته وهو مسئول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهي مسئولة عنهم، والعبد راعٍ على مال سيده وهو مسئول عنه، ألا فكلهم راعٍ وكلهم مسئول عن رعيته »[١].

وقد أعطانا الله مثلاً من أنبيائه وقيامه على أهل بيته، قال تعالى: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥)﴾ [مريم] فقد كان من خصال إسماعيل عليه السلام العظيمة أنه كان يأمر أهله أي زوجته وأولاده بالصلاة والصدقة.

والحق سبحانه لا يهتم بخصلة ولا يذكرها إلا إنْ كانت كبيرة عنده تساوي كوْن إسماعيل صادقَ الوعد وكوْنه رسولاً ونبياً، فمَنْ أراد أنْ يتصف بصفة من صفات النبوة فعليه أنْ يأمر أهله بالصلاة والزكاة.

لكن لماذا اختصَّ أهله بالذات؟ اختصَّ أهله لأنهم البيئة المباشرة التي إنْ صلُحت للرجل صَلُح له بيته وصَلُحت له ذريته، فالرجل إذا كان يلفت أهله إلى ذِكْر الله والصلاة خمس مرات في اليوم والليلة فإنه بذلك يسدُّ الطريق على الشيطان، فليس للشيطان مجالٌ في بيت يصلي أهلُه الخمسَ صلوات.

لذلك فالنبي ﷺ يقول: « رحم اللهُ امرءاً استيقظ من الليل فصلّى ركعتين ثم أيقظ أهله، فإنِ امتنعت نضح في وجهها الماء، ورحم اللهُ امرأةً قامت من الليل فصلَّت ركعتين، ثم أيقظتْ زوجها فإنِ امتنع نضحتْ في وجهه الماء »[٢].

---

(١) حديث متفق عليه. أخرجه مسلم في صحيحه (٤٨٢٨) والبخاري في صحيحه (٧١٣٨) عن ابن عمر أن رسول الله قال: « ألا كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته، فالإمام الذي على الناس راعٍ وهو مسئول عن رعيته، والرجل راعٍ على أهل بيته وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية على أهلَ بيت زوجها وولده وهي مسئولة عنهم، وعبد الرجل راعٍ على مال سيده وهو مسئول عنه، ألا فكلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته ».

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (١٣١٠، ١٤٥٢)، والنسائي في سننه (١٦١٠) وأحمد في مسنده (٧٤٠٤، ٩٦٢٥)، والبزار في مسنده (٨٥٠٢) والنسائي في سننه (١٣٠٢) والحاكم في مستدركه (١١٦٤) وصححه على شرط مسلم. كلهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فكلُّ رجل وكلُّ امرأة يستطيع في كلِّ ليلة أنْ يكون رسولاً لأهله ولبيئته يقوم فيها بمهمة الرسول .

ويقول الحق سبحانه في موضع آخر : ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى (١٣٢)﴾ [طه]

وقد شرح لنا النبيُّ ﷺ هذه القضية ، فقال : « مُروا أولادكم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر »(١).

وهذا التكليف وإنْ كان في ظاهره من الأهل لأولادهم ، إلا أنه في حقيقته من الله تعالى فهو الآمرُ للجميع ، ولكن أراد الحقّ سبحانه أنْ يكون التكليفُ الأول في هذه السنِّ من القريب المباشر المُحسّ أمام الطفل .

فأبوه هو صاحبُ النعمة المُحسَّة حيث يُوفِّر لولده الطعام والشراب وكلّ متطلبات حياته ، فإذا ما كلَّفه أبوه كان أدعى إلى الانصياع والطاعة لأن الولد في هذه السنِّ المبكرة لا تتسع مداركه لمعرفة المنعم الحقيقي . وهو الله تعالى .

لذلك أمر الأب أن يُعوِّد ولده على تحمُّل التكليف ، وأنْ يعاقبه إن قصَّر ، لأن الآمر بالفعل هو الذي يعاقب على الإهمال فيه ، حتى إذا بلغ الولدُ سِنَّ التكليفِ الحقيقي من المنعم الأعلى سبحانه كان عند الولد أُنْسٌ بالتكليف وتعوّد عليه، وبذلك يأتي التكليف الإلهي خفيفاً على النفس مألوفاً عندها .

ولاحظ أنَّ الحق سبحانه يقول : ﴿وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا .. (١٣٢)﴾ [طه] فالمسألة هنا لا تقتصر على مجرد الأمر وتنتهي مسئولية الأب أو الأم عند هذا الحد ، إنما ﴿وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا .. (١٣٢)﴾ [طه] ، وفرْقٌ بين اصبر واصطبر .

اصبر الفعل العادي ، أما اصطبر ففيها مبالغة أي تكلَّف حتى الصبر وتعمده ، ومن

---

(١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله ﷺ : « مروا أبناءكم بالصلاة لسبع سنين ، واضربوهم عليها لعشر سنين ، وفرِّقوا بينهم في المضاجع » . أخرجه أحمد في مسنده (٦٧٥٦) . وحسَّن شعيب الأرناؤوط سنده . وأخرجه أبو داود في سننه (٤٩٥) ولفظه : « وهم أبناء سبع سنين .. وهم أبناء عشر سنين » .

ذلك أنْ تحرص على أداء الصلاة أمام أولادك لترسخ فى أذهانهم أهمية الصلاة .

فمثلاً عندما تدخل بيتك فتجد الطعام قد حضر ، فتقول لأولادك : انتظرونى دقائق حتى أصلى ، هنا يلتفت الأولاد إلى أنَّ الصلاة أهمّ حتى من الطعام وتغرس فى نفوسهم مهابة التكليف واحترام فريضة الصلاة والحرص على تقديمها على أيِّ عمل مهما كان .

وكان سيدنا عمر رضى الله عنه يقوم من الليل يصلى ما شاء الله له أنْ يصلّى حتى يُؤذَّن للفجر ، فيُوقظ أهله للصلاة فإنْ أبَوْا رشّ فى وجوههم الماء.

وعليك أنْ تعوِّد أولادك احترامَ نداء الله أكبر ، فبمجرد أنْ يسمعوا الله أكبر يُلبُّون النداء ، ولا يُقدمون عليه شيئاً آخر ، فالله لا يبارك فى عمل ألهاك عن نداء (الله أكبر) .

إذن : ﴿ قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ .. (٦) ﴾ [التحريم] من أى شيء سنقى أنفسنا ونقى أهلينا ﴿ قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ .. (٦) ﴾ [التحريم]

ويقول تعالى فى آية أخرى ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ .. (٢٤) ﴾ [البقرة] ، فالناس والحجارة سيكونان بمثابة الوقود الذى يشعل النار بل يزيدها اشتعالاً ، وسيكونان بمثابة حطب جهنم .

ويقول تعالى : ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ [1] جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨) ﴾ [الأنبياء]

فـ ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ .. (٩٨) ﴾ [الأنبياء] هو كل ما تُوقد به النار أياً كان خشباً أو قشاً أو بترولاً أو كهرباء ، فما بالك لو كان حطب جهنم هو من الناس أنفسهم ممَّنْ كفروا بالله .

والنار تشتاق إلى الكفار وتنتظرهم وتتلهف عليهم كما يقول تعالى : ﴿يَوْمَ

---

(١) حصب جهنم : كل ما يُرمى به فيها . قال ابن قتيبة : الحصب ما ألقى فيها وأصله من الحصباء وهو الحصى ، يقال : حصبت فلاناً إذا رميته . [زاد المسير لابن الجوزى ٤/٣٦١] .

نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠)﴾ [ق] ، ويقول تعالى : ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (٧)﴾ [الملك]

فالكافرون سيُلقى بهم فى النار فتزداد اشتعالاً فيكون لها صوتٌ عظيم ، ولها شهيقٌ يخطف القلوب وكأنها (تشفط) ما يُلقى فيها وهى تفور .

وقد رُوى أنه لما نزلتْ هذه الآية ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ .. (٦)﴾ [التحريم] قرأها النبى ﷺ فسمعها شاب إلى جنبه فصُعِق ، فجعل رسولُ الله رأسه فى حِجْره رحمةً له ، فمكث ما شاء الله أنْ يمكث ، ثم فتح عينيه فإذا رأسُه فى حِجْر رسول الله فقال :

بأبى أنت وأمى مثل أيّ شيء الحجر ؟ فقال : أما يكفيك ما أصابك على أن الحجر منها لو وُضع على جبال الدنيا لذابتْ منه[1].

هذه النار يقف على أمرها ملائكة وهم خَزَنة جهنم ، وهم ﴿غِلَاظٌ شِدَادٌ .. (٦)﴾ [التحريم]

والغِلاظ جمع غليظ وهو القويّ البنْية عظيمها ، ما بين منكبى أحدهم مسيرة عام[2] ، وهم أيضاً غلاظُ القوْل على الكافرين ، فهم غِلاظ على أهل النار شداد عليهم .

فهم غِلاظُ القلوب لا يرحمون إذا استرحمهم الكافرون ، فطباعهم غليظةٌ قد نزعتْ من قلوبهم الرحمة بالكافرين بالله ، فهم جُفاة قُساة شداد الأيدى إذا بطشوا .

قد نزعت من قلوبهم الرحمة بالكافرين بالله رغم أنهم ملائكة ، يقول الحق

---

(١) أورده المنذرى فى الترغيب والترهيب ، وضعَّفه الألبانى فى ضعيف الترغيب (٢١٥٢) وهو عن محمد بن هاشم ، وتمامه : وإن مع كل إنسان منهم حجراً وشيطاناً . وأورده السيوطى فى الدر المنثور (٥٨٩/١٤) وعزاه لابن أبى الدنيا وابن قدامة فى كتاب البكاء والرقة .

(٢) قال ابن عباس : خزنة النار تسعة عشر ، ما بين منكبى أحدهم مسيرة سنة . [زاد المسير لابن الجوزى ٤٨/٦] .

سبحانه : ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا.. (٣١)﴾ [المدثر]

وهم تسعة عشر كما قال تعالى ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠)﴾ [المدثر] وهم غلاظ شداد فى ردودهم على كلام أهل النار لهم ، وقد قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ (٤٩)﴾ [غافر]

فردُّوا عليهم رداً موئساً لهم ﴿ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٥٠)﴾ [غافر]

بل إنهم يطلبون القضاء عليهم ليستريحوا من العذاب ، واقرأ قول الحق سبحانه : ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ (٧٧)﴾ [الزخرف]

ورُوى عن رسول الله أن الله حينما يُدخل أهلَ الجنة الجنةَ ، ويُدخل أهلَ النارِ النارَ يأتى بالموت على هيئة كبش فيقول للمؤمنين : أتعرفون هذا ؟ قالوا : نعم هو الموت جاءنا وعرفناه . ويقول للكفار : أتعرفون هذا ؟ يقولون : عرفناه فيميت الله الموت . ويقول لأهل الجنة : خلود بلا موت . ولأهل النار : خلود بلا موت[1] .

فأهلُ النار يتمنون الموت لأن الموتَ سيُريحهم من العذاب ، وفرْق بين عذاب وموت ، فالموتُ إنهاءٌ للحياة ، وليس بعد الموت إيلام، أما العذاب فلا ينشأ إلا مع الحياة لأنه إيلامُ حَيٍّ .

ولك أنْ تتصوَّر بشاعة العذاب الذى يجعل صاحبه يتمنى الموت ويدعو به لنفسه، يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ[2] دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (١٣)

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧٣٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٧٣٦٠) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

(٢) ضيقاً مقرنين : قال المفسرون : تضيق عليهم كما يضيق الزج على الرمح ، وهم قد قُرنوا مع الشياطين. [زاد المسير ٤/٤٦٦] . قال البغوى (٦/٧٥) (مقرنين) : مصفدين قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم فى الأغلال . وقيل : مقرنين مع الشياطين فى السلاسل .

﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (١٤)﴾ [الفرقان]

وهذا على حدِّ قوْل الشاعر[1]:

كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى الموْتَ شَافِياً ... وَحَسْبُ المنَايَا أنْ يكُنَّ أَمَانِيَا[2]

ويصف الحق سبحانه الملائكة عموماً وخزنة جهنم خاصة أنهم: ﴿لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦)﴾ [التحريم]

فالملائكة طبيعة خِلْقتهم أنهم لا يعصُونَ لله أمراً ويفعلُون ما يأمرهم به، ولا يحيدون عن أمره أبداً، فلا تظنُّوا أنَّ خازناً من خُزَّان جهنم سيميل مع أهوائكم ويُخرجكم من النار مثلاً، لا؛ إنهم مجبولون على تنفيذ أوامر الله ومفطورون على عدم معصية الله.

لذلك جعل اللهُ خزنةَ جهنم من الملائكة، وهم من نور ولا تصيبهم الأغيار ولا شهوةَ لهم، فلا يتناكحون ولا يتناسلون، وهم أقرب إلى الصفاء، فهم خَلْق جُبِلُوا على طاعة الله.

ويصفهم الحق سبحانه فيقول: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٥٠)﴾ [النحل]، ويقول تعالى: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩)﴾ [الأنبياء]

فهم ليسوا أمثالكم يكذبون ويكفرون، بل هم فى عبادة دائمة لا تنقطع ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩)﴾ [الأنبياء] لا يضعفون ولا يكلُون ولايتعبون ولا يملُّون من طاعة الله.

---

(١) هو: المتنبى. أحمد بن الحسين أبو الطيب. ولد ٣٠٣ هجرية – شاعر حكيم وأحد مفاخر الأدب العربي، ولد بالكوفة فى محلة تسمى (كندة)، نشأ بالشام، قال الشعر صبياً، ادعى النبوة فى بادية السماوة فتبعه كثيرون أسره أمير حمص وسجنه حتى تاب. ورجع عن دعواه. قتل بالنعمانية عام ٣٥٤ هـ. [الأعلام للزركلى ١/١١٥].

(٢) البيت من قصيدة لأبى الطيب المتنبى من بحر الطويل.

﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا.. (٧) ﴾ [غافر]

وهم لا يُسبِّحون الله ويعبدونه عن خوْفٍ ورهبة ، بل تسبيحهم عن حبٍّ وعن إيمان ، لذلك قال تعالى : ﴿ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ.. (٧) ﴾ [غافر]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٧ ﴾

نأتي في النداء بحرف الإقبال وهو (يا) ونُدخله على المنادى ، أي أنك تطلب إقباله ، فهل نطلب إقباله لمجرد الإقبال أو لشيء آخر ؟

والنداء في القرآن أنواعٌ كثيرة بحسب المنادَى ، فهناك نداءٌ للذين آمنوا في آيات كثيرة عديدة : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) ﴾ [الصف]

ويقول تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢) ﴾ [الأنفال]

وهناك نداءٌ للأنبياء والرسُل ، ونداءٌ لأهل الكتاب ، وليس هناك نداءٌ للذين كفروا إلا هذه الآية : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧) ﴾ [التحريم]

وإنْ كان الحقُّ سبحانه قد نادى الذين كفروا ضمن ندائه للناس وطالبهم

بالإيمان بالله ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) ﴾ [الحج]

﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لاَ يَجْزِى وَالِدٌ عَنْ وَلَدِه وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِه شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بِالله الْغَرُورُ .. (٣٣) ﴾ [لقمان]

فالله يخاطب الناسَ كلَّ الناس ، مؤمنهم وكافرهم ، أما قوله سبحانه ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ .. (٧) ﴾ [التحريم] فإنه سبحانه لم يخاطبهم إلا وهم فى النار يلقوْنَ العذاب أصنافاً.

والذين كفروا كانوا يتعلَّقون بأمل كاذب فى أن النعيم فى الدنيا فقط ، ولكن الحقيقة غير ذلك وسوف يعلمون وها هم يُعاينونها ، لذلك قال تعالى :

﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣) ﴾ [الحجر]

والذين كفروا صنفان ، صنف كفر بالله وعندما جاء الهدى حكَّم عقله وعرف الحق فآمن ، والصنف الآخر مستفيد من الكفر ، ولذلك فهو متشبِّث به مهما جاءه من الإيمان والأدلة الإيمانية فإنه يعاند ويكفر .

إنهم لم يكفروا لأنَّ بلاغاً عن الله سبحانه وتعالى لم يصلهم، ولم يكفروا لأنهم فى حاجة إلى أنْ يلفتهم رسول أو نبى إلى منهج الله ؛ هؤلاء اتخذوا الكفر صناعةً ومنهجَ حياةٍ ، فهم مستفيدون من الكفر لأنه جعلهم سادةً ولأنهم متميزون عن غيرهم بالباطل .

والكفر هو محاولة سَتْر وجود الله واجب الوجود ، ومحاولة ستر هذا الوجود هو إعلانٌ بأن الله تعالى موجود فأنت لا تحاول أنْ تسترَ شيئاً إلا إذا كان له وجودٌ أولاً .

فسَتْر وجود الله سبحانه هو إثباتٌ لوجوده ،وهكذا يكون الكفر مُثبتاً للإيمان ، وأشدّ الكافرين جُرْماً مَنْ يكفر بعد إيمانه ، فيقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا

بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (٩٠) ﴾ [آل عمران]

والذى يزداد كفراً هو الذى قد كفر فى ذاته وكان عائقاً لغيره عن أنْ يؤمن وهو لا يكتفى بخيبته ، بل يحاول أنْ ينشر خيبته على الآخرين ، وفى ذلك ازديادٌ فى الكفر والعياذ بالله .

بل إنه سبحانه لن يقبلَ من أحدهم ملء الأرض ذهباً لو أراد الافتداءَ به ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٩١) ﴾ [آل عمران]

فيُقال لهم : ﴿ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) ﴾ [آل عمران] فهم آمنوا أولاً ثم طرأ كفرهم على الإيمان ، وماتوا على ذلك الكفر .

هؤلاء تسْودّ وجوههم يوم القيامة ، وإنْ كانوا فى الدنيا سيكونون سادةً يتقلَّبون ويرتعون فى الدنيا ، وقد قال الحق سبحانه لرسوله وأمته تبع له :

﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ[1] الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) ﴾ [آل عمران]

فالكافرون يأخذون الحياة العاجلة المنتهية ، أما المؤمنون فيأخذون الآجلة التى لا تنتهى ، وينسى الكافرون أن الدنيا : ﴿ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧) ﴾ [آل عمران]

ولذلك يُقال لهم يوم القيامة ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ .. (٧) ﴾ [التحريم] فالأمر قد انتهى ومهلتكم انتهت فى الدنيا ، وفُرصتكم قد أضعتموها بأنفسكم ، فأعذاركم غير مقبولة .

---

(١) تقلب الذين كفروا : فيه ثلاثة أقوال :
- تصرفهم فى التجارات . قاله ابن عباس .
- تقلب ليلهم ونهارهم وما يجرى عليهم من النعم . قاله عكرمة ومقاتل .
- تقلّبهم غير مأخوذين بذنوبهم . ذكره بعض المفسرين . [زاد المسير لابن الجوزى ١/ ٤٨٠]

فعذركم لا ينفع ، فقد ذهب وقتُ الاعتذار فلم يبْقَ إلا الجزاء على الأعمال ، وأنتم لم تقدموا إلا الكفر بالله والتكذيب بآياته ومحاربة رسله وأوليائه .

وهم يُقدِّمون أعذاراً كثيرة فى الآخرة ، فقال تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا[1] فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاَءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـكِن لاَ تَعْلَمُونَ (٣٨) ﴾ [الأعراف]

وعذركم غير مقبول ، بل كلكم جميعاً فى النار ﴿ لِكُلٍّ ضِعْفٌ .. (٣٨) ﴾ [الأعراف] الذين قلَّدوا غيرهم فى الضلال كثروا عدد الداعين إلى الضلال وتقوَّتْ بهم شوكتهم ، وأغريتم الناسَ باتباعهم .

ومما اعتذروا به أنَّ الذين استُضْعفوا استَنْكروا ممن استكبروا من الكافرين أن ضلالهم كان بسبب مكر الليل والنهار الذى مارسه عليهم مَن استكبر ، ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنتُمْ مُجْرِمِينَ (٣٢) ﴾ [سبأ]

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلاَلَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣) ﴾ [سبأ]

فكلٌّ يُلقى بالمسئولية على الآخر ، فلما اتهمهم المستكبرون بالإجرام وأنهم انساقوا خلفهم طمعاً فى دنيا ردَّ المستضعفون ﴿ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ .. (٣٣) ﴾ [سبأ] فقد قضيتم الليل والنهار تُلحون علينا وتلعبون فى آذاننا حتى اتبعناكم.

أعذار وراء أعذار ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا

---

(١) اداركوا فيها : تداركوا . والتدارك : التلاحق والتتابع والاجتماع فى النار . وقرأ ابن مسعود (حتى إذا ادركوا) أى : أدرك بعضهم بعضاً [فتح القدير للشوكانى ٣/ ٣٤] .

أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧) ﴾ [المؤمنون]

فكان ردّ الحق سبحانه عليهم : ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) ﴾ [المؤمنون]

هم يريدون أنْ يبعدوا المسألة عن أنفسهم ويُلْقُوا بها عند الله تعالى ، يقولون : ياربّ لقد كتبتَ علينا الشقوة من الأزل فلا ذنبَ لنا ، وكيف نسعد نحن أنفسنا ؟ يقولون : لو شاء ربنا ما فعلنا ذلك، فكان ردَّ الحق سبحانه ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) ﴾ [المؤمنون] أى : اسكتوا سكوتاً بذلّة وهوان، ويكفى ما صنعتموه بالمؤمنين بى .

وهذا يُقال لهم عند إدخالهم النار تأييساً لهم وقطعاً لأطماعهم ، ويقول تعالى: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧) ﴾ [الروم]

فلا يُقبل منهم عذر ، ولا يقف الأمرُ عند عدم قبول العذر إنما ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ .. (٥٧) ﴾ [الروم] والعتاب حوارٌ بلطف ودلال بين اثنين فى أمر أغضبَ أحدهما ، ولكن هؤلاء لا يجرؤ حتى أى شفيع أنْ يقول لهم : استعتبوا ربكم واسألوه أنْ يعتبكم أى يزيل العتاب عنكم .

فليس اليومُ يومَ اعتذار ، إنما هو يوم الجزاء على ما كان من عمل ، وقد عملتم ما تجزوْنَ عليه بهذه النار ، فلا تعتذروا عن ذنوبكم وإجرامكم فلا ينفعكم اليوم الاعتذار ، لأنه قد قدَّم إليكم الإنذار والإعذار.

ويقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(٧) ﴾ [التحريم] فمصيركم هذا ليس ظلماً لكم ولا افتراء عليكم ، فلا نجامل صاحبَ الحسنة ولا نظلم صاحب السيئة ﴿ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ.. (١٧) ﴾ [غافر]

ويقول تعالى : ﴿ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً[1] كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) ﴾ [الجاثية]

---

(١) جاثية : أى جالسة على الرُّكب . يقال : قد جثا فلان جثواً : إذا جلس على ركبتيه . [زاد المسير لابن الجوزى ٥/٣٥٦] قال ابن زيد : هذا يوم القيامة جاثية على ركبهم . وقال الضحاك : جاثية على الركب عند الحساب .

فالحق سبحانه لم يظلمهم ، بل إنَّ الحق سبحانه يخاطبهم فيقول : ﴿ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٥) ﴾ [العنكبوت] لم يقُلْ : ذوقوا النار ، إنما ذوقوا ما عملتم كأنَّ العمل نفسه سيكون هو النار التي تحرقهم .

فالإنسانُ لا يُسأل ولا يُجازى إلا ما عملتْ يداه ، فلا يُسأل عن شيءٍ لا دخْلَ له فيه .

والإنسانُ على كلِّ حال مطلوب منه التوبة عما هو عليه ، إنْ كان كافراً فتوبته إيمانه ، وإنْ كان مؤمناً فتوبته إقلاعه عن المعاصي والذنوب وظلم الناس وأكْل حقوقهم .

ولكن الحق سبحانه هنا خصَّ المؤمنين بطلب التوبة إلى الله ، فقال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا[1] عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾

وقد يسأل سائل : لماذا نادى الله الذين كفروا بين نداءين للذين آمنوا ، فقال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ.. (٦) ﴾ [التحريم] ، ثم ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧) ﴾ [التحريم]

(١) قرأها أهل المدينة بفتح النون (نصوحاً) فجعلوها صفة التوبة ، أي أن يحدِّث نفسه إذا تاب من ذلك الذنب ألاَّ يعود إليه أبداً . [تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري ت ٣٧٠ هـ] . أما (نُصُوحاً) بضم النون فمعناها راجع إلى صفة التائب نفسه فيكون صادقاً خالصاً في توبته .

ثـم جاء نداء الذين آمنوا ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا (٨)﴾ [التحريم]، مَنْ يتأمل هذا يجد أنَّ الله يُشفق على الكافرين من عباده ، فهو سبحانه يضعهم بين المؤمنين ووسطهم ، هو يريدهم مؤمنين فلماذا تشذُّون عن دعوة الإيمان ؟

ثـم إن ما حـذّر الله منه المؤمنين وطلب منهم أنْ يقـوا أنفسهم منه هو النار التى وقودها الناس والحجارة ، فقد قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِـينَ (٢٣) فَـإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِـي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤) ﴾ [البقرة]

ولذلـك نـاسب أنْ يقول بعد ذكْر النار وينادى الكافرين ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَـذِرُوا الْيَـوْمَ إِنَّمَـا تُجْـزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧) ﴾ [التحريـم]

﴿ يَاأَيُّهَـا الَّذِيـنَ آمَنُـوا تُوبُـوا إِلَى اللهِ (٨)﴾ [التحريـم] ، فسبحانـه هـو المنادى ﴿ تُوبُـوا إِلَى اللهِ (٨)﴾ [التحريـم] ورسول الله ﷺ هو القائل : « لله أشد فرحاً بتوبة عبـده مـن أحدكم إذا سقط على بعيره قد أضله بـأرض فـلاة »[1] وإذا قَرُبْتَ من الله هداك.

والتوبـة تقتضـى العزم علـى ألاَّ تُنشئوا ذنوبـاً جديدة ، وألاَّ تعـودوا إلى ما ارتكبتموه من ذنوب سابقة ، فالحق سبحانه لا يردُّ مَنْ قصد بـابـه .

واقرأ الحديث القدسي لتعرف رحمة الله بعباده ، يقول الله عز وجل : « ما من يـوم تطلع فيه شمسُه إلاَّ وتنـادى السماء تقول : يا رب ائذن لى أنْ أسقط كسفاً علـى ابـن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك . وتقـول البحار : يا رب ائذن لى أنْ أغرق ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٣٠٩) عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضلَّه فى أرض فلاة »، وهو عند مسلم أيضاً (٢٧٤٧) دون قوله «سقط على بعيره » .

وتقـول الجبال : يـا ربِّ ائذن لى أنْ أطبِق على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، فيقول الله تعالى : دعوهم لو خلقتموهم لرحمتموهم إنهم عبادى ، فإنْ تابوا إلىَّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم »[١] .

ومـادة (تـاب) تعنى الرجوع إلى الله ، فعندما يتوب العبد فهو يعود إلى ربه طالباً المغفرة عن العصيان والذنب ، وعندما يتوب الله على العبد فذلك يعنى أن الله قَبِل توبته .

فالتوبـة كلهـا رجـوع إلى الله ، ومن لُطْف الله سبحانه بالإنسـان أنْ شرع التوبـة حتـى يشعر النـاسُ بالذنب وجعلها مـن فعل التائب ، ومـن فعل قابل التوبة وهو الله سبحانه ، فقال (توبوا) و (أتوب) .

كلُّ ذلك حتـى لا يستشعر الإنسان عندمـا يرتكب ذنباً ويتـوب أنها مسألة مستعصية ، إنَّ الحق سبحانه يقول : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَـٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠) ﴾ [البقـرة]

إنه سبحانه يتوب على مَنْ تاب عن الذنب ويتوب عن المذنبين جميعاً ، فهو تعالى (توَّاب) وهى كلمة تعنى المبالغة فى الصفة .

لقـد شرع اللهُ سبحانه التوبة ليتوب عبـاده ، فإذا تابوا قَبِـل توبتهم ، وقد شـرع الحقُّ التوبـة للخَلْق ليرحمهم من شرور مَنِ ارتكبـوا المعاصى ، وليرحم أيضـاً أصحاب المعاصى مـا داموا قد تابوا عنها ، وهو سبحانه عظيمُ الرحمة بالعباد التوابين .

ويقول تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٥٣) ﴾ [الأعـراف]

---

(١) أورده الغزالى فى إحياء علوم الدين (٤/٥٢) من قول بعض السلف ولفظه : « ما من عبد يعصى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به ، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً ، فيقول الله تعالى للأرض والسماء : « كُفَّا عن عبدى وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه ، ولو خلقتماه لرحمتماه ، ولعله يتوب إليَّ فأغفر له ، ولعله يستبدل صالحاً فأبدله له حسنات» . قال الهيثمى فى مجمع الزوائد : رواه الطبرانى بأسانيد أحدها رجاله وثقوا .

فقوله ﴿ثُمَّ تَابُوا.. (١٥٣)﴾ [الأعراف] أي: ندموا على ما فعلوا وأصرُّوا وعزموا على ألاَّ يعودوا.

والتوبة هي الرجوع عن أيِّ باطل إلى حق، ومن التائبين التائبون عن الكفر الطاريء على إيمان الفطرة وأخذوا منهج الله الذي آمنوا به، فهم تائبون يأخذون منهج الإيمان من المعبود.

وفتْح باب التوبة أمام العاصين رحمة يرحم اللهُ بها المجتمع كلّه من أصحاب الشهوات والانحرافات، وإلاَّ لو أغلقنا الباب في وجوههم لشقي بهم المجتمع، حيث سيتمادَوْن في باطلهم وغيِّهم، فليس أمامهم ما يستقيمون من أجله.

ولا بدَّ أنْ تكون التوبةُ توبةً نصوحاً ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًـا (٨)﴾ [التحريم]

فالله سبحانه يأمر عباده أنْ يتوبوا إليه توبة نصوحاً أي توبة صادقة خالصة لا رجوع فيها، هذه التوبة تتسم بالإقلاع عن الذنب والندم على ما فات والعزم على عدم العودة للذنب مرة أخرى وردِّ المظالم لأصحابها إنْ كانت هناك مظالم.

فالتوبة النصوح هي التوبة التي لا عودةَ بعدها إلى المعصية، لا يرجع في توبته كالمستهزيء بربه يقول: أفعل كذا ثم أتوب، كلمة ﴿مَتَابًا.. (٧١)﴾ [الفرقان] تعني العزم ساعة أنْ يتوب ألاَّ يعود.

وللتوبة شروطٌ يجب مراعاتها لتكون توبةً نصوحاً، وهي أنْ تقلع عن الذنب الذي تقع فيه، وأنْ تندم على ما بدر منك، وأنْ تنوي وتعزم عدم العَوْد إليه مرة أخرى.

وليس معنى ذلك أنك إنْ عُدتَ فلن تُقبل منك التوبة فقد تتعرض لظروف

توقعك فى الذنب مرة أخرى .

لكن المراد أنْ تعزم صادقاً عند التوبة عدم العوْد ، فإنْ وقعت فيه مرة أخرى تكون عن غير قصد ودون إصرار ، وإلاَّ لو دبرتَ لهذه المسألة فقلتَ : أذنب ثم أتوب ، فمَنْ يُدريك أن الله تعالى سيمهلك إلى أنْ تتوب ؟ إذن : فبادر بها قبل فوات أوانها .

هذه إذن شروط التوبة إن كانت فى أمر بين العبد وربه ، فإنْ كانت تتعلق بالعباد فلا بُدَّ أنْ يتوفر لها شرط آخر وهو ردُّ المظالم إلى أهلها إنْ كانت تُرد ، أو التبرع بها فى وجوه الخير على أنْ ينوى ثوابها لأصحابها ، إنْ كانت مظالم لا تُردُّ .

﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ (٨) ﴾ [التحريم] ، فسبحانه يكفّر عنكم سيئاتكم صغائرها وكبائرها .

وتكفير السيئات له أسباب كثيرة منها هنا التوبة ، ومنها إخفاء الصدقة وإعطاؤها الفقراء فإنَّ الله يُكفّر عنكم بذلك من سيئاتكم ، يقول تعالى : ﴿ إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٧١) ﴾ [البقرة]

ومنها التقوى ، يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا[١] وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩) ﴾ [الأنفال]

فالله يستر عنهم السيئات ويغفر لهم ، أى لا يعاقب عليها ويميط العقاب ، ومما يُكفّر السيئات أيضاً اجتناب الكبائر وهى كبائر الذنوب كالقتل والزنا والتولِّى يوم الزحف .

يقول تعالى : ﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ

---

(١) فرقاناً : مخرجاً فى الدنيا والآخرة . وقال عبد الكريم الجزرى : نجاة . قال الطبرى فى تفسيره للآية يجعل لكم فصلاً وفرقاً بين حقكم وباطل من يبغيكم السوء من أعدائكم المشركين .

مُدْخَلًا كَرِيمًا (٣١) ﴾ [النساء]

لكن هذه المسألة وقف فيها العلماء فقالوا: معنى ذلك أننا سنغرى الناس بفعل السيئات ما داموا قد اجتنبوا الكبائر فقد يفعلون الصغائر.

نقول: لا، فالإصرار على الصغيرة كبيرة من الكبائر، لذلك لا تُجزْ الصغائر لنفسك، فالحق يُكفِّر ما فلتَ منك فقط، ولذلك يقول سبحانه: ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَـٰئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) ﴾ [النساء]

فهم يفعلون الأمر السيء بدون ترتيب وتقدير سابق، والتوبة لا تكون لمن استمرأ الذنوب والمعاصى وفعل السوء ولا يفكر فى التوبة إلا لحظة الغرغرة والاحتضار.

يقول تعالى: ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ (١٨) ﴾ [النساء]

ولاحظ أن القرآن عبَّر عن صاحب السيئة بوصف هذه الزلَّة بكلمة «السوء» أما الشارد الموغل فى الشرود عن منهج الله، فوصفه بأنه يفعل السيئات، وليس سوءاً واحداً بل ارتكبوا السيئات.

فالذى ارتكب سوءاً واحداً فذلك يعنى أنه ضعيفٌ فى ناحية واحدة ويبالغ ويجهتد فى الزوايا والجوانب الأخرى من الطاعات التى لا ضعفَ له فيها ليحاول ستر ضَعْفه، أما الذى يفعل السيئات فهو ليس صاحبَ نقطة ضعف واحدة لكنه يقترف سيئات متعددة ويُمعن فى الضلال، ولا يقتصر الأمر على هذا بل يؤجِّل التوبة إلى لحظة بلوغ الأجل.

﴿ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ (١٨) ﴾ [النساء] وتكفير السيئات على نوعين : أولاً أنْ يسترها عليك فى الدنيا ، أو يُذهب عنك عقوبة الآخرة .

فالذى يتوب توبةً نصُوحاً ويُكفر اللهُ عنه سيئاته هو الرجل يعمل الذنب ثم يتوب أى يقلع عنه ، ولا تُحدِّثه نفسه بعمل الذنب ، ولا يعود فعلاً لعمل الذنوب .

فكأنَّ التوبة النصوح قد طهَّرتْ جارحتَه يداً ورِجْلاً وسمعاً وبصراً ، وطهَّرَتْ قلبه من إرادة السوء ، وطهَّرت عقله من التفكير فيه .

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال فى قوله تعالى : ﴿ تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا ..(٨)﴾ [التحريم] ، قال : هو الرجل يعمل الذنب ثم يتوب ولا يريد أنْ يعمل به ولا يعود(١) .

فرحمةُ الله سبحانه تسع كلَّ ذنوب خَلْقه ، وهو سبحانه يغفر الذنوب جميعاً ، وليست كلُّ الذنوب تسقط ، وإنما تسقط الذنوبُ المتعلقة بالله سبحانه وتعالى، لأن الذنب المتعلِّق بالله أنت لم تظلم الله به ، لكن ظلمتَ نفسك ، ولكن الذنب المتعلِّق بالبشر فيه إساءةٌ لهم أو انتقاص من حقوقهم ، وبالتالى فإنَّ ظلم العباد لا يسقط إلا بردّ حقوق العباد .

والإسلام دين يُقدِّر الواقع البشرى ، فإنه سبحانه يعلم أنَّ العباد سيرتكبون الذنوب فيرسم لهم أيضاً طريق الاستغفار ، وإذا ما ارتكب العبادُ ذنوباً فإنَّ الحق يطلب منهم أنْ يتوبوا عنها .

الذنب الأكبر الذى لا يغفره الله هو الشرك به سبحانه ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا

---

(١) أورده الفخر الرازى فى تفسيره (٣/٤٦٩) وعزاه لعمر بن الخطاب رضى الله عنه : إنه هو الرجل يعمل الذنب ثم يتوب ولا يريد أن يعمل به ولا يعود . وقال ابن مسعود : هو أن يهجر الذنب ويعزم على أن لا يعود إليه أبداً .

يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا (٤٨) ﴾ [النساء]

فمَنْ أشرك بالله ولم يتُبْ من شركه ومات وهو مقيم على شركه لم يغفر له وأدخله ناراً وقودها الناس والحجارة ، فهؤلاء يُقال لهم : ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧) ﴾ [التحريم]

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ[1] لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٨) ﴾ [التحريم]

الجنات متنوعة ، فهناك جنات الفردوس وجنات عدن وجنات نعيم ، وهناك دار الخلد ودار السلام وجنة المأوى ، وهناك علّيون الذى هو أعلى وأفضل الجنات ، وأعلى ما فيها التمتُّع برؤية الحق تبارك وتعالى ، وهو نعيم يعلو كثيراً عن أيِّ نعيم فى الطعام والشراب فى الدنيا .

والجنات جاهزة لا تتطلب من المؤمن حركة أو تعباً ، تجرى من تحتها الأنهار وفيها للإنسان المؤمن ما وعده الله به ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ (١٥) ﴾ [آل عمران] إنه الخلود الذى لا يفنى ولا يترك الإنسان ، ولا يترك هو الإنسان .

والجنة مخلوقة لله باقية بإبقاء الله لها ، والحق سبحانه يقول : ﴿ وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ[2] وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢) ﴾ [التوبة]

---

(١) قال الطبرى فى تفسيره : يسألون ربهم أن يبقى لهم نورهم فلا يطفئه حتى يجوزوا الصراط . قال الزجاج فى معانى القرآن وإعرابه (٥/١٢٤) : أى بلّغنا به إلى جنتك . قال ابن عباس : ليس أحد من المسلمين إلا يعطى نوراً يوم القيامة فأما المنافق فيُطفأ نوره ، والمؤمن مشفق مما رأى من إطفاء نور المنافق ، فهم يقولون : ربنا أتمم لنا نورنا . [زاد المسير لابن الجوزى ٤/٣١١] .

(٢) المعدن : مكان كل شيء أصله ومبتدؤه ومنه جنات عدن . عدن بالمكان : أقام أى جنات إقامة وخلود.

فهنـاك جنات والجنـات مساكن لأن الإنسـان يحب فى بعض الأوقات أنْ يجلس بمفرده وحوله المتعة التى تخصُّـه ، وفى أحيان أخرى يحب أنْ يجلس مـع النـاس فى مكان جميل مثلما يحدث فى الأعياد والمناسبات عندما نخرج إلى الحدائق والبساتين ونجلس معاً .

فكأنَّ الجنات هى للرفاهية الزائدة عندما تحب أنْ تجتمع مع النـاس ، أتمتع بهـا أنا وأنت وغيرنا ، أما المساكن فهـى للخصوصية فيكون لكل واحد مكان خاص يجلس فيه ويتمتع بما حوله .

إذن : فالجنـات صورة مـن البساتين ، ولكنها ليست مصنوعة بالأسباب بل هى من صناعة المسبِّب جلَّ وعلا .

ونحـن حينمـا نذهب إلى بيت إنسـان ثريٍّ قد نجد أن للبيت حديقة يشرف عليهـا بستانيّ متمكِّن من عمله ويقوم بتنسيق الزهور والأشجار بشكل يناسب ثراء المالك .

ويكـون إعجابنا فى هذه الحالة بالحديقـة إعجاباً كبيراً بحيث نجلس فيها ونكـره أنْ نغادرهـا ، فـإذا كان هذا هو مـا يحدث بقدرات البشر فكيف بهذه الحقائـق التـى صُنعـت بقدرة الله سبحانـه ؟ وكيف يكـون جمالها وحلاوتها والمتعة فيها ؟

إنَّ الـذى وعدنا بهذه الجنات هو الحـق سبحانه ، وهو قادر على أنْ ينفذ ما وعدنـا بـه من جنات فيها من الكماليـات والرفاهية ممَّا لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر .

وجعل سبحانه هذه الجنات واسعة شاسعة فيها زروع وأزهار وأشكال تسرُّ العين بجمالها وتمتع اللمس بنعومتها وتملأ الأنوف برائحتها الزكية .

ومـن ميـزات جمالهـا أن الأنهار تجرى مـن خلالها ، ولكنهـا لا تجرى من فوقها بل تجرى من تحتها ومنابعها من مكان آخر أو تحتها ومنابعها ذاتية ، أى تنبع من نفس المكان .

وكأنَّ كل نهر ينبع من تحت جنة خاصة به ، وإذا أردتَ أنْ تعرف جمال هذه الأنهار فهو جمال قد صنعه الحقُّ سبحانه .

وإذا كنَّا في حياتنا نرى أنَّ لكل نهر شاطئين فإن أنهار الجنة تجرى من غير شواطيء ، وتجد الأنهار قد تشترك في المجرى نهر اللبن ونهر العسل ونهر الماء ونهر الخمر ، وكلها تجرى في مجرى واحد ولكنها لا تختلط ببعضها البعض ، فكل منها منفصل لأن الحق سبحانه هو الصانع وتبارك مَنْ صنع .

فالجنات هي الحدائق وفيها مساكن ، ونحن في حياتنا الدنيا نجد الفيلات في وسط الحدائق ، فما بالنا بما يعد به الله من طيب المساكن وسط الجنات ؟

والجنة في أصل اللغة هي الستر ، ومنها الجنون أي ستر العقل ، والجنة تستر مَنْ فيها بما فيها من أشجار كثيرة بحيث مَنْ يمشي فيها لا يظهر لأن أشجارها تستره ، أو أن مَنْ يدخلها يجلس فيها ولا يراه أحد ، لأن كلَّ خير فيها لا يُلجئه أنْ يخرج منها .

وهي جنات عدن أي جنات إقامة دائمة ، لأن فيها كلَّ ما يحتاجه الإنسان فلا حاجةَ له إلى غيرها ، أما الجنة فهي جنة عدن تحب أنْ تقيم فيها إقامةً دائمة .

ويصف الحق سبحانه هذه الجنات ، فيقول : ﴿ **جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ** (٣١) ﴾ [النحل] ، وفي آية أخرى يقول سبحانه : ﴿ **تَجْرِى تَحْتَهَا الأَنْهَارُ** (١٠٠) ﴾ [التوبة] ومعنى ﴿ **تَجْرِى تَحْتَهَا** (١٠٠) ﴾ [التوبة] أي أنها تجرى تحتها وربما تأتى من مكان آخر .

وقد يقول هنا قائل : يمكن أنْ يُمنع عنك جريانُ هذه الأنهار ، لذلك جاءت الآية ﴿ **تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ** (٣١) ﴾ [النحل] أي : ذاتية في الجنة لا يمنعها عنك مانع ، فالماء ذاتيٌّ فيها لا يأتيها من مكان آخر ربما ينقطع عنها .

فـ ﴿ **تَجْرِى تَحْتَهَا الأَنْهَارُ** (١٠٠) ﴾ [التوبة] فنبْع الماء من مكانٍ بعيد وهو

يمرُّ تحتها . أما قوله تعالى : ﴿ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ (٣١) ﴾ [النحل] فكأنَّ الأنهار تنبع من تحتها حتى لا يخاف إنسانٌ من أن الماء الذى يأتى من بعيد يُقطع عنه أو يجفّ ، وهذه زيادة لاطمئنان المؤمنين أنَّ نعيم الجنة باقٍ وخالد .

والأنهار جمع نهر ، والنهر هو الشقّ الذى يسيل فيه الماء أى مجراه وليس هو الماء، والحق سبحانه يقول : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ (٣١) ﴾ [النحل] فأين تجرى الأنهار؟ أتجرِى الأنهار تحت زروعها أم تحت بنيانها ؟

والجنة هى البستان الذى به شجرة إذا سار فيه الإنسان يستره ، وهو غير البساتين الزهرية التى تُخرج زهراً قريباً من الأرض تمثل ترفاً للعين فقط ، أما الجنة ففيها أشجارٌ عالية كثيفة بحيث لو سار فيها أحدٌ يُستر ، ففيها الاقتيات وفيها كلُّ شيء .

فهى تسترك عن أنْ تلتفت إلى غيرها لأن فيها ما يكفيك ؛ فالذى عنده حاجة لا تكفيه يتطلَّع إلى ما يكفيه ، لكن مَنْ عنده حاجة تكفيه فقد انستر عن بقية الوجود .

فالجنة تستر مَنْ فيها ، فأشجارها كبرتْ ونمتْ وترعرعْت بحيث يكون مَنْ يسير فيها مستوراً بأغصان الشجر وأوراقه فلا يراه أحد ، ويكون مستوراً فى كلِّ مطلوبات حياته فلا يحتاج أنْ يخرج منها لأن فيها كلَّ مطلوبات الحياة من الماء والطعام والمكان يجلس أو يتريض فيه وغيرها من النِّعم التى أنعم الله بها عليه .

والفارق بين أنهار الدنيا وأنهار الجنة أن أنهار الدنيا عبارة عن شقوق فى الأرض لها شواطئ تحتضنها ، أما أنهار الآخرة فهى تسير على الأرض دون شواطيء تحجزها .

وتجد أنهار الخمر تسير أيضاً فى الأرض ولا تتداخل مع أنهار الماء، وكذلك أنهار اللبن ، وكلُّ ذلك من صنعة ربٍّ حكيم قادر، فلا شيءَ يمنع أنهار الجنة، فظاهرةُ جريان الأنهار فى الدنيا وسيلة للخضرة والخصب والإيناع .

و ﴿ مِنْ تَحْتِهَا (٧٦) ﴾ [طه] أى أن الماء ذاتيٌّ فيها ونابعٌ منها ، ليس جارياً إليك من مكان آخر ربما يُمنع عنك أو تُحرم منه .

وقد حدَّثنا الحق سبحانه عن أنهار الجنة ، فقال : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ (١٥) ﴾ [محمد]

فالحق سبحانه يعطينا اسماً موجوداً وهو النهر وكلُّنا نعرفه ، لكنه سبحانه يوضح : أنا سأنزع منه الأكدار التى نراها فى النهر الحادث فى الحياة الدنيا، وأيضاً فأنهار الدنيا تسير وتجرى فى شقٍّ بين شاطئين ، لكن أنهار الجنة سترى الماء فيها وليس لها شطوط تحجز الماء لأنها محجوزةٌ بقدرة الله .

وسنجد أيضاً أنهاراً من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهاراً من خمر ليست كخمر الدنيا ، فهو خمرٌ لذَّة للشاربين بعكس خمر الدنيا فالناس لا يشربونها بلذَّة ، فهو يسكبه فى فمه مرة واحدة ليُقلِّل سرعة مروره على مذاقاته لأنه لاذع ومُحمِّض .

وهناك أنهارٌ من عسل مُصفًّى مما يُعكره عليك فى الدنيا أو يُكدِّره لك ، فأنا أصفِّيه لك فى الآخرة كنهر يجرى على وجه الأرض ، فقد كان العرب يُخرجون العسل من الجبال يجدون فيه رملاً وحصى .

فالله يُصفِّى النعيم من كلِّ الشوائب ، فيُصفِّى الماء من أنْ يكونَ آسناً ، ويُصفِّى اللبن من أنْ يتغير طعمه ، ويُصفِّى الخمر من أنْ تغتال العقل وتذهب به ، ويُصفِّى العسل من الكدر والشوائب .

فقد خلّص المثل الذى ضربه من شوائبه التى نعرفها فى الدنيا ، فالمياه عندما تجرى تكون حُلْوةً ورائقةً وصافيةً ، وإنْ ركدتْ فهى تأسن وتكون عَطِنة، فخلَّص الله الماءَ من هذا .

وكذا الخمر ، فخمرُ الآخرة تختلف عن خمر الدنيا ، فخمرُ الآخرة لا تؤثر على التكوين العضوى للعقل ، كما أنَّ خمرَ الدنيا ليس فيها لذة للشاربين لأنها من كحول يكوى الفم ويلسعه ، ولذلك تجد مَنْ يشربها وهو يسكبها فى فمه لتمرَّ بسرعة فلا يشعر بلسْعها فى فمه ، فتذهب إلى معدته مباشرة فتُلهبها .

ويختلف الحال لو كان المشروب هو شراب عصير المانجو أو البرتقال أو القصب حيث تستطيب النفس مذاقَ تلك الفواكه ، فنجد مَنْ يشربها بتمهُّل ليستبقى أثرها فى فمه .

ويقول الحقُّ سبحانه عن خمر أنهار الجنة ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ (٤٧) ﴾ [الصافات] أى أنه سبحانه ينفى عن خمر أنهار الجنة كلَّ المكدِّرات التى توجد فى خمر الدنيا ، فآفة خمر الدنيا أنها تغتال العقل وتذهب به وليس فى شربها لذة .

وعظمة هذا فى الآخرة فى الجنة أنه مهما بلغ بنا ترف الحياة ونعيمها ، ومهما عظُمت إمكاناتنا فى الدنيا فلن نرى فيها نهراً من الخمر أو من اللبن أو من العسل .

ثم إنَّ هذه الأنهار تجرى فى الجنة بلا شُطآن ، بل ويتداخل بعضها فى بعض دون أنْ يطغى أحدٌ منها على الآخر ، وهذه طلاقةُ القدرة التى لا حدودَ لها .

وهذا يتحقَّق ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِى اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ (٨) ﴾ [التحريم] كلمة (خزى) ترد فى اللغة بمعنيين ، مرة بمعنى الفضيحة (خزى يخزى خزياً) أى: انفضح ، ومرة ثانية هى (خزى يخزَى خِزاية وخزًى) بمعنى : استحى .

والمعنيان يلتقيان ، فما دام قد افتُضح أمر عبد فهو يستحى مما فعل والخزى

هو الشيء القبيح الذى تكره أنْ يراك عليه الناس ، والخزى مرتبة أشدّ من عذاب النــار ، وقمة الخزى أنْ يأخذ أحدٌ مثلَ ما فى الدنيا معه ويريد أنْ يُقدِّمه افتداءً لنفسه من عذاب جهنم ، فيرفضه الحقُّ منه .

يقــول تعــالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَــوْ أَنَّ لَهُم مَا فِــي الْأَرْضِ جَمِيعًــا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَــدُوا بِــهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَــةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَــذَابٌ أَلِيمٌ (٣٦) ﴾ [المائدة] وتلك هى قمة الخزى التى يجب أَنْ يبتعد عنها الإنسان .

وكذلك الذين هادوا يأتيهم الخزى أى الافتضاح ﴿ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤١) ﴾ [المائدة] ، وليس الخزى هو الجزاء الوحيد لهم بل يلقوْنَ فى الآخرة عذاباً عظيماً .

والخـزى أقسـى على النفس مـن العذاب لأن معنـاه الفضيحـة ، كأنْ يكون هنــاك إنســانٌ له مهابة فــى الحى الذى يسكـن فيه مثل فتوة الحــى ، ثم يأتـى شــاب ويدخل معه فى مشاجـرة أمام الناس ويلقيه علـى الأرض ، هذا الإلقاء لا يُعذِّبــه ولا يُؤلمه ، وإنمــا يُخزيه ويفضحه أمام الناس ، بحيث لا يستطيع أنْ يرفع رأسه بين الناس مرة أخرى ، والخزى هنا أشدّ إيلاماً لنفسه من العذاب .

وعذاب الخزى فى الحياة الدنيا يمكن أنْ تراه مُجسداً فيمن افترى وتكبَّر على الناس ، ثم يراه الناسُ فى هوان ومذلَّة ، هذا هو عذاب الخزى فى الدنيا ، ولا بدّ أنَّ عذاب الآخرة أخزى وأشدّ ، والذي يأتيه الخزى يشعر باحتقار نفسه وهوانها ويعانى من الفضيحة أمام الخَلْق .

فالخـزى هـو الهوان والمذلَّـة ، وهو أقوى مـن الضرب والإيـذاء ، ولا يتجلَّد أمامه أحد ، فالخزى قشعريرة تغشَى البدن فلا يفلت منها مَنْ تصيبه وإنْ كان الإنســانَ قادراً على أنْ يكتم الإيلام فالخزى معنــى نفسى ، والمعانى النفسية تنضـح علـى البشرة ولا يقدر أحـدُ أنْ يكتم أثرها ، لأنه يقتـل حِمْيَةَ الاستكبار التى عاش بها .

فـالله لا يُخـزى النبـى ولا يُخزى الذين آمنـوا معه ، يقول تعـالى : ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ (٨) ﴾ [التحريم] ، وهذا تعريضٌ بـالذين لم يؤمنوا فسينالهـم الخزى والصَّغار الذى يترك الإنسان حيرانَ خجلاً مهموماً بأنْ يرى نقصه وسُوء منزلته .

والله لا يُخـزى المؤمنـين ، وطالمـا هم مع النبـى ﷺ لا يحصل لهم الإخزاء، ومعنى الذين آمنوا معه أى كانوا على منهجه وسُنَّته ، أما إذا خرجوا على منهجه وسنته فقد يحدث لهم الإخزاء ، كأصحاب الكبائر مثلاً بدخولهم النار.

يقـول تعـالى : ﴿ إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ (١٩٢) ﴾ [آل عمران] وهم لا يذكرون عذاب مَنْ يدخل النار ، ولكنهم يذكرون خزى الله لمَنْ دخل النار .

وكلمـة (الخـزى) هذه لها معنا موقف طريف أيام كنا صغاراً نحفظ القرآن على يد سيدنا فضيلة الشيخ حسن زغلول عليه رحمة الله ، وكان رجلاً مكفوفَ البصـر ، وكنـا نَسْتَخِفُّ به ، فإذا وجدنا فرصة تفلتنا منه وهربنا من تصحيح اللـوح الـذى نحفظـه ، فالذى يحفظ بمفـرده هكذا من المصحف يكـون عُرْضة للخطأ .

ومن ذلك ما حدث فعلاً من زميل لنا كان اسمه الشيخ محمد حسن عبدالبارى، وقـد حضر مدير المدرسة فجـأة وأراد أن يُسمِّع له ، وكان الشيخ عبدالبارى لم يُصحِّـح لوحـه الذى سيقرأ منه فقرأ ﴿ إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ (١٩٢) ﴾ [آل عمـران]

فقرأهـا بالراء بدلاً من الزاي ، فضحك الشيخ طويلاً رحمه الله وقال : يا بنى المعنى صحيح ، لكن الرواية ليست هكذا ، فكُنَّا نأخذها على الشيخ عبدالبارى، فمَنْ أراد أنْ يغيظه قال : (إنك من تدخل النار ..) ويسكت .

ثـم يقول تعالى ﴿ نُورُهُـمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِـمْ وَبِأَيْمَانِهِـمْ (٨) ﴾ [التحريم] ومثل

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ (١٢) ﴾ [الحديد]

أي أن نورهم يضيء أمامهم ، أما المنافقون فيقولون للذين آمنوا : ﴿ انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا (١٣) ﴾ [الحديد] أى أن هذا ليس وقت التماس النور ، فالوقت لالتماس النور كان فى الدنيا باتباع المنهج والقيام بالصالح من الأعمال .

إذن : فالحق سبحانه يهدى للمؤمنين نوراً فوق نورهم فى الآخرة ، فمَنْ أخذ هداية الله بالدلالة وهى المنهج واتبع هذا المنهج ، فالحق سبحانه يجعل له نوراً يسعى بين يديه .

﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا (٨) ﴾ [التحريم] وذلك إذا رأى المؤمنون نور المنافقين يُطفأ سألوا الله تعالى أنْ يُتمم لهم نورهم ويُبلغهم به الجنة . وقال ابن عباس : ليس أحدٌ من المسلمين إلا يُعطى نوراً يوم القيامة[1] .

فأما المنافق فيُطفأ نوره ، والمؤمن مشفق مما رأى من إطفاء نور المنافق ، فهم يقولون ﴿ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا (٨) ﴾ [التحريم]

ولا ينال أهلَ النار شيءٌ من نعيم أهل الجنة ونورهم ، ويسمع أهل النار رداً على طمعهم فى أنْ ينالهم بعضٌ من نور أهل الجنة : إنكم تلتمسون الهدى فى غير موطن الهدى ، فزمن التكليف قد انتهى .

ومَنْ كان يرغب فى نور الآخرة كان عليه أنْ يعمل من أجله فى الدنيا ، فهذا النور ليس هبةً من خَلْق لخَلْق ، وإنما هو هبةٌ من خالق لمخلوق آمن به .

وأنتم تقولون : انظرونا نقتبسْ من نوركم ، وليس فى مقدور أهل الجنة أنْ

(١) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير (٤/٣١١) وأورده ابن كثير فى تفسيره (١/١٩٢) وعزاه لابن أبى حاتم فى تفسيره عن ابن عباس . وقد ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٨/٢٢٨) وعزاه للحاكم والبيهقى فى البعث .

يُعطوا شيئاً من نور أهل الجنة فالعطاء حينئذ لله .

أما المنافقون فيقول تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٧) ﴾ [البقرة]

فهم أوقدوا ناراً لتعطيهم نُوراً يُريهم طريق الإيمان ، وعندما جاء هذا النور بدلاً من أنْ يأخذوا نور الإيمان انصرفوا عنه ، وعندما حدث ذلك ذهب الله بنورهم فلم يَبْقَ في قلوبهم شيءٌ من نور الإيمان .

فهم الذين طلبوا نُورَ الإيمان أولاً ، فلما استجاب الله لهم انصرفوا عنه .

﴿ وَاغْفِرْ لَنَا (٨) ﴾ [التحريم] فنحن ندعوه سبحانه ألاَّ يُدخلنا في الذنب الذي يؤدي إلى غضبه والعياذ بالله ، يقول تعالى في آية أخرى ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا (١٤٧) ﴾ [آل عمران]

والاستغفار هو إقرارٌ بالتقصير وارتكاب الذنوب ، فنقول يارب اغفر لنا ، وساعة تطلب المغفرة من الله تعالى فهذا إعلانٌ منك بالإيمان ، واعترافٌ بأنَّ تكليفَ الحق لك هو تكليفٌ حقّ .

وما دام الإنسان قد طلب من الله تعالى أنْ يغفر له الذى فات من ذنوب فعليه ألاَّ يرتكب ذنوباً جديدة ، وبعد التوبة على العبد أنْ يحرص على تجنُّب المعاصى .

وهو سبحانه الذى يغفر الذنوب جميعاً ، وقد حدث أنْ كان الأصمعي[1] واقفاً عند الكعبة فَسَمع أعرابياً يدعو ويقول : يارب أنت تعلم أنِّى عاصيك وكان من حقك عليَّ ألاَّ أدعوك وأنا عاصٍ ، ولكنى أعلم أنه لا إله إلا أنت فلمَنْ

(١) الأصمعى : هو عبد الملك بن قريب أبو سعيد الأصمعى وُلد بالبصرة عام (١٢٢هـ) ، راوية العرب، كان كثير التطواف فى البوادى ، يقتبس علومها ويتلقى أخبارها ، كان الرشيد يسميه (شيطان الشعر)، كان أعلمهم بالشعر وأتقنهم باللغة كان يحفظ عشرة آلاف أرجوزة . توفى عام (٢١٦ هـ) عن ٩٤ عاماً . [الأعلام – للزركلى ٤/١٦٢] .

أذهب . فقال الأصمعى : يا هذا إن الله يغفر لك لحُسْن مسألتك .

ويقول تعالى : ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) ﴾ [الزمر]

وهو سبحانه قادر على كلِّ شيء ، لذلك يقول المؤمنون فى دعائهم ﴿ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٨) ﴾ [التحريم]

فهو القادر القدير الذى يعلم عنَّا الغفلة فيُنبِّهنا دائماً إلى كمال قدرته فهو القادر على كلِّ شيء ، فكلُّ شيء يدخل فى إرادة الله وقدرته سبحانه ، فالله له طلاقة القدرة فى مُلْكه ، ولا توجد قدرة فى هذا الكون إلا قدرة الله سبحانه ، ولاقوة إلا قوته جلَّ جلاله ، ولا فعل إلاَّ ما أراد .

والله قدير حتى قبل أنْ يوجد مقدور عليه ، فلم يكُنْ قديراً فقط عندما خلق الإنسان ، بل بصفة القدرة خلق الإنسان ، والله يظلُّ قديراً وموجوداً فى كلِّ لحظة ، وهو كان ولا يزال .

فالله هو الذى خلق الجنات بما فيها من أنهار ، وهو القادر عليها يدخل فيها مَنْ يشاء بقدرته ، فمَنْ آمن أدخله فيها بقدرته ، وجعل للمؤمنين نوراً يسعى بين أيديهم وبأيمانهم بقدرته ، وحرم من كفر من هذا النور ، فكانت نارُهم ظلاماً لا يُنيرها إلا النار الموقدة عليهم .

وهم يستديمون التضرع والابتهال فى السؤال أنْ يُتم الله عليهم نورهم ، أما المنافقون فيقولون للذين آمنوا ﴿ انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ (١٣) ﴾ [الحديد]

أى انظروا إلينا من أجل أنْ نقتبسَ من أنواركم . أو انظرونا بمعنى انتظروا حتى نلحق بكم ونمشى على نوركم ، فيُقال لهم : ﴿ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ (١٣) ﴾ [الحديد]

أى اذهبوا إلى الدنيا ، فالأنوار التى تريدونها فى الآخرة تأخذونها من الدنيا،

و ﴿ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ (١٣) ﴾ [الحديد] تُقال لهم على سبيل التهكم ، وإلا ليس هناك إمكانيةٌ للرجوع إلى الدنيا لتبحثُوا لكم عن نور ، فلا نورَ لمن لا نورَ له .

وليس أحدٌ من الموحِّدين إلا يكون له نورٌ يوم القيامة يهديه ويدلُّه على الصراط ، فأما المنافق فيطفيء اللهُ له نوره ، فيقطع الله وصلهم بالمؤمنين فالله جعل النور متاعاً للمؤمنين في الآخرة ويحرم المنافقين منه لأنهم لم يتبعوا النور الذى أنزله الله لهم في الدنيا .

ويقول ترجمان القرآن[1] في قول الله عز وجل: ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِى اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا (٨) ﴾ [التحريم]

قال : ليس أحدٌ من الموحدين إلا يُعطَى نوراً يوم القيامة ، فأما المنافق فيُطفأ نوره ، والمؤمن مشفقٌ مما رأى من إطفاء نور المنافق ، فهو يقول : ﴿ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا (٨) ﴾ [التحريم]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ﴾

(جاهد) من فاعل مثل : شارك ، فأنت تشارك فلاناً ، ومثل (قاتل) فأنت تقاتل فلاناً . إذن : فهناك مُفاعلة ومجاهدة .

فـ (جاهد) و (قاتل) مبنية على المفاعلة ، بمعنى : إنْ قاتلك واحد من الكفار فلا بدَّ أنْ تبذل كلَّ جهدك في قتاله . وجاهد مثل شارك . فهل تقول :

(١) ترجمان القرآن هو عبد الله بن عباس ، وهو حبر الأمة ، وقد كان عمر بن الخطاب يقول : « نعم ترجمان القرآن عبد الله بن عباس ، جاء فتى الكهول وذو اللسان السئول والقلب العقول » . ذكره ابن كثير في البداية والنهاية (٨٨/١٢) وكذا الطبرى في تفسيره (١٠٤ - ١٠٦) .

شـارَك زيـد ثم تسكـت . أم تقول : شارك زيد عمـرواً ، وقاتَل زيد عمـرواً . إذن : فهناك مفاعلة .

فمعنـى (جاهِـد) أي اصمد أمامهـم في المعركة ، والجهـاد يقتضي الصبر والمواجهـة ، والجهـاد بذْل الجهد في إنفـاذ المراد ، ومنه اجتهـد فلانٌ في كذا يعني عمـل أقصـى ما في وُسْعـه من الجدِّ والاجتهـاد فـي أنْ يستنبط الحكم . وجاهـد مفاعلة كأنَّ الشيء الذي تريده صعبٌ يحتاج إلى جَهْد منك ومحاولة ، والمفاعلة تكون من الجانبين : منك ومن الشيء الذي يقابلك .

فـ (جاهـد) فيها مفاعلةٌ مـع الغير ، تقول : جاهد فـلانٌ فلاناً مثل قاتل ، فهـي تـدلُّ على المشاركة في الفعل ، كما لو قلت : شارك عمرو زيداً فكلّ منهما فاعل ، وكلّ منهما مفعول ، لكن تُغَلّب الفاعلية في واحد والمفعولية في الآخر .

فالمجاهـدة تشمـل ميادين عديدة : مجاهدة الغرائـز والعواطف ، ومجاهدة مشقـة المنهج في افعل ولا تفعل ، ومجاهدة شياطين الإنس والجن ، ومجاهدة خصوم الإسلام الذين يريدون أن يطفئوا نور الله .

والجهـاد يكـون بوسائل كثـيرة ، فمَنْ يملك القوة والمـال ، فعليه أنْ يجاهد بهمـا ، ومَـنْ يملك عنصراً من الاثنين القوة أو المـال فعليه أنْ يجاهد به ، فإنْ كان ضعيفـاً فعليـه أن يُعـين بماله القـويَّ القادر علـى القتال ، بـأنْ يوفر له الأسلحة والخيول والدروع وغير ذلك من وسائل القتال .

والـذي يجاهـد بمالـه ونفسه يكون قد اقتنـع بيقين أنه سـوف يحصل من الجهاد على ما هو خير من المال والنفس .

وهنـا يطلـب الحق سبحـانه من رسول الله ﷺ أنْ يجاهد الكفار والمنـافقين، والكفار منتفعون بـالفساد ، ولكي يستمر هذا الانتفـاع لا بدَّ أنْ يقف الكفار ضد حَمَلـة منهج الحـق ، وأنْ يقـاوموهم ليضمنـوا لأنفسهم استمـرار الميزات التي

يعطيها الباطل لهم .

وينبه الله سبحانه وتعالى رسوله إلى حقيقة هؤلاء الكفار المنتفعين بالفساد وأنهم سيحاربونه ، ولذلك قال الحق سبحانه لرسوله ﷺ : ﴿ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ (٩) ﴾ [التحريم]

ومجاهدة الكافرين غير المسلمين تكون لأمرين :

الأمر الأول : حين يعارض غير المسلمين الدعوة إلى الإيمان ، وأنْ يقفوا فى سبيل الداعى إليه ليُسكتوه عن الدعوة إلى الله .

والأمر الثانى : أنْ ينتشر المسلمون فى الأرض ليُعلوا كلمة الله ، ليس إكراهاً عليها فالدين لا إكراه فيه ، والسيف الذى حُمل فى الإسلام لم يُحمل ليفرض ديناً ، وإنما حُمل ليكفل حرية الاختيار للإنسان فى أنْ يختار الدين الذى يريد اعتناقه بلا إكراه .

وتحرير اختيار الإنسان إنما ينشأ بإزاحة العقبات التى تفرض عليه ديناً آخر ، ثم يستقبل الإنسان الأديان كلها فيختار بحرية الدينَ الذى يرتضيه .

وما دام الجهادُ فريضةً بهذا المعنى ، فكلُّ مسلم مكلَّف بأنْ يجاهد ، إما فرض عين إنْ غلب المؤمنون على أمر مكروه ، وإما فرض كفاية إنْ قام به البعض سقط عن الباقين .

وجهاد الكافرين غير جهاد المنافقين ، وقد عرَّفنا الله سبحانه وتعالى صفاتهم فى آيتين فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧) ﴾ [البقرة]

فالكافر صريح فى عداوته ، ولذلك نحن نتقيه ونحذره لأنه يعلن كفره والكافر هو الذى جحد الإيمان بقلبه وأعلن الكفر بلسانه ، أما المنافق فهو مَنْ

كفر فى باطنه ويعلن الإيمان فى ظاهره .

والمنافق هو الذى يجب أنْ نحذر منه أشدّ الحذر ، لأننا لا نعرفه فنتقى شرّه مثل الكافر ، فالمنافق قد يطعن من الخلف ونحن آمنون له مطمئنون ، فتكون طعنتُه أليمة .

فالعداوة التى يواجهها المؤمنون تأتى من صنفين ، من الكافر ومن المنافق، فالكافر يجاهر بعدم إيمانه ويعرف الجميع أنه كافر ، ويظهر هذا فى لسانه وفعله فهو كافر قلباً وقالباً .

أما المنافق فإنه يُظهر بلسانه الإيمان ولكنه يُضمر الكفر فى قلبه ، لذلك فهو عدوٌّ صعب لأنه يغشّنا فلا نأمنه ، وأنت قد تحسبه مؤمناً فتُطلعه على أسرارك فيتخذها سلاحاً لطعن الدين .

والمنافق يقول بلسانه ما لا يعتقد قلبه ، ويُظهر غير ما يبطن ويقول ما يخشى أنْ يكشفه الناس .

وإذا كان المنافقُ قد أظهر بلسانه ما ليس فى قلبه فإنَّ الله سبحانه يعامله بمثل فِعْله ، فإذا كان له ظاهر وباطن يعامله فى ظاهر الدنيا معاملة المسلمين، وفى الآخرة يوم تُبْلَى السرائر يجعله فى الدرْك الأسفل من النار ، ولا يسويه بالكافر لأن ذنب المنافق أشدّ .

والنفاق مأخوذ من نافقاء اليربوع[1]، وهى إحدى جُحوره التى يستتر ويختفى فيها ، واليربوع حيوان صحراوى يخادع مَنْ يريد به شراً فيفتح لنفسه بابين ، يدخل أمام الرجل من باب ثم يخرج من باب آخر ، فإن انتظره الرجلُ على باب فاليربوع يخرج من الآخر .

---

(١) اليربوع هو الفأرة الكبيرة تكون فى الصحراء ، تثقب الأرض إلى القعر ، ثم يصعد من ذلك القعر إلى وجه الأرض من جانب آخر [تفسير الفخر الرازى مفاتيح الغيب ١٢/٤٣١] . وهو حيوان له ذَنب طويل ينتهى بخصلة من الشعر وهو قصير اليدين طويل الرِّجلين ، لونه كلون الغزال .

فالكافر بكفره قد أعطانا مناعةً ، فإنه قد أعلن الكفر فنحن نأخذ حذرنا منه ، فلا يُلحق بنا إلا ضرراً محدوداً ، أما المنافق فهو قد تظاهر بالإيمان فآمناه، ويستطيع أنْ يُلحق بنا شراً رهيباً ، لأنه بحكم ما أخذه من أمان منَّا يعرف أسرارنا ومواطن الضعف فينا ، وقد تكون طعنته قاتلة .

فالكافر عدو ظاهر واضح صريح ، أما المنافق فإنه عدوٌّ خفيٌّ ، والعدو الخفي شرٌّ من العدو الظاهر ، لأننا نكون على حذر من العدو الظاهر لكننا لا نأخذ الحذر من العدو الخفي ، وهو يعرف كلَّ تحركاتي ويستطيع أنْ يغدر بي في أيِّ وقت دون أكون منتبهاً لهذا الغدر .

وأولى مراحل الجهاد هي الجهاد بالحجة ، فالمؤمنون كانوا في أول الأمر قلَّةً ضعيفة لا يملكون قوة يواجهون بها هذا المدّ الكبير من الكفار .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣) ﴾[التوبة] وهذا يعني أن هناك قوماً قريبين منهم ما زالوا كافرين ، وهناك قوم أبعد منهم .

والحق سبحانه قد قال : ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً (٣٦) ﴾ [التوبة] ، ويقول تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) ﴾ [البقرة]

ولا بدّ أنْ تكون نية القتال في سبيل الله ، لا أنْ يكون القتال بنية الاستعلاء والجبروت والطغيان ، فلا قتالَ من أجل الحياة أو المال أو لضمان سوق اقتصادي ، وإنما القتال لإعلاء كلمة الله ونُصْرة دين الله ، هذا هو غرض القتال في الإسلام ، قتالٌ لردِّ العدوان لا بداية عدوان .

والسيف لم يأت ليفرض العقيدة ، إنما ليحمي الاختيار في النفس الإيمانية .

ولم يأمر اللهُ بقتال قبل رسول الله ، فقد كان الرسول من السابقين على

محمد ﷺ يُبلـغ قومه برسالته ، فإنْ آمنوا فبها ونعمتْ ، وإنْ لم يؤمنوا تتدخّل السماءُ بالعقاب ، بريح صرصر ، رجفة ، صيحة ، خسف الأرض بهم ، إغراق .

فالرسول قبل محمد ﷺ كان يُبلِّغ ، والله يعاقب مَنْ لم يؤمن ، وما وُجِد قتال إلا إذا اقترحوا هم القتال مثل بني إسرائيل ، قال الحق سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ (٢٤٦) ﴾ [البقرة]

هم الذين اقترحوا ، لكن القتال الذي يثبّت المبدأ أو ينشر المنهج لإعلاء كلمة الله وسيطرة الخلافة الإيمانية على الأرض لم يشرع إلا على يد رسول الله . فكأنَّ الله لم يأمن خَلْقاً على خَلْق إلا أمة محمد ﷺ ، فقد جعلها أمينة على البشر .

وقد يسأل سائل : ولماذا لا ينصر اللهُ المؤمنين والرسول مباشرة دون قتال لغيرهم من الكفار والمشركين ؟ نقول : لأن النصر لو جاء بسبب غيبيٍّ من الحق ربما قالوا ظاهرة طبيعية قد نشأت ، ولكن الحق يريد أنْ يُظهر أن القلّة المؤمنة هي التي غلبتْ .

وعندما يقول الحق سبحانه : (وقاتلوهم) نفهم أن هذا أمرٌ للمؤمنين ليقاتلوا الكفار ، ولا بدَّ أنْ يكون الكفار قد فعلوا شيئاً يستحق أنْ يقاتلوا عليه ، أو أنهم يُبيِّتون للمؤمنين القتال ، وعلى المؤمنين أنْ يواجهوهم ويقاتلوهم .

والكافرون سعوا لقتال المسلمين في بدر وأُحد ، ثم زحفوا على المدينة وتحزَّبوا مع اليهود ، فكانت غزوة الخندق وذلك للقضاء على الدولة التي نشأت في المدينة ، لذلك وجب الجهاد والقتال على المؤمنين دفاعاً عن الإسلام وعن بقائه .

وقد زيَّن الشيطانُ للكفّار قتالَ المؤمنين فجعله مُحبَّباً إلى نفوسهم ، وأنهم سيحققون النصر ويصبحون حديث الجزيرة العربية كلها ، وتخافهم الناس

وتهابهم ويصبحون هم الكبراء وأصحاب الكلمة .

يقول تعالى : ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ[١] عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤٨) ﴾ [الأنفال]

فجهاد المؤمنين للكافرين هنا هو جهادٌ صريح ، قتالٌ فى أرض المعركة، فيها غالبٌ ومغلوب ، ومنتصر ومهزوم ، أما جهاد المنافقين فهو جهاد من نوع آخر لأن المنافق لا يُظهر لك عداوته ، بل إنه يُظهر لك أنه منك ومعك .

فالجهاد معهم هو توقيع العقاب عليهم ، وقد كان المنافقون يرتكبون الإثم ويسألهم رسول الله فينكرونه فيصفح عنهم ، وقد كانوا يُكثرون الحلف أنهم ما فعلوا .

فيذكر الحق سبحانه : ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ .. (٥٦) ﴾ [التوبة] ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا (٧٤) ﴾ [التوبة] ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ (٦٢) ﴾ [التوبة]

وقال تعالى ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) ﴾ [المنافقون]

لقد كان المنافقون أسبقَ الناس إلى الصفوف الأولى فى الصلاة لأن كلَّ منافق منهم أراد أنْ يحبُكَ مسألة نفاقه ويُواريه ، فيحرص على ما يندفع المؤمنون إليه .

والمنافقون أخطر على المؤمنين من الكافرين، لذلك قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠) الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ

---

(١) نكص على عقبيه : ولَّى مدبراً . ومعنى نكص : رجع بخزى من حيث جاء . والنكوص أن يهرب ذليلاً خازياً . والنكوص : الإحجام عن الشيء .

اللهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ[1] عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (١٤١) ﴾ [النساء]

وهم يتربصون بالمؤمنين، فإنْ وجدوا خيراً قد أتى لهم فهم يريدون الاستفادة منه، وإنْ جاء شرٌّ فالمنافقون يتجهون للاستفادة من الخصوم، فظاهراً هم يُعلنون الإيمان وهم في باطنهم كفار، وهم يتربَّصون بالمؤمنين انتظاراً لما يحدث وليُرتِّبوا أمورهم على ما يجيء.

فإنْ فتح الله بنصره على المؤمنين في معركة وأخذوا مغانم قال المنافقون: ﴿ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ (١٤١) ﴾[النساء] فلا بدَّ لنا من سهم في هذه الغنيمة، وإذا انتصر الكفار يذهبون إلى الكافرين مصداقاً لقول الحق سبحانه: ﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٤١) ﴾ [النساء]

فقوْل الكافرين ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ (١٤١) ﴾[النساء] يكشف موقفهم عندما تقوم معركة بين معسكرى الكفر والإيمان، فيحاول المنافقون معرفة تفاصيل ما ينويه المؤمنون، ولحظة أنْ يدخل المنافقون أرض المعركة فهم يُمثِّلون دورَ مَنْ يأسر الكافرين حماية لهم من سيوف المؤمنين، ثم يقول للكافرين: نحن استحوذنا عليكم أي منعناكم أن يقتلكم المؤمنون ويطلبون منهم الثمن.

لذلك جمع الحق سبحانه بين الكافرين والمنافقين في قوله تعالى: ﴿يَـاأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ (٩)﴾ [التحريم]

ومعنى ﴿ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ (٩)﴾ [التحريم] أي: أنذرهم بالعذاب الرهيب الذي

---

(١) ألم نستحوذ عليكم. أي: ألم نحط بكم من ورائكم ونمنعكم من المؤمنين ونجادل المؤمنين عنكم فنحبسهم عنكم ونخبرهم أنَّا معكم. قال الطبري في تفسيره: أصل الاستحواذ في كلام العرب فيما بلغنا الغلبة. وقال السمرقندي في تفسيره (١/ ٣٥٠): « ألم نخبركم بصورة المسلمين ونطلعكم على سرهم ونخبركم عن حالهم ».

ينتظرهم علّهم يُفيقون ، والغلظة ليست صفةً دائمة ، بل تعني أنك إنْ تطلَّب الأمر فيجب أنْ تتوافر فيه .

لذلك قال تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً (١٢٣) ﴾ [التوبة]

والغِلْظة الشدة ، فحين تضرب عدوك اضربه بقوة وبجرأة وبشجاعة ، وحين يحاول عدوك أن يضربك استقبل الضربة بتحمُّل ، وهكذا نجد أنَّ الغلظة مطلوبة في الحالتين .

في حالة الإرسال منك وفي حالة الاستقبال منه فلا يكفي أنْ تضرب عدوك ضربةً قوية ، وحين يرد لك الضربة تخور وتضعف ، إنَّ الحق يطلب منك غلظةً تحمل على عدوك ، وغلظة تتحمل من عدوك .

فالغلظة تتطلب منك أنْ تهاجم ، وتتطلب منك أنْ تتحمّل ، والتحمُّل يقتضي صبراً ، والتحامل يقتضي شجاعة ، فإذا كان في خَصْمك صبر وشجاعة فعليك أنْ تُصابره أي تصبر أكثر منه .

والغلظة والشدة إنما تكون في ميدان المعركة وهي القوة في القتال هجوماً ودفاعاً ، ويقول تعالى : ﴿ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ[1] .. (١٢) ﴾ [الأنفال]

والضرب لما هو فوق الأعناق هو ضَرْب الرأس فيفقد القدرة على التفكير أو تذهب حياته لينتهي ، وإنْ بقي على قيد الحياة فسوف يشاهد مصارع زملائهم وذِلّتهم .

والضرب منهم كلَّ بنان أي ضربهم بالسيوف في أيديهم ، لأن الضرب في

(١) البنان : أطراف الأصابع . ويقال : البنان الأصابع بعينها . [الزاهر في معاني كلمات الناس – ابن الأنباري ٢/١٤٩] .

الأيدى إنما يجرحها ويجعلها عاجزةً عن القتال .

والكافرون والمنافقون كلاهما ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ (٩)﴾ [التحريم] أى أن المرجع الذى يأوون إليه هو النار ، والمأوى الموضع الذى ترجع أنت إليه ، فالنار مأواهم ومثواهم الذى يرجعون إليه .

فكلمة (مأوى) معناها المكان الذى يُضطر الإنسان إلى أنْ يأوى إليه ، وأنت تقول : أويتُ إلى كذا ، إذا كان هذا هو المكان الذى يعصمك من شيء .

فإذا كانت النارُ مأواهم فلا بدّ أنَّ ما خارجها بالنسبة لهم أشدّ عذاباً ، فهم يأوون إلى النار ، فمأواهم مصيرهم ونهايتهم النار .

والحق سبحانه هنا قال : ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ (٩)﴾ [التحريم] وإذا كان المأوى الذى يفزعون إليه هو جهنم ، فمعنى ذلك أنهم بحثوا عن منفذ فلم يجدوا منفذاً إلا أنْ يدخلوا جهنم .

﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩)﴾ [إبراهيم] ، ولجهنم أبواب ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩)﴾ [النحل]

وجهنم اسمٌ لنار الآخرة من الجهامة وهى كراهة المنظر ، وكذلك بُعْد قَعْرها ، والجحيم اسمٌ من أسماء جهنم .

﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٩)﴾ [التحريم] والمصير المرجع الأخير لأيِّ شيء . أى : ساءت نهايتكم ومرجعكم ، وهو لن يذهب إلى هذا المصير باختياره ، فالحق سبحانه يقول : ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦)﴾ [البقرة]

فالله تعالى يحذر الكافرين أنَّ لهم النارَ والعذاب فى الآخرة ، ليس على اختيار منهم ولكن وهم مقهورون ، ولا بدّ أنْ يكون المصير المؤدى إلى جهنم غاية فى السوء .

ومن رحمة الحق سبحانه بخَلْقه أنْ أنزل للناس المنهجَ الذى يهديهم الحياة

الباقية بدلاً من أنْ يظلُّوا أسرى الحياة الفانية وحدها .

ومن رحمته أيضاً أنْ حذَّرهم من المصير السيء الذى ينتظر مَنْ يكفر به ، ومثل هذا التحذير لا يصدر إلا من مُحبٍّ ، فسبحانه يحب خَلْقه .

وما دام الحق سبحانه يحب خَلْقه فإنه لا يحب أنْ تكون نهايتهم سيئة ، أو أنْ يكون مصيرهم إلى النار ، ولكن يعلم الكافرون أنَّ مصيرهم جهنم ، وبئس الدار التى يدخلونها فى اليوم الآخر .

والمثوى الذى سيبقى خلوداً للظالمين هو النار وهو بئس المثوى ، وكلمة (بئس) تُستعمل لذمٍّ وتقبيح الشيء ، وحين تكون النار هى المأوى ، أليس ذلك هو بئس المرجع ؟

ومما جاهد به رسول الله الكافرين والمنافقين ما حدث فى غزوة الأحزاب، ويقول عنها الحق سبحانه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١) ﴾ [الأحزاب]

وهذه المعركة كانت قاسية ، حرَّك الحقُّ فيها الريح وتفرَّق فيها أعداء الإسلام وصرفَ الحقُّ الأحزاب ورجع الرسول ﷺ إلى المدينة ، وقد كان من المفترض أنْ يرتاح المؤمنون المقاتلون .

ولكن قبل أنْ يخلعوا ملابس الحرب جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ وقال : أو قد وضعتَ السلاح يا رسول الله ؟ قال : نعم . فقال جبريل : فما وضعتْ الملائكة السلاح بعد ، وما رجعتُ الآن إلا من طلب القوم .

إنَّ الله عز وجل يأمرك يا محمد بالمسير إلى بنى قريظة ، فإنى عامد إليهم

فمزلزل بهم . فأمر رسول الله ﷺ مؤذناً فأذَّن فى الناس : لايصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة، فأدرك بعضهم العصر فى الطريق ، فقال بعضهم : لا نصلى العصر حتى نأتيها ، وقال بعضهم : بل نصلى لم يُرد منا ذلك . فذُكر للنبى ﷺ فلم يُعنِّف أحداً منهم[1].

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا[2] فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

الحق سبحانه يضرب لنا الأمثال بالأمور المُحسَّة كى ينقل المعانى إلى أذهاننا ، فالإنسان له إلْفٌ بالمُحسِّ ، وإدراكات حواسِّه تعطيه أموراً حِسية أولاً ثم تحقق له المعانى بعد ذلك .

وهو سبحانه القادر على ضَرْب الأمثال حتى بأقلّ المخلوقات وأتفهها فى نظرنا ، والحق سبحانه يقول : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ..(٢٦)﴾ [البقرة]

فلا تستقلّ أمرَ هذه البعوضة ، ولا تستحقر أنْ يجعلها الله مثلاً ، لأنه سبحانه

---

(١) عن ابن عمر قال قال النبى ﷺ لنا لما رجع من الأحزاب : « لا يصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة ». فأدرك بعضهم العصر فى الطريق . فقال بعضهم : لا نصلى حتى نأتيها . وقال بعضهم : بل نصلى لم يُرد منا ذلك ، فذُكر للنبى ﷺ ، فلم يُعنِّف واحداً منهم . أخرجه البخارى فى صحيحه (٩٤٦ ، ٤١١٩). وكذا مسلم فى صحيحه (١٧٧٠) .

(٢) فخانتاهما : فخالفتاهما بالمعصية . وقال مقاتل بن سليمان فى تفسيره (٢/١٠٩) : فخالفتاهما فى الدين ولم يكن فى الفرج . وقد رواه عبد الرزاق فى مصنفه (١٢٣٤) .

لا يستحيى أنْ يضرب بها المثَل ، لأن فى هذه البعوضة كل أجهزة تكوين الحياة التى فيك ، وفى أضخم الحيوانات مثل الفيل والجمل ، ولأن هذه البعوضة التى تستحقرها قد تكون أقوى منك وقد تُعجزك أنت على قوتك وحيلتك وجبروتك .

فالحق سبحانه جاء بهذا المثَل لهذا المخلوق الحقير فى نظرك ليوضح لك قضيةً غامضة يُنبِّهك إليها .

ولأهمية ضَرْب المثل فى توضيح الغامض يلجأ إليه الشعراء ليُقرِّبوا المعنى من الأفهام ، فقد يقف الشاعر أمام قضية معقدة لا يدركها إلا العقلاء ، ويريد الشاعر الوصولَ بها إلى أفهام العامة .

وذلك مِثْل قضية الحاسد الذى يظهر بحسده مزايا محسوده ومكارمه ، فقد يتهم البريء بتهمة ظلماً ، فتكون سبباً فى رفعته بين قومه .

أخذ الشاعر العربى[١] هذا المعنى وصاغه شعراً وضرب له مثلاً توضيحياً فقال :

إِذَا أَرَادَ اللهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ طُوِيَتْ ... أَتَاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُودِ

لَوْلاَ اشْتِعَال النَّارِ فِيمَا جَاوَرَتْ ... مَا كَانَ يُعْرَفُ طِيبُ عَرْفِ العُودِ[٢]

فقد يكون لديك فضيلة مكتومة مغمورة لا يعرفها أحد ، حتى تتعرض لحاسد لك يتهمك ويُشوِّه صورتك ، فإذا بالحقيقة تتكشَّف للجميع ويُظهر ما عندك من مواهب ، وما لديك من فضائل .

وما أشبه ذلك بالعُود طيِّب الرائحة الذى لا نشمُّ رائحته إلا إذا حرقناه .

---

(١) هو حبيب بن أوس الطائى أبو تمام . ولد ١٨٨ هجرية . شاعر أديب أحد أمراء البيان ، وُلد فى قرية جاسم من قرى حوران بسورية ، نزل مصر وبغداد ، وتوفى ببغداد عام ٢٣١ هـ . كان أسمر طويلاً فصيحاً يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة . فى شعره قوة وجزالة . [الأعلام للزركلى ٢/١٦٥] .

(٢) البيت من بحر الكامل . وهو من قصيدة لأبى تمام فى ديوانه ٨٥ يمدح فيها أبا عبد الله أحمد بن أبى دؤاد ويعتذر إليه . وعرْف العود أى رائحة العود الذى يُتبخر به .

فالهدف من ضَرْب الأمثال أنْ يُوضِّح لك مجهولاً بمعلوم ، فإذا كنتَ مثلاً لا تعرف شخصاً نتحدث عنه فيمكن أنْ نقول لك : هو مثل فلان المعلوم لك فى الطول ، ومثل فلان فى اللون من الصور المعلومة لك ، وبعد أنْ تجمع هذه الصور تكوّن صورة كاملة لهذا الشخص الذى لا تعرفه .

ففى القرآن الكريم أمثالٌ كثيرة تُوضِّح لنا المجهول بمعلوم لنا ، وتوضح الأمر المعنوى بالأمر الحسيِّ الملموس لنا .

ومن ذلك ما ضربه اللهُ لنا مثلاً فى الإنفاق فى سبيل الله وأن الله يضاعف النفقة ، ويُخلف على صاحبها أضعافاً مضاعفة ، فقال تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) ﴾ [البقرة]

وكلمة (ضرب) مأخوذة من ضَرْب العملة ، حيث كانت فى الماضى من الذهب أو الفضة ، فكان الناسُ قديماً يأتون بقطع من الفضة أو الذهب ويُشكِّلونهما بقدر وشكل مُحدَّد لتدلّ على قيمة ما ، وتصير بذلك عملة متداولة ويقال : ضُرب فى مصر .

أى : اعتُمد وصار أمراً واقعاً ، وكذلك المثَل حين ينتشر ويصبح أمراً واقعاً .

فضَرْب العملة كان فى الماضى من الذهب أو الفضة ، ولخوْف الغش فيها حيث كانوا يخلطون الذهب مثلاً بالنحاس ، فكان النُّقاد أى الخبراء فى تمييز العملة يضربونها أى يختمون عليها فتصير معتمدةً مَوْثوقاً بها ونافذة وصالحة للتداول .

كذلك إذا ضرب اللهُ مَثَلاً لشيء مجهول بشيء معلوم استقرّ فى الذهن واعتُمد .

فالضرب : إيقاع شيء من ضارب بآلة على مضروب ، ومنه ضَرْب العملة

أى سكَّها وختْمها ، فبعد أنْ كان قطعة معدن أصبح عملةً متداولةً .

ومنه ضَرْب موسى البحر بعصاه ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ[1] بِعِبَادِى فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى (٧٧) ﴾ [طه]

فضربَ موسى البحر بعصاه فانفلق البحرُ وانحسر الماء عن طريق جاف صالح للمشى بالأقدام ، فالطريق المضروب أى المُعدّ والممهّد والصالح لهذه المهمة .

والضرْب هنا لايعنى إحداثَ أثر ضارٍّ بالضربِ ، إنما إحداث أثر نافع إيجابى كما فى قوله تعالى : ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى الْأَرْضِ (٢٠)﴾ [المزمل]

فكأنَّ الضرب يُحدِث فى المضروب أثراً باقياً ، ففى الأرض بإثارة دفائنها واستخراج كنوزها ، وفى العملة بترْك أثر بارز لا تمحوه الأيدى فى حركة التداول .

وكأنَّ ضرْب المثَل يُوضِّح الشيء الغامض توضيحاً بيِّناً كما تُسك العملة ويجعل الفكرة فى الذِّهْن قائمةً واضحةَ المعالم ، وللضرْب عناصرُ ثلاثة : الضارب ، والمضروب ، والمضروب به .

ومن الأمثلة التى ضربها اللهُ لنا ليُوضِّح لنا قضية التوحيد قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩) ﴾ [الزمر]

فالذى يتخذ مع الله إلهاً آخر كالذى يخدم سيدين وليتهما متفقان ، إنما هما متشاكسان مختلفان ، فإنْ أرضى أحدهما أسخط الآخر ، فهو متعب بينهما ،

(١) أسر بعبادى : أى سر ببنى إسرائيل ليلاً من أرض مصر . [تفسير الطبرى ١٩ / ٣٥٠] أسرى : سار ليلاً . وقال الثعلبى (٦ / ٢٥٥) : أى سر بهم أول الليل من أرض مصر .

فهـل يستوى هذا العبد وعبد آخر يخدم سيداً واحداً ؟ كذلك فى عبادة الله وحده لا شريكَ لـه .

فبالمثـال اتضحت القضيةُ ورسختْ فى الأذهـان ، لذلك يقول سبحانه : أنـا لا أستحيـى أنْ أضرب الأمثال ، لأننـى أريد أنْ أوضح لعبادى الحقائق ، وأُبيِّن لهم المعانى .

والحـق سبحانـه يقـول : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ (٥٨) ﴾ [الروم] يعنى : أتيناهم بأمثال ودلائل لا يمكن لأحد إلا أنْ يستقبلها كما يستقبل الضرب ، لأن الضرب آخر مرحلة من مراحل الإدراك .

ولكـن لمـاذا يضـرب اللهُ الأمثـالَ للنـاس ؟ قـالـوا : لأن الإنسانَ لـه حواس متعـددة، فهو يرى ويسمـع ويشمّ ويتذوّق ويلمس ، ولو تأملتَ كلّ هذه الحواسّ لوجدتَ أنَّ ألصق شيء بالحس أنْ يضرب ، لذلك حين تريد أنْ تُوقظ شخصاً من النوم فقد لا يسمع نداءك فتذهب إليه وتهزّه كأنك تضربه فيقوم .

إذن : فالضرب هو الأثر الذى لا يتخلَّف مدلوله أبداً ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ (٢٠) ﴾ [المزمل] أى : يُؤثرون فيها تأثيراً واضحاً كالحرْث مثلاً ، وهو أشبه ما يكون بالضرب .

فالحق سبحانه يضرب المثل ليُشعركم به وتُحسّوا به حسَّ الألم من الضرب، فإذا لم يحُسّ الإنسانُ بضرْب المثل فهو كالذى لا يحسُّ بالضرب الحقيقى المادى .

والحـق سبحانه يضرب هنا المثـل للذين كفروا بامرأتين من نساء الأنبياء، فيقـول تعـالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا (١٠) ﴾ [التحريم]

فهـذان رسـولان ومع ذلك لم يستطيعـا إقنـاع زوجتيهمـا بالتوحيد ، وليس

المقصـود بـالخيانـة هنا الخيانة الجنسيـة ، لكن لنستدلَّ علـى أن الرسول وإنْ كان رسولاً ليس له من القدرة على أنْ يقهر زوجه وامرأته على العقيدة .

فهـى تملك حريـة الاعتقاد ، فلا ولايةَ هنـا للرجل على المـرأة فى العقيدة، حتـى إنِ ادَّعـى الألوهيـة ، كفرعـون مثـلاً ، يقول الحـق سبحانه عـن امرأته : ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١) ﴾ [التحريم]

فهـذه اللقطات تدلُّنا على أنَّ قضية الإيمـان لا ينفع فيها النسب أو الزواج ، والله سبحانـه يوضـح لنا أنَّ الرسول مع أنه رسولٌ من الله إلا أنه لا يستطيع أنْ يفرض إيماناً على امرأته ، فالمسألة هى حرية الاعتقاد .

وانظـر إلى التعبير القرآنى ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ (١٠) ﴾ [التحريم]

إيـاك أنْ تظـنّ أنَّ أيّاً منهما متكبِّرة على زوجهـا ، لأن الحق سبحانه يقول: ﴿ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا (١٠) ﴾ [التحريم] أى أن إمرة وقوامة الرجل مؤكَّدة عليهمـا ، يشـير إلى ذلـك قوله تعـالى : ﴿ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا (١٠) ﴾ [التحريم]، لكن الإيمان هو مسألة اختيار، وهذا الاختيار متروك لكلِّ إنسـان .

وحاول البعض أنْ يلصق تهمة الزنا بامرأة نوح وامرأة لوط ، وهم فى ذلك يُجانبون الصدق ، إنه محْضُ افتراء .

ولنفهم أنَّ الاختيار فى العقيدة هو الذى جعلهما من الكافرين ، وأنَّ الرسولين نوحاً ولوطاً لم يستطيعا إدخال الإيمان فى قلبيْ الزوجتين ، حتى يتأكَّد لدينا أنَّ العقيدة لا يقدر عليها إلا الإنسان نفسه .

والحـق سبحانه لم يذكرهما باسميهما ولم يُشخِّصهما ، لأن التشخيص هنا لا يفيـد ، فالمهـم والمراد من الآية بيـان أنَّ الهداية بيد الله وحـده ، وأنَّ النبى

المرسَل مـن الله لم يستطع هداية زوجته وأقرب النـاس إليه ، وأن للمرأة حرية عقيدةٍ مطلقة .

فالحق سبحانه هنا لم يُحدد اسم أيّ امرأة من هاتين المرأتين ، بل ذكر فقط الأمر المهم ، وهو أنَّ كلاً منهما كانت زوجة لرسول كريم ، ومع ذلك لم يستطع نوحٌ عليه السلام أنْ يستلب العقيدة الكافرة من زوجته .

ولم يستطع لـوطٌ عليـه السلام أنْ يستلـب العقيدة الكافرة مـن زوجته ، بل كانـت كلٌّ من المرأتـين تتآمر ضد زوجها وهو الرسول مـع قومها ، لذلك كان مصـير كلٍّ منهمـا النـار ، والعبرة من القصة أنَّ اختيـار العقيدة هو أمر متروك للإنسان ، فحرية العقيدة أساسٌ واضح من أُسس المنهج .

إذن : فالقـدر المشترك هو حرية الاعتقـاد ، فلا سلطانَ لنوع على نوع ، فلا يوجد رجلٌ يرغم امرأةً على عقيدة ، أما الذين قالوا السوء فى امرأة نوح فعليهم أن يستغفروا الله ، فالحق سبحانه مُنزَّه عن التدليس على رسوله .

فخيانـةُ امـرأة نـوح كانت عدم إيمانها بمـا جاء به نوح عليـه السلام ، أما خيانـةُ امرأة لوط فكانت بموالاتها للقوم المفسديـن ، وإفشائها للأسرار ، وقد كانت تدلّ قومها على ضيوف لوط عليه السلام .

وتوصـى الملائكـة لوطاً عليه السـلام ألاَّ يصحب امرأته معـه لأنها خانته، وعليـه أنْ يتركهـا مـع الذين يصيبهـم العـذاب ، ولكنها لحظة الخـروج ادعتْ أنهـا مخلصة للوط وقالت : سأخرج حيث تخـرج ، ثم نظرتْ إلى القوم وقالت : واقومـاه[1]. ورجعتْ لتمكثَ معهم ، ولينـالها العذاب الذى نـالهم فى الموعد الذى حدَّدته الملائكة وهو الصبح .

(١) ذكر ابن أبى حاتم فى تفسيره (٥٥٨/١٢) أن امرأة لوط خرجت معهم ، وأنها لما سمعت الوجبة التفتت وقالت : واقوماه . فجاءها حجر من السماء فقتلها .

﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) ﴾ [هود] وقال تعالى : ﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) ﴾ [هود]

فلما أنْ أصابه السوء بمرآهم بدل أنْ يسعد بهم وخاف عليهم طمأنوه ﴿ وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٣) ﴾ [العنكبوت]

لا تخفْ علينا من هؤلاء الأراذل فلسْنا بشراً ، إنما نحن ملائكة ما جئنا إلاَّ لنريحك منهم ونقطع جذور هذه الفِعْلة الخبيثة ، وسوف نُنجيك وأهلك من العذاب النازل بهم .

ثم يستثنون من أهله ﴿ إِلَّا امْرَأَتَكَ (٣٣) ﴾ [العنكبوت] ، فكثيراً ما ضايقتْه وأفشتْ أسراره ودلَّتْ القوم على أضيافه ﴿ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٣) ﴾ [العنكبوت] الباقين فى العذاب .

فامرأة لوط لم تدخل فى الإنجاء لأنها من الغابرين . و (غبر) تأتى لمعانٍ متعددة ، فهى تعنى إقامةً ومُكْثاً بالمكان ، أو تعنى أيَّ شيء مضى .

وما دام الحق يُنجيه من العذاب الذى نزل على قوم لوط فى القرية فنجد زوجته لم تخرج معه ، بل بقيتْ فى المكان الذى نزل فيه العذاب وبقيت فى الماضى .

ونحن لا ندخل فى تفاصيل ، لماذا كانت امرأتُه من الغابرين لأن البعض تكلَّم فى حقها بما لا يُقال ، وكأنَّ الله يُدلِّس على نبى من أنبيائه ، لا ، نحن لا نأخذ إلا ما قاله الحق بأنها كانت مخالفةً لمنهجه وغير مؤمنة به .

وكلٌّ من امرأة نوح وامرأة لوط كانتا ﴿ تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ

(١٠)﴾ [التحريم] والحق سبحانه يقول عن نوح ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣) ﴾ [الإسراء]

فعملُه الصالح ينفع ذرية صاحبه ، لذلك سنلاحظ ذرية نوح بعنايتنا ، ولن نتركهم يتخبطون فى متاهات الحياة ، وسنرسل لهم الهدى الذى يرسم لهم الطريق القويم ويُجنِّبهم الزلل والانحراف .

ومعنى ﴿ صَالِحَيْنِ (١٠) ﴾ [التحريم] أى أنه توفر فى كلٍّ من الرسولين نوح ولوط شرط الصلاح ، فهما عبدان من عباد الله وليس صلاحُهما قهراً من الله لهما ، بل إنَّ الحق سبحانه ينسب الصلاح إليهما ، فهما صالحان فى ذاتيهما، لذلك اصطفاهما الله .

فمعنى (صالح) أنه صالح لأنْ يكون خليفةً فى الأرض ، وصالح لاستعمار الأرض أى أنْ يجعلها عامرةً فيترك الصالح فى ذاته أو يزيده صلاحاً ويحاول أنْ يصلح أيَّ أمر غير صالح ، فالرجل الصالح عندما يعمل فهو يحاول أنْ يجعل عمله عن عُمْق علم ، فلا يُقدم على العمل الذى يعطى سطحية نفْعٍ ثم يسبِّب الضرر من بعد ذلك .

ولا شيءَ يُغنى من الله شيئاً ، لذلك قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا وَأُولَـٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (١٠) ﴾ [آل عمران]

فلا شيءَ سيُنقذ الكافر من النار ومما سيحدث فى ذلك اليوم ، كعزوة الأولاد أو كثرة مال يشترى نفسه به أو خُلّة أو شفاعة ، فالأموال والأولاد لا تُغنى أحداً يوم القيامة ، والمسألة ليستْ عزوةً فيها ، ولا أنساب بينهم يومئذ والجنة ليست للبيع ، فلا أحد يستطيع شراء مكان فى الجنة بمال يملكه .

وهنا فى الآية التى معنا ﴿ فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا (١٠) ﴾ [التحريم] فلم يُغن نوح ولوط امرأتيهما شيئاً ولن ينقذاهما من النار ، حتى ولو كانا رسولين مُقرَّبين من الله .

بل سيُقال لهما ﴿ ادْخُلا النَّارَ .. (١٠) ﴾ [التحريم] وليس هذا فقط، بل ﴿ مَعَ الدَّاخِلِينَ (١٠) ﴾ [التحريم] مثلكم مثل الآخرين، فلن نميزكُن بشيء أيّاً كان، ولن ينجيكما أنكما زَوْجا رسولين من رُسل الله.

ولذلك لفتَ بعضُ العلماء إلى مناسبة قوله تعالى هنا عن امرأة نوح وامرأة لوط، بعد قوله تعالى: ﴿ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ[1] قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا[2] عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ (٤) ﴾ [التحريم] في ذكر عائشة وحفصة رضي الله عنهما.

قالوا: ضرب الله مثلاً للذين كفروا يحذر به عائشة وحفصة من المخالفة لرسول الله ﷺ حين تظاهرتا عليه.

وما أحسن مَنْ قال: فإنَّ ذِكْر امرأتي النبيين بعد ذِكْر قصتهما ومظاهرتهما على رسول الله ﷺ يلفت إلى أن المراد تخويفهما مع سائر أمهات المؤمنين وبيان أنهما وإنْ كانتا تحت عصمة خَيْر خَلْق الله وخاتم رسله، فإن ذلك لا يُغني عنهما من الله شيئاً، وقد عصمهما الله عن ذنب تلك المظاهرة بما وقع منهما من التوبة الصحيحة الخالصة.

فلم يُغْنِ نوحٌ عن ابنه ولا عن امرأته، ولا إبراهيم عن أبيه، ولا لوط عن امرأته، وقد قال تعالى: ﴿ لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ (٣) ﴾ [الممتحنة]

---

(١) فقد صغت قلوبكما: فقد زاغت قلوبكما. يعني مالت قلوبكما. [تفسير مقاتل بن سليمان ٣٧٧/٤] وذكره عبد الرزاق في مصنفه (٣٢٤٨) وعزاه لقتادة. ويقال: معناه إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما يعني مالت إلى الحق. ذكره السمرقندي في تفسيره (٤٦٧/٣).

(٢) تظاهرا عليه: يعني تعاونتما. قال الماوردي في تفسيره (زاد المسير ٤٠/٦): يعني تعاونا على معصية رسول الله. فهما توافقتا على فعل ما يشتد عليه ويؤذيه غيرةً عليه. قاله أبو المظفر السمعاني في تفسيره (٤٧٤/٥).

وقـال تعـالى : ﴿ مَعَ الدَّاخِلِينَ.. (١٠) ﴾ [التحريم] مع الداخلين النارَ ممنْ لا وُصْلة بينهم وبين الأنبياء ، أَو مع مَنْ دخلها من إخوانكما من قوم نوح وقوم لـوط الذيـن ناصرتموهم على نوح ولوط ، وكفرتما معهـم بنوح ولوط عليهما السلام .

فالحـق سبحانــه يقطع أمل كلّ مَنْ يرتكب المعصيـة أنْ ينفعه صلاحُ غيره، فـلا كرامـةَ ولا شفاعةَ فى أمْـر الكفر والإيمان، وقـد كان بوُسْعهمـا أنْ تؤمنا وتكونا من الداخلين الجنةَ لا النار .

ومـن عجائـب الرسم القرآنى لألفاظه هنا أن كلمة امرأة هنا لم تُكتب بالتاء المربوطة إنما بالتاء المفتوحة (امرأت نوح) (امرأت لوط) ، فالرابطة الزوجية كانـت قائمـةً بين كلّ نبـيٍّ وزَوْجه ، فكلمـة امرأة إذا أضيفـتْ إلى زوجها فهى بالتاء المفتوحة .

وقـد بُنـى الفعل للمجهــول أو لما لم يُسمَّ فاعـله فى قولـه ﴿ وَقِيلَ ادْخُلَا (١٠) ﴾ [التحريم] تجاهـلاً لهما وعـدم اعتداد بهما وذلك لكفرهما مع أنه كان الأليق بهما الإيمان ، فكُلٌّ منهما زوجٌ لنبى ورسول من رسل الله .

فهمـا كانـا ﴿ تَحْتَ عَبْدَيْـنِ مِـنْ عِبَادِنَـا (١٠) ﴾ [التحريم] أى فـى عصمتهما وملازمتـان لهما ووحْى الله ينزل فـى وجودهما ، فلماذا يتنكبان الطريق وقد أتاح اللهُ لهما وأنعم عليهما بأنْ تكون كلٌّ منهما فى بيت من بيوت النبوة ؟

فالاعتزاز يكونَ بالإسلام والإيمان لا بحسبك ولا نسبك ولا أخوتك البشرية أو والديتـك ، وإذا تأملـتَ تاريخ المسلمين الأوائل لوجدتهـم يعتزون بالإسلام لا بالأنساب ، فالديـن والعقيدة همـا اللُّحْمة وهمـا الرابطـة القوية التى تربط الإنسانَ بغيره ، وإنْ كان أدنى منه فى مقاييس الحياة .

وعـن حذيفة رضـى الله عنه قال : جئتُ إلى النبـى ﷺ والعباسُ جالسٌ عن

يمينــه ، وفـاطمةُ رضـى الله عنها عن يساره ، فقـال : يــا فـاطمة بنت رسول الله اعملى لله خيراً إنِّى لا أغنى عنكِ من الله شيئاً يوم القيامة . ثلاثـاً. يا عبـاس بن عبدالمطلـب ، يا عم رسول الله اعمل لله خـيراً إنِّى لا أغنى عنك يوم القيامة من الله شيئاً . ثلاثـاً[1].

فـالوزن فى القيـامة للأعمـال لا للأعيـان ، لذلك قـال النبى ﷺ لقرابتـه : " لا يـأتينــى النـاس بـأعمـالهم وتـأتونى بـأحسابكم "[2] . وقـال ﷺ : " يـا فـاطمة بنت محمد ، اعملى فـإنى لا أغنى عنك من الله شيئاً "

فـالأحسـاب والأنسـاب لا قيمـةَ لهـا فى هذا الموقف ، وقد علّمنـا الحق سبحـانه فــى قصة إبراهيم عليه السلام أنَّ الأنسـابَ بـالدم واللحم عند الأنبياء لا اعتبـارَ لهـا ، وإنمـا الأنسـاب المعترف بهـا بـالنسبة للأنبياء هى أنسـابُ القيم والدين .

فــ ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) ﴾ [المدثر] فـالاعتبــار إنمـا هو للعمل والإيمــان ، لا لكونــك ابنَ نبيٍّ أو ابنَ عـالم أو زوجة نبــى أو رسول ، وقد أوضح الحقُّ سبحـانه هذا فى آيـات كثيرة .

وقرأنــا فــى قصة بدر أن مصعب بــن عمير[3] رضوان الله عليــه ، وكـان فتى

---

(١) عن أبى هريرة قـال : قـام رسول الله ﷺ حين أنزل الله عز وجل ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) ﴾ [الشعراء] . قـال : « يـا معشر قريش اشتروا أنفسكم لا أغنى عنكم من الله شيئاً ، يـا بنى عبد منـاف لا أغنى عنكم من الله شيئاً ، يـا عبـاس بن عبد المطلب لا أغنى عنك من الله شيئاً ، ويـا صفية عمة رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئاً ، ويـا فـاطمة بنت محمد سلينى مـا شئت من مـالى لا أغنى عنك من الله شيئاً » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٧٥٣) وكذا مسلم فى صحيحه (٣٥١) .

(٢) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قـال : « إن أوليـائى يوم القيـامة المتقون وإن كـان نسب أقرب من نسب فلا يـأتينى النـاس بـالأعمـال ، وتـأتون بـالدنيا تحملونهـا على رقـابكم فتقولون : يـا محمد فـأقول: هكذا وهكذا لا » . أخرجه البخـارى فى الأدب المفرد (٨٩٧) وكذا ابن أبى عـاصم فى السنة (٢١٣) عن أبى هريرة .

(٣) هو مصعب بن عمير بن هـاشم القرشى من بنى عبد الدار صحـابى شجـاع من السـابقين إلى الإسلام أسلم فى مكة وكتم إسلامه ، شهد بدراً ، أسلم على يده أسيد بن حضير ، وسعد بن معـاذ ، وحمل اللواء يوم أحد فـاستشهد ، وكـان فى الجـاهلية فتى مكة شبـابـاً وجمـالاً ونعمة ، كـان يُلقَّب (مصعب الخير) توفى ٣ هجرية . [الأعلام للزركلى ٧/٢٤٨] .

قريش المدلل وأغنى أغنيائها يلبس أفخر الثياب ويعيش ألينَ عيشة ، فلما أشرب قلبه الإيمان زهد فى كلِّ هذا النعيم ، وحُرم من خير أهله ثم هاجر إلى المدينة ، وهناك رآه رسول الله ﷺ يلبس جلد شاة فقال : انظروا ماذا فعل الإيمان بأخيكم [١]؟

وفى المعركة رأى مصعبٌ أخاه أبا عزيز [٢] أسيراً فى يد واحد من الأنصار هو الصحابى أبو اليَسر [٣] فقال له مصعب : اشدُدْ على أسيرك. يعنى : إياك أنْ يفلتَ منك فإنَّ أمَّه غنية ، وستفديه بمال كثير ، فنظر أبو عزيز إلى مصعب وقال : هذا وصاتك بأخيك ؟ فقال : هذا أخى دونك يشير إلى أبى اليسر .

إذن : فلا أنسابَ بينهم حتى فى الدنيا قبل الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾

---

(١) عن عمر بن الخطاب قال : نظر النبى ﷺ إلى مصعب بن عمير مقبلاً وعليه إهاب كبش قد تنطق به، فقال النبى : « انظروا إلى هذا الرجل الذى قد نوَّر الله قلبه ، لقد رأيته بين أبوين يغذوانه بأطيب الطعام والشراب ، فدعاه حب الله ورسوله إلى ما ترون » . أخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء (١٠٨/١) والبيهقى فى شعب الإيمان (٥٧٧٩) وابن الجوزى فى صفة الصفوة (٢٠٦/١) . قال العراقى فى تخريجه لأحاديث الإحياء (٢٩٥/٤) : إسناده حسن .

(٢) أبو عزيز : هو زرارة بن عمير أخو مصعب بن عمير ، له صحبة وسماع من النبى ﷺ ، واتفق أهل المغازى على أنه أسر يوم بدر . انظر الإصابة لابن حجر [ترجمة ٧٥٣ الكنى] .

(٣) أبو اليسر هو كعب بن عمرو الأنصارى ، شهد العقبة وبدراً وله فيها آثار كثيرة وهو الذى أسر العباس بن عبدالمطلب ، كان قصيراً عظيم البطن ، مات بالمدينة عام ٥٥ هجرية . [الإصابة ترجمة ١٢٤٣]. وقد ضبط الحافظ ابن حجر كنيته (أبو اليَسَر) فقال (٣٠٧/٥) : « بفتح التحتانية باثنتين والمهملة ». وقال (٢١٨/٧) : بفتحتين .

والحق سبحانه لم يذكر اسم امرأت فرعون ، لأن المهم فى المسألة هو أنها امرأة من ادعى الألوهية ، فقال : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى (٣٨) ﴾ [القصص]، ورغم أنه أدعى الألوهية فإنه لم يستطع أن يقنع امرأته بأنه إله .

ولم يستطع أنْ يرغم امرأته على أنْ تكفر ، وهذا دليلُ أنه لا ولايةَ للرجل على المرأة فى العقيدة حتى إنِ ادَّعَى الألوهية ، وهو فرعون المتجبر لذلك لم يكُنْ مهماً ذكْر اسم امرأة فرعون لأنَّ تعيُّنها لا يُقدِّم ولا يُؤخِّر .

ففرعون الذى أضلَّ الناسَ وادَّعى الألوهية زوجته مؤمنة ، وكأنَّ الحق سبحانه يُلمح للناس جميعاً أنَّ رأيك فى الدين وفى العقائد رأيٌ ذاتيٌّ لا يتأثَّر بأحد أياً كان ، لا فى الهداية بنبيٍّ ، ولا فى الغواية بأضلِّ الضالين الذى ادَّعى الألوهية .

وهكذا يحفظ الإسلام للمرأة دورها وطاقتها ويحترم رأيها ، إذن الحق سبحانه وتعالى أتى بهذه القصة غير مُشخَّصة لتكون نموذجاً وأُسْوة يحتذى بها كلُّ أحد ، وإلاَّ لو شُخِّصت لارتبطتْ بهذا الشخص دون غيره .

فلماذا إبهامُ اسمها ؟ ذلك لنعلم أنه من الجائز جداً أنْ يحصل مثل هذا الأمر لأيِّ امرأة ، فقد تكون تحت جبار وكافر ، وتكون هى مؤمنة ، وقد تكون تحت عبد مؤمن ولا يلمس الإيمانُ قلبها .

وقد قال تعالى : ﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣) ﴾ [يونس]

وحين أراد المفسرون أنْ يُوضِّحوا معنى (ذرية) قالوا : إن المقصود بها امرأة فرعون (آسية) ، وخازن فرعون ، وامرأة الخازن ، وماشطة فرعون ، ومَنْ آمن من قوم موسى عليه السلام وكتم إيمانه .

كلُّ هؤلاء منعتْهم خشيةُ عذاب فرعون من إعلان الإيمان برسالة موسى،

لأن فرعونَ كان جباراً فى الأرض ، مُدعياً للألوهية ، وإذا ما رأى فرعونُ إنساناً يخدش ادعاءه للألوهية ، فلا بدَّ أنْ يبطش به بطشةً فاتكةً .

لذلك كانوا على خوْفٍ من هذا البطش ، فقد سبق وأنْ ذبح فرعون بواسطة زبانيته أبناءَ بنى إسرائيل واستحيا نساءهم ، وهم خافوا من هؤلاء الزبانية الذين نفَّذوا ما أراده فرعون .

لذلك جاء الضمير مرة تعبيراً عن الجمع فى قوله سبحانه (وملئهم) وجاء الضمير مفرداً مُعبِّراً عن فرعون الآمر فى قوله سبحانه : ﴿أَنْ يَفْتِنَهُمْ (٨٣)﴾ [يونس] فهم خافوا أنْ يفتنهم فرعونُ بالتعذيب الذى يقوم به أعوانه .

وقد شاء الحقُّ سبحانه أنْ ينشرح صَدْر آسية امرأة فرعون لرؤية موسى وهو طفل فى المهد ، وقد قال تعالى : ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى (٣٩)﴾ [طه]

أى : ليس بذاتك أنْ يُحبك مَنْ يراك إنما بمحبة الله ، لذلك ساعة رأتْه آسية أحبَّته وانشرح صدرُها برؤيته ، فتمسَّكتْ به رغم معارضة فرعون لذلك .

كما أن ابنة فرعون وكانت فتاةً مبروصة أصابها البرص[1] ، ورأت فى الرؤيا أن شفاءها سيكون بشيء يخرج من البحر ، فتأخذ من ريقه وتدهن موضع البرص فيشفى ، فلما رأتْ موسى تذكرتْ رؤياها ، فأخذت من ريقه ودهنتْ جلدها ، فشُفيَتْ فى الحال فتشبَّثتْ به هى أيضاً .

ورغم هذا آمنوا بموسى ، فلم يستطع فرعون المتجبر الذى قال : ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (٢٤)﴾ [النازعات] لم يقدر أنْ يمنع امرأته من أنْ تؤمن بالله ، فكان عاجزاً عن أنْ يجعل امرأته كافرة مثله .

وهذا يدلُّ على أن العقيدةَ أمر اختيارى محميٌّ بكلِّ أنواع الحماية ، حتى لا يختار الإنسانُ دينه إلاَّ على أساس من اقتناعه لا على أساس قهره .

---

(١) البرص : مرض جلدى يُحدث بُقعاً بيضاء فى الجلد تُشوِّهه ، وهو من أعراض مرض الجذام الكثيرة [القاموس القويم ١/ ٦٤] .

فزوجـة فرعون كانت مثالاً للإيمان الذى قام فى بيت الكفر وفى عُقر داره، وليقينهـا فـى الله سبحانـه وإيمانها به وباليـوم الآخر ووجـود الجنة قالت : ﴿ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ (١١) ﴾ [التحريم]

وكانت امرأةُ فرعون تُعذَّب بالشمس ، فكان يُقيدها بأوتاد أربعة من يديها ورجليهـا ويتركها تحت الشمس الحارقة، فـإذا انصرفوا عنها أظلَّتْها الملائكةُ بأجنحتها تقيها حرارة الشمس ، وكانت ترى بيتها فى الجنة[1] .

وقـد كان سببُ إيمان امـرأة فرعون أنهـا رأتْ عذاب فرعون لامـرأة خازن فرعـون وقـد كانـت مـاشطة ابنة فرعون ، وقـد وقع منها المشـط يوماً فقالت : تعسَ مَـنْ كفر بالله ، فقالـت لها ابنة فرعون : ألكِ ربٌ غـير أبى ؟ فقالت : ربِّى وربّ أبيك وربك ورب كل شيء الله .

فلطمتْهـا ابنةُ فرعـون وضربتها وأخبرت أباهـا ، فأرسل إليها فرعون فقال لها : أتعبدين رباً غيرى ؟ فقالت : ربى وربك ورب كل شيء الله ، وإياه أعبد .

فكذَّبهـا فرعون وأوتد لها أوتاداً فشدَّ يديْهـا ورِجْلَيْها وأرسل عليها الحيَّات فـأتـى عليهـا يوماً فقال لها : أما أنت منتهيـة ؟ فقالت له : ربى وربك ورب كل شـيء الله ، فقـال لها : فإنى ذابح ابنك فى فيك إن لم ترجعى . فقالت له : اقْضِ ما أنت قاضٍ ، فذبح ابنها فى فيها ، وأن روح ابنها بشَّرها فقال لها : اصبرى يا أمه فإن لكِ عند الله من الثواب كذا وكذا ، فصبرت ثم أتى عليها فرعون يوماً آخر فقال لها مثل ذلك .

فقالـت له مثـل ذلك فذبح ابنها الأصغر فى فيها فبشَّرها روحه أيضاً وقال

(١) عن سلمان قال : كانت امرأة فرعون تُعذَّب بالشمس ، فإذا انصرف عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها وكانت ترى بيتها فى الجنة . أخرجه الطبرى فى تفسيره (١١٤/٢٣) وأورده السيوطى فى الدر المنثور (٢٢٩/٨) وعزاه لابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقى فى شعب الإيمان عن سلمان .

لها : اصبرى يا أمه فإنَّ لكِ عند الله من الثواب كذا وكذا[١].

وذلك كله بعين امرأة فرعون ، وسمعت كلام روح ابنها الأكبر ثم الأصغر فآمنتْ امرأةُ فرعون ، وقبض روح امرأة خازن فرعون ، وكشف الغطاء عن ثوابها ومنزلتها وكرامتها فى الجنة لامرأة فرعون حتى رأته ، فازدادت إيماناً ويقيناً وتصديقاً .

واطلع فرعون على إيمان زوجته آسية ، فخرج إلى الملأ فقال لهم : ما تعلمون من آسية بنت مزاحم ؟ فأثنوا عليها فقال لهم : فإنها تعبد رباً غيرى. فقالوا له : اقتلها . فأوتد لها أوتاداً وشدَّ يَديْها ورجْليهْا ، فدعَتْ آسيةُ ربَّها فقالت : ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١)﴾ [التحريم]

فكشف لها الغطاء فنظرتْ إلى بيتها مبنياً ، ووافق ذلك أن حضرها فرعون فضحكت حين رأت بيتها مبنياً فى الجنة ؟ فقال فرعون : ألا تعجبون من جنونها ؟ إنَّا نعذبها وهى تضحك فقبض روحها، فأبصرت بيتها فى الجنة من دُرَّة بيضاء[٢]، ولماذا طلبت أن يبنى لها الله بيتاً عنده فى الجنة ؟ هذا مؤذن بأن فرعون وقومهما كانوا يصدونها عن الإيمان بالله ويُزيِّنون لها أنها إنْ آمنت بفرعون تضيع مُلكاً عظيماً وقصراً مهيباً ، فإنْ آمنتْ بربِّ موسى فلن يكون مدفنها الهرم الذى بناه فرعون لنفسه لدفنه مع زوجه .

لذلك طلبتْ أنْ يكون ذلك البيت عند الله ، فقالت مخاطبة ربها ﴿عِنْدَكَ.. (١١)﴾ [التحريم] فهى اختارت جوار الله مالك الملك لا جوار فرعون ، أرادتْ بيتها قريباً من رحمة الله أو فى أعلى درجات المقربين ، وكأنها أرادت الدرجة العليا لأنه تعالى مُنزَّه عن المكان .

---

(١) أورده مجاهد فى تفسيره (٥٢٣/١) وكذا الثعلبى فى تفسيره (١٩٨/١٠) والبغوى فى تفسيره (٢٥٠/٥) عن ابن عباس .

(٢) ذكره القرطبى فى تفسيره (٢٠٣/١٨) من قول أبى العالية . وكذلك من قول سلمان الفارسى فيما روى عنه عثمان النهدى .

و ﴿عِنْدَكَ (١١)﴾ [التحريم] بمعنى عند عرشك ومقرّ عزّك ، حيث لا تصرف لفرعون ولا ملْكَ له .

وكلمة (البيت) مأخوذة من البيتوتة ، وهو المأوى الذى تأوى إليه وتسكن فيه وتستريح ، فكأنَّ امرأةَ فرعون تريد أنْ تستريح من عذاب فرعون لها .

ثم تقول ﴿وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ (١١)﴾ [التحريم] تطلب النجاة من فرعون وظلمه وشِرْكه وتجبُّره ، فأنقذنى من عذاب فرعون ومن أنْ أعملَ عمله ، وذلك كفره بالله .

فهى تسأل الثبات على الإيمان بالله ، فخلِّصنى من كفره فإنى أبرأ إليك من عمله ونفسه الخبيثة وسلطانه الغشُوم وتعذيبه لعباد الله بغير جُرْم .

﴿وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١)﴾ [التحريم] الذين ارتكبوا الظلم الأصيل وهو الشرك بالله ، فأشركوا الفرعون مع الله وتبعوه فى ادعائه الألوهية والربوبية .

ونعرف أنَّ الظلم هو نَقْل حَقٍّ إلى غير صاحبه ، وأعلى مراتب الظلم هو الشرك بالله وهو الظلم العظيم ، فالحق سبحانه يقول ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)﴾[لقمان] وهم أهل دين فرعون.

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾

وليستْ امرأةُ فرعون فقط التى ضربها الله مثلاً للذين آمنوا من النساء ، بل ضرب اللهُ مريمَ ابنة عمران مثلاً ، قال تعالى :﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (١٢)﴾ [التحريم]

وقد ذكر الحق سبحانه هنا مريم باسمها المشخِّص لها وذكر اسم والدها لأن الحدث الذى حدث لها لن يتكرر فى امرأة أخرى ، فهو حدث فريد وشيءٌ خاصٌ بها لن يتكرر فى غيرها ، لذلك عيَّنها الله وعرَّفها .

أما الأمر العام الذى يتكرر فمن الحكمة أنْ يظلَّ مُبهماً غير مرتبط بشخص أو زمان أو مكان ، كما فى قصة أهل الكهف ، فقد أبهم الحق سبحانه شُخوصها لتكون مثالاً وقدوةً لكلِّ مؤمن فى كل زمان ومكان .

لذلك جاءت شخصيات قصص القرآن مُجهَّلة إلا قصة واحدة هى قصة عيسى بن مريم ومريم ابنة عمران ، لماذا ؟ لأنها معجزة لن تتكرَّر ، ولذلك حدَّدها الله بالاسم .

وكلمة (عمران) هذه حين ترد فى الإسلام فلنَا أنْ نعرف أنَّ هناك اثنين لهما نفس الاسم ، هناك (عمران) والد موسى وهارون عليهما السلام ، وهناك عمران آخر .

إنَّ عمران والد موسى وهارون ، كان اسم أبيه يصهر وجدّه اسمه (قاهات) ومن بعده لاوى ومن بعده يعقوب ، ومن بعده إسحاق وبعده إبراهيم ، أما عمران الآخر فهو والد مريم عليها السلام .

وعمران والد مريم هو ابن ماثان ، وهو من نسل سليمان ، وسليمان من داود .

وقد قال الله عن مريم ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) ﴾ [آل عمران]

والاصطفاء اختيارٌ واجتباءٌ ، والشيء المصطفى هو الشيء الخالص من الكَدر، وقد اصطفاها الله اصطفاءيْن ، الاصطفاء الأول ورد دون أنْ تسبقه كلمة (على) ، أما الاصطفاء الثانى فتسبقه كلمة (على) .

والمقصود بالاصطفاء الأول هو إبلاغ مريم أنَّ الله ميَّزها بالإيمان والصلاح

والخُلُق الطيب ، وهذا الاصطفاء قد يشترك فيه أفراد متعددون فيهم الرجال والنساء .

أما الاصطفاء الثانى المسبوق بـ (على) فقال : ﴿ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) ﴾ [آل عمران] فهذا اصطفاء خاصّ على النساء وتمييز مريم بأمر لا تشترك فيه مع النساء ، فهى الوحيدة التى ستلد دون ذكَر ، وستكون أماً لمولود بلا أب .

وهنا يَذكرها الحق سبحانه فيقول ﴿ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا (١٢) ﴾ [التحريم] و (أحصنت فرجها) أى : أنها عفَّتْ ومنعتْ أيَّ إنسان أنْ يقتربَ منها ، التى أحكمتْ صيانة عِفّتها فلم تُمكِّن منها أحداً .

وأصل الإحصان هو العفَّة تُوصف به الحرة ، لأنَّ الحرة عادة لا يقربها أحد ، وتُطلق المحصنات على الحرائر ، فالوضع العام للحرة هو الذى يجعل لها أهلاً ولا يجترىء عليها أحد .

والمحصنة لها إطلاقاتٌ ثلاث ، فهى المتزوِّجة لأن الإحصانَ الحفظ وكأنها حفظتْ نفسها بالزواج أو هى العفيفة وإنْ لم تتزوج ، فهى مُحصَنة فى ذاتها ، والمحصنة هى أيضاً الحرة لأن عملية البغاء والزنا كانت خاصةً بالإماء .

والإحصان هو الحفظ وهو من كلمة الحصن ، وهو الشيء المنيع الذى يحمى مَنْ بداخله ، وحصَّنت نفسها بالزواج أنْ تميل إلى الفاحشة ، فهى حفظتْ نفسها بالزواج أو هى العفيفة وإنْ لم تتزوج ، فهى مُحصنةٌ فى ذاتها ، ومريم عليها السلام لم تتزوَّج ولكنها عفيفة فى ذاتها .

ولكن إذا كانت ﴿ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا (١٢) ﴾ [التحريم] فمن أين جاء ابنها عيسى عليه السلام ، يقول تعالى : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا (١٢) ﴾ [التحريم]

والنفخ هنا فى الفرج وليس فى هيئة الشيء ، وقد كانت هذه خصيصةً

لعيسى بن مريم عليهما السلام ﴿ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ (٤٩) ﴾ [آل عمران]

فهذا نَفْخ فى طين مُشكَّل فى هيئة طيْر فتنفخ فيه الروح فيتحرك ، أما النفخُ فى السيدة مريم فكان نفخاً فيها هى كما فى قوله تعالى : ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (٩١) ﴾ [الأنبياء]

وكان أيضاً نَفْخاً فى فَرْجها ، قال تعالى : ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا (١٢) ﴾ [التحريم] والقولان متساويان ، والنفخة التى نفخها الله فى آدم وهو مُنجدل[1] فى طينته جاءت منها روح واحدة .

ولم يكُن النفخ فى فَرْجها مباشرة إنما كان النفخ فى جَيْب درعها أى فتحة الرقبة من ثوبها حتى وصلتْ النفخةُ إلى الرحم فاشتملتْ على عيسى عليه السلام وحملتْ به .

وكلُّ خُرْق فى الثوب يُسمَّى جَيْباً وفَرْجاً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (٦) ﴾ [ق]

وقوله ﴿ مِن رُّوحِنَا (١٢) ﴾ [التحريم] وكلمة الروح فى القرآن الكريم لها إطلاقاتٌ متعددة ، أولها الروح التى بها قوام حياتنا المادية ، فإذا نفخ الله الروحَ فى المادة دبَّتْ فيها الحياةُ والحِسُّ والحركة ، ودارتْ كلّ أجهزة الجسم .

والروح أيضاً جبريل عليه السلام ، قال تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا (١٧) ﴾ [مريم] أى جبريل عليه السلام ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) ﴾ [مريم] معنى (تمثَّل) أى ليستْ هذه حقيقته إنه تمثَّل بها ، أما حقيقته فنُورانية ذاتُ صفاتٍ أخرى ،

(١) منجدل فى طينته أى مطروح على وجه الأرض صورة من طين لم تجر فيه الروح بعد [غريب الحديث للخطابى ٢/١٥٦] ، والمنجدل : الساقط . (لسان العرب – مادة : جدل) . وقد أخرج الحاكم فى مستدركه (٣٥٦٦) عن عرباض بن سارية صاحب رسول الله ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنى عبد الله وخاتم النبيين وأبى منجدل فى طينته وسأخبركم عن ذلك ، أنا دعوة أبى إبراهيم وبشارة عيسى ورؤيا أمى آمنة التى رأت » وقال الحاكم : حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وأقره الذهبى.

وذاتُ أجنحة مثنى وثلاث ورباع[1] .

فجبريل عليه السلام جاءها فى صورة بشرية لأنهما سيلتقيان ، ولا يمكن أنْ يتمَّ هذا اللقاء خُفْية ، وكذلك يستحيل أنْ يلتقى الملَكُ بملكيته مع البشر ببشريته .

فلكُلٍّ منهما قانُونه الخاص الذى لا يناسب الآخر ، ولا بدَّ فى لقائهما أنْ يتصور الملَكُ فى صورة بشر ، أو يُرقِّى البشر إلى صفات الملائكة كما رقى محمد ﷺ إلى صفات الملائكة فى حادثة الإسراء والمعراج ، ولا يتم الالتقاء بين الجنسين إلا بهذا التقارب .

﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ (١٢) ﴾ [التحريم] ومعنى (وصدقت) أى : آمنت . والتصديق هو الإقرار والإقرار هو الأداء ، والأداء هو العمل ، والمؤمن إنما يُعرف إيمانُه بالعمل ، فالدليل الصحيح على إيمان المؤمن هو عمله .

إذن : فالتصديق هو أمرٌ فوق الإيمان القلبى المجرد ، ولكن مدخل الإيمان هو التصديق بالقضية العقدية الجازمة ، فالصدق هو رأس الأمر كلِّه .

و (كلمات الله) هى كُنْ وكل مرادات الله فى كونه ، ما علمنا منه وما سنعلم، وما لم نعلم إلا حين تقوم الساعة ، وعيسى عليه السلام هو كلمة ﴿ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ (١٧١) ﴾ [النساء]

والمعنى أنه لم يُخلق بالطريق الطبيعى فى خَلْق البشر من أب وأم ، إنما خُلِق بهذه الكلمة (كن) لماذا ؟ لأن الله تعالى يريد أنْ يُثبت لنفسه طلاقة

---

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ (١) ﴾ [فاطر] ذكر السيوطى فى كتابه (الحبائك فى أخبار الملائك ١/٢٠٢) أن لجبريل ستة أجنحة جناح بالمشرق وجناح بالمغرب وجناحان على عينيه وجناحان منهم من يقول : على ظهره ومنهم من يقول : متسرولاً بهما . وعن قتادة قال : بعضهم له جناحان ، وبعضهم له ثلاثة أجنحة ، وبعضهم له أربعة أجنحة . أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم (الدر المنثور ٧/٤) .

القدرة فى الإيجادات ، وأنه سبحانه يخلُق كما يشاء .

فمرَّة يخلق بلا أب وبلا أم كما خلق آدم عليه السلام ، ومرة يخلق بأم دون أب كما خلق عيسى عليه السلام ، ومرة يخلق بأب وأم ، ويخلق بأب دون أم كما خلق حواء .

فتصديقها ﴿ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا (١٢) ﴾ [التحريم] هو تصديقٌ بما قاله لها جبريل عليه السلام : ﴿ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (٢١) ﴾ [مريم]

وهى أى مريم صدَّقتْ بكلمات ربِّها وكتبه ، أى بما أنزله الله من كتب على رسله السابقين وكانت مؤمنة بتوراة موسى ، ولذلك كانت تتعبَّد الله فى محرابها ، وزوج أختها كان زكريا النبى عليه السلام ، وابن أختها كان النبى يحيى عليه السلام.

﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (١٢) ﴾ [التحريم] والقانتون جمع قانت ، وهو العبد الذى يُؤدِّى عبادة ربه بخشوع وباطمئنان وباستدامة ، فالذى يُقبل على الطاعة ثم ينصرف عنها كأنه قد جرَّب وُدَّه لله ، فلم يجد الله أهلاً للود .

أما العبد الطائع القانت فهو لا ينصرف عن العبادة لأنه ذاقَ حلاوة استدامة العبادة لله ، وما دام قد أدرك حلاوة العبادة فهو يُقبل عليها بخشوع واطمئنان واستدامةٍ ويدخل فى دائرة القانتين .

والمرأة الصالحة هى المرأة التى استقامت على المنهج الذى وضعه لها مَنْ خلقها فى نوعها ، فما دامتْ هى صالحةً تكون قانتة ، والقنوت هو دوامُ

الطاعة لله ، ومنه قنوت الفجر الذى نقنته وندعو ونقف مدةً أطولَ فى الصلاة التى فيها قنوت .

والمرأة القانتة خاضعة لله ، إذن فحين تكون خاضعةً لله تلتزم منهج الله وأمره .

فهى ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا (١٢) ﴾ [التحريم] وهى ﴿ مِنَ الْقَانِتِينَ (١٢) ﴾ [التحريم] وقد وصفها الحق سبحانه بأنها صِدِّيقة ، فقال تعالى : ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ..(٧٥) ﴾ [المائدة]

﴿صِدِّيقَةٌ.. (٧٥) ﴾ [المائدة] أى مُصدِّقة بما جاء به ، فالصِّديق والصِّديقة ليس هو الذى يَصدُق بل الذى يُصدِّق ، والصِّديقية صفةٌ ذاتية إشراقية من الله.

﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (١٢) ﴾ [التحريم]


سُورَةُ المُلْكِ



سورة الملك[1]



﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ﴾

الملك لله وحده ليس لأحد غيره، وهو سبحانه قدير على كل شيء، كُنَّا عدماً فأحيانا الله فى كوْن هو سبحانه خالقه، هو سبحانه أعدَّه لنا قبل أنْ يخلقنا.

وسورة تبارك تُقدِّم لنا تصوراً واسعاً شاملاً يتجاوز عالم الأرض الضيق وحيِّز الدنيا المحدود إلى عوالم فى السماوات لا يعتريها الخلل، ففهْم الإنسان لطبيعة تواجده فى هذا الكون المنضبط بأمر الله وحده يجعله متوافقاً مع منظومة الكون الكبرى المسبِّحة لله.

(١) سورة الملك سورة مكية عدد آياتها ٣٠، نزلت بعد سورة الطور، وتُسمَّى الواقية والمنجية والدافعة، وعن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ « وددت أن تبارك الذى بيده الملك فى قلب كل مؤمن ». وعن أبى هريرة أن رسول الله قال: « إن سورة من كتاب الله ما هى إلا ثلاثون آية شفعت لرجل وأخرجته يوم القيامة من النار وأدخلته الجنة وهى سورة تبارك ». ذكرهما الثعلبى فى تفسيره (٩/٣٥٤).

ويقول الحق سبحانه ﴿ تَبَارَكَ .. (١)﴾ [تبارك] وتبارك أى تنزَّه الله تعالى . ولو استعرضتَ كلمة (تبارك) فى القرآن الكريم ستجد فيها ألفاً بعد الباء ، وتأتى مرة بغير ألف ، فالمسألة ليست لها رتابةُ كتابة لأنها لو كانت رتابةَ كتابة لجاءتْ على نظام واحد .

وقد شاء الحق سبحانه هذا الأمر لتكون كتابةُ القرآن معجزة ، كما كانت ألفاظُه وتراكيبه معجزةً . وقد قال البعض : إن العرب المعاصرين لرسول الله ﷺ لم يكونوا أهلَ إتقانٍ للكتابة .

ونقول : لو كانوا على غير دراية بالكتابة لما كتبوا (بسم) من غير ألف فى موقعها ، لقد علموا أنَّ القرآن يجب أنْ يُكتب كما نزل به جبريل عليه السلام على رسول الله كتابةً توقيفية ، أى كما أمر الحق سبحانه .

وكلمة ﴿ تَبَارَكَ .. (١)﴾ [تبارك] مادة الباء والراء والكاف عادة تدل على البركة ، وهى أنْ يعطيك الشيءُ من الخير فوق ما تظن فيه ويزيد عن تقديرك ، كما لو رأيتَ طعام الثلاثة يكفى العشرة فتقول : إنَّ هذا الطعام مبارك أو فيه بركة .

ومن معانى تبارك : تعالى قدْره . وتبارك : تنزَّه عن شبه ما سواه ، وتبارك: عظُمَ خيره وعطاؤه . وهذه الثلاثة مُكمِّلة لبعضها .

ومن العجيب أن هذا اللفظ ﴿ تَبَارَكَ .. (١)﴾ [تبارك] مُعجز فى رَسْمه ، ومُعجز فى اشتقاقه ، فلو تتبعتَ القرآن لوجدتَ أنَّ هذه الكلمة وردتْ فى القرآن تسع مرات ؛ سبع منها بالألف (تبارك) ، ومرتان بدون الألف .

فلماذا لم تُكتب بالألف فى الجميع أو بدونها فى الجميع ؟ ذلك ليدلّك على أنّ رسم القرآن رسمٌ توقيفيٌ ، ليس أمراً (ميكانيكياً) ، كما فى قوله تعالى فى أول سورة العلق ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ (١)﴾ [العلق] ، فرسم كلمة اسم هنا

بالألف ، وفى باقى القرآن بدون الألف .

فالقرآن ليس عادياً فى رَسْمه وكتابته ، وليس عادياً فى قراءته ، فأنت تقرأ في أى كتاب آخر على أىّ حال كنت ، إلا فى القرآن لابدّ أنْ تكون على وضوء وتدخل عليه بطهر .

إذن فـ ﴿ تَبَارَكَ ..(١)﴾ [الفرقان] تدور حول معانٍ ثلاثة : تعالى قَدْره وتنزَّه عن مشابهة ما سواه ، وعَظُم خَيْره وعطاؤه ، ومن تعاظم خيره سبحانه أنه لا مثيلَ له : فى قدره ، ولا فى ذاته ، ولا فى صفاته ، ولا فى فعله . وهذا كلُّه من مصلحتنا نحن ، فلا كبيرَ إلا الله ، ولا جبَّارَ إلا الله ، ولا غنيَّ إلا الله .

وعندما نقرأ كلمة ﴿ بِيَدِهِ ..(١)﴾ [تبارك] لابد أنْ نعلم أنَّ الله سبحانه وتعالى أعلمُ بذاته فنقف عند الوصف ، نعم له يدٌ ، وله يدان ، وإياك أنْ تتصور أنَّ كلَّ ما يتعلق بالله مثل ما يتعلق بك .

فالأصل أنَّ لك وجوداً ، ولله سبحانه وجود ، لكن وجودك غير وجود الله ، وكذلك يده ليست كيدك ، حتى لا نُشبِّه ونقول : إنَّ له يداً مثل أيدينا ، فلنقُلْ إنَّ المراد باليد هو القدرة أو النعمة ، والهدف الراقى هو تنزيه الحق .

وهناك مَنْ يقول : إنَّ لله يداً ولكن ليست كأيدينا لأننا نأخذ كلَّ ما يأتى وَصْفاً لله على أنه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١)﴾ [الشورى] والتأويل ممكن .

ويقول الحق ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ .. (٦٤)﴾ [المائدة] والحق سبحانه عندما يقول ﴿ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ .. (١٠)﴾ [الفتح] أى أن قدرة الله فوق قدرتهم ، وكما قال سبحانه عن قدرته فى الخلق : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ[1]

---

(١) بأييد : أى بقوة وقدرة . وهى مكتوبة فى رسم المصحف بياءين بعد الألف (بأييد) ، فرقاً بين (الأيد) الذى هو القوة ، وبين (الأيدى) جمع (يد) ولا شك أن القوة التى بنى بها الله السماء هى أحق بالثبوت فى الوجود من (الأيدى) [الموسوعة القرآنية – الإبيارى ٣/١٠٤] .

وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧)﴾ [الذاريات]

فإذا كان الملْك بيد الله فلا تقلق على رزق ، فاطمئن فما دام الله قد استدعاك فإنه ضمن لك رزقك ، ورزقُكَ ينزل من السماء على الأرض فينبت نباتٌ يأكل منه كل كائن على الأرض ، والإنسان أحد هذه الكائنات ، وقد يأكل بعض ما يأكل النبات كالأنعام والماشية .

ورزقك إنما هو مرتبط بكلِّ ظواهر الطبيعة على الأرض من رياح وهواء ودفء شمس أو مطر ينزل من السحاب ، وهذا كله فى مُلْك الله سبحانه ، هو بيده سبحانه لا بيد إله آخر لأنه لا يوجد إله آخر ، فَلِمَ تقلقُ على رزقك ؟

والحق سبحانه ﴿ بِيَدِهِ الْمُلْكُ .. (١)﴾ [تبارك] والملْك يقتضى مالكاً ويقتضى مملوكاً ، ويقتضى قدرةً على استمرار هذا الملْك وعدم زواله ، فكأنَّ الحق سبحانه وتعالى يريد أنْ يبين لنا أنه يقدر ويملك المقدرة .

والإنسان ليست له قدرة التملك ولا المقدرة على استبقاء ما يملكه ، وهناك كلمتان (ملْك) و (مُلْك) . وكلمة (مِلك) تعنى أن للإنسان ملكيةَ بعض الأشياء، كملكية إنسان لملابسه وكتبه وأشيائه .

لكنّ تملّكَ مالكِ هذا المِلك فهذا نُسمِّيه (مُلْك) ؛ فإذا كانت هذه الملكية فى الأمر الظاهر لنا فإننا نُسمِّيه (عالم المُلك) ، وهو العالم المُشاهد ، وإذا كانت هذه المِلكية فى الأمر الخفى فإننا نسميه (عالم الملكوت) .

إذن نحن هنا أمام (مِلك) و (مُلك) و (ملكوت) . والملكية بالنسبة للإنسان تتلخص فى أنْ يملك الإنسانُ شيئاً فيصير مالكاً ، وإنسانٌ آخر يُولِّيه الله على جماعة من البشر فيصير ملكاً ، هذا فى المجال البشرى .

أمـا فى المجال الإلهى فإننا نصعد لـنرى مَنْ يملك كل مالكٍ وملك ، إنه الله سبحانـه وتعالى ، ولا يظن أحدٌ أن هناك إنساناً قد ملك شيئاً أو جاهاً فى هذه الدنيا بغير مراد الله فيه .

والحق سبحانـه يقول : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) ﴾ [آل عمران]

فمَنْ كان لـه ملْك فإنه لا يدوم ، لأن الله ينزع الملْك ممنْ يشاء ويعطيه لمَنْ يشاء ، فالله سبحانه هو الذى يعطى الملْك لمَنْ يشاء وهو سبحانه الذى ينزعه ممَّنْ يشاء ، إنها إرادةُ الله الخالق الأعلى ، فعندما يريد فلا رادّ لقضائه .

فالله بمطلق قدرته وقوته على الملْك خلق الموت والحياة ، وخلق السماوات بكواكبها وشموسها ونجومها ، الله بقدرته ذلَّلَ الأرض والجبال والأنهار لخدمة الإنسان ، وطلب من الإنسان أنْ يسعى فى مناكب الأرض ونواحيها ابتغاءَ رزق الله .

فالله سبحانـه هو القادر والقدير خلق إنساناً وأعطى له القدرة على تعمير الأرض وشقّ الطرق والجبال ، ولكن هذا بإقدار الله له لا لذاتية فى الإنسان .

والحق سبحانـه يقول : ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) ﴾ [تبارك] ، فللحق سبحانه طلاقةُ القدرة فى مُلكه ، ولذلك إذا قال إنه سيأتى بأمر فسيتحقق هذا الأمر حتماً وسيتم ، ولا توجد قدرة فى هذا الكون إلا قدرة الله سبحانه ، ولا قوةَ إلا قوته جلَّ جلاله ، ولا فعْلَ إلا ما أراد .

والله سبحانـه لا يُعجزه شيء ولا يخرج عن طاعته شيء ، إنه سبحانه على

كل شـيء قديـر ، فكلّ شيء يدخل فى إرادة الله وقدرتـه ، فـالله له ملك السمـاوات والأرض ، وهـو على كل شيء قدير .

وهـو سبحانــه القـادر الأعلـى ، القادر علـى كل شيء ، القــادر على الإيجاد وعلــى الإمداد ، وعلــى البداية والنهاية المحدودة ، وبدايــة الخلود إما إلى جنة وإما إلى نـار ، فهو القـادر على كل شيء .

ومــا دامـت الأحداث تختلف بـاختلاف القدرات فقـدرة الله هـى القدرة العليا التى لا تحتـاج لزمنٍ لفعل الأحداث .

والحق سبحانه يقول : ﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠) ﴾ [الـروم]

فـالحق سبحـانه له صفـاتُ الكمـال والقدرة على كلِّ شيء عِلْماً وقدرةً وحكمة وبسْطاً وقبضاً ونفعاً وضراً .

والله قديـر حتــى قبل أنْ يُوجد مقدور عليه ، فلم يكُنْ قديراً فقط عندمـا خلق الإنسان ، بل بصفة القدرة خلق الإنسانَ ، لأن الله سبحـانه وتعالى ليس أغيـاراً، لذلك يظل قديراً وموجوداً فى كل لحظة ، وهو القدير أبداً .

وكلمــة (قديــر) بصيغــة (فعيل) التى تـأتى بمعنى (فـاعـل) وتـأتى بمعنى (مفعول) مثلمـا تقول : الله رحيم . أى : أنـه راحم هو فـاعل ، ونقول : فلان قتيل: أى مقتول أى مفعول بـه .

ثم يقول الحق سبحـانه :

﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ﴾

الله جعـل للإنســان روحـاً يهبـه بهـا الحيـاة ، ولذلك لنــا أنْ نتصوَّر أنَّ للموت حقيقـة ، فـإذا مـا تسلل للإنسان فـإنه يسلب الروحَ منه .

وبذلك نستطيع أنْ نفهم قوْلَ الحق سبحانه ﴿ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ .. (٢)﴾ [تبارك] إذن : فالموت ليس عملية سلبية كما يتوهم بعض الناس ، بل هو عملية إيجابية ، وهو مخلوق بسِرٍّ دقيق للغاية يناسب دقَّة الصانع .

والحق سبحانه هنا قدَّم الموت على الحياة ، مع أننا فى ظاهر الأمر نرى أن الحياة تأتى أولاً ثم يأتى الموت ، لا ، إن الموت يكون أولاً ، ومن بعده تكون الحياة .

فالحياة تعطى للإنسان ذاتيةً ليستقبل بها الأسباب المخلوقة ، فيحرث الأرض أو يتاجر فى الأشياء أو يصنع ما يلائم حياته ويمتع به السمع والبصر فيظن أن الحياة هى المخلوقة أولاً .

يُنبِّهنا ويُوضِّح لنا الحق : لا تستقبل الحياة إلا إذا استقبلتَ قبلها ما يناقض الحياة ، فيقول لنا عن نفسه : ﴿ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ .. (٢)﴾ [تبارك]

وهذا ما يسهِّل علينا فَهْم الحديث القدسى الشريف الذى يشرح لنا كيف يكون الحال بعد أنْ يوجد أهلُ الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار ، ويأتى الحق سبحانه بالموت فى صورة كبش ويذبحه .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « يُؤتَى بالموت يوم القيامة فيُوقف على الصراط . فيقال : يا أهل الجنة . فيطلعون خائفين وجلين أنْ يخرجوا من مكانهم الذى هم فيه . فيقال : هل تعرفون هذا ؟ قالوا : نعم ربنا هذا الموت . ثم يُقال : يا أهل النار . فيطلعون فرحين مستبشرين أن يخرجوا من مكانهم الذى هم فيه . فيُقال : هل تعرفون هذا ؟ قالوا : نعم هذا الموت ، فيأمر به فيُذبح على الصراط . ثم يُقال للفريقين كليهما : خلود فيما تجدون لا موتَ فيه أبداً »[1] .

وتجسيد الموت فى صورة كبش معناه أن للموت كينونة ، ويعلمنا الله أنه

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧٣٠) والترمذى فى سننه (٣١٥٦) وقال : حسن صحيح . والآجرى فى كتابه الشريعة (٩٤٢) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

يقضى على الموت فنحيا فى خلود بلا موت .

والحق سبحانه وتعالى هو الذى خلق الموت والحياة وهو الباقى أبداً ، وليس فى حاجة لاستبقاء حياته إلى أحد من البشر ؛ فهو سبحانه قادر على كل شيء ولا يخرج شيءٌ عن نطاق قدرته .

وهو سبحانه قبل أنْ يمتنَّ علينا بالحياة فهو يُحذِّرنا أنْ يأخذنا الغرور بهذه الحياة ، فالحق سبحانه ينبه الإنسان إلى أنْ يستقبل الحياة وهو يعرف أنه سبحانه أوجد ناقض الحياة وهو الموت .

فإياك أنْ تأخذ الحياة على أنها تعطيك قوة الحركة والإدراك والإرادة برتابة وأبدية ، لأن هناك ناقضاً للحياة وهو الموت .

والحق سبحانه لم يقل إنه خلق الحياة والموت ، بل قال : ﴿ خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ .. (٢)﴾ [تبارك] وذلك حتى يستقبل كلٌّ منّا الحياة ويسبقها فى الذِّهْن ما ينقض هذه الحياة وهو الموت .

وذلك حتى لا تتعالى ولا تغفل عن هذه النهاية ولتكُنْ على بالك ، فتُرتِّب حركة حياتك على هذا الأساس .

وكأنَّ الحق سبحانه ينعى إلينا أنفسنا قبل أنْ يخلق فينا الحياة ، وقدَّم الموت على الحياة لتستقبل قبلها الموت الذى ينقضها فلا تغتر بالحياة وتعمل لما بعد الموت .

والذى يستعرض آيات القرآن يجد أن الحياة سبقتْ الموت فى كلِّ الآيات إلا فى آية واحدة فى سورة تبارك ﴿ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ .. (٢)﴾ [تبارك]

وعِلَّة ذلك أن الله تعالى يعطى للإنسان بالحياة إرادة تنشيء الحركة فى كلِّ أجهزته ، والحياة قد تُورث الإنسان غروراً فى سيطرته وإرادته على جوارحه فيطغى ، فأراد ربُّه عز وجل أنْ يُنبِّهه : تذكَّرْ أننى أميت؛ ليستقبل الحياة ومعها

نقيضها فيستقيم فى حركة الحياة .

وصفة الخَلْق والإماتة صفاتٌ لله قديمة قبل أنْ يخلق شيئاً أو يُميت شيئاً ، لأنها صفاتٌ ثابتة لله قبل أنْ يباشر متعلقات هذه الصفات .

وكما أن الحياة مخلوقة ، فالموت كذلك مخلوق ، والموت أمر حِسِّى مُشَاهد، والموت والحياة بيد الله ، وأمرُ الموت مرهونٌ بمشيئة الله وطلاقة قدرته وتحديده لكلِّ أجل بوقت معلوم لا يتقدَّم ولا يتأخَّر ، وسيلقى كلّ إنسان نتيجة عمله .

فأمر الموت والحياة بيد واهب الحياة ، فلا يظن ظَانّ أن القتال هو الذى يُسبِّب الموت ، وها هو ذا قوْل خالد بن الوليد على فراش الموت باقياً ليعرفه كلُّ مؤمن بالله :

لقد شهدتُ مائة زحف أو زُهَاءها وما فى جسدى شبر إلا وفيه ضربة سيف أو طعنة برمح ، وها أنذا أموت على فراشى كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء[1] .

إذن : فأمر الحياة والموت ليس مرهوناً بقتال أو غيره ، إنما هو محدَّد بمشيئة الله ، والحق سبحانه يقول: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (٢٣)﴾ [الحجر]

وحين يتناول الحق سبحانه فى هذه الآية أمر الموت والحياة ، وعودة الكون فى النهاية إلى منشئه سبحانه ، فهو يُحدثنا عن أمرين يعتوران حياة كل موجود ، هما الحياة والموت ، وكلاهما يجرى على كل الكائنات ، فكلّ شيء له مدة يحياها وأجَل يقضيه .

وخلْق الموت والحياة له غايةٌ ذكرها الحق سبحانه فى قوله تعالى :

---

(١) ذكره ابن عبد البر فى الاستيعاب (١/٤٠٩) والذهبى فى سير أعلام النبلاء (١/٣٨٢) والكاندهلوى فى حياة الصحابة (١/٥٦٥) . وذكره ابن كثير فى البداية والنهاية (٧/١٢٩) وعزاه للواقدى عن ابن أبى الزناد .

﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا .. (٢)﴾ [تبارك]

فالابتلاء غاية للحياة والموت ، فالحياة ليست رتابة ، بل هى ابتلاء واختبار للبشر ، والابتلاء ليس أمراً مذموماً فى ذاته ، هو مذموم باعتبار ما تئول إليه نهايته ، وما دام سبحانه يبتلينا فيما آتانا فيجب أنْ نكون حكماء، وأنْ نتسابق إلى الخير .

يقول تعالى : ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨)﴾ [المائدة]

والتسابق إلى الخيرات إنما يكون بهدف النجاح فى الابتلاء ، والنجاح يعطينا أكثر مما ننال بعدم الانصياع . إذن : فالابتلاء فى مصلحتنا يعطى الناجحين فيه نجاحاً أخلد .

فمعنى ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ .. (٢)﴾ [تبارك] أى ليختبركم اختبارَ إقرارٍ على نفوسكم أى ليختبركم أيّكم أحسنُ عملاً ، ولكن مَنِ الذى يُحدِّد العمل ؟ إنه الله سبحانه وتعالى .

وهل الحق سبحانه فى حاجة إلى أنْ يختبر مخلوقاته ؟ لا ، فالله سبحانه يعلم أزلاً كلَّ ما يأتى من الخَلْق ، ولكنه سبحانه أراد بالاختبار أنْ يُطابقَ ما يأتى منهم على ما عمله أزلاً حجة عليهم ، وهكذا فاختبار الحق سبحانه لنا اختبارُ الحجة علينا .

والابتلاء من الله نعمة وليس شراً كما يظن بعضُ الناس ، فالابتلاء هو امتحان إنْ نجحنا فيه فهو خير ، وإنْ رسبنا فيه فهو شرٌّ ، فالابتلاء ليس شراً ولكنه مقياسٌ لاختبار الخير والشر .

الذى ابتلى هو الله سبحانه ، هو الرب والربّ معناه المربِّى الذى يأخذ مَنْ يُربّيه بأساليب تؤهله إلى الكمال المطلوب منه ، ومن أساس التربية أنْ يمتحن المربِّى مَنْ يربيه ليعلم هل نجح فى التربية أم لا ؟

ولا بدّ أنه سيأتينى من الابتلاء خير ، وقد يكون الابتلاء فتنة يتعرض

لهـا الإنسـان ، فالفتنة أيضاً هى الابتلاء والاختبـار ، ويُقال : فتنتُ الذهب أى وضعـتُ الذهب فـى بوتقة وحوَّلته بالحرارة العالية مـن جسم صلب إلى سائل حتى تستخلصه من المواد العالقة الشائبة التى فيه ليصير نقياً .

والفتنة فى ذاتها ليست مذمومة ، ولكن المذموم منها هو النتيجة التى تصل إليهـا ، أينجح الإنسان فيها أم يرسـب ؟ لأن الاختبارات التى يمرُّ بها الإنسان كلها هى فتنة ، والذى ينجح تكون الفتنة بالنسبة إليه طيبة .

والـذى يرسب ويفشـل فالفتنة بالنسبـة إليه سيئة ، والحـق سبحانه أعطى للإنسـان قدرة الاختيار ، وقد أراده الله مختـاراً وأن يُبتلى وأن يُختبر ، أينجح أم يرسب ؟ أيكون مؤمناً أم كافراً ؟

والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً وكان فى باله الله حين عمل ، والخاسرون هم الذين يعملون للناس ، لأن الناس لا يملكون لهم نفعاً ، فمَنْ أحسن عملاً لله أخذ أجره من الله فى الدنيا والآخرة .

وقـد قـال تعـالى : ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (٣٠)﴾ [الكهف]

و (مَنْ) هنا عامة للمؤمن والكافر ، لذلك لم يقُلْ سبحانه : إنَّا لا نضيع أجر مَنْ أحسن الإيمان ، لأن العامل الذى يحسن العمل قد يكون كافراً ؟ ومع ذلك لا يبخسه الله تعالى حقّه ، بل يعطيه حظه من الجزاء فى الدنيا .

فالكافـر إن اجتهـد وأحسـن فـى علم أو زراعـة أو تجـارة لا يُحرم ثمـرة عمله واجتهاده ، لكنها تُعجَّل له فى الدنيا وتنتهى المسألة حيث لا حظَّ له فى الآخرة.

وهو سبحانه ﴿ الْعَزِيزُ .. (٢)﴾ [تبارك] العزيز الذى لا يُغلب لجبروته ولا يسأله أحد ، فهو سبحانه الغالب على أمره ، وهو القوى الشديد الذى لا ينال منه أحد .

فكلمة (العزيز) تفيد الغلبة والقهر والقدرة فلا يستطيع أحدٌ أنْ يعلو عليه، فالعزة هى القوة والغلبة ، وهو سبحانه العزيز المطلق لأنه لا إله إلا هو لا يُغلب ولا يُقهر.

وهو سبحانه (رب العزة) فى كل ألوانها ، إنْ كانت عزة حكمة فهو الحكيم،

وإنْ كانت عزة غضب وانتقام فهو المنتقم الجبار، وإنْ كانت عزة قبْض على الأمور فهو العزيز، وإنْ كانت عزة حلم فهو الحليم.

ولأنه سبحانه (العزيز) الذى لا يُغلب ولا يُقهر، فهو أيضاً ﴿الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢)﴾ [تبارك]، فهو لعزته يغفر ولجبروته يصفح لأنه غنيٌّ عن العالمين.

ولكى نفهم هذا نقرأ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَـٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَا أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦)﴾ [المائدة]

إلى أنْ يقول: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨)﴾ [المائدة]. وكان المنطق العقلى يقتضى أنْ نقول: فإنك أنت الغفور الرحيم، فالمقام مقام مغفرة.

لكن عيسى عليه السلام يأتى بها لا من ناحية الغفران والرحمة، وإنما من ناحية طلاقة القدرة والعزة التى لا يستدرك عليها أحد، لذلك قال: ﴿فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨)﴾ [المائدة]

فلو قال الناسُ: لماذا غفرت لهم مع أنهم قالوا كذا وكذا؟ فالإجابة أننى أنا العزيز الذى أغلب ولا أغلب، ولا يستدرك أحدٌ على حكمى.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا[(١)] مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ﴿٣﴾﴾

---

(١) طباقاً: بعضها فوق بعض بين كل سماءين مسيرة خمسمائة عاماً وغلظ كل سماء مسيرة خمسمائة عام. قال الأخفش فى معانى القرآن (٢/٥٤٦): طباقاً واحدها الطبق. وقال الطبرى فى تفسيره (٢٣/٥٠٥): أى طبقاً فوق طبق بعضها فوق بعض.

تفاوت: اختلاف. فلا خلل فى خلق الله، ولا اختلاف ولا اضطراب ولا تشقق فلا ترى فيها شقوقاً.

فطور: يعنى من فروج. وقال قتادة: من خلل. [تفسير عبد الرزاق ٣٢٦٣] والفطور: الصدوع.

الله هـو الإلـه الخالق للكـون ، وهو سبحانـه الخالق البديـع الحكيم الرحيم بعبـاده ، وهو الخالق لـكلٍّ ما فى السماوات والأرض ، ومنـزه سبحانه عن أنْ يكـون لـه شريـكٌ فيمـا خلق فهو ﴿ الَّذِى خَلَقَ .. (٣)﴾ [تبـارك]

والله خالـق ، والله رحمـن ، والله رحيم ، والله قهار ، وسبحانه رحمن ورحيم وقهـار ، وخالق حتى قبل أنْ يبرز ويظهـر ما يخلقه ، لأنه بصفة الخالقية فيه خلـق ، وهـو رازق قبل أنْ يخلـق المـرزوق ، فالصفة موجودة فيـه قائمة به ، وبوجود هذه الصفات فيه يقول للشيء : كُنْ فيكون .

وإذا جاء الرسول وأبلغنا أنَّ الله هو الذى خلق الشمس ، فإما أنْ يكون صادقاً فنُسلِّـم جميعـاً بأنَّ الله هو الخالق والموجد ، وإما أنه غير صادق فنقول : لماذا لم يخرج إذن أحد يدَّعى أنه هو الذى خلقها .

ولكـن دقـة وإعجـاز الخلق الذى لا يمكـن أنْ تصل إليه قـوة بشرية مفردة ، أو قـوى بشرية متعددة متعاونة ، جعـل القضية محسومة له سبحانه وتعالى، وإلى أنْ يأتـى مَنْ يدَّعى أنه خلق شيئاً من الكون - ولن يأتى - فقضية الخَلق محسومة لله سبحانه، ولا يوجد هناك منازع .

ويأتى رسولٌ ليقول : إن خالق الأرض والشمس والسماوات والكون هو الحقّ سبحانه وتعالى ، فلم يأتِ أحدٌ يدَّعى أنه قد خلق شيئاً من هذا ، مما يؤكد صحة دعوى الرسول ، مما يؤكد أن مَنْ أوجد هذا الكون هو قوة بلا حدود ، وقدرة بلا قيود .

والحـق سبحانه يسـأل : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥)﴾ [الطـور]

فـإذا كان الجـواب لا هـذا ولا هـذه ، فلا هم خُلقـوا هكذا من غـير شيء ولا هـم الخالقـون . إذن فلابدّ أنْ هنـاك خالقاً وموجداً لنا ، فـإذا جاء لنا الرسول وأبلغنا: إنَّ خالق هذا الكون وخالقنا هو الله فلابد أنْ نُصدِّقه ، لأنه لم يدَّعِ أحدٌ ولا يستطيع أنْ يدَّعى أنه خالق هذا الكون أو أنه خلق نفسه .

والله هـو الخالـق بتدبير دقيق ، ولله سبحانه آيات فى كونه ، فحينما تتأمل فـى كَوْن الله من حولك تجـد آيات تـدلّ على إبـداع الخالق سبحانـه وعجيب صَنْعته، وتجد تناسقاً وانسجاماً بين هذه الآيات الكونية .

يقـول تعالى عن هـذا النوع من الآيات : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْـلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَـرُ.. (٣٧)﴾ [فصلت] ، ﴿وَمِـنْ آيَاتِـهِ الْجَـوَارِ فِـي الْبَحْـرِ كَالأَعْـلامِ (٣٢)﴾ [الشورى] ، وهذه الآيات تلفتنا إلى قدرة الخالق سبحانه وتعالى .

والخالـق جلّ وعلا خلق الكون بأرضه وسمائه ، وخلق الخَلْق ، وأنزل القرآن ليُنظم حياتهم ، وبعـد أن استتبَّ له الأمر لم يترك الكون هكذا يعمل ميكانيكياً، ولم ينعزل عن كونه وعن خَلْقه ، لأنهم فى حاجة إلى قيوميته تعالى فى خَلْقه.

وقـد يشتـرك الخَلْق مـع الخالق فى بعض الصفات ، كما فـى قوله تعالى : ﴿فَتَبَـارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾ [المؤمنون] ، وقال تعالى : ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا .. (١٧)﴾ [العنكبوت]

ومعنـى ذلـك أن هنـاك خالقين غيره سبحانـه ، ومعنى الخَلْـق الإيجاد من عـدم ، فالذى جـاء بالرمل وصنع منه كوباً فهو خالق للكوب صانع له ، فأنت أوجدتَ شيئاً لم يكُنْ موجوداً ، والله أوجد شيئاً ، ولكنك أوجدت من موجود الله قبل أنْ توجد أنت .

فهـو إذن أحسـن الخالقـين فـى حـين لم يضـنّ عليـك ربُّـك بـأنْ ينصفك ويُسمِّيك خالقاً ، وهذا يُوجِب عليك أنْ تنصفه سبحانه وتقول :﴿ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾ [المؤمنـون]

والله تعـالى احـترم إيجـادك لمعـدوم فسمَّـاك خـالقاً لـه ، ولم يضـنّ عليك فأعطـاك صفةً مـن صفاته إنما أخبرك أنه أحسن الخالقـين ، فهو سبحانه هو أحسن الخالقين ، وهو خير الرازقين ، وهو خير الوارثين ، وهو خير الماكرين .

ومن الأَوْلَى أنْ نلتفت إلى الخالق العظيم الذى أبدع لنا هذا الكون ، ومهمة آيات الله الكونية أنْ تلفت نظر المخلوق إلى بديع صُنْع الخالق وضرورة الإيمان به ، فمنها نعلم أنَّ وراء الكون البديع خالقاً وقوة تمدّه وتُديرُه .

والله سبحانه وتعالى قبل أنْ يخلقنا خلق لنا السماوات والأرض ، وأوجد لنا الماء والهواء ، ووضع فى الأرض أقواتها إلى يوم القيامة ، وخَلْق السماوات والأرض أكبر من خَلْق الإنسان .

واقرأ قوله تعالى : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَـٰوَاتُ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) ﴾ [غافر]

ولذلك عندما جاء الإسلام ليعرض العلم التجريبى أو المادى جاء ليلفتنا إلى آيات الخالق فى الكون ، وطلب منا أنْ نتأمل فى هذه الآيات ونُعمِل فيها العقل والإدراك .

واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف]

وهكذا يلفتنا الله جلَّ جلاله إلى آياته التى فى السماوات والأرض لنُعمل فيها العقل والإدراك لنستنبط منها ما يعطينا الحضارة ، والله قد خلق السماوات والأرض وكلّ ما فيها من خَلْق على غير مثال سابق .

قال تعالى :﴿ بَدِيعُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ (١١٧) ﴾ [البقرة] أى لم يكن هناك سماء أو أرض أو ملائكة أو جنّ أو إنسان ، ثم أوجد الله سبحانه متشابهاً لهم فى شكل أو حجم أو قدرة ، أى أنه سبحانه لم يلجأ إلى ما نُسمّيه نحن بالقالب.

فمسألة خَلْق السماوات والأرض يجب أنْ يبدأ منها التعجب ، وأنت أيها الإنسان يجب أنْ تفطن إلى ما خُلق لك لتستدلّ على خالقك ولتؤمن ولتشهد أنه إلهٌ واحد .

فلو أنهم نظروا فى خَلْق السماوات والأرض لاهتدوا بفطرتهم إلى أن لهذا الوجود المتقن المحكم صانعاً قد صنعه لكنهم لا يعقلون ، والحقّ سبحانه وحده الذى يحفظ السماوات والأرض فى توازن عجيب ومذهل .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤١) ﴾ [فاطر]

فلئن قُدِّر لهما أنْ تزولا فلن يحفظهما أحد بعد الله ، أى لا يستطيع أحدٌ إمساكهما فهما قائمتان بقدرة الواحد القهار ، وإذا أراد الله أنْ تزولا فلا يستطيع أحدٌ أنْ يمسكهما ويمنعهما من الزوال .

والله خلق ﴿ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ (٣) ﴾ [الملك] وكلمة السماوات فى اللغة جمع ، وفى آية أخرى يقول سبحانه : ﴿ فَقَضَاهُنَّ[1] سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢) ﴾ [فصلت]

وقديماً كانوا يقولون : إن المقصود بالسبع سماوات هو الكواكب السبعة الشمس والقمر وعطارد والزهرة والمريخ والمشترى والأرض .

وشاء سبحانه أنْ يكذّب هذا القول وأصحابه أحياء ، فرأى علماء الفلك كواكبَ أخرى مثل : نبتون وبلوتو . وكان فى ذلك لفتة سماوية لمن قالوا : إنَّ المقصود بالسماوات السبع هو الكواكب السبعة .

وقد قالوا هذا القول بحُسْن نية وبرغبة فى ربط القرآن بالعلم ، لكنهم نسوا أنْ يُدقِّقوا الفهم لما فى كتاب الله ، فسبحانه قد أوضح أن الشمس والقمر والكواكب زينة السماء الدنيا ، فما بالنا بطبيعة وزينة بقية السماوات ؟

---

(١) فقضاهن : خلقهن وفرغ منهن . قال أبو ذؤيب : فقضاهن : فخلقهن وصنعهن . وقال الثعلبى : فقضاهن: أتمهن وفرغ من خلقهن ، وقال الواحدى : فقضاهن : صنعهن وأحكمهن . [التفسير الوسيط للواحدى ٤/٢٧] .

ويقول الحق سبحانه ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧) ﴾ [المؤمنون] وطرائق جمع طريقة أى مطروقة للملائكة، والشيء المطروق ما له حجم يتسع بالطَّرْق، كما تطرق قطعة من الحديد مثلاً، فانظر إلى السماء واتساعها، وقُلْ: سبحان مَنْ طرقها.

وتلحظ أنَّ الحق سبحانه لم يذكر هنا الأرض، لماذا؟ قالوا: لأن الأرض نقف عليها ثابتين لا نخاف من شيء، إنما الخوف من السماء أنْ تندكَّ فوقنا، لذلك يقول سبحانه بعدها: ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧) ﴾ [المؤمنون]

فلن نغفل عن السماء من فوقكم وسوف نُمسكها بأيدينا، والحق سبحانه يعطينا الدليل الحسيَّ على هذا، وكيف أن الله تعالى رفع السماء فوقنا بلا عمد، ومثال ذلك الطير يُمسكه اللهُ فى السماء.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ[١] وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (١٩) ﴾ [الملك]

والسماء هى كلّ ما علاك فأظلَّك، هذا معنى السماء فى اللغة، لكن هل السماء التى يريدها الله هى كلّ ما علاك؟ إن النجم هو ما علاك، وقد يُقال: إن الشمس علتْكَ والقمر علانا جميعاً.

ونلفت الانتباه هنا ونقول للذين أحبوا أنْ يجعلوا السماوات هى الكواكب: إنها ليست دائماً ما علانا، فالشمس تعلو وقتاً وتنخفض وقتاً آخر، وكذلك القمر.

إذن فالوصف منحسرٌ عن الشمس أو القمر بعض الوقت، ولا يصح أنْ يُوصف أيٌّ منهما بأنه سماء دائماً، وشيء آخر وهو أنهم حينما قالوا عن الكواكب التى كانت معروفة بأنها كواكب سبعة، وقالوا: إنها هى السماوات

(١) صافات: يبسطن أجنحتهن فى جو السماء. مفتوحة الأجنحة. قال ابن الجوزى فى زاد المسير (٣١٦/٤): أى نصف أجنحتها فى الهواء، وتقبض أجنحتها بعد البسط.

قد وقعوا فى خطأ .

وقد كشف الله لهم بالعلم أنَّ للشمس توابع أخرى ، فمرة رأى العلماء ثمانية توابع ، ومرّة تسعة ، وأخرى عشرة توابع ، وهكذا انهدمت فكرة أن التوابع هى السماء وبقيتْ السماء هى ما فوق هذا كله .

وقد خلق اللهُ السماوات طبقاتٍ فوق بعضها ، والحق سبحانه يقول : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ (١٩) ﴾ [الانشقاق] يعنى : طبقاً بعد طبق .

فالله هو الخالق لسبع سماوات بإتقان بعضها فوق بعض ، فلا يرى الناظرُ أيَّ خلل فى هذا الخَلْق ، وليُعد الإنسانُ النظرَ إلى السماء فلن يجد أيَّ خلل من شقوق أو فروق .

ولك أنْ تلاحظ صنعة البشر إذا أراد أحدُنا أنْ يبنى مثلاً أو يصنع سقفاً، فالبناء يُبنى بمنتهى الدقة ، ومع ذلك ترى طوبة بارزة عن طوبة ، فيأتى عامل المحارة فيحاول تسوية الجدار ويزنه بميزان الماء ، ومع ذلك تجد فى الجدار تعاريج ، ثم يأتى عامل الدهانات فيحاول إصلاح مثل هذه العيوب فيُعد لها معجوناً ويكون له فى الحائط دور هام .

وبعد أنْ يستنفد الإنسانُ كلَّ وسائله فى إعداد بيته كما يحب تأتى بعد عدة أيام ، فترى الحق سبحانه يُعدِّل على الجميع ويُظهر لهم عيوب صنعتهم مهما بلغت من الدقة بقليل من الغبار ينزل عمودياً فيُريك بوضوح ما فى الحائط من عيوب .

وإذا كانت صنعة البشر تختلف باختلاف مهارة كل منهم وحذقه فى عمله ، فما بالك إنْ كان الصانعُ هو الله الذى يبنى ويُسوِّى ويُزيِّن ؟

﴿ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَـٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ (٣) ﴾ [الملك] فبرحمته سبحانه خلق اللهُ الكونَ على هذه الكيفية ، فأتى الحقُّ سبحانه هنا بالاسم الذى كان يجب أنْ يقدره حقَّ قدْره وهو (الرحمن) .

فهم يعيشون فى كون الله الذى أعدَّه لهم برحمته ، فكلّ ما حولهم وما يقيتهم وما يستمتعون به من نعم الله من عطاءات الله ، وكان الواجب أنْ يقدروا صنعة الرحمن دون أنْ يكون لهم حَوْلٌ أو قوة .

فالرحمن الذى يُنعم بالنعم كلها ، وقد اختار الرحمن دون الجبار أو القهار، لأن الرحمةَ صفةٌ تحنين للخَلْق .

وخَلْق الرحمن ليس فيه ﴿ مِنْ تَفَاوُتٍ (٣) ﴾ [الملك] وانظر إلى أمهر الصُّناع الآن يُسوى سقفاً لعدة حجرات ويستخدم مادة واحدة ويُلوِّنها بلون واحد ، لا بد أنْ تجد اختلافاً من واحدة للأخرى ، حتى إن خلط العاملُ اللونَ مرة واحدة لكلٍّ الحجرات يأتى اللون مختلفاً ، لماذا ؟لأنه حين يأخذ من هذا الخليط تجد ما يتبقى أكثر تركيزاً ، فإذا لم يكمل العمل فى نفس اليوم تجد ما تبقى إلى الغد يفقد كمية من الماء تؤثر أيضاً فى درجة اللون .

وقوله ﴿ مِنْ تَفَاوُتٍ (٣) ﴾ [الملك] أى أن خَلْق الرحمن خالٍ من أى شيء مما قد يُسمى تفاوتاً واختلافاً. ومثال هذا حين تذهب إلى إنسان وتطلب منه مالاً يقول لك : ما عندى مال . أى لا أملك مالاً ولكنه قد يملك جنيهاً أو جنيهين، ولا يعتبر هذا مالاً يمكن أنْ يُوفى بما تريده .

وتذهب إلى رجل آخر بنفس الغرض تقول أريد مالاً ، يقول لك : ما عندى من مال أى ليس عندى ولا قرش واحد . ما عندى أيّ مبلغ مما يُقال له مال حتى ولو كان عدة قروش .

فلا ترى فى خَلْق الله من اختلاف فى الخِلْقة والصنعة فهى مستوية لا تنافرَ فيها ولا مخالفة ولا نقصَ ولا عيب ولا خلل ، فلا ترى فى السماء اضطراباً وتبايناً فى الخِلْقة ولا اعوجاجاً .

وحقيقة التفاوت عدم التناسب كأنَّ بعض الشيء يفوت بعضه ولا يلائمه ولا يتناسب معه ، وهذا لا يجوز على خَلْق الله ، فيقول الناظر : لو كان كذا كان

أحسن ، ولكن الله خلقها محكمة متقنة .

﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ (٣) ﴾ [الملك] فليُعد الإنسانُ النظر إلى السماء وليس مجرد النظر بل النظر المقترن بالتأمل والتفكّر في خَلْق الله فهو بصر وليس نظراً حسياً مجرداً ، لذلك قال تعالى ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ (٣) ﴾ [الملك]

وأنت قد ترى بعض الألفاظ فتظن أنَّ معناها واحد فى الجملة ، إلا أن لكل لفظ منها ملحظاً ، فأنت قد تسمع مثلاً : رأى ، نظر ، لمح ، رمق ، رنا . كل هذه تدلُّ على البصر والرؤية ؛ لكن لكلِّ لفظ معنى : رمق : رأى بمؤخَّر عينه ، ولمح: شاهد من بُعْد . رنا : نظر بإطالة . وهكذا .

والبصر مهمة العين فى الأمور الحسية ، لكن عندما يقترن البصر بالبصيرة فيضيء القلب بالنور حتى يصل ببصره إلى إدراك أنَّ خَلْق الله لا يعتوره تفاوتٌ ولا خللٌ ، فمَنْ وهبه الله دقةَ العلم وبصيرة العلماء يرى بإشعاعات البصر والعلم عالم الملكوت ويستخرج الأسرار ويستنبط الحقائق .

﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (٣) ﴾ [الملك] فليُعد الإنسانُ النظر إلى السماء فلن يجد أيَّ خلل من شقوق أو فروق . و (فطور) هنا معناها شقوق .

فالحق سبحانه بتمام قدرته يعطى الشيء من الصفات ما يجعله صالحاً لأداء ما خُلق له فلا يظننَّ ظانٌّ أنه خرج عن قدرة خالقه سبحانه ، وخلق السماوات والأرض بتمام إبداع وإحكام ، وهو القادر على أنْ يفطرهما ، ويجعلهما غير صالحين فى أيِّ وقت شاء ، ومثلهما الشمس تُكوَّر والنجوم تُطمس والجبال تُنسَف .

فالسماء العليا هى بشكل واحد لا ترى فيها من فطور ، والحق سبحانه قد أحكم خَلْق السماء ، فقال تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ (٤٧) ﴾ [الذاريات] وفى آية أخرى قال : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧) ﴾ [الذاريات]

يعنى : محبوكة ومحكمة ، والحبكة معناها أن ذراتها التى لا تُدرك ملتحمة مع بعضها ، ليس التحاماً كلياً إنما التحامُ ذرات ، لذلك ترى السماء ملساء .

ولذلك قال عنها الخالق عزَّ وجل : ﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا[1] فَسَوَّاهَا (٢٨) ﴾ [النازعات] ولك أنْ تنظر إلى السماء حالَ صفائها وسوف تراها ملساء لا نتوءَ فيها ولا اعوجاج على اتساعها هذا ، وقيامها هكذا بلا عمد .

لذلك يدعوك الحق تبارك وتعالى إلى النظر والتأمل يقول لك : لن نغشّك انظر فى السماء وتأمل ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (٣) ﴾ [الملك]

والحق سبحانه يقول : ﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (١٠١) ﴾ [يونس] فالكون كله أمامكم فلماذا لا تنظرون ولا تتأملون ؟

فالحق سبحانه قد رفع السماء ووضع الميزان ، فالسماء لا تقع على الأرض والنظام محكم تماماً ، والشمس تطلع من الشرق وتغرب فى الغرب ، والقمر والنجوم تسير فى مُنتهى الدقّة والإبداع ، لأنه لا دخْلَ لأحد من البشر فيه .

فإنْ أردتم أنْ تصلُحَ حياتكم ، وأنْ تستقيم أموركم كما استقامت هندسةُ السماء والأرض فخذوا الميزان من السماء فى أعمالكم ، واتبعوا القول الحق : ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) ﴾ [الرحمن]

وما دمتم قد رأيتم أنَّ الأمور الموجودة التى تسير بنظام لا تتحكمون فيه تعمل باستقامة وترون أن الفساد قد جاء من ناحية الأمور التى دخلتم فيها ، فلماذا لا نتبع منهج الله فى الأمور التى لنا دَخْلٌ فيها ؟

إنك إنْ عملتَ فى الحياة بمنهج الله الذى خلق الحياة فإنَّ أمورك تستقيم

---

(١) سَمْكها : بناءها وبنيانها . وقال السمرقندى : سمكها سقفها . قال الفراء : كل شيء حمل شيئاً من البناء وغيره فهو سمك وبناء . وقال الواحدى فى الوجيز (١١٧١/١) : سمكها : سقفها .

لك كما استقامتْ الأمور العُلْيا فى الكون ، فالسماء لا تقع على الأرض لأنها محكومةٌ بنظام محكم تماماً ، والأرض لا تدور بعيداً عن فلكها ، لأن خالقها قد قدَّر لها النظام المحكم تماماً .

إنه نظامٌ دقيق مُحكم لأنه لا دَخْل للإنسان فيه ، اصنعوا ميزاناً فى كل الأمور التى لكم فيها اختيارٌ حتى لا تطغوا فى الميزان ، فكمالُ قدرة الله أحكمت خَلْق السماء .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾

فَأعِدْ البصر ثانية مرة بعد أخرى ، فانظر هل ترى من فطور أو تفاوت أو خلل ؟ فإنْ لم تستدرك التثبُّت والتأمل بالمرة الأولى فرُدَّ البصر مرة أخرى مُسْتقصياً ، وردِّد البصر مرة أخرى بعد مرة ، وذلك لأن الإنسان إذا نظر فى الشيء مرة لا يرى عيبه ما لم ينظر إليه مرة أخرى .

فإنْ كنتَ تظنُّ أنَّ فى خَلْق السماء عيباً ما أو اختلافاً فانظر المرة بعد الأخرى ليزول ما تتوهَّمه ، كأنَّ الله يقول له : انظر كما تشاء وخُذْ راحتك فى النظر والتأمل .

والنتيجة أنك سينقلب إليك البصر خاسئاً ، فبصرك سينقلب إليك كليلاً ضعيفاً لا يقوى على مواجهة الضوء الشديد كما لو واجهتَ بعينيك ضوءَ الشمس أو ضوءَ سيارة مباشر ، فإنه يمنعك من الرؤية لأن الضوءَ الأصل فيه

أن نرى به ما لا نراه.

فـ ﴿ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ (٤) ﴾ [الملك] أى يرجع إليك البصر (خاسئاً) صاغراً بمنزلة الخاسيء وهو الذليل المطرود المبعد عن أنْ ينظر باستدامة ، فالخاسيء الذى لم يَرَ ما يهوى ، فهو خاسيءٌ ولم يحصل له ما طلب من رؤية التشقق والخلل .

ولن ينقلب ويرجع إليك البصرُ خاسئاً فقط ، بل سينقلب ﴿ وَهُوَ حَسِيرٌ (٤) ﴾ [الملك] أى كليل ضعيف عن تحمّل الضوء ، والحسرةُ شدة التلهف على الشيءِ الفائت .

ويقول تعالى : ﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) ﴾ [الأنبياء] فيستحسرون من حسر يعنى ضعف وكلَّ وتعب وأصابه المللُ والإعياء .

والحقُّ سبحانه قد ذكر خَلْق السماوات والأرض فقال : ﴿ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ (٤) ﴾ [السجدة]

فذكر سبحانه استواءه تعالى على العرش بعد خَلْق السماوات والأرض ، ونحن نأخذ كلَّ صفة عن الله فى نطاق التنزيه ، سبحان الله وليس كمثله شيء فليس استواءُ الله مثل استواء البشر .

ويقول تعالى : ﴿ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (٥) ﴾ [طه] فهل لله جسمٌ يستقرُّ به على عرش ؟ فنقول : هذا هو المتشابه الذى يجب على المؤمن الإيمانُ به ، ذلك أن وجودك أيها الإنسان ليس كوجود الله ، ويدك ليست كيد الله ، واستواؤك ليس كاستواء الله .

ورسول الله ﷺ يقول عن عرش الله :

(ثم علي ظهورهم العرش بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء) وهذا يدلُّ على عظيم خلق الله سبحانه (ثم الله تبارك وتعالى فوق ذلك)[1] نؤمن بها كما هي ، لا نحاول أن نفهمها بمفهومنا البشرى ، فكلُّ ما خطر ببالك فالله سبحانه على خلاف ذلك .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥ ﴾

(قد) حرف تحقيق للخبر ، فهو من حروف توكيد الخبر ، وهو حرفٌ يدخل على الفعل ، ويدخل على الماضى والمضارع . وقوله تعالى (ولقد) فالواو استئنافية ، واللام واقعةٌ فى جواب القسم . وقد حرف تحقيق .

والله قد زيَّن السماء الدنيا بمصابيح ، والمصابيح هى النجوم ، ونحن نُذهَل عندما نعرف أنَّ بعض النجوم يصل ضوؤها إلينا فى خمسين سنة ضوئية ، وعندما نريد أنْ نرصد المسافة بيننا وبين أحد النجوم فلسوف نُضطر إلى استخدام أعداد كثيرة من الأصفار أمام رقم ما .

وقد وضع علماءُ الفلك وحدةً ملائمة لقياس أبعاد النجوم ، وهى ما نُسميه

---

(١) عن عباس بن عبد المطلب قال : كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ بالبطحاء فمرت سحابة فقال رسول الله : أتدرون ما هذا ؟ قلنا : السحاب . قال : والمزن ؟ قلنا : والمزن . قال : والعنان . قال : فسكتنا فقال : هل تدرون كم بين السماء والأرض ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : بينهما مسيرة خمسمائة سنة ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة ،وكثف كل سماء مسيرة خمسمائة سنة ، وفوق السماء السابعة بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض ثم فوق ذلك ثمانية أوعال بين ركبهن وأظلافهن كما بين السماء والأرض ثم فوق ذلك العرش بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض ، والله فوق ذلك وليس يخفى عليه من أعمال بنى آدم شيء . [أخرجه أحمد فى مسنده ١٧٧٠]

السنة الضوئية ، ونحن نعرف أن سرعة الضوء حوالى ثلاثمائة ألف كيلو متر فى الثانية .

والشمس كنجم مضيء كبير بيننا وبينها ثلاثة وتسعون مليوناً من الأميال ، ويصلنا ضوؤها فى خلال ثمانى دقائق وثلث الدقيقة ، والشِّعرى اليمانية[1]، وهى ألمع نجوم السماء يصل إلينا ضوؤها فى تسع سنوات ضوئية ، والسنة الضوئية هى وحدة لقياس المسافات الفلكية .

ونحن ننظر فنجد نجوماً لامعة تحت السماء الدنيا ، والله قد أوضح أنَّ الشمس والقمر والكواكب زينة السماء الدنيا ، فما بالنا بطبيعة وزينة بقية السماوات ؟

وهذه المصابيح النجوم والكواكب هى الزينة المدلاَّة من السماء الدنيا ، تُضيء لنا ولكنها ليستْ هى السماء الدنيا ، والله عزَّ وجلَّ يقول : ﴿ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ (١٢) ﴾ [فصلت]

فأين السماء الدنيا من النجوم المضيئة التى نُشاهدها ؟ وبيننا وبين الشمس ثمانى دقائق ضوئية ، وبيننا وبين المرأة المسلسلة[2] مائة سنة ضوئية ، وبيننا وبين المجرة مليون سنة ضوئية .

ولك أنْ تضرب مليون سنة فى ٣٦٥ يوماً ، وتضرب الناتج فى ٢٤ ساعة، وتضرب الناتج فى ستين دقيقة ، ثم فى ستين ثانية ، ثم تضرب الناتج من ذلك فى ٣٠٠ ألف كيلو ، ثم تأمل الرقم الذى وصلتَ إليه .

والشمس هى أكبر نجم تُزيِّن سماءنا ، يستفيد منه كلُّ الخَلْق المؤمن والعاصى، والكافر والمشرك ، فإذا غابتْ الشمس نجد كلَّ واحد منا يستعين

---

(١) الشعرى اليمانية أسطع النجوم فى السماء ليلاً ورابع ألمع جرم فى السماء بعد الشمس والقمر ، وهو عبارة عن نجمين مترافقين . وقال تعالى ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى (٤٩) ﴾ [النجم] .

(٢) مجرة المرأة المسلسلة هى أقرب المجرات لمجرتنا وهى تبعد عنا نحو ٢,٥ مليون سنة ضوئية وتحتوى على ٢٥٠ مليار نجم ويبلغ قطرها ١٥٠ ألف سنة ضوئية ، يمكن رؤية المجرة بالعين المجردة .

بنور يعطيه الضوء فى حيِّز محدود وعلى قدْر إمكاناته .

فواحدٌ يُوقِد شمعة ، وواحدٌ يأتى بمصباح (جاز) صغير ، وواحد يستخدم الكهرباء فيأتى بمصباحٍ (نيون) ، وواحد يأتى بالعديد من مصابيح الكهرباء ليملأ المكانَ بالنور ، كُلٌّ على قدْر إمكاناته .

فإذا طلعتْ شمسُ الله فهل يُبقى أحدٌ على مصباحه مُضَاء ؟ إن الجميع يُطفئون مصابيحهم لأن شمس الله قد سطعتْ تُنير للجميع ؟ ذلك هو النور الحسيّ ، والفرْق بين نور بقدرات الإنسان ونور من خَلْق الله يتمثَّل فى أنَّ النور الذى من خَلْق الله يُطفيء المصابيح كلها لأنه يغمر الجميع .

والله لم يجعل النجوم مجرد مصابيح تُزيِّن السماء فقط ، بل جعلها علامات يهتدى بها الناس ، قال تعالى : ﴿ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) ﴾ [النحل]

ونعلم أنَّ كلَّ مَنْ يسير فى البحر إنما يهتدى بالنجم ، وكذلك فى الصحراء . وقد كانت قريش لها رحلتان فى العام رحلة الشتاء ورحلة الصيف ، وكانت تسلك سُبلاً متعددة فتهتدى بالنجوم فى طريقها ، ولذلك لا بدّ أنْ يكون عندها خبرة بمواقع النجوم .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧) ﴾ [الأنعام]

وقد جعل الحقُّ سبحانه النجومَ ليهتدى بها هؤلاء الذين يسهرون أو يضربون فى الأرض أو يمشُون فى البحر بسفنهم ، وهم يحتاجون إلى ضوء قليل ليهديهم ، ولذلك كان العرب يهتدون بالنجوم .

يقول الواحد منهم للآخر : اجعل النجم الفلانى أمام عينيك ، واجعل النجم الفلانى عن يسارك وامش تجد كذا ، أو اجعل النجم الفلانى خلفك وامش تجد كذا .

والنجوم ليست فقط للاهتداء فى ظلمات البر والبحر ، لأنه لو كان القصد منها أنْ نهتدى بها فى ظلمات البر والبحر لكانتْ كلُّها متساوية فى الأحجام، لكنا نرى نجماً كبيراً وآخر صغيراً ، وقد يكون النجم الصغير أكبرَ فى الواقع من النجم الكبير لكنه يبعد عنا بمسافة أكبر .

وقد جعل الحق سبحانه للنجوم مهمة جمالية كبيرة ، وهى أنْ تكون زينة لكلِّ مَنْ ينظر إليها ، لذلك قال سبحانه ﴿ وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) ﴾ [الحجر] ذلك أن الشيء قد يكون نافعاً ، لكن ليس له قيمة جمالية .

وشاء الحق سبحانه أنْ يجعل للنجوم قيمة جمالية ، وللنفس الإنسانية ملكة لرؤية الزينة ، فالزينة تستميل النفس الإنسانية ، لذلك يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا[1] وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) ﴾ [الحجر]

والجمال قيمة ونعمة يُنعم الله بها ، ونجده سبحانه يقول عن بعض نعمه التى أنعم بها علينا ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً (٨) ﴾ [النحل]

وهو سبحانه وتعالى الذى جعل تلك الدواب لها منظر جميل ، فهو سبحانه القائل : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) ﴾ [النحل] ، وهو سبحانه لم يخلق النعم لنستخدمها فقط فى أغراضها المتاحة ، ولكن بعضاً منها يروى أحاسيس الجمال التى خلقها فينا سبحانه ، وكلما تأثرنا بالجمال وجدنا الجميل ، وفى توحيده تفريدٌ لجلاله .

والله بتزيين السماء الدنيا بمصابيح يشيع نعم الله على خَلْق الله ، فالله يعطى فائدة حَمْل الأثقال لمن يملك الأثقال ، يقول تعالى : ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٧) ﴾ [النحل]

(١) البروج : الكواكب . قاله مجاهد . وقد فسَّره مقاتل بن سليمان بالنجوم . وقال عطية بن سعد : قصوراً فى السماء فيها الحرس . وكذا قال أبو صالح . وقال آخرون : هى النجوم الكبار [تفسير الطبرى ٤٨٣/١٧] .

أمـا الـذى لا يملك الأثقال فهو يرى الحصـان يسير بجمال فيسـعد برؤيته فيستمتع بما لا يملك ، وهذه إشاعةٌ لنِعَم الله على خَلْق الله .

فـالحـق سبحانه قد أعطانا الترف بجانب الضروريـات ، فالدفء والمنافع والأكل ضروريـاتٌ للحياة ، أما الجمال فهـو من ترف الحياة ، والجمال هو ما تراه العين فيتحقق السرور فى النفس .

والـدفء والمنافـع والأكل هو أمور خاصـة لمَنْ يملك الأنعـام ، أما الجمال فمشاع عام للناس ، فحين ترى حصاناً جميلاً ، أو ترى بقرة مزهوة بالصحة فأنت ترى نعمة الله التى خلقها لتسُرَّ النـاظر إليها .

فهناك جمال وأُبَّهة تُرضـى شيئاً فى نفوسكم ، وتشـيع ملكة من ملكاتها فـالله عزَّ وجـلَّ أعطانا ضروريـات الحياة وأعطانـا كمالياتهـا وجمالياتها ، والزينة من أجل الجمال .

ويقول الحق سبحانه ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ (٧) لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا[١] وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) ﴾ [الصافات]

فحين تنظر إلى السماء ليلاً نجدها مزدانة بالنجوم تتلألأ ، وقد قال عبدالله ابن مسعود رضـى الله عنه أن جرير بن عبدالله قال لرسـول الله ﷺ : « حدِّثنى يارسـول الله عـن السـماء الدنيا . فقال : أما السماء الدنيا فـإنَّ الله خلقها من دخـان ثـم رفعها ، وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً ، وزيَّنها بمصـابيح النجوم وجعلها رجوماً للشياطين ، وحفظها من كل شيطان رجيم»[٢] .

والحق سبحانه قال : ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ(٥)﴾ [الملك] ، ويقول تعالى:

---

(١) دحوراً : مطرودين . [مجاهد فى تفسيره ٥٦٦/١] قال مقاتل بن سليمان فى تفسيره (٦٠٢/٣) : دحوراً يعنى طرداً بالشهب من الكواكب . والدحر : الدفع والإبعاد . وقال ابن الجوزى فى زاد المسير (٣٩/٥) دحوراً فيه تأويلان . أحدهما : قذفاً فى النار . الثانى : طرداً بالشهب . والدحور : الدفع بعنف.

(٢) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦٩/٥) وعزاه لابن مردويه عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه.

﴿ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢) ﴾ [فصلت]

فالله جعل المصابيح التى زيَّن بها السماء الدنيا رجوماً للشياطين تُرجم بها . (حفظاً) وحرساً من الشياطين أنْ تستمع للملأ الأعلى .

وقوله ﴿وَجَعَلْنَاهَا(٥) ﴾ [الملك] يعود على جنس المصابيح لا على عين المصابيح ، لأنه لا يُرمى بالكواكب التى فى السماء ، بل يُرمى بشُهب من دون الكواكب ، وقد تكون مستمدة منها .

فبعض النجوم زينةٌ للسماء لا يتحرك ، وبعضها يُهتدى بها فى ظلمات البر والبحر ، وبعضها رجوم للشياطين .

والنجوم التى زُينتْ بها السماء ليست هى التى يُرمى بها ، بل هى نجوم وكواكب مضيئة متلألئة عليها كتلؤلؤ المصابيح ، فالسماء الدنيا كالسقف المرفوع المُزيَّن بمصابيح معلَّقة به .

وقد وصف الله هذه النجوم بأنها مصابيح ملحوظٌ فيها إضاءتها ، فالمصابيح تعطى ضوءاً ، أما القمر فيعطى نوراً ، يقول تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا (٥) ﴾ [يونس] ، وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) ﴾ [نوح]

أما الشمس فتعطى ضياءً ولذلك فهى سراج ، والفرق بين الضياء والنور يتمثل فى أنَّ الضياء تصحبه الحرارة والدفء ، أما نور القمر فهو نور حليم .

والنور هو ضوء ليس فيه حرارة ، والحرارة لا تنشأ إلا حين يكون الضوء ذاتياً من المضىء مثل الشمس ، أما القمر فضووْه غير ذاتى ويكتسب ضوءه من أشعة الشمس حين تنعكس عليه ، فهو مثل المرآة حين تُسلَّط عليها بعضاً من الضوء فهى تعكسه.

والرجوم والرُّجم هى النجوم التى يُرمى بها ، وهى الشُّهب التى جعلناها .

مرامى لهم ، وهم لا يُرمون بالنجوم نفسها إنما بشُهب أُخذت من النجوم ، وما ذاك إلا كقبس يُؤخذ من نار والنار ثابتة فى مكانها .

وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ[1] نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠) ﴾ [طه]

سيأتيهم بقبس من النار وتبقى النار كما هى ، والقبس هو شعلةُ النار التى تُتخذ من النار إنْ أدركت النار وهى ذات لهب ، فتأخذ منها عوداً مُشتعلاً مثل الشمعة.

وفى سياق آخر قال : جذوة . وهى النار حينما ينطفيء لهيبها ويبقى منها جمرات يمكن أنْ تشعل منها النار ، وفى موضع آخر قال : ﴿ سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ (٧) ﴾ [النمل]

والله جعل الشُّهب ﴿ رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ (٥) ﴾ [الملك] وكان الشياطين قبل نزول القرآن يسترقون السَّمْع ، وكان للشياطين مقاعد للسمع فى السماء تقعد فيها لتستمع إلى ما ينزل من السماء إلى الأرض ليتم تنفيذه[2].

يقول تعالى : ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا (٩) ﴾[الجن] فكانوا يسترقون السمع ويأخذون بضعاً من كلمات المنهج ويزيدون عليها فتبدو بها حقيقةٌ واحدة وألف كذبة .

ولذلك نجد الشياطين تقول ما ذكره الحق سبحانه على ألسنتهم فى كتابه

---

(١) آنست الشيء : رأيته . وسُمِّى الإنس إنساً لظهورهم . وقال أبو زيد : أنست الشيء أبصرته من بُعْد . [المخصص لابن سيده المرسى ١/١١٢] .

(٢) عن ابن عباس أنه لم تكن قبيلة من الجن إلا ولهم مقاعد للسمع ، فكان إذا نزل الوحى سمعت الملائكة صوتاً كصوت الحديدة ألقيتها على الصفا ، فإذا سمعته الملائكة خروا سجداً فلم يرفعوا رؤوسهم حتى ينزل فإذا نزل قال بعضهم لبعض : ماذا قال ربكم ؟ فإن كان مما يكون فى السماء قالوا : الحق وهو العلى الكبير ، وإن كان مما يكون فى الأرض من أمر الغيب أو موت أو شيء مما يكون فى الأرض تكلموا به فقالوا : يكون كذا وكذا ، فتسمعه الشياطين فينزلونه على أوليائهم ، فلما بعث الله محمداً دُحروا بالنجوم . [مصنف ابن أبى شيبة ٣٦٥٤٢] .

العزيز : ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا (٩) ﴾ [الجن]

ثم يقول الحق سبحانه ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ(٥) ﴾ [الملك] أى : أعددنا للشياطين فى الآخرة عذاب السعير ، فرجمهم بالشهب هو فى الدنيا ، وعذابُ السعير هو عذابهم فى الآخرة .

والمقصود بالشياطين مردة الجنّ ، وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ (٧) لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (١٠) ﴾ [الصافات]

والسُّعر اسم من أسماء الجحيم ، وقسم من أقسام النار ، فهناك لظى ، وهناك حُطمة ، وهناك سقر ، وهناك الهاوية . والسعير هى النار المتوهِّجة التى لا تخمد ولا تنطفيء ، فالسعير اسمٌ للنار المسعورة التى تلتهم كلَّ ما أمامها . كما نقول : كلب مسعور .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ ﴾

وإذا كان للشياطين عذابُ السعير فإن للذين كفروا بربهم عذابَ جهنم ، فالذين كفروا بالله لهم العذاب الذى يبدأ بسماع شهيق جهنم فى أثناء فورانها.

والشهيق هو قوة تجذب وتسحب الهواء إلى الأنف والصدر ، فما بالنا بقوة شهيق جهنم وهى تجذب وتسحب الذين وقع عليهم الأمر بالعذاب ؟

وهذه النار نفسها تردُّ على سؤال الحق لها عندما تسمع قوله : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ

جَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠) ﴾ [ق] ، فقوة العذاب التي جعلها الله مهمة لجهنم هي التي تُلحُّ وتندفع لطلب المزيد من عقاب الكافرين .

ولأن للنار شهيقاً فهي تستنشق المكتوبَ عليهم العذاب ، والشهيق يتم بسرعة أكبر من الزفير ، والشهيق في الحياة يكون للهواء ، وهذا الشهيق الذي يعطي الحياة في الأرض يوجد أيضاً في الآخرة ولكنه شهيق النار .

إنها تشهق لتبتلع العصاة ، فالنار تشتاق للكفار وتنتظرهم وتتلهَّف عليهم، كما يقول تعالى : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠) ﴾ [ق]

وكما للنار شهيقٌ فإن لها زفيراً أيضاً ، يقول تعالى : ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (١٢) ﴾ [الفرقان] ، والزفير : النفَس الخارج .

ومَنْ يدخل النار سيكون له شهيقٌ وزفير أيضاً ، يقول تعالى : ﴿ فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) ﴾ [هود] ونحن نعلم أن الذي يتنفس في النار سيخرج الهواء من صدره ساخناً مثلما يأخذ الشهيق ساخناً .

ولنا أنْ نتخيَّل صورة التنفس داخل النار وسط جوِّها المكفهر باللهب ، فالإنسان يتنفس ليستروح بالهواء ، فكيف يأخذه من النار ؟ إن في ذلك عذاباً عظيماً .

كيف يستروح بهواء نار تفور ﴿ وَهِيَ تَفُورُ (٧) ﴾ [الملك] ومعنى كلمة (تفور) أي أنها وصلتْ إلى درجة الغليان كالماء مثلاً ، والماء يحتوي على هواء بدليل أنَّ السمك يتنفس من الماء ، وحين نغلي الماء نرى فقاقيع الهواء ، وهي تخرج من الماء ، فكيف يتنفس السمك ؟

وهم إنما يُلقوْن في النار إلقاءً ، فليس دخولهم دخولاً هيِّناً ليِّناً فيه رفْق ورحمة ، والإلقاء لا يكون إلا لمادة وعين ، وفعل الإلقاء ورد في آيات كثيرة .

فقال تعالى : ﴿ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ(١) وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي (١٥٠) ﴾[الأعراف].فإلقاء الألواح إلقاءٌ لأمر مادى.

ويقول تعالى : ﴿ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤) ﴾ [الشعراء] إلقاء للحبال والعصى .

وهنا أيضاً فى قوله تعالى : ﴿ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا (٧) ﴾[الملك] وهو إلقاءٌ لأجسامهم وأبدانهم بما فيها من أرواح وإلقاؤها فى النار .

ولكن الله سبحانه قد يذكر الإلقاء فى الأمور المعنوية ، يقول تعالى :
﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ (١٥١) ﴾ [آل عمران]

كأن الله يريد أنْ يجعل المعنى وهو الرعب شائعاً ، فكأنَّ الله سيجمع الرعب ويضعه فى قلوب الذين كفروا ، ويكون عمله فى القلوب مادياً ، والرعب أمر معنوى ولكن أصبح أثرُه فى القلوب مادياً .

﴿ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا (٧) ﴾ [الملك] فهم عند إلقائهم فى النار يسمعون للنار شهيقاً وهى تلتهمهم وتبلعهم ، كأنها عملية شفط لهم وإدخالهم إلى داخل النار .

فالمشهد حافلٌ بالحياة والحركة ، أناسٌ يلقون فى نارٍ متقدمة تشهق تبتلع ما يُلقَى فيها فتتلقَّاهم بألسنة لهبها وهى تغلى وتفور . وقد وصف الحق سبحانه هذا المصير فقال : ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٦) ﴾ [الملك]

والمصير هو المرجع الأخير لأى شيء ، وهنا معناها أى ساءت نهايتكم

---

(١) قيل فى التفسير إنهما كانا لوحين ، قال الزجاج : يجوز فى اللغة أن يقال للوحين ألواح . واللوح هو كل صفيحة عريضة خشباً كانت أو عظماً أو غيرهما وما يُكتب فيه من خشب ونحوه . [المعجم الوسيط ٢/ ٨٤٥] .

ومرجعكم ، فمصيركم المؤدى إلى جهنم غاية فى السوء ، ولأن مصير هؤلاء هو جهنم ، فكان عليهم أنْ يستحضر هذا الجزاء وقت الاختيار للفعل .

وأسوأ ما فى هذا المصير أنه لا مفرَّ منه ، يقول الحق سبحانه : ﴿ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (١٠) كَلَّا لَا وَزَرَ (١١) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (١٢) ﴾ [القيامة]

ويقول الحق سبحانه : ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٣٧) ﴾ [المائدة]

فكلما مسَّهم لَفْح النار يريدون أنْ يخرجوا منها ، لكن كيف تأتى لهم إرادةُ الخروج من النار فكأنهم لحظة لفحها عليهم وتقلّبهم هنا وهناك تدفعهم ألسنة اللهب إلى القرب من الخارج فيظنون أنَّ العذاب قد انتهى .

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٣٧) ﴾ [المائدة] أى عذاب دائم ، فإنْ كان العذاب أليماً يبقى الألم على شدَّته ولا يُخفَّف أبداً ، وإنْ كان مهيناً تبقى الإهانةُ مستمرة ولا تزول أبداً ، وفى كلتا الحالتين هو عذاب فيه إقامة ، وفيه دوام واستمرار .

ثم يقول الحق سبحانه يصف النار :

﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ (١) مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ ﴾

فالنار من فورانها وغليانها وشهيقها وزفيرها ﴿ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ (٨) ﴾ [الملك] فالنار تتميز من الغيظ على الكافرين ، مثلما ترى قِدْراً يفور ويغلى ما فيه ، فبعضُ الفقاقيع تخرج منه وتنفصل عمَّا فى القِدْر .

والإنسان منا عندما يكون فى حالة من الغيظ تخرج منه وتنفصل عنه أشياء كفقاقيع غليان القِدْر ، إنه يرغى ويزيد أى يشتد غضبه ، وهذه الفقاقيع من شدة

(١) تكاد تميز : تكاد تتفرَّق جهنم عليهم من الغيظ . قال ابن عباس : تكاد يفارق بعضها بعضاً وتنفطر . قال ابن زيد : التميز التفرق من الغيظ .

فورانها تتميز وتنفصل عن بعضها وتنفصل عن القدر .

كذلك النار تتميز من الغيظ ، فتؤدى مهمتها الموكولة إليها ، وهى تؤدى مهمتها بغيظ لأن الكافر من هؤلاء لم يعرف قيمة الإيمان .

والله يعطينا مثالاً آخر فيقول : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ[1] كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (٢٩) ﴾ [الدخان]

فالأرض تغضب وتسخط وتضجّ بوجود الكافرين بنعمة الله فيها ، ولذلك لا تبكى السماء والأرض على الخسْف والتنكيل بهؤلاء العصاة الكافرين المشركين ، بينما تبكى السماء والأرض إنْ فارقها مؤمن .

فالأرض لا انسجامَ لها مع كائن عاص ، كذلك النار تتميز غضباً وغيظاً وحنقاً ممَّنْ كفر بالله ، وهى مع هذا تعشق أنْ تعذب الكافر وكأنَّ العقوبة تعشق أنْ تقع على المجرم ، كأنَّ العذاب سعى إليه لينالَه ويمسَّه .

فالنار مغتاظةٌ من هؤلاء تتأهّب لهم وتنتظرهم ، وما دام الغيظ فوق تحمُّل النفس وسعتها فلا بدَّ أنْ يشعر الإنسان بالضيق وأنه يكادُ ينفجر .

فمعنى ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ (٨) ﴾ [الملك] أى تكاد أبعاضُها تنفصل بعضها عن بعض ، والغيظ هو انفعال محبوس فى الصدور ، وهو حالةُ غليان بالغضب أو القهر .

فالغيظُ نوعٌ من الغضب مصحوبٌ ومشُوبٌ بحزن وأسى وحسرة ، والغيظ يقع للمؤمن والكافر ، فحين نرى عناد الكفار وسخريتهم واستهزاءهم بالإيمان نغتاظ ، لكن يُذهب الله غيظ قلوبنا .

فالنار ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ (٨) ﴾ [الملك] ، ثم يقول تعالى : ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا

---

(١) النعمة هنا لها أربعة أوجه : نيل مصر قاله ابن عمر . ثانيها : الفيوم قاله ابن لهيعة . الثالث : أرض مصر لكثرة خيرها قاله ابن زياد . الرابع : ما كانوا فيه من السعة والدعة .

فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨)﴾ [الملك]

وأهل النار إنما كانوا يُلْقَوْن فى النار فوجاً وراء فوج ، ويقول تعالى ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (٥٩)﴾ [ص]

ويقول تعالى : ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ[1] (٨٣)﴾ [النمل]

والفوج هم الجماعة والزُّمرة من الناس ، ويقول الحق سبحانه : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦)﴾ [هود] فالذين حكموا على أنفسهم بالشقاء لخروجهم عن منهج الله يجمعهم الشقاء ، لكنهم يدخلون النارَ أفراداً وزمراً.

والحق سبحانه يقول : ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا (٧١)﴾ [الزمر]، وفى آية أخرى يقول سبحانه : ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا (٣٨)﴾ [الأعراف] إنهم يأتون إلى الله زُمراً وجماعات.

﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا (٨)﴾ [الملك] خزنة جهنم من الملائكة ، مالك وأعوانه وهذا السؤال نفسه قد ساقتْه آية سورة الزمر ، قال تعالى ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَى وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١)﴾ [الزمر]

فـ ﴿خَزَنَتُهَا (٨)﴾ [الملك] أى خزنة النار قالوا لهم على سبيل التقريع والتوبيخ ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا (٧١)﴾ [الزمر]

---

(١) يوزعون : يُحبس أولهم على آخرهم . قال ابن قتيبة : أصل الوزع الكف والمنع . زاد المسير ٣٥٦/٣ .

هذا الاستفهام ألزمهم الحجة وأفحمهم ، فربُّهم عزَّ وجلَّ لم يأخذهم على غِرّة، إنما أرسل لهم رسلاً ، وهؤلاء الرسل (منكم) أى من جنسكم ومن أوسطكم، والأقرب إليكم لتسهل القدوة به .

وهنا ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) ﴾[الملك] والإنذارات التى تحدث للناس فى حياتهم من تمام رحمة الله بالخَلْق، والنذير يكون شهيداً على أمة من الأمم أنه بلَّغها المنهج ، ورسول الله ﷺ شهيد على أمته أنه بلَّغ .

والنذير هو مَنْ يخبر بشرٍّ زمنُه لم يجئ ، لتكون هناك فرصةٌ لتلافى العمل الذى يُوقع فى الشر ، ويقابله البشير وهو مَنْ يبشر بخير سيأتى إنْ سلك الإنسانُ الطريقَ إلى ذلك الخير . إذن : الإنذار والبشارة هى أخبار تتعلق بأمر لم يجئ .

وفى الإنذار تخويفٌ ونوعٌ من التعليم ، وأنت حين تريد أنْ تجعل ابنك مُجداً فى دراسته تقول له : إنْ لم تذاكر فسوف تكون كابن فلان الذى أصبح صعلوكاً تافهاً فى الحياة .

إذن فأنت تنذر ابنك ليتلافى من الآن العمل الذى يؤدى به إلى الفشل الدراسى ، والبشارة والنذارة لا تكون إلا للمُخيَّر ، ونعلم أنَّ الحق سبحانه أخبرنا ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) ﴾ [فاطر]

وهذا النذير شهيدٌ على تلك الأمة أنه بلَّغها المنهج ، وكل الرسل جاءوا نذيراً لأممهم ، يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٥) ﴾ [هود]

والرسل مُبشِّرون ومُنذرون ، فمَنْ يؤمن هو مَنْ يتلقَّى البشارة ، أما مَنْ عليه أنْ يتوقَّع النذارة فهو الكافر المنكر ، وفى الإنذار تخويفٌ بشيء ينال منك فى المستقبل ، وعليك أنْ تُعدّ العُدَّة لتبتعد بنفسك أنْ تكون فيه .

والتبشير يكون بأمر تتمناه النفس ، وبالإنذار والتبشير يتضح الموقفُ بجلاء ويُحاط الإنسان بكلِّ قضايا الحياة ويتضح مسار كلِّ أمر من الأمور ، فالبشارة تصلح للإخبار بخبر يسُرّ أو بخبر يُحزن ويسيء ، ولكنها غلبت على الخبر السَّار وخصّت النذارة بالخبر الذى يُحزن وتنقبض النفسُ له .

ولكن الإنذار بالشر قبل أنْ يقع والتحذير منه قبل أوانه نعمة ، بل من أعظم نِعَم الله على الإنسان ليحتاط للأمر ، فالتهديد والوعيد والتبصير والتخويف إنما لنحذر المخوف منه فلا نقع فيه .

والنذارة لا بدّ لها من فترة حتى يتجنَّب الإنسانُ ما يأتى بالشر ، فالإنذار إعلامٌ بشيء مخيف قبل وقوعه لنتفادى أنْ نقع فيه وأنْ نتلافاه ، فأنت تحثّ الإنسان على ألاَّ يُقبل أو يُقدم على ما يضُره .

فكلمة (الإنذار) كلمةٌ عامة لكلِّ الناس حتى يتجنبوا ما يقودهم إلى النار ، فالإنذار لونٌ من ضرورة التخلية من العيوب قبل التحلية بالكمال ، فأنت تدفع عن نفسك الأمرَ الذى يأتى بالضر أولاً ثم تتجه إلى ما يجلب النفع من بعد ذلك ، لأن درْءَ المفسدة مُقدَّم على جَلْب المصلحة .

والمنذر الذى يحذر من الشر قبل وقوعه ليحتاط السامعُ فلا يقع فى دواعى الشر ، ولا يكون الإنذارُ ساعةَ وقوع الشَّر ، لأنه فى هذه الحالة لا يُجدى .

فالجن والإنس يُرسَل لهم رُسُل ومنذرون ، قال تعالى : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِى وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا (١٣٠) ﴾ [الأنعام]

فالجن لهم رسل والإنس لهم رسل ، وقال البعض : الرسل من الإنس خاصة لأن القرآن جاء فيه على لسانهم : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٠) ﴾ [الأحقاف]

فالجن احتجُّوا بكتاب أُنزل من بعد موسى عليه السلام وعندهم خبر عن الكتاب الذى جاء بعده ، كأنَّ الجن يأخذون رسالتهم من الإنس . فكأنَّ الله قد أرسل رسلاً من الإنس فقط وبلغ الجنُّ ما قاله الرسول .

والله يرسل منذرين لكى لا يكون للناس حجةٌ ، يقول تعالى ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ (١٦٥) ﴾ [النساء]

فالله يرسل الرسل مبلِّغين عن الله حتى لا يكونَ لأحد حجةٌ بعد الرسل .

﴿ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ۝٩ ﴾

فالحق سبحانه قبل أنْ يعاقب على جُرْم ، وقبل أنْ يُجرِّم يُنزل النصَّ بواسطة الرسل . أى أن الله لا يهلكهم بسبب ظلم وقع منهم إلا بعد ذلك البلاغ. وليس لأحد عذرٌ بعد البلاغ ، فالحكمة من إرسال الرسل إقامة الحجة على المرسل إليهم .

وهنا لما سُئل الكافرون عن الإتيان بهم والإلقاء بهم فى النار : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَى (٩) ﴾ [الملك] و (بلى) حرف جواب مثل نعم تماماً ، ولكن (بلى) حرف جواب لإثبات ما بعد النفى .

فـ (بلى) تأتى بعد النفى ، ونعم تأتى بعد الإجابة . فإذا قال إنسانٌ : ليس لك عندى شيءٌ وقلت نعم ، فمعناها أنه صحيح أنك ليس لك عنده شيء ، أما إذا قلت بلى فمعنى ذلك أنَّ لك عنده شيئاً أو أشياء .

وساعة تأتى قضية منفية ثم تأتى بعدها كلمة (بلى) فإنها تنقض القضية التى سبقتْها ومعنى ذلك أنها تثبت ضدها ، فـ (بلى) تأتى فى جواب سؤال

منفى ، وذلك مثل قوله تعالى ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى (١٧٢) ﴾ [الأعراف] فهى أداةُ نفى للنفى السابق عليها ، ومعلومٌ أنَّ نفى النفى إثباتٌ .

ومثله قوله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا (٣٨) ﴾ [النحل]

فكان ما أقسموا عليه بالله أنه ﴿ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ (٣٨) ﴾ [النحل] وهذا إنكارٌ للبعث ، فيردّ عليهم الحق سبحانه (بلى) ، وهى أداة لنفى السابق عليها، وإثبات ما بعدها ؛ فيكون المعنى : بل يبعث الله مَنْ يموت .

﴿ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ (٩) ﴾ [الملك] وهنا هم يعترفون بأنه قد جاءهم نذير ولكنهم كذَّبوا ، وقد أرسل الله إليهم الرسول على فترة حتى يقطع عنهم الحجة والعذر فلا يقولوا ﴿ مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ (١٩) ﴾ [المائدة]

فقد جاءنا نذير فأنذرنا وخوَّفنا وأخبرنا بهذا اليوم ، فكذَّبنا ذلك النذير وكذّبنا الرسل وأفرطنا فى التكذيب حتى نفينا الإنزال والإرسال رأساً .

﴿ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ (٩) ﴾ [الملك] والتكذيب مسألة منكرة وهو تأبٍّ من المكذِّب ، والتكذيب هو الوقوف إيجابياً فى موقف الضّد وموقف الصَّدِّ عن سبيل الله .

فالكافرون لهم ثلاثُ مراحل : الإعراض ، والتكذيب ، والاستهزاء ، فالإعراض أمرٌ سلبيٌّ ، أما التكذيب فهو عمل إيجابى وإنْ كان فى اتجاه مضاد للإيمان ، أما الاستهزاء فيتجاوز التكذيب إلى السخرية والاصطدام بمَنْ آمن .

وهم بهذا لا يقدرون الله حَقَّ قدْره ، فهم يقولون ﴿ مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ (٩) ﴾ [الملك] ويقول تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ (٩١) ﴾ [الأنعام]

وهــؤلاء يســألـهم الله ﴿ قُلْ مَنْ أَنْـزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِـهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ (٩١) ﴾ [الأنعـام] فهـم أنكروا أنْ يكون الله قد اختـار مــن بعض خَلْقه مَنْ يجعلهم أهلاً لتلقِّى منهجه لإبلاغه إلى خَلْقه .

وممَّــنْ قـالوا ﴿ مَا نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ (٩) ﴾ [الملك] بعضٌ من أهل الكتـاب ، ففى السـيرة نجد واحداً من الأحبار كان دائبَ الخوض فى الإسـلام وكان اسـمه (مـالك بن الصيف) ، فلقيه رسول الله ﷺ .

والحَبْر هو عالم اليهـود والمفترض فيه أنْ يكون من الزهــاد فيهم منقطعاً للعلم إلا أنه كان سميناً على الرغم من أنَّ عادة المنقطعين للعبادة وللعلم أنهم لا يأخذون من الزاد إلا ما يقيت ويقيم الأود.

فلما علم رسـول الله ﷺ أن مالك بن الصـيف وهو من أحبار اليهود يخوض كثيراً فى الإسلام قال له : أفى توراتكم : إن الله يبغض الحبر السمين ، فبُهِتَ الرجلُ وقال : ﴿ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ (٩١) ﴾ [الأنعام]

يعنى ما أنزل الله على بشر من شـيء من الذى أنت تقوله ، وهكذا نعلم أن مثـل هذا القـول قد يأتى من أهـل الكتـاب ، وحين قال مالك هــذه القولة قام عليه رجالٌ من اليهود وقالوا له : كيف تقول ﴿ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ (٩١) ﴾ [الأنعام]

فقال لهم : أغضبنى محمد . فرددتُ على الغضب بباطل .

وهنـا قــال مَنْ سـمعه من اليهـود : إذن أنت لا تصـلح أنْ تكونَ حـبراً لأنك فضحتنا وعزلوه ، وجاءوا بكعب بن الأشرف وولَّوه مكانه[1].

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٣/ ٣١٤) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الصيف ، فخاصم النبى ﷺ فقال له النبى : أنشدك بالذى أنزل التوراة على موسى : هل تجد فى التوراة أن الله يبغض الحبر السمين وكان حبراً سميناً فغضب وقال : والله ما أنزل الله على بشر من شيء فقال له أصحابه : ويحك . ولا على موسى .

ويحكم الله سبحانه عليهم فيصفهم ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) ﴾ [الملك] يعني ما أنتم إلا في ضلال كبير، واستخدام (إن أنتم) موجود في القرآن كثيراً.

ومثله قوله تعالى ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠) ﴾ [هود] أي: ما أنتم إلا كاذبون في إشراككم مع الله الأوثان.

وقال تعالى: ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا (١٠) ﴾ [إبراهيم] أي: ما أنتم إلا بشر مثلنا فليس لكم علينا فضلٌ.

ويقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (٥٨) ﴾ [الروم]

فيصفون محمداً وأصحابه بأنهم مبطلون، أي ما أنتم يا محمد وأصحابك إلا مبطلون، أي أصحاب أباطيل، فهم يتهمون الرسل في بلاغهم عن الله بأنهم أهلُ باطل وكذب.

لذلك قال تعالى لهم: ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) ﴾ [الملك] والضلال هو أنْ تسلك سبيلاً لا يؤدي بك إلى غايتك، فأهل الضلال أغواهم ضلالهم فلم يعُدْ لهم هَادٍ.

فالضلال يأتي على معانٍ متعددة، فقد يأتي الضلالُ مرة بمعنى الذهاب والفناء في الشيء، مثل قوله الحق: ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠) ﴾ [السجدة]

وقد يأتي الضلال مرة أخرى بمعنى عدم اهتداء الإنسان إلى وجه الحق،

كما قال الحق وصفاً لرسوله ﷺ ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (٧) ﴾ [الضحى] أى : أنك لم يعجبك يا محمد منهج قريش فى عبادة الأصنام ، وظللتَ تبحث عن المنهج الحق إلى أنْ هداك الله فأنزل إليك هذا المنهج القويم ، لقد كنت ضالاً تبحث عن الهداية فجاءتْك النعمةُ الكاملة من الله .

وهناك لوْنٌ آخر من الضلال وهو أنْ يتعرَّف الإنسانُ على المنهج الحق لكنه ينحرف عنه ويتجه بعيداً عن هذا المنهج إلى مناهج بشرية نابعة من الأهواء تقود حتماً إلى الضلال .

والضلال فى الدنيا والأمور المادية قد لا يوصلنى لغايتى المرجوة ، وقد لا يوصلنى لشرٍّ منها أو لمقابلها ، لكن فى الأمر القيمى ماذا يفعل ؟ إنه لا يُوصلك إلى الغاية المرجوة وهى الجنة فحسب ، ولكنه يُوصل للمقابل وهو النار ، هذا هو الضلال المبين الواضح .

فالضلال إذن أنْ يسلك الإنسانُ سبيلاً غيرَ مُوصِّل للغاية ، وكلما خطا الإنسان خطوةً فى هذا السبيل ابتعد عنها ، وهذا الابتعاد عن الغاية هو الضلال البعيد.

فالضلال لا يقتصر عليهم ، لكن الضلال سيكون ممتداً ، وقد قال تعالى :
﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١٣٦) ﴾ [النساء]

فـ (ضل) أى سار على غير هُدى ، فعندما يتوه الإنسان عن هدفه المقصود يُقال : ضَلَّ الطريق . والذى ﴿ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١٣٦) ﴾ [النساء] هو مَنْ يذهب إلى متاهة بعيدة ، والمقصود بها متاهة الكفر .

وهناك ضلال عن الهدى يمكن استدراكه ، أما الضلال البعيد والغرق فى

متاهة الكفر فمن الصعب استدراكه ، والشيء البعيد هو الذى بينه وبين مصدره مسافةٌ زمنية طويلة .

والذى يضلُّ قصارى ضلاله أنْ ينتهي بانتهاء حياته ، لكن الذى يعمل على إضلال غيره فهو يجعل الضلال يمتدّ ، أى أن الضلال سيأخذ فى هذه الحالة زمناً أكبر من حياة المُضل ، ويتوالى الضلال عن المضلِّين أجيالاً ، وهكذا يصبح الضلالُ مُمتداً .

و (ضل) يقابلها اهتدى . و (ضَلَّ) أى لم يذهب إلى السبيل الموصِّلة للغاية. و (اهتدى) أى ذهب إلى السبيل الموصِّلة إلى الغاية . ومَنْ لا يعرف السبيل الموصِّلة إلى الغاية يكون قد ضَلَّ أيضاً .

ولكن هناك مَنْ يضل وهو يعلم السبيل الموصِّلة إلى الغاية وهذا هو الكفر، وعندما يتكلَّم الحق عن الذين كفروا يصفهم بأنهم ضلُّوا ضلالاً بعيداً لأن الطريق إلى الهداية كان أمامهم ولم يسلكوه ، وهذا هو ضلالُ القمة .

وقوله ﴿ فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) ﴾ [الملك] أى ضلال عظيم كثير ، فهم لم يكتفوا بمجرد الضلال بل جعلوا ضلالهم كبيراً ، فى ذهاب عن الحقِّ وبُعْد عن الصواب كبير .

والبعض من العلماء ذهب إلى أنَّ قوله ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِى ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) ﴾ [الملك] هو من قول الكافرين أنفسهم تكملةً لقولهم ﴿ وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ (٩) ﴾ [الملك] ثم يستطردون أنهم خاطبوا رسلهم قائلين : ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِى ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) ﴾ [الملك]

وقد ذكر الله لنا بعض هذا فى القرآن الكريم ، قال تعالى بخصوص نوح عليه السلام : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩) ﴾

[القمر] فاتهموا نوحاً عليه السلام بالجنون .

ويقول تعالى : ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) ﴾ [هود]

فقد كانوا يسخرون منه كيف تصل هذه السفينة من (نينوى)[1] إلى البحر، وليس عندها بحر ولا نهر، ولم يكونوا يعلمون ما علمه نوح عليه السلام من أن الماء هو الذى سوف يأتى ليحمل السفينة .

حتى أنهم قالوا له : ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٦٠) ﴾ [الأعراف] فهم خائفون أنْ تكون دعوة نوح عليه السلام هى الدعوة إلى الطريق المستقيم وأن كلامه هو الهداية فيمُنّون أنفسهم أن هذا ضلال وخروجٌ عن المنهج الحق ، فيرمون ما بهم من ضلال على نوح عليه السلام .

ثم يستطردون كلامهم فيقولون كما يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) ﴾

أى لو كانت لنا عقولٌ ننتفع بها أو نسمع ما أنزله الله من الحق ، وقال البعض من العلماء : لو كنا نسمع سمْعَ مَنْ يعى ويتفكَّر ، أو نعقل عقلَ مَنْ يُميِّز وينظر ما كُنَّا من أهل النار .

ووسائل الإدراك والهدى السمع والعقل ، فالسمع لما أنزل الله وجاءتْ به الرسل والعقل الذى ينفع صاحبه ويُوقفه على حقائق الأشياء ، فلا سمعَ لهم ولا عقل .

فوسائلُ الإدراك عندهم تعطلت ، فآذانهم صُمَّتْ فهى لا تسمع منهجَ الحق،

---

(١) نينوى : محافظة فى شمال العراق ومركزها الموصل التى تعد ثانى أكبر مدن العراق تبعد عن بغداد ٤٠٢ كم ، ومن معالمها جامع النبى يونس وهو على تلة والضريح فى تجويف هذه التلة ينظر إليها الزائرون من أعلى .

وألسنتُهم تعطلتْ عن نقْل ما فى قلوبهم ، وأبصارهم لا ترى آيات الله فى الكون، فآلات إدراكهم لهدى الله معطلة عندهم .

لذلك وصف الحق سبحانه الذين كفروا فقالوا: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِى يَنْعِقُ[1] بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٧١) ﴾ [البقرة]

فهناك شيء قد سدَّ منفذ السمع فلا تسمع ، ويسبِّب الصمم فهم بُكْم، فالإنسان إنْ لم يسمع فهو لن يتكلم ، فالأذن جُعِلت لتسمع السماع المفيد فكأنّها مُعطَّلة لا تسمع شيئاً .

والعقل وُجد ليفكر به ، فإذا لم يفكر تفكيراً سليماً منطقياً فكأن صاحبه لا عقلَ له ، فالأصمّ حقيقةً خيرٌ من الذى يملك حاسة السمع ولا يفهم بها ، لأن الأصمَّ له عذره والأبكم كذلك ، والمجنون أيضاً له عذره .

وعملية العقل تنشأ بعد أنْ تسمع وبعد اكتمال الحواس ، ولذلك فالإنسان فى تكوينه الأول حركيّ حِسّيّ يرى ويسمع ويتذوق ثم يتكوَّن عنده من ذلك القضايا العقلية .

وليس معنى أنهم لا يسمعون أنهم صُمٌّ بجارحة الأذن ، فهم يسمعونه بآذانهم ولكنهم لا يفقهون ما يسمعونه ، وقد قال الحق سبحانه عنهم : ﴿ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨) ﴾ [النساء]

وساعة تقول فلان لا يفقه ، فهذا معناه أنَّ عقله ممنوعٌ من الفهم ، أما عندما نقول : لا يكاد يفقه . فهو يعنى : لا يقرب حتى من الفهم ، فمنطق العقل والفكر يقودان إلى ضرورة الفهم ، وعندما لا يفهمون ذلك فنحن نستعجب من عدم فهمهم ، ولا نستعجب من عدم فهمهم إلا إذا كان الأمرُ المطروح أمامهم

(١) النَّعْق : مصدر نعق ينعق وهو صياح الراعى بالغنم وزجره إياها . ووجه الكلام : كمثل المنعوق به فجاء الناعق فى موضع المنعوق به لأنه جعل الكفار بمنزلة الغنم المنعوق بها [جمهرة اللغة لابن دريد ٢/٩٤٣] .

أمراً يستوعبه العقل .

فالفقه هو أنْ تفهم ، أى أن يكون عندك مَلَكة فَهْم تفهم بها ما يُقال لك علماً، فالفهم أوّلُ مرحلة والعلم مرحلة تالية ، فالفقه هو الفهم .

ويقول تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ (٤٦) ﴾ [الحج]

فهل يعقل الإنسانُ بقلبه ، فنحن نعلم أن العقل فى المخ والقلب في الصدر ، فللإنسان وسائلُ إدراك هى الحواس التى تلتقط المحسَّات كالعين واللمس .

فلما يدرك الإنسان هذه الأشياء بوسائل الإدراك يتدخَّل العقلُ ليغربل هذه المدركات ويختار من البدائل ما يناسبه ، وبعد أنْ يختار العقل ويوازن بين البدائل يحكم بقضية تستقر فى الذِّهْن وتقتنع بها ، ولا تحتاج لإدراك بعد ذلك، ولا لاختيار بين البدائل .

وللعقل مهام أخرى غير أنه يختار ويفاضل بين البدائل ، فالعقل من مهامِّه أنْ يعقل صاحبه عن الخطأ ، ويعقله عن أنْ يشرد فى المتاهات والبعض يظنُّ أنَّ معنى عقل يعنى حريَة الفكر وأنْ يشطح المرءُ بعقله فى الأفكار كيف يشاء، لا ، العقل من عقال الناقة الذى يمنعها ويحجزها أنْ تشرد منك .

فليس العقل لأنْ ترتع به فى خواطرك ، إنما جاء العقل ليقيد هذه الخواطر ويضبط السلوك . يقول لك : اعقل خواطرك وادرسها لا تنطلق فيها على هواك تفعل ما تحب ، بل تفعل ما يصحّ وتقول ما ينبغى .

وهم تركوا أنفسهم لضلالهم وأهوائهم الفاسدة البعيدة عن منهج الله ، فهم لم يكونوا يسمعون لهدى الله السمعَ الذى يفيدهم ويجعلهم يعقلون ويفقهون ويفهمون ويعقلون أنفسهم عن الوقوع فى الكفر والخطأ .

ولأنهم لم يكونوا يسمعون أو يعقلون أصبحوا في أصحاب السعير، والشيطان هو الذي أوقعهم في هذا ودعاهم لأنْ يكونوا في أصحاب السعير، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦) ﴾ [فاطر]

فهم سيصبحون من أصحاب السعير وستكون بينهم وبين النار أُلْفة، وأنها تريدهم وتعشقهم حتى صارت بينهما مصاحبة.

ولكن الحق يقول هنا ﴿فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠)﴾ [الملك] فلم يستخدم الحق سبحانه كلمة (من) بل استخدم (في)، فكأنَّ هؤلاء الذين نتحدَّث عنهم في وسط النار، وأهلُ النار محيطون بهم، فهم في المركز.

هذا الفهم جاء من معنى (في) هنا، لكن لماذا استحقَّ هؤلاء أنْ يكونوا في الوسط وفي المركز وأهل النار حولهم؟

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾ ﴾

إنه اعترافٌ منهم باقترافهم الظلم وقيامهم عليه، فهذا اعترافٌ وإقرار منهم، وهما سيِّدا الأدلة، لأن كلام المقابل إنما يكون شهادة، ولكن كلام المقرِّ هو إقرارُ اعتراف.

وقد ذكر الحق سبحانه إقرارهم واعترافهم في آيات أخرى نحو قوله تعالى: ﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا[1] إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٥) ﴾ [الأعراف]، وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤)﴾ [الأنبياء]

فقد كنا ظالمين لأنفسنا بظلمنا لربنا في أننا كفرنا به، كما قال تعالى

---

(١) البأس: الشدة والبلاء. والبأس: العذاب في الدنيا. والبأس النقمات.

فى آية أخرى : ﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ[1] فِي جَنْبِ اللهِ (٥٦) ﴾ [الزمر]

ويحدِّثنا الحق سبحانه عن آخرين ﴿ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٠٢) ﴾ [التوبة]

وهؤلاء إنما اعترفوا ولم يُصرُّوا على النفاق ، وليسوا كالأوَّلين الذين أصرُّوا على نفاقهم وكفرهم فاعترفوا عند معاينتهم للعذاب ، واعترافهم هو اعترافٌ بذنب واحد يجمعهم هو كفرهم بالله ، لذلك قال تعالى فى سورة الملك ﴿ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ (١١) ﴾ [الملك]

أما ﴿ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ (١٠٢) ﴾ [التوبة] فهى ذنوب متعددة ومعاصٍ وقعوا فيها رغم إيمانهم ، لذلك جاءت بصيغة الجمع لاختلاف الذنب من واحد إلى آخر .

والاعتراف لونٌ من الإقرار ، والإقرار بالذنب أنواعٌ ، فهناك مَنْ يُقرّ بالذنب إفاقة ، وآخر يُقر بالذنب فى صفاقة ، مثلما تقول لواحد : هل ضربتَ فلاناً ؟ فيقول : نعم ضربتُه أى أنه اعترف بذنبه ، وقد يضيف : وسأضرب مَنْ يدافع عنه أيضاً ، وهذا اعترافٌ فيه صفاقة . أما مَنْ يعترف اعترافَ إفاقة فهو يُقرُّ بأنه ارتكب الذنب ويطلب الصفح عنه ، وهذا هو الاعتراف المقبول عند الله ، وهم قد ﴿ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ (١٠٢) ﴾ [التوبة] اعترافَ إفاقة .

بدليل أن الله قال فيهم ﴿ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا (١٠٢) ﴾ [التوبة] وعملهم الصالح هنا هو إقرارهم بالذنب ومعرفتهم أن فضيحة الدنيا أهون من فضيحة الآخرة ، أما عملهم السيء فهو التخلّف عن الجهاد والإنفاق ،

---

(١) قال مجاهد : يعنى ما ضيَّعت من أمر الله وقصَّرت فيه . وقال الطبرى : أى ما ضيعت من العمل بما أمرنى الله به ، وقصرت فى الدنيا فى طاعة الله .

واعترافهم هذا هو اعتراف الإفاقة .

والاعتراف منهم إجابةٌ بالإقرار، والإقرار هو سيد الأدلة ، ومن نحو اعترافهم وإقرارهم ماذكره الحق سبحانه عنهم ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٦١) ﴾ [العنكبوت]

فمسألة الخَلْق هذه من الوضوح بحيث لا يستطيع أحدٌ إنكارها ، لذلك يقولون هنا فى إجابة السؤال ، ﴿ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ (٦١) ﴾ [العنكبوت] ، وهذا الاعتراف منهم يستوجب من المؤمن أنْ يحمد الله عليه فيقول : الحمد لله أن اعترفوا بهذه الحقيقة بأنفسهم ، الحمد لله الذى أنطقهم بكلمة الحق وأظهر الحجة التى تبطل كفرهم .

لذلك يقول تعالى بعدها ﴿ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٦١) ﴾ [العنكبوت] أى : كيف بعد هذا الاعتراف ينصرفون عن الله وينصرفون عن الحق ؟

والحق سبحانه يقول ﴿ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ (١١) ﴾ [الملك] ، لكن ما فائدة هذا الاعتراف الآن ؟ وبماذا ينفعهم وهو فى دار الحساب ؟ لا فى دار العمل والتكليف؟

وما أشبه هذا الاعتراف باعتراف فرعون قبل أنْ يغرق ﴿ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلَّا الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ (٩٠) ﴾ [يونس] لذلك ردَّ الله عليه : ﴿ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) ﴾ [يونس]

فلم تكُنْ فى جعبته إلا كفرٌ بالله وعصيان لأوامره ، فكيف يعترف بالبعث والقيامة والحساب ، فكان يؤنس نفسه بتكذيب ما أخبره به الرسول .

والنفس البشرية وإنْ كانت لها شهوات إلا أنَّ لها اعتدالاً مزاجياً يتدخَّل بالندم عندما يرتكب الإنسان إثماً أو معصية ، ولذلك تجد كثيراً من الناس

يعانـى من متاعب لأنهم ارتكبوا معاصـىَ ، لكنهم يريـدون الاعتراف بها لأيّ إنسان .

وأى إنسان يتلقى الاعتراف ليست لديه القدرة على تدارك آثار تلك المتاعب ، لأنها وقعت وانتهى الأمر ، لكن لماذا يريد الإنسانُ أنْ يعترف لآخر بمعصية ؟

إنه اعترافٌ للتنفيس ، لأن كلَّ حركة فى النفس البشرية ينتج عنها تأثير فى النزوع ، فعندما يُغضبك أحدٌ فأنت تنزع إلى الانتقام ولهذا يأمرك الشرعُ حين يغضبك أحدٌ أنْ تُغيِّر من وضعك .

﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ (١١)﴾ [الملك] وهم لا يعترفون إلا إذا سُقط فى أيديهم فقالوا : لئن لم يتداركنا الله برحمته ومغفرته لنكونن من الهالكين ، وهذا اعترافٌ منهم بذنبهم والتجاءٌ إلى الله عز وجل .

وذنبهم هو إنكارُ وجود الله ، وإنكارُ وجود الله ليس بعده ذنب ، ولا يوجد ما هو أكثر منه فى الذنوب ، فليس بعد الكفر ذنب ، فالكفر أكبر الذنوب .

هؤلاء يُقال لهم : ﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ (١١)﴾ [الملك] ومعنى سُحْقاً أى بُعداً لهم وخسارة وشقاء ، فما أشقاهم وأرداهم حيث فاتهم ثوابُ الله وكانوا ملازمين للسعير التى تستعر فى أبدانهم وتطلع على أفئدتهم .

فبُعداً لهم من الله ومن رحمته ، و (سُحْقاً) منصوب على المصدر أى : أسحقهم الله سُحْقاً . وكان القياس إسحاقاً . والسحيق البعيد .

ومنه قوله تعالى : ﴿ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤١) ﴾ [المؤمنون] أى بُعداً لهم عن رحمتنا ونعيمنا الذى كنا نُمنِّيهم به ونعدهم به لو آمنوا .

وليس البُعد عن العذاب لأن البُعد مسافة زمنية أو مكانية نقول هذا بعيد . أى زمنه أو مكانه . المراد هنا البُعد عن النعيم الذى كان ينتظرهم إنْ آمنوا .

ويقول تعالى : ﴿ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ (٤٤) ﴾ [المؤمنون] يعنى : بُعداً لهم عن

رحمة الله ، وبُعداً لهم عن نعيم الله الذى كان ينتظرهم ولو أنهم آمنوا لنالوه ، فمَنْ يبعد عن الله يزده بُعداً ، وهو بُعد نهائى .

والحق سبحانه يقول عن قوم هود : ﴿وَأُتْبِعُوا فِى هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلاَ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠)﴾ [هود]

فهم يستحقون ما وقع عليهم من إهلاكٍ وطردٍ من رحمة الله ولن يعطف عليهم أحد لضخامة ذنبهم ، وكلمة (بُعداً) ليست دعاء على قوم هود بالبُعْد ، لأنها هلكت بالفعل .

ومادة كلمة (بُعداً) هى (الباء) و (العين) و (الدال) وتُستعمل استعمالين ، مرة تريد منها الفراق ، والفراق بينونة إلى لقاء مظنون ، أما إذا كانت إلى بينونة متيقنة ألا تكون ، ولذلك جاء بعدها ﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (٩٥)﴾ [هود]

وهى تدلّ على أنه بُعْدٌ لا لقاءَ بعده إلا حين يجمع الحق سبحانه الناس يوم القيامة ، والشاعر يقول :

يَقُولونَ لاَ تَبْعُد وَهَم يَدفِنُونني وَأَيْنَ مكَانُ البُعْد إلاَّ مكَانِيا

فهذا هو البُعْد الذى يذهب إليه الإنسان ولا يعود ، ورسول الله إنما قال سُحْقاً سُحْقاً للذين بعدوا عن منهج الله وتنكّبوا الطريق وغيَّروا وبدَّلوا .

فقال رسول الله لأصحابه : أنا فرطكم على الحوض . قالوا : يا رسول الله كيف تعرف منْ لم يأتِ من أمتك ؟ قال : أرأيتم لو أن رجلاً له خيل غر مُحجلة[1] بين ظهرانى خيل دُهْم[2] بهْم ، ألم يكن يعرفها ؟ قالوا : بلى . قال : فإنهم يأتون يوم القيامة غراً مُحجَّلين من أثر الوضوء . قال : أنا فرطكم على الحوض ،

---

(١) الغر جمع الأغر من الخيل : الأبيض موضع الجَبهة ، فالغرة بياض فى وجه الفرس . والمحجلة فى قوائمها بالبياض أيضاً . يريد أن علامة أمته فى القيامة فى وجوهها ومواضع وضوئها [مشارق الأنوار على صحاح الآثار - مادة غرر] .

(٢) الدُّهم : السُّود . والبُهْم : التى لا يخالط سوادها لون آخر . فالبهيم الأسود الذى لا شية فيه . [مشارق الأنوار على صحاح الآثار ١/١٠٢] .

لَيُذَادَنَّ رجال عن حوضى كما يُذاد البعير الضال فأناديهم : ألاَ هَلُموا فيُقال : إنهم قد بدَّلوا بعدك ولم يزالوا يرجعون على أعقابهم فأقول : ألا سُحْقاً سُحْقاً. أى : بُعداً بُعداً [١] .

والسحيق : البعيد . وبعض العلماء قالوا : السُّحق وادٍ فى جهنم يُسعَّر ويُوقد ويشتعل ناراً وسعيراً فيصبحون هم أصحاب السعير .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿١٢﴾ ﴾

الخشية لله وحده والمؤمن لا يخشى بشراً لأنه يعلم أنَّ القوة لله جميعاً ، ولذلك فإنه يُقدم على كل عمل بقلب لا يهاب أحداً إلا الحق ، والخشية تكونُ لله، فإنْ خفتم فخافوا الله وحافظوا على تنفيذ منهج الله .

والخشية خوفٌ متوهَّم ممَّنْ تظنّ أنه قادر على الضر ، ولا أحدَ غير الله قادرٌ على النفع والضُّر ، لذلك لا يصح أنْ يخاف الإنسان من سواه ، أمَّا أنْ تظن أن السلطان أو القريب منه قادر على الضر فهذا أمرٌ غير صحيح ، وليخْشَ كُلُّ إنسان الحق سبحانه وهو جلَّ وعلا نصحنا أنْ تكون الخشية منه دون سواه.

فالخشية تكون من الذى يمكن أنْ يصيب بمكروه ، ولذلك جعل الحق هنا الخشية منه سبحانه ، أى أنهم يخافون الله مالكهم وخالقهم ومُربِّيَهمْ خوْف إجلالٍ وتعظيم .

فالخشية خوفٌ بمهابة لأن الخوف قد يكون خوفاً دون مهابة ، أما الخوفُ من الله فخوفٌ ومهابة معاً ، فهى خوفٌ بتعظيم ومهابة ، فقد تخاف من شيء وأنت تكرهه أو تحتقره .

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه (٤٣٠٦) ومالك فى موطئه (٧٢) وأحمد فى مسنده (٩٢٩٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

فالخشية كأنْ تخاف من أبيك أو من أستاذك أنْ يراك مُقصِّراً ، فمعنى الخوف من الله أنْ تخاف أنْ تكون مُقصِّراً فيما طُلب منك وفيما كلَّفك به ، لأنَّ مقاييسه تعالى عالية .

والذين يخشوْنَ ربهم بالغيب صفة للمتقين ، الذين قال الله فيهم : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ (٤٨) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ (٤٩) ﴾ [الأنبياء]

ومعنى ﴿ بِالْغَيْبِ (١٢) ﴾ [الملك] أنهم يخافون الله مع أنهم لا يرونه بأعينهم ، إنما يرونه فى آثار صُنعه . أو بالغيب يعنى الأمور الغيبية التى لا يشاهدونها لكن أخبرهم الله بها فأصبحتْ بعد إخبار الله كأنها مشهدٌ لهم يروْنَها بأعينهم .

أو يكون المعنى : يخشون ربهم فى خلواتهم عن الخَلْق ، فمهابة الله والأدب معه تلازمهم حتى فى خُلْوتهم وانفرادهم على خلاف من يُظهر هذا السلوك أمام الناس رياءً وهو نمرود فى خلوته .

هؤلاء الذين يخشون ربهم بالغيب تجدهم ﴿ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (٤٩) ﴾ [الأنبياء] والإشفاق بمعنى الخوف ، لكنه خوفٌ يصاحب الحذر مما تخاف فالخوف من الله مصحوب بالمهابة ، والخوف من الساعة مصحوبٌ بالحذر منها ، مخافة أنْ تقوم عليهم قبل أنْ يُعدُّوا أنفسهم لها إعداداً كاملاً يُفرحهم بجزاء الله ساعة يلقونه .

فالخشية أشد الخوف ، والإنسان قد يخاف من شيء ، لكن يبقى عنده أملٌ فى النجاة ويتوقَّع من الأسباب ما ينقذه ويُؤمِّن خوفه ، لكن حين تخاف من الله فهو خوفٌ لامنفذ للأمل فيه ، ولا تَهبُّ فيه هبَّة تُشعرك بلطف .

وهناك نوعان من الخشية ذكرهما الحق سبحانه فى قوله : ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ (٣٧) ﴾ [الأحزاب]

فالخشية نوعان: خشية من شيء تخاف أنْ يضرك وخشية استحياء، فالخشية في قوله: ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ (٣٧) ﴾ [الأحزاب] خشية استحياء، ويكفي أنَّ الحق سبحانه قال في حقِّ رسول الله ﷺ: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ (٥٣) ﴾ [الأحزاب]

فالخشية هنا تعني خوفَ رسول الله من ألسنة الكفار التي ستخوضُ في حقه، والتي ستقول إنَّ محمداً تزوَّج من امرأة مُتبناه، لكن غاب عن هؤلاء أنَّ الله تعالى ألغى مسألة التبنِّي فليس لهم حجة.

وطبيعيٌّ أنْ يخاف رسولُ الله من ألسنة الكفار لأنه جاء لنقْض عاداتٍ وتقاليد جاهلية، وكان هو ﷺ أول من تحمَّل تبعة هذا التغيير، لأنه جاء على يديه وفي شخصه ﷺ.

وسيدنا رسول الله حين يستحي من زواجه من زينب أو من كلام الناس فإنما يريد أنْ يُبرِيء عِرْضه وساحته مما يشين، وقد كان ﷺ يدفع الشبهة عن نفسه دائماً.

لذلك لما رآه بعض أصحابه مع امرأةٍ مالوا عنه ﷺ خشية أنْ يتسبَّبوا له في حرج، فناداهما رسول الله « على رِسْلكما إنها صفية » فقالوا: نحن لا نشُكّ فيك يا رسول الله. فقال: « إنَّ الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم »[1].

فرسول الله يريد أنْ ينفض عن نفسه أيَّ شبهة، يريد ألاَّ يجعل لأحد جميلاً

(١) عن صفية بنت حُيي زوج النبي ﷺ أنها جاءت إلى رسول الله تزوره وهو معتكف في المسجد في العشر الأواخر من شهر رمضان فتحدثت عنده ساعة من العشاء ثم قامت تنقلب فقام معها رسول الله ﷺ يقلبها، حتى إذا بلغت باب المسجد الذي كان عند مسكن أم سلمة زوج النبي فمرّ بهما رجلان من الأنصار فسلّما على رسول الله ﷺ ثم نفذا، فقال لهما رسول الله: على رسلكما إنها صفية بنت حُيي. قالا: سبحان الله يا رسول الله وكبُر عليهما ذلك فقال رسول الله: « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً » [أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٨٦٣)، وابن ماجه في سننه (١٧٧٩)، وعبد بن حميد في مسنده (١٥٥٦)].

عليه بأنه ستر على رسول الله .

فخشيته ﷺ لم تكُنْ خشيةَ خَوْف من شيء يضره ، إنما خشية استحياء ليدفع رسول الله الشبهة عن نفسه ، والرسل لا يخشوْن شيئاً في البلاغ عن الله.

فكأنه تعالى نفى عن الرسول أنْ تكون خشيته في البلاغ ، إنما خشيته استحياؤه مخافةَ أنْ تلُوكه ألسنةُ قومه ، وإلا فهم لا يملكون له شيئاً يضرُّه أو يُخيفه .

لذلك يصف اللهُ رسله فيقول : ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللهَ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيبًا (٣٩) ﴾ [الأحزاب]

وهم يخشوْنَ ربهم بالغيب ، والغيبُ هو كلُّ ما غاب عن مدركات الحسِّ ، فالأشياءُ المُحسَّة التي نراها ونلمسها لا يختلف فيها أحد ، ولذلك يُقال ليس مع العين أين ، لأن ما تراه لا تريد عليه دليلاً ، أما الغيب فلا تدركه الحواسُّ إنما يُدرك بغيرها .

فهم يخافون الله مالكهم وخالقهم ومُربِّيَهم خوْفَ إجلال وتعظيم ، وأولو الألباب يخافون سُوء حِساب الحق سبحانه لهم ، فيدعوهم هذا الخوف إلى أنْ يصلوا ما أمر به سبحانه أن يُوصل ، وأنْ يبتعدوا عن أيِّ شيء يُغضبه .

هؤلاء الذين يخافون الله ويخشوْنه بالغيب ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١٢) ﴾ [الملك] وخشيةُ الله تجعل العبد ممَّنْ قال الله فيهم ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ

﴿ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ (٣٥) ﴾ [الأحزاب]

لولا خشيةُ الإنسان لله واستحضاره عقابَ الله له وتمثُّله ثوابَ الله ومراقبته لله عزَّ وجلَّ ما أصبح مسلماً ومؤمناً قانتاً صادقاً صابراً خاشعاً متصدِّقاً صائماً حافظاً لفرْجه ذاكراً لله .

أولئك ﴿ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥) ﴾ [الأحزاب] بعد كلِّ هذه الصفات يحتاجون للمغفرة ، الله يُطهِّرهم من كل أدران الذنوب قبل أنْ يأخذوا أجرهم ، فالحق سبحانه يُزيل الذنوبَ أولاً بالمغفرة .

وهو (أجر عظيم) (أجر كبير) وكل أجر على عمل يأخذ عمره بقدر حيِّزه الزمنى ، فأجرُ الإنسان على عمله فى الدنيا يذهب ويزول ، لأن الإنسانَ نفسه يذهب إلى الموت ، أما أجر الآخرة فهو الباقى أبداً ، وهو أجرٌ لا يفوت الإنسانَ ولا يفوته الإنسان ، ذلك هو الأجر العظيم .

فلا شيءَ يضيع عند الله ، يقول تعالى : ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٠) ﴾ [البقرة]

فليطمئن كلُّ مؤمن لأن حركة حياته هى ثوابٌ وأجر عند الله ، فإذا صلَّى له أجر ، وإذا زكَّى له أجر ، وإذا تصدَّق له أجر ، وإذا صام له أجر ، وإذا حَجَّ له أجر ، كلُّ ما يفعله من منهج الله له أجر .

وليس أجراً بقدر العمل بل أضعاف العمل ، أجر مضاعف أضعافاً مضاعفة ، وهو أجر ليس بقدرات البشر ولكنه بقدرة الله سبحانه ، وهو أجرٌ ليس زائلاً كعطاء الدنيا ولكنه باقٍ وخالد .

والخير الذى ستفعله لن تدخره عندك أو عند مَنْ قد ينكره ويقول : لا شيءَ لك عندى ، ولكن الله سيدخره لك . فانظر إلى الاطمئنان والعمل فى يد الله الأمينة وفى قدرته التى تُضاعف ما ادخرته عنده أضعافاً مضاعفة وتجده فى الوقت الذى تكون فى أحوج اللحظات إليه ، وهو وقت الحساب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ ﴾

كيف تنادى ربك وهو أقرب إليك من حبل الوريد ؟ وكيف تناديه سبحانه وهو يسمعك حتى قبل أنْ تتكلم ؟ فإذا كان إقبالُه عليك موجوداً فى كلِّ وقت ، فما الغرض من النداء ؟

ونداؤك ودعاؤك لله ليس كنداء ودعاء الخَلْق للخَلْق ، يحتاج إلى رفع الصوت حتى يسمع ، إنه نداء ودعاء الله تبارك وتعالى الذى يستوى عنده السرُّ والجهر.

ومن أدب دعاء الله سبحانه أنْ ندعوه كما أمرنا ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً (٥٥) ﴾ [الأعراف] ، وهو سبحانه ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) ﴾ [طه] أى : وما هو أخفى من السر لأن السر قبل أنْ يكون سِراً علم أنه سيكون سراً .

وقد جعل الحق سبحانه أحسنَ الدعاء الدعاء الخفى ، فالإنسان قد يدعو ربه بشيء إنْ سمعه غيره ربما استنقصه ، فجعل الدعاء خفياً بين العبد وربه حتى لا يُفتضح أمره عند الناس ، والله سبحانه ستَّار يحب الستر حتى على العاصين .

وقد يكون الدعاء من طائع ولكنه يريد من الله أمراً لا يحب أنْ يطلع عليه أحدٌ ، مثال ذلك دعاء زكريا عليه السلام : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦) ﴾ [مريم]

أخفى زكريا عليه السلام دعاءه لله لأنه طلب الولد فى وجود أبناء عمومته الذين سيحملون منهجه من بعده ، إلا أنه لم يأتمنهم على منهج الله ، لأن ظاهر حركتهم فى الحياة غير متّسق مع المنهج ، فكيف يأمنهم على منهج الله وهم غير مؤتمنين على أنفسهم ؟

فإذا دعا زكريا ربه أن يرزقه الولد ليرث النبوة من بعده ، فسوف يغضب هؤلاء من دعاء زكريا ويعادونه ، لذلك جاء دعاؤه خفياً يُسرّه بينه وبين ربه تعالى .

﴿ وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) ﴾ [طه] والله كما يعلم الجهر يعلم السر ، وما هو أخفى من السر ، والجهر هو أنْ تُسمع مَنْ يريد أنْ يسمع ، أما السر فهو أنْ تخصَّ واحداً بأنْ تضع فى أذنه كلاماً لا تحب أنْ يشيع عند الناس .

فسواء أسررتُم قولكم أو جهرتم به فإنه سبحانه ﴿ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) ﴾ [الملك] أى يعلم مكنونات صدوركم قبل أنْ تصير كلاماً .

بل إنه سبحانه يعلم ﴿ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ (١٦) ﴾ [ق] فوسوسة النفس وذات الصدور هى الأخفى من السرِّ ، فلدينا جَهْر وسِرٌّ وأخفى من السرِّ .

﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ [١] صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٦٩) ﴾ [القصص] ، ويقول فى آية أخرى ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) ﴾ [الأنبياء]

وكلمة ﴿ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) ﴾ [الملك]معناها صاحبة الصدور ، وفى الصدر يحرص الإنسان على إخفاء الأمر الذى يحب أنْ يحتفظ به لنفسه بحرص كحرص الصاحب على صاحبه ، كأنَّ الصدر حريصٌ على ألاَّ يسلم ما فيه .

فيقصد بـ ﴿ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) ﴾ [الملك] أى المعانى التى لا تفارق الصدور،

---

(١) تُكن صدورهم ، يعنى ما تُسر قلوبهم . قاله مقاتل بن سليمان . أى ما تخفى صدورهم . قال الطبرى فى تفسيره (١٩/٤٩٣) : « يعلم ضمائر صدور خلقه ومكنون أنفسهم وخفيّ أسرارهم » .

فهى صاحبات دائمة الوجود فى تلك الصدور ، سواء كانت حقداً أو كراهية ، أو هى الأحاسيس التى لا تظهر فى الحركة العادية سواء كانت نيةً حسنة أو نيةً سيئة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾

منهج الله هو أقوم المناهج وأصلحها ، لأنه منهجُ الخالق سبحانه الذى يعلم مَنْ خلق ويعلم ما يصلحهم ، فالصانع من البشر يعلم صنعته ويضع لها من تعليمات التشغيل والصيانة ما يضمن لها سلامة الأداء وأمن الاستعمال.

فإذا ما استعملت الآلة حَسْب قانون صانعها أدَّتْ مهمتها بدقَّة ، وسلمتْ من الأعطال ، فالذى خلق الإنسان أعلم بقانون صيانته فيقول له : افعل كذا ولا تفعل كذا .

فآفة الناس فى الدنيا أنهم وهم صنعة الحق سبحانه يتركون قانونه ويأخذون قانون صيانتهم من أمثالهم ، وهى قوانين وضعية قاصرة لا تسمو بحال من الأحوال إلى قانون الحق سبحانه ، بل لا وجه للمقارنة بينهما .

إذن : لا تستقيم الحياةُ إلاَّ بمنهج الله تعالى ، ومَنْ ينفذ هذا المنهج الإلهى يتمتع باستقامة الحياة وسلامتها وينعم بالأمن الإيمانى ، وهذه نعمة فى الدنيا ، وإنْ كانت وحدها لكانت كافية .

لكن الحق سبحانه يُبشِّرنا بما هو أعظم منها ، وبما ينتظرنا من نعيم الآخرة وجزائها ، فجمع لنا ربنا تبارك وتعالى نعيمى الدنيا والآخرة .

نعيم الدنيا لأنك سِرْتَ فيها على منهج معتدل ونظام دقيق ، يضمن لك فيها الاستقامة والسلام والتعايش الآمن مع الخلق .

ومن ذلك قول الحق سبحانه ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) ﴾ [البقرة]

قوله تعالى فى آية أخرى : ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣) ﴾ [طه]

ويقول تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧) ﴾ [النحل]

والله يعلم كلَّ شيء فيك ، لا يدخل معك فى متاهة ، هو سبحانه يقول لك : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [الملك]

فالذى صنع الكرسى - ولله المثل الأعلى - ألا يعرف أنّ الكرسى مصنوعٌ من الخشب ، ونوع الخشب (زان) أو (أرو) أو (مُجنة) ، وأن المسمار الذى يربط الجزء بالجزء إما مسمار صلب ، وإما من مصدر آخر .

وكذلك يعلم صانع الكرسى أى صنف من الغراء استعمل فى لصق أجزاء الكرسى ، وكذلك مواد الدهان التى تم دهن الكرسى بها .

فقول الحق سبحانه : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [الملك] لا يحتاج إلى جدال ، ولذلك نجد النجار الذى يرغب فى أنْ تكون صنعته مكشوفة واضحة يقول للمشترى :

سوف أصنع الكرسى من خشب الزان وعليك أنْ تمرَّ يومياً لترى مراحل صُنعه، ويبدأ صناعة الكرسى مرحلة مرحلة تحت إشراف الزبون ، وكذلك يعرف البدوى كيف يتكون الرَّحْل ، وهو ما يُوضع على ظهر البعير للركوب ، العربى يعرف كيف يتكوَّن الفسطاط وهو بيتٌ يُتَّخذ من الشعر .

وقد جاء سبحانه بما يدحضُ أيَّ جدل ، وبدون الدخول فى أية مهاترات أو مناقشات لها مقدمات ونتائج ومقدم وتال .

جاء الحق بهذا القول الفَصْل : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ

الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [الملك] فهو سبحانه الذى لا تخفى عليه خافية ، وهو الذى خلق كل الخَلْق ويعلم – وهو العليم – ما يصلح للبشر من قوانين .

وفى أعرافنا البشرية نجد أن الذى يصنع الصنعة يضع قانون صيانتها لتؤدى مهمتها كما ينبغى ، كذلك الله الذى خلق الإنسان هو سبحانه الذى وضع له قانون صيانته بـ (افعل) و (لا تفعل) .

ولذلك يقول سبحانه : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [الملك] ونجد الإنسان منّا يذهب بساعته إلى عامل إصلاح الساعات فيكشف عليها ويقرر ما فيها من فساد ، فما بالنا بخالق الإنسان ؟

إن العبث الذى يوجد فى العالم سببه أنَّ الناس قد استقبلوا خَلْق الله لهم ، ولم يدَّع أحدٌ أنه خلق نفسه أو خلق غيره ، ومع ذلك يحاولون أنْ يُقنِّنوا قوانين صيانة للإنسان خارجة عن منهج الله .

ونقول : دعوا خالق الإنسان يضع لكم قانون صيانة الإنسان ، بـ (افعل) و (لا تفعل) ، وإنْ أردتم أنْ تشرِّعوا فلتُشرِّعوا فى ضوء منهج الله ، وإنْ حدث أيّ عطب فى الإنسان فلنرده إلى قانون صيانة الصانع الأول ، وهو القرآن .

فالمتاعب إنما تنبع من أنَّ الإنسان يتناسى فى بعض الأحيان أنه من صنعة الله ، ويحاول أنْ يصنع لنفسه قانون صيانة بعيداً عن منهج الله .

والذى يزيل متاعب الإنسانية هو أنْ تعود إلى قانون صيانتها الذى وضعه الخالق تبارك وتعالى .

ونحن فى حياتنا نجد الذى صنع جهازاً يستفيد منه غيره ، يوضح مواصفات استعمال الجهاز أو الأداة حتى ولو كانت نورجاً أو محراثاً ، وذلك ليضمن للجهاز الحركة السوية التى يؤدى بها الجهاز عمله .

والواحد منا إنْ تعطلت منه السيارة يستدعى الميكانيكى الذى ينظر ما فيها ،

فإنْ كان أميناً فهو يشخِّص بدقة ما تحتاجه السيارة ويُصلحها ، وإنْ كان غير أمين ستجده يفسد الصالح ويزيد من الأعمال التى لا تحتاجها السيارة .

وهكذا نرى أن كلَّ صانع فى مجاله يعلم أسرار صنعته ، فما بالنا بالخالق الأعظم سبحانه وتعالى ؟ إنه خبيرٌ عليمٌ بكلِّ شيء ، فلا بدَّ من علم لأن الذى يصنع صنعة لا بد أنْ يعرف ما يصلحها وما يفسدها ، وذلك يتطلب قدرة للإدراك ، فالعلم وحده لا يكفى .

وكلُّ صانع أدرى بصنعته ، وهو الذى يضع لها قانون صيانتها ، لأنه يعلم ما يُصلحها وما يُفسدها ، ومنهج الله الذى جاء بـ (افعل) و (لا تفعل) هو منهج لا يقبل الزيادة أو التعديل ، فما كان فيه أمر ونهى فعليك الالتزام به .

وإلا لو خرجتَ عن هذا الإطار الذى رسمه لك ربُّك وخالقك فسوف تُحدث فى الكون فساداً بترك الأمر أو بإتيان النهى ، فكلُّ صاحب صنعة عالمٌ بصنعته وخبيرٌ بدقائقها ومواطن العطب فيها ، فما بالك بالخالق سبحانه ؟

وصاحب الصنعة فى الدنيا يجعل معها (كتالوجاً) يُبيِّن طريقة صيانتها، وأول فشل فى الكون أن الناس المخلوقين لله يريدون أنْ يضعوا للبشر قانون صيانتهم من عند أنفسهم .

ونقول : هذا لا يصح لأن الذى يُقنِّن ويضع للناس ما يصونهم ينبغى أنْ تتوفر فيه شروط : أولها أنْ يكون على علم محيط لا يستدرك عليه ، وأنت أيها الإنسان علمك محدود كثيراً ما تستدرك أنت عليه بعد حين ، ويتبين لك عدم مناسبته وعدم صلاحيته .

والحق سبحانه وتعالى هو وحده الذى لا يُستدرك عليه ، لأن علمه محيطٌ بكلِّ شيء لا تخفى عليه خافية .

والخلق جميعاً الذين يُشرِّع لهم أمامه سواء ، وكلهم عباده لا يحابى منهم أحداً ، ولا يميز أحداً على أحد ، وليس له سبحانه من خَلْقه صاحبة ولا ولد .

لذلك يُطمئننا سبحانه بقوله : ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ[1] رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣) ﴾ [الجن]

وكأن الله تعالى يقول : اطمئنوا فربُّكم ليس له صاحبة تُؤثِّر عليه ، ولا ولد يُحابيه ، فالصاحبة والولد نقطة الضعف وسبب الميل في مسألة التشريع .

وكذلك هو سبحانه لا ينتفع بما يُشرِّعه لنا لأنه سبحانه خلقنا بقدرته ، وهو الغنيُّ عنّا لا تنفعه طاعةُ الطائعين ولا تضرّه معصية العاصين . إذن فهو سبحانه وحده المستكمل لشروط التشريع والمستحق له سبحانه .

فالحق سبحانه المستحقّ وحده للتشريع لأنه سبحانه العليم ، وهو اللطيف وهو الخبير .

والعليم أي الذي يعلم كلَّ شيء خافياً كان أو ظاهراً ، والعلم كله منه وعلمه هو الذي يجعله يصنع كلَّ شيء بحكمة ، وهو سبحانه العليم بكلِّ خبايا البشر ، وعلم الله علم ذاتيّ .

ولو أخذتْ البشرية عن الله العلم بكلِّ شيء لصارتْ الدنيا إلى انسجامها ، وهو سبحانه العليم بكلِّ خفايا عباده والكاشف لكلِّ الملَكات النفسية في خَلْقه .

وقد علم سبحانه أزلاً بكل سلوك وكل خافية ، وهو العليم أبداً بما ينفع الناس جميعاً ، والحق سبحانه يعلم الظاهر والباطن ، ويعلم خائنةَ الأعين وما تُخفي الصدور ، وهو العليم بما تتطلبه الحكمة علماً يحيط بكلِّ الزوايا والجهات .

والحق سبحانه هو القائل في آية أخرى : ﴿ اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ

---

(١) تعالى جد ربنا : ارتفع ذكره وعظمته . [تفسير مقاتل بن سليمان ٤/٤٦١] أي تعالت عظمته وعلا جلاله . تعالى فعله وأمره وقدرته ، وهو مستعار من الجدِّ بمعنى الحظ والبخْت . (غاية الأماني في تفسير الكلام الرباني لشهاب الدين الكوراني الشافعي ١/٢٤٨) .

جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤) ﴾ [الروم]

فقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤) ﴾ [الروم] أى أن هذا الخَلْق ناشيءٌ عن علم ، لكن العلم وحده لا يكفى ، فقد تكون عالماً لكنك غير قادر على تنفيذ ما تعلم كمهندس الكهرباء ، لديه علم واسع عنها ، لكنه لا يستطيع تنفيذ شبكة أو معمل كهرباء فيذهب إلى أحد الممولين ليُعينه على التنفيذ ، لذلك وصف الحق سبحانه نفسه بالعلم والقدرة .

وفى آية أخرى يؤكد الحقُّ سبحانه المعنى فيقول : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠) ﴾ [الشورى]

علم وقدرة ، علم بالقوانين التى وضعها الحق سبحانه لخَلْقه وقدرة مطلقة لله سبحانه على خرق هذه القوانين ، وجعل القوانين تفعل أو لا تفعل .

وهو سبحانه (اللطيف) يقول تعالى : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣) ﴾ [الأنعام] فأنت أيها المؤمن تصدق ذلك ، فذات الحق لاتبصرها العيون وهو يعلم كلَّ ما هو خفىٌّ عنك ، ولا تدركه عيونك .

وفى الكون أشياء قد لاندركها على الرغم من أنه سبحانه وتعالى خلقها وعملت فى خدمتك ، وبعد أن أدركتها ظلت تعمل فى خدمتك ، فإنْ حدَّثك الحق سبحانه بشيء لاتدركه فلا تقُلْ : ما دام هذا الشيء غير مدرك فهو غير موجود.

وعلى سبيل المثال أنت لاتدرك الكهرباء ولا الجاذبية ولا قمة أسرار الحياة، وهى الروح التى تعطيك سر الحياة وتنفعل بها كل جوارحك ، وإنْ خرجتْ الروح صرْتَ جثة هامدة ، إنَّ أحداً لا يعرف مكان الروح ولا يدركها ولا سمعها أحد أو شمّها أو ذاقها أو لمسها .

إن الـروحَ موجـودةٌ فى ذاتـك ولا تدركها ، وهـا أنت ذا لا تسـتطيع أنْ تدرك مخلوقاً لله فكيف تدرك خـالقك وهو الله ؟ إنك لو أدركته لما صـار إلهاً لأنك إنْ أدركتَ شيئاً فقد قدرتْ عليه جوارحك ويصير مقدوراً عليه لعينك أو ليدك .

و (اللطيف) لها معنى خاص ، فـالشيء اللطيف يُستعمل فى الدقيق التكوين ولله المثـل الأعلـى ، فـالميكروب لم نعرفه إلا مؤخـراً لأنه بلـغ من اللطف والدقة بحيـث لا تدركـه العين ، لكن عندما اخترعنا الميكروسكوب رأينـاه ، وإنْ بَعُدَ الميكروب عن ذلك فلن نراه .

فكلمـا دَقَّ الشـيء يلطـف ولا يمكن أنْ نراه ، فـالشـيء إذا لَطُـفَ شَرُف وعلا ونقول ولله المثل الأعلى : فلان لطيف المعشر ، والحق سبحانه لطيف فى ذاته ويلطف بعباده .

فساعة تسمع (لاطف) فهذا اسم فاعل مثل (آكل) وحين نقول (لطيف) فهى مبالغة فى اللطف ، لأنه لاطف بكل إنسان وكل كائن ، وهذا يحتاج إلى مبالغة، ولذلك نقول (رحيم) ، وهى صيغة مبالغة لأنه يُسبغ رحمته على عباده .

وأول مظهـر مـن مظاهـر اللطـف هو تدبـير أمورهـم الدقيقة تدبـيراً يحقق مصالحهم فى وجودهم ، إننا حين ندبر كوب ماء لكل إنسان ندبر الكثير ، فما بـالنـا بتدبير اللطيف بعباده ؟

لقـد خلـق الله لنـا الأرض ، ثلاثة أرباعها مـاء والرُّبْع يابس ، لأنه جَلَّ وعلا يريد أنْ يُوسِّع رقعة الماء لأن المياه كلما اتسعتْ رقعتها كان البخْر فيها أسهل وأكثر ، لكن لو كانت المياه عميقة ومساحتها قليلة فـالبخر على مستوى السطح فقط ، وهنا لا يأتى السحاب بما يكفى الخَلْق من الماء .

لقد وسَّع الله سبحـانه رقعة الماء كى يتبخَّر الماء ثم ينعقد كسُحب فى السماء ، ويصـادف منطقة بـاردة لينزل لنـا المياه العذبة لنشرب منها وتشرب أنعامنـا

ونسقى الزرع ، وكلٌّ ذلك من لطف التدبير .

ومن مظاهر اللطف فى الحق نجد أموراً لا تُوصف ، ولذلك كل واحد من العلماء ينظر لزاوية من زوايا لُطْف الله بخَلْقه ، فواحد قال هو سُبوغ النعمة[1]. وقال الثانى : هو دقة التدبير . وقال الثالث : إن من مظاهر لطف الحق أنه يستقل كثيراً من النعم على خَلْقه ، فالنعم التى منحها خَلْقه قليلة لأن خزائنه سبحانه ملأى وعطاياه لا تنفد ولا يعتريها نقص .

فمظاهر اللطف لا حصر لها ، وعلى قدر دقَّة اللطف تكون دقة مأتاه وإحصائه ، فهو اللطيف الذى إذا ناديته لبّاك ، وإذا قصدته آواك ، وإذا أحببتَه أدناك ، وإذا أطعتَه كافأك ، وإذا أعطيته وأقرضته من فضله وماله الذى منحك عافاك ، وإذا أعرضتَ عنه دعاك .

ويأتى عالم آخر ممَّنْ انفعلوا بصفات اللطف فيقول : الذى يجازيك إنْ وفَّيْت ويعفو عنك إنْ قصَّرت . وعالم آخر يضيف إلى معانى اللطف فيقول : مَن افتخر به أعزّه ، ومَن افتقر إليه أغناه . وعالم ينفعل انفعالاً آخر بمظاهر اللطف فيقول : مَنْ عطاؤه خير ومنعه ذخيرة ، أى أنه لو منع عبده شيئاً فإنه يدخره له فى الآخرة ، كل هذه مظاهر للطف .

والحق سبحانه يصف ذاته بأنه هو ﴿اللَّطِيفُ[2] الْخَبِيرُ (١٤)﴾ [الملك]فهو لطيف يعلم ما يدخل ويتغلغل فى الأشياء ، خبير بكلِّ شيء، وقدير على كلِّ شيء .

ويقول تعالى : ﴿ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠) ﴾ [يوسف] فسبحانه هو المدبّر الذى لا تخفى عليه خافية أبداً ، وكلمة (لُطْف) ضد كلمة كثافة ، فاللطيف هو الذى له جُرْم دقيق ، والشيء كلما لَطُف عَنُف ، لأنه لا

---

(١) سبوغ النعمة : اتساعها ووفرتها . والدرع السابغة : التامة الوافرة الطويلة الواسعة . [تاج العروس - مادة سبغ] .

(٢) اللطيف : لطف علمه بما فى القلوب خبير بما فيها .

توجد عوائق تمنعه .

ولا شيءَ يعوق الله أبداً ، وهو العليم بموقع وموضع كل شيء ، فهو سبحانه يجمع بين اللطف والخبرة ، فلُطْفه لا يقف أمامه شيءٌ ، ولا يوجد ما هو مستور عنه ، ولا يقوم أمام مراده شيء .

وسبحانه خبير بمواضع الأشياء ، وعلمه سبحانه مطلق ، وهو حكيم يُجرى كلَّ حدث بمراد دقيق ، ولا يضيف إليه أحد أيّ شيء فهو صاحب الكمال المطلق ، وهو سبحانه الخبير بما نعمل ويعلم كلَّ شيء بإحاطة تامة .

والخبير يختلف عن العالم الذى قد يعلم الإجماليات ، لكن الخبير هو المدرّب على التخصص ، ولذلك غالباً ما تأتى كلمتا (اللطيف والخبير) معاً ، لأن الخبير هو مَنْ يعلم مواقع الأشياء ؛ واللطيف هو مَنْ يعرف الوصول إلى مواقع تلك الأشياء .

ومثال هذا أنك قد تعرف مكان اختباء رجل فى جبل مثلاً ، هذه المعرفة وهذه الخبرة لا تكفيان للوصول ، والنفاذ إلى مكانه ، بل إنَّ هذا يحتاج إلى ما هو أكثر ، وهو الدقة واللطف .

فالخبير الذى يعلم خبايا الأمور حتى فى مسائل الدنيا الهامة ، نقول : نستدعى لها الخبير ، لأن المختصّ العادى لا يقدر عليها ، فالخبير مَنْ وصل إلى منتهى العلم الدقيق ، ومنه قولنا : اسأل أهل الخبرة ، يعنى لا يسأل أهل العلم السطحى ، فالخبير هو الذى لا يغيب عنه شيء(١) .

فاللطف هو الدقّة فى تناول الأشياء وحُسْن تأتِّى الأمور مهما كانت وسائلها ضيقة . وسبق أنْ قلنا : إن الأشياء الضارة كلما لطفت عنفت ، فالحديد الذى تجعله على النوافذ ليحميك من الذئاب غير الحديد الذى يحميك من الثعابين أو

(١) ويقول تعالى : ﴿ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (٥٩) ﴾ [الفرقان] أى اسأل عنه إنساناً خبيراً . ويقال : فلان بهذا الأمر خبير وله به خبر وهو أخبر به من فلان أى أعلم.

من النـاموس والذبـاب .. إلـخ .

لذلـك نجد أن أفتـك الأمراض تـأتى من الفيروسـات اللطيفة التى لم تُعرف ، وحُسْـن التـأتِّى للأمور يعنى التغلغل فى الأشـياء مهما دقَّتْ ، فقد تُضطر مثلاً لأن تُدخل يدك فى شـىء ضيق لتتناول شـيئاً بداخلـه ، فلا تستطيع ، فنستعين على ذلك بـالولد الصغير لأن يده ألطف من يدك ، أو تستعين على ذلك بـآلة أدقّ لتؤدى بهـا هذا الغرض .

ووصـف اللطيف يُتمِّمه وصـف الخبير ، فـإذا كـان اللطيـف يعنى الدقة فى تنـاول الأشـيـاء وحُسْـن التـأتـى ، فـالخبرة تعنـى معرفة الموضـع ، فـاللطف لا يتـأتَّى إلا بـالخبرة .

ثم يقول الحق سبحـانه :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَـلَ لَـكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولًا(١) فَٱمۡشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا(٢) وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾

فـالحق سـبحـانه يلفتنـا إلى خلق الأرض ، والأرضـ هـى المكـان الذى يعيش فيـه النـاسُ ، ولا يسـتطيع أحـد أنْ يدّعـى أنـه خلق الأرضـ أو أوجدهـا ، ولنـا أنْ نلتفت إلى فـارق مهم بين (الخلق) وبين (الجعل) ، فـالخَلْق شيءٌ والجَعْل شيء آخر .

الخَلْـق هـو إيجـادٌ من عـدم ، والجعل هـو توجيـه مخلـوق لله إلى مهمته فى

(١) ذلولاً : مُذللـة سهلة لم يجعلها ممتنعة بـالحزونة والغلظ (زاد المسير لابن الجوزى ٤/ ٣١٥) . فجعلها مهاداً ذلولاً توطأ بـالأقدام وتضرب بـالمعاول والفؤوس فهى ذلول مسخرة لما يريد العبد منها .
(٢) مناكبها ، فيه ثلاثة أقوال :
أحدهـا : طرقـاتهـا . رواه العوفى عن ابن عبـاس وبه قـال مجاهد .
ثـانيها : جبـالها . رواه ابن أبى طلحة عن ابن عبـاس وبه قـال قتـادة . واختـاره الزجاج .
ثالثها : جوانبها . قـاله مقاتل والفراء وأبو عبيدة واختاره ابن قتيبة .

الحياة ، فخلْق الله لا يخلقون شيئاً ، إنما الخَلْق والإيجاد له سبحانه ، وعلينا – نحن الخَلْق – أنْ نُخصِّص كل شيء لمهمته في حياته التي أرادها الله .

أي أنْ نترك (الجعل) لله ولا نتدخَّل فيه ، بمعنى أن الخالق سبحانه وتعالى خلق الخنزير – على سبيل المثال – ليأكل من القاذورات ، وليحمي الإنسان من أمراض وأضرار كثيرة .

وعلى الإنسان أنْ يُخصِّص الخنزير لهذه المهمة فلا يحوّله إلى غير مهمته كأنْ يأكله مثلاً ، لأن تحويل مهمة مخلوق لله إلى غير مهمته هو أمر يضرٌّ بالإنسان الذي أراده اللهُ سيداً مُستخلفاً في الكون .

والخالق سبحانه هو الذي (خلق) وهو الذي (جعل) ، ومثال هذا يقول تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا (٥) ﴾ [يونس] فالأمر ليس أمر التذكير بخَلْق الله للشمس والقمر ، بل هو أمر التذكير بما جُعلت له الشمس وبما جُعل له القمر ، أي المهمة التي خُلق من أجلها كل منهما .

فالفساد إنما ينشأ في الكون حينما نجعل مخلوقاً لله في مهمة غير تلك التي جعلها الله له ، وعلينا أنْ نُسلِّم بأنَّ كلَّ شيء مخلوق لمهمة ، فلا يصح أنْ نُوجِّه شيئاً إلى غير مهمته ، وتوجيه أشياء إلى غير ما جُعلت له أنتج آثاراً ضارة .

فالأرض خلقها الله وجعلها لمهام محددة حدَّدها الله في كتابه ، قال تعالى: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا (٢٢) ﴾ [البقرة] فكلمة فراشاً توحي بأنه أعدّ الأرض إعداداً مريحاً بشرياً ، كما تفرش على الأرض شيئاً تجلس عليه أو تنام عليه فيكون فراشاً مريحاً .

ونحن نتوارث الأرض جيلاً بعد جيل ، وهي تصلح لحياتنا جميعاً ، ومنذ أنْ خُلقت الأرض إلى يوم القيامة ستظل فراشاً للإنسان ، وحتى عندما تقدَّمتْ الحضارة وزادت الرفاهية ظلَّتْ الأرض فراشاً رغم ما وُجد عليها من أشياء ليِّنة .

فكأنَّ الله تعالى قد أعدّها لنا إعداداً يتناسب مع كل جيل ، فكُلُّ جيل رُقَّه فى العيش بسبب تقدُّم الحضارة كشف الله سبحانه من العلم ما يُطوِّع له الأرض ويجعلها فراشاً .

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا (١٠) ﴾ [الزخرف] والمهد هو فراش الطفل ، ولا بدَّ أن يكون مريحاً لأن الطفل إذا وجد فى الفراش أيَّ شيء يُتعبه فإنه لا يملك الإمكانات التى تجعله يريحه .

ولذلك تُمهِّد الأم لطفلها مكان نومه حتى ينام نوماً مريحاً ، ولكن الذى يمهد الأرض لكلِّ خَلْقه هو الله سبحانه وتعالى ، فيجعلها فراشاً لعباده.

فقوله تعالى : ﴿ مَهْدًا (١٠) ﴾ [الزخرف] من التمهيد وتوطئة الشيء ليكون صالحاً لمهمته كما تفعل فى فراشك قبل أنْ تنام ، ومن ذلك يُسمَّى فراش الطفل مهداً لأنك تمهِّده له وتُسوِّيه وتُزيل عنه ما يقلقه أو يزعجه ليستقرَّ فى مهده ويستريح .

فمعنى ﴿ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا (٥٣) ﴾ [طه] أى : سوَّاها ومهَّدها لتكون صالحة لحياتكم ومعيشتكم عليها ، وليس معنى مهَّدها جعلها مستوية ، إنما سوَّاها لمهمتها . وإلا ففى الأرض جبال ومرتفعات ووديان ، وبدونها لا يستقيم لنا العيش عليها .

فتسويتها تقتضى إصلاحها للعيش عليها ، سواء بالاستواء أو التعرّج والارتفاع أو الانخفاض ، فالتسوية جَعْل الشيء صالحاً لمهمته ، سواء كان بالاعتدال أو الاعوجاج ، سواء أكان بالأمت أو بالاستقامة .

ومن هذا قوله ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤) ﴾ [الروم] فكأنَّ الذى يعمل الصالح فى الدنيا يُمهِّد لنفسه فراشاً فى الآخرة ، كما يحكى أبو

منصـور بن حـازم عن أبى عبدالله الحسين يقول : العمل الصـالح يسبق صـاحبه إلى الجنة ليمهد له فراشه كما يُمهِّد الخـادم لأحدكم فراشه .

وقد جعل الحق سبحـانه الأرض مطيعة للإنسان تعطيه كلَّ مـا يحتـاج إليه . فـالأرض مُسخَّرة من الحق سبحـانه للإنسان يسعى فيها ويضرب فيهـا ، ويأكل مـن رزق الله النـاتج منهـا ، فـالأرض الذَّلول المسـخَّرة ، وهذا مِثْل وَصْـف الحق سبحـانه للبقرة التى طلب الله من اليهود .

﴿ قَالُـوا ادْعُ لَنَـا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَـالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَـرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ ..(٧١) ﴾ [البقرة] ، فلم تكن بقرة بنى إسرائيل ذلولاً مسخَّرة فى أعمال الأرض .

فـالبقرة الذلول هـى البقرة المروَّضـة الممرنـة التى تؤدى مـهمتـها بـلا تعب ، تمـامـاً مثل الخيل المروضة التى لا تتعب راكبهـا لأنـهـا تم ترويضـهـا .

وقـال الله سـبحـانه لهم أول وَصْف للبقرة أنهـا ليست مروَّضة ، لا أحدَ قـادهـا ولا قـامـت بعمـل ، إنهـا انطلقت على طبيعتها وعلى سـجيَّتها فى الحقول بدون قـائد .

فـالبقرة المطلوبة كـانت بقرة مرفهة غير سهلة الانقيـاد ، فلا تُستـخدم لا فى حرث الأرض وإثـارتـهـا ، ولا فى سقيهـا بعد أنْ تحرث ، فـهى بقرة غير ذلول .

وقـد ذلَّـل الله لنــا الأنعــام ، فقــال تعــالى : ﴿أَوَلَمْ يَـرَوْا أَنَّـا خَلَقْنَـا لَهُـمْ مِمَّـا عَمِلَـتْ أَيْدِينَـا أَنْعَامًا فَهُـمْ لَهَا مَالِكُـونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُـمْ فَمِنْهَـا رَكُوبُهُمْ[1] وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) ﴾ [يس]

(١) فمنها ركوبهم : أى منها ما يركبون . لأنك تقول : هذه دابة ركُوب . والرُّكوب هو فعلهم . وقال الثعلبى فى الكشف والبيان : (فمنها ركوبهم) قرأ العامة بفتح الراء أى مركوبهم . كما يقال : ناقة حلوب أى محلوب . وقرأ الأعمش والحسن : بضم الراء على المصدر .

وعلى المؤمن أنْ يتذكَّر أيضـاً أن الحق سبحانه ذلَّل الجمل لصاحبه ، وجعل الطفـل الصـغير يأمر الجمـل فيرقد على الأرض ليضـع عليه الأحمـال الثقيلة ويأمره فيقوم .

أمـا إنْ واجـه الثعبان أو الحية فهـو لا يجرؤ على تذليلهمـا ، وهنا لفْتٌ من الحـق للخَلْـق لقدرته المطلقـة ، فقد ذلَّل لهم الكبير، وأفزعهم أضـعاف ذلك من الثعبان ذى الجسم الصغير .

ومـن التذليل يأتى رضـوخ بقية الكائنات للإنسـان ، فالحمـار عند الفلاح يحمل السـماد للأرض من بقايا فضلات الإنسان والحيوان ، ولا ينطق الحمار معترضاً .

ويأتـى الفلاح ليرتقى فى حياته ويصـير شـيخاً للخفر ، فيأمر أنْ يسـتحم الحمار ويشـترى لـه السَّرْج ليركبـه وهو ذاهبٌ للقـاء المأمور فـى المركز ولم يعص الحمار فى الحالتين ، إنه التذليل .

إياك أنْ تظن أنَّ مهارتك وحدها أيها الإنسـان هى التى ذللتْ لك الكائنات، فلـو اعتمـد الأمر علـى المهارة وحدهـا لذلَّل الإنسـان البرغوث الصـغير الذى يهاجمه فى أيٍّ وقت ، وقد يُفزعك ذلك البرغوث الصـغير طوال الليل وقد تسـهر أسرة بأكملها من أجل قتل برغوث واحد .

والحق سبحانه هو الذى ذلَّلَ للإنسان كلَّ شيء ، ولو لم يُذللها لما استجابتْ لك أيها الإنسان ، ومن حكمته تعالى ورحمته بنا أنْ ذلَّل لنا سُبُل الحياة ، وذلَّل لنا ما ننتفع به ، ولولا تذليله هذه الأشياء ما انتفعنا بها .

فترى الجمل الضـخم يسـوقه الصـبى الصـغير ويتحكم فيه يُنيخه ويُحمِّله الأثقال ويسـير به كما أراد ، فى حين إذا ثار الجمل أو غضـب لا يسـتطيع أحدٌ التحكم فيه ، وما تحكَّم فيه الصبى الصغير بقوته ولكن بتذليل الله له .

أمـا الثعبـان مثـلاً فهو على صِـغَر حجمـه يُمثل خطـراً يفزع منـه الجميع ويهابُون الاقتراب منه ، ذلك لأن الله سبحانه لم يُذللـه لنا ، فأفزعنا على صِغَر حجمه .

وفى ذلك حكمة بالغة وكأنَّ الحق سبحانه يقول لنا : إذا ذلَّلت لكم شيئاً ولو كان أكبر المخلوقات كالجمل والفيل تستطيعون الانتفاع به ، وإنْ لم أذلّله لكم فلا قدرةَ لكم على تذليله مهما كان حقيراً صغيراً .

إذن الأمـور ليسـت بقدرتك ، ولكـن خُذْها كما خلقها الله لـك ، يقول تعالى : ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ (٧٢)﴾ [يس]

أى جعلناهـا خاضـعة لتصرُّفهـم ، وهـذا التذليل ليس بقهر من الإنسـان للأنعام ولكنه بتسخير من الله وهى مُيسَّرة لخدمة الإنسان .

ومثال آخر قوله الحق : ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا (٦٩)﴾ [النحل] أى : متطامنة مُهيأة ، تنقَّلى حُرَّة بين الأزهار هنا وهناك ، ولذلك لا نستطيع أنْ نبنى للنحل بيوتاً يقيم فيها ، لا بدَّ له من التنقل من بستان لآخر .

فقوله تعالى ﴿ذُلُلًا (٦٩)﴾ [النحل] أى مُذلَّلـة مُمهدة طيِّعة ، فتخرج النحل تسعى فى هذه السُّبل فلا يردّها شيء ولا يمنعها مانع ، تطير هنا وهناك من زهرة لأخرى ، وهل رأيتَ شجرة مثلاً ردَّتْ نحلة ؟ لا قد ذلَّل الله لها حياتها ويسَّرها .

والكون مُسخَّر لخدمة الإنسان والتسخير معناه التذليل ، وأنْ لا تتمرد ظواهر الكـون علـى الإنسـان ، وإذا كانت هناك ظواهر فى الكـون تتمرد بقدر الله مثل الفيضـانات والبراكين والكوارث الطبيعية نقـول : إن ذلك يحدث ليلفتنا الحق سبحانه إلى أنَّ كلَّ ما فى الكون لا يخدمنا بذاتنا ولا بسيطرتنا عليه ، وإنما يخدمنا بأمر الله له .

وإلاَّ لو كانت المخلوقات تخدمك بذاتك فاقدر عليها حينما تتمرد على خدمتك ، وكلّ ما فى الكون خاضع لطلاقة قدرة الله ، حتى الأسباب والمسبِّبات خاضعة أيضاً لطلاقة القدرة الإلهية ، فالأسباب والمسبِّبات فى الكون لا تخرج عن إرادة الله .

لذلك إذا تمرد الماء بالطوفان وتمردت الرياح بالعاصفة وتمردت الأرض بالزلازل والبراكين ، فما ذلك إلا ليعرف الإنسان أنه ليس بقدرته أنْ يسيطر على الكون الذى يعيش فيه .

والإنسان عاجز عن أنْ يُخضع حيواناً إلا بتذليل الله له ، ومن عجيب أنك ترى الحيوانات تدرك مالا يدركه الإنسان فى الكون فهى تحسُّ بالزلزال قبل أنْ يقع وتخرج من مكان الزلزال هاربة ، بينما الإنسان لا يستطيع بعقله أنْ يفهم ما سيحدث .

والله جعل لنا الأرضَ ذلولاً مُذلَّلة مُسخَّرة مُهيئة لنا للاستفادة بها حرثاً وبذراً وزرعاً ويسَّر لنا السير فيها ، قال تعالى : ﴿ فَانْتَشِرُوا فِى الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ (١٠) ﴾ [الجمعة]

فالله أمرنا بالسعى فى الأرض ، فالمشى والسعى فى الأرض مطلوب ﴿فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا (١٥) ﴾ [الملك]

وقد قرن الحق سبحانه بين الضاربين فى الأرض للرزق والمقاتلين فى سبيل الله فى قراءة ما تيسَّر من القرآن . قال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ (٢٠) ﴾ [المزمل]

ثم قال تعالى : ﴿ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى

الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ (٢٠) ﴾ [المزمل]

وقانون الإصلاح الذى جعله الله لحياة البشر يقوم على دعامتين : الضرب فى الأرض والسعى فى مناكبها وفيه مقومات الحياة ، ثم نقاتل فى سبيل الله لبقاء الدعوة والمنهج ، فالأولى للقالب ، وبها نأكل ونشرب ونعيش ، والأخرى للقيم .

فإنْ قعدتْ الأمة أو تكاسلتْ عن أيٍّ من هاتين الدعامتين ضاعت وهلكت وصارت مطمعاً لأعدائها ، لذلك تجد الآن الأمم المتخلفة فقيرة تعيش على صدقات الأمم الغنية لأنها كفرت بأنعم الله وسترتْها ولم تعمل على استنباطها قعدت عن الاستعمار[1] والاستصلاح .

وأنت حين تذهب فى الأرض فعليك أنْ تضربها حرثاً وتضربها بذراً ، لا تأخذ الأمر بهوادة ولين ، فالأرض مُسخَّرة من الحق سبحانه للإنسان يسعى فيها ويضرب فيها ويأكل من رزق الله الناتج منها .

والسير فى الأرض منه سير اعتبار لينظر فى ملكوت السماوات والأرض وليستنبط من آيات الله ما يدلُّ على تأكيد إيمانه بربه ، ومنه سير استثمار بأنْ يضرب فى الأرض ليبتغى من فضل الله .

وقوله ﴿مَنَاكِبِهَا (١٥) ﴾ [الملك] أى : جوانبها وأطرافها ونواحيها وطرقها وفجاجها .

ثم قال ﴿وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ (١٥) ﴾ [الملك] فنسب الرزق إلى الله وفى آيات أخرى ينسب الرزق إلى الإنسان : ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) ﴾ [الفجر]

---

(١) قال ابن عربى قال بعض علماء الشافعية : الاستعمار طلب العمارة . وقوله تعالى : ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا (٦١) ﴾ [هود] خلقكم لعمارتها . وقال الشيخ رشيد رضا فى تفسير المنار (١٢/١٠١) : جعلكم عماراً فيها من العمران فقد كانوا زراعاً وصُناعاً وبنائين . واستعمل الاستعمار فى عصرنا بمعنى استيلاء الدول القوية على بلاد المستضعفين واستعباد أهلها لمصالحهم . والمراد أنه هو المنشىء لخلقكم والممدكم بأسباب العمران » .

والحق سبحانه يُطمئن كلَّ إنسان أنَّ رزقه يعرف عنوانه ، والإنسان لا يعلم عنوان الرزق ، فالرزق يأتى لك من حيث لا تحتسب ، لكن السعى إلى الرزق شيءٌ آخر ، فقد تسعى إلى رزق ليس لك ، بل هو رزقٌ لغيرك .

فمثلاً أنت قد تزرع أرضك قمحاً فيأتى لك سفر للخارج وتترك قمحك ، ليأكله غيرك وتأكل أنت من قمح غيرك .

ورزقُ الله عطاؤه ، وقد يأتى رزقه من بعد ذلك من منطقة أخرى ، وبسبب آخر ﴿ اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (٢٦) ﴾ [الرعد]

والناس ينظرون إلى الرزق من ناحية واحدة ، فهو عندهم المال ، فهذا غنيّ وهذا فقير ، والحقيقة أن الرزق ليس المال فقط ، بل كل شيء تنتفع به فهو رزقك ، فهذا رزقه عقله ، وهذا رزقه قوته العضلية .

إذن يجب ألاَّ ننظر إلى الرزق على أنه لونٌ واحد ، بل ننظر إلى كلِّ ما خلق الله لخَلْقه من مواهب مختلفة : صحة ، قدرة ، ذكاء ، حلْم ، شجاعة ، كلّ هذا من الرزق الذى يحدث فيه التفاضل بين الناس .

والحق سبحانه هو الرازق الأعلى ومن بحره يغترف الجميع ، ولله تعالى فى رزقه حكمة وقدر ، فليس بسْط الرزق دليل كرامة ، ولا تضييقه دليل إهانة ، بدليل أنَّ الله يبسط الرزق لقارون ، ثم أخذه أَخْذ عزيز مقتدر .

والحق سبحانه يقول ﴿ يَـٰعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِى وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (٥٦) ﴾ [العنكبوت] والمعنى : إنْ ضاق رزقك فى مكان فاطلبه فى مكان آخر .

فالأرض كلُّها لله لا حدودَ فيها ولا فواصلَ بينها ، فلما قسَّمها الناس وجعلوا لها حدوداً تمنع الحركة فيها حدثتْ كثيرٌ من الإشكالات ، وصَعُبَ على الناس التنقُّل للسياحة أو لطلب الرزق إنْ ضاق بأحد رزقه .

وهاهى السودان بجوارنا بها مساحاتٌ شاسعة من الأراضى الخصبة التى إنْ زُرِعَتْ سدَّت حاجة العالم العربى كله ، أنستطيع الذهاب لزراعتها ؟ ساعتها سيقولون : جاءوا ليستعمرونا .

لذلك لما أُتيح لى التحدث فى هيئة الأمم قلت : إنه لا يمكن أنْ تُحلّ قضايا العالم الراهنة ، والحق سبحانه قد استخلفنا فى الأرض من أجل أنْ نعمرها .

فخلافة الإنسان فى الأرض تقتضى أنْ يتحرَّك ويعمر الأرض ، وحين يريد الله منَّا أنْ نتحرك ونعمر الأرض فلا بدّ من أعمال تنظم هذه الحركة ، ولا بدَّ من فنون متعددة تقوم على العمارة ، ويوزِّع اللهُ الطاقات الفاعلة لهذه الفنون المتعددة ويجعلها مواهبَ مفكرة ومُخططة فى البشر .

فكلُّ عمل يؤدى إلى عمارة الكون واستنباط أسرار الله فى الوجود يُعتبر عبادةً لله ، لأنك تُخرِج من كنوز الله التى أودعها فى الأرض ما يلفت الناسَ إلى الحقيقة التى جاء بها الإيمان ؛ فاقرأ قول الحق ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (١٠)﴾ [الرحمن] أى : الأرض كل الأرض للأنام كل الأنام ، بلا استطالة سيطرة ولا احتكار.

ثم يقول تعالى : ﴿وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥)﴾ [الملك] أى النشر ، والنشر يعنى الانطلاق فى الأرض بالحركة ، كما فى قوله تعالى : ﴿فَانْتَشِرُوا فِى الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ (١٠)﴾ [الجمعة]

والحق سبحانه قد جعل النهار نُشُوراً بعد سبات الليل ، ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا [(١)] وَالنَّوْمَ سُبَاتًا [(٢)] وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (٤٧)﴾ [الفرقان]

---

(١) لباساً : أى أن الليل ساتر بظلمته ، لأن ظلمته تغشى الأشخاص وتشتمل عليها اشتمال اللباس على لابسه . (زاد المسير لابن الجوزى ٣/٣٢٣) وقال القطان فى تفسيره (تيسير التفسير ٣/٣٩٨) : « وجعلنا الليل بظلامه ساتراً لكم كاللباس الذى يغطى الجسم ويستره » .

(٢) سباتاً : أى راحة لأبدانكم قاله ابن قتيبة . والسبات ليس بموت ، رجل مسبوت فيه روح . وليس السبات ها هنا النوم فيكون معناه : وجعلنا نومكم نوماً ولكن السبات الراحة أى جعلنا النوم راحة لأبدانكم . [تأويل مشكل القرآن ١/٥٤] .

فأنت أيُّها المتحرك فى الكون ينطبق عليك ما ينطبق على كلِّ متحرك ، لا بدَّ لك من سُكون بقدر حركتك ، ولذلك انقسم الزمان إلى ليل تسكن فيه ، وإلى نهار تتحرَّك فيه .

ويعلم سبحانه أزلاً أنه لا يمكن أنْ يكون الليل - أى وقت الراحة - سُباتاً لكل الناس ، بل لا بدَّ من أناس يقومون بأمور تقتضى اليقظة بالليل ،ولهؤلاء يقول سبحانه : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ (٢٣) ﴾ [الروم]

إنه يعطى فرصة لهؤلاء الذين تظلّ عيونهم ساهرة طوال الليل ليستريحوا بالنهار ، إذن فمن عظمة الحق أنه جعل الزمان خِلفة[1] ، فلو كان الليل سرمداً والنهار سرمداً لفسدت الحياة .

ولذلك نجد أن الحق أقسم بقوله ﴿ وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) ﴾ [الضحى] ، فالضحى محلّ الحركة والكدح ، والليل محلّ السكون ، ولا بدَّ أنْ يُوجد الاثنان معاً .

والنشور أيضاً الانتشار من القبور للبعث ، قال تعالى : ﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا (٣) ﴾ [الفرقان] أى موتاً أو حياة لغيرهم ، فهم لا يملكون شيئاً من هذا كله ، لأن من صفات الإله الحق الذى يُحيى ويُميت ، ثم ينشر الناس فى الآخرة .

فالنشور البعث للحساب ، والنشر معناه تفريق المنشور فى الحيِّز ، فهناك شيءٌ مطويٌّ وشيء آخر منشور ، والشيء المطويّ فيه تجمُّع ، والشيء المنشور فيه تفريقٌ وتوزيع .

---

(١) يقول تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً ..(٦٢) ﴾ [الفرقان] قال مجاهد : يعنى أسود وأبيض . وقال الحسن البصرى فيما رواه عبد الرزاق فى تفسيره (٢٠٩٦) أى جعل أحدهما خلفاً للآخر ، إن فات الرجل من النهار شيء أدركه من الليل ، وإن فاته من الليل أدركه من النهار » .

فحيِّز الشيء المتجمِّع ضيق ، وحيِّز الشيء المبثوث واسع ، والحق سبحانه يقول : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً (١) ﴾ [النساء]

﴿ وَبَثَّ (١) ﴾ [النساء] أى نشر ، وسنقف عند كلمة (نشر) لأن الخَلْق يجب أنْ ينتشروا فى الأرض كى يأخذوا جميعاً من خيرات الله فى الأرض جميعاً .

ولا بدَّ أنْ يُوجِّه العبد المؤمن حركة حياته إلى عمل نافع يتسع له ولمَنْ لا يقدر على الحركة فى الحياة ، والله سبحانه وتعالى حينما يطالبنا بالسعى فى الأرض لا يطالبنا أنْ يكون ذلك على قدر احتياجاتنا فقط .

بل يطالبنا أنْ يكون تحرُّكنا أكثر من حاجة حياتنا حتى يتسع هذا التحرك ليشملَ حياةَ غير القادر على حركة الحياة ، فيتسع المجتمع للجميع ويزول منه الحقد والحسد وتُصفِّى النفوس .

والله يريد أنْ تكون حركةُ حياتنا نظيفةً شريفة ، حركة كريمة ، فلا يدخل فى بطنك إلا ما عرقتَ من أجله ويأخذ كلّ إنسان حقَّه ، وقبل أنْ يفكر الإنسانُ فى أنْ يأكل عليه أنْ يتحرَّك ليأكل ، لا أنْ ينتظر ثمرة حركة الآخرين ، لماذا ؟

لأن هذا الكسل يُشيع الفوضى فى الحياة ، وحين نرى إنساناً لا يعمل ويعيش فى راحة ويأكل من عمل غيره فإنَّ هذا الإنسان يصبح مثلاً يحتذى به الآخرون، فيقنع الناسَ جميعاً بالسكون عن الحركة ويعيشون عالةً على الآخرين .

ويترتَّب على ذلك توقُّف حركة الحياة ، وهذا باطلٌ زائل وبه تنتهى ثمارُ حركة المتحرك وهنا يجوع الكلّ ، إنَّ الحقّ يريد للإنسان أنْ يتحرك ليُشبع حاجته من طعام وشراب ومأوى ، وبذلك تستمر دورة الحياة .

إنه سبحانه يريد أنْ يضمن لنا شرف الحركة فى الحياة بمعنى أنْ تكون

لك حركة فى كل شىء تنتفع به ، لأنَّ حركتك لن يقتصر نفعُها عليك ، ولكنها سلسلةٌ متدافعة من الحركات المختلفة .

وحين تشيع أنت شرف الحركة فالكلّ سيتحرك نحو هذا الشرف ، لكنَّ الباطلَ سيتحقّق بعكس ذلك ، فأنت حين تأكل من حركة الآخرين تُشيع الفوضى فى الكون .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ ﴾

والحق سبحانه يقول ﴿وَهُوَ الَّذى فِى السَّمَاءِ إِلَـٰهٌ وَفِى الْأَرْضِ إِلَـٰهٌ (٨٤)﴾ [الزخرف] ، وأمْن مكر الله سبحانه قال فيه الحق سبحانه : ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩) ﴾ [الأعراف] وأمْن مكر الله كبيرةٌ من الكبائر .

يقول تعالى : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى[١] أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩) ﴾ [الأعراف]

فما الذى جعلهم يأمنون على أنفسهم أنْ تنزل بهم أهوالٌ كالتى نزلت بمَنْ سبقهم من الأمم ، فلا تأمن يا صاحب النهار أنْ يأتى البأس ليلاً أو نهاراً ، وأنت يا صاحب الليل لا تأمن أنْ يكون البأسُ نهاراً أو ليلاً .

والأمن هو الاطمئنان إلى قضية لا تثير مخاوفَ ولا متاعب ، ويُقال : فلان

(١) قال أبو بكر بن الأنبارى : القرية معناها فى كلام العرب : الموضع الذى يجتمع الناس فيه . يقال : قد قريت الماء فى الحوض إذا جمعته فيه . ويقال لمكة : أم القرى لأنها أصل القرى . [الزاهر فى معانى كلمات الناس ٢/١٠٠] والقرية : المصر الجامع .

آمن ، أى لا يوجد ما يُكدِّر حياته .

والحق سبحانه يقول : ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ (٩٩) ﴾ [الأعراف] ونحن نسمع بعض الكلمات حين ينسبها الله لنفسه نستعظمها ونقول : هل يمكر ربنا ؟ لأننا ننظر إلى المكر كعملية لا تليق . وهنا نقول : انتبه إلى أن القرآن قد قال ﴿ وَلَا يَحِيقُ[1] الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ (٤٣) ﴾ [فاطر]

إذن فهناك مكر خير ، ويقول تعالى : ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩) ﴾ [الأعراف] ، وجاء فى منهج الرسل جميعاً أن الذى يأمن مكر الله هو الخاسر .

مكْر الله سبحانه إذن أقوى من أى مكر بشرى ، فمكر البشر قد يُهدم من بعض الماكرين أو من التجسس عليهم ، لكن إذا كاد الله لهم أيعلمون من كيده شيئاً ؟ طبعاً لا يعلمون .

وفى سورة الإسراء يقول تعالى : ﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا[2] ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا (٦٨) ﴾ [الإسراء] وقال : ﴿ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا[3] مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (٦٩) ﴾ [الإسراء]

فلا تظنوا أن البَرَّ أمان لا خطر فيه ، لا بل خطرى موجود غير بعيد منكم

---

(١) يحيق : حاق به البلاء أحاط به [الصحاح للجوهرى – مادة حيق] . ويحيق أيضاً : نزل . قال ابن فارس فى معجم مقاييس اللغة : هو نزول الشيء بالشيء .. وقال العسكرى فى الفروق اللغوية (١/٣٠٤) : لا يقال حاق إلا فى نزول المكروه فقط .

(٢) الحاصب : ريح تحمل التراب والحصباء وهو الحصى الصغار . [تهذيب اللغة ٤/١٥٣] وقال الرازى أبو عبد الله فى مختار الصحاح (مادة حصب) : الحاصب الريح الشديدة تثير الحصباء .

(٣) قاصفاً من الريح : أى عاصفاً من الريح وهى الشدة . والقاصف : الريح الشديدة [تفسير يحى بن سلام] قال أبو عبيدة معمر بن المثنى فى مجاز القرآن (١/٣٨٥) أى تقصف كل شيء أى تحطم كل شيء لا تبقى لهم ثاغية ولا راغية .

سواء أكنتم فى البحر أو فى البر .

والخسْف هو تغييب الأرض ما على ظهرها ، فانخسف الشيء أى غاب فى باطن الأرض ومنه خسوف القمر أى غياب ضوئه . ومن ذلك أيضاً قوله تعالى عن قارون : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ (٨١) ﴾ [القصص]

وهذا نوع من العذاب الذى جاء على صور متعددة كما ذكرها القرآن الكريم: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ (٤٠) ﴾ [العنكبوت]

فالخسف أنْ تنشقّ الأرض فتبتلع ما عليها ، كالذى يقول : يا أرض انشقى وابلعينى . والخسف كان حدث مع قارون فكان خسفاً به وبداره التى فيها كنوزه وخزائنه وما يملك .

فهل يأمن أحد أنْ يخسف الله بهم الأرض فإذا هى تمور ، يعنى فإذا هى تدور بكم إلى الأرض السفلى ، ومَوْرُها تحرّكها فتفور بهم الأرض فالله يحرك الأرض عند الخسف بهم حتى تضطرب وتتحرك فتعلو عليهم وهم يخسفون فيها، والأرض تمور فوقهم فتقلبهم إلى أسفل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ ﴾

عذاب البشر للبشر على قدر البشر ، لكن عذاب الله يتناسب مع قدرة الله فهل لنا طاقة بهذا العذاب والعياذ بالله ؟ ليس لنا طاقة به ، والعذاب يأتى بغتة مرة ويأتى جهرة مرة أخرى .

إنـه يأتي بغتة حتى يكون الإنسـانُ متوقِّعاً له فـي أيِّ لحظة ، ويأتي جهرة حتى يرعب الإنسان ويخيفه قبل أنْ يقع ، يقول تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ (٤٧) ﴾ [الأنعام]

والحق سبحانه يقول ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٥) ﴾ [البقرة] فالموت إنْ جاءهم بغتة فقد لا يشعرون بهوله إلا لحظة وقوعه ، ولكن حينما يأتيهم الموت وهم ينظرون فهم يرونه وهم في فزع ورعب .

فهل أنتم تأمنون عذاب الله ، فاجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية لأنكم لستم بقادريـن على تحمُّل عذاب الله ، والعـذاب يأتي بغتة عقاباً ويأتي جهرة حتى لا يقولـنّ أحـد : لولا مجيء العذاب بغتة لكان قد احتاط لذلـك الأمر ، ويأتيهم العذاب وهم مُبلسون . أي يائسون لا منجى ولا منقذ ولا خلاص لهم.

ولكن ما السبب في تلوين العذاب بين « بغتة » و (جهرة) البغتة تثبت لمن يعبـد غير الله أنـه مخدوع في عبادته لغير الله ، لأنه لو كان يعبد إلهاً حقاً لما قَبِل هذا الإله أنْ يُعذّب أتباعه من حيث لا يشعر .

إذن : فالبغتـة تُثبـت عجز المعبودين من أصـنام وغيرهـا، فقد عجزتْ تلك الأصنام أنْ تحتاط للعابدين لها .

وقـد يقـول قائل منهم : لقد جاءنـا العذاب فجأة ، لكن لو جـاء لنا مواجهة لكُنَّـا قادرين على مواجهته والوقوف أمامه ، فيأتي الله أيضـاً بالعذاب جهرةً فلا يستطيعون مواجهته فتنقطع حُجتهم ، وعلى الرغم من ذلك تموت في قلوب هؤلاء المعاندين القدرةُ على إبصار ضرورة الإيمان .

ولا أحدَ بقادر على أنْ يردَّ عذابَ الله ، يقول تعالى : ﴿ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦) ﴾ [هود] ، فعذابُ الله إذا جاء لا يُردّ .

فالله يُذكّر هؤلاء الظالمين بأنَّ عذابَ الله حين يجيء لا يمكن أن يقوم أمامه

قائمٌ يمنعه ، فتنبَّهوا جيداً إلى أنكم عُرْضة أنْ يُنزل الله تعالى بكم العذاب ، فمَنْ يدفع عذابَ الله إنْ حلَّ ؟

وباستقراء تاريخ الأمم السابقة نلاحظ ما حاقَ بهم من سنة إهلاك الظالمين ، فقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط نزل بهم عذاب الله الذى لا يُردّ عن القوم الكافرين ، ولكنه كان عذابَ استئصال .

يقول الحق سبحانه عن عذاب هؤلاء : ﴿ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) ﴾ [العنكبوت]

فالله عزَّ وجلَّ هو الذى كان يتولّى التأديب ، فالله لم يطلب من أيِّ رسول أن يحارب فى سبيل العقيدة ، فعيسى عليه السلام لم يجئ ليقاتل بالسيف ليحمى العقيدة إنما جاء واعظاً ليدلّ الناس على العقيدة .

ولكن أمة محمد ﷺ هى التى أَذن الله لها أنْ تحمل السيف لتؤدب به الذين يحولون دون بلوغ العقيدة الصحيحة للناس ، والسيف لم يأتِ ليفرض العقيدة إنما ليحمى الاختيار فى النفس الإيمانية .

فبدلاً من أنْ يترك الناسَ مقهورين على اعتناق عقيدة خاطئة ، فالمسلمون يرفعون السيف فى وجه الظالم القاهر لعباد الله ، وعباد الله لهم أنْ يختاروا عقيدتهم .

وهذه الأنواع من العذابات نزلتْ بالمكذِّبين من قوم عاد وثمود ومدين وقوم لوط وقارون وفرعون وهامان ، فهم مشتركون فى التكذيب لكنهم مختلفون فى العذاب الواقع بكلٍّ منهم .

وأول أنواع هذه العذابات المذكورة فى سورة العنكبوت ، وهنا فى سورة الملْك هو إرسال الحاصب على القوم المكذِّبين المعذَّبين ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا (٤٠) ﴾ [العنكبوت]

وهنا يقول سبحانه : ﴿ أَمْ أَمِنْتُم مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا (١٧) ﴾ [الملك] ، والحاصب هو الريح التى تهبُّ محمَّلة بالحصى .

ويقول تعالى أيضاً ﴿ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ[1] أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا (٦٨) ﴾ [الإسراء]

أى يرسل عليكم ريحاً تحمل الحصباء وترجمكم بها رجماً ، والحصباء الحصى الصِّغار وهى لونٌ من ألوان العذاب الذى لا يُدفع ولا يُردّ ، لذلك قال بعدها : ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا (٦٨) ﴾ [الإسراء]

أى : لا تجدوا مَنْ ينصركم أو يدفع عنكم : فلا تأمنوا سواء كنتم فى بحر أو فى بَرٍّ .

فالحاصب هو الحصى الصِّغار ترمى لا لتجرح ولكن يُحمى عليها لتكوى وتلسع حين يرميهم بها الريح ، ولم يقُلْ هنا : أن يرسل عليكم ناراً ، مثلاً لأن النار ربما إنْ أحرقتْه يموت وينقطع ألمه ، لكن رميهم بالحجارة المحمية تلسعهم وتُديم آلامهم ، كما نسمعهم يقولون : سأحرقه لكن على نار هادئة ذلك ليطيل أمد إيلامه .

وأصل الحاصب الريح تحصب بالحصباء وهى صغار الحصى ، وإنما وُصفت الريح بأنها تحصب لرميها الناس بذلك ، فالحاصب الريح العاصف التى فيها الحصى الصِّغار .

والمتأمل لقوله تعالى : ﴿ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ (١٧) ﴾ [الملك] يجد أن الله سبحانه قال : ﴿ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ (١٧) ﴾ [الملك] كأنها مُسلَّطة عليهم كل فرد منهم بذاته .

---

(١) جانب البر : ناحية من البر . [قاله مقاتل بن سليمان ٢/ ٤٩٩] فيخسف الله جانب البر الذى هو مأمنكم أى أن يغيبه الله تعالى ، جانبه الذى هم فيه استلزم خسفه هلاكهم . [تفسير الألوسى ٨/ ١٦٠] .

ومثله قوله تعالى : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ[1] مِّن نَّارٍ (٣٥) ﴾ [الرحمن]

ويقول تعالى أيضاً : ﴿ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (٦٩) ﴾ [الإسراء]

وهى مرسلة من فوقهم ، وقد كان عذاب قوم لوط أن قُذِفوا بحجارة من السماء كتلك الحجارة التى ألقتْها الطيرُ الأبابيل بحجارة من سجِّيل طين مُتحجِّر على مَنْ أراد سوءاً ببيت الله الحرام .

وقد يسأل سائل : الحق سبحانه هنا ذكر الخسف بالأرض أولاً ، ثم جاء ذكر ما يأتى من السماء ، فقال تعالى : ﴿ أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦) ﴾ [الملك]

ثم قال : ﴿ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا (١٧) ﴾ [الملك] ولكن الحق سبحانه قال فى موضع آخر : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ (٦٥) ﴾[الأنعام] ثم ﴿ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ (٦٥) ﴾ [الأنعام]

وهذا من عجيب نَظْم القرآن الذي وضع اللفظ الصحيح فى مكانه ، فسورة الملك ساقتْ أولاً ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥) ﴾ [الملك]

فملاءمة السياق هنا تقتضى التذكير بأن الله قادرٌ على خَسْف الأرض منْ تحتهم ، أما فى سورة الأنعام فالله قال : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً .. (٦١) ﴾ [الأنعام] فناسب أنْ يذكر ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ (٦٥) ﴾ [الأنعام] ، فبدأ بالعذاب الآتى من فوقهم لا من

(١) شواظ : يعنى لهب من نار ليس له دخان . وقال الطبرى : الشواظ هو اللهب الأخضر المتقطع من النار.

الأرض أو عليها .

﴿ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (١٧) ﴾ [الملك] أى : فستعلمون يا أهل مكة عند نزول العذاب كيف نذير ، فستعلمون كيف عاقبة نذيرى لكم و ﴿ نَذِيرِ (١٧) ﴾ [الملك] هنا أى إنذارى لكم .

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا[1] فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (١٩) تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٢١) ﴾ [القمر]

و (النُّذر) جمع نذير . والنذر تأتي قبل العذاب ، فالله لا يعذب أحداً إلاَّ بعد أنْ ينذره ، و الواو هنا فى ﴿ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٨) ﴾[القمر] لا تقتضى الترتيب فى الحدث ، إنما تفيد الجمع بين الحدثين فقط .

وإرسال الرسل هو إيصال لإنذار الله للمكذبين أنهم سيتعرضون لعذاب الله إنْ كذَّبوا ويقوا مكذِّبين لله ولرسله وغير مؤمنين بالكتب ، وقال تعالى :﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥) ﴾ [الإسراء]

فالله رحم الخَلْق بإرسال الرسل ليُبيِّنوا للإنسان الطريق الصحيح من الطريق المعوج ، فلا عقوبةَ إلا بتجريم ، ولا تجريمَ إلا بنص ، ولا نصَّ إلا بإبلاغ ، وقد أبلغتكم الرسل وسبق إليكم الإنذار .

وعن أبى أمامة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « يبيتُ من هذه الأمة قوم على أَكْل وشُرْب ولهو ولعب ، فيصبحون قد مُسخوا قردةً وخنازير وليُصيبنَّهم خَسْف وقذف حتى يصبح الناس . فيقولون : خسف الليلة ببنى فلان ، وخُسِف

---

(١) ريحاً صرصراً : أى ريحاً باردةً شديدة . وعن مجاهد : شديدة السَّموم عليهم . وقال السدى : باردة ذات الصوت . فالصرر صوت الريح إذا هبَّت بشدة . [الطبرى فى تفسيره ٢١/٤٤٥] .

الليلة بدار فلان .

وليرسلنَّ عليهم حاصبَ حجارة من السماء كما أُرسلت على قوم لوط على قبائل منها وعلى دُور .

وليُرسلنَّ عليهم الريح العقيم التى أهلكتْ قوم عاد على قبائل منها وعلى دور بشُربْهم الخمر ولُبْسهم الحرير واتخاذهم القَيْنات وأكلهم الربا وقطيعتهم الرحم »[١] .

فلا تفعلوا ما يُغضب الله حتى لا يصيبكم عذاب مَنْ قبلكم من الأمم ، واجعلوا بينكم وبين النار وغضب الله وقاية ، فالحرام لا يأتى منه خير مُطلقاً ، بل ينقلب على صاحبه شراً ووبالاً ونقمة ، فإنْ كان طعامُكَ حراماً ولبسك حراماً ، فإنَّ هذا يدخل فى تكوين خلاياك ويصبح الحرام فى جسدك ، فإذا دخل الحرام إلى الجسد يميل فعلُك إلى الحرام ، وتصبح طباعك قريبةً إلى طباع القردة والخنازير.

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (١٨) ﴾

فليسوا هم أول مَنْ كذَّب ، بل هو دأب الذين من قبل ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ[٢] الْمُرْسَلِينَ (٨٠) ﴾ [الحجر] وأصحاب الحجر هم قوم صالح .

وهؤلاء مثل آل فرعون ، قال تعالى : ﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١١) ﴾ [آل عمران]

---

(١) أخرجه أبو داود الطيالسى فى مسنده (١٢٣٣) . والقينات جمع قينة وهى المغنية .

(٢) أصحاب الحجر : أصحاب الوادى . وهم ثمود قوم صالح . وهم قوم من العرب العاربة ، سكنوا الحجر بين الحجاز وتبوك ، وهو وادٍ بين المدينة والشام .

فكان دأب آل فرعون هو التكذيب والطغيان ، ولأن التكذيب أصبح دأبهم وعادتهم وديدنهم ، أوقع الله عليهم العذاب ويجازيهم على ذلك بتعذيبهم .

والتكذيب هو تأبٍّ من المكذِّب ، وهو إنكار لقول أو فعل ، والتكذيب هو الوقوف إيجابياً في موقف الضدِّ والصَّدِّ عن سبيل الله ، والتكذيب كان سبباً أيضاً في إغراق الذين كذَّبوا من قوم نوح عليه السلام .

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (٦٤) ﴾ [الأعراف]

وكان هذا أول حدث عقابيٍّ في تاريخ الديانات ، لأن رسالة نوح عليه السلام هي أول رسالة تعرضت إلى مثل هذا التكذيب ومثل هذا العناد ، والتكذيب بآيات الله تعالى يعني إخراج الصدق إلى الكذب وإخراج الواقع إلى غير الواقع .

والذين كذَّبوا بالآيات إما أنهم لا يؤمنون بإله أو يؤمنون بإله ولا يؤمنون برسول ، أو يؤمنون بإله ، ويؤمنون برسول ولا يؤمنون بما أنزل على الرسول ﷺ .

وهذا التكذيب ظاهرة عاني منها كلّ الرسل السابقين لك لأنهم يجيئون بما ينكره المرسل إليهم أولاً فلا بدّ أنْ يكذِّبوا ، والحق سبحانه يقول : ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) ﴾ [الحج]

فإنْ يكذِّبوك في دعوتك فيواجهونك ويقفون في سبيل دعوتك ليُبطلوها فاعلم أنك لسْت في ذلك بدعاً من الرسل ، فقد كُذِّب كثير من الرسل قبلك ، ومسألة التكذيب منفصلة عن عاقبته .

نعم كذّب القوم ، ولكن أتركناهم أم أخذناهم أخْذ عزيز مقتدر ، سوف يحلّ بهم ما حَلَّ بسابقيهم من المكذبين والمعاندين ، ولذلك قال تعالى : ﴿ وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ (١٨) ﴾ [العنكبوت]

فعليكم أنْ تنتبهوا إلى ما صُنع بالأمم المكذّبة وكيف كانت عاقبتهم ، فاحذروا أنْ يُصيبكم ما أصابهم ، والحق سبحانه يوضح : إنْ كانوا قد كذّبوك فلا تحزن فقد كذبوا من قبلك رسلاً كثيرين .

وكأنَّ الله يقول لرسوله ﷺ : يا محمد لسْتَ بدعاً من الرسل فإنْ وقف منك قومك موقفَ العناد والتكذيب ، فكُنْ على يقين وعلى ثقة من نصر الله لك .

﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (١٨) ﴾ [الملك] فالحقُّ سبحانه يُلقى الخبر فى صورة استفهام لتقول أنت ما حدث وتشهد به . والمراد : أعاقبناهم بما يستحقون ؟

والنكير هو الإنكار على شخص بتغيير حاله من نعمة إلى نقمة ، كالذى يُكرمك ويُواسيك ويبشّ فى وجهك ويُغدق عليك ، ثم يقطع عنك هذا كله ، فتقول: لماذا تنكَّر لى فلان ؟ يعنى : قطع عنى نعمته .

﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (١٨) ﴾ [الملك] أى : فكيف كان إنكارى لموقفهم من عدم أداء حقوق النعمة فبدَّلها الله عليهم نقمة .

ثم يقول تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾

فالله تعالى يلفت نظر هؤلاء المكذبين لله ورسوله ولكتابه إلى السماء ، ولكن الحق سبحانه يسوق الأمر فى هيئة استفهام ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا (١٩) ﴾ [الملك] ، وهذا تأكيد أنهم فعلاً رأوا ، فلماذا يكفرون ويكذِّبون إذن ؟!

ومثل هذا قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢)﴾ [يس]

وفي آية أخرى يقول تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١)﴾ [الرعد]

ويذكّرهم الحق سبحانه بأمر يعيشونه في حياتهم ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا (٦٧)﴾ [العنكبوت]

ويذكر الحق سبحانه عاداً فيقول تعالى : ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً (١٥)﴾ [فصلت]

و(يروا) هنا بمعنى (يعلموا) ولم يقُلْ الحق سبحانه ذلك لأن العلم قد يكون علماً بغيب ، ولكن (يروا) تعني أنهم قد علموا ماجاء بالآية على مشهد ورؤية واضحة ، وليس مع العين أين .

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا (١٩)﴾ [الملك] أي أعمُوا ولم يروا ولم يتدبروا فيما خلق الله ، ومما خلق الله الماء الذي يسوقه إلى الأرض الجرز[1] الخالية من كل شيء الجرداء ، يقول تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧)﴾ [السجدة]

وهنا يلفت الحق سبحانه إلى الطير السابح في السماء ؛ يقول تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ (١٩)﴾ [الملك]

فالطير يطير في السماء بحركة الجناحين التي تدفع الهواء وتقاوم الجاذبية فلا يسقط ، كالسبع الذي يدفع بذراعيه الماء ليسبح ، فإذا ما قبض الطائرُ جناحيه ومع ذلك يظل مُعلَّقاً في السماء لا يسقط ، فمَنْ يُمسكه في هذه الحالة؟

---

(١) الأرض الجُرُز التي لا تُمطر إلا مطراً لا يغني عنها شيئاً إلا ما يأتيها من السيول . [تفسير مجاهد]
وقال مقاتل بن سليمان في تفسيره (٣/٤٥٣) : يعني الملساء ليس فيها نبت فنخرج به بالماء زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم .

هذه صورة تشاهدونها لا يشك فيها أحد، وهذه الطير تسبِّح الله سبحانه، يقول تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ (٤١) ﴾ [النور]

ونحن نرى الطير فى جو السماء ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩) ﴾ [النحل] وهى ليست رفرفة أجنحة، فنحن نرى الطائر يُثبِّت أجنحته فى الهواء، ومع ذلك لا يقع إلى الأرض.

فهناك إذن ما يمسكه من الوقوع، لذلك قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ (١٩) ﴾ [الملك] أى أنها فى حالة بسط الأجنحة وفى حالة قبْضها تظلّ معلَّقة لا تسقط، وكذلك نجد من الطيور ما له أجنحة طويلة، لكنه لا يطير مثل الأوز وغيره من الطيور.

إذن ليست المسألة مسألة أجنحة، بل هى آية من آيات الله تمسك هذا الطير في جوِّ السماء، فتراه حراً طليقاً لا يجذبه شىء إلى الأرض، ولا يجذبه شىءٌ إلى السماء، بل هو حُرّ يرتفع إنْ أراد الارتفاع وينزل إنْ أراد النزول.

والله يريد أنْ يجعل الطير مثلاً ونموذجاً لشىء أعظم، فالطير كائنٌ له وزن وثقل يخضع لقانون الجاذبية التي تجذب للأرض كل ثقل يُعلَّق فى الهواء.

لكن الحق سبحانه يخرق هذا القانون للطير حين يصُفُّ أجنحته في الهواء يظل مُعلَّقاً لا يسقط ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ (١٩) ﴾ [الملك]

فترى الطير في السماء مَادًّا جناحيه ثابتاً بدون حركة، ومع ذلك لا يقع علىالأرض ولا يُمسكه فى جَوِّ السماء إذن إلا قدرة الله.

وكأنَّ الخالق يقول : خُذوا من الطير المشاهد نموذجاً ووسيلة إيضاح ، فإذا قلت لكم ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ (٦٥) ﴾ [الحج]

فصدِّقوا وآمنوا أنَّ الله يمسك السماء ، بل ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ (٤١) ﴾[فاطر] فخُذْ من المشهد الذى تدركه دليلاً على ما لا تدركه .

والحق سبحانه وتعالى ، يُطمئننا فيقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤١) ﴾ [فاطر]

فالحقُّ سبحانه وتعالى وحده الذى يحفظ السماوات والأرض فى توازن عجيب ومذهل ، ولئن قدِّر لهما أنْ تزولا فلن يحفظهما أحدٌ بعد الله ، أي لا يستطيع أحدٌ إمساكهما ، فهما قائمتان بقدرة الواحد القهار ، وإذا أراد الله أنْ تزولا فلا يستطيع أحدٌ أنْ يمسكهما ويمنعهما من الزوال .

وقد أوجد الحق سبحانه قوانين الجاذبية لتمارس السماوات والأرض أعمالهما ويحفظهما بقدرته من الزوال وجعل من الجاذبية نظاماً بديعاً يحفظ الكون من الاختلال .

فالأمر قائم على قدرة الله دون وجود عَمَد تحمل السماء ، فالسماء مرفوعة فوقنا بلا عمد ، لا يُمسكها فوقنا إلا الله بقدرته وقيوميته أنْ تقع على الأرض إلا بإذنه تعالى .

والله عز وجل يقول : ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧) ﴾ [المؤمنون] فلن نغفل عن السماء من فوقكم وسوف نمسكها ، وإمساك الطير في جَوِّ السماء دليل حِسِّي على إمساك الله للسماء أنْ تقع على الأرض .

وقد أوجد الحق قوانين الجاذبية لتمارس السماوات والأرض أعمالهما ويحفظهما بقدرته من الزوال ، وجعل من الجاذبية نظاماً بعيداً يحفظ الكون من الاختلال ، فالجاذبية كانت موجودة ولم يعرفها الإنسان إلا مؤخراً .

والحق سبحانه استحقَّ بهذا بإمساكه السماوات والأرض وبإمساكه الطير في جوِّ السماء استحقَّ الله بهذا وَصْف الرحمن ، قال تعالى : ﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَـٰنُ (١٩) ﴾ [الملك]

وكلمة (الرحمن) من صيغ المبالغة ، فإذا قيل رحمن تكون مبالغة فى الصفة ، وكذا إذا قيل رحيم تكون مبالغة في الصفة ، والله سبحانه رحمن الدنيا ورحيم الآخرة .

واسم (الرحمن) يفيد أن رحمته سبحانه تعُم الخَلْق جميعاً ، والرحمن ينعم بالنعم كلها ، والرحمة صفة التحنين للخَلْق ، ولم يقُلْ الحق سبحانه : ما يمسكهن إلا الجبار أو القهار رغم أنَّ إمساك السماء أنْ تقع على الأرض وإمساك الطير في جَوِّ السماء يقتضى اسم الجبار في ظاهر الأمر ، فهو يحفظ السماء بجبروته وقهره .

فأسماء الجبار والقهار من خدم الرحمة ومن أسبابها ، فالله يرحم عباده حتى بصفات القهر والانتقام ، والله أرحم الراحمين ورحمته وسعتْ كل شيء ومسائل الخَلْق كلها تدور في إطار الرحمانية .

فالله سبحانه وتعالى للمؤمن والكافر ، فهو الذي استدعاهم جميعاً إلى الوجود ، ولذلك فإنه يعطيهم من النعم برحمته وليس بما يستحقون ، فالشمس تشرق على المؤمن والكافر ، ولا تحجب أشعتها عن الكافر وتعطيها للمؤمن فقط ، والمطر ينزل على مَنْ يعبدون الله ومَنْ يعبدون أوثاناً من دون الله ، والهواء يتنفسه من قال لا إله إلا الله ومَنْ لم يقُلها .

وكل النعم التى هى من عطاء الربوبية لله هى فى الدنيا لخَلْقه جميعاً وهذه رحمة ، فالله ربُّ الجميع مَنْ أطاعه ومَنْ عصاه وهذه رحمة ، والله قابلٌ للتوبة وهذه رحمة .

﴿ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (١٩) ﴾ [الملك] فلا تعتقدوا أنَّ هناك شيئاً يخفى على الله، أو أنّ أحداً يستطيع أنْ يخدع الله ، فالله سبحانه وتعالى بصيرٌ بكلِّ شيء، ليس بالظاهر منك فقط ، ولكن بما تُخفيه فى نفسك ولا تُطلع عليه أحداً من خَلْق الله .

فالله يعلم ويرى كلَّ ما تصنعون ، وأنتم تحت سمعى وبصرى وكلاءتى ، حتى أن الله عز وجل عندما ذكر نوحاً عليه السلام قال : ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٣٧) ﴾ [هود]

ومعنى ﴿ بِأَعْيُنِنَا (٣٧) ﴾ [هود] أى : بحفظنا ورعايتنا ، وكلمة (بأعيننا) تفيد شمول الحفظ وكمال الرعاية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ (٢٠) ﴾

كلمة (جند) مفردة لكنها تدل على جماعة ، وأصل الكلمة من (جند) وهى الأرض الغليظة الصلبة القوية ، ونظراً لأن الجنود المفروض فيهم الغلظة والقوة فقد أُطلق عليهم لفظ (جند) .

ويرغم أن كلمة (جند) مفرد إلا أنها تدلّ على القوم مثل (رهط) و (طائفة) ويُسمُّونها اسم جمع .

فمَنْ هذا الذى هو جند لكم أيهـا الكافرون به ينصركم من دون الرحمن إنْ أراد بكم سوءاً فيدفع عنكم ما أراد بكم من ذلك ، فقوله ﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِى (٢٠) ﴾ [الملك] هو استفهام بمعنى التوبيخ والإنكار .

فأى هذه الأصنام والأوثان تمنعكم من عذاب الله وتدفعه عنكم ، نحو قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ[1] (٤٣) ﴾ [الأنبياء]

فهذه الآلهة لا تستطيع نصر أنفسها فكيف ينصرونكم ويمنعونكم من عذاب الله إنْ وقع بكم ؟ وقوله ﴿ وَلا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ (٤٣) ﴾ [الأنبياء] ، فالمراد يصحبه كى يحميه بهذه الصحبة وينجو من العذاب ، فهؤلاء لن نكون فى صحبتهم لنُنجيهم ، ولا أحدَ يستطيع أنْ يصحبهم لينجيهم من عذابنا ، لا هذه ولا تلك .

فقوله ﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِى (٢٠) ﴾ [الملك] خطاب للكافرين على وجه التوبيخ والتهديد وإقامة الحجة عليهم ، فلا جندَ لكم ينصركم ويمنعكم منى إنْ أردتُ عذابكم ، فليس لكم من دون الله من ولى ولا واقٍ ولا ناصرَ لكم غيره .

فلن تجدوا مَنْ ينصركم أو يدفع عنكم ، ولا أملَ لكم فى ناصر ينصركم أو مدافع يحميكم ، فعندما تقعون فى عداء مع منهج الله ؛ يتخلى الله عنكم ولا ينصركم أحد ؛ لأنه لا ولى ولا ناصر إلا الله تعالى .

والحق سبحانه يقول ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا[2] مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٥) ﴾ [العنكبوت]

---

(١) ولا هم منا يُصحبون : أى لا يُجارون ولا ينقذهم صاحب لهم من عذابنا . [القاموس القويم للقرآن الكريم ١/٣٦٩] وقال ابن منظور فى لسان العرب مادة : صحب . يصحب : يمنع ويحفظ ، وهو من قوله تعالى : ﴿ وَلا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ (٤٣) ﴾ [الأنبياء] أى يمنعون . وتقول : صحبك الله أى حفظك.

(٢) الأوثان : الأصنام . مفرده وثن . وأصل الكلمة من وثن بالمكان أى أقام به وثبت فيه فهو أثن أى مقيم ثابت . [القاموس القويم ٢/٣٢٠] .

فلا ناصرَ لكم من أوليائكم الذين عبدتموهم من دون الله حيث يطلبون النصرة من أحجار وأصنام لا تنطق ولا تجيب.

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٥٦) ﴾ [آل عمران] ، فليس لأحد من هؤلاء من ناصر لأن الذى يهزمه الله ويعذبه لا ناصر له.

فلن يجد الظالم مَنْ يدرأ عنه هذا العذاب لأنه لن يجد ناصراً له ولن يجد شفيعاً فلن يأتى أحد ويقول : إن فلاناً يتعذب فهيا بنا ننصره ، لن يأتى أحدٌ لينصره ، ولن يجد ناصراً أو معيناً يخلِّصهم من العذاب.

وفى سورة الصافات يقول تعالى : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) ﴾ [الصافات] أين الفتوات الأقوياء ينصرونكم ؟

وهذا الاستفهام على سبيل السخرية والتهكم . يعنى : مالكم الآن لا ينصر بعضكم بعضاً وكنتم تناصرون فى الدنيا ، الأتباع ينصرون السادة ، والسادة يُجنِّدون الأتباع ويدعمونهم ويحفزونهم.

ولأن لا أحدَ سينصرهم أو يعينهم تجدهم مستسلمين خاضعين مُنقادين أذلاء مُهانين ، أى رفع الراية البيضاء ، فلم يعد لديه شيءٌ من القوة يدافع بها عن نفسه ولا حجةَ ولا منطق ، إنه الآن ينتظر أمر الله فيه فى ذلّة وصَغار.

والحق سبحانه يقول هنا (ينصركم) ، فالنصير هو الذى ينصرك بالقوة والفتونة فمَنْ هذا الذى يستطيع أنْ يدفع عنكم الله من الأنصار والأعوان ؟ فمَنْ ينصركم منى إنْ أردت عذابكم ؟ فلا جندَ لهم ولا أعوان .

والحق سبحانه لم يقُلْ : أمَن ذا الذى ؟ بل قال تعالى : ﴿ أَمَّنْ هَـٰذَا الَّذِى (٢٠) ﴾ [الملك] فاستخدم سبحانه هاء التنبيه فى (هذا) ، فالمقام مقام ترهيب وإنذار

وتخويف وتحذير، فجاء بـ (ها) التنبيه زيادةً في التحذير والتنبيه وهو ما يقتضيه المقام .

والنُّصرة تأتي على معنيين، تأتي بمعنى أنه لا يغلب، وتأتي بمعنى أنَّ هناك قوة تنتصر له أي تنصره، ولكن هؤلاء لا ناصر لهم من أوليائهم الذين عبدوهم من دون الله حيث يطلبون النصرة من أحجار وأصنام لا تنطق ولا تجيب .

﴿ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٥١) ﴾ [الأنعام] والولي هو الذي ينصرك إنْ كنتَ في مأزق، ومأزق الآخرة كبير، فماذا عن الإنسان الذي ليس له ولاية ؟ إنه العذاب الحق .

وقوله سبحانه : ﴿ وَلَا شَفِيعٌ (٥١) ﴾ [الأنعام] أي ليس له من يشفع عند مَنْ يملك النصرة وهو الله، فالذي يحبك إنْ لم ينصرك بذاته فإنه قد يشفع لك عند مَنْ يستطيع أنْ ينصرك، وهذا أيضاً لا يوجد لمن لم يتعظ ويتذكر ولم يتبع المنهج الإيماني .

وقوله تعالى : ﴿ مِنْ دُونِ الرَّحْمَٰنِ (٢٠) ﴾ [الملك] يذكر صفة الرحمة والرحمانية لله عز وجل فيذكر اسم الرحمن، ولم يقُلْ تعالى : من دون الله . فالحق سبحانه يذكِّر عباده برحمانية الله، وأنه إنْ كان قد تخلى عنكم المناصرون والمؤيدون إلاَّ أنَّ الله عز وجل برحمانيته سينصركم إنْ آمنتم بالله .

فالله عز وجل إنما يريد أنْ يؤمن عباده لا أنْ يكفروا، يقول تعالى ﴿ مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (١٤٧) ﴾ [النساء]

ثم يقول تعالى : ﴿ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (٢٠) ﴾ [الملك] فغرور الدنيا قد يركب بعض الناس فيظنون أنهم في مَنعَة من الله، وأنهم لن يلاقوه .

وهناك (غُرور) بضم الغين، و(غَرور) بفتح الغين، فالغرور بضم الغين هو

الشـيء يُصوِّر لك على أنه حقيقة وهـو في الواقع وهم ، أما الغرور بفتح الغين فهـو مَـنْ يفعل هذه العمليـة . ولذلك فالغَرور هو الشيطان لأنـه يزين للإنسان الأمـر الوهمي ويؤثر مثلما يؤثر السـراب ، فالإنسان حين يرى انكسار الأشعة يُخيَّـل إليه أنه يرى ماء ، ويقول الحق عن ذلك ﴿ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا (٣٩) ﴾ [النور]

وكذلـك الغـرور حيث يزين الشيطـان شيئاً للإنسان ويُوهمـه أنه سيستمتع بـه ، فـإذا ما ذهب الإنسـان إليه فلن يجد له حقيقة ، بـل العكس . فالغرور هو الإطمـاع فيمـا لا يصـح ولا يحصل ، فعندمـا تقول لواحد والعيـاذ بالله (أنت مغرور) فأنت تقصد أنه يسلك سبيلاً لا يوصله إلى الهدف المنشود .

والحق سبحانه يقول : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ الْغَرُورُ (٥) ﴾ [فاطر]

ويقول تعالى : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (٢٠) ﴾ [الحديد]

ويُقـال عن الرجل الذي ليس له تجربة : إنه غِرٌّ ، فيأتي بأشياء بدون تجربة فـلا ينتفـع منها ولا تصح ، لذلك سمَّـى الله الشيطان (الغـرور) ، لأنه نُطمعنا نحن البشر بأشياء متوهَّمة لن تحدث .

فالغـرور يجعـل العمر كله يضيـع ، لأن الإنسانَ لم يتبـع المنهج الحق ، بل يمتـد الضيـاع والعـذاب إلى العمر الثاني وهو الحياة في الآخرة ، يقول الحق : ﴿ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) ﴾ [آل عمران]

والكافـر مـن هؤلاء يتملَّكـه الغرور وهـو يتقلَّب في النعمة التـي وهبه الله

إياهــا فيأتيه عذابُ الله بغتةً ، لأنه استجاب لوعود الشيطـان ، ووعودُ الشيطان ليسْ إلا غروراً ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (٦٤) ﴾ [الإسراء]

وهو سبحـانه يُحذِّرنـا أنْ يأخذنـا الغرور بهذه الحياة ، فـالإنسان بدون منهج الله يسبـح فى بحر الغـرور والتكبُّر ، ومعنى الغرور أنْ يغـترّ فيعزل النعمة عن المنعم وينسبها لنفسه كما فعل قـارون فـاغترَّ بماله وعلمه .

واستخـدام الحـق سبحـانه (إنْ) ثم (إلاَّ) هذا لتأكيد أن الكافرين فى غرور ، وليس لحالهم وجهٌ آخر لأنهم فى الحقيقة يغرُّون أنفسهم ويخدعونها ، يغترون بدنيا زائلة وبآلهة مُدَّعاة موهومة لا تنفع ولا تضر .

يغرُّهــم الشيطــان ﴿وَمَـا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَـانُ إِلَّا غُـرُورًا (٦٤) ﴾ [الإسـراء] ولكن الشيطـان لا يستطيـع أنْ يغُرَّ بوعوده إلا صـاحب الغـرَّة والغفلة ، ومنها الغرور أى يزيِّن لك الباطل فى صورة الحق فيقولون : غرَّه .

وأنـت لا تستطيـع أبداً أنْ تصور لإنسان الباطل فــى صورة الحق إلا إذا كان عقلُه قـاصراً غـافلاً ، لأنه لو عقل وانتبه لتبيَّن له الحق من البـاطل ، إنما تـأخذه على غرَّة من فكره ، وعلى غفلة من عقله .

والغرور يوضحه لنا الشاعر[1] وهو يخـاطب محبوبته ، فيقول :

أَفَاطِمُ مَهْلاً بَعْضَ هَذَا التَّدلُّلِ   وَإِنْ كُنْتِ قَدْ أَزمَعْتِ صَرْمِى[2] فَأَجمِل

أَغرَّكِ مِنِّى أَنَّ حُبَّكِ قَاتِـلى   وَأَنَّكِ مَهْمـا تَأْمُـرِى القَلْـبَ يَفْـعلِ

(١) هو امرؤ القيس بن حُجر بن الحارث الكندى ، أشهر شعراء العرب ، يمانى الأصل ولد بنجد عام ١٣٠ قبل الهجرة ، كان أبوه ملك أسد وغطفان وأمه أخت المهلهل الشاعر ، فلقنه المهلهل الشعر فقاله وهو غلام . ويُعرف امرؤ القيس بالملك الضليل لاضطراب أمره طول حياته ، وذى القروح لما أصابه فى مرض موته توفى عام ٨٠ قبل الهجرة عن ٥٠ عاماً .

(٢) الصرم : القطع البائن . والصرم : الهجران . [لسان العرب - مادة : صرم] والبيتان من معلقة امرئ القيس وهي من بحر الطويل أولها :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فمعنى غرَّك : أدخل فيك الغرور بحيث تقبل على الأشياء وتتصرف فيها فى كَنَف هذا الغرور وعلى ضوئه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟(١) فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ ﴾

فمَـنْ هذا الذى يُطعمكم ويسقيكم ويأتى بأقواتكم إنْ أمسك رزقه عنكم ، مَنْ يرزقكم إنْ حبس رزقه عنكم ؟ فمَن الذى يرزقكم سواه ؟ فهل أحد من تلك الآلهة يرزقكم إنْ أمسك الله رزقه عنكم ؟

فـلا أحـدَ يعطى ويمنـع ويخلق ويـرزق وينصـر إلا الله عز وجـل ، فالله هو يعطيكـم منافع الدنيا ، وهـو سبحانه الذى يعطيكم أسبـابَ رزقه من الأمطار وغيرها أو إيقاف الهواء فلم تجر الرياح ، أو جَعْل الماء غوراً .

وسيأتـى قوله تعالى فى آخر سورة الملك ﴿ قُـلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ (٣٠)﴾ [الملك]

قوله (أمسك) مادة الميم والسين والكاف تدل على الارتباط الوثيق ، فالذى يجعـل الإنسـان متصلاً بالشيء هو ماسكه وتقول (مسـك) و (أمسِك) وتقول (استمسـك) و (تماسك) وكلها مادة واحـدة . وقوله الحق ﴿ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ (١٧٠) ﴾[الأعراف] مبالغة فى المسك .

فـــ (أمسك) منع رزقه والرزق هنا منسوب لله عز وجل ، ونلحظ أن كلمة (رزقـه) وردت فى القـرآن أربع مرات ، مرتين منها مضافة إلى الإنسان يقول

---

(١) لجَّ فى الأمر: تمادى فيه وألحَّ واستمرَّ. قال تعالى : ﴿ لَلَجُّوا فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥)﴾ [المؤمنون] أى : لتمادوا واستمروا .

تعالى : ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ[1] عَلَيْهِ رِزْقُهُ (٧) ﴾ [الطلاق] ، وفى سورة الفجر يقول سبحانه : ﴿ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ (١٦) ﴾ [الفجر]

ومرتان مضافة إلى الحق سبحانه ، والمرتان في سورة واحدة هى سورة الملك ، قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ (١٥) ﴾ [الملك] ويقول أيضاً : ﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ (٢١) ﴾ [الملك]

فالرزق رزقُ الله سبحانه ، ووردت هنا في سورة الملْك مضافةً لله عز وجل ، وهذا يناسب أنَّ بيده سبحانه الملك : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ (١) ﴾[الملك] فبيده سبحانه كلّ شيء ، وهو القادر على كل شيء .

وحين نتكلم عن الرزق يظن كثيرٌ من الناس أن الرزق هو المال ، نقول له : لا.. الرزق هو ما يُنتفع به فالقوة رزق ، والعلم رزق ، والحكمة رزق ، والتواضع رزق ، وكلُّ ما فيه حركةٌ للحياة رزق .

ومن الرزق المطر وما ينتج عنه وينبت من الأرض ، يقول تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢) ﴾ [البقرة]

فالمطر ينزل من السماء فينبت به الزرع والثمر وهذا رزقٌ لنا ، والرزق هو ما يُنتفع به وليس هو ما تحصَّل عليه ، فالمال جزء من الرزق ، والصحة رزق، والولد رزق ، والطعام رزق ، والبركة فى الرزق ، وكلُّ نعمة من الله سبحانه هى رزق .

---

(١) قدر الله الرزق يقدره : جعله ضيقاً على قدر الحاجة لا يزيد ومنه قوله تعالى : ﴿ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ.. (١٦) ﴾ [الفجر] أى ضيقه وجعله على قدر الحاجات الضرورية لا يزيد عليها . [القاموس القويم ١٠٢/٢].

والحق سبحانه يلفتنا بقوله : ﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ (٢٢) ﴾ [البقرة] إلى أن الرزق يأتى من أعلى ، وذلك مثل قوله : ﴿ وَفِى السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) ﴾ [الذاريات]

ولذلك قال بعض العلماء هنا أن الرزق المقصود هنا ﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (٢١) ﴾ [الملك] هو المطر ، فمَنِ الذى يرزقكم مطراً إنْ أمسك الله ماء السماء عنكم .

والبعض يقول : إنما ينزل المطر بقوانين الكون ، فيلفتنا الله تبارك وتعالى إلى خطأ هذا الكلام بأنْ تأتى مواسمُ جفاف لا تسقط فيها حبة مطر واحدة لنعلم أنَّ المطر لا يسقط بقوانين الكون ولكن بإرادة خالق الكون ، مقنن القوانين .

فإذا كانت القوانين وحدها تعمل ، فمَنْ الذى عطَّلها ؟ ولكن إرادة الخالق فوق القوانين إنْ شاءت جعلتْها تعمل ، وإنْ شاءتْ جعلتْها لا تعمل ، إذن فكلُّ شيء فى الكون باسم الله هو الذى سخَّر وأعطى ، وهو الذى يمنح ويمنع .

والحق سبحانه لم يحكمنا فى قضية الخَلْق الأولى بشيء واحد بأنْ يجبرنا على كلِّ شيء ، بل جبرنا سبحانه بأنه لم يُدخل أسبابنا ولا حركتنا فى كثير من الحركات التى تترتب عليها الحياة ، فلم يجعل الشمس بأيدينا ولا القمر ولا الريح ولا المطر .

كلُّ هذه الأسباب جعلها بيده هو ، لماذا ؟ لأن هذه الأسباب ستفعل للمخلوق قبل أنْ تكون له قدرة ، هذه الأسباب تفعل للإنسان قبل أنْ تُوجد له حياة ، لتمهد للحياة التى يهبك اللهُ إياها .

فلو ترك اللهُ كلَّ هذه الأشياء لأسباب الإنسان لتأخرتْ هذه الأشياء إلى أنْ يُوجد للإنسان إرادةٌ ، وتُوجد له قدرة وعلم .

ومن عظيم حكمة الله سبحانه ﴿ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ (٢١) ﴾ [الزمر] ، فجعل الله للحياة مسارب فى الأرض حتى تستطيع البلاد ذات الحرارة الشديدة الوصول إلى المياه الجوفية ولا تتعرض المياه المنتشرة فى مسطحات كبيرة للتبخر .

لقد أخفى اللهُ جزءاً من المياه فى الأرض لصالح الإنسان ، وفى البلاد الحارة نجد الملح واضحاً على سطح التربة دليلاً على أن الحق سبحانه وضع قانون تقطير المياه العَذْبة لتكون صالحة للشرب والزراعة .

وهو سبحانه الذى أنزل من السماء ماء ، وليس لأحد من خَلْقه أى دخل فى هذا ، لأن الماء إنما يتبخر دون أنْ يدرى الإنسان ، ولم يُعرف ذلك إلا منذ قرون قليلة ، وعرفنا كيف يتكوَّن السحاب من البخار ثم ينزل المطر من بعد ذلك .

فلا دخْلَ للإنسان بهذا الأمر ، لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً (٦٣) ﴾ [الحج]

ولكن هل استقبل الكافرون معطيات الله لنا فى الكونِ بالإيمان أم عتَوْا وتجبَّروا وتكبَّروا عن أنْ يؤمنوا ، يقول تعالى : ﴿ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (٢١) ﴾ [الملك]

كلمة (بل) للإضراب فهى تنفى ما قبلها وتثبت ما بعدها ، فالمعنى أنهم لم يؤمنوا ولم يسلكوا ما يقتضيه ما اطلعوا عليه من بعثات الرسل ، بل أضربوا عن هذا وذهبوا إلى سلوك العُتو والنفور .

فـ (بل) حرفٌ يفيد الإضراب عن الكلام السابق ، وتقرير كلام جديد يُثبت الحكم للكلام بعدها .

﴿ بَلْ لَجُّوا (٢١) ﴾ [الملك] أى دخلوا دخولاً أدَّى إلى تماديهم فى العتو والنفور وأبَوْا غير هذا ، فهم لا يعتبرون ولا يتفكرون بل لجوا فى طغيانهم وتماديهم وتباعدهم عن الإيمان .

فـ(لجوا): تقحَّموا في المعاصي، واللجاج: تقحُّم الأمر مع كثرة الصوارف الواضحة عنه. واستمروا في طغيانهم وإفكهم وضلالهم، فهم داموا على اللجاج والعناد.

﴿ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ(٢١)﴾ [الملك] والعتو الكبرياء والإباء، وعتوا يعني أبـوْا وعصـوْا واستكبروا. وهذا مُـرودٌ منهم وبلوغ الغاية مـن الفساد، وعتوْا: بالغوا في الظلم والتحدى وتجاوزوا الحدود.

والعاتـى الذى بلـغ فى الظلم الحدّ مثل الطاغوت الـذى إنْ خاف النـاسُ منه انتفش وتمادى وازداد قوة.

والعُتـو: الكفـر والطغيانِ والتجبُّر والإفساد كثـيراً: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَـا لَـوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَـرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِـي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (٢١) ﴾ [الفرقان]

فاستكبروا وحاولوا أنْ يجعلوا أنفسهم فوق قدرهم، وكلّ إنسان منَّا له قدْرٌ محدود.

والنّفـور: الكفـور والتباعـد عن الإيمـان والنفور من الحـق والاستكبار عن اتبـاع الإيمـان، فالعتو هو التمادى فى الكفـر، والنفور هو التباعد عن الحق، فقد حملهم اللجاج على الكفر والنفور عن الحق.

وهـل ينفـر الإنسانُ من الحـق والإيمان؟ ذكر الله هذا فقال تعـالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِـرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِـرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥) ﴾ [الزمر]

كلمة ﴿ اشْمَأَزَّتْ (٤٥) ﴾ [الزمر] يعنى نفرت، والإنسان حينما يحس أو يدرك شيئـاً لا يحبه يشمئـز يعنى يظهر على سحنته الامتعاض ثم تحدث منه نفْرة وقشعريرة كئيبة ثم ينصرف عن هذا الشيء، كذلك حالُ هؤلاء لما سمعوا ذكر الله وحده نفرتْ نفوسهم وانقبضوا عن توحيد الله.

واشمئزاز القلوب أمر غيبيّ ينضح على الوجه بالانفعال ، وقد قال تعالى أيضاً : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا(١) فِي هَـٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤١) ﴾ [الإسراء]

فبدل أنْ يذكروا ويعودوا إلى جادة الصواب ازدادوا إعراضاً ونفوراً ، ولكن لماذا نفروا ؟ لأنك أتيت لهم بما يُخوِّفهم ويُزعجهم ، فهم يُولُّون مدبرين فى خوف ونفور .

والنفور الانفكاك عن الشيء بكُره . يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَـٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَـٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا (٦٠) ﴾ [الفرقان]

بل إنَّ الحق سبحانه يُعطينا صورة لهذا النفور عن الإيمان والتذكرة ، فيصف الحق سبحانه إعراضهم فيقول : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ(٢) مُسْتَنْفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ(٣) (٥١) ﴾ [المدثر]

فكان القياس ألاَّ يُعرضوا عن التذكرة ، وهم لم يُعرضوا إعراضاً هادئاً طبيعياً ، بل أعرضوا كأنهم حُمر وحشية قد نفرتْ من شيء ما فجأة فتكون ردودُ أفعالها على غير اتساق .

فهم يفعلون الأفعال جزافاً بدون تفكير فى حيثيات الفعل أو عدم الفعل، فهذا ليس عمل العاقلين ، فهذه الحمر الوحشية كأنها فرَّتْ من قسورة ، والقسورة هو الأسد ، فالحُمر تنفر من الأسد مذعورة مستنفرة .

---

(١) ولقد صرَّفنا : أى بيَّنا . بأنواع تصاريف الكلام من الخبر والعِبر وضرب الأمثال والأمر والنهى والوعظ والزجر . وضربنا لهم مثلاً من كل جنس.

(٢) الحُمر : جمع حمار والمقصود به الحمار الوحشى أو المخطط لأن الله قال بعدها ﴿ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (٥١) ﴾ [المدثر] والقسورة هو الأسد فالحق سبحانه يتحدث هنا عن بيئة برية ، أما الحمار الأهلى فقد ذكره الله فى آيات أخرى ﴿ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا.. (٥) ﴾ [الجمعة] ولما جمع الحمار الأهلى قال حمير ﴿ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩) ﴾ [لقمان] . عادل أبو المعاطى.

(٣) القسورة : الأسد . [القاموس القويم ٢/١١٥] وللكلمة معانٍ أخرى ذكرها ابن منظور فى اللسان (مادة قسر) : فقال ابن الأعرابى : القسورة الرماة من الصيادين كذا قاله ابن الأثير. فكأن الحُمر هنا فرت من الصيادين وسهامهم .

فهم فارُّون أمام الدعوة ، لا يلوون على شيء سائرين على غير هُدَى ، تجدّ فى هربها لا تلوى على شيء تبغى الفرار .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿٢٢﴾ ﴾

يعطينا الحق سبحانه هنا مقابلة ويعقد مقارنة بين صنفين من الناس ، الأول يمشى مُكباً على وجهه قد تنكّب طريق الحق واستبدل به الضلال والزيغ عن الحق ، والصنف الثانى مَنْ يمشى على صراط مستقيم .

ولكن الحق سبحانه يعقد هذه المقارنة فى صورة استفهام يسأله ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٢)﴾[الملك] فأيهما أهدى منهما وقد سلك الهداية ؟

والاهتداء سبيل واحد لا غير هو منهج الله تعالى وصراطه المستقيم فللهداية طريقٌ واحد أوضحه رسول الله ﷺ بقوله : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»[1].

أما طرق الضلال فمتعددة ومناهجه مختلفة ، فللضلال ألف طريق ، وهذا واضح فى قول الحق سبحانه : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ (١٥٣)﴾ [الأنعام]

والنبى ﷺ حينما قرأ هذه الآية خطَّ للصحابة خطاً مستقيماً ، وخطَّ حوله

(١) أخرجه ابن أبى عاصم فى كتاب السنة (١٥) وقال الألبانى فى (ظلال الجنة فى تخريج السنة ١٢/١): إسناده ضعيف رجاله ثقات غير نعيم بن حماد ضعيف لكثرة خطئه ، والحديث أخرجه الحسن بن سفيان فى الأربعين له (ق ٦٥/١).

خطوطاً متعرِّجة ، ثم أشار إلى الخط المستقيم وقال : « هذا ما أنا عليه وأصحابى »[١].

إذن الهداية طريق واحد ، وللضلال ألفُ مذهب وألف منهج ، لذلك لو نظرتَ إلى أهل الضلال لوجدتَ لهم فى ضلالهم مذاهب ، ولكلٍّ واحد منهم هواه الخاص فى الضلال .

ويقول تعالى : ﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ[٢] زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (٩٧) ﴾ [الإسراء]

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : يُحشر الناس يوم القيامة ثلاثةَ أصناف : صنف مشاة ، وصنف ركبان ، وصنف على وجوههم، فقالوا : يا رسول الله وكيف يمشون على وجوههم ؟ قال : إنَّ الذى أمشاهم على أرجلهم قادر على أنْ يُمشيهم على وجوههم ، أما إنهم يتقون بوجوههم كل حدب وشوك »[٣].

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٤١٤٢ ، ١٥٢٧٧) عن ابن مسعود وعن جابر بن عبد الله وأخرجه ابن ماجه فى سننه من حديث جابر (١١) قال : كنا عند النبى ﷺ فخط خطاً وخط خطين عن يمينه وخط خطين عن يساره ثم وضع يده فى الخط الأوسط فقال : « هذا سبيل الله » ثم تلا الآية .

أما قوله « ما أنا عليه وأصحابى » . فقد أخرج الترمذى فى سننه (٢٦٤١) عن عبد الله بن عمرو قال رسول الله : « ليأتين على أمتى ما أتى على بنى إسرائيل حذو النعل بالنعل ، وإن بنى إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة ، وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين ملة كلهم فى النار إلا ملة واحدة ، هى ما أنا عليه وأصحابى » .

(٢) كلما خبت : أى كلما أطفئت . قاله مجاهد فى تفسيره (١/٤٤٢) وقال مقاتل بن سليمان : ذلك إذا أكلتهم النار فلم يبق منهم غير العظام وصاروا فحماً سكنت النار وهو الخبت . [تفسير مقاتل ٢/٥٥٢] .

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده (٨٦٤٧) عن أبى هريرة وكذا (١٢٧٠٨) عن أنس بن مالك مختصراً . وأصله عند مسلم فى صحيحه (٢٨٠٦/٥٤) أن رجلاً قال : يا رسول الله كيف يُحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال : أليس الذى أمشاه على رجليه فى الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة ؟ .

ومـا العجب فى ذلك ؟ ونحن نرى مخلوقات الله ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥) ﴾ [النور]

ألم تَـرَ الثعبان كيـف هـو سريعٌ فى مشيته خفيف فـى حركته ، فـالذى خلق قـادرٌ أنْ يُمشى مَـنْ ضلَّ فى القيامة على بطنه ، لأن المسألة إرادةُ مريد ليُوقع بهم غاية الذلة والهوان .

وياليتهـم تنتهـى بهم المهانة والمذلَّة عنـد هذا الحد ، بـل ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا (٩٧) ﴾ [الإسراء]

وهـذا استطراق لوسائل الإهـانـة ، ففضلاً عن مشيهم على الوجوه فهم عُمى لا يروْن شيئاً ولا يهتدون ، وهم صُم لا يسمعون نداءً ، وهم بُكْم لا يقدرون على الكلام .

وهـذه صفاتُ الكافر فـى الدنيا أيضاً ، وهو المكبّ علـى وجهه فى الضلال يسـير علـى غير هدى ، يقول تعالى : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) ﴾ [البقرة]

والعمـه عمى البصيرة ، ويعمهون أى يتخبَّطـون ، فالعمه ينشأ عنه التخبُّط سـواء التخبُّـط الحسى من عمى البصر ، أو التخبُّـط فى القيم ومنهج الحياة من عمى البصيرة .

والعمـه أيضاً هو التردد والحيرة ، فهم فـى طغيانهم يترددون ، وهم فـاقدو القلب والبصيرة ، فهم مضطربون فى اختياراتهم ، فهم يتحيَّرون ويعمون عن الرشْد والصواب ، فلا يميزون بين خير وشر ، ولا يعرفون أين يذهبون ؟

وهـم ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨) ﴾[البقرة] فمنـافذ الإدراك عندهم لا تعمـل ، فهـم لا يـروْن آيـات الله ويقين الإيمـان ، ولا يسمعون آيـات القرآن

ويعقلونها ، فقد سُدَّتْ عليهم جميع منافذ الإدراك .

ومع صممهم وبكمهم تجدهم يُولُّون مدبرين ، يقول تعالى : ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢) ﴾ [الروم] يعني : أعطوك ظهورهم . إذن : لم يعُدْ لهم منفذ للتلقي ولا للإدراك فهم صُم بُكم .

وبالإدبار تعطلت أيضاً حاسة الصبر ، فلا أملَ في مثل هؤلاء ، ولا سبيلَ إلى هدايتهم ، والدلالة على الطريق والهداية إليه لا تتأتَّى مع العمى خصوصاً إذا أصرَّ الأعمى على عماه .

فهو ﴿ يَمْشِي مُكِبًّا (٢٢) ﴾ [الملك] في الضلالة والكفر أعمى القلب ، فهو مُطرق إلى هوى نفسه بغير هدى من ربه ، لا يبصر ما بين يديه وما عن يمينه وشماله . فـ (مُكباً) أي مُطرقاً إلى الأرض .

والمقصود هنا أنه الكافر قد أكبَّ على معاصي الله في الدنيا ، فهذا يحشره الله على وجهه . فقيل : يا نبي الله كيف يُحشر الكافر على وجهه ؟ قال : إنَّ الذي أمشاه على رجليه قادر أنْ يحشره يوم القيامة على وجهه[1].

فالكافر يمشي ضالاً في الظلمة أعمى القلب لا يبصر موضع قدميه ، راكباً رأسه في الضلالة والجهالة ، أعمى القلب والعين ، لا يبصر يميناً ولا شمالاً .

و ﴿ مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ (٢٢) ﴾ [الملك] هو انتكاسٌ وارتكاسٌ لخلْقة البشر ، لأن الله عز وجل إنما خلق الإنسان ﴿ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ﴾ [التين] والله خلق كلَّ ذي روح مُكباً على وجهه إلا الإنسان ، خلقه الله مديدَ القامة يمشي على قدميه منتصبَ القامة ، يتناول مأكوله بيده .

وقد بيَّن الحقُّ سبحانه أنَّ الكافرين هم كالأنعام التي تأكل وتشرب ، بل إن

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٣٩٢) وعبد بن حميد في مسنده (١١٨١) وابن حبان في صحيحه (٧٣٢٣) ومسلم في صحيحه (٢٨٠٦/٥٤) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

الأنعامَ أفضلُ منهم ، فالأنعام تقوم بمهمتها فى الحياة ، بينما هم لا يقومون بمهمة العبادة .

ويقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَـٰئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَـٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩) ﴾ [الأعراف]

والأنعام ليست ضالة لأنها محكومةٌ بالغريزة لا اختيارَ لها فى شيء ، لكن الكفار الذين ذرأهم ربُّنا لجهنم من الجن والإنس ، لا يعرفون ربهم بينما الأنعام والجمادات والنباتات تعرف ربها ، لأن الحق سبحانه يقول : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ (٤٤) ﴾ [الإسراء]

وقد سأل أهلُ قريش الكافرون بعضَ أحبار اليهود أيهم أهدى هم أم محمد ، يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ[1] وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَـٰؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١) ﴾ [النساء]

فقال بعض سادة قريش : أنتم أهل الكتاب وأهل العلم القديم فأخبرونا عنا وعن محمد ، فقال الأحبار : ما أنتم وما محمد ؟ فقال سادة قريش : نحن ننحر الكوماء[2] ونسقى اللبن على الماء ونفكّ العانى ونصل الأرحام ونسقى الحجيج ودين محمد الحديث . فقال الأحبار : أنتم خيرٌ منه وأهدى سبيلاً [3].

فاليهود قالوا : إن عبدة الأصنام أهدى من رسول الله ﷺ وأتباعه : قالوا

---

(١) الجبت بكسر الجيم : كل ما عُبد من دون الله كالصنم والكاهن ونحو ذلك . [القاموس القويم ١/ ١١٥] قال الجوهرى : وهذا ليس من محض العربية لاجتماع الجيم والتاء فى كلمة من غير حرف ذولقى . [اللسان – مادة : جبت] .

(٢) الكوماء : الناقة العظيمة السنام . وهى المرتفعة السنام . [غريب الحديث للقاسم بن سلام ٣/ ٨٤] والزمخشرى فى كتاب [الفائق فى غريب الحديث والأثر ١/ ٣٨٨] .

(٣) أخرجه ابن جرير الطبرى فى تفسيره (٩٧٨٩) وعزاه السيوطى فى الدر المنثور (٢/ ٥٦٢) للطبرانى والبيهقى فى دلائل النبوة من طريق عكرمة عن ابن عباس . والعانى : الأسير .

ذلـك رغـم أن كتبهم قد ذكرتْ لهـم أنَّ رسول الله سيأتـى بالدين الخاتم ، حتى إنهـم كانـوا يقولون لأهل المدينـة من المشركين : لقد أطلَّ زمـانُ نبيٍّ سنتبعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم(١).

وهنـا السؤال مستمر إلى يـوم القيامة : ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٢)﴾ [الملك]

فأيُّهما أهدى ؟ الكافر الذى تمرَّد على خالقه وعصى ويسير وجهُهُ إلى الأرض ، كمَنْ أخلد إلى الأرض ، هل هذا يستوى مع مَنْ يمشى سوياً على صراط مستقيم ؟

و ﴿ سَوِيًّا (٢٢)﴾[الملك] أى مُسْتـوياً غير ذى عـوَج ، والحق سبحانه يصف هنـا الإنسان المتبع للإيمان بأنه يمشى سويـاً ، وأحياناً يصف الحق سبحانه الطريـق نفسـه والصراط أنه سوىّ ، يقول تعالى : ﴿ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣)﴾ [مريم]

والصراط السوى هو الطريق المستقيـم الذى يُوصِّلك للغايـة بأيسر مشقة وفـى أقصر وقت ، وهو الطريق الذى لا التواءَ فيه بحيث يكون أقربَ المسافات إلى الهدف ، فالطريق إذا التوى انحرف عن الهدف .

ومـا هو الصـراط ؟ إنه الطريـق الموصِّلـة إلى الغاية ، والصـراط المستقيم هـو أقصـر الطـرق إلى تحقيق الغايـة ، فأقصر طريق بين نقطتـين هو الطريق المستقيم ،ولذلك إذا كنتَ تقصد مكاناً فأقصرُ طريق تسلكه هو الطريق الذى لا اعوجاجَ فيه ، ولكنه مستقيم تماماً .

والبُعْد عن الطريق المستقيم لا يبدأ بانحراف كبير ، بل بانحراف صغير جداً، ولكنه ينتهى إلى تباعد كبير .

ويكفـى أنْ تراقب قضبان السكـة الحديد عندما يبدأ القطار فى اتخاذ طريق

---

(١) أورده الطبرى فى تفسيره (٢/ ٣٣٣) فى قوله تعالى : ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا.. (٨٩)﴾ [البقرة] .

غير الذى كان يسلكه ، فهو لا ينحرف فى أول الأمر إلا بضعةَ ملليمترات ، أى : أن أول التحويلة ضيق جداً ، وكلما مشيتَ اتسع الفارق وازدادَ اتساعاً .

بحيث عند النهاية تجد أن الطريق الذى مشيتَ فيه يبعد عن الطريق الأول عشرات الكيلو مترات وربما مئات (الكيلومترات) . إذن : فأىّ انحراف مهما كان بسيطاً يُبعدك عن الطريق المستقيم بُعداً كبيراً .

والصراط السوى هو الطريق المستقيم الذى يُوصِّلك للغاية بأيسر مشقة ، وفى أقصر وقت .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ هُوَ الَّذِى أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

أى قُلْ يا محمد أن الله هو الذى أنشأكم ، والحق سبحانه هنا لم يذكر من أى شيء أنشأنا ، ولكنه سبحانه قال فى آيات أخرى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ (٩٨) ﴾ [الأنعام] ، ويقول : ﴿ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا (٦١) ﴾ [هود]

ويقول تعالى : ﴿ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ (١٣٣) ﴾ [الأنعام] والإنشاء هو الإيجاد ابتداءً من غير واسطة شيء ، ويُقال : أنشأ أى أوجد وجوداً ابتداء من غير الاستعانة بشيء آخر ، لذلك لا نقول لمن اخترع : إنه أنشأ . لأنه استعان بأشياء كثيرة ليصل إلى اختراعه .

فقد يكون مستعيناً بمادة أخذها من الجبال ، وبخبرة تجارب صنعها مَنْ سبقوه ، ولكن الحق سبحانه وتعالى هو الذى ينشيء من عدم ، والوجود من العدم قسمان : قسم أوجدته باستعانة موجود ، وقسم أوجدته من عدم محض.

وهذا الأخير هو الإنشاء ولا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى ، والحق سبحانه جلّتْ مشيئته فى الإنشاء ، فهو يُنشيء الإنسان من التقاء الزوج والزوجة .

وإنْ أرجعتَ هذا الإنشاء إلى البداية الأولى فى آدم عليه السلام ، فستجد أن الحق سبحانه وتعالى قد خلقه من نفس مادة الأرض ، والأرض مخلوقٌ من مخلوقات الله .

فمنىُّ الزوج وبويضة الزوجة يتكوّنان من خلاصة الدم الذى هو خلاصة الأغذية وهى تأتى من الأرض ، فسواء رمزت لآدم بإنشائه من الأرض أو أبقيتها فى ذريته ، فكلُّ شيء مردُّه إلى الله .

والإنشاء هو عملية بناء ، والذى خلق قال أنا خلقتك من تراب ، من طين، من حمأ مسنون ، من صلصال كالفخار ، فالماء وُضِع على تراب فأصبح طيناً، والطين تركناه فتغيَّر لونه وأصبح صلصالاً ، الصلصال جفَّ فأصبح حمأً مسنوناً ، ثم نحته فى صورة إنسان ونفخ الحق سبحانه وتعالى فيه الروح فأصبح بشراً ، ثم يأتى الموت وهو نقْضٌ للحياة ، ونقضُ كلِّ شيء يأتى على عكس بنائه .

بناء العمارة يبدأ من أسفل إلى أعلى ، وهدمها يبدأ من أعلى إلى أسفل ، ولذلك فإن آخر مرحلة من رحلةٍ ما هى أول خطوة فى طريق العودة ، فإذا كنتَ مسافراً إلى الإسكندرية ، فأول مكان فى طريق العودة هو آخر مكان وصلت إليه.

أول شيء يخرج من الجسد هو الروح وهو آخر ما دخل فيه ، ثم بعد ذلك يتصلَّب الجسم ويصبح كالحمأ المسنون ثم يتعفَّن فيصبح كالصلصال ، ثم يتبخَّر الماء الذى فيه فيعود تراباً ، وهكذا يكون الموت نقض صورة الحياة متفقاً مع المراحل التى بيَّنها لنا الحق سبحانه .

والحق سبحانه يعطينا وصفاً لإنشاء الإنسان ، فيقول تعالى فى إنشاء

الإنسان فى بطن أمه : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون]

فهو أنشأه فى بطن أمه خَلْقاً تابعاً لأمه فى أطوار ومراحل ، ثم يُنشئه خَلْقاً آخر ونشأة أخرى عند إخراجه كوليد يحيا حياة أخرى لا يعتمد فيها على أحد ؛ كأنه كان تابعاً لأمه فيُخرجه الله خَلْقاً آخر مستقلاً بذاته ، فتكون الرأس إلى أسفل، وهى أول ما ينزل من المولود ، وبمجرد نزوله تبدأ عملية التنفس ، ومن هذه اللحظة ينفصل الجنين عن أمه ، وبالتنفس تكون له ذاتية .

فإذا ما تعسّر خروج باقى جسمه فتكون له فرصة التنفس ، وهذا من لطف الله سبحانه لأن الجنين فى هذه الحالة لا يختنق أثناء معالجة باقى جسمه .

وهو فى كل هذه الأطوار : النطفة ثم العلقة ثم المضغة ثم العظام واللحم ما يزال تابعاً لأمه متصلاً بها ويتغذى منها ، فلما شاء الله له أنْ يُولد ينفصل عن أمه ليباشر حياته بذاته .

والله أنشأنا من عدم ، وسوَّانا على هيئة مستقيمة وعلى أحسن تقويم ، ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) ﴾ [الأعلى]

وهذه التسوية كانت أولاً للإنسان الأول الذى خلقه الله من الطين ، كما قال سبحانه : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) ﴾ [الحجر]

قال تعالى : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ[1] (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ

---

(١) مهين : حقير الشأن لا قيمة له . [القاموس القويم ٢ / ٢٤٣] والمهين : الضعيف ، وماء الرجل ضعيف فأى شيء يؤثر على الحيوانات المنوية فيه ، فتضعف عن تلقيح بويضة المرأة . وتذكير الإنسان بأنه من هذا الماء لئلا يتكبر على من خلقه .

السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (٩) ﴾ [السجدة]

وقد مرَّ آدم عليه السلام في هذه التسوية بالمراحل التي ذكرتْها الآيات الطين ثم التشكيل والتصوير ثم النفخ في الروح ، كذلك الأمر في سلالته يُسوِّيها الخالق عز وجل وتمر بمثل هذه المراحل : من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة ثم تُنفخ فيه الروح .

والله بعد أنْ ينشيء الإنسان ويخلقه من ماء أبيه وبويضة أمه ، فإنه سبحانه يجعل له ﴿ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ (٢٣)﴾ [الملك] فقوله ﴿ وَجَعَلَ (٢٣)﴾ [الملك] فالجعْل غير الخَلْق وغير الإنشاء ، فالخَلْق شيء والجعْل شيء آخر ، فالخَلْق هو إيجادٌ من عدم ، والجَعْل هو توجيه مخلوق لله إلى مهمته في الحياة .

فالله خلق الإنسان وأنشأه إنشاءً ، ولكن ليمارس مهمته في الحياة جعل له سمعاً وبصراً وفؤاداً ، وكذلك خلق اللهُ الشمس والقمر ، ثم جعل أحدهما للضياء ، وجعل الآخر نوراً .

وفي المستوى البشري أنت تجعل الطين إبريقاً ، وقد تجعله جرَّة أو أي شيء آخر من الفخاريات وأنت لم تخلق القطن الذي صُنع منه القماش .

أما الحق سبحانه فقد خلق الإنسان من العدم بل خلق المادة التي خلق منها الإنسان الماء والتراب الذي أصبح طيناً ، ثم جعل له سمعاً وبصراً ليمارس مهمته ، فالجَعْل هو توجيه ما خلق إلى مهمته .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) ﴾ [النحل]

وهذه الثلاثة هي آلاتٌ للإدراك ، ومنافذ للعلم ، فوسيلة العلم تأتي من الحواس ، وسيدة الحواس هي العين ، لأنه من الممكن أنْ تسمع شيئاً من واحد بتجربته هو ، لكن عندما ترى أنت بنفسك فتكون التجربة خاصة بك ، ولذلك

يقال : ليس مَنْ رأى كمن سمع .

وقد أورد سبحانه السمع والأبصار أولاً لأنهما الوسيلتان الأساسيتان ، وأورد من بعد ذلك (الأفئدة) وهى المختصة بالمعانى والقلبيات وغيرها ، فحواسّ الإنسان من سمع وبصر تعطيه القدرة على تكوين الخبرة ، وهى منافذ الإدراك .

فوسائل الإدراك من سمع وبصر وفؤاد ، وما تراه العين هو تجربة الإنسان بنفسه ، أما ما يسمعه الإنسان فهو تجربة كل غَيْرٍ له ، وبذلك يكون السمع أكثر اتساعاً من العين .

والسمع هو وسيلة الإدراك التى تُوجد أولاً فى الإنسان حين يُولد ، ونجد المولود لا يهتز عندما يقترب شىءٌ من عينيه لأنه لا يرى بدقة ، وقد يستمر ذلك لمدة عشرة أيام ، ومن بعد ذلك يبدأ فى الرؤية .

لكن الطفل إذا سمع صوتاً بجانب أذنيه ينفعل ، فحاسَّة السمع هى التى توجد أولاً ، ولذلك يأتى لنا الحق بذلك السمع أولاً ، ومن بعد ذلك الأبصار ثم الأفئدة .

فـ (الجَعْل) هنا هو أنه سبحانه خصَّص جزءاً من خلايا الإنسان ليكون عيناً ، وجزءاً آخر ليكون أذناً ، وجزءاً ثالثاً ليكون لساناً ، وقد رتَّب الحق سبحانه ممارسة هذه الحواس لمهامها . فالأذن تؤدى مهمتها من فور ولادته ، بينما عينه لا تؤدى مهمة الرؤية إلا بعد مدة ، فأولاً يأتى السمع ثم يأتى البصر ، ومن السمع والبصر تتكوَّن المعلومات ، فتنشأ عند الإنسان معلومات عقلية .

فيقولون للطفل مثلاً : إياك أنْ تُقبل على هذه النار حتى لا تحرقك فلا يصدق ، ومنظر النار يجذبه فيلمسها فتلسعه مرة واحدة ، وبعد أنْ لسعته مرة واحدة لم يعُدْ فى حاجة إلى أنْ يتكرر له القول بأنَّ النارَ مُحرقة .

فقد تكوَّنتْ عنده معلومة عقلية ، فأولاً يأتىْ السمع ثم الأبصار ثم تأتى الأفئدة ، فوسائلُ الإدراك العلمى فى الإنسان هى السمع والبصر والذوق واللمس والشَّم ، هذه هى الحواس التى تعطى العلم للإنسان الذى لم يكُنْ يعلم شيئاً .

ولكن لماذا أفرد الحق سبحانه السمع ، وأورد البصر والفؤاد هنا مجموعاً، فقال تعالى : ﴿ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ (٢٣)﴾ [الملك] ؟ فالأذن تستقبل بها أصواتاً متعددة فى وقت واحد ، أما مجال الرؤية فمحدودة ، وأنت حين لا تريد أن ترى شيئاً تُبعد عينيك عنه ، والأصوات تصل إلى أذنك من كل مكان دون أنْ تستطيع منعها .

لذلك يأتى السمعُ مفرداً والأبصارُ متعددة ، لأن هذا يرى شيئاً وهذا يرى شيئاً ، لكنك بالأذن تسمع نائماً أو متيقظاً وتأتيك الأصوات ويتوحَّد المدرَك من السمع ، فهى آلة الاستدعاء والإيقاظ .

والسمع والبصر سيِّدا الحواس ، فآياتُ الكون تحتاج إلى الرؤية ، وإبلاغ الرسل يحتاج للسماع ، وقد لفتنا الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه إلى العجائب فقال : « اعجبوا لهذا الإنسان ، ينظر بشحم ، ويتكلم بلحم ، ويسمع بعظم ، ويتنفس من خرم » وأضاف البعض : « ونشم بغضروف ، ونلمس بجلد، ونفكر بعجين » .

فالإنسان يُولد وكأن مخَّه قطعة من العجين التى تعمل فى استقبال المعلومات من الكون وتخزينها فيه ، وهى التى ستكون ركيزة لتشكيل الفؤاد من بعد ذلك .

وحين نظر العلماء فى معانى الألفاظ قالوا : « النظائر حين تخالف فلا بدَّ من علَّة للمخالفة » فالسمع آلة إدراك ، والبصر آلة إدراك ، فلماذا قال الحق

سبحانـه فـى آلة الإدراك (السمع) . وقال فى الآلة الثانية (الأبصار) ؟ ولماذا جـاء السمـع بالإفراد وجـاء الأبصار بالجمـع ، ولم يأتِ بالاثنـين على وتيرة واحدة؟

والمتكلِّم هو الله تعالى ، وكلٌّ كلمة منه لها حكمةٌ وموضوعة بميزان ، وأنت حـين تسمـع تسمع أى صوت قـادم من أى مكان ، لكنـك بالعين ترى من جهة واحـدة ، فـإنْ أردتَ أنْ ترى ما على يمينك فأنت تتجه بعينيك إلى اليمين ، وإنْ أردت أنْ ترى ما خلفك فأنت تُغيِّر من وقفتك .

فالأذن تسمع بدون عمل منك ، لكن البصر يحتاج إلى عمليات متعددة لترى مـا تريـد ، وأيضاً فالسمع لا اختيارَ لك فيه ، فأنـت لا تستطيع أنْ تحجبَ أذنك عن سماع شيء ، أما الإبصار فأنت تتحكم فيه بالحركة أو بإغلاق العين .

والإنسان مسئول عن كل ما يسمعه بأذنه ويُبصره بعينه ويعتقده بقلبه ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦) ﴾ [الإسراء]

فعليـك أنْ تعرف أيها المسلم أنك مسئـولٌ عن السمع والبصر والقلب واللسان ، ستُســأل عن ذلك يوم القيامة ، لذلك لا يصـح أنْ تتوانى عن إحسان قولك وفعلك ، وبذلك لا يكون هناك خوفٌ عليك فى الدنيا أو الآخرة .

والمسئولية عن سمعك وبصرك ولسانك وحواسّك كلها مسئولية فردية ذاتية ، فـكلٌّ واحد مسئـولٌ عن سمعه وبصره وفـؤاده هو ، وليس مسئـولاً عن أسماع وأبصار وأفئدة الناس وألسنتهم .

ولسانـك إنْ صُنْتـه عن قول السوء والفُحْش صـان كرامتك واحترمك الناس وقدَّروك لحُسْن منطقك ومقالتك ، ولتعلم أنَّ جوارحك كلها ستصبح ألسنةً تشهد عليك بما فعلتَ وأذنبتَ وجرحْتَ فى الدنيا .

يقـول تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَـا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِى أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ (٢١) ﴾ [فصلت]

ستشهد الأرجل والجلود وغيرها من الأبعاض ،لأنها فى الدنيا كانت مقهورة لإرادتى ، أنا أقول ليدى : افعلى كذا ،ولرِجْلى : اسعى لكذا ، وللسانى : سبّ فلاناً.

فالله سخَّر الجوارح وأمرها : يا جوارح أنت خاضعةٌ لإرادة صاحبك فى الدنيا ، لكن في يوم القيامة أيكون لى إرادةٌ على جوارحي ؟ لا . ستتمرد علىَ جوارحى : ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِى أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ (٢١) ﴾ [فصلت]

فجوارح الإنسان من يد ورِجْل وجلد ستنطق يوم القيامة ، فهل تعقلْتَ كيف تنطق اليد ؟ وكيف ينطق الجلد ؟ وكيف تنطق الرِّجْل فى الآخرة ، فالجوارح تنطق لتقيم الحجة على أولئك المذنبين .

فالجوارح كانت هى أدوات المذنبين فى ارتكاب الجرائم ، فاليد هى التى امتدت لتسرق ، واللسان هو الذى نطق قول الزور ، والقلب هو الذى عقد ، والساق هى التى مشتْ إلى المعصية .

والإنسان مُركَّب من جوارح ، وهذه الجوارح لها أجهزة تكوِّن الكُلَّ الإنسانى ، ومدير كل الجسم هو العقل ، فهو الذى يأمر اليد لتمتد وتسرق ، وتمتد لتُربِّت على اليتيم ، والعين تأخذ أوامرها من العقل ، فإما أنْ يأمرها أن تنظر إلى جمال الكون وتعتبر بما تراه من أحداث ، أو يأمرها بأن تنظر إلى الحرام .

فبيدك تستطيع أن تضرب وتعتدى ، وبيدك تنفق وتقيل عثرة المحتاج ، وبرِجْلك تسعى إلى بيت الله ، أو تسعى إلى مجلس الخمر والفساد .

فجوارح الإنسان وطاقاته مُسخَّرة لإرادته، فلسانك تستطيع أنْ تقول: لا إله إلا الله، كما تستطيع أن تقول: لا إله، أو تقول: الله ثالثُ ثلاثة، واللسان مطواع لك لا يعصاك في هذه أو تلك، وما أعطاك الله هذه الحرية وكفل لك الاختيار إلا لأنه سيحاسبك عليها يوم القيامة: أردتَ الخير الذي وجَّهك إليه؟ أم أردتَ الشر الذي نهاك عنه؟

أما يوم القيامة فتنحلّ هذه الإرادة ويبطل سلطانها على الجوارح في يوم ينادي فيه الحق تبارك وتعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر]

يوم ستشهد الجوارحُ على صاحبها وتنطق وتكون كلُّها ألسنة ناطقة، يقول تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤)﴾ [النور]

لقد تحررت الجوارح من قيد الإرادة وجاء الوقت لتشتكي إلى الله وتنطق بكلمة الحق التي كتمتها تحت وطأة الإرادة وقهرها. ومعنى ﴿الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ (٢١)﴾ [فصلت] أن لكل شيء في الكون نُطقاً يناسبه، كما نطقتْ النملة وقالت: ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ (١٨)﴾ [النمل]

ونطق الهدهد، فقال: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢)﴾ [النمل]

وللجوارح نفسها حياةٌ ولها كلامٌ ومنطق لكن لا ندركه نحن، لأن حياتها ليست كحياتنا، والله سبحانه هو الذي جعل لنا هذه الجوارح سمعاً وبصراً وفؤاداً ولساناً.

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (٢٣)﴾ [الملك] وشُكْرنا لله لهذه الجوارح أنْ نصونها عن أنْ نجعلها تأتي بما هو معصيةٌ لله، لا في سمع ولا في بصر ولا في نطق، وأنْ نخزن ألسنتنا عن قالة السوء والفُحْش.

فإذا تحدَّثنا مع الناس فالله سبحانه وتعالى هو الذي أعطى ألسنتنا القدرة

على النطق ، ولو شاء لجعلها خرساء لا تنطق ، وهذا يستوجب منّا الشكر والحمد.

وفى هذه الآية يقطع الحق سبحانه بأننا قليلاً ما نشكر نعم الله علينا ، ولكنه سبحانه يمتنّ علينا فى آية أخرى رجاء أنْ نشكره سبحانه ، يقول تعالى : ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨)﴾ [النحل]

وساعة نسمع (لعلك تشكر) فهذا يعنى أنك إنْ فعلتَ ما أمرك به فستجد أمراً عظيماً ، والأمر الطبيعى يقتضى أنْ تشكر عليه كأنَّ ما فعله الله للإنسان يُوجب عند الإنسان نعمة أخرى لا يمكن أنْ يستقبلها إلا بالشكر .

فالسمع والأبصار والأفئدة هى منافذ الإدراك ، والحق سبحانه يوضح : أنا خلقتُ لك هذه الأدوات للإدراك لعلك تشكر ، أى لعلك تلمح آثارها فى نفسك مما يُربِّى عندك ملكةَ الإدراك للمدركات .

والشكر هو الثناء من المنعَم عليه على المنعِم بالنعمة ، وقول الحق سبحانه ﴿ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ (٢٣)﴾ [الملك] يدلّ على أن هناك مَنْ يشكر من الناس نِعَمَ الله شُكراً عاماً على مجموع النعم ، أو يشكره شكراً خاصاً عند كل نعمة ، ومنهم مَنْ يشكر شُكْراً خاصاً لا عند كل نعمة ، ولكن عند جزئيات النعمة الواحدة .

فعندما يبدأ فى الأكل يقول : بسم الله الرحمن الرحيم ، ويقول بعد الأكل : الحمد لله . وهناك مَنْ يقول عند تناول لقمة واحدة : بسم الله . وعندما يمضغها ويبلعها يقول : الحمد لله لأنها لم تقف فى حَلْقه .

وأيضاً حين نشرب علينا أنْ نشرب على ثلاث دفعات : أول دفعة نقول : بسم الله . وننتهى منها فنقول : الحمد لله . وكذلك فى الدفعة الثانية والدفعة الثالثة.

ومَنْ يفعل ذلك فلا تتأتى منه معصية ، ما دامت آثار شَرْبة الماء هذه فى جسمه لأنها كلها (بسم الله) فتحرسه من الخطيئة ، لأن النعمة الواحدة لو استقصيتها لوجدتَ فيها نعماً كثيرة .

وأنتم حين لا تشكرون إنما تُضيِّقون عليكم أبواب النعم من الله ، لأنكم لو شكرتموه على النعم لزادت النعم عليكم ، يقول تعالى : ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ (٧) ﴾ [إبراهيم] ومن الحمق ألاَّ نشكر .

والشكر لا يكون إلا على النعمة ، فكأنَّ وسائل الإدراك هذه مما تسمعه بأذنك وتراه ببصرك أو تُدركه بفؤادك هى من نعم الله التى يجب أنْ نشكره عليها لأنها أعطتْنا العلم الحسى بعد أنْ كنا لا نعلم شيئاً . فالحق سبحانه يستحق الشكر عليها .

وشاء سبحانه أنْ يترك الشكر للبشر على تلك النعم ولم يُسخِّرهم شاكرين، فكلما سمعتَ صوتاً أو حكمة تحمد الله أنْ جعل لك أذناً تسمع بها ، وكلما أبصرتَ منظراً بديعاً تحمد الله أنْ جعل لك عيناً ترى ، وكلما شممتَ رائحة زكية تحمد الله أنْ جعل لك أنفاً تشم ، وهكذا تستوجب النعم شكر المنعم سبحانه .

ولكى تقف على نِعم الله عليك انظر إلى مَنْ حُرموا منها ، وتأمّل حالك وحالهم، وما أنت فيه من نعم الحياة ولذاتها ، وما هم فيه من حرمان .

والبعض يقول فى معنى ﴿ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (٢٣) ﴾ [الملك] أنه تعالى عبَّر عن عدم الشكر بالقلة ، وهذا الفهم لا يستقيم هنا ، فالله تعالى أثبت لعباده شكراً لكنه قليل ، وربّك عز وجل يريد شكراً دائماً يصاحب كلّ نعمة يُنعم بها عليك .

فساعةَ ترى الأعمى الذى حُرم نعمة البصر يتخبَّط فى الطريق تقول الحمد لله لأنك تعيش وتتقلَّب فى نِعَم الله ، لكن لا تتذكرها إلا حين ترى مَنْ حُرم منها .

فإن أردت أنْ تدوم لك النعمةُ فاعقلها بذكر الله ، فإنْ أردتَ صيانة النعمة فلا تنسَ المنعم لأنه وحده القادر على حفظها وصيانتها ، ولا يُصاب الإنسان

فى النعمة إلا إذا غفل عن المنعم وترك الشكر عليها .

والشكر لله هو أول الحكمة ، لأن مَنْ يشكر تعود إليه ثمرة شكره ، وشكر المؤمن لربه لا ينتهى ، وشُكْرك لنعمة اللسان والنطق بأنْ تصون لسانك وتحفظه عن أنْ ينطلق فى إيذاء الناس والاعتداء عليهم بالقول ، واعلم أن الله قد جعل على لسانك أبواباً ، أسنانك وشفتيْك ، فلماذا تفتح للسانك هذه الأبواب ؟

وعن عمرو بن دينار قال : تكلم رجل عند النبى ﷺ فأكثر فقال رسول الله: «كم دون لسانك من باب ؟ قال : أسنانى وشفتاى . قال : أما كان فى ذلك ما يرد كلامك»[١] .

فإنْ لم تجد خيراً تقوله فاصمت ، وكما يقول لقمان عليه السلام : الصمت حُكْم وقليل فاعله[٢] . ورسولنا الكريم ﷺ : « مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقُلْ خيراً أو ليصمت »[٣] .

ومن حُسْن الصمت أن تكون من عباد الرحمن الذين قال الله فيهم : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣) ﴾ [الفرقان] والجاهل هو السفيه الذى لا يزن الكلام ولا يضع الكلمة فى موضعها ، ولا يدرك مقاييس الأمور لا فى الخَلْق ولا فى الأدب .

---

(١) ذكره أبو حامد الغزالى فى إحياء علوم الدين ، حديث عمرو بن دينار : تكلم رجل عند النبى ﷺ فأكثر فقال : كم دون لسانك من حجاب ؟ فقال : شفتاى وأسنانى . قال : أفما كان لك ما يرد كلامك . قال الحافظ العراقى : أخرجه ابن أبى الدنيا هكذا مرسلاً ورجاله ثقات .

(٢) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥١٩/٦) وعزاه للإمام أحمد بن حنبل عن ابن أبى نجيح قال قال لقمان عليه السلام : الصمت حكم وقليل فاعله . قال الميدانى فى الأمثال : الحكم بضم الحاء الحكمة ومنه ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢) ﴾ [مريم] يعنى أن استعمال الصمت حكمة ولكن قلّ من يستعملها.

(٣) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠١٨ ، ٦١٣٦ ، ٦١٣٨ ، ٦٤٧٥) وكذا مسلم فى صحيحه (٧٤ / ٤٧) الحث على إكرام الجار وكذلك (٧٥ /٤٧) . وتمامه : « ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » .

فإذا خاطبك الجاهل فحذار أنْ تكون مثله فى الردّ عليه كما سفه عليك، بل قرِّعه بأدب وقُل: ﴿ سَلَامًا (٦٣) ﴾ [الفرقان] لتُشعره بالفرق بينكما.

وما أجملَ ما قاله الإمام الشافعي[١] فى هذا المعنى:

إِذَا نَطَقَ السَّفِيهُ فَلاَ تُجِبْهُ ... فَخَيْرٌ مِنْ إِجَابَتِهِ السُّكُوتُ

فَإِنْ كلَّمتَهُ فَرَّجْتَ عَنْهُ ... وَإِنْ خَلَّيْتَهُ كَمَداً يَمُوتُ

فإذا اشتدَّ السفيه سفاهةً وطغى عليك وتجبَّر فلا بدّ لك من ردِّ العدوان بمثله لأنك حلمتَ عليه فلم يتواضع لك وظنَّ حلمك ضعفاً، وهنا عليك أنْ تُريه الفرق بين الضعف وكرم الخلق.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) ﴾

فهو الذى بثَّكم ونشركم فى أنحاء الأرض لتعمر كلها، وتعجب حين ترى أناساً متشبثين بالجبال والصحراء القفر الجرداء، ولا يرضون بها بديلاً، ويتحملون فى سبيل البقاء بها العنت والمشقة، حتى إنك لتقول: لماذا لا يتركون هذا المكان إلى مكان خصب؟

فالخالق عزَّ وجل نثر خيراته فى أنحاء الأرض بالتساوى، فكل قطعة طولية من الأرض فيها من الخيرات مثل ما فى القطعة الأخرى.

وقد رأينا فى اليمن والسعودية والكويت مَنْ صبروا على أقدار الله فى هذه البلاد الصحراوية التى كانت جدباء، رأيناهم فى اليمن بعد أنْ أغرقها سيل العرم.

---

(١) هو محمد بن إدريس الهاشمى القرشى أبو عبد الله، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، ولد فى غزة عام ١٥٠ هجرية، زار بغداد مرتين، وقصد مصر سنة ١٩٩ هجرية وكان عمره ٤٩ عاماً فتوفى بها عام ٢٠٤ هـ عن ٥٤ سنة، كان بارعاً فى الشعر واللغة وأيام العرب والفقه والحديث له كتاب الأم والرسالة والمسند وغيرها.

وقد حكى لنا أهلُ هذه البلاد ما كانوا فيه من الضيق وقسوة الحياة ، ثم جاءتهم عاقبةُ صبرهم وجعل اللهُ سبحانه هذه الجبال وهذه الصحراوات أغنى بلاد الدنيا ، لأنهم رَضُوا فى الأولى بقضاء الله ، فأبدلهم بصبرهم على لأواء الصحراء نعيماً ، لو حُرم منه المنعّمون فى الدنيا لماتوا من البرد .

فبثُّ الخليقة ونَشْرها فى أنحاء الأرض له حكمة أرادها الخالق عزَّ وجل، فـ (ذَرأ) أى خلق وبثّ ونشر ، بأنْ جعله خَلْقاً يتكاثر بذاته ، إما بالحمل للأنثى من الذكر فى الإنسان أو الحيوان والنبات ، وإما بواسطة تفريخ البيض كما فى الطيور .

فالذَّرْء ليس هو مطلق الخَلْق ، بل هو خَلْق بذاته فى التكاثر بذاته ، والحق سبحانه قد خلق آدم أولاً ، ثم أخرج منه النسل ليتكاثر النسل بذاته حين يجتمع زوجان فينتجان مثيلاً لهما .

والحق سبحانه يقول ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً (١)﴾ [النساء]

فـ (بث منهما) أى بث من آدم وحواء وهما اثنان ، والجمع البشرى الذى ظهر من الاثنين سيبث منه أكثر ، وبعد ذلك يبث من المبثوث الثانى مبثوثاً ثالثاً .

وكلما امتددنا فى البث تنشأ كثرة ، وعندما تنظر لأى بلد من البلاد تجد تعداده منذ قرن مضى أقلّ بكثير جداً من تعداده الآن ، مثال ذلك كان تعداد مصر منذ قرن لا يتعدى خمسة ملايين ، ومنذ قرنين كان أقلَّ عدداً ، ومن عشرة قرون كان أقلّ ، ومن عشرين قرناً كان أقلّ .

إذن فكلما امتدَّ بك المستقبل بالتعداد يزيد لأنه سبحانه يبث من الذكورة والأنوثة رجالاً كثيراً ونساء ، وسيبث منهم أيضاً عدداً أكبر .

والبَثُّ والذَّرْء هو الانتشار ، ونلحظ أن الحق سبحانه قال هنا ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا (١) ﴾ [النساء] فالنشر في الأرض خاصّ بالرجل ، فالحق سبحانه يقول : ﴿ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ (١٠) ﴾ [الجمعة]

ويقول سبحانه : ﴿ فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ (١٥) ﴾ [الملك] والأنثى تجلس في بيتها تديره لتكون سكناً يسكن إليها ، والرجل هو المتحرك في هذا الكون ، وهي بذلك تؤدي مهمتها .

ولكن الحق سبحانه لم يقُلْ (رجالاً كثيراً) وسكت ، بل أضاف (ونساء) فالنساء مُتضمّنات في داخل الرجل فهُنَّ شقائق الرجال[1] ، ولكن لسْنَ هُنَّ المطالَبات بالانتشار في الأرض .

والمبثوث في الأرض قسمان : قسم اكتملتْ له القوة وأصبحت له صلاحية في أنْ يحقق أموره النفعية بذاته ، وقسم ضعيف ليست له صلاحية في أنْ يقوم بأمر ذاته ، وهُنَّ النساء واليتامى .

والحق سبحانه يعطينا صورةً لانتشار الإنسان في الأرض ، فيقول تعالى :
﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠) ﴾ [الروم]

فالأصل الذي خُلق منه آدم هو التراب ، والتراب مع الماء يصير طيناً ، والإنسان خُلق من هذا الطين ، فكيف أصبح من لحم ودم وأصبح نسلاً يتناسل ويتكاثر بذاته ؟ هنا تكون الآية : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠) ﴾ [الروم]

فبعد أنْ خلقنا الله من تراب تكاثر الخَلْق وتزايدوا بسرعة في الأرض ، لذلك قال تعالى : ﴿ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠) ﴾ [الروم] فاستخدم الحق سبحانه (إذا) الفجائية .

---

(١) عن عائشة رضي الله عنها قالت : سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يجد البلل ولا يذكر احتلاماً قال يغتسل . وعن الرجل يرى أنه قد احتلم ولا يرى بللاً . قال : لا غسل عليه . فقالت أم سليم : هل على المرأة ترى ذلك شيء ؟ قال : نعم إنما النساء شقائق الرجال » . أخرجه أحمد في مسنده (٢٦١٩٥) .

والخَلْـق يجب أنْ ينتشروا فى الأرضـ أى يأخذوا جميعاً من خيرات الله فى الأرضـ جميعاً ، والنشر معناه تفريق المنشـور فى الحيز ، فهنـاك شيء مطوىّ وشـيء آخـر منشور ، والشيء المطوى فيه تجمع ، والشـيء المنشور فيه تفريق وتوزيع . إذن فحيز الشيء المتجمع ضيق ، وحيّز الشيء المبثوث واسع .

والانتشار يعنى أنْ ينساح البشر فى الأرض لينتظموا فى كل حركات الحياة، وبذلك تعمر كلّ حركة فيها ، والحق سبحانه أمر عباده المؤمنين بالانتشار لأن له هدفاً وغاية ، والهدف والغاية هو السعى وطلب الرزق .

﴿ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ (١٠) ﴾ [الجمعة] والانتشار فى الأرض للسعى فى طلب الرزق يجب أنْ يكون بنظام معين ، بحيث لا يحدث تكدس فى مكان أو زحام ، فى حين يخلو مكان آخر لا يجد مَنْ يعمره ويستنبط خيراته .

والانتشـار هـو الضرب فى الأرض ، ولكنه ليس مجـرد الانتشار فيها ، إنما المـراد العمل والكفـاح واستخراج خيراتهـا ، فالخالق سبحانه نـثر القُوت فى أنحاء الأرض بالتساوى ونثر فيها الخيرات .

لذلـك كل يـوم تعطينا الأرضُ جديداً من نعـم الله ، كنا لا نعرف من خيرات الأرضـ إلا الزراعـة ، فلما تقدَّمت العلوم والاكتشافـات وتطورت أدواته عرفنا المعادن والبترول والكنوز المطمورة فى الأرض .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) ﴾ [الملك] فلا تفهموا أنكم بنشركم فـى الأرض وتفريقكم فيها أنكم تَفلتون منـا ، أو أننا لا نقدر على جمعكم مرة أخرى ، فكما نشرناكم لحكمة نجمعكم لحكمة لا يخرج من أيدينا أحد .

وهـو سبحانه القـادر أن يحشركم وليس لكم اختيار ، والحـق سبحانه هو القادر على أنْ يأتى بك وقد سلب منك الاختيار .

والحق سبحانه هو القائل : ﴿ وَمِنْ آيَاتِه خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (٢٩) ﴾ [الشورى]

والحشر هو الجمع والحشد ، ويوم الحشر هو يوم الجمع أى جمع الناس أجمعين من لدُنْ آدم عليه السلام وإلى أنْ تقوم الساعة فى مكان واحد ، ولغاية واحدة ، وإذا كنا الآن نضجّ من الزحام ونشكو من ضيق الأرض بأهلها ونحن فى جيل واحد ، فما بالك بموقف يُجمع فيه كل الخلائق من آدم إلى قيام الساعة ؟

ورسول الله ﷺ يقول : « يحشر الله الخَلْق ثم ينادى : يا عبادى أحضروا حجتكم ويسِّروا جوابكم ، فإنكم مجموعون مُحاسبون مسئولون ، يا ملائكتى أقيموا عبادى صفوفاً على أطراف أنامل أقدامهم للحساب »[1].

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

وهم يكذِّبون أن الله سيحشرهم وسيجمعهم يوم القيامة للحساب بعد أنْ يكونوا تراباً ، وهذا الإنكار والتكذيب والاستهزاء هو منطق المشركين والملحدين فى كل زمان ومكان ، ولكن وعد الله حَقّ ووعد الله قادم ، وهم يتساءلون بسخرية عن هذا الوعد بالعذاب .

فقولهم عن وقت تحقق هذا الوعد بـ (متى) هو استبطاءٌ منهم لوعد الله بالآخرة والعَرْض عليه سبحانه ، وأنه سيعذبهم بالنار التى تُنضج جلودهم ويبدلهم الله جُلوداً غيرها ، وذلك لأنهم لا يُصدِّقون هذا ولا يؤمنون به .

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥/٤٠٠) وعزاه لابن منده فى التوحيد عن معاذ بن جبل أن النبى ﷺ قال : « إن الله ينادى يوم القيامة يا عبادى أنا الله لا إله إلا أنا أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين وأسرع الحاسبين » الحديث .

فيقول المكذبون بالبعث والحشر ﴿مَتَى هَـٰذَا الْوَعْدُ (٢٥)﴾ [الملك] أى البعث ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥)﴾ [الملك] فى أن هناك بعثاً ، وسمَّوا إخبار الله لهم بالبعث وعداً مع أنه فى حقهم وعيد .

وفرْق بين وعد وأوعد : وعد للخير وأوعد للشر ، لكن الله يطمس على ألسنتهم وهم أهل الفصاحة فيقولون : ﴿ مَتَى هَـٰذَا الْوَعْدُ (٧١)﴾ [النمل] ، وهو بالنسبة إليهم وعيد ، لأن إيعاد المخالف لك بشرّ وعدٌ لك بخير .

ووَعْد الله آتٍ ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (١٣٤) ﴾ [الأنعام] ، فالله إذا وعد فلا بد أنْ يتحقق وعده وإذا أوعد فلا بد أنْ يأتى وعيده ، والوعد إذا أُطلق فهو فى الخير ، والوعيد يكون فى الشر .

والغريب أنهم يقولون ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥)﴾ [الملك] ويغفلون عن أن الذى يُخلف الوعد أو الوعيد من الخَلْق فهذا أمر متوقَّع لأنه من الأغيار ويتغير رأيه فلم يعُدْ أهلاً لهذا الوعد ، لأنه ربما يكون قد وعد بشيء كان يظن أنه فى مُكْنته وبعد ذلك خرج عن مُكْنته ، فليس له سيطرة على الأشياء .

لكن إذا كان مَنْ وعد قادراً ولا يوجد إله آخر يناقضه فيما وعد أو أوعد به فلا بدّ أنْ يتحقق الوعد أو يأتى الوعيد ، ولذلك حينما يحكم الله حكماً فالمؤمن يأخذ هذا الحكم قضية مُسلَّمة لأنه لا إله مع الله سيغير الحكم ، وسبحانه ليس من الأغيار .

ومثال هذا قوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا[1] حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (٥) ﴾ [المسد]

وهذا وعيد فى أمر لهم فيه اختيار ومع ذلك لم يُسلموا ، وجاء بعدها ما

(١) الجيد : بكسر الجيم : العنق . وقيل موضع القلادة من العنق ، وقد غلب على عنق المرأة . [لسان العرب – مادة : جيد] .

يؤكد لكل مسلم : إياك أنْ تأخذ هذه القضية مأخذ الشك ، وتقول : قد يتوب أبو لهب هذا وزوجه ويُسلمان ، ألم تتُبْ هند ؟ ألم يُسلم أبو سفيان ؟

لكنه سبحانه عالم بما يصير إليه اختيار أبي لهب واختيار زوجه وإنْ كان كل منهما مختاراً ، ولا يوجد إله سواه ليغير الأمر عما قال ، فلا يوجد إلهٌ آخر ليُعدّل هذا الأمر .

وقد يظن بعض الناس أن الله قد يأتي بما وعد به لكنهم قد يهربون منه ولكن ليس الأمر كما يظنون ، فالوعد آتٍ وأنتم لا تستطيعون الهرب منه ، ولا أحدَ بقادر على أنْ يمنع الله عن تحقيق ما وعد أو أوعد ، ولن تفرُّوا من وعده أو وعيده ، ولن تغلبوا الله أو تفوتوه وتُعجزوه ، فالله غالبٌ على أمره .

والله حين يوعد فهو سبحانه قادر على إنفاذ ما أوعد به ، ولن يفلت أحدٌ منه أبداً ، فوعد الله وعْد مطلق لا إخلالَ به ، لأن الذى يُخل بالوعد هو الإنسان الذى تعتريه الأغيار ، فقد يأتي ميعاد الوفاء بالوعد ، ويجد الإنسان نفسه فى موقف العاجز أو المتغير قلبياً .

لكن ساعة يكون الله هو الذى وعد فسبحانه الذى لا تُداخله الأغيار ، بل هو الذى يُجرى الأغيار ، لذلك يكون وعده هو الوعد الخالص الذى لا توجد قوة أخرى تحول دون أنْ ينفذ اللهُ وعده .

والحق سبحانه يقول : ﴿ اللهُ لَا إِلَـٰهَ إِلا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا (٨٧) ﴾ [النساء]

وكلمة (يجمع) تعنى أنه يُخرجنا مع بعضنا من قبورنا جميعاً ويحشرنا جميعاً أمامه ، وقد تعنى (ليجمعنكم) أى ليحشرنكم من قبوركم لتلقِّى جزاء يوم القيامة .

ثم يقول الحق سبحانه لمحمد ﷺ :

﴿ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٦) ﴾

هنا قال ﴿ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ (٢٦) ﴾ [الملك] ولكن في آية أخرى أمر ﷺ أن يقول ﴿ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ (٣٠) ﴾ [سبأ]

فالميعاد مُقدَّر قد قدَّره الله لا يعلمه إلا الله، لذلك عندما سُئل رسول الله: متى الساعة؟ قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل[1].

وقد قال الحق سبحانه: ﴿ إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ (٣٤) ﴾ [لقمان] فالسؤال عن الساعة أمر غيبي لا يعلمه إلا الله، فهو سؤال لا جدوى منه، لذلك لما سئل رسول الله من أحد الصحابة: متى الساعة؟ قال للسائل: وماذا أعددتَ لها؟[2] فأخذه إلى ما ينبغي له أنْ يسأل عنه ويهتم به.

والكافرون يكذِّبون بالساعة، يقول تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ[3] عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ (٣) ﴾ [سبأ]

وعلم الساعة عند الله تعالى، والساعة لا تعني القيامة فحسب، إنما لكلٍّ منا ساعته لأنه مَنْ مات فقد قامت قيامته، ونحن لا نملك أمر الساعة، فالساعة تأتي بغتة ومفاجئة، وصاخّة طامّة مُرجفة مُزلزلة، فاحذروا أنْ تصيبكم هذه الرجفة وأنتم في غفلة عنها.

---

(١) حديث متفق عليه. وهو حديث جبريل الذي سأل فيه عن الإسلام والإيمان والإحسان ثم سأل عن موعد الساعة. أخرجه البخاري في صحيحه (٥٠، ٤٧٧٧) وكذلك مسلم في صحيحه (٨، ٩، ١٠) وهو حديث طويل.

(٢) عن أنس بن مالك قال: بينما أنا والنبي ﷺ خارجان من المسجد فلقينا رجل عند سدة المسجد فقال: يا رسول الله متى الساعة؟ قال ﷺ: ما أعددت لها؟ فكأن الرجل استكان ثم قال: يا رسول الله ما أعددت لها كبير صيام ولا صلاة ولا صدقة ولكني أحب الله ورسوله. قال: أنت مع من أحببت. أخرجه البخاري في صحيحه (٧١٥٣) وكذا مسلم في صحيحه (٢٦٣٩).

(٣) عزب الأمر يعزب: بعد وغاب وصعب مطلبه. قال تعالى: ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ .. (٣) ﴾ [سبأ] أي لا يغيب ولا يبعد عنه أي شيء، فهو يعلم الصغير والكبير من الأمور والأشياء. [القاموس القويم ١٨/٢].

يقول الحق سبحانه : ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣) ﴾ [الأحزاب]

وقد سُئل رسول الله كثيراً عن الساعة ، والسؤال الذى سُئله رسول الله ﷺ كان مُتوجهاً إلى أمرين : الأول إعجازى لأنهم كانوا يعلمون من كتبهم وأنبيائهم بعض الأمور فيريدون أنْ يُحرجوا بها رسول الله حين يسألونه عنها فلا يجدون جواباً .

وهم يعرفون أن رسول الله أمى لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يجلس إلى معلم أبداً، لكن الحق سبحانه كان يسعف رسوله ويُعلِّمه الجواب فيجيب لهم الجواب الصحيح فيموتون غيظاً ويتمحَّكون فى أى مسألة ليُثبتوا لأنفسهم أن محمداً لا يعلمها .

ثم يسأل اليهود رسول الله عن الساعة ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ (٦٣) ﴾ [الأحزاب]

وهم يسألون عن الساعة يعنى عن يوم القيامة لأنهم ينكرونه ، ومن مصلحتهم ألاَّ يكون هذا اليوم حتى لا يقفوا موقف المساءلة والحساب على ما أجرموه فى الدنيا من ظلم وشرك وعربدة وسفك للدماء وولوغ فى أعراض الناس .

وقضية القيامة والحساب واضحة بالفطرة ، والمنكرون لها هم الذين أسرفوا على أنفسهم ويخافون ما ينتظرهم من العقاب فى هذا اليوم ، ولا يملكون إلا إنكاره وعدم الاعتراف به .

والمعنى ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ (٦٣) ﴾ [الأحزاب] يعنى : أتوجد أم لا توجد ؟ وإذا كانت توجد قالوا : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) ﴾ [الأعراف] فكان ردّ رسول الله على مَنْ سأله عن الساعة:

﴿ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ (٢٦)﴾ [الملك]، ثم عقب هذا بقوله ﴿ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ(٢٦)﴾ [الملك]، فهذه هى مهمتى أنْ أنذركم، فأنا نذير واضح لكم، فمهمتى النذارة والبلاغ.

والنذير هو مَنْ يخبر بشرٍّ لم يأت وقته بَعْد، وقد خصَّ الإنذار لأنهم أهلُ لجاج وأهل باطل وجحود، فيناسبهم كلمة الإنذار دون البشارة.

ففى آيات أخرى قال تعالى: ﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) ﴾ [هود]، والنذير هو مَنْ يخبر بشرٍّ زمنه لم يجئ لتكون هناك فرصةٌ لتلافى العمل الذى يُوقع فى الشر، والبشير هو مَنْ يبشِّر بخير سيأتى إنْ سلك الإنسانُ الطريقَ إلى ذلك الخير.

فالإنذار والبشارة هى أخبار تتعلق بأمر لم يأت، وفى الإنذار تخويف ونوع من التعليم، وهو ﷺ قد نزل عليه القرآن بالنذارة والبشارة.

والإنذار إنما هو بالوحى الذى أوحاه الله إلى نبيه محمد ﷺ: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٥١) ﴾ [الأنعام]

فأنذر بالوحى الذى تتبعه هؤلاء الذين يخشون يوم اللقاء مع الله، والإنذار هو إعلامٌ بشيء مخيف قبل وقوعه لنتفادى أنْ يقع، فالوحى إنذارٌ لهم، والرسل إنما أُرسلوا مبشرين ومنذرين، قال سبحانه: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ (٤٨) ﴾ [الأنعام]

فمهمة الرسل هى البشارة والإنذار فلا تخرجوا بهم أيها الناس إلى مرتبة أخرى أو منزلة ليست لهم فتطلبوا منهم آيات أو أشياء، فالآيات والأشياء كلها من تصريف الحق تبارك وتعالى.

ومهمة التبشير والإنذار هى أنْ يتذكر الناس أن هناك جنةً وناراً، ولذلك

يبشر كل رسول مَنْ آمن من قومه بالجنة ، وينذر من كفر من هؤلاء القوم بالنار .

والتبشير والإنذار يقطع حجة الناس على الله ، يقول تعالى : ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ (١٦٥) ﴾ [النساء] ، فليس للناس على الله حجة بعد الرسل ، وليس لأحد عذر بعد البلاغ .

لذلك حينما يدخل أهلُ النارِ النارَ يخاطبهم ربهم : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ (٧١) ﴾ [الزمر] ، فالله قطع عليهم الحجة حين بعث إليهم رسول الله بمنهج الحق الذى يدلهم على الخير والثواب عليه فى الجنة ، ويحذرهم من الشر والعقاب عليه فى النار .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً[1] سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ (٢٧) ﴾

فلما رأوا يوم الحساب والذى أوعدهم الله به قد اقترب سيئت وجوههم بما رأوه من عذاب الذل والمهانة والإيلام ، وقد خصّ الله الوجوه بالذكر لأن آثار انفعالاتهم لما رأوه إنما تظهر على وجوههم حزناً وقلقاً .

وفى آية أخرى ذكر الحق سبحانه اسوداد الوجه ، قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) ﴾ [آل عمران]

فتسودُّ الوجوه الكافرة ، فما فى داخل النفس إنما ينضح على قالب الإنسان وتظهره ملامحه ، فمَنْ يرى مقعده من النار لا بد أنْ يكون مظلمَ الوجه ، وهؤلاء قد رآهم الناسُ بيضَ الوجوه فى الدنيا ، ولكن يرونهم يوم القيامة

---

(١) زلف إليه زلفة : قرب ودنا ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً .. (٢٧) ﴾ [الملك] أى قريباً وهو وصف بالمصدر بلفظه ويُعرب حالاً أى ذا قرب أى قريباً قرباً شديداً . [القاموس القويم ٢٨٨/١] .

وعلى وجوههم غبرة سوداء وترهقهم قترة .

فوجوههم تسودُّ وتصبح قبيحة المنظر وتضطرب أبصارهم وتتقلّب هنا وهناك ، فهى حين ترى الفزع الذى يخيفها تتقلب ، تنظر هنا وتنظر هنا علَّها ترى ما يُطمئنها أو يُخفِّف عنها ما تجد ، لكن هيهات فلن ترى إلا فزعاً آخر أشدَّ وأنكى .

لذلك تخشع أبصارهم ذُلاً وانكساراً ﴿ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ (٤٣) ﴾ [القلم] ويقول تعالى : ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (٩) ﴾ [النازعات] يعنى : ذليلة منكسرة حيث لا مفرَّ ولا منجى .

ويقول تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (٣) تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (٥) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ (٦) لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (٧) ﴾ [الغاشية]

﴿وَقِيلَ هَـٰذَا الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ(٢٧)﴾ [الملك] وهو توبيخ لهم لما ادعوه من تكذيب يوم الحساب ، أو هو توبيخ لهم من أنهم طلبوا ما أوعدهم الله به ، فقالوا : ﴿ مَتَى هَـٰذَا الْوَعْدُ (٢٥)﴾ [الملك]

فها هو وعدُ الله ، فهذا هو يوم القيامة الذى كنتم أيها المشركون تدعون به أى تدعون بطلانه ، تزعمون أنه لا يأتيكم ، فها أنتم ترونه زلفة أى قريباً منكم .

والحق سبحانه هنا استخدم ثلاثة أفعال ماضية (رأوه) (سيئت) (قيل)، والكلام إنما هو عن مستقبل سيأتى يوم القيامة ، لكنه سبحانه أتى بها وكأنها فى الماضى .

كأن الحق سبحانه يقول : إن هذه الأمور الآتية محققة الوقوع بحيث يصح اعتبارها ماضية ، فالزمن المستقبل بالنسبة للحق سبحانه هو ماض لعلمه سبحانه بما سيحدث فى المستقبل ؛ لأنه سبحانه يعلم الأشياء دفعة واحدة ؛ فلا ترتب لعلمه سبحانه.

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٨) ﴾

قولـه تعالى ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم (٢٨)﴾ [الملك] استخدمه الحق سبحانه فى آيات كثيرة، منهـا : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا[1] إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٧٢) ﴾ [القصص]

ويقول تعالى فى آية أخرى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (٤٦) ﴾ [الأنعام]

وبعدها يقول تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ (٤٧) ﴾ [الأنعام]

فقوله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَكُمْ (٤٧)﴾[الأنعام]يشمل ويضم ضمير المخاطب وهو التاء المفتوحة ، ويشمل أيضاً كاف الخطاب والجمع بين علامتى الخطاب (التاء) و (الكاف) يدل على أن ذلك تنبيه على شيء ما عليه من مزيد .

ومرة يقول الحق (أرأيتم) أى أخبرونى أنتم وأعلمونى إعلاماً يؤكد لى صدق القضية ، ويأتى الاستفهام هنا من مادة (أرى) و (رأى) .

فالحق سبحانه فى معرض تعداد نعمه علينا يقول : (أرأيتم) يعنى : أخبرونى ماذا تفعلون . وهو استفهام معناه التقرير يستخبرهم ليقررهم .

---

(١) السرمد : دوام الزمان من ليل أو نهار . وليل سرمد : طويل . والسرمد : الدائم الذى لا ينقطع . [لسان العرب – مادة سرمد] . قال أبو عبيدة فى مجاز القرآن (٢/١٠٩) : كل شيء لا ينقطع من عيش أو رخاء أو غم أو بلاء دائم فهو سرمد .

﴿ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ (٢٨)﴾ [الملك] والهلاك ضد الحياة . ومعنى (هالك) أى ليس فيه حياة ، والهلاك : الموت .

فـ ﴿ أَرَأَيْتُمْ (٢٨)﴾ [الملك] إنْ أهلكنى الله فأماتنى ومن معى أو رحمنا فأبقانا وأخَّر فى آجالنا . وقد كان الكفار يتمنون هلاك النبى ﷺ وهلاك المسلمين . فأمره الله أنْ يقول لهم : إنْ أهلكنى الله ، وأهلك مَنْ معى أو رحمنا فإنكم لا تنجون من عذاب الله فى كل الأحوال .

فإذا كنتُ أنا كنبى ورسول من الله قد يرحمنى الله وقد يهلكنى ونحن مؤمنون بالله ، فما بالُ مَنْ كفر به سبحانه ؟ من الذى يجيركم من عذاب الله إذا نزل بكم ؟ أتظنون أن الأصنام تجيركم ؟

فلا أحدَ يجير إلا الله ، والحق سبحانه يقول : ﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨)﴾ [المؤمنون]

ومسألة الإجارة لها ثلاثة عناصر : مجير وهو الذى يقبل أنْ يغيثك ويحتضنك ويدافع عنك . ومُجار وهو الضعيف الذى يطلب الحماية . ومُجار عليه وهو القوى الذى يريد أنْ يبطش .

فالحق سبحانه يجير مَن استجار به ، ويغيث مَنْ استغاثه ، والذى يجيرك إنما يجيرك من مُساوٍ له فى القوة فيستطيع أنْ يمنعك منه ، ويحميك من بطشه، فمَنْ ذا الذى يحميك من الله ؟ ومَنْ يجيرك إنْ كان الله هو طالبك ؟

﴿ فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٨)﴾ [الملك] أى عذاب مؤلم . وعندما تسمع صيغة (فعيل) فنحن نأخذها بمعنى فاعل أو مفعول ، لذلك نفهم (أليم) على أنه مؤلم .

ولا بد أنْ نأخذ قوة الحدث بفاعل الحدث ، فالحدث يختلف باختلاف فاعله قوة وضعفاً على المفعول به الذى هو مناط الحدث ، فإذا كان فاعل العذاب هو

الله فلا بدّ أنْ يكون عذاباً أليماً ولا حدود لألمه .

فإذا كان الحدث التعذيبى منسوباً إلى الله وله مطلق القوة والقدرة ، لذلك فالعذاب لن يُطاق ، ولن يجد الظالم مَنْ يدرأ عنه هذا العذاب لأنه لن يجد ناصراً له ولن يجد شفيعاً ، فلن يأتى أحد ويقول : إنّ فلاناً يتعذب فهيا بنا ننصره ، لا يأتى أحد لينصره .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٢٩) ﴾

﴿الرَّحْمَٰنُ (٢٩)﴾ [الملك] من صيغ المبالغة ، والله سبحانه هو رحمن الدنيا ورحيم الآخرة ، والله رحمن بربوبيته لخَلْقه ، فهو سبحانه يمهل العاصى ويفتح أبواب التوبة لكلِّ مَنْ يلجأ إليه .

وهو سبحانه يأتى باسمه (الرحمن) ، والذى يفيد التطوع بالخير ، وكان من الواجب أنْ يقدرُوا هذا الخير الذى قدَّمه لهم سبحانه دون أنْ يكون لهم حَوْلٌ أو قوة .

و (الرحمن) ينعم بالنعم كلها وهو المتولِّى تربية الخلق ، ولو لم يفعل سوى خَلْقهم وتربيتهم ومدّهم بالحياة ومقوماتها لكان يكفى ذلك ليعبدوه وحده ولا يشركوا به أحداً .

والرحمة صفة تحنين للخَلْق ، واختار اسم (الرحمن) ، فمجال التكليف كله الرحمة ، وما نزل المنهج من الله إلا لينظم حياة الناس ويحقق لهم السعادة فى حركة الحياة .

فالرحمانية الإلهية هى الغالبة فى كل التشريع ، ألا ترى قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢)﴾ [الرحمن] فالقرآن الذى نزل لينظم حياة

الناس ويحكمها ويُصلح حركة الحياة ويضع السلام بينك وبين الله ، وبينك وبين نفسك ، وبينك وبين الناس ، هذا القرآن مظهر من مظاهر هذه الرحمانية الإلهية .

والله يجير برحمته مَنْ يشاء ، أما أنتم فلن تتدارككم رحمة الله فلن تجدوا مُجيراً يجيركم من عذاب الله ، والحق سبحانه باختيار اسم (الرحمن) هو ليُطمئن الذين أسرفوا على أنفسهم بالمعاصى أن ربهم رحمن رحيم ، إنْ تابوا إليه قبلهم ، وإنْ وعدهم وعْداً أوفى .

ومسألة الخَلْق تدور فى إطار الرحمانية ، وكان من الواجب أنْ تطيع ، وأنْ تخضع له .

﴿ قُلْ هُوَ الرَّحْمَـٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا (٢٩) ﴾ [الملك] وآمنا به . أى : اعتقدنا وصدَّقنا . ويُقال : آمن بالشيء أى صدَّقه . وآمن بكذا أى صدَّق ما قيل. وقال إخوة يوسف لأبيهم : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) ﴾ [يوسف]

أى لن تُصدِّقنا . وآمن إذا تعدَّت بالباء فمعناها الاعتقاد ، وإنْ تعدت باللام ، فمعناها التصديق ، وإنْ تعدت بغير الباء وغير اللام فمعناها إعطاء الأمان ، مثل قوله تعالى ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَـٰذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِى أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش]

وتجيء أيضاً (آمن) و (أمن) بمعنى الائتمان ، مثل قول الحق سبحانه وتعالى على لسان يعقوب ﴿ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ (٦٤) ﴾ [يوسف]

إذن ، فـ (آمن) إنْ تعدت بالباء فيكون معناها الاعتقاد الإيمانى ، وإنْ تعدَّت باللام فمعناها التصديق ، وإنْ تعدَّت بنفسها إلى الفعل فهى إعطاء الأمان والسلام والاطمئنان ، وإنْ تعدت بالمفعول أيضاً فمعناها القدرة على

أداء الأمانات ، مصداقاً لقوله الحق : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا (٧٥) ﴾ [آل عمران]

فـ ﴿ آمَنَّا بِهِ (٢٩) ﴾ [الملك] اعتقدنا وصدَّقنا ، أما أنتم فكفرتم وكذَّبتم وكفرتم نعمة الله وأشركتم بالله .

ونحن لم نؤمن بالرحمن فقط بل عليه توكلنا ، وقد تقدم الجار والمجرور ، ومعنى ذلك قصْر وحَصْر الأمر والتوكل على الله فحسب ، فلا توكل على سواه، والتوكل الحقيقى أن تعمل الجوارح وتتوكل القلوب ، وكم من عامل بلا توكل فتكون نتيجة عمله إحباطاً .

والمؤمنون يتوكلون على الله ليتولاهم ، وهم لا يتوكلون على مَنْ قد يصبح غداً ميْتاً ؛ ولكنهم يتوكلون على الحى الموجود دائماً ، العزيز الذى لا يُقهر ، القوى الذى لا يُغلب .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) ﴾ [الشعراء] فعزَّته سبحانه ورحمته لك أنت ولمصلحتك ، فتوكل على الذى يحبك ويُقدِّر عملك.
﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً (٣) ﴾ [الأحزاب]

وقد ضرب لنا رسول الله ﷺ مثلاً توضيحياً بتوكُّل الطير ، فقال « لو أنكم توكلتم على الله حقّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً وتروح بطاناً »[1] .

فالطير تسعى على رزقها وتبحث عنه ، فتخرج من وكناتها وأوكارها طلباً للرزق (تغدو خماصاً) فتخرج فى الغدوات ضامرةَ البطن جائعة ، وتعود فى الرواح ممتلئةَ البطن قد شبعتْ من رزق الله .

فالطير استخدمت الأسباب ، فإذا توكلت على الله فاستنفد الأسباب الموجودة

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه (٤١٦٤) وأحمد فى مسنده (٢٠٥ ، ٣٠٧ ، ٣٧٣) والترمذى فى سننه (٢٣٤٤) وقال : هذا حديث حسن صحيح . وهو من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

لك من ربك ، فإنْ عزَّتْ عليك الأسباب فلا تيأس ، لأن لك رباً أقوى من الأسباب لأنه سبحانه خالق الأسباب .

﴿ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٩) ﴾ [الملك]، وفي آية أخرى يقول سبحانه: ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى (١٣٥) ﴾ [طه]

هذا العلم بأصحاب الصراط السوى ويمن اهتدى ممن هو فى ضلال مبين سيحدث ساعةَ تقوم الساعة حين الانصراف إما إلى جنة وإما إلى نار ، ساعتها ستعلمون مَنْ أصحاب الصراط السوى ، نحن أم أنتم ؟

لكنه سيكون علماً لا ينفع ولا يُجدى ، فقد جاء بعد فوات الأوان ، فالوقت وقت الحساب وقد فات وقت الأفعال والأعمال .

ولكن ما هو الضلال ؟ الضلال هو أن تسلك سبيلاً لا يؤدى بك إلى غايتك . والضلال يأتى على معانٍ متعددة ، فقد يأتى الضلال مرّة بمعنى الذهاب والفناء فى الشيء ، مثل قوله الحق ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠) ﴾ [السجدة]

وقد يأتى الضلال مرة أخرى بمعنى عدم اهتداء الإنسان إلى وجه الحق كما قال الحق وَصْفاً لرسوله ﷺ عندما رفض عبادة الأصنام وظلّ يبحث عن المنهج الحق ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (٧) ﴾ [الضحى]

أى أنك يا محمد لم يعجبك منهج قريش فى عبادة الأصنام وظللتَ تبحث عن المنهج الحق إلى أنْ هداك الله فأنزل إليك هذا المنهج القويم ، لقد كنتَ ضالاً تبحث عن الهداية فجاءتْك النعمة الكاملة من الله .

وهناك لونٌ آخر من الضلال وهو أنْ يتعرَّف الإنسان على المنهج الحق ، لكنه ينحرف عنه ويتجه بعيداً عن هذا المنهج مثل قوله الحق : ﴿ وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ (٦٩) ﴾ [آل عمران]

وهـم ﴿ فِي ضَـلَالٍ مُبِينٍ (٢٩) ﴾ [الملـك] أى فى ضلال ظاهـر وهو ضلال واضح صريح يعرفه صاحبه فيقع فى غيبة عن الحق أوتيـه عن الحق ، و﴿ مُبِينٍ (٢٩) ﴾ [الملك] أى محيط بصورة لا يمكن النفاذ منها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾

الحـق سبحانـه جعل لنـا خزانات للماء تحـت الأرض ، لا لنُحـرم منه حين يوجـد ، لكن لنجده حـين يُفقد ، وكوْن الماء ينابيع فـى الأرض يجعلنا نتغلب على مشاكل كثيرة ، فالأرض تحفظه لنا فلا يتبخر ولا نحتاج إلى بناء السدود وغيرها مما يحفظ لنا الماء العذب .

وقـد أعطانـا رسول الله ﷺ مثـلاً فقال : « مثَل ما بعثنـى الله به من الهدى والعلـم كمثـل الغيث الكثير أصـاب أرضاً ، فكان منها نقيـاً - أرضاً خصبة - قبلـتْ الماء ، فأنبتت الكلأ والعشـب ، وكـان منها أجادب أمسكتْ الماء ، فشرب النـاس منـه وسقوا أنعامهـم وزروعهم ، وكـان منها قيعـان لا تمسك ماء ، ولا تنبت كلأ، فذلك مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم »[1].

فهـذه أنـواع ثلاثة من الأرض تمثـل انتفاع الناس بالعلـم ، فالأولى تمسك الماء وتخرج الزرع ، والثانية تمسك الماء حتى ينتفع الناس به ولك أنْ تسأل : فما فائدة الثالثة القيعان التى لا تمسك ماء ، ولا تنبت كلأ ؟ ولماذا خلقها الله إذن ؟

نقول : هذه القيعان هـى التى تسلك الماء فى باطن الأرض ، وصدق الله إذ قـال : ﴿ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢) ﴾ [الحجـر]،

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٩) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٢٨٢) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

وقال سبحانه : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ (٣٠)﴾ [الملك]

إذن هذه القيعان لها مهمة يعرفها مَنْ فطن لهذه المسألة ، وإلا فالله تعالى لم يخلق شيئاً عبثاً أبداً ، كذلك يكون انتفاع الناس بالعلم ، فمنهم مَنْ نرى أثر علمه خيراً عاجلاً ، ومنهم مَنْ يتأخر نَفْع علمه للأجيال القادمة .

ثم إياك أنْ تظن أن الماء حين يسلكه اللهُ ينابيع فى باطن الأرض يسيح فيها أو يحدث له استطراقٌ سائلى يختلط فيه العذب بالمالح ، لا ... إنما يسير الماء العذب فى شبه أنابيب ومسارب خاصة ، يجدونها حتى تحت مياه الخليج المالحة .

وهذه من عجائب الخلق الدالة على قدرة الخالق عز وجل ، وكما يوجد برزخ بين الماءين على وجه الأرض ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (٢٠)﴾ [الرحمن] ، كذلك هناك برزخ للماءين تحت الأرض .

والله قد أعدَّ لنا الأرض صالحة بكلِّ نواميسها وقوانينها ، فالمناطق التى لا ينزل بها المطر يعوضها الله عنه بالمياه الجوفية فى باطن الأرض ، فماء المطر الزائد يسلكه الله ينابيع فى الأرض ويجعله مخزوناً لوقت الحاجة إليه ، وتخزين الماء العذب فى باطن الأرض حتى لا تُبخره الشمس .

يقول تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ (٣٠)﴾ [الملك]

ومعنى ﴿ غَوْرًا (٣٠)﴾ [الملك] أى : غائراً فى الأرض ، فإنْ قلت : يمكن أن يكون الماء غائراً ، ويقول تعالى : ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (٤١)﴾ [الكهف]

والسنتهم تعطلت عن نقل ما فى قلوبهم، وأبصارهم لا ترى آيات الله فى الكون، فآلات إدراكهم لهدى الله معطلة عندهم.

لذلك وصف الحق سبحانه الذين كفروا فقالوا: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ[1] بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٧١) ﴾ [البقرة]

فهناك شيء قد سدَّ منفذ السمع فلا تسمع، ويسبِّب الصمم فهم بُكْم، فالإنسان إنْ لم يسمع فهو لن يتكلم، فالأذن جُعِلت لتسمع السماع المفيد فكأنّها مُعطَّلة لا تسمع شيئاً.

والعقل وُجد ليفكر به، فإذا لم يفكر تفكيراً سليماً منطقياً فكأن صاحبه لا عقلَ له، فالأصمّ حقيقةً خيرٌ من الذى يملك حاسة السمع ولا يفهم بها، لأن الأصمَّ له عذره والأبكم كذلك، والمجنون أيضاً له عذره.

وعملية العقل تنشأ بعد أنْ تسمع وبعد اكتمال الحواس، ولذلك فالإنسان فى تكوينه الأول حركيّ حِسّيَ يرى ويسمع ويتذوق ثم يتكوّن عنده من ذلك القضايا العقلية.

وليس معنى أنهم لا يسمعون أنهم صُمٌّ بجارحة الأذن، فهم يسمعونه بآذانهم ولكنهم لا يفقهون ما يسمعونه، وقد قال الحق سبحانه عنهم: ﴿ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨) ﴾ [النساء]

وساعة تقول فلان لا يفقه، فهذا معناه أنَّ عقله ممنوعٌ من الفهم، أما عندما نقول: لا يكاد يفقه. فهو يعنى: لا يقرب حتى من الفهم، فمنطق العقل والفكر يقودان إلى ضرورة الفهم، وعندما لا يفهمون ذلك فنحن نستعجب من عدم فهمهم، ولا نستعجب من عدم فهمهم إلا إذا كان الأمر المطروح أمامهم

---

(١) النَّعْق: مصدر نعق ينعق وهو صياح الراعى بالغنم وزجره إياها. ووجه الكلام: كمثل المنعوق به فجاء الناعق فى موضع المنعوق به لأنه جعل الكفار بمنزلة الغنم المنعوق بها [جمهرة اللغة لابن دريد ٢/٩٤٣].

يصنع له الحق مسارب فى الأرض لأنه ماء عذب ، حتى يستخدم الإنسان ذكاءه الموهوب له من الله فيستخرج المياه من الأرض ، فالحق سبحانه خلق لنا كل ما يمكن أنْ يحقق لنا استخراج قوت الحياة .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (١٨) ﴾ [المؤمنون] فنأخذ حاجتنا من ماء المطر ، والباقى يتسرب فى باطن الأرض ، كما قال سبحانه: ﴿ فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ (٢١) ﴾ [الزمر]

ومن عجيب قدرة الله فى المياه الجوفية أنها تسير فى مسارب مختلفة بحيث لا يختلط الماء العذب بالماء المالح مع ما يتميز به الماء من خاصية الاستطراق ، والعاملون فى مجال حفر الآبار يجدون من ذلك عجائب ، فقد يجدون الماء العذب بجوار المالح ، بل وفى وسط البحر لأنها ليست مستطرقة ، إنما تسير فى شعيرات ينفصل بعضها عن بعض .

والمياه الجوفية مخزون طبيعى من الماء نُخرجه عند الحاجة ، ويُسعدنا إذا نضب الماء العذب الموجود على السطح ﴿ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ (١٨) ﴾ [المؤمنون] ليكون احتياطياً لحين الحاجة إليه ، فإذا جفَّ المطر تستطيعون أن تستنبطوه .

ثم يُذكّرنا الحق سبحانه بقدرته على سلب هذه النعمة ﴿ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (١٨) ﴾ [المؤمنون] يعنى : سيروا فى هذه النعمة سيراً لن يُعرِّضها للزوال ، وقال هنا : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ (٣٠) ﴾ [الملك]

والماء المعين الماء الجارى الظاهر الذى تناله وسائل الناس العادية فى الاستخراج ، فمَنْ يأتيكم بهذا الماء المعين إنْ ذهب الماء فى الأرض وغار ولم تعودوا قادرين على تحصيله والوصول إليه ؟

ومَنْ يتأمل قوله تعالى ﴿ مَاؤُكُمْ (٣٠) ﴾ [الملك] يجد عجباً ، فالحق سبحانه نسب الماء إليهم وأنه ماؤهم ، ومع هذا فهم غير قادرين عليه ، ولا على الإتيان

به ، بل أنتم تعدونه فى أيديكم .

والله وحده هو القادر أنْ يأتى به ، فهو سبحانه ﴿ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ (١)﴾ [الملك] وإذا كان الله هو القادر ، وإذا كان الله مالك الملك فلم تشركون معه غيره ؟

والحق سبحانه يسألهم وهو سبحانه يعلم إجابتهم ، وأنهم لا بد لهم أن يقولوا : لا يأتينا به إلا الله تعالى ، فقُل لهم : فلم تشركون به مَنْ لا يقدر على أنْ يأتيكم به .

والحق سبحانه مقتدر على كل شيء ، فقد اقتدر سبحانه على الإيجاد واقتدر على الإعدام ، فلا تنفكُّ عنه صفة القدرة أبداً ، أحيا وأمات، وأعزَّ وأذلّ ، وقبَض وبسط ، وضرَّ ونفع .

فالحق سبحانه يُذكِّرنا بقدرته على سلب هذه النعمة ﴿وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (١٨)﴾ [المؤمنون] فسيروا فى هذه النعمة سيراً لا يُعرِّضها للزوال .

والجئوا إلى مسبِّب الأسباب ، وارفعوا أيديكم لربكم ، ونحن إذا استنفدنا الأسباب نطلب من المسبِّب ، ولذلك أتحدى أنْ يستنفد واحد أسبابَ الله الممدودة إليه ويلجأ إلى الله فيرده .

والله قد أرسل محمداً ﷺ بالهدى والعلم ، فمن الناس من يقبل الهدى والعلم فيثمر خيراً لنفسه ولغيره وينتفع بهدايته وعلمه للناس ، فذلك مثل المطر الذى أصاب أرضاً فأنبتت الكلأ والعشب الكثير فانتفع به الحيوان وتغذّى الإنسان على الحيوان .

ومن الناس مَنْ يحتفظ بالهدى والعلم ويُعلِّمه لغيره فيستمر النفع ويستمر أثر الهدى ، كتلك الأرض التى أمسكت ماء المطر فنفع الله عز وجل بها ناساً فشربوا فرعَوْا وسقوا وزرعوا وأسقوا .

ولكن من الناس مَنْ لا يقبل الهدى والعلم ولم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل

هدى الله عز وجل الذى أُرسل به ﷺ ، فذلك مثل الأرض التى هى مجرد قيعان لا تُمسك ماء ولا تُنبت كَلأً ، فلم تنتفع بماء المطر النازل عليها بل ذهبت فى جوف الأرض فى مسالك ومسارب ، فلم ينتفع به نبات أو حيوان أو إنسان

والإنسان على إطلاقه لفى خُسْر ، ولكن مَنْ الذى ينجو من الخسران ؟ وتأتى الإجابة من الحق سبحانه : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [العصر]

فالإيمان والعمل الصالح هو منهج الله وهو الحبل الممدود إلينا ، فمَنْ يعتصم به ينجو من الهاوية ، أما مَنْ كفر فإنه لن ينجو من عذاب الله كافر ، ورحمة الله وفضله هو وسيلةٌ للنجاة ، وبهما ندخل الجنة ، وبدونهما لن ينجو أحد .

والحق سبحانه يهيء لنا طريق النجاة ، ولكن للنجاة شروط من الهلاك ومن الدرك الأسفل من النار ، وهى التوبة وإصلاح ما أفسد والاعتصام بالله وإخلاص دينه لله .

